مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن محمد الميلي
تاريخ الجزائر في القديم والحديث
المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

1

المؤسسة الوطنية للكتاب

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

الرقم التسلسلي
تاريخ الجزائر
T 1 et 2
3e 214.89.01.09

اهداء الكتاب

اذا كـان المتقدمون يهدون للوك أعصارهم نتائج قرائحهم فذلك لأنهم في أزمنة لا ظل فيها لارادة الامة .

اما اليوم ونحن في عصر عمت فيه الديموقراطية كل الشعوب أو كادت وعرفت الشعوب ان ارادة الحاكم انما تتقوى من جبنهم وجمودهم ، وأن الارادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعب فقد صار الكتاب يهدون كتبهم لشعبهم او لعظيم من عظمائه هو رمز عظمة ذلك الشعب .

ونحن نهدي كتابنا هذا الى الشعب الجزائري الى شبابه المفكر ورجاله العاملين المخلصين .

مبارك بن محمد الميلي

إســـداء شكـــر

لا أكون غير معترف بجميل يحتمه علي إخلاصي في هذا التأليف اذا ما نوهت بشأن من لم أعرف منهم غير النشاط النـــادر والعزم الفولاذي في مؤازرتي في هـــذا العمل الذي فيـــه بلاغ للشبيبة عن وطنيتهم •

وما جئت بدعا اذا ما ذكرت باعجاب ما شاهدت منهم أثناء قيامهم بما نيط بعهدتهم بغبطة وسرور • على ان الشقة شاقة والمرتقى صعب •

أولئك هم الذين اذكر منهم — وملء فمي الفخر بهم — الشبان العاملين الاصدقاء : عيسى الزهار الترجمان بالاغواط ، محمد التهامي الترجمان بميلة ، عمر دهينة أحد المعلمين بالمكاتب الفرنسيةوأفذاذ نبغاء الرسامين •

هؤلاء هم الذين لهم من اليد في معاضدتي ما يشكرهم عليهـــا الفن والعلم والتاريخ والوطن •

مبارك بن محمد الميلي

رسالة من الأستاذ عبد الحميد بن باديس
إلى المؤلف

اذا كان الكثير من الكتاب مولعين بطلب تقريظ كتبهم من اخوانهم لحمل عوام القراء على استحسانها فاني في صف القليل منهم الذين يكلون الى القارىء الحكم فيما قدموه له من غير شرط عالمية ولا انصاف. فلكل ان يقول فيما كتبناه ما شاء . والايام هي التي ستنخل ما يقولون ، وتميز جيد القول من رديئه .

واذا كان عظماء كل امة هم المكونين لتاريخها فالواجب ان لا نهمل نظراتهم فيما هو من نتائج حياة امثالهم . وكتابنا هذا من نتائج حياة عظماء الامتين العربية والبربرية فلا غرو اذ اثبتنا نظرة عظيم من عظماء جيلنا فيه مع تمسكنا بمبدانا في التقاريظ .

كتب الينا الاستاذ الجليل عبد الجميد بن باديس احد شيوخنا وزعيم نهضتنا بنظرة في كتابنا . وهذا نص رسالته :

الحمد لله ((حصن الماء)) مساء الثلاثاء 1347/1/15

اخي مبارك !

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على الجزء الاول من كتابك « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » فقلت لو سميته « حياة الجزائر » لكان بذلك خليقا . فهو اول كتاب صور

الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهنالك • وقد نفخت في تلك الصورة من روح ايمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين •

اخي مبارك !

اذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف من أحيا أمة كاملة ؟ احيا ماضيها وحاضرها ، وحياتهما عند ابنائها حياة مستقبلها • فليس — والله — كفاء عملك ان تشكرك الافراد ، ولكن كفاءه ان تشكرك الاجيال • واذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا ، فسيكون في الاجيال الغابرة كثيرا • وتلك سنة الله في عظماء الامم ونوابغها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا •

وانا — واحدا من هذا الجيل — بلسان من يشعرون شعوري ، اشكرك لأقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل ما لك من حق •

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف • والسلام عليك من أخيـــك •

عبد الحميد بن باديس

الجزء الأول بين يدي الأمير شكيب ارسلان

اتصل امير البيان وراس الشرق المفكر الامير شكيب ارسلان بالجزء الاول فكتب الى صديقنا الشيخ الطيب العقبي رسالة جاء فيها قوله عن ذلك الجزء :

« واما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفري هذا الفري • ولقد اعجبت به كثيرا كما اني معجب بكتابة ابن باديس • فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري حمـلة عرش الادب الجزائري الاربعة » •

شكر واعتذار

لا شيء أشق على الكاتب العربي من كتابة التاريخ على النهج العصري • ولا تاريخ اغمض واقل مادة لدى القارىء العربي من تاريخ الجزائر • ولا كتب اكثر تحريفا من الكتب العربية المؤلفة فيه • وعلى نسبة أهمية تاريخ ابن خلدون كان حظه من التحريف حتى ذهبت ثقة القارىء بما فيه من اعلام الناس والامكنة •

وقد قاسيت في تصحيح الاعلام وجمع المواد وايضاح الاغراض التاريخية وتقريب الاسلوب من النهج العصري ما لا يعلمه الا من عمل عملي وكان مثلي جاهلا بغير العربية بعيدا عن العواصم العلمية منهوك الوقت بالاشغال • ولست — علم الله — أمن بهاتيك المقاساة ، وانما اريد الاعتذار للقراء والادباء عن تأخر نشر هذا الجزء الثاني وعسى ان يكون به من نقص علمي او فني •

وكلما اجملت لهم اعتذاري اجمل شكري لمن امدني منهم باعارة كتاب او دلني عليه • وأخص منهم بالذكر الشابين الاديبين المخلصين صديقي أحمد توفيق المدني وعمرو دهينة حامل شهادتي التعليم بالمكاتب الفرنسية والترجمة بالمحاكم الشرعية • فقد عربا لي فصولا من الفرنسية وبذلا في اعانتي كل ما في استطاعتهما الادبية • جازاهما الله احسن الجزاء وذكرهما الجيل المستقبل بوافر الثناء •

الاغواط في 1359/2/1

مبارك بن محمد الميلي

مقدمة الطبعة

طُلِبَ الي أن أكتب مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» الذي ألفه والدي الشيخ مبارك الميلي منذ أكثر من نصف قرن .

وقد صادف أن تلقيت منذ أيام ، في هذا الشهر أفريل 1986 ، رسالة من وزارة الشؤون الدينية طلبت فيها الي أن اكتب ترجمة لوالدي .

ونفس الاقتراح سمعته منذ شهرين ، من أحد تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس .

تساءلت : كيف لم أفكر في مثل هذا الموضوع قبل اليوم ؟ أليس ذلك واجبا كان يتحتم علي أن اضطلع به قبل هذا الوقت ؟

الواقع أن الفكرة راودتني قبل سنوات . لكني أحجمت عن تنفيذها لسببين رئيسيين : الأول اني متيقن ان هناك غيري ، من يستطيع ان يكتب مقدمة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» أكثر موضوعية وأدق تحليلا . والثاني أن كتابات الشيخ مبارك نفسها تقدم مادة خصبة لمن يريد الكتابة عنه ، قد تغنى عن اللجوء الى الذكريات الشخصية والمعلومات الخاصة .

لكني أعدت النظر في هذا الموقف على ضوء الطلبات التي صدرت الي من جهات متعددة ومتباعدة وفي أوقات متقاربة . خصوصا وان هناك جوانب من شخصيته قد لايستطيع غيرى أن يعرف بها .

صحيح انه توفى ، رحمه الله ، ولم أكن قد تجاوزت مرحلة التعليم المتوسط . لكني استطعت ان اختزن ذكريات تلقي بعض الضوء على شخصيته ، سواء بحكم معاشرتي له ، أو بحكم الأوراق والرسائل الخاصة التي اطلعت عليها بعد وفاته ، والتي كان يحتفظ بها في مكتب له كانت تتصدره صور جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد نصيف .

وقد أتيح لي ، خلال السنوات القليلة التي عشتها جنبه بعد أن أصبحت واعيا بأهمية بعض الاحداث ، ان أختزن في الذاكرة بعض تصرفاته ومواقفه وتعليقاته .

وعلى الرغم من الصورة المهيبة التي كانت تفرض نفسها على من يقترب منه ، وعلى الصرامة التي اشتهر بها ، فقد كان يتوفر على جانب يطفح بالمحبة والمرح والفكاهة .

وقد كان مشهد تحلقنا حوله ، أمي ، اخوتي وأنا ، في ليالي الشتاء قرب مدفأة يشتعل فيها الحطب ، بغرفة نومه ، من بين المشاهد التي رسخت في الذاكرة ، مثلها في ذلك مثل حلقات تدريسه لنا في «مدرسة حياة الشباب» أو املاآته الأدبية علي ، عندما كان يتولى تدريسي في البيت بعد وقوع حادث معين ، لا بأس من ان اسوقه في هذا المجال لأنه يكشف عن جانب من شخصيته .

كان بعد ان اشتد عليه مرض السكر ، قد توقف عن القاء الدروس على تلاميذ المدرسة ، وان كان قد استمر في اعطاء الدروس المسجدية ليلا ، وفي إلقاء محاضرات عصرا في النادي حتى يشمل بدعوته الشباب الذي لم يكن يتردد على المسجد .

وقد خطر لي ذات يوم ، وقد شعرت ان مستوى التعليم في المدرسة لم يعد يلبي حاجتي ، ان اطلب منه ان يعطيني دروسا في اللغة والأدب والنحو . فكان جوابه :

ـ لا استطيع ان اخصك بدروس دون رفاقك .

قلت له : فليكن . لماذا لا تعطي دروسا لكل الذين بلغوا المستوى الذي بلغته .

وكذلك كان . خصص لنا ساعة كل يوم ، من السابعة صباحا الى الثامنة . كنا حوالي عشرة . وكان على مرضه يحرص على عدم التخلف عن القاء ذلك الدرس . وكان الجميع يحضرون طالما كان الوقت صيفا أو خريفا . حتى اذا دهم الشتاء راح عدد الحاضرين . على قلتهم ينقص . حتى انه لم يجد ذات يوم ، في القاعة سواي .

غضب . كان مرض السكر قد جعله شديد الانفعال . لم يلق ذلك اليوم درسه وقال لي : أخبر زملاءك انهم اذا لم يحضروا من الغد ، فلن يسمعوا مني درسا بعدها .

وأبلغتهم . ومن الغد لم يحضر أي أحد منهم . آنذاك قرر أن يخصني بالتدريس لكن في المنزل .

كان تحلقنا حوله في السهرة حول المدفأة هي الفترة الوحيدة التي نجتمع فيها اليه فنحن لم نكن نأكل معه . لأن اصابته بداء السكر منذ سنوات شبابه كانت تفرض عليه نظاما خاصا للأكل ، ومن هنا كان يتجنب الجلوس الى مائدتنا خشية ان تمتد يده للمحرمات عليه بسبب المرض . وهذا في الوقت الذي كنت أتصور فيه انه محظوظ بفعل نظام أكله الخاص : فقد كان منظر الخبز الخاص الذي يشتريه من قسنطينة في علب كارتون كبيرة ، والمصنوع من مادة الغلوتان فقط ، يسيل لعابي .

أما في السهرات الشتوية فقد كان يقاسمنا أحيانا أكل البرتقال والجوز . وكانت اجراءات تكسير الجوز وتقشير البرتقال التي تتولاها أمي غالبا من بين الطقوس التي نحرص على حضورها . وكنت اتعجب كيف يفضل أبي أكل البرتقال الحامض ، في الوقت الذي كنا فيه نحن الصغار نتنازع صنفا من البرتقال الحلو ، لم أعد أجد له أثرا في الاسواق اليوم .

وكان استهلاك الأسرة للجوز عاليا : فهو زيادة عن سهرات الشتاء يستعمل في صنع الحلويات ، لأن وجود بعض أصناف الحلوى كان ضروريا على مدار السنة وليس في الاعياد فقط ، فلم

يكن يصح أن يأتي زائر على حين بغتة دون ان يكون في وسع أمي ان تقدم له بعض الحلويات .

لهذا كان والدي يشتري الجوز بكميات كبيرة من مصدرين أساسيين : من أحد الاسواق القريبة ، التي تغذيها بعض مناطق فرجيوة ، ومن الاوراس الذي كان يزود أسواق باتنة وخنشلة .

أذكر أن منظر جوزة بيضاء ، قشرتها ناصعة ، استهواه ذات ليلة ، فأصر على ان يكسرها بنفسه ، وكم كانت دهشته ودهشتنا أيضا ـ عندما وجد بداخلها كتلة سوداء لا تشبه لب الجوز من بعيد ولا من قريب .

ـ أعوذ بالله . . هذه الجوزة مثل المنافق .

كان تعليقه . وضحكت أمي لتعليقه . وضحكت معجبا ببداهة التعليق ودقة التشبيه .

وقد أتيح لي ان اكتشف جانبا من جوانب شخصيته وأنا بعد طفل ، وهو جانب المربي ، فهو لم يكن يستعمل الشدة معي الا حيث تكون لازمة، أي عندما يتعلق الأمر بشيء، لا يمكن التساهل فيه، مثل ترك الصلاة . آنذاك لا يتردد في انزال شديد العقاب بي ، لآ يشفع في ذلك حبه الشديد لابنه ـ كما سنرَى ـ ولا تدخل والدتي أو جدتي .

أذكر أنه كان ذات صيف يستعد للسفر الى مسقط رأسه في الجبل ، وكنت شديد الشوق الى مرافقته في تلك السفرة ، فطلبت منه ان يأذن لي بأن أذهب معه . قال لي ما معناه : أنت مخطىء ان كنت تتصور ان «أولاد مبارك» مثل قسنطينة أو مدينة الجزائر . قلت أريد أن أسافر مهما تكن «أولاد مبارك» كان ذلك في صيف 1939 .

ونزل عند رغبتي .

كانت فرحتي كبيرة . فلم يكن في حياتنا بالقرية ، نحن أطفال ذلك العهد ما يثير . كانت منازل القرية التي يوجد بها «راديو» لا تتجاوز ثلاثة ، منها منزلنا . وكان هناك مقهى واحد له راديو بالاضافة الى النادي . وكان السفر بالنسبة للاطفال آنذاك حدثا

سعيدا يشغل حيزا كبيرا من وقتنا عندما يتقرر مشروعا ، ونظل نحكي عنه بعد تحقيقه عدة أسابيع من خلال روايات يتدخل فيها الخيال غالبا .

لكن حدث عشية السفر حادث غريب .

كان والدي ، أثناء سفره للإستشفاء من داء السكر في فرنسا حيث عالج في فيشي وباريس عام 1938 ، قد إستصحب معه دليلا مفصلا لمدينة باريس .

كانت مكتبته منظمة تنظيما دقيقا ، بحيث كان يعرف موقع كل كتاب وصفه وترتيبه . وكنت مغرما بتصفح الكتب حتى ولو لم أكن أفهم ما فيها . وكنت أحرص على اعادتها الى مكانها حتى لا يعرف أني استعملتها .

قبل يومين من السفر ، عثرت على دليل باريس . أعجبت بما فيه من صور ومعالم ، فحملته الى المدرسة حتى أريه لزملائي وأزهو عليهم .

طلب مني أحد الزملاء أن أعيره اياه مقابل أن يعيرني هو مركبة خشبية تسير بـ«الرولما» كما كنا نقول ، ونقصد بذلك عجلات معدنية صغيرة .

وحدث ان والد زميلي عثر على الدليل عنده فسأله من أين جاءه ، فأخبره بالحقيقة . فما كان من أبيه الا ان أخذه منه وأتى به الى خالي حتى يعيده الى والدي . وأعاده بالفعل عشية السفر .

وصادف أني رأيت الدليل وقد احتل مكانه ، صعقت . كان والدي قد أرجعه حيث كان دون ان يفاتحني في الموضوع . قلت في نفسي: لقد افتضح الأمر. ورحت أتصور صدور العقوبة الصارمة ممثلة في ضرب مبرح ، كذلك الذي ينالني عند التخلف عن الصلاة ، مع الغاء سفري .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث . لم يظهر على أبي أي تصرف يدل على أنه عرف بما حدث . لم تصدر عنه أية ملاحظة . كان تصرفه معي عاديا . تعجبت ولم أستفهمه .

وسافرت معه من الغد ، وكانت سفرة من أحلى السفرات التي رسخت في ذاكرتي . دامت حوالي عشرة أيام . تمتعت فيها بركوب البغال ، فقد كانت هي وسيلتنا الوحيدة لنقلنا في بعض أشواط الرحلة . وأتيح لي أن أشهد بعض عادات البادية مثل ذبح خروف أو كبش للضيف ولو وصل في ساعة متأخرة من الليل .

بعد ان عدنا الى ميلة ، ناداني من الغد . وبعد أن آذن لي بالجلوس راح يحكي لي ظروف اكتشافه لاختفاء الدليل ، ثم قال لي ما معناه :

ـ لم أرد أن ألاحظ لك شيئا حتى لا أنغص عليك السفر ، ولا الغي وعدا قعطته لك . وها أنا ذا الآن أعتبرك كبيرا تتعظ بالكلام ، ولم تعد بحاجة الى الضرب . فلا تعد لمثلها .

وقد أتيح لي بعد ذلك أن أعيش مشهدا يدل على مدى تقديره للوعد المقطوع . كان يسافر الى قسنطينة في الصباح ويرجع في المساء ، أحيانا وقد رأى ان يستصحبني في احدى هذه السفرات اليومية مع اعلامي بأننا سبرجع في نفس اليوم . قبلت رغم ان بعض يوم لم يكن ليشبع نهمي الى المدينة . الا أنه عند الوصول وجد الشيخ العربي التبسي بقسنطينة ، فغير برنامجه وقرر أن يقضي بها ثلاثة أيام . ناداني أمام صديقه وقال لي ما معناه :

لقد قلت لك اننا سنرجع في نفس اليوم . لكني اضطررت الى ان امكث مدة أطول . فان كنت تريد البقاء فليكن ، وان كنت رتبت امرك على العودة اليوم ، فاعلمني حتى أرسلك مع أحد المسافرين الى ميلة .

وعلى ذكر جانب المربي فيه أذكر أني قرأت فيما قرأت من رسائله التي كان يحتفظ منها بنسخة لديه (والتي ضاع معضمها مع الأسف) رسالة كان وجهها الى الشيخ العربي الذي كان قد طلب منه ان يطلعه على أسلوبه في معاملة التلاميذ (فقد كان والدي قد شرع في التدريس بالاغواط ، قبل ان يلتحق الشيخ العربي ببلدة سيف التي كانت أول بلدة تولى التدريس فيها للتلاميذ) فكتب له والدي رسالة

حفظت منها هذا المقطع .

«اذا وعدت فأنجز . واذا أوعدت فتغافل . وان ذكرك أحد التلاميذ بالوعيد فنفذه مع اظهار كراهيتك لمن ذكرك» .

لقد أشرت منذ قليل الى شديد حبه لي . كنت أحس بذلك مثل كل طفل ، لكن لم أكن أعرف مدى ذلك الحب الا عندما عثرت ، بعد وفاته ، على كراسة صغيرة كان قد سجل فيها خواطره عندما سافر للعلاج بفرنسا ، كتب في احدى ورقاتها ، تحت عنوان «لوعة الشوق» ما يلي حرفيا (فالكراسة ما تزال في حوزتي) .

«لا أعلم للشوق سلطانا على عواطفي عجزت عن تخفيف وطأته قوتي الفكرية الا مرتين . أحداهما وأنا شاب علق قلبي فتاة علقتني هي الأخرى . وكانت حرب بين عقلي وهواي ، فاز فيها الهوى بالحب العذري وفاز فيها العقل بالعفة ، مع وجود دواعي الفاحشة وفقد موانعها .

ثانيتهما في سفرتي هاته الى فرنسا لعلاج داء السكر التي دامت من (1357/03/28 هـ) الى 1938/05/28 م إلى 1357/05/29 هـ (الموافق 1938/07/27 م) فقد كنت أريد ان انسى كل علاقاتي الشخصية والفكرية أيام علاجي . ففزت الا من ناحية ولدي البكر محمد ، فقد كنت أهاج لذكراه حتى تكاد تنفلت دموعي أمام الناس . ولولاه لكان غيابي أطول .

لكن الاسترسال في استعراض كل الجوانب التي أعرفها عن والدي ، قد يبعد بنا عن موضوع الكتاب الذي وضعه منذ أكثر من نصف قرن .

ان تحديد مكانة «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» تتطلب التذكير ، ولو باختصار ، بالظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية التي ظهر فيها ذلك الكتاب .

ولد الشيخ مبارك الميلي في النصف الأخير من العشرية الأخيرة من القرن الماضي . نشأ في منطقة فقيرة خاضعة لنظام البلديات المختلطة . وكان هذا النظام ، الى جانب «الاحواز العسكرية» هو

الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها الاستعمار في ادارة البلاد والتحكم في المناطق التي يخشى ثورة سكانها .

والبلدية المختلطة تشمل عادة منطقة شاسعة تضم عدة دواوير وقرى يسيطر عليها حاكم فرنسي يساعده عدد من الاعوان الفرنسيين أيضا ، الى جانب بعض الاعوان من «الاهالي» .

واذا كان الاروبيون ممثلين في هذاالنظام البلدي بواسطة من ينتخبهم فان الاغلبية الساحقة من سكان الاحواز أوالبلديات المختلطة ، أي الجزائريون ، ممثلون « نظريا » بواسطة رجال تعينهم الادارة الفرنسية . ولا يخفى ان الحاكم الفرنسي لا يعين ضمن ادارته الا من يجد لديه الاستعداد لخضوع مطلق وانقياد أعمى في تنفيذ التعليمات . وكان معروفا ان المعيار الذي تقاس به صلاحية المساعد الجزائري هومدى تصديه ضد مطالب من يفترض فيه ان يمثلهم وتفانيه في محاربة بني جلدته ، فتلك هي الطريقة التي يزكي بها « القائد » أو « الخوجة » نفسه في أعين سادته ، وهي التي تمكنه في الوقت نفسه من جمع بعض الاموال الحرام على حساب اخوانه وبني عمومته .

ولاحاجة الى التذكير بالصلاحيات الواسعة التي يملكها الحاكم الفرنسي في تعيين اعوانه من بين الجزائريين ، واذا صادف ان « لقائد » أوغيره من اولئك الاعوان لم يرق للمعمرين الاروبيين ، فليس اسهل لديهم من أن يلفقوا ضده تهمة لا يملك ضدها أي طعن ، فعزله يتم بنفس السهولة التي تم بها تعيينه . ومن ثم تجده يضطر الى مجاراة الادارة . ونادرا هم اولئك الذين ينجحون في البقاء بمنصبهم دون الاصطدام مع الشرائح الاجتماعية الاكثر تمثيلا لشعبهم .

ولهذا ، بقدر ما يكون « القائد » في البلدية المختلطة مجردا من أي حق في مواجهة المعمرين والفرنسيين ، بقدر ما يتمتع بصلاحيات واسعة في مواجهة ابناء شعبه . أليس هو الذي يملك حق تحديد حصة الضرائب المفروضة على الجزائريين ، دون ان يتحكم في ذلك

الى أية قاعدة ؟ أليس هو الذي يعين عادة ، وخاصة بعد 1902 قاضيا في المحاكم القمعية التي تنصبها الادارة الفرنسية ضد « الاهالي » ؟ أليس هو الذي يفترض فيه ان يمثل منطقته في البلدية دون أن يحتاج الى تزكية الناخبين ؟ فهويملك كل السلطة على شعبه ، دون ان يملك هؤلاء اية صلاحيات للاقتراع عليه ومحاسبته .

ولاحاجة الى التذكير بأن الشروط التي تطلبها الادارة توفرها في القائد ، لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالكفاءة الفنية والمستوى الثقافي والتأهيل المعني .

واذا كان معروفا ان « ماهية » القائد محدودة ، مثل سلطاته الرسمية نظريا ، فقد كان معروفا ايضا انه يستطيع بوسائل عديدة ان يبني ثروة في آجال قصيرة ، لانه كان يعرف كيف ينتزع المال من الناس ويسطو على ما يملكون دون ان يملك هؤلاء حق الشكوى والنظلم .

على ان هذه « الخصائص » السلبية التي تختص بها البلدية المختلطة هي نفسها التي ادت عمليا ، ودون ان تقصد لذلك الادارة الفرنسية ، الى استمرار الهوة سحيقة بين الشعب وممثلي الاحتلال .

فممثلو الادارةالفرنسية لم يكن يهمهم ان ينفذوا الى الشعب ويكسبوا وده ، طالما كانوا مدينين بوجودهم وثرواتهم وجاههم لغيره . وكان من جراء ذلك ان تطور الشعب ، وخاصة بالارياف ، في ظل العداء للادارة الاستعمارية . أليست هي التي انتزعت منه الاراضي الخصبة واضطرته الى ان يلجأ الي المناطق القاحلة والاراضي الجدباء ؟

كان عمره ، عندما توفي ابوه ، اربع سنوات . فنزله جده منزله حتى لا يحرم من الميراث . ويا له من ميراث . شجيرات زيتون محدودة العدد ، منبته في نحو من اربع هكتارات ، ينبت فيها شيء من العناب والتين ، ويمكن زراعتها بالشعير .

في مثل هذا المحيط ، لا يحتاج المرء الى اعمال الخيال كثيرا كي يستنتج ان الافاق امامه مسدودة ، وان كل الابواب في وجهه

موصودة ، ان هو رضي بالبقاء في المنطقة مكتفيا بما حفظه في طفولته من قرآن .

لكن الى أين يذهب وكيف ؟

كانت عين عمه الاكبر ، أحمد ، لا تغفو ، كانوا يسمونه الذئب . ومع ذلك فقد عزم الفتى مبارك على ان يغادر ارضه . وكان قد خبر يقظة عمه اكثر من مرة . هل تحدثه نفسه بأن يقطف تينة بعد ان يكون قد تأكد من خلو المكان ؟

انه لا يشعر الا وقد هوت على يديه عصا عمه وكأنه طلع من غار او نزل من سماء .

لذلك اعد خطةمحكمة للفرار لن يتفطن لهاعمه . قـرر ان يكون ذلك يوم شتاء ليس مثل كل الايام . وصادف ان تساقط الثلج بكثرة . ولم نلبث ان تراكمت الثلوج بصورة تردع الحيوان والانسان ان يغامر بأنفه خارج وكره أو كوخه . لم يخطر على بال العم الاكبر مهما تخيل من حيل ان يتوقع فرار ابن اخيه في مثل ذلك اليوم .

« ان الثلج يصل الى الركبة » تلك كانت عبارة الشيخ مبارك في وصف يوم الفرار من دواره ووصاية عمه . روى لي القصة في الاسبوع الاول من نوفمبر 1942 . أذكر ذلك جيدا . كنت معه بمدرسة التربية والتعليم في قسنطينة حيث قضينا ليلة في طريقنا من ميلة الى خنشلة . فقد كان على أبي ان يذهب الى هناك ليعود بوالدتي التي كانت في زيارة الى شقيقتها . وكان قد استصحبها هناك قبل نحو اسبوعين مع اخوتي وتركني في ميلة وحدى حتى لا انقطع عن دراستي ، ثم عاد هو بعد ثلاثة ايام . وعندما قرر ان يذهب ليعود بأمي واخوتي اليه ان يصحبني ، فتغيب بيومين أو ثلاثة عن الدراسة لا يضر . قضينا الليلة الاولى في قسنطينة ، لانه كان علينا ان نأخذ الحافلة الى خنشلة باكرا من صباح الغد .

خلال تلك السهرة راح يحكي لي قصة فراره ، وقد رسخت القصة في ذهني لانها اقترنت لدى بشعور الاعتزاز ان اصبح والدي يأتمنني على اسرار حياته .

كان فراره الى ميلة ، حيث درس على الشيخ محمد الميلي ابن معنصر جدي لأمي ، وكان أثمن ما تعلمه عليه هو خشية الله والزهد في الدنيا . فقد كان الشيخ الميلي معروفا بالزهد . كان يعطي من ماله بغير حساب . ذلك ما كنت اسمع عنه منذ صغري . وتروى عنه روايات كثيرة في هذا المجال . منها ان سائلا تقدم منه ذات يوم ، وقد كان عائدا من المسجد الى منزله ، وصادف انه لم يكن لديه ما يعطيه له ، فقال له انتظرني . ثم دخل الى سقيفة المنزل ، ونزع صدريته ، وكانت فاخرة واعطاها له ، متأكدا انه سوف يبيعها بأكثر من ثمنها الحقيقي ، فهناك اكثر من شخص يرغب ولاشك في شراء صدرية الشيخ تبركا .

ويروي عنه انه ، وقد عرف انه ميت لا محالة بعد طعنة سكين طعنها به مواطن بحجة انه رفض ان يفتيه بما يوافق هواه ، سامح من اراد قتله وطلب من ابنائه قبل ان يسلم الروح ، ان لا يتتبعوا القاتل قضائيا . لست أشك في ان بعضا من هذه الروح قد ورثها الشيخ مبارك عبر سلوك شيخه اكثر مما ورثها عبر دروسه .

لكن التأثير الحاسم الذي تلقاه مؤلف تاريخ الجزائر ، كان هو ذلك الذي تلقاه على الشيخ ابن باديس .

فقد نصحه الشيخ محمد الميلي ان يتردد على ابن باديس مؤكدا له انه سوف يستفيد بذلك اضعاف مما لو بقي في ميلة .

وفعلا فقد كان لقاء مبارك الميلي مع ابن باديس يمثل نقطة تحول هامة في حياة الشيخ مبارك : فقد أخذ عنه روح النقد ، وعزز لديه الجرأة على التمرد على الاوضاع .

وعلى الرغم من انه لم يتح لي ان اعرف من أبي الكثير عن هذه العلاقة فقد أتيح لي ان أشهد ما يدل على عمقها . حدث ذلك بمناسبة موت الشيخ عبد الحميد .

اتصل أبي بمكالمة تليفونية من قسنطينة مفادها ان الشيخ مريض . أبدى تعجبه لانه كان وشيك العودة من هناك وتركه صحيحا . فهرع مسرعا . ولم يكد يصل الى قسنطينة حتى وجده قد اسلم روحه .

وكان عليه ان يتولى تأبينه في غياب الشيخ البشير الابراهيمي الذي كان بالمنفى آنذاك . وتقدم يتلو : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الاية » لكنه لم يستطع ان يواصل التأبين ، فقام الشيخ العربي بالمهمة . ذلك ما سمعته فيما بعد . لكن الذي شاهدته بنفسي هو حالته حين عودته من الجنازة . كنا نستعد للاحتفال بعيد المولد النبوي . وكان من أحب الاعياد الى الاطفال : فيه نطلق الشماريخ ، ونفجر المحارق ونشهد احتفالات وسهرات في النادي تلقى فيها خطب تأسرنا وتشدنا وان كنا لا نفهم الكثير مما يقال فيها .

كنت أفرح بالمولد فرحا زائدا على اقراني واترابي : فقد كان من عادة أبي ان يقضي اربعة ايام من كل اسبوع في قسنطينة ، ومن ثم كان يأتي لي من هناك بأصناف من الشماريخ والمحارق لا تتوفر في اسواق ميلة ، فتكون لي فرصة للزهو على الاصحاب والاقران .

كنت انتظر عودته بفارغ صبر . وهرعت اليه كالعادة سائلا عن المحارق ، رغم اني كنت أعرف انه عائد من جنازة الشيخ ، لم أكن مدركا لمدى التأثير الذي خلفه لديه موت الشيخ عبد الحميد .

لم يستطع ان يرد علي . فقد القدرة على الكلام . ظل كذلك اياما لا يعبر خلالها عما في نفسه الا اشارة وايماء .

وقد اطلعت فيما بعد ، على رسالة وجهها الى الشيخ البشير الابراهيمي . وكان هذا الاخير قد طلب منه ان يصف له يوم الجنازة . وقد حفظت جملة وردت في رسالةالشيخ البشير وهي قوله « لقد غبت يوم الختم ، وغبت يوم الاتم » وكان الشيخ البشير يشير الى تغيب والدي عن الاحتفال الذي أقيم بقسنطينة في مناسبة الاحتفال بختم الشيخ بن باديس لتفسير القرآن ، اذ كان موجودا آنذاك بفرنسا للعلاج .

وقد رد الشيخ مبارك على رسالة صديقه ، يصف له وقع الحادث عليه ويقول له فيها ما اذكر معناه :

- عندما سمعت لدى وصولي الى قسنطينة بموته شعرت ان الدورة

الدموية اصبحت تسير في عكس الاتجاه المعهود . وعرفت في الحين ان داء السكر قد عاودتي وانه لن يفارقني حتى يقضي علي .

وكذلك كان . فقد تضعضعت صحته بعد موت ابن باديس ولم يتمكن من متابعة القيام بدروس الجامع الاخضر التي كان يتولاها شيخه ، فتحولت الدراسة الى تبسة حيث تكفل بها الشيخ العربي .

اذن فقد كانت العلاقة التي تربط بين الميلي وباديس اكثر من علاقة بين رئيس ومرؤوسه ، وبين أستاذ وتلميذه : لقد كان لها طابع روحي بحيث لم يستطع الشيخ مبارك ان يتصور استمراره في الحياة دون ابن باديس .

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى انه على الرغم من هذه العلاقة التي كان فيها ابن باديس يمثل الرئيس والاستاذ والنموذج الى جانب الصديق بالنسبة للشيخ مبارك ، فقد كان ابن باديس هو الذي كتب أروع تقدير واشادة بمبارك الميلي عندما صدر الجزء الاول من تاريخه . فقد كتب اثر صدور ذلك الجزء رسالة الى الشيخ مبارك وجهها له من مصيف « حصن الماء » (برج الكيفان حاليا) في صيف 1928 جاء فيها قوله :

الحمد لله .

أخي مبارك ،

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على الجزء الاول من كتابك ، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعدما كانت تلك الصورة اشلاء متفرقة هنا وهناك . وقد نفخت في تلك الصورة من روح ايمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين .

أخي مبارك ،

اذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف من أحيا أمة كلها ؟ احيا ماضيها وحاضرها ، وحياتها عند ابنائها

حياة مستقبله . فليس - والله - كفاء عملك ان تشكرك الافراد ، ولكن كفاءة ان تشكرك الاجيال . واذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا ، فسيكون في الاجيال القادمة كثيرا . وتلك سنة الله في عظماء الامم ونوابغها ولن تجد لسنةالله تبديلا .

وأنا - واحدا من هذا الجيل - بلسان من يشعرون شعوري ، اشكرك لاقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل مالك من حق .

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف ، والسلام عليك من اخيك عبد الحميد بن باديس .

وقد حرص الشيخ مبارك على اثبات هذه الرسالة في الجزء الثاني من تاريخه ، لانه يعتبر ابن باديس عظميا من عظماء الجزائر ، جدير بأن يثبت نظرته في كتابه في التاريخ الذي هو « من نتائج حياة عظماء الامتين العربية والبربرية » حسب تعبير الشيخ مبارك نفسه .

ولابأس ان نثبت هنا رسالة لم يسبق ان نشرت وردت الى الشيخ مبارك من شيخه وصهره الشيخ محمد الميلي مؤرخة في 24 جويلية 1928 جاء فيها ما نصه :

الحمد لله .

ابننا العزيز . السلام عليك ورحمة الله .

أما بعد فقد وصلني من ادارة الشهاب الجزء الاول من كتاب تاريخ الجزائر . فلما سرحت فيه الطرف الفيته فوق ما يرام وقلت فيه بحق ما قاله الاستاذ باديس ، وابتهجت به ابتهاجا قلبيا خصوصيا زيادة على الابتهاج العام ، لأن لي ان شاء الله من الثواب عليه قسطا . بارك الله فيكم وأعانكم على اتمامه بمنه وكرمه ، والسلام عليكم .

من والدكم محمد الميلي

ان كلا من تقييم ابن باديس للجزء الاول من التاريخ الذي تجدر الاشارة الى انه كان مخصصا لفترة ما قبل الاسلام - وتقييم مبارك الميلي لذلك التقييم ، ورسالة الشيخ محمد بن معنصر الميلي ، كل

ذلك يؤكد المكانة التي كان يعطيها نخبة من مثقفي العربية للتاريخ في حركة النهضة الوطنية خلال العشرينات .

ذلك ان التاريخ كان أحد الاركان الثلاث التي اعتمدها الاستعمار لفرنسة الجزائر الى جنب محاربة الاسلام والقضاء على اللغة العربية .

فقد اراد الاستعمار ان يخضع تاريخ الجزائر كما اخضع ارضها ، واراد ان يلغي الخصائص الوطنية للتاريخ ، كما حاول ان ينكر خصائصها الجغرافية عندما اعتبر ذلك ان البحر الابيض المتوسط يشق ارض فرنسا كما يشق السين مدينة باريس .

وهذا ما جعل الاهتمام الفرنسي بتاريخ لجزائر يتركز على عصور ما قبل التاريخ ، وعلى العهد الروماني والحقبة الفرنسية واهمال العصور الاسلامية التي اعتبرها غوتيي « عصورا مظلمة » .

وعبر المؤرخ الفرنسي المعروف - ستيفان غزيل - الذي تخصص في دراسة التاريخ القديم لمنطقة المغرب العربي - على التوجيه الذي يحرك الدراسات عندما كتب يقول : ان التاريخ يحدد لنا ايضا واجباتنا : فعلينا ان نتسلح بارادة لا تقهر في ان نكون اسيادا والى الابد ، كما ان هناك ضرورة تتمثل في اقامة استعمار يعتمد على استيطان ريفي اوروبي ضخم ، وضرورة تقريب الاهالي منا على اساس الرغبة الصارمة والامل في ان يتحقق انصهارهم في مستقبل قريب أو بعيد . فالتاريخ اذن لا يعتبر في افريقية اقل العلوم جدوى .

وشيئا فشيئا ، اعيد تشكيل ماضي الجزائر بما يتلاءم مع هذا الهدف ، حتى اصبحت « فرنسة » الجزائر هي الاصل واعتبر عهدها الاسلامي ، اقتطاعا تعسفيا لهذا « الجزء من الغرب » الذي الحق بالمشرق مع الفتح العربي ، حسب تعبير مارسي . بل هناك من المؤرخين الجغرافيين الفرنسيين من لم يتردد في انكار ان يكون لهذه المنطقة تاريخ : فهذا غوتيي يقول متحدثا عن المغرب العربي : « هذه بلاد ليس لها اسم معروف عالميا ، مما اضطر الى اعطائها اسما

ما : ذلك انه ليس لها وجود سياسي متميز ، وبناء على ذلك لم يكتب تاريخها »

وهكذا أريد ربط الجزائر (بوصفها قلب المغرب العربي ، اذ يمكن عبرها التأثير على مجموع الشمال الافريقي) بالتاريخ الفرنسي خاصة والتاريخ اللاتيني بصورة عامة . يقول لوى بيرتران في كتابه « دماء الجذور » .

ما ان يضعف الشرق ،حتى تسقط افريقيا الشمالية في الفوضى التي لازمتها منذ الولادة أو تخضع للهيمنة اللاتينية التي وفرت لها قرونا من الازدهار ، والتي اعطتها ، لأول مرة ، شبه وحدة ، كما زودتها بشخصية سياسية وثقافية . (يقصد فرنسية طبعا) .

ان العربي لم يقدم لها الا البؤس والفوضى والهمجية . ان كل شيء قد اتاها من الخارج من سوريا ، من فارس من اليونان من بيزنطا ، ومن البلاد اللاتينية على الخصوص .

من هنا نتبين ان المعركة التي دارت منذ العشرينات حول التاريخ الوطني ، كانت من اشد المعارك ضراوة .

ذلك ان المنظرين الاستعماريين في مسعاهم الى فرنسة الانسان بعد الارض ، وجدوا ان تزييف التاريخ وحده لا يكفي وانه لابد من اكماله بمسعى معمق على واجهتين اثنتين : تجهيل الجزائريين وحرمانهم من تعلم اللغة العربية بوصفها اداة اساسية في الاطلاع على التاريخ الاسلامي والتفاعل مع نبضه الحضاري ، وفي نفس الوقت السعي الى تجريدهم من الاسلام وتمسيح من يمكن تمسيحه منهم .

وفي اطار هذا المسعى المزدوج والمتكامل لابأس بالابقاء على شكليات وطقوس دينية تفرغ من روحها ، وتجعل الانسان الجزائري عاجزا عن مغالبة المشروع الثقافي الاستعماري الذي يقوم على الثالوث المشار اليه : تحريف التاريخ ، التجهيل باللغة العربية ، افراغ الدين من مضمونه الحضاري وقوته الروحية .

وقد مرت عملية تزييف التاريخ الوطني الجزائري من طرف المنظرين الاستعماريين بعدة مراحل يمكن اجمالها فيما يلي :

اولا : محاربة اللغة العربية وتوسيع مجالات الامية . ولا يخفى ان انتشار الامية بالاضافة الى التفقير يهدد بالقضاء على انسانية الانسان فضلا عن ان تبقى لديه تعلقا بتاريخ او تعزز لديه روح البحث عن الجذور .

ثانيا : بعد تجفيف منابع الثقافة الوطنية وانسداد ابواب التعلم في وجه الجزائريين يمكن ان يسمح لهم بقدر محدود من تعلم اللغة الفرنسية التي يضطر الى دخولها بعد عزوفه عنها ومعارضة لها ، فيقبل بها بوصفها اهون الشرين وكونها تمثل شيئا هو خير من لا شيء .

ثالثا : السعي من خلال ذلك التعليم الفرنسي المحدود الى تحقير التاريخ الوطني . فمدارس التعليم المخصصة « للأهالي » لم تكن تستنكف من اللجوء الى الاسفاف الظاهر عندما يتعلق بتدريس مادة التاريخ الجزائري ، بل واستعمال الكذب المفضوح .

فقد كانت تلك البرامج في بعض العهود تقدم سقوط الجزائر في 1830 امام الغزو الفرنسي في صورة مهينة خلاصتها ان سكان الجزائر العاصمة باعوا الجزائر للفرنسيين في مقابل قصعة زلابية . . وكان الكتاب الذي يهين التاريخ الوطني هذه الاهانة يشتمل على رسم توضيحي يمثل مجموعة من الجزائريين وقد شكلوا حلقة حول قصعة زلابية يتنافسون على أكل ما فيها . .

فليس مثل تحقير الجدود وتشويه أعمالهم دفعا للأحفاد على التنصل من تاريخهم والبحث عن هوية جديدة .

رابعاً : بعد ذلك كله تتهيأ الظروف الملائمة لوضع تاريخ جديد للجزائر يتماشى والمنظور الإستعماري .

فالمسألة لا تتعلق بايجاد قراءة جديدةللتاريخ ، بل صياغة جديدة تبرزه في ثوب لا علاقة له بما كان معروفا حتى ذلك العهد .

وتظهر طبيعة هذه المرحلة في نوعين من المحاولات بكمل أحدهما الآخر يتلخص النوع الأول في التأكيد على أن المغرب العربي ، كان

قبل ظهور الإسلام مسيحي الروح ، لاتيني الثقافة .

وعلى هذا الأساس ظهر المسعى الذي عرف بتحقيق « انبعاث افريقيا اللاتينية » وهكذا ظهرت مجلة تحمل عنوان « لفريقيا اللاتينية » كانت تصدر في الجزائر وتحاول ابراز « الهوية الغربية اللاتينية المسيحية للعالم البربري » وقد امتدت هذه المحاولة الى المغرب الأقصى حيث استخلصت بعض الأوساط المسيحية أن سكانه يمكن بسهولة تحويلهم الى مسيحين لأن بساطة أخلاقهم تقربهم من المسيحية ، كما جاء في كتاب أوزج كولير الذي يحمل عنوان « بحث في فكر البربري المغربي » .

أما النوع الثاني من محاولات هذه المرحلة ، فيتمثل بتسليط كل ما يمكن من أضواء على العهد الروماني وابرازه في صورة العهد المشرق النير ، وكذلك العهد الفرنسي . أماما بينهما وهو العهد الإسلامي على الخصوص - فيتم تعتيمه ويعتبر عصورا مظلمة ، كما سبقت الإشارة الى ذلك . وبهذا العمل المزدوج ، عبر هذه المرحلة الرابعة ، تصبح العهود الإسلامية مجرد جملة اعتراضية في أسفار تاريخ المنطقة التي تبدأ والحالة هذه بعهود روما التي تمسحت وتنتهي بفرنسا « البنت الكبرى للكنيسة » .

إذا نحن استحضرنا أهم دعائم وأهداف المشروع الإستعماري وخاصة ما يتصل منه بالثقافة الوطنية ، أدركنا الدور الذي يؤديه تجديد العناية بالتاريخ الوطني ، والمغزى العميق الذي يكتسبه ظهور كتاب باللغة العربية عن تاريخ الجزائر في عام 1928 .

ويؤكد هذه الأهمية ، أن مؤلف « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » ، لم تخف عليه هذه الحقائق ، فهو يؤكد في المدخل الذي جعل عنوانه « مقدمات » مايلي :

« فإن التاريخ مرآة الغابر ومرقاة الحاضر . فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها . متى درسه ابناء أمه واحاط أخيرا بأدواره شبابها ، عرفوا وجودهم فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم ، وأدركوا ما

لماضيهم من المجد وما لإسلافهم من الشرف ، فلم يقبلوا تنقيص المنقصين وعبث المدلسين وقدح المغرضين ، وشعروا بعز السيادة ولذة الحياة ، فانفـوا من سيطرة المستبـدين ولم يخضعوا لـذل المستعبدين . . . . »

فالهدف الوطني المتوخى من الكتاب واضح عنده . فهو يرى أن العناية بالتاريخ تضمن اعادة ربط الشعب بمساره، وبعث اعتزازه بماضيه دون تمجيد أعمى ، كما يرى ضرورة اعطاء الأولوية في الدراسات التاريخية ، للتاريخ الوطني على التاريخ الفرنسي .

ويتعرض الشيخ مبارك في « مقدمات » كتابه لهذه الأهداف ، عندما يتناول الموضوع من زاوية واجب المثقف الجزائري إزاء التاريخ . فقد كتب تحت عنوان فرعي هو « المتعلمون الجزائريون والتاريخ » . يستعرض وينقد المثقفين سواء منهم الذين تعلموا الفرنسية أو الذين تخرجوا من المعاهد التقليديـة للتعليم العربية ـ الإسلامي .

فهو يقول منددا بالقطيعة بين كل اصناف المنعلمين الجزائريين وتاريخم : «إن المتعلمين اليوم من ابناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم فجهلوا ما فيه عن عز وذل ونعيم وبؤس ومدنية وهمجية وسيادة وعبودية .

ثم يحلل المسار الذي أدى الى تجهيل المتعلم الجزائري ، بتاريخه . فعن خريجي المدارس الفرنسية يقول : « ترى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية وما يجدر به أن العلم مثله من تاريخ شعبه ولا يحسن منه تقديمه عليه فكيف بالإقتصار عليه والإكتفاء به ؟

إن النسبة بين التاريخين : الشعبي والأجنبي ، مثل النسبة بين الضروري والكمالي ، انما يحصل له هذا المثل اذا جاء بعد الضروري فإن سبقه لم يكن كماليا وكان ضرره اكثر من نفعه .

ومن مضار تقديم تاريخ الأمة الأجنبية قصر الكمال والسيادة عليها وحصر المعارف والحضارة فيها وذلك تزهيد للمتعلم في وطنه وتنفير له من بني جنسه .

ولقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر الي جنسه نظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ . فإذا دار الحديث على الشعوب وقسطها من الحياة وافضى الى قومه رأيته ـ من جهله بتاريخهم ـ يستدل على حياة الماضين بحياة الموجودين ويستنتج من ذلك أن لا حضارة للأوائل انما هم قوم عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق بعيدين عن نظم الحياة وفقه طبيعة الكون وسنن العمران ، ويرى انه اعتمد في هذا الحكم القاسي الجائر على أعدل شاهد : قياس الغائب على الشاهد وانه لقياس فاسد وماذا عسى أن تبلغ قيمة قياس دعامته الجهل ؟

ثم قد يترقى في حكمه ويلحق المستقبل بالماضي فيقضي على مستقبل أمته بالشقاوة والتعاسة ويرى أن داءها عياء لا يوجد له دواء وربما طلب لها من الأدوية ما هو عين الداء .

ومن الواضح أن في هذه الفترة تلميحا مفهوما الى بعض النتائج التي تترتب على المشروع الثقافي الإستعماري في ما يتعلق بالتجهيل بالتاريخ الوطني وتعميمه ، والتي تتمثل في الميل إلى الإدماج باعتباره علاجا وحيدا في حين أنه « عين الداء »

أما المعربون خريجو المعاهد العربية ـ الإسلامية فقد انتقدهم بلجهة تساوي في قساوتها اللهجة التي انتقد بها المفرنسين ، إذ يقول فيهم ما يلي : « وهناك متعلمون تعلموا بالمساجد مبادىء بعض العلوم اللسانية والدينية واهملوا من برامج قرآتهم التاريخية فإذا فارقوا المساجد وقدر لبعضهم أن يحيا حياة علمية ، الفيته يقتصر على مراجعة مادرسه من الكتب ، وأن دعت الهمة احدهم الى التوسع ففي الفنون التي اخذ مبادئها بالمسجد .

فرطوا بذلك في قراءة علم يعود على اخلاقهم بالتهذيب وعلى عقولهم بالتدريب على التفكير ، ذلك علم التاريخ وتلك فوائده .

وان منهم لقوم يخربون عقولهم بأيديهم ويطفئون نور الله ـ العقل ـ بأفواههم ، ذلك باشتغالهم بقراءة كتب المناقب والخوارق وانها لكتب سيئة الأثر في النفوس .

ثم يقول : فلو اشتغل هؤلاء القوم ـ بدل هذه الكتب ـ يكتب تاريخ البشر وحياة الأمم لانارروا عقولهم واطلقوها من ذلك السجن تكتشف من خبايا الأيام وخفايا الطبيعة وما يعود على الإنسانية عامة وبني جنسسهم خاصة بالفوائد الجليلة .

إن النفس الوطني في كتاب « تاريخ الجزائر في القديم والحديث» واضح ، فنحن نشمه ونعثر عليه في كل ابواب الكتاب ، بما فيها الباب الذي خصصه لجغرافية الجزائر الطبعية .

ففي الفقرة الثامنة من هذا الباب ـ وهي التي تحمل عنوان « الغابات والنباتات الطبيعية » يقول على الاخص :

« ليس في استطاعة احد أن يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها على كثرة اصنافها ، وعظم فوائدها ، لا ينتفع بها الجزائريون إلا انتفاعا بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحيوا علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات جليلة ، وكان لهم البقاء في الميدان الإقتصادي . وليس هذا بالأمر الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى ينتبهون من هذه النومة التي كاد أمرها يجاوز أمد نومه القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيما تكاسلوا عنه » .

وإذا كان القرئي قد ستخلص من هذه الفقرة نتيجة يأس مطلق ، فإن الشيخ مبارك يسارع في الفقرة الموالية الى تأكيد الإيمان بالمستقبل ، رغم حاضر مظلم ، فيقول :

« لا يمكن أي أحد أن يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من مرقدها ، فإن المستقبل لله وحده ، ولكن لا نيأس من هذا اليوم الميمون فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ويختم باب الجغرافية الطبيعية بجملة لا تحتاج الى تعليق ، هي قوله :

« بل كون وطنه (أي الجزائري) بتلك الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ، ويحمله على تدارك هفوته الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده » .

لقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، في صيف 1928 ، أي قبل عامين من احتفال الفرنسيين بمرور قرن على الإحتلال ، ومعنى ذلك أن العمل من أجل إيقاظ الروح الوطنية قد بدأ قبل الصدمة التي أحدثتها تلك الإحتفالات الصاخبة . فالقراءة المتمعنة لهذا الكتاب تكشف عن بدايات مشروع ثقافي وطني لإحباط المشروع الإستعماري في المجال الثقافي الذي أشرنا اليه ، فالشيخ مبارك ، ينص في أكثر من مكان ، على كل ما من شأنه أن يوحد الشعب ، ويقضي على عناصر التفرقة . فهو يعتز ، في الجزء الأول المخصص للفترة السابقة على دخول الإسلام ، بشخصيات أمازيغية مثل ماسنيسا ويوغرطا وتاكفاريناس . بل أنه ، هو العالم المسلم ، يشيد بشخصية مثل « الكاهنة » مدفوعا بروح وطنية لم ينل منها حماسه للإسلام وتدينه الشديد ، فهو يقول عن الكاهنة ، رغم انها حاربت المسلمين .

« . . . وكل من ينظر الى التاريخ بعين الحقيقة يراها دُرَّةً في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ » .

لأن المسعى الذي اعتمده رجال الإصلاح الديني في مجال التاريخ لم يكن يضع تاريخ الجزائر قبل الإسلام موضع تعارض مع تاريخ الجزائر الإسلامية، بحيث ينفي احدهما الآخر . لأن هذا المسعى يعتبر ظهور الإسلام بداية تحول عميق في جميع الميادين ، سياسيا وثقافيا واجتماعيا انصهرت به المجتمعات الأمازيغية ، من حضر وبدو في الإسلام عقيدة وثقافة وممارسات .

فالشيخ مبارك الميلي مثلا ، الذي ينسب نفسه الى بني هلال لم يكن يرى أي حرج في أن يطلق على الدول التي اسستها اسر وقبائل بربرية في العهد الإسلامي ، عنوان « العصر البربري » لأن الممالك والإمارات التي قامت بالمغرب العربي على سواعد قبائل بربرية ، لم تقم على أساس عرقي ، ولم تكن تمردا على الإسلام ، بل كانت تستمد تبريرها من المذاهب الإسلامية : فالدولة الرستمية والعبيدية

والأدريسية أو المرابطية كانت كلها محاولات لتجسيم مباديء حكم وفلسفة ونظام ، نادت بها مذاهب اسلامية نشأت بالمشرق .

بل أن الدعوة الموحدية التي ظهرت على يد بربري أصيل هو « ابن تومرت » كانت محاولة للجمع بين ما جاء من القول بعصمة الإمام المهدي ، مثلما كانت من بعض الوجوه محاولة لتطبيق بعض تعاليم الغزالي ضد التفريقات الفقهية الجامدة .

إن تحليل تناول الشيخ مبارك للتاريخ الجزائري ، يكشف عن مسعى وطني واضح من أجل توظيف التاريخ في أيقاظ الشعور القومي ، وفي خدمة مفهوم للوطن ومشروع للثقافة لا يمكن إلا أن يكون متناقضا مع استمرار الإستعمار .

ويمكن أن نتبين مقصد الشيخ مبارك من أول صفحة في كتابه وهي التي تتضمن كلمة الإهداء . فهو يهديه الى « الشعب الجزائري » والى « شبابه المفكر ورجاله العاملين والمخلصين » ويعلل سبب الأهداء للشعب بأن الشعوب اصبحت تعرف اليوم « أن ارادة الحاكم انما تتقوى من جبنهم وجمودهم ، وأن الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعوب » .

وهو نفسه ، عندما يناقش اطروحة بعض المؤرخين الإستعماريين الذين يريدون ربط ماضي الجزائر بأوروبا تمهيدا لفرنستها ، يقول عنه أنه يريد أن « يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم أوروبية بالخصوص كي تذهب وحدته ، ويسهل على البلعوم الأوروبي ابتلاعه . . وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ، ولكن لن يلج الجنس في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط » (أي انه يجعل الإدماج مستحيلا استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة) .

وبعد أن العمل الذي قام به الشيخ مبارك الميلي في تأليفه لهذا الكتاب ، بتلك الروح والإعتزاز بكل الماضي قد أدى خدمة كبيرة الى المسعى الوطني العام من أجل اعطاء مضمون حي لفكرة الوطن

الجزائري الذي تكون عبر التاريخ . ذلك المسعى الذي انتصر في النهاية على المسعى الإستعماري الذي اراد أن يتجاهل التكامل بين عهد ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام ، وحاول أن ينكر عمق التغيير الذي احدثه الإسلام وحضارته العربية اللسان .

أن الشيخ مبارك الميلي في أخذه بالمفهوم الوطني ودفاعه عن وحدة التاريخ الجزائري كا ن أكثر تجاوبا مع منطق التاريخ وأنفذ إلى حقائق الأشياء من أولئك المنظرين الإستعماريين الذين كانوا يحلمون باجترار الماضي اللاتيني ، وتكريس الحاضر الفرنسي ، والذين كانوا يتصورون أنه في امكانهم تذويب كيان عريق التاريخ ، اسلامي الروح ، عربي اللسان .

محمد الميلي

الكتاب الأول

في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

يتضمن هذا الكتاب الكلام على قدماء الجزائر أهل العصر الحجري والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها الا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب اليهم ؛ والكلام على الدول التي سادت البربر فيه : وهي : دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الفندال ودولة الروم ويتقدم ذلك كله القول في جغرافية هذا الوطن الطبيعية •

فانحصر هذا الكتاب في سبعة ابواب :

الباب الاول في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري •

الباب الثاني في ذكر البربر واصولهم وقبائلهم وما يرتبط بحياتهم

الباب الثالث في ذكر الفينيقيين وأخبارهم •

الباب الرابع في ذكر البربر وملوكهم على عهد قرطاجنة وروما الجمهورية •

الباب الخامس في ذكر الرومان واحوالهم مع البربر •

الباب السادس في ذكر الفندال ومآل أمرهم •

الباب السابع في ذكر الروم ومصير دولتهم •

جغرافية الجزائر الطبيعية

1 ـ تمهيد

الجزائر اسم لمدينة عظيمة على البحر الرومي ؛ تعرف قبل مجيء العرب باسم اقسيوم (ICOSIUM) .

ولم تكن تطلق على وطن مترامي الاطراف الا منذ العصر العثماني حيث اتخذ العثمانيون هذه المدينة عاصمة لمملكة ذات حدود مقررة فاشتق اسم الوطن من اسم عاصمة دولته الجزائر . هذا المعنى الحديث جزء من وطن كبير عرف من قبل مجيء الفينيقيين باسم ليبية وهو عبارة عن طرابلس وتونس والجزائر ومراكش قال البكري : «ليبية سميت ببنت باقوه بن يونش الذي بني مدينة منفيش[1] بمصر وهي التي ملكت ملك افريقية اجمع فسمى بها»[2] ثم انسلخت الجزائر وما والاها غربا من هذا الاسم وكان الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون هذا الوطن الذي عرف أخيرا باسم الجزائر الى ثلاثة أقسام :

1 ـ مصيصيليا (MASSESSYLIE) وهو عبارة عن سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتي الجزائر ووهران الى وادي ملوية غربا .

2 ـ مصيليا (MASSILIE) وهو باقي عمالة قسنطينة وغرب عمالة تونس الى طبرقة ثم صارت مصيصيليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا .

3 ـ جيتولية (GETULIE) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا ولما جاء العرب اطلقوا اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلانتيكي غربا ، والبحر الرومي شمالا والصحراء الكبرى جنوبا . وانما سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب . ثم قسم العرب المغرب الى أدنى وأوسط واقصى ؛ وذلك بالنسبة لشرقهم .

---

1) ـ حكم مصر قبل الميلاد (26) أسرة من لدن الالف الخامس الى المائة السادسة ، وكانت منفيش قاعدة الاسر العشر الاولى منها التي عاشت ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة .

2) ـ المغرب ص 21 .

---

1 ـ المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا
2 ـ المغرب الاوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا
3 ـ المغرب الاقصى هو ما بين وادي ملوية شرقا والبحر المحيط غربا
وأطلقوا اسم قسطيلية على ما يعرف اليوم باسم الجريد وهو جزء من جيتولية حسب اصطلاح من قبلهم . فلعل لفظ قسطيلية مأخوذ من جيتولية بضرب من التغيير وقد كان الرومان يسمون عمالة تونس افريقية «AFRIQUE» ولما جاء العرب استعملوا هذا الاسم بازاء معان ثلاث :

قال صاحب المؤنس : تطلق افريقية على القيروان خاصة ؛ وعلى ما بين وادي الطين وبلدة باجة ؛ وعلى المغرب كله .

ولما قسم المتأخرون الكرة الارضية الى قارات خمس اطلقوا اسم افريقية على القارة الواقعة ما بين المحيط الاطلانتيكي غربا ؛ والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا ؛ والبحر الابيض شمالا ؛ وملتقى المحيطين جنوبا . واذ ذاك اطلقوا على المغرب اسم افريقية الشمالية .

ان المغرب بجميع اقسامه ـ او افريقية الشمالية ـ منفصل عن بقية افريقية بصحار يتعذر سلوك بعضها ويتعسر سلوك بعض آخر ؛ لذلك ضعفت الروابط بينه وبين اقسام بقية القارة حتى كاد لا يعد منها ؛ وهو يكون وحدة جغرافية وجنسية ودينية وتاريخية : فان هواه واحد وطبيعة أرضه واحدة ؛ وسكانه من قديم الجنس البربري ؛ وديانته ـ قديما ـ الوثنية ثم جاءت المسيحية فكادت تعم عليه ثم جاء الاسلام فلم يدع قلبا الا فتحه واستقر به الاستقرار النهائي ؛ والأمم التي فتحته قبل الاسلام وبعده كان فتحها متحدا وان اختلفت جهته ؛ فالرومان ـ مثلا ـ لكونهم بحريين جاءوه من الجهة الشمالية ؛ والعرب لكونهم اهل صحار جاءوه من الجهة الجنوبية .

2 ـ الحدود

قد علمت ان وطن الجزائر عبارة عن موريطانيا الشرقية ونوميديا وجيتولية فحده الشمالي البحر ؛ وهو الحد الطبيعي للمغرب كله .

وحده الجنوبي العرق وهو عبارة عن سلسلة جبال رملية تبتدىء من المحيط غربا وتنتهي شرقا بالنيل المنحدر من الجنوب الى مصر ؛ وهذا هو الحد الطبيعي لجنوب المغرب ايضا .

وحده الغربي وادي ملوية الذي هو حد موريطانية الشرقية ، وحده الشرقي طبرقة التي هي حد نوميديا .

تقرر هذا الوطن على هذه الحدود منذ العصر القرطاجني ، وينقسم داخله انقساما اداريا الى ايالات تختلف باختلاف انظار الدول والملوك . وربما قام ببعضها امراء مستقلون ولم تزل تلك الحدود مرعية الى ان ملك آل عثمان من الترك هذا الوطن فنقصوا من حدوده الشرقية والغربية .

صار الحد الشرقي للجزائر ـ اذ ذاك ـ يمر شرق تبسة وسوق اهراس ومرسى القالة . والحد الغربي يمر غرب للامغنية وجبال ندرومة .

وبهذه الحدود الاخيرة صار الوطن الجزائري يشتمل على (700،000) ميل مربع تقريبا (الميل الفا ذراع) .

فاذا ألقيت نظرة على الحدين الغربي والشرقي الفيتهما غير طبيعين فلم تكن للوطن الجزائري وحدة جغرافية الا في ضمن المغرب .

واذا نظرت الى قدم حدوده وانها كادت تعاصر فجر التاريخ رأيت ان له شبه وحدة تاريخية وسياسية .

وقلما تجد أرضا ميزتها الطبيعية بتلك الحدود مثل أرض المغرب . وقلما تجد وطنا ذا حدود عريقة في القدم مثل الوطن الجزائري .

3 ـ جو الوطن الجزائري

الوطن الجزائري واقع بالمنطقة المعتدلة ولقربه من خط الاستواء كانت برودته اضعف من حرارته . وقد تأثر جوه بالبحر شمالا والصحراء جنوبا ، فكانت الجهات الشمالية على غاية من الاعتدال : اذ البحر يضعف حرارة الصيف بمياهه ويخزنها فاذا كان الشتاء قاوم برودته بابخرته السخنة ؛ فيعتدل الجو ـ تقريبا ـ صيفا وشتاء . أما الجهات الجنوبية فهي شديدة الحر لأن الصحراء تدفع حرارة الصيف ولا تخزنها ؛ واذا جاء البرد لم يجد ما يقاومه فيشتد ايضا .

أما من حيث المطر وعدمه فان الوطن الجزائري ليس له في الحقيقة الا فصلان : فصل الامطار ؛ وفصل اليبس ج والاول يبتدىء من منتصف الخريف الى مضي شهرين من الربيع . واكثر ما يكون المطر في الشهر الاخير من الخريف وشهور الشتاء الثلاثة .

والثاني يبتدىء من أواخر الربيع الى منتصف الخريف . وفي بعض هذه المدة تشتد الحرارة وتقلق البشر خصوصا اذا هبت ريح السموم .

4 ـ الشاطىء الجزائري

الشاطىء الجزائري ـ كشواطىء اقسام المغرب ـ كاد يكون خطا مستويا . ولذلك قلت رؤوسه وخلجانه وكانت مراسيه قليلة العمق . وطوله حسب الحدود الحالية (1200) ميل .

والرؤوس الكبار بهذا الشاطىء هي :

رأس فلكون ، رأس إيفي ، رأس كاكسين ، رأس مطيفو ، رأس كربون ، رأس بوقرعون ، رأس الحديد ، رأس القارد .

والخلجان الكبار هي :

خليج وهران ، خليج رزيو ، خليج الجزائر ، خليج بجاية ، خليج استورة ، وخليج بونة .

ومراسيه المشهورة هي :

مرسى وهران ، مرسى تنس ، مرسى شرشال ، مرسى الجزائر ، مرسى الرجاج ، (وهو مقابل لجزيرة ميورقة) ، مرسى بجاية ، مرسى جيجل ، مرسى القل ، مرسى استورة ، (قرب سكيكدة) ، مرسى بونة ، مرسى مدينة الخرز (وهي القالة) .

وقد ذكر البكري[1] مراسي كثيرة اضربنا عن بعضها لقلة اهميتها كما اضربنا عن رؤوس كثيرة وخلجان غير قليلة لضعف فائدة تعدادها . وتوجد للجزائر جزائر ذكرها البكري[1] أيضا ولكن لم ار داعيا لسردها . واما شبه الجزائر فأهمها شبه جزيرة سيدي فرج التي نزلها الفرنسويون في ذي الحجة ويوبيه (جوان) عام 1245 ـ 1830 .

---

1) المغرب ص 81 ـ 83 .

5 ـ جبال الجزائر

تتكون جبال الجزائر من سلسلتين متوازيتين آخذتين من الغرب الى الشرق . تفرق بينهما الهضاب غربا وتكادان تتلاقيان بعمالة تونس .

تعرف السلسلة الشمالية منهما بالاطلس التلي ؛ والجنوبية بالاطلس الصحراوي . ولا يتجاوز ارتفاع السلسلتين عن البحر الميلين الا قليلا . وجبال الاطلس التلي اكثر ارتفاعا من جبال الاطلس الصحراوي .

وتفترق جبال الاطلس كليهما أما بسهول واما بمضائق . وتختلف اسماؤهما باختلاف القبائل المجاورة لهما . ففي كل مكان يطلق اسم خاص على جبال تينك السلسلتين .

فمن جبال الاطلس التلي جبل تنوشفي ، بجهات تلمسان ارتفاعه (2680) ذراعا . جبال الضاية ، جبال سعيدة ، جبال وانشريس ما بين وادي مينة ونهر واصل اعلاها جبل عين الدنيا . ارتفاعه (3070) ذراعا . في سمتها شمالا جبال الظهرة ، ارتفاعها ميل وجبال زكار ارتفاعها ميل ونصف . جبل كزول (او جزول) مشرف على تاهرت وهي في سفحه . جبال تيطري (3200) ، ما بين منعطف وادي شلف الى الغرب وسهل وادي الساحل ، والى شمالها سهول متيجة ، جبل شنوة . جبال جرجرة . منها جبل لالا خديجة ارتفاعه ميلان وستمائة وست عشرة ذراعا . جبال سور الغزلان يبلغ بعضها (3600) . جبال بابور ، يقرب بعضها من ميلين ، جبال الرحمن . وهي ما بين مرسى الزيتونة (شرق مرسى جيجل) ومرسى القل . قال البكري «وهو كثير الثمار والانهار ، يسكنه قبائل من كتامة وغيرها ، وفيه مزارع كثيرة ومراع مريعة ، ومنه يحمل عمود الخرط الى افريقية وما والاها ، وفيه اسواق كثيرة ومراسي»[1] ، جبل ايدوغ ناحية بونة يبلغ ميلا .

ومن جبال الاطلس الصحراوي جبل بني راشد (وهو جبل عمور) من قننه ما يبلغ (3600) ، جبال الصحاري ، جبل أوراس ، به أعلى

---

(1) المغرب ص 83 .

جبل في الجزائر يعرف بشلية يبلغ علوه ميلين وستمائة وستا وخمسين ذراعا . وجبال أوراس لها شبه بجبال القبائل ، ويجمع بين الاطلسين جبال الحضنة .

6 ـ مياه الجزائر

ان للجبال دخلا في كثرة المياه وقلتها . فمتى ارتفعت الجبال جلبت اليها السحاب فينزل المطر وكلما ازدادت الجبال علوا ازداد المطر كثرة . وجبال الجزائر ليست متناهية في الصعود كما في بعض اوطان جنوب أروبا فكان المطر بها غير متناه في الكثرة . ولكنه واف بغرض أهل الوطن . فقد تكونت منه أودية كثيرة وبحيرات كبيرة وحمامات شهيرة . وهي مفيدة للوطن .

فان من الأودية ما تقام فيه السدود وينتفع بمياهه في سقي البساتين والحقول وتجعل عليه الارحاء لطحن الحبوب ، ومن البحيرات ما يستخرج منه الملح خصوصا في الصيف عند ما تيبس ، ومن الحمامات ما يقصد للنزهة والخلاعة والتداوي من بعض الامراض .

اما الأودية فليست من الانهار العظيمة ولا يكثر الماء بها الا شتاء بعد نزول الامطار الغزيرة ، وفي الصيف بعضها يبس وبعضها تبقى به مياه قليلة . ولذلك لا تقل السفن العصرية الضخمة ولكن السفن القديمة كانت بعض الأودية تتحملها مثل وادي شلف ووادي سيبوس وقد ذكر البكري[1] عن وادي قسنطينة انه تجري فيه السفن ، وذكر مثل ذلك عن نهر تافنا[2] .

ومن الأودية الكبرى التي تصب في البحر : نهر تافنا ونهر المقطع (ويظن بعض المؤرخين انه هو الذي كان يدعى مولوشات (MOLOCHATH) نهر سيك ، (واظنه نهر سيرات) . وادي شلف وهو اطول أودية الجزائر اذ يبلغ طوله (700) ميل ، ومنبعه من جبل بني راشد ويذهب شمالا مع ميلان الى الشرق أو الغرب في بعض الاماكن ، يمر ببوغار ثم ينعطف الى الغرب ويصب في البحر

---

1) المغرب ص 63

2) المغرب ص 77

شرقي مستغانم . وتمده في طريقه أودية أخرى ويسمى في أوله وادي الطويل . وادي اسر . وادي سيباو . وادي الساحل يجتمع بوادي بوسلام ويسمى بعد ذلك سهام ؛ ويقسم القبائل قسمين : القبائل العظيمة ـ لارتفاع جبالها ـ غربا ، والقبائل الصغيرة شرقا . وادي الرمل ـ او الواد الكبير ـ (ويعرف قديما وادي مساغا) (AMSAGA) ومنبعه قال البكري : «من عيون تعرف بعيون أشقار . تفسيره سود»[1] يأتي من غرب قسنطينة ويمر بشرقها ثم يذهب شمالا وتمده أودية كثيرة في طريقه . وادي سيبوس يمر بقالمة ويعظم في آخره .

ومن الاودية التي لا تصب بالبحر : وادي الشعير . منبعه بشمال جبل بوكحيل ويصب في شط الحضنة .

نهر سهر منبعه من نواحي برج الغدير ومصبه في شط الحضنة ايضا ويعرف اليوم بوادي القصاب . وادي مزى منبعه بجبل بني راشد وتطلع فيه عيون ثرارة قرب قرية الاغواط بمكان يعرف برأس العيون ومنها شراب الاغواطيين ويسقي بساتينهم . ويعرف في شرقه بوادي جدي . ويصب بشط ملغيغ جنوب بسكرة .

وأما البحيرات فهي ملحة ولا يوجد بها الماء الا فصل الامطار . ولا نحباس مياهها قد تنشأ عنها الحمى ، ولذلك غوروا مياه بعضها كبحيرة عنابة وتعرف ببحيرة فزارة ، وبحيرة هلولة بسهول متيجة ، وسبخة وهران .

وبحيرات الجزائر منها ما هو متسع جدا ومنها ما هو قليل الاتساع . ويعبر عن المتسع منها بالشط وعن قليل الاتساع بسبخة او زاغز او ضائه .

اما الشطوط فتكون بالهضاب والصحاري ومن أشهرها : الشط الغربي في حدود الجزائر غربا ، الشط الشرقي فيما بين جبل بني راشد وجبال سعيدة ، شط الخضنة جنوب المسيلة ، شط ملغيغ جنوب بسكرة ، أما البحيرات الصغيرة فمنها زاغز الغربي بالشمال الغربي من الجلفة ، زاغز الشرقي بالشمال الشرقي منها ، البحيرة في عمالة قسنطينة تقطعها السكة الحديدية الذاهبة من قسنطينة الى باتنة . وأما الحمامات

الطبيعية فهي كثيرة وموجودة بجميع جهات الوطن الجزائر . منها بعمالة وهران حمام بوحجر ، حمام بن حنيفية . وبعمالة الجزائر حمام ألوان ، حمام ريغة . وبعمالة قسنطينة حمام أولاد زاير غرب ميلة ، حمام بني هارون شمالها ، حمام المسخوطين قرب قالمة . حمام بسكرة .

والعجائز ومن في معناهن من ضعفة العقول ومعبدي الجهل يعتقدن ان لهذه الحمامات ميزة وفيها سرا الاهيا فيدعونها حمامات الصالحين ويقصدنها للتبرك ؛ والعواقر يستحمن بها رجاء النسل . ومن سخافة عقول هؤلاء المساكين ـ رجالا ونساء ـ اعتقادهم أن الجن هم الذين يتولون تسخين تلك المياه ليستحم فيها سليمان عليه السلام لجهلهم موته . والقرآن ذكر ان الجن جهلوا موت سليمان ثم علموه عندما أكلت دابة الارض من منساته وخر على الارض . ولكن الجهال ينسبون الى الجن كل ما جهلوا اصله من الامراض وغيرها .

7 ـ مناظر الجزائر

تنقسم الجزائر الى ثلاث مناطق طبيعية متوازنة آخذة من الغرب الى الشرق :

المنطقة الاولى التل والثانية الهضاب والثالثة الصحراء .

1 ـ التل : هو المنطقة التي على ساحل ابحر وتأخذ في الارتفاع حتى تبلغ الاطلس التلي . وما يلي البحر منها يدعى السواحل . وبمجاورته للبحر صار جوه متوسطا بين الحرارة والبرودة . والشتاء فيه حسن جدا . وأرضه ذات سهول وجبال فكانت صالحة لضروب كثيرة من الفلاحة . اما جباله فقد تقدمت ، وأما سهوله فهي خصبة مأمونة الري . منها سهل وهران مغمور شطره بسبخة وهران . سهل سيك ويسقي من واديه[1] . سهل شلف وهو حار وله مواد كافية لسقيه مستطيل قليل العرض واقع بين جبال الظهرة وزكار شمالا ، وجبال وانشريس جنوبا . سهل متيجة (تعرف قديما بقزرونة) وهو اخصب سهول الجزائر واقع بين ساحل الجزائر شمالا ووطن القبائل شرقا وجبال البليدة وملیانة جنوبا . سهل حمزة بوطن القبائل . سهل عنابة وهو شبيه بسهل متيجة لولا ما به من كثرة الحمى الناشئة عن بحيرة فزارة .

2 ـ الهضاب : وهي المنطقة الوسطى ذات سهول عالية يبلغ متوسط ارتفاعها (1600) ذراعا ؛ وقد تصل (1800) . وبها منخفضات تتكون في بعضها بحيرات . هواؤها جاف : لأن جبال الاطلس التلي تمسك عنها السحاب وجبال الاطلس الصحراوي ـ لتفرقها ـ لا تمسك عنها الرياح السمائم . وتختلف حالها صيفا وشتاء اختلافا كبيرا وكذلك لا تجد المناسبة بين ليلها ونهارها : الشتاء بارد جدا وفي بعض الاماكن تسقط الثلوج بكثرة ؛ والصيف حار ولكن لياليه معتدلة حسنة . والرياح بالهضاب كثيرة والحمى نادرة . ومن الهضاب الواسعة هضبة الحضنة تكثر بها الرمال وهي في جفاف هوائها وحرارة طقسها شبيهة بالصحراء .

3 ـ الصحراء : هي المنطقة الجنوبية وغالب أرضها رمال تذروها الرياح . ولكن بها واحات جميلة ذات مياه مطردة يغرس عليها النخيل وانواع من الاشجار ويسقى بها بعض الخضر وقليل من الزرع .
وبها هضاب لا تنبت شيئا تدعى «الحمادة» وكثبان من الرمل تمسك الندى فينبت بها بعض الاعشاب ترعاها الجمال . وبها أودية لا تجري بالماء الا بعد نزول المطر الغزير . ومن واحاتها قرارة بوطن توات واكبر قراها عين صالح ؛ واحة فجيج شمال توات ؛ واحة المنيعة ؛ واحة ورجلة .

---

8 ـ الغابات والنباتات الطبيعية

الجبال الجزائرية كلها ذات اشجار متنوعة ونجوم مختلفة . وليست الاشجار والنجوم مختصة بالجبال بل توجد في غيرها ايضا .
ومن الغابات الشهيرة غابة ثنية الأحد ، غابة عزازقة بوطن القبائل ، غابة بابور ، غابة سوق اهراس ، غابة أوراس .
ومن الاشجار البطم ، والبلوط ، والخروع ، الخرنوب ، الخلاف (وهو الصفصاف) الدردار ، الدفلى ، الضال ، الضرو ، السرو ، الصنوبر ، الارز ، العرعر ، العشرق ، الطرفاء ، القصب ، الكافور ، الكرم ، النبق ، النشم ، الريحان ، الكروش ، ومن النجوم لبهار ، الحرشف (والعامة تقول الخرشف) الحرمل ، الحسك .

الحنظل ، الخبازى ، السلق ، شقائق النعمان ، عنب الثعلب ، العرفج ، الكراث ، الكرفس ، البرجس ، الصعتر ، الديس ، الحلفاء ، الدرين ، والثلاثة الاخيرة كل منها مختص بمنطقة : الديس بالتل ، الحلفا بالهضاب ، الدرين بالصحراء .

ليس في استطاعة احد ان يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها على كثرة اصنافها وعظم فوائدها لا ينتفع بها الجزائريون الا انتفاعا بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحيوا علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات جليلة وكان لهم السبق في الميدان الاقتصادي . وليس هذا بالأمر الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى ينتبهون من هذه النومة التي كاد امرها يجاوز امد نومة القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيما تكاسلوا عنه .

لا يمكن أي احد ان يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من مرقدها فان المستقبل لله وحده ، ولكن لا نيأس من هذا اليوم الميمون فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . أليس الله بقادر على ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير .

9 ـ الحيوانات الوحشية

يعيش في غابات الجزائر وفلواتها حيوانات كثيرة لا يأتي عليها العد . ولكن اذكر بعضا من ذوات الاربع والطير والحيات .

فمن ذوات الاربع الأرنب ، الأسد ، ابن عرس ، ابن آوى ، الثعلب ، الخنزير ، الذئب ، سنور البر ، الضبع ، القرد ، الكركند ، كلب الماء ، النمر ، اليربوع ، القنفذ ، الضربوب ، الغزال ، الوعل .

ومن الطير البازي ، الببغاء ، البلبل ، البوم ، الحبارى ، الحدأة ، الحمام ، الحجلى ، الخفاش ، الرخمة ، الزرزور ، السماني ، الصقر ، العصفور ، العقبا ، الغراب ، القنبرة ، القطا ، الكروان ، النعامة ، النسر ، الهدهد .

ومن الحيات الافعى ، الثعبان ، العقرب ، الحرباء ، الضب ، الورل .

ان في وفور السباع العادية والحيات السامة ما يقوي الذكاء ويعين على الاختراع لأن مجاورها مضطر الى وقاية نفسه منها ومحتاج الى تدبير حيل للانتقام منها . وقديما قيل : «الحاجة أم الاختراع» .

وفي وفور الصيد من الطير وغيرها ما يحمل على تعلم الرماية والحذق فيها . اذن فالشعب الجزائري ـ بطبيعة وطنه ـ من انبل الشعوب واحكمها رماية .

10 ـ المعادن

الجزائر مشهورة من قديم بالمعادن وخصوصا معادن الحديد

1 ـ الذهب : من معادنها الذهب ولكنه قليل

2 ـ الفضة : ومنها الفضة

3 ـ الالماس : ومنها حجر الالماس

4 ـ الزرنيخ : ومنها الزرنيخ

5 ـ الخيلدون : ومنها الخيلدون ، وهو نوع من العقيق الجيد

6 ـ الرخام : ومنها الرخام ، وهو موجود بجهات كثيرة ولكن نتيجته ضعيفة لأنه لا يصدر الى الخارج لغلاء مؤنة حمله . والمشهور من معادنه . معدن فليفلة قرب اسكيكدة ، معدن شنوة قرب شرشال ، معدن عين تاكبالت قرب وهران . ورخام هذه المعادن رفيع جدا .

7 ـ النحاس : ومنها النحاس ، يوجد بكثرة في عين بربار قرب عنابة ، وفي جبال كتامة ، وفي غيرها .

8 ـ الرصاص : ومنها الرصاص ، يوجد قرب الحد التونسي بكهف ام الطبول ، وقرب الحد الغربي بغار اوبان .

9 ـ الزانك : ومنها الزانك يوجد بجبال وانشريس ، وبو ثعلب بعمالة قسنطينة وغيرهما من النواحي .

10 ـ الحديد : ومنها الحديد . وهو اكثر معادنها واشهرها . والمشهور

من معادنه اثنان ، مقطع الحديد قرب عنابة ، معدن بني صاف بالشاطىء الوهراني .

11 ـ الجبس : ومنها حجر الجبس . وهو موجود بجهات كثيرة . اشهرها وادي تافنا ، أربعاء بني موسى قرب الجزائر .

12 ـ الجير : ومنها حجر الجير . وهو موجود بجميع النواحي .

13 ـ الغاز : ومنها الغاز . يوجد بجبال الظهرة ونواحي غليزان .

14 ـ الملح : ومنها الملح . يوجد الملح الحجري بجهات ميلة والجلفة . ويستخرج غير الحجري من البحيرات والسباخ .

15 ـ الفسفاط : ومنها الفسفاط . وهو زبل طبيعي يستعمل لتطييب الارض الفلاحية والغراسية . يوجد منه كثير بنواحي تبسة وسطيف .

11 ـ الفلاحـــة

أرض الجزائر كريمة البقعة طيبة التربة منبجسة العيون والانهار آخذة حقها من الشمس فكانت لذلك خصبة الجبال والبسائط صالحة لضروب كثيرة من الفلاحة . ولكن عماد ثروتها ودعامة غناها شيئان : الحبوب وهي في الدرجة الاولى معروفة بذلك من قديم . وقد كان الرومان يدعون الجزائر ـ وغيرها من التراب الافريقي ـ «مخزن حبوب رومة» والزيتون وهو في الدرجة الثانية . وهو شجر جبال كتامة والقبائل وبلاد تلمسان .

ان وطن الجزائر وطن خيرات كثيرة ليس من المستطاع احصاؤها . ولكن نذكر بعض ما يحرث به أو يغرس .

فمن زروعها الحنطة وهي انواع متفاوتة في الجودة . الشعير . السلت . وقشرته قشرة الشعير وحبته حبة القمح وتدعوه العامة «شعير النبي» . الحمص ، الفول ، الأرز ، الدخن ، الذرة وهي نوعان ، العدس ، الكتان ، القطن ، التبغ . وهو مما جلب اليها أخيرا بخلاف ما قبله فانها قديمة العهد .

ومن اشجارها الزيتون وهو اعظمها فائدة . التين . وهو انواع كثيرة ويدخر للاقتيات ببلاد القبائل ، الكرم وهو ضروب كثيرة

وجودته مشهورة . النخيل وهو بصحرائها ذو انواع يعسر عدها منها مالا نظير له في سائر البلاد طعما ونكهة . التفاح وهو انواع مختلفة طعما وريحا . الاجاص وهو انواع مختلفة طعما وحجما . اللوز وهو نوعان صلب ولين . البورتقال (الشينة ـ الشين) الليمون وهو انواع . الزنبوع . الاترج ، الجوز . الموز . الخوخ . وفيه اصناف . المشمش وفيه اصناف تبلغ ثمرة بعضها حجم ثمرة الخوخ . الفستق . العناب وهو كثير بناحية بونة حتى سميت من اجل ذلك عنابة . بوفريوة . السفرجل وهو موجود بجميع جهات الوطن ولكن لسفرجل تيهرت شهرة على غيره ، قال البكري ـ اثناء الكلام على تيهرت ـ: «وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما»[1] .

التوت وهو انواع . حب الملوك

وتنبت الجزائر غير ما ذكر من ضروب الحبوب والاشجار ضروبا من الخضر والبقول ، وكل ذلك يدل على أرض خصبة طيبة . ولكن هل ذلك مدح لها أم ذم ؟

ما من أحد الا وهو يرى ان الارض الخصبة افضل من الارض الجدبة . ولكني اراني مضطرا لمخالفة الناس في ذلك والذهاب الى غير ما يذهبون اليه حاكما بعكس حكمهم . فاذا رأى القارىء حكمي هذا غريبا فليتأمل مستندي فيه وماذا أرمي اليه فعساه وافقني او يعذرني على الأقل .

ذلك ان الجنس الذي يكون بالاراضي التي غضبت عليها الطبيعة فجردتها من روعة الجمال وتركتها عجوزا شمطاء يجد نفسه في حاجة الى التوسع وطلب الرزق في غير وطنه . وليس له من زاد يبلغه الى امنيته ولا معين يعينه على تنفيذ طبته الا الشجاعة والدهاء . والدهاء عضده الايمن ووزيره الايمن .

الرأي قبل شجاعة الشجعان

فيقرأ في مدرسة الحاجة دروسا من الدهاء ؛ وتكسبه منازلة الاهوال من صفة الشجاعة على نسبة الخطوب التي قارعها في تحصيل

مطلوبه .

أما الجنس الذي يكون بالارباضي التي منحتها الطبيعة سلطان الجمال وخلعت عليها ضروب الزينة فأضحت عروسا ترمقها الاعين من كل جانب وهي في عزتها لا تحتفل بأحد ـ هذا الجنس تجده راضيا عن وطنه مستغنيا بخطه الوافر عن ان يمد عينه الى غيره . فلا يضطره تحصيل رزقه الى دهاء بعيد القعر ـ عياذا بالله من الافراط ـ ولا يكتسب الشجاعة الا من مطاردة الحيوانات الوحشية ترويضا لنفسه وتتميما للذته .

ولهذه النظرية شواهد عملية فليست النظرة خيالية بل واقعية . انظر الى الأمة العربية النابتة بتلك الصحاري الموحشة المقفرة لما عرفت كيف تتحد وطعمت لذة الاتحاد بجدها قد ملكت نصف المعمور او جله في أمد لا يكفي غيرها من الامم لافهامهم فائدة الاتحاد .

وهذه الأمة الانكليزية الناشئة بتلك الاراضي الصخرية امتد ملكها في جميع القارات الخمس على أمم كثيرة . وليقس ما لم يقل .

فالاراضي الجدبة أيأست غير سكانها من الطمع فيها ودفعت باهلها الى مشاركة الغير في خيرات وطنه او تجريده منها .

والاراضي الخصبة الفتت انظار الاجانب عنها اليها وشغلت اهلها عن النظر الى غيرها . وربما علمتهم الكرم ففسحوا لنزيلهم الذي لم يروا منه مكروها كما فسحت افريقية للفينيقيين . وربما دعتهم الى القناعة فتركوا بعض الاماكن للهاجم عليها من غير ان يستنفدوا قوتهم في الدفاع عنها .

وبديهي ان هذه المساوي للاوطان الخصبة الى جانب محاسنها تنطبق على الوطن الجزائري ، فكيف تجد نفسك يا ابن الجزائر اذا انت فكرت تفكيري ووافقتني في بحثي واستنتاجي ؟

أتسب وطنك ان جاد عليك بخيراته حتى انغمست في الملاذ واهملت واجباته ؟ ام ترى ذلك عذرا يفسل عنك عار الكسل ويبيح لك الخمول والازواء عن العمل ؟ لا ـ لا تنقص وطنك الكريم فان ذلك من خلق اللئيم ؛ ولا ترتد بالكسل وترتض الجمود فانك بذلك تسلم في نصيبك

من الحياة لذوي الجدود ؛ ولا يحملنك ذلك النظر على الاستسلام للقدر . فان ذلك البحث انما يصلح متكأ للأمم التي لم تزل على الفطرة لا تعرف غير وطنها ولا عرفت شيئا من احوال غيرها ليس لها كتاب يرشدها ولا فلاسفة توسع انطاق عقلها ولا ماضي زاهرا يذكي بنفوسها جذوة الحماس ويبعثها على استعادته .

أما ابن الجزائر فلا متكأ له في ذلك البحث . بل كون وطنه بتلك الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ويحمله على تدارك هفوته ويوقظه الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده .

الباب الأول

في ذكر قدماء الجزائر

أهل العصر الحجري

تمهيـــد

كان الانسان في ابتداء وجوده واول عهده بهذه الحياة لا يعرف الكتابة ولا الصنائع والحرف ، ولا يهتدي الى ما اودع الله في الارض من المنافع ، فجهل الفلاحة والغراسة واستخراج المعادن .

انما عرف الحجارة فاستخدمها لصيد الوحوش لقوته ، او رد عاديتها عنه ، ثم في دفاع المعتدين عليه من بني جنسه ، او الهجوم عليهم.

ولبث على ذلك دهورا طوالا ـ ولكن مع ترقٍ في صناعتها وتفنن في وجوه استخدامها — حتى اخترع الكتابة وعرف المعادن ودخل حظيرة الحياة النظامية .

ويعرف ذلك الدهر الطويل بالعصر الحجري لأن مدنيته مشتقة من الحجارة . ويدعى أيضا « ما قبل التاريخ » لان الكتابة لم توجد بعد حتى يدون ما على عهده من الحوادث والوقائع وسير العمران والحضارة فالمؤرخ لا يستطيع ان يتحدث عن اهل هذا العصر حديثا مفصلا مستمدا من النقل ، فكان هذا العصر جديرا بان يدعى ما قبل التاريخ .

ان المؤرخين — وان لم يكن لهم نقل عن أهل هذا العصر — لم يعدموا سبيلا للبحث عنه فقد وجدوا من الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الارض اساسا للكلام عن حياة الانسان الاول . وانار امامهم مذهب النشوء والارتقاء دياجي هذا العصر الحالكة .

ان مذهب النشوء والارتقاء قديم ليس من بنات افكار المتأخرين . والناس ازاءه فريقان : مثبت له معجب به ، ونافٍ له نافر منه .

والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤيده القرآن الكريم ان المذهب نفسه — بصرف النظر عن بعض الجزئيات — معقول مقبول .

امـا الضرورة فيكفي لاستحضارهـا نظرة في النبات والحيوان والاجتماع والعمران : فانك ترى النبات كيف يبدو عقب ماء المطر او غيره ثم يأخذ في الرقي حتى يبلغ شبابه المقدر له ، وترى الحيوان يكون نطفة ثم يترقى حتى يوضع ويأخذ في النمو حتى يبلغ أشده ، وترى الرجل يؤسس البيت او الملك ثم يأخذ ذلك التأسيس في الرقي حتى ينال الشرف ويحوز السيادة وينتهي الى درجة من العظمة • ثم ينشأ غيره ويزاحمه ويترقى على حساب انحطاط الاول حتى يضمحل ويحل الثاني محله • وهكذا الشأن دواليك في كل زمان ومكان ، وترى مثل ذلك في العمران أيضا •

واما القرآن فقد قال تعالى — في شأن النبات — : « والذي أخرج المرعى فجعله غثاء احوى » ، وقال في شأن الحيوان — : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ، وقال تعالى في شأن الاجتماع — ومثله العمران — : « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

واذا ثبت لديك ان المذهب نفسه لا مغمز فيه فلا يضيقن صدرك لبعض الجزئيات التي يقسر بعض الماديين عقلاء البشر على قبولها ويحاولون بها هدم الاديان — مثل ترقي الفرد الى نوع الانسان — فان تلك الجزئيات لم تزل وهما ولن تزال خيالا فكيف يصح الحاقها بذلك المذهب الصحيح ؟

وزبدة القول ان الضرورة والدين متفقـان على اثبـات النشوء والارتقاء في النوع الواحد : اما الارتقاء من نوع الى آخر فاقرب من تحقيقه الجمع بين النقيضين •

ولا معارضة بين دعوى ان انسان العصر الحجري كان جاهلا الى

تلك الدرجة ، وما اخبر به الكتاب الحكيم من ان الله علم آدم الاسماء كلها لانه لم يخبرنا انه علم علمه لاولاده بل فيه ما يرشدنا الى ان ذلك خصوصية لآدم اذ ذكر قصة ابنى آدم — وهما لصلبه في رأي بعض المفسرين — وعدم اهتداء القاتل لدفن المقتول • وعلى تقدير ان يكون علم اولاده فان كرور الايام وانتقال البشر من وطن الى آخر مما ينسي ذلك العلم ويذهب به • بل قد تكون الامة العالمة في مكانها لم تبرحه وتذهب الايام والليالي بعلمها حتى يظن الجاهل بتاريخها ان لا سلف لها في العلم • والشواهد على ذلك لا تحصى •

ا ـ اصل قدماء الجزائر

دل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على ان البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام ، وانه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام ولم ينج الا من ركب معه في السفينة ولم يعقب منهم الا ابناؤه « وجعلنا ذريته هم الباقين » •

واتفق المؤرخون على ان ابناء نوح الذين تفرعت عنهم جميع امم الدنيا ثلاثة : سام ، حام ، يافث •

وقد ذكر ابن خلدون في ابناء يافث قطوبال ثم ذكر الامم المتفرعة عنه فقال : « واما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق، واللمان من المغرب ويقال ان أهل افريقية قبل البربر منهم ، وان الافرنج ايضا منهم • ويقال أيضا أن أهل الاندلس قديما منهم »(1) •

فاذا صحت هذه الرواية — ولصحتها شواهد ستراها — كان قدماء شمال افريقية وبلاد الفرنجة والاندلس ذوي رحم • ولهم اخوة مع الصين بالشرق •

---

(1) ج2 ص10 .

وعلى هذه الرواية يكون شمال افريقية اقدم عمارة من جنوب أوربا ، لان ابناء قطوبال لا شك انهم مروا بمصر — حسبما هدت اليه الآثار — ثم نزلوا افريقية الشمالية • وقـد كان البحر الرومي — اذ ذاك — قليل الماء ومتصلا باوربا من جهة صقلية ومضيق جبل طارق • (وقد ذكروا ان الذي حفر بوغاز جبل طارق هو هرقول وقيل الاسكندر)[1] •

والاول اصح فان هرقول متقدم الزمن جدا • اما الاسكندر فمن المحقق ان الفينيقيين — وهم اقدم منه — اجتازوا الى الاندلس في سفن (اواخر الالف الثاني قبل الميلاد) فانتقل بعض ابناء قطوبال من افريقيا الى جنوب أوربا برا — اذ لا سـفن لهم في ذلك الحين — سالكين تينك السبيلين • وسنقف على الآثار المؤيدة لهذا الرأي •

2 ـ آثار قدمـاء الجزائر

عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لاهل العصر الحجري ، وهي اما منازل لاحيائهم ، واما قبور لموتاهم • واما آلات لحياتهم من مصنوعاتهم ، واما اشياء من مقتنياتهم •

1 — المنازل : أما المنازل فقد وجدت آثارها بالاماكن المرتفعة والكهوف على مقربة من العيون والاودية • وعلـة نزول الهضـاب والكهوف التمكن من حماية انفسهم من الحيوانات الضارية ، والامتناع من الاعداء الهاجمين • وحكمة الاقتراب من الماء البارز على سطح الارض سهولة التزود منه ، لبساطة حياتهم وقلة اختبارهم للطبيعة •

ومن المنازل المكتشفة منزل قرب معسكر ومنازل اخرى بجهات وهران ، الجزائر ، سعيدة ، عين مليلة ، سطيف ، العين البيضاء ، تبسة•

---

(1) الاستقصاء ج1 ص32 •

2 — القبور : واما القبور فقد وجدت متفرقة ومجتمعة فوق الكهوف والهضاب • وهي مبنية بحجارة غير مصنوعة او بهـا أثر ضعيف من الصنع ، وملتصقة من غير ربط بطين ونحوها • يتخذون عليها صومعة من حجر كقالب السكر • وكثيرا ما يجعلون عليها صفيا عريضة ويحوطونها بصف من الحجارة • ثم أخذ من خلف الاولين منهم يقلل من هذه الاعمال القبورية حتى صاروا يكتفون بحياطتها بدائرة حجرية ويدعون الصندوق الحجري بارزا على سطح الارض بعد ما كانوا يضعون عليه حجارة كثيرة •

ولهم في الدفن طريقتان : الاولى وضع الميت بمحل وقتي حتى ينفصل لحمه عن عظمه ثم يجمعون عظام الاموات ويضعونها في قبر واحد ، الثانية ان يفصلوا اللحم عن العظم ما عدا المختلط بالعظام ثم يدفنون الهالك جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ويجعلون معه اواني ببعضها طعام ويضعون معه أيضا اسلحة واشياء من زينتهم •

وقبور اهل هذا العصر كثيرة بوطن الجزائر ، والبربر يدعونها قبور الجهلاء • وهي ترجع في تاريخها الى العصر الحجري الـذي انقرض اصحابه منذ امد بعيد •

3 — الآلات الحيوية : واما مصنوعاتهم الآلية لحياتهم : فمنها هراوي حجرية عديمة الاتقان ، مساحي ، مناقير ، وجدت هذه الاشياء بطلل دار قرب معسكر • ومنها آلات واسلحة مثل الاولى ، عثر عليها قرب الرمشي (مونطانياك) •

ومنها فؤوس كثيرة حجرية متقنة الصنع ، ابر من عظام متقنة أيضا ومنها أوانٍ من طين مزينة بصور • اكتشفت بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء ، ووجد معها اشياء من الاسلحة والآلات ومنها محكات لدبغ الجلود واشاف واوعية من خشب •

وهذه الآثار مختلفة في درجة الاتقان حسب اختلاف ازمنتها •

4 — المقتنيات : واما الآثار التي جلبوها للاقتناء من غير ان يكون لهم فيها عمل فمنها اصداف كثيرة برية وبحرية • عثر عليها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ونواح أخرى • وهذه الاصداف يتخذونها للزينة • ومنها عظام حيوانات وحشية وانسية منها فرس الماء والكركدن ونوع من الفيلة عظيم انقطع نسله منذ قرون عديدة ، عثر على عظام هذه الحيوانات قرب معسكر تحت كثيب رمل ارتفاعه ستون ذراعا • ومن تلك الحيوانات الوعل ، الغزال ، الخنزير ، الحمار ، البقر ، الضان ، العنز ، عثر على عظامها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ، ومنها بيض النعام ، عثر على شيء كثير منه بجهات متعددة • وهو مما يتزينون به •

هذه الآثار منها ما هو محلي محض غير مجلوب من وطن آخر ولا مشابه لآثار الامم الاخرى • ومنها ما يشبه مصنوعات قدماء المصريين خاصة ، ومنها ما له شبه بآثار قدماء مصر واروبا الغربية • فان الآلات الحجرية متشابهة في هذه الاوطان • ووجد بمغارات في نواحي وهران اوانٍ من الفخار وحجر الصوان والعظم شبيهة بما وجد في مغارات بجبل طارق • وبناء القبور بالاحجار موجود بغرب اروبا • والطريقة الاولى في دفن الاموات موجودة بصقيلية ايضا • واكثر آثار قدماء الجزائر شبيهة بآثار قدماء مصر •

ان المشابهة بين آثار افريقية وآثار اروبا الغربية دليل لصحة رواية ابن خلدون — وان لم يجزم هو بصحتها — بان سكان هذه الاوطان من اصل واحد • ثم في كثرة مشابهة آثار افريقية لآثار مصر دليل على ان ابناء قطوبال دخلوا افريقية من ناحية مصر • ثم في مشابهة آثار افريقية بعضها لآثار صقلية وبعضها لآثار جبل طارق دليل على ان هذه الامة دخلت اروبا من تينك الجهتين •

ومؤرخو الافرنج احاطوا علما بهذه الآثار وما بينها من المشابهات ولكنهم لم يهتدوا لرواية ابن خلدون .

فأثبتوا بطريق البحث والنظر ان سكان افريقية وصقلية واروبا الجنوبية والغربية متفرع بعضهم عن بعض . ثم افترقوا في تعيين الاصل والفرع : فمنهم من قال : انه لا يعلم — لقدم الزمن جدا — من هي الامة التي بقيت بوطنها والتي انتقلت عنه ؟ ولا متى وقع انتقال المنتقل ؟ ومنهم من جزم — من غير دليل — بان الانتقال وقع من اروبا الى افريقية الشمالية . وانا لا اقف موقف الطائفة الاولى ، ولا اخضع لجزم الطائفة الثانية ، بل أجزم بان الانتقال وقع من افريقية الشمالية الى اروبا الجنوبية والغربية . ومستندي في ذلك الآثار السابقة فانها متصلة من المشرق الى المغرب . ولم تجد طريقا أخرى متصلة بالشرق من جهة اروبا مملوءة بالآثار التي لها شبه بآثار قدماء افريقية .

3 ـ حياة قدماء الجزائر

تختلف حياة الامم بساطة ورفاهية باختلاف درجتها في معرفة وسائلها المادية والادبية . والاستاذ الاول لتلقين تلك المعرفةهي الضرورة والحاجة . وقديما قيل : « الحاجة ام الاختراع » .

وقد هدت الحاجة الانسان الاول الى اتخاذ مسكن يأوي اليه ، وملبس يقيه حرارة القيظ أو زمهرير القر ، ومطعم يحفظ عليه حياته ويقوي بدنه على تحمل عبء الحياة . ومكسب يقتنيه ويدخره ليستعين به في وجه من وجوه الحياة .

1 ـ المسكن : اما المساكن فقد دلت الآثار المكتشفة في غير ما موضع على ان قدماء الجزائر اتخذوها في الاكمات والهضاب واختاروا لها مواضع المياه . وقد قدمنا الوجه في ذلك . ومن وجوه اختيارهم

الهضاب على الوهاد الفرار من تراكم الثلوج على بيوتهم المفضي الى القضاء عليهم تحتها • ذلك بان الرياح تنسف الثلوج عن الامكنة المرتفعة وتنقلها الى الامكنة المنخفضة ، ولم يزل هذا الغرض ببعض جهات الجزائر معروفا معمولا به الى اليوم وقد اتخذوا مدنا وقرى واحاطوها باسوار من الحجارة الضخمة غير منحوتة الا قليلا • وكانت مساكنهم داخل المدينة او القرية فياول عهدهم بالعمارة متخذة من اخشاب ومركبة بكيفية وقتية ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا •

وكانت لهم عربات تحمل تلك البيوت تجرها الخيل • وهم لا يأوون الى مدنهم الا متى حز بهم أمر وداهمهم مكروه لا يستطيعون مقاومته ببادیتهم •

2 — الملبس : واما لباسهم فكان من جلود الحيوانات التي يصطادونها ، يدل على ذلك وجود محكات لدبغ تلك الجلود واشاف لثقبها وابر لخياطتها •

واتخذوا زينتهم وحليهم من بيض النعام والاصداف • وكانت رؤوسهم غير مكشوفة • يدلعلى ذلك وجود تماثيل حجرية تشخص انسان ذلك العصر مكسو الرأس بالجلد أو الريش وماسك ثوبه الجلدي على كتفه بزر •

3 — المطعم : واما مطعمهم فكان من البقول وثمار بعض الاشجار الطبيعية وخشاشات الارض ولحوم الحيوانات التي يصطادونها من ظباء ووعول ونعام وخنازير وغير ذلك مما هدت اليه بقية عظامه وما ذهب ولم يبق له أثر •

4 — المكسب : واما مكسبهم فهو حيوانات يقومون بتربيتها او حفظها من عاديات السباع وينتجعون بها مواضع الكلأ ومواقع المياه • وأهل الاراضي الخصبة منهم لا يبعدون عن النجعة بل ان منهم قبائل

اختصت بجهات لزمتها ولم تخرج عنها الى غيرها • قال اغسال Gsell في قوم وجدت لهم آثار بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء : « والظن ان بيوتهم كانت من خشب وكثير منها طالت عمارتها • ويظهر ان هؤلاء السكان كانوا قليلي الانتقال » • وذكر في موضع آخر : ان هناك قبائل لم تبرح اوطانها • وسكان الصحراء ابعد القبائل نجعة واكثرهم انتقالا لجدب اراضيهم وقلة العشب والماء الكافيين لمواشيهم•

ومن حيواناتهم الانسية الحمار والضان والعنز ، وقد عرفت هذه الحيوانات لقدماء المصريين فربما نقلها هؤلاء الافريقيون من هناك حين مروا بمصر او جلبوها من بعد • ومنها الخيل ، ويحتمل ان تكون مجلوبة من الشام لتحقق وجودها به منذ احقاب عريقة في القدم • ومنها البقر ، ويحتمل ان يكون اصله البقر الوحشي وراضه أهل هذا العصر حتى تأنس وتناسل • ومنها الفيل العظيم ، وهذا انقطع نسله كما انقرض اهله وانما بقي أثره حسبما سبق • ومنها الكلب ، وظنه بعض المؤرخين من المتأخرين متفرعا من الذئب • وهو من اغراقهم في الاندفاع خلف تيار مذهب النشوء والارتقاء وعدم تحريهم في تطبيقه ولو اتقنوا درس الطبيعة لما حملوا على هذا المذهب اكثر مما يتحمل ، ولما الصقوا به جزئيات جهلوا أصلها وهو لا يتسع لها • وقد نطقت التجربة والاختبار بان الذئب — ولو ربي — لا يصير كلبا • ولله صفاء اذهان العرب اذ تقول امرأة منهم أخذت جرو ذئب وارضعته نعجة لهـا فلما كبر أكلها :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ... وانـت لشـاتنا ولـد ربيب
غذيت بدورهـا وربيت فينا ... فمن انبـاك ان ابـاك ذئب ؟
اذا كان الطباع طباع سـوء ... فلا لبـن يفيـد ولا حليـب

ولم يوجد اي أثر يدل على معرفة هذا الجيل للفلاحة • امـا المعادن

فكانوا يجهلونها بتاتا • وانما عرف من بعدهم النحاس فسمي عصرهم بالعصر النحاسي ، ثم ترقوا الى معرفة الحديد فسمي هذا العصر بالعصر الحديدي • ومازال العالم في هذا العصر الى اليوم لوفور منافع الحديد ولذلك ذكره الله من بين سائر المعادن بسلوب يدل على عموم حاجة البشر اليه في جميع الازمان اذ قال : « وانزلنا الحديد فيه بآس شديد ومنافع للناس » •

4 ـ ادوار مدنية قدمـاء الجزائر

مكث قدماء الجزائر — كغيرهم — احقابا لا يعلم تقديرها الا العزيز العليم ومدنيتهم محصورة في الحجارة : يستخدمونها في جميع شؤونهم الضرورية والكمالية • غير انهم كانوا يترقون — وفق ناموس النشوء والارتقاء — في احكام صنع الحجارة وتقانها ، ويتفننون في نقشهـا وتنميقها •

وقد قسم المؤرخون ذلك العصر السحيق الطويل ـ حسبما هدتهم الآثار المختلفة صنعا وزمنا ـ الى ثلاثة ادوار :

1 — عصر الحجارة القديم • كان الانسانفيه فياول عهده بالطبيعة جاهلا بطرق الاستفادة منها مقتصرا في حياته على استعمال ما اهتدى اليه فكره الابتدائي من المواد الطبيعية التي يسهل تناولها من غير حاجة الى حذق في صناعتها • استعمل من الحجارة مع تهذيبها قليلا جهازه الحيوي •

وقد عثر الباحثون علىشيء من هما الجهاز بجهات من الجزائر تقدم ذكرها • من ذلك هراوي ومناقير ومساح • وهي من اقدم ما عرف من مدنية الجزائريين في ذلك العصر •

2 — عصر الحجارة الاوسط • تقدم الانسان في هذا الدور قليلا

فرقى الصناعة الحجرية ، ومد يده الى غير الحجارة أيضا : اتخذ من مغارات الكهوف اكنانا ؛ وصنع الفؤوس الحجرية ، وجعل ابرا وخناجر من العظام ؛ وأواني من بيض النعام •

وآثار هذا الدور متوفرة فيما بين قابس شرقا وسطيف غربا •

3 — عصر الحجارة الحديث • في هذا الدور اتقن الانسان صناعة الحجارة وتفنن فيها وتوسع في الاستفادة منها ولم يقف عندها فقط : اتخذ بعض جهازه الحربي — مثل السهام — من الحجارة ، ورسم عليها الرسوم العجيبة •

وقد عثروا على بعض تلك الرسوم بجبل بني راشد ووادي ايتل وجهات قالمة واتخذ الاواني الطينية للطبخ (مما يدل على تعرفه الى النار)•

وصنع الاوعية من الخشب ، والعربات تقودها الخيل لنقل الآلات الحربية والبيوت الخشبية • واتقن التصوير فرسم صور الحيوانات ومناظر الاصطياد • واشرف على المبادىء التاريخية فرسم على اواني الفخار اشكالا هندسية تمثل الكتابة • وقدر علماء الآثار قدم تلك الاواني الفخارية بنحو ستة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام •

مدنية أية أمة من الامم مستمدة استمدادا علميا من معقولها ودرجة تفكيرها ، واستمدادا عمليا من كسب ابنائها وجهودهم ، ويتكون عقلها وعملها من طبيعة المكان الذي تقطنه ؛ وتتأثر بما تشاهده من جيرانها او يبلغها من اخبار الامم الاخرى •

ولهذا كانت مدنية قدماء الجزائر ذات اقسام ثلاثة :

1 — مدنية محلية لا مشابهة بينها وبين مدنيات الامم المجاورة لها • من ذلك مدنية اطلق عليها اسم « الصناعة الجيتولية » وآثارها تبتدىء

من قابس شرقا وتذهب جنوبا الى جهات قفصة وتنتهي غربا بنواحي سطيف •

ومدنية اطلق عليها اسم « الحضارة الصحراوية » وآثارها قائمة الى اليوم بوادي ريغ ووادي مزاب •

2 — مدنية تشبه مدنية قدماء مصر وشمال افريقية الشرقي •

3 — مدنية تحاكي مـدنية جنوب اروبـا والاندلس المجاورة لها غربا •

من تأمل الآثار الجزائرية — وسائر افريقية الشمالية — وامعن النظر فيها، الفى ان مدنية هذا الوطن كانت شديدة التأثر من ناحيةالشرق قليلته من جهة الغرب • بل قد تكون مدنية هذا الوطن هي التي اثرت في مدنيات جنوب اروبا وغربها حسب البحث السابق •

والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الافريقيين عمومالحضارات الشرقية وسرعة تأثرهم بها ، ومحاربة المدنيات الغربية وتقززهم منها • وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم ، ولكنها نادرة لا تقوى على مضادته او نقضه •

وهكذا ترى الجزائر (وجارتيها) من حين مهدها معترفة بفضل الشرق مهبط الوحي ووطن النبوءة ومعدن الحكمة •

5 ـ لغة قدمـاء الجزائر

ذكر غسال في كتابه الجزائر في القديم : « ان لغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والبربر ترجع الى أصل واحد • » وقد لخص بيروني في كتابه « المسألة الافريقية » كلام غسال • وبيرنار Bernard في هذه المجلـة : « وتشبه لغتهم (البربر) لغات الشمال الشرقي من افريقية ولغات اروبا الجنوبية والغربية » •

وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن قدماء افريقية الشمالية بالبربر لاعتقاد جمهور المؤرخين انهم اول من عمرها • والصواب انهم مسبوقون بأمة العصر الحجري وهي غير أمة البربر • افصحت عن ذلك رواية ابن خلدون ، ويعضدها قول غسال نفسه أثناء الحديث عن القبور الاثرية : « والبربر ينسبون هذه القبور الى الجهلاء • وهؤلاء كانوا وثنيين وانقرضوا منذ دهر بعيد جدا » • اذ لا يخفى ان البربر لم ينقرضوا وانما انقرضت الامة التي سبقتهم الى شمال افريقية وهي أمة العصر الحجري •

وتشابه لغات هذه الامم شاهد آخر يضاف الى ما تقدم من الشواهد على صحة رواية ابن خلدون التي صدرنا بها الكلام على أصل قدماء الجزائر • ثم وقوف الشبه من جهة الغرب في جنوب اروبا وامتداده من جهة الشرق مما يؤيد رأينا السابق ان ابناء قطوبال اتوا على مصر الى افريقية ومنها ذهبوا الى ما يليهم من اروبا •

6 ـ ديانـة قدمـاء الجزائر

اثبت الباحثون على الآثار ان لهؤلاء القوم ديانة : والديانات اصلها الوحي • فلا بد ان تكون هذه الامة اخذت اصول ديانتها عن رسول من الرسل •

وقد قال تعالى : « وان من امة الا خلا فيها نذير » ثم دخلهـا التحريف والتبديل والغلو في تعظيم بعض المخلوقات حتى أمست وثنية • ولا أظن أمة تنشأ على فطرتها تكون وثنية تعتقد النفـع والاضرار الناشئين عن الاختيار في الشمس او القمر او أي مظهر آخر •

وانما تخضع الامم ذوات الفطر التي لا عهد لها بأي نزعة ، للدين الصحيح • فاذا ألفت الاذعان للدين وتمكن منها الايمان باشياء من

المغيبات ، ثم طرأ عليها الجهل ــ ظهر فيها من الدجاجلة من لهم اغراض شخصية يعملون لتحصيلها باسم الدين والدين هداية عامة لا آلـة يستخدمها اصحاب الغايات الذميمة لبلوغ غاياتهم • لا جرم اضطر كل دجال من البشر في أي عصر الى تحريف الدين بالغلو احيانا والابتداع تارة • واذ ذاك يغرس اشجار الوثنية في تربة الجهل الثرية ، تسقيها تلك الامة الجاهلة بخيالاتها واوهامها حتى تعظم وتنتشر فتحجب شمس الدين الصحيح وتغطي بدور العقول النيرة •

وفي ظلام هذه الاشجار الحالك تعيش الامة عيشة وثنية : لا هي من الانعام عديمة الشعور بغير حاجتها الى ما يحفظ حياتها الاولى ، ولا هي من البشر تحكم العقل وتتقاضى اليه فيما تأتيه من ضروب الاعمال • « اولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا » •

أما الديانة التي عرفها الاثريون لقدماء الجزائر فهي عبادة الشمس والقمر (وهما من معبودات المصريين) ، وعبادة بعض الحيوانات منها القرد والثور والكبش والتيس • وجد بجبل بني راشد تمثال يدعى « أتون » كانوا يتخذونه الهاً وهو صورة تيس على رأسه دائرة الشمس •

وكانوا يعظمون العيون والاشجار والجبال ، ويحترمون الاموات يشيدون لهم قبورا ضخمة •

وقد وقع شعبنا فيما يقرب من هذه الوثنية « والتاريخ يعيد نفسه» فمن آثار عبادتهم للشمس ان الولد حينما يثغر وتسقط سنه يرمي بها الى الشمس ،ويقول لها في بعض الجهات الشمالية « اعطيتك فضـة اعطني ذهب » وفي بعض الجهات الجنوبية : « اعطيتك سن حمار اعطيني سن غزال » •

ومن تعظيمهم لبعض العيون انهم يتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين الدجاجية •

ومن تعظيمهم لبعض الاشجار انهم يجتنبون قطعها واحتطاب ما سقط من عيدانها ويعلقون بها الخيوط رجاء ان تقضي حاجاتهم ، كما يعلق احدنا باصبعه خيطا كي يذكر به ما يخشى نسيانه .

ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الاطعمة والانعام لبعض الكهوف وزيارتها زرافات ووحدانا . وتطييب رائحتها بالبخور ومياه الرياحين. وقد يتأولون ذلك بان احد الصلحاء مر بهذا الكهف او جلس عنده . وعلاوة على كون هذا التأويل غير مبرر لفعلهم فان الصلحاء جلسوا في غير الكهوف أيضا ومشوا في السهول والبسائط .

اما تشييد القبور الضخمة للاموات واتخاذ الحرم لها فقد بالغوا فيه اكثر مما تقدم واربوا في ذلك عن كل امة حتى صاروا يشيدون القباب لا على ضريح ولا على أثر من مواقع اقدام صلحائهم . وشرح هذا المقام يوسع دائرة خروجنا عن موضوع الكلام .

وكان قدماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الحياة الاولى ، ويرون ان الميت في قبره اكمل منهم علما .

يدل على ذلك ما تقدم من ان منهم من يضع الميت في قبره جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ، يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه . كأنه بموته ولد في عالم آخر ، ولذلك يضعون معه أطعمة واشياء من الزينة . واذا اهمهم أمر لم يهتدوا الى وجهه استشاروا الموتى من اسلافهم :

ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المباركة على الانحطاط والتقهقر .

نقوش من تاسيلي

زرافه من تاسيلي

الباب الثاني

في ذكر البر

تمهيـــد

البربر أمة من أقدم أمم العالم واشهر أجيالـــه • عاصرت العرب والفرس واليونان والروم • معروفة بعز الجانب وابابة الضيم والدفاع عن الشرف •

وقد زاحمت الامم ودافعت الملوك عدة آلاف من السنين • حاربت بني اسرائيل بالشام • وهاجرت الى وطن افريقية والمغرب فاستولت عليه في اعصار لا يعلم مبتداها الا العليم الخبير ، واستوطنته بطونها وقبائلها ، وكانت ذات كثرة ومنعة فملأت وهاد المغرب ونجاده ، واعفت ذكر الامة التي سبقتها اليه ، ثم كانت لها مواقف مع الدول العظمى ذات المطامع في وطنها • هاجر الفينيقيون جيرانهم بالشام الى وطـــن البربر ونزلوا عليهم ضيوفا كراما فاكرموهم • وعاشت الامتان في وئام قرونا ، البربر يعضدون الفينيقيين في حروبهم خلف البحار ، والفينيقيون يحترمون حرمة البربر — خصوصا بربر نوميديا — فلا يسومونهم بذل ولا ينالون من شرفهم ولا يمدون ايديهم الى ما تحت تصرفهم • وقد وقعت بين الامتين حروب الا انها كانت في مباديها من قبيل الثورات التي لا تخلو منها الامة الواحدة ، وفي الاخير تمشت حيل اروبا بين البربر وانطلت عليهم دسائسها فعضدوا الرومان في حروب قرطاجنة طمعا في الاستقلال بحكم وطنهم واسترداد ما أخذته منهم قرطاجنـــة معلمتهم الحياة والنظام •

ولما انكشف لهم الحجاب عن مقاصد الرومان اخذوا يحاربونهم — والظفر حليفهم — ولم يجن الرومان من تعنتهم في محاربة البربر غير الاستيلاء على بعض المدن وما حولها من البسائط على طول المدة وكمال العدة •

ولم تزل هذه الأمة النشيطة الحربية ــ قبل الاسلام وبعده ــ تقف في وجوه الهاجمين وتثور على الظلمة المستبدين وتنهض للتخلص من وطأة الاجنبي على حريتها وازاحة كابوس المستعمرين عن مقلتي حياتها.

ملأت بذلك تاريخها منذ سطوع فجر التاريخ ولكن لم تكن الحروب بمانعتها عن مجاراة الامم الاخرى في الحضارة والرقي والتخلق بالاخلاق الجليلة والخلال النبيلة ، فقد عرف التاريخ لها حضارة عظمى ومدنية مثلى ، وظهر منها علماء حكماء وعظماء خبراء في الدين والسياسة والعمران قبل الاسلام وبعده وسترى ــ ان شاء الله ــ في الصحائف التالية ما ينير امامك حقيقة هذه الأمة العظيمة .

ا ــ اصل البربر

الحديث في أصل البربر من اكثر الاحاديث اضطرابا واوسعها خلافا بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا واطالوا البحث ولكن لم يحصلوا الا على روايات متضاربة وآراء متناقضة .

ولهم في البحث طريقان : طريق المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل ، وطريق المتأخرين من مؤرخي الافرنج تعتمد على الدراية والنظر الى اللغة والخلقة والصناعة.

ونحن لا يسعنا ان نتتبع كل ما وقفنا عليه ولكننا نحرص على افادة المطالع باقرب طريق فنلخص أقوال الطائفتين ثم نتبعها بنظرة تؤيد ما كان من هاتيك الاقوال اقرب الى الصواب ونزيف ما كان منها خرافة او خيالا .

ا ــ **الطريقة الاولى** : انقسم اصحاب هذه الطريقة الى فرق :

1 ــ فرقة ترى ان البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من وطن

آخر • ومن هذه الفرقة افلاطون من القدماء وفورنال Fournal من المتأخرين •

2 — وفرقة تقول انهم ايجيون من سكان ضفاف بحر ايجه Egée وهو بحر الارخبيل • ومن هذه الفرقة هيرودوتس ، ديودور الصقلي ، بلوتارك •

3 — وفرقة تقول انهم ساميون انساب العرب • ثم اختلفوا من بعد • فذكر بروكوبس — وهو من مؤرخي الدولة البيزنطية عاش في المائة السادسة للميلاد — انهم من العبرانيين والبونيقيين، وروى الطبراني انهم من نسل نقشان — او نفسان — بن ابراهيم عليه السلام • وهي موافقة لقول بروكوس •

وروى ابو عمر عبد البر عن بعض نسابة البربر انهم من ولد النعمان بن حمير ابن سبا • واذن فهم عرب •

وقيل انهم اوزاع من اليمن : قال المسعودي من غسان وغيرهم ، وقال غيره من لخم وجذام •

وقيل من عملاق بن لاوذ بن ارم بن سام • هذا ملخص اقوال الفرقة الثالثة •

4 — وفرقة تقول انهم حاميون : قيل من مصراييم بن حام ، وقيل من مازيغ بن كنعان بن حام •

5 — وفرقة تقول أنهم من الفرس — وفارس قيل من سام وقيل من يافث — روى المؤرخ الروماني سالوستس Salluste عن كتب فينيقية : ان الميد والارمن والفرس جاءوا الى الاندلس في جملة جنود احد ملوك اليونان فلما توفي ذلك الملك عبر هؤلاء الاقوام الى افريقية الشمالية — وكانت عامرة بالجيتوليين والليبيين — واختلط الارمن (وهم من يافث) بالليبيين وكذلك الميد (اخوان الفرس) فغيرت كلمة الميد

بكلمة « المور » وتنقل الفرس في هذا الوطن فلقبوا انفسهم «النوماد» ومعناه الرحل • ثم استولوا على البلاد القريبة من قرطاجنة واستوطنوها فسميت « نوميديا » نسبة اليهم • واندمج من كان قبلهم بهذه الناحية فيهم وامتزج بهم وسمي باسمهم • ومثل هذه الرواية رواية من روى ان البربر من ولد جالوت ، فقد نسب ابن خلدون جالوت الى فارس •

6 — وفرقة تقول انهم من الهند • منها استرابون من متقدمي المؤرخين •

7 — وفرقة تقول انهم اخلاط من أصول : ففي بعض روايات الطبري انهم من العمالقة وهم ساميون ومن كنعان بن حام ، وقال مالك بن المرحل : البربر من العمالقة وحمير ومضر وقريش (قبائل سامية) والقبط وكنعان (قبيلتان حاميتان باتفاق) •

هذا ملخص اقوال اهل الطريقة الاولى وتركنا بعضا منها ايثـارا للاختصار •

ب = الطريقة الثانية : وهي تبحث عن اصل البربر من طريق الخلقة واللغة والصناعة :

1 — اما الخلقة فيوجد في كثير من البربر عرض الاكتاف وضيق الخصر وهذا الضرب قديم بافريقية وموجود بالجزائر وتونس • وهذه الصفة معروفة بقدماء مصر والاسبان والباسك (قوم من السلتين يسكنون شمال الاندلس وجنوب فرنسا الغربي)•

ويوجد فيهم الشقر بالجبال مثل جرجرة واوراس بالجزائر والريف بالمغرب • ادعى بعضهم ان اصحاب هذه الصفة من بقايا الرومان والفندال ولكن غسال يقول : انه لم يبق من هاتين الامتين عدد يمكن ان يؤثر في البربر بل الظاهر انهم بالمغرب من قديم • وقال مرسى ايضا انهم سكنوا هذا الوطن قديما ، ثم قال ولهم مشابهات كثيرة ــ خلقا وخلقا ــ بامم اروبية •

ومنهم اقوام سمر اللون قصار القامة سخنوا الطبع • قال غسال : وهذه الصفات توجد في سكان الاندلس وايطاليا وجنوب فرنسا وجزيرتي الكورس وسردانيا •

2 — اما الصناعة فمنها اوان طينية تصنع بوطن القبائل وينقش عليها تماثيل ، قال غسال : وقد عثر على نظيرها في قبور مصرية يرجع تاريخها الى نحو اربعة او خمسة آلاف سنة قبل الميلاد • قال بيروني ويوجد نظيرها أيضا بجزر صقلية ومالطة • ومنها تماثيل للحيوانات تصنع بالجزائر ومراكش والصحراء • قال غسال : ويوجد نظيرها قديما بمصر والنوبة • ومنها بناءات للمعابد • قال بيروني : ولها شبه ببناءات معابد اروبا الغربية •

3 — واما اللغة فانه لا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ، ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ، وفيها الفاظ اروبية وهندية •

وقد اعتنى رين بالبحث فيما بين لغة البربر وبقية اللغات من المشابهات اعتناء لم يشاركه فيه غيره •

وصدر بحثه في أصل البربر بقوله : « ومن الادلة للبحث عن اصل امة لغتها » ثم أخذ يذكر الفاظا بربرية ويناظر بينها وبين سائر اللغات خصوصا لغات أروبا والهند ، مثل لغة السكسونيين (الالمان والانكليز) ولغة السكندينافيين اهل شمال اروبا (السويد والنرويج) ولغة الاترسك (قدماء ايطاليا) قال وتوجد قبائل من قدماء ايطاليا مسماة باسماء قبائل بربرية • ومعاني تلك الاعلام متعددة عند الفريقين وذكر أيضا قبائل اروبية من امتي الغوط والسكيت (ويقال ايضا السكلوت) اعلامها متحدة باعلام قبائل بربرية • ثم سرد تلك القبائل بأسمائها عند الفريقين •

وخلاصة بحث رين : ان اكثر البربر هنديون واروبيون اصلا

ولغة ، وليس في الوطن البربري من الاصل السامي الا قليل ، حتى ان بني هلال الذين جاءوا في العصر الاسلامي اكثرهم طورانيون وآريون !!

وملخص ابحاث هذه الطائفة **ان البربر ليسوا امة مستقلة وانما هي مزيج من أمم شرقية واوربية وحد بينها الوطن .**

ج = نظرة فيما تقدم من الروايات والابحاث .

قد علمت ان ابحاث المتأخرين تعتمد على الصفات والصنائع واللغة وليس شيء من ذلك بمفيد في معرفة اصالة أمة لاخرى او تفرعها عنها وذلك ان للامكنة دخلا في الصفات . فالاقوام الذين يسكنون اماكن متحدة في الطبيعة يتحدون او يتقاربون في الصفات وان اختلفت اصولهم وقد أشار بيروني الى هذه الحقيقة بقوله : « ان مسألة الاوصاف لم تفدنا في أصول البربر شيئا » .

والصنائع اضعف من الصفات في ذلك لانها مما يسهل تعلمه وتنقله خصوصا بين الامم المتجاورة التي كانت بينها علاقات .

وقد اثبت التاريخ ان سكان ضفاف البحر الرومي شمالا وجنوبا تعارفوا ودخل بعضهم تراب بعض : فقد كان الجند الفينيقي مركبا من عدة اجناس كانت حوالي هذا البحر وكذلك من جاء بعد الفينيقيين من الدول ، وقد أقام الجند النوميدي مع رئيسه حنبعل سنين بجنوب اروبا .

واللغات انما تعتبر المشابهات بينها اذا كانت من حيث التراكيب لامن حيث وجود بعض المفردات فيها خصوصا اذا احتيج في تقرير المشابهة الى تغيير بعض الحروف او حذفها وقد ذكر بيروني انه توجد مشابهات بعيدة بين اللغة البربرية ولغات قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ، وقال : « وهي ترجع الى أصل حامي » يريد ان المشابهة بين هذه اللغات كالمشابهة بين اللغات السامية من عربية وفينيقية وعبرية،

ولم يعتبر بيروني مشابهة اللغة البربرية للغات الاروبية وذلك لانها مشابهة في بعض الالفاظ • قال : « واللغة ايضا لا يمكن الاعتماد عليها في اصالة امة لاخرى » •

ولم ار من اعتمد اللغة اصلا للبحث في جنس البربر مثل رين Rinn وقد بالغ في البحث والتنقيب مبالغة لا تجديه في الغرض الذي يقصد اليه شيئا ولكنها تدل على سعة اطلاعه على اللغات وقوة جراءته على الانساب • ناهيك انه لم يبال بوضوح اصل العرب وصراحة نسبها فجعل الهلاليين ــ على نصوع نسبهم العربي كسائر القبائل العربية ــ طورانيين وآريين • أي ثقة تبقى في كلام رين بعد اقدامه على العبث بنسب قبيلة من اصرح القبائل العربية نسبا ؟ وهل تثق النفس بما يبديه من المشابهات بين الالفاظ المختلفة الاصول ؟ اما العربية ــ ولا اعرف غيرها ــ فقد رأيته عبث بكثير من معاني الالفاظ التي اوردها منها •

لم يكتف رين بالمقارنة بين الفاظ البربر والامم المجاورة لها على ضفاف البحر الرومي حتى طار الى روسيا واتانا منها بمفردات اتعب نفسه في تقريبها من مفردات بربرية !

أي أمة تستطيع ان تحصن وحدتها الجنسية للنجاة من تكلفات هذا الكاتب وفلسفته اللفظية ؟ اذا لم تستطع قبيلة الهلاليين ذلك فليس لاي قبيلة ولا شعب آخر طمع في النجاة من تفرقة هذه الفلسفة المتمحلة •

لو كان لي شيء من جرأة هذا الكاتب لاتهمته بانه لم يكتب ما كتب بقلم علمي وانما كتبه بقلم سياسي : يريد ان يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم اروبية ــ بالخصوص ــ كي تذهب وحدته ويسهل على البلعوم الاروبي ابتلاعه •

وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ولكن لن يلج الجنس البربري في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط •

وههنا اودع طائفة الاعتماد على الابحاث التي لا نتيجة لها غير الشكوك والاوهام ، وارجع الى تمحيص تلك الروايات لاستخراج ما تطمئن اليه النفس منها .

1 — اما القائلون باصالة البربر في افريقية وعدم انتقالهم اليه من وطن آخر فظاهر انهم لم يذهبوا هذا المذهب الا لكونهم لم يعرفوا للبربر وطنا قبل هذا الوطن . ولكن من المعلوم ان آسيا هي مهد الاصول الاولى للبشر ، وانهم لما كثروا وضاق بهم وطنهم الاول أخذوا يتوسعون فيما حولهم من الاوطان ويكتشفونها وطنا بعد آخر .

فهذا غير صحيح ولا معقول الا ان يكون اصحابه لا يعترفون بابوة آدم للبشر ولا باستقلال نوعهم وانما هم منحدرون او صاعدون من سلالة القرود مثلا . وهو رأي أفن او حلم طائش لا يعقل الاخذ به بدلا مما تواتر في التواريخ القديمة ان الوطن الاصلي للبشر هو بعض جهات آسيا ، او ايثارا له عما جاء في الكتاب الحكيم ان البشر من آدم.

2 — واما القائلون بان البربر هنديون فهم ابعد عن الصواب من الاولين اذ البربر معروفون بافريقية من قبل التاريخ — كما ذكره غير واحد من المؤرخين — فكيف يكونون منقولين من الهند ؟ واي طريق سلكوها من الهند الى افريقية ؟

ان قالوا طريق البحر قلنا انها لطولها وعظمة البحر في بعضها يتوقف سلوكها على بسطة في علمي الجغرافية والنجوم ومعرفة مهاب الرياح وتقدم في صناعة المراكب البحرية . وكل ذلك مفقود في ذلك العصر السحيق .

وان قالوا طريق البر قلنا ان سلوكها يتوقف على جيوش جرارة واسلحة ممتازة ليتمكنوا من مغالبة الامم التي يمرون بها ، ثم لا يصلون الى افريقية الا بعد سنين طوال مملوءة من الحروب والاهوال . وذلك مما

تتوفر الدواعي لنقله وانتشاره ثم تدوينه في الكتب • ولم تحو كتب التاريخ شيئا عن هذه الرحلة الشعبية التي لا تتيسر حتى اليوم •

3 ـ اما القائلون بان البربر ايجيون فانما نسبوهم الى وطن ولم ينسبوهم الى أصل بشري • ثم انه وطن ضيق والبربر امة من اوفر الامم عددا • على ان افلاطون اليوناني ادعى ـ كما سبق ـ انهم اصليون بوطنهم فلو كانوا منقولين من جهات بحر هيجاي لما خفي ذلك عليه • واهل مكة ادرى بشعابها •

ويصعب على النفس تكذيب هذه الطائفة بتاتا فالذي يظهر ان عرقا ايجيا موجود بوطن البربر ، وهو الذي اوقعهم في تلك الشبهة • ولكن البربر اقدم في هذا الوطن من الايجيين واكثر عددا وأعز نفرا •

4 ـ واما القائلون بان البربر ساميون فقد علمت اختلاف رواياتهم وقد رد ابن خلدون رواية الطبري انهم من ولد ابراهيم عليه السلام بما محصله : ان البربر كانت لهم من الكثرة في زمن داوود عليه السلام ما يبعد كونهم من نسل ابراهيم لعدم طول المدة بين ابراهيم وداوود طولا يتشعب معه البربر ذلك التشعب •

ورواية بروكوبس بمعنى رواية الطبري وقد علمت ما فيها ، ولو قال هؤلاء بانه يوجد بين البربر عرق عبري لكان صحيحا فقد اثبت الباحثون وحققوا وجود طائفة من اليهود بين البربر من قديم ، حتى انهم لقدمهم لا يعرفهم قدماء مؤرخي الاسرائيليين • ومعابدهم مخالفة تماما لمعابد سائر اليهود • وللعلامة شلوش اليهودي في هذا الموضوع كلام في غاية التحقيق •

والفينيقيون معلوم انهم طارئون على البربر وليسوا مجتمعين معهم في الاصل قطعا • وانكر ابن خلدون ايضا القول بانهم من ولد جالوت او عملاق وقال فيه ، « قول ساقط يكاد يكون من احاديث خرافة » •

ورواية ابن عبد البر عن بعض نسابة البربر انكرها هو نفسه ، وانكرها ابن حزم ايضا وهمم ــ ابن حزم ــ في الانكار اذ لم يقبل كونهم من اليمن قائلا : « وهذا كله باطل لا شك فيه » وقال ابن خلدون « انه منكر من القول » ولكنه نقل عن المحققين من نسابة العرب مثل الطبري والسهيلي : ان قبيلتي كتامة وصنهاجة من حمير تركهما افريقش بالمغرب لما قفل من غزوه • قال السلاوي : « وهو قول جميع النسابين من العرب [1] » •

5 ــ واما القائلون انهم من الفرس فقد فسرت قولهم رواية سلوستس: ان ليبية (افريقية) كانت عامرة بالبربر ، وان الفرس انما نزلوا في جوارهم بعد وفاة ملكهم اليوناني •

وعليه فلا تصح دعوى ان الفرس أصل للبربر ، ولا انكار وجود الفرس بافريقية اذ لا منافاة بين الامرين •

6 ــ واما القول بانهم اخلاط من اصول فقول فاسد التعبير • وصواب الحديث ان يقال : ان الوطن البربري فيه أصول غير بربرية • وهذا مسلم لكن غير مفيد في معرفة اصل البربر •

7 ــ واما القول بانهم حاميون من مصراييم فغير صحيح ايضا ولكنا لا ننكر وجود عرق منهم في الوطن البربري •

والصحيح من هذه الروايات كلها انهم حاميون من مازيغ بن كنعان ابن حام • هذا الذي صححه ابن خلدون قائلا : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ••• وان اسم ابيهم مازيغ » •

واعتمد كاريت رأي ابن خلدون : ان البربر أمة مستقلة منذ أجيال

---

(1) استقصاء ج 1 ص 29 •

عديدة • وقال الجنرال دوماس : « ان لنا أدلة كثيرةعلى ان البربر من كنعان • نكتفي منها بدليل واحد : احد اعقاب حام يدعى مازيغ ، والى يومنا هذا يسمى البربر انفسهم امازيغ • الا يكون هذا التواطؤ بين الاعلام مفتاحا لاصل البربر ؟ » •

— خلاصة البحث :

يمكننا ان نستصفي من تلك الروايات ونستنتج من هاتيك الابحاث النقط الآتية :

1 — الجنس البربري جنس مستقل في أصله يرجع الى مازيغ بن كنعان ابن حام • انتقل من الشام الى افريقية في أزمان قديمة جدا فصح ان ينسب هذا الوطن لهم •

2 — وقعت مهاجرات الى هذا الوطن في اوقات مختلفة من أمم متعددة منها ابناء مصراييم بن حام • قال دوماس : جاءوا مع البر واجتازوا الى افريقية وتسموا « مور » ومعنى ذلك مغاربة • وتقدم عن سلوستس خلاف ما يقول دوماس في كلمة « مور » •

ومنها قبائل فلسطينية فرت امام يوشع • ذكر ذلك دوماس وفي ابن خلدون ما يؤيده •

ومنها الفينيقيون (وهم ساميون) وقد جاوروا البربر قرونا عديدة فقد اسسوا عوتيقة عاصمتهم الاولى سنة 1101 ق — م •

ومنها عرب يمنيون جاءوا مع افريقش • ومنها قوم ايجيون ومنها قوم من الفرس • ومنها العبريون على ما حققه شلوش Schlousch •

كل هذا تظافرت عليه اقوال جماهير من المؤرخين • وليس في العقل ما ينافي هذا النقل •

3 — البربر أخذوا حظا من لغات هذه الامم وطبائعهم ولكن بعد صبغها صبغة بربرية • قال مرسيي : البربر تأثروا بعدة أمم نزلت بوطنهم

او استولت عليهم ولكنهم بقوا بربرا • وقال بيروني : ان الوطن البربري جمع امما مختلفة ولكنها اصطبغت جميعا بصبغة بربرية •

واذن لا نقول في سكان افريقية غير انهم امة بربرية اذ لا يمكن تمييز ما عدا البربر عنهم لغلبة البربرية على غيرها • وهذا لا يخدش في أصل البربر شيئا بل انه يرشد تمسك البربر بجنسيتهم ولذلك لم يندمجوا في غيرهم ، والى كثرتهم ووفور عددهم ولذلك ابتلعوا الجنسيات التي حلت بوطنهم •

وهكذا اصبحت الامة البربرية بنجوة من وصمة التهاون بجنسها وحازت الشرف على الامم التي ابتلعتها ، فان أمة لا تندمج في غيرها الا وقد سجلت على نفسها الوضيعة والحطيطة ونفت عنها كل وجه من وجوه الكرم والفضيلة ، وكتبت للامة المندمجة فيها اسطرا من الفخر والشرف والميزة عليها لا يمحوها الا تداركها بنفسها لجمع شتات قوميتها والعمل باسم امتها •

2 ــ هجرة البربر الى ليبية

علمت من الفصل السابق ان البربر أمة ذات وحدة جنسية كباقي الامم التي عرف التاريخ عصبيتها وعظمتها •

وكان موطنها الشام ثم انتقلت الى ليبية • ونزح ايضا الى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى • وحصل الاختلاط والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية • واذ ذاك صارت الامة البربرية ذات وحدة وطنية مركبة من عناصر متعددة ومفرغة في قالب بربري •

ليس العنصر البربري الاصلي اول من عمر ليبية فقد مر في الباب الاول ان أمة سبقت البربر الى هذا الوطن • وقد عبر ابن خلدون عن

البربر في ترجمة الكتاب الثالث من تاريخه الهام بقوله : « **الامة الثانية من أهل المغرب** » .

اما الروايات في تاريخ هجرتهم الى ليبية فكثيرة واحسنها ما نقله يحي ابن خلدون عن ابن قتيبة : ان خروجهم كان ايام البلبلة [1] والبلبلة هي اختلاف اللهجات وتعدد اللغات فكأنه يقول : قبل حدوث الخط والكتابة .

وهذه الرواية متفقة مع ما يقوله متأخرو المؤرخين من ان البربر هاجروا الى ليبية قبل التاريخ . وهذا عذر من ظن انهم اصليون بهذا الوطن غير منقولين .

وقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون روايات اخرى نعرض عن بعضها لظهور سقوطه ، وننقل بعضها ثم نقفي عليه بما يزيل شبهة الاعتمادعليه.

1 — نقل عن المسعودي والطبري والسهيلي : « ان افريقش استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر . وينشدون من شعره :

يربرت كنعـــان لما سقتهـــا من اراضي الضنك للعيش الخصيب [2]

2 — ونقل عن بعضهم : ان يوشع رئيس بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام هو الذي اخرجهم من الشام .

3 — ويقول بعضهم : ان داوود عليه السلام هو الذي اخرجهم وان الله هو الذي اوحى اليه بذلك : « قيل يا داوود اخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض [2] » .

وقد ابطل ابن خلدون نفسه قول من قال : ان افريقش هو الذي اخرجهم من الشام الى المغرب بان هناك رواية أخرى تقول : « انـــه وجدهم به وانه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما اكثر بربرتكم »

---

(1) بغية الرواد : ج 1 ص 91 ، وقد عبر فيها بلفظ البلية وفي نسخة بلفظ البلبة . وكل ذلك تحريف البلبلة

(2) ج 6 ص 94 .

وافريقش هذا من ملوك اليمن التبابعة وهو مختلف في زمنه ففي بعض المواضع من ابن خلدون ما يدل على انه قريب من عهد موسى عليه السلام ، وفي بعضها ما يدل على انه بعد سليمان عليه السلام وبين هذين الرسولين نحو من سبعة قرون • وذكر ابن خلدون عن ابن حزم : ان التبابعة « في انسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة» [1] وسواء ارتقى عهد هذا الملك الى ما يقرب من عهد موسى أم تأخر الى ما بعد سليمان فان البربر بوطنهم الثاني اقدم من ذلك كله وفاقا لرواية ابن قتيبة المؤيدة بآراء الاثريين المتأخرين •

ومن قال ان يوشع هو الذي اجلاهم الى المغرب فقد اخطأ واشتبه عليه الامر • ذكر دوماس ان من القبائل التي اضيفت الى البربر قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع وفلسطين وذكر ابن خلدون[2] انهم اخوان البربر •

وبهذا يتبين ما في هذه الرواية الثانية حيث خلط اصحابها بين البربر وفلسطين •

واما قول من قال ان داوود (ص) هو الذي اجلى البربر الى افريقية بالوحي فقول ساقط ورواية سخيفة ، لان داوود عليه السلام عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقد علمت ان الفينيقيين كانوا أسسوا عاصمتهم الاولى عام (1101) ،وهم انما جاءوا بعد الفلسطينيين ، والفلسطينيون انما جاءوا بعد البربر • وايضا فان البربر ليسوا جذام الارض ، بل هم أمة عاملة نشيطة من اقدر الامم على تعمير الارض واستدرار خيراتها • ومن نظر الى ما كانت عليه افريقية من العمران المستبحر : مدن عظيمة ، مياه مطردة ، بساتين متصلة ، حقول مزروعة ، علم سخافة تلك الرواية التي لم يستح واضعها حتى جعلها وحيا •

---

(1) ج 2 ص58

(2) ج 6 ص 97 •

هذا ما نقوله عن تاريخ انتقال البربر الى ليبية اما ما انضاف اليهم من الامم فقد كان في اوقات مختلفة يعسر الوقوف عليها جميعها ، ومنهم من كانوا جاليات قليلة لا يهتم المؤرخ بذكر تاريخ استيطانهم لافريقية.

ومن هذه الامم التي كان لهجرتها الى افريقية ضرب من الوضوح أمة الفرس فانهم نزلوا افريقية لما مات ملكهم اليوناني ، هرقليس • ولم اعثر على تاريخ هذا الملك •

ومنهم الفلسطينيون فقد علمت انهم فروا امام يوشع • والمظنون ان يوشع كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد • لان داوود عاش في القرن الحادي عشر • وقد ذكر ابن خلدون ان بين خروج بني اسرائيل من مصر وملك داوود (ص) (600) باتفاق • ويوشع انما رأس بني اسرائيل بعد خروجهم من التيه الذي مكثوا فيه (40) سنة •

ومنهم العرب اليمنيون قبيلتا كتامة وصنهاجة اللتان تركهما افريقش بافريقية • وقد علمت ما في زمنه من الاضطراب •

3 ـ اوصاف البربر واخلاقهم

اذا كان للامكنة دخل في صبغ البشر بما تشاء من الالوان فان منها اوصافا خلقية لا بد للامكنة فيها وانما ترجع الى خاصة جنسية •

وهذا ما دعا بعض المتأخرين الى اضافة هذا المبحث الى مواد البحث عن جنس البربر ولكنه وضع للشيء في غير محله وطلب للنتيجة من غير شكلها فان هذا المبحث انما يفيد في قرابة الامم بعضها من بعض لا في في اصالة امة لاخرى •

والاخلاق من الاشياء التي تتوارث باتفاق الفلاسفة وانما اختلفوا في انها تتوارث عن الاصل ام الوسط ، وهذا الخلاف انما تظهر ثمرته في الاشخاص دون الامم ، لان الامة اصلها هو وسطها ومجتمعها •

اما اوصاف البربر فمنها اوصاف عامة لكل بربري وهي : ان البربري وجهه معتدل ، خط عينيه مستو ليس كبعض الامم التي يكون خطا عينيها عندما يتلاقيان بالانف زاوية منفرجة ، عيناه غير ناتئتين ، انفه متوسط الطول والعرض ، اعضاؤه متناسبة ، قوي البنية ، مستطيع لتحمل الاتعاب وغير سريع التأثر من تغيرات الهواء ، بشرته بيضاء وانما تؤثر فيها الشمس بالسمرة .

1 — ومن الاوصاف ما يختص ببعض الفرق : ففرقة منهم طوال القامة ، مستطيلو الرؤوس والوجوه حواجبهم ناتئة ، انوفهم طوال رقاق . قليلوا شعر اللحية ، اكتافهم عريضة ، خصورهم ضيقة ، ضعاف البنية . وهذه الفرقة موجودة بكثرة .

2 — ومنهم صنف قصير القامة ، طويل الرأس وبه عظام ناتئة ، عريض الوجه ، ناتيء الوجنتين ، عريض الانف ، واسع الفم ، غليظ الشفتين ، ناتيء الذقن ، كثير شعر اللحية ، عريض الصدر والرفغ .

3 — ومنهم صنف ربعة الى القصر ، مستدير الرأس ، عريض الوجه مستدير الجبهة ، غليظ الحاجبين ، قصير الانف ، واسع الفم ، مستدير الذقن ، عريض الصدر . والصنفان الاولان معروفان بالمغرب من قديم الازمنة . وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس ، والثالث منها مشهور بجربة ومزاب .

واما اخلاق البربري مطلقا فانه فلاح مقيم ، عامل كناز ، تاجر حاذق حربي شجاع ، وقد يكون لصا متمردا ، حار ينتقم ممن اغضبه بأكثر مما يستحق . حر متطرف في الحرية الى درجة انه يكره الرآسة عليه ويتقزز منها الى ان تسنح له الفرصة لهدم تلك الرياسة وتخريب سلطانها فخور باصله وعشيرته ، هائم بمسقط رأسه حتى اذا فارقه لضرورة بقي حنينه اليه لا يضعف منه طول الاغتراب بل يزيده قوة التهاب فمتى امكنه العود عاد الى وطنه .

وهذه الاخلاق ترشد الى ان البربري محب لجنسه ووطنه مستكمل لصفات العمل لسعادتهما ودفاع الاجنبي عنهما او على الاقل عدم الرضى عن سلطته ولو طال امدها • وقد ذكر بيروني ــ وعنه اخذنا مادة هذا الفصل ــ ان من اخلاق البربري كونه شحيحا جلفا منقادا للخرافات ومؤثرا لها •

وهذا من هناته فان كونه شحيحا جلفا خلاف الواقع المشاهدوالمتواتر والمسطر في كتب التاريخ ، وسترى ما يقوله ابن خلدون عنهم من صفات الكمال ، وهو رجل عرفهم وعاشرهم في اواخر ايام عزهم ودخل بجاية احدى عواصمهم •

واما انقيادهم للخرافات وايثارهم لها فهو واقع مشاهد في زمننا هذا ولكنه ليس من طبيعتهم بل من طبيعة الجهل الذي ثار منهم وبالغ في الانتقام وامدته في ذلك عوامل من الايام •

وقد كان منهم قبل اليوم عظماء في العلوم والمعارف • منهم بوغورطة الموجود قبل الميلاد ، ابدى في كفاحه للرومان مقدرة فائقة في الحرب والسياسة ، ومنهم يوبا الثاني الموجود قبيل الميلاد ، كان من اعظم الفلاسفة وامهر المؤلفين ،ومنهم القديس اوغسطين الموجود في عصر الانحطاط الروماني ، كان نادرة الوجود علما وفصاحة وتقوى واخلاصا وتفانيا في خدمة دينه وجنسه وغير هؤلاء كثير قبل الاسلام منهم من قسمهم علينا التاريخ ومنهم من لم يقصصهم علينا •

اما بعد الاسلام فيكفي المرتاب ان يلقي نظرة على بعض عواصمهم التي كانت من عواصم العلم الكبرى مثل تيهرت وبجاية وتلمسان هذا بالقطر الجزائري فقط • ولا اطيل بذكر المدن الثانوية بله الرجال العظام•

ودونك ما يقوله ابن خلدون عن اخلاق البربر باختصار وتصرف لفظي : واما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة

وما جبلوا عليه من الخلق الكريم فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف • لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون اسوةلمتبعيهم من الامم •

فمن خلقهم عز الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وبر الكبير وتوقير اهل العلم ورحمة المسكين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والصبر على المكارم والاعانة على النوائب ومقارعة الخطوب وابايةالضيم ومشاقة الدول[1] وقد اطال ابن خلدون في هذا الغرض ولكنا اقتصرنا على ما اليه الحاجة امس •

4 ــ القبائل البربرية الكبرى

البربر أمة ذات قبائل وبطون وعشائر لا ينالها الاحصاء • فانهم كانوا يعمرون افريقية من آخر ايالة مصر الى المحيط الاطلانتيقي ، ويتصلون من ناحية الصحراء بأرض السودان •

وذكر بعض مؤرخي الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد خسروا في حروبهم من البيزنطيين خمسة ملايين من الانفس ، هذا مع انه لم يحارب البيزنطيين جميع البربر كما هو معلوم •

وعلاوة على ذلك فقد جاء العرب عقب هذه الخسارة الفادحة ونزلوا على بقية البربر فالفوهم على غاية العزة والمنعة وذاقوا من بأسهم ما يحل عزائم غير العرب اولي الاتحاد المتين في ذلك الحين •

لعل هذا الضرب من الاجمال في عظمة البربر وكثرتهم يقيم لي عذرا في عدم تتبع قبائل هذا الجيل ، فلنكتف بذكر القبائل الكبرى التي تعد اصولا لقبائل عديدة • ومتى سنحت لنا فرصة ــ اثناء مرورنا بادوار التاريخ ــ بزيادة تفصيل ودعا المقام الى ضرب من البسط فاننا نشرح ما يحتاج القاريء الى شرحه ونبين ما يفيد المطالع ان شاء الله •

---

(1) ج 6 ص 104

اتفق النسابون من العرب والبربر وتابعهم المحققون من الافرنج — دون المتعثرين في شبه الالفاظ — على ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان هما برنس ومادغيس (ويلقب مادغيس بالابتر) ، ويقال في شعوب برنس : البرانس ، وفي شعوب مادغيس الابتر : البتر •

واختلفوا بعد هل هذان الجذمان لاب واحد : فعن بن حزم — وهو من نقدة النسابين — انهما لاب واحد ، والجميع من نسل كنعان بن حام ، وعن بعض نسابه البربر ان البرانس فقط من نسل كنعان ، واما البتر فهم بنو بر ابن قيس بن عيلان بن مضر •

وذكر رين قول من قال ان البربر كلهم من بر وأيد ذلك بأن لفظ برانس كلمة مركبة من ثلاث كلمات وهي : ابير = بر ، ان = اله ، اس = له = بر اله له •

وهذا الضرب من فلسفة رين اللفظية يذكرنا فلسفة العوام في كلمة فرعون ، اذ يقولون : كان اسمه « عون » وفر عن امه فلما سئلت عنه قالت : فر عون ، فعلق به هذا اللفظ وعرف به •

ومنهم من يدعي ان يبارين من الامم الاروبيـــة وانهم هم الذين يسميهم ابن خلدون البرانس • وهذا من البعد بمكان • ذكر ابن خلدون في بطون مكناسة قبيلة « ابا يرون » فلو اعملنا المشابهات اللفظية مطية لادراك حقائق الانساب لقلنا : ان يبارين هي ابايرون وكان ذلك اقرب من دعوى انها البرانس •

والقائلون بان البتر من سلالة بر بن قيس يروون في التحـاق بر بالبربر روايات واشعارا لا احب ان اطيل بجلبها فليس شيء منهابمطمئنة له النفس ، ومن كان له ذوق سليم ادرك اثر الصنعة في تلك الاشعار •

والصحيح عند حذاق النسابين ان البرانس والبتر جميعا من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام •

اما البرانس فيتفرعون الى فروع كثيرة تجمعها سبعة اصول كبيرة وهي : كتامة ، عجيسة ، اوربـة ، صنهاجة ، ازداجـة ، اوريغة ، مصمودة .

قال ابن خلدون : وزاد سابق بن سليم المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهي : لمطة ، هسكورة ، كزولة (ويقال لها ايضا جزولة) .

واما البتر فيجمع شعوبهم اربع قبائل كبرى وهي :
ضريسة ، لواتة ، نفوسة ، اداسة .

ومن هذه القبائل او بعض بطونها من يتنصل من البربرية ويعتزى الى العرب . ولكنا تبعنا الجمهور في عدها جميعها بربرية ، ومتى دعانا المقام الى زيادة بسط في انساب بعض القبائل فاننا نفيد القارىء بمبلغ علمنا في نسب تلك القبيلة والله المسؤول في بلوغ المأمول .

5 ــ برابرة وطن الجزائر ومراكزهم بـه

لم يعن المؤرخون اليونانيون واللاتينيون بتفصيل قبائل البربر وبيان مراكزهم . وانما كانوا يميزونهم بأوطانهم : يقولون في أهل نوميديا : نوميد ، وفي أهل موريطانيا : مور ، وفي أهل جيتوليـا : جيتول . وهكذا في أهل بقية اوطان البربر .

ولعل ذلك يرشدنا الى انهم ــ وان كان منهم من استولى على الوطن البربري قرونا طوالا ــ لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤهلهم لهذا الضرب من البيان وينير امامهم سبيل هذا النحت من البحث .

ولما جاء العرب امتزجوا بالبربر بسرعة تضاهي سرعة فتوحاتهم ، فأخذوا عن نسابة البربر تفصيل قبائلهم، وجاسوا خلال ديارهم ، فعرفوا مركز كل قبيلة منهم .

كان وطن ليبية او المغرب او افريقية الشمالية وطنا للبربر وقبائلهم،

وكان بعض القبائل مختصا بجهات من شرق هذا الوطن او غربه او وسطه ، وبعضها تعددت بطونه وكثرت شعوبه ، فانتشرت تلك القبيلة بشعوبها وبطونها على الوطن كله ، وكان لها في كل قسم من اقسامه بطن أو شعب •

ونحن نذكر الآن ما كان من تلك القبـائل او البطون والشعوب مستوطنا بالوطن الجزائري مع بيان الجهات التي اختص بها كل قبيل حسبما كان في اول الاستيلاء العربي •

تقدم ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان : برنس ومادغيس ، وان الجذم الاول يشتمل على عشر قبائل عظمى والثاني على اربع •

وقد اختص من تلك القبائل العظمى بسكنى الوطن الجزائري دون سواه ثلاث قبائل : كتامة ، عجيسة ، ازداجة •

وكان بهذا الوطن ايضا بطون وشعوب من بقية القبائل الاخرى ما عدا قبيلتين من قبائل البرانس وهما: هسكورة، كزولة، فانهما استوطنتا المغرب الاقصى ، وما عدا قبيلتين من البتر وهما : نفوسة واداسة فانهما اقتصرتا على سكنى طرابلس •

فاما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عددا واشدهم قوة واطولهم باعا في الملك وهي احدى قبائل البرانس عند نسابة البربر ، ونسابةالعرب يقولون : انها من قبائل حمير تركها بالمغرب افريقش احد ملوك التبابعة•

ولهذه القبيلة بطون كثيرة المعروف منها عند ابن خلدون ثمانية عشر بطنا • ومن تلك البطون ما يتفرع الى فروع وافخاذ •

وحوالي القرن العاشر الهجري اختلطت كتامة بمصمودة وامتزجت بها فعفا رسمها واندرست تلك الاسماء التي عرفها ابن خلدون •

من اسماء تلك البطون التي بقيت لعهدنا هذا جميلة •

ومما ذكره ابن خلدون من تلك البطون مصالة • والظاهر انها مزالة

التي صارت اليوم علما لقرية بعد اضافة كلمة فج اليها فيقال فج مزالة. وهي تبعد عن ميلة غربا بأزيد من ثلاثين ميلا .

ومن الافخاذ الصغيرة التي ذكرها ابن خلدون بنو تليلان . وعين مركزهم بقوله : « أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة [1]».

ولم يزل بنو تليلان معروفين بهذا الاسم الى اليوم ومركزهم لهذا العهد بجبال بين قسنطينة والقل كما قال ابن خلدون .

وكتامة بجميع بطونها وافخاذها كانت تقطن الساحل البحري من بونة الى بجاية وتتقدم في داخل الوطن الى حدود جبل اوراس .

ومن مدنها بلزمة ، باغاية ، سطيف ، قسنطينة ، جيجل ، القل ، السكيكدة [2] في مدن اخرى .

واما عجيسة فهي قبيلة عظيمة من قبائل البرانس . كان لها بين البربر كثرة وظهور كان موطنهم شرق صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة وقلعة عجيسة التي صارت من بعد حاضرة آل حماد .

وقد انكسرت شوكتهم في عهد آل حماد وزاحمهم الهلاليون وازاحوهم من مواطنهم فتفرقوا اوزاعا في قبائل البربر منهم من ذهب الى تونس ومنهم من ذهب الى المغرب الاقصى .

وفي ارض بني تليلان اليوم قرية بدوية تدعى عجيسة فلعل اهلها من بعض افخاذ عجيسة ساكنوا بني تليلان .

واما ازداجة (ويقال ايضا وزداجة) فقبيلة عظيمة من قبائل البرانس « وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة . وقد يقال : ان

---

(1) ج 6 ص150

(2) ذكر ابن خلدون من مدن كتامة : « السيكرة » واظنها تحريف السكيكدة .

ازداجة من زناتة • وزداجة من هوارة • وانهما بطنان مفترقان • وكان لهم وفور وكثرة [1] » •

ومركزهم بالمغرب الاوسط بنواحي وهران منه •

وفي القرن الرابع للهجرة اضعفتهم الفتن فذهبت ريحهم وانتقل أهل الرياسة منهم الى الاندلس •

واما اوربة فقد كان بعضها بالمغرب الاقصى وبعضها بالمغرب الاوسط ــ على ما يفهم من حديث ابن خلدون عنهم ــ فليست من القبائل المختصة بوطن الجزائر •

وهي ذات بطون كثيرة عد ابن خلدون منها سبعة • وكانت لعهد الفتح العربي اكثر القبائل البربرية عددا واشدها قوة واقواها بأسا وكانوا مستوطنين شمال الزاب • وذكر البكري منهم طائفة حوالي بونة وفي اوائل الفتح العربي ايام عبد الملك ابن مروان دحر الجيش العربي هذه القبيلة الى المغرب الاقصى •

واما صنهاجة فقبيل عظيم من قبائل البرانس • وزعم بعضهم : انها ثلث البربر ونسابة العرب ينسبونهم الى عرب اليمن وانهم تركهم افريقش بالمغرب لما قفل من غزوه • ويقول مرسي وبيروني : انهم من المور والجيتول • وهم ذوو بطون عديدة • نقل ابن خلدون عن بعض مؤرخي البربر انها تنتهي الى سبعين بطنا •

ومواطنهم بالصحراء الى السودان والمغرب الاقصى ، وبالمغرب الاوسط على ساحل البحر من عمالة الجزائر ووهران ويتقدمون في داخل الوطن الى سهول شلف ينتهون غربا بمصب وادي شلف في البحر ويختلطون شرقا بزواوة في سهول حمزة • وذكر البكري او زقور

---

(1) ابن خلدون ج 6 ص 144 •

شمال المسيلة فقال : « وهي عين عذبة باردة عليها شجرة عظيمة • وهذا آخر حد بلد صهناجة [1] » •

ومن قبائل صنهاجة المعروفة الى اليوم بنو مزغنة اصحاب مدينة الجزائر قبلا وذكر ابن خلدون منها لمدونة ولها مدينة بهذا الاسم • ولعلها لمدية ،واهلها الى اليوم ينسبون اليها بلفظ لمداني •

واما مصمودة فقبيلة عظيمة ذات بطون تبلغ اربعة عشر ولبعض تلك البطون افخاذ وفروع •

مواطنهم بالمغرب الاقصى منذ الاحقاب المتطاولة • وذكر البكري عند الكلام على بونة : ان حولها قبائل كثيرة منها مصمودة •

واما لمطة فقبيلة كبيرة ذات شعوب كثيرة • وهم اخوة صنهاجة ، مواطنهم بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء • واكثرهم مجـاورون للملثمين من صنهاجة• قال ابن‌خلدون: ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية•

واما اوريغة فاحدى قبائل البرانس العظيمة ذات بطون كثيرة منها هوارة • وهم ولد هوارة بن اوريغ بن برنس ، باتفاق نسابة العرب والبربر ويتفرعون الى سبعة فروع •

ومواطن الجمهور من هوارة لاول الفتح بنواحي طرابلس وبرقة •

وذكر البكري قبائل بربرية تسكن حول تاهرت ، منها هوارة تسكن قبلتها وذكر منهم شعبا يسكن مدينة الغدير • وذكر ابن‌خلدون موطنا آخر لهوارة وهو جبل اوراس مع كتامة ولواتة • هذا آخر ما قصدنا اليه من الكلام على قبائل البرانس •

وقد كان للواته وضريسة من قبائل البتر بطون استوطنت الجزائر ايضا • ولواتة قبيلة عظيمة تنتسب الى لوا الاصغر ــ وهو نفزاو ــ بن لوا الاكبر بن زحيك • ولها بطون سبعة منها مزاتة وهي اوسعها

---

(1) المغرب ص 65 •

ومنها صدراتة ، ومنها نفزاوة • ومواطن لواتة في القديم بنواحي برقة وطرابلس الى قابس •

قال ابن خلدون : « وكان منهم بجبل اوراس أمة عظيمة •• ولم يزالوا باوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة[1] » •

وقال أيضا : « وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تيهرت الى ناحية القبلة وكانوا ظواعن هناك على وادي ميناس » •

وقال أيضا : « ومنهم ايضا بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة ينزلون ببسيط تاكرارت[2] » •

وبطن مزاته منهم كانت له مدينة بلزمه على ما ذكر البكري • وبطن صدراته ذكر البكري انهم حول بسكرة ولصدراته اليوم قرية معروفة بهم في أعالي وادي سيبوس • ونفزاوة هم بنو تطوفت بن نفزاو بن لوا الاكبر بن زحيك •

وكانت لعهد الفتح العربي من القبائل ذات الكثرة والقوة ، ولها تسعة بطون منتشرة في جهات من طرابلس وتونس ومركزها بالجزائر في شرق عمالة قسنطينة •

ومن بطون نفزاوة ولهاصة • وهـي تقطن حيث تقطن كومية • واما ضريسة فمن بطونها بوطن الجزائر : بنو فاتن ، زواغة ، زواوه ، مكناسة ، زناتة •

بنو فاتن هم أبناء فاتن بن ممصيب بن ضريس ، ويتشعبون الى عشرة شعوب : مطغرة ، لماية ، مطماطة ، مديونة ، كومية ، مغيلة ، ملزوزه ، دونة ، كشانة ، صدينة •

وبنو فاتن منتشرون في المغرب تلوله وصحرائه يلون صنهاجة غربا على الساحل الوهراني ومنتشرون في داخل العمالة •

---

(1) ج 6 ص 117 •

(2) ج 6 ص 118 •

فاما مطغرة فقد كانت ذات قوة وكثرة لعهد الفتح العربي تقطن ما بين فاس وتلمسان ، وتتقدم الى جهات شلف وجبل بني راشد .

ومن مدن مطغرة قرية تدعى « جليداسن » وهي على مرحلة من تنس مطلة على فحص شلف ، ومنها تابحريت قرية على البحر الرومي بساحل وجدة ، وذكر ابن خلدون منهم رهطا بالصحراء يقطنون قليعة والي . وهي المعروفة اليوم بالقليعة ويقولون فيها أيضا : المنيعة .

واما لماية فلها افخاذ كثيرة ، كانوا ظواعن بافريقية وجمهورهم بالمغرب الاوسط . ومن مراكزهم به جبل جزول ونواحي وانشريس .

وبطن لماية هو الذي نزل عليه عبد الرحمن بن رستم حينما فر من القيروان الى المغرب الاوسط ، وأسس دولة فيما بعد من غرر دول الجزائر .

وقد انقرضت لماية بانقراض ملك الرستميين وتفرقت اوزاعا في القبائل .

قال ابن خلدون : « ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس . وهم بها لهذا العهد [1] » .

واما مطماطة فهم شعوب كثيرة ايضا ومتفرقة في نواحي المغرب كله .و مركزهم بالجزائر بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل جزول من نواحي تيهرت .

واما مديونة فانها تقطن نواحي تلمسان الى جبل مديونة غربا وجبل بني راشد شرقا . وفي جوارهم شرقا بنو يلومي وبنو يفرن ، وغربا مكناسة ، وشمالا على السواحل كومية وولهاصة .

واما كومية ــ ويعرفون قديما بصطفورة ــ فلهم بطون ثلاث : ندرومة ، مغارة ، بنويلول ، ومن هذه البطون تفرعت شعوب كومية

---

(1) ج 6 ص 122 .

وتعـــددت قبائلهم ومواطنهم قـــال ابن خلدون : على ساحل تلمسان وارسكول •

ولعل ارسكول هي القرية التي ذكرها البكري بلفظ ارشقول عند مصب نهر تافنا في البحر • وذكر البكري من حصونهم حصن هنين على البحر •

واما مغيلة فانها تقطن بالشاطىء الايمن من شلف عند مصبه في البحر ولهم مدينة على البحر تدعى « آسلن » بساحل تلمسان • قال البكري : « وهي مدينة قديمة عليها سور صخر •• ولها نهر يصب في البحر من شرقيها » [1] •

ويساكن مغيلة اخوتهم من ملزوزة ودونة وكشانة • ومن ساحلهم اجتاز عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وبذر بذور حضارة كانت من بعد المثل الاعلى •

هذا آخر قول في ابناء فاتن ملتزما فيه الايجاز •

واما زواغة فهم من ولد سمكان بن يحي بن ضري او (ضريس) واقرب ما اليهم من البربر زناتة ، لان ابا زناتة جانا وهو اخو سمكان ابن ابيه • ولزواغة بطون ثلاثة متفرقة في القبائل بطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى • وذكر ابن خلدون منهم رهطين بالجزائر : احدهما بجبال وبسائط غرب ميلة على القرب منها ، وهم معروفون حتى اليوم باسم زواغة ، وهذه عبارة ابن خلدون :

« وفي جهات قسنطينة ايضا رهط من زواغة » [2]

ثانيهما بجبال شلف غرب تاهرت • وذكر البكري مدينة شلف فقال : وتعرف بشلف بني واطيل • وهي لزواغة •

واما زواوه فهي قبيلة عظيمة تتشعب الى شعوب عظيمة عرف منها

---

(1) المغرب ص 79 .
(2) ج 7 ص 7 – 8 .

قديما احد عشر بطنا •وهم اخوة زواغة من ولد سمكان بن يحي • وقال ابن حزم : انهم من قبائل كتامة • قال ابن خلدون : « والصحيح عندي ما ذكره بن حزم • ويشهد له الموطن ونحلة التشيع مع كتامة [1] »•

وقـال في موضع آخر : « والمحققون من النسابـة مثل ابن حزم وانظاره انما يعدونهم في بطون كتامة • وهو الاصوب والمواطن اوضح دليل عليه • » [2] وغلط من جعلهم اخوة زواغة بان القبيلة التي هي اخت زواغة تدعى زواوة • والقارىء صحف زاي زواوة بواو زواوة فظن زواوة اخت زواغة [3] •

وقد اشتهرت مواطن زواوة باسم القبائل وهذه اللفظة تطلق ايضا حتى اليوم على مواطن كتامة ، وان لم تشتهر فيها اشتهارها في وطن زواوة • وقد يكون هذا الاطلاق عاضدا آخر لما يستصوبه ابن خلدون•

ووطن زواوة بجبال القبائل الكبرى ما بين كتامة شرقا وصنهاجة غربا وعجيسة جنوبا •

واما مكناسة فبطن عظيم من بطون ورسطيف • وورسطيف اخو جانا وسمكان فالثلاثة ابناء يحي بن ضري •

والمعروف قديما من بطون مكناسة ثمانية

وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن سجلماسة اعلاه الى مصبه في البحر •

وذكر البكري ان من القبائل التي تسكن حول تاهرت مكناسة بجوفيها •

واما زناتة فقبيلة عظيمة من القبائل العريقة في القدم • وبما كان لها من الكثرة تغلبت فيما بعد على بقية بطون ضريسة •

---

(2) ج 6 ص 151 •

(3) المعروف بطرابلس اليوم زوارة بالراء لا بالزاي .

ويرى ديكلوس من متأخري المؤرخين : ان الجيتول اصل صنهاجه زناتة .

قال ابن خلدون : « وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس الى جبل اوراس والزاب الى قبلة تلمسان ثم الى وادي ملوية .» [1] قال : « والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى انه ينسب اليهم ويعرف بهم ، فيقال : وطن زناتة »[2] .

قال ابن خلدون: وشعوب هذه القبيلة اكثر من ان تحصى . وعليه فانا نقتصر على ذكر الشعوب التي كانت لها شهرة في التاريخ ، وهي هذه العشرة : جراوة ، اوغمرت ، يفرن ، مغراوة ، واسين ، يرنيان ، ورجلة ، ورنيدين ، يلومي ، ومانو .

اما جراوة فهم ولد كراو بن الديرت بن جانا (وهو زناتة) وكانوا قبل الاسلام أهل كثرة وقوة وفيهم رئاسة زناتة .

موطنهم لعهد الفتح بجبل اوراس . ثم تفرقوا من بعد اوزاعا في قبائل البربر بالمغرب الاقصى وغيره .

واما اوغمرت (ويقال غمرت ايضا) فهم من ولد ورتنيص بن جانا، وكانوا من اوفر بطون زناتة عددا .

قال ابن خلدون : « ومواطنهم متفرقة ، وجمهورهم بالجبال الى قبلة بلاد صنهاجة »[3] وذكر مرسيي من مواطنهم جبل بني راشد .

واما ورجلة (ويقال ايضا وركلة) فهم من ولد وركلة بن فرني بن جانا . وموطنهم بالصحراء جنوب بسكرة . ولهم مصر اختطوه معروف باسمهم الى اليوم .

---

(1) ج 7 ص 7 – 8 .
(2) ج 7 ص 2 .
(1) ج 7 ص 50 .

واما يفرن فهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا •

وهم من اوسع بطون زناتة • وكانت لهم الرئاسة من بعد جراوة • ومواطنهم فيما بين تلمسان وتاهرت وفي الحضنة وجنوب اوراس • وكان لهم ملك في العصر الاسلامي بالمغرب الاوسط ثم الاقصى •

واما مغراوة فهم بنو يصلتين بن مسرا • فهم أخوة يفرن كانوا اوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب منهم • وشعوبهم كثيرة • ذكر ابن خلدون منها ثمانية (منها ديغة والاغواط) ثم قال : وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم •

وكان لهم في العصر الاسلامي ملك بفاس وسجلماسة (تفيلالت) وتلمسان وطرابلس وغيرها •

وموطنهم بالمغرب الاوسط من شلف الى تلمسان • ولهم مراكز ايضا من اخوانهم بني يفرن بالحضنة وجنوب اوراس •

واما واسين فهم بنو واسين بن يصلتين ابي يفرن ومغراوة • ولهم افخاذ عظمت وصارت ذات كثرة وقوة • منها بنو مرين ملوك المغرب في الاسلام ، وبنو عبد الواد ملوك المغرب الاوسط ، وبنو توجين ، وبنو مصاب (مزاب) ، وبنو راشد ، وبنو رزدال في قبائل آخرى •

ومواطنهم بالزاب ووادي ريغ وجبل راشد الى ملوية •

واما يرنيان فهم اخوة مغراوة • لهم بطون كثيرة وافخاذ عديدة • وهم منبثون في مواطن زناتة ، واختطوا قصورا كثيرة على وادي ملوية واما ورنيدين فهم بطن من بطون دمر • ولهم شعوب كثيرة وفصائل عديدة منها بنو برزال •

وهم بنو ورنيدين بن وانتن بن واردين بن دمر بن ورسيك بن الديرت •وكانت مواطنهم غرب جبل بني راشد قبلة تلمسان في البسائط

والسهول • ثم انزاحوا عندما غلبهم بنو راشد الى الجبل المطل على تلمسان ، وبنو برزال منهم كانوا بجبل سالات وما اليه من نواحي المسيلة •

واما ومانو فقبيلة من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها شوكة • وكانت تقطن الجهة الشرقية من اسافل وادي شلف على نهر ميناس •

واما بنو يلومي فهم أيضا من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها بأسا كانوا يقطنون العدوة الغربية من شلف الى جبل هوارة وفحص سيرات ويذهبون جنوبا الى جبل بني راشد •

هذا ما اردنا ايراده من قبائل بربر الجزائر ومواطنهم على ما عرف لهم العرب لاول استيلائهم على المغرب • ولم يزالوا بها الى القرن الخامس الهجري حينما حمل الهلاليون على هذا الوطن حملة ازاحت كثيرا من قبائل البربر عن مواطنها ، وحل الهلاليون محلها •

والظاهر ان المراكز التي ادركها العرب للبربر وعرفوها لهم هي مراكزهم القديمة • اذ لا يعرف التاريخ هاجما غير خريطة افريقية وملك على البربر اوطانهم وحل محلهم بصفة دائمة غير الهلاليين ومن انضاف اليهم من عرب المائة الخامسة • وعندما يحين القول في هؤلاء العرب وتتكلم على شعوبهم ومراكزهم نذكر ــ ان شاء الله ــ المراكز الجديدة للبربر • ونزيد القول في شعوبهم وافخاذهم بيانا وشرحا •

6 ــ الحيــاة البربريــة

عمر البربر وطنهم الثاني ليبية (المغرب) قبل التاريخ • فلا جرم كانت حياتهم في البساطة شبيهة بحياة بقية أهل العصر الحجري في المسكن والملبس والمطعم والمكسب • ولكنهم ترقوا ــ وفق طبيعة النشوء والارتقاء ــ في ذلك • وتأثروا بمجاورة الاغريق اولا ثم بمعاشرة

الفينيقيين • وكانوا أسبق مـن الرومان الى الاقتباس مـن حضارتي هاتين الامتين •

عرف البربر ـ كسائر البشر ـ معدن النحاس فانتقلوا من مدنية العصر الحجري الى حضارة العصر النحاسي • ولكنهم لم يلجوا هذا العصر الثاني الا حين اكتشاف معدن الحديد • فاندمج هذان العصران عند البربر في عصر واحد • على أن عصر الحجارة طال امده بدواخل وطنهم • فعاصر الحديد حينا من الدهر •

من الآثار النحاسية المكتشفة بالوطن الجزائري قطع بضواحي مدينة قيصرية ، واخرى بضواحي مدينة اقسيوم • ووجدت ايضا صفائح نحاسية بمنزل في مغارة قرب مدينة صلداي ، ومعها قطع بصددالتكوين لم يزل بها اثر الفحم • وذلك يدل على انها مصنوعة هنالك وليست منقولة من وطن آخر •

1 — المسكن : كان البربر منهم الرحل اهل البيوت التي يخف حملها مهما ارادوا الظعن لانتجاع الكلأ والعشب بمواشيهم ، ومنهم المقيمون اهل القرى والمدن ، يتخذون بيوتهم اما من الخشب واما من الحجارة ويغطون سقوفها بالديس او غيره من النباتات • ولهم في هندسة البيوت اشكال وفي بنائها كيفيات • منها بناء جدارين متوازيين بالحجارة ثم صب الحصا خلالهما حتى يمتلىء ما بينهما من الفضاء •

وقد أسس البربر مدنا عظيمة • منها ما طوى عنا التاريخ خبره واعفى كر الغداة والعشي أثره ، ومنها ما بقى ذكره مرعيا لو حوفظ علـى موقعه فلم يزل موضع عمارته مرئيا •

وسنتكلم على ما حفظ التاريخ للبربر من المدن حسبما تدعونا المناسبـات •

2 — الملبس : كان ملابس البربر من الصوف بعـد مـا عرفوا

الحياكة • منها البرنس •وهو ثوب أعلى يسلك في العنق او يوضع على الاكتاف ينسج قطعة واحدة ويترك من أمام مفتوحا ، لا يخاط الا ما يقابل الصدر منه • وهو قديم بينهم ومعروف عند غيرهم ايضا• فقد كان لباسه شائعا بين اليونان والرومان • ووصف ابن‌خلدون برانس البربر بأنها كحل • والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم ايضا • ولم يزالوا حتى اليوم بوطن القبائل ينسجون برانس في غاية المتانة والاحكام • ولونها في الغالب أزرق • فاما ان يكون هذا اللون حدث بعد ابن خلدون واما ان يكون هو الذي تساهل فعبر بالكحولة مكان الزرقة • والعرب تتساهل في الالوان المتقاربة •

ومنها القشابية • وهي ثوب اعلى ايضا له اكمام يسلك في العنق ويخاط من أمام ، لا يترك منه الا الجيب (الرقبة) ولا يلبس البرنس فوقها الا نادرا • وهي قديمة جدا • وكانت من ملابس الرومان أيضا•

ومنها الكساء • وهو قطعة صوف غير مخيطة يشتمل بها الرجال والنساء اشتمال الصماء • وهو قديم أيضا ، ومعروف عند قدماء المصريين •ولم يزل لباسه حتى اليوم شائعا في بعض الجهات • وفي اغلب الوطن الجزائري تفننوا في نسجه ورققوه وزينوه بالحرير فصار من ملابس الزينة يختص به أهل الهيآت ويعبر عنه عرب الجزائر بالحائك •

ومنها السراويل القصيرة او الطويلة ، وهي معروفة ايضا عند الغاليين قدماء الافرنج •

ويلبسون غير ذلك جلود الحيوانات بعد دبغها • وهي من ملابس الغاليين‌ايضا ما زلنا نشاهدها اليوم عند اعقابهم المتمدنين• أما البربر فقد تركوا هذا اللباس من قديم ، ولم يحافظوا عليه خلافا لعادتهم فيغيره •

وقد احسنوا في رفض لباس يقرب صاحبـــه في المنظر من الحيوانات الوحشية ، ويذكر بأخلاقها في المجتمع صباح مساء •

وكانوا يضعون على رؤوسهم « القنور » • ويرجع عهده الى الالف الثالث او الثاني قبل الميلاد • وقد قدر له ان يعيش — على ثقله حسا ومعنى — هذا العمر الطويل • ولكنه اليوم ادركه الهرم ودب فيه دبيب الفناء ولا ندري متى يحين الوقت الذي يوضع فيه بدار الآثار • وعلى كل حال فلم يكن لباسه عاما • فقد قال ابن خلدون — متحدثا عن عموم البربر — : « ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق » [1] وذكر عن زناتة — وهم من سكان جيتولية على ما سبق — انهم يلبسون العمائم « يلفون الليت والاخدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها » [2] وكان بربر نوميديا لا يحلقون رؤوسهم ويفرقون شعرها غديرتين يرسلون مع كل جانب غديرة •

واتخذوا الحلي من النحاس والفضة والذهب خواتم واساوروخلاخل وغير ذلك •

ولم يغيروا الى اليوم لباسهم القديم الا يسيرا خصوصا البادين منهم •

3 — المطعم : لا شك ان البربر كانوا قبل معرفتهم للزراعـــة يقتاتون من لحوم الصيد والحيوانات الانسية وبعض النباتات الطبيعية التي لا تضر بمعدتهم • اما بعد ان عرفوا الزراعة فلا ريب انهم استعملوا من الحبوب ضروبا من الاطعمة ، نقلوا بعضها عن غيرهم من الامم • ومن الاطعمة المنسوبة لهم «الكسكس» وهو اليوم من أهم أغذيتهم • يواظبون عليه للعشاء • وقليلا ما يستعملونه غداء • وقد أثروا على عرب الجزائر في اقتياته فصاروا سواسية في اعتماده غذاء لابدانهم •

---

(1) ج 6 ص 89

(2) ج2 ص15 •

4 — المكسب : كان البربر من قديم يكسبون الغنم والبقر والخيل الغنم والبقر لنتاجها والبانها وغير ذلك من فوائدها ، والخيل لركوبها اما للصيد واللهو واما للحرب والغزو •

واشتهر في الفروسية بربر نوميديا • وخيلهم كانت قصيرة سريعة العدو • تصلح لاستطلاع احوال العدو ورد الفارين من الجيش • يلبس الفارس منهم لباسا خفيفا ويحمل سلاحا خفيفا ايضا ، ويعتلي صهوة فرسه من غير سرج ولا لجام • وانما يمسك بيده قضيبا من خشب يصرف به الفرس طوع ارادته • وهذا دليل على حذقهم في سياسة الخيل ومهارتهم في تربيتها •

ش ـ ١ ـ (رسم فارس نوميدي)

ومن مكاسبهم الابل وهي معروفة قديما بآسيا • ولكنها لم تدخل الوطن البربري الا حوالي سنة 66 (ق•م) قال ابن خلدون : وهي من مكاسب أهل النجعة منهم شان العرب •

وكانت لهم معرفة بالصناعات المعدنية وزراعة الحبوب ، فكانوا يزرعون الفول • قال بيروني : ويظهر ان أصله من ارض البربر • ويزرعون الشعير ، وهو اكثر فلاحتهم ، والقمح وحبوبا أخرى • قال بيروني : ولا نعلم أهذه الحبوب محلية ام مجلوبة ؟ وكان بوطنهم العنب والزيتون ، ولكنه طبيعي غير مغروس •

وصنعوا من المعادن ما كانوا يصنعونه من الحجارة وبذلك سقطت الصناعة الحجرية الا بدواخل الوطن فقد عاشت وترقت حتى صارت في غاية الاتقان •

واتفقت كلمة من وقفنا على كلامهم من المؤرخين ان البربر لم يتعلموا الغراسة الا من الفينيقيين • اما الفلاحة واستخراج المعادن فقد قال اغسال : ان البربر تعلموهما من قدماء المصريين وسكان جزر البحر الابيض المتوسط • كانوا اولا يقتنون مصنوعات هذه الامم ويستوردونها ثم تولوا صناعتها بانفسهم •

7 ــ نظام المجتمع البربري

كان البربر مقتنعين ــ منذ نزلوا ليبية ــ في حياتهم بما منحتهم الطبيعة من خصب اراضيهم التي كانت ــ على كثرتهم ووفور عــدد قبائلهم ــ تفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم • فلم يكن لهم من غرض في استعمار وطن آخر ، ولا بلغ بهم الجشع ان يسفكوا دماء محترمة ، ويصبغوا بلونها القاني ترابا تنبسط نفوسهم من بعد للتمتع فوقه بخيراته وجهود ابنائه المظلومين• وانما كانت تقع منهم بعضهم على بعض هجومات

اما لصيانة حرمة انتهكت واما لدالة الشرف حيث يكون منهم ذو عزة بعشيرته فيريد ان يفرض سيادته على جيرانه • وهي سيادة ادبيـة شرفية غير مشوبة بطمع في مغرم او انتزاع ارض •

لذلك لم يكن لهم في القديم ملوك عظام ودول فخام وانما كان منهم امراء على قبائل وسادات على عشائر •

وكانت السلطة المنزلية بيد الرجل ولذلك كانت انسابهم تابعة لآبائهم لا لامهاتهم ، وروى هيرودوتس [1] ــ على ما ذكر الكعاك ــ ان نظام الامومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري • تكون السلطة فيه للام ، والاب غير معترف به شرعا والابناء تابعون لخالهم في الميراث ، وعلى هذه الرواية يكون البربر اسبق الامم الى الاعتراف بحرية المرأة • ويؤيدها ان ابن خلدون ذكر قبائل منهم تنتسب الى امهاتها • وذكر رين قبائل عبر عنها بأولاد امهاتهم • وقد بقي أثر ذلك اليوم عند « اليقاشين » فانهم اذا حسبوا لمريض او غيره توصلا للغيب عدوا حروف اسمه واسم امه دون أبيه • وكذلك اذا رقوا لاحد رقيتهم كتبوا بها اسمه واسم امه لا ابيه •

ونحن ــ اذا أيدنا وجود نظام الامومة قديما ــ لا نريد انه عام بين البربر بل خاص ببعض الاوساط ونظام الابوة هو الغالب •

قال مرسيي : « ومن غير شك ان لكل قبيلة قوانين تخضع لها • ولم يزل أثرها الى اليوم في وطن القبائل » •

وقال أغسال : ويؤخذ من الكتابات الحجرية الاثرية ان فراعنة مصر كانت لهم علاقات بالليبيين وكان الليبيون ينتهزون فرصة ضعف الفراعنة ليغيروا على سواحل النيل ويملؤا ايديهم من الغنائم • واحيانا يكونون

---

(1) مؤرخ يوناني شهير يلقبونه شيخ التاريخ وأبا التاريخ عاش قبل الميلاد بنحو 450 سنة .

جندا مرتزقين لدى الفراعنة • وفي القرن الرابع عشر والثالث عشر (ق•م) كادوا يستولون على مصر •

هذا كلام أغسال • وهو ــ وان كان تاريخه خاصا بالجزائر ــ لا يصح حمل كلامه هذا على الجزائريين • وان كانت الجزائر من ليبية • وانما يصدق على البربر المجاورين لمصر • اما بربر الجزائر فان لهم من وطنهم ما يغنيهم عن مزاحمة القبط على النيل •

لذلك عاشوا دهورا متمتعين بلذة البساطة في مجتمعهم اغنياء عن النظام الدولي ، اذ لا تحتاج اليه الا امة اضطرها ضيق عيشها الى تعدي بعضها على بعض او التوسع على حساب أمة أخرى •

عاش بربر الجزائر ما شاء الله ان يعيشوا في راحة من تحمل عبء الملوك ودالتهم ، اعزاء عن الخنوع لشهوات الامراء وجبروتهم حتى الجأتهم حروب قرطاجنة مع رومة الى تجشم مرارات النظام الدولي • ايقظتهم تلك الحروب الى أن من الامم ما لها مطامع في استعباد غيرها • فضخموا ملكهم ووحدوا امارتهم كي يحفظوا وطنهم من عاديات عشاق الزعامة العامة والسيادة السامة • وكان منهم اذ ذاك ملوك سنأتي ــ ان شاء الله ــ فيما بعد على تفصيل حياتهم وبيان اعمالهم الجليلة بقدر ما تسمح به المادة التي بأيدينا •

8 ــ لغة البربر وكتابتهم

البربر يسمون لغتهم « تماشغت » ولهم لهجات مختلفة • ففي ابن خلدون :ان زناتة منهم لها رطانة خاصة بها • ونرى اليوم فرقا بين لغة زواوه احدى بطون ضريسة ، ولغة مصاب (مزاب) من زناتة وغيرهم • اما أصلها فهو تابع لاصل الناطقين بها • ويقول بيروني : انها غريبة مجهولة الاصل ، كما ان البربري نفسه مجهول النسب •

والصواب خلاف ما يقول فقد قدمنا ما عليه محققو المؤرخين من ان البربر جنس حامي • ووطنهم الثاني (ليبية) ساكنهم به طوائف من أمم مختلفة •واذن فاللغة البربرية حامية الاصل مشوبة بعدة ألفاظ من الفينيقية وغيرها من لغات الامم التي جاورتهم او استولت عليهم •

والبربرية تخالف اللغات السامية في انها يسوغ فيها الابتداءبالساكن واجتماع الساكنين فاكثر وتقديم المضاف اليه على المضاف • وتوجد فيها كلمات مركبة تركيبا مزجيا وليست اعلاما • وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا • ولا كذلك اللغات السامية •

يقول رين : ان اللغة العربية واللغة الفرنسية استعارتا الفاظا من البربرية • وسرد تلك الالفاظ التي يدعى اصالتها في البربرية • وهو ان كان يريد ذلك في العصور الاخيرة فلا منازعة ، وان كان يدعي ذلك في القديم فلا انازعه في ذلك بالنسبة الى اللغة الفرنسية فقد يساعده التاريخ على ذلك لان بربر نوميديا مكثوا مع حنبعل القرطاجني سنين بالغاليا وغيرها من جنوب اروبا ، واختلطوا بهم في جيش قرطاجنة أيضا واللغات اذ ذاك ضيقة تحتاج الى النقل فلا يبعد ان يكون قدماء فرنسا أخذوا من البربرية •

اما العربية فبعيدة جدا عن البربرية • ولا يعلم في التاريخ وقوع اختلاط بين هاتين الامتين الا ما كان من غزو افريقش لليبية [1]• ولكن ذلك لا يؤيد دعوى رين لان المغلـوب هو الذي ينقل عن الغـالب • على ان علماء العربية تكلموا في الدخيل واعتنوا بتمييزه حتى خصـه بعضهم بالتأليف • ولم يذكروا منه كلمة بربرية •

---

(1) مما يثبت غزو افريقش لليبية ما ذكره ابو يعلى في كتابه تاريخ الزواوة (ص 22) انه راى في المجلة الاسيوية ان علماء الاثر اكتشفوا الخط الحميري منقوشا على حجر في بعض قرى افريقية .

ان من الالفاظ التي ذكرها رين بربرية نقلت الى العربية ما هو عربي حقيقة • فان كان موجودا في البربرية فهو دخيل فيها بعكس دعواه وتكون تلك الالفاظ موروثة عن قبيلتي كتامة وصنهاجة العربيتين •

كانت اللغة البربرية ــ كغيرها ــ ساذجة بسيطة ثم تطورت مع الزمان وتأثرت بما كان يجاورها من اللغات الراقية • وخصوصا الفينيقية • وكان لها ادبها وبلاغتها والفت بها التآليف العلمية قبل الاسلام وبعده •

وكان للبربر خط خاص بهم ، وحروفه تمثل شيئا من اشياء الكون مثل الشمس والهلال والبرق • وتدل على معنى موافق اما لصفة ذلك الشيء مثل السرعة للبرق واما لفائدته مثل الحرارة للشمس •

كان هذا الخط في القديم يتركب من عشرة حروف يسمونها « تيفيناغ » ومعنى هذه اللفظة الحروف المنزلة من عند الاله ، لانهم كانوا يعتقدون انها ليست من وضع البشر • ويتركب من خمسة اشكال يسمونها « تيد باكين » ومعناه : الدليل على العمل والتوسع • ويعتقدون انها من وضع البشر •

حروف تيفيناغ هي التي تفيد المعاني ، وحروف تيدباكين اما لضبط تلك الحروف او توكيد معنى حرف منها •

وكانت حروف الامم قديما مثل الاغريق واللطين عشرة ايضا • وذلك ان الانسان يخترع على قدر حاجته • وفي بدء عهده بالحياة كانت دائرة افكاره ضيقة ، والمعاني التي يعبر عنها قليلة • فكانت هذه الحروف ــ على قلتها ــ وافية بحاجته •

وهذه صورة حروف تيفيناغ القديمة مفسرة بما يوافقها او يقاربها من الحروف العربية :

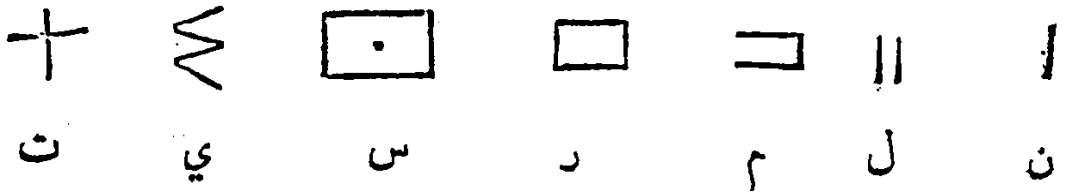

ن ل م د س ي ت

د

ج ب وهناك حروف احدث منها وهي :

ز مخرجه بين ز (و)س ث ش وقد يكتب هكذا

وهذه صورة حروف تيد باكين :

1 • هذه الشكلة حركة • والاكثر ان تكون فتحة •

2 : هذه الشكلة واو مد غالبا •

3 ⁝ هذه الشكلة تؤكد معنى حرف الجيم •

4 : هذه الشكلة لا نظير لها في العربية •
:

5 : هذه الشكلة حرف هجائي وحركة معا • ولا نظير لها في
:

العربية وتوجد غير ما سبق حروف احدث من تلك تختلف باختلاف القبائل معنى ومخرجا • ومن حروف تيفيناغ ما تصرفوا فيه من بعد ، كما ان تلك الاشكال صيروها من بعد كحروف هجائية •

وترتيب الحروف الهجائية في الوضع مجهول لم يهتد اليه الباحثون من طريق النقل ، وانما ظنوا انها كانت ترتب حسب معانيها •

ويقول رين : المظنون ان اللطينيين أخذوا حروفهم عن البربر لانهم يسمون حروفهم الهجائية « المنتا » وحروف ل ، م ، ن ، هي الاولى في الحروف البربرية •

وليس للبربر في القديم نظام في الكتابة : يكتبون من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، ومن أعلى الى اسفل ، ومن اسفل الى أعلى • ولما جاء العرب أثروا بنظامهم فصاروا يكتبون من اليمين الى اليسار • وبطول المدة نسي المختلطون بهم الحروف البربرية وصاروا يكتبون لغتهم بحروف عربية • ولم تعش حروفهم الا بين الملثمين في مجاهل الصحراء فانهم لم يزالوا يكتبون بها الى هذا العهد•

9 ــ المعتقد البربري

كان قدماء البربر يعتقدون وجود اله يسمونه « عمون » ولكن يرون انه ليس له وجود مستقل ، وانما هو روح تحل ببعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها •

لذلك كانوا يعبدون تلك المظاهر وهي ترجع الى ثلاثة اصول :

1 ــ الكواكب : كانوا يعبدون منها الشمس والقمر • ويمثلون الشمس بقرني الثور • وقد يتخذون لقرصها تمثالا يضعونه على رأس صورة تيس كما دلت على ذلك الآثار •

2 ــ الحيوانات : كانوا يعبدون منها الثور وهو في المنزلة الاولى

من الاهمية ، والكبش ، وهو في الدرجة الثانية • ويعبدون سواهما الافعى والبوم والحمام والطاووس والسلحفاةوالضفدع والقرد والهر •

3 — الروحانيات : كانوا يعتقدون وجود ارواح كالجن في بعض العناصر الطبيعية كالعيونوالاحجار والاشجار فيعبدونها ويتوسلون بها الى نيل ما عجزت عنه قواهم البشرية •

قال البكري في خاتمة كتابه المغرب : « وبنو ورسيفان من البربر اذا ارادوا الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ • وهي عندهم الشياطين — ويقولون : هذا ذبح للشماريخ • ويفتحون اوعيتهم في تلك الليلة من الطعام والعلف • فلا يكون لها وكاء ولا سداد •ويقولون: هذا طعام وعلف للشماريخ ، فاذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح • فيقولون قد جاءت الشماريخ اولياؤكم لنصرتكم • فيحملون عند ذلك • فينتصرون بزعمهم ويقولون : ان ذلك لا يخطيهم [1] » •

ونظير ما ذكره البكري ما هو موجود اليوم من ان الناس اذا عز عليهم المطر في فصلي الربيع والخريف لم يستسقوا الاستسقاء الشرعي بل يتقربون بذبح البقر او غيره من الانعام لقبر من القبور التي يعتقدون صلاح صاحبها بالسماع من اسلافهم العوام ، ويطعمون الطعام • ويسمون ذلك « زردة سيدي فلان ••• » فاذا اغاثهم الله بالمطر نسبوا ذلك لبركة ذلك السيد وانه رضي عنهم • وكثير من عقائد الاقدمين الوثنيين لم تزل رائجة بين الجهال البسطاء وعوام المتعلمين • وانما صبغت بلون آخر •

ان عبادة الكواكب والحيوانات والروحانيات امر شائع بين الامم المتقدمة ، وقدر مشترك بين الوثنيين ، وانما يختلفون في تفاصيل المعبودات وكيفيات العبادات •

---

(1) المغرب ص 188 — 189 •

ونحن نجهل ــ لفقدان المصادر التاريخية ــ نظام ديانة البربر وشعائر عبادتهم على وجه التفصيل • ولكن من المحقق انهم كانوا ــ كغيرهم ــ يتقربون الى آلهتهم بالقاء انفسهم في النار •

والوطن البربري ــ كما قدمنا ــ معمور بأمم مختلفة ولغته مزيجة من لهجات • فديانته كذلك مركبة من عدة ديانات • ومنها ما يشبه ديانة قدماء المصريين • ومنها ما أخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه عن الرومان وكلها ديانات وثنية • وكانت بينهم طائفة اسرائيلية غير وثنية • ولكن نظام معابدها ــ كما قدمنا ــ مخالف لنظام يهود المشرق •

ومع انفعال البربر بديانات الامم المجاورة لهم فهم يحافظون على روح عقائدهم الاولى ولا يرفضون منها الا قليلا • ولا يعرف التاريخ دينا غيَّر العقائد وابتعد بها عن الوثنية واعتمد على العقل مثل الدين الاسلامي ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه • ولكن ما دامت مصادر الدين باقية ومنابعه صافية فليس الذنب ذنب العامة ، بل الوزر كل الوزر على كاهل العلماء الجبناء والمدعين للصلاح من الجهلاء •

افريقية (لامبيز)

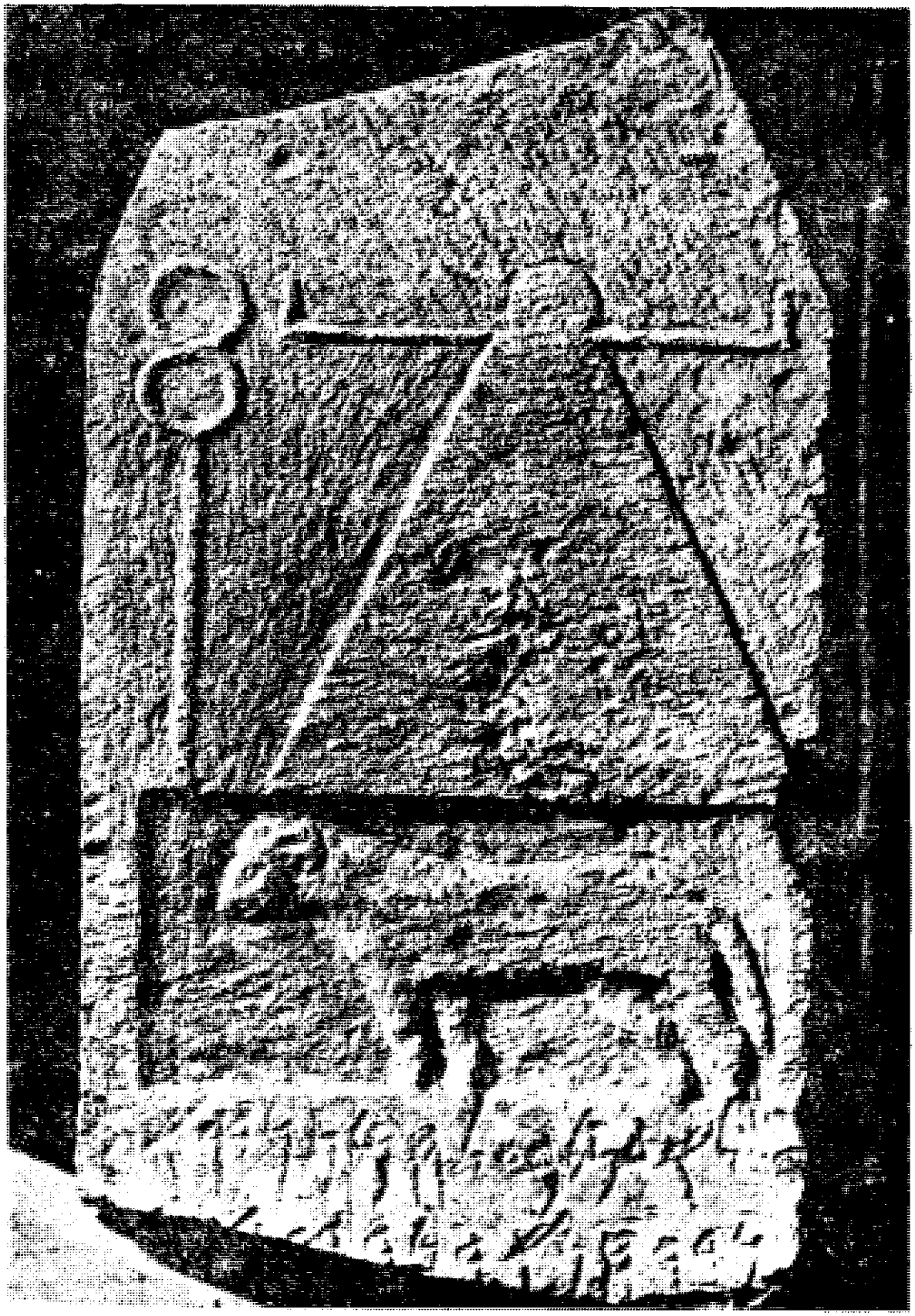

الحفرة (قسنطينة)

الباب الثالث

في ذكر الفينيقيين

تمهيـــد

الفينيقيون قوم منسوبون الى وطنهم فينيقيا ، وهي قطعة من الشام ضيقة مستطيلة على سيف البحر ، يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان • وهم أمة قليلة جدا ولكنها عملت في التاريخ القديم اعمالا جليلة جدا •

كانوا بطبيعة وطنهم بحريين تجاريين ، فربطوا بين الامم القديمـــة مواصلات ونشروا بذلك حضارات • وهم أول أمة أجنبية دخلت مصر جاءوها قبل اليونان وكانت لهم حارة معروفة باسمهم في مدينة منفيس[1] قاعدة الأسر العشر الاولى من الفراعنة • وعقدوا مع اولئك الفراعنة اتفاقا تجاريا يسمح لهم بنقل البضائع من مصر للاتجار بها في جزر البحر الابيض المتوسط وشواطئه ليبية واسبانيا • فاصبحوا يشقون بمراكبهم هذا البحر وينقلون الى من حوله حضارات المشرق وهم أول من انقذ الامم الاوروبية من الهمجية •

كانت لهم بفينيقيا مراس عظيمة اشتهرت بالبحرية والتجارة منهـا عراد وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور • وأسسوا باسبانيا وليبية مراكز صارت تعظم كلما نقص عمران مدن فينيقيا بمزاحمة الامم لهم هنالك ومحاربة الملوك اياهم •

وجد الفينيقيون بليبية ضالتهم المنشودة من البحرية والتجـارة والاشتغال بوسائل العمران في سلم وأمن • فظلوا على ذلك حتى دخلوا مع اليونان في الحرب على صقلية ، ثم الرومان بصقلية وافريقية • وانتهت تلك الحروب المشؤومة بتخريب عاصمتهم قرطاجنة وذهـاب ملكهم وتلاشي أمتهم • فذابوا في غيرهم وعفا رسمهم ولم يبق منهم الا اسمهم

---

(1) سماها البكري منفيش بالشين .

وجلائل اعمالهم التي كلها حسنات للبشرية عامة وللبربر خاصة ، وليس بهم من عيب سوى عفتهم عن الدماء وبعد طبيعتهم عن الحروب •

ا ــ اصل الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام •

كانوا ــ كبقية الكنعانيين ــ بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا الى الشام مع اخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له ارض كنعان •

قال ابن خلدون : ومؤرخو بني اسرائيل يقولون ان الكنعانيين الذين كانوا بالشام هم من كنعان بن حام وان العمالقة من ولد العيص ابن اسحاق ابن ابراهيم (ص) وقال في سياق ابناء حام : ومنهم كنعان باتفاق •

فيستفاد منه ان كنعان الذي ينسبه العرب إلى عمليق غير كنعان ابن حام ، وان الخلاف بين مؤرخي العرب والاسرائيليين انما هو في نسب كنعانيي الشام : هل هم من كنعان بن عمليق ام من كنعان ابن حام ؟ ويظهر من كلامه في موضع آخر انه يؤيد قول مؤرخي بني اسرائيل حيث قال في الكلام على ابناء كنعان بن حام : ان منه أمة كانت بالشام « وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع الى افريقية فاقاموا بها » ومنه أمة كانت ببيت المقدس « وهربوا امام داوود عليه السلام حين غلبهم عليه الى افريقية والمغرب واقاموا بها والظاهر ان البربر من هؤلاء المنتقلين اولا وآخرا • الا ان المحققين من نسابتهم على انهم من ولد مازيغ بن كنعان ، فلعل مازيغ ينتسب الى هؤلاء [1] » •

---

(1) ج 2 ص 12 •

واذا ايد ابن خلدون قول مؤرخي بني اسرائيل في كنعانيي الشام فان الفينيقيين ليسوا منهم بل هم ساميون من غير نزاع • غير ان ما استظهره من انتساب البربر الى تينك القبيلتين ليس بظاهر وقد مر في الباب الثاني (2 ، 3) ما يغني عن التعرض هنا لبطلان استظهاره •

والخلاصة ان الفينيقيين اخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الاقدمون في وطنهم •

2 ـ الفينيقيون بالجزائر

الفينيقيون أمة تجارية لا شأن لها بالحروب • وقد كانوا ايام ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارتهم الى المشرق ، واستعمروا فيه — استعمارا تجاريا — جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي • وخاضوا البحر الاسود وبلغوا القفقاس •

وفي القرن الثالث عشر (ق•م) سقطت مدينة صيدا بهجوم الفلستينيين [1] عليها لغنم ثروتها • فورثتها مدينة صور في سعةالعمران وعظمة التجارة • وزاحم اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا الى البحر الابيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية بصقلية ومالطة وسردانيا والجزائر الشرقية [2] وبلغوا اسبانيا وأسسوا بها مدينة قادس •

صار الفينيقيون يترددون ببضائعهم بين الشام والاندلس • يقطعون مضيق جبل طارق مقتربين من سواحل ليبية حتى اذا بلغوا صقلية ابعدوا عن الساحل الافريقي •

---

(1) غير الفلسطينيين . والظاهر انهم من فلشتين الذين ذكرهم ابن خلدون في ابناء حام .

(2) ثلاث جزر شرق الاندلس وهن ميورقة ، مينورقة ، يابسة .

وكانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة : يأخـذون منهم الانعـام والاصواف والجلود وريش النعام والعاج ويدفعون لهم عوض ذلك اقمشة مصبوغة بالحمرة واسلحة وخمرا واواني من الزجاج والطين .

وللاتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر ويتزودون منها ويصلحون سفنهم . وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين : الامتناع ممن يريدهم بسوء ، والتمكن من نقـل بضائعهم بسهولة . فنزلوا لذلك الجزر القريبة من الساحل الليبي ، والربى الساحلية ، وما قرب من مصب الاودية في البحر .

ومن هذه المراكز حضرموت (سوسة) ، عويتقة (بو شاطر) . وهما بايالة تونس ، ومنها هبون (بونة) ، اجلجي (جيجل) ، صلداي (بجاية) ، وهذه بالوطن الجزائري . ومن المراكز المنسوبة لهم أيضا عوزية . ويقولون انها سور الغزلان وقد غلط اغسال القائلين بذلك مستندا الى انها في دواخل الوطن الجزائري ، ولم يعرف في التاريخ بلوغ الفينيقيين الى تلك النواحي .

وعليه فان صح انعوزية هي سور الغزلان فهي من مؤسسات البربر .وان صحت نسبتها للفينيقيين لم تكن هي سور الغزلان بل مدينة أخرى على السواحل لا ندري مكانها .

ويقال أن مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائةمركز. وهو احصاء قريب من المعقول لان السفن كثيرا ما تحتاج الىالاصلاح وسيرها بطيء . فاهلها مضطرون الى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة . وقد يؤسسون مركزا ثم يبدوا لهم ما هو اوفق منه فينتقلون اليه . وبذلك تتقارب المراكز وتكثر .

وقد تحول بعض هذه المراكز من بعد الى مدن ذات فحوصواسعة أو ضيقة . وكثير منها سقط وعفا رسمه .

قال اغسال : « وليس بين دفتي التاريخ ما يرشدنا الى تعيين الوقت الذي وجدت فيه تلك المؤسسات بالضبط • والظاهر انها كانت قبل انتهاء القرن الثاني عشر (ق• م) »

3 ـ تأسيس قرطاجنـة

كانت صور (العاصمة الثانية للفينيقيين) بلغت مبلغا عظيما من العمران • وكان بها على عهد داوود وسليمان عليهما السلام ملك يدعى حيرام • سالَم هـذا الملك الملكين النبيين ، وحسَّن علاقاته معهما • وبعد وفاته تأسس بها حزب من عملة الشعب واصبح يشاغب طبقة الاعيان حتى تغلب عليهم ففروا الى ليبية وأسسوا بها مدينة قرطاجنة•

وبعد أمد قليل من تأسيسها بلغت من العظمة والقوة ان صارت تهدد صـور نفسها واصبحت هي الحاميـة للفينيقيين بليبية وصقلية واسبانيا • وكان اليونان قد أخذوا عن الفينيقيين التمدن فانقلبوا عليهم وقادوهم في التجـارة حتى اخرجـوا من بحـر ايجـه ، وهـددوا مراكزهم بالمغرب فلما تأسست قرطاجنة ثأرت منهم وطردتهم من المغرب•

أسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر بحيث تصيب سورها امواجه • ولحسن موقعها حازت السيادة التجارية ، فأمهـا الفينيقيون من الشام ، والبربر جيرانها الاقربون ، وغيرهم من الامم ، فاستبحر عمرانها وكثرت مبانيها وسكانها ، واختلف في تقدير عـدد السكان من (130000) الـى (700000) وبلغت اوج عزها في القرن الرابع الى اواخر الثالث (ق•م) ومتوسط سكانهـا اذ ذاك نحـو (300000) .

اصبحت قرطاجنة عاصمة الفينيقيين ومعقل عزهم وحصن سعادتهم

ثم كانت مقبرة عظمتهم ومدفن مجدهم بما جرته عليها حروبها مع الجمهورية الرومانية التي انتهت بتخريبها سنة (146) ق٠م ٠

يقال : ان اسم قرطاجنة بالفينيقية « قرت حدشت » ومعنى هذا العلم : القرية الحديثة ٠

اما تاريخ تأسيسها وتعيين مؤسسها فقضية كثر حولها الخلاف واضطربت فيها الروايات ، ذكر البكري : « ان الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام » [1] وعليه يكون مؤسسها رجلاً وتأسيسها في القرن الحادي عشر (ق٠م) لان داوود كان بين سنتي (1055 — 1014) وفي ابن خلدون — نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش — : ان بناءها كان على يد ديدن بن أليثا ، وانه من نسل عيصو بن اسحا ٠ ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين ٠

واكثرهم على ان التأسيس كان سنة (814) وقيل سنة (813) وقيل سنة (880) ، على أن المؤسس امرأة تدعى « عليسة ديدون » وعليسة علمها الشخصي ، وديدون وصف لها معناه الفارة ٠

وسياقة خبرها : انها من بيت ملك وتزوجت بكاهن مشهور ، ولها أخ ٠ ولما توفي ابوهما ورثا ملكه ٠ فعدا اخوها على زوجها وقتله طمعا في كنوزه النفيسة وامواله الطائلة ٠ ولكن عليسة احتفظت باموال زوجها وفرت بها الى ليبية فاشترت من البربر مكان قرطاجنة وأسستها٠

4 — ممتلكات قرطاجنة بالجزائر

عرفت ان الفينيقيين امة تجارية بحرية ، فلم يحملها على دخول

---

(1) المغرب ص 41 ٠

المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم • ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها • وأسست بها مدنا لترويج بضائعها بين الاهالي • واقامت حينا من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدنهـا بأجور يرضونها • وتستألف امراءهم بالاموال خوفا من غاراتهم •

ولما تأسست قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل اهلها تحت طاعتهم • واطلق على هذا القسم اسم « ليبيا فينيقيا » وعرف الفينيقيون الذين به باسم البونيقيين •

ومن مدن الفينيقين بالساحل الجزائري : هبون (بونة) ، روسفاد (السكيكدة) ، شولو (القل) ، اجلجلي (جيجل) ، صلداي(بجاية) روسوقورو (تاقصبت او دلس او تقزيزن) ، رسجونيا (مطيفـو) ، اقسيوم (الجزائر) ، تباسا ، يول (شرشال) ، صيعة (ارشقول على الظاهر) •

ولم يتجاوز البونيقيون السواحل الى دواخل الجزائر الا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم ــ باشرف معنى الحماية ــ ومن مدن هذا القسم : تغاست ــ Thagaste (سوق اهراس) مدوروس ــ Madoure ــ (مداوروش) ، تيفيست ــ Thèvesté ــ « تبسة » •

ولهذا القسم الداخل تحت اشراف قرطاجنة حدود تفصله عن ليبيا فينيقيا وتلك الحدود خنادق تعرف بالخنادق الفينيقية •

وبلغت حمايـة قرطاجنة في الشـمال الشـرقي لنوميـديا الى رأس بوقرعون « ناحية القل » وجهة ميلة • ومن المحقق ان قرطاجنة لم تدخل تبسة « بالجنوب الشرقي النوميدي » الا سنة 250 (ق•م) ولم تبق بها الا خمسين سنة •

وبما ان الحماية القرطاجنية لم تكن مصحوبة باحتلال عسكري يفرض على المحتمين طاعة الحامي ، ويعمل لالحاقهم بمستعمراته ـ استطاع النوميديون طرد البونيقيين بعد من وطنهم والتمتع بالاستقلال والتنفس في هواء غير مشوب بجراثيم السيادة الاجنبية •

ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجنية عن نوميديا بالضبط • ولكن من المحقق ان مدوروس كانت اواخر القرن الثالث (ق•م) تحت تصرف صيفاقس البربري • ومنذ سنة (149) ق•م لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا وجميع السواحل والشواطىء الجزائرية • ودخلت المدن الفينيقية بتلك الجهات في حوزة ملوك البربر وبقي لها اسمها الفينيقي الى ان خربت •

وهذا خلاف ما نراه في عصر المدنية الغربية من تغيير دولها لاسم بعض المدن التي استولت عليها ، وابداله باسم عظيم من عظمائها قد يكون لم يدخل تلك المدينة المنسوبة اليه او لم يسمع بها فضلا عن ان يعمل بها عملا يبرر نسبتها اليه • اما تسمية الانهج والشوارع بهذا الوجه من التسمية فمن المألوف الذي ينبو الذهن عند مشاهدته عن التفكير في وجه المناسبة بين الاسم والمسمى • وهكذا يفعل الذين يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا •

5 ـ اللغة الفينيقية وخطها

سترى في الباب التالي تأثير الفينيقيين على البربر في اللغة فمن المناسب ان نقدم ههنا البحث عنها :

الفينيقيون أمة سامية ، فلغتهم كذلك سامية ، اخت العربية والعبرانية وبما انهم تجاريون لم تكن لغتهم لغة ادب وانما كانت لغة علم •

ولما انتقل الفينيقيون الى ليبية دخلت لغتهم مفردات من اللغة الليبية فازدادت ثروة ، ولكنها تغيرت ــ طبعا ــ عن أصلها فلقيت بالبونيقية •

وقد اضمحل الفينيقيون وماتت من بعدهم لغتهم • وما بقي منها باللسان البربري دخلت عليه العربية من بعد فتعذر تمييزه •

ولكون هذه الامة تجارية يلزمها ان تتعلم الكتابة والحساب فتعلمت عن السريانيين الحساب وأخذت عن المصريين حروف الهجاء واستعملتها في لغتها بعد ما هذبتها وقربتها للفهم •

كانت الحروف المصرية فيها صعوبة من حيث ان منها ما يدل على كلمة ، ومنها ما يدل على جزء كلمة ، ومنها ما يدل على حرف واحد • وفيها حروف مختلفة المعنى متحدة المخرج • فازال الفينيقيون منها تلك الصعوبة وصيروها بسيطة سهلة التناول •

اختار الفينيقيون من الحروف المصرية اثنين وعشرين حرفا لكل حرف مخرج • ثم قلدهم فيها الاغريق فمن بعدهم من الامم • وقسموها الى حروف هجائية واشكال للضبط •

ولما دخل هذا الخط ليبية مع اصحابه ووجد امامه الخط الليبي تأثر به وتغير عن اصله فسمي الخط البونيقي •

وقد ألف بهذا الخط وتلك اللغة تآليف في الفلاحة والملاحة والاسفار منها رحلة حنون الذي ارتحل حول افريقية وبلغ شواطىء غينيا ومنها رحلة عملقون الذي بلغ سواحل انكلترا ، ومنها كتاب ماغون في الفلاحة الذي اخذه اليونان والرومان الى لغتهم واعتمدوه خصوصا في تنمية النباتات بافريقية •

وللبونيقيين غير هذه الكتب بلغتهم وخطهم ضاعت بضياع ملكهم • ولم يبق منها الا تتف مترجمة ومبعثرة في كتب اللطينيين واكثرها ضاع

في حريق قرطاجنة ، فضاع بذلك على الباحث الخط البونيقي واللغة البونيقية معا. وتلك عاقبة ذهاب مميزات هذه الامة ومشخصات وجودها.

6 ـ الديانة الفينيقية

كان الفينيقيون وثنيين يعبدون الشمس والقمر • الشمس يتخذون لها تمثالا يدعى « بعلا » والقمر يتخذون له تمثالا يسمونه «استارتي» أو « بعليت » (مؤنث بعل) • وكانوا يقيمون لهذين الالهين تمثالين بكل مدينة من مدنهم •

والشمس عندهم اله السماء والارض ، يرونه غضوبا شديد الانتقام فيتوسلون لرضاه بتقريب القرابين له • وقد تكون تلك القرابين أناسي واكثر ما تكون من ابناء الملوك وسراة الامة •

يحضرون القربان البشري امام التمثال ومعهم آلات الطرب يغنون عليها ، ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال ، وقد تكون ام هذا القربان حاضرة تنظر اليه من غير جزع يلحقها •

والاله يمثلونه تارة بثور ، واخرى برجل ، واخرى برجل رأسه رأس ثور •

والقمر لديهم اله الحب والجمال ، يتصرف في كل ما يحدث وما يفنى ولذلك يعبدونه تارة بالفرح واخرى بالحزن • وكانوا يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمامة وعلى رأسها من شعرها صورة هلال •

ولهم غير هذين الالهين آلهة اخرى ولها شبه قوي بآلهة الكلدان • وقد أخذوا عن غيرهم في الديانة • ولما نزلوا ليبية تأثروا بعقائد البربر •

وأخذوا الههم « عمون » وسموه بعلهمون وعبدوه حسب تقاليدهم ، وصنعوا له تماثيل أخرى •

ش2 رسم الاله بعلهمون

وكانت لهم أعياد يحتفلون فيها بآلهتهم ، ويقربون لها القرابين من البشر والبقر والغنم والديكة ومما يتقربون به أيضا الصيام •

واذا كان البربر أثروا على الفينيقيين في المعتقد فـان هؤلاء أثروا عليهم في ذلك أيضا ، وسترى ذلك في الباب التالي ان شاء الله •

ونحن نرى للعامة اليوم عقائد لها شبه ببعض عقائد البونيقيين ولكن يبعد ان تكون موروثة عنهم لقدم العهد جدا ووجود الدين الاسلامي • وانما الجهل باصول الدين يجر في كل عصر الى التمسك باوهام وخيالات

قد تتشابه مع تباعد الاعصار • واذا كان مرجع الديانة الى الخيالات كانت من قبيل الشعر ، والشعر ــ كما قيل ــ ميدان والشعراء فرسان فقد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر •

7 ــ نظام الدولة القرطاجنيــة

الدولة بنظامها الاداري والسياسي ، فقوتها وضعفها وقدرتهــا وعجزها على حسب ذلك النظام ودرجة احكامه واتقانه •

ولم يكن للفينيقيين بفينيقيا دولة تجمع تحتها مدنهم وتتخذ مــن بنيها جيشا حربيا تهاجم به الضعفة او تدافع به الاعداء • بل كانت مدنهم هنالك مستقلة بعضها عن بعض يحكم تلك المــدن رؤساء يعرفون بالاشفاط (القضاة)•

ولما تأسست قرطاجنة قامت بها دولة عظيمة ذات دستور ، ان لم يكن احسن دساتير ذلك العصر فهو من احسنها • ناهيك ان ارسطو الفيلسوف اليوناني واضع علم المنطق اعجب به واثنى عليه • وقــد ادرك هذا الفيلسوف قرطاجنة في ايام عظمتها اذ كان في القرن الرابع (ق•م) •

لم تكن قرطاجنة شاذة عن الدول المعاصرة لها في تقسيم الامة الى طبقتين : السراة والسوقة • بل كانت مثلها في ذلك واشتهر بها من طبقة السراة أسرتان : الماغونيون والحنونيون ، ومن طبقة السوقة البرقيون•

(1) شكل الحكومة : كانت حكومة قرطاجنة جمهورية على رأسها أسرتان تدير احداهما الجندية وسائر الشئون الحربية ، وتقوم الاخرى بالعمل والاقتصاد وسائر وجوه العمران •

وللحكومة مجلسان : احدهما مجلس القدماء او الشيوخ به (28)

عضوا منتخبا من طرف الامة • ويشترط في عضو هذا المجلس ان يكون من الاسر الاصيلة في البونيقية • فهو متركب من الاعيـان ويؤازره ارباب رؤوس الاموال واصحاب التجارة والصناعةوالفلاحة•

وهو مجلس ارستقراطي[1] يؤيد نفوذ الطبقة العليا من الامة على الصعاليك منها ومتوسطي الحال •

ثانيهما مجلس السوقة : يتألف من صغار الماليين تجارهم ومزارعيهم ومن العملة واصحاب الحرف ، ونفوذه ضعيف • وقد يكون وجوده صوريا • فان الحكومات الارستوقراطية لا تنظر الى افراد الشعب الذين قعدت بهم قلة ذات اليد عن الظهور في مظهر النعمة والترف الا بعين الاستخفاف ، ولا تراهم الا آلة مسخرة لقضاء مصالح المترفين وتوفير سعادتهم • فوجود العملة ومن في درجتهم ــ عندها ــ ليس وجودا مستقلا وانما هو تكميل لوجود الاعيان والمثرين •

والى ذينك المجلسين مجلس القضاء يدعى « مجلس المائة والاربعة» وقضاته من الاشراف • ويعبر عنهم « الاشفاط » ــ وهي قريبة من الاسباط ــ وقوتهم التنفيذية مستمدة من ذينك المجلسين •

(2) ــ الجيش : اتخذت قرطاجنة جيشا ولكن لم تقصد به استعباد المستضعفين وترويع الآمنين والاستحواذ على ثروة اراضي الجانين على المدنية بكونهم عزلا من الصواعق المحرقة • بل كان قصدها هو حفظ حريتها التجارية • لانها امة كان شغلها ركوب متون البحار لترويج البضائع وربط الصلات بين الامم شرقا وغربا ونقل حضارات بعضها الى بعض • وقد عارضها في سبيلها تلاميذها من اليونان والرومان • وارادوا صدها عن وجهتها بالقوة العسكرية • فاضطرت الى اتخاذ

---

(1) يقال دولة ارستقراطية ، وهي مركبة من كلمتين : قراطية معناها حكومة ، وارست معناها النبلاء ، فمعنى ارستقراطية حكومة النبلاء •

جيش لحماية تجارتها • فهو جيش لحفظ الحرية لا لسلبهـا وجبر الضعيف على الرضا بالعبودية •

لم يتجاوز جيش قرطاجنة خمسين الفا اكثرها من البربر والاسبان ويمدها زيادة على ذلك ايام الحرب بجنود كثيرة امراء البربر الذين تربطهم بها معاهدات •

وينقسم هذا الجيش الى ثلاثة أقسام :

1 — الجنود القرطاجنية وهم قليلون وغير حربيين •

2 — الجنود المرتزقة : وهم من امم مختلفة • من اسبانيا مشاة ، ومن الجزائر الشرقية رماة ، ومن الغاليا والكورص وايطالية وصقلية•

3 — الجنود الليبية والنوميدية • والاولون مشاة مجبورون على التجنيد • لان ليبية [1] وطنهم كانت في قبضة قرطاجنة وتحت نفوذها الفعلي • والاخيرون فرسان متطوعون • لان وطنهم نوميديا لم يكن تحت سيطرة قرطاجنة •

وكلا الجندين الليبي والنوميـدي صبار على الشـدائد شجاع مقدامله سلاح خفيف : نبل وخنجر وترس من جلد • وليس له سيف ولا مغفر ولا درع •

وهذا القسم الثالث هو الذي كون تاريخ قرطاجنة الحربي • خصوصا الجند النوميدي • فلولاه ما ذاقت قرطاجنـة لـذة الفوز والانتصار ، ولا هدد حنبعل رومة ورام فتحها •

لذلك كان للنوميديين ميزة لم تكن لبقية الجيش القرطاجني • وكانوا لا يسمحون لها بالتقصير في حقوقهم • وقد ثاروا عليها مرارا لعجزها عن أداء واجباتهم •

---

(1) كانت ليبية تطلق على شمال افريقية . وبعـد مجيء الفينيقيين اختصت بما يلي نوميديا شرقا . وليس المراد ليبية المعروفة اليوم جنوب طرابلس .

كان للجيش القرطاجني رؤساء وقواد من أسرة البرقيين • واشتهر منهم عدة قواد باسم هملقار • ومنهم حنبعل وصدربعل وغيرهم ممن خلدت ذكرهم حروب صقلية والحروب البونيقية •

3 — الاسطول • كان لقرطاجنة أسطول لا تضاهيه أساطيل الدول الاخرى • والبحرية هي العمل الخاص للفينيقيين • وقد دامت لهم السيادة البحرية من غير منازع امدا طويلا •

كانت سفنهم فلكا كبيرة • وفي كل جانب منها مقاذيف • واذا ساعدتهم الرياح استعانوا بالشراع •

وسفنهم نوعان : تجارية وحربية • اما التجارية فحيزومها مستدير•

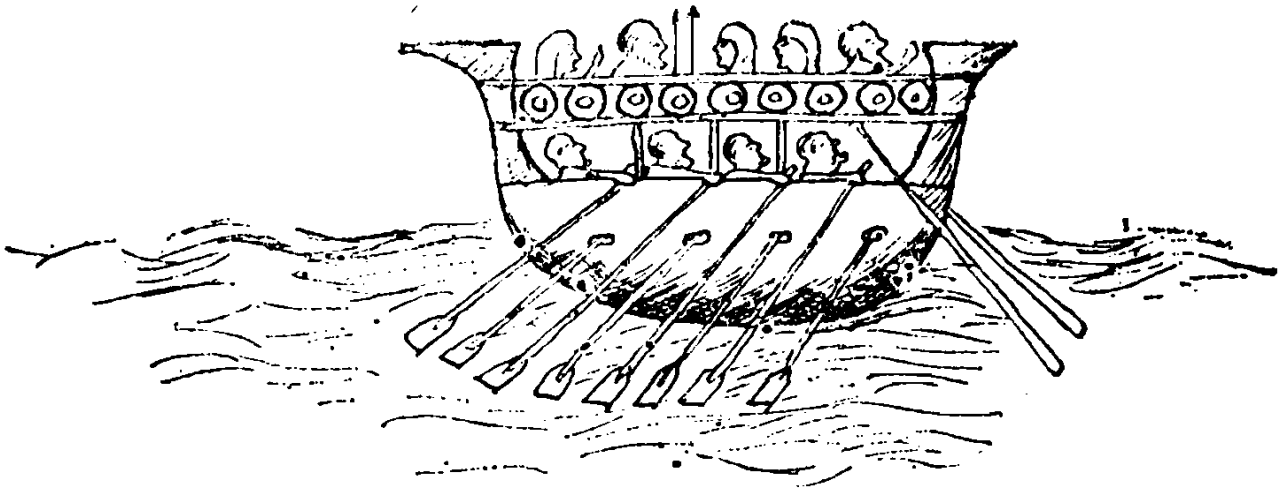

ش ـ 3 رسم سفينية فينيقية تجارية

وقد خاضوا بها قبل قرطاجنة وبعدها عباب البحر الابيض على طوله ، والبحر الاسود حتى بلغوا القفقاس ، والمحيط الاطلانتيكي حتى بلغوا انكلترا من جهة وأغادير من اخرى •

كانوا يبعدون السير وليس لهم بوصلة لعدم اختراعها اذ ذاك • فكانوا يهتدون في سيرهم ليلا بنجمة القطب الشمالي • واكثر مسيرهم بالنهار : ولا يبعدون قن الشاطىء • فاذا أمسى المساء استكنوا بخليج • وقد ينزلون الى البر ويسحبون مراكبهم في الرمل • فاذا أصبح الصباح استأنفوا سيرهم محاذين للشاطىء •

وكانوا يحملون في سفراتهم الى كل أمة البضائع التي تروج بها ، يستبدلونها بما لتلك الامة من البضائع • ويتنقلون على هذه الصفة من وطن الى آخر • حتى انهم احيانا لا يرجعون الى وطنهم الا بعد سنين •

وقد كان البحر الابيض المتوسط تحت نفوذ قرطاجنة • أسست على شواطئه المراسي من خليج طرابلس شرقا الى المحيط الاطلانتيقي غربا • وكان لها على هذا المحيط مراس أيضا الى قرب أغادير •

واما المراكب الحربية فهي معقربة الصدر • وكان لقرطاجنة قبل استفحال امرها سفن ضعيفة من نوع السفينة ذات الخمسين مقذافا • ثم أخذت تترقى في سلم العظمة حتى بلغ اسطولها مائة سفينة • فيها من العملة أربعة وعشرون الفا غير من يحمل السلاح •

وقد كانت السفن الحربية على أنواع : سفن ذات ثلاثة صفوف من المقاذيف ، وذات اربعة صفوف ، وذات خمسة •

وهذه الانواع الثلاثة كثيرة • وهناك انواع ثلاثة أخرى قليلة الاستعمال • وهي ذوات (6 ، 7 ، 9)

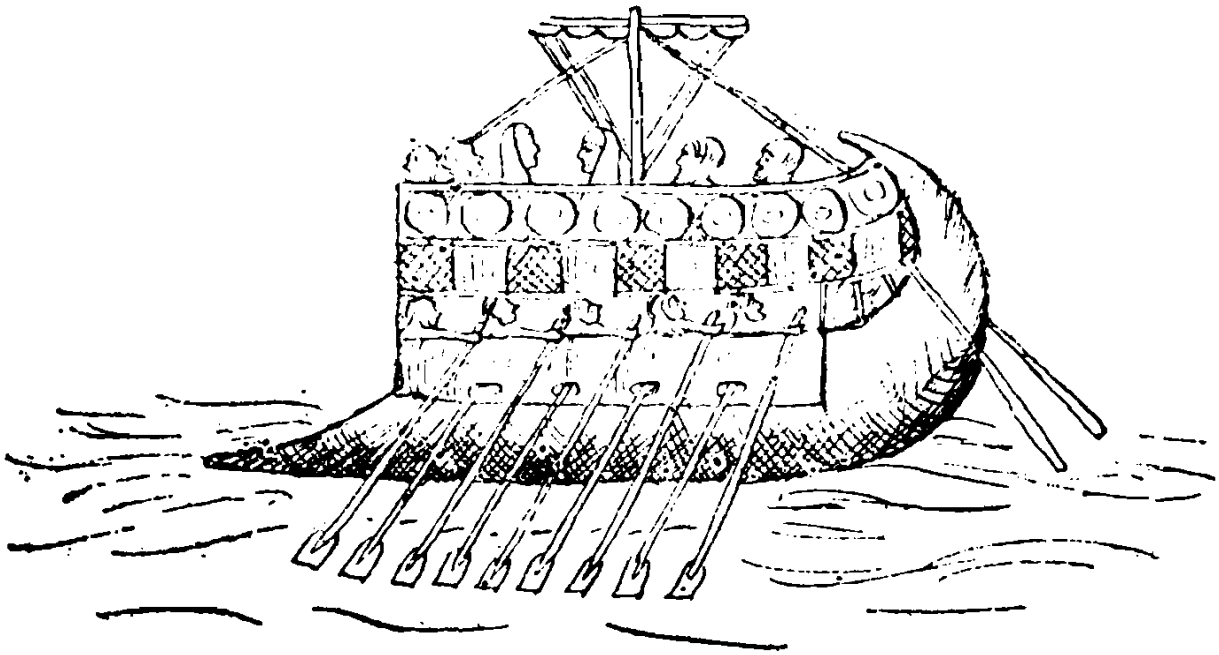

ش ـ 4 رسم سفينة فينيقية حربية

وجعلت قرطاجنة لصناعة السفن دورا يعمل فيها عملة من المحتلين والمحتمين •

8 ـ العمل القرطاجني في العمران والحضارة

علمت ان الفينيقيين أمة كثيرة الاسفار في البرور والبحار لكسب الثروة بالاتجار •• فلم تكن لها حضارة خاصة بها • ولكن اليها يرجع الفضل في نقل حضارات الامم بعضها الى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة •

آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور • فان قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين • وبيوتهم مبنية بالحجارة ، ولها سوار تتصل بالسقف من غير قوس ، وخطوط أساساتها مستقيمة •

واكثر اعمال الفينيقيين في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات • وكانوا اذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها • وارض ليبية ارض فلاحة فاعتنوا فيها بالفلاحة علاوة على التجـارة والبحرية •

وقد جعلت قرطاجنة في نظام دولتها اسرتين : احداهما للحرب والاخرى للعمل • وكانت أسرة العمل هي أسرة ماغون •

ماغون مؤسس هذه الاسرة كان بـين سنتي 550—500 (ق•م) والف كتابا حافلا في الفلاحة • تكلم فيه على الفلاحة وتربية الحيوان من خيل وبغال وبقر وحمام ودجاج ونحل وغير ذلك •

ولأهمية هذا الكتاب لم تستغن عنه رومة رغم عداوتهاللبونيقيين وتخريبها لقرطاجنة • فاهتم شيوخ رومة بـه واستدعوا له مترجمين ترجموه الى اللطينية •

ومن حكمهم الفلاحية : « يجب ان تكون الارض اضعف من الفلاح • لانه اذا اراد ان يقاومها فتغلبت عليه حطمته » •

وقد اتخذوا للدراس آلة وعمموا نشر الحبوب المعروفة بالوطن البربري وجلبوا لهبذورا أخرىمثلالكتان لم تكن معروفة به من قبل •

وكان بليبية (بالمعنى العام) أشجار ذات ثمار الا انها طبيعية • فاعتنى البونيقيون بغراستها وجلبوا ضروبا أخرى من الاشجار منها النخيل والتين والزيتون والرمان والجوز واللوز والكرم •

وزرعوا البقول والخضر حوالي المدن • وعصروا الزيتون والخمور وهم أول من روج الخمر بين البربر • واول من افادهم الغراسة •

ازدهى الوطن على عهدهم بحقول الحبوب والخضر وجنات النخيل والاعناب وبساتين التين والزيتون وضروب الفواكه •

وقد شارك في هذه الاعمال العمرانية كل الطبقات البونيقية : ارباب الاموال الواسعة يقتطعون الاراضي الشاسعة ويبنون بها القصور وليقضوا بها بعض فصول العام • وصغار الفلاحين يشتغلون بماحوالي المدن من الاراضي الصالحة فيعمرونها على نسبة مقدرتهم المالية •

وسوى عناية القرطاجنيين بالفلاحة وتربية المواشي كانوا يعتنون باستخراج المعادن من حديد ونحاس ورصاص وغيرها • ويصنعون منها الآلات وضروب الزينة من حلي واقراط •

وكانوا ينحتون الحجارة النفيسة • واخذوا عن المصريين صناعة الزجاجفاتقنوها وصنعوا منها الاواني الرفيعة ولونوها بالوان قوس قزح• وكانت لهم يد في الحياكة والصباغة ودباغة الجلود • وكان لهم من الصناعات الدقيقة النقش على الصخور والخشب ، ونحت الدمي وغيرها من العاج والعظام • وقطروا العطور • وركبوا الادوية •

9 ـ الحروب القرطاجنيـة

جاورت قرطاجنة البربر واحسنت جوارهم بما كانت تنقل الى وطنهم من حضارات الامم • وما كانت تنشره بينهم من جهود ابنائها التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها • وكان في استطاعتها ان تكون من شمال افريقية دولة عظيمة ثابتة الاركان بسلاحي الترغيب والترهيب• كما فعل من بعدها الرومان • وكانت هي أقوى منهم واقرب • ولكن الجنس السامي ـ وخصوصا الفينيقيين أسمى من ان يكون سفاكا للدماء غدارا بالوعود •

حاولت قرطاجنة ان تتوسع في وطن البربر • ولكن من غير اراقة دماء غزيرة • فتوسعت حيث لم تجد معارضة حربية قوية • واكتفت بربط الصلات حيث وجدت صلابة • وقد رأت من صلابة نوميديا انها لا تخضع الا بعد اهوال وحروب طوال • فلم تتعنت في فتحها تعنت الرومان من بعد • واكتفت باستجلاب مودة اهلها كي تستعين بهم عند الاقتضاء • فنظمت من فرسانهم جيشا كان له الاثر المحمود في حروبها •

وليس لقرطاجنة حروب مذكورة مع البربر الا ما كان من ثورة الجند والانتصار لاعدائها الرومان •

والمذكور من حروب قرطاجنة هي حروبها مع اليونان بصقلية ، وحروبها من بعد مع الرومان •

ولم يكن البربر بعداء عن هذه الحروب خصوصا النوميديين • بل كانوا يخوضون لججها لفائدة قرطاجنة • وقد ينقسمون الى مناصر لها ونصير لاعدائها •

ونحن نقص خبر هذه الحروب بايجاز لانها لم يقع منها بالوطن

الجزائري الا القليل • فعلاقتها بتاريخ الجزائر من هذه الجهة من حيث وجود اليد النوميدية فيها ومن حيث ان عاقبتها مجيء الرومان مكان قرطاجنة واستيلاؤهم على الجزائر •

نقتصر في هذه الفصول على أهم حوادث تلك الحروب • وفي الباب التالي — ان شاء الله — نبسط ما كان منها بالوطن الجزائري •

تعرف حروب قرطاجنة مع اليونان بحروب صقلية ، وحروبها مع الرومان بالحروب البونيقية •

أ ـ حروب صقلية (536 — 306) ق•م

وقعت هذه الحروب بين اليونان وقرطاجنة • ودامت سنين كثيرة تتخللها هدنات قصيرة الاجل •

1 — في سنة (536) وضعت قرطاجنة قدمها بصقلية بقصد فتحها• وارسلت اليها جنودا كثيرة بقيادة عملقرض بن ماغون • فانهزم اولئك الجنود انهزاما فادحا • وذلك حوالي سنة (480) • ولكن قرطاجنة لم تفشل من هذا الانهزام ، ووالت حروبها • وفي آخر القرن الخامس فتحت نحو ثلث صقلية بقيادتي حنبل وحملقون من أسرة حنون • وختمت المعارك الاولى بعقد هدنة بين قرطاجنة ودونيس امير سرقوسة وذلك سنة (404) •

2 — في سنة (399) هجم دونيس على بعض مستعمرات قرطاجنة بصقلية • فارسلت اليه جيشا بحريا بقيادة حملقون • فبلغ الجيش سرقوسة • وحاصرها بحرا • واغرق سفنها ، وذلك عام (396) وفي العام التالي عاد حملقون الى صقلية بجنود كثيرة • واستولى على اكثر جزرها • وانتهى الى سرقوسة وحاصرها واصبح النصر منه على قاب قوسين ، ولكن لم يساعده القدر ، فاصاب المرض جنوده ، ووجد

دونيس الفرصة متأتية • فانقض على جنود حملقون • وهزمهم برا وبحرا • وانتهى الدور الثاني لهذه الحروب بعد اتفاق بين المتحاربين يقضي بخروج قرطاجنة من جميع جزر صقلية • اضطرت قرطاجنة الى هذا الاتفاق لما كان بوطنها من ثورات البربر التي صيرت قرطاجنة في أضيق حال •

3 — انجلت عن قرطاجنة أزمة الثورة • فعادت الى حرب صقلية• ووجهت اليها جيشا بقيادة ماغون • فطالت الحرب بين الفريقين • وتوفي ماغون • فخلفه ابنه ماغون • ثم توفي دونيس سنة (363) وخلفه ابنه وسميه ايضا • واخيرا ظن ماغون الثاني انه مغلوب ففر الى قرطاجنة وقتل نفسه اتقاء من تعذيب دولته له • ولا اعجب من حال من يفر من الموت الشريف وهو مظنون ويقتل نفسه بعد ما جر لدولته عارالانهزام• وبعد ماغون في سنة (340) وجهت قرطاجنة جنودا اخرى لصقليـة بقيادتي حنبعل وهملكار • فانهزموا ايضا على كثرتهم • وتم الدور الثالث بعد اتفاق بين المتحاربين لفائدة صقلية • وذلك سنة (338) •

4 — كان رجل يدعى أغاثوقليس من بيت وضيع • ولكنه قوي الارادة طموح الى المعالي • فانتهز فرصة وجود هملكار بصقلية • واستعان به على ان يكون ملكا بسرقوسة • فاعانه بعد ما حلف له ايمانا على مسالمته لقرطاجنة • وانتصب ملكا بسرقوسة سنة (319) •

وبعد وفاة هملكار رأى أغاثوكليس انه في حل من ايمانه • فهجم على ما تحت يد قرطاجنة بصقلية • فوجهت اليه جيشا جرارا يقوده هملكار بن جسقون • وانتصرت عليه انتصارا غزيرا • وتقدم الجيش الى سرقوسة فحاصرها • ورأى أغاثوقليس موقفه حرجا • فتخلص بنقل الحرب الى افريقية • بعد ما حرض السرقوسيين على الثبات ودبر مكيدة ابعد بها سفن قرطاجنة عـن مرسى سرقوسة وركب اسطوله

وتوجه الى افريقية • شعر به الاسطول القرطاجني فتبعه • ولكن لم يدركه • قضى أغاثوقليس في سيره ستة ايام • ونزل بافريقية • واحرق أسطوله لئلا يطمع جيشه في العودة الى صقلية• وذلك سنة(310) وهكذا سيفعل طارق بن زياد بعد عشرة قرون • بقي هملكار محاصرا لسرقوسة وفي سنة (309) الزمه السرقوسيون برفع الحصار عن مدينتهم • وفي العام التالي حاول الاستيلاء على سرقوسة ، فلم ينجح • وأسره الاغريقيون ، ومات معذبا • أما أغاثوقليس فانه نجح في افريقية وخضعت له مدن كثيرة ، وبلغ ابواب قرطاجنة وشدد عليها الحصار •

ولما رأى أغاثوقليس انه تمكنت قدمه بافريقية ارتحل عنها سنة (306) الى صقلية • وترك ولده بافريقية • فتنفس القرطاجنيون وصاروا يحاصرون الاغريق في المدن التي احتلوها • فعاد أغاثوقليس • ولكن النصر لا يكون دائما حليف الفاتح • فذاق مرارة سوء الحظ في هذا العود • وعاد الى صقلية يتعثر في اذيال الخيبة • ومكن سلطته بسرقوسة • وتوفى سنة (289) •

وبارتحال أغاثوقليس عن افريقية للمرة الاولى انتهت حروب صقلية•

ب ـــ الحروب البونيقية

قرطاجنة دولة بحرية لها أسطول عظيم • وأبناؤها قليلو الغناء في الحرب • فكانت تعتمد في حروبها على الاجانب •

ورومة دولة برية لا اسطول لها • ولكن لها من أبنائها جيش قوي الايمان بمحبة الوطن • ولذلك كان النجاح في الحروب البونيقية للثانية على الاولى •

ابتدأ النزاع بين هاتين الدولتين على البحر الابيض المتوسط •

وفي سنة (348) عقدتا اتفاقا يمنع رومة من التجارة مـع افريقية ، ويحدد لها في البحر حدودا لا تتجاوزها •

ولما توفي أغاثوقليس بقيت صقلية في فوضى دامت عشر سنين • وطمعت قرطاجنة خلالها باعادتها اليها • فاستدعى السرقوسيون الملك بيروس ليحفظهم منها • فلبى طلبهم • ووقعت بينه وبين قرطاجنة معارك لم ينجح فيها • فعاد الى ايطاليا سنة (276) •

وكانت رومة تخشى بيروس • فعقدت مـع قرطاجنة محالفة دفاعية تستلزم اعانـة احدى الدولتين للاخرى في أي حرب دخلت فيها • وغرضهما الاتحاد ضد بيروس • وفي سنة (272) توفي هذا الملك • فتنفست رومة • ونقصت لديها أهمية المحالفة •

رجعت صقلية الى الفوضى بعـد خروج بيروس منها • وكان بها جنود مرتزقة بعضهم مـن عهد أغاثوقليس ، وبعضهم خلفهم بها بيروس • فانقسموا أحزابا • وعين السرقوسيون منهم بيرو رئيسا عليهم • فحارب قرطاجنة سبع سنوات • وكان أعظم الاحزاب مقيما بمسينا • ولقب هذا الحزب نفسه « جنود المريخ » وهو إله الحرب • وبلغ من عظمته أن خشيته اليونان وصقلية والرومان والقرطاجنيون •

وفي سنة (268) ساءت حالة المريخيين • ورأوا لزوم خضوعهم لرومة أو لقرطاجنة • وافترقوا لذلك فرقتين • وقدمت الطائفة المتشيعة لرومة مطلبها لمجلس الشيوخ • فقبلوه واعتمدوه سببا للدخول في محاربة قرطاجنة التي لا ترضى بتسليم صقلية • فوقعت الحرب بين الدولتين • ودامت سنين كثيرة • وهي المعروفة بالحروب البونيقية •

ج ــ الحــرب البونيقية الاولــى (241 — 264)

للرومان رغبة شديدة في امتلاك صقلية لقربها منهم • وللقرطاجنيين حق البقاء بهــا لنفس تلك العــلة • ويزيدون بأنهم السابقون الى استعمارها ، وبأنهم مهروها دماء غزيرة ، وبأنهم أمة بحرية • واستظهرت رومة بطلب بعض المريخيين لحمايتها • والقــول الفصل في قضيــة الاستعمار للقــوة • فدخلت الدولتان محكمة الحــرب لفض هــذا المشكل • ورأت رومة عجزها البحري • فسدت هــذا الخلل قبل الشروع في الحــرب • وشرعت في صناعة سفن على شــكل سفن قرطاجنة • وتم لها في مدة شهرين صنع (130) سفينة •

ابتدأت الحرب على مسينا فدخلها الرومان • وكان الامير يبرو أولا مــع قرطاجنة ثم انضم للرومان سنة (263) • ثم دحرت رومة قرطاجنة في حرب جرجنتي حتى فر القائد القرطاجني وأسر بعض جيشه وبيعوا بيع العبيد • وذلك سنة (262) •

وفي سنة (256) وقعت معركة بحرية بــين الاسطولين انجلت بانهزام الاســطول القرطاجني • ودخل الرومان أثــر ذلك افريقية وحاصروا قرطاجنة • فاضطر القرطاجنيون الى طلب الصلح • فاشترط الرومان عليهم شروطا رأوا الموت دونها • فشمروا عن ساعد الجد وأخرجوا الرومان من افريقية •

وفي سنة (242 — أو — 241) خضــع الجيش القرطــاجني للجيش الروماني • وكان كل من المتحاربين قد سئم الحرب • ولكن الماليين القرطاجنيين كانوا أسبق الى طلب الصلح حرصا منهم على الثروة التي يرون في استمرار الحرب ضررا لها •

انعقد الصلح بين المتحاربين على شروط لفائدة رومة وهي :

1 — رد الاسرى من غير فداء •

2 — خروج قرطاجنة من صقلية •

3 — التزامها مسـالمة ييرو •

4 — دفعها غرامة حربية عظمى • قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليونا فرنكـا • وهي بعضها معجل وبعضها مؤجـل بآجال تنتهي بعشرين سنة •

والقائد القرطاجني في هذه الحرب هو أملقار برقة • وهو قائد عظيم أدى لدولته خدمات جليلة • وكان رئيس حزب وطني غرضه أن تكون قرطاجنة دولة ديموقراطية[1] ذات جيش وطني يحميها من رومة • وكان الماليون الذين همهم في ملء الخزائن لا في نثر الكنائن يرون في هذا القائد الحربي ضررا على ماليتهم فأبعدوه الى اسبانيا برسم فتحها في الظاهر • ففتحها وأسس بها دولة هو رئيسها • وسمى عاصمته قرطجنة الحديثة • وتوفي سنة (228 — أو — 220) •

د ـ الحـرب البونيقيـة الثانيـة (202 — 218)

لما توفي أملقار باسبانيا ترك جيشا منظما منقادا له كل الانقياد • فورثه ابنه حنبعل في الحكم والجيش • وكان ابن سبع وعشرين سنة •

حنبعل هذا رجل عظيم اعترف له اعداؤه الرومان بالدهاء الخارق للعادة • وتعجب نابليون الاول من دهائه الحربي • ومجمل القول

---

(1) ديموقراطية مركبة من كلمتين: قراطية معناهاحكومة وديمو معناها الناس . فمعنى هذا المركب حكومة الشـعب .

فيه أنه عالم متبصر في الامور ، ذو عزيمة ثابتة ووطنية نارية ، محبوب من جيشه وكلاهما واثق بالآخر .

كان يحمل حقدا حارا لرومة ، وينوي تجديد عز قرطاجنة . فتوسل لاثارة الحرب بينه وبين رومة بأن هجم على مدينة باسبانيا تحت حمايتها ، كما أنها هجمت قبل ذلك أثناء الصلح على جزيرتي سردانيا والكورص ، وانتزعتهما من قرطاجنة .

وبهجوم حنبعل انقضت أيام الصلح التي دامت اثنتين وعشرين سنة استعادت فيها كلتا الدولتين قوتها .

أرسلت رومة الى قرطاجنة وفدا يطلب منها تكفير تعدي حنبعل واختيار الصلح أو الحرب . فردت اليها قرطاجنة أمر الاختيار .

اختارت رومة الحرب . فكان ذلك بردا وسلاما على قلب حنبعل . فأراد أن يحاربها في عقر دارها . فاختار من جنوده خمسين ألفا بين مشاة وفرسان . وقيل مائة ألف . وتوجه الى ايطاليا وكان يريد أن يموت هو أو تموت رومة .

وأكثر فرسانه نوميديون . وهم معروفون بالفروسية المبهتة . حتى أن فرسان الرومان لم يستطيعوا مقابلتهم . فترجلوا عن خيولهم .

وقعت بين الفريقين معارك في ميادين كان النصر فيها لحنبعل . وهلك من الرومان آلاف مؤلفة . وطالت اقامة جنبعل بايطاليا فقل جنده وخرج عنه كثير من الامم التي أخضعها أولا لطاعته . وإذ ذاك استنجد قرطاجنة فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم لترويج التجارة . هنالك أرسل الى أخيه صدر بعل الذي تركه باسبانيا . فاضطر صدر بعل في طريقه الى خوض معركة قضت على أجله سنة (207) .

بعد ذلك تحصن حنبعل بجبال كلابر من ايطاليا • وعجز الرومان عن مقاومته بها •• فنقلوا الحرب الى افريقية بتدبير سبيون •

لما رأى سبيون[1] ان ينقل الحرب الى افريقية — كما فعل من قبله أغاثوقلس — وجد نفسه في حاجة الى استمالة النوميديين • فذهب الى افريقية • وتمكن من عقد محالفة مع صيفاقس ملك مصيصليا ضد قرطاجنة • وبذل صدر بعل ابن جسقون جهوده لابقاء صيفاقس على ولائه لقرطاجنة فلم يفلح أولا • ثم عاد سبيون الى الاندلس • وبها مصينيسا مع صدر بعل على الرومان فاستماله أيضا • وكان عدو صيفاقس • فوجد صدر بعل بذلك سبيلا الى ايغار صدر صيفاقس على الرومان • فانتزعه منهم وأعاده في صف قرطاجنة •

جمع سبيون نفتح افريقية جيشا يشتمل على ثلاثين ألفا • وكان مصينيسيا قد وقعت له حروب مع صيفاقس انهزم فيها وصار متشردا بالصحراء • فلما حل سبيون بافريقية جاءه نجدة له • وجاء صيفاقس منتصرا لصدر بعل • ووقعت بين الفريقين معركة أولى انهزم فيها سبيون مكيدة • وأظهر رغبته في الصلح • وبينما هم في المفاوضة إذ هجم سبيون على صدر بعل ومصينيسا على صيفاقس ليلا وحرقوهم بالنار وعلوهم بالسيوف • فكانت على القرطاجينيين وقيعة شنعاء وذلك سنة (203) وخضعت إذ ذاك قرطاجنة لسبيون طالبة منه الصلح • كل ذلك وحنبعل بايطاليا • ولما بلغه ما حل بدولته عاد الى وطنه سنة (202) •

---

(1) سبيون هذا هو قائد الجيش الروماني المحارب لقرطاجنة بالاندلس . وأبوه يقال له أيضا سبيون . وكان أيضا قائدا . وانتصر عليه جنبعل في طريقه الى ايطاليا . ويعرف سبيون الابن بسبيون الافريقي . ولعل هذه النسبة جاءته من قبل اقامته بافريقية في هذه الحرب .

لما بلغ حنبعل قرطاجنة تقوت به القلوب بعد الضعف • ولم يقبل الصلح • وعاد الى الحرب • فوقعت بينه وبين سبيون معركة زامة • مات فيها من الرومان عدد كبير • ولكن خيالة نوميديا كانوا مع سبيون فكان الغلب له • وعاد حنبعل الى قرطاجنة آيسا من ربح الحرب راضيا بالصلح • وكانت معركة زامة هذه خاتمة الحرب البونيقية الثانية ، عقد المتحاربان بعدها هدنة الى ثلاثة أشهر • ثم اتفقوا سنة (201) على مواد الصلح الآتية :

1 — سراح الاسرى الرومان من غير فداء •

2 — تسليم قرطاجنة في جميع أفيالها للرومان •

3 — تسليمها لهم جميع سفنها إلا عشرا •

4 — يبقى لها ما تحت يدها من التراب ما عدا الجزر •

5 — تدفع لهم غرامة مالية • قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة [1] وقدرها غيره من مؤرخي الافرنج بأربعة وخمسين مليونا فرنكا ، وهي منجَمَة : قال مرسيي على عشر سنوات ، وقال ماليت على خمسين سنة •

6 — تعترف بسلطنة مصينيسا على مصيليا ، وقاعدته قرطة ، وتتعهد بأن لا تحاربه •

7 — لا تجند جندا إلا برخصة من رومة •

8 — لتنفيذ هذه المواد تأخذ رومة مائة من أبناء قرطاجنة رهنا •

تم الصلح على هذا الوجه • وأخذ سبيون خمسمائة سفينة أحرقها بميناء قرطاجنة • ورد عليه أربعة آلاف أسير • وعاد الى رومة ظافرا منصورا •

---

(1) ج 2 ص 189 •

أما حنبعل فانه عاد الى قرطاجنة وهو يرجو أن يأتي يوم تقبل فيه رومة شروطا كالتي قبلتها اليوم قرطاجنة • وظهرت طلائع الفوضى بقرطاجنة • واتهم حنبعل بالتقصير في فتح رومة فحكم عليه بالقتل • ولكنه استمال الجند وقلب النظام وأصبح هو الآمر الناهي • وذلك سنة (195) وأخذ في رتق ما فتقته الحرب • فدرب الجنود ونشط الفلاحة • ولم يرق ذلك للرومان فبعثوا اليه بالكف عن تلك النهضة التي تعيد لقرطاجنة شبابها ، وتخشى منها رومة خرابها • ولم يستمع اليهم حنبعل على كثرة الحاحهم • ولما أعياهم اعراضه عن موافقتهم عزموا على اغتياله بمساعدة أرباب الاموال التي استحوذت على قلوب أصحابها فلم تبق بها منفذا لحب الوطن • وإذ ذاك أيس حنبعل من خدمة أمته بقرطاجنة • ففر الى الشام ونزل على ملك السريان « أنطيوكيس » وأراد أن يشغل رومة ويخدم وطنه من الخارج • فطلب من ذلك الملك المدد لمحاربة رومة في المشرق • فأمده • وأخيرا أيس من أن تكون لهذه المحاولات ثمرة • فسم نفسه سنة (183) •

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم والقائد الكبير الذي لم يهزمه غير الخائنين من قومه عبدة المنفعة الشخصية • فمضى ولسان حاله ينشد :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا

هـ ــ الحرب البونيقية الثالثة (149 — 146)

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية على تلك الصفة القاضية عليها بالموت • ولكنها أمة تجارية نشيطة فتحسنت حالها واتنعشت • وكان مصينيسا يقلقها بغاراته على حدودها • وقام بها ثلاثة أحزاب : حزب مالي غرضه السلم ومداراة رومة ، وحزب وطني غرضه تأييد

سيادة قرطاجنة بالجيش والحرب ، وحزب بربري غرضه الاحتماء من رومة بالخضوع لمصينيسا • ولو قدر لهذا الحزب الاخير النجاح ما رأى الجزائريون وجوه الرومان وفخفختهم •

لم يكف مصينيسا عن ازعاج قرطاجنة • فرفعت عقيرتها مرارا بالشكوى منه الى رومة التي لم يخف عليها تعدي مصينيسا • وأخيرا خشيت رومة أن يستولي مصينيسا على قرطاجنة ، ويقطع آمالها في امتلاك افريقية • فوجهت الى افريقية ثلاثة من الخبراء للبحث في قضية قرطاجنة مع مصينيسا وانصافها منه • فلما بلغوها ورأوا حسن حال قرطاجنة عدلوا عن انصافها خشية أن تعود الى قوتها وتحتفظ بسيادتها على وطن همهم في امتلاكه • حتى أن أحد الخبراء المدعو قاطون CATON لما عاد الى رومة حمل معه تينات طرية من شجرتها ودخل بها مجلس الشيوخ قائلا : « ان الارض التي تنبت هذه الثمرة ليس بينها وبين رومة الا مسير ثلاثة أيام « ومن كلامه أيضا : « ان رأيي ان نهدم قرطاجنة » ولم يزل يكرر هذا المعنى في خطبه • وبعد قليل أصبحت رومة تلفق أسبابا واهية لتبرير حرب قرطاجنة •

أدركت قرطاجنة جور أولئك الخبراء وعرفت أنه لا ينصفها غير قوتها • فكانت للحزب الوطني فرصة لم يضيعها • إذ قام من رجاله جسقون ونظم جيشا جعله تحت امارة أريو برزان حفيد صيفاقس عدو مصينيسا • واخرج حزب مصينيسا مـن قرطاجنة سنة (152) فاحتج مصينيسا على ذلك أمام قرطاجنة وروما • وأخيرا هجم على الحدود فخرج اليه صدر بعل في جيش كثير • وانتهت المعركة بفوز مصينيسا • وذلك سنة (150) •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فاعتمدتها سببا لحرب قرطاجنة بدعوى أنها نقضت الفصل السادس من مواد الصلح السابق • وشرعت

في تجهيز جيوشها للدخول في الحرب البونيقية الثالثة • وما أجدرها أن تسمى حرب التين !

في سنة (149) وجهت رومة جيشا الى افريقية • ولما نزل بصقلية جاءته رسل قرطاجنة معترفين بالجناية على الصلح مع أنهم كانوا مدافعين لا هاجمين • وقدم أولئك الرسل لضباط الجيش (300) من أعيان قومهم رهنا • ولكن الجيش سار لطيته وكان عدده ثمانين ألفا • ولما نزل بتراب قرطاجنة طلب منها — تكفيرا عن جناية نقض الصلح ! — تسليم جميع المواد الحربية وآلات الصناعة • فلبت الطلب ! وكان مما استلمه الجيش الروماني مائتا ألف درع ، وثلاثة آلاف مقلاع ، عدا المراكب وغيرها • وبعد استلام ما طلبه الجيش الروماني أولا طلب ثانيا منها أن تتخلى له عن خمسة عشر ميلا من ترابها • فطلبت تأجيل الجواب عن ذلك الى شهر • ووافقها الجيش على هذا الطلب لاعتقاده أنها عاجزة عن أي مقاومة •

أثار هذا السلوك الممقوت والخداع الخبيث حمية القرطاجنيين • فهاجموا وثاروا في وجوه الذين مكنوا الرومان من قوتهم • وجمعوا عشرين ألف جندي تحت قيادة صدر بعل • وتهيأ السكان أجمعون للدفاع عن المدينة • وكان عددهم سبعمائة ألف • وخرج صدر بعل بجيشه من المدينة ليتمكن من تموينها • واستعد الباقون للحصار تحت رئاسة حفيد مصينيسا المسمي صدر بعل • ونهضوا أثناء ذلك الشهر للعمل بنشاط غريب حتى أنهم هدموا الديار ليأخذوا أخشابها ويصنعوا منها السفن وآلاتها وحلقت النساء شعورهن ليفتل منها الحبال •

وعندما تم الامد جاء الجيش الروماني ليدخل المدينة فوجدها على غاية الحصانة • وتحرج موقفه • ثم فشا فيه المرض والعصيان • وكان القرطاجنيون بخلاف ذلك تزداد حرارتهم الوطنية بطول الحصار •

ولم يجد الرومان مساعدة مـن مصينيسا الذي لزم الحياد رجاء أن يستفيد من ضعف الدولتين كلتيهما .

مكث القرطاجنيون في الحصار عامين . واشـتد عليهم تحت رئاسة سبيون الأميلي اذ حفر خندقا أحاط بالمدينة ، وأقام سدا بينها وبين المرسى ، وطارد الجيش القرطاجني المقيم خارج المدينة . وبذلك انقطعت عن المحصورين مادة التموين . وذلك سنه (147) . وحاول المحصورون النفوذ الى المرسى باتخاذ نفق تحت الجبل . فشعر بهم المحاصرون وردوهم الى الحصار فاستمروا فيه متزودين بالصبر .

لما أحكم سبيون حصار قرطاجنة وقطع عنها المؤنـة برا وبحرا عزم على فتحها . فقصد مكانا ليدخل منه على غرة من أهلها . ففطن به صدر بعل حفيد مصينيسا وصده بايقاد النيران في وجهه . وأخيرا دخل سبيون المدينة من ناحية المرسى . فشد عليه السكان شدة عنيفة . وأرسلوا عليه كل ما لديهم من مهلكات ومحرقات . ولكنه صبر لها وفتك بمن ساقه القدر اليه من شيوخ ونساء وصبية وأحرق كل ما مر به . ودامت الحال على شدتها ستة أيام بلياليها . والتجأ المحصورون الى هضبة برسة . وهم مع ذلك لا يسلمون قدما إلا بحقها . وكثرت الأموات حتى صاروا يرمونها من طريقهم بالمذاري .

وكان المحصورون بجبل برسة[1] ثلاثين ألفا . فلما أيسوا من النجاة ونفذ ما لديهم مـن وسائل الدفاع ومعدات الحصار أسلموا أنفسهم — ومعهم صدر بعل — لسبيون على أن يحفظ لهم أرواحهم . وكانت زوج صدر بعل أقوى منه جأشا فربأت بنفسها عن أن تحتمل

---

(1) جبل برسة هضبة بمدينة قرطاجنة . شاد بها الفرنسيون اليوم كنيسة ومتحفا وضريحا للقديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي هلك في حربه ضد المستنصر بالله الحفصي بالوباء سنة 669هـ 1270م .

منة سبيون • فأوقدت النار بمعبدهم وألقت نفسها فيها • وفعل فعلها ألف قرطاجني • وذلك سنة (146) •

وانتهت الحروب البونيقية بفتح قرطاجنة التي خلد البونيقيون بدفاعهم عنها لانفسهم كل الفخر والشرف وللرومان الغادرين كل خزي وعار • وانه لفتح فتح على الجزائريين كل النوائب والمصائب وسد عليهم طريق الاحسان السامي فلم يروه إلا بعد ثمانية قرون عندما جاءهم العرب اخوان الفينيقيين يحملون لهم دينا فطريا وأحكاما عادلة وحضارة طاهرة •

عندما تم فتح قرطاجنة احتفلت روما بآلهتها وقربت لها القرابين • ثم وجهت عشرة من أعيانها لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة • فحملتهم الكراهية والبغضاء لمؤسسيها رجال العمران على اختيار هدمها وتخريبها ففعلوا وبئس ما صنعوا • ولعنوا مكانها • وأخذوا من تراب حكومة قرطاجنة قطعة ضيقة أضافوها الى مستعمراتهم وأطلقوا عليها اسم « مملكة الرومان في افريقية » وجعلوا لها واليا مقره عوتيقة .

الباب الرابع

في ذكر البربر

على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة

ا ـ علاقات البربر مع القرطاجنيين

ليس لقرطاجنة مطامع استعمارية — بالمعنى العصري — في بربر الجزائر • فلم تكن تخدعهم بالوعود الكاذبة أو تمنيهم الاماني الباطلة • فتتظاهر — وهي تسر حسوا في ارتغاء — بأنها جاءت لخيرهم ، وانها تحكمهم ريثما يصيرون قادرين على ادارة شؤونهم ، رشداء في تصرفهم ، ثم تقلع عنهم ، وتنفض يدها من التحكم عليهم متى بلغوا تلك الغاية •

وقد عاب على قرطاجنة هذا الخلق السامي ستيفان اغسال ونقل كلامه بيروني • وهاك ترجمته :

رومة ملكت أوطانا شاسعة ومع ذلك عرفت كيف تحفظ سيادتها : فالمكان الذي تنتصر فيه تحصنه بالجنود ، وتمني المحكومين بأنها تدعهم وشأنهم متى رشدوا • وقرطاجنة بعكس ذلك : متى ملكت ناحية لم تحصن مركزها فيها ، ولم تعد أهلها بالاقلاع عنهم يوما ما • الى أن قال : فلو شاءت قرطاجنة ان تكونمن افريقية دولة ثابتة لسهل الامر عليها • ولكنها فرطت في الاستثمار والاستغلال •

وان عيب على قرطاجنة تفريطها في استغلال البربر فانما يعيب عليها ذلك أهل المطامع الاستعمارية • اما من لم تدنس عقولهم تلك المطامع فانهم لا يرون عيبا على قرطاجنة ان لم تكن ذات خداع سياسي • بل يعترفون بفضل أعمالها العمرانية وما أحسنت به الى بربر الجزائر من جلب البضائع لوطنهم وتعليمهم الحرف والصنائع •

وقد كانت تستميل الرؤساء والامراء بالاموال وتتقرب اليهم بالمصاهرة ، لا لان تخدعهم في استقلالهم بـل ليكفوا عنها هجومات قومهم ورعاياهم أو تستعين بهم في حروبها •

أملقار برقة أعظم قواد قرطاجنة وعد نارفاس من رؤساء البربر بابنته لاعانته له على اخماد ثورة المرتزقة ، وحنبعل الشهير كانت له ابنة أخ تزوجت من اصالساس بن نارفاس ، وصفر نيسب الشهيرة بنت صدر بعل كانت تحت صيفاقس ، ومصينيسا كانت له بنت تزوجت بأحد سراة قرطاجنة وكان منها صدر بعل حامل رايـة الدفاع عن المحصورين بقرطاجنة •

وكان لقرطاجنة منذ أواخر القرن الخامس (ق•م) جنود مرتزقة من نوميديا وموريطانيا • والنوميديون هم الذين أعانـوا حنبعل بأوربا • واليهم يرجع الفضل في انتصاراته الكثيرة الباهرة •

وكانت بين قرطاجنة وبعض أمـراء البربر بالوطـن الجزائري معاهدات تقضي باعانة أولئك الامراء لقرطاجنة أيام الحرب •

فانت ترى أن بـين قرطاجنة وبربر الجزائر روابط بالمصـاهرة والمعاهدة ، واختلاط في الجندية •

2 ــ الحضارة القرطاجنية بالجزائر

كان البربر قد اجتازوا العصر الحجري وعرفوا الزراعة قبل تأسيس قرطاجنـة • ولكنهم اسـتفادوا مـن القرطاجنيين فوائـد كثـيرة وجليلة بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة •

كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية ولم يهتدوا الى وجه استثماره • فلما جاورهم القرطاجنيون أخـذوا

عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت • وكانوا قد عرفوا الفلاحة • فاستفادوا من القرطاجنيين ضروبا أخر من البذور لم تكن بوطنهم ، وأخذوا عنهم أيضا آلة لدرس الحبوب • ولم تكن للبربر دراية بالغراسة • فاستفادوا من القرطاجنيين غراسة الاشجار على اختلافها • وتعلموا منهم تربية الحيوانات • وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها • من ذلك النحاس • استخرجوه قبل الفتح الروماني • ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس • وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي ونحت الحجارة النفيسة • ولم ترج صناعة الحديد بين البربر إلا على يد القرطاجنيين [1] • وتعلموا منهم صناعة الاواني المطلية وفنهم في البناء • فكانوا يبنون القباب على شكل الاهرام • وعرفوا الفن الاغريقي أيضا في البناء • ولكن بواسطة القرطاجنيين •

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على اطلال من بناءات البربر حكوا فيها الفن الفينيقي • وكثيرا ما يجدون أطلالا مركبة من الفنين الفينيقي والاغريقي •

وليس لقرطاجنة من حيث أنها حكومة يد في انتشار هذه الحضارة لأنها كانت في نواح لم تكن لقرطاجنة عليها سلطة • وانما كان انتشارها ناشئا عن أسباب مرجعها الى ما كان بين الامتين من الروابط • وهاك أهمها :

1 — المدن البونيقية : ذلك أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن

---

(1) تأخر رواج صناعة الحديد بين البربر الى ذلك العهد لا يدل على بعدهم عن الحضارة لان مجيء القرطاجنيين كان لاول العصر الحديدي فيما يظهر . فقد قال تعالى في شأن داوود : « وانزلنا له الحديد » وذلك يدل على أن عصر داوود هو بداية العصر الحديدي . وقد علمنا الخلاف في تأسيس قرطاجنة هل كان في عصر داوود أو بعده ، وان تأسيسها كان بعد تعرفهم بهذا الوطن على كل حال .

يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية • فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم • وما أسرع البربري الى الاخـذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله •

2 — الجنود المرتزقة : ذلك أن قرطاجنة كان لهـا من البربر جنـود مرتزقة • وهؤلاء الجنـود يختلطون بالبونيقيين ويتأثرون بحضارتهم • فبعد أن يقضوا بينهم زمنا يعودون الى أوطانهم ناشرين لتلك الحضـارة •

3 — أمراء البربر : ذلك أن لكثير من أمراء البربر ولوعا بترقية وطنهم • فكانوا يقتبسون مـن جيرانهم البونيقيين ما يبلغون بـه أمنيتهم • فيأخذون من مدنيتهم وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعاياهم بهمة وعناية ، ويسيرون بها في مساكنهم واداراتهم شوطا بعيدا • والناس — كما قيل — على دين ملوكهم •

ولكون البربر هم الذين جلبوا الى وطنهم الحضارة القرطاجنية ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني ، ولم يضرها جوار الحضارة الرومانية •

قال بيروني :

بدلا من أن يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة نشروها ومدوا في عمرها ، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة • ولكن طول مكث الفينيقيين بافريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها • حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية • ولم يزل ذلك من أفكارهم إلا الفتح العربي • فكان عمر هـذه الحضارة (17) قرنا •

هذا كلام بيروني سقناه لما فيه من الشهادات العادلة • وفيـه

سبب لانتشار حضارة قرطاجنة بين البربر وطول أمدها غير الاسباب التي قدمنا • ولكن ما قدمناه هي الاسباب الحقيقية أما طول المكث وحده فغير كاف • وسترى ان طول مكث الرومان لم يتسبب عنه بقاء حضارتهم بعد ذهاب سيادتهم ، ولم ينتج عنه انتشارها حتى أيام سيطرتهم • بل في كلام بيروني هذا ما يغني في رد ما جعله سببا لبقاء حضارة قرطاجنة عن انتظار ما يأتي في آخر الباب التالي •

3 ــ تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة • ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم • فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا الى خطهم • حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون بغير الفينيقية • وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك • وظهر ذلك على نقودهم الدولية التي عاشت بعيش دولتهم الى أواسط القرن الاول للميلاد •

وعلى أيدي الملوك والامراء انتشرت هــذه اللغة بين العامــة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة • ولم تزل حيــة بنواحي قالمة وبونة الى أيام القديس أغسطين • غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية ، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها ، وانما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللغة اللطينية الى ذلك العهد • فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين الى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون الى مخاطبة البداة من البربر •

وقد وجدت كتابات بقالمة ونواحيها وقسنطينة وميلة على قبور بهذه اللغــة • ويرجع تاريخ هــذه الكتابات الى ما بعد سقوط قرطاجنــة •

ومن اللغة الاعلام • وقــد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية • ومن ملوك نوميديا من سمى أبناءه باعلام فينيقية • فقد كان لمصينيسيا ابن يدعى منستبعل وابن آخر يدعى آذر بعل • واقتفت السوقة أثر الملوك في ذلك قرونا • ويوجــد بجهات سطيف وجبل أوراس وسور الغزلان كتابات بحروف لطينية لاعلام فينيقية • منها نمفامو ، صدر بعل ، بريق بعل ، بو ملكار ، مع أن هذه الجهات لم تدخلها قرطاجنة قط •

فأنت ترى أن اللغــة الفينيقية عاشت بالجزائر بعــد قرطاجنة قرونا ، ولم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الامم التي جاءت بعد القرطاجنيين ، الى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة •

قال بيروني : اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغــة لانها لغــة سامية وقــد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها •

هذا وان انتشار الفينيقية بتلك الدرجــة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي • بل لا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية • وهذا وجه آخر عندي لعدم امكان معرفة ما بقي من آثارها •

4 ــ تاثير قرطاجنة على البربر في العقيدة

كانت للبربر دياناتهم التي لا تختلف عن ديانات الامم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات وأسماؤها التي هي من توابع اللغات •

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثــروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في

كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عـن أسلافهم بما شاهدوه عند جيرانهم •

عبد الفينيقيون إله البربر « أمون » لكن حسب تقاليدهم وبعد تسميته « بعلهمون » وبعد صنع تماثيل له غير تمثالي التيس والكبش • فقلدهم البربر في تلك التماثيل أيضا وشادوا ـ اجلالا لبعلهمون ـ تماثيل بقرطة وميلة وقالمة • وعبدوا من آلهة الفينيقيين « استارتي » و « جليست » • ومن الآلهة التي بقي اسمها الى ما بعد الاستيلاء الروماني « بليدير » ومعناه الرب العظيم • وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمه •

قال اغسال : « وثم آلهة فينيقية تحت حجاب اللغة الفينيقية » •

ولم تزل ديانة الفينيقيين التي أدمجها البربر مـع ديانتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشر الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتدثر به جانب من البربر مستبطنا لوثنيته الملفقة من الوثنيات الثلاث وبقي أكثرهم وثنيا صريحا حتى جـاء الدين الاسلامي على ايدي فاتحي افريقية من العرب فقضى على الجميع • على أنه لم تزل الى اليوم عوائد متخذة عقائد لا تتفق مع روح الدين الاسلامي ، ويبعد أن تكون من بقايا الوثنية الاولى ، فان الاسلام قـد تمكن من قلوب البربر حتى ان تلك العقائد الفاسدة انما عاشت بينهم لاحتمائها بالاسلام وتسترها بجداره ، فلو وجد من العلماء المخلصين لدينهم وقومهم عدد كاف لحمل العامة على الثقة بما يقولون ، وأخذوا في رفـع الستار عن فساد تلك العقائد لنفض مسلموا اليوم أيديهم منها ، ولكن ما لم يكن اليوم فعسى أن يوجد غدا • ان رحمة الله قريب من المحسنين •

وقد اتضح لك من هذا الفصل وما قبله ان القرطاجنيين أثروا في البربر تأثيرا بعيد الاثر ، لا يحوي تاريخهم نظيرا له إلا ما كان

من تأثير العرب في العصر الاسلامي • وسر ذلك ان البربر يأنفون ممن يعبث باستقلالهم ويتذرع الى ذلك بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري • وإذا أنفوا من أمة هذه خلالها رفضوا مدنيتها وهجروا أخلاقها وعقائدها • والفينيقيون كالعرب من الجنس السامي جنس الصراحة الصادقة والكلمة الثابتة • فلذلك أثروا في البربر ذلك التأثير ونفذوا الى قلوبهم فغيروا من أخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وعقائدهم •

5 ـ نشوء الممالك البربرية العظمى

إذا ألقى المرء نظرة على خريطة الجزائر الطبيعية ألفاها ذات أقسام مختلفة : جبال وهضاب وحقول وصحار • ولاهل كل قسم من هذه الاقسام طبائع وعادات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الامكنة • ولكنهم لم يكونوا من الاختلاف بحيث لا يتعارفون ولا يتعاملون • فقد كان بالوطن الجزائري طرق تخترقه وتربط بين هاتيك الاقسام ، وتسهل المواصلة بين السكان • ففي كل عام ينتقل أهل الصحراء بمواشيهم الى التل — كما هي الحالة اليوم — وتقع المعاملة بين الفريقين : يأخذ التلي الصوف والتمر ، والصحراوي الحبوب •

وبذلك تكونت علاقات بين الشعوب الجزائرية منذ أقدم العصور التاريخية ، وتأسست منهم ممالك كبرى ذات نظام وعمران وحضارة •

صيفاقس من ملوك البربر استطاع أن يجند (60) ألفا لمحاربة سبيون الافريقي ، ويوبا الاول جمع لحرب قيصر (30) ألفا راجلا و (20) ألفا فارسا • وفي القرن الثاني (ق•م) كان مصينيسا

ومصيبسا ويوغورطا ملوكا على ما بين طرابلس ومراكش ، وقد يمتد حكم بعضهم الى المحيط الاطلانتيقي •

وقد بلغ من عظمة ملوك البربر أن كانـوا احدى العوامل في سقوط قرطاجنة ، وغصت بهم رومة رغم اتساع بلعومها لكثير من الاوطـان •

وقد كان هؤلاء الملوك يحبون الاستبداد بالسلطة والاستقلال بالارادة والادارة ، لذلك أسلموا قرطاجنة للسـقوط وقاوموا رومة حينا من الدهر •

ولملوك البربر نواب في مختلف الجهات يسمون ملوكا أيضا • ويرسلون للمدن عمالا • ومن المدن ما منحوها الاستقلال ، ونظمت حسب نظام المدن القرطاجنية ، وكان لها قضاة كقضاة مدن قرطاجنة الذين يعرفون بالاشفاط SUFFETE • ومنحت تلك المدن حق ضرب النقود ، فكتبت عليها باللسان الفينيقي •

والحكومات البربرية وراثية محصورة في بيوت منهم سواء في ذلك الملوك ونوابهم •

وقد كان بقرطة تجار وعمنة من الاغريق والايطاليين • وكان نطاق العمران متسعا • ولكن شمال قرطة كان أوفر حظا • فكانت المدن بتلك الناحية كثيرة عامرة • وتوجد مدن عامرة أيضا وهي في الجنوب منها تفيست ، وقد بلغ من عمرانها وكثرة سكانها أنها في سنة (250) ق•م تمكنت من اعطاء ثلاثين ألفا من رجالها رهنا على الطاعة لقائد قرطاجني •

وانتشرت الفلاحة على يـد مصينيسا • وكثيرا ما مون ملوك نوميديا جنود الرومان بالقمح والشعير في حروبهم بالمشرق أو باسبانيا أو بجزيرة سردانيا •

ولم تزل الجزائر من ذلك الحين صالحة للفلاحة وتربية الحيوانات التي تكلم عليها سالوست • والعمارة الفلاحية كانت تمتد الى حد الجزائر الغـربي • وكانت مصيصيليا أغنى مـن مصيليا رجـالا ونتائج أرض •

وكان البربر يفتخرون بكثرة النسل • قال اغسال : « ويرون افريقية أكثر من غيرها في ولادة النوأم » ومراده بافريقية ما يشـمل الجزائر • ولم يزل هـذا الخلق الى اليوم بزواوة • قال أبو يعلى الزواوي : ومن عادات زواوة أنهم « يقلدون المرأة التي أَذْكَرَتْ نوعا من الحلي خاصا بالجبهة »[1] •

وبتقدم العمران تقدمت الحضارة • قال اغسال : « ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين » فقد شيدت المباني العجيبة من منازل وصوامع وقصور وقباب ومعابد • كل ذلك على نمط الفن الفينيقي أو الفن الافريقي المركب من الفنين الفينيقي والاغريقي •

6 ــ ذكر بعض رؤساء البربر

لم تظهر بالوطن البربري دول عظام وملوك فخام إلا عندما أخذ الطمع الاشعبي يدفع رومة لامتلاك وطنهم ، واصطدمت بقرطاجنة • فحينما دب الهرم في دولة قرطاجنة ونخرت أعظمها من حروب اليونان والرومان أراد البربر أن يحفظوا استقلالهم فكان منهم ملوك سنرى أخبارهم فيما يلي هذا الفصل •

واستغناء البربر أولا عن تأسيس دولة ثم التجاؤهم ثانيا يظهر سره فيما أجاب به النعمان بن المنذر كسرى وقد عاب أمامه العرب

---

(1) تاريخ الزواوة ص 34 •

بعيوب منها عدم انقيادهم لرجل يسوسهم • وهذا جوابه : « وأما تركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الامم إذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف » •

حقا حفظ البربر استقلالهم بتأسيس تلك الممالك مدة • وقد كانوا ينجحون في اقصاء عدوهم لولا انقسامهم على رؤساء وامراء كل يحارب الآخر • ولا أضر على الامم من الحروب الداخلية والتهالك على الرياسة •

قبل ظهور الملوك العظام كان لعشائر البربر رؤساء هم نواة الملك الذي عظم من بعدهم • ونحن نذكر من أولئك الرؤساء ما اهتدينا الى خبره ، ثم نقفي بذكر الملوك العظام الذين قلما تجود بهم الايام •

1 — **مطوس** : كان زعيم العساكر المرتزقة التي ثارت على قرطاجنة سنة 238 (ق•م) •

وذلك أن قرطاجنة كان لها من العساكر المرتزقة عشرون ألفا عجزت عن أداء أرزاقها بعد خروجها من الحرب البونيقية الاولى على ذلك الوجه المضر بها • فلم تعذرها تلك العساكر وثارت مطالبة بأرزاقها • فمنحت كل واحد دينارا (صرفه مجهول) فلم يرضهم ذلك • فوجهت لهم ضابطا يدعى حنون فعجز عن مقاومتهم • ثم عينت لكسر شوكتهم أملقار القائد العظيم [1] •

---

(1) منهم من يسميه عملكرض او هملكار . وما اثبتناه في الاصل هو ما في ابن خلدون . غير انه قال املقا . والظاهر ان الراء سقطت في التصنيف فقط .

2 — **نارفاس** كان ملكا بمصيليا • ولما اشتدت ثورة العساكر المرتزقة وحاصروا عدة مدن منها بنزرت وعين أملقار لحربهم رأى أنه لا يقوى عليهم إلا بمساعدة نارفاس • فاستماله ووعـده بابنته • فاعانه وتمكن بذلك أملقار من محاربة الثوار • أخمد أولا ثورتهم فجددوها وبلغوا أن حاصروا قرطاجنة • فتمكن لأملقار أن يدافع طائفة منهم حتى حصرها بين جبلين • ولما ضعفت استأمنت له لكنه استأصلها عن آخرها • وبقي مطوس بمن معه محاصرا لقرطاجنة • فضاعف القرطاجنيون قوتهم حتى غلبوا مطوس وجنده •

3 — **غولة** : هو ابن نارفاس خلف أباه على ملك مصيليا • وكانت عاصمته قرطة • فجري على سياسة والده من مصادقة قرطاجنة الى أن توفي سنة (206) ق•م •

4 — **اصالساس** : هو ابن نارفاس أيضا • خلف أخاه على ملكه في عاصمته • وكان معه مصينيسا بصفة أمير • وبعد قليل توفي وترك ولدين هما : قولوسا ، لكومسيس •

5 — **قولوسا** : كان هو الاكبر سنا فانتصب مكان أبيه حسب نظامهم في ارث العرش • وثار عليه ثائر من الاسرة المالكة • لكنـه — حسب القانون الوراثي — لا حق له في الولاية • ويدعى هذا الثائر مزوطيل • نشبت الحرب بين الملك والثائر وجموعهما • وانتهت بهلاك قولوسا •

6 — **لكومسيس** : بعد أن فاز مزوطيل تنازل عن الملك لمن له الحق فيه وهو لكومسيس • وانتصب وكيلا عنه وكافلا له • فكان تنازله اسميا • وفي الواقع هو الملك •

كان من الواجب على قرطاجنة ان تتداخل في هذه الثورة لفائدة من له الحق في الولاية • لكنها وقفت موقف المتفرج • وكان مصينيسا

ابن غولة بالاندلس مع القرطاجنيين في حرب الرومان • فلما بلغه خبر مزوطيل واعراض قرطاجنة عن ثورته خرج مـن الاندلس مغاضبا للقرطاجنيين ومحالفـا للرومان • قصـد مصيليا ليطرد مـن عرشها مزوطيل ويتسلم هو مقاليد الحكم • فمر بمصيصيليا مملكة عدوه صيفاقس في شرذمة من الجند • وبلغـه أن مزوطيل ذاهب لزيارة صيفاقس • فكمن له في بعض السبل وانقض عليه وعلى من معه • وتقاتلا حينا وحكمت المعركة لمصينيسا • ففر مزوطيل بمن بقي من جنده • واستقر مصينيسا بعرش آبائه ملوك مصيليا •

7 ـــ صيفاقس (230 — 202) ق•م

صيفاقس من أعظم ملوك البربر • كان ملكا على مصيصيليا • وعاصمته صيغة ، كان هذا الملك معاصرا لغولة • ومن أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالاجنبي • ولولا ذلك لكان الوطن البربري أمنع على مريد اغتصابه من عقاب الجو •

ولهذا السبب كـان هذان الملكان مختلفين : غولـة حليف للقرطاجنيين ، وصيفاقس حليف للرومان •

وفي سنة (213) أرسل اليه الرومان ضباطا يعلمون جنوده • وسار صيفاقس ضد غولة • فوقعت الحرب بينهما • وكان رئيس جيش غولة هو ابنه مصينيسا • وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة • فانتصر مصينيسا وأخرج صيفاقس من عاصمته صيغة • فذهب الى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيشا ساقه لحرب مصينيسا • فعادت عليه الكرة أيضا • وذلك سنة (212) •

بعد انتصار مصينيسا صارت مملكة غولة تمتد الى ملوشات

غربا • فكان بذلك ملكا على مصيليا ومصيصيليا • وكان صدر بعل القرطاجني بالاندلس فجاء مددا لمصينيسا على صيفاقس • وبعد الانتصار عاد اليها بجيوش كثيرة تحت قيادة مصينيسا •

ولما توفي غولة واعقبته ثورة مزوطيل ولم تتداخل فيها قرطاجنة غضب مصينيسا وخالف قرطاجنة وحالف رومة •

كانت قرطاجنة تخطب ود صيفاقس وهو معرض عنها • ولعل تغافلها عن ثورة مزوطيل التي فيها فائدة صيفاقس كان بقصد استمالته • ولكنها خسرت بهذه السياسة صداقة مصينيسا • وإذ كان مصينيسا مع الرومان خالفهم القرطاجنيون الى استمالة صيفاقس • فكانت عليهم هذه المرة سهلة • وكان لصدر بعل بنت شهيرة تدعى « صفو نيسب » وعد بها مصينيسا فلما أيس من مناصرته عدل عن مصاهرته وزوجها من صيفاقس عدو مصينيسا •

اتخذ القائد القرطاجني هذه الوسيلة شفيعا له في صداقة صيفاقس فنجح • وكيف لا ينجح بمثل هذه الشفاعة التي يقول فيها الفرزدق :

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

صدق صيفاقس في صداقته لقرطاجنة • وابتدأ عمله بمحاربة مصينيسا الذي انتصب بقرطة ملكا على مصيليا • فانتصر عليه وانتزع منه أغلب مملكته • ففر مصينيسا واعتصم ببعض الجبال • وذلك سنة (205) ومن معتصمه صار يغير على تراب قرطاجنة فأقلقها • وإذ ذاك رغبت من صيفاقس أن ينهي قضية مصينيسا انهاء حاسما • فلباها وأرسل جيشا تحت قيادة بوكار • فشد الخناق على مصينيسا وفتك

برجاله ولحقته هو جراحات عميقة أعجزته عن أي مقاومة • فرمى بنفسه في واد ونجا الى الضفة الاخرى • وذلك ناحيـة قليبية من التراب التونسي •

بعد هذه الخيبة آوى الى مغارة بسفح جبل ريشما يلتئم جرحه ، ويستعيد قواه • وذاع أنه توفي • ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود • وبعد استراحته ظهر لاهل مصيليا • فسرتهم رؤيته وابتهجوا بوجوده ، فانجدوه • وبعـد قليـل جمع (6000) مـن المشـاة و (4100) من الفرسان •

ولم يكن صيفاقس بغافل عنه فجمع جموعه الكثيرة وقسـمها جيشين أحدهما برئاسته والآخر بقيادة ابنه فرمينة • وكان مصينيسا بالجبال التي بين قرطة وهبون • فقصـده صيفاقس • واصطدمت الجيوش وحمي وطيس الحرب • وأسفرت عن نجاح صيفاقس وهزيمة مصينيسا • ففر الى بلاد السرت الاصغر (قابس) •

إذ ذاك استقل صيفاقس بملك مصيليا ومصيصيليا بعدما كان استقل بهما غولة • وهكذا الدنيا اقبال وادبار •

اتسع نطاق مملكة صيفاقس فاتخذ قرطـة عاصمته سنة (204) وبينما هو متمتع بملكه العريض ومصينيسا شريد في الجبال والفيافي إذ نزل سبيون الافريقي بجموعه في افريقية ، فلاح بذلك بارق الامل لمصينيسا • وجاء بمن كان في صحبته نجدة لسبيون •

هنالك أرسل صدر بعل بن جسقون الى صهره وحليفه صيفاقس فجاءه بستين ألفا مقاتلا ونزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل • نشبت الحرب بـين القرطاجنيين والرومان • فأظهر سبيون الانهزام مكيدة وخاطب محاربيه في الصلح • وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين وحال دون اتصالهما بعضهما ببعض •

وفي الليل هجم هو مع قومه على صـــدر بعل ، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس • وأحرقا عساكر العدو بالنيران ومن بقي عن النار ألحقته السيوف • فكانت على القرطاجنيين وأنصارهم وقيعة كبرى وذلك سنة (203) •

شجع هذا الانتصار سبيون على فتح قرطاجنة • ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيه قبل استئصال أنصارها من البربر • فجهز جيشا لحرب صيفاقس بقيادة مصينيسا • فالتقى الملكان البربريان بجموعهما • فكبا بصيفاقس جواده في المعركة فأخذه مصينيسا أسيرا • وذهب به الى قرطة واحتال لدخولها فدخلها • وأتى صفو نيسب وأراد التزوج بها • فلم يرق ذلك لسبيون خشية أن تستميله عنه الى قومها • ولكنها أنهت الخلاف بينهما بقتل نفسها !

وبعث بصيفاقس الى رومـــة • ومات بها سجينا ســـنة (201) وهكذا ختمت سعادته بالسيادة [1] وبسطته في السلطة • فمات سجينا بعيدا عن الاهل والولد • وذلـــك مآل سياسته في منافسته لابن وطنه ، واستعانته عليه بالرومان أولا • ويسرني — وأيم الله — أن تكون هذه عاقبة كل من سعى في جلب الاجنبي الى وطنه ليتقوى به على منافسه من أبناء جنسه •

(ش ـ 5)
نقود صيفاقس . وعليها رسمه وكلمة صيفاقس ملك

(1) بالسيادة يتعلق بالسعادة .

8 ـــ فرمينـة (201 ـــ 158)

فرمينة هو ابن صيفاقس • قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا • وأعطته هو مصيصيليا مملكة والده الاصلية •

فرمينة ابن عدو الرومان ووارثه في أحقاده وضغائنه ، ومع ذلك يعطونه مصيصيليا ولا يزيدونها لمصينيسا صديقهم ونصيرهم • قد يكون هذا شيئا عجابا • ولكن لا عجب مع السياسة • ولا صداقة ولا عداوة فيها • لو بسط مصينيسا نفوذه على مصيليا ومصيصيليا لكان ذلك مما يضر بنفوذ الرومان ويضعف من آمالهم في افريقية • وليس في وجود أميرين بربريين ما يخشى منه ذلك • لانهما إذا لم يكونا جميعا تحت نفوذهم فلا أقل من واحد يخلص لهم طمعا في الانتقام من الآخر •

ولم أعثر على ما ينير لي حياة هذا الملك وما قام به أيام ملكه من الاعمال • ولا عثرت على نهاية ملكه سوى أن بعض المؤرخين ذكر أن مصينيسا استقل بمصيليا ومصيصيليا سنة (158) فيظهر أن تلك السنة هي التي انقضى فيها ملك فرمينة إذ لا يعرف بعده ملك على مصيصيليا قبل مصينيسا •

وهكذا بعدما عثر جد صيفاقس بعثار جواده وأخذ منه الدهر ما كان من طريف عزه وتلاده لم يكن لخلفـه صيت ولا سمع له حسيس أو صوت •

(ش ـ 6)
نقود فرمينة . وعليها رسمه وكلمة فرمينة ملك

9 ـــ مصينيسيا (201 — 149)

مصينيسا بن غولة بن نارفاس • ربي بقرطاجنة • وكان سلفه حليفا لدولتها • فخاض مع القرطاجنيين حروبهم مع الرومان بالاندلس •

وقائد الرومان بالاندلس سبيون الافريقي • وقـد شاهد ما لمصينيسيا من المقدرة الحربية • فصار يخاطبه في ولاء رومة • واتفق أن وقـع مصيفا ابن أخي مصينيسا أسيرا بيـد سبيون سـنة (207) فسرحه تقربا من عمه • كل هـذا ومصينيسا محافظ على ولائـه لقرطاجنة •

وفي سنة (206) توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل • فلم تحافظ قرطاجنة على أمواله ومملكته • وذلك استخفافا بمصينيسا الذي لولا اشتغاله بخدمتها لم يقع ما وقع بمملكته • فغضب لذلك واضطر لمحالفة الرومان •

رجع مصينيسا من الاندلس ومر بموريطانيا وطلب من ملكها بوكار شرذمة من الرجال لحمايته في طريقه • فأمده مصانعة • وأغذ السير حتى دخل وطنه • فهرع اليه أنصاره •

وبدخوله وطنه دخل في حرب قريبه مزوطيل والملك الصوري لكومسيس • فكان النصـر حليفه وفر ابن عمـه لكومسيس الى صيفاقس فأمده وأعاد الحرب ثانية • فعادت عليه الهزيمة • وبعد أن رأى مصينيسا عجز ابن عمه عن الحرب رق له وقربه وأشركه في الحكم • فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته •

لم يكن صيفاقس ولا القرطاجنيون ليرضوا بوجود مصينيسا على رأس حكومة مصيليا • ولم يجدوا سبيلا لاخذه من ناحية التفرقة والمشاغبة عليه برجل من عشيرته • لانه سد هذا الثلم بالتساهل مع

ابن عمه • فرأوا أن يبادروا اليه قبل استفحال أمره • فجمع لـه صيفاقس الجموع وحاربه مرارا حتى أخرجه من مصيليا والتجأ الى السرت الاصغر •

أخرج صيفاقس مصينيسا من عاصمته كما أخرجه هو قبل ذلك بنحو ثماني سنوات • واشتغل بالسرت في طائفة من أصحابه بشن الغارات في تلك الجهات الى أن جاء سبيون الى افريقية فانضم له وحارب معه حتى سقط صيفاقس في يده وعاد منصورا ودخل قرطة عاصمة سلفه • واعترف له الرومان بالسيادة على مصيليا • ومنحت مصيصيليا لفرمينة • وفي سنة (158) استقل بملك مصيليا ومصيصيليا كما كان والده استقل بهما قبل •

اتسعت من ذلك الحين مملكته وصارت تشمل ما بين طرابلس ومراكش خلا ما كان من التراب النونسي تحت قرطاجنة • وبقي على محالفته لرومة • فكان يعينها في حروبها خلف البحار بالرجال والافيال والحبوب ، يرسلها مع أبنائه ليتعرفوا الى الرومان ويقفوا على طبائعهم في وطنهم وسياستهم في عاصمتهم • وكان شيوخ رومة يجازونه على اعاناته المادية بهدايا شرفية من تبجان ذهبية وقضبان عاجية وكراسي عاجية ، وعلائل مطرزة بالذهب وحلل •

وكما كان يعينها تلك الاعانات كان يعترف بسيادتها ويقول : « ان رومـة هـي المملكة الحقيقية • وليس لـي مـن مملكتي الا الاستغلال » •

وكل هذا منه مصانعة وخداع اقتضته السياسة • أما غايتـه الحقيقية فهي الاستقلال بملك افريقية الشـمالية والقضـاء عـلى القرطاجنيين وطرد المطامع الرومانية • وقد أدرك الرومان منه هذه الغاية فاستخدموه في اضعاف قرطاجنة عدوتهم القوية • ولما فتحوا

مقدونيا طلب مصينيسا من شيوخ رومة الاذن في زيارة عاصمتهم ليقدم قربانا للالهة « جوبيتر » (كوكب المشتري) • فلم يرضوا ذلك الطلب ــ أظن لأسرار سياسية ــ وأجابوه بأن بوطنه آلهة فليتقرب لها ان شـــاء •

كانت اعانة مصينيسا لرومة على ضربين : اعانات خارج افريقية غرضه بها مخادعة رومة بابداء صداقته لها ، واعانات بافريقية غرضه بها اضعاف قرطاجنة كي يتمكن مـــن تنفيذ برنامجه الاستقلالي • فأعانها في حرب زامة التي كانت للرومان على القرطاجنيين • ووقع بينهما ذلك الصلح الذي اشتمل على المادة السادسة لفائدة مصينيسا • ومن ذلك الحين أخذ في تنفيذ برنامجه • واستعد له بتنظيم الجيش وتنشيط الفلاحة والتجارة • وصار يتقدم نحو قرطاجنة ويختزل من أراضيها • فرفعت شكواها منه الى رومة • وكررتها مرارا • فكانت رومة تغضي عن الاجابة أحيانا ، وتعد على قرطاجنة مساعدة حنبعل لامير الشام أخرى • وأخيرا وجهت ثلاثة من الخبراء لينظروا في قضية قرطاجنة ومصينيسا • فلم ينصفوها وأبقوا له ما ملك من أراضيها •

وما زال مصينيسا على غاراته في تراب قرطاجنة • وهي تكـــرر شكواها منه لرومة حتى استمعت لها ووجهت ثلاثة خبراء أيضا • وكانوا يريدون تأييد قرطاجنة لانهم يخشون من استفحال ســـلطان مصينيسا والقضاء على مطامعهم في افريقيـــة اذ كانوا لا تخفى عليهم غايته • وكانوا يظنون قرطاجنة في حالة بؤس وضعف بحيث لا يخشون جانبها • فلما نزلوا بها وشاهدوا حسن حالتها خلاف ما كانوا يظنون رأوا أن انصافها يعزز قوتها • وذلك مما يدفعها في المستقبل لتجديد الحرب مع دولتهم • فعدلوا عن قصدهم وتركوا ما كان على ما كان •

إذ ذاك عزمت قرطاجنة على أن تنصف نفسها بنفسها • فسعت

في لم شعثها • وأخرجت من عاصمتها شيعة مصينيسا الذين كانوا يدعون الى حماية التراب القرطاجني من الرومان بالدخول في طاعته والاستظلال برايته •

غضب مصينيسا من طـرد حزبه • وأرسـل الى قرطاجنة اثنين من أولاده احتجاجا على ذلك • فقوبلا بكل ازدراء وامتهان • إذ ذاك أرسل ولده غولوسة الى رومة مخبرا لدولتها بما صنعت قرطاجنة • فأرسلت رومة اليها تهددها بالحرب ان هي نقضت اليوم ما أبرمته بالامس •

لم تحفل قرطاجنة بهذا التهديد • ولم يترقب مصينيسا ما يكون من رومة • فهجم على الحدود • وخرج اليه صدر بعل بخمسة وعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس • فاقتتل الفريقان • وبرق لصدر بعل بارق الانتصار أولا • ثم استحر القتال • ولم يتبين غالب من مغلوب • فأراد صدر بعل أن يخاطب — وهو قوي — عدوه في الصلح • فأجابه مصينيسا بطلب رد الاسرى • فامتنع من ذلك • وعاد الفريقان للقتال • فانجلت المعارك عن هزيمة صدر بعل • فطلب الصلح من جديد • وتم على الصفة الآتية :

1 — رد الاسرى من غير فـداء •

2 — اعادة المنفيين من حزبه لقرطاجنة •

3 — غرامة حربية مقدارها خمسمائة حمل من الفضة في مدة خمسين سنة •

4 — وضع السـلاح •

عاد القرطاجنيون بعد ذلك الى عاصمتهم • وبينما هم سائرون اذ هجم عليهم غولوسة • ففتك بهم فتكا ذريعا • وذلك سنة (150) •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة • فادعت على قرطاجنة انها لم تحترم مواد الصلح الواقع بعد حرب زامة • حيث تعهدت إذ ذاك أن لا تحارب مصينيسا • ووجدت بذلك وجها لفتح حرب عليها • تلك الحـرب التي انتهت بتدمـير قرطاجنـة وذوبان القرطاجنيين في غيرهم •

لزم مصينيسا في هذه الحرب البونيقية الاخيرة الحياد • فلم يعن الرومان • وهو الذي كان يعينهم في حروبهم خلف البحار • ذلك أنـه كان يأمل أن يكون هـو المالك لقرطاجنة تتميما لبرنامجه في الاستقلال بشمال افريقية • فان لم يحصل ذلك عاجلا فجوار قرطاجنة السلمية الضعيفة خير له ولجنسه من جوار الرومان الحربيين الاقوياء •

في سنة (149) أحس مصينيسا بدنو أجله • فأرسل الى سبيون الاميلي — الذي سيكون فاتح قرطاجنة — ليوصيه على أولاده • فتوفي قبل وصوله •

كان مصينيسا ملكا عظيما ذا سياسة ودهاء وادارة ونظام وعناية بالفلاحة والتجارة ، صبورا على الشدائد ثابت العزيمة ، خاض غمرات الاهوال ولجج الخطوب بقوة جنان ورباطة جأش ، حتى تغلب على أعدائه وأورث بنيه ملكا ثابتا ونفوذا عريضا • كان لا يفرط في حظه من الملاذ ان ابتسم له الدهر ، ولكن مع يقظة وحذر ، فلا يغفل عن أحوال مملكته خوفا من تدبير ثورة • وكان له أسطول وجنود منظمة وسكة مطبوعة باسمه • وتلك آية الاستقلال • اذ لـو كان تحت الرومان لكانت السكة باسمهم •

تعلم الفينيقية أيام كان بقرطاجنة في صباه • فكان ولوعا بها • واتخذها لغـته الرسـمية ونشرها في مملكتـه • ومع ذلك لم يكن

أيام ملكه ميالا الى الفينيقيين ولا متساهلا معهم في استقلاله • بل كان يراهم شامة سوداء في أديم مملكته • فلذلك حاربهم وطمع فيما تحت تصرفهم •

وهكذا فليكن حب الجنس • فلا يستبدل الحر بجنسه جنسا تعلم لغته وآدابه • وانما عليه أن ينشر ما راق له من آداب تلك اللغة بين قومه مع المحافظة على جنسيته •

كان هذا الملك حلو الفكاهة رقيق القلب مع الصبيان مر الجد شديدا على من يمس استقلاله ، متقشفا في نفسه متأنقا في مظاهر ملكه ، فقد اتخذ بدار المملكة الخدم والحشم والخيل ، ليبهر العامة حتى لا تطمع في خلع طاعته •

وكان قوي البنية : ولد لـه وهو في سن (86) وتولى رئاسة الجند والحرب وهو في سن (88) ومات بعد ماجاوز المائة • وقيل بلغ من العمر (89) • وعلى رواية انـه حارب صيفاقس سنة (212) وعمره آنذاك سبع عشرة سنة فتكون ولادته سنة (228) ويكون عمره (79) فقط •

واختلف في سنة ولايته أيضا : فقيل سنة (201) وقيل سنة (207) • والظاهر ان صاحب الرواية الثانية اعتمد بما كان من ولايته قبل سقوط صيفاقس • ولكن من المتفق عليه بين صاحبي الروايتين أن مصينيسا لم يرجع من الاندلس إلا سنة (206) • وهي السنة التي جلس فيها على عرش قرطة حتى شرده صيفاقس •

والخلاصة أن جمهور المؤرخين اتفقوا على مدحه ووصفه بالعظمة واستحقاقه للملك • قال بيروني عن فرنال : « ان مصينيسا لم يعن الرومان إلا بقصد اسقاط قرطاجنة عدوته القريبة • ولو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش خمسين سنة لحارب الرومان أيضا مثل ما فعل يوغورطة » •

وبالخروب قبر أحد ملوك نوميديا • ويظنه مؤرخو الافرنج لهذا العهد أنه قبر مصينيسا • حدثني بذلك مرسي أحد المؤرخين وأساتذة الكلية بمدينة الجزائر •

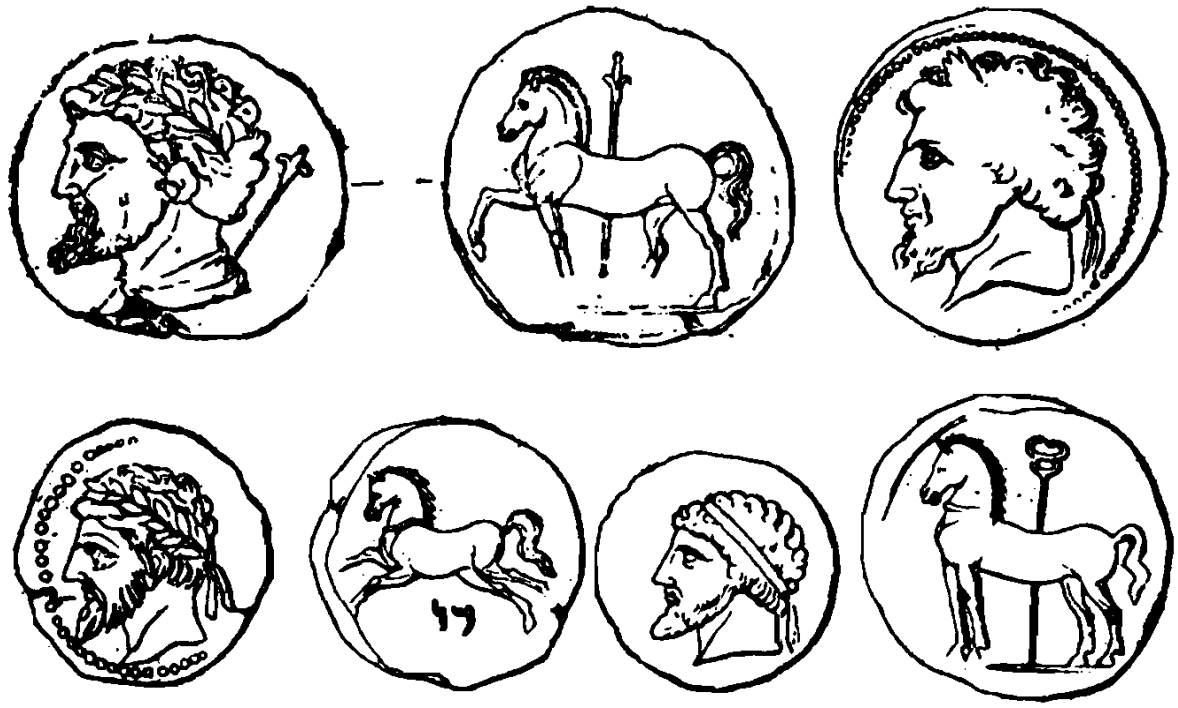

(ش — 7)
نقود الملك مصينيسا وعليها رسمه

10 — مصيبسا MICIPSA (149 — 119)

مصيبسا بن مصينيسا جلس على عرش المملكة بعد أبيه • وكان اعطاه خاتمه ترشيحا منه لخلافته • وأوصاه وبقية ابنائه بمسالمة الرومان لما يعلمه من قوتهم •

ولما وصل سبيون الى قرطة ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من ابنائه • فأجلس على كرسي المملكة مصيبسا وعين غولوسة قائدا عاما للجيش وعين منستابعل [1] وزيرا للقضاء • ولم يفعل سبيون

(1) سماه اغســـال والكماك مصتنا بعل .

بذلك سوى ما يتفق ورغبة مصينيسا • حيث أنه هو الذي رشح مصيبسا للملك وكـان يعطي رئاسة الجنـد لولده غولوسة منذ كان حيـا •

ولما سقطت قرطاجنة في يد الرومان بقي مصيبسا على عرشه لم يضره ذلك السقوط ولم يزعجه جوار الرومان لحدوثه • ثم مات أخواه فاستقل بالملك سـنة (145) • واعتاض عنهما بابنيه آذر بعل وهيمصال • وكان لاخيه منستابعل ابن تلوح عليـه آيات الفطانة والشجاعة يدعى يورغوطة • فأضـافه الى ولديـه ونزله منزلتهما • ووجهه مرة سفيرا عنه الى رومة •

كان مصيبسا مسالما للرومان جريا على سياسة والده ووصيته • وكان يعين رومة في حروبها • ففي سنة (133) كانت مشتغلة بحرب ضروس • فأعانها بجيش جعله تحت قيادة يوغورطة • يقول بعض المؤرخين : ولعله كان يريد من ارسال يوغورطة الى هذه الحرب هلاكه والاستراحة منه • لانه كان يخشى منه مناهضة ابنائه •

كانت مملكـة مصيبسا تشـمل ما بـين ملوشات [1] غربـا والسرت [2] شرقا • فهي عبارة عن وطن الجزائر اليوم وبعض تراب مراكش غربا • ان قلنا — كما هو الصحيح — ان ملوشات هو ملوية • وتمتد شرقا الى تراب طرابلس لا ينقص منها إلا الولاية الرومانية الضيقة بعمالة تونس •

وقد سار هذا الملك بهذه الدولة الواسعة سيرة محمودة • ودبرها

---

(1) هو ملويـة وقيـل المقطـع .

(2) السرت اسم لخليجين احدهما خليـج قابس وثانيهما خليـج طرابلس . والثاني هو المراد حسبما تفيده عبارات المؤرخين في غير موضع .

تدبيرا رشيدا • فعاش البربر تحت عنايته بسعادتهم عيشا رغدا • لم يرم بهم في الحروب تلذذا بسعة النفوذ • ولا كان يعتني بشخصه ويهمل شأن أمته • فيعم الفقر ويقل الامن • ولا كان ظلوما جائرا • فيضطر الناس الى الثورة • بل كان سياسيا حكيما وحاكما عادلا •

كان محافظا على عاصمته قرطة وعاملا لترقيتها وتحصينها • فجلب اليها أهل العلم والفن من الاجانب • وأصبحت على عهده مدينة علم وجمال ورفاهية • قال بارس في كتابه قرطة : « ويذكر المؤرخ ابيان ان مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد أن يفتحها عنوة • وجلب لها طائفة من اليونان • وزاد في تحصينها وخصبها حتى صارت يمكنها أن تجند عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل • وبعد وفاته وانتصاب آذر بعل بها حاصرها يوغرطة ولم يتمكن من فتحها إلا بعد أن أضرت المجاعة بأهلها » •

وقد كان مصيبسا نفسه مكبا على العلم • فاشتغل بالعلوم اليونانية ، والرومانية حتى برز فيها ، وأصبح عالما مضطلعا بالفلسفة • وما أسعد أمة يحكمها ملك عالم غير متأثر بأمة أساتذته من الاجانب ولا مقدم لها على قومه •

ولما أحس بدنو أجله جمع ابنيه وابن أخيه وأوصاهم بالاتحاد في السلم والتعاون على حفظ المملكة ، حتى لا ينفرط عقد عزهم وتذهب دولتهم ضحية الشقاق •

وفي سنة (119) أدركه حمامه بعدما أدار دولته أحسن ادارة ثلاثين سنة • وترك مملكته الواسعة في هناء واطمئنان ذات عمران مستبحر لم تنقصه الثورات الداخلية ولا عطلته الحروب الخارجية •

11 — هيمصال الاول HIEMSAL I (118)

لما توفي مصيبسا لم يأخذ ابناه وابن اخيه بوصيته • فاختلفوا وتنازعوا أمرهم بينهم • ثم اصطلحوا واقتسموا الاموال وفرقوا وحدة المملكة : أخذ يوغورطة القسم الغربي منها من صلداي الى ملوشات • واقتسم الاخوان الباقي بينهما وهو أوسع نطاقا وأوفر عمرانا •

لم يكن هذا الصلح مرضيا للمتنازعين • وانما هو ظاهري وفي الباطن كل ينوي نقضه متى أمكنه النقض • ابنا مصيبسا يريان الحق لهما في ارث عرش ابيهما ، فهما يعدان ما أخذه ابن عمهما ظلما ، ويتربصان به غرة لقتله أو فرصة لحربه كي يسترجعا حقهما المغصوب ؛ ويوغورطة يرى أنهما جارا عليه في القسمة ، فهو لم يقبلها ظاهرا إلا بنية اكتساب قوة يستعملها — متى سنحت الفرصة — ضد ابني عمه •

كانهيمصال أقدر من أخيه • فكان يوغورطة يخشى منه ما لا يخشى من آذر بعل • فاستعمل الحيلة للاستراحة منه : لم يكن إلا أمد قليل حتى دس يوغورطة من قتل هيمصال في مدينة ترمدة من مدن ولاية رومة الحديثة • وذلك سنة (118) فلم تطل مدته حتى نتعرف، سيرته في رعيته ، وأعماله في العمران والحضارة وسياسته مع الرومان •

12 — آذر بعل ADHERBAL (118 — 112)

انتصب آذر بعل ملكا بقرطة بعد وفاة والده واقتسام مملكته • وبعد أن قتل يوغورطة أخاه هجم عليه وأخرجه من عاصمته لاول معركة وقعت بينهما •

ذهب إذ ذاك آذر بعل الى الولاية الرومانية بافريقية مستنجدا بواليها على ابن عمه فلم ينجده • فسار الى رومة • ولما بلغها وجد بها رسلا من قبل يوغورطة • وجههم بأموال ليستميلوا اليه بعض عظماء الرومان • أبدى آذر بعل فصاحة نادرة ومنطقا محكما في الاحتجاج لنفسه واظهار جور ابن عمه وخبثه • ولكن لم تجد عليه فصاحته عطف الرومان حيث ان ابن عمه اشتراهم بالاصفر الرنان • ولما ألح على رومة في طلب النظر في قضيته عين شيوخها عشرة من الخبراء تحت رئاسة لسيوس أبميوس ليفصلوا القضية • وكان هذا الرئيس يميل الى يوغورطة • نظر الخبراء القضية بمرآة الاغراض فأنتج بحثهم خلاف ما يريد آذر بعل • وذلك أنهم أعطوه نوميديا الاصلية ، وأعطوا يوغورطة نوميديا الغربية وذلك سنة (114) •

صار يوغورطة بهذا الفصل أقوى منه قبله • وصار آذر بعل أضعف من حاله سابقا • وهذا لم يخف على الخبراء ولكنهم تعمدوا اعزاز جانب يوغورطة الذي سد مجرى الحق بصرة من الدنانير •

لم يكن يوغورطة ليقنع بشيء دون الاستقلال بمملكة عمه • ولم يكن هناك ما يقف في سبيله : البربر يحبونه ، وان عمه ضعيف عن مقاومته ، ورومة لا يصعب عليه استمالة رجالها • ففكر في ايجاد سبيل لبلوغ أمنيته وتحقيق برنامجه • ولم يشأ أن يقدم على حرب ابن عمه لانه لا يجهل ان رومة لا تسمح له الاستقلال دون ابن عمه حيث أن سياستها تقضي عليها بالاكثار من الملوك البربريين واذكاء نار المنافسة بينهم •

رأى يوغورطة أن أحسن ما يبلغ به أمنيته التوقي من مشاغبة رومة عليه بملوك البربر • وكان يجاوره بوكوس الاول ملك موريطانيا • فسبقها اليه واستماله اليه قبل الدخول في حرب آذر بعل

وتقرب منه بالمصاهرة فتزوج ابنته • وبهذه الوسيلة أمن يوغورطة ناحية بوكوس •

إذ ذاك أخذ يغير على حدود مملكة آذر بعل كي يستفزه لحربه • ويتخذ ذلك سببا لحربه يقطع به معاكسة رومة له • ولكن آذر بعل تحمل تلك الغارات واصطبر لها لعجزه عن مقاومة يوغورطة وخيبته سابقا في الاستنجاد برومة • رأى يوغورطة استكانة ابن عمه فعزم على تنفيذ برنامجه وهجم عليه • واجتاز الحدود بجنود كثيرة • هنالك رأى آذر بعل لزوم الحرب • فتهيأ لها بما لديه من الجنود وخرج لملاقاة يوغورطة •

تقابل الجيشان ولم يتبارزا • وكان آذر بعل ينوي محاربة ابن عمه من الغد • ولكن يوغورطة كان أشد حزما وأمضى عزما • فأمر جنوده بالهجوم ليلا • فدارت الحرب بين الفريقين • وبعد قتال شديد انهزم آذر بعل وفر الى قرطة • فلحقه يوغورطة وحاصره بها • وكانت المدينة في غاية الحصانة بموقعها وعناية مصيبسا بتحصينها • وكان بها صناع وتجار ايطاليون • فتحزبوا لآذر بعل •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فلم يرق لها صنيع يوغورطة • وأرسلت اليه في رفع الحصار والكف عن محاربة ابن عمه مع ثلاثة مـــن النواب • فقابل يوغورطة هؤلاء النواب مظهرا لهم احترامه لرومة • ولكنه لم يمتثل نهيها واســـتمر محاصرا لقرطة • فأرسلت اليه رومة رسلا آخرين • وتعين الاجتماع بعوتيقة • فذهب اليها • وأوعز لجنوده بتشديد الحصار • ولما اجتمع برسل رومـــة اكتفى باظهار احترامها أيضا •

دام حصار قرطة عامين وبلغت المجاعة بأهلها مبلغها وعلموا خيبة رسل رومة في المفاوضة مع يوغورطة • فرأى آذر بعل ان يفتح الكلام

مع ابن عمه • ففاوضه في رفع الحصار وأذعن لحكمه واستأمنه على نفسه • فآمنه ودخل المدينة • ولكنه خان العهد • فقتل ابن عمه ومن فيها من شيعته حتى الايطاليين •

وهكذا انتهت حياة هذا الملك الذي يظهر من التجائه الى رومة في كل ما يعرض له من الصعوبات انه وقدته الحضارة • فأصبح لا يريد الا استغلال جهود آبائه • وان وطنا كالوطن البربري جعلته دولة قوية كرومة نصب عينها لاستعماره لا يصلح أن يكون على رأس حكومته إلا مثل يوغورطة شجاعة حربية ودهاء سياسيا •

23 — يوغورطة JUGURTHA (118 — 104)

يوغورطة بن منستابعل ، يقول مرسيي : انه لغية • كان فارسا من أشهر فرسان البربر وقائدا من أعظم قوادهم • وقد عرف له عمه مصيبسا مقدرته وغناءه فقربه اليه وأشركه مع ولديه في شؤون الدولة • ثم عرف جرأته وخشيه على ابنيه فوجهه ذات مرة قائد جيش بعثه الى رومة اعانة لها في بعض حروبها • ورجا أن يهلك في تلك الحرب ويستريح منه •

خاطر يوغورطة بنفسه في هذه الحرب وأظهر شجاعة نادرة • وعرف كيف ينجو بنفسه من الهلاك مع المحافظة على عظمته • فأعجب به الناس كلهم في هذه الحرب • وأحبه البربر حبا شديدا • ورجع الى وطنه يحمل لقب بطل عظيم • فزاده ذلك تأثيرا على البربر • واكتسب شرفه وصيته من حيث أراد عمه حتفه •

كان هذا البطل العظيم متقمصا روح مصينيسا وعاملا على تحقيق برنامج كان ذلك السلف يعمل له • وهو الاستقلال بالوطن البربري

في حدود مملكة أسلافه وطرد الرومان من افريقية نظير ما كان ينويه مصينيسا من طرد قرطاجنة • فلما توفي عمه لم يـر في ابنيه أهلية لتحقيق هذا البرنامج • لانهما لم يعرفا رومـة كما عرفها • فهما يخشيان سطوتها • ويريدان التمتع بلذة الملك تحت ظلها •

ابتدأ يوغورطة في تحقيق برنامجه الاستقلالي بمنازعة ابني عمه على الملك حتى اقتسموه بينهم • ثم اغتال هيمصال • وتخلص لحرب آذر بعل حتى قتله سنة (112) واستقل إذ ذاك بملك سلفه • وأصبح لا يد فوق يده •

لم تكن مقاصد يوغورطة في الاستقلال بوطنه وطـرد النفوذ الروماني منه واضحة للرومان • فانه كان يسترها أحيانا بالخداع السياسي وأخرى باشتراء ذمم رجالهم • فلما دخل قرطة واستأصل منها شيعة ابن عمه من البربر والايطاليين الذين هم في الواقع شيعة رومة اتضحت للرومان مقاصده وأدركوا أنه كان يسوسهم بالختل والمراوغة • فعزموا على المبادرة لحربه وعدم امهاله في هدم آماله •

لما عزمت رومة على حربه أرسل إليها ولده واثنين من خواصه لعرض طاعته • فلم يأذن شيوخها بمقابلة رسله ولا قبلوا طاعته لعلمهم أن ذلك خداع سياسي فقط لا حقيقة له •

كان بوكوس مصافيا لصهره • فلما بلغه ما آل اليه أمره مع رومة خشي أن يكون له على ولائه له حظ من غضبها • فمال عنه وأظهر طاعته للرومان •

أرسلت رومة جنودها تحت قيادة بستيا • فجاء هذا القائد على طريق صقلية • ودخل في الحرب مع يوغورطة • واشتبكت القوتان

بجهات باجة • وانتصر بستيا في تلك المعارك انتصارات باهرة • فازداد خوف بوكوس من غضب رومة • وأرسل اليها يؤكد طاعته لها •

كان يوغورطة يعتقد — عن بصيرة — أن رجال رومة خربوا الذمم لا يمتنعون مـن الرشوة • فكان إذا أعجزته القوة التجأ الى المال • فاستمال بهذا الوجه بستيا لما انتصر عليه • فتساهل معه هذا القائد في الصلح • واتفق معه على أن يأخذ منه أفيالا وخيلا وأنعاما وأموالا • وخرج يوغورطة من ورطة هذه الحرب بسلاح الرشوة • وذلك سنة (111) •

علمت رومة بالصلح فلم ترضه • وأرسلت الى يوغورطة بالحضور ليشرح لدى مجلس شيوخها حقيقة هذا الصلح • ووجهت لسيوس كيوس اليه ليستصحبه معه • فذهب يوغورطة الى رومة ولم يمتنع عن الحضور أمام مجلس شيوخها بعد ما كان محاربا لجنودها • ولما بلغها وجد حوله دسائس شتى • ولكنه أبرع رجل يحسن العوم في مثل هذه اللجج • فتوصل الى استمالة نائب من نواب الشعب • ولما مثل بين يدي مجلس الشيوخ لم يكتف هذا النائب بالمحاماة عنه • بل أمره باحتقار التهم الموجهة اليه وعدم الاجابة عنها • وذلك لئلا يطالب بالبينة على صحة ما يقول • وهو ما لا يجده بحال •

لم يجد شيوخ رومة من استحضار يوغورطة ادنى فائدة • ولم يضره هو حضوره بل استفاد منه • وذلك أنه كان لعمه غولوسة ابن يدعى مصيفا ذهب الى رومة مطالبا بحقه في المملكة ، ومشاغبا عليه • فدس له من قتله بواسطة بوملكار • ونجا من تبعته أيضا • وسهل لبوملكار طريق الفرار •

بعد ذلك أمر يوغورطة بالخروج من ايطاليا • فقال عند خروجه من رومة كلمتـه الخالدة : « ان رومـة مدينة مباعة لمن يريـد

اشتراءها »[1] وزاد بنجاته من بطش رومة بعد ما مثل بين يديها جرأة وأصبح لا حد لاقدامه •

بقيت صدور الرومان وغـرة علـى يوغورطة • فأرسلوا الى ألوس — وكان قائدا بافريقية — يأمرونه بالهجوم على يوغورطة ، وأنهم لم يرتضوا الاتفاق الواقع بينه وبين بستيا • امتثل هذا القائد وهجم على يوغورطة • ولكن ذلك الهجوم أعقبه انهزام • فان يوغورطة هجم بجنوده على ألوس وجيوشه على حين غفلة وقد كان ألوس طامعا في فتح ستول (قالمة) وأخذ ما فيها من أموال يوغورطة ومؤنه وذخائره • خاب أمل ألوس وخضع ليوغورطة خضوعا شائنا لشرف رومة : إذ أجله عشرة أيام للخروج من نوميديا ، وأبقى جنده تحت الذمة • وذلك سنة (109) • واعتذر لخيبة ذلك القائد بأنـه كان ضعيف الرأي والوقت وقت شتاء • وارى ان ضعفه انما هو بالقياس الى يوغورطة ، والا فكيف تعتمده دولته لقيادة حرب ضد رجل لا تخفى عليها مهارته الحربية ؟

ساء رومة انكسار قائدها وبقاء جنودها تحت ذمة من كانت ترجو أن يكون تحت ذمتها • فعين شيوخ دولتها مكان ألوس أخاه ألبينوس • فلم يجد هذا القائد أيضا نفعا لعجزه أو جهله أو تقصيره •

بعد هذه الخيبات التي كل واحدة منها تربو على ما قبلها جد جد الدولة • فاختارت من بين رجالها رجلا مخلصا لدولته نزيها عن الرشوة عارفا بمهمته الحربية من أهل الطبقة العليا • هذا الرجل هو ميتلوس • وكان يوغورطة يعرفه ويعرف منه تلك الصفات • وكانت

---

(1) المباعة من اباع الشيء عرضه للبيع . وعلى هذا المعنى حمل قول الشاعر :

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

الدولة تريد باختيارها لهذا الرجل أن تغسل عنها عار تلك الانهزامات وتحافظ على شرف عظمتها وتؤيد سمعتها الرهيبة •

نزل ميتلوس عوتيقة • فوجد الجنود قد ساءت حالتهم الادبية وتمردوا عن الطاعة • فأخذ في تنظيمهم • وأراد يوغورطة — على معرفته به — أن يعجم عوده • فأرسل اليه يلاطفه ويداهنه • فلم تكن بضاعته هذه المرة رائجة لاخلاص ويقظة هذا الروماني • ولم يكن هو يعتقد رواجها فاستعد للحرب •

جمع يوغورطة بكل نشاط جنوده وقسمهم الى فرسان تحت قيادته ومشاة معهم الأفيال تحت قيادة بوملكار • وكان الجيش الروماني على قسمين أيضا : أحدهما برئاسة ميتلوس ، والآخر برئاسة مريوس •

في سنة (108) تقابل الجيشان بشمال تبسة ، بعدما استولى ميتلوس على باجة ، واشتد القتال من الجانبين • وأخيرا دارت الدائرة على يوغورطة • وشعر بعجزه عن مقاومة الرومان بالقوة • فجبر عجزه ذلك بقوة دهائه • وأخذ يتقهقر باتنظام نحو الصحراء والقفر • وعلم البربر ضربا جديدا في القتال لئلا يجر عليه تقهقره انهزاما عاجلا : أوصاهم بعدم الكف عن اقلاق الرومان بالغارات من دون انقطاع ، وان لا يصطفوا لهم بل يكونون جماعات متفرقة تكر إذا رأت في العدو غرة وتفر ان رأت الفر خيرا • ومن هذا الحين تعلم البربر حرب الكر والفر • وبهذا الاسلوب الحربي الجديد لم يتمكن لميتلوس أن يتمادى في انتصاراته على يوغورطة •

جبر يوغورطة انهزامه باختراع حرب الكر والفر • وصار يتأخر نحو الصحراء ، كي يبعد عدوه في القفر ثم ينقلب عليه فيشتت شمله • ولكن ميتلوس شعر بذلك • فلم يتتبعه • وبقي جيشه بشمال تبسة

مشتغلا بتخريب عمران البربر وافساد فلاحتهم وحصار المدن التي لم تخضع لقوتهم • وقد ثبت أهل زامة في مقاومة الرومان حتى أدركهم يوغورطة واجلاهم عنهم وفك حصارهم • ولم تثبت المدن التي احتلها الرومان في هذه الحرب تحت نفوذهم بل خرجت من قبضتهم •

ولما رأى ميتلوس ان قوته لا تجديه أمام دهاء يوغورطة ، وان انتصاره عليه لم يجن منه أي فائدة عدل عن الهجوم واختار أن يقابل دهاء يوغورطة بالخداع وان يأخذه بسلاح الخيانة • وكان الشتاء قد حل وحال بينه وبين أعماله التخريبية • فعاد الى الولاية الرومانية • وتفرغ لتدبير مكيدة ليوغورطة • فأرسل الى قائده بوملكار يطمعه في دولة ملكه ان هـو أعانه على خديعته • فحدثت بوملكار نفسه بخلافة يوغورطة في عظمته • وانخدع ليتلوس • وطابت نفسه بخيانة ملكه ووطنه • فأخذ يشير على يوغورطة بترك الحرب وطلب المفاوضة في الصلح حتى أثر عليه وتفاوض مـع الرومان • وتمت المفاوضة بالاتفاق على مواد الصلح • وأخذوا في تنفيذها • وكان منها تسليم عدد عظيم من الافيال والاموال والاسلحة ، ورد الفارين من الجيش الروماني • ونفذت هذه المواد • ثم صار ميتلوس يلح على يوغورطة في زيارة مركزه • وإذ ذاك شعر بالمكيدة واتضحت له خيانة بوملكار • فمثل به وقتله • وهكذا فليكن سلم الخيانة : لا يبعد صاحبه فيه المرتقى حتى يسقط على أم رأسه من غير أن يفوز بأمنيته •

ولما خاب ميتلوس في هذه السياسة ولم يقع بشركه قنصه عاد الى الحرب • واستأنف أعمال التخريب والتدمير • فذهب الى باجة وافتتحها من جديد ومثل بأهلها •

وفي سنة (107) هجم ميتلوس على نوميديا وفر أمامه يوغورطة الى قرطة • فلحقه وافتتحها • ففر يوغورطة الى الجنوب • ثم عاد

بأهله وأمواله الى تالة • فتحصن بها • فذهب اليه ميتلوس وأخرجه منها • فلحق بالجيتوليين وتحصن بهم • وأخذ في تنظيمهم • وأرسل الى صهره بوكوس — وكان ميالا للرومان — يستميله اليه • ففتل له في الذروة والغارب • وخوفه استيلاء الرومان على مملكته ان هم جاوروه بنوميديا • فجلبه اليه • وجعلا موعدا للملاقاة • فالتقيا واتفقا على حرب الرومان • فقصدا بجنودهما قرطة • وبلغ الخبر ميتلوس • فخرج منها • ونزل مركزا يليق للدفاع عنها وعن سائر نوميديا •

وفي هذا الحين بلغ ميتلوس ان مريوس رفعته الامة الى رتبة قنصل بافريقية • وأعطي رجالا وأموالا ليتمم حرب يوغورطة • فترك الجنود على حالها • وذهب الى رومة • ولم نزل أثناء سنة (107) •

جاء مريوس بطائفة من العساكر • ونزل عوتيقة • وانضافت جنوده الى الجنود التي بافريقية من قبل • فبلغ جيشه نحو خمسين ألفا • وباشر الحرب حينا •

لم يخرج ميتلوس من افريقية حتى أفسد بوكوس على يوغورطة فصار غير واثق بنصرته • فلما برز له مريوس لم يصطف له • بل استمر على حرب الكر والفر : يهجم بفرسان جيتوليا على الرومان حتى يصل الى مراكزهم ، ثم يعود الى أماكن بعيدة قبل أن يستعدوا لمقاومته • وفي هذا الوقت كان خط الصحراء جميعه تحت طاعته • ووضع أمواله وذخائره بقفصة • فعلم بها مريوس • فذهب اليها ودخلها وأخذ تلك الاموال والذخائر وأحرق المدينة •

كان غرض مريوس أن يلجيء يوغورطة الى الناحية الغربية لتكون قرطة تحت يده ويتخذها مركزا عاما للجيش • فلما احتل قفصة نال غرضه • وانتقل يوغورطة الى الناحية الغربية • فسار مريوس اثره

وحاربه بالزاب والحضنة وجبالهما شمالا وغربا • حتى أنه استولى على مدينة حصينة فوق جبل عال • وهي من قلاع البربر التي يحسنون وضعها على الكهوف الصعبة المرتقى • وكان بهذه المدينة بقية أموال يوغورطة • كل هذا وبوكوس على الحياد •

لما انتقلت الحرب الى الناحية الغربية أعاد يوغورطة خطابه لبوكوس في التعاون ضد الرومان • ووعده على نصرته ثلث نوميديا • فلباه والتقيا • واجتمع باتحادهما عدد عديد من الجنود بارزا بها جنود مريوس • واشتد القتال يوما كاملا • وأحاط البربر ليلا بالرومان • وأوقدوا النيران يغنون عليها ويرقصون واثقين بانتصارهم على عدوهم • وفي الغد أخذهم تعب السهر • فهجم عليهم الرومان في هذه الحال • وفتكوا بهم فتكا ذريعا • ومن نجا من الموت ركب متن الفرار •

ذهب مريوس الى قرطة بعد هذا الانتصار • فاعترضه البربر في الطريق • وهم من جنود يوغورطة وبوكوس • وانقسموا أربعة أقسام • ودامت المعركة بشدة ثلاثة أيام • وكانت غرب سطيف • وجاء صيلة لددا لمريوس • وأسفرت هذه الواقعة عن انتصار مريوس • فأتم سيره حتى دخل قرطة • كل هذا ولم تتم سنة (107) •

لم ير بوكوس انتصارا يشجعه وهو من رجال الاستغلال من أبطال الاستقلال • فأرسل رسله الى مريوس في طلب الصلح • ولما بلغوا قرطة وجههم مريوس الى رومة ليقدموا مطلب أميرهم الى مجلس الشيوخ • ووجه صيلة رسولا الى بوكوس • وبعد مسير صيلة خمسة أيام التقى في الطريق بفولوكس بن بوكوس الذي وجهه والده لملاقاة رسول مريوس •

لما وصل صيلة الى بوكوس وجد عنده رسولا من قبل يوغورطة • فأوجس في نفسه خيفة • ولكنه فاز بدهائه وجبن بوكوس على

رسول يوغورطة • واتفق هذا الرسول الروماني وذلك الملك البربري على خديعة يوغورطة • وتجدد بذلك دور ميتلوس وبوملكار • واذا كان يوغورطة قد نجا إذ ذاك فقد قدر عليه أن لا ينجو هذه المرة • ولا ينفع حذر من قدر •

ابتدأ دور الخداع بمراسلة يوغورطة بطلب الاجتماع للمفاوضة في الصلح • فلم ينس دور ميتلوس وبوملكار • وأراد أن يتوثق لنفسه • فأرسل الى بوكوس يجيبه الى المفاوضة بشرط تسليم صيلة له بصفة ضمان • فتردد بوكوس أياما بين أن يسلم صيلة ليوغورطة أو يوغورطة لصيلة • وأخيرا اختار — وبئسما اختار — أن يسلم ابن جنسه وبعل ابنته للرومان ترضية لهم • فاقتطع ليوغورطة عهودا على الامان • فانخدع له • وما كان لينخدع لمن هو أدهى منه لولا المصاهرة والجنسية •

اتفق الاثنان على الاجتماع بصيلة بشرط أن يكون الجميع مجردين من السلاح • ودس صيلة عساكر مسلحة • ولما اجتمعوا انهالت تلك العساكر على يوغورطة وأوثقوه ! ثم ذهبوا به الى مريوس • وذلك سنة (106) •

وفي أول سنة (104) ذهب مريوس الى رومة في أبهة النصر وأمامه يوغورطة بلباسه الملوكي موثقا بالاغلال • فأودع السجن الى أن مات به من شدة الجوع وكلب البرد ! •

وهكذا ختمت حياة بطل الحرب وداهية السياسة ورجل الاستقلال • شغل رومة مدة نحو سبع سنوات بحروب تعبت فيها تعبا شديدا • ولم تر منذ نزلت بافريقية حروبا تضاهي حروب يوغورطة التي اشتهرت في عالم التاريخ القديم حتى خصت بالتأليف • ولم تحصل من خوضها لغمرات هذه الحروب على طائل سوى أخذ شخص يوغورطة بالخديعة والخيانة •

وكما شغل هو رومة شغلته هي أيضا عن ترقية وطنه • فان ذلك الذكاء النادر لو وجد في عصره هناء مصيبسا لأربى عليه في رفع مستوى دولته من حيث العمران والحضارة ولحصن استقلالها بأكثر مما حصن به سلفه قرطة •

ليس في انتصار رومة على يوغورطة أدنى شرف لها أو ضعة نه • بل ما لها فيه إلا العار والشنار ؛ وما له منه إلا المجد والفخار •

وقد جلب بوكوس بمصافاته للرومان تكدير حياة البربر بالقضاء على زعيم استقلالهم وتشجيع الرومان على امتلاك وطنهم • ومن نظر خاتمة يوغورطة مع صهره وجده أحق الناس بقول الشاعر العربي :

واخوان حسبتهمو دروعا فكانوها ؛ ولكن للاعادي
وخلتهمو سهاما صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي

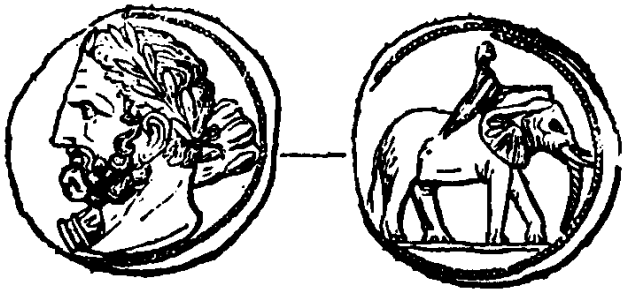

(ش ـ 8)
نقود الملك يوغورطة . وعليها صورة بطل

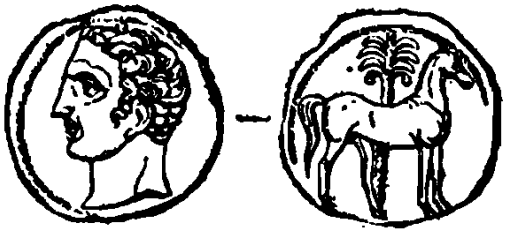

(ش ـ 9)
نقود الملك يوغورطة . وعليها رسمه

14 — غـودا (104 — 102)

غودا هو ابن منستابعل • وأخو يورغوطة • تولى الملك بعد اعتقال أخيه • وذلك أن رومة لم تجسر — بعد القاء القبض عـلى يوغورطة — على ابتلاع مملكته خيفة العجز عن الهضم وسوء المغبة • فأرجأت تملكها الى حين • وأخذت تمهد لذلك بتفرقة البربر على الأمراء ، واضعافهم بالفتن الداخلية التي تكثر بكثرة الأمراء •

وقد نجحت في هذه السياسة • فأصبح أمراء البربر مشاركين لرومة فيما يقع بها من الفتن الداخلية ، ومنقسمين على زعمائها : كل يؤيد زعيما برجاله وأمواله • فما من هول يقع برومة إلا وكان صداه بالوطن البربري حتى أن الزعيم الروماني الذي يكتب له الفوز هو الذي يكون له النجاح بافريقية الشمالية •

اقتضت تلك السياسة أن لا تتملك رومة مملكة يوغورطة ولا تدعها تحت أمير واحد • فقسمتها بين غودا وبوكوس صهره • وكانت نوميديا الاصلية نصيب غودا • وهي تنتهي غربا بصلداي • ولكنه لم يتمتع بها كثيرا إذ توفي بعد ذلك بقليل واقتسم ابناؤه مملكته •

جلس غودا على عرش نوميديا وهو شيخ كبير السن ولم تطل مدته ولا كان له في عنفوان شبابه عمل يشتهر به • ناهيك أنه لم يكن له ذكر في حروب أخيه • وهذا ما تركنا نجهل غودا ولا نعلم شيئا عن أعماله • بل ان عصره كان فاتحة عصـر مظلم • قال مرسيي : « وهذا العصر كله مظلم أمام المؤرخ لفقدان الوثائق التاريخية عنه » وغاية ما علم عن غودا أنه كان رجلا ضعيف الرأي مسالما للرومان خادما لمطامعهم • ومثل هذا هو الذي تقدمه رومـة للملك اضعافا للاحرار واخفاتا لصوت الوطنية •

15 — بوكوس الاول (104 — 80)

بوكوس الاول كان ملكا على موريطانيا الغربيـــة (مراكش) حوالي سنة (116) ومسالما للرومان • ولما كان يوغورطة يعلم منه ذلك ويعلم من نفسه عداوته لهم أراد أن يجلبه اليه قبل الشروع في تنفيذ برنامج عداوته • وقد نجح في ذلك فحارب بـــه الرومان بعد ما حذره اياهم ونفخ فيه نسما من روحه • ولكن « ليس التكحل في العينين كالكحل » فعاد أخيرا الى نصرة الرومان وأعانهم على القاء القبض على يوغورطة بالخديعة والخيانة • ولولاه ما أمكن الرومان أن ينالوا شيئا من يوغورطة • وقد ترك بفعلته تلك في تاريخه نقطة سوداء بل بحيرة حمئة • ويصعب علي الاعتقاد بانه شارك الرومان في بشاعة هذه الخيانة • ويظهر لي أنه كان قليل التدبير فانطلت عليـــه حيل صيلة واغتر به فغر غيره • وحينما شاهد الخيانة اغضى عنها ضعفا وجبنا •

وعلى كل حال فان رومة منحته — جزاء ذلك — جزءا كبيرا من مملكة يوغورطة ، وهو ما بين صلداي وملوشات ، اضافة الى مملكته القديمة • وأطلق على هذه الولاية الجديدة اسم « نوميديا الغربية » لانها كانت تحت ملك نوميديا • وعرفت نوميديا القديمة باسم « نوميديا الاصلية » •

وبهذه الولاية صح ان نعـــد بوكوس [1] بـــين ملوك الوطن الجزائري • وباضافتها الى مملكته القديمة أصبح ذا ممكلة واسعة تشمل ما بين صلداي شرقا • والمحيط الاطلنتيقي غربا • ورغما مـــن

---

(1) ذكر صاحب الرحلة الناصرية انه لما نـــزل بمسوار الريان تلقته قبائل عدد منها بوكيس (1 : 27) فيستفاد منه ان بوكيس من الاعلام البربرية التي لم تزل حتى العهد الاخير

هذا الانساع كله لم تكن له عزة نفس ونخوة ملك ، فيترفع عن خدمة الرومان الذين لا يزيده جبنه معهم وخدمته لهم إلا طمعا في الوطن البربري وخيراته •

بعد أن فعل فعلته الاولى عززها بثانية • وذلك أنــه حدث برومة شقاق بين مريوس وصيلة ففر الاول الى يرباص الذي أعانه على منافسه • فأرسل صيلة قائده بمبيوس [1] الى افريقية بجنــود كثيرة • وأعانه بوكوس بفيلق عظيم مــن فرسان موريطانيا تحت رئاسة غودا (قيل هو ابن بوغيد بن بوكوس وقيل حفيد بوغيد) وكان يرباص قد فر من بمبيوس • فاعترضه غودا وشتت جموعه • وأخيرا قتله •

وهكذا لم نر لبوكوس إلا اعانة للرومان على أبطال البربر الذين يأنفون من استعباد الاجنبي لهم ولقومهم •

وبعد أن ملأ صحائف حياته بمثل هذه الاعمال توفي في حدود سنة (80) وترك ولدين اقتسما مملكته •

16 — يرباص (102 — 81)

اختلف في اسم هذا الملك : فمنهم من سماه يرباص ، ومنهم من سماه هرتاص • وهو من أسرة يوغورطة • قال مرسيي : « والظاهر انه ابن غودا أخي يوغورطة » •

انتصب بعد وفاة غودا على نوميديا الوسطى • وكان — كبقية

---

(1) في ابن خلدون فمقيوس . وهو تصحيف مطبعي صوابه فمفيوس على قاعدة تعريب حرف p بحرف (ف) . والمعمول بــه اليوم تعريبه باء .

أمراء البربر — تحت سيادة رومة : يذهب اليها ، ويرسل أبناءه ليتعلموا بها • وتخلق بالاخلاق الرومانية • وصار يتكلم باللغة اللطينية • ويحافظ على الفنون الرومانية • ويشيد بالمدن البناءات الأنيقة • ويعتني بالفلاحة •

ومع كونه تحت سيادة رومة وآخذا من أخلاق أهلها وحضارتهم كانت غايته تهيئة الامة البربرية للاستقلال التام وطرد النفوذ الروماني من وطنها •

وفي مدته نازع صيلة مريوس على رئاسة رومة • فرأى مريوس أنه عاجز عن مقاومة خصمه ، وأراد أن يستعين بأمراء البربر • فوجه ولده الى هيمصال الثاني من ملوكهم يعرض عليه حمايته واعانته فلم يقبله ، لانه رأى نجاح صيلة برومة • فخشي عاقبة قبوله • إذ ذاك عاد الولد الى والده مريوس ، وأشار عليه بالفرار • ففر الى الولاية الرومانية بافريقية • ولكن واليها طرده • فبقي هائما بحدود نوميديا • ثم تمكن من الفرار الى قرقنة • وأخيرا أجاره يرباص • وقضى عنده شتاء سنة (88) •

كانت حماية يرباص لمريوس بعد اعراض هيمصال عنها سببا في انتشاب حرب بينهما انتصر فيها يرباص وطرد هيمصال من مملكته واستولى عليها • وبذلك أصبح مريوس منتصرا بافريقية ومنهزما برومة • وكانت أتباع صيلة تأوي الى عوتيقة • فأرسل ستة فيالق بقيادة بمبيوس لحرب مريوس • وتقابل الجيشان فانهزة مريوس ، وفر يرباص بطائفة من جنوده • وكان بوكوس قد وجه كتيبة من الخيل تحت رئاسة غودا نصرة لبمبيوس • فالتقى غودا بيرباص في الطريق وشتت جنوده • ففر الى عاصمته بولريجيا [1] وهجم بمبيوس

(1) هي حمام الدراجي جنوب طبرقة •

على نوميديا فحال دون انجاد أهلهـا لملكهم يرباص • فاضطر الى التسليم لغودا فقتله ! وذلك سنة (81) •

قد تدرك نباهة يرباص وحذقه واخلاصه لامته مـن حمايته لمريوس • ذلك أنه لم يكن يخفى عليه ضعف هـذا الرجل برومة وتشرده بافريقية • فكان تحزبه لـه لضرب من السياسة في صالح قومه : يريد أن يشاغب به على رومة ، وان اتيح له الفوز وجد غرضه معه أكثر مما يجده مع صيلة • فان الضعيف يرى الانتصار له مزية واحسانا ، والقوي يحسبه تملقا وهوانا • وإذ لم ينجح يرباص في سياسته فعندي انـه يكفيه ان مات ميتة شـريفة بانتصاره لحزب ضعيف من حزبي أعداء قومه ووطنه •

وبموته انقضت الفتن الداخلية بـين أمراء البربـر • ومدتها سبع سـنوات •

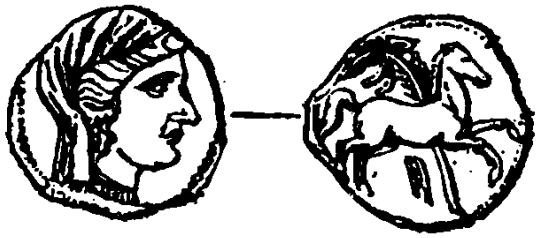

(ش — 14)
نقود الملك يرباص وعليها رسمه

17 — هيمصال الثاني (103 — 50)

هيمصال الثاني هو ابن غودا، وأخو يرباص علي الظاهر • انتصب ملكا بشرقي نوميديا بعد وفاة أبيه • ولعله كان يرى لـه الحق في الاستقلال بمملكة والده دون يرباص ، ويترصد الفرص لضم مملكة أخيه الى ما تحت يده •

فلما تنازع مريوس وصيلة انتصر للثاني لعلمه بقوته ورد طلب الاول وحبس الاول وحبس ولده فلم ينج الا بتدبير احدى جواريه • ولعله كان يرجو من تحزبه لصيلة ان يعينه على أخيه • فلما انتصر يرباص لمريوس رأى ان الوقت قد حان للاستقلال بنوميديا • فاشهر عليه حربا انجلت عن هزيمته • وأصبح صفر الكفين من الملك ، وأشبه في التدبير حنيناً صاحب الخفين •

ولما قتل يرباص وسقط حزب مريوس من رومة وافريقية معا اعادت رومة لهيمصال ملكه مضافاً اليه مملكة يرباص • ثم حدث بينه وبين ماصنتة (من امراء البربر) خلاف انهياه الى مجلس الشيوخ برومة • وكان له ولد يدعى يوبا فوجهه اليها نائبا عنه • ففاز على خصمه ومتّن الروابط بينه وبين بمبيوس •

وقد تقدم انه بموت يرباص انتهت الحروب بين امراء البربر فبقي هيمصال بمملكته هادئا مطمئنا مستعينا بابنه يوبا منشطا للفلاحة ناشرا للحضارة الرومانية محافظا على فنونها حتى توفي سنة (50) •

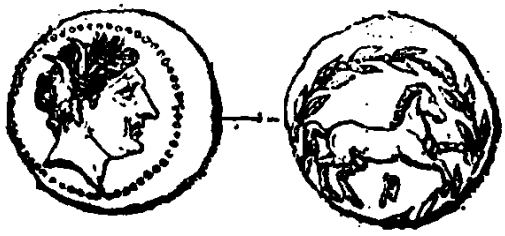

(ش – 15)
نقود الملك هيمصال وعليها رسمه

18 — ماصنتـه

هو أحد ملوك البربر • كان معاصرا ليرباص وهيمصال ، وعاش بعد يرباص • قال مرسيي ناقلا عن المؤرخ بول (Poulle) : « ان مع

هذين الملكين (يرباص وهيمصال) ثالثا يدعى ماصنته • كان على ناحية سطيف • وكانوا كلهم تحت نظر رومة • وكانت غايتهم جميعا تهيئة الامة لحكم نفسها بنفسها • وكان الجيتوليون مستقلين تحت سادات من عظمائهم » •

وعليه فان حكومة هؤلاء الثلاثة لم تتناول جهـة الصحراء • فالجيتوليون الذين كانوا خضعوا ليوغورطة ، وحاربوا معه الرومان لم يخضعوا لهؤلاء الملوك الذين خلفوا يوغورطة • وسر ذلك ــ فيما أرى ــ انهم لم يزالوا ممتنعين عـن التداخل الروماني • فخضعوا ليوغورطة لما رأوه عدوا للرومان ، وابتعدوا عن خلفه لما رأوا بهم سمة الانقياد لهم •

كان ماصنتة مجاورا ليرباص ولم يبلغنا شيء عن علاقتهما أكانت حسنة ام غير حسنة • وقد تقدم ان هذا الدور من التاريخ يعلوه قتام الخفاء • ومع ذلك يمكننا ان نحكم بأنهما كانا متسالمين • وذلك يدل على ضعف نفوذ رومة لديهما • لان أثر نفوذها يظهر في التفرقة بين الملوك واشغالهم بالفتن • ويؤيد حكمنا ذلك ان التاريخ قد أعلمنا بما كان بين يرباص وهيمصال من الحروب ، واعلمنا ايضا بما وقع بين هيمصال وماصنتة •

وذلك انهما لما تجاورا بعد قتل يرباص وقع بينهما خلاف • فترافعا الى مجلس الشيوخ • وذهب يوبا نائبا عن ابيه • وكان يوليوس قيصر مدافعا عن ماصنته • واشتد في دفاعه وتحمس حتى قبض يوبا من لحيته • وغضب يوبا من ذلك واسرها في نفســه • هذا ما امكننـا الوقوف عليه من حديث هذا الملك •

ولم نعثر على تاريخ ولايته ولا وفاته • وغاية العلم انه كان ملكا

فيما بين سنتي (88 و 81) ومحقق انه عاش بعد يرباص • وتولى الملك قبل سنة (88) •

19 — بوكوس الثاني (80 — 40)

كان بوكوس الاول ملكا على موريطانيا الغربية • وبعد يوغورثة اضيفت اليه موريطانيا الشرقية • وقد تسمى نوميديا الغربية • وكان له ولدان احدهما بوكوس الثاني هذا والآخر بوغيد الاول الآتي ذكره ولما توفي سنة (80) اقتسم الابنان مملكته • فأخذ بوكوس الثاني موريطانيا الشرقية • وهي ما بين صلداي وملوشات • ذلك الوطن الذي اخذه ابوه بالخيانة او الجبن والبلاهة •

اتخذ بوكوس الثاني عاصمة مملكته هاته يول (شرشال) • وكان — كبقية ملوك عصره — غير بعيد عن المعارك التي تقع برومة بين الزعماء • اذ قد وجد اوليك الزعماء في الوطن البربري ما يساعد كل واحد منهم • لان مرض المنافسة الذي كان يفتك بزعماء رومة كان يجري بدماء عظماء البربر أيضا • فكل حزب برومة يجد له عاضدا بافريقية •

افضت الزعامة برومة الى بمبيوس محارب يرباص • ونافسه يوليوس قيصر • وافضت المنافسة الى المحاربة • فانتصر قيصر برومة والاندلس •

وكان بالوطن الجزائري ثلاثة ملوك : يوبا بن هيمصال ومصانسيس وبوكوس الثاني • وكان مصانسيس متحدا مع يوبا • ويوبا هذا يبغض قيصر منذ حامى عن خصم ابيه برومة وقبضه من لحيته • فتحزب لبمبيوس • وهذا سبب نجاح البمبيين اولا في وطن البربر • فلما رأى قيصر ان ينقل الحرب الى افريقية وعلم ان البربر بها ضده

كاتب بوكوس واخاه يدعوهما لنصرته بالهجوم على مملكة يوبا • وقيصر هذا ابن اخي زوجة مريوس الذي كان بوكوس الاول اعانه على يوغورطة • فكانب هذه القرابة داعية لتلبية بوكوس الثاني لطلب قيصر • يضاف اليها داعي المنافسة بين ملوك البربر •

وسنرى فيمايلي تفصيل هجوم بوكوس على مملكة يوبا وانتصار قيصر وانتحار يوبا •

ولما نجح قيصر بعد معركة طبسوس سنة (46) جازى بوكوس الثاني على اعانته له بان اضاف له موريطانيا السطيفية •

ومن غير شك ان هذا الملك كانت له دولة راقية • فقد كانت أوسمة له يمنحها لاهل الاعمال الكبيرة في دولته • يدل على ذلك ان الباحثين عن الآثار عثروا على وسام به صورة بوكوس الثاني راكبا فرسه ، وهو مجد في عدوه ، وبيمينه قضيب يسير به فرسه كيف شاء ، وبشماله آلة الرمي [1] •

مملكة بوكوس هذا كلها مشتراة من ملوك النوميديين بخيانة ابطال الاستقلال البربري • وكما أن أباه رزأ البربر يوغورطة رزأهم هو ــ ومن يشابه أبه فما ظلم ــ يوبا •

20 ــ يوبا الاول JUBA I (50 ــ 46)

يوبا الاول هو ابن هيمصال الثاني • اعتنى به والده • فارسله الى رومة حيث تعرف الى الحضارة الرومانية في منبعها • وكان له

---

(1) هذه الهيئة في ركوب الخيل معروفة لفرسان نوميديا . فاما ان يكون الموريطانيون اخذوها عنهم لما بينهم من الجوار ، واما ان يكون الجميع سواء في هذه الهيئة وانما اختص النوميديون بالشهرة فقط .

شغف بالحروب • فحفظ لذلك من السقوط في مضار الحضارة ، وعاش حربيا شجاعا •

كان هذا الملك ينطوي على مثل ما انطوى عليه سلفه مصينيسا ويوغورطة من الاستقلال بالوطن البربري وطرد النفوذ الروماني منه• فاستعد لتحقيق أمنيته بتنظيم الجيوش وتدريبها • وكان بهذا الوطن شذاذ من امم مختلفة يؤجرون انفسهم في الحروب ، ورجال من الرومان نفتهم الاحزاب المضادة لهم المتغلبة على أحزابهم • فاتخذ منهم يوبا جيشا منظما يكون مثالا للبربر في النظام العسكري •

لم يلبث هذا الملك ــ بعد تبوإ عرش مملكته ــ الا قليلا ودخل في حروب طاحنة ختمت بانتحاره • وذلك ان بمبيوس صديق والده كان رئيس الجنود الرومانية التي لنظر مجلس الشيوخ ، وظهر يوليوس قيصر في مظهر السيد المستبد ، وحاول ان يسقط الجمهورية الرومانية ، فنشبت الحرب بينه وبين بمبيوس • وقد عرفت ان كل اضطراب يقع برومة يكون صداه بافريقية •

تغلب قيصر على بمبيوس وانتزع منه ايطاليا • ففر فاروس (احد ضباط بمبيوس) الى افريقية ومعه جنوده • واعلن التشيع لبمبيوس واخذ في اصطناع يوبا • فلم ينس هذا الملك صداقة بمبيوس لوالده ولا عداوة قيصر له ولا اضاع عليه فرصة انشقاق الرومان لتنفيذ برنامجه الاستقلالي • ففعل فعل عمه يرباص وانتصر للحزب المغلوب بايطاليا •

وفي سنة (49) وجه قيصر الى افريقية من ضباكه كريون • وكان عدوا شخصيا ليوبا • واقترح على مجلس الشيوخ ان ينتزعوا من يوبا مملكته التي ورثها من ابيه • واعلنت شيعته برومة ان يوبا عدو لجميع الرومان •

نزل كريون بالولاية الرومانية • ودارت بينه وبين فاروس مناوشات الجأت فاروس الى الفرار الى عوتيقة (بوشاطر) فحاصره كريون بها • وساءت حالة البمبيين • فجاء يوبا بجنود كثيرة نجدة لهم وعملا لفائدة الاستقلال البربري • ففك الحصار عن عوتيقه • وفر كريون الى احد المعاقل وتحصن به •ثم اشيع ــ لاخراج كريون من حصنه ــ انه ثارت ثورة بمملكة يوبا وانه ذاهب لاخمادها • وترويجا لهذه الاشاعة تأخر يوبا بجنوده وافياله • ولم يترك منهم الا قليلا تحت قيادة قائده صبورة • فتقدم هذا القائد بجنوده القليلة الى حصن كريون • فتسلل كريون من حصنه ببعض جنده • وكان عنده أسرى نوميديون • فايدوا له خبر ذهاب يوبا الى مملكته • والتقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي • فهجم عليهم من غير احتراز بناء على اعتقاده ذهاب يوبا • وتأخر النوميديون امامه تأخرا نظاميا : يناوشونه الحرب ثم ينهزمون • وما زالوا معه كذلك حتى قربوا مكانا كمن به يوبا • وادرك كريون ومن معه التعب من جراء فعل النوميديين ذلك • فما هالهم الا احاطة جنود يوبا الكثيرة بهم من كل ناحية • وكان بجنود يوبا الفا فارس من الاسبان والغاليين • فلم يجد كريون ــ والحالة تلك ــ غير الاصطلاء بنار يوبا • فاشتد القتال • وانتهى باستئصال جنده واخذ رأسه الى يوبا • وذلك في العشرين من يونيه سنة (49) •

تعزز يوبا بهذا الانتصار ورأى انه قد اتيح له ان يعلن بسيادة البربر الوطنيين على الرومان الغرباء • فعاد الى عوتيقه عاصمة الولاية الرومانية • واظهر عظمته على الرومان حتى البمبيين انفسهم • وصار كثيرا ما يقدم نفسه للسيادة عليهم وعلى جنودهم ، ويتخذ الجميع كآلة بيده • ويحتج لسيادته بانه هو الذي قتل كريون وجنوده ،

ولولاه لذهب أثر البمبيين من افريقية كما ذهب من ايطاليا • وزاد في قوة حجته وتأييد سيادته انه غني جدا وصاحب الكلمة النافذة في وطنـــه •

وقد بلغ من استعلائه على البمبيين ان سبيون رئيسهم جاءه يوما لابسا حلة حمراء مطرزة بالذهب ــ وهذه الجبة من شعار الملوك اذ ذاك ــ ليظهر ليوبا عظتمه • فأنف منه ، وأمره بانتزاعها ولبس البياض فلم يسع سبيون الا الامتثال •

كان بمبيوس لما انهزم بايطاليا ذهب الى مصر • ولما بلغ الاسكندرية دس اليه بوثان [1] من قتله • ولكن شيعته لم يحل من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بافريقية • وتلاحق اليها من عظماء هذا الحزب ميتلوس• سبيون ــ وهو صهر بمبيوس غـير سبيون الافريقي وسبيون الاميلي ــ فبلغها سنة (48) ثم قاطون سنة (47) •

ولما دخل قاطون عوتيقه وجد سبيون وفاروس مختلفين على رئاسة الجند ، كل يريدها لنفسه • ووجد يوبا مستعليا عليهما وجالسا بينهما كما هي عادة الملوك•فلم تسمح له نفسه بمشاهدة هذا المنظر المزري بجنسه • فرفع الكرسي ووضعه الى جانب سبيون بحيث يكون وسطا ويبقى يوبا طرفا • واراد بهذا الفعل إشعار يوبا بان السيادة للرومان• ثم وحد بين سبيون وفاروس •

بعد ذلك تفرغ البمبيون لتنظيم شؤونهم • ولم يتأخر يوبا عـن اعانتهم • تفاوضوا اولا فيمن يخلف بمبيوس لرئاسة حزبهم وتدبير حربهم • واتفقت كلمتهم على تقديم سبيون لهذا المنصب فتهيـأ للحرب • وجمع اربعين الف جندي وخيلا كثيرة اركبهم العبيدوالموالي•

---

(1) بوثان رجل قائم بشؤن بطليموس الثاني عشر واخته كليوباطر .

وامدهم يوبا باربع فرق منظمة تنظيما رومانيا • فيهااثناعشر الفجندي وخيل كثيرة • وامدهم أيضا برجال كثيرين من البوادي غيرالمنظمين و (120) فيلا • وتولى سبيون نفقات جميع جنود يوبا ودفع مرتباتهم•

يوبا ــ وان اعان البمبيين ــ لم يكن مخلصا لهم • فأخذ يشير على سبيون بما يبغض الرومان الى البربر لئلا يكون لاجنبي نفوذ بوطنه على قومه • فاشار عليه بجبر سكان الولاية الرومانية علـى تسليم حبوبهم لتموين الجند وجبر التجار منهم على تقديم الاموال • فنفذ اشارته بصرامة حتى انه خرب لذلك مدنا كثيرة •ثم اشار عليه بتتبع المتشيعين لقيصر حتى المتهمين بالتشيع : باستئصالهم وقتل ذريتهم ونسائهم • وكان جل مـن بعوتيقه قيصريين • ولكن سبيون تفطن هذه المرة للدسيسة • فدافع يوبا بان هذا عمل يغضب الرب • ولو استرسل سبيون في غفلته وعمله باشارات يوبا لثارت عليه العاصمة (عوتيقه) ، واشتغل الرومان بعضهم ببعض ، وتفانوا • فتبقى الولاية الرومانية ليوبا غنيمة باردة • وذلك ما كان يأملـه لتحقيق غايته الاستقلالية •

بلغ الخبر الى رومة بقوة سبيون ويوبا • فدخل الرعب قلوب القيصريين •ولكن قيصر رأى ان يتمم انتصاراته بنقل الحرب الـى افريقية •

واذ قد ارتأى هذا الرأي فهو مضطر للاستنصار بملوك البربر • وقد علم ان يوبا مصانسيس ضده • فكاتب بوكوس الثاني وبوغيد الاول ليشغلا له يوبا •ووعدهما اقتسام مملكته • فكانا له على يوبا •

في منتصف اكتوبر سنة (47) توجه قيصر الى افريقية على طريق صقلية • ونزل بنواحي قليبية من عمالة تونس • وعند نزوله عثر فسقط على الارض فقبضها ونادى ــ خشية الطيرة التي تضعف من

عزائم جنده ــ : « افريقية ! قد قبضتك » • ونزل معه من الجنود نحو (3000) مشاة و (150) فارس • وتأخر بقية الجند في البحر •

لما نزل قيصر جد سبيون في تجنيد بربر الولاية الرومانية • فوجد قلوبهم منحرفة عنه لعسفه وجوره وتعديه على اموالهم • ورومان هذه الولاية متشيعون لقيصر لان عمته كانت تحت مريوس غـالب يوغورطة • فلم تبق لسبيون ثقة في أهل الولاية الرومانية من بربر ورومـان •

هنالك اضطر لمفاوضة يوبا على الوجه الذي يهواه • فطلب منه النجدة على ان يترك له افريقية متى انتصر ويعود بالرومان الى ايطاليا • فلم يشك يوبا في انه قد اشرف على تحقيق غايته • فاعانه بفرسان نوميديا الذين لهم شهرة من ايام حنبعل ، وبالافيال الكثيرة • وكانت جنود يوبا هي عمدة سبيون •

في نوفبر هذه السنة وقعت المعركة الاولى بين قيصر وضباط سبيون •وأحيط بقيصر فكاد يؤسر • ولكنه نجا بدهائه وسار نحو مركزه • فلحقته طائفة من فرسان نوميديا جاءت بعد المعركة • وعددها (1100) فلم يخلص منها الا بعد اللتا والتي • ورأى ان هذه المعركة على شدتها ليست من الاهمية بمكان لغيبة شخصي يوبا وسـبيون عنها • فاهتم من بعدها وحصن مركزه •

كان لبمبيوس ولد صغير لحق بافريقية • فاخذ قاطون ينفخ فيه روح الغيرة ، ويستثير حميته بذكر تاريخ والده وجلائل اعماله • واشار عليه بالسير الى بوكوس حليف قيصر• فتوجه الولد اليه في الفي جندي تقلهم ثلاثون سفينة برسم الكف عن مملكة يوبا وعدم اشغاله عنهم • ولما نزل بالشاطىء وأخذ يتقدم نحو العاصمة احاط به البربر واوسعوه

شتما وفتكوا بمن معه • ونجا ببعض جنوده ، فركب سفنه ، وعاد خائبـا •

وكان قيصر في حال سيئة • فاستمال رجلا ايطاليا يدعى ستيوس الى نصرته • وكاتب بوكوس واخاه بوغيد يعلمهما بان يوبا سيذهب الى حربه ويخلو لهما وجه مملكته • ويشير عليهما بالهجوم اذ ذاك •

علم يوبا بحرج موقف قيصر • وخفي عليه ما دبره مع ابني بوكوس الاول • فلم يكتم سروره بضعف عدوه • ورأى انه قد قرب اليوم الذي يتمتع فيه بوعد سبيون • فجمع جنودا كثيرة وخيلا وفيلـة • واخذ يجول بها في البوادي والناس تنضاف اليه حتى كان قريبا من المنستير (بتونس) •

وفي هذه الاثناء ذهب ستيوس الى بوغيد مستعينا به • واتحد مع بوكوس • وهجما على مملكة يوبا • وفتحا قرطة بعد حصار لم تطل مدته • وفتحا أيضا حصنا (غير معلوم لدى المؤرخين) به مؤن يوبا وذخائره واسلحته • واستأصلا سكان مدينتين من مدنه • وصارا يهددان بقية مدن نوميديا وباديتها • ولا يشاهد بها الا النار والدم •

بينما يوبا في زهوه وسكره برائحة خمرة الانتصار اذ بلغه ما حل بمملكته • فتوجه في الحين وأغذ السير لادراك اهل مملكته • واخذ معه كل ما اعان به سبيون من رجال وخيل وفيلة • ولم يترك له الا ثلاثين فيلا غير مهذبة ولا مدربة •

ضعف سبيون بعد ذهاب يوبا عن مقاومة قيصر • فارسل اليه يستحثه في اللحاق به • ويؤكد له وعده السابق • فلم يجبه الى طلبه لاشتغاله بدفاع الهاجمين على مملكته • وقد يكون من غرضه ان يدع الرومان يتهالكون • ثم يرجع على الغالب منهـم فيحاربه • ويظهر

الوطن البربري من الرومان • ولكن سبيون ألح عليه حتى رحمه • وترك قائده صبورة لمقابلة ستيوس وبوكوس •

عاد يوبا الى سبيون بألف ماش وثمانمائة فارس وثلاثين فيلا • ونزل في العشرين من دجنبر بجيشه خلف جيش سبيون • وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين •

وفي يناير سنة (46) فر الى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين • وبلغ عددهم الفا • وسبب ميلهم الى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال • واعادها عليهم مريوس بعل عمة قيصر • ثم تتابعت عدة وقائع كانت خاتمتها واشدها واقعة طبسوس[1] في هذه الوقعة تفاقمت الاهوال واشتد القتال • وانتهت بفوز قيصر وفرار اعيان حزب بمبيوس •

ذهب يوبا بعدها الى مدينة زامة • وكان اتخذها عاصمته الثانية • • نقل اليها ــ لما عزم على حرب قيصر ــ نساءه وذريته وامواله وجمع ببطحانها حطبا كثيرا • واقسم ايمانا مغلظة : لئن غلبه قيصر ليحرقن بذلك الحطب اهل المدينة ثم اهله ونفسه • فلما بلغها اغلقوا في وجهه الابواب مخافة ان ينفذ فيهم ايمانه •

اظلمت الدنيا في وجه يوبا • وضاقت عليه الارض بما رحبت • فصنع وليمة اكثر فيها من الاكل وشرب الخمر • ثم تحامل على سيفه ليريح نفسه من عناء الدهر • فلم يستطع الثبات على ذبابة السيف لغلبة الخمر عليه • فأمر أحد عبيده بقتله فقتله !

---

(1) طبسوس مدينة على شاطىء البحر براس ديماس (بتونس) يليها برا بحيرة صارت بها كجزيرة اذ لم تبق الى المدينة الا مسلكين ضيقين وهي من تأسيس الفينيقيين . ولم تخرب الا على عهد الفتح العربي . ومكانها اليوم موضع حراثة .

وهكذا انتهت حياة يوبا بعد ما كاد يحقق غايته ويطرد الرومان من افريقية • وعلى قلة ايامه واشتغاله بالحروب كانت له دولة عظيمة وضرب السكة باسمه • وبلغ من عظمته ان صار لا يحفل بالرومان • على انه جاء بعد ما انهكت وطنه الحروب الداخلية ، وتقاسمه امراء متعددون • قال بعض مؤرخي الافرنج : كان النوميديون اذ ذاك على غاية من الحضارة • وحالتهم احسن من حالة أهل الجزائر على عهد الاحتلال الفرنسي » •

بقي صبورة يحارب ستيوس وبوكوس بعد انتحار ملكه حتى قتله ستيوس في معركة من المعارك • وشاءت الاقدار ان لا يبقى بعد ملكه للهوان والصغار •

21 — مصانسيس MASANASSES (50 — 46)

مصانسيس كان ملكا على قسم سطيف من نوميديا • ولا ندري الوجه الذي ورث به الملك على هذا القسم بعد ماصنتة •

لما دخل يوبا في حرب قيصر كان هذا الملك معينا له على حربه واعلاء شأن وطنه باضعاف النفوذ الاجنبي او ازالته •

ولما انتصر قيصر على خصومه بافريقية اقتسم مملكتي يوبا ومصانسيس على انصاره : القسم الشرقي من نوميديا جعله مستعمرة رومانية • واطلق عليه اسم «افريقية الجديدة» او «نوميديا الحديثة» هذا القسم واقع شرقي قسنطينة • ويشمل قالمة وعنابة • ومملكة مصانسيس منحت لستيوس • وهي عبارة عن قرطة وروسفاد وشولو وميلوم وتوابعهن • ومن ههنا تعرف ان قول المؤرخين : مصانسيس ملك على قسم سطيف ، مرادهم به ما يشمل هذه الولايات الاربع لا

خصوص موريطانيا السطيفية • ووسع في مملكة بوكوس الثاني باضافة موريطانيا السطيفية اليها • وهي ما بين مساغا وصلداي • وجازى بوغيد الاول بان اعطاه القسم الغربي من نوميديا •

هكذا وزعت مملكتا يوبا ومصانسيس على ثلاثة اقسام : قسم جعل مستعمرة رومانية وقسم اضيف لملكي موريطانيا الغريبين لانهما ليسا نوميديين ولكنهما على كل حال بربريان • وقسم جعل وسطا بينهما جغرافيا وسياسيا وهو الذي منح لستيوس • فان هذا الرجل ليس بربريا بل هو ايطالي لكنه يعمل لنفسه لا للرومان •

وسياقة خبره انه كان جنديا وترقى الى أن صار واليا ثم عزل • فاغضبه العزل • واخذ يسعى في جمع اللصوص والمتشردين من ايطاليا واسبانيا • فكون جيشا تحت طاعته • وصار يؤجره لمن يحتاجه من الملوك في حروبهم • وكان منصور الراية • فاشتهر ذكره وطار في الآفاق صيته • فربحت تجارته • وجمع اموالا كثيرة اشترى منها سفنا • وصار يشتغل بالقرصنة يغزو المراسي وينهبها • ولم تخف مكانته على قيصر • فراسله طالبا منه اشغال يوبا عنه • ووعده ببعض مملكته •فاجاب الطلب ، وقضى له بالغلب • ونال من ذلك الارب • فبقي اميرا بمملكة مصانسيس حتى اغتاله عرابيون كما سيأتي•

22 — بوغيد الاول (46 — 44)

بوغيد الاول هو ابن بوكوس الاول • انتصب ملكا بموريطانيا الغربية بعد وفاة ابيه سنة(80) واعان قيصر على يوبا •فمنحه القسم الغربي من نوميديا •وبذلك دخل بوغيد ضمن ملوك البربر في الوطن الجزائري غير انا لم تتحقق المراد بالقسم الغربي من نوميديا • وفي مرسيي : ان يوبا كان ملكا على نوميديا الشرقية والوسطى ، وان مصانسيس كان

على قسم سطيف من نوميديا ، وان القسمين الاولين جعلتا مستعمرة رومانية ، وان مملكة مصانسيس منحت لستيوس ، وان قسم سطيف الحق بموريطانيا الشرقية ، ومراده انه اضيف لبوغيد على ما يفسره قوله في موضع آخر • واذن فقسم سطيف هو المراد من نوميديا الغربية • وفي غروت : ان بوكوس الثاني أخذ موريطانيا السطيفية •

في هذه الاقوال ضرب من الاجمال لم نجد ما يفسره من الانقال • ولكن اذا استعنا بالمفسر على المبهم سهل علينا فهم بعض ما لم نفهم • ذلك ان مستعمرة الرومان قد علمت انها تشمل قللة وعنابة • فتكون هاتان العمالتان حد نوميديا الوسطى غربا ، وان مستعمرة ستيوس قد علمت حدودها ايضا • فما بقي من نوميديا غربا قسم بين الاخوين بوكوس وبوغيد • وهو ما عبر عنه غروت بموريطانيا السطيفية • وعبر عنه مرسيي مرة بقسم سطيف ، واخرى بالقسم الغربي لنوميديا• ويكون قول غروت : بوكوس أخذ موريطانيا السطيفية لا يعني به جميعها • هذا ما امكننا فهمه من ذلك الاجمال والاضطراب بعد العجز عن ايجاد شرحه في أي كتاب ••

كان قيصر يريد اسقاط الجمهورية • فكان الجمهوريون ضده • فبعد ما غلبوا بايطاليا ثم افريقية ذهب من بقي منهم الى اسبانيا ومعهم من امراء البربر عرابيون ابن مصانسيس • فذهب قيصر الى حربهم • وبقي برغيد معينا له هنالك أيضا • ووقعت حروب بينه وبين الجمهوريين من شيعة بمبيوس • واخيرا انتصر عليهم في منده من بلاد اسبانيا سنة (45) • وتوفي بوغيد سنة (44) •

23 — عرابيون

عرابيون هو ابن مصانسيس • لما قسم قيصر مملكتي والده ويوبا

على ما سبق بيانه ذهب هو الى الاندلس • وبها شيعة بمبيوس • فجمع هنالك جيشا من اللصوص واشتغل بالحرابة زمنا • ثم ازداد جيشه قوة وازداد هو مهابة • فقاتل قيصر هنالك •

وفي سنة(44) توفي قيصر وبوغيد عدوا أبيه• فرأى أن الوقت مناسب لاسترجاع مملكة والده • فعاد الى وطنه بمن معه من الجنود • وجمع اليه شيعته من النوميديين • وبعث منهم بطائفة الى بمبيوس الصغير ليعلمهم حسب الانظمة الرومانية • ومن غير شك ان النوميديين استبشروا بعوده اليهم لانهم صاروا تحت احانب عنهم في الوطن او في الجنس والوطن جميعا •

خلف بوغيد ابنه بوكوس الثالث • ورأى عرابيون ما له من الجنود ، فعزم على حرب بوكوس لينتزع منه نوميديا السطيفية [1] • وكان بوكوس غريبا عن محكوميه فاستنجد بوكتافيوس المستبد برومة بعد قيصر • فلم ينجده لاشتغاله بتثبيت قدمه برومة •

تحارب الملكان البربريان ، فكانت الخيبة نصيب بوكوس • واسترد عرابيون منه نوميديا السطيفية • وبقي له ستيوس •فدبر له مكيدة نجح فيها فقضى على حياة هذا الايطالي المتملك على البربر • واسترجع بذلك جميع ما كان يملكه ابوه • ولكثرة الفتن برومة بين الجمهوريين والقيصريين ذهب دم ستيوس هدرا • ولم يتوجه على عرابيون من الرومان ادنى بحث او مسؤلية •

في هذه المدة كان الوالي بافريقية القديمة كورنفسيوس • واعطيت نوميديا الحديثة لوكتافيوس • فوجه اليها عامله سيكتيوس • وطمع في الاستيلاء على افريقية القديمة أيضا • فوقعت الحرب بين الوالي

---

(1) نوميديا السطيفية هي المعبر عنها احيانا بموريطانيا السطيفية .

والعامل • وخاطب كلاهما عرابيون مستنجدا به • فتريث في الاجابة مفكرا في أي الرجلين أوفق بسياسته • ثم رأى ان الاصلح له اجابة وكتافيوس فانضم له •

وبينما كورنفسيوس محاصر لقرطة اذ بلغه ان عرابيون انتصر وكتافيوس • ففشل وغادر قرطة فارا الى ولايته • ولحقه عرابيون • وتلقاه سيكستيوس شرقا • فانحصر بين عدوين • وأمعن عرابيون في جنوده قتلا • فلم ينج منهم الا القليل •

دخل بعد هذا الانتصار سيكستيوس افريقية • وعاد عرابيون الى مملكته بغنائم قيّمة • وقد يكون توسع في نوميديا الحديثة • وفي سنة (43) اصطلح وكتافيوس وانطونيوس • وتشكلت حكومة رومة من رؤساء ثلاثة • هذان الاثنان وليبيدس • وبقيت افريقية تحت وكتافيوس ولكنه عزل سيكستيوس وعوضه بفانغو •

وفي سنة (42) اقتسم الرؤساء الثلاثة المملكة الرومانية من جديد • فاخذ انطونيوس افريقية الاصلية • واخذ وكتافيوس نوميديا والجهات الغربية • فكلف سيكستيوس بالنيابة عن انطونيوس في افريقية ، وفانغو بالنيابة عن وكتافيوس في نوميديا الحديثة •

ولسوء ادارة فانغو ثار عليه البربر وامدهم عرابيون • ولكن فانغو انتصر عليهم ففر عرابيون الى سيكستيوس • وطلب منه فانغو تسليمه فلم يسلمه • فهجم على افريقية وعاث فيها فسادا • فدافعه سيكستيوس، واعانه عرابيون والنوميديون، فكانت الهزيمة على فانغو •

وبعد هذا خدع سيكستيوس عرابيون وقتله غيلة• فمن المؤرخين من قال : قتله لانه كان قد أعان وكتافيوس على انطونيوس ، ومنهم من قال : لانه كان يخشى نفوذه ويغار منه • وليس الجمع بين الامرين بمعتذر •

غضب فرسان نوميديا لقتل عرابيون • فذهبوا الى فانغو واغروه بسيكستيوس فتحارب هذان العاملان • ولكن فانغو غلب فقتل نفسه• واصبح سيكستيوس هو الوالي الوحيد بافريقية الاصلية ونوميديا الحديثة • قال مرسيي : «وربما ضم اليه ماكان تحت ملك عرابيون» •

كان عرابيون عاملا جريئا مفكرا داهية شجاعا مقداما صاحب آمال كبيرة : ينوي اخراج الرومان من نوميديا • ولكن لم يساعده القدر • وسلك سبيل غيره من عظماء البربر • فذهب ضحية الاستقلال قبل ان يحقق تلك الآمال • وهكذا اتخذ عظماء الرومان قتل الاحرار سبيلا لترضية جشعهم في الاستعمار • وكان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا الذين وقفوا في وجه الاستعمار الروماني واوقفوا سيره •

24 — بوكوس الثالث (44 — 33)

بوكوس الثالث هو ابن بوغيد الاول • جلس على عرش الملك بعد وفاة ابيه • وانتزع منه عرابيون نوميديا السطيفية •

وفي سنة (40) توفي بوكوس الثاني • وورثه ابنه بوغيد الثاني • وكانت الحرب بالاندلس بين وكتافيوس وانطونيوس • وكان الاول عدوا لبوكوس الثاني صديقا لبوكوس الثالث • فألح انطونيوس على بوغيد الثاني في اعانته على عدو أبيه • فذهب سنة (38) الى الاندلس بجيوش كثيرة نصرة لانطونيوس • وبغيبته اختل نظام مملكته وقامت بها الثورات •

شاهد بوكوس الثالث ما حل بمملكة ابن عمه ، فوثب عليها وملكها• ولما عاد بوغيد من الاندلس لم يجد سبيلا لاسترجاع ملكه ، فذهب الى الاسكندرية ــ ومصر اذ ذاك تحت يد حليفه انطونيوس ــ فولاه هنالك اعمالا جليلة ، وتوفي بمدينة ميطون •

اصبح بوكوس ملكا على موريطانيا الشرقية والغربية • قال اغسال :

« وهذه المملكة عبارة عما بين جيجل شرقا ، والمحيط الاطلانتيقي غربا » ولم تتدخل رومة فيما وسع به بوكوس مملكته لمكانة من وكتافيوس • وانتقل بعد هذه التوسعة الى يول (Yol) وجعلها عاصمة ملكـه • واستقر بها الى أن توفي سـنة (33) ولم يترك عقبا • قال مرسيي : وكانت مدته ــ بصفة اجمالية ــ مدة هناء ، أو نقول : ان عصره غير متضح للمؤرخ •

كان بوكوس هذا خاتمة أسرة بوكوس الاول الذي وسع مملكته على حساب ملوك نوميديا • كما كان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا •

وهكذا تقارب زمن انقراض هاتين الاسرتين اللتين تولتا ملك البربر حقبا . وقضى عليها التنافس •

25 — يوبا الثاني «25ق ــ 23م»

يوبا الثاني[1] هو ابن يوبا الاول • أخذ الى رومة بعد انتحـار والده • ونشأ بها • وفي سنة (30) ق•م توفي انطونيوس • وكان متزوجا بكلابطرة أخت بطليموس الثاني عشر • وله منها بنت تـدعى كليوباطر سيليني • وقام وكتافيوس بكفالة ابنائه فزوج هذا البنت من يوبا وولاه مصر •

وفي سنة (25) ق•م أو قبلها ولاه على نوميديا بصفة امير نائب • ولا يعلم نفوذه بقرطة والمدن المحالفة لها • والمظنون انه ضعيف لان تلك المدن المتحالفة كانت لها امتيازات على باقي مستعمرات رومة• وكان نفوذه الفعلي بنوميديا الحديثة • والظاهر انه احسن ادارتها ووطد فيها دعائم السلم • يدل لذلك ان وكتافيوس نقله فما بعد الى موريطانيا • واضاف

---

(1) سماه في تحفة الزائر 14:1 جوبا الروماني وليس بروماني وانما هو روماني النزعة . وفي المغرب ص 82 : « وجزيرة جوبا قبل مرسي بجايه » فلعل هذه الجزيرة منسوبة الى يوبا هذا .

نوميديا الحديثة الى افريقية الاصلية • ووجه الدلالة ان الرومان كانوا يخشون ثورات البربر • فلا يلحقون بمستعمراتهم التي تحت تصرفهم الفعلي الا الاوطان التي ذللها الحكم وعبدها التمدن حتى صارت عاجزة عن الثورات •

وكان الجيتوليون مستقلين تحت عظماء منهم، فتقرب اليهم الرومان اولا بالملاطفة • وعقدوا معهم معاهدات ، وعدوهم حلفاء مستقلين • قال مرسيي : « وتلك خطوة اولى لاخضاعهم » ومع ذلك فقد كانوا كثيرا ما يهجمون على الجهات الشمالية • وفي سنتي (29) و (21) دافعهم ضابطان رومانيان • وقهقراهم الى القفار • ووقعت بينهم وبين يوبا عدة وقائع كانت جيوشه فيها منهزمة حتى استعان بالرومان • واذ ذاك اهتموا بهم وحاربوهم الى ان انتصروا عليهم وقطعوا جرثومة ثوراتهم سنة (6 م) •

في سنة (17) ق•م نقل وكتافيوس يوبا من نوميديا الحديثة • واضافها الى ولاية افريقية • وجمعتا تحت وال واحد الى نظر مجلس الشيوخ • وعوضه عنها بالموريطانيتين وبعض المراكز الجيتولية • فأصبحت له مملكة مترامية الاطراف • حدها الشرقي جيجل او بجايه ، والغربي المحيط الاطلانتيقي ، والجنوبي الصحراء •

نزل من مدن هذه المملكة يول ، واتخذها قاعدة • وسماها قيصرية وتولى ادارتها بحسن تدبير • وكانت هذه المملكة قبل لبوكوس الثالث• فلما توفي قدم اليها وكتافيوس نفسه • واضافها الى رومة • وبقيت تحت نفوذه مباشرة حتى نقل اليها يوبا •

يوبا اخذه يوليوس قيصر بعد واقعة طبسوس الى رومة وعمره خمس سنوات • وبعد قتل قيصر كفله وكتافيوس ، فقضى صباه تحت رعايته ، ورباه على احترام رومة ، وقد علم اخلاصه لها • فلما كبر جعله قنطرة لنقل الجراد الروماني الى افريقية الشمالية : فولاه اولا على نوميديا •

حتى اذا نضجت ثمرتها وسهل على الرومان اجتناؤها نقله الى الموريطانيتين ــ وقد كانتا تحت نفوذه ولكنه عجز عن تذليلهما ــ فاضعف فيهما الروح الوطنية التي تلازم بساطة العيش : نشط الفلاحة فتقدمت خطوات ، واعتنى بالعمران فاتسع نطاق المدن وكثرت عمارتها •

أخذ المعارف عن كبار علماء اليونان والرومان • واشتهر بالتاريخ والجغرافيا والطبيعة والنحو • وكان ذا ذوق وانتقاد للشعر والفن • وله كتب في التاريخ • منها تاريخ رومة من يوم تأسيسها الى وفاة كافله أغسطس قيصر (وهو وكتافيوس) • يذكر في تلك الكتب النظم الرومانية وجزيرة العرب والسريان وليبية • ويتكلم فيها عن التصوير والتمثيل والنباتات • وكتب رسالة في اسباب فساد اللغة الاغريقية ، وألف تآليف بها • وبالغ في التشيع للاغريق حتى نسب لهم عوائد قديمة بافريقية وروما • وجازوه على ذلك بتشييد هيكل له بأثينا • ونقل الحضارة الاغريقية الى عاصمته قيصرية • فجلب لها علماء ورسامين وممثلين من الاغريق • وأنشأ بها بناءات فاخرة رسم عليها تماثيل من احسن ما تنمقه يد الاغريقي •

ولم يزل يؤيد السيادة الرومانية بوطنه ويخلد ذكر كافله حيث تسمى باسمه • فدعى نفسه « كايوس يوليوس » ونسب عاصمته يول اليه فدعاها قيصرية ، وشاد بها معبدا لالهه •

والخلاصة انه كان متشيعا للاغريق في العلوم والحضارة ، وللرومان في الحكم والسياسة ، عديم الغيرة الوطنية والاحساس القومي •

في سنة (6) م توفيت زوجه فدفنها شرقي قيصرية • وشاد على قبرها هيكلا ضخما • وفي سنة (22) م أو (23) م توفي ودفن مع زوجه • ولم يزل ذلك الهيكل مشاهدا الى اليوم ويعرف بقبر المسيحية • ولكنها

تسمية مخالفة للحقيقة • فان سيليني لم تدن بالمسيحية ولا كان لهذا الدين اذا ذاك ظهور في هذا الوطن •

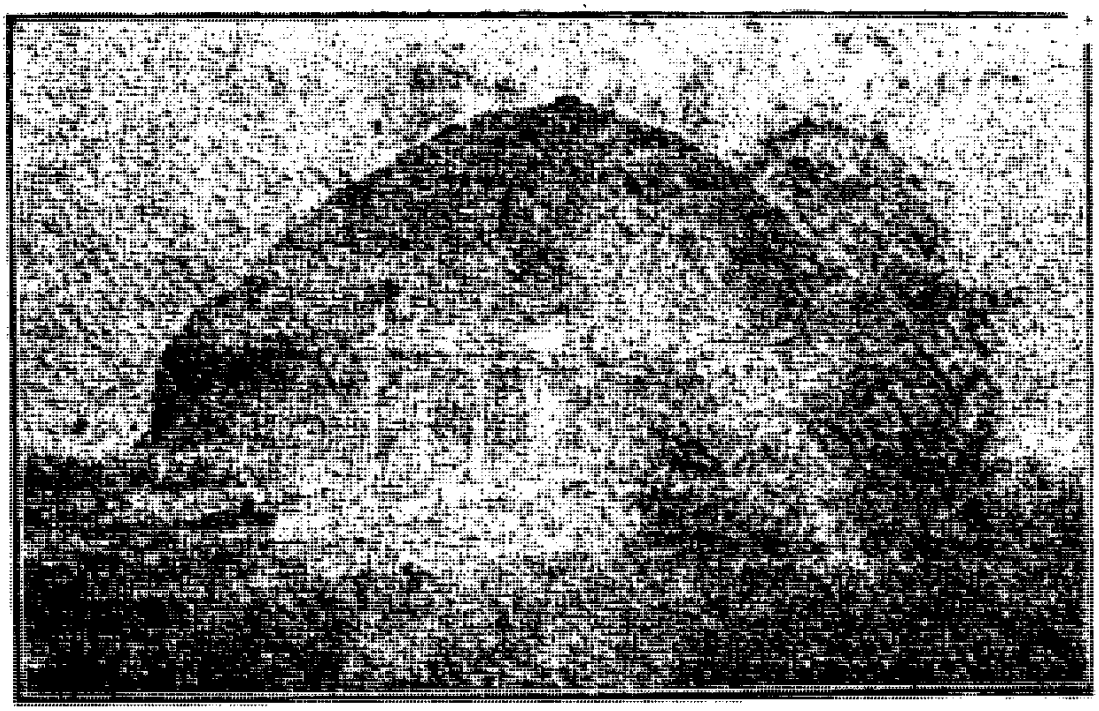

(ش – 16) قبر المسيحية

(ش – 17)

رسم يوبا عثر عليه بشرشال . وهو محفوظ بدار الآثار هناك

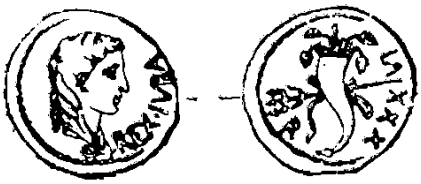

(ش ـ 18)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه

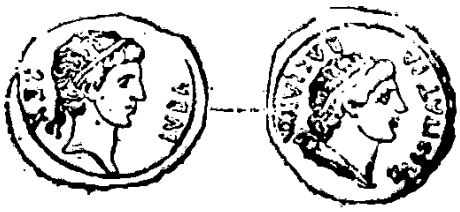

(ش ـ 19)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه الى اليسار ورسم زوجه الى اليمين

26 — **بطليموس 23م ـ 40م**

بطليموس هو ابن يوبا الثاني • سماه بهـذا الاسم الاغريقي من شغفه بالاغريق • ورث عرش ابيه بعد وفاته • وكما كان اسمه غير بربري كان هـو عديم الغيرة البربرية والحماس القومي • فلم يعمل كجده يوبا الاول ومن قبله من سلفه للاستقلال البربري • بل كان كأبيه يؤيد النفوذ الاجنبي ويخدم مصلحة رومة •

لم يرث بطليموس عن ابيـه غير عرشه واخلاصه لرومة • ولم يرث عنه أذواقه العلمية وتدابيره الادارية • فترك أمور دولته بيـد الحاشية • وانهمك في الملاهي والفجور • وبذلك وجد البربر سبيلا الى استعادة حياتهم الحربية •

كان بنوميديا ثائر بربري يدعى تقفاريناص • فاستدعته حاشية بطليموس الى موريطانيا ووعدته الاعانة • فلبى طلبها ونقل الحرب الى تلك الناحية •

تقفار يناص هذا رجل بربري تجند بالجند الروماني وبلغ رتبة ضابط معين • ثم فر الى القبائل البربرية المقيمة بجهات اوراس • وأثارهم على الرومان سنة (17) م • فهجموا على الجنود الرومانية في مراكزها • واتسعت ميادين الثورة من خليج طرابلس الى الحضنة •

برز لمحاربته كاملوس والي افريقية فلم يقو تقفاريناص على مقابلته وفر الى الصحراء • واشتغل فيها بتنظيم الجنود على الطريقة الرومانية • فاتخذ الفرسان والمشاة • وفي ظرف عام تمم تنظيمه وتمرينه • فأعاد الكرة على الرومان • وهزمهم بوادي باجيدة (ساحة لمبس) فتركوا له حصونا • وغنم غنائم جليلة • فتشجع بهذا الانتصار • وذهب الى تالة (بعمالة تونس) وحاصرها • فضاعف الرومان قوتهم مضاعفة أعجزت تقفاريناص عن مقابلتها • ففر أيضا الى الصحراء • وذلك سنة (20) م •

وبعد قليل ارسل الى الامبراطور طيبريوس وفدا يعرض عليه الصلح على ان يقتسم معه أراضي افريقية • فأبت للامبراطور عظمته النزول لقبول هذا الشرط • وراءه وقاحة من تقفاريناص • فارسل الى الجيتوليين يعدهم بالعفو ان هم وضعوا السلاح • وجعل جعلا لمن يقتل تقفاريناص • فلم يجد من بطانة هذا الثائر خائنا •

وفي سنة (21) وجه الامبراطور لحربه القائد بليسوس (BLOESUS) وكان ذا دراية بالحرب • فقسم جيشه أقساما وراء كل قسم حصن • فمكث في مطاردة تقفاريناص عاما • وكان يهزمه كلما التقيا • ولما اعجزت تقفاريناص الحيلة ويئس من الانتصار عاد الى الصحراء ملجئه من قديم سنة (22) •

سر الرومان بانتصار بليسوس سرورا عظيما • ولقبوه الغازي • ولكن هذا الانتصار لم يكن حاسما للثورة • فان تقفاريناص رجل

لا يأبه بمعاكسة الايام • ولا تقف أمام عزيمته العقبات • ولا يفشل للنوائب والصدمات • فمكث بعيدا عن الرومان بالصحراء حتى بلغته وفاة يوبا • فجدد عزمه • وجمع جموعه • واستثار القبائل الجيتولية من جديد • وحاصر بعض المدن • فعين الرومان لحربه دولبلة (DOLABELLA) • وابتدأ هذا الروماني بقتل عظماء الجيتوليين • واتخذ مراكز المجنود على حدود الصحراء • وطلب من بطليموس امداده برجال البربر فأمده • وبلغ تقفاريناص مدينه توبوسبطوس (TUBUSUPTUS) ــ تيكلات ــ ، فحاصرها • وبرز اليه دولبلة بعد ذلك الاستعداد فأجلاه عنها • وفر أمامه ــ كعادته ــ الى الصحراء • فلقيته الجنود المرابطة بحدودها •

هنالك توجه نحو موريطانيا اعتمادا على وعد حاشية بطليموس له بالاعانة • فأحاطت به الاعداء في الطريق • وما بلغ عوزية (سور الغزلان) حتى أدركه دولبلة • وانقض عليه ليلا فافنى جيشه وقتله ! وذلك سنة (24) •

وهكذا انتهت حياة هذا البربري الذي يحمل بين جنبيه روحا استقلالية ، وهو يعلم ما فيها من المصاعب ، اذ ما كان يجهل قوة رومة ولا انتشار نفوذها بالوطن البربري • ولكنها العزائم الفولاذية تدفع باربابها الى ما وراء التأمل في العواقب • والبطولة قد تنتهي بصاحبها الى الجنون •

سر الرومان بالقضاء على شخص تقفاريناص الذي شغلهم مدة ثماني سنين • وجازى مجلس الشيوخ بطليموس على اعانته بقضيب من عاج وحلة مطرزة بالذهب • حمل هذه الجائزة أحد الشيوخ وذهب بها الى بطليموس مكلفا من قبل زملائه بمقابلته وتهنئته باسم « ملك حبيب حليف » •

ما أجود بطليموس ! بل بئس الجود جود بطليموس : يعين الرومان على قتل بني جنسه ليملكوا أراضيهم ونفوذهم ورقاب بقية الامة ، في مقابلة القاب وتحف ! وبعد كيف كانت عاقبته معهم ؟

في سنة (39) ارسل اليه الامبراطور غليقلا (CALIGULA) يستدعيه الى رومة ـ وكانت بينهما خؤلة ـ فلبى الدعوة حينا • وذهب في هيئة عظيمة غار لها الامبراطور • وحضرا ذات يوم المرسح • فأعجب الحاضرون بثوب بطليموس الارجواني • فاغتاظ لذلك الامبراطور وزجه في السجن وقطع عنه الطعام ولم يترك له ماء غير ماء الميازيب • وانتهى به الغيظ الى أن قتله • يقول مرسيي : « آما غيرة من هيئته واما نهما في سفك الدماء واما طمعا في الحاق مملكته برومة رأسا » وسواء كان القتل لاحد تلك الاغراض أو لثلاثتها فان غيرة الامبراطور من هيئة بطليموس وبهت العامة مما يدل على تفوق الازياء البربرية على الازياء الرومانية •

كان لنعي بطليموس أسوأ الاثر في نفوس البربر دفع بأحد مواليه المسمى أدمون الى رفع لواء الثورة وعزره الجيتوليين • ولكن الرومان تمكنوا من اخماد ثورته • فرجع الامر الى نصابه ، والحقت موريطانيا برومة • وذلك سنة (42) م تقريبا •

(ش ـ 20) رسم بطليموس عثر عليه بشرشال

7 ــ انقراض الممالك البربرية

قد رأيت كيف نشـأت الممالك البربرية العظمى عـلى عهـد قرطاجنة ، وكيف تعرفت اليها رومة • وقـد عجمت هاتان الدولتان القويتان عود ملوك البربر • فوجدتاه صلبا لا يلين لكل غامز ، ورأتا هدم استقلالهم « دونـه خرط القتاد » فاكتفت قرطاجنة منهم بأن يكونوا معها ــ بحق الجوار ــ على رومة ذات المطامع الاشعبية • اما رومة فانها بعد ما انتصرت بمن نصرها منهم لم تنفك تتداخل في شؤونهم واذكاء جـذوة التنافس بينهم والزيادة في عددهم بتجزئة ممالكهم وشغلهم عن مهماتهم الداخلية بالاستنصار بهم في حروبها أو تقسيمهم على زعمائها المتحاربين • فقد رأيت انهم ــ أيام تنازع مريوس وصيلة ــ منهم من كان مع الاول ومنهم من كان مع الثاني • وكذلـك كانـوا في تحارب بمبيوس وقيصـر وعـراك وكتافيوس وانطونيوس •

مهما امعن الباحث في علل سقوط تلك الممالك وانعم النظر الفى ان علة العلل هي تداخل رومة في شؤونها بتلك الصفة التي ذكرنا • حتى اني عندما أريد من الفكر جولة في علل سقوط هاتيك الممالك يذهب الى البحث عن أسباب بقائها وطول أمدها • فيجد السبب الوحيد هو ثروة الوطن البربري وغناه بكثرة رجاله الاحرار أولى الشجاعة وحدة الافكار • فقضاء رومة على يوغورطة لا يعجز أن يظهر مثل يرباص ويوبا الاول وعرابيون • ولكن لكل بداية نهاية ولكل شيء جدة وبلاء • فانتهى عمر الممالك البربرية بانتهاء حيـاة عرابيون ووفاة بوكوس الثالث • وجاء يوبا الثاني وبطليموس بعدهما مجردين من الروح البربرية التواقة الى الاستقلال • فكان عصرهما عصر تثبيت لقدم السلطة الرومانية شمالا واقامة سد على الجهات

الجنوبية التي ربما تنبعث منها أشعة للحياة الاستقلالية بالجهات الشمالية .

حقا ان رومة كانت تعمل لاسقاط الملك البربري . وحقا ان تداخلها هو الذي اسقطه ، وحقا ان استمرار حياته ـ مع استمرار ذلك التداخل ـ امدا غير قصير مما يدعو الى العجب والتنقيب عن السبب . ولكن هل نعفي البربر من تبعة ذلك السقوط ؟ وهل تستطيع رومة ان تخرب ملكهم لو لم يخربوا هم أنفسهم بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ؟

نرجع الى الصحائف السابقة نجد فيها جواب هذين السؤالين . ذلك أن تداخل رومة أخذ يتزايد في عصر يوغورطة واشتد بعده . وفي هذه المدة كانت ملوك البربر من أسرتين : أسرة نوميديا قديمة أسسها نرافاس ، وأخرى موريطانية مبلغ علمنا عنها أنها حديثة أسسها بوكوس الاول .

ومن الاسرة الاولى كان ابطال الاستقلال البربري . ومن وجد منها مؤيدا للرومان ـ مثل مستنابعل وهميصال الثاني ـ على الاحرار من جنسه لم نجد له ضررا كبيرا ولا أثرا عميقا في هدم الملك البربري . أما الاسرة الثانية فقد كان مؤسسها بوكوس عاملا في القضاء على يوغورطة ، وحفيده قتل يرباص ، وابناه اعانا قيصر وتسببا في انتحار يوبا الاول .

واذن نقول : ان على البربر تبعة سقوط تلك الممالك ، وهم الذين أعانوا الرومان على بلوغ غايتهم ، وان زعماء هذه الطائفة المارجة هم بوكوس وعقبه . غير أنا لا نقول : أنهم تسببوا في السقوط قصدا ، وأعانوا الرومان حبا فيهم وبغضا لجنسهم . ولكن نرى أن سياستهم مبنية على الجبن وخشية الرومان ، والطمع في بسط

النفوذ وسعة السلطان • أما خوفهم من الرومان ففي غير محله : لان البربر بوطنهم ومعاقلهم الطبيعية أمنع من أن تأخذهم أمة بالقهر والغلبة • وأما طمعهم في التوسع على حساب غيرهم فانما يحققه ويستفيد منه من جمع بين القوة والدهاء والشجاعة • وهؤلاء الملوك لم يكونوا كذلك • ولذلك استغل الرومان اعداؤهم الحقيقيون جهودهم ، وقضوا بهم وطرهم •

وقد جاء يوبا الثاني بعد سقوط الملك البربري ـ وهو من الاسرة الاولى ـ فكان عليه ان يعمل لتجديده وتحقيق ما كان يأمله سلفه • خصوصا وهو يعلم ان قيصر هو الذي قضى على حياة والده ، وقسم مملكته بين أعدائه ، وتربى في رومة ، ودرس تاريخها • ولكنه رجل انهمك في المعارف وانقطع للعلوم ووقذته الحضارة • فلم تكن له روح مصينيسا ومصيبسا التي جمعت بين العلم والمحافظة على القومية • ولذلك صار يرى لرومة فضلا عليه ان منحته بعض ما كان يرثه من أبيه • فخدمها باخلاص • وهيأ لها الوطن البربري كي يتولى ادارته بنوها من غير واسطة • فكان عصره ومدة ابنه خاتمة لذلك الملك وتتمة لذلك السقوط •

أقدم من عرفاه من ملوك بربر الجزائر نرافاس • وكان موجودا سنة (238) ق•م • وآخرهم بطليموس المقتول سنة (40) م • فكان عمر الممالك البربرية العظمى نحوا من ثلاثة قرون •

لم ننسب ملوك البربر الى قبائلهم لان الباحثين في هذا الدور من مؤرخي اليونان والرومان الذين أخذ عنهم مؤرخو الافرنج لا عناية لهم بالبحث في القبائل • وانما فعل ذلك مؤرخو العرب • وهم انما عرفوا البربر ودونوا اخبارهم وفصلوا قبائلهم بعد الفتح على عهد الاسلام •

والظاهر ان القبائل التي ذكرها ابن خلدون بأسمائها وامكنتها لم تكن قريبة العهد من الفتح العربي • بل هي كذلك من قديم • وعليه يمكننا ان نقول : ان أسرة نارفاس ــ ومنها أكثر الملوك ــ من قبيلة كتامة • اما صيفاقس وبيت بوكوس فلا يمكننا نسبتها لقبيلة من القبائل التي ذكرها ابن خلدون : لعدم تحققنا لموضع نشأنهما •

8 ــ ذكر العواصم الكبرى لملوك البربر

علمت مما سبق في هذا الباب ان من ملوك البربر من استولى على جميع التراب الجزائري بل على أغلب افريقية الشمالية ، ومنهم من استولى على بعضه ، ودخل الباقي في حوزة ملك آخر ، وقد بلغ أحيانا أن تقاسم هذا الوطن أربعة ملوك • لاجرم تعددت عواصمهم بتعددهم • ولكن لم نعثر ــ بعد البحث ــ الا على ما يلي من تلك العواصم :

1 ــ قرطة (CIRTA) • وكانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك من بعده • ولا نعلم تاريخ تأسيسها • ولكن من المحقق أن البربر أسسوها على عهد الفينيقيين ، وأطلقوا عليها ذلك العلم الفينيقي • ومعناه المدينة [1] فسرها كذلك اغسال •

هذه المدينة واقعة على جبل حجري مرتفع ، يحيط بـه وادي مساغا (وادي الرمل) من أغلب جهاته • وقد وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها • وذكر المؤرخ ابيان : ان

---

(1) بعض الكتاب يكتبها سرتا ، تبعا للنطق الافرنجي . ونحن اخترنا ان نكتبها قرطة ــ وان لم نر من كتبها كذلك ــ لان حرف (C) عربـه العرب قافا في مثل صقلية وقيصر وقالوا ايضا : قرطاجنة . وهي مركبة من كلمتين اولاهما قرطا . ومعناها ايضا المدينة .

مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد ان يفتحها عنوة • وقال البكري : ليس يعرف أحصن منها • ويدل لذلك ان يوغورطة عكف على حصارها مدة عامين • ولولا المجاعة ما وجد سبيلا لفتحها • والوندال لم يتمكنوا من فتحها ، وهم الذين فتحوا قرطاجنة وروما • كما سيأتي •

استمرت هذه المدينة على عهد الملوك الاولين من البربر في تقدم ورقي من حيث التجارة والبناءات الانيقة والمعارف • فكثر روادها واتسع عمرانها ، ثم نقصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد هيمصال الثاني •

ولما منحها قيصر لستيوس أخذت في النمو • وازدهرت في العصر الروماني بكثرة السكان وسعة العمران وفنون العرفان • وفي أوائل القرن الرابع للميلاد وقعت حرب بين قسطنطين ومكسنتيوس فدخلها هذا الاخير وعاث فيها فسادا بقتل السكان وسبيهم واحراق المدينة •

وبعد ان غلبه قسطنطين جدد بناءها ، وأعاد على الناس أموالهم ، ونشط الفلاحة • فعادت اليها عظمتها وعمرانها • وما زالت شمسها تبزغ وتأفل • وهي لهذا العهد كثيرة المباني واسعة العمران • كل سنة تزداد سعة • ولكن ما زالت لم تبلغ حدودها التي كانت عليها في العصر الروماني •

بقي لها اسمها الفينيقي حتى جاء ستيوس فدعيت « مستعمرة ستيوس » يريدون بالمستعمرة المدينة • واطلقت عليها اعلام اخر • ولكن كلها لم تزاحم اسم قرطة ولم تبلغ شهرته • حتى جددها قسطنطين • وكانت له اخت تدعى قسطنطان • فسمى المدينة باسمها • وعلق من ذلك الحين هذا العلم بها • وجر ذيل النسيان على ما

قبـــاه • وقد خفف العرب هذا العلم فقالوا : قسنطينة • والعامة اليوم تقول قسمطينه •

قدر لهذه العاصمة الخلود • فلم تزل منذ تأسيسها الى اليوم عاصمة مملكة أو ولاية • وذلك لحسن موقعها وأهمية مركزها • مما يدل على حذق البربر وفضل اختيارهم في وضع عواصمهم •

ولم تزل هيئتها القديمة ســواء في أيــام عظمتها أو في ليالي انحطاطها الى أن جاءت الدولة الفرنسية فغيرت شوارعها • ورتبت ابنيتها على غير نسقها القديم • ولم يبق الا موضع قصبتها فانــه كان منذ الدور البربري القديم قصبة الملوك ودار الحكم • وبذلك ذهبت قيمتها التاريخية • واحتيج في استخراج هيئتها الاولى الــى جهود كبيرة • وقد رسم تلك الهيئة بارس في كتابه قرطة •

2 — صيغة • هذه المدينة كانت عاصمة صيفاقس قبل ان ينتقل الى قرطة • وهي في ساحل تلمسان على البحر الابيض عند مصب نهر تافنا فيه ، من المؤرخين من قال شرقية ، ومنهم من قال غربية •

وهي من مؤسسات الفينيقيين استولى عليها البربر فيما استولوا عليه من المدن الفينيقية بالسواحل • ولمــا استولى الرومان عــلى موريطانيا اتخذوها مرسى من المراسي التي تنقل منها الحبوب الى رومة •

وقد خربت وعفا رسمها • وذكر البكري[1] مدينة سماها أرشقول غربي مصب نهر تافنا • ووصفها بما يدل على سعتها وعظمتها • غير أنه لم يذكر ــ كعادته في المدن القديمة ــ انها أولية • فعلى ان صيغة شرقي تافنا تكون مدينة أرشقول غيرها ، وعلى أنها غربية لا يبعد ان

---

(1) المغرب 77 .

تكون أرشقول مؤسسة على انقاضها • ثم وقفت في تاريخ غروت على ان أرشقول هي صيغة •

3 — يول • هـذه المدينة مـن المراسـي الفينيقية • أسسها الفينيقيون • ثم دخلت أيدي البربر • وأول من اتخذها من ملوكهم عاصمة بوكوس الثاني • وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة • بني بهـا المباني الجميلة والقصور الانيقة • وآثارها تدل على عظمتها ، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هـذه المدينة يد اغريقية افريقية وليست رومانية • وقد اتخذت دار لحفظ تلك الآثار ، وصنعت تماثيل على نمطها نقلت الى متاحف أخرى من متاحف الآثار •

ولغرام يوبا بكافله اغسطس قيصر نسب هذه المدينة اليه تخليدا لذكره • فسماها قيصرية • وهذا نظير ما يفعله الاروبيون اليوم ، ويكثرون منه • فينسبون مدنا وشوارع وحارات الى عظمائهم • يفعلون ذلك بالاوطان التي استولوا عليها اعفاء لعظماء أهلها حتى يصبح المحكومون لهم وليس بين عينهم وفي آذانهم الا رجـال غيرهم •

وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال • ولا أدري متى حدث لها هذا العلم ؟ غير ان البكري ذكرها بـه • وهو من أهل القرن الخامس الهجري •

4 — هبون • ذكر غروت انها عاصمة يوبا الاول • وقد اتخذها جنسريق الوندالي عاصمته قبل ان ينتقل الى قرطاجنة ، ثم كانت عاصمة بعض الامراء في العصر الاسلامي •

وهي من المؤسسات الاولى للفينيقيين التي يرجع تاريخا الى

اواخر الالف الثاني قبل الميلاد • وقد تصرف العرب في هذا الاسم فدعوها بونة • قال البكري : « ومدينة بونة أولية • وهي مدينة أقشتين (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية • وهي على ساحل البحر في نشز من الارض منيع مطل على مدينة سبوس • وتسمى اليوم مدينة زاوي • وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال • ولها مساجد وأسواق وحمام • وهي ذات ثمر وزرع • وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين واربعمائة »[1] •

ولكثرة شجر العناب بها أطلق عليها مدينة العناب حتى صارت تعرف اليوم بعنابة •

هذا ما وجدنا من عواصم ملوك البربر القدماء منصوصا عليه • وهناك مدن كثيرة منها ما يحتمل ان يكون عاصمة لبعضهم مثل بجاية وسطيف • ولكنا لم نجد من صرح بأن واحدة منهما كانت عاصمة لملك من الملوك • ومما لا ريب فيه أن هناك عواصم غير تلك الاربع • فاننا نجهل عاصمة يوغورطة قبل ان يفتح قرطة ، ونجهل أيضا عاصمتي ماصنتة وعرابيون •

---

(1) المغرب ص 54 — 55

(ش – 21)

كليوباترا – سيلين

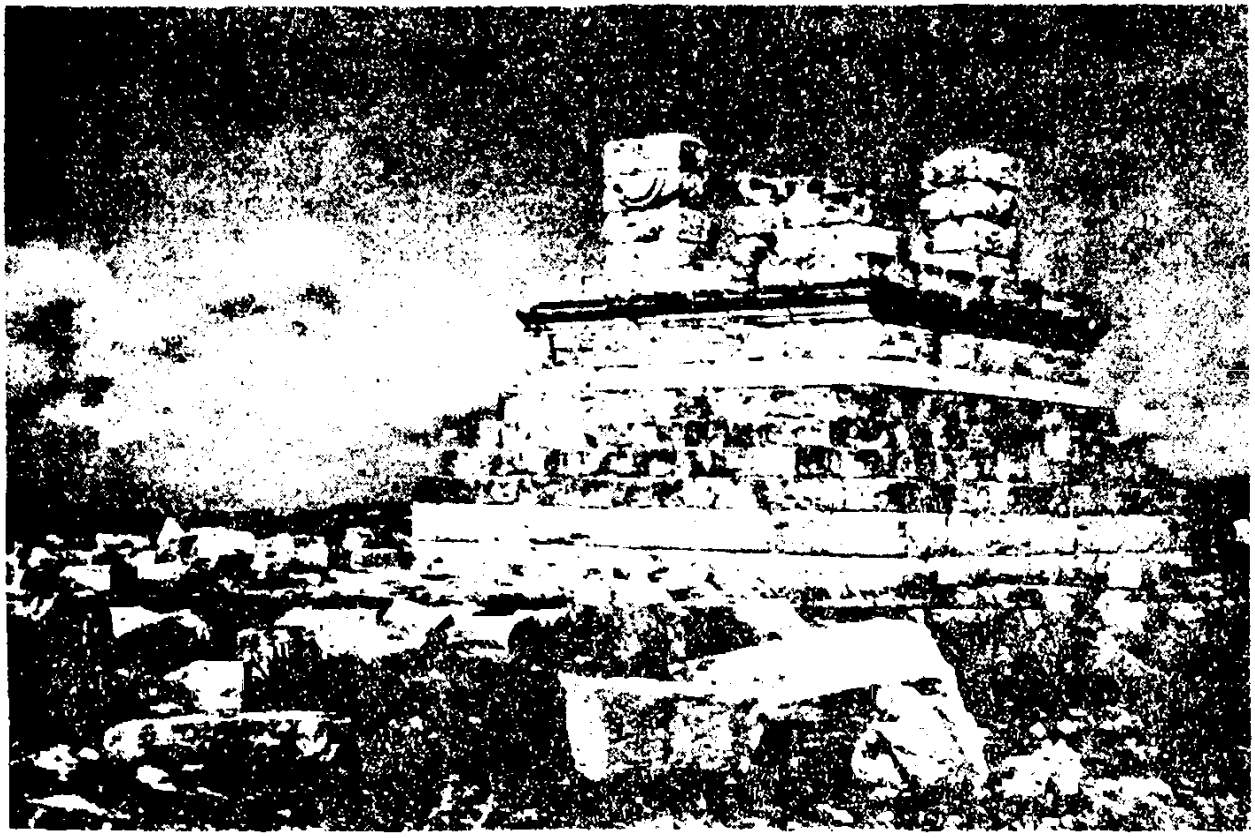

(ش – 22)

سوما ضروب مقبرة ماسينيسيا

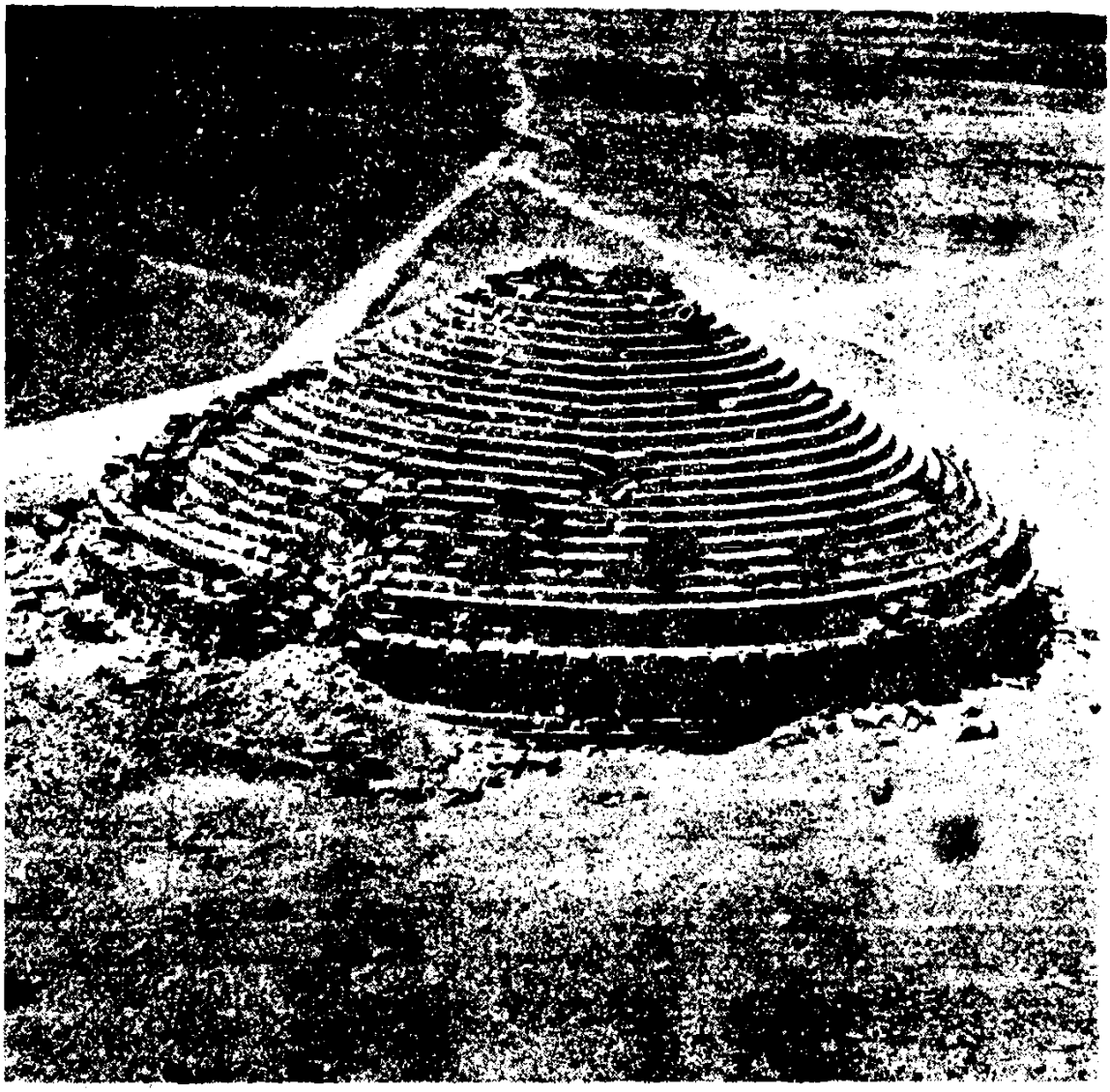

(ش – 23)

المدرسان : قبر بربري واسع محاط
والذي منه أخذ القبر شكل الهرم

الباب السادس

في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائـــر

ا ـ تمهيـد

الرومان أمة من اللطتين ، ينسبون الى عاصمة دولتهم رومة • وهي مدينة مؤسسة وسط ايطاليا • أسسها ـ على ما يقول الرومان ـ روملوس سنة (753) ق•م •

وايطاليا جزيرة مستطيلة • الجهة الشرقية منها عديمة السهول والمراسي ، والجهة الغربية بخلافها ذات سهول وماس • وهي التي كونت تاريخ ايطاليا • أما جنوبها فقليل العمارة ، اتخذه اليونان مركزا ينزلون به في سفراتهم البحرية •

وهي متوسطة في العالم القديم : واقعة بين عالم الشرق المتمدن ، وعالم الغرب المتوحش •

وكان سكانها أهـل حراثة وقيام علـى المواشي • ثم تعلموا الملاحة والتجارة من بعد • وكان بها أمم مختلفة لا صلة لها بعضها ببعض •

وعلىأيدي الرومان تكونت الوحـدة الايطالية ، حيث أسسوا حكومة ملوكية ، اختلف في بدايتها • ودامت الى سنة (509) ق•م ثم خلفتها الجمهورية • وفي عهدها تمكن الرومان من حماية أنفسهم فمدوا أعينهم الى غيرهم من الامم قصدا للتوسع وسعيا وراء الثروة ولذة النفوذ •

حاربوا قرطاجنة معلمتهم المدنية حروبا طـوالا يشيب لهولهـا الولدان ، وانتصروا عليها أخيرا بما امتازوا به من نكث العهود وخيانة الشرف • وأخذوا في فتح البلدان واستعمار الاوطان ، حتى ملكوا جل المعمور في القرنين الثاني والاول (ق•م) • فبسـطوا نفوذهم عـلى افريقية الشـمالية تدريجا ، وعلى مصـر والشام واليونان ومقدونيا وجرمانية والغاليا والاندلس •

أصبحت دولتهم سيدة العالم القديم • واقتبسوا من الامم التي استولوا عليها أصول المدنية وأسـاليب الحضارة وفنون العلوم • وجروا في ذلك الى مدى بعيد ، حتى ان أروبا اليوم لم تزل تقتفي أثرهم في الاستعمار ، وتستمد من نظمهم وسياستهم ، وتبحث عـن أسباب فوزهم وعلل خيبتهم •

ولموقع وطنهم الجغرافي دخل كبير فيما بلغوه من عظمة وسـعة سلطان • وبعد الجمهورية جاءت الامبراطورية • فتمكنت من حفظ سيادتها على العالم الروماني ، حتى انقسمت أواخـر القرن الرابع للميلاد • ومن ذلك الحين أخذت المملكة الغربية تضعف وتتلاشـى حتى سقطت سنة (476) للميلاد • وذلك بما نال أهلها من بطر النعمة وسعة السلطان • فانغمسوا في الملاذ واشتغلوا بالملاهي • فضعفوا عن القيام بأعباء الملك • وقد قال كاتب روماني : « ان انتصارات رومة هي علة سقوطها » •

2 ـ اصـل الرومـان

كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة • منهـا الغاليـا والاتروسك والاغـريق واللطين • وموطن اللطين بـين الاغـريق والاتروسك • وكانت هذه الامة متوحشة ، وأهل الجبال منها أصحاب

مواش ، وأهل السهول فلاحون • ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية •

وذكرابن‌خلدون : ان اللطين من يافث بن نوح • وذكر في أبناء يافث يونان وماغوغ • ثم اختلف نقله في نسبة اللطين الى يونان أو ماغوغ : فنقل عن اهروشيوش مؤرخ الرومان : « ان القوط واللطين من ماغوغ »[1] ونقل عن الاسرائليين ان يونان « كان من الولد أربعة • وهم : داوود بن واليشا وكيتم وترشيش • وان كيتم من هؤلاء الاربعة هو ابو الروم : والباقي يونان »[2] والروم عنده هم الرومان • وليس من فرق بينهما من حيث الاصل • وذكر في موضع آخر ليونان خمسة ابناء • وسماهم هكذا : « كيتم وحجيلة وترشوش ودودانم وايشاي »[3]• وفي النص الاول تحريف يظهر صوابه من‌النص الثاني • ذلك انه قال أولا : داوود بن واليشا • وقضيته ان يكون ابناء يونان ثلاثة فقط • وقال ثانيا : دودانم وايشاي • فايشاي هو اليشا ، ودودانم هو صواب كلمة داوود بن • وبذلك يتم عدد الابناء أربعة كما قال •

وكلمة ترشيش او ترشوش عنده قريبة من كلمة الاتروسك عند مؤرخي الافرنج • وهم يقولون : ان الاتروسك أمة مجهولة الاصل واللغة • فان صح حمل الكلمتين على أمة واحدة ــ كما يظهر لنا ــ كان الاتروسك اخوان اللطين • ويقربه الجوار • والله أعلم •

3 ــ تأسيس دولة الرومان

تاريخ ابتداء الدولة الرومانية غير واضح • قال ماليت .

(1و2) ج2 ص10 (3) ج2 ص184 •

والمؤرخون يعتمدون عـــلى ما كتبه تيت ــ ليف (TITE - LIVE) الذي كان على عهد أغسطس قيصر متصلا بآخر حياة الجمهورية •

هذا المؤرخ ينسب تأسيس الدولة الرومانية الى روملوس باني رومة • وينسب روملوس ــ تبعا لاساطير الوثنيين ــ الى الآلهة • ويذكر في نشأته ونشأة أخيه ريموس خرافات ، أضربنا عنها صفحا لبعدها عن الخيال المستحسن ، وان لم يتفق مع الحقيقة •

وعد ماليت لرومة سبعة ملوك • خامسهم هو الذي أدخل الى رومة شعار ملوك الاتروسك : الجبة الحمراء والتاج والكرسي وسيف المملكة ، وسادسهم هو أول من تنبه الى طبقة الصعاليك • فادخل قسما منها في الجندية • وقد كانوا كمية مهملة • وطبقة الاشراف هي التي تقوم بجميع شؤون المملكة • وسابعهم ثارت عليه الامة • فالتجأ الى المعبد ، ولكنه قتل به •

وفي ابن خلدون تصريح بان رومـــة أسسها روملوس • ولكن الدولة مؤسسة من قبله بكثير • وعد ملوكا تقدموا روملوس • ويظهر من كلامه ان الدولة أسست أثناء الالف الثاني (ق•م) • وذكر ابن كريون مؤرخ بني اسرائيل : انه جاء بعد روملوس خمسة ملوك • « اغتصب خامسهم رجلا في زوجه • فقتلت نفسها • وقتله زوجها في الهيكل »[1] •

فاتفق ماليت وابن خلدون على ان آخر ملوك رومة قتل بالمعبد • وبه انتهى الدور الملوكي • وذلك سنة 509 (ق•م) • وصار نظام رومة جمهوريا من ذلك الحين •

قال ابن خلدون عن ابن كريون : « واجمع أهل رومة على أن

---

(1) ج2 ص197 •

لا يولوا عليهم ملكا • وقدموا شيوخا ثلاثمائة وعشرين ، يدبرون ملكهم • فاستقام أمرهم كما يجب ، الى أن تغلب قيصر »[1] • وشكل الجمهورية يتألف من قنصلين وشيوخ •

1 — القنصل : ومعناه منفذ الاحكام • ينتخب لمدة عام • وللقنصلين رئاسة الجند ومجلسي الشيوخ والشعب • ولهما النظر في القوانين وعرضها على المجلسين • وهما اللذان يقيمان الاحتفالات الدينية • فهما رئيسان في الدين والسياسة •

2 — الشيوخ : يختارهم القنصل من رؤساء الاسر الشريفة • ومن اختير لهذا المنصب يبقى به مدة حياته • وبيد الشيوخ السلطة على الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية •

ومن نظام الجمهورية انه في أيام الشدة يسمي القنصلان متصرفا يمنحانه النفوذ المطلق • فينفذ أحكامه من غير مراجعة مجلس الشيوخ • ويسمي لمدة ستة أشهر فقط •

وقد اتسعت ممتلكات رومة على عهد الجمهورية • فبلغت ولايتها سبع عشر : عشر ولايات بأروبا ، وخمس بآسيا ، واثنتين بافريقية •

لم تكن تقصد الجمهورية الرومانية الى التداخل في عوائد مستعمراتها وديانتها • وانما تقصد منها الانقياد لدولتها واداء الضرائب لبيت مالها •

ولقد كان نظام الجبايات مضرا بالمستعمرات • فقد كانت الجمهورية تسند استخلاص الضرائب الى أعيان اغنياء ، يؤدون لها ما تريده • وهم يستخلصون من الامة ما شاءوا من غير مرحمة ولا شفقة • حتى أن المعدم يقرضونه بالفائض ليأدي لهم ما يطلبونه منه • وبهذه الصفة انتزعت املاك وافتقرت أسر •

---

(1) ج2 ص197 •

فشا الجور والارتشاء في جميع ولاة الرومان • واصبحت غايتهم الوحيدة هي الحصول على الثروة بأية وسيلة • ولم تتبق الوظائف مسندة الى مستحقيها • وحدثت برومة نفسها أهوال من تنافس العظماء • وصارت القوانين ضعيفة أمام ذلك كله •

ساءت من ذلك حال الامة • ولم تجد في الجمهورية ما يحسن حالها ويخفف من ويلاتها ، فاجتوتها ، وتواطأ على اجتوائها أهل رومة وأهالي الولايات التابعة لها •

وبينما الامة في انتظار الفرج لهذه الازمة اذ ظهر يوليوس قيصر • وحاول تغيير شكل الحكومة بجعلها امبراطورية • فقام في وجه الجمهوريون ، وانتصر عليهم بايطاليا ثم افريقية ثم الاندلس • ولما عاد من الاندلس سنة (45) ق•م سمي برومة متصرفا مستبدا مدة حياته فحارب الجمهوريين بالسياسة كما كان حاربهم بالسيف • واضعف نفوذ مجلس الشيوخ ، فصار مجلس استشارة فقط • وكان عددهم سبعين في نقل ابن خلدون عن هروشيوش أو (320) في نقله عن ابن كريون أو (300) على ما ذكر ماليت ، فاضاف اليهم يوليوس قيصر شيوخا من أهل الولايات التابعة لرومة • فبلغ عددهم (900) •

فرحت الامة بيوليوس قيصر لحسن ادارته وكفاءة ولاته • ولكن الجمهوريين كانوا ناقمين عليه • وتمكنوا من قتله في مجلس الشيوخ نفسه سنة (44) ق•م •

وكان الجمهوريون يظنون أن في ذهاب قيصر رجوع نفوذهم • ولكن الامة كرهت سياستهم ، وسئمت من الفتن التي كانت على عهدهم ، واستبشرت بقيصر ووجدت فيه بغيتها ، فزادها قتله نفورا من الجمهوريين •

وكان من قواد قيصر رجل يدعى انطونيوس ، وله شهرة ومحبة في قلوب العامة ، فقام على الجمهوريين ، وهيج العامة ضدهم • وكان لقيصر ابن أخ (أو ابن أخت) متبنيه يدعى اكتافيوس ، وكان بأثينا يتعاطى المعارف ، وهو حدث شديد الحماس داهية في السياسة ، فتظاهر باللين للجمهوريين ، حتى ظنوا انه يكون لهم عضدا على انطونيوس ، فأخذوا ينصرونه في خطبهم ، ويطعنون في انطونيوس وبعد أن توصل الى رئاسة جند كبير طلب الى الشيوخ أن يولوه قنصلا فامتنعوا •

كان انطونيوس ينتصر لقيصر كي يحل محله ، فلما ظهر اكتافيوس حسده ، وكادت الحرب تقع بينهما ، ولكنهما اصطلحا وضما اليهما ثالثا هو لبدوس ، وكان واليا على الغاليا ، اقتسم هؤلاء المملكة بينهم لمدة ثلاث سنوات ، ووافقت الامة على ذلك بالانتخاب العام ، وذلك سنة (42) ق•م •

ثم أن انطونيوس ذهب الى مصر التي كانت له ، واستهوته كليوباطر [1] فشغل بها عن الملك • وصار ينوي احداث مملكة شرقية يورثها ابناء عشيقته ، وبذلك زالت ثقة الرومان منه ، ولبدوس جعل رئيسا دينيا ، فبقي اكتافيوس يدير مملكة رومة وحده ، لا ينافسه الا انطونيوس صريع تلك الغانية وفاقد ثقة الامة •

نجح اكتافيوس في سياسته ، وأراد انطونيوس الظهور عليه بالحرب ، فحاربه ولكنه لم ينجح فقتل نفسه سنة (30) ق•م وفعلت كليوباطر فعله [2] فاستراح اكتافيوس من عدوه ، ثم قضى على

---

(1) يسميها ابن خلدون كلابطرة .

(2) وبموتها انقرض ملك آل بطليموس من مصر . وقد كان تولاه بطليموس الاول سنة (323) ق.م .

الجمهورية التي عاشت خمسة قرون ، وقال ابن خلدون : عاشت سبعة قرون .

في سنة 27 ق.م لفظت الجمهورية النفس الاخير ، وسمي اكتافيوس امبراطورا ، وتلقب اغسطس ، واستمرت الدولة الرومانية من عهده امبراطورية ، ومعنى امبراطور صاحب الامر .

والجزائر لم يستول عليها الرومان استيلاء عسكريا الا على عهد الامبراطورية .

4 ـ ديانة الرومان

للرومان آلهة عظمى عامة ، وآلهة صغرى خاصة بالاسر أو المنازل ، فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من أسلافهم ، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالاسر ، ويعتبرونهم آلهة خير ما نشطوا لعبادتهم ، وقربوا لهم القرابين ، وان هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر ، ويمثلون أرواحهم في الديدان ، فيطعمونها الفول الاسود .

ومن آلهتهم العظمى جوبتير (كوكب المشتري) ، وهو إله المطر ، ومنها جونون ، وهي الهة النور والزواج ، ومنها منيرف ، وهو إله الفطانة ، ولهذه الثلاثة برومة معبد مشترك بينها ، ويعتقدونها حامية رومة .

وهناك آلهة للحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والاخلاق وغير ذلك ، ويبلغ عدد آلهة الرومان مائة وستين الها .

أولئك الآلهة يستغيثون بها ويستعينونها في جميع شؤونهم . وهم أكثر الامم اعتناء بالآلهة ، فقد كان ببعض معابدهم ثلاثين الف

ثمثال ، حتى قال أحدهم : « وطننا مملوء آلهة حتى أن وجود اله أيسر علينا من وجود رجل » •

ولم يكن للديانة الرومانية حقائق واصول للعبادة ، وانما كانت ذات أعمال مثل تقريب القرابين ، وغايتهم في العبادة الاستعانة على النصر أو الاستعانة لتصريف المصائب •

ولم يكن لآلهتهم أولا تماثيل ، ثم تأثروا بالاغريق ، فصاروا يتخذون لها تماثيل في صور بشرية •

وعلى كثرة آلهتهم اضافوا اليها آلهة أخرى مما وجدوه لدى الامم التي استولوا عليها ، فأخذا من آلهة المصريين وأهل آسيا الصغرى ، ولم يدعوا الها من آلهة الاغريق الاعبدوه •

وكان علماء الرومان يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لأصل رباني عام • لذلك لم يأنفوا من عبادة آلهة الامم المغلوبة لهم ، ولم يلزموها بعبادة آلهتهم • وقد اشتهر الرومان بالتسامح الديني والتساهل في شأن الآلهة •

5 ــ الحيــاة الرومانيــة

كانت الحياة الرومانية ــ منذ عرف الرومان الى القرن الاول للميلاد ــ حياة بساطة لا رفاهية فيها ، حتى ان من عظمائهم من كان يحرث بيده ، وأكثر أثاث عظمائهم بسيط وأوانيهم من خشب •

تمكنت روح البساطة منهم فلم تتغير حالتهم حتى بعد استيلائهم على الاوطان الكثيرة الغنية بنتائجها الراقيــة في حضارتها • فبقوا فلاحين أو جنديين أو سياسيين لا تجارا ولا فنيين ، وبقيت الصنائع والفنون بيد غيرهم من الاحرار والمماليك •

كان غرض الرومان من الحياة توسيع الثروة حبا في المال نفسه • ومن كلمات كاطون أحد عظمائهم : « ان مـن مات والفي بدفاتر حاصلاته انه ربح أكثر مما ورث فذلك ملهم من الآلهة »[1] •

ولكثرة اشغالهم وشدة عنايتهم بكسب الثروة صاروا أقل الامم حبا في الملاهي وابعدها عن التظاهر بالعظمة •

ملابسهم كانت خشنة : يلبس الرجل السراويل وقميصا سابغا بأكمام وبغيرها • ونساؤهم يكثرون من الحلي وضروب الزينة كصبغ الشعر وطلاء الوجه ، ويخرجن سافرات ، ويلبس كل من الرجل والمرآة خفافا غلاظا •

وللخاصة لبـاس يميزهم : الشـيوخ لهم قمصان ذات حواش حمراء ، والقضاة لهم خفاف حمر ، والاحرار لهم حلة مـن الملف الابيض ، وهي رداء غير مربع ، يبلغ طوله نحو تسعة أذرع •

ولم يزل الرومان على بساطتهم في اللباس حتى ان الامبراطور قليغولة غار من لباس بطليموس ملك موريطانيا البربري وبهت منه العامة ، وافضت الغيرة الى الانتقام بالسجن ثم القتل ، فمات بطليموس شهيد لبسته !

ومساكنهم كانت خشبية مطينة ، ثم ترقوا قليلا فبنوها بالحجارة ، ولم تكن لها نوافذ لعدم معرفتهم لصناعة الزجاج • وعلى خلوها من النوافذ كانت ضيقة متقاربة ، والانهج غير واسعة ولا منظمة ، والنظافة قليلة ، والضوء معدوم ليلا •

وكانت لهم بناءات عمومية ، وهي أرفع من بناء مساكنهم •

---

(1) ماليت ص330

لم يزل الرومان كذلك على بساطة حياتهم حتى فتحوا البلدان . واستولوا على الامم ، وأقاموا بين ظهرانيهم ، وطالت معاشرتهم لهم • اذ ذاك تأثر الغالب بالمغلوب وجاراه في حياة النعيم والرفاهية • وفي الحقيقة ان المغلوب لا يؤثـر في الغالب ، وانما أثرت تلك الامم في الرومان لانهم مغلوبون لها في العلم والحضارة •

أخذوا عن اليونان وأهل المشـرق الملابس الرقيقة . وزينـوا البيوت بالتماثيل والرخام والحجارة النفيسة ، وفرشوها بالزرابي • وأكثر ما تأثروا في حياتهم بالاغريق ، ومع ذلك لم يأخذوا عنهم فنهم في البناء • ولم تزل آثار البناءات الرومانية دالة على فقـد الذوق اللطيف للرومان ، وهي تمتاز بأنها عظيمة ذات أقواس . بسيطة ليس فيها تحسين •

6 ـ الرومـان في افريقيـة

انتهت الحرب البونيقية الثالثـة بالقضاء عـلى مملكة قرطاجنة وتخريب تلك العاصمة وحلول الرومان محل القرطاجنيين ، فاستولوا استيلاء فعليا عـلى التراب الاصلي لقرطاجنة ، وأطلقوا عليـه اسم « مملكة الرومان بافريقية » وجعلوا على هذه المملكة أو الولاية واليا مقره عوتيفيه •

وهذه الولاية عبارة عما بين وادي توسكا (ناحيـة طبرقة) شمالا ، ومدينة تينة (جنوب صفاقس) جنوبا • وخطها الغربي من جهة نوميديا غير مستقيم فانه يمر من توسكا حتى يقترب من قفصة ثم ينحني حيث ينتهي في تينة قرب البحر • فهي عبارة عن جزء غير كبير من عمالة تونس •

ولم تكن تطمع الجمهورية الرومانية اذ ذاك في توسيع هذه

الولاية وبسط نفوذها الفعلي على الشمال الافريقي ، لعلمها بشجاعة البربر وحماسهم في الدفاع عن وطنهم ، وجهلها بدواخل هذا الوطن ، فاكتفت باعتراف ملوك البربر بالسيادة الاسمية ريثما تلين قناتهم ، وتضعف شوكتهم •

وكانت الجمهورية لما فتحت قرطاجنة بعثت عشرة من الاعيان لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة ، فاتفق رأيهم على هدم ما أبقاه الحريق منها فتركوها قاعا صفصفا كان لم تغن بالامس ، ولعنوا باسم آلهتهم موضعها ، ولكنهم بعد قليل اضطروا لتجديدها •

وذلك ان ايطاليا ضاقت باهلها بسبب استحواذ طبقة الاغنياء على أراضيها وجلب العبيد لخدمة تلك الاراضي ، ويقال : ان عدد هؤلاء العبيد بلغ ثلاثة ملايين • وأصبح عدد عديد من الايطاليين لا اراضي لهم يستغلونها ولا عمل يشتغلون به ، حتى انه كان برومة أكثر من اربعمائة الف لا عمل لهم غير الجولان بالازقة •

وكان كايوس انتخب للمحامات عن الشعب سنة (123) فاقترح ــ لرفع هذه الازمة ــ ارسال جاليات من أولئك الفقراء من المال والعمل الى الولايات الرومانية •

وكان روبريوس من محامي الشعب ايضا فاقترح سنة (120) ق•م ، تجديد قرطاجنة وارسال طائفة من فقراء الشعب لتعميرها •

قبل الشيوخ اقتراحه ، وعين كايوس لتنفيذه ، فجاء الى قرطاجنة بستة آلاف ايطالي ، ومكث في تجديدها ثلاثة أشهر ، وحينما تم تجديدها اطلق عليها اسم « جونونيا » تبركا باسم جونون وجعلت هي حامية قرطاجنة •

وكما ان هدمهم لمدينة قرطاجنة لم يذهب بها وحييت من جديد

كذلك تغييرهم لاسمها فان تسميتهم لم تزاحم الاسم الفينيقي ، وابى الله الا أن يبقي الاسم الاول هو المعروف المشتهر •

نهضت قرطاجنة من جديد وقصدها الرومان بالهجرة ، وانضموا الى بقية العساكر الرومانية التي استوطنت افريقية ، وبما انهم نسخوا القرطاجنيين وحلوا محلهم استفادوا من علاقات القرطاجنيين مع البربر ، فانبثوا في مدن الولاية الافريقية ونوميديا ، وانتصبوا فيها للتجارة والصناعة ، فتمكنوا بذلك في افريقية •

7 ـ استيلاء الرومان على الجزائر

بعد واقعة طبسوس سنة 46 (ق•م) استعمر الرومان شرقي نوميديا واطلقوا عليها اسم افريقية الجديدة أو نوميديا الحديثة ، ومنحت نوميديا الوسطى (قرطة والمدن التابعة لها) لستيوس • واطلق عليها اسم « مستعمرة ستيوس » •

ولعل الرومان أرادوا أن يجعلوا حكم ستيوس لنوميديا الوسطى دور انتقال يسهل عليهم اضافتها الى مستعمراتهم من بعد ، ولكن عرابيون قتل ستيوس فحرم الرومان من هذه المستعمرة • واصبحت من بعد ذهاب المملكة البربرية ولاية رومانية لها أنظمتها وادارتها ، متمتعة بالاستقلال حتى أن من المؤرخين من يعبر عنها بالدولة ومنهم من يعبر عنها بالجمهورية •

اما نوميديا الغربية (قسم سطيف) فقد بقيت بيد عرابيون البطل البربري • والظاهر ان رومة اضافتها الى مستعمراتها بعد قتله •

وأما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بيد امراء بربريين آخرهم

بوكوس الثالث المتوفي سنة 33 (ق٠م) ٠ وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم ، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة ، وأراد ان يغرس بها الحضارة اللاطينية ؛ ولكنه خشي شـدة شكيمة البربر ، فلم يعجل بتنفيذ برنامجه ، وتظاهر للموريطانيين باللطف والمجاملة حتى وجد رجلا من بني جنسهم ولكنه مخلص لرومة ، فولاه على موريطانيا سنة 17 (ق٠م) ٠

هذا الرجل البربري الروماني هو يوبا الثاني الذي مهد وطنه لسادته الرومان وشجعهم على امتلاكه بعد ما حاولوا ذلـك منذ أزمان ، واشرأبت أعناقهم اليه فلم يقووا على تحقيق آمالهم فيه ٠

وهكذا لولا الخيانة الجنسية من بعض الرؤساء وضعف الغيرة القومية من الامراء ما حكم أجنبي وطنيا ولا ساد غريب أهليا ٠

في سنة (42 م) بعد قتـل بطليموس ألحقت موريطانية برومة نهائيا ٠ وبذلك تم للرومان الاستيلاء عـلى الوطن الجزائري الذي شرعوا في تحقيقه منذ سنة 46 ق٠م فكانت مدة سير استيلائهم ثمانية وثمانين سنة ٠

ومع بطء هذا السير فانه لم يكن ثابت القدم عاما على الوطن الجزائري فان الرومان لم يتقدموا لهذا العهد الى الصحراء ، وخط حدودهم يقترب من البحر كلما تقدم ناحية الغرب ٠ وتوجد داخل الحد أماكن غير خاضعة لرومة منها جمهورية المدن الخمس : قرطة ، ميلوم ، روسقاد ، شولو ، قويقلوم ٠ ولم تدخل في فوضى الاستعمار الروماني الا منذ انحل اتحادها أواخر القرن الثالث ٠ ومنها القبائل الخمس (القبائل) الذيـن كان الرومان يسـمون وطنهم « جبل الحـديد » (MONS FERRATUS) .

ولم يتمكن الرومان من اخضاعهم الا سنة (297) ٠ وأكثر البربر

الساكنين بالجبال لم يخضعوا لرومة • ومن خضع منهم لا يضيع فرصة الثورة مهما سنحت •

وخلاصة الكلام ان الرومان لم يستولوا حقيقيا على كل الوطن الجزائري رغم امتداد ايامهم به • وسترى ما ينير لك الحقيقة •

8 ـ حدود حكـومة الرومـان بالجزائـر

كان من عادة الرومان أن يحـدوا ما يفتحون من البلدان اما بحدود طبيعية أو صناعية : فيحدون بالجبـال والاودية أو ببناء جدران أو حفر خنادق وجعل كثبان من الرمل أو التراب خلفها • وذلك اتقاء لهجمات الهاجمين وحفظا لمستعمراتهم ان تروج بها بضائع أجنبية وهم لا يشعرون •

وقد كان حد حكومة الرومان بالجزائر في القرن الاول للميلاد يمر شمال أوراس ويجتاز سهول سطيف ومجانة الى سور الغزلان ثم يتوسع قليلا فيمر بالبرواقية وساحل شلف ويجتاز وادي ميناس الى ناحية غليزان ووادي سيك • وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر وينتهي بمصب نهر ملوية •

وبعد حين اضطر الرومان الى تقديم الحدود جنوبا • وكانت لهم مراكز عسكرية على الحدود • وبعد سنة مائة بقليل تقدمت مراكز الحراسة الى الجنوب ، وأحاطوا جبل أوراس الممتنع عليهم بالحصون • ولم يتم لهم فتحه الا أواخر القرن الثاني •

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني مارا جنوب أوراس وشاطىء وادي جدي الايمن ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير حيث القاهرة ، والمظنون انه يمر بناحية بوسعادة

ويشتمل على الحضنة من جهتها الغربية ، ثم يذهب الى قرب سور الغزلان جنوبا ، ويمر ببوغار وتيهرت وتلمسان وللامغنية •

وقد يكون للحرس الروماني نقط حربية خلف الحدود ، وقد تقدموا بها في بعض الجهات الى الصحراء حتى أن منها ما كان على الاغواط بثلاثين ميلا •

ولم يدخل الرومان الصحراء الا في عمالة قسنطينة دخلوها من ناحية أوراس • أما عمالتا الجزائر ووهران فليس للرومان فيهما الا الجهات التلية المعبر عنها بموريطانيا القيصرية ، وبقيت الصحراء في منجاة من تسلط الرومان • ذلك لانهم أولا ليسوا بأمة صحراوية حتى يقدروا على فتح الصحراء أو تشتد رغبتهم في فتحها ، وثانيا لم تكن الجهات التلية خالصة لهم فلم يكونوا مطمئنين منها حتى يغرروا بانفسهم في الصحراء •

9 ــ جنـد الاحتـلال

اعتمدت رومة في فتح الشمال الافريقي على ثلاثة أشياء :

1 ــ السياسة الملعونة : فقد كانت تذكي نار المنافسة بين ملوك البربر ، وتعمل لتفرقة المملكة الواحدة بين الامراء المتنافسين ، واضعاف الغيرة القومية بمحاربة ابطالها •

2 ــ الاستعانة ببعض البربر ضد الآخر : فان سياستها لما راجت على بعض رجال البربر من ملوك وأمراء صاروا يخدمونها ويعينونها على اعدائها أحباء الاستقلال • وكلما أرادت رومة رجلا بربريا يخدم مصالحها لم تعدمه ، لان الشعوب لا تخلو من خونة • فكان لرومة ملوك وأمراء بربريون مصافون لها أو مغترون بسياستها أو خائفون

من عظمتها • وقد استفادت رومة مـن سياستها تلك واعانة بعض البربر لها فوائد لا تقدر الجيوش الجرارة على تحقيقها ، بيد أنها لم تفز بها الا بعد أزمان لان مطامعها في الجزائر ابتدأت منذ عصـر مصينيسا ولم تسـتول عليها ذلـك الاستيلاء المثقـوب الا بعد بطليموس •

3 — الجند الروماني : فان رومة مهما اضطرت للحرب جاءت بجنودها والجندي الروماني معروف باخلاص الطاعة والصبر عـلى الاتعاب • ولم تحتج رومـة في فتح الوطن البربري الى جيوش كثيرة لانها لم تجد أمامها جيشا منظما تنظيم جيشها الا في حرب زامة وحروب يوغورطة وتقفاريناص •

ولم تكن لتأمن وثورات البربر لا سيما واستيلاؤها على الوطن الجزائري غير عام ولا ثابت الاركان • فاتخذت حامية بتبسة تراقب البروقنصلية (تونس) ونوميديا (قسنطينة) ، وحاميـة لمراقبـة موريطانيا الشـرقية (الجزائر ووهـران) وموريطانية الغـربية (مراكش) •

أما حامية تبسة فتدعى « الفرقة الثالثة الاغسطية » نسبة الى اغسطس قيصر • وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (5500) وهذه هي الفرقة الكبرى وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر الفا ، وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة •

وتلك الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود رومة ، وبها كثير من الغاليا ، وبعد حين صار الرومان يعلمون البربر ويجندونهم • ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج الى الفرقة الثالثة ، فصارت هـذه الفرقة متركبة من جنود البربر وابناء قدماء الجنود الرومانية •

واما الفرق الصغيرة فكانت ايضا تجلب مـن الخارج ، وبقي الامر كذلك حتى بعد دخول البربر في الفرقة الثالثة •

وفي سنة (122) نقل الامبراطور هدريان مركز الفرقة الثالثة من تبسة الى لمبس • وفي أيام ديوقلطيانس صارت لمبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي •

وبطول عهد هذه الفرقة ودخول البربر فيها وكثرة الاضطرابات برومة نقصت طاعتها لرومة ، وقـد تعارض في امبراطورية بعض ، وتؤيـد بعضا • والغيت سـنة (238) وعوضت بالفـرقة الثانيـة والعشرين •

وأما حامية الموريطانيين فكان عددها نحو خمسة عشر الفا • وهي من البربر المخلصين لرومة •

فمجموع جيش الاحتلال بتونس والجـزائر ومراكش نحـو (34000) ليس به من الجنود الرومانية غير نحو (8000) •

الجنود الرومانية تحارب وقت الحرب وتشتغل بالفلاحة حـين السلم • يسـمح القانون الروماني للجنـدي بالزواج ، وكانت لهم مرتبات حسنة • والمتقاعد يعطى كفايته ويسكن قرب المركز الذي كان بـه ، ويمنح اراضي وحيوانات يقوم بخدمتها ، ويعفى مـن الضرائب لكن بشرط أن يحل أحد من أبنائه محله •

وبهذه الطريقة أصبحت الحدود عبارة عن مستعمرات من الجند تحول دون غارات الهاجمين • وكان خط الحدود مقسما الى أقسام كل قسم تحت حراسة ضابط •

وفي حوالي سنة (200) اذن الامبراطور سبتمس سورس للجنود

بالبقاء مع أزواجهم خارج المراكز العسكرية بصفة مستمرة • فصارت تلك المراكز اما مواضع لتمرين الجند واما مختزنات للسلاح والمؤن •

ولحسن ذلك النظام في حفظ الحدود بقي الحد الروماني الذي بلغوه في القرن الثالث بحاله رغم الثورات المتعددة داخله • واستمر غير متأثر بما يجري داخل المملكة حتى سقط الحكم الروماني من الجزائر •

10 ـ النظـام الروماني بالجزائـر

علمت ان استيلاء الرومان على الجزائر كان تدريجيا وغير ثابت الاركان • لذلك لم يستقر النظام الروماني بالجزائر على حال •

كان ما أخذه الرومان من نوميديا ـ على عهد يوليوس قيصر ـ تحت ولاية سالوست • وبقيت نوميديا كذلك لها واليها غير والي البروقنصلية ، ومـن هؤلاء الولاة سكستيوس نائـب اكتافيوس ، واخيرا تغلب على والي البروقنصلية واضافها الى ولايته • ثم عزل على عهد اكتافيوس نفسه وجعل مكانه فانغو على نوميديا خاصة ، وولي هو عـلى البروقنصلية ، فوقعت بـين هذين الواليين معارك انتهت بانتصار سكستيوس وقتل فانغو نفسـه • وأصبح هذا المنتصر هو الوالي الوحيد بجميع ممتلكات رومة بافريقية •

ثم في عهد امبراطورية اكتافيوس ايضا سمي يوبا الثاني عـلى نوميديا • ثم نقل منها الى موريطانيا سنة (17) واضيفت نوميديا الى البروقنصلية وجعلتا تحت عامل يسميه مجلس الشيوخ •

وفي سنة (37 م) على عهد غليقلا تركت البروقنصلية على نظامها العتيق وجعلت نوميديا ذات وحدة ادارية يرأسها ضابط عسكري في

رتبة عضو بمجلس الشيوخ • وهذا الوالي يخاطب رومة من غير واسطة • وهو تحت نظر الامبراطور ويلقب ليغاتوس •

وفي سنة (42) قسم الامبراطور قلوديوس الجزائر الى قسمين :

نوميديا ، من طبرقة شرقا الى مساغا غربا ، وموريطانيا القيصرية من مساغا شرقا الى ماوشات غربا •

وجعلت موريطانيا القيصرية تحت نظر الامبراطور يسمي بها العمال ولهم تفويض في الادارة • وكان لنائب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتبا يقدر بنحو اربعين الف فرنك •

وقد كان بالشمال النوميدي مدن مستقلة كما كانت جبال جرجرة ممتنعة عن الرومان • وفي سنة (297) بعدما انحلت الصلة بين هذه الجمهوريات ، وعمت بها الفوضى ، وتغلب ديوقلطيانس على جبال جرجرة حدث تغيير في نظام الحكومة الرومانية بالجزائر فقسمت الى أربعة أقسام :

1 — نوميديا القرطية (وهي الشمال النوميدي) قاعدتها قرطة •

2 — نوميديا العسكرية (وهي الجنوب النوميدي) قاعدتها لمبس •

3 — موريطانيا السطيفية (مابين مساغا وصلداي) قاعدتها سطيف •

4 — موريطانيا القيصرية (ما بين صلداي وملوشات) قاعدتها قيصرية •

ولما ثبتت قدم قسطنطين بامبراطورية رومة أحدث سنة (323) تغييرا في الولايات الامبراطورية ، فقسمها ثلاثة أقسام كبرى :

ولاية ايطاليا ، ولاية الغاليا ، ولاية المشرق • وجعل تونس

والجزائر تابعتين لولاية ايطاليا ، وتداران مـن طرف واليها المقيم برومة • وهذا الوالي تحتـه وزراء : وزير للمالية ووزير للاملاك الدولية ووزير للحربية ، وكلهم برومة ولهم نواب يمثلونهم بافريقية : فكان الوالي يمثله قنصل افريقية ، ووزير الحربية يمثله :

1 — كونت افريقية ، ولم 16 قائدا على الجنود المرابطة بالحدود الجنوبية والفرق المنتقلة (الكونت : عين من الاعيان) •
2 — دون موريطانيا القيصرية وله 8 قواد • وقد تكون بيد السلطة المدنية (دوق : شريف) •

ولم تكن هذه التقاسيم مبنية عـلى اعتبارات جغرافية ، وانما نظر فيها الى المصالح الحربية ، ولذلك تغيرت حسب الظروف •

وبما ان الاستيلاء الروماني لم يكن عاما فقد كانت المدن تنقسم الى قسمين : مدن تحت السلطة الفعلية للرومان ، ومدن لم تتمكن منها اليد الرومانية • والاولى كانت على ثلاث درجات :

1 — مدن رومانية : هذه معتبرة كوطن روماني ، أهلهـا يتمتعون بكل الحقوق الرومانية ، ينتخبون ومعفون من الضرائب •
2 — مدن بلدية (MUNICIPES) • هذه لها كل الحقوق الرومانية ما عـدا الانتخاب •
3 — مدن لطينية : لها حرية التجارة والتملك ، وليس لها حـق الانتخاب والاعفاء من الضرائب ، وانما هذان الحقان لخصوص المتقاعد من حكامها •

والثانية كانـت على ثلاثـة أقسـام أيضا :

1 — مدن معتبرة حليفة للرومان •
2 — مدن حـرة •
3 — مدن معفاة من الخراج •

وهذه الاقسام للنوع الثاني من المدن تختلف ادارتها : فمنها ما هو محافظ على شكل الادارة البونيقية لها حكام وقضاة ومجالس من الاعيان ، ومنها ما هـو تحت رؤساء بربريين يعينهم الامبراطور ويمنحهم رداء يدعى « رداء الولاية » وقد يعطيهم اعانات ويوجب عليهم حراسة ما بجوارهم من الحدود • وقد تسمح رومة لبعض هذه المدن بانتخاب مجالس بلدية •

ورئاسة الرؤساء البربريين على بني جنسهم وراثية ويدعون اما عمالا أو أمراء ، وقد يلقبون انفسهم بلقب ملك •

اما المدن الرومانية فكانت تنتخب كل سنة حكامها • وهؤلاء الحكام يتصرفون في مالية البلدة ويقومون باصلاح القناطر والطرق والبناءات العمومية ويقبضون المغارم ويسهرون على حفظ الامن العام ويقضون بين الناس •

والى جانب الحكـام مجلس بلدي يعينهم ويراقـب أعمالهم ويشترط في العضو بهذا المجلس ان يبلغ ثروة محدودا أقلها قانونا ، وان يدفع للميزانية البلدية من ماله قدرا من المال • ولا مرتب له •

وأعضاء هذا المجلس ضامنون في مالية البلدة التي يتصرفون فيها • واذن فادارة المدن كانت بيد طبقة مثرية قليلة العدد •

وكان نطاق أكثر البلديات واسعا جدا : بلدية هبون (بونة) كانت تمتد غرب المدينة ثلاثين ميلا ، وشرقها خمسين ميلا •

وكانت للامبراطور ورجال من أعيان الشيوخ أملاك واسـعة مستقلة عن تراب البلديات • يقوم بحفظ تلك الاملاك وكلاء عن اربابها • والوكيل على أرض هو الحكم على من بها والقائم بحفظ الامن فيها • ولسكان تلك الامـلاك نواب يختارونهم للدفـاع عن حقوقهم •

وبهذا تعلم ان الدولة الرومانية لم تكن تتداخل في ادارة شؤون الجزائر الداخلية ، ولا مكثرة من المتوظفين الذين لا فائدة فيهم غير اثقال كاهل الميزانية • بل انها تركت الدوائر البلدية وشأنها تدير أمورها بنفسها ، ولم تتخذ من الموظفين الا العدد القليل للقيام بالشؤون الهامة • وكان الوالي لا يتداخل ـ بصفة قانونية ـ في شؤون المدن الرومانية الا في الخصومات المدنية الهامة والجرائم . فهو الحكم في ذلك ، وله مراقبة المالية •

١١ ـ جمهورية المدن الخمس

كانت قرطة عاصمة الملوك النوميديين منذ القرن الثالث قبل الميلاد • وقد اعتنى بها بعض أولئك الملوك فرقوها ترقية عالية •

ميلوم (ميلة) وروسقاد (سكيكدة) وشولو (القل) وكويكلوم (جميلة) ، هذه المدن يقول عنها المؤرخ بلين : انها كانت أولا قلاعا حربية ، وأخذ عمرانها يتسع حتى أصبحت في عهد طرياناس امبراطور رومة (98—117 م) شبيهة بقرطة •

وكانت هذه المدن تحت الملك النوميدي • وبعد واقعة طبسوس انفصلت تلك المدن الخمس عن بقية نوميديا حيث ان يوليوس قيصر منحها لستيوس يستعمرها بجيشه المتركب من الاسبان والايطاليان • واشترط عليه أن يقطنها الرومان • وفي أوليتهم من نصره في حرب افريقيه من الجنود • ومن ههنا سماها بعض مؤرخي الرومان « مستعمرة ستيوس » •

انفصل من عهد ستيوس هذا القسم الواسع الخصب من نوميديا فلم يصر مرتبطا بها في السياسة والادارة حتى أن يوبا لما ولي على نوميديا لم يعرف له نفوذ بهذا الشمال النوميدي •

وقد كانت قرطة هي العاصمة لهذا الشمال ، وتلك المدن الاربع تابعة لها وجزء منها •

ومن القرى التي كانت تابعة لقرطة في النظام والحكم : ثيدي (الخنق) ، ارسقال (عين الكرمة) ، مستار (عين بني زياد) ، وزيلي (وجل) ، صدار (عين الباي) ، سيلة (سيقوس) •

وعلى القرى رؤساء منخرطون في سلك متوظفي قرطة ، وقد استقل بعضها على عهد سبتمس سويرس وخصوصا على عهد قراقلا •

وبعد استعمار الرومان لهذا الشمال النوميدي بقليل ظهرت تلك المدن الاربع بفضل انتشار العمران ، وأصبحت تضاهي قرطة • وأخذت نظاما داخليا مستقلا مع بقائها متعلقة بقرطة •

وكانت جميلة دون بقية المدن الاربع • بل قليلا ما تضاف اليهن • وسبب امتياز هذا الوطن عن بقية نوميديا واختصاصه بنظام صار به كمملكة مستقلة انه كان تحت رئاسة ستيوس ناصر قيصر ومغلبه على اعدائه الاقوياء الكثيرين •

وسبب اتحاد قرطة وميلوم وروسقاد وشولو انه حدث خلاف بين سكان هذه المدن الاربع على بعض الاراضي أيام أغسطس قيصر • وكان القرطيون قد أعانوه على عدوه ومنافسه انطونيوس ، فكانت لهم بذلك عليه يد • فلما رفعت صورة الخلاف اليه لم يشأ أن ينصف أهالي المدن الثلاث من أهالي قرطة ، ولكنه أصلح بينهم وعقد لهم محالفة رباعية ، وجعل لكل مدينة ادارة شؤونها الداخلية على أن يكون لقرطة فضل الاشراف على الجميع • فكل مدينة تضرب الضرائب وتجبي الغرامات وتصرفها في مصالحها ، ولكن رئيس قرطة هو

المراقب لاعمال سائر المدن ، ويساعده في بعضها مجلس بلدي ، وفي بعضها مجلس من المتوظفين حيث لم يكن لها حق الانتخاب •

وتدار هذه المدن المتحالفة على ايدي رجال تنقسم وظائفهم اربعة أقسـام :

1 — الرجال الثلاثة (تريومفير) • لهم من النفوذ ما لقناصل رومة وينتخبون لمدة سنة فاتحتها يوليـه • والمترشح يعلن قبـل الانتخاب مباديه ، ويرأس جلسة الانتخاب من الرجال الثلاثة المنتخبين سابقا أكبرهم سنا • وهذا الرئيس ينظر في المترشحين واستيفائهم للشروط • ويعلن بقبول اجراء انتخاب المستوفي لها • ومن انتخب لا يقبل تسليمه •

والرجال الثلاثة يتولون قيادة الجيوش وفصل النوازل بأنفسهم أو بمن يقيمونه نائبا عنهم ، وبيدهم نظام الادارة بأسره ، وكونهم ثلاثة هو الغالب • وقد يبلغ عددهم أحيانا خمسة أو سبعة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين • وهم اما من أعيان الرومان أو ممن كان قنصلا برومة •

2 — رجال الشرطة (الايديل) • وظيفتهم الخاصة بهم مراقبة البناءات العمومية والحمامات الدولية ودخلها والمحافظة على نظـافة الشوارع وجلب الحبوب الى المدينة وتشكيل الحفلات ومراقبة الامن بالاسواق والموازين والمكاييل وتأديب المعتدين بالجلد أو بالتغريم •

ويرأس هـذه الوظيفة رجلان يضع كـل منهما خمسة آلاف ضمانـا •

3 — وزير المالية • يقوم باستخلاص المغارم ، ويقدم لرجال الشرطة المال عند عروض داع اليـه • وهو الرئيس الاعلى لادارة المالية • ولا يوجد ما يدل على انـه كان ملزما بوضـع ضمان عند توليتـه •

4 — العمال • كانت وظيفتهم في بلدان الجمهورية ما عدا قرطة • وهم بمثابة الرجال الثلاثة في قرطة • والظاهر ان يكون منهم لكل مدينة واحد • وينتقل العمال في المدن الثلاث من واحدة لاخرى •

وهناك متوظف غير من سبق يلقب « كورتور » (CURATUR) يسميه الامبراطور • وقوة نفوذه تابعة لقوة نفوذ الامبراطور في البلد الذي سماه فيه • ولم يكن للامبراطور قوة في هذه الجمهورية الا بعد انحلالها ومجيء البيزنطيين • فصارت وظيفته اخيرا قبض الخراج والقيام بجل الوظائف البلدية •

وكما كان لسياسة هذه الجمهورية رجال كان لدياناتها أيضا رجا ل، وهم أقسام :

1 — القائمون على الهيكل بذبح قرابينه وتقديمه لناره • واقدارهم مختلفة باختلاف عظمة الهيكل القائمين عليه • ولا يكون القائم على الهيكل الا من بيت شريف • ويعتبر هو وذريته وماله وقفا على خدمة ذلك الهيكل •

2 — المراقبون للاعمال الدينية اينما كانت ما عدا القرابين التي هي أهم تلك الاعمال •

3 — العرافون • يتولون افراخ الدجاج لزجرها ومعرفة الحوادث الغيبية منها • ويتفرسون أيضا في الضحايا ، نظير ما يوجد اليوم في بعض الافراد من خصوصية معرفة الحوادث بالنظر في عظام أكتاف الحيوانات • فهي من بقايا الوثية •

4 — المرشدون • يقومون بارشاد العامة الى وجوه عبادتها • وكل كبير أسرة يعتبر مرشدا لاسرته • وهذا في نفسه حسن ، فقد قال (ص) : « فالرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم » •

ولعنايتهم بالسياسة عنايتهم بالدين كانت دار الامارة حيث هيكل الاله العظيم « جوبتير » • ومكانها بموضع القصبة اليوم • وهي بذلك الموضع من لدن الملوك النوميديين •

قال بارس : « وهي معمورة بالذخائر • وقد وجدت قطع رخامية تشتمل على حصر تلك الذخائر ، عثر عليها عندما أراد الاتراك بناء قشلتهم[1] • وقيمة هذه الذخائر مناسبة لما كانت عليه قرطة من الثروة والرفاهية » • ثم أخذ في تعدادها • ولكثرتها اكتفينا بالاشارة اليها محيلين محب الاطلاع على أشخاصها على كتاب قرطة (CIRTA)

وقد كان السكان في هذه الجمهورية على طبقتين : أهل الحقوق وغيرهم • الاولون هم من كانت لهم حقوق أصالة أو وراثة أو منحتهم بلديتهم ذلك تشريفا لهم أو تبناهم أهل الحقوق أصالة • والاخيرون هم الاجانب الذين استقروا بوجه نهائي بمدينة من المدن • وهناك طبقة لا حقوق لها أصلا وهم الاجانب الذين يحلون بالمدينة حلولا مؤقتا من تجار وطلبة علم وعابري سبيل •

وفي كل خمس سنوات يعاد تقييد أهل الحقوق وضبط أملاكهم وتجديد النظر في المغارم •

وكانت الطبقتان كلتاهما تتحملان الواجبات البلدية على السواء • وتختص الطبقة الاولى بأن عليها واجبات :

1 — القيام بالبريد والطرق
2 — استخلاص الغرامات واداؤها •
3 — نفقات الوفود التي توجه الى رومة •
4 — ترميم المعابد البلدية •

---

(1) القشلة سكن الجنود . وليست عربية .

5 — التبرع على المشاريع البلدية ، مثل التمثيل • القائمون بهذه الواجبات متمتعون بالحقوق السياسية تماما • وينتخب منهم في كل عمارة عشرة • ثم يجتمع هؤلاء المنتخبون في مجلس أعلى يكون هو الممثل للامة ، فيتولى جميع شؤونها من تسمية وعزل • وأصحاب هذا المجلس أنفسهم على طبقات مرتبة حسبما يلي :

1 — طبقة الديكريون • يختارهم الحكام (الرجال الثلاثة) من أماثل المنتخبين •

2 — طبقة العظماء • وهم من كان عضوا بمجلس الشيوخ أو قائد جيش بلغ درجة تسمح له بالركوب •

3 — لجنة الاعضاء الخمسة • وهم من كان له مرتبة أهل الطبقة الثانية غير انه لم يكن من العظماء السادة •

4 — العرافون •

5 — رجال الشرطة •

6 — أمناء المال البلدي •

ويشترط فيمن يكون عضوا بهذا المجلس زيادة على كونه من أهل الحقوق :

1 — أن يكون نظيف السيرة •

2 — أن يكون ذا مال يختلف تقديره حسب القانون الاساسي •

3 — أن يكون عمره (30) سنة ثم خفض الى (25) •

وظيفة الديكريون يمنحها صاحبها طول حياته ما دام حائزا على شروطها • وعددهم غالبا مائة وقد يزيد أو ينقص • ومنهم قسم يحافظون على الاعمال الدينية وعددهم اربعة عشر •

ولكون هذه الطبقة أعلى طبقة بالمجلس لا يصح شيء من أعماله الا بحضور عدد منهم • وأعمال هذا المجلس هي :

1 — تسمية المتوظفين على اختلاف طبقاتهم بعد انتخاب الامة •
2 — منح لقب « مولى » (السيد) لمن كانت له أعمال جليلة اشتهر بها •
3 — تهيئة أعضاء الوفود التي ترسل الى رومة للاعراب عن جور بعض الولاة •
4 — تعيين من يرأس جمعية الديانات الاجنبية •
5 — تجهيز الجيوش عند الاقتضاء •
6 — تعيين مقادير التبرعات الدينية •
7 — تحديد مقادير الضرائب البلدية •
8 — تنظيم الحالة الماليـة •
9 — محاسبة من كلف بشأن عام من طرف المجلس •
10— تعيين لجنة تشتغل ببيان دخل المدينة وخرجها •
11— النظر في البناءات هدما وتعميرا •
12— الامر بمطالبة من هو مدين للمدينة •
13— تعيين أيام المواسـم •
14— الامر بالالعاب العمومية مع تكليف من يتولى تنظيمها •
15— الحكم النهائي فيمايتعلق بتحرير الارقاء وأرش التعديات•
16— امداد أهل الوظائف الخاصة بالنفوذ •

هذا نظام جمهورية المدن الخمس السياسي والديني ؛ قال بارس (VARS) في كتاب قرطة : « وقد كانت قرطة قرار نظام كاد يكون منفردا في امبراطورية رومة » • وكانت علاقة هذه الجمهورية مع امبراطورية رومة أشبه شيء بعلاقة الحامي مع المحتمي بأشرف معنى للحماية • بل عبر عنها بعضهم بمملكة • وكان مبعوثوا الامبراطور للتجول في هذه الجمهورية واستطلاع أحوالها لا يتخذون شـعارا

---

(1) ص4 •

يميزهم • ولم يكن للامبراطور يد في نظام هـذه الجمهورية الداخلي مدة اتحادها •

ونحسن هذا النظام عاش السكان تحته عيشـة راضية وترقى الوطن ترقيا عظيما وارتفع شأنه في الحضارة والعمران • وتقدمت به العلوم والفنون والآداب • ونحن نثبت أبياتا قالها صائغ بقرطة لتنقش على قبره وهي باللطينية ، وهاك تعريبها من غير تصرف :

« أنا المستحيل علي الكلام الآن أقص عليك حياتي في هـذه الابيـات :

تمتعت طويلا بالضوء النير وكنت « برسليوس » الصائغ بقرطة

صفاء طويتي يضرب به المثل وكنت دائما صادق القول

كان ما عندي للجميع ومن ذا الذي لم أشفق عليه

دائم الابتسام تمليت دواما مع أحبائي في حياة مترفة

وبعد وفاة العفيفة الصاحبة « فليريه » لم أجد مثلها

واحتفلت ـ بكل احترام ـ مائة مرة بعيد ازديادي

ولكن أتى اليوم الاخير الذي فيه تغادر الروح الجثمان البالي

وهذه الكتابة التي أنت قارئها قد هيأتها أثناء حياتي لماتي

التي أتاحها لي الحظ • وطالما رافقني ولم يهملني

فاقف أثري واتل سبيلي على ما كانت عليه ثم ائتني فها انا ذا منتظرك هنا » •

بلغ الناس في هذه الجمهورية مبلغا عظيما من البذخ والرفاهية حتى حدثت قرى صغرى وطلبت نوعا من الاستقلال • فاعانها على

ذلك قياصرة رومة تفريقا للكلمة وحبا في النفوذ والاستبداد بالحكم وكان رجال الوظائف بعكس العامة ذهبت ثروتهم بسبب ما كان يثقل كاهلهم من النفقات البلدية .

فوجد قياصرة رومة في بذخ العامة وفقر الموظفين سبيلا للتدخل في اشقاء هـذه الجمهورية . فصاروا يفرقون كلمتها بتلبية طلبات القرى الطامحة الى الاستقلال . ويضعفون نفوذ مجلس الامة بتعيين الموظفين القيصريين مكان من عجز من أهل الوظائف البلدية عن القيام بمأموريته لفقره حتى اضمحل المجلس ووزعت أعماله عـلى نواب القياصرة وعمالهم .

وكان انحلال الاتحاد بين المدن في القرن الثالث . فان ميلوم كانت تنازع قرطة في سيادتها وتجاريها في عظمتها حتى استقلت عنها وضمت اليها روسقاد وشولو . وآخر من تولى رئاسة هذه المدن الثلاث رجل يدعى كمودس (COMMODUS) أصله من ميلة وكان أحد الرجال الثلاثة بقرطة أيام اتحاد المدن .

فلما استقلت ميلة عن قرطة وجمعت اليها تينك المدينتين تولي هذا الرجل رئاسة المدن الثلاث بميلة .

بعد انحلال ذلك الاتحاد وتداخل اليد القيصرية ساءت الاحوال ونقص العمران وارتفع الامن . وما أصدق قوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكذلك يفعلون » وبقيت قرطة لحصانتها محافظة على عظمتها حتى أن الوندال لم يقووا على فتحها .

وكان بها كنيسة عظيمة للمسيحيين تخرج منها قسوس كثيرون منهم دنتوس الذي أحدث في المسيحية مذهبا نسب اليه وضاد به الكنيسة الكاثوليكية وفاز عليها في جميع التراب الجزائري .

بقي لقرطة اسمها واستقلالها حتى ذهب الاثنان على يد قسطنطين سنة 312 .

12 ـ الحياة الرومانية بالجزائر

كان بالوطن الجزائري على عهد رومة طائفة من الرومان الا أنها قليلة ، ويوجد به عدد من الاجانب غير الرومان الا أنه قليل جدا .

قال بيروني : يوجد بافريقية في سنة (200) نحو 200 أو 250 ألف روماني . وفي سنة (400) تقريبا بلغ عدد الرومان نحو مليونين أو مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين . وهذا أكثر احصائية للرومان بافريقية » . واحصاء بيروني هذا يريد به رومان طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . ومعلوم ان الاستعمار الروماني كان بطرابلس وتونس أوسع دائرة وأثبت قدما . وكلما تقدم الى الغرب ضاق نطاقه وقل تأثيره . واذا نقول ان حظ الجزائر من ذلك الاحصاء قليل ، وهو بعمالة قسنطينة أكثر منه بعمالتي الجزائر ووهران .

قرطة كان بها عدد من الايطاليان من عهد مصيبسا . ولما استولى ستيوس عليها وما يتبعها من الشمال النوميدي ترك بتلك النواحي جنودا بعضها من ايطاليا وبعضها من اسبانيا . وقد علمت ان يوليوس قيصر اشترط عليه أن يفتح أبواب مملكته في وجه الرومان ومن كان معه في حروب افريقية . ولما اعتلى عرش رومة اكتافيوس الملقب أغسطس وجه جاليات من الرومان الى موريطانيا : بعضها الى قرطنه (تنس) وبعضها الى رسقونيا (مطيفو) وبعضها الى روصازو (أزفون) وبعضها الى صلداي (بجاية) والى أجلجي (جيجل) والى زكبار (مليانة) والى تبوسكتو (تكلات) . ثم أرسل الى هذه المدن عساكر أكثرهم ايطاليون .

وعلى عهد فلوديوس (41ـ54) ووسبسيان (69ـ79) أو نربا (96ـ98) تكونت جاليات أخر من قدماء الجند في « أبدوم نفوم » (المدينة الحديثة وهي وادي الدفلى) وفي مدوروس وفي سيطيفس .

وقد كان أكثر الرومان بالجزائر من ابناء قدماء الجند .

علمت سابقا أن الحياة الرومانية بايطاليا كانت في غاية البساطة والسذاجة : شظف في العيش وتقشف في الملبس وكد في العمل . وقد نقلنا لك ـ الفصل الخامس ـ كلمة كاطون منهم فيمن يوجد بتركته انه ربح أكثر مما ورث . وفيها ترى شدة عنايتهم بالثروة وعجز وطنهم عن الوفاء برغبتهم ؛ حتى صار يرى هذا الرجل ان سعة الثروة المكتسبة ليس لها طريق يفضي اليها البشر بفكره ؛ وانما ذلك المهام من الالهة خارج عن متناول العقول البشرية .

ان أمة هذه حالها لجدير بها ان تترامى على الاوطان الخصبة بكل ضراوة ، وخليق بها أن تجد في تلك الاوطان ليل نهار لتثأر من الثروة التي عزت عليها في وطنها .

لذلك لما حل الرومان بالجزائر استولوا على كثير من الاراضي وقاموا بخدمتها أحسن قيام فمنحتهم أحسن النتائج ، فراشوا بعد الفقر وبذخوا بعد الشظف وأصبحت الحياة غير الحياة .

بنوا المنازل الشاهقة ووسعوا نطاق المدن التي حلوا بها . فكانت قرطة تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي أوسع نطاقا . ومساحتها تمتد غربا الى جنان الزيتون ومقبرة الاسلام ، وجنوبا غربيا الى قشلة باردوا ، وشمالا الى ضفة وادي الرمل الشمالية . قال بارس : « وذكر أبطات قديس ميلة : انه كان ملاصقا لقرطة حارة عظيمة تدعى «موغاي» . والظاهر انه المعروف اليوم بسيدي المبروك ، وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة » ،

انى ان قال : « وبضواحيها نزلات متقطعة • وقد عثر على آثار بعضها بناحية الحامة » •

وقد مر أن ميلة والسكيكدة والقل وجميلة كانت قرى صغيرة ، ثم أصبحت مدنا عظيمة • ومن القرى التي عظمت على عهد الرومان وصارت مدنا : باغاية ، مسكولة (خنشلة) لمبس ، تمغادي ، فتيرانروم (ديانة قدماء الجند) لمصبة (بالشمال الغربي من أوراس) جميلي ، باديي (بادس) •

والمدن التي كانت بالخط الصحراوي انما رفع عمرانها الجند ، لان الجندي الروماني اذا لم تشغله الحرب فهو عامل نشيط •

والغرض من تأسيس المدن قرب مراكز الجنود المرابطة على الحدود المحافظة على تلك المراكز وتأمينها من روعات الهجمات الصحراوية •

والمدن الرومانية تنقسم خمسة أقسام :

1 — المدن البحرية وهي تجارية •

2 — المدن العسكرية يسكنها الجنود ، ولها أزقة واسعة •

3 — المدن الفلاحية ، أكثر من يسكنها البربر العملة في أراضي السادة الرومانيين •

4 — عواصم أولية وثانوية ، سكنها كبار الولاة ، وبناؤها أفخم وخيراتها أكثر وعمرانها أوسع •

5 — مدن النزهة ، وهي لاصطياف الاسر العظيمة • ومن هذه المدن جميلة • قال بيروني : كانت المدن الرومانية على غاية من الرقي في الحياة والعمران • تيمغادي كان بها من السكان (35) الف : وأكثر المدن يبلغ عدد سكانه نحو عشرة آلاف ، أو خمسة أو ستة الى ثلاثين الفا • كل ذلك على سبيل التخمين • ولكل مدينة هيكلها

الوثني أو كنيستها المسيحية • ولها أسواق وحمامات • ومنها ما فيها المراسح للتمثيل والملاعب لمصارعة الحيوانات الضارية •

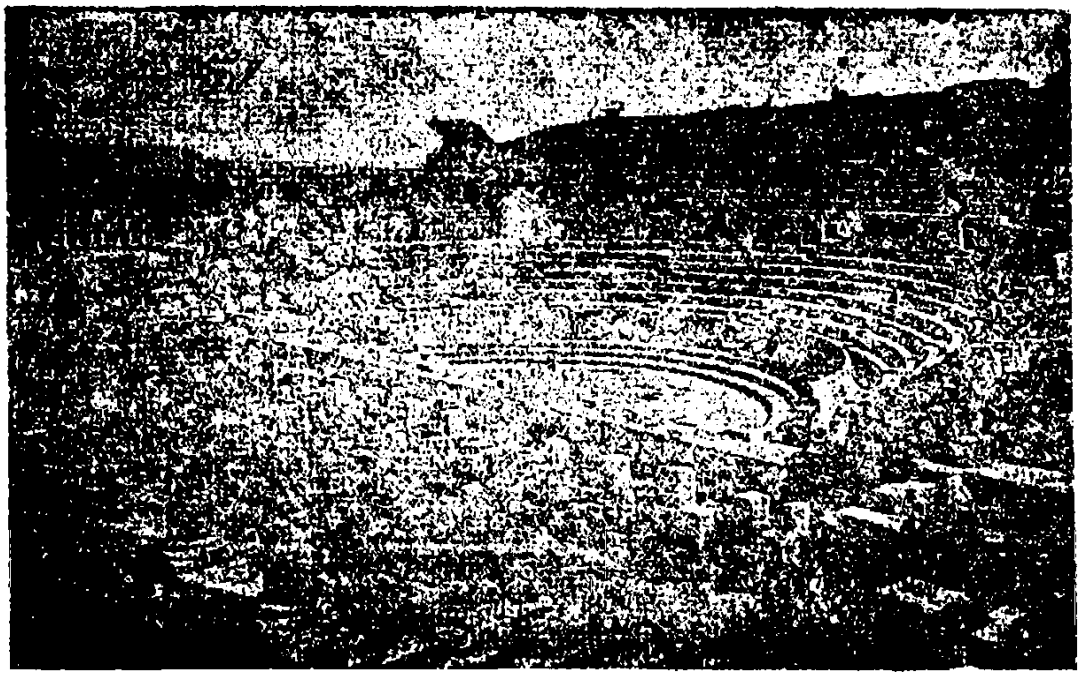

ش — 17

مسرح تيمغاد

والبريد سائر بين المدن • ومواقع المدن يراعى فيها وجود الماء ومناعة المكان •

المباني الرومانية ممتازة بالعظمة غير أنها خالية من الدقة وجمال الفن • وفي كل مدينة ساحة عمومية للاجتماع تدعى : « الفوروم » •

وكان من عادة الرومان اذا أرادوا تعمير مكان خطوا به خطين أحدهما من الشرق الى الغرب والآخر من الشمال الى الجنوب ، ثم يجعلون شكلا مربعا حول نقطة التقاء الخطين ، ويتخذون ذلك المربع ساحة للقرية (فوروم) • ويحيطون هذه الساحة بدكاكين وأقواس جميلة • والساحة هي المحل الذي تقام فيه الحفلات وتجري بـه الانتخابات وتقرأ به على الامة القرارات •

ومن محال الاجتماع عندهم الحمامات • ولهم عناية بها • قال بارس : « وكان بقرطـة قرب دار الامارة التي هي المعبـد العظيم حمامات عظمى• عرف آثارها سائح انكليزي ووصفها وذلك سنة 1742 وماء الحمامات معدني » •

ومن المباني التي يعتنون بشـأنها المراسـح والملاعب والهياكل الدينية • قال بارس : « وكـل طريق توصـل الى كنيسة محفوفة بالتماثيل يمينا وشمالا ، علاوة على ما في الكنيسة » • وقـد عبث الدهر بتلك المباني الرومانية على عظمتها • فلم يبق منها غير خرابات أكثرها مستور بطبقات التراب • قال غروت : « ولم يزل الباحثون يستكشفون مدنا تدهش أهل القرن العشرين » •

13 ـ الحيـاة البربرية تحت السلطة الرومانية

مر بك في الباب الخامس ما ينير أمامك الحياة البربرية قبـل الاحتلال الروماني ويكفي للعلم بسعادة البربر اذ ذاك أن تعلم أنهم مستقلون ، وروما تخطب ود ملوكهم وأمرائهم •

اما بعد الاحتلال الروماني فان الحياة البربرية تختلف درجـة سعادتها ودركة شقاوتها على نسبة النفوذ الامبراطوري : فالجهات التي يضعف فيها ذلك النفوذ أو ينعدم تكون سعيدة ، والجهات التي يتمكن منها تكون حياة البربر بها حياة العبيد •

قال بيروني : « ان الادارة الرومانية لم تكن متحدة في جميع المستعمرات ولا في أقسام افريقية نفسها ، وذلك لاختلاف أنظـار القياصرة في التشريع وفيما يناسب نفوذهم على الطائفة التي تحت حكمهم » •

انتزع الرومان من البربر جل أراضيهم وأثقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية ولم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية .

1 — أما الاراضي البربرية فانها في الاصل اما مملوكة لملوك البربر واما مملوكة للشعب . فلما جاء الرومان أخذوا كل ما كان مملوكا للملوك والامراء . فاختصت الحكومة ببعضه ، ووزعت بعضه على الرومان الاصليين ، ومنحت بعضه قدماء الجند . وما كان مملوكا للشعب بقي لاربابه مع ضرب الخراج عليهم .

ومن ثار عليهم منهم انتزعت أملاكه وتصرفت فيها الدولة بوجه من الوجوه السابقة . وبطول المدة استولى الماليون من الرومان على أراضي البربر . ومن الرومان من كانوا يكترون من البربر الى آجال ، ولهم أن يجددوا عند انتهائها ، وبفضل العدل الروماني كان المكتري الروماني أسعد من المالك البربري . قال بيروني : « والمالك الاهلي انما هو عامل مجبور على العمل طبعا لا قانونا . وحالة العملة سيئة جدا لا تنصفهم الحكومة في شيء » .

ولكل أرض عدد من العملة يبتاعون معها . والرومان يعتبرون سادة لهم . وبطول الامد أطلق عليهم لقب « مماليك » .

وقال غروت : « ان الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة » .

2 — واما الضرائب فانها من أهم مقاصد الاستعمار الروماني ، وهي — وان كانت مختلفة المقادير — متحدة في كونها فادحة . وتنقسم أربعة أقسام :

1 — الاداء الشخصي : وهو واجب على الرجل والمرأة . ومقداره مختلف .

2 — الاداء على العقار : وهو اما عين أو حبوب • وفي الغالب يكون العشر من حاصل الفلاحة • حتى ان الجابين يسمون العشارين•

3 — الاداء على التجارة الخارجية : وهو واجب على السلع المنقولة من عمالة الى أخرى •

4 — سخرة ادارية : منها تموين الجند واسكانهم • وقد تكون منها كسوة بعض رجال الشرطة •

وكانت الدولة الرومانية لا تتولى استخلاص الضرائب ، وانما تسندها الى أعيان يتولونها ، هؤلاء المستخلصون كانوا يسمون « العشارين » تتفق معهم الدولة على مقدار يؤدونه لها من مالهم ، ويجبون من الاهالي ما يشاؤون • ولهم جنود يستعينون بها على قبض الضرائب حتى انهم في خروجهم للاستخلاص أشبه شيء بالخارج للغزو •

ولقد كان ضرر العشارين بثروة الشعب فادحا جدا وأشهر أبطال الضرر الخراجي الامبراطور غلاريوس • فانه زاد في الضرائب على الاهالي • قال مرسيي : « فصار يقيد اسماءهم ذكرانهم وأناثهم وصغارهم وكبارهم ، ويضبط أموالهم • واتخذ لذلك الجواسيس حتى صارت المرأة تسعى بزوجها والولد يسعى بوالده • فتغيرت لذلك قلوب البربر عليه • ولم يبق له صديق غير الجنود لكونهم معفيين من الضرائب » •

3 — واما التجنيد فقد كانت رومة تجند من البربر وتنقلهم خارج وطنهم : تنقل فرسان نوميديا الى أروبا الشمالية (المجر ، جرمانيا . بلجيكا) ، وتنقل المشاة الى ضفاف النيل • ترسل جنود البربر الى الخارج وتأتي الى الوطن البربري بجنود أجنبية • ومنذ أواخر القرن الثاني استغنت بجنود البربر المقيمين في افريقية عن

الجلب من الخارج • وعندما تدعو الضرورة الى الاستزاد في الجيش تطلب الحكومة من رؤساء البطون البربرية مددا نظير ما يعرف اليوم « بالقـوم » •

4 — واما الحقوق فقد كان الرومان — سـواء القادمون من ايطاليا أو من مستعمرات أخرى — لهم التفوق المطلق على جميع السكان ، والبربـر عندهم متساوون في فرض طاعة رومـة عليهم واعتبارهم — كوطنهم — أداة لسعادتهم : يستغلون أرضهم الخصبة وابدانهم القوية • فكل ما كان للرومان من خدمة الاراضي للفلاحة وضخامة البناء للفخفخة والنزهة فهو على حساب الجهود البربرية •

وكانت حالة البربر على عهد الجمهورية أتعس منها عـلى عهد الامبراطورية • ذلك بان الجمهورية كانت في آخر دورها ، فالولاة انما كانـوا يعملون لانفسهم لا للدولـة ، فتضاعف جورهم وكثر تعديهم •

وفي عهد الامبراطور طريانس (98ـ117) كـان الولاة بافريقية يبيعون الحق بالاثمان وفشا فيهم الجور ، ذلك بان هذا الامبراطور كان مشتغلا بحروب بعيدة عن افريقية • ضج الاهالي من سوء سيرة الولاة ورفعوا عقيرتهم بالشكوى الى رومة • وكان بها علماء أهل انصاف فأيدوهم وحكموا بأحقية مطالبهم • ولكن الحكومة لم تقض بغير عزل والي افريقية مريوس برسكوس •

وفي سنة (193) تولى سبتموس سويرس أمبراطورية رومة • وهو بربري أصله من طرابلس • فاعتنى بافريقية كثيرا وترك بها آثارا لم تزل الى اليوم • وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم افريقيون وبالغ في الاحسان الى ابناء جنسه حتى أنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه الامبراطوري • قال مرسيي :

« وترقى الافريقيون على عهده وظهرت مواهبهم المدهشة برومة في الجندية والمحاماة • ولم يهمل البربر هذا الاحسان بل اعترفوا به ، واحبوا الامبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة أيامه • ولما مات اتخذوه الها » •

وبعد سويرس جاء ابنه قراقلا وسار سيرته وقابله البربر بالمعروف وبقي اسمه منقوشا على الاحجار •

قال مرسيي : « وفي سنة (216) أصدر قانونا بحرية البربر ومنحهم كل الحقوق التي للرومان • فصارت افريقية ذات طبقتين فقط : الاحرار والعبيد • ولكن هذا القانون لم ينفذ • فلم يستفد منه البربر بل أضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية • بهذا القانون التحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد ، وبقوا كذي قبل في الحقوق السياسية » • وهكذا القانون العادل اذا لم يجد ولاة عادلين ينفذونه انقلب أداة شر على الشعب • فعلى الامة التي ساقها القدر الى أن تكون تحت رحمة أمة أخرى ــ اذا رأت منها قوانين غير ملائمة لحياتها واستصدرت قوانين عادلة ــ ان تستصدر ولاة عادلين ، ولا تكتفي بمراقبة الاحكام عن مراقبة الحكام •

واذا كان لبعض الاباطرة احسان الى البربر فان أكثرهم أساءوا اليهم • ولم يكن لاساءتهم من مصدر سوى التخلق بالجور أو حب الانتقام من قوم نصروا مترشحا الى الامبراطورية رجاء عدله ، فتغلب عليه منافسه •

واذا أجملنا لك في هذا الفصل سيآت الرومان اباطرتهم وولاتهم وملاكهم فان البربر يفصلون لك ذلك بما تقرأه عن ثوراتهم وما كانوا يقتحمونه لها من خسارة الانفس والاموال •

14 ـ الثورات بالوطـن البربري

ان التاريخ الجزائري على عهد الرومان مملوء ثورات وحروبا . وذلك لعدم ملائمة العنصرين : الحاكم والمحكوم بعضهما لبعض في العوائد والاخلاق ، مع ما للعنصر الحاكم من التفوق والاستبداد على ابن البلاد الذي رضع الحرية من اسلاف أمجاد .

لقد كان للامن وجود في العصر الروماني غير ان عمره قصير . ولم يستمر سنين طوالا الا في شمال نوميديا بفضل نظامها الخاص على عهد الاتحاد القرطي .

ومنذ انحل هذا الاتحاد صار الوطن الجزائري متشابها في قلة الامن وكثرة الفتن . ويمكننا أن نقسم الفتن بهذا الوطن الى ثلاثة أقسام : قسم كان بيد ولاة رومانيين تطلعا الى الامبراطورية أو تحزبا لبعض الاباطرة على بعض ، وقسم كان على أيدي الغائرين من البربر الذين لم تنلهم عاهة الاحتلال سواء خارج الحدود أو داخلها ، وقسم كان عـلى أيدي البربر الذين لم يرتضـوا الحكم الروماني تطلعا للاستقلال أو تطلبا للعدل .

1 ـ اما القسم الاول فمنه ثورة قلديوس مصير . كان واليا على افريقية وثار على نيرون ، وقطع على رومة حبوب افريقية ، وبعد وفاة الامبراطور نيرون (68) خلفه غلبا فبادر بقتل هذا الوالي واستعان عليه بوالي موريطانيا ألبنوس . وبعد تسعة أشهر من امبراطوريته قتل فخلفه أتون فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر ثم تولى الامبراطورية ويتليوس ، فثار عليـه ألبنوس المتقدم وجمع جنوده وقصد بهـا الاندلس ، ولكنه قتل وخضعت جنوده للامبراطور ويتليوس .

ومنه ثورة كابليان والي موريطانيا . وذلك انه في سنة (235)

قتل مكسمينس الامبراطور الكسندر سويرس واتتصب مكانه فلم يرتض ذلك رومان قرطاجنة وأعلنوا بامبراطورية واليهم غرديانوس وانضمت اليهم الفرقة الثالثة • فسار والي موريطانيا ضد غرديانوس لفائدة مكسمينس ، وهجم على نوميديا بعساكر كثيرة ومنظمة غاية النظام ، ودخل قرطاجنة فنهبها وعاث في افريقية فسادا •

ومنه ثورة سبيانوس والي افريقية • وذلك انه بعد قتل مكسمينس سنة (238) نصب مجلس الشيوخ مكانه غرديانوس الثالث حفيد الاول • فثار عليه هذا الوالي سنة (240) ولقب نفسه امبراطورا • وكان والي موريطانيا من حزب غرديانوس • فتحارب هذان الواليان وامد غرديانوس تابعه • فانتصر والي موريطانيا وبلغ أن حاصر قرطاجنة ، ولم تسلم منه الا بتسليم سبيانوس اليه •

وقد قاست رومة أهوالا شديدة من جراء التنافس على العرش الامبراطوري وقضت قرنا في الفوضى (192ـ270) • والجزائر مرتبطة بها فكان لها نصيبها من تلك الاهوال والحروب في عصر الفوضى وغيره •

2 — وأما القسم الثاني فمنه غارة برابرة المغرب على عهد انطونان (138ـ161) • هجم هؤلاء المغاربة على المستعمرات الرومانية وعاثوا فيها فسادا • فأهم ذلك الرومان وضعفوا عن مقاومة الغائرين حتى قدم الامبراطور انطونان نفسه الى افريقية وتولى رآسة الجيش • وبذلك تمكنوا من رد هذه الغارة الكبرى •

ومنه غارتهم على عهد كمودس (178ـ192) اذ تجدد سنة (188) وعجز رومان افريقية عن رد تيارهم فاستغاثوا برومة • وكان هذا الامبراطور من عشاق الملاهي • فطلب من الشيوخ أن يمدوه بالمال ليذهب هو نفسه الى افريقية • فلما أمدوه استعان به على ملاهيه ،

وارسل الى افريقية عوضه ضباطا • وفي سنة (190) انتهت هـذه الغـارة •

ولولا تحصين الحدود بانشاء المدن ومرابطة الجنود لم تسترح رومة ولا يوما واحدا من غارة الغربيين والصحراويين • عـلى أن الصحراويين (الجيتوليين) كانت رومة ــ علاوة على تحصين حدودها منهم ــ تستميلهم بأساليب سياسية • وقد تستعين بهم لذلك في بعض المهام • وكانت تحيط المدن بأسوار امتناعا من أهل موريطانيا الغربية ، وتتخذ الحصون بالاكمات •

3 ــ واما القسم الثالث فمنـه ثورة لسيوس كيبتوس ، وهو رجل بربري تسمى باسـم روماني • وتقلب في الجيش الروماني • حتى منحه الامبراطور طريانس الرئاسة على جند • ثم ولاه على يهود فلسطين • فخدم رومة خدمات جليلة • ثم عاد الى افريقية فثار بها • واهتمت رومة لثورته لما تعلمه من مقدرتـه الحربية • ولكن دارت عليه الدائرة فقبض وقتل • وبقيت الثورة من بعده ملتهبة نارها • ولم تستطع رومة اخمادها الا بعد عناء كثير •

ومنه ثورة سـكان جبال أوراس والجبال التي بـين قرطـة وسطيف ، وجبل جرجرة • وكانت هذه الثورة في عصر الفوضى سنة (265) وامتدت في كامل الوطن الجزائري • هجم هؤلاء الثائرون على المستعمرين الرومان خصوصـا بجهات ميـلة • وأهلكوا الحـرث والنسل • ولم يتمكن الرومان من ايقافهم عند حد لكثرة الهـرج برومة ، اذ كانت الجنود تبيع منصب الامبراطورية لمن أغلى لها في المرتبات وقضى لها ما تبتغي من شهوات •

ومنه ثورة أرديون في سنة (270) سمي بروبس واليا عاما لجنود افريقية فنزل قرطاجنة • وفي تلك الاثناء أثـار أرديون النوميديين

ونوجه بهم الى البروقنصلية قاصدا قرطاجنة • فقابله بروبس وتبارزا • فقتل ذلك الوالي أرديون وحفر له قبرا كبيرا عرضه مائتا قدم تفخيما له • قال مرسيي : « والظاهر أن هذه المبارزة كانت بنواحي شـق بنارية » • وانهزمت جموع أرديون • ولكن الثورة لم تمت بموته • وحقد البربر على بروبس حتى انه لما ارتقى امبراطورا (276ـ282) وكان له أضداد كان البربر عليه مع الاضداد •

وقد اشتدت ثورة القبائل الخمس سنة(288) على عهد الامبراطور ديوقلطيانس فجعلت رومة جائزة لاورليوس على حربهم • فتمكن من اخضاعهم ولكن خضوع هؤلاء القبائل لم يكن نهائيا • وبعد أمد قصير أعادوا الثورة وهجموا على نوميديا وانتشرت ثورتهم في الجهات الشرقية • وكان ديوقلطيانس قد قسم مملكة رومة على ولاة ، منهم مكسميانس وجعله على ايطاليا وافريقيا • فلما اشتدت الثورة وتفاقم هولها قدم هذا الوالي بنفسه الى افريقية ليتولى ادارة الحـرب • أرجع هذا الوالي القبائل الخمس الى مقرها بجبال جرجرة ، ثم تتبعهم في رؤوس تلك الجبال ونالوا منه أشد النكال • وأخيرا انتصر عليهم ونقل بعضهم خارج وطنهم ، وذلك عام (297) • وقبل هذا الحين لم يكن الرومان مستولين على وطن القبائل • ولما استولوا عليه جعلوا عاصمته بيدة (جمعة صهريج) •

وبعد استيلاء الرومان على وطن القبائل لم ينقطع منه رجـال الاستقلال مثل فرموس وجلدون • وسترى في فصل آخر ما لهذين الزعيمين وغيرهما من عظيم الاعمال في سبيل الاستقلال •

15 ـ العمران الروماني بالجزائر

علمت من الفصل الثاني عشـر ان الحيـاة الرومانية بالوطن

الجزائري كانت راقيـــة • وذلك يرجع الى عنايـــة الرومان بالثروة ومظاهر العظمة • وقد حلوا أرضا خصبة وحكموا أمة عاملة حاذقة نشيطة • فلا جرم كانت آثارهم في العمران عظيمة •

وأهم موارد الثروة بالوطن البربري الفلاحة ثم التجارة • أما الصنائع فلم تكن من موارد الثروة ، وان كان الوطن لا يخلو منها •

وكانت مراس معتمدة للتجارة ، منها اجلجلي ، صلداي ، قيصرية صيغة • وصنعت الطرق داخل الوطن ، وأجادوا في اتقانها وتوسيعها ، الا فيما بين القرى • فقد كان بها شيء من الضيق • كانت الطـــرق تخترق الوطن البربري ، والقوافل تقطعها للتجارة • وأكبر طريق هي التي تصل بين برقة والمحيط الاطلانطيقي • وقد كان لبعض الاباطرة يد في جعل الطرق والقناطر ، منهم أدريانس والكسندر سويرس •

والوطن البربري لم يكن في العصر الروماني اخصب منه اليوم وأكثر ماء • قال غسال : « بل الظاهر ان الحالة من حيث المطر مماثلة لما هي عليه اليوم ، فلم تكن البحيرات التي بوسط عمالة قسنطينة أوسع منها اليوم • يدل لذلك وجود الآثار البرية بشواطىء هذه البحيرات • ولم تكن الاودية أكثر ماء منها اليوم • وفي الكتب الاغريقية روايات عـــن تكرر اليبس بالجزائر حتى وقعت مجاعات » • وذهب بعضهم خلاف هذا ورأى ان هذا الوطن كان على عهد الرومان أخصب تربة واغزر ماء • ونحن نرى أن دعوى المماثلة غير صحيحة ، وان الفرق لم يكن بعيدا جدا اما من حيث الري فمن المحقق ان غابات الوطن كانت اذ ذاك أكثر من اليوم • وهي من أسباب الري لانها تمسك الماء عن الجريان فتروي الارض وتؤثر في الهواء برودة ما • واما من حيث طبيعة الارض فان كثرة استغلالها تضعف من قوة ترابها • وقد ذكر غسال نفسه : « ان شمال نوميديا كان من أخصب الاراضي لكثرة

حجر الجير به . » قال : « وقد نقص هذا الحجر منه تدريجا ونقص معه حجم الحبوب » .

ومما يوضح لك تقارب حالة الارض في ذلك العهد وفي هـذا العصر شدة العناية بجلب الماء حسبما دلت عليه آثار بأماكن متعددة . قال غسال : « وكثير من تلك الآثار وقع قبل الرومان . وانما هم حافظوا عليها وأنشأوا غيرها » .

وهذه الآثار منها تفجير العيون ، ومنها حفر الآبار ، ومنها اتخاذ المآجل ، ومنها بناء السواقي ذات الحنايا ، ومنها سد الاودية . قال بيروني : « ومنها بالحضنة ثلاثة سدود بواد واحد . الكبير منها يحمل نحو (1200 000) ليترا . » قال غسال : « ولم يزل الى اليوم مئات من الآبار بجنوب سطيف وشمال أوراس .

ولهم قوانين دقيقة لتوزيع المياه على السكان . عثر على قانون لتوزيع المياه على سكان لمصبه (مروانة) ينص على عدد أشجار كل فلاح من زيتون وغيره ، وعلى عدد ساعات السقي .

ونفقة تلك الخدمات المائيـة اما على البلديات أو شركات أو أفـراد .

قال غسال : « والغرض من جلب المياه اما الشرب أو سقي أشجار الزيتون والبساتين . ولم يعتنوا بجلب الميـاه الى الاراضي الزراعية على احتياجها الى ذلك » .

وكانت آلة الفلاحة بسيطة . وهي مثل ما للجزائريين اليوم . وللفلاحين معرفة بتوزيع الحبوب على الارض حسب الصلاحية .

وكان شجر الزيتون وغيره من ذوات الاثمار والفواكه كثيرا يظنه الرائي غابات . وتوجد آثار معاصر الزيت بجهات كثيرة .

ولقد تشارك الاغنياء والاباطرة في تنشيط الفلاحة • فكان المشتغلون بغراسة الزيتون والكروم يعفون من الضرائب سنين • ومن الاباطرة الذين اعتنوا بتنشيط الفلاحة قسطنطين • فقد أعفى آلات الفلاحة من الاداء على التجارة الخارجية ، وأعفى العملة بأرض الفلاحين من الخدمات التي كانت تلزمهم بها الدولة عند العجز عن اداء الخراج ، واشتد على الاغنياء الذين يريدون ان يبتلعوا بقروضهم صغار الفلاحين حتى صار يحكم بالقتل على كل مالي يريد ان يفتك من الفلاح الصغير عند العجز عن أداء الدين أرضه أو عبيده أو حيواناته أو آلاته • وقبله كان الامبراطور ادريانس (117ـ138) اعتنى بافريقية وقدم اليها بنفسه سنة (122) فنشط الاستعمار • وادخل على الوطن البربري اصلاحات جمة • واقتدى به بعض البلديات في ذلك • فأنفقت قرطة من ماليتها على جعل طريق منها الى رسقاد • وأحبته العامة • ولكثرة حسناته على افريقية دعي « مصلح افريقية » RESTAURATEUR del' AFRIQUE ، وطبع هذا اللقب على صفحات النقود •

وعلى نتائج الوطن البربري كانت رومة تعتمد في حياتها ، حتى أن الوالي الذي يثور بهذا الوطن على رومة يسرع قبل كل شيء الى قطع اصدار الحبوب الى رومة •

كانت رومة تجلب من افريقية الشمالية الحبوب والزيتون والعنب والتمر والفواكه والتوابل • وتجلب ايضا الرخام والاخشاب والخيل والغزال وبعض الحيوانات المفترسة لترويضها في الملاعب والنحاس والرصاص والحديد وسبائك الفضة والتبر والعبيد السود والصوف والجلود والبقر والغنم وشمع النحل وكل مواد الحياة والرفاهية •

مواد حياة رومة كانت تأتيها من افريقية الشمالية لمدة ثمانية

أشهر (شتنبر ــ ابريل) ، ومن مصر لمدة اربعة اشهر • ولما اتخذ قسطنطين بيزنطة عاصمة لمملكته اختصت افريقية بتموين رومة ، ومصر بتموين بيزنطة •

ويبلغ في بعض السنين ما تأخذه رومة من شمال افريقية (348000) طن •

واتخذت رومة سفنا خاصة لنقل حبوب افريقية ، ومراكز نجمعها ووكلاء للقيام على اصدارها ، وأعفتها من أداء التجارة الخارجية •

ومن المراكز التي كانت تجمع بها الحبوب لتصدر الى رومة : وادي مجردة ، تغاست ، مدورس ، تفيست ، لمبس ، ناحية سيطيفس • قال بيروني : « يحمل من هذه المراكز كل عام ما يقرب من مليوني قنطار قمحا » •

وما تأخذه رومة من افريقية بصفة خراج تبيعه هنالك لابنائها ثم صارت تقسمه مجانا على أهل الحاضرة والبادية • وكان عدد الذين تمونهم الجمهورية برومة (320000) • ولما جاء يوليوس قيصر نقص من هذا العدد نصفه • وبعده جاء أغسطس فبلغ عددهم (200000) وفي سنة ٦٤ م احترقت رومة فكان نيرون الامبراطور محتاجا الى تعزيز مالية الدولة فقطع هذا المعاش عن أهله • وبعد وفاته أعاده خلفه •

وكان لتوزيع القمح قوانين خاصة مشتقة من اسمه (FRUMENTAIRE) والايطاليون اذ ذاك يستعملون القمح في معاشهم أكثر مما يستعمل اليوم • ولشدة ارتباط حياتهم بافريقية كان عظماء رومة اذا اجتمعوا في ساحة المدينة (الفوروم) يقرن أحدهم

سلامه على صاحبه بقوله : « ما حدث بافريقية ؟ » (QUID NORD AFRICA) واذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قال : في مخازنه قمح افريقية • وكانوا يقولون : افريقية مخزن رومة (GRENIER de ROME)

قد يتعجب المرء من كثرة هذه النتائج على قلة أيام السلم • وقد يعجب أيضا بفضل الرومان في العمران • ونحن لا نقف ازاء هاتين النقطتين موقف الدهش بل نعطي رأينا فيهما وللقارىء حق التعقيب :

1 — أما النقطة الاولى فنقول بازائها : حقيقة ان الاضطراب لم ينقطع مدة العصر الروماني ، خصوصا بعد ظهور الديانة المسيحية ، ذلك أن الفتن كانت سياسية ثم تولدت مع هذا الدين فتن دينية • غير ان الاضطراب لم يكن مستمرا بصفة تمنع أيدي العاملين في التعمير • فما وقعت فتنة شغلت رجال العمران الا أعقبها سلم يمكنهم من مباشرة أعمالهم • على أن أكثر الفتن انما كانت بموريطانيا حيث تضيق المملكة الرومانية وتنحصر الى البحر • ونتائج الارض بهذا القسم كانت قليلة • وتلك النتائج المدهشة من زروع واشجار انما كانت بالجهات التي تمكن منها الحكم الروماني فقلت ثوراتها • والخلاصة انه لا منافاة بين وجود الثورات وكثرة الثمرات •

2 — واما النقطة الثانية فنقول عنها ان ذلك العمران لا يزيد في فضل الرومان بل هو عندي بعكس ذلك : يدل على جور الرومان وضعف انسانيتهم • وذلك ان تلك النتائج ان لم تكن كلها من أراض مملوكة للرومان فجلها لهم من غير شك • والاراضي الرومانية انما كان العامل فيها يد البربر اما بصفة عملة مملوكين واما بصفة فلاحين مكترين وكلاهما تحت الضغط الشديد • فأي فضل للرومان في هذا العمران ؟ الارض المنتجة بربرية الاصل واليد المستنتجة بربرية

والرومان انما يأكلون ويتمتعون ويمونون أهل وطنهم • واذن ففضل الرومان انما هو في جورهم بسلبهم أراضي البربر وضعف انسانيتهم بجبر صاحب الارض على العمل بها لفائدتهم •

16 ـ اللغـة والآداب الرومانية بالجزائر

الرومان اخوان اليونان في النسب ، وتلاميذهم في العلم • فلغتهم أخت اليونانية ـ وأدبهم وليد الادب الاغريقي • فكان للرومان أدبهم اللطيني ، وهو لا يقصر في روعته عن آداب الامم الراقية لذلك الحين • واذا نظرت الى سعة السلطان الروماني وتحكك ابناء رومة بالامم الشرقية الراقية وتواردهم على منهل أثينا تصورت اجماليا رقي الادب اللطيني •

ولما حل الرومان بالجزائر ووجدوا أمة لها لغتها وأدبها وهي نافرة منهم سعوا في نشر لغتهم وآدابهم بما أقاموه من المراسح والنوادي وما شادوه من المدارس الابتدائية والثانوية بالقرى والمدن •

وكانت قرطة ومدوروس من أشهر المدن التي يؤمها طلبة التعليم الثانوي ولكي تحمل رومة على البربر لغتها جعلتها هي اللغة الرسمية ومنعت الكتابة بغيرها • وذلك في القرن الثاني للميلاد •

ومع حرص رومة على تعميم لغتها وآدابها لما في ذلك من تثبيت سلطانها لم تر من البربر اقبالا يفي بحرصها • العامة بقيت بعيدة عن اللطينية ، والمتعلمون كانوا يحدون فيها صعوبة حملتهم على تغييرها بما يقرب من لهجتهم ، حتى أصبحت لطينية افريقية متميزة عن لطينية رومة • وهذا لا ينافي ان هناك رجالا من البربر نبغوا في الآداب اللطينية وكانت لهم فيها شهرة خلدت ذكرهم •

كان الادب اللطيني أرقى من الادب الليبي والفينيقي ، واللغة

اللطينية أوسع من اللغتين الاخريين ، ومـع ذلك فقد عاش الثلاثة بالوطن البربر ي، ولم تستطع اللطينية ـ على اتساعها ورقي أدبها ـ أن تتغلب على تينك اللغتين ، بل كانت أقل منهما رواجا بين الطبقة السفلى من الامة وأقل ذكـرا في بعض الجهات التي لـم يوقذها الاستعمار الروماني • قال بيروني : « وفي أيـام القديس أغسطين ـ التي هي بعد الاستيلاء الحقيقي بقرون ـ كان الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر البادين • وكانت اللغة الفينيقية لغة الاكثرية البربرية • حتى ان العظماء الذين تخلقوا بالاخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها • »

ومما تقدم تتضح لك نقطتان :

1 ـ ان الرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والآداب مثل تأثير القرطاجنيين ولا قريبا منه • وذلك للفرق بين مقاصد الامتين في الشعب الجزائري • اذ القرطاجنيون مقاصدهم تجارية ، والرومان مقاصدهم استعمارية بالمعنى العصري • فالبربر أقبلوا على من كانت مقاصدهم معهم حسنة ، ونفروا من أصحاب المقاصد السيئة •

2 ـ الذين تعلموا اللطينية صبغوها بصبغة وطنهم وغيروها عن أصلها • وذلك دأب البربر في كل ما أخذوه عـن غيرهم • وبذلك حافظوا عـلى جنسيتهم ، وابتلعوا الامم التي احتلتهم وارادت ان تبتلعهم وتكثر بهم سوادها • وهي مزية لا تعرف لسواهم من الامم غير العرب •

17 ـ ديانـة الرومان بالجزائـر

قدمنا لك ما للرومان من كثرة الالهة ، وما لهم من عناية بها ، وانهم أخذوا من الامم التي استولوا عليها بعض آلهتهم • وقد كان

علماء رومة يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لاصل رباني عام • ومن ههنا نشأ التسامح الديني عند الرومان ، فلم يضغطوا على أي شعب استولوا عليه في ديانته ولا ألزموه بديانتهم • وانما كانوا يلزمون من تحت رايتهم بعبادة قيصر • وظاهر ان هذه العبادة سياسية لا دينية • ولذلك لم تكن لها هيئة خاصة تتحد الشعوب المحكومة لرومة على أدائها . بل كانت كل أمة أو قرية تعبده على الوجه الذي تراه عبادة •

وانت تعلم ان البربر ما أتوا بشيء من باب الاختيار الا قبلوه وأخذوا منه • فكان للبربر آلهة رومانية الى جنب آلهتهم البربرية وما أخذوه عن الفينيقيين • وهكذا عاشت الديانات الثلاث بين ظهراني البربر متآخية • غير انه لا بد ان يكون — بمقتضى طبيعة البربر — طابع البربرية على الجميع •

بقيت هذه الديانات في ظل التسامح المتبادل بين البربر والرومان حتى ظهرت الديانة المسيحية فتضادت معها ، ولم يتسع التسامح الديني الروماني لها فعارضها ، لان الاباطرة والعظماء رأوا في انتشار هذه الديانة ما يضعف عظمتهم وينقص من غلوائهم •

في سنة (303) أحدث امبراطور رومة قانونا باتخاذ بعض الايام لعبادة الآلهة الرومانية • لا يتخلف أحد عن حضور هذا اليوم المعلوم • ومراد الامبراطور مضادة المسيحية التي تنظره وأحقر انسان في امبراطوريته بعين واحدة • وتراهما في منزلة واحدة ، بل تفضله لحقارته وفقره عليه لجلالته وغناه •

قام بتنفيذ هذا القانون والي نوميديا فلريوس ، ولم يمتثل له كثير ممن تمكنت المسيحية من قلوبهم فقضى عليهم بالقتل • ولكثرة المقتولين دعى هذا العصر عصر الشهداء •

18 ـ الديانـة المسيحية

الديانة المسيحية هي الديانة التي جاء بها عيسى المسيح عليه السلام • وهو عيسى بن مريم ابنة عمران • وعمران اختلف المؤرخون في سياقة نسبه ، ولكنهم اتفقوا على انه يتصل بسليمان بن داود عليهما السلام • وأم مريم اسمها حنة • وأختها ايشاع (أو خالتها) كانت تحت زكريا عليه السلام • ومنها يحيى الذي قال فيه القرآن : « وآتيناه الحكم صبيا » • عمران كان كبير كهنوتية بيت المقدس • وحنة زوجه كانت من العابدات • أقاما ثلاثين سنة لا يولد لهما • فدعوا الله ونذرت حنة : ان ولدت لتجعلن ولدها حبيسا ببيت المقدس يقوم بخدمته • فولد لها مريم ، ووفت بنذرها • فدفعتها الى عباد بيت المقدس • وقام بكفالتها هنالك زكريا حتى كبرت ، وصارت تقوم بقسطها من خدمة البيت ، واشتهرت بالتقى والفضيلة ، وظهرت على يدها الخوارق كما قص ذلك القرآن في آية آل عمران : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله • ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » •

وما زالت على عبادتها وورعها حتى بشرتها الملائكة بانها ستلد ابنا من غير أب يكون نبيا رسولا • فعجبت من ذلك • وأجابها الملك بأن الله يخلق ما يشاء •

قدر الله أن تحمل مريم من غير زوج فارسل اليها جبريل ونفخ فيها ، فحملت بعيسى • ولما ظهر بها الحمل خشيت ان تتهم في عرضها • فخرجت من بلدها وأخذها المخاض في الطريق ووضعت شرقي بيت لحم قريبا من بيت المقدس •

كانت ولادة عيسى في زمن اغسطس قيصر • قال ابن خلدون لاثنتين واربعين من ولايته • وهو صحيح اذا قدرنا ولايته منذ كان أحد الرجال الثلاثة •

ولادة عيسى من غير أب أمر خارق للعادة حقيقة ولكن الله على كل شيء قدير • وقد أزال القرآن الغرابة في ولادة عيسى بأن آدم أغرب منه • وذلك قوله تعالى : « انما مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له كن » •

كبر عيسى وظهرت على يده الخوارق منذ صباه — كما في القرآن — من ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى وخلق الطير من الطين • ونزل عليه الانجيل ودعا الى طاعة الله واشتهر ذكره •

هنالك خافه رؤساء اليهود على دينهم فتآمروا على قتله • وبحثوا عنه فدلهم عليه أحد أصحابه • فقصدوا موضعه • والقى الله شبهه على أحد اليهود فقتلوه وصلبوه معتقدين انه عيسى عليه السلام •

وكان لعيسى من الحواريين (الاصحاب) اثنا عشر وهم : سمعان بطرس ، أخوه انداورس ، يعقوب بن زيدي ، أخوه يوحنا . فليبس ، برتلوماوس ، توما ، متى العشار . يعقوب بن حلفا . تداوس . سمعان القناني ، يهوذا الاسخريوطي •

ذهب الحواريون بعد رفع عيسى وافترقوا في النواحي لبث دينه • وكان منهم بطرس برومة ، وهنالك كتب الانجيل بالرومية ونسبه الى تلميذه مرقس • وكتب متى انجيله بالعبرانية في بيت المقدس • ونقله يوحنا بن زيدي الى الرومية وكتب لوقا انجيله بالرومية • كل ذلك على عهد قلوديوس • وكان نقل يوحنا ببعض جزر ايطاليا على عهد طريانس •

وكان بين هذه الاناجيل اختلاف بالزيادة والنقص ، وقد يقع بينها التناقض • وذلك من عدم جمع الانجيل في أيام من أنزل عليه وتدوينه باللغة التي أنزل بها • فكتب كل من الحواريين ما حضره من غير أن يجتمعوا • وبطرس كبيرهم كتب انجيله بالرومية • ومعلوم ان ذلك ترجمة قد يخطىء صاحبها •

ومن ههنا اشتمل الدين المسيحي على أصول تخالف الدين الاسلامي مع أن مصدرهما واحد • وعقيدتنا ان دين الله واحد لا يختلف في روحه وحقيقته باختلاف الازمان ، وانما تختلف صوره ومظاهره •

وقد ذكر الاستاذ الامام محمد عبده أصول الدين المسيحي ملخصا لها في ستة :

1 -- الخوارق •
2 — سلطة الرؤساء الدينيين •
3 — ترك الدنيا •
4 — الايمان بغير المعقول •
5 — ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد •
6 — التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين •

وقد شرح هذه الاصول مستشهدا عليها بكلام الاناجيل • ثم بين سوء نتائجها • ونحن نكتفي بالاشارة الى ذلك محيلين محب البسط والبيان على كتاب الاستاذ : « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » •

وقد ذكر ابن خلدون طبقات الرؤساء الدينيين الذين لهم السلطة على العامة ، ولقب كل طبقة وهاك بيانها :

1 — البترك : رئيس الملة وخليفة المسيح • والاساقفة يسمونه أبا • والقسوس يسمون الاساقفة أبا • فوقع الاشتراك في اسم الاب ، فأطلق على البترك اسم البابا • ومعناه أبو الآباء • وكان البابا يطلق على بترك الاسكندرية • ثم صار يطلق على بترك رومة الى يومنا

هذا • واختص صاحب رومة بهذا اللقب لانها مركز بطرس كبير الحواريين •

2 — الاسقف : نائب البترك •

3 — القسيس : القراء •

4 — الجاثليق : صاحب الصلاة •

5 — الشمامسة : قومة المسجد •

6 — الراهب : المنقطع للعبادة بدير (خلوة) •

7 — المطران : القاضي •

وقد لقيت المسيحية في طريقها اضطهادات • وحدث بين رؤسائها اختلافات • ولبثت على ذلك حتى تعززت بتمسيح قسطنطين في القرن الرابع للميلاد • هنالك ارتفع عنها الاضطهاد وقل الخلاف • لانه مهما ظهرت قولة الا اجتمع الاساقفة والبتاركة عليها وتناظروا في شأنها وقرروا رأي الاغلبية ولعنوا خلافه •

ومن مذاهب النصرانية مذهب دوناتوس بنوميديا في بداية القرن الرابع •

ومنها مذهب أريوس • وكان أيضا في القرن الرابع لعهد قسطنطين • قال ابن خلدون : واستقرت الكنائس أخيرا على ثلاثة مذاهب : يعقوبية وملكية ونسطورية • وليس من غرضنا شرح هذه المذاهب • فلنقتصر على الاشارة اليها •

19 — الديانة المسيحية بالجزائر

تأسست الكنيسة المسيحية بقرطاجنة أوان تأسست برومة • وذلك بعد رفع عيسى (ص) وتفرق أصحابه في الجهات •

واختلف هل كان تأسيسها على يد أحد الحواريين ؟ فمن

الامبراطور قسطنطين فأحسن الى الكنيسة ومنحها الحرية ثم تمسح هو نفسه •

تعززت الكنيسة بهذا الناصر العظيم • ولكنها انتقلت من الاضطهادات الخارجية الى الفتن الداخلية ، اذ حدث بين رجالها اضطرابات أفضت الى انقسامها على حزبين متنافسين متباغضين •

وذلك ان من المسيحيين من لم يتحمل الاضطهادات وارتد عن دينه • ومن بين المرتدين بعض الاساقفة • وفي عصر ديوقلطيانس طلبت منهم الحكومة تسليم الكتب المقدسة • فخشي كثير من الاساقفة أن يقتلوا فشحوا بأنفسهم وجادوا بدينهم وكتبه • ومنهم بنوميديا أساقفة قرطة وتجيست (عين البرج جنوب قسنطينة) ومصكولة (خنشلة) وقالمة •

في سنة (305) مات اسقف قرطة بولوس • فاجتمع الاساقفة للنظر فيمن يخلفه فكان سلفانوس • وهو من المتهمين بتسليم الكتب المقدسة • فلم يرضه كثير • وأخذ الخلاف يتسع بين المسيحيين ويشتد من ذلك الحين •

وفي سنة (311) مات اسقف قرطاجنة فاجتمعوا للنظر فيمن يخلفه فكان سيسليان • ولم يرضه كثير من الاساقفة • وأخذت الدعاية تتمشى ضده ، حتى بلغ عدد أضداده من الاساقفة سبعين يرأسهم سوغندوس أسقف تجيست •

ثم اجتمع هؤلاء الاساقفة وطلبوا من سيسليان المثول أمامهم لاتهامهم له بانه من المقصرين في جانب شهداء الاضطهادات • فامتنع من الحضور• فسجلوا امتناعه واطلقوا عليه لقب (TRADITEUR) واعتبروا منصبه شاغرا فسموا مكانه بقرطاجنة مجورينوس من حزبهم •

سنة (316) مات مجورينوس وسمي مكانه دونتوس • وكان أسقفا بباغاية • وقد نظم مذهب هذا الحزب حتى نسب اليه • واستعان بسميه دونتوس أسقف الديار السود (قرية شمال أوراس اندثرت) •

أخذ هذا المذهب ينتشر بقوة وسرعة في نوميديا وموريطانيا • وقاومته الحكومة فلم تظفر به • وابتدأ قسطنطين مقاومته في مهده فجمع الاساقفة مرتين كانت النتيجة فيهما ضد دونتوس • وأخيرا قابلهم بالقوة واشتد عليهم فلم ينل منهم •

وفي نواحي سنة (326) توفي سيسليان فاجتمع بقرطاجنة من أساقفة الحزبين 270 واصطلحوا • وقد كانوا قبل ذلك متنافسين كل حزب يريد التغلب على الآخر • ويتوسل الى ذلك بالاكثار من الاساقفة •

وفي سنة (330) بلغ من كثرة اتباع دونتوس ان استحوذوا على جميع الكنائس ، حتى طلب اسقف قرطة زيزيوس احداث كنيسة للارثوذوكس •

وفي سنة (340) تجددت الفتن بين حزبي الكنيسة • ومات قبل ذلك قسطنطين (337) وخلفه ابناؤه الثلاثة كل بناحية • وكان قسطنط احدهم على ايطاليا وافريقية • وكان ناصر الارثوذوكس • فوجه جنوده لحرب اتباع دونتوس • واقتتلت جنود الامبراطور وهؤلاء الاتباع • فانتصر الامبراطور واخذ اتباع دونتوس بالقتل والنفي •

وبعد سنين ثأر الدونتسيون من الارثوذوكس • وذلك ان قسطنطيوس أحد أبناء قسطنطين استقل بالملك بعد وفاة أخويه • وفي سنة (360) ظهر يليانس المرتد ، ونازع قسطنطيوس السلطة • وأراد فتح افريقية ، فامتنعت عليه • وكان الارثذوكس مع قسطنطيوس ، فلما توفي هذا الامبراطور خلا الجو ليليانس المرتد ، وانتقم من الارثذوكس فسلط عليهم الدونتسيين ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، ولم

المؤرخين من جزم بنفي دخول الحواريين الى الشمال الافريقي • ونسب نشر خبر الكنيسة بهذا الوطن اما الى تجار شرقيين لوجود المواصلة بين المشرق وقرطاجنة ، واما الى الرومان الذيـن تمسحوا وقدموا افريقية •

ومن المؤرخين من أثبت دخول بعض الحواريين الى افريقية نقل البكري عن اسحق بن عبد الملك الملشوني انه قال : « لم يدخل افريقية نبي قط • واول من دخلها بالايمان حواري عيسى بن مريم عليهما السلام »[1] •

وفي ابن خلدون ان الذي دخل افريقية من الحواريين فليبس • وقال القيرواني : اسمه متى العشار • وابن خلدون ذكر متى العشار ، وانه أرسل الى أرض السودان والحبشة • ومراد ابن خلدون بافريقية وطن تونس •

وكيفما كان الحال فان انتشار المسيحية بافريقية مقارن لانتشاره

---

(1) المغـرب ص 45 . واسـحاق الملشوني ذكـره البكـري ص 52 واباه . وقال فيهما : « عالمان يحمل عنهما العلم » . وقال عن ملشون : « قرية من قرى بسكرة » .

ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود لـه بالصدارة في العلم ــ تعلم ان لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان العبسي بوطننا ؛ وزيارتهم لمكان زعموا انـه ضريحـه . قال صاحب المؤنس ص 18 : ومنهم من قال بل دخلها (افريقية) خالد بن سنان زمن الفترة . ولكن لم يدخلها بدعوة . قال : « وانكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون » .

وليس في التاريخ ما يؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء الجزائر . وليس من المعقول ان يأتي نبي من جزيرة العرب الى هذا الوطن البربري من غير ان يكون مرسلا الى اهله . هذاعلى فرض ان يكون خالد نبيا . والصحيح ايضا خلافه .

بايطاليا • وانتشاره كان بمساعدة اليهود الافريقيين واللغة اللطينية التي هي اللسان الرسمي للكنيسة •

وقد كان لليهود هجرات الى الوطن البربري أولاها على عهد الفينيقيين جلبوهم عندما أسسوا المراكـز التجارية بشـاطىء البحر الابيض لفضل حذق اليهود بالتجارة • وثانيتها بعد هلاك الاسكندر على عهد بطليموس صاحب مصر ، اذ حاصر هذا الملك بيت المقدس وشرد اليهود منها فانتقل بعضهم الى الشمال الافريقي وذلك سـنة (320) ق•م • وثالثتها على عهد الامبراطور ادريانس اذ نقـل الى المغرب بعضهم من بيت المقدس وبعضهم من برقة •

لبثت المسيحية بافريقية تحت جناح من الظلام لا يعلم لها تاريخ حتى بداية القرن الرابع • والمعلوم عنها في هذه المدة كلها هي احاديث الاضطهاد ، وانعقاد مجمعين للاساقفة احدها أواخر القـرن الثاني اشتمل على سبعين أسقفا مـن افريقية ونوميديا والثاني سنة (240) حضره تسعون أسقفا •

وجدت الطبقة المستعلية في تعاليم هذا الدين ما ينافي كبرياءها وجورها واستعبادها للضعفاء فعارضته • واستعمل الاباطرة قوتهم في اخفات صوته واعتدوا على المتمسكين به حتى آن من سلم منهم من القتل لا يسلم من السجن • وكان سبتموس سويرس أشد الاباطرة وطأة على المسيحيين •

وقد قابل رؤساء الكنيسة تلك الاعتداءات بكل شجاعة وثبات • وكان رجال من البربر وقفوا حياتهم لنشر هذا الدين ومات منهم عظماء في سبيله •

لم يزل رجال هذا الدين يقاسون الاضطهادات الامبراطورية ــ وقليل من الاباطرة من خلاهم ودينهم مثل نربا (96ــ98) حتى ظهر

يسلم منهم حتى النساء والصبيان •

وفي سنة (372) ثار فرموس البربري بوطن القبائل وشغل الرومان ثلاث سنوات • كان الدنتسيون من أنصاره في تلك الثورة • ولما أيس من النجاح وقتل نفسه انتقم الرومان من حزب دونتوس وساموهم سوء العذاب •

وفي سنة (395) ثار جلدون أخو فرموس على الرومان ونصره اتباع دونتيوس وفتك بالارثذوكس • ولما قبض عليه انتحر • وحنق الرومان على الدونتسيين ، فجاروا عليهم واستعبدوهم •

انتشر مذهب دونتوس بنوميديا وموريطانيا (الوطن الجزائري) وحاز الاغلبية على الارثذوكس • وهاك بيان مراكز أساقفة الفريقين بمدن هذا الوطن : في سنة (411) كان عدد المراكز مائة وسبعة وثمانين منها (87) دونتيسية ، (34) كاثوليكية ، (66) للفريقين •

ومهما كثر عدد أساقفة حزب بناحية آذوا أتباع الحزب الآخر بالسلب والسرقة وهدم المعابد • وقد بلغ من تباغض الاحزاب المسيحية ان قال فيهم اميان مارسلان ــ وقد عاش قريبا من أوائل القرن الخامس ــ : « ان العداوة بين المذاهب المسيحية أشد من عداوة السبع للانسان » •

ولم تقف الكنيسة عند هذا الحد من الانقسام • بل ان اتباع دونتوس أنفسهم انشقوا طائفتين : طائفة متساهلة مع بقية المسيحيين والاغنياء ، وأخرى متشددة مع المسيحيين ومتعمقة في الزهد تكره الاغنياء • وكان مركز الطائفة الثانية بتمغادي ، وهي تتركب من العبيد المماليك الصعاليك ، وقد أخذت على نفسها العمل لتحقيق المساواة بين الافراد في الفقر • فصارت تجوب البلاد وتطوف في البوادي لنهب الاغنياء وافساد الاموال • ورؤساء مذهب دونتوس يعدون ثوارا على الحكومة • ولذلك أقبل بربر الجزائر على هذا المذهب

لما كانت تنطوي نفوسهم عليه من كراهية السلطة الاجنبية • ولذلك أعانوا فرموس وجلدون في ثورتهما ، وكانت الحكومة دائما ضدهم • وأصدر الامبراطور هونريوس سنة (410) أوامر في التشديد عليهم ، ولكثرتهم لم يستطع تنفيذها • ولما أعياه أمرهم أمر باجتماع شيوخ الدين سنة (411) فانعقد المجلس بقرطاجنة ، وحضره من أساقفة الكاثوليك والدوتتيس 286 فحكم رئيس الجلسة على الدوتتيسيين ولكنهم لم يحفلوا بذلك الحكم • فأصدر الامبراطور أمره بالتشديد عليهم وسلب حقوقهم والتضييق على حريتهم •

قال مؤرخ المسيحية بافريقية الاب مسناج : « لما عجز البربر عن طرد الرومان من وطنهم اكتفوا باظهار الكراهية لهم • فامتنعوا من لغتهم ومذهبهم • فان شعبا لا يتعلم لغة المستولي عليه يعد ثائرا خصوصا اذا أضاف الى ذلك مخالفته له في المعتقد • ويقول بعض المؤرخين : ان البربر ما دخلوا أولا في المسيحية الا لكون الرومان وثنيين • فلما أقبل الرومان عليها خالفهم البربر وأسسوا لانفسهم مذهبا جديدا » •

20 — المسيحية والوثنية بالجزائر

لم تتجاوز المسيحية بالجزائر حدود المملكة الرومانية ، ولم تنتشر داخل تلك الحدود الا على نسبة انتشار اللطينية ، فكانت الاغلبية للوثنية ، وما كان من كثرة الاساقفة ومراكزها بمدن نوميديا وموريطانيا فانما نشأ عن تنافس حزبي الكنيسة لا عن كثرة اتباع المسيحية.

وقد رأيت أن مذهب دوتتوس هو مذهب الاغلبية المسيحية بالجزائر وذلك لانه مذهب ظاهره ديني وباطنه سياسي يؤيد السيادة الوطنية • ومن ههنا كانت كراهية أتباعه للارثذوكس الذين ينصرون الرومان ويؤيدون السيادة الاجنبية •

ولان غاية اتباع دوتتوس سياسية لم يتمكن الدين من تحويل طبائعهم وعاداتهم وعباداتهم • وكذلك كثير من الارثذوكس لم يكن الدين ليفضي الى قلوبهم • وقد كان القديس أغسطين يخطب في المسيحيين ويرشدهم الى المسيحية الصرفة • قال الاب مسناج : « اذ كان في عصره أكثر المسيحيين لم تزل بين جنوبهم عقائد وثنية : يأتون الكنائس ويعبدون فيها آلهة وثنية ، ويذهبون أيضا الى الهياكل الوثنية » ــ وقال أيضا : « فجر القرن الخامس هو أزهر عصر للديانة المسيحية بافريقية ، ومع ذلك فانه لم يصل الى قلوب معتنقيه من البربر ، وانما كان شعارا ظاهريا ، وفي حقيقة الامر لم يزالوا على وثنيتهم » •

وكان عصر قسطنطين عصر الحرية الدينية فارتفعت عن المسيحية الاضطهادات وصار كل من المسيحيين والوثنيين يأتون أعمالهم بحرية تامة • ثم تأثرت المسيحية من الوثنية وأصبحت تضطهدها : في عصر قسطنط سنة (341) منعت القرابين ، وفي أيامه أيضا سنة (346) أغلقت الهياكل الوثنية وشدد في منع القرابين حتى هدد فاعلها بالقتل • وفي سنة (380) لم يعترف امبراطور رومة غراطيانس بشيخ الديانة الوثنية • ثم صادر سنة (382) املاك الهياكل ، ونزع لشيوخ الوثنية امتيازهم ، وأزال من مجلس الشيوخ تمثال الهة النصر •

وفي سنة (399) أمر هنوريوس بابطال عبادة الاصنام وهدم معابدها • وامتعض الوثنيون ــ وكانوا كثيرين ــ لهذا الامر •

ولم تجد الوثنية حريتها الا في زمن يوليانس المرتد (361—363) .

كان هذا الامبراطور قد تعلم بأثينا • وبعد امبراطوريته فتح داره للحكماء والفلاسفة ، فنبذ المسيحية ، وبذلك سمي المرتد ، ومنح الوثنيين حريتهم • واشتد على المسيحيين لانهم كانوا في نصرة خصمه قسطنطيوس ما عدا الدوتتسيين •

قال الاب مسناج : وقد استبشر بانتصاره للوثنية بربر افريقية الشمالية ، ولقبوه « محيي القرابين » . وأظهرت مدن كثيرة استبشارها بذلك . وبعث مجلس بلدية تمغادي الى يوليانس تهانيهم في مجالس اخرى . وقد كان أكثر الولاة بنوميديا وموريطانيا وأغلب المتوظفين بالمجالس البلدية في أوائل القرن الخامس مسيحيين .

قال الاب مسناج : « ومداوروش كانت كلها وثنية . وهي العاصمة العلمية لوطن أغسطين . ووجدت آثار هياكل وثنية من القرن الخامس ، تدل على عظمتها . في حين ان الكنائس اذ ذاك في غاية الفقر » .

وقد تقدم ان الديانة المسيحية لم تتجاوز حدود المملكة الرومانية . وقد قسم الاب مسناج هذه المملكة الى ثلاثة أقسام :

1 — مدن رومانية ، كانت الاغلبية فيها مسيحية ، ولكنها ممزوجة بالعقائد الوثنية .

2 — بوادي رومانية لم يتمكن بها نفوذ الرومان . كانت الاغلبية فيها للوثنية .

3 — جهات غير خاضعة للرومان . هذه لا أثر للمسيحية بها .

وقد اتضح ان الاغلبية الساحقة بالجزائر في جانب الوثنية ، وان الاقلية المسيحية لم تكن خالصة ، وان جلها من اتباع دونتوس الذين يرمون الى غرض سياسي .

وقد عاشت المسيحية على أقليتها وعدم خلوصها وتعدد مذاهبها الى أن جاء الاسلام فقضى على الجميع بسرعته المدهشة .

21 — ذكر بعض رجال البربر في الدور الروماني

قد رأيت ما كان للبربر من رجال عظماء وملوك كبراء قبل أن يصابوا بكابوس الاحتلال الروماني . وقد ظهر منهم بعد ذلك الاحتلال

أيضا رجال في العلم وفضلاء في الدين وعظماء في السياسة ونحن نذكر لك ما وقفنا عليه من أسماء الجميع ، وان كنا نأسف لفقدان تراجم حياة كثير منهم :

1 — فمن رجال العلم الذين كانت لهم شهرة فرنطونس • كان أستاذ الامبراطور مرقس أوراليوس • وله سمعة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي ، وهو مولود بقرطة •

ومنهم أبوليوس • قال بيروني : « هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره • وأحسن وصف له وأصدقه أن تقول : هو رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة » • وكان قبل القديس أغسطين وأصله من مداوروش •

2 — ومن رجال الدين نمفانيو ، مغجيس ، لسيتة ، سنابيس • هؤلاء من أهل القرن الثالث الذين اضطهدوا في سبيل الدين وقتلوا شهداء •

ومنهم دونتوس مؤسس المذهب المنسوب اليه • وسميه أسقف الديار السود •

وكان بقالمة ومصكولة (خنشلة) اسقفان كلاهما يدعى دونتوس • وكانا عصر تسليم الكتب المقدسة •

ومنهم أبطات اسقف ميلة • كان في عصر القديس اغسطين • وأعانه في حملته على المسيحيين المتهتكين • وترك تآليف ذات أهمية • وأهمها كتب في تاريخ مذهب دونتوس •

ومنهم القديس أغسطين • ولد اغسطين بتغاست وتعلم بمدوروس ثم انتقل الى قرطاجنة ثم ذهب الى ميلان بايطاليا ثم عاد الى مسقط رأسه سنة (388) • ونزل دار أبيه وجعلها ديرا يتعبد به • وفي سنة (391) سمي قسا بهبون ، ومنح ارضا خارج المدينة ليبني بها ديرا ،

ثم سمي اسقفا . واتخذ داره نفسها ديرا • وقد اشتهر هـذا الدير وتخرج منه نحو عشرة أساقف • منهم البيوس بتغاست ، وسفروس سمي بميلة سنة (396) ، وفرتونتوس سـمي بقسنطينة سنة (402) ، وبوسديوس سمي بقالمة سنة (397) وهـو مؤرخ حيـاة اغسطين وافوديوس بأزليس (وجل) في حدود سنة (400) ، ونفاتوس بسطيفي قبل سنة (411) •

ويقال ان أول من أحدث الاديرة بافريقية القديس أغسطين ، وكان من حزب الارثذوكس (سلفي) وانتصب للدفاع عن المسيحية • فرد على أدباء عصره الزارين عليها بكتاب سماه « مدينة الله » ومما جاء فيه في مقام اثبات الاله قوله : « اني متحقق وجودي • ولا أخشى أن يقال اني غالط في ذلك • لان الغلط دليل الوجود »[1] •

وارشد مسيحي ذلك الوقت الذين انحرفوا عن الدين وانغمسوا في الملاهي والخمور حتى كانوا يتعاطونها في المجامع الدينية • واشتد في حماسه الديني عليهم حتى عزم مسيحيو قرطاجنة على الفتك به • ومن أقواله في سبيل الارشاد : « ان الشهداء ترتجف قلوبهم مـن زجاجاتكم وآلات طبخكم واصطباحكم » •

وناظر أصحاب دونتوس بالحجة وأغلق باب السباب الذي لا تخلو منه مناظرتهم سابقا وفتح باب النقد النزيه •

قال بيروني : « وهو أخطب خطيب لطيني وأكبر مفكري كـل زمان » • عاش القديس أغسطين حتى فتح الوندال • وحوصر ببونة في جملة المحصورين • وتمكن له الفرار فلم يرضه لنفسه ومنصبه • وبقي مع المحصورين الى أن أدركه أجله سنة (430) •

---

(1) عثرت على هذه الجملة الفلسفية في كتاب الدين الطبيعي . نقلها عنه مؤلفه جول سمون ، ص7 .

3 — ومن رجال السياسة لسيوس كيتوس وأرديون • وقد ذكرا سابقا • ومنهم فرموس وجلدون • وقد أخرنا ذكرهما الى هذا الفصل لان أنصارهما كانوا من حزب دونتوس • فرأينا ان نذكرهما بعد الكلام على ذلك الحزب •

كان رجل بربري يدعى نوبال ملكا على القبائل الخمس • وتوفي في عشرة السبعين من القرن الرابع ، وترك أولادا ، وهم : فرموس ، جلدون ، مسيزال ، ديوس ، صلمسيس ، زامة وكلهم مسيحيون •

وفي سنة (372) ثار فرموس على الرومان بجبال جرجرة • وأعانه أهل الموريطانيتين واتباع دونتوس • فجمع من الجنود نحو عشرين ألفا ذهب بها الى قيصرية فحاصرها ثم افتتحها وحرقها • وامتدت الثورة بنوميديا • وأراد والي قرطاجنة مقاومتها بالحرب فانهزم • ونادى البربر بفرموس ملكا •

بلغ خبر هذه الثورة الشاملة للوطن الجزائري مسامع الامبراطور والنتنيانس ، فوجه جندا تحت رئاسة ثأودوسيوس فنزل هذا القائد جيجل وتوجه منها الى سطيف سنة (373) • والتحق به جلدون ومعه جنده ليعينه على أخيه !

وكان مع فرموس أخواه مسيزال وديوس • ولكنه رأى نفسه ضعيفا عن الحرب فراسل ثأودوسيوس في الصلح فلم يقبل ، وتحاربا • وبعد معركتين أعاد فرموس طلب الصلح فقبل ثأودوسيوس • وانعقد الصلح بينهما على الصفة الآتية :

1 — اهداء مدينة الجزائر (اقسيوم) لثأودوسيوس •
2 — تنازل فرموس عن تاجه •
3 — أداء مال كثير لثأودوسيوس •
4 — اعطاء رجال رهنا لتنفيذ مواد الصلح •

ذهب ثأودوسيوس بعد الصلح الى قيصرية ليجددها وأخذ أعوان فرموس بها بالقتل والجلد . وحاول فرموس تجديد الثورة فلم يفلح . ولما أيس خرج مشرقا لينجو بنفسه . فراصده الرومان ، فعاد الى وطنه وأوقد نار الثورة من جديد . وجمع نحو عشرين الفا هزم بها ثأودوسيوس ففر في جناح الظلام وجمع عساكره بعيون بسام . واشتد غيظه على من لم يثبت منهم في المعركة فقتل فريقا وحرق آخرين بالنار . وجمع الباقين بسطيف ونظمهم تنظيما حسنا .

كان رجل بربري يدعى اغماسن رئيسا لقبيلة تقطن جنوب جرجرة . وكان هذا الرئيس قد أعان بقبيلته فرموس .

في سنة (375) ذهب ثأودوسيوس الى تلك القبيلة وأرشى رئيسها ليقبض له على فرموس . فلم يخف على فرموس ضعفه وعجزه فانتحر ، ولم يجد اغماسن الا جثته فوجهها على بعير لثأودوسيوس .

قد يكون اغماسن خائنا لفرموس لما عرف به رؤساء البربر من التخاذل . والظاهر عندي انه غير خائن ، بل هو سياسي حاذق لانه علم عجز فرموس وضعف قبيلته عن المقاومة وان الرومان سينتقمون منه ومن قبيلته . فقبل رشوة ثأودوسيوس ليكون له فضل على الرومان فيأمن على نفسه وقبيلته .

فرموس من رجال البربر المعدودين . وقد مازجه شيء من الخلق الروماني فكان محبا للرفاهية متمتعا بالملذات كأنه قيصر . ومع ذلك قاسى في سبيل الاستقلال البربري أهوال الحروب ثلاث سنين .

فرموس وتقفار يناص ويوغورطة ومصينيسا رجال متشابهون في الجلد ومقارعة الاهوال وعدم الخضوع للعدو وقوة الرجاء في النصر . ومن لم يفلح مات شهيدا في سبيل الاستقلال .

هكذا انتهت حياة فرموس أما أخوه جلدون فقد بقيت العلائق حسنة بينه وبين ثأودوسيوس ، والمكاتبة سائرة بينهما • وكانت له بنت تدعى « صلفينة » ربيت مع ابناء ثأودوسيوس • وتولى هـو خطبتها لبعض قرابته فزوجها أبوها ، وأصبحت بالقسطنطينية • وتقوت بذلك العلاقة بين الزعيم البربري والامبراطور الروماني •

وفي سنة (387) سمي جلدون رئيسا أعظم على فيلقين رومانيين وفي سنة (395) توفي ثأودوسيوس • واقتسم مملكته ابناه ارقاديوس على الجهات الشرقية قاعدته القسطنطينية وهنوريوس على الجهات الغربية قاعدته رومة •

هنالك تبين ان جلدون لم يكن محبا للرومان رغم حظوته عند امبراطورهم • وأعلن الحرب على هنوريوس • وقطع عن رومة ما كانت تستورده من حبوب افريقية • وعطله بقرطاجنة •

تهيأ وزير هنوريوس الى حرب جلدون وتهيأ الدوتسيون لنصرة جلدون • وشقي الكاثوليك اذ ذاك لانهم من دعاة السادة الاجنبية •

وفي هذا الحين ذهب مسيزال الى ايطاليا ولم يعلم مراده فظنه جلدون يتجسس عليه للرومان ، فقتل له ولدين ، وتظاهر بخضوعه للامبراطور •

وجد وزير هنوريوس في قتل والدي مسيزال أحسن فرصة للانتقام من جلدون • فكلف مسيزال بحربه وأعطاه خمسة آلاف جندي •

وكان لجلدون من الجنود سبعون ألفا • وتقابل الاخوان بجيوشهما نواحي تبسة • وأعجب جلدون بكثرته فلم ينظم جيشه وخفي عليه ان النظام هو القوة • فانهزم جمعه وفر هو قاصدا

القسطنطينية • فأدركه شيعة أخيـــه بطبرقة ، وجاؤوا به اليه فأودعه السجن • فعجل جلدون أيام نحسه وانتحر بعدما ملك اثنى عشر عاما •

بعد انتحار جلدون وجهت رومة الى قرطاجنة واليا ليحوز لها أملاك جلدون وأبيه من أراض وأموال وذخائر • وكانت كثيرة جدا خصص لادارتها نائب خاص •

هكذا انتهت حياة جلدون ، أما مسيزال فانه أعاد افريقية تحت السيادة الرومانية • ثم توجه الى ميـــلان بايطاليا طمعا في ان يعطى منصب أخيه جلدون جزاء انتقامه من جنسه لقتل ولديه وخدماته للرومان • ولكن وزير هنوريوس لم يجازه جزاء العاملين المخلصين بل جزاء الخائنين السافلين فقتله غريقا في المـــاء وهو ينظر اليـــه • وقد أصاب هذا الوزير في قتل مسيزال وجـــه الصواب في خدمـــة دولته • فانه لو منح هذا البربري مطلوبه لسلك سبيل جلدون • بل انـــه سبق جلدون الى كراهية الرومان اذ كان فيصف أخيه فرموس •

22 ــ سقوط حكومة الرومان بالجزائـــر

ابتدأت علاقة الرومان بالجزائر منذ سنة (213 ق•م) على عهد صيفاقس وتعرفوا بالتراب الجزائري منذ سنة (104) بعد يوغورطة • وتصرفوا في التراب النوميدي منذ سنة (46 ق•م) بعد يوبا الاول • وتم لهم الاستيلاء على الوطن الجزائري سنة (42 م) بعد بطليموس • فكانت المدة بين ابتداء علاقتهم بالجزائر واستيلائهم عليها خمســـا وخمسين ومائتين من السنين •

وفي سنة (430) انهدم سلطانهم على ايدي الوندال ، فكانت مدة حكومتهم بالجزائر ثمانية وثمانين وثلاثمائة من السنين •

ولم تكن هذه المدة ــ على طولها ــ كافية لتثبيت قدم حكومة الرومان بالجزائر • فان البربر ما انفكوا خلال هذه المدة يعربون عن

كراهيتهم للرومان بالقول والفعل • فمن أقوالهم المأثورة في ذلك : « نقبل روما في افريقية بشرط ان تضيفها اليها » ومن أفعالهم كثرة ثوراتهم التي لم تنحسم مادتها من عصر تقفاريناص الى عصر جلدون •

وقد ظلت جهات محافظة على استقلالها وسط الحكومة الرومانية وهي جبال أوراس وجرجرة ووانشريس ، وقد كانت هذه الجهات هي مادة تلقيح الحركة الاستقلالية • ومن وصايا بعض السياسيين الرومانيين : « لا تتم طاعة أية أمة ما دامت حولها أمم غير مطيعة • واذا أردت ان تحمل أمة على الاستعباد فانزع من بين عينيها منظر الحرية » •

وقد عد بعض المؤرخين من الاغلاط الرومانية تركهم لهذه الجهات استقلالها • وعندي ان هذا يعد من الرومان عجزا لا غلطا • فانهم ما كانوا ليمنوا على البربر بمساواتهم لهم في الحقوق فكيف يتركون لبعضهم استقلالهم لو وجدوا الى ذلك سبيلا ؟

واذا بحثت عن علة سقوط حكومة الرومان بالجزائر فلن تجد لذلك غير ضعف الحاكم ونفور المحكوم منه •

اما ضعف الحاكم فهو ضعف مادي وأدبي • وأما نفور المحكوم فبعضه ناشىء من الطبيعة البربرية وبعضه من معاملة الرومان • ونحن الآن نوضح هذه النقط بايجاز :

أ — ضعف الرومان المادي : ظهر هذا الضعف في السلطة المركزية والجندية والعمران •

1 — اما السلطة المركزية فقد كانت تنتابها بين آونة وأخرى — علاوة على الحروب الخارجية — الفتن الداخلية الناشئة من تنافس العظماء على عرش الامبراطورية • وامتاز عصر ما بين سنتي (192 — 270) بتداخل الجنود في اسناد الامبراطورية لمن وافق هواهم حتى عرف بعصر الفوضى • وبلغ من التلاعب بها أن انتقل مركز

السلطة من رومة الى قرطاجنة سنة (237) على عهد غرديانس الاكبر ، وبقي سرير الملك شاغرا بعد سنة (251) مدة عامين .

وفي عصر ديوقلطيانس بلغ من عجز السلطة المركزية أن قسمت الممالك الرومانية أربعة أقسام على رأس كل قسم متصرف مطلق .

وما زال سرير الامبراطورية يطفو ويرسب حتى جلس عليه ولنتنياس الثالث سنة (423) وكان غلاما ابن ست سنوات ، فقامت أمه مقامه . وكان بونيفاس واليا عاما بافريقية حاذقا في ادارته مخلصا لدولته . وله منافس يدعى ايتيوس ، وهو قائد عام . فأوغر عليه صدر بلاصيدية أم الامبراطور الصبي ، وروج عليها انه عازم على الاستقلال ، وقال لها : ارسلي اليه ليحضر لديك ، فان امتنع فتلك آية صدقي . وأرسل اليه أن الامبراطورة تريد قتلك . فلما أرسلت اليه لم يحضر ، واذ ذاك ايقنت صدق ايتيوس ، فعزلته سنة (427) فرفض عزلها . ووجهت اليه الجنود ، فهزمها . ودخل الوالي والامبراطورة في حرب ، ولما خشي الغلب راسل الوندال في الاعانة على أن يمنحهم من وادي مساغا الى آخر ما يملك الرومان بالشمال الافريقي غربا . فصادف ذلك هوى في نفوس الوندال ولبوا مسرعين .

2 — واما الجندية فأخذ شأنها يضعف منذ امبراطورية سبتموس سويرس اذ أذن للجنود المرابطة على الحدود بالاقامة مع أزواجهم خارج المراكز الرباطية بصفة مستمرة ، حتى أصبحت تلك المراكز اما مختزنات للسلاح والمؤن واما ساحات لتمرين الجند .

وفي سنة (237) انتصب غرديانس الاكبر امبراطورا بقرطاجنة باعانة الفرقة الثالثة . فلما انتصر عليه مكسمينوس انتقم منها . قال مرسيي : « وربما قضى عليها لمساعدتها غرديانس » .

وكما كان لبعض الاباطرة يد في ضعف القوة العسكرية بالجزائر كان للزمان أيضا يد في ذلك . فان الجنود بطول اقامتها في هذا الوطن ومُنح الاراضي لها عشقت الحياة الفلاحية . وأصبحت تنافس الاغنياء في تعمير الحقول وتشييد القصور ، فابتعدت بذلك عن الصفات الجندية .

3 — واما العمران فقد كان لضعفه سببان : أحدهما تطلع الاعضاء البلديين لمجلس الشيوخ ، وبعد تسنمهم لذلك المنصب تقل عنايتهم بالشؤون البلدية ، ويعفون من الاداء على أملاكهم الواسعة . وثانيهما النزاع الواقع بين المذاهب المسيحية . وقد مر ان من المسيحيين طائفة كانت تجوب البوادي لنسف العمران واعدام الطبقة المثرية من البلاد .

ب — واما ضعف الرومان الادبي فذلك انهم وجدوا بالجزائر أرضا طيبة التربة ويدا ناشطة في العمل ، فاستغلوهما جميعا . وبلغوا بهما أقصى درجات البذخ والنعيم ، فانغمسوا في الملاهي والملذات ، حتى ان الديانة المسيحية — على ما فيها من تهذيب للنفوس وتزهيد في الدنيا — لم تصدهم عن ذلك . وقد حدث أسقف قرطاجنة القديس قبريان (248 — 258) عن أكثر أساقفة عصره بانهم كانوا سراقا منهمكين في اللذائذ مرابين الى غير ذلك من الصفات الذميمة . وقد جاهد القديس اغسطين في تقويم الاخلاق جهادا أكبر ولكن الامر قد أدبر وفساد الاخلاق عم وانتشر فلم يكن لكلامه بالنفوس كبير أثر واذا ذهبت أخلاق أمة فبشرها بالزوال

وانما الامم الاخلاق مابقيت وان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ج — واما نفور البربر الطبيعي فان هذا الجنس سقيت طينته بماء الحرية وعجنت بيد الشدة وجفت بريح الثورة ، فليس في وسعه

ان يخضع للسيادة الاجنبية مهما طال أمدها عليه ، وامتدت عروقها بوطنه ، وكثرت سكاكين حضارتها لتقليم أظفار بدويته ، وفيما سقناه من أحاديث الثورات البربرية ما يغني عن الاسهاب في بيـان هذه الحقائق .

د — واما نفور البربر الكسبي فقد رأيت ما كان للرومان عليهم مـن التفوق والاستعباد . الامـر الذي كـان يلقح دائما نفورهم الطبيعي . ولا أزيدك في انارة هذه الحقيقة عما تقدم غير كلمة واحدة أنقلها عن بيروني ، وهي لا تخرج في معناها عما سبق . قال هـذا البحاثة : « والاماكن التي كان للرومان بها سلطة حقيقية وقدم راسخة لا يعامل البربري فيها الا للانتفاع منه » .

هذه أصول علل سقوط حكومة الرومان بالجزائر . وقد أكثر المؤرخون في هذا الموضوع من الابحاث والاستنتاجات . وقد لخصنا لك في هذا الفصل زبدة أقوالهم الصحيحة ، وأعرضنا عن تتبع ما كان لهم من أقوال ساقطة وأفكار سقيمة خشية الاطالة من غير كبير فائدة . والمطلع على كلامهم يرى فيه غرضين واضحين : أحدهما حمل القارىء عـلى الاعتقاد بعظمة الرومان الى درجـة أن يدهش مـن سقوط استعمارهم ، وثانيهما تحذير قومهم من الفرنسيين من الوقوع فيما وقع فيه الرومان . وكلا هذين خارج عن غرضنا من تاريخ الجزائر .

23 — الحضارة الرومانية والبربر

كانت لبعض الاباطرة عناية بغرس الحضارة الرومانية بالجزائر . وأشدهم عناية بذلك ادريانس وسبتموس سويرس وقسطنطين . ويقول بعض المؤرخين : ان الرومان أكملوا حضارتهم بالجزائر حتى أصبحت لا فرق بينها وبين حضارة رومة . ويستدل لذلك بانه زمن طريانس

صار من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من افريقية لما بين الوطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية .

ونحن لا نتازع في وجود حضارة رومانية بالجزائر شبيهة بحضارة رومة . وانما نبحث عن هذه الحضارة هل كانت خاصة بالرومان أم أن البربر أقبلوا عليها ؟

اختلفت أقوال الباحثين من المؤرخين ازاء هذه النقطة وانقسموا ثلاث فرق :

1 — فرقة تقول : كل ما كان بافريقية الشمالية من بناءات وفلاحة وسائر وجوه العمران انما كان من البربر ، أخذوا الاساليب عن الرومان وعمروا لانفسهم . وزعيم هذه الفرقة هو لويس بيرتران . ومما قاله بيرتران : ان البربر أقبلوا على الحضارة الرومانية أكثر مما أرادت منهم رومة ، وان افريقية اللطينية لم تزل قائمة الى يومنا هذا ، لم ينسخ ظلها نور الاسلام اذ أنه انما أتاها بدين ولم يأتها بحضارة ، وانه لم تقع معارضة بين البربر والرومان مع كون السيادة للرومان لا سياسيا ولا دينيا ولا اقتصاديا .

وهذه أقوال سخيفة . وقد تعرض بيروني لردها . أما أنا فلا أطيل الفصل بنقض أمثال هذه الاقوال ، وكونها صادرة عن فكر لويس بيرتران كاف لسقوطها . واذا كنت تجهل هذا الرجل — رغم كونه رئيس المجمع العلمي الفرنسي — فهو الذي قال فيه أحد الكتاب الفرنسيين وأجاد : « اذا أردت الحقيقة في كلام بيرتران تجدها في نقيض ما يقول » .

2 — وفرقة تقول : ان الحضارة الرومانية بالجزائر مركبة من أيدي واذهان الرومان والبربر ، وان العنصرين كانا مشتركين في الاحساسات الدينية والسياسية والفوائد الاقتصادية ، وان رومة تداخلت في أخلاق البربر فغيرتها تغييرا معتبرا .

والتاريخ الصادق يشهد لخلاف هذا الرأي أيضا : فان البربر ـ وان عملوا في تكوين الحضارة الرومانية بوطنهم ـ انما كانوا بصفة عملة مجبورين • والذين لم تستطع يد الرومان ان تنالهم بالقهر لم يعملوا شيئا في هذه الحضارة • وقد رأيت أن البربر كانوا دائما خلاف الرومان في الدين وثائرين على سياستهم ، وانهم كانوا محرومين من الفوائد الاقتصادية ، وان اخلاقهم لم تزل بحالها فان أكثر القائمين بالثورات كانوا ممن عرفوا الحضارة الرومانية واخذوا منها ما لا يضر بقوميتهم •

3 — وفرقة ـ منها مرسيي وفرنال ـ تقول : ان البربر لم يقبلوا على الحضارة الرومانية ، وانها ذهبت بذهاب سلطانهم • وهاك أهم حجج هذه الفرقة :

1 — مدة وجود الرومان بافريقية ـ على طولها ـ لم تنقطع الثورات ، ولم يفتأ البربر فيها مدافعين عن ديارهم وعوائدهم ، ولم توجد أية قوة تنزع من قلوبهم حب التمتع بالاستقلال •

2 — لم يوجد من البربر من أعان الرومان ، وما كان من مسيزال فانما كان انتقاما من أخيه الذي قتل له ولدين لا حبا في الرومان • ويوضح لك ذلك انه كان حارب الرومان مع أخيه فرموس ، وانهم لم يجازوه على اعانته لهم على جلدون جزاء المعين المخلص •

3 — عدم انتشار اللغة اللطينية بين البربر حتى آخر عصر الدور الروماني اذ كان عصر القديس أغسطين الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر •

4 — لم يبق من مدنية رومة غير الخرابات والاحجار المنقوشة ، ولو أثرت رومة في البربر حقيقة لبقي من حضارتها أشياء أخر غير الخرابات •

وهذه الفرقة هي ذات القول الصحيح والحجة القويمة ، هي التي صدقت التاريخ ولم تتأثـر بدعاية ممجدي الرومان ومكبري شـأنهم .

قال بيروني : ويمكن اسناد سقوط الحضارة الرومانية بافريقية الى ثلاثة أسباب :

1 — فساد الاخلاق الرومانية ، وذلك لكثرة الملاهي والمنتزهات .

2 — نقص الرومان الذين بيدهم تسيير الحضارة ، وذلك ان كثرة الملاهي تضعف اليد العاملة فيقل الفلاحون والنوتيون وغيرهم.

3 — وجود الديانة المسيحية ، وذلك بما حدث فيها من الاحزاب المتباغضـة .

قال بيروني : « والسبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية من افريقية هو عدم استقلالها استقلالا يحفظ بقاءها بعد سقوط رومة » وفي هذا الكلام شيء من الابهام . فان أراد من الاستقلال استقلال الرومان العاملين على نشرها سياسيا واداريا فهذا لا يكفي لحفظها من السـقوط لان الجنس الاصلي بهذا الوطن غير مقبل عليها اقبـالا يحفظها بعد الرومان . فان قال : ان الرومان لو استقلوا بافريقية لبقيت لهم سلطتهم وحضارتهم ، ولم يضرهم ما يصيب الامبراطورية برومة قلنا ان سلوكهم مع الجنس الاصلي لا يضمن بقاء سلطتهم . بل لو استقلوا عن رومة لتعجل سقوطها . وهذا بونيفاس لما أراد الاستقلال احتاج الى الاستعانة بالوندال . على ان للدول مثل الاشخاص أعمارا تنتهي بانتهاء آجالها طالت أو قصرت .

وان أراد من استقلال الحضارة اللطينية بافريقية الشـمالية ان تكون بيد الجنس البربري فصحيح ان تبقى بعد سقوط رومة كما بقيت حضارة قرطاجنة بعد سقوطها . ولكن الرومان ليس غرضهم من

الاستيلاء على الشمال الافريقي نشر حضارتهم به حتى يتخذوا الوسائل اللازمة لقبول البربر اياها • وانما كان غرضهم توسيع دائرة نفوذ رومة ، وتوزيع ابنائها على المستعمرات لكسب الثروة التي عزت عليهم بوطنهم ، وجلب نتائج تلك المستعمرات الى ايطاليا القاحلة •

واذن نقول : ان السبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية بالجزائر هو عدم اقبال البربر عليها ، وليس عدم اقبالهم عليها لآفة في طباعهم • فانهم أقبلوا على حضارة قرطاجنة قبلها • وبقوا محافظين عليها حتى جاءهم العرب بحضارة سامية حديثة جرت ذيل النسيان على حضارة سامية قديمة • وعدم اقبالهم على حضارة رومة يرجع الى الاسباب الآتية :

1 — ترفع الرومان عن مخالطتهم • قال بيروني : « وكان الرومان لا يخرجون عن وظيفتهم السياسية والادارية ، ويترفعون عن مخالطة البربر • ومن البربر من كانوا يتجنسون بالجنسية الرومانية ، ولكنهم يجدون — بعد تجنسهم — الرومان متمسكين بترفعهم عن مخالطتهم » •

2 — سياسة الضغط التي سلكها الرومان مع البربر ، وذلك بانتزاع اراضيهم وسلب حقوقهم وجبرهم على العمل في أرضهم لفائدة غيرهم • فالبربر الذين تحت الاستعباد الروماني ذهبت مواهبهم في خدمة الرومان ، والذين سلموا من ذلك الاستعباد نفروا من كل شيء روماني •

3 — اهمال الرومان للبربر ، فلم يعتنوا ببث الاخلاق الفاضلة بينهم وتحويل عوائدهم • اذ كان غرضهم من الاستيلاء الفوز بنتائج الوطن وخيراته •

ومن ههنا نعلم ان البربر لم يمتزجوا بالرومان ويندمجوا فيهم • ولكن لا ننكر وجود شواذ وقذتهم الحضارة الرومانية وتأثروا بساداتهم

في لغتهم وآدابهم ونظام حياتهم • غير ان ذلك لا يعد شيئا بالنظر لطول اقامة الرومان بينهم • بل ان طول اقامتهم بالوطن البربري أثر فيهم أنفسهم حتى صاروا متميزين عن اخوانهم برومة •

والخلاصة ان استيلاء رومة على الجزائر انما أفاد الرومان ولم يفد البربر لا علميا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا الا عرضا • بل انه بعكس ذلك أضر بهم • ولولا ازعاج رومة لهم واسقاطها لدولهم لكان يكفيهم ما أخذوه عن قرطاجنة • وفي مواهبهم الفطرية ما يهيؤهم لترقيته • فان البربر من أغنى الامم رجالا في صفاء الاذهان وقوة الجنان •

24 — ذكر اباطرة رومة مدة الاستيلاء على الجزائر

لم تزل رومة منذ تأسيسها عاصمة الدولة الرومانية الى أن جاء قسطنطين فاختار ان ينقل سرير الملك الى بيزنطة • فانتقل اليها سنة (330) وكان له ثلاثة أبناء اقتسموا المملكةالرومانية بعد وفاته • ثم مات منهم اثنان فاستقل الثالث بالمملكة •

ولم تزل المملكة الرومانية بين انقسام واجتماع حتى سنة (395) حيث تم في هذه السنة انفصال العاصمة الشرقية عن العاصمة الغربية •

والجزائر لم تزل تابعة لرومة العاصمة الغربية الا سنة واحدة تبعت فيها القسطنطينية العاصمة الشرقية •

وهاك اسماء أباطرة هذه المملكة في جدول استخرجته من ابن خلدون (2 : 199—216) وقبل ان أرسم لك الجدول أقدم بين يديك ملاحظات :

1 — ذكر ابن خلدون اختلافا في أسماء بعض الاباطرة ومدتهم •

ونحن نقتصر من ذلك على ما كان متحـدا أو قريبا مما في كتـب الافرنج • لان ذلـك التاريخ الهام قـد عبثت به الايام فكثر فيه التحريف خصوصا في الاعلام •

2 — اقتصر ابن خلدون على ذكر مدة أولئك الاباطرة • ونحن تتمم الجدول ببيان ابتداء ولاية كل واحد منهم ونهايتها بالتاريـخ الميلادي مأخوذا من كتب الافرنج • وما يوجد من اختلاف في مدة ولاية بعض الاباطرة بين ابن خلدون وغيره فذلك مما لا تخلو منه التواريخ •

3 — قد يكون ما نثبته عن ابن خلدون من الاعلام بعيدا عما في غيره • فننبه عليه في تعاليق • وقد يظهر لنا ان ما فيـه محرف أو مصحف فلا نثبته في الاصل ولا نهمل التنبيه عليه في التعاليق • وقد يكون بعض التعاليق لفائدة تاريخية •

جـدول الاباطـرة

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
قيصر اكتبيان		ق 27	م 14	1
طباريش	23	م 14	37	2
غانيس	4	37	41	3
قلوديش	14	41	54	
نيرون	14	54	68	4
غلبان	ش9	68	69	
اتون	ش 3	69	69	5
ابطالس	س 8	69	69	6
اسباشيانس	9	69	79	7
طيطش	2	79	81	
دومتيان	15	81	96	8
نربا	2	96	98	9

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
طريانس	17	98	117	
اندريانوس	21	117	138	10
انطونيس	22	138	161	
اورالياس	19	161	178	
كمودة	13	178	192	11
برطانوس	س3	192		12
يوليانس	س2		193	
سورس	18	193	211	13
اقطونيس	6	211	217	14
مقرين	1	217	218	15
انطونيش	4	218	222	16
اسكندروس	13	222	235	

(1) لم يذكر مدته ، وقال : ولد المسيح لاثنتين واربعين من ولايته . وغيره يسميه اكتافيوس ، ويقول : ولي سنة 27 ق.م وهو صحيح في نفسه ، ورواية ابن خلدون معتد فيها بما قبل امبراطوريته حيث انه كان أحد الرجال الثلاثة منذ سنة 42 ق.م (2) غيره يدعوه طيبريوس (3) غيره يدعوه قليغولا (4) اضطهد المسيحية ، وحرق رومة تلذذا بمنظر الحريق ومات في شهر يونيه (5) فيه أنون بالنون . وهو تصحيف (6) غيره يدعوه ويتليوس (7) غيره يدعوه وسبسيان (8) فيه دومريان بالراء . وهو تحريف (9) فيه برما . وهو تحريف وتصحيف (10) في غيره أدريانوس باسقاط النون (11) قال : في عاشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك أول ملوك الدولة الساسانية من دول الفرس (12) في غيره برطينكس (13) في غيره سبتمس سويرس (14) في غيره قراقلا (15) فيه مفريق . وهو تصحيف وتحريف (16) المستفاد من غيره ان علمه الشخصي بسيانس ، وبعد امبراطوريته لقب نفسه « مرقس أريل أنطونين » .

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
مخشميان	3	235	238	1
يونيوس	ش3			2
غرديانوس	6	238	244	3
فلفش	6	244	249	4
دقيانوس	2	249	251	5
اورليوس			260	
غلينوس	15	260	268	6

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
قلوديس	2	268	270	7
اوريليانس	6	270	274	
طاقسوس	ش9	274		8
فروفش	7	276	282	9
ديقلاديانوس	21	284	305	10
مقسيمانوس				11
غلاريس		305	311	12

(1) دعى في غيره مكسمينس (2) حكى في اسمه قولين آخرين هما : لوكش ، بلينايوس • ولم أقف عليه في غيره (3) هذا حفيد غرديانس الاكبر الذي بويع بقرطاجنة بعد الكسندر سويسرس المسمى عنده اسكندروس • ولم يذكر غرديانس الجد (4) في غيره فليبس بالباء (5) قال : في أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف • وفي غيره فليبس بالباء الملك بقي بعد وفاته شاغرا مدة عامين (6) لم يذكر بين دقيانوس وقلوديس غير امبراطور واحد واختلف نقله في اسمه وفي مدته : سماه بالاسمين الذين في أصل الجدول وبغيرهما مما لا يختلف عنهما الا بزيادة الحروف ونقصها • وذكر في مدته روايات منها ما في الاصل • وفي غيره والريانس ملك بعد شغور الكرسي عامين ، واتخذ ابنه غاليانس شريكا في الحكم • فلما توفي استقل ابنه • ومن هذا يظهر ان أورليوس هو والريانس ، وان غلينوس هو غاليانس ، وانهما شخصان ، وان ما في الاصل من كون مدة غلينوس 15 هو مجموع مدة الاب وابنه (7) فيه فلوديس • وهو تصحيف (8) عند غيره تاكيتس (9) عند غيره بباءين بدل الفاءين ، وملكه غير متصل بملك أوريليانس • وجاء بعده خارس ثم هلك وجاء ديوقلطيانس • وقد أهمل ابن خلدون خارس (10) عند غيره ديوقلطيانس (11) حكي في مدته سنة وسبع سنين • ثم ذكر مخشميان ، وانه كان شريك ديوقاريان ، وان ديوقاريان هو ديوقلاديانوس • وعليه فمقسيمانس هو مخشميان ، وسياق التاريخ يؤيده • وفي غيره يدعى مكسميانس (12) لم يذكر مدته •

الامبراطور	المدة	الولاية	النهاية	التعليق
قسطنطين	50	312	337	1
قسطوس		337	350	2
قسنطش	24	337	360	3
يوليانوش	2	360	363	
يوبينانوس	1	363	364	4
واليس	4	375	378	
واليطينوس	12	364	375	5
اغراديانوس	3	378	83	6
ثاداسيوس	17	392	95	7
انوريش	15	395	423	8

(1) كان والده قسطنطيوس خلورس أشركه ديوقلطيانس في الحكم ، وجعله على بلاد غاليا واسبانيا وموريطانيا • فلما توفي سنة 306 خلفه ابنه هذا في منصبه • ثم حارب منافسيه • وملك رومة سنة 312 والمدة التي ذكرها ابن خلدون بعيدة عما في هذا البيان (2) عند غيره قسطنط • وهو ابن قسطنطين (3) عند غيره قسطنطيوس • وهو ابن قسطنطين كان على القسطنطينية • وبعد وفاة أخيه استقل بملك القسطنيطيية ورومة (4) فيه يوشانوس • وهو تصحيف (5) يدعى عند غيره ولنتنانس ، وهو أخو واليس ، وتولى الملك قبله (6) عند غيره غراطيانس • وثار عليه رجل يدعى مكسيمس • وملك ايطاليا حتى قتله ثأودوسيوس سنة 388 (7) قال في الخامسة عشر من ملكه ظهر أصحاب الكهف • وعند غيره يدعى ثأودوسيوس ، كان وزيرا كافلا لولنتنيانس الثاني أمبراطور المشرق الذي تولى سنة 378 وبعد قتل مكسيمس جعل مكفوله على بلاد المغرب ، وبقي هو بالقسطنطينية • وفي سنة 392 قتل ولنتنيانس الثاني، ونصب مكانه حاضنه ثأودوسيوس• والمدة التي ذكرها ابن خلدون صحيحة بالنظر لابتداء وزارته اذ كان في الحقيقة هو امبراطور (8) عند غيره هنوريوس ، ومدته أكثر مما ذكر ابن خلدون • وبعد وفاته نصب مكانه ابن اخته باسم ولنتنيانس الثالث ، وفي مدته دخلت الجزائر في يد الوندال •

شكل (24) الممر والقوس الذي نسب الى طريانس
بنيت هذه الابنية في عهد طريانس

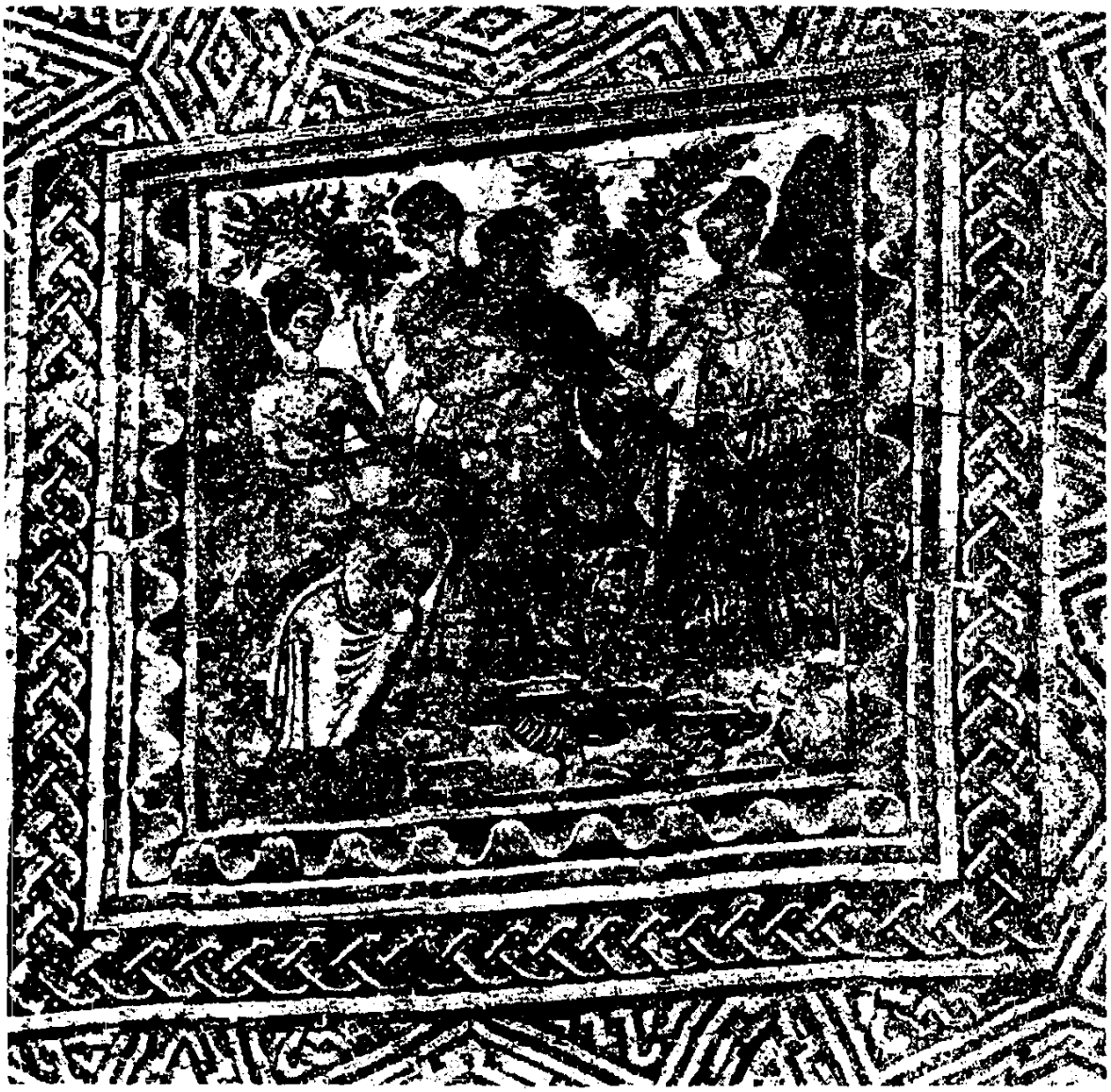

شكل (25) موازاييك « الجميلة »

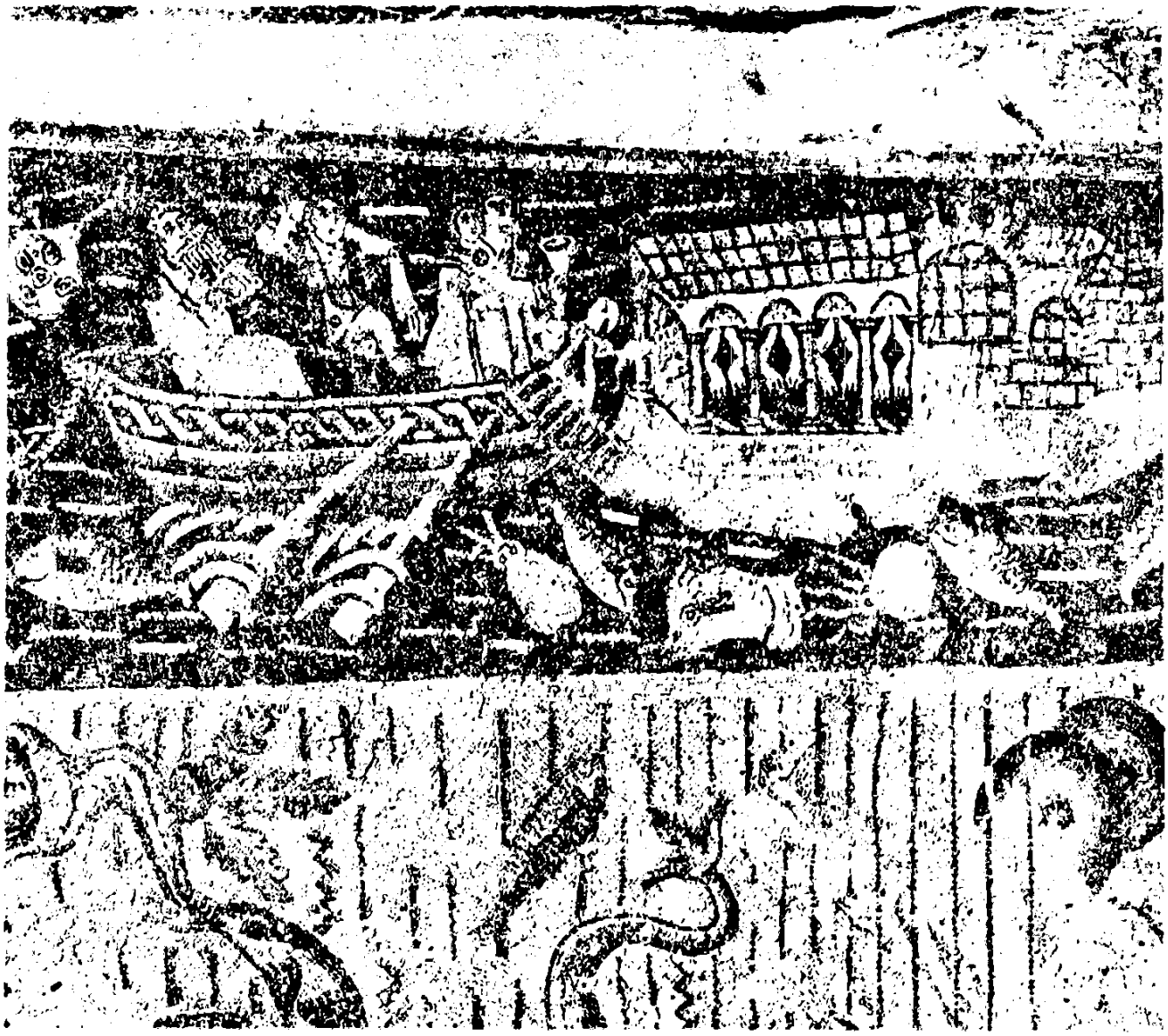

شكل (26) الصيد : لوحة تمثل حمام فينوس

الباب السابع

في ذكرى الوندال ومدل امرهم

ا ـ تمهيد

القوط (ويقال لهم أيضا : الغوث ـ LES GOTHS) أمة شديدة البأس صعبة المراس • قال ابن خلدون : « كانوا يعرفون في الزمن القديم بالسيسيين ، نسبة الى الارض التي كانوا يعمرونها بالمشرق ، فيما بين الفرس واليونان »[1] قال : وكانت لهم حروب مع الملوك السريانيين من لدن عهد ابراهيم الخليل عليه السلام (كان أواخر الالف الثالث قبل الميلاد) ثم مع الفرس ثم قهرهم الاسكندر المقدوني وأخضعهم فيمن أخضع من الامم • ومن ذلك الحين اختلطوا بالروم واليونان • هذا ملخص كلامه •

وقال غروت : كانوا في القرن الثالث (ق•م) على شواطىء بحر البلطيق • ثم انتشروا في جنوب جرمانيا وتعددت شعوبهم فاشتهرت منها شعوب هيرول (HERULES) وسويف (SUEVES) والان (ALAINS) وبرغند (BURGONDE) ووندال (VANDALES) قال : وفي النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد تغلبوا على بلاد مقدونيا وبلاد الاغريق • وانتشروا على ضفاف نهر الدنوب[2] بعضهم جنوبه ، ويسمون القوط الشرقيين ، وبعضهم شماله ، ويسمون القوط الغربيين •

---

(1) ج2 ص234 (2) منبع هذا النهر من الغابة الكحلاء غربي المانيا ، ويمر جنوب المانيا ثم بالنمسا والمجر ، ويفصل بين صربيا والمجر ورومانيا ، وبين رومانيا وبلغاريا وروسيا ويصب بالبحر الاسود .

وفي سنة (376) على عهد الامبراطور واليس هجم الهون من التتر على القوط الشرقيين • فاجتازوا نهر الدنوب • والتحقوا باخوانهم الغربيين • وهجم الجميع على المملكة الرومانية • واستوطنوا تراقية باذن من الامبراطور واليس • ومن هذا الحين انفتحت لهم الطرق في المملكة الرومانية ففي سنة (382) كلفهم ثأودوسيوس وزير ولنتنيانس الثاني بحراسة مجار نهر الدنوب ، وملكهم ولايتين هنالك ، ولما ولى ابنه هنوريوس على رومة ، وكان صغير السن ، استوزر له ستيليقون الوندالي • وكان هذا الوزير متزوجا من بنات أباطرة الرومان • وفي أيام وزارته اجتازت طوائف من القوط حدود ايطاليا • فكلفه هنوريوس بحربهم • فجهز الجيوش ، وكانت جنود مرابطة على نهر الرين لحفظ الحدود ، فاستدعاها ، واستعان بها على حرب تلك الطوائف • انتصر ستيليقون في حربه ، ولكن حدود ايطاليا من ناحية الرين بقيت من غير حراسة ، فاجتاز بها من شعوب القوط السويف والألان والوندال ، وانتشروا بالغاليا • وذلك أول يناير سنة (407) •

وكان ألريك [1] قد حارب بقومه من القوط الغربيين أرقاديوس أمبراطور القسطنطينية • وتم بينهم الصلح على ان يمنح الامبراطور ألريك ولاية اليريا [2] • ولما اصطلح مع امبراطور المشرق أخذ في الغارات على المملكة الغربية ، ودافعه ستيليقون • ولما أعياه أمره عرض عليه رئاسة الجند الروماني على أن يكف غارات القوط • وكان من الرومان من لم يرض سياسة ستيليقون فقتلوه سنة (408) •

غضب ألريك لقتل ستيليقون • فتقدم الى رومة • وحاصرها

---

(1) سماه ابن خلدون انطرك .

(2) اليريا : وطن جبلي على الشاطىء الشرقي من بحر الادرياتيك .

حصارا قضى على حياة خلق كثير من أهلها • وأخيرا أفرج عنها عوض غرامة كبيرة أخذها • ثم عاد اليها سنة (409) فخضعت له • وتداخل في شأن الامبراطورية • فأسقط هنوريوس لانه لم يسند اليه رئاسة الجند • ونصب مكانه شخصا يدعى اتال • ثم نزل هنوريوس على رغبته • فأعاد عليه كرسيه وعزل اتال • وما زال ألريك على عظمته حتى طمع في فتح افريقية سنة (410) ولكن الزوابع اغرقت اسطوله • فعاد الى ايطاليا وتوفي سنة (411) •

وكان لالريك صهر يدعى اتولف • فقربه هنوريوس وزوجه أخته بلاسيدية وسماه بطريقا • كل ذلك ليعينه على ابعاد أمم القوط عن ايطاليا • فانتقل اتولف بالقوط الغربيين الى الغاليا • وكان بها السويف والألان والوندال • فأخرجهم منها الى اسبانيا • وفي سنة(415) قتل اتولف وخلفه في ملكه وليا • فتوسع في اسبانيا ، وأخرج الوندال الى نواحي غرناطة وجيان من الجنوب الاسباني • فاستقروا بذلك القسم • ونسب اليهم • فصار يدعى « وندلوسيا » وقد صقلته العرب فغيرته الى كلمة اندلس •

2 ــ اصل الوندال

قد رأيت من سياقة تاريخ الوندال عند الافرنج انهم شعب من القوط • وذكر ابن خلدون ان القوط من ماغوغ ابن يافث •

ورواية الافرنج هذه هي الصحيحة عندي لما فيها من الشرح والبيان لاحوال الوندال الى ان استقروا باندلس • وذلك يدل على فضل اطلاعهم في هذه المسألة • فيترجح الاخذ بروايتهم •

وهناك روايتان أخريان حكاهما ابن خلدون :

الاولى انهم من الاغريق • وهم أيضا من يافث • وهاك عبارته :

« ولحق بالاندلس ثلاث طوائف من الغريقيين فاقتسموا ملكها • وهم الابيـون والشوانيون والفنداش • وباسـم فندلس سـميت الاندلس »[1] وعبر عن هؤلاء الطوائف بالطوالع •

الرواية الثانية حكاها بقوله : « وقد يقال ان هؤلاء الطوالع كلهم من ولد طوال بن يافث ، وليسوا من الغريقيين »[2] •

وفي كلتا روايتيه نظر : أما الاولى فيبطلها ان الرومان كانـوا يطلقون على الوندال وغيرهم من أمم القوط اسم المتوحشين • ولم يعهد منهم هذا اطلاق في الاغريق • كيف وهم اساتذتهم في العـلوم والحضارة ؟ ولعل منشأ الوهم في هذه الرواية ما ذكره ابن خلدون نفسه من ان القوط اختلطوا بالروم واليونان منذ عهد الاسكندر • فاختلط على صاحب الرواية بعض شعوب القوط بشعوب الاغريق •

واما الثانية فقد أشار الى ضعفها بقوله وقد يقال • ووجـه سقوطها ان أبناء قطوبال استوطنوا الاندلس بعد الطوفان على ماذكره في موضع آخر ، وتقدمت الاشارة اليـه في الباب الثاني • وهؤلاء الطوالع انما نزلوا الاندلس أوائل القرن الخامس للميلاد كما تقدم في سياقة تاريخ الافرنج • وتدل عليه أخبار ابن خلدون •

ومما يرشح الاخذ برواية الافرنج أن أسماء الطوالع عنـد ابن خلدون قريبة من أسماء الشعوب التي صرح الافرنج أنهم من القوط : فالفندلس هم الوندال ، والابيون يظهر أنهم ألان صحفت النون باء ، والشوانيون يظهر أنهم السويف ، ووضع الشـين مكان السين من الشائع ، فابن خلدون نفسه عبر عن الوندال مرة باسم فندلش وأخرى

---

(1) ج2 ص235 وما ذكره باسم طوال ذكره في تفصيل انساب العالم باسم قطوبال ، وذكره في الكلام علـى انساب اليونان والروم باسـم طوبال .

باسم فندلس ، والفاء عربت باء فيما يظهر ولكنها صحفت في الطبع نونا ، وكثيرا ما يعرب ابن خلدون حرف (V) باء •

والخلاصة ان الوندال شعبة من القوط يدل على ذلك سياقة تاريخهم ، واتحادهم في الاخلاق حتى أطلق الرومان على الجميع اسم المتوحشين ، واتحادهم ايضا في الدين واللغة •

وقد بقي اسم القوط لبعض شعوب هذه الامة • وهم الذين أسسوا دولتهم بالغاليا الى أن سقطت سنة (507) وانتقلت الى الاندلس وبقيت هنالك الى ان قضى عليها طارق بن زياد وموسى ابن نصير سنة (711) •

أما الوندال فانهم أسسوا دولتهم بافريقية وبقوا بها حتى قضى عليهم الروم البيزنطيون •

٤ ـ ديانة الوندال

كان الوندال ـ كبقية القوط ـ وثنيين يعبدون الشمس والقمر والارض وغيرهن من آلهتهم حتى بلغتهم دعوة المسيحية أواخر القرن الرابع للميلاد •

كانت المسيحية قد انقسم أتباعها الى مذاهب متنافرة متباغضة • ومن بين تلك المذاهب مذهب أريوس • وكان أريوس هذا لعهد ديوقلطيانس وأدرك دولة قسطنطين • قال ابن خلدون : وهو كبير تلامذة ماربطرس بطرك الاسكندرية • وكان كثير المخالفة له • فسخطه وطرده • وقال في موضع آخر : « وكان يذهب الى حدوث الابن ـ عيسى عليه السلام ـ وانه انما خلق الخلق بتفويض الاب اليه في ذلك » ولعل المراد من الخلق ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى :

« واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ، فتنفخ فيها فيكون طائرا باذني » واذن تكون عقيدة أريوس في عيسى مثل عقيدة الاسلام •

بعد وفاة ماربطرس انتصب اسكندروس مكانه بطركا • فأشاد بكفر أريوس • وكتب بذلك الى جميع النواحي • فبلغ الخبر قسطنطين • فأحضر أسكندروس وأريوس في أساقفة آخرين • وتناظروا أمامه • فمال الى أسكندروس • واذن له أن يشيد بكفر أريوس • وما أقبح تداخل القوة المادية في القوة الفكرية ! وما أعجز فؤسها عن ايجاد قبر يعفي وجودها !

حاول أسكندروس ان يعفي مقالة أريوس فانتشرت على الرغم منه ومن قسطنطين حتى أن كثيرا من الملوك أخذوا بها وانتصروا لها • قال ابن خلدون : « وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينة وانطاكية ومصر والاسكندرية » •

بلغت المسيحية في أواسط القرن الرابع الى القوط على يد أتباع أريوس • وكان الوندال منهم كلهم أريويين • ويقيمون مراسم دياناتهم باللغة القوطية لا باللطينية • وكانوا على غاية من التعصب لمذهبهم حتى ان جل ما يجده المؤرخ من أحاديث الوندال بافريقية هي اضطهاداتهم للارثذوكس • ومما زاد في تعصبهم واضطهادهم لغيرهم ان ملوك الارثذوكس في نواح أخرى كانوا يعذبون الاريويين أيضا • فكان الوندال ينتقمون لاخوانهم في الدين من أعدائهم الذين تحت سلطانهم • وليست يد السياسة ببعيدة عن تلك الاضطهادات •

4 ــ استيلاء الوندال على الجزائر

ظهرت أمة الهون من التتر وأمم القوط بأروبا • وأخذت تلك الامم تنقص الامبراطورية الرومانية من أطرافها حتى بلغوا قلبها ،

وصاروا يتحكمون في تنصيب الامبراطور • فأصابت أروبا والمملكة الرومانية منهم جوائح الفتن وارتفع الامن وذهب العمران •

والجزائر ــ كبقية الشمال الافريقي ــ كانت في هرج من أجل تنافس الاحزاب المسيحية وثورات بعض المتطلعين الى الاستقلال من البربر والرومان • ولكنها لــم تزل أحسن حالا مــن أروبا وانعم بالا منها •

ولما استقر الوندال بالاندلس اتخذوا سفنا لخوض لجج البحر الابيض المتوسط • فكانوا ينظرون الى شمال افريقية من كثب • ومع علمهم بضعف رومة وجرأتهم على ولاياتها بأروبا لم يجرأوا عــلى افريقية • فبقوا ينتظرون سنوح الفرصة لهم بفتحها ، حتى وجدوا في الكونت بونيفاس تحقيقا لأمانيهم وانجازا لآمالهم •

في سنة (422) سمي بونيفاس واليا على افريقية • وفي سنة (423) توفي هنوريوس ، وتطلع الى خلافته أناس ، ووقعت رومة لذلك في هرج ، وكانت بيلاسيدية أخت هنوريوس بالقسطنطينية ، ومعها ولدها من قسطانس قائد هنوريوس • تزوجته بعد قتل اتولف • وتداخل امبراطور القسطنطينية ثأدوسيوس بن ارقاديوس أخي هنوريوس في عرش رومة • فنصب به ابن عمته بلاسيدية باسم ولنتنيانس الثالث تحت كفالة أمه • وذلك سنة (424) •

لما أفضى الامر الى بلاسيدية فوضت لبونيفاس في التصرف • فخدم دولته خدمة صادقة ، وصار من عظماء الحكومة • فحسده لذلك بعض منافسيه • وقام بدور السعاية به مع بلاسيدية قائد عام يدعى ايتيوس • وأخذ يدس عليه الدسائس معها حتى أصغت اليه وعزلت بونيفاس من ولايته سنة (427) •

كانت المصلحة الشخصية أغلب على بونيفاس من المصلحة العامة •

فلم يمتثل أمر العزل ، ولم يبال بما يصيب دولته من شغبه عليها وهي على فراش الاحتضار • وصممت الامبراطورة على عزله • وعززت أمرها بالقوة العسكرية • فحاربها بونيفاس ، وهزم جنودها • فعادت لحربه في السنة التالية • ووجد هو موقفه حرجا ، البربر أهل الوطن ضده ، ودولته تحاربه ، وارادته أبت من الامتثال للعزل • فأراد أن يستعين على الخلاص من الازمة بالاجنبي • فاستنجد الوندال على أن يمنحهم غرب المملكة الرومانية بافريقية الى وادي مساغا ، ويسلموا له في شرق هذه المملكة ، يبقى به مستقلا [1] فأسرع الوندال الاجابة •

وفي سنة (429) نزل الوندال والسويف والألان وغيرهم من أمم القوط بموريطانيا الطنجية • وانبثوا في الوطن البربري كالجراد المنتشر • قال مرسبي : « وكان عددهم ثمانين ألفا المقاتلون منهم خمسون ألفا » •

وفي هذه المدة كان القديس أغسطين يسعى في الصلح بين بونيفاس والامبراطورة • فأدركت أخيرا غلطها وتحققت الدسيسة • فرضيت عنه وأعادت عليه منصبه ، ولكن بعد نزول الوندال بموريطانيا •

ولما عاد بونيفاس الى منصبه ندم على اتفاقه مع الوندال فأرسل اليهم أن عودوا الى الاندلس ، واخرجوا من المملكة الرومانية ! فلم يسرع الوندال الى اجابته هذه المرة ، بل تمادوا في سيرهم • وعدوا أمر بونيفاس هذا ناقضا لاتفاقهم معه • فلم يقفوا عند حد وادي مساغا ، وتعدوه الى نوميديا • وصدق على سياسة بونيفاس معهم المثل العربي : « لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت » •

---

(1) اين الثرى من الثريا ؟ أين بونيفاس من خالد بن الوليد (ض) الذي كان قائدا عاما وغازيا منصورا ، فلما عزله عمر (ض) امتثل ورجع تحت لواء ابي عبيدة جنديا مخلصا ؟

ولما رأى بونيفاس تقدم الوندال في الوطن تهيأ لحربهم ، وجمع جموعه • فالتقى الفريقان قرب قالمة • ودارت الدائرة على بونيفاس ، ففر الى بونة ، وتحصن بها • وذلك سنة (430) •

وبعد فراره قسم الوندال جنودهم قسمين : قسما تركوه للاستيلاء على نوميديا ، وآخر وجهوه لحصار بونة • فكان الاول يفتح مدن نوميديا بمساعدة اتباع دونتوس ، ويبطش بالارثذوكس ، وكان الثاني يجمع جثث القتلى في خنادق حول المدينة ليفرق من منظرها المحصورون •

وفي سنة (31) أرسلت بيلاسيدية نجدة الى بونيفاس تشجع بها ، وخرج لقتال الوندال • ولكنه انهزم أمامهم • فدخلوا المدينة ، ونهبوها ، وحرقوها • وايس بونيفاس من المقاومة ، فترك الوطن لفاتحيه ، وذهب الى الامبراطورة ، فأكرمته ، ورفعت منزلته ، ولم تؤاخذه على خسارة وطن هو حياة رومة لعلمها بأن لها يدا في ذلك باصغائها للوشاة •

وبفتح بونة وذهاب بونيفاس تم للوندال فتح الوطن الجزائري (موريطانيا ونوميديا) وذلك في مدة عامين •

ويجب ههنا أن تتذكر سير الاستيلاء الروماني على الجزائر • فقد تقدم أنهم تعرفوا الى هذا الوطن سنة (213) ق•م وشرعوا في تحقيق استيلائهم عليه من سنة (46) ق•م الى سنة (42) للميلاد • أما الوندال فلم تتقدم لهم معرفة به ، ولم يمكثوا في فتحه غير عامين • وهذا مما يبعث على البحث في سبب الفرق الكبير بين سير الاستيلاءين •

لا يصح أن ترجع سرعة الاحتلال الثاني وبطء الاول الى تفوق الوندال على الرومان في السياسة والجندية • فان الواقع يشهد

لخلاف ذلك • فلنبحث عـن العلة في غير القـوة الحربية والحنكة السياسية •

يقول بعض المؤرخين : ان الذي سـهل على الوندال احتلال الوطن البربري وقرب أمده هو اتفاقهم والبربر طبعا ودينا • ذلك بأن طبع الجميع حب الثورات وهدم الحضارات ، ودين الجميع كان على خلاف دين الرومان الارثذوكس • وليس ذلك عندي بصحيح • فان البربر انما كانت ثوراتهم حبا في الاستقلال وتطهير هوائهم من سموم الانفاس الاجنبية ، وكانوا أكثرهم وثنيين والمسيحيون منهم كانوا غير متفقين مذهبا مع الوندال •

ومن المؤرخين من يعترف بوجود فروق بين البربر والوندال من شأنها ان توجد الكراهية والبغضاء بين الامتين • وهذه الفروق هي : اللغة ، القوانين ، الاخلاق ، العوائد ، اللون • ويعلل هذا المؤرخ سرعة احتلال الوندال بأمرين : انتشار الفوضى في الوطن ، وحسن سياسة القائد الوندالي •

وليس هذا بصحيح عندي أيضا • أما الفوضى البربرية فانما هي من حيث فقد أمير عام يلتفون حوله ، لان الرجال الذين يصلحون لذلك قد قضت عليهم رومة ، ولا يمنع ذلك من وجود رؤساء عـلى عشائر يقومون بالدفاع عن وطنهم وتعطيل سير الوندال به ، وأما حسن سياسة القائد الوندالي فليست هي التي استمالت اليه البربر ، وانما نفعته في جمع كلمة من تحت رايته من قومه وتثبيت قدم دولته بعد الاحتلال •

وعندي أن لا سبب لسرعة احتلال الوندال غير مساعدة البربر لهم • وعلة مساعدتهم أنهم كانوا ينفرون من سلطة رومة ، ويعشقون الاستقلال • وقد حاولوا مرارا أن يبلغوا مرادهم من طرد الرومان

والاستقلال بوطنهم فلم ينجحوا • فلما وجدوا في الوندال نصيرا على طرد الرومان أعانوهم مكتفين بهذا الشطر من غايتهم ، اذ رأوا أنهم عاجزون عن الشـــطر الآخر وهـــو الاستقلال • فاستبدلوا احتلالا باحتلال ، تحقيقا لاحـــد المقصدين ، وتلك قاعـــدة ارتكاب أخف الضررين •

5 ــ تأسيس حكومـــة الونـــدال

استولى الوندال على نوميديا وما يليها غربا • واتخذوا بونة عاصمة مملكتهم • وأيست رومة من ارجاع ذلك الوطن بالحرب ، لما كانت عليه من الاختلال والانحلال • ورأى الامبراطور أن يحافظ على ما بقي له من تراب افريقية • فأرسل رسولا الى جنسريق قائد الوندال وملكهم ، ليفاوضه في الصلح • وفي سنة (35) تم الاتفاق بين الفريقين حسبما يلي :

1 ــ يدفع أمير الوندال لامبراطور رومة غرامة سنوية •
2 ــ لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا شرقا •
3 ــ يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء •
4 ــ يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة •

قضت هذه المعاهدة ببقاء حق امبراطور رومة في الجزائر وقبول جنسريق لان يكون تحت سيادته • فأظهر له حسن الولاء ، وحافظ على مواد المعاهدة • وبعد اربع سنوات وثق الامبراطور باخلاصه ، فسرح له ولده • وذلك ما كان ينتظره جنسريق لتوسيع مملكته بفتح البروقنصلية (تونس) •

لم يبق لجنسريق بعد رجوع ولده ما يحمله على احترام المعاهدة • واتفق ان كان الرومان اذ ذاك مشتغلين بحرب القوط • فلم يهمل هذه

الفرصة • وذهب الى قرطاجنة ، ففتحها من غير عناء • واستولى على البروقنصلية • وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة (439) •

لم يستطع ولنتنيانس الثالث أن ينتقم من جنسريق لتعديه على المعاهده • وقديما عد الرومان مدافعة القرطاجنيين لهجوم مصينيسا خرقا لمعاهدة (201) ق•م وهكذا ترى القوي يعد مدافعة الضعيف عن حقه تعديا ، والضعيف يداس حقه فيتظاهر بالحلم والسماح •

رأى ولنتنيانس ضعفه أمام قوة جنسريق • فلم يحتج بالمعاهدة التي بينهما • واكتفى بتجديد معاهدة أخرى معه • فوقع الاتفاق بينهما بقرطاجنة سنة (42) على ان يسلم الامبراطور للامير من سرت شرقا الى تبسة وشق بنارية وباجة غربا ، ويسلم الامير للامبراطور بقية نوميديا وجميع أقسام موريطانيا •

قضت هذه المعاهدة بعود الجزائر الى السلطة الرومانية • ولكنها سلطة ضعيفة ؛ وقصيرة العمر ، اذ قضى عليها جنسريق سنة (55) وما قبل هذه المعاهدة الا بنية القضاء عليها ، حيث أنه استبدل وطنا هادئا غنيا لسلامته من جوائح الثورات بوطن قضى على عمرانه تعدد الفتن وأنهكه تهاطل الارزاء والمحن •

في سنة (450) توفيت بلاسيدية • وبقيت المملكة بيد ابنها ولنتنيانس • فعبث بها عبثا كبيرا • وأخيرا قتل سنة (54) وانتصب قاتله مكانه • وزاد ذلك في اضطراب أحوال رومة • وكان جنسريق يراقب أحوال أروبا • فرأى في اختلال رومة ما شجعه على غزوها • فجهز جيوشه من الوندال والبربر • وقصدها ففتحها سنة (55) من غير عناء ولا تعب • وسرح جنوده فيها للنهب اربعة عشر يوما • ثم عاد الى قرطاجنة ظافرا منصورا يحمل غنائم جليلة واسارى من أعيان الرومان •

من ذلك الحين انتهت بقايا سيادة الرومان على شمال افريقية • واستقل به الوندال • وعدوا أنفسهم سادة هـذا الوطن • فكانوا يؤرخون بايام ملوكهم • ولم يقبل الملوك القابا تشريفية من رومة لئلا يعدوا كموظفين رومانيين ، وصاروا يرسمون صورهم على النقود •

وكانت المملكة الشرقية القوية تنظر الى أختها أو أمها المملكة الغربية بعين الحنان والشفقة • فأراد امبراطورها ان يتداخل في شؤون الوندال تارة لفائدة رومة وأخرى لفائدة الارثذوكس • ولكن ملوك الوندال كانوا يرفضون تداخله بكل شمم •

والخلاصة ان جنسريق كان في بداية استيلائه يتظاهر باحترام دولة الرومان • وبعد رجوعه من رومة رفع غشاء السيادة الرومانية • وبقي يلين القول لامبراطور القسطنطينية لقوته • فلما جاء خلفاؤه تمموا استقلالهم ، وطهروه من شائبة أي تداخل أجنبي •

وقد علمت ان استيلاءهم على الجزائر فيما بين سنتي (30ـ42) كان تحت سيادة الرومان الاسمية • وعادت الجزائر الى الرومان من سنة (42) الى سنة (455) ومن هـذه السنة استقل الوندال بالجزائر وغيرها • وجعلوا عاصمتهم قرطاجنة •

6 ـ نظـام دولـة الونـدال

بعدما استقر جنسريق ببونة أخذ ينظم شؤونه ويستأصل جرثومة الخلاف عليه • كان له أخ يدعى غندريك ، وكان هو رئيس الوندال بالاندلس • فقتله هنالك ، وأودع زوجته وابناءه السجن • فلما حل ببونة قتل الجميع ، وتتبع شيعة أخيه حتى أخضعهم • واعتنى بالجندية والبحرية • فاتخذ جيشا من الوندال والبربر يشتمل عـلى ثمانين فرقة • وكان يستميل البربر ، ويتقي كل ما من شأنه ان يثيرهم عليه •

واذا اضطر لمحاربتهم لم يحاربهم الا بالوندال الحقيقيين ، لانهم أكثر اخلاصا له ، وأشد قوة على الحرب • وكان يمنح الجيش من الغنائم • واتخذ اسطولا عظيما خاض به عباب البحر الابيض المتوسط ، وملك به أهم جزره ، وأدهش به الايطاليين • قال مرسيي : وقد وجد في هذا الاسطول فائدتين : الغنائم التي كان يجلبها بالقرصنة ، وتمرين الجنود على الحرب • وأرى فائدة ثالثة وهي اشغال البربر من جيشه بالقرصنة حتى لا يثوروا عليه • وقد غفل خلفاؤه عن هذه الفائدة ، فلم يجدوا في البربر السلم التي وجدها هو •

وبعد ان دخل جنسريق قرطاجنة وثبتت قدمه هنالك بمعاهدة سنة (42) اتخذ الوطن التونسي وطنا ونداليا • فقسم ادارته الى خمس عمالات ، وقسم اراضيه بين ولديه هنريق وجنصون ، والجنود ، ومعمري الوندال • وابقى بعض الاراضي للاهالي •

أما الوطن الجزائري فلم يدخل عليه بعد عوده اليه أي تغيير اداري ولا استعماري • بل ابقى لساكنيه نظامهم القديم وولاتهم ومجالسهم البلدية وشرائعهم الذاتية ، وانما اتخذ به مراكز للجنود وكان يرسل اليه احيانا بعض أعيان دولته لاستطلاع الحالتين : السياسية والعسكرية ، ولم ينتزع منهم أملاكهم ، الا ما كان من املاك الدولة الرومانية فانه صار الى ملوك الوندال ، وعليه وكلاء وبه خدمة فلاحون ، ولم تتغير حالة الضرائب ايضا الا في المدة التي عادت فيها الجزائر الى الرومان فان الامبراطور أصدر أمرا سنة (45) باسقاط سبعة أثمان الغرامة عن الاهالي •

وكان رؤساء البربر منقادين لملك الوندال ، ويمدون جيشه برجالهم •

ووجد أتباع دونتوس في الوندال أعظم نصير فثأروا من

الارثذوكس • وفي أيام هنريق استعملوا قوانين ضد الارثذوكس هي نفس القوانين التي شرعها بعض أباطرة رومة للارثذوكس لينفذوها على الدونويين « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

والخلاصة أن الوندال لم يحدثوا أي تغيير بالوطن الجزائري الا ما كان من قلة عددهم به بالنسبة الى ما كان به من الرومان ، ولم يلحق سكانه منهم أي اضطهاد الا من كانوا أرثذوكس وهم أقل القليل كما سبق •

7 ــ ملـوك الونـدال وسياستهم

اعتلى عرش مملكة الوندال بافريقية ستة ملوك في مدة تزيد على مائـة سـنة •

1 ــ جنسريق (429ــ77) : هو الذي تولى قيادة الجيش الذي ساقه لفتح افريقية • وأسس بها دولة الوندال •

كان من أعظم ملوك افريقية وانفذهم رأيـا وأبعدهم نظـرا ، سياسيا ماهرا وحربيا حاذقا • لا يحارب الا حيث يرى فائدته في الحرب • ولذلك عقد معاهدتين مع امبراطور رومة • ولما تيسرت له الحرب لم يبال بالمعاهدتين • وان رأى أنه عاجز عن الحرب توقاها واستعان بدهائه • فقد جمع له مجريان (الذي تولى الامبراطورية برومة سنة 457) بقرطجنة سنة (58) ثلاثمائة سـفينة ليحاربه بهـا ويسترجع منه افريقية • فرأى هذا الملك أنه عاجز عن صده بالقوة ، فأرسل الجواسيس الى معسكر العدو وكان به جنود من القوط • فاستمال الجواسيس هؤلاء القوطيون ، وأغرقوا السفن بمكانها • ونجا بهذا الدهاء جنسريق من شر حرب لا قبل له بها • وكان امبراطور القسطنطينية يحاول اضعاف الوندال • فأرسل جيشا بريا وآخر بحريا

لحرب جنسريق • ورأى هذا الملك عجزه فصار يناوشهم القتال ، ويبث فيهم الجواسيس ، ويسعى في تفرقتهم • فتم لـه الفوز • واكتفى الجيشان من الغنيمة بالاياب • فعادا الى القسطنطينية سنة (70) •

وفي سنة (476) [1] عقد معاهدة مع امبراطوري الشرق والغرب على ان لا يحارب أحد منهما مملكته ويعترفا بانـه ملك افريقية • وهكذا ظل منصورا في كل مواقفه حتى أدركه حمامه •

2 — هنريق (477ـ84) : انتصب مكان أبيه • ولكن لم يخلفه في تدبيره ودهائه • فقد كان ضعيف السياسة شديد القسوة سفاكا للدماء • ولم ينج من بطشه حتى أقاربه وحاشيته • ويكفي أن نسوق حكاية واحدة عن أسقف قرطاجنة الاريوي ذهب اليه ليعظه ويرقق قلبه • فجازاه بأن حرقه أمام الناس ؟

ولسوء سياسته انسلخ عنه أكثر الجهات • وانحصرت دولته في السواحل وبعض دواخل الوطن •

3 — غندامند (484ـ96) : هو ابن جنصون • انتصب مكان عمه • ووجد الدولة في خطر من جراء سياسة عمه • فحاول ان ينهض بها ، ويكبح جماح الثوار • فلم يأت بشيء • وكان كسلفه مشتدا على الارثذوكس • فأدرك ما في ذلك من ضرر بالسياسة ، ورجع عـن شدته ، وأعاد المنفيين منهم ، ورجع اليهم أملاكهم •

4 — تراسمند (496ـ523) : انتصب مكان أخيه • واشتد على الارثذوكس • وحسن علائقه مع القوط • وتزوج بأخت ملكهم •

5 — هلدريق (523ـ31) : هو ابن هنريق • انتصب مكان ابن

---

(1) في هذه السنة سقطت مملكة الرومان الغربية . قضى عليهـا اداقر ملك الهيرول . واستولى على ثلثي ايطاليا . واصطلح مع جنسريق . واقتسما صقلية .

عمه • وكان حييا محبا للسلم • وخالف سياسة اسلافه : فرفع الاضطهادات عن الارثذوكس ، وأعلن بدخول دولته تحت سيادة يستنيان امبراطور القسطنطينية ، وصار يرسم على نقوده صورة هذا الامبراطور ، وقطع علائقه مع القوط بقتل أخت ملكهم زوجة تراسمند لانها سعت في تدبير ثورة ضده •

ولم يرتض الوندال سياسته هاته ، فثاروا عليه ، وأودعوه السجن ، فلم يزل به حتى قتل سنة (23) •

6 — جلمير (531ـ534) : هو حفيد جنصون • كان في دولة هلدريق رئيسا للجنود ومكلفا بحرب بربر المغرب • وله تأثير على الجنود • فكانوا يحبونه • ولما رأى انحراف الوندال عن ملكهم داخل جنوده في الثورة عليه • فأجابوه بالامتثال • فثار عليه ، وأودعه السجن ، وانتصب مكانه •

بلغ خبر هذه الثورة يستنيان ، فامتعض لها • وارسل الى جلمير : ان سرح هلدريق ، واعد له كرسيه • فكان جواب هذه الرسالة التشديد على هلدريق حتى لا يعد جلمير مثله خاضعا ليستنيان • ولما رأى الامبراطور اصرار جلمير على سياسته ارسل اليه ثانية : ليسرح هلدريق ، وليأذن له في الالتحاق به • وان لم يفعل فالحرب • فأجابه جلمير عن هذه الرسالة بقوله : « اني لم أتول الملك بالقهر •• وهلدريق كان صاحب دسائس في الاسرة • وحنق الوندال كلهم عليه هو الذي أسقطه • فبقي الكرسي شاغرا فجلست عليه بوجه شرعي ، لاني أكبر الاسرة » • وقال جوابا عن تهديده له بالحرب : « الملك الحكيم هو الذي يشتغل بحكومته • ولا يمد طرفه الى ماهو خارج حدودها • ولا يتداخل في شؤون الدول الاخرى • واذا أردت قطع ما بيننا من المعاهدات فاني معذور في مقابلتك بالمثل » •

كان هذا الجواب قاطعا لآمال يستتنيان في آن يفيد صديقهلدريق بالمكاتبة • ولم يبق له الا الاعراض عنه أو الحرب • وهي أنسب بعظمته • فتجهز لحرب الوندال بافريقية • وانتهت الحرب بخضوع جلمير الى قائد الروم البيزنطيين • فذهب بـه هـذا القائـد الى القسطنطينية • ومنحه يستنيان أرضا بالاناضول قضى بها بقيةحياته •

8 ـ اعمـال الونـدال

الوندال أمة حربية متعصبة لمذهبها • فلم يشتغلوا بافريقية الا بالغزوات البحرية ، والاضطهادات للارثذوكس • ولم يفيدوا الوطن لابعلم ولا بصناعة • بل كانوا سببا في نقص عمرانه وعلة لخرابه ومادة لاذكاء نار الثورات بـه •

جنسريق مؤسس دولتهم والمعدود من أمهر السياسيين أمر بنسف عمران أقسام موريطانيا وافساد سبلها عندما بلغه ان مجريان جمـع جموعه بقرطجنة ، وقاصد لحربه على طريق المغرب • وكان مشتدا على الارثذوكس ، حتى انه سنة (37) طلب منهم الدخول في مذهب أريوس • وأغلق كنائس من لم يلبوا طلبه منهم ونفاهم •

وهنريق جمـع في سنة (83) أساقفة وقسوسا وشمامسة مـن الارثذوكس ، بلغ عددهم 4976 وحشرهم في شق بنارية ، وسيقوا من هنالك الى مجزرة الصحراء • وطلب اليه بعض أساقفة الارثذوكس انهاء اضطهادهم بعقد مجمع في افريقية ، يستدعى اليه كل من له رتبة في الكنيسة من جميع أنحاء العالم • فأجابه بقوله : « اني أحب ذلك • لكن بشرط أن تضع العالم كله تحت سيطرتي » •

وغندامد اشتد أيضـا على الارثذوكس أولا • وفي سنة (87) عفا عنهم •

وتراسمند جرى على سياسة سلفه في العفو عنهم • ولكنه كان يستميلهم الى مذهبه بمنافع يمنحهم اياها • ولم يساعدهم على نظام كنيستهم ، ونفى من الاساقفة من لم يخضعوا لاوامره •

وهلدريق أوصاه سلفه بالرفق بالارثذوكس • فجرى على وصيته • وفي سنة (524) عقد مجمعا بقرطاجنة رجاء ايجاد سبل للمفاهمة والموافقة والموافقة بين المذهبين • فانفصل المجمع على استحالة توافقهما •

والخلاصة أن أعمال الوندال كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان ، وامتلاك ما كانوا أخذوه عن البربر من الاراضي بجميع الشمال الافريقي ، واضطهاد الارثذوكس الرومانيي النزعة بنفي أساقفتهم واغلاق كنائسهم وانتزاع أملاكهم • وقد ساموهم سوء العذاب : يحرقون رجالهم ونساءهم بالنار ، أو يمثلون بهم بقطع الاعضاء أو الضرب بالسياط •

وتاريخهم حافل بتفاصيل وقائع الاضطهادات واعمال التخريب • ولكن لا تخلو تلك الاحاديث من المبالغات • على ان اجمال ذلك أنسب بنا من بيانه ، لكون أكثره خارجا عن موضوع تاريخنا ، وأغلب مسيحيي الجزائر كانوا دونويين فنجوا من تلك الاضطهادات ، بل كانوا شركاء الوندال في التعدي على الارثذوكس وادالهم الله منهم •

9 ــ ثورات البربر

قد علمت انه لم يكن للوندال بالوطن الجزائري غير مراكز عسكرية قليلة وأراض دولية الفلاحون بها من البربر • فكان عدد الوندال به قليلا ، وسلطتهم على أهله ضعيفة • واذا كان الرومان على قوتهم الحربية والاستعمارية وطول أمدهم لم يقطعوا ثورات البربر

فان الوندال أعجز من أن يغمدوا سيوف أولئك الابطال الا في جسد سلطتهم •

كان جنسريق يحملهم على الهدوء بعاملي الترغيب والترهيب • فقد كان معنيا بالجندية التي يخشون بطشها ، وكان يشركهم مع جنوده في غزواته وغنائمها ، حتى في فتح رومة وما عاد به منها من النفائس •

وبهذه السياسة شغلهم عن تدبير الثورات ، ورغبهم في السلم • فكانت افريقية الشمالية على عهده في راحة من الثورات لم تعرفها في غير عصره • ووجد البربر اذ ذاك الفرصة لاسترجاع قوتهم الحربية ، لكنهم لم يستعملوها ضده ولم يهملوها بعد وفاته •

جاء بعده هنريق الذي لم يكن كأبيه ، فلم يعامله البربر مثله • وثاروا عليه سنة (83) بعد جمع الارثذوكس بشق نارية وتشريدهم في الصحراء • امتدت الثورة من جبل راشد وجبال أوراس وجرجرة وما بينهما الى طرابلس • وهجم الثوار على الجهات الشمالية • قال مرسيي : كان هؤلاء الثوار منضمين من عهد جنسريق • وانضم اليهم ضباط من الارثذوكس الممتحنين • وقد دافعهم هنريق • فعجز عن اخماد ثورتهم • وانحصرت مملكة الوندال في السواحل وبعض الجهات الداخلية •

وجاء غندامند فلم يستطع ان يقف حرية البربر • وتقدم الجيتوليون على عهده الى ناحية قفتة • وفي عصر تراسمند تقدم البربر في لم شعثهم واستعدادهم للثورة • وفي عصر هلدريق انتصر البربر على قائده أومير ، وأخذوا بذلك حريتهم • وكانت محاولات الوندال لاخضاعهم تذهب هباء •

كانت ثورات البربر ناشئة عن سوء سياسة خلفاء جنسريق لانهم

أهملوا الجندية وفرطوا في الاسطول • فلم ير البربر تلك القوة التي كانوا يخشونها ، ولم يجدوا تلك الغنائم التي كانوا يجرونها •

وقرب نجاح تلك الثورات أن الوندال كانوا خربوا أسوار المدن خوفا من أن يتحصن بها الرومان • فلم يجد الثوار حاجزا يقف سير ثورتهم •

في عهد خلفاء جنسريق استولى البربر على أكثر تراب الموريطانيتين • ونزل بربر أوراس الى سهول نوميديا • وخربوا بها المدن الزاهرة التي كانت تحت حماية الفرقة الثالثة الاوغسطية • وهي : تفيست ، باغاية ، تمغادي ، لمبس • وبلغوا قريبا من قسنطينة •

قال اغسال : « حقا ان البربر أنفسهم كانوا يكنسون الوندال • لولا ان الاغريق هم الذين تحملوا بهذه الخدمة » [1] •

10 ــ انتهاء دولة الوندال

في سنة (533) قدم الروم البيزنطيون الى افريقية لحرب جلمير • وفي شتنبر تلك السنة فتحوا قرطاجنة • وبقي جلمير خارجها يجمع الوندال والبربر ليعيد عليهم الحرب • وفي منتصف دجنبر آخر السنة عادت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها الروم • ففر جلمير الى بعض الجبال متحصنا • وحماه البربر بمدينتهم ميدينس • فحاصرها الروم ثلاثة أشهر ولم يقووا على فتحها • وأخيرا طلب جلمير الامان لنفسه من الروم • فأمنوه واستسلم لهم • وذلك سنة (534) وباستسلامه انتهت دولة الوندال التي تأسست بالجزائر سنة (430) فكانت مدتها 104 ولم يضبط ابن خلدون ذلك • فقال : انها كانت نحوا من ثمانين سنة •

---

(1) الجزائر في القديم131 .

وبسقوط ملكهم ذهب من افريقية كل شيء وندالي • قال مرسيي : « بعد ستة أشهر من مجيء البيزنطيين لم تبق افريقية ونداليه • الامر الذي يدل على ان استيلاءهم لم يتمكن منها • وذلك أنهم بعد ما فتحوها فتحا سريعا مدوا أعينهم الى جهات أخرى • فاشتغلوا بالفتح واطفاء الثورات • ولم يستعمروا الارض وينشروا المدنية • ولم يمتزجوا بالمعمرين من الرومان ولا اتخذوا روابط مع البربر • وبهذا ذهب أثرهم بأثر فقد ملكهم • أما رجالهم فقد ذهب أكثرهم في الحرب • وانتقل بعضهم مع جلمير الى المشرق ودخلوا تحت العلم البيزنطي • وانتقل آخرون الى جهات أخرى • وبقي منهم قليل بافريقية • ولكن لم يكن لهذا الباقي تأثير بها • لانهم أمة حربية ذهب جندها وملكها • ولم يبق لهم بعد دولتهم الا ذكرهم السيء • وكل فتح لم يرتكز على الاستعمار يذهب أثره بذهاب دولته » •

وقال بيروني : « لا يوجد دليل على ان الوندال حكموا نوميديا كلها • انما كان سلطانهم حقيقيا على الشواطيء الساحلية • وهو أشبه شيء باستيلاء الاسبان في القرن السادس عشر » وبعد ان ذكر كلاما نظير ما قدمنا عن مرسيي قال : « ويقول بعض المؤرخين : ان الوندال أخذوا شيئا من الحضارة الرومانية • وأعانوا الفلاحة • وجلبوا المياه • واخترعوا صناعة أسلحة • وهم أمة متعصبة للغتها وآدابها لا تسمح لها نفسها بتعلم اللغات الاجنبية وآدابها • ومع ذلك فان لجنسريق ابن أخ كان متضلعا في اللغة اللطينية وعلوم رومة • وشهد كثير من المؤرخين بأن تراسمند كان أعلم أهل افريقية ، وكان يحب المحاورة باللسان اللطيني في المسائل الإلهية والفلسفية مع رجال الكنيسة • وألف باللغة اللطينية كتابا يؤيد فيه مذهب أريوس ، أظهر فيه بلاغة في الانشاء ومقدرة في المنطق • والوندال — وان كانوا أقل حضارة من الرومان — استفادوا من مماستهم ، ونقلوا عنهم في أمد

قليل عوائد • وهذا مما يؤيد كفاءتهم وأهليتهم للفنون والادب • وقد نظم جلمير أيام حضارة قصائد بديعة • ولم يبق شيء مما كتبه الوندال حتى أن أسلحتهم ذهبت ، ولم تعش بعد القرون الوسطى [1] • ولم يبق من لغتهم الا بعض كلمات وأعلام شخصية • وهذا الفناء التام هو الذي جرأ من بعدهم على لعنهم وتشويه سمعتهم • ولا يعقل أن تدوم حكومة قرنا كاملا ولا غرض لها الا الهدم • بل لا بد ان تكون لها حسنات • ويظهر أنها هدمت أكثر مما شادت » •

هذا كلام بيروني نقلناه بطوله لانه اشتهر أن الامة الوندالية أمة متوحشة هدامة للحضارات شأنها الغزو والسلب والنهب • فلكيلا يظن ان ذلك حقيقة تاريخية لا نزاع فيها نقلنا كلام المؤرخ مرسيي المؤيد لهذه النظرية ثم كلام البحاثة بيروني المناقض لها والمبين لسبب هذه السمعة السيئة •

ونحن نميل الى الرأي الثاني لاعتداله وتدعيمه بالادلة المعقولة • بخلاف أصحاب الرأي الاول فقد بالغوا في ذم الوندال • وقد بين بيروني سبب اقدامهم على هذا التحامل بكون الوندال فنوا فناء تاما • أما سبب تحاملهم فلأن هذه الامة كانت حاربت المملكة الغربية ، وأسست دولتها على حسابها • ثم حاربت المملكة الشرقية احتفاظا بسلطانها فلم تفلح • فمحاربتها لهاتين المملكتين الشقيقتين ووقوع عصرها بين دوريهما سبب قوي لذلك التحامل •

وسواء صح الرأي الاول أم الثاني فان بربر الجزائر لم يستفيدوا من الوندال لا علما ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما ، لان سلطتهم

---

(1) يقسم المؤرخون ادوار التاريخ الى ثلاثة : القرون الاولى ، من فجر التاريخ الى انقسام دولة الرومان سنة 395 م ، والقرون الوسطى ، من ذلك الحين الى فتح القسطنطينية سنة 1453 ، والقرون الاخيرة ، من ذلك العهد الى اليوم •

عليهم كانت على ضعفها غير شاملة لجميعهم . وقد رأيت أنهم كانوا في أيام جنسريق أيام شباب الدولة متهيئين للثورة . فلم يغب عن الوجود حتى أعلنوها .

على أن البربر ليس غرضهم من تسهيل طرق الاستيلاء للوندال أن يفيدوهم في شيء غير طرد الرومان . وقد نالوا هذا الغرض . وبزوال الضغط الروماني استطاعوا ان يجددوا قوتهم الحربية ويستعيدوا حياتهم الاستقلالية . هذا ما قصدوه من استبدال الوندال بالرومان . وهذا ما استفادوه منهم وبلغوا منه غايتهم . حتى أنه — كما سبق — لو لم يعجل الروم البيزنطيون بقدومهم الى افريقية لاستطاع البربر وحدهم ان يقضوا على الوندال ويستقلوا بوطنهم .

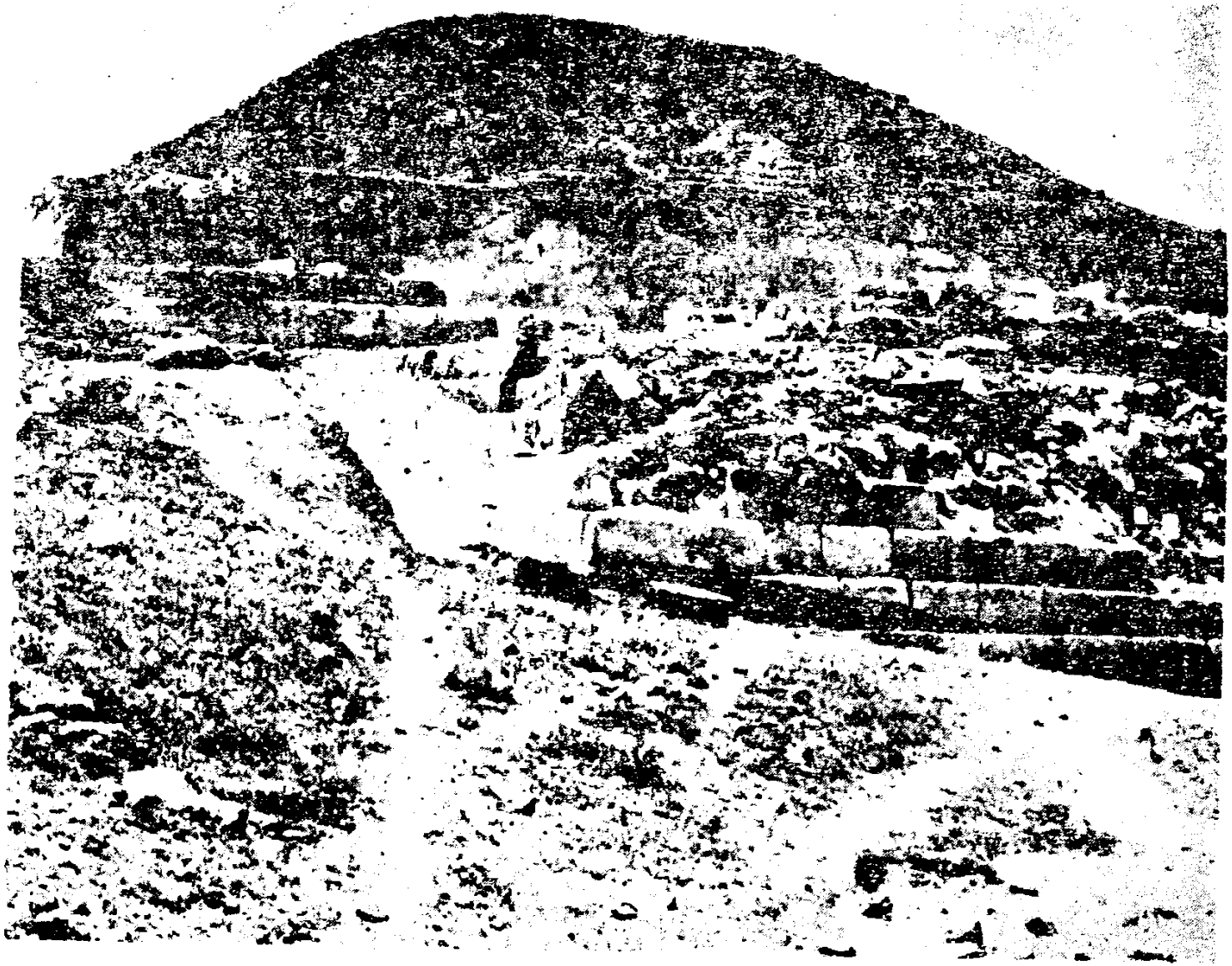

شكل (27) ـ الجدار : القسم الاول عبارة عن سطح وغرفة مخصصة للعبادة .

شكل (28) — الجدار : الجبل الأخضر

الباب الثامن

في ذكـرى دولـة الروم

ا ـ تمهيـد

تأسست الدولة الرومانية بايطاليا • تلك الجزيرة المتوسطة بـين عالمي الشرق والغرب • فلما أخذت تعظم صارت تتوسع في هذين العالمين • وملكت فيهما من الاوطان ما صير رومة عاجزة عن القيام بادارتها •

كان ذلك العجز ناشئا أولا عن كثرة المستعمرات ، وثانيا عن محاولة بعض الامم المغلوبة للاستقلال ، وثالثا عن هجمات أمم القوط وغيرهم ، ورابعا عن تنافس عظماء الرومان على الرئاسة والاقتتال من أجلهـا •

وقد حاول كثير من الاباطرة رفع ذلك العجز باشراك بعض قرابتهم أو عظماء قوادهم معهم في الحـكم والادارة • وكـان الامبراطور ديوقلطيانس قد أشرك معه مكسيمانس ، واقتسما ادارة الامبراطورية ، ثم أشرك معه غلاريوس وقسطنطيوس خلورس • فصارت الامبراطورية الى أربعة أقسام • أحدها بلاد غاليا واسبانيا وابريطانيا • وكان على هـذا القسم خلورس • ثم اعتزل الملك كـل مـن ديوقلطيانس ومكسميانس • واتخذ غلاريوس معه شريكين ، أحدهما مكسمينوس والآخر ليقينيوس • وفي خلورس • فقام مقامه ابنه قسطنطين • وثار بايطاليا على غلاريوس مكسنتيوس ابن مكسميانس •

وفي سنة (311) توفي غلاريوس • واقتسم شريكاه مملكته • وتحالف مكسمينوس ومكسنتيوس ، واتحد ليقينيوس وقسطنطين • ونشبت الحرب بين الفريقين • وانتهت بفوز قسطنطين وحليفه • فدخل رومة • وذلك سنة (312) واختص بالجهات الغربية ، وأخذ حليفه الجهات الشرقية • ثم نشبت الحرب بين هذين الحليفين • فانتصر قسطنطين ، وقتل حليفه بالامس وخصمه اليوم • وذلك سنة (324) •

بعد هذا الانتصار أصبح قسطنطين الامبراطور الوحيد لجميع المملكة الرومانية • وفي سنة (330) نقل مقر الحكومة الى الشرق • وجعل عاصمته بيزنطة • وبقيت المملكة الرومانية ذات وحدة ، غير أن اعتيادها للانقسام واحداث عاصمة ثانية فيها فتحا لها بابا الى الانقسام والانفصال • فلما أفضت الامبراطورية الى ثأودوسيوس قسم المملكة بين ولديه : ارقاديوس ، جعله على العاصمة الشرقية ، وهنوريوس ، جعله على العاصمة الغربية • ثم توفي هو سنة (395) فاستقل كل من الولدين بناحيته ، وتم الانفصال بين العاصمتين • وأخذت الاولى في في الصعود ، والثانية في السقوط •

هذه المملكة الشرقية هي التي يدعو العرب أهلها من الاغريق واللطين بالروم • ويطلقون اسم الرومان على أهل المملكة الغربية •

بعد أن بلغ الروم قوة عظيمة صاروا يحاولون استرجاع كل الممالك التي خرجت عن رومة ، ويرون لانفسهم الحق في تراثها • فاشتبكوا لذلك مع الوندال بافريقية ، والقوط بالاندلس ، وغيرهم • وكانت لذلك حروب ضررها بالبشرية غير يسير •

وقد بلغ من عظمة الروم أن صارت لا يدانيها في العظمة غير دولة الفرس • وكانت بين هاتين الدولتين العظيمتين حروب ذات أهوال وخطوب •

وبقي الروم في عظمة سلطان الى أن ظهر الاسلام وجمع كلمة العرب ونظم قوتهم • فأخـذوا يفتحون البلدان ويستولون عـلى الاوطان • فانتزعوا من الروم غرر دولتهم من أوطان الشـام ومصر وافريقية الشمالية •

أمست دولة الروم بعد ان أخذ منها العرب زهرتها تذبل وتتدلى ، حتى ظهر آل عثمان من الاتراك ، وضايقوها فيما بقي لهـا ، وصاروا يستولون على مدنها • وجاء محمد الفاتح منهم ، فقضى على البقية الباقية منها بفتحه القسطنطينية سنة (857 هـ 1453 م) •

2 ـ بيزنطـة

عرفت ان العرب يطلقون اسم الروم على أهل المملكة الشرقية من اللطين والاغريق • والافرنج يطلقون عـلى هؤلاء الروم اسـم البيزنطيين • وذلك نسبة الى عاصمة دولتهم مدينة بيزنطة •

وهي مدينة قديمة ذات موقع ممتاز لتوسطها بين قارتي آسيا وأروبا ، ووقوعها على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الاسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الابيض المتوسط •

وقد ذكر ابن خلدون بيزنطة مرة باسم بوزنطية وأخرى بلفظ بيزنطية • وقال : انها بنيت في الثانية والخمسين من ملك منشا بن حزقياهو • وهاك عبارته : « وفي تاسـعة وثلاثين مـن ملكه ملك سنجاريف الصغير مملكة الموصل • قاله ابن العميد • وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية ، بناها بورس الملك • وهي التي جددها قسطنطين ، وسماها باسمه »[1] •

---

(1) ج2 ص105 وفي الاصل بورنطية بالراء . وهو تصحيف .

وسنجاريف الصغير هذا هو ابن سنجاريف الذي دعاه ابن خلدون بهذا العلم • ويظهر من سياقة تاريخه انه المعروف عند غيره باسم سيناخريب (SENNACHERIB) والاختلاف قد يكون من أصل النقل . وقد يكون من تصحيف النساخ للخاء جيما وللباء فاء • وسياقة حديث سنجاريف الصغير تقتضي انه المعروف في غير ابن خلدون باسم اسرحدون • وهو قد تولى الملك سنة (681) ق•م فتكون هذه السنة هي التاسعة والثلاثين من ملك منشاء والثانية والخمسون من ملكه توافق سنة (688) • فتكون بيزنطة أسست في هذه السنة •

وبعد ان استولى الرومان على البلاد الاغريقية لم يتنبه أباطرتهم لاهمية موقع بيزنطة ، حتى جاء قسطنطين ، فتنبه لذلك ، وانتقل اليها سنة (330م) •

وكان انتقاله لها لغرضين : ديني وسياسي • أما الديني فلأنه تنصر ، وكانت رومة لا يزال عظماؤها وثنيين • فهو لا يستطيع أن يؤيد ديانته بينهم . ويضر بنفوذه ان هو قام فيها بحماية المسيحية • فابتعد عنهم الى بيزنطة . واتخذها مهدا صالحا لنمو المسيحية • وأما الغرض السياسي فلأن الفرس كانوا يهددون دولته من ناحية الفرات ، وأمم القوط يهددونها من ناحية الدانوب • فنزل تلك المدينة المتوسطة بين ذينك النهرين ليراقب حركات الاعداء ويرد غاراتهم •

ولما انتقل اليها أخذ في تعميرها على مثال رومة ، ونسبها اليه • فصارت تدعى القسطنطينية • ثم لما فتحها محمد الثاني من آل عثمان صارت تدعى اسلامبول • ومعنى ذلك مدينة الاسلام • وقد غير هذا العلم الى لفظ اصطنبول •

3 ـ الروم في افريقيـة

كان يستنيان امبراطور القسطنطينية ينظر الى المملكة الغربية التي زال منها حكم الرومان نظر الوارث المستحق ، ويتحين الفرص لاسترجاعها ، وضمها الى الامبراطورية الشرقية • فكان لذلك يتداخل في شؤون الوندال بافريقية ، وكان سروره عظيما يوم أعلن هلدريق سيادته بها ، وكان كذلك استياء الوندال عظيما ، أفضى الى اسقاط ملكهم واجلاس جلمير مكانه • وقد عجم يستنيان عود جلمير بالكتابة ، فوجده صلبا • فأراد أن يهشمه بالكتيبة لا بالكتابة •

كان يستنيان في حرب مع الفرس دام أمدها خمس سنوات • ولما أجابه جلمير ذلك الجواب اصطلح مع الفرس على أن يؤدي لهم غرامة مبلغها أحد عشـر مليونا مـن الفرنك ، وأخـذ يتهيأ لحرب الوندال •

اشترى يستنيان حرب الوندال بذلك الثمن • وانـه لزهيـد بالنظر لخيرات افريقية • ولكن وزراءه استصعبوا قبض متباعهم لبعده عن العاصمة وشجاعة حماته من الوندال • وكادوا يردونه عن عزمه • غير أن بعض أساقفة الارثذوكس الذين يودون انقاذ اخوانهم مـن الاضطهاد الوندالي شـجعه على الغزو ، وتنبأ له بالفوز والنصر • واتفق أن كانت طرابلس وصقلية ثائرتين على الوندال • وطلب رئيسا الثورة بهما اعانة هذا الامبراطور على أن يسهلا له طريق الاستيلاء على افريقية • فزاد ذلك في نشاط يستنيان ، ومضى على عزمه •

وكان من رجال البلاط الامبراطوري رجل يدعى بليسير ، له نفوذ بالجيش • فاختاره الامبراطور لقيادة حرب افريقية • وفوض له في اختيار الضباط • وصدر له الامر بركوب البحر •

في صائفة سنة (533) ركب بليسير البحر بجيش يشتمل على خمسة عشر الفا ثلثهم فرسان ، في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة • وركبت معه زوجه وكاتبه المؤرخ بروكوب • وحضر ركوبهم الامبراطور نفسه ، وأحد الاساقفة ، وزودهم بالدعاء •

سار الاسطول الى أن أرسى بصقلية • فنزل الجيش للاستراحة والتزود والاستعلام عن أحوال الوندال • وذهب بروكوب الى سرقوسة ليأتي مخدومه بارشادات • فعاد اليه يحمل هذه البيانات :

1 — الجنود الوندالية بسردانيا تحارب عاملها الثائر •
2 — جلمير نازل بالبيزاصين (جنوب تونس) •
3 — الوندال لا علم لهم بمجيء الجيش الرومي •

بعدئذ ارتحل بليسير بجيشه ، وأرسى بخليج قابس في يوليه • وأخذ يتنقل مع الساحل البحري ، ففتح لبتيس وحضرموت • وارسل الى سراة الوندال باسم الامبراطور : اني لم آت محاربا للامة الوندالية • وانما جئت محاربا لشخص جلمير الذي اغتصب الملك من يد هلدريق !

ولما علم جلمير بنزول الروم بافريقية جمع جموعه لحربهم • وكانت بين الفريقين معارك لم تفل من عزم جلمير وان كان وقعها عليه شديدا • وأخيرا ذهب الى جبل بابوة (PAPPUA) [1] فتلقاه أهله البربر بالترحاب ، وادخلوه مدينتهم ميدينس (MIDENOS) .

نزل بهذه المدينة طمعا في أن يجد سبيلا في الذهاب الى الاندلس • وارسل الى ملك القوط بهاثوديس ليوجه له مراكب • فلباه • ولكن القدر أبى على جلمير الا أن يقع بيد أعدائه • فحوصر بتلك المدينة ثلاثة أشهر • ولما أيس من اللحاق بالاندلس طلب من

(1) اختلف في هذا الجبل : قيل هو جبل ايدوغ وقيل جبل الناطور.

بليسير الامان • فأمنه • وسلم نفسه اليه • فذهب به الى القسطنطينية• وذلك سنة (534) •

4 ـ الروم بالجزائـــر

بعد فرار جلمير الى جبل بابوة توجه بليسير الى بونة فاحتلها • وبعث بمن فيها من الوندال الى قرطاجنة • ثم وجه جندا عن طريق البحر الى قيصرية • فاستولى عليها • وبلغ ذلك الجند سبتة ففتحها أيضا • وأصدر يستنيان أمرا يقول فيه : « لا بد أن ندافع عـن الخاضعين الينا ، ونصـل بحدودنا الى حيـث وصلت الجمهورية الرومانية » ولكنه حلم لذيذ جعلته يقظة البربر من اضغاث الاحلام ، وأمل حال دون تحقيقه تمسك البربر باستقلالهم وقدرتهم على حماية أنفسهم •

جـد الروم في الاستيلاء عـلى الجزائر • ولكن لم يكن لهم في أول الامر غير السيادة الاسمية في جهات قسنطينة وسهول سبيوس وأعالي مجردة • ولحفظ تلك السيادة جعلوا على هذا القسم خطا من الحصون ، أهم مراكزه قسنطينة وقالمة •

وفي سنة (539) فتحوا أوراس والحضنة ووطن سطيف • ولكن لم تثبت قدمهم بأوراس • فاكتفوا باتخاذ حصون قويـة شماله • وذهب خط الحدود من هـذا الشمال مغربا فمر بعنبة وزابي ، ثم انحنى شمالا مشتملا على سطيف •

وبقية الوطن الجزائري لم يحتل منه الروم غير بعض المراسي • منها رسقوناي وتبازا وقيصرية وقرطنة • ولم يبلغوا هـذه المراسي الا من طريق البحر • وقد ضيق البربر عليهم فيها تضييقا شديدا • فعاشوا بها عيشـة بؤس • وأحاطوها بأسوار لم تزل آثارها حتى

اليوم . وهي تدل على نقصان مساحتها بالنسبة لما كانت عليه عصر الرومان .

وقد قسم الروم جزائرهم الى قسمين : نوميديا ، وهي الجهات الشرقية من الوطن الجزائري ، وموريطانية الثانية ، وهي تلك المراسي التي ليس لهم حولها أي سلطة . وجعلوا لكل من القسمين رئيسا . وبعد مدة أضيفت موريطانيا الى عمالة سطيف .

وقد سلك يستنيان سبيل الرومان . فأسكن الجنود على خط الحدود ومنحهم الاراضي لاستعمارها . وقد علم ان هذا وحده غير كاف لحفظ ما استولى عليه جيشه . فاستمال بعض رؤساء القبائل بأن جعل لهم أرزاقا سنوية ، ومنحهم القابا شرفية ، وأنعم عليهم بالاوسمة . واحتاط لبقائهم في خدمته بأن أغرى بينهم العداوة والبغضاء . وغمرهم بتأثيرات رؤساء الدين . وأخذ من قبائلهم رجالا رهائن . وجعلهم تحت اشراف قواده من الروم ، فمن رأوا منه انحرافا عن الطاعة قطعوا عنه كل ما كان يناله من دولتهم .

قال اغسال : « ومع هذا كله لم يكن السلم مستمرا . فكثيرا ما اجتاز البربر الحصون الرومية . وعاثوا في البوادي فسادا . واتقاء من هذه الغارات اتخذ المعمرون حصونا ممتنعة ببادیتهم » .

5 ـــ امراء البربـــر في العصر الرومي

قد علمت ما استولى عليه الروم من وطن الجزائر وأنه أقل بكثير مما بقي بأيد البربر غير محتل . وتوجد خارج تلك الحدود امارات عظمى للبربر ، منها امارة قرب تيهرت . تركت آثارا تدل على عظمتها ، منها ثلاثة عشر هرما يسميها العرب اليوم الجدار ، يبلغ ارتفاع أكبرها أكثر من تسعين ذراعا . وهي قبور لبعض الاسر البربرية .

من أمراء البربر في هذا العصر مصيناس • كان على موريطانيا • ويلقب نفسه : « ملك القبائل الموريطانية والرومان » والمراد من الرومان الباقون بموريطانيا بعد ذهاب سلطتهم من افريقية • وهذا اللقب يدل على عظمة صاحبه حيث ان الرومان خاضعون له واخوانهم من الروم بجوارهم ، اذ لو وجدوا سبيلا للشغب عليه والاحتماء بالروم لفعلوا جادين •

ومنهم أرثياس • كان على غربي أوراس الى الحضنة •

ومنهم بيداس • كان على جبل أوراس •

ومنهم قطزيناس • كان على شرقي أوراس •

هؤلاء الامراء كانوا مستقلين بنواحيهم • ووحدوا القبائل التي تحت سلطانهم وردوا لها قوتها الحربية لما ضعفت السلطة الوندالية • واسترجع البربر على عهدهم كثيرا من الاراضي التي كان الرومان استولوا عليها • وصار شعارهم : « أرض البربر للبربر » •

قال مرسيي : وقد وصف تجديد الوطنية البربرية لكروا (LA CROIX) وهو كاتب بليغ • فقال : « الرومان ذلك الجنس القوي الحاذق العظيم في التمدن وقوة الفتوح ، لم يكن في وقت من الاوقات امتزج بالبربر امتزاجا حقيقيا • بربر السهول والمدن وما قاربها اختلطوا حقيقة بالرومان • ولكن بربر الصحراء والجبال لم يبلغ شيء من تأثيرات الرومان اليهم • بعد سبعة قرون من ابتداء تسلط الرومان على افريقية وجدت الجنس البربري كما كان قبل ذلك التسلط • ثوار القرن السادس الذين حاربهم البيزنطيون في أوراس وايدوغ والبيزاصين كانوا مماثلين لاسلافهم الذين مر عليهم ستةقرون، وحاربوا الرومان تحت يوغورطة: طبائع متحدة وأعمال متماثلة وكراهية واحدة للاجنبي ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحرب •• هذه

الامة لم تتبدل عن حالها الاولى ، ولا يخرق سياج طبائعها أي أثر خارجي .. العدد الكثير الذي حارب يستنيان بعد ذهاب الوندال ، واستحالة استيلاء البيزنطيين على ملك أسلافهم الرومان ، يدلان على أن أكثر البربر لا يمكن نفوذ شيء الى طباعهم »[1] .

أجاد الكاتب حقا في وصف الوطنية البربرية ، ولكنه أخطأ في جعله وطنيتهم قد منعتهم من نفوذ شيء الى طباعهم . فان تاريخهم ما تقدم منه وما يأتي يدل على أنهم يقبلون الرقي والحضارة لكن اذا لم يصحبهما صغار .

6 — حروب الروم والبربر

بعد ذهاب بليسير بجلمير الى القسطنطينية بقي على رئاسة افريقية الرومية سليمان الخصي . وما كاد بليسير يركب البحر حتى أسرع البربر الى الثورة . فحاربوا الروم . واستولوا على جميع مراكز الجند الرومي بدواخل الوطن .

قطزيناس تقدم الى البيزاصين . وسرح له سليمان الجنود فحاصرهم بكهف هنالك . واستأصلهم . ثم خرج سليمان نفسه سنة (35) فهزم قطزيناس . وعاد الى قرطاجنة . فعاد البربر الى الثورة وخرج اليهم ثانية . فوجدهم متحصنين بجبل بورغؤن (المظنون أنه جبل بوغانم) فأخرجهم من حصنهم وهزمهم .

وفي هذا الحين كان بيداس ومصيناس يجولان بنوميديا وينهبانها بجموعهما . والتحق ببيداس بعض البربر المنهزمين بالبيزاصين مستصرخين به . وأصبح موقف سليمان في أحرج ما يكون . ولكن

---

(1) مرسيي 1 : 168 عن مجلة افريقية .

طبيعة البربر في الانقسام وتخاذل الرؤساء نفست عليه قليلا اذ تطوع بعضهم لسليمان بالدلالة علـى طرق الوطن لتتبع بيداس • فخرج سليمان يطلبه حتى بلغ جبل اصبيديس (جبل شلية) ولكنه لم يظفر به ولم يبصره • وكان وقت الشتاء قريبا والمؤونة غير كافية للاقامة • فعاد الى قرطاجنة •

دخلت سنة (36) وخرج فصل الشتاء • فتجهز سليمان في فصل الربيع لحرب بيداس • ولكن جنوده كانت قليلة الانقياد • فلما شق عليها تتبع هذا الامير في جباله شقت عصا الطاعة في وجـه سليمان وعزمت على قتله ، فما وسعه الا النجاة بنفسه • فأغذ السير الى قرطاجنة • ومنها ذهب الى صقلية ــ وبها بليسير ــ فأعمله بماجرى • فركب بليسير البحر الى قرطاجنة لاخضاع الجنود • وثارت بعـده جنوده هنالك • فعاد سريعا الى صقلية • وبقيت افريقية الرومية بعده في فوضى عامة •

كانت تلك الجنود الثائـرة بافريقية متحدة تحت رئيس يدعى ستوزاس • وارسل يستنيان جرمان واليا • فحارب ستوزاس • وبينما هو فار أمامه الى ناحية بها بيداس وأرثياس طمعا في نصرتهما اذا بهذين الاميرين قـد نزلا على جنـوده واستأصلاها • ففـر الى موريطانيا • وكانت هذه المعركة بمكان يدعى « سلاص فاتاري » قال مرسيي : وهو اما نواحي تيفاش واما جنوب قسنطينة •

وفي سنة (39) عزل جرمان وعين مكانه سليمان الخصي • فجعل حرب أوراس نصب عينيه • وكان على بربر البيزاصين أمير منهم يدعى اقتلاس • فاستماله سليمان وجعل له عطاء سنويا • وفي ربيع سنة (40) أرسل أحد ضباطه لفتح أوراس • وخرج هو بأثره • ولما بصر هذا الضابط بالعدو لم يقف لحظة عن الفرار الى باغاية • فأدركه البربر •

وحاصروه بها • وأرسلوا عليها الماء كي يغرق من بها • ولكن سليمان أدرك ضابطه ففك عنه الحصار •

بعد ذلك تتبع سليمان البربر في جبال أوراس طامعا في ادراك بيداس • وكان هذا الامير ذهب الى مدينة زربولة • فلحقه سليمان • وحاصره بها • واستطاع بيداس ان ينفلت من الحصار فذهب الى مدينة ثمار • وتحصن بها • وكانت ممتنعة • فحاصرها سليمان مدة حتى فتحها • وجرح بيداس في دفاعه عنها • ونجا الى موريطانيا •

بانتقال بيداس من أوراس استطاع الروم أن يجوسوا خلاله • وغنموا أموالا طائلة لاميره • ثم ذهب سليمان الى بلاد الزاب يخضع البربر لدولته • وبلغ المسيلة • وكانت تدعى زابي • فجددها • وسماها يستنيانة تخليدا لذكر امبراطوره •

وبعد جولته عاد الى قرطاجنة • وقدر له الهلاك على يد حليفة انتلاس • فقتل على ايدي جنود هذا الامير بنواحي تبسة سنة (45) •

بعد هلاك سليمان جاء ولاة ضعفاء عن حماية ما تحت أيديهم من البربر • فكانت مدتهم حروبا بينهم وبين ملوك البربر المتحدين تارة والمتخاذلين أخـرى • وقام البربر بعـدة غارات على روم نوميديا وغيرها •

وفي سنة (46) جاء يوحنا طرغلطا واليا على افريقيا • وجعل حرب انتلاس أهم أعماله • واستعان عليـه بقطزيناس وبيداس وافسديـاس (هو أحد أمراء البربر بنواحي أوراس) فأعانوه • كما كان سليمان استعان بانتلاس على بيداس • وبعد ما اشتدت الحرب بين انتلاس وطرغليطا انجلت بخضوع الامير البربري سنة (48) •

عد الروم هذا الفوز انتصا را باهرا • ولكنهم لم ينصروا عـلى البربر الا بالبربر • وهم يعدون البربر كلهم أعداء لهم سواء المحارب

والمحالف • ولذلك قتلوا الامير قطزيناس غدرا سنة (63) رغم كونه حليفا لهم • وقام أبناؤه مطالبين بدمـــه ، ورفعوا لواء الحرب عـــلى الروم •

استمرت غارات البربر على الروم • وعجز الولاة عن ايقافها عند حد • حتى جاء جناديوس • فحاربهم وافتك منهم بعض ما كان استولوا عليه من الاراضي • ولكنهم لم يزالوا في غاراتهم حتى انهم سنة (97) بلغوا أبواب قرطاجنة وحاصروها •

والخلاصة ان تاريخ الروم بافريقية كله حروب • أكثرها للبربر • أما علة كثرة الحروب فهي تشبع البربر من مبدأ الاستقلال ، وطمع الروم في ارث الرومان من غير نظر الى الظروف ، وجور ولاتهم فيما تحت نفوذهم • واما سبب نجاح البربر في الاكثر فذلك لضيق نطاق التراب الرومي ، وعجز كثير من الولاة في السياسة والحرب ، وتمرد الجنود على قوادها •

7 ــ البناءات والاستحكامات الرومية بالجزائر

قد رأيت ضيق نطاق ما استولى عليه الروم من الجزائر وعجز ولاتهم امام تعدد غارات البربر • وذلك مما يحرج موقف الرومويجعل حياتهم في خطر • فأنشأوا لاتقائه الاسوار الحصينة خلف المدن ، وبني الفلاحون بباديتهم الحصون المنيعة ، وشيدت حصون عـــلى خطوط الحدود والطرق التي يمكن ان يفضى البربر منها الى التراب الرومي • وقام بتلك البناءات والاستحكامات بجلها سليمان الخصي ، وببعضها معمرو الروم انفسهم •

ومن المـــدن الكبرى التي أحيطت بالاســـوار قرطنة وقيصرية وسطيف وميلة وتمغاد وقصر الصبيحي وقالمة ومدوروش وتبسة •

ومنها ما لم يزل سوره قائما حتى اليوم • ويبلغ ارتفاع بعض الاسوار عشرين ذراعا وعرضه ست أذرع •

وقد أخذ الروم مواد الاسوار والحصون مما وجدوه من رخام وحجارة منحوتة وغيرها من بقايا مدن الرومان التي ضربها الوندال أو البربر • واذا كان الوندال والبربر قد خربوا مدن الاحياء فان الروم لم يقفوا في تحصين مركزهم عند أخذ مواد المدن الخربة بل تعدوها الى نبش القبور وتخريب مدن الموتى لاخذ مافيها من مواد صالحة للبنـــاء •

وللروم من البناءات سوى الاسوار والحصون تشييد الكنائس • وليس لهم من البناءات العمومية غيرها • قال اغسال : « وهي مبنية بمواد مختلفة ومزينة بلا ذوق ولا فن » •

وقد حافظ الروم ــ علاوة على ما أنشأوه ــ على ما بقي من آثار الرومان لم ينله الخراب • ورمموا منه ما وجدوه منثلما • وكل ذلك انما قاموا به لحفظ راحتهم • ولكن لم ينالوا بغيتهم ، ولم تصد استحكاماتهم البربر عن غاراتهم • قال اغسال : « وآثار البيزنطيين الباقية بنوميديا ــ ما عدا التحاصين ــ تدل على بؤس شديد » •

8 ــ الحالة الدينية في العهـد الرومي

علمت ســابقا ان الاسرائليين كانت لهم هجرات الى الشـــمال الافريقي قبل الميلاد وبعده • وقد جاء الوندال ــ وهم أمة حربية ــ فألفوا بهذا الوطن الاسرائليين ــ وهم أمـــة تجارية ــ فقربوهم ، واستعانوا بهم على استدرار خيرات الوطن • فاستحوذ الاسرائليون على التجارة :، وراشوا ، وكثر عددهم • واتفقوا مع الوندال عـــلى كراهية الارثذوكس واذايتهم •

ولما جاء الروم وجدوا أنفسهم في ضيق مع الاسرائليين • فكان قوادهم يرهقونهم على الدخول في المسيحية ويبدلون بيعهم كنائس • وزال على الارثذوكس ما نالهم في الدور الوندالي ، وأصبحوا معتزين دون سواهم من الموسويين والدنويين والاريويين •

وفي سنة (535) انتزعت الدولة الرومية من هـذه الفرق جميع أملاكها ، وأعدمتها حماية الشريعة ، وحجرت عليها العمل بمذاهبها ، وعزلتها مما كان لها من مناصب • كل ذلك جريا خلف داعي التعصب المذهبي •

واعترف يستنيان رسميا للكنيسة الارثذوكسية بحـق مراقبة المدن وادارة العمالات • فلم تقف عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف السياسية ، بل صارت تأمرهم ، وتتداخل في جميع الشؤون الدولية سياسية كانت أو ماليـة أو ادارية أو حربية • فكان مـن الاساقفة والقسوس من يشتغلون ببناء استحكامات حربية • وصار البابا برومة يرسل أوامره للقواد والولاة • قال اغسال : « وغمرت قوة الكنيسة قوات جميع المتوظفين » •

تحت هذا الاستبداد الكنسي دخل بعض الموسويين في المسيحية لمجرد منافع مادية • والمادة عند الاسرائليين قبل الدين والجنس • ولكن مدة ارتدادهم لم تطل حيث ان السلطة الرومية ادركها الضعف قريبا • فعادوا الى دينهم الذي دخل فيه بعض القبائل البربرية ايضا • ورجعت قبائل اخرى من البربر الى الوثنية •

هكذا كان الوطن الجزائري في العصـر الرومي يشتمل عـلى أديان ومذاهب كلها متعادية متنافرة • فكانت من أقوى عوامل الخراب في هذا الدور ، ولها أثرها السيء في الفوضى وفقد الامن • وانها لكذلك حتى جاء الاسلام على أيدي الفاتحين مـن العرب • فنظم ما اختل ، ووحد ما تفرق ، واستقر بالقلوب الاستقرار النهائي •

9 ـ الحـالة الاجتماعية بالجزائـر

قد رأيت ان ما استولى عليه الروم من الوطن الجزائري قليل وان أكثره بقي تحت أمراء عديدين من البربر • وقد عم الشقاء والبؤس في هذا الدور كل الوطن الجزائري سواء الذي كان منه لنظر الروم ، والذي كان لنظر البربر •

اما ما كان تحت الروم فان مـن عوامل بؤسه ما يأتي :

1 ـ تكرر غارات البربر غير الخاضعين للروم ، وتعنت هؤلاء الرو مفي دفاعهم •

2 ـ اذكاء نار الخلافات الدينية بتعصب الدولة لمذهب عـلى سائر المذاهب • قال بيروني : « ولم يكن من غاية للحروب الدينية التي تهيج الاحقاد وتطيل أمد الفوضى الا ايجاد فرصة للنهب ، وشـفاء الغليل بقتل العدو » •

3 ـ جور الولاة الرومانيين • قال بيروني : « واتفق المؤرخون ان سياسة البيزنطيين مع الاهالي سيئة » وقـد أرهق هؤلاء الولاة الاهالي بالضرائب الفادحة • وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها • وعلاوة على ذلك كله كانت الجنـود تماطل بأعطيتها ، فتستخلصها من الاهالي •

وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس ومن فقد الاخلاص سواء من الجنود لرؤسائهم أو من الرؤساء لدولتهم • قال بيروني : « في ابتداء القرن السابع لم تبق ادارة ولا هيئة اجتماعية • وبلغت الفوضى السياسية غايتها » •

وقد نشأ عن هذه الفوضى ظلمة في تاريخ هذا الدور • قال اغسال : « ان الآثار الكتابية صارت قليلة جدا حتى انه ليخيل للباحث كأن كابوسا عاما حل بهذا الوطن » •

واما ما كان تحت تصرف البربر فان من عوامل بؤسه تمسك الامراء باستقلالهم من غير ان يكونوا متحدين ولا ذوي نظام دولي • أما عدم اتحادهم فهو خلق قديم فيهم ، وهو سبب نجاح أولي المطامع من الامم في وطنهم • وأما فقدهم للنظام الدولي بعد ما كانت لهم دول قبل الميلاد فذلك أنهم بعدما تعلموا من الفينيقيين الحياة النظامية ووسائل العمران والرقي جاء الرومان فأخذوا على أنفسهم تجهيل البربر ما تعلموه • ابتدأوا بهدم استقلالهم وقتل عظمائهم ، ثم حرموهم من جميع الحقوق السياسية • وكانت سياستهم سياسة تنفير فلم يقبل البربر على حضارتهم • فلم يذهبوا حتى أنسوا البربر ما أخذوه عن الفينيقيين من غير ان يعوضوهم شيئا ينفعهم في حياتهم الاجتماعية • ولما جاء الوندال وكانت وطأتهم عليهم خفيفة وهم أمة حربية لم يستفد البربر منهم غير الحياة الحربية • فعملوا للاستقلال من غير نظام • ولما جاء الروم أرادوا أن ينزعوا منهم استقلالهم • فدافعوا دونه • ووقعت بينهم حروب مبيدة • قال بيروني : « ويصعب ان يحيط مؤرخ بحروب البربر مدة الاستيلاء البيزنطي » •

ولولا ان الرومان هم الذين افقدوا البربر الحياة النظامية لكانت حروبهم مع الروم عائدة عليهم بالسعادة وعلى وطنهم بالعمران والرقي• ولكنهم ــ وقد فقدوا كل نظام ــ لم يجنوا منها غير الشقاء وخراب الوطن وعموم الفوضى •

واذا علمت ان الروم لم يعملوا فيما تحت تصرفهم الا لاشقاء أهاليه ، وان أمراء البربر عاجزون عن اسعاد امتهم امكنك ان تحكم عن بينة بأن العصر الرومي كان كله جوائح نزلت بالوطن الجزائري فأنهكت الحياة الاجتماعية أيما انهاك •

قال بيروني : « القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة رومة

والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية ـ هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة » ثم قال : « وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا • ذهبت الفنون الجميلة ، وعطلت الاراضي الفلاحية ، وتنوسيت الاساليب العلمية ، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون الى الغابات ويختفون بالشعاب ، وتعطلت التجارة ، وخشي الناس المجاعة » وقال مرسيي : « كان المؤرخ يروكوب لما نزل افريقية مع بليسير دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق أسواقها وسعادة فلاحتها • ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك ، وعم الخراب جميع افريقية • ويقال ان الحرب وحكومة يستنيان خسرتا افريقية في خمسة ملايين من الانفس » •

ومن ههنا تعلم ان ما اشتهر به الوندال من التخريب ليس شيئا يذكر أمام تخريب الروم • فان الوندال مكثوا أكثر من قرن ولم يبلغوا في التخريب وقتل الانفس ما بلغه الروم في عشرين عاما •

والخلاصة ان الحياة الاجتماعية بالجزائر على عهد الروم بلغت من الانحطاط والتقهقر والشقاء ما لم تبلغه في دور من أدوار تاريخها •

10 ـ السلطة الرومية وانقراضها من الجزائر

قال اغسال : « السلطة البيزنطية بافريقية غير معلومة • وانما توجد قوانين تذكر مستعمرين ومستعبدين عائشين ببعض الاراضي • وكبار ملاكي الرومان الذين ضعفوا في دور الوندال نجهل ان تكون أملاكهم عادت اليهم في هذا الدور • والظاهر عدم عودها » •

والذي جعل السلطة الرومية غامضة هو ضعفها • ولعلك لا تتوقف

بعد قراءة ما تقدم في الحكم بضعفها منذ نشأتها في المهد الى حين وضعها في اللحد • ومنشأ ضعفها أولا بعدها عن مركز الامبراطورية • ذلك البعد الذي جعل الاباطرة لا يستطيعون امدادها بالقوة ، والذي جرأ الولاة على الجور والاستبداد • وثانيا مقاومة البربر لها من غير انقطاع وفوزهم عليها في كثير من البقاع •

ولم يأت من الولاة من هو ذو قيمة ادارية وحربية غير اربعة :

1 — بليسير • وغاية عمله انه قضى على الوندال •

2 — سليمان • وغاية عمله انه فتح أوراس ووسع حكومة الروم بالجزائر وشاد البناءات • ثم مات مصطليا بنار الثورة • وعاد توسعه في وطن الجزائر ضررا على الروم لان البربر لم ينفكوا يهاجمونهم •

3 — يوحنا طرغليطا • بقي يدير حكومة الروم عشرين سنة لم يجن فيها غير اخضاع أنتلاس •

4 — جناديوس • وهذا استرجع بعض المدن التي افتكها البربر من الروم • ولكن البربر حاصروه سنة (97) بقرطاجنة • ولم ينج من الحصار الا بطلب الصلح منهم ثم غدر بهم •

ومع ضعف سلطان الروم وضيق نطاق نفوذهم وعدم كفاية ولاتهم واخلاصهم كانوا مشتدين على من تحت سلطانهم من البربر • قال بيروني : « ومن المحقق ان الولاة البيزنطيين كانوا قساة اصحاب طمع » •

ولقد زاد في ضعف السلطة الرومية بالجزائر ضعف مركز الامبراطورية • فقد توفي يستنيان سنة (565) وخلفه اباطرة ليست لهم عظمته وشغلوا عن افريقية بحروب الفرس وغيرهم • وفي سنة (602) دخل فوقاص القسطنطينية بجنود من الدنوب • وقتل الامبراطور موريس • وانتصب مكانه •

وفي هذا الحين كان الوالي بافريقية يدعى جرجير (GREGOIRE) وقائد الجيش يدعى هرقل • فثار القائـد على فوقاص سنة (608) وقطع عنه القمح الذي كانت العاصمة تستورده من افريقية • فخاطبه البيزنطيون في الانتقال الى القسطنطينية على ان يعينوه على استلام العرش من يد غاصبه • وكان كبير السن • فاجابهم على ان يوجه ابنه مكانه • ونافسه جرجير • فأرسل كلاهما ولده المسمى باسمه • وبما أن هرقل هو قائد الجيوش كان الاسطول تحت قبضته • فسير ابنه بحرا • وسير جرجير ابنه برا • فسبق هرقل بن هرقل • وقتل فوقاص • وجلس على العرش • ولما خاب جرجير فيما كان يأمله من تبوأ عرش القسطنطينية أعلن انفصال افريقية عنها ، واستقل بها • وجعل عاصمته سبيطلة •

بقي جرجير على رأس هاته الدولة التي لم تكن لها قوة وهي مرتبطة بالامبراطورية فكيف تحصل لهـا وهي مسـتقلة عنها وفي غير وطنها •

وفي سنة (647) هجم العرب على هذه الدويلة • فقضوا عليها لاول هجومهم • وقتلوا جرجير • واحتلوا عاصمته • ومن ذلك الحين انقرضت السلطة الرومية من الشـمال الافريقي بعد ما لبثت (113) سـنة •

كان انقراضها بهذه السهولة لانها لم تكن ثابتة الاركان ، فقد سبق أنها عاشت في حروب واضطرابات • وان سلطة هـذه حالهـا لا تلفت النظر الى ما تركته من علوم وصنائع وفنون وأنظمة وعمران • بل انها لا تترك الا ما يناسبها من جهل وفوضى • فلم ينتج عنها غير خراب الاذهان والاوطان •

والخلاصة ان البربر عادوا في العصر الرومي الى حياة الوحشية والهمجية تحت رؤساء لا دراية لهم بغير الحرب والسلب •

ولعل الروم لو كانوا في هذا العصر لقالوا : اننا جئنا لننقذ البربر من الهمجية وننشر بينهم المدنية اللطينية • ولئن سألناهم عما بلغ اليه البربر من الوحشية والفوضى بعد قرن لاجابونا بأن البربري وحشي الاخلاق ثوري بطبعه • لا يقبل التعليم ولا يحسن النقل عن جاره الرومي • ولعلهم ينقطعون عن الجواب اذا قلنا لهم : هذه الامة قد أحسنت النقل عن الفينيقيين • فبلغت بذلك أوج العز • وشادت دولا عظمى • وبعد مدة من القرون نقول لهم أيضا : ها هي تلك الامة قد استفادت مـن العرب • وأحسنت النقل عنهم • وعاد لها عزها • فشادت ممالك عظمى كما شادتها من قبل •

مدوروش

فهرست

صفحة

اهداء الكتاب 5
اسداء شكر 7
رسالة من الاستاذ عبدالحميد ابن باديس الى المؤلف 9
بين يدي الامير شكيب ارسلان 11
شكر واعتذار 13
مقدمات 15

مقدمة الطبعة

الكتاب الاول

في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

صفحة

جغرافية الجزائر الطبيعية

الباب الاول :

في ذكر قدماء الجزائر اهل العصر الحجري

تمهيد 62
اصل قدماء الجزائر 64
آثار قدماء الجزائر 65
حياة قدماء الجزائر 68
ادوار مدنية قدماء الجزائر 71
لغة قدماء الجزائر 73
ديانة قدماء الجزائر 74

صفحة

الباب الثاني

في ذكر البربر

اصل البربر 81
هجرة البربر الى ليبية 91
اوصاف البربر واخلاقهم 94
القبائل البربرية الكبرى 97
برابرة وطن الجزائر ومراكزهم به 99
الحياة البربرية 110
نظام المجتمع البربري 115
لغة البرابرة وكتابتهم 117
المعتقد البربري 121

الباب الثالث ـ في ذكرى الفينيقيين

تمهيد 128
اصل الفينيقيين 129
الفينيقيون بالجزائر 130
تاسيس قرطاجنة 132
ممتلكات قرطاجنة بالجزائر 133
اللغة الفينيقية وخطها 135
الديانة الفينيقية 137
نظام الدولة القرطاجنية 139
العمل القرطاجني في العمران والحضارة 144
الحروب القرطاجنية 146
حروب صقلية قبل الميلاد 147
الحروب البونيقية 149
الحرب البونيقية الاولى 151
الحرب البونيقية الثانية 152
الحرب البونيقية الثالثة 156

الباب الرابع ـ في ذكر البربر على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة

علاقات البربر مع القرطاجنيين 162
الحضارة القرطاجنية بالجزائر 163
تاثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة 166
تاثير قرطاجنة على البربر في العقيدة 167
نشوء الممالك البربرية العظمى 169
ذكر بعض رؤساء البربر 171
انقراض الممالك البربرية 231
ذكر العواصم الكبرى للملوك البربر 234

الباب السادس ـ الرومان وحكومتهم في الجزائر

تمهيد 242
اصل الرومان 243
تاسيس دولة الرومان 244
ديانة الرومان 249
الحياة الرومانية 250
الرومان في افريقية 252
استيلاء الرومان على الجزائر 254
حدود حكومة الرومان في الجزائر 256
جند الاحتلال 257
النظام الروماني بالجزائر 260
جمهورية المدن الخمس 264
الحياة الرومانية بالجزائر 273
الحياة البربرية تحت السلطة الرومانية 277
الثورات بالوطن البربري 282
العمران الروماني بالجزائر 285
اللغة والآداب الرومانية في الجزائر 291
ديانة الرومان بالجزائر 292
الديانة المسيخية 294
الديانة المسيحية بالجزائر 297
المسيحية والوثنية بالجزائر 303

صفحة

ذكر بعض رجال البربر في الدور الروماني 305
سقوط حكومة الرومان بالجزائر 311
الحضارة الرومانية والبربر 319
ذكر اباطرة رومة مدة الاستيلاء على الجزائر 320

الباب السابع – في ذكرى الوندال ومدة امرهم

تمهيد 330
اصل الوندال 332
ديانة الوندال 334
استيلاء الوندال على الجزائر 335
تأسيس حكومة الوندال 340
نظام دولة الوندال 342
ملوك الوندال وسياستهم 344
اعمال الوندال 347
ثورات البربر 348
انتهاء دولة الوندال 350

الباب الثامن – في ذكرى البربر

تمهيد 358
بيزنطة 360
الروم في افريقية 362
الروم بالجزائر 364
امراء البربر في العصر الرومي 365
حروب الروم والبربر 367
البناء والاستحكامات الرومية بالجزائر 370
الحالة الدينية في العهد الروماني 371
الحالة الاجتماعية بالجزائر 373
السلطة الرومية وانقراضها بالجزائر 375

انتـــاج

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113 - 5787 - Beyrouth - Liban

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن محمد الميلي
تاريخ الجزائر في القديم والحديث
2
المؤسسة الوطنية للكتاب

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

الرقم التسلسلي
تاريخ الجزائر
T 1 et 2
3e 214.89.01.09

الكتاب الثاني

في العصر العربي

غزا العرب الشمال الافريقي • وفتحوه • وأسسوا بـه امارة عربية تابعة للخلافة الشرقية • واخضعوا البربـر لامارتهم حينا من الدهر • ثم اخـذوا كعادتهم يسترجعون قوتهم الحـربية ويعملون للاستقلال • فاقتطعوا من تلك الامارة جانبا مـن الوطن الجزائري أسسوا به دولة مستقلة • هي الدولة الرستمية • ثم جـاء ادريس الاكبر الى المغرب الاقصى • وأسس بـه دولة مستقلة امتدت الى النواحي الغربية من الجزائر • ثم استقل بنو الاغلب بتونس من غير ان يقطعوا صلتهم بالخلافة • وكان شرقي الجزائر تابعا لهم • ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت على هذه الدول الثلاث • وفي عهدها شغل البربر أهـم مناصب الحكومة • وبلغـوا اخيرا أن قطعوا صلتهم بالعبيديين واستقلوا بالحكم •

في القرن الخامس الهجري انقطع سلطان العرب على الجزائر • وقد كاد جنسهم ينقطع تبعا لسلطانهم لولا نزوح الهلاليين • وأبى الله الا ان يستوطن العرب شـمال افريقية • ويبقوا جيرانا للبربـر اخوانهم في الدين • والدين أمتن رابطة •

هذا الدور كله نطلق عليه اسم العصر العربي ، وان كان أكثره عربيا بربريا ، نظرا الى ان الادارة العليا بيد العرب في جميعه ما عدا الدولة الرستمية • فهو عصر عربي حقيقة في أوله وتغليبا في باقيه • وبهذا الاعتبار اشتمل هذا العصر على ستة أبواب :

الباب الاول في غزو العرب لافريقية وتأسيس امارتهم بها •
الباب الثاني في الدولة الرستمية •
الباب الثالث في الدولة الادريسية •
الباب الرابع في الدولة الاغلبية •
الباب الخامس في الدولة العبيدية •
الباب السادس في نزوح الهلاليين الى افريقية الشمالية •

الباب الأول

في غزو العرب لافريقية وتأسيس امارتهم فيها

١ — جزيـرة العـرب

جزيرة العرب هي الوطن الذي اختص العرب به واختص بهم • فلا يوجدون بغيره الا وهم منتقلون منه ، ولا يوجد به غيرهم الا وهو طارئي عليهم من وطن آخر •

هذا الوطن واقع في الطرف الغربي من آسيا • يحـده شمالا الشام ، وشرقا العراق والخليج الفارسي ، وجنوبا المحيط الهندي ، وغربا بحر القلزم (البحر الاحمر) •

ومن هذا التحديد تعلم أن اطلاق الجزيرة عليه غير منظور فيه الى الاصطلاح الجغرافي : اذ الجزيرة عند الجغرافيين ما أحاط بـه الماء من جميع جهاته • وجزيرة العرب انما أحاط بها الماء من أغلب جهاتها • فهي شبه جزيرة في عرف الجغرافيين •

وبجزيرة العرب سلسلة جبال موازية لبحر القلزم • تقطعها من الشمال الى الجنوب وتنتهي بالمحيط الهندي •

وتنقسم الجزيرة الى أقسام :

1 — اليمن جنوبا • ويشمل حضرموت ومهرة والشحر وعمان • ومن أشهر مدنه صنعاء وعدن وظفار • ومن مدنه التاريخية مدينـة أوفير • وهي تبعد عن عدن شرقا (400) ميل • ورد ذكرها في التوراة • وعفا رسمها • فلم تكتشف الا في هذه السنة (1346 هـ) •

2 — تهامه • وهي غرب الجزيرة على بحر القلزم بين اليمن والحجاز •

3 — الحجاز • وهو يلي تهامة شمالا على البحر • ومن مدنه الطائف ومكة وجدة والمدينة • وهو القسم الذي يشتمل على المشاعر الدينية للعرب في جاهليتهم ، ولهم ولغيرهم من المسلمين بعد الاسلام •

4 — نجد • في وسط الجزيرة • وهو هضبة فسيحة تربط بين بقية أقسام الوطن العربي : العراق شرقا ، واليمن جنوبا ، والحجاز غربا ، والشام شمالا •

5 — اليمامة • وهي بين نجد واليمن •

هذه الاقسام منها ما فيه الصحاري القاحلة والاراضي الخصبة الصالحة لضروب كثيرة من الحبوب والاشجار ، وعليها مراس غنية باللؤلؤ والعقيق • وفيها معادن الذهب والنحاس والحديد وغيرهن •

2 — العرب قبل الاسلام

العرب أوضح الامم نسبا وأبعدها عن الامتزاج والاختلاط • اتفقت الكلمة وأجمعت الآراء على أنهم من سام بن نوح • نزحوا من العراق الى جزيرتهم في أعصر متفاوتة ومتناهية في القدم • واتخذوها موطنا حفظوا به أنسابهم من الاختلاط ، وحافظوا عليها من الاندماج المفضى الى الاضمحلال •

وهم شعوب وقبائل تجمعها ثلاث طبقات :

1 — العرب البائدة • وهي الطبقة المتناهية في القدم • سميت كذلك اما لبيود أخبارها وانقطاع الصلة بيننا وبين تاريخها • واما لبيود قبائلها وفناء أعقابها بذوبانهم فيمن بعدهم من أجيال العرب •

وكلا المعنيين صادق في الجملة : فان من هذه الطبقة من علمت أخباره ولو على سبيل الاجمال ، ومنها من لم ينقطع عقبه •

ومـــن قبائل هـــذه الطبقة طسم وجديس وعاد وثمود ومدين وعمليق •

2 — العرب العاربة • سموا كذلك لاصالتهم في العربية • وجذم هـــذه الطبقة قحطان • وأشـــهر قبائلهـــا وأجمعها لبطونهم قبيلتا كهلان وحمير •

3 — العرب المستعربة • وهم بنـــو اسماعيل الطارئون عـــلى القحطانيين • سموا كذلك لانهم عبرانيون ، واستعربوا بمخالطة العرب العاربة • وهم شعوب وقبائل يجمعها أصل عدنان المنتهي في نسبه الى اسماعيل • وأجمع قبائلهم وأشهرها مضر وربيعة واياد وانمار • ومن مضر قبيلة قريش •

ونحن نرى أن أول أساس للحياة البشـــرية هي الحياة الدينية التي تستمد من الرسل والانبياء • فتكون في قرب عهدها بالرسل المستمدة منهم صحيحة • ثم تتغير بطول العهد بالمغالاة والابتعاد حتى تنحرف عن أصلها وتصبح وثنية •

ولم يخرج العرب عن هذه السنة الكونية • فانحرفوا عن الدين الحق ، وتنكبوا الصراط السوي • فأرســـل الله في قبيلة عاد منهم هودا ، وفي ثمود صالحـــا ، وفي مدين شعيبا • وذلك في أوقـــات مختلفة • فآمن من آمن منهم ، وهلك من كفر • وبادت تلك الاديان ببيود أممها • وكان في الحجاز اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام • فانتشرت على يـــده ديانة ابراهيم الخليل (ص) في العـــرب العاربة والمستعربة • وجـــاء بعض الاسرائليين بديانـــة موســـى (ص) الى الجزيرة • فاعتنقها بعض العرب • ثم بعد ظهور المسيحية أخذ بها بعض القبائل منهم •

ولم يزل جل العرب على ديانة ابراهيم (ص) غير أنهم أحدثوا فيها أحداثا وابتدعوا فيها بدعا • فصاروا يعبدون الاصنام والاوثان والطواغيت • وقد يعبدون الارواح كالجن والملائكة •

قال السهيلي : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم • ولا يقال وثن الا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] وقال ابن هشام عن الطواغيت : « وهي بيوت تعظيمها كتعظيم الكعبة : لها سدنة وحجاب ، وتهدي اليها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها • وهي تعرف فضل الكعبة عليها : لانها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده »[2] وأصل عبادة العرب للاصنام أن أهل مكة كانوا لا يظعن منهم ظاعن الا حمل معه حجرا من الحرم تبركا به • وحينما يقيم يضعه ويطوف به طوافه بالكعبة • وبطول العهد صاروا يعبدون ما أعجبهم من الحجارة • وذكر السهيلي وجها آخر في أصل دخول الوثنية الى العرب • وهو لا يتعارض مع ما سبق • قال : « وقد ذكر البخاري عن ابن عباس : قال صارت الاوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد • وهي أسماء قوم صالحين من قوم نوح • فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : ان انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها انصابا ، وسموها بأسمائهم • ففعلوا • فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم عبدت »[3] •

وقد بقيت للعرب بقايا من شريعة ابراهيم (ص) كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن ، مع ادخالهم في ذلك ما ليس منه • قال ابن هشام : « فكانت

---

(1) الروض الانف ج1 ص62 .
(2) السيرة المطبوعة مع الروض ج1 ص64 .
(3) الروض ج1 ص62 .

كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك • فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده • يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون »[1] •

هذه الوثنية التي كان عليها العرب مع اعترافهم بوحدانية الله واقرار بعضهم بالبعث وكونهم يقولون ــ كما جاء في القرآن ــ : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ــ هذه الوثنية هي التي لم يرضها منهم الاله جل وعلا ، وأرسل اليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ليمحوها من قلوبهم ويذهب أثرها من بين أعينهم • وفي اسلام كثير منا ما يشبه هذه الوثنية ، غير ان الاسلام لما كان أصله محفوظا بحفظ القرآن وضبط الحديث لا يحتاج في تجديده الى نبوة جديدة وانما يحتاج الى احياء أصله والتقاضي اليه والتراضي به حكما •

ولقد كان لهؤلاء العرب ملوك فخام ودول عظام • اشتهر من دولهم ثلاث : دولة التبابعة ودولة المناذرة ودولة الغساسنة • والدولة الاولى أسست في الالف الثاني قبل الميلاد • فان المؤرخين يذكرون منها ملوكا كثيرين قبل بلقيس التي كانت في زمن سليمان عليه السلام ابن داوود عليه السلام • وهي مؤسسة على أنقاض دولة قحطان التي كانت قبل الميلاد بنحو ألفي سنة • فهي أقدمهن عهدا وأكثرهن حضارة وأبقاهن أثرا وأوسعهن ملكا • كان منها بعد بلقيس شمريرعش حوالي المائة الثامنة (ق•م) ودخل أرض فارس • وخرب مدينة الصغد خلف نهر جيجون • وبنى مدينة هنالك سميت باسمه • وهي المعروفة اليوم بسمرقند • وقد وجد في بعض قصورها المنهدمة

---

(1) السيرة ج1 ص63 •

عمود مكتوب عليه بالحميرية : « هـذا ما بناه شمريرعش لسيدة شمس » •

دولتا المناذرة والغساسنة كانتا شـمالا ، ودولة التبابعة كانت جنوبا • ومعلوم أن الدول لا تقام الا بالعلوم والصناعات خصوصا وقد دلت الآثار على عظمة تلك الدول • قال صاحبا الوسيط : « واذن تكون هندسة ارواء الارض وعمارة المدن والحساب والطب والبيطرة والزراعة ونحوها معروفة في الجنوب والشمال ، مدونة في الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهر صورا منها • أما البدو منهم وان كانـوا أميين يمقتون الصناعات وينتقصون أهلها فلا غنى لهم عن تجـربة ترشدهم الى ما ينفعهم في بواديهم المقفرة ومجاهلهم الطامسة : ليعلموا ما به تصح أنفسهم وانعامهم وتستطلع خفايا أمورهم وتدون فيـه مفاخرهم، وليعرفوا متى تجود السماء، وبم يتميز الاقرباء من البعداء • فكسبهم ذلـك علم النجوم والطب الضروري والانساب والاخبار ووصف الارض والفراسة والعيافة والقيافة والكهانة والعرافة والزجر وقرض الشعر » [1] •

قالا : واشتهر منهم في علم النجوم بنو حارثة بن كلب وبنو مرة ابن همام الشيباني ، وفي الطب الحارثة بن كلدة الثقفي وابن حذيم التيمي ، وفي الانساب دغفل بن حنظلة الشيباني وزيد بن الكيس النمري وابن لسان الحمرة ، وفي القيافة بنو مدلج وبنو لهب ، وفي الكهانة شق أنمار وسطيح الذئبي وطريفة الخير وسلمى الهمدانية ، وفي العرافة الابلق الاسدي عراف نجـد ، ورباح ابن عجلة عراف اليمامة ، وفي الزجر بنو لهب وأبو ذؤيب الهذلي ومرة الاسدي • أما الشعر فقد اشتهر فيه كثيرون معروفة أخبارهم في كتب الادب •

---

(1) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ص38 .

3 ـ العرب بعـد الاسـلام

قد رأيت أن العرب قبل الاسلام كانت لهم دول شمالا وجنوبا • أما قلب الجزيرة فكان تحت امراء ورؤساء عديدين • فلم تكن لهم وحدة سياسية ، وقـد كادوا يفقدون استقلالهم قبيل الاسلام : اذ استولى الفرس على اليمن ، وكان المناذرة تحت حمايتهم ، والغساسنة تحت حماية الروم البيزنطيين •

وكانوا من حيث الدين أيضا على أديان مختلفة • فكانت الفوضى شاملة للوجهتين الدينية والسياسية •

والامم غير العرب ليسوا بأسعد منهم في هاتين الوجهتين ، بل ان العالم كله أمسى في فوضى عامة لا يبصر في ظلامها الدامس سبيلا للرقي والكمالات البشرية • يشهد بذلك التاريخ الصادق •

وقد امتاز العرب عن غيرهم من أهل عصرهم بالاخلاق الفاضلة مثل الصدق والوفاء وحماية الجار الى غير ذلك مما لا يسعنا تتبعه وامتازوا أيضا بقربهم من الفطرة • فكانت أذهانهم صافية وعقولهم راجحـة •

كان العالم في حاجة شديدة الى نـور يهديه سبل الكمال ، وصيحة عظيمة توقظه وتلفت نظره نحو ذلك النور • وكان العرب ـ كما قلنا ـ أقرب من غيرهم الى الفطرة وأقوم أخلاقا • فكانوا أهلا لان يبدو من جزيرتهم ذلك النور ، وان يكون صاحب الصيحة رجلا منهم قـد عرفوا فضـله على رجالهم وفضل عشيرته وقبيلته على عشائرهم وقبائلهم •

هذا الرجل هو محمد بن عبـد الله بن عبـد المطلب الهاشمي القرشي • رجل أمي نشأ بين قوم أميين • وكان المثل الاعلى عندهم في

الاخلاق الفاضلة من صدق ووفاء عهد وأمانة ورأفة بالضعفاء واحسان الى عموم الناس • ناهيك أنه كان له عبد يدعى زيد بن حارثة ، ولم يكن أبوه حارثة عالما بمكانه حتى عرف انه في مكة• فقصده هو وعم زيد • وطلبا الى ربه محمد ان يسرح ولدهما يذهبان به معهما • فأحالهما على اختيار زيد للاقامة معه أو الذهاب معهما • فقالا له : لقد انصفتنا • وجاء زيد فاختار ربه على أبيه •

هذا الرجل الامي الكامل في بشريته لم يجلس الى العلماء ولا صاحب زعيما من الزعماء ولا خرج من بين قومه الى أي بلدة سوى أنه سافر مرتين الى الشام ، الاولى كان فيها صبيا ابن اثنتي عشرة سنة ، تعلق بعمه وكافله ابي طالب عند خروجه اليه ، فاستصحبه ، والثانية كان فيها فتى قد عرف فضله وأمانته ، فرغبت اليه خديجة في أن يذهب ببضاعتها الى الشام تاجرا • ففعل •

لسنا نريد ان نشرح حياة هذا الرجل قبل ان يبلغ الاربعين شرحا وافيا • ولكنا نريد ان نعلم أنه عاش في تلك المدة كرجل أمي سوى ما كان عليه من خلق عظيم •

ولما بلغ الاربعين من عمره اصطفاه الله وعهد اليه بمهمة القيام باصلاح المجتمع البشري من جميع مناحيه • تلك المهمة التي لم يقم بها أحد قبله ، ولا يستطيع أن يقوم بها أحد بعده ولو قرأ في أعلى مدارس الفلسفة وعاش أكثر من قرن قضاه بحثا ودرسا عمليا • وبذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق على الاطلاق •

كانت الفوضى اذ ذاك بالغة منتهاها • فكانت دعوته بالغة منتهى التوحيد ، اذ دعا الناس الى عبادة اله واحد ، والعمل بشريعة واحدة جامعة بين الوحدتين الدينية والسياسية ، شاملة للسعادتين الدنوية والاخروية •

قضى في نشر دعوته بمكة ثلاث عشرة سنة قاسى فيها من كبراء قومه وسفهائهم ما لا يحتمله الا من خلقه الله وهيأه لان يكون أفضل الخلق أجمعين • ثم هاجر الى يثرب حيث كان له أنصار • فأقام بها عشر سنوات ، أكمل فيها برنامج دعوته ،وقضى على معانديه بالسنان بعدما أفحمهم بالحجة والبرهان • فصار العرب يدخلون في دين الله أفواجا حتى لم يبق بجزيرة العرب غير من يدين بالاسلام •

هذا الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الجامع للفضائل الباطنية والظاهرية ، الدال على طرق السعادتين الدنوية والاخروية • فكان خاتمة الاديان وأداة الكمال لنوع الانسان •

دعا الناس عامة الى الاعتقاد باله واحد • وحرض مجيبيه على التسامح مع أهل بقية الاديان ومعاملتهم بالجميل والاحسان • جاء في سورة الانعام : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » وجاء في سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم • ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم • ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وقال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » •

هذا الدين على موافقته للفطرة وفضله على البشرية عمل لتشويهه ومحوه أناس سرا تحت ظله • حتى اذا تم لهم صرف العامة من أهله عن صراطه السوي قام من بعدهم بمحاربته جهرا وصاروا يضعون على حسابه القواعد الفلسفية • واليك كلمة واحدة في هذا الموضوع ننقلها عن سلامة موسى أحد متجردي العصر وملحدي

مصر • قال : « وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة ازداد الكهنة قوة وجمدت نواهي الطبو • فتقيد فكر الانسان • انما يجب أن نذكر ان الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الاديان الحاضرة لانها لم تكن قادرة على كل شيء كما يعتقد الآن المسيحي أو المسلم في إلهه • فكان بين الانسان وربه مجال للفكر في جملة موضوعات لا يستطيع أهل الاديان الحاضرة ان يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرته الآلهـة »[1] •

خلاصة كلامه هذا تفضيل الوثنية على الوحدانية اعتمادا على تلك الشبهة التي لبس بها على بسطاء العقول ممن يفزعون الى الاخذ بالجديد من الافكار مطلقا فزع النساء الى الجديد من الازياء •

نظرته هذه نظرة خيالية لا تتفق ومفعول الديانة الاسلامية وفضلها على البشرية جمعاء كما ينطبق تاريخها أيام عظمتها • وعلاوة عن كون هذه الفلسفة النظرية تدحضها الفلسفة العملية نزيد دحض هذه الشبهة من الوجهة النظرية أيضا : ان الوثنيين يعتقدون في آلهتهم المتعددة القدرة على كل شيء مثل ما يعتقد المسلم في إلهه الواحد ، غير أن الآلهة الوثنية ليس لعبادتها نظام ولا لمرضاتها سبيل مقرر انتهاجها ، وهذا الاله الواحد عبادته مضبوطة وأوامره مقررة • وهو يأمر البشر بالنظر في ماضيهم لاصلاح مستقبلهم ، وأن نظام هذا الكون واحد : ما كان علة لانحطاط الماضين فهو علة انحطاط الآتين ، وما كان سببا لرفعة أولئك فهو سبب لرفعة أولاء « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » •

كل هذا لا يخفى حتى على سلامة موسى واضرابه • ولكن هي

---

(1) حرية الفكر وابطالها في التاريخ ص25 .

الاهواء ودعاية الكيد للاسلام عامة والعرب خاصة [1] .

وان عذلت في هذا الاستطراد القصير فسيعذرني من رأى تحامل هؤلاء الرهاط على الاسلام والعرب متسترين بالفلسفة النظرية متجاهلين الحقائق الواقعية .

اعتز العرب بهذا الدين واتحدت كلمتهم واستجدت قوتهم . فعظمت دولتهم وتمكنت في قلوب الاعداء هيبتهم . فأخذوا يفتحون البلدان ويستولون على الاوطان بسرعة ليس لها في تاريخ البشر مثيل . وليس ذلك بتقدمهم على الامم الاخرى في الفنون الحربية

---

(1) اشتد كلب الزارين على الاسلام والعرب في هذه الايام لظهور دولة عربية اسلامية هي دولة عبد العزيز بن السعود . وقد رأيت في عدد واحد من الهلال (الجزء الخامس من السنة السادسة والثلاثين) التي تدعى بعدها عن السياسة والدين التحكك بالاسلام في ثلاثة مواضع : الاول (ص 555) جاء فيه ان الاباحة اوفق من الحظر وان الجبر شر منه . ومثل للجبر بجبر الوهابيين الناس على الصلاة . وخفى عليه ان ضرر الجبر انما يكون اذا كان المجبور غير معتقد الخير فيما اجبر عليه . وهؤلاء مسلمون يرون الصلاة أهم ركن في دينهم الذي يرون نسبتهم لغيره سبة لا نظير لها .

الثاني (ص 611) جاء فيه ان المنع احسن من الاباحة ، نقيض الاول . ولكن سهل هذا التناقض ان الاول ضد الجبر على الصلاة والثاني ضد اباحة الطلاق . وكلاهما يتفقان مفزى .

الثالث (ص 586) جاء فيه ان الجرائم تكثر تبعا للحضارة وتقل مع البداوة « والوهابيون في نجد أقل جرائم منا ودعائم الامن ارسخ عندهم مما هي عندنا ، لا لانهم اكثر خشية للعقوبة بل لان وسائل الجريمة عندهم قليلة لا تتعدى سرقة الماشية أو الملابس » ولا أدري أهذا الفيلسوف .. يعتقد ان الحجاز على عهد الاتراك والشريف حسين كان أرقى حضارة منه على عهد ابن السعود ؟ لا يا فيلسوف ! انه لا علاج للاجرام غير التهذيب الديني وعدل الحاكم ، ولا سبب لكثرتها غير استبدال الايمان بالمادة بالايمان باله عالم قادر .

واختراعهم للاسلحة القاضية على النفوس المخربة للعمران • وانما بعدل أمرائهم واخلاص جيوشهم وكفاءة قوادهم • وهـذه ميزات لا توجد في محاربيهم • اختصوا بها : لبعدهم عن النعيم والترف الموجبين للراحة وسآمة مقارعة الخطوب ، ولكونهم متدينين بدين مهذب للنفوس ومعتقدين باله واحد مطلع على القلوب لا تخفى عليه خيانة خائن ولا جور جائر •

ومما يدلك على شدة تأثير الاسلام في العرب وسرعته وفضله في تطهير القلوب وانارة العقول اتفاقهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على تقديم أبي بكر لخلافته واسراعهم لذلك ، وهم الذين كانوا لا يدينون لاحد بالطاعة ، وكـل يرى نفسه أميرا • هؤلاء صاروا يخضعون لرجل واحد ليس له سلف في الملك والامارة ، ويحسنون انتخابه واختياره • وان أرقى أمة اليوم في العلم وأعرقها في الحضارة لم تزل تفتك بها الاغراض الشخصية في الانتخابات العمومية •

ومن كلام أبي بكر الدال على فضله وكفاءته خطبته التي خطبها في اليوم الثاني لخلافته • قال ــ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ــ : « أيها الناس ! قـد وليت عليكم ولسـت بخيركم • فان أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني • الصدق أمانة والكذب خيانة • والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ان شاء الله تعالى • لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل • أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » •

ومن كلامه الدال على عدله وحسن سياسته وصيته لجيشه الذي وجهه الى الشام • قال : « عليكم بتقوى الله في السر والعلانية • واذا قدمتم على جندكم (يخاطب القواد) فأحسنوا صحبتهم وأبدأوهم

بالخير • واذا وعظتموهم فأوجزوا فان كثير الكـلام ينسى بعضه بعضا • واصلحوا أنفسكم يصلح لكم الناس • وصلوا الصلوات في أوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها • واذا قدم عليكم رسل الاعداء فأكرموهم ، وأقللوا لبثهم حتى يخرجوا من عسكركم وهم جاهلون به • وأكثروا حرسكم ، وبددوهم في عسكركم ، وأكثروا مفاجأتهم بمحارسهم بغير علم منهم بكم ، فمن وجدتموه غفل عن محرسه فأحسنوا ادبه وعاقبوه • وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » •

ولما احتضر دعا بعض الصحابة منهم عثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف • وأعلمهم برأيه في استخلاف عمر • فاستحسنوه • ودعا عثمان ليكتب العهد • وأملى عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر : اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب • ولم آل لكم خيرا • فان صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيـه ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب • وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » •

نكتفي بهذه النتف من كلام أبي بكر عن بقية خطبه وخطب بقية الخلفاء وعظماء القواد ، اذ لا يتسع المقام لذلك ولا لتتبع سيرهم وأعمالهم ولا لشرح فضل الاسلام في نهضة العرب وعظمتهم وتكوين مدنية اساسها العقل الصحيح وأثرها سعادة البشر عامة •

4 ـ العرب في افريقيـة

في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح العرب الشام ومصر وطرابلس • وفي عصر عثمان (ض) دخلوا افريقية •

في سنة (27 هـ ــ 647 م) صدر الامر من الخليفة لوالي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري بالهجوم على افريقية • فقدمها بعشرين ألفا • وكان في جيشه مــن وجوه الصحابة أهل الشجاعة والدهاء مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس وعقبة بن نافع • فخرج اليهم جرجير صاحب سبيطلة بمائة وعشرين الفا من الروم والبربر • والتقى الجمعان على مسافة يوم وليلة من سبيطلة • فاستعر القتال بين الفريقين • وانتهت المعركة بقتل جرجــير وانهزام جيشه •

وبعد هذا الانتصار المشــجع المرعب دخل العــرب سبيطلة ، وانتشروا في البسائط والسهول ، يشنون الغارات على الروم والبربر • وبلغوا في غاراتهم قفصة ، وفتحوا قصر الاجم صلحا •

وبعد سنة وثلاثة أشهر أقامها الجيش العربي بافريقية طلب أهلها الصلح ، وتحملوا لعبد الله بن أبي سرح بمال عظيم قبل انجلاء العرب عنهم • فقبل المال • وعاد الى مصر يحمل غنائم جليلة •

بلغ هرقل امبراطور القسطنطينية خبر انهزام الروم والبربر ، وما تحملوه من المال لابن أبي ســرح • فغضب عليهم ، ونقم منهم تسليم ذلك المال للعرب • فأمرهم أن يؤدوا له من المال مثل ما أدوه للعرب • ووجه بطريقا لتنفيذ هذا الامر • فلما نزل البطريق بقرطاجنة وأعلمهم أمر الامبراطور حنقوا عليه وقالوا : الواجب في هذه الحال اعانتنا لا تغريمنا • وأصر البطريق على تنفيذ أمر الامبراطور • فأفضى الجدال الى القتال ، وانتصــر البطريق عليهم • وخلع ملكهم الذي نصبوه مكان جرجير • فذهب الى الشام مستنصرا بالعرب •

قضى البربر والروم ثمانية عشرة سنة بعد انجلاء العرب عنهم في الفوضى • وشغل العرب عن العود الى غزوهم بما كان مــن شأن

الثورة على سياسة عثمان (ض) ثم قتله الذي نشأت عنه حروب علي (ض) مع عائشة (ض) ثم معاوية (ض) •

افضت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان (ض) فطلب منه ملك افريقية المخلوع ان يعينه على استرجاع منصبه • فوجه معه جيشا عربيا بقيادة معاوية بن حديج السكوني الكندي الصحابي • ولما بلغوا الاسكندرية توفي الملك المخلوع ، ومضى الجيش لطيته •

كان مجيء معاوية سنة (45 هـ ــ 665 م) في عشرة آلاف ، فيها من عظماء العرب أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الملك بن مروان • وخرج البطريق لملاقاتهم في ثلاثين ألفا • فانهزم عند قصر الاجم • وفتحت سوسة وبنزرت وجربة ، وغزيت صقلية • واتخذ معاوية آبارا للجيش بمكان القيروان •

وفي سنة (46 أو 47 هـ) استقدم الخليفة معاوية بن حديج ، وولاه على مصر وافريقية • ثم انتزع منه افريقية • ثم عزله عن ولاية مصر سنة (50) •

وبعد معاوية ارسل الخليفة الى افريقية عقبة بن نافع الفهري • قيل سنة (46) وقيل سنة (50) وفي كتب الافرنج : انه جاء سنة (668 م) غازيا ثم سمي واليا عليها سنة (669 م) • ولعل هذه الرواية تقرب الجمع بين روايتي مؤرخي العرب ، فيكون مجيئه سنة (46) أو بعدها بقليل بصفة أمير جيش ، وفي سنة (50) الموافقة لسنة (669 م) سمي واليا •

اشتغل عقبة باخضاع البربر والروم لولايته ، وتثبيت قدم العرب بافريقية • فأسس مدينة القيروان سنة (50) (670 م) بمواد من الخرابات الرومانية • ثم عزله معاوية • وولى على مصر وافريقية معا مسلمة بن مخلد •

5 — العرب في الجزائـــر

في سنة (50) عزل الخليفة والي مصر معاوية بن حديج • وولى مكانه مسلمة بن مخلد الانصاري • وجمع له بين ولايتي مصـــر وافريقيـــة •

وفي سنة (55) (675) م استعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر دينارا • فقدمها واساء عزل عقبة • وخرب مدينته القيروان • وأسس أخرى قربها • وأخذ يغزو ويفتح •

وكان من ملوك البربر ملك يدعى كسيلة . قـــد جمع جموعه بالمغرب الاوسط . وزحف بها لقتال المسلمين • فخرج اليه ابو المهاجر ، وهزمه حول تلمسان • قال غروت : « بوادي اسر »[1] وظفر به • فاعتصم بالاسلام • فاستبقاه • وقربه • قال الزياني : وتوجه أبـــو المهاجر لغزو البربر • فبلغ تلمسان • ونزل على عيون تحتها • فسميت به الآن • وقال ابن خلـــدون : « وبـــه سميت عيون ابي المهاجر قريبا منها »[2] •

قال الزياني ما ملخصه : أن أبا المهاجر بعد عوده من غزو المغرب الاوسط خرب القيروان • وأسس أخرى أنزل بها حامية المسلمين • وأقام هنالك الى أن بلغته وفاة معاوية • وفي غروت : انه نقل مركز الولاية الى ميلة • ولم أقف على هذه الرواية في غيره • ويظهر أن رواية الزياني أصح •

ولما أفضت الخلافـــة الى يزيد بن معاوية أعـــاد عقبة الى ولاية

---

(1) وادي اسر منبعثه من جبال جنوب تلمسان. وينعطف شرقيها ويميل مغربا . فيمر شمالها . الى أن يلتقي بنهر تافنا. وقد ذكره في المغرب 77 وفي بلاد القبائل واد آخر يدعى اسر ايضا . وليس بمراد هنا .

(2) ج7 ص 76 .

افريقية • فقدمها سنة (62) (681) م وانتقم مـن ابي المهاجـر • فاعتقله • ونكب صاحبه كسيلة • وخرب مدينته • وعمر القيروان من جديد • ثم أخذ في غزو الروم والبربر •

بلغ مدينة باغاية • والتقى هنالك بجموع البربر والروم • قال البكري : « فدارت بينهم حروب عظيمة • وكانت الدبرة فيها على أهل باغاية • فهزمهم عقبة بن نافع • وقتلهم قتلا ذريعا • ولجأ فلهم الى الحصن • وغنم منهم خيلا لم يروا في مغازيهم أصلب ولا أسرع منها ، من نتاج خيل أوراس • فرحـل عنهم عقبة • ولم يقم عليهم كراهة ان يشتغل بهم عن غيرهم »[1] •

ومنها توجه الى لمبس (تازولت) • واشتد دفاع الروم والبربر عنها • وكان النصر حليف العرب • ثم سار الى الزاب • وسأل عن أعظم مدنه • فقيل له : مدينة أربة[2] فقصدها • وبلغها عشية • ومن الغد هجم عليها • وكان البربر قد هابوه والتجأوا الى حصونهم • فلما هجم عليهم دافعوه • واستعر القتال بين الفريقين • ثم انجلى عن

---

(1) المغرب ص 145 .

(2) نقل الكعاك بهامش موجزه عن اليعقوبي : أنها آخر مـدن الزاب مما يلي المغرب ، وعن النويري : انها قصبة الملك ومجمع الامراء ، حولها نحو ثلاثمائة وستين قرية آهلة عامرة . وقال ابن خلدون : انها قاعدة الزاب (4 : 186) .

وبعمالة وهران قرية قديمة تدعى اربة ، واخـرى حديثة تدعى كذلك أيضا . ويعبرون عن ثنيتهما بلفظ اربوات . وحولهما قرى كثيرة متقاربة ، بعضها عامر وبعضها خرب . وهما يبعدان عن تيهرت بنحـو ثلاث مراحل الى الجنوب الغربي .

والظاهر ان اربة القديمة التي بعمالة وهران اليوم هي المرادة . وليس في عبارة المؤرخين ما ينافي ذلك سوى قول ابن خلدون : انها قاعدة الزاب . ولا يبعد أن يكون غالطا في هذا التعبير .

هزيمة البربر • وتركوا قتلى كثيرين • ومن أربه سار الى تيهرت • وانتصر بها على جموع البربر والروم • ومنها توجه الى المغرب الاقصى • فجاس خلاله بسرعته المدهشة حتى بلغ المحيط الاطلانتيقي • ثم قفل راجعا الى القيروان • واذن لجيوشه في اللحاق بها •

وكان أبو المهاجر في اعتقاله مصاحبا لعقبة في غزواته هاته ومعه أيضا كسيلة • وكان يستهينه • قال ابن خلدون : « يقال انه كان يحاصره في كل يوم ، ويأمره بسلخ الغنم اذا ذبحت لمطبخه »[1] •

أبو المهاجر — وان كان بينه وبين عقبة حزازات شخصية — لم يكن ليخون دينه ودولته • فأخذ يشير على عقبة باصطناع كسيلة . ويوقظه الى سوء سياسته ، ويذكره بسيرة رسول الله (ص) مع جبابرة العرب واستئلافه لهم • كل ذلك لم يلين من سورة عقبة ، فلم يقلع عن سياسته •

ولما انتهى الى مدينة طبنة صرف الجنود الى القيروان • ولم يبق الا في طائفة قليلة ثقة باتتصاراته على البربر ، واستخفافا بشأن كسيلة • وسار في تلك البقية قاصدا تهودا لينزل بها الحامية •

علم كسيلة بقلة من بقي مع عقبة فأرسل الى الروم والبربر يعلمهم بذلك • وأرسل أيضا الى الكاهنة صاحبة جبل أوراس • فأقبلوا في جموع عظيمة • وأحاطوا بشرذمة عقبة • فلما رأى كثرتهم وقلته علم أنه مستشهد لا محالة • فسرح أبا المهاجر وقال له : الحق بالقيروان ، فقم بأمر المسلمين • وأنا أغتنم الشهادة • وكان أبو المهاجر تتيسر له النجاة لما بينه وبين كسيلة من المودة • ولكنه أبى أن يرجع سالما ويهلك عقبة • فأجابه بقوله : وأنا أغتنمها ايضا • هكذا كان

---

(1) ج4 ص186 •

أسلافنا ، اذا كان بينهم أشياء شخصية لا يذكرونها وقت الشدة ، ويتناسونها أمام الصالح العام .

لما أحاط البربر والروم بأصحاب عقبة نزلوا عن خيولهم وكسروا أجفان سيوفهم استطابة للموت على الاسر ، وحبا في الموت الشريف ، وكراهية للحياة اذا كان فيها ذل وهوان . فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وكانوا زهاء ثلاثمائة من الصحابة وكبار التابعين .

قال ابن خلدون : « واجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جعل على قبر عقبة اسنمة ، ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه . وهو في عداد المزارات ومظان البركة . بل هو أشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد احدهم ولا نصيفه » [1] ومسجد عقبة هو المسجد الجامع للقرية التي تعرف لعهدنا هذا باسم سيدي عقبة . وضريحه داخل المسجد .

وظاهر كلام ابن خلدون ان عقبة صحابي . وهو ليس كذلك . وانما ولد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فقط ولذلك يقولون فيه : صحابي بالمولد . فاطلاق الصحابي عليه توسع . وصريح كلامه ان تلك القطعة من وطن الجزائر أشرف بقعة تزار يريد غير البقاع التي عرفت للانبياء . وكلامه هذا صحيح . فللجزائر مفخرة لا ينازعها فيها وطن آخر بضمها لاجساد أولئك العظماء في الدين والتاريخ ، عظماء في الدين لانهم من أهل القرنين المفضلين على ما بعدهما من القرون ، وقد ماتوا شهداء ، واليهم يرجع الفضل في اسلامنا الذي نعده أنفس شيء أخذه الاسلاف عن أمثالهم ، وأعز تراث تركه لنا

---

(1) ج6 ص146–147 .

الاجداد الامجاد ، وعظماء في التاريخ لانهم جاسوا خلال الشمال الافريقي من تونس الى سوس الاقصى في ظرف ثلاثة أعوام ــ على ما في الزياني ــ من غير معرفة بهذا الوطن ولا مساعدة من أهله

وان عقبة بن نافع لجدير بأن يخص بالتأليف فانه من أعظم أبطال التاريخ ، غزا الروم بحرا من مصر • وافتتح غدامس وذهب منها الى ودان ففزان • وانتهى الى السودان وفتح كورامنه • كل هذا قبل أن يشرع في حرب افريقية • وان من نظر الى ابعاده في الغزو وانتصاره على العدو مع تماثل السلاح وفقد وسائل النقل والاطلاع اذ لم تكن لهم آلات هذا العصر وخرائط الجغرافية ــ من نظر الى ذلك مع تلك الحال أكبر عقبة ايما اكبار ، وأكبر تغافلنا عن تاريخ عظمائنا ، الامر الذي جرأ كثيرا من خونة التاريخ أو الجاهلين به المتطفلين عليه على تشويه ماضينا ودوس حاضرنا •

6 ــ الجزائر تحت ملوك البربر

البربر بعد قضاء الرومان على دولهم الكبرى بقوا يتطلبون الاستقلال حتى نالوا منه حظا وافرا على عهدي الوندال والروم • لكن لم يكونوا دولا عظمى كسابق عهدهم • وانما كانوا طوائف تحت ملوك متعددين ، قد مر ذكرهم •

ولما جاء العرب وجدوا أمامهم دويلة جرجير • فقضوا عليها بسهولة ، وانضم الروم الى البربر • وصاروا يدا واحدة على العرب • وهؤلاء ملوك البربر الذين عرفوا في بداية الفتح العربي :

1 ــ صولات بن وزمار • كان أميرا على قبيلة مغراوة • وأسلم في عهد عثمان بن عفان (ض) قيل وفد عليه مهاجرا ، وقيل أسيرا ،

أسره عبد الله بن ابي سرح • وعقد له عثمان على قومه • وبقي لعقبة ملك في العصر العربي •

2 — سترديز بن رومي • كان أميرا على قبيلة أوربة • قال ابن خلدون : « ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة • وأدرك الفتح الاسلامي • ومات سنة احدى وسبعين »[1] •

3 — كسيلة بن لزم • كان على قبيلة أوربة • قال ابن خلدون : « وولي عليهم من بعده (يعني سترديز) كسيلة بن لزم الاوربي • فكان أميرا على البرانس كلهم • ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة ابن لزم مرتادا بالمغرب الاقصى في جموعه من أوربة وغيرهم • فظفر بـه أبو المهاجر وعرض عليـه الاسلام • فأسلم • واستنقذه وأحسن اليه وصحبه »[2] •

وقال غروت : « اتفقت كلمة البربر على قبول رئاسة كسيلة • وكان الوطن تحته مستقلا تماما • وهذه أول مرة اتحد فيها البربر تحت ملك واحد » •

ولم يزل كسيلة على الاسلام في صحبة أبي المهاجر حتى قدم عقبة ونقم منه تلك الصحبة وامتهنه • فضغن عليه وأسرها في نفسه حتى أمكنته الفرصة • فحشد له جموع البربر والروم • فاحتشدوا • واستشهد عقبة وأبو المهاجر وغيرهما • قال ابن خلدون : « وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم • ففداهم بن مصاد صاحب قفصة »[3] •

(1و2) ج6 ص146 وفي كلامه نظر اذ جعل وفاة سترديز سنة 71 وولاية كسيلة بعدها . ثم يقول : ان كسيلة لاقى بعد ولايته أبا المهاجر سنة 55 ، على ان كسيلة نفسه لم يعش الى سنة 71 فكيف ولي بعدها . ولا تستقيم روايته الا بان يكون سترديز توفي قبل سنة 55 أو يكون كسيلة ولي حياته . (3) ج6ص 147 .

بعد هذه الوقعة الغريبة ــ وهكذا كل ما يتعلق بعقبة غريب ــ اجتمع الى كسيلة جميع من في المغرب من بربر وروم • فزحف بهم الى القيروان • وكان بها زهير بن قيس البلوي • تركه عقبة خليفة عنه بها • فلما بلغه خبر عقبة وزحف كسيلة اعتزم القتال • فخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني واتبعه الناس • فلم يسع زهير الا متابعتهم • فارتحلوا من القيروان • وبقي زهير ببرقة ينتظر مدد الخليفة •

دخل كسيلة القيروان • والفى بها بقايا من العرب ثقلوا عن الارتحال • فأمنهم • وأقام بها أميرا على المغرب خمس سنوات • اشتغل أثناءها بتعمير ما خربته الحروب من الوطن • وكان حبل الخلافة في هذه المدة مضطربا بما كان من ثورة عبد الله بن الزبير التي أستمرت الى زمن عبد الملك وثورات غيرها •

ولما قضى عبد الملك بن مروان على الثورات أرسل سنة 67 المدد الى زهير بمكانه من برقة • فزحف الى القيروان في آلاف من العرب • وخرج له كسيلة في جموعه والتقى الجمعان بنواحي القيروان• ووقعت بينهما معارك شديدة • حكمت أخيرا بفوز العرب • وقتل فيها كسيلة وكثير من أشراف البربر ورجالاتهم •

بعد هذه المعركة الفاصلة تتبع زهير البربر حتى وادي ملوية • وقد ظن أنه قلم أظفار البربر نهائيا • وذلك غلط وقع فيه قبله عقبة • فحسب ان الامن قد استتب • فزهد في الامارة • وارتحل من القيروان مشرقا • فاستشهد ببرقة مقاتلا للروم •

4 — دهيا بنت يفاق الشهيرة باسم الكاهنة • كانت أميرة على جراوه من زناتة بجبل أوراس • قال ابن خلدون : « وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم ، وربوا في حجرها • فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم • فانتهت اليها رئاستهم • وملكت عليهم خمسا

وثلاثين سنة • وعاشت 127 سنة • وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها »[1] •

ولما غادر زهير القيروان واستشهد ببرقة أمر عبد الملك بن مروان عامله بمصر حسان بن النعمان الغساني بفتح افريقية • قال البكري : « فخرج اليها في المحرم سنة ثمان وستين »[2] وكان الروم بعد تخريب سبيطلة يلتجئون الى قرطاجنة • فقصدها حسان وفتحها عنوة ثم خربها • وقضى بذلك على الروم • ولم يبق أمامه الا البربر • فسأل عن مكان الشوكة منهم • فدل على الكاهنة بجبل أوراس • فتوجه اليها •

بلغ الخبر الكاهنة • فذهبت الى باغاية • وهدمت أسوارها خشية ان يفتحها حسان ويتحصن بها • وسارت من هناك الى مسكيانة • وكانت لها بها حصون • فالتقت بجيوش حسان • وتقابل الجمعان • على وادي مسكيانة • فاقتتلوا قتالا شديدا • وحكمت المعركة للكاهنة • فهزمت العرب وسارت في أثرهم حتى أدخلتهم تراب طرابلس • وأسرت منهم نحو ثمانين • فسرحتهم سوى خالد بن يزيد القيسي فانها أبقته لديها وتبنته •

أصبحت الكاهنة بعد هذا الانتصار ملكة على مابين السرت والمحيط الاطلانتيقي • قال غروت : « وجعلت عاصمتها تيسدروس » •

ومع اتساع ملكها هذا وانتصارها لم تزل رهبة العرب من قلبها ولم تشك في أنهم سيعودون لحربها • وظنت أنهم مثل الروماز : انما

---

(1) ج7 ص9 •

(1) المغرب ص7 واعاد ذكر حسان (ص37) وساق نسبه هكذا : حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر الازدي •

يحاربون لتين المغرب وخيراته • فقطعت أملهم ــ على ظنها ــ بأن أمرت بتخريب المدن والحصون ونسف العمران • وقالت لقومها : نحن انما نريد المزارع والمراعي • ولا شأن لنا بما عدا ذلك • فعلت هذا من جهة • واتخذت يدا عند العرب من جهة أخرى بتسريح أسراهم والاحسان الى خالد • فاحتاطت لنفسها وقومها من جهتين • ولكنها لم تفهم غرض العرب من غزو افريقية • فكان أمرها ذلك خاليا من الحكمة • فقد أفسدت عليها البربر بذلك • وصاروا مضمرين نصرة حسان عليها ان هو عاد لحربها •

حسان بعد هزم الكاهنة له أقام ببرقة بأمر من عبد الملك منتظرا انجاده • وكان عبد الملك في شغل عن ذلك بفتن داخلية • وفي سنة(74) جاء المدد الى حسان فخرج من برقة لغزو الكاهنة • وكان على علم بتضعضع مركزها بما كان بينه وبين خالد من الصلة السرية •

تلقاه البربر وبقايا الروم هذه المرة بوجه غير الاول • فبذلوا له طاعتهم • وأمدوه بالاموال • وأدركت الكاهنة خذلان الامة لها • فتحصنت بعاصمتها • وقضت بها ستة أشـهر تحت الحصار • ثم غادرتها من نفق • وناوشت العرب القتال من غـير ثبات لعدم ثقتها بالبربر •

قال غروت : « بعد أن أيست الكاهنة من النصر ورأت خذلان البربر واليونان لها أرادت الانتقام منهم • فأرسلت الى حسان تعرض عليه اسلامها واسلام من بقي تحت أمرها ، والوقوف في صفه • ووجهت ذلك مع ولديها • فلم يقبل حسان • وأسر الولدين • واذ ذاك تأخرت الى أوراس • وكانت لها بنت تدعى مشوشة ، قد أعدت لها ملجأ هنالك بمكان يدعى جفة • وتمكنت بذلك من دفاع العرب مرارا • ولكنهم دخلوا أخيرا ملجأها • ففرت • وقتلت في طريق فرارها

عند بئر تدعى بئر العطر ثم اطلق عليها بئر الكاهنة • وذلك سنة 705م » •

وفي كلامه هذا نقطتان غير مسلمتين : أولاهما ان مؤرخي العرب لم يذكروا أسر حسان للولدين • بل ذكروا انه عقد لهما على قومهما بعد والدتهما • وهذا هو الصحيح الموافق لما عرف عن العرب جاهلية واسلاما من عدم الاساءة الى الرسول ، والموافق ايضا لما عرف به حسان من الحنكة السياسية ، اذ لو فعل ذلك لنفر منه البربر • ثانيتهما ان غيره ذكر ان قومها دعوها الى الاسلام لما أيقنوا بهلاكها فامتنعت منه وامتنعت من الفرار أيضا • ومن كلامها في هذا الشأن ما في تاريخ دول الاسلام : « انما الملكة من تعرف كيف تموت »[1] وفي موجز الكعاك من خطابها لقومها : « الفرار عار وسبة في وجه أمتي • والتي قادت البربر والروم ضد العرب يجب ان تموت موت الملكات » • ولا شك ان طلبها الاسلام طمعا في النجاة لا عن ايمان انما هو نوع من الفرار • ويؤيد عدم طلبها للاسلام انها لو فعلت ما قاتلها حسان • وكل من له المام ضعيف بتاريخ الاسلام يعلم ان العرب لا يقاتلون الا بعد ان يعرضوا على محاربيهم الاسلام أو الجزية • فكيف يعقل رفض حسان لاسلام الكاهنة وهو انما يحارب لتلك الغاية ؟

والخلاصة أن رواية غروت فيها طعن في أعظم رجل من فاتحي المغرب ، وهو طعن باطل • وفيها تنقيص لملكة عظيمة من البربر • وهو باطل أيضا • وكل من ينظر التاريخ بعين الحقيقة يراها درة في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ •

---

(1) ج1 ص240 •

7 ـ الفتـــح العربـــي

بعد قتل الكاهنة دخل حسان جبل أوراس • وخضع له البربر • فعقد لاكبر ابني الكاهنة على جبل أوراس وقومه جراوة • وجند من البربر اثني عشر الفا لا يفارقونه في جميع مواقفه الحربية • وذلك كي يأمن ثورتهم ، ويستعين بشجاعتهم •

وبعد فتح جبل أوراس عاد حسان الى القيروان • ووجه همه الى الادارة والحربية • فدون الدواوين • وكتب الخراج • وضرب الجزية على من أقام على المسيحية • ثم أنشأ بتونس دارا لصناعـة المراكب البحرية والآلات الحربية •

وعلى يدي حسان تم الفتح العـربي حربيا وسياسيا ودينيا ، فاستتب الامن • واقبل الناس عـلى شؤونهم • ولكن الغلطة التي غلطها معاوية بن أبي سفيان (ض) باضافة المغرب الى ولايـة مصر ما زالت تفتك بالمغرب ، وتهدم ما بنته جهود الفاتحين • كان عقبة بن نافع قد وضع أساس الفتح العربي بالمغرب • وبينما هـو مشتغل بتكميله اذ أضاف معاوية المغرب الى والي مصر مسلمة بن مخلد • وكانت نتائج هذه الاضافة عزل عقبة ، واستحكام العداوة بينه وبين أبي المهاجر ، وصاحبه كسيلة • الامر الذي أفضى الى قتله • ولم يزل المغرب تابعا لمصر • فلما تمم حسان الفتح ، وعمم الامن عزله والي مصر • فارتحل الى المشرق • واستخلف مكانه أحـد عظماء الجند • ولكن لم تكن له كفاءة حسان • فاضطرب حبل الامـن • وكثرت الفتن • وخلت أكثر البلاد • وكادت جهود حسان تذهب هباء ، لولا ان تداركها الله بمجيء موسى بن نصير •

لما حل هذا الوالي بالقيروان أخذ في اخضاع البربر من جديد • ففرق البعوث في النواحي • وافتتح طبنة من جديد • وارسل أحـد

قواده بشر بن ارطاة الى مجانــة فافتتحها • وافتتح قلعة حولها • فأضيفت اليه • وسميت قلعة بشر •

بلغ موسى في غزواته بحــرا جزيرة ميورقة ، وبــرا السوس الادنى • قال بيروني : « كان موسى فاتحا عظيما • أخضع قسنطينة الثائرة والمغرب الاقصى وتافيلالت ودرعة وسوس • وجند تسعة عشر الفا من البربر • وأسس طنجة • وجعلها قاعدة الشمال الغربي • وجعل لها حامية ذات سبعة عشر الفا ما بين عرب وبربر » وكان العامل عليها من قبله طارق بن زياد الليثي •

ولما ثبت الفتح بالمغرب أمر طارقا بغزو الاندلس • فتوجه اليها سنة 92 في جيشين أحدهما تحت رئاسته ، نزل بــه الجبل المعروف باسمه الى اليوم ، والآخر تحت رئاسة طريف بن مالك النخعي ، ونزل مكانا سمي به أيضا • ولما اجتازوا البحر كسر طارق المراكب كي لا يطمع في الفرار ضعفة الصبر من الجيش • وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي ضاعفت شجاعتهم واقدامهم •

قد وضع عقبة في ولايته الاولى أساس الفتح العربي بتأسيس عاصمة المغرب • وجاء حسان فرفع البنيان وأحكم بناء الاركان • وجاء موسى فوضع السقف وحفظ هذا الصرح من عوامل الضعف ، ولولا غلطات الخلفاء وجهل الامــراء بدواخل الوطن وطبائع أهله وجهل البربر بغرض الفاتحين ما بقي العرب في تشييد صرح الفتح نحو من اربعين عاما • ومع ذلك فهو فتح ســريع لم يكتم مؤرخــو الافرنج تعجبهم منــه •

بحث الافرنج عن سر هذه السرعة العجيبة فوجدوها فيما كان عليه الوطن البربري من عموم الفوضى منذ اواخر العصر الروماني • وليس ذلك بصحيح • وقد قدمنا بحثنا في التعليل بالفوضى في الفصل

الرابع من الباب السابع • ولو كانت الفوضى تفيد الفاتح سرعة الفتح فلم لم تفد الروم البيزنطيين بمعشار عشر ما أفادت العرب ؟ وهل هذه الفوضى التي قربت للعرب فتح المغرب موجودة بصفتها لدى الفرس أيضا وغيرهم من أهل الشام ومصر والاندلس وبقية الاوطان التي سار فيها الفتح العربي سير الشمس غير انه ليس سريع الافول ؟

لسنا ننكر ان البربر كانوا في فوضى ، ولا نخصهم بها • ولكنا لا نراها صالحة لان تكون سببا لسرعة الفتح •أما السبب في نظري فهو ان العرب لم يحملهم على غزو الامم كسب ثروة ولا استعباد ضعيف • وانما كانوا يريدون نشر الاسلام بصدق واخلاص • فكانوا يعرضونه على محاربيهم اولا • فان أجابوا صاروا مساوين للعرب في جميع الحقوق • لا سيد ولا مسود ولا غالب ولا مغلوب • وان امتنعوا عرضوا عليهم الجزية • فان قبلوها حفظوا بها حقوقهم الذاتية وعقائدهم وعوائدهم تحت العدل الاسلامي • وهذا السبب أراه عاما في سرعة الفتح العربي لجميع الاوطان •

8 ــ البربــر والاســلام

علمت سابقا أنه كان بالمغرب ثلاث ديانات : الوثنية والموسوية والمسيحية ، وان المسيحية ذات مذاهب ثلاثة متباينة : الارثذوكس شــيعة الرومان والاريويين مــن الوندال ، والدونويين مــن بربر الجزائــر •

وان كان لاصحاب تلك الديانات والمذاهب شيء مــن التعاليم الموروثة والتقاليد الجامدة فقد قضت عليها الفوضى من جهة والسلطة البيزنطية مــن جهــة أخرى ، ولم تبــق هيئة دينية الا في كنائس الارثذوكس لما لها من السلطان والصلة بالبابا •

وقد أخذ الاسلام يظهر بالمغرب بين البربر لاول ما غزاهم العرب. فقد أسلم صولات بن وزمار أحد ملوكهم على يد الخليفة الثالث . وسرحه لقومه . ولا شك انـه قد عمل لنشـر الاسلام بينهم لما عاد اليهم .

وفي ولاية عقبة بن نافع الاولى التي وضع فيها أساس الفتح العربي كان الاسلام منتشرا جدا . قال ابن خلدون : « فدخل افريقية. وانضاف اليه مسلمة البربر . فكبر جمعه .. ودخل أكثر البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين . ورسخ الدين »[1] .

وفي ولاية ابي المهاجر اسلم كسيلة من ملوكهم . وكاد الاسلام يعم المغرب أجمع في ولاية عقبة الثانية لولا اساءته لكسيلة . تلك الاساءة التي انتجت قتله ووقف سير الفتح العربي .

ولما فتح حسان جبل أوراس أسلم أهله ، واتخذ منهم جيشا اسلاميا . ولما فتح موسى بن نصير طنجة عام (88) ولى عليها طارق بن زياد . وأنزل معه آلافا من العرب والبربر . وأمر العرب أن يعلموا اخوانهم البربر القرآن وفقه الدين .

واذا كان من البربر من قبل الاسلام عن علم واعتقاد راسخ فان جمهورهم انما قبلوه لما رأوا من قوة الجند العربي ، وأنه لا يسلم من سيوفهم الا من أسلم أو دفع الجزية . فاختاروا الاسلام لما فيه من عز . وأنفوا من الجزية لما فيها من صغار . ولذلك كانوا اذا جاءتهم جنود العرب أسلموا ، واذا رجعت عنهم ارتدوا . ويروى عن ابن أبي زيدانة قال : ارتد البربر اثنتي عشرة مرة .

ولما فتح الاندلس وثبتت قدم الامارة العربية بالمغرب وخالط البربر العرب ثبتوا على الدين . ثم لما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز

---

(1) ج3 ص10 .

اسماعيل بن عبيد الله واليا على المغرب ارسل معه عشرة من التابعين يعلمون البربر الدين ولغته • فعم الاسلام البربر • ولم يقف دون قلوبهم •

وقد اختارت بقايا الرومان والروم بالمغرب البقاء على المسيحية وقبول الجزية • فترك لهم العرب حريتهم الدينية • وقال غروت : « والباقون على المسيحية جبرهم عمر بن عبد العزيز سنة (719) على الاسلام أو الخروج من المغرب • فهاجر كثير منهم الى أروبا • ولكن أكثرهم أسلموا • ولم يبق بالمغرب مسيحي غير المعتصمين بشواهق الجبال • وهؤلاء بطول المدة أسلموا • وحسن اسلامهم » •

وظاهر ان المعتصمين بشواهق الجبال من البربر ، والمهاجرين الى أروبا من غيرهم • وما يظهر من كلام غروت من ان الاسلام عم جميع أهل المغرب على عهد عمر بن عبدالعزيز صحيح تؤيده أقوال مؤرخي العرب والافرنج • وما صرح به من نقض ذلك الخليفة لحكم الجزية غير صحيح : اذ لم يذكره احد من مؤرخي العرب • بل كلهم مجمعون على انه كان ذا عدل ووقوف عند احكام الشريعة الاسلامية • فلا يعقل أن يخالفها في حكم من أوضح أحكامها ، فلا يقبل الجزية من مسيحي • بل انه يقبلها ويحترم أهلها • وقد سمى العرب أهل الجزية ذميين ، نسبة الى الذمة التي هي عهد يستوجب مضيعه الذم • وهم معروفون قبل الاسلام وبعده بالمحافظة على العهود • والظاهر ان هجرة المسيحيين اذ ذاك انما كانت منهم اختيارا • رأوا انتشار الاسلام ورسوخه بهذا الوطن ، ففروا الى حيث يأمنون على ذريتهم سريان الاسلام اليهم •

كان البربر أولا يظنون ان هذا الدين آلة بيد العرب يخضعون به الامم لسلطانهم ، ويفرض طاعة العرب على من سواهم • فكانوا

اذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا ودينيا • وفي خلافة عمر بن عبد العزيز فقهوه حق الفقه ، وأدركوا أنه أداة سعادة للبشر عامة ، وليس من تلازم بين العرب والاسلام • فأذعنوا له اذعانا أورثوه أعقابهم الى الابد • وصاروا اذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا فقط •

ان ظهور الاسلام بالمغرب لاول غزو العرب له ، وانتشاره من بعد ، وتمكنه من قلوب البربر في أمد قليل — لشيء عجاب في تاريخ البربر • فقد رأيناهم قبل متساهلين في المعتقد لا يصعب عليهم الانتقال من وثنية لاخرى أو ديانة سماوية لغيرها • واليوم رأيناهم ثابتين على الاسلام ثبوتا لا يضعفه مرور المئات من الاعوام •

يسند بيروني سرعة اقبال البربر على الاسلام الى ثلاثة أسباب :

1 — تساهل البربر في المعتقد •
2 — بساطة العقيدة الاسلامية •
3 — انتشار الفوضى الى درجة لم تبق معها فكرة قارة تعارض فكرة الاسلام •

ولعل هذه الاسباب ترجع الى الاعتذار عن انهزام المسيحية أمام الاسلام • والسبب الاول حجة للاسلام حيث ان البربر المعروفين بالتساهل الديني ثبتوا على هذا الدين القرون العديدة ، رغم عواصف الجهل وزوابع الفتن الكاثولبكية والبروتستانية • والسبب الثاني صحيح في نفسه • ولكن لو كان عدم اقبال البربر على المسيحية لكونها معقدة العقيدة لكانوا يفهمونها بطول المدة • فقد عاشت بينهم قريبا من سبعة قرون لا مزاحم لها • والسبب الثالث اعتراف بضعف المسيحية بهذا الوطن ، وانها على طول أمدها لم توجد به فكرة قارة •

أما غروت فقد علل سرعة اسلام البربر بمايرجع الى ثلاثة أشياء :

1 — تساهل البربر في المعتقد • وقد علمت أنه لا ينتج ثباتهم على الاسلام •

2 — امتياز الاسلام على غيره باشياء عددها • وقد قارب في هذا •

3 — اشتماله على حقوق فيها منافع للبربر • وهذا انما يصلح ايضا بالنظر لاسلامهم أولا •

والسبب الوحيد عندي لاقبال البربر على الاسلام بسهولة قربهم من الفطرة وتعشقهم للحرية وحاجتهم الى الرقي الاجتماعي • والاسلام دين الفطرة دين الحرية الصادقة دين الرقي الشريف •

9 — الفتح العربي والحضارات القديمة

حضارة أي أمة بما فيها من عقائد وعوائد وأخلاق ومعارف انما تسري لامة أخرى وتثبت فيها على نسبة سريان لغتها بين أفراد تلك الامة الاخرى وثبوتها في أجيالها ، لا على نسبة سلطانها وقوتها الحربية ونفوذها السياسي • وفيما تقدم من حياة الحضارة القرطاجنية بلغتها الى الفتح العربي ، وذهاب حضارة الرومان بأثر ذهاب سلطانهم لعدم انتشار لغتهم — دليل كاف على صحة نظرنا هذا •

ولما جاء العرب الى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايرا لجنودهم • فما فتحت قطعة منه حربيا الا انتشرت بها لغتهم • وكان لذيوع حضارتهم بين البربر نفس السرعة التي كانت لفتوحهم • قال اغسال : « وقد انتشرت العربية بين البربر بسرعة » ولذلك قضوا أيضا بسرعة على حضارات الامم السابقة • وحلت حضارتهم من البربر مكانا لم يكن حل من قبل ولا يحل من بعد •

قال اغسال : « هذا القطر الذي تقاتل عليه الشرق والغرب ،

والذي ترك به كل طابعه ، والذي اختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية اللطينية ــ أصبح من هذا الحين (يعني الفتح العربي) كله شرقيا • وانقضى بذلك عصر الاتحاد اللطيني الذي كان حول البحر الابيض »[1] •

هذه الشهادة من اغسال الاختصاصي في التاريخ القديم ندفع بها في وجوه المتفيهقين المتطفلين عــلى التاريخ الزاعمين ان الجزائر وبقية افريقية الشمالية وطن غربي لا صلة له بالشرق أصلا • وهاك شهادة أخرى من هذا المؤرخ عن علم وبحث • قال أثــر ما تقدم : « البربر كانوا يثورون على العرب اما انفة من أداء الخراج واما طمعا في الاستقلال • وغرضهم اخراج العرب من وطنهم • وقد استطاعوا أن يؤسسوا دويلات أو دولا من طرابلس الى الاندلس • ومع ذلك لم يفكروا ولا يوما واحدا في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع الى اللغة اللطينية والدين المسيحي • فبقي مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية • وملوكهم شادوا قصورهم على الفن العربي • وصارت بعض القبائل البربرية تلفق انسابا تتصل بها من العرب • ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة وتذاكير للقوة الرومية » •

هكذا كان تأثير العرب على البربر بعيد الاثر حتى انتهى الى الانساب • ولذلك قال بيروني في وجوه تمييز العرب مــن البربر ــ وصدق فيما قال : « من انتسب الى البربر أو تكلم بلغتهم فلا شك أنه بربري • ومن انتسب الى العرب أو تكلم بلغتهم فلا يجزم بانه عربي » وهذا التأثير السريع العميق الخالد لا تجد له نظيرا في تاريخ البربر •

---

(1) الجزائر في القديم ص 143 .

قال بيروني : « احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم واخلاقهم • ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة ، ومتحدون في الاصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع » ومراده أن الفينيقيين أثـروا في البربر • وبقي تأثيرهم ذلك الى أن جاء أخوانهم العرب فلحقوه • وهذا غير صحيح على اطلاقه • فانا مـع اعترافنا بمحافظة البربر على ما أخذوه عـن قرطاجنة لا نعتقد أن البربر صاروا فينيقيين : ليست بينهم وبين العرب فوارق شديدة في مناحي حياتهم • فهم ــ وان أخذوا حظا وافرا من حياة البونيقيين ــ قد صبغوه بالصبغة البربرية ، وابتعدوا به عن أصله• وهذا ما لا ينكره بيروني ولا غيره • واذن فان الفينيقيين ليست لهم يد فيما كان للعرب من تأثير على البربر • اللهم الا ما كان من قبل اللغة فلا ننكره بل نقول كما قال اغسال : ان بقاء الفينيقية بألسنة البربر سهل عليهم تعلم العربية • ولا نكبر هذه المساعدة أيضا : فانه لا يعقل أن تبقى البونيقية بألسنة البربر تلك القرون من غير ابتعاد عن أصلها •

والوجه عندي أن العرب هم الذين كونوا أسباب هذا الانقلاب السريع الغريب من غير مساعدة خارجية • ذلك أنهم لم يأتوا الى هذا الوطن لغرض سياسي أو تجاري أو استعماري • وانما أتوا لنشر مبدأ فيه سعادة البشر في الحياتين • وأيدوا صدقهم في قصدهم بقسطهم • فأقبل البربر على ذلك المبدا وهـو الاسلام • ولم ينفروا أولا من العرب لعدلهم • ثم لما رأوا آثار الجور أخذت تبدو منهم قلبوا لهم ظهر المجن • وبقوا متمسكين بحضاراتهم وديانتهم • وهذا الوجه تجده أيضا في كل الاوطان التي كان للعرب بها سلطان •

وقبل أن نختم هذا الفصل ننبـه القارىء الى أن العـرب لم يهدموا في فتحهم المغرب غير صروح الخرافات ومعاقل الفوضى • أما

ما كان للفاتحين قبلهم من أعمال العمران فلم يخربوا منه شيئا • أما أعمال الرومان فقد قال عنها بيروني : « ولم يتحد البربر والوندال الا في تخريب افريقية والقضاء على عمرانها الذي لم يبق منه الا آثار تشهد بعظمته » وأما أعمال الوندال والروم فقد قال في شأنها أيضا : « وقد ذهبت أعمال الوندال والبيزنطيين من نفسها لعدم اتقانها • ولم يكن للعرب يد في هدمها » •

ولم نعلم مـن تخريب للعرب الا ما كان مـن تخريب حسان لقرطاجنة • ولكن لم يخربها على ساكنيها من صبية ونساء وشيوخ • وانما خربها بعدما خرج أهلها منها لئلا يعودوا للتحصن بها • ولكن أين هذا من تخريب الرومان لها ؟ وأين هـذا مما يفعله الاروبيون اليو م بالامم الضعيفة ؟ لم أدر كيف يغتر بعض الجزائريين بدعاية الملوثين لسمعة العرب بمثل هذه الاختلافات وهم يقرأون حقائق عن تخريب أولئك المعمرين ووحشية أولئك المحتكرين للمدنية ؟

10 ــ العرب والبربر بعد الفتح

أصبح العرب بعد الاسلام أعظم دول العـالم فتوحا • ولكنهم يمتازون عن الفاتحين سواهم ممن تقدم أو تأخر بأنهم لم يفتحوا وطنا لامتصاص خيراته ولا لسلب حرية أهله • بل كان غرضهم الوحيد نشر الاسلام الذي رأوا فيه سعادتهم • فاحبوا أن يعمموا نشره ما استطاعوا كي تعم السعادة • ولميزتهم هاته عن بقية الامم الفاتحة كان فتحهم ممتازا عن سائر الفتوحات •

لما فتح العرب المغرب اختلطوا بالبربر وامتزجوا بعضهم ببعض من غير اندماج • فتصاهروا وتساكنوا في المدن والضواحي • ولم يكن للعرب تفوق على البربر في جميع الحقوق ، الا ما كان من الولاية

العامة فانها كانت بأيدي العرب لخبرتهم بالشؤون الدولية • ولم تسند للبربر لعراقتهم في الفوضى وحدوث عهدهم بالنظام • ومع ذلك فان العرب قد أقروا بعض رؤساء البربر على رئاستهم •

ولقد ساس العرب البربر سياسة الاخاء والحرية والمساواة حقا • فتركوا لهم أراضيهم ولم يثقلوا كاهلهم بالضرائب • حتى ان مالية ولاية المغرب كانت غير كافية ، وتمدها ولاية مصر بمائة الف دينار كل عام • ولما بويع المنصور العباسي أرسل الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان متغلبا على المغرب ، يدعوه الى الطاعة • فلباه عبد الرحمن • وبعث اليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل • واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب اليوم بلاد اسلامية لا سبي فيها • ولعلك لم تنس ان ايطاليا كانت تأخذ من المغرب مؤونة ثمانية أشهر • فقابل بين السلطتين : الرومانية والعربية •

وقد أدرك البربر فضل السلطة العربية • فأخذوا يخدمون دولتهم باخلاص • ودخلوا الجندية لاول الفتح على عهد حسان • وكانت لهم اليد الطولى في فتح الاندلس على عهـد موسى بن نصير • وظلوا مغتبطين بالسياسة العربية الى أن أخذ الجور يبدو من بعض الولاة • فذكروا هواهم الدفين • وشرعوا يعملون لاستقلالهم بوطنهم وطرد النفوذ العربي منه مع المحافظة على ما أخذوه عن العرب من دين ولغة وحضارة •

في سنة (102) كان الوالي على المغرب يزيد بن أبي مسلم • فأراد أن يأخذ من البربر الجزية وهم مسلمون • فبادروا بقتله لشهر من ولايته • ونصبوا مكانه أحد الولاة السابقين • قيل محمد بن يزيد ، وقيل اسماعيل بن عبيد الله • وكتبوا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر • فقبل عذرهم وأقر الامير الذي نصبوه •

وفي سنة (114) ولي على المغرب عبيد الله بن الحبحاب • وتوسع في الفتوحات برا وبحرا • ونصب عماله في الجهات • فكان بعضهم يجور على البربر • فثار أهل المغرب الاقصى عاى عاملهم بطنجة • وقتلوه من غير أن يشتكوا به الى أميره • فرأى عبيد الله بن الحبحاب ان هذا ثورة على الدولة نفسها • فأرسل اليهم الجنود • وتقاتلوا بأحواز طنجة • ثم تحاجزوا • واجتمع البربر من بعد على رئيسهم خالد بن حميد الزناتي • فأرسل اليه ابن الحبحاب الجنود بقيادة خالد ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري • والتقى الجمعان على وادي شلف • فقتل خالد وجماعة من وجوه العرب • وانهزم الجيش العربي • وسميت الوقعة وقعة الاشراف •

بلغ الخبر الخليفة هشام بن عبد الملك • فاستضعف بن الحبحاب وعزله • وأرسل الى المغرب كلثوم بن عياض القشيري • فدخله في سبعين الف مقاتلا • وكان بتلمسان حبيب بن أبي عبيدة أبو خالد المقتول مواقفا للبربر • فلحق به كلثوم • وزحف الجميع لقتال البربر • فكانت الغلبة لهم أيضا • وقتل كلثوم وحبيب • وتفرق جيشهما أيادي سبا •

ولما بلغ خبر هذه الخيبة الى هشام وجه الى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي • فقاتل الثوار وانتصر عليهم • وسكن المغرب أيامه ، لكن سكونا موقتا •

وبينما البربر يعملون لاسترداد استقلالهم اذ بالعرب يختلفون ويتقاتلون فيما بينهم على مرأى ومسمع من البربر • وابتدأ دور هذه الرواية حبيب وكلثوم • فان كلثوم لما نزل القيروان أساء الى أهلها • فشكوه الى حبيب وهو بتلمسان • فكتب اليه حبيب ينهاه ويتوعده • فأصرها في نفسه • وذهب لقتال البربر مارا بتلمسان • فابتدأ بقتال

حبيب • فتقاتلا • ثم اصطلحا واتفقا جميعا على حرب الثوار من البربر • وبعد استشهاد حبيب فر ولده عبد الرحمن الى الاندلس

وفي سنة (126) عاد عبد الرحمن بن حبيب الى المغرب • ونزل بتونس • ودعا أهلها الى طاعته • فلبوه • وبلغ ذلك حنظلة • فتعفف عن اراقة الدماء • وتحرج من تفريق الكلمة • فأرسل طائفة من وجوه الجند الى عبد الرحمن يدعونه الى الطاعة • فأوثقهم في الحديد • وذهب بهم ليفتح القيروان • وأرسل الى أوليائهم يحذرهم قتاله ، ويهددهم بقتل من تحت يده ان هم حاربوه • فأشفقوا على أشرافهم وأمسكوا عن القتال • ولما رأى حنظلة عناد عبد الرحمن وعدم مبالاته بالوحدة العربية ترك له القيروان • وعاد الى المشرق سنة (127) •

ضبط عبد الرحمن المغرب • وقاتل ثوار البربر وانتصر عليهم • وزحف سنة (135) الى جموع من البربر بنواحي تلمسان • فظفر بهم • وغزا صقلية وسردانيا • وكتب الجزية على أهلهما • ولكن انقسام العرب ما زال يفتك بهم • فقد ثار عليه أخوه الياس بن حبيب • وقتله سنة (137) واستولى على المغرب مكانه • ونجا الى تونس ولد لعبد الرحمن اسمه حبيب • فثار على عمه • وقتله سنة (138) • وكان عبد الوارث بن حبيب مظاهرا لاخيه الياس • فلما قتله حبيب طلب عمه عبد الوارث هذا • ففر منه الى ورفجومة من افخاذ نفزاوة احدى بطون لواتة • واستجار بهم • فأجاروه • وذهب حبيب لقتالهم • فهزموه • واحتلوا القيروان • ثم قتلوه سنة (140) •

واستولى على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي • وسار في العرب سيرة العسف والظلم • فافترقوا في النواحي • وشاع خبرهم في الآفاق • وكان بنواحي طرابلس ابو الخطاب عبد الاعلى ابن السمح من وجوه العرب • فقام على وفجومة منكرا لعسفها •

وانتصر عليها • وملك القيروان • واصبح المغرب خارجا عن قبضة الخليفة بالمشرق •

وفي سنة (144) وجه المنصور العباسي محمد بن الاشعث الخزاعي واليا على المغرب • فقاتل ابا الخطاب • وقتله • وملك القيروان • ولكن ثورات البربر لم تنقطع • وأشدها ما كانت أيام عمر بن حفص من آل أبي صفرة • فقد ذهب هذا الوالي لادارة سور بطبنة قاعدة الزاب • فحاصره البربر بهـا في جموع لا تحصى • وكـان مـن رؤسائهم أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا ، والمسور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف ، ولم يتخلص عمر بن حفص من هذا الحصار الا بالدهاء • فاستمال بعض الرؤساء بالمال • وأعمل الحيلة في تفريق كلمتهم • فانجلوا عنه • وذهب الى القيروان • فحاصره البربر بها أيضا • وقتل في مدافعتهم •

توصل البربر بثوراتهم المتكررة الى اضعاف السلطة العربية • وأعانهم على ذلك ــ من غير قصد ــ آل عقبة بن نافع • واستقل البربر بجهات من المغرب • ولم يبق للعرب منه الا ما يقرب مـن نصـفه •

١١ ــ ولاة المغـرب مـن قبـل الخلفـاء

فتح العرب المغرب ثم الاندلس • فكان ما فتح مـن المغرب كله ولاية واحدة ، والاندلس تابعة لها • وقاعدة المغرب هي القيروان • ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء ، ويولون العمال في النواحي ، ينزلون مدنا معتبرة هي القواعد لتلك النواحي •

وكانت طبنة هي قاعدة الزاب من الوطن الجزائري • وهي مدينة قديمة من العصر الروماني • ذكر البكري : ان لها خمسة ابواب •

قال : « وخارج المدينة بازاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح ، يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة • بناه عمر بن حفص • ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب •• وليس من القيروان الى سلجماسة مدينة أكبر منها »[1] وقد ذهب عمرانها من بعد • واصبحت ليس لها من قيمة ولا أهمية غير أهميتها التاريخية • وكان لها في أوائل العصر الاسلامي شأن عظيم • وتدرس بها العلوم شأن المدن الكبرى • وكان منها علماء أجلة •

كان المغرب والاندلس ولاية واحدة الى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموي الى الاندلس سنة (138) واستولى عليها • وجدد بها ملك بني أمية • وأورثها عقبة من بعده • وكانت تلك الدولة غرة في جبين تاريخ العرب • وفي سنة (140) تأسست سجلماسة • وكانت بها دولة بني مدرار • وفي سنة (144) تأسست تيهرت • وكانت بها دولة الرستميين • وفي سنة (172) دخل ادريس الاكبر المغرب الاقصى • وأسس بها دولة الادارسة •

كانت هذه الدول جمعاء مستقلة عن ولاة المغرب وغير مرتبطة بدار الخلافة بالمشرق • فانحصرت ولاية المغرب بعد في الجهات الشرقية للجزائر وفي عمالة تونس وبعض تراب طرابلس • تداول عليها ولاة من طرف الخلفاء • وكانت ولايتهم غير وراثية الى أن تولى ابراهيم ابن الاغلب سنة (184) • فأصبحت ولاية وراثية مستقلة استقلالا داخليا •

وهاك أسماء ولاة المغرب من لدن بداية الغزو الى حين استقلال بني الاغلب :

---

(1) المغرب ص 51 •

الامـــير	تاريخ الولاية الهجري الميلادي	الخليفـــة	التعليق
عبد الله بن سعد	27	647 عثـــمان	
معاوية بن حديج	45	665 معـــاوية	1
عقبة بن نافـع	50	669 معـــاوية	2
أبو المهاجر	55	675 معـــاوية	
عقبة ثانيـا	62	681 يزيد بن معـاوية	
زهير بن قيس	67	688 عبد الملـك	
حســـان	68	697 عبد الملـك	3
موسى بن نصير	87	705 الوليد بن عبد الملك	4
محمد بن يزيـد	97	715 سليمان بن عبد الملك	
اســـماعيل	100	718 عمر بن عبد العزيز	
يزيد ابن أبي مسلم	102	720 يزيد بن عبد الملك	
بشر بن صفـوان	103	721 يزيد بن عبد الملك	
عبيدة السـلمي	110	728 هشام بن عبد الملك	5
ابن الحبحاب	114	734 هشام بن عبد الملك	

(1) ذكر الزياني : ان معاوية بن حديج غزا افريقية ثلاث مرات : احداهن سنة 34 وثانيتهن سنة 35 والثالثة ما في الاصل• وحكى صاحب المؤنس ذلك أيضا مع اختلاف بينهما في تاريخ الغزو (2) ذكر الزياني : بين معاوية وعقبة والبين ، رويفع بن ثابت الانصاري ، وليها سنة 47 وفي المؤنس : انه لم يكن واليا وانما كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس ومنها غزا افريقية سنة 47 ، وعقبة بن عامر الجهني ، ولي افريقية سنة 49 وذكر ان عقبة بن نافع وليها سنة 51 وقد جاء في ابن خلدون (10:3) ذكر عقبة بن عامر، ثم أعاده (135:3) بلفظ عقبة بن نافع، وحديثه عنهما متحد (3) أخذنا التاريخ الميلادي لهؤلاء الولاة من تاريخ مرسيي• والسنة التي ذكرها لولاية حسان لاتوافق حتى سنة 74 هجرية• وهي التي عاد فيها حسان لحرب الكاهنة لا انه ولي فيها • على ان ما أثبتناه من تواريخ الولايات ليس كله متفقا عليه ، وانما اقتصرنا على بعض الروايات (4) فتح الاندلس • وكان غرضه ان يعود الى المشرق من أروبا ويدخل الشام من ناحيةالقسطنطينية • فلم يأذن له الخليفة لصعوبة ذلك على الجند (5) ذكر مرسيي بينه وبين ابن الحبحاب عقبة بن قدامة سنة 732 وفي المؤنس : ان عبيدة بن عبد الرحمن استخلفه لما قفل الى المشرق • فليس بوال •

الامـــير	تاريخ الولاية الهجري	تاريخ الولاية الميلادي	الخليفـــة	التعليق
كلثوم بن عياض	123	741	هشـــام	
حنظـلة بن صفوان	124	742	هشـــام	
عبد الرحمن بن حبيب	127	744		1
اليـاس بـن حبيب	137	755		
حبيب بن عبد الرحمن	138	756		
عبد الملك بن ابي الجعد	140			
أبو الخطـــاب	141			
محمد بن الاشـعث	144	761	المنصـــور	
الاغلب بن ســالم	148	765	المنصـــور	2
عمر بـن حفص	151	768	المنصـــور	3
يزيد بن حاتـم	155	772	المنصـــور	
داوود بن يزيـد	171	787		
روح بن حاتـم	171	788	هرون الرشـــيد	
النصر بن حبيب	174	791	هرون الرشـــيد	
الفضل بن روح	177	793	هرون الرشـــيد	
هرثمة بن اعـين	179	795	هرون الرشـــيد	
محمد بن مقاتـل	181	797	هرون الرشـــيد	
ابراهيم بن الاغلب	184	800	هرون الرشـــيد	4

(1) هذا الوالي أول متغلب على المغرب وفي أيامه سنة 132 سقط ملك بني أمية بالمشرق ، واجتاز عبد الرحمن منهم بالقيروان ذاهبا الى الاندلس حيث أسس دولةعربية مستقلة. وبقيت ولايةالمغرب بيدالمتغلبين الى أن جاء محمد بن الاشعث فاعادها الى نظر الخليفة الشرقي من بني العباس بن عبدالمطلب (2) كان بطبنة عاملا على الزاب لمحمد بن الاشعث. وهو ابو ابراهيم مؤسس الدولة الاغلبية (3) هو من ولد قبيصة اخي المهلب ابن أبي صفرة . أسرتهم شهيرة بالجود والشجاعة . ولي المغرب منهم ستة أحدهم داوود لم يكن واليا من قبل الخليفة . وانما ولي بعد أبيه الى أن جاء عمه روح (4) بولايته أصبح المغرب مستقلا عن دار الخلافة تحت دويلات لا صلة لها بالخلافة غير دولته فانها تحت الخلافة العباسية اسما فقط .

تم الجزء الاول والحمد لله أولا وآخرا

الباب الثاني

في الدولة الرستمية

ا ـ تمهيـــد

كان المسلمون على غاية من الاتحاد واجتماع الكلمة • يتلون من كتاب الله ويروون من أحاديث رسوله ما يقوي ميلهم الى الاتفاق ونفورهم من دواعي الشقاق • فلقد بويع أبو بكر (ض) بالخلافة • ولم يرض بيعته كثير من الصحابة • ولكنهم آثروا اجتماع الكلمة وحافظوا على الجامعة الاسلامية • فلم يعترضوا بيعته بالفعل وسلموا لحكم الجمهور •

وعهد ابو بكر (ض) بالخلافة لعمر (ض) فنفذوا كذلك عهده • ثم بويع عثمان (ض) واتسعت على عهده الفتوحات • ففنيت الطبقة الاولى من المسلمين استشهادا وتشتتا في الاوطان • وخلفتها طبقة من اغمار العرب ومسلمة الفتح • وكان فيهم من تدثر بالاسلام فرارا من ذل الجزية وطلبا للانتقام من أهله بالدسائس وكان من أمر هـذه الطبقة ان تداخل جمهور منها في سياسة هذا الخليفة وأسسوا جمعيات بمصر والكوفة والبصره لبث دعاية ضده • وانتهى الامر الى حصاره ثم قتله رضي الله عنه وغضب عن قتلته •

نتج عن هذا الحادث الجليل خطوب جسام لـم تزل أدواؤها تفتك بالجامعة الاسلامية الى اليوم • فمن هذا الحادث حييت في العرب العصبية القومية وحلت محل العصبية الدينية ، وظهرت مذاهب الخوارج والشيعة ، وانقضى نظام الخلافة وحل محلها نظام الحكومات

الوراثية • وعلى هذا النظام تأسست دولة بني أمية ثم بني العباس وهلم جرا •

تأسست دولة بني أمية وكانت خطتها توسيع نطاق الممالك العربية من جهة والمحافظة على الجامعة الاسلامية من جهة أخرى • فغزت وفتحت وحاربت الثوار السياسيين والدينيين ولم تزل على ذلك حتى قضى عليها بنو العباس •

فتح بنو أمية فيما فتحوا المغرب ووحدوه دينيا وسياسيا • ولكن كان بعيدا عن الشام مركز حكومتهم وأهله البربر ألفوا حياة الانقسام والفوضى منذ قرون • ولم يخف عليهم تطاحن العرب بالمشرق • وبلغهم ما به من مذاهب دينية وأحزاب سياسية • فقاموا على السلطة العربية • وسعوا في تمزيق تلك الوحدة وزادهم اقداما ما كان من تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب واستبدادهم به وتواثبهم على امارته • وشغلت عنهم الدولة الاموية • فقضوا على ذلك التوحيد جنينا • وعمت الفوضى وطن البربر من مبتداه الى منتهاه • ولم يبق للعرب به أمر ولا نهي •

ولما تم لبني العباس تأسيس دولتهم بالمشرق التفتوا الى المغرب• فجهزوا له الجيوش • وكانت حروب أسفرت عن استرجاع قسم من المغرب للدولة العباسية واستقلال قسم منه تحت رؤساء متعددين من الخوارج •

2 ــ الخوارج

(2)

بعد مقتل عثمان (ض) كان الناس فرقا • فرقة وقفت موقف الحياد • وفرقة لم ترض خلافة علي (ض) وأخذت تطالب بدم عثمان ، وفرقة بايعت عليا بعضها يرى أنه أحق بالخلافة • وأكثرها من الثوار على عثمان لم يريدوا من مبايعتهم لعلي الا الاحتماء به من العثمانيين

اذ كانوا يظنون انه يرضى عن صنيعهم ويقرب منزلتهم • ولكنهم تبينوا من بعد انه غير راض عنهم وسمعوا منه مرارا التصريح بلعن قتلة عثمان • فاوجسوا خيفة من اصطلاحه مع العثمانيين فكانوا هم السبب في وقعة الجمل سنة 36 ثم كانوا هم الحاملين لعلي على قبول التحكيم الذي دعا اليه معاوية سنة 37 وبعد امضائه على عهد التحكيم طلب اليه فريق من العراقيين نقض العهد واشهار الحرب فلم يستطع مجاراتهم في هذا التلاعب • فانعزلوا عنه • وأعلنوا بالخروج عن طاعته • وغادروا الكوفة الى النهروان • فارسل اليهم عبد الله ابن العباس ليستصلحهم بالحجة والمفاهمة • ثم لحق هو نفسه • ونتج عن هذه السياسة الحكيمة ان عاد فريق منهم الى الطاعة وأصر آخرون على الخلاف • فأعرض عنهم • حتى بلغه انهم قتلوا صحابيا وزوجه • فارسل اليهم بالكف عن الفساد • فقتلوا الرسول • وهنالك توجه اليهم بجيوشه وخاطبهم خطابا بين لهم فيه صوابه وخطأهم • فلم ينفعهم خطابه • وكانت الحرب • فأتى القتل على أهل النهروان • ولم ينج منهم الا قليل تفرقوا في الجهات •

هؤلاء هم المسمون بالخوارج لخروجهم عن الامام علي • واصل معنى الخوارج الطوائف الخارجة عن طاعة امامها • وخصه المتكلمون والمؤرخون بالخارجين عن علي ومن والاهم ورضي سيرتهم • فصار علما لاصحاب فكرة خاصة • وليس مرادا به مدح او قدح اذ لا يعقل ذم طائفة ــ ايا كانت ــ لعملها بمبدأ استصوبته • وانما ينظر في مبدأها وما فيه من مقبول أو مردود •

كان شعار الخوارج في الثورة على علي « لا حكم الا لله » وهو شعار لا خلاف في مدلوله الحقيقي بين المسلمين • وأصله قوله تعالى « ان الحكم الا لله » • وانما انفرد الخوارج بهذا الشعار لكونهم

انه حكم الرجال بدين الله • وعلي أجل من ان تعلق بـه هـذه الوصمة • وهم يلقبون أنفسهم الشراة جمع شار بمعنى بائع • يريدون انهم باعوا أنفسهم في سبيل الله أخذا من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » •

لم تمت فكرة الخوارج بالنهروان شـان الافكار لا تبلى بلاء الاجسام ولا يقضي عليها سنان ولا حسام • بل ظهرت من بعد • وكانت لاهلها مع خصومهم حروب شهيرة ومعارك مذكورة مـع الامويين والعباسيين •

وكان الخوارج على رأي واحد لا يختلفون الا في اليسير من الفروع حتى جاء أحد موالي بني هاشم الى نافع بن الازرق فقال له : ان من خالفنا مشركون وأطفالهم في النار وقتلهم جائز ، بدليل قوله تعالى : « ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » فأخذ نافع بقوله • وجعل يبدي آراء في تكفير المسلمين مشطة • فانكر عليه نجدة بن عامر في طائفة معه • وكانوا بالاهواز • فارتحل نجدة باتباعه الى اليمامة • ووقعت بينه وبين نافع مراسلات ومناظرات لم تزد عود الخلاف الا صلابة • وكان بالبصرة أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله ابن اباض (بفتح الهمزة وكسرها) المري في جمع من الخوارج • فكاتبهم نافع يدعوهم الى قتال المخالفين • فقال هيصم لابن اباض : « ان نافعا غلا فكفر » • وانك قصرت فكفرت اذ زعمت ان من خالفنا غير مشرك وانما هم كفار النعم • وان مناكحهم ومواريثهم والاقامة فيهم حل طلق • قال المبرد في كامله : « والصفرية والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن اباض » •

ومن تلـك المقالات افترق الخوارج الى مذاهب اشـهرها : الازارقة أصحاب نافع بن الازرق • يقولون بالبراءة والاستعراض

وقتل الاطفال واستحلال الامانة • والنجدية أصحاب نجدة بن عامر المنكر على نافع تلك الآراء • والصفرية قال المبرد : « قال قوم سموا صفرية لانهم أصحاب ابن صفار • وقال قوم انما سموا بصفرة علتهم » • والاباضية أصحاب عبد الله بن اباض • قال ابن خلدون : « والصفرية موافقون للاباضية الا في القعدة فان الاباضية أشد على القعدة منهم » وهم وان اختلفوا في معاملة من خالفهم ــ متفقون على ان أعداءهم كاعداء رسول الله (ص) ! قال المبرد : وقول ابن اباض أقرب الاقاويل الى السنة من أقاويل الضلال ، يريد الخوارج •

هذا ما أردنا أن نقتصر عليه من حديث الخوارج الطويل العريض • وغرضنا أن يتصور القارىء بوجه اجمالي نشأتهم وقوتهم وأصولا من آرائهم • وقد شهد الكتاب للاباضية بانهم أعدل الخوارج •

3 ــ الخوارج بالمغرب

في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب ظهرت أول فتنة بالمغرب • فاجتمعت جموعهم برئاسة ميسرة المطغري • وقصدوا طنجة ففتحوها وقتلوا عاملها • وذلك سنة 122 وبايعوا ميسرة بالخلافة • ثم قتل البربر خليفتهم ميسرة • وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي • وتوالت عدة وقائع بين الخوارج وولاة القيروان • انتصر في جميعها البربر • فازدادوا على الولاة جراءة • وازدادت الخارجية انتشارا •

ظهرت الخارجية أولا حوالي طنجة البعيدة عن القيروان في حال غيبة الجيش العربي بصقلية تحت رئاسة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع • وأخذت تنتشر في القبائل حتى بلغت طرابلس • وأصبح

المغرب أجمع بيد أهله البربر الذين لم يتمرنوا بعد على النظام • فاضطربت الاحوال •

عرف البربر من مذاهب الخارجية الصفرية والاباضية • وكانت الاولى منتشرة في الجهات الغربية والثانية غالبة على النواحي الشرقية • وكان أظهر القبائل في الاخذ بالخارجية والدفاع عنها زناته وهواره في قبائل دونها كثرة وغناء • وكان موطن الخارجية الصحراء والهضاب • وابتعدت كلما شرقت عن السواحل الجزائرية • فلم تدخل موطن كتامة ودخلت أطراف صنهاجة ولم تطل فيهم •

ولما تغلب آل عقبة على المغرب ووليه منهم حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة ازداد حبل الامن بالمغرب اضطرابا • فان عبد الوارث بن حبيب ثار على ابن أخيه ولحق بورفجومة • ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس • وكان كاهنا • فأجاره واجتمعت اليه نفزاوة • وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا على رأي الاباضية • وخرج حبيب من القيروان لقتالهم • فهزموه الى قابس • واستولوا على القيروان واستهانوا مساجدها • ثم أخرجوا حبيبا عن قابس فلحق باوراس • وأجاره أهله • وجاء عاصم لقتالهم • فهزموه • ثم قام بأمر ورفجومة والقيروان من بعد عاصم عبد الملك بن أبي الجعد • فقاتل حبيبا حتى قتله • واستولى على القيروان سنة 140 وقتل من بها من العرب وربط الدواب بالمسجد •

وكان ابو الخطاب بن السمح الاباضي بطرابلس بين بربرها من هوارة وزناتة • فبلغته مناكر ورفجومة • فقام منكرا عليها • وقصد القيروان بجموعه • فقاتل ورفجومة ونفزاوة • وقتل عبد الملك • ثم بلغه ان المنصور العباسي جهز جيشا لحرب خوارج المغرب • فعاد الى طرابلس لقطع مدد الخليفة عن افريقية • وترك بالقيروان عبد

الرحمن ابن رستم • ولكن لم تزل افريقية في اضطراب حتى قدم محمد ابن الاشعث الخزاعي سنة 144 •

ثم انتقضت مغيلة ويفرن بنواحي تلمسان • وقدموا على أنفسهم أباقرة اليفريني وقيل المغيلي • وبايعوه بالخلافة سنة 148 وزحف اليه عامل طبنة الاغلب بن سالم • ففر امامه ، ثم زحف الخوارج اباضية وصفرية لحصار عمر بن حفص الملقب هزارمرد بطبنة • وفيهم ابو قرة في أربعين الفا من الصفرية • وعبد الرحمن بن رستم قال ابن خلدون في موضع : في خمسة عشر الفا ، وفي آخر ستة آلاف • والمسمور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية • وجرير بن مسعود المديوني في جمع من قومه • وعبد الملك الصنهاجي في الفين من الصفرية • ولم يكن لعمر قبل بهذه الجموع • فبذل لاصحاب أبي قرة مالا فانصرفوا • واضطر ابو قرة للحاق بهم • ونجا عمر بدهائه من هذا الحصار •

وفي أيام عمر بطبنة وغيبته عن القيروان قدم ابو حاتم يعقوب بن حبيب المغيلي لحصار القيروان • وقد بايعته اباضية طرابلس بالخلافة فخرج عمر من حصار الى حصار • وأنجده المنصور بيزيد بن حاتم المهلبي • ولكن قتل قبل وصول يزيد آخر سنة 154 • وتوجه ابو حاتم للقاء يزيد بطرابلس • فقتل هنالك يوم 27 ربيع الاول سنة 155 (7 مارس 772 م) •

وفي سنة 57 ثارت ورفجومة • فحاربها يزيد بن حاتم • وانتصر عليها • ثم في سنة 161 ثارت نفزاوة وهي اباضية • وأميرها صالح ابن نصير • فسرح اليهم داود بن يزيد عشرة آلاف من جنده • فهزموهم •

هذا وحروب الخوارج بالمغرب كثيرة • وذكروا انها بلغت منذ حصار طبنة خمسا وسبعين وثلاثمائة حرب • وذلك يوضح قوة

الخارجية بالمغرب وسعة انتشارها وعدم استسلامها وصعوبة قيادها •

وليس منشأ تلك الحروب اختلاف العقيدة بل منشؤها ما كان عليه البربر من خلق الفوضى وكراهية السلطة المحلية كيفما كان عدلها فليست حروبهم دينية بل ولا سياسية • اما كونها غير سياسية فان البربر لم ينظموا صفوفهم ويوحدوا جهودهم ضد السلطة العربية ليكونوا دولة بربرية • فهم يحاربون العرب من جهة ويحارب بعضهم بعضا من جهة أخرى • وغايتهم الرجوع لما ألفوه من الفوضى •

واما كونها غير دينية فذلك ان التاريخ الاسلامي لم يحو بين دفتيه ان المسلمين رفعوا سيوفهم لالزام مخالفيهم بعقيدتهم اذ العقيدة سبيلها البرهان • وايضا فقد كانت الدولة الاباضية بتيهرت تجمع طوائف مختلفي العقيدة من صفرية وسنية ومعتزلة • ولم تجبرهم الحكومة على عقيدتها • وايضا الخارجية الممتدة في المغرب بكل سرعة لا يعقل ان البربر تمسكوا بها في تلك الحصة من الزمان عن فهم لمبادئها وادراك لاصولها وايمان بصحتها وفساد غيرها • وانما الذي فهموه منها وعقلوه عنها هو الثورة على السلطة المحلية لا لكونها عربية او غير عربية • هذا الذي أدركوه سريعا وهو ما كانوا عليه قديما • فقد نصروا قبل مذهب دونتوس المسيحي لكونه ثائرا على حكومة الرومان • يوضح لك كون البربر لم يكونوا خوارج عن علم كخوارج العرب ما أتته ورفجومة من العبث بمسجد القيروان وسكانها حتى غير منكرهم ابو الخطاب الخارجي العربي • وذكر اليعقوبي في كتاب البلدان برقة وأهلها الذين منهم مزاته • فقال : « ومزاتة كلها أباضية على انهم لا يفقهون ولا لهم دين » هذا في القرن الثالث عصر اليعقوبي • ولكون الخارجية البربرية عبارة عن ثورة فوضوية فارق أكثر البربر الخارجية في كل جهة استتب بها النظام وثبتت بها قدم دولة غير خارجية • فقد انقطعت الخارجية أو كادت

من المملكة الاغلبية شرقا والادريسية غربا • وبقيت بالمملكة الرستمية الاباضية حتى قضى عليها الشيعة • نعم بقيت الخارجية في الجهات الجنوبية كورقلة ومزاب متحصنة بعطش الصحراء وسمائها بعيدة عن نفوذ أغلب الدول الشمالية فحافظت على عقائدها وعوائدها غير متأثرة بالانقلابات السياسية •

4 ــ الامــارات الاباضيــة

خمدت الصفرية بالجزائر ، فلم يكن لها شأن يذكر بعد حصار طبنة • وبقيت الاباضية في أفخاذ وبطون من قبائل لماية ولواتة وزجالة ونفزاوة وهوارة ومزاتة وزواغة ومطماطة ومكناسة ويفرن ومغراوة وبني سنجاس وبني برزال وبني دمر •

ولم يتحد الاباضيون من هذه القبائل تحت امرة واحدة • بل كان منهم الخاضعون للاغالبة أو للادارسة واخوانهم بني سليمان ، ومنهم المستقلون تحت امارات متعددة • واشتهر من اماراتهم امارة بني رستم بتاهرت • وافادنا اليعقوبي من أهل القرن الثالث بثلاث امارات سواها وهي :

1 ــ امارة بني دمــر

هم قوم من زناتة في بلاد واسعة ذات زرع ومواش • موقعها على مرحلة غربي هاز • ويليها في الشمال الغربي سوق كرام • قال اليعقوبي في كتاب البلدان : « ورئيسهم يقال له مصادف بن جرتيل • بين حصنه وبلد متيجة مسير ثلاثة أيام مما يلي البحر » •

وذكر البكري في الطريق من تاهرت الى المسيلة حصن تامغيلت• فقال : « هو على مرحلتين من تاهرت • مبني بالطوب على نهر • له ربض وسوق • يسكنه بنو دمر من زناتة • الى ايزمامة ، حصن له سوق • وفيه فنادق تسكنه لواتة ونفزاوة • الى مدينة هاز » •

وسوق كرام منهم مـن يحذف ميمها أو يبدلها نونـا • قال البكري : « وهي على نهر شلف » وموقعها على مرحلة شرقي مليانة • ومنها الى اشير ثلاث مراحل •• ولها سـوق يوم الجمعة يقصـده بشر كثير •

قال اليعقوبي : « وليس أهله بشراة • ولكنهم جماعية •• بلدهم بلد زرع » • أهو يظهر ان هذه الامارة بنواحي قصر البخاري •

2 — امـارة هـوارة

قال اليعقوبي : « ومن تيهرت وما يحوزه عمل ابن افلح الرستمي الى مملكة رجل من هوارة • يقال له ابن مسالة الاباضي الا أنـه مخالف لابن افلح يحاربه • ومدينته التي يسكنها يقال لها الجبل • الى مدينة يلل ، تقرب من البحر المالح ، مسيرة نصف يوم • ولهـا مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار • ثم من مملكة ابن مسالة الى مملكة لبني محمد بن سليمان » •

وذكر البكري قلعة هوارة فقال : « وبغربي مستغانم على نحو ثلاثة أميال مدينة تامزغران • وهي مسورة لها مسجد جامع • وعلى مقربة منها قلعة هوارة • ويسمونها تاسقدالت • وهي في جبل • لها ثمار ومزارع • وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات • وهو النهر الذي يسقي به فحص سيرات » •

وفحص سيرات هو سـهل سيق • ولا يصح ان تكون هـذه القلعة هي مدينة الجبل لانها غربي يلل • ومدينة الجبل شرقيها • فتكون قريبة من غليزان • نعم تكون قلعة هوارة من جملة هـذه الامارة •

والظاهر ان الجبل هي قلعة مغيلة دلول • فان البكري لما ذكر الغزة — وهـي غليزان — قال : « وبقربها على البحر قلعـة مغيلة

دلول • وهي في أعلى جبل منيف هناك شديدة الحصانة • بينها وبين البحر خمسة فراسخ • وبها عين ماء تسمى عين كردي • وبين قلعة دلول هذه ومدينة مستغانم مسيرة يومين » •

ومن هذا يظهر ان هذه الامارة واقعة جنوب اسافل شلف حوالي نهر مينة بين سهلي منداس شرقا وسيق غربا •

3 — امارة بني مسرة

مدينتها تدعى أوزكي على ثلاث مراحل من تيهرت في الجنوب الغربي • ومنها الى سجلماسة نحو سبع مراحل • قال اليعقوبي : « والغالب عليها فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة • رئيسهم عبد الرحمن بن أودموت بن سنان • وصار البلد بعده لولده • فانتقل ابن له يقال له زيد الى موضع يقال له ثاربينة • فولده به » •

والظاهر ان هذه الامارة كانت ناحية سعيدة • هذا ما علمنا من حديث الامارات الاباضية وغالب الظن ان هناك امارات أخرى جهلناها• فان البربر يومئذ انما يألفون سيادة العشيرة • ويأنفون من الخضوع لرئيس من قبيلة أخرى • ولم تقم بالمغرب الاوسط دولة قوية تحملهم على الانضواء تحت لواء حكومة مركزية • نعم كانت الدولة الرستمية تحاول ذلك ولكن لم تستطع تحقيق هذا الحلم •

5 — تأسيس الدولة الرستمية

استولى ابو الخطاب على القيروان • فعزم ابو جعفر المنصور على افتكاكها منه • فولى محمد بن الاشعث مصر والمغرب وأمره بحرب البربر • فجهز ابن الاشعث جيشا بقيادة ابي الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلي • وبلغ أبا الخطاب • قدوم ابي الاحوص الى افريقية • فترك بالقيروان عبد الرحمن بن رستم واليا وذهب هو

الى طرابلس كي يعترض جيش ابي الاحوص وذلك سنة 41 ولما نشبت الحرب انهزم ابو الاحوص سنة 42 فخرج ابن الاشعث نفسه من مصر يقود الجيوش • وبلـغ خبره ابا الخطاب • فارسل الى ابن رستم بتجهيز الجيوش • واللحاق به • ولكن ابن الاشعث بلغ طرابلس قبل مدد عبد الرحمن • فدارت الحرب واشتد القتال وانجلى عن قتل ابي الخطاب في صفر سنة 44 •

ولما كان عبد الرحمن بقابس بلغته وفاة ابي الخطاب • ففت ذلك في عضد جيشه • وتفرق عنه • وثارت قابس بعاملها ، فكر عبـد الرحمن الى القيروان في فالفاها ثائرة عليه أيضا ، فاحتمل أهله وولده وتوجه الى المغرب الاوسط ، ونزل على لماية من قبائله ، وكانت قبائل غيرها أباضية أيضا ، ولكنه اطمأن الى لماية لقديم حلف بينه وبينهم ، فان النزعة المذهبية وحدها لا تكفي ، وقد شاهد قبـل عدم ثبات الاباضيين معـه •

نزل عبد الرحمن جبل سوفجج • ولا نعرف جبلا بهذا الاسم • ولكن لا بد ان يكون بنواحي تيهرت حيث لماية ، وذاع خبر نزوله بهذا الجبل فقصده ابن الاشعث في جيش عظيم ، ونزل بسفحه وخندق على معسكره ، وحاصر الجبل زمنا فامتنع عليـه ، ولما طال مقامه استشار اركان حربه ، فبعضهم اشار بالمقام حتى يفتح الجبل وبعضهم اشار بالاقلاع والعود الى القيروان ، فاقلع عن الحصار لما رأى من مناعة الجبل واختلاف كلمة أصحابه •

وبقي عبد الرحمن في الجبل وقصده الاباضية هناك من كـل مكان حتى جبل نفوسة بطرابلس ، ولما كثر جمعه خرج من حصـن الجبال الى حصن الرجال ، وفكر هو واصحابه في تأسيس مدينـة تكون رمزا لاستقلالهم وحصنا يمتنعون به على من ناواهم ، فأنشأوا

مدينة تيهرت سنة 144 وبذلك تأسست الدولة الرستمية وحافظت على استقلالها زمنا طويلا ، ولـم يكن اباضيتها كغالب الخوارج همهم الثورة بل كانوا كخوارج العرب همهم تنظيم دولة على مباديهم •

ومن ههنا يظهر ان تأسيس الدولة الرستمية بعد جواز عبد الرحمن ابن معاوية الى الاندلس ، وقال المقري في نفح الطيب عن ابن عبد الحكم ان عبد الرحمن الداخل لما فر من بني العباس ودخل المغرب الاوسط استجار بني رستم ملوك تيهرت وتقلب في قبائل البربر حتى استقر بساحل البحر عند قوم من زناتة ، وهي رواية مشكلة لان عبد الرحمن دخل الاندلس سنة 38 قبل تأسيس تيهرت بست سنوات ، الا أن يكون لعبد الرحمن بن رستم نفوذ ديني في بعض قبائل المغرب الاوسط ، فقد ذكر ابن خلدون وغيره ان حلفه مع لماية قديم ، فاستجار به عبد الرحمن الداخل لذلك ، وعلى ان يكون ابن عبدالحكيم تجوز في قوله ملوك تاهرت يريد الذين صاروا ملوكها من بعد • ويرشح صحة رواية ابن عبد الحكم على ذلك التجوز انه كان بين رستمي تيهرت واموي الاندلس علاقات حسنة •

هكذا تأسست دولة الرستميين اسلامية في قضائها عربية في معارفها بربرية في عصبيتها فارسية في ادارتها • وما جمع بين هـذه الاجناس غير الرابطة الدينية • فلتحي الرابطة الاسلامية !

6 ـ المملكـة الرسـتمية

المملكة الرستمية واقعة بين مملكة الاغالبة شـرقا والادارسة غربا ، وتمتد شمالها ممالك صغيرة للعلويين من اخوان الادارسة ، وينفسح لها المجال جنوبا الى ورقلة ، ويمتد منها شريط على وادي ريغ الى الجريد وجبال دمر الى طرابلس وجبال نفوسة •

وقد عنيت بالبحث عن تعيين حدود هذه المملكة بالجزائر فلم أظفر برواية شافية ، وقد ذكر ابن الصغير في كتابه اخبار الايمة الرستميين ان عبد الوهاب ثاني ايمتهم « دان له ما لم يدن لغيره حتى انه حاصر مدينة طرابلس وملك المغرب بأسره الى مدينة يقال لها تلمسان ، وأجمعت عليه كلمة الناس الى أن حدثت الفرقة بتداخل العامة في شؤون الملك وطلبها عزل قاضي تيهرت وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة ، فلم يجبها عبد الوهاب ، وحدثت الفتنة » .

وهذه الرواية على اجمالها تفيد ان امتداد المملكة الى ناحية تلمسان انما كان أيام عظمة عبد الوهاب قبل حدوث الفتنة ، ونقل الباروني عن أبي عبد الله البنا الذي ألف كتابه سنة 375 نسبة مدن كثيرة الى تيهرت ، وبنى على هذه الرواية قوله : « كل المدن والقرى الواقعة بين الزاب وفاس وسجلماسة داخلة في مملكة تيهرت » .

وهذا بناء على غير اساس ، أما أولا فان البنا لم يذكر أن تلك المدن تبعت تيهرت ايام الرستميين ، وقد ذكر منها وهران التي أسست سنة 290 وأفكان التي أسست سنة 338 واما ثانيا فان اضافة تلك المدن الى تيهرت انما هي لكونها اشهر مدن الاقليم يومئذ فهي اضافة جغرافية لا سياسية ، وقد ذكر من الامصار برقة واضاف اليها مدنا لشهرتها بذلك الاقليم ليس الا ، واما ثالثا فان أكثر تلك المدن كان تابعا للعلويين أو الاغالبة كما يأتي في البابين الثالث والرابع ، وتقدم ذكر ما كان منها تابعا للامارات الاباضية غير الرستمية ، ولكن يظهر أن من تلك الامارات ما انفصل عن تيهرت بعد الثورة على عبد الوهاب .

ويمكننا ان نحد الجزائر الرستمية بعد انفصال تلك الامارات عنها بتلول منداس شمالا الى قرب غليزان . ويذهب الخط جنوبا من هناك

الى فرندة وينعطف شرقي جبل العمور لان أهله يومئذ بنو راشد وهم غير اباضية وأولو قوة • ومن هنالك يذهب الى وطن ميزاب الى ورقلة • هذا في الجهة الغربية • ومن الجهة الشرقية يذهب الخط الى تيسمسيل والسرسو ويتصاعد الى ثنية الاحد • ويذهب مشرقا الى قصر البخاري وأعالي وادي شلف • ويذهب جنوبا شرقي الاغواط الى تقرت ووادي ريغ • ويظهر ان هوارة أوراس خارج هذا الخط كانت خاضعة لتيهرت للعصبية المذهبية •

هذا ما هدانا اليه البحث وطول التروي واجالة النظر في طبائع السكان ومذاهبهم وقوتهم يومئذ • ولا يعرف ما في ذلك من عناء الامن خاض أمثال هذه المواضيع • وخانته الرواية • وحمله دينه على الامانة • وكلفته عنايته بالقارىء الايضاح •

وبعد فاننا نجهل مبلغ النفوذ السياسي للرستميين في هذه المملكة • ويظهر من حديث ابن الصغير عن أسباب حدوث الخلاف على عبد الوهاب ووقوع تلك الفتنة ان نفوذهم ذلك لا يعدو تيهرت • وهاك ملخص كلامه • قال :

« كانت قبائل مزاتة وصدراته وغيرهم ينتجعون في فصل الربيع احواز تيهرت • فيدخل رؤساؤهم المدينة وينزلون على اخوانهم بها • فيبرون ويكرمون • ثم يخرجون الى نعمهم فيقيمون معها الى ظعنهم •

وفي سنة الفرقة اجتمع من المنتجعين عدد كثير لم يجتمع قبل • فلما دخلوا المدينة وخلا وجوه كل قبيلة من سكانها باخوانهم النازلين عليهم شكوا اليهم جور القاضي وخيانة صاحب بيت المال وفسق صاحب الشرطة • وطلبوا منهم ابلاغ ذلك الى الامام عبد الوهاب • ففعلوا • وسألوه عزلهم وتولية من هو خير منهم • فأبى ذلك حاشية الامام • وكانت الفتنة » •

وهذا يشعر بأن أولئك المنتجعين ليس عليهم من قبل الامام قاض ولا وال • والا كانوا يسألون عزل ولاتهم قبل أن يسألوا ذلك لاخوانهم أهل تيهرت • على أن نفوذ الرستميين بتاهرت كانوا مزاحمين فيه • فقد يخرجون منها ويتغلب عليها مزاحموهم •

7 ـ الحكومة الرستمية

الدولة الرستمية مستقلة استقلالا تاما • وحكومتها كسائر الحكومات الاسلامية مقيدة بالكتاب والسنة وأثر السلف • فهي دستورية انما دستورها الهي تقبله العقول وتذعن له القلوب • فهي في غنى عن مجلس تشريعي • انما حاجتها لرجال الدين • والسلطة التنفيذية للرئيس وأعوانه • والقضائية مستقلة تماما •

والرئيس الاعلى يعين بالانتخاب لمدة حياته أو بالعهد اليه من سانه • ويلقب الامام والخليفة وأمير المؤمنين • و لايدعى هذه الالقاب من رؤساء الدول الصغرى غير الخوارج • وللامام مستشارون كالوزراء في الدول الكبرى وحفظة لبيت المال ومحتسبون ورجال شرطة •

وظيفة المحتسبين الرفق بالحيوان وقمع الغش والمحافظة على النظافة • فيؤدبون الغاش ويخففون حمل الدواب ويأمرون بازالة القاذورات • والشرطيون يطوفون بدروب المدينة وانهجها لحفظ الامن وتغيير المنكر • ولما اضعفت الفتن الدولة كثر الفجار وشربة الخمور • فلما كانت امامة ابي حاتم ولى الشرطة رجلين اشتدا في تغيير المنكر • فكسرت خوابي الخمر وشردت الغلمان واخدانهم في الجبال •

وكان للقاضي دار وسجل وخاتم • وولي القضاء على عهد أفلح محكم الهواري من أهل أوراس • فتنازع ابو العباس أخو أفلح

وصهر له على أرض • وترافعا الى أفلح فردهما الى القاضي • فسبق أبو العباس • وجلس حذاء القاضي واستسقى جاريته • وبصر الخصم بمنزلة أبي العباس • فجلس خارج الباب • فلما رآه القاضي سأله عن موقفه • فأخبره الخبر • فغضب من هذا التحيل • ووبخ أبا العباس • واستدنى الخصم وسقاه ماء اظهارا للمساواة • وهذا اصل القضاء الاسلامي اذ يوجب التسوية بين الخصوم •

ولنفوسه المنزلة السامية • فهم الذين يعينون الائمة فمن دونهم • ويشاركهم زعماء القبائل في النظر في الامور العامة • يجمعهم الامام بالمسجد اثر الصلاة •

وللحكومة جند من العرب والعجم • وجل الاعتماد على القبائل الموالية لها • وكان للماية وحدهم ثلاثون الف فارس • والمالية تجمع من الزكوات والجزية وخراج الارضين • قال ابن الصغير متحدثا عن الجباة ومصارف مال الجباية :

« يخرج أهل الصدقات أوان الطعام • ويأتون أهل النعم • فيقبضون الواجب لا يظلمون ولا يظلمون • فالطعام يدفع للفقراء • والشاة والبعير تباع • ويدفع منها عطاء العمال • وما بقي يوزع على الفقراء • فيحصون من في البلد منهم ومن حولها • ويحصى ما في الاهراء من الطعام • ويشترى من باقي مال الصدقة اكسية صوف وجباب وفراء وزيت • ويدفع لاهل كل بيت بقدر ذلك • ويؤثر بأكثر ذلك الاباضيون • وما اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك يقطع منه الامام لنفسه وحشمه وقضاته وأهل شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم • وما فضل صرف في مصالح المسلمين » •

وهكذا ترى أن مالية الدولة على ضيق مواردها يرد أكثرها على فقراء الامة لبساطة النظام وانحصار المملكة في تيهرت وما حولها •

وكان بنو رستم يرومون التوسع شرقا ليرتبطوا ببني جنسهم وأهل مذهبهم • ولكن امامهم دولة بني العباس القـوية التي تود سحقهم لولا ان وجودهم لازم لحفظ الموازنة بين دول المغرب • فبنو امية والادارسة يرونهم حاجزا بينهم وبين الاغالبة • والاغالبة عرفوا صعوبة مراس البربر • فضنوا بسلطانهم عن ان يضيعوه في حربهم ارضاء لبني العباس • وبنو العباس ليس لهم بد من ابقائهم سدا في وجوه تلك الدول •

وعلاقة الرستميين مع دولة مكناسة بسجلماسة حسـنة لرابطة الخارجية وتقارب الاباضية والصفرية • وعلاقتهم كذلك مع بني أمية امراء الاندلس • قال البلاذري في كتابه فتوح البلدان :

« وكان محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب احدث سنة 239 مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية • فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الاباضي • وكتب الى الاموي صاحب الاندلس يعلمه ذلك تقربا اليه به • فبعث اليه الاموي مائة ألف درهم » •

وعلاقتهم مع أمراء القيروان تختلف سلما وحربا • ولم نعلم لهم حربا مع الاغالبة بالجزائر • وقبلهم عقدوا سلما مع روح بن حاتم • قال ابن الخطيب في كتاب الاعلام : « وملىء البربر من روح رعبا • ورغب الاباضيون منهم في موادعته » • وفي ابن خلدون ان موادعة روح كانت لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم سنة 171 ذكر ذلك في موضعين وحرفهما النساخ بما يجعل بينهما اختلافا •

واشتبك الرستميون بالبربر بعدة مصاهرات • فكانت أم عبد الوهاب يفرنية وزوجه لواتية • وهذه سياسة رشيدة • خالفها أفلح ابن عبد الوهاب • فانه خشي من قوة القبائل المجاورة لتيهرت • فعمد الى سياسة التفريـق • وبث الجواسيس والمفسدين بـين الرئيس

ومرؤوسه والقبيلة وحليفتها • فاختلفت الآراء • وانحلت الروابط • وانطوت الصدور على الضغائن • واستحكمت النفرة بين القبائل • وظن أفلح أنه أفلح في سياسته • ولكنه ترك لمن بعده تراثا سيئا • فان سيادة تبنى على الدسائس لا بد ان ينهار صرحها لاول ضعف يبدو في الدولة • وهذا ما وقع بعد أفلح • فقد كانت أيامه خاتمة شباب الدولة وسياسته علة ضعفها •

8 ـ الايمـة الرسـتميون

مبدأ الخوارج ان الامامة لا تنحصر في أسرة معينة • ولكن امامة تيهرت انحصرت في بني رستم • ولعل سبب ذلك المنافسة البربرية والسياسة الرستمية • فان منافسة البربر بعضهم لبعض أشـد من منافستهم لاجنبي عنهم • فلو انتقلت الامامة الى قبيلة منهم لرامت الاستئثار بها ونازعتها بقية القبائل • والرستميون كانوا يقربون اليهم النقوسيين الاجانب مثلهم من المملكة ثقة بعدم مزاحمتهم لهم لفقد عصبيتهم •

ـ عبد الرحمن بن رستم 144ـ68 هـ 761ـ84 م

لا خلاف انه فارسي • ونسب البكري رستما الى بهرام بن ذو شرار بن سـابور بن بابكان بن سـابور ذي الاكتاف الملك الفارسي • فيكون عبد الرحمن من سلالة الملك • وجعله ابن خلدون من ولد رستم امير الفرس يوم القادسية • وهو ليس من بيت الملك بل هو أرمني •

بويع عبد الرحمن أولا بالامارة ثم بالامامة سنة 60 بعد وفاة امامهم أبي حاتم ، وقدموه لانه لا قبيلة له تحميه اذا جار • وكان عالما زاهدا متواضعا • يجلس في المسـجد للارملة والضعيف • قال ابن

الصغير : « وسيرته واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلئة واصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب » .

— عبد الوهاب 168ـ88 هـ 784ـ803 م

بويع بعد وفاة أبيه . وكان مرشحا للامامة في حياته . واختلفت عليه الكلمة ، فاسكت الخصوم بالحرب والسياسة . قال ابن الصغير : « وكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا . اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضي قبله . ودان له منهم ما لم يدن لغيره . واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لاحد قبله » .

— افلح بن عبد الوهاب 188ـ238 هـ 803ـ52 م

كان مرشحا للامامة حياة والده . فبويع بها بعد وفاته . وكان داهية استطاع ان يحافظ على هناء تيهرت مدة امامته . قال ابن الصغير : « وعمر في امارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله . أقام خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وبنو البنين وشمخ في ملكه » .

ولم يذكر ابن الصغير سنة وفاته . وتقدم عن البلاذري أنه أخرب العباسية سنة 39 ولكن ابن خلدون يقول أنه أخربها سنة 27 فيحتمل أن أفلح توفي لتمام خمسين سنة من امارته وانه عاش بعدها قليلا .

— ابو بكر بن أفلح

بايعته نفوسة ولم يرضه بعض أهل المدينة . وكان ميالا الى الراحة مولعا بالادب تاركا الامر لاخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة وهو رجل من وجهاء المدينة . فنفس عليه حاشية الامام تلك المنزلة . وسعوا في اغتياله . فقتله غيلة . وفتحت عليه فتنة أخرجته

من تيهرت • واستولى عليها محمد بن مسالمة الهواريبي ، قال الباروني : « والظاهر أن مدته لم تبلغ سنتين » •

— أبو اليقظان محمد بن أفلح 241ـ81 هـ 855ـ94 م

حج أيام والده ، وتقبض عليه العباسيون ، فسجنه الواثق مع أخيه المتوكل ، فلما توفي الواثق وخرج المتوكل من السجن الى قصر الخلافة سرح أبا اليقظان وأحسن اليه ، فعاد الى تيهرت ، وقد اكتسب خبرة بشؤون الملك • فلما اخرج ابو بكر من المدينة خرج هو أيضا ، ونزل بحصن لواتة ، وهنالك بويع حوالي سنة 41 وزحف الى تيهرت ، فامتنعت عليه سبع سنين • ثم دخلها • وعفا عن الثوار • واحيا رسوم الدولة ، وكان يباشر التدريس بنفسه وتوفي باتفاق سنة 281 •

قال ابن الصغير : « عاش ابو اليقظان مائة سنة او نحوها • وبقي في امارته نحوا من اربعين سنة • أدركته وحضرت مجلسه • وكان مربوع القامة ابيض الرأس واللحية (لانه أدركه شيخا) زاهدا ورعا ناسكا • افتتنت به نفوسة الجبل حتى انها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم » • وهذا ان كان فانما هو من بسطاء العامة التي لا تعرف التعظيم حدا •

— أبو حاتم يوسف 281ـ94 هـ 894ـ906 م

هو ابن أبي اليقظان • بويع بعده • وكان شابا جميل الهيئة كثير المروءة واسع الاحسان محببا لدى العامة قبل ولايته • فلما بويع اضطربت عليه الامة • وثارت به الفتن • فأخرج من المدينة • ثم عاد اليها ، وائتمر به بعض قرابته فقتلوه سنة 294 •

وكان بكر بن حماد قد أوضع في الفتنة • فلما عاد الى تيهرت اعتذر له بقوله :

ومؤنسة لي بالعـــراق تركتها وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها : «عزيز علينا ان نراك تسير»[1]
فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال علي الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضة ولكن أتت بعد الامور أمور
فاكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم ، والدائـــرات تدور
واكرم عفو يؤثر الناس أمره اذا ما عفا الانسان وهو قدير

— يعقوب بن أفلح

هو أخو أبي اليقظان • كان يأمل الامارة بعده ، فلما صرفت الى أبي حاتم ارتحل الى زواغة ، فلما أخرج أبو حاتم من المدينة وحاصرها ، استقدم أهلها يعقوب ، وبايعوه • فحارب ابن أخيه ، ثم سعى الى أهل الفضل في ايقاف الفتنة ، فعقدوا مجلسا حضره المبعوثون من الطرفين : فحكموا برفع يديهما معا عن الحكومة لمدة أربعة أشهر ، وهذا هو التحكيم الذي أنكره سلفهم على علي (ض) •

وفي هذه المدة كان ابـو حاتم يستميل اليـه الناس بسياسته ويستألفهم بصلاته ، فلم تمض المدة حتى كان جمهور الناس معـه • فاستقدموه من قصره بابي مينة ، وأعادوه الى قصر الامارة •

وغادر يعقوب المدينة ليلا الى زواغة بعدما قام أميرا نحو أربع سنوات ، وكان بعيد الهمة نزيه النفس ذا غرائب في مأكله وملبسه ، وعاش حتى استولى الشيعة على تيهرت ، فارتحل الى ورقلة ، وعرض عليه أهلها بيعتهم ، فقال : « لا يستتر الجمل بالغنم » ومات هنالك •

---

(1) النواسي هو ابو نواس الحسن بن هانيء الحكمي . من أهل المائة الثانية . وذلك الشطر من كلمة له طويلة يمدح بها الخصيب .

اليقظان بن أبي اليقظان 294ـ296 هـ 906ـ909 م

بويع بعد قتل أخيه أي حاتم ، ولم يتمتع بالملك طويلا ، فبقي مدة عامين وأمره في اضطراب الى أن قتله الشيعة في طائفة من أسرته ، في شوال سنة 96 وانتهت به الدولة الرستمية •

تناسل بنو رستم بتيهرت وكثر عددهم ومع ذلك لم يزدحموا على الملك الا ما كان أيام ادبار دولتهم من القيام على ابي حاتم ثم قتله • فلهم بذلك مزية على غالب الاسر المالكة •

9 ـ الاقتصاد والحضارة

المملكة الرستمية صحراوية • ولهذا اتخذت عاصمتها حيث الجبال المتصلة بالصحراء • فالغالب على أهلها الترحال وسكنى الخيام والقيام على المواشي والتجارة في البر اما التجارة البحرية فبأيدي غيرهم لعدم اتصال المملكة بالسواحل • فلم يكن للرستميين مراكب بحرية ولا مصانع لها •

والتجارة البحرية يومئذ للاندلسيين • فهم الذين يؤمون ببضائعهم المختلفة مراسي الجزائر مثل مرسى الدجاج وتنس ومرسى فروخ القريبة من مستغانم شرقا • ولهم اتصال بالرستميين في التجارة خصوصا من مرسى فروخ •

وأهم تجارة تيهرت الى السودان • ولملوكها علائق حسنة مع الرستميين • ولها اتصال بالمشرق أيضا على طريق الصحراء الى القيروان وطرابلس ومصر •

وعني بنو رستم بتأمين طرق القوافل • فكانوا يرسلون من طرفهم حامية تتلقى القوافل • وهذا ابو حاتم توفي والده وهو غائب • ذهب في جيش لحماية قوافل من المشرق •

وهكذا كانت البضائع تصدر من تيهرت واليها برا وبحرا وغربا وشرقا وشمالا وجنوبا • فتأتيها بضائع الاندلس والمغرب الاقصى والسودان وافريقية ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن •

وكانت الدواب والمواشي كثيرة بمملكة تيهرت • يكثر بها البقر والغنم وتوجد بها الخيل المسومة والبراذين الفراهيد • وللناس عناية بالفلاحة خصوصا حوالي الاودية • يزرعون القطن والكتان والسمسم والكسبر والكمون وغيرها • ويغرسون الاشجار المختلفة •

ونشط الناس لانشاء العمارات والقصور في الاماكن الصالحة لها • فكان للاسرة الرستمية حصن في جوار لواتة يدعى تالميت به مواشيهم وعبيدهم • وللامراء منهم قصور ومنتزهات في أملاكهم خارج تيهرت • وقد أطال ابن الصغير الحديث عن القصور • وقال : « وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة قد ابتنت العدوة والجند القادمون من افريقية قد ابتنوا المدينة العامرة اليوم » •

وانتقلت مع التجارة التي هي أهم موارد تيهرت حضارات الممالك الاخر • واضيفت الى حضارة البلاد الموروثة عن الرومان والروم • وتكون من مجموع ذلك حضارة تيهرتية مزيجة من عدة حضارات • فكانت تصنع بهذه المملكة نسائج الصوف والكتان وأواني الخزف والطين والزجاج والاثاث من الخشب المنحوت والمخروط والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف • والصنائع متركبة من بربرية وفارسية وعربية ورومية واندلسية • عليها طابع الحضارة الاسلامية •

وقد جاء بعد الرستميين دول اسلامية ذات حضارات متقاربة • فلا سبيل الى تمييز ما أبقته الحضارة الرستمية بالوطن الجزائري • ولو عني بالبحث عن آثار تيهرت لامكن الوصول الى شيء عن معرفة هذه الحضارة • ووطن مزاب حافظ حقا على عوائده القديمة ولكن

طول المدة وتوالي الفتن وضعف أهله مما يمنع الاعتماد على حضارته لمعرفة الحضارة الرستمية .

10 ـ العلوم والآداب

نشأت الدولة الرستمية في بداية تاريخ المسلمين العلمي بما كان من اقبال المنصور العباسي فمن بعده على تجهيز المسلمين بالعلوم والمعارف بعد ما قضوا لبانتهم من الآداب العربية وبلغوا فيها الدرجة السامية أيام بني أمية .

وقد عني الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الاسلامية . ولكن عنايتهم بالعلوم الدينية أشد . فكانوا ايمة في العلم كما كانوا ايمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والاخبار والاشعار والعلوم الرياضية . واشتهروا بالتنجيم والرمل . فعبد الرحمن كان مفسرا وله في التفسير تأليف . وابنه عبد الوهاب برز في العلوم الدينية . ونبغ أفلح في الادب وله في فضل العلم ومزاياه والتحريض عليه قصيدة مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يريك اشخاصهم روحا وابكارا

وهي طويلة جيدة أثبتها الباروني بتمامها مشطرة . وكان من ايمة بني رستم من انتصب للتدريس بالمساجد العامة . وارسل عبد الوهاب الى اباضية البصرة الف دينار ليشتروا له بها كتبا . فلما بلغتهم اشتروها ورقا استنسخوه كتبا . قالوا فكانت تلك الكتب وقر اربعين جملا . وجهوها له واتصل بها . وكانت بتيهرت مكتبة تدعى المعصومة قد حوت آلافا من المجلدات . ولما دخلت الشيعة تيهرت أحرقوا مكتبتها ما عدا كتب الرياضة والصنائع والفنون الدنيوية .

وكانت العربية هي لسان الدولة الرسمي . يدل لذلك رسائل

الرستميين الى الامة البربرية في الحث على الطاعة والتمسك بالدين ، وعقود ولايتهم لعمالهم بطرابلس • وقد أثبت الباروني نصوص رسائل وعقود • وكانت العربية لسان علومهم وآدابهم أيضا • اذ جل عنايتهم بالعلوم الدينية التي لا لغة لها غير العربية •

ولم تفكر الحكومة الفارسية في نشر اللغة الفارسية او اتخاذها لغة رسمية اذ لا داعي لذلك لا من حيث الدين ولا من حيث السياسة • فالدين لغته عربية • وكون بني رستم في غير وطنهم بين قوم اشداء في عصبيتهم مما يدعوهم الى اعفاء العصبية الجنسية واحياء الرابطة الدينية التي لا يجمعهم بالبربر غيرها •

واقتدت الامة البربرية بحكومتها ــ والناس على دين ملوكهم ــ في العناية بالعربية وعلومها وآدابها • ولم يصدهم عنها ثورتهم على الحكومة العربية لان الثورة اسبابا يغلط جدا من يجعل من بينها عداء البربر للعرب جنسيا أو دينيا أو علميا اذ ليست فكرة عداء العرب والعربية موجودة لدى الامم الاسلامية يومئذ • وانما هي وليدة عصرنا الحاضر • تستر بها الملحدون توصلا لهدم التعاليم الاسلامية ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الملحدون •

وعاشت البربرية مع العربية عيشة العامية اليوم مع الفصحى • وكان من البربر شعراء بالبربرية مجيدون نظير ما نسمع اليوم من قصائد عامية بليغة • والفت بها التآليف الدينية حرصا من رجال الدين على ايصال عقائده وعباداته الى العامة اذ لم يكن البربر يحسنون ــ طبعا ــ جميعهم العربية •

وكان بالمملكة التيهرتية مذاهب غير الاباضية • منها الصفرية • كان لهم حصن تالغمت (يدعى اليوم تيلغمت • وهو وسط بين الاغواط وغرداية) • والواصلية • مجمعهم قريب من تيهرت • يسكنون بيوت

الشعر • ويعتدون في نحو ثلاثين الفا • والعراقيون الشهيرون بالرأي والقياس والحجازيون الشهيرون بالسنة والاثر •

ولهذه الطوائف مساجدها وعلماؤها وحلق دروسها • وكانوا بتيهرت يجتمعون للمناظرة والمباحثة في دائرة الادب وقانون العلم بغاية الحرية • قال ابن الصغير : « ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم ثربوه وناظروه ألطف مناظرة • وكذلك من اتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله ذلك » • وقال متحدثا عن الاباضيين :

« ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفونه عن حاله • ولو رأوه رافعا يديه ، ما خلا المسجد الجامع فانهم اذا رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه فان عاد ضربوه » • قال الباروني : والمسجد الجامع هو مسجد الامام • ولعلهم يفعلون ذلك بغير اذنه وعلمه • يريد ان ذلك من متعصبة العامة التي كثيرا ما تنصر دينها بما تأباه مبادي ذلك الدين نفسه •

أصبحت تيهرت معدن العلم والادب ومحط رحال الطلبة حتى قال فيها أبو عبد الله البنا : « يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم اصابوا » • ولست أشك في انها دونهما ولكن حضورها في الذهن بحضورهما يكفي دليلا على تقدمها ورقيها •

وقد نسب اليها علماء كثيرون في مختلف الفنون • ذكر البارني طائفة منهم • والفتن التي استمرت بتيهرت أواخر الحكومة الرستمية وبعدها ترشد الى أن الذين عفت آثارهم أكثر من الذين عرفوا • فمنهم أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز • روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره • ومنهم الشيخ أبو سهل • كان أفصح أهل زمانه في اللسان البربري • ألف به تآليف احترقت في بعض الفتن • وتولى خطة الترجمة للامامين أفلح ويوسف • ومنهم أبو عبيدة

الاعرج • أثنى عليه ابن الصغير • وقال قرأت عليه كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة • ومنهم ابن الصغير صاحب اخبار الايمة الرستميين • وهو كتاب لغته قريبة من العامية لكنه المادة الوحيدة لهذه الدولة •

ونقل الكعاك عن المجلة الأسيوية الفرنسية الصادرة سنة 1843 م أن يهود بن قريش التاهرتي من أهل القرن الرابع كان يحسن العربية والعبرانية والبربرية والارمية والفارسية عالما بها جميعا متضلعا فيها • وقد اهتم بالبحث في اللغات وحاول المقاربة بين العبرانية والعربية والبربرية • وهو واضع اساس النحو التنظيري • وله كتاب في ذلك باللغة العربية وجد بمكتبة أوكسفورد بانكلترة وهو من أنفس ماسطر في الموضوع •

١١ — ابو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي • نشأ بتيهرت • وارتحل الى المشرق في حداثة سنة 217 فسمع به الحديث من ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر • واجتمع بأدبائها مثل أبي تمام حبيب وعلي بن الجهم وصريع الغواني ودعبل • ثم عاد الى القيروان • وسمع بها من سحنون وغيره • وجلس بها للحديث • ثم ارتحل الى تيهرت ومعه ولده عبد الرحمن • فاعترضه لصوص جرحوه وقتلوا ولده ! قال الباروني عن المراكشي : وكانت وفاته بقلعة ابن حمة جو في مدينة تيهرت سنة 296 وهو ابن ست وتسعين سنة • وكان ثقة مأمونا حافظا للحديث • قال المقري في نفح الطيب : ان قاسم بن اصبغ القرطبي رحل الى المشرق سنة 274 ولقي بالقيروان بكر بن حماد الشاعر التاهرتي • وسمع منه حديث

مسدد • ولما قرأ قاسم حديثا فيه مجتابي الثمار قال له بكر الثمار • ولم يسلم أحدهما للآخر • فقال بكر لنذهب الى ذلك • يشير لشيخ بالمسجد • فحكم الشيخ لقاسم • فقال بكر ــ واخذ بأنفه ــ رغم أنفي المحق • وقال الباروني : ذكره يوسف بن ابراهيم الورجلاني في سلسلة حديث رواه بكتابه الدليل والبرهان • ومن هنا تعلم ان ثقته متفق عليها يروي عنه الخوارج وغيرهم •

وكان نابغة في الادب • واشتهر بالشاعر • وله القصائد الطويلة الجيدة في الاغراض المختلفة من غزل ووصف ومديح وهجاء ورثاء واعتذار وزهد ووعظ • مدح الملوك والامراء بالمشرق والمغرب وعارض دعبل من متعصبة الشيعة وعمران بن حطان من الخوارج •

وذكر الحافظ التنسي كلمته في معارضة مدح عمران بن حطان لابن ملجم على فعلته • وذكرها المسعودي ايضا في مروج الذهب ولكن لم ينسبها لاحد • ثم وقفت عليها منسوبة له في طبقات الشافعية الكبرى • وهي هذه :

قال لابن ملجم ــ والاقدار غالبة ــ هدمت ــ ويلك ــ للاسلام اركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم واول الناس اسلاما وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره اضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه ــ على رغم الحسود له ــ مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا ليثا اذا لقي الاقران اقرانا
ذكرت قاتله ، والدمع منحدر ، فقلت سبحان رب الناس سبحانا !!
اني لاحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد ولكن كان شيطانا

اشـــقى مراد اذا عـــدت قبائلهـــا وأخســـر الناس عنـــد الله ميزانا
كعاقـــر الناقـــة الاولى التي جلبت على ثمود بارض الحجر خســـرانا
قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها قبـــل المنيـــة أزمـــانـــا فأزمـــانا
فلا عفـــا الله عنـــه مـــا تحمـــله ولا ســـقى قبر عمران بن حطـــانا
لقوله في شـــقي ظـــل مجترمـــا ونال مـــا نالـــه ظلمـــا وعـــدوانا
« يا ضربة مـــن تقي ما أراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا »
بل ضربة من ذوي أورثتـــه لظـــا مخـــلدا قد اتى الرحمن غضبـــانا
كانه لـــم يرد قصـــدا بضربتـــه الا ليصلى عـــذاب الخـــلد نيرانا

ومما روى له التنسي في الدر والعقيـــان قوله :

تبارك من ساس الامـــور بعلمه وذل له أهـــل السموات والارض
ومن قسم الارزاق بـــين عبـــاده وفضل بعض الناس فيها على بعض
فمن ظن ان الحرص فيها يزيـــده فقولوا له يزداد في الطول والعرض

وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا • ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها الى عناية أدبية وغيرة قومية • وحسبنا اداء لحق هذا الشاعر المجيد والمحدث الثقة أن افردناه بالكلام ونبهنا على فضـــله •

12 ـــ الحـــروب والفتـــن

قامت الدولة الرستمية على جهود البربر الثائرين على حكومة القيروان ، فلم ترق دماء في سبيل تأسيسها • ولم تجاهـــد كغيرها

لاعلاء كلمة الاسلام لعدم مجاورة الكفار لها • على ان الخوارج انما يعنون بالثورة على الحكومات الاسلامية ، ويرون ملوكها جائرين على الاطـــلاق •

جاورها الادارسة ولم نعلم من حال هذا الجوار غير ما ذكره ابن خلدون في قوله : « حارب بني رستم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الادارسة لما ملكوا تلمسان ، واخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم » •

وجاورها أمراء القيروان • فلم نعلم عن هذا الجوار غير زحف عبد الرحمن لحصار طبنة فانه نزل تهودا • فلما انجلى الحصار عن عمر بن حفص انفذ جيشا لعبد الرحمن هزمه الى تيهرت • ثم كانت المهادنة ايام روح • وجاءت الدولة الاغلبية • فلم نعلم حدوث شـــيء بينهما في الجزائر غير تأسيس مدينة العباسية واخرابها • هذا كل ما نعلم عن الحالة الخارجية للدولة الرستمية •

اما الحالة الداخلية فالحرب فيها أغلب مـــن السلم • ذلك ان الحكومة لم تتمكن من بسط نفوذها في المملكة على ضيق رقعتها • فالقبائل مستقلة تحت امراء منهم • وليس ثم مـــن وحدة سياسية ولا دينية • والحكومة اجنبية لا ثقة لها بالامة • وتتساهل لذلك في اتهامهم بالافتراء عليها • فنشأت الفتن من ضعف الحكومة وســـوء ظنها بالامـــة •

أول ما حدث فتنة يزيد بن فندين اليفرني ، وسببها ان عبد الرحمن بن رستم لما احتضر ترك الامر شورى بين سبعة منهم ابنه عبد الوهاب وابن فندين • فاسندت الامامة لعبد الوهاب • وابى ابن فندين من البيعة الا بشرط تأسيس مجلس من الاعيان يخضع لـــه الامام • فرفض اقتراحه • وسخطته الحكومة • فلم يصبر لهذه الاهانة وهو ذو عصبية • فأعلن الثورة •

وبعد وقائع كاد ابن فندين ينتصر • فطلب عبد الوهاب هدنة للنظر في شرطه وعرضه على اباضية المشرق ليفتوا فيه • فأجابه لذلك • وربح عبد الوهاب الوقت لجمع قوته ونشر دعايته بالمشرق واحسن الخروج من المأزق •

أدرك ابن فندين مكيدة خصمه • فأعاد الحرب قبل ورود فتوى المشارقة • فدارت عليه الدائرة • وقتله أفلح بن عبد الوهاب • وتفرق جمعه • وبعد مدة ثأروا لصاحبهم من ميمون بن عبد الوهاب • فقتلوه • وعادت الحرب ثالثة • وانجلت بانتصار عبد الوهاب •

فتح ابن فندين باب الحديث في الامامة وشروطها • فاتخذها أرباب المذاهب الاخر سلما للخروج عن طاعة الامام الاباضي • فأعلنت الواصلية ثورتها • وقصدت فيمن انضم اليها تيهرت • وكانت وقائع أشد من الاولى • والتجأ عبد الوهاب لطلب الهدنة • وبعد ان انعقدت استنجد نفوسة طرابلس • فبلغته نجدتهم وعادت الحرب وانجلت بانتصار عبد الوهاب كأول مرة •

وتقدم في الفصل السادس ما كان من انكار بعض الناس لعمال عبد الوهاب وثورتهم • وانتهت بانهزامهم •

وكان أمير هوارة خطب بنت شيخ لواتة • فأشير على عبد الوهاب بمصاهرة لواتة حتى تتحد مع هوارة • فخطب تلك البنت • وتزوجها • فوقعت بين الرستميين وهوارة حرب على نهر اسلان • وتعددت المعارك • ثم انهزمت هوارة •

وكان ابو بكر بن أفلح قد صاهر من أعيان المدينة رجلا يدعى محمد بن عرفة • وفوض اليه أمر الحكومة • فنفس عليه وجاهته بطانة الامام • وزينوا له اغتياله • فأرسل اليه ليخرج معه الى منتزه له يعرف بجنان الامير • ولما قاما الى صلاة المغرب طعن خادم ابي

بكر ابن عرفة • والقى شلوه في شق هنالك فافتقد الناس ابن عرفة • ثم وقفوا على جلية أمره • واستخرجوا شلوه • فثاروا بأبي بكر • وكان يوم من أشد الايام • فقد فيه ابو بكر امامته • وبقيت الحرب بين أنصار الحكومة واعدائها قائمة على ساق • وحكمت أخيرا بفشل نفوسة والعجم •

قال ابن الصغير : « لما نزل بالعجم ونفوسة ما نزل تفرقوا في أقاصي البلاد • فنزلت العجم بموضع يقال له تابغيلت وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت[1] ونزلت الرستمية ومن لف لفها باسكيدال وبه ابو اليقظان • وهو مجمع الاباضية قبلة تاهرت على يوم أو أزيد قليلا • ونزلت نفوسة بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة » •

عقب هذه الفتنة استولى محمد بن مسالة على تاهرت • وحارب بقومه واهل المدينة لواتة • واجلاها الى حصنها على مقربة من تاسلونت منبع عيون نهو مينة • ودعت ابا اليقظان الى جوارها •

هنالك اجتمع الى ابي اليقظان شيعته • فذهب بهم الى تيهرت • فامتنعت عليه سبع سنين • ثم استنجد نفوسة طرابلس • فأنجدوه • وتقوى بهم في حين أن أهل تيهرت أجهدهم الحصار • فتقدمت رسله الى المدينة مبشرين ومنذرين • فرضي أهلها باسلامها الى ابي اليقظان على أن لا يؤاخذوا بما ذهب ايام الفتنة من أنفس واموال فرضي شرطهم ودخل المدينة • وأعلن العفو العام •

ونفى ابو حاتم بعض أعيان المدينة بتهمة التآمر على قتله ، الى موضع يدعى الثلة • وبعد مدة دخلوا تيهرت في حماية أنصارهم •

---

(1) تقدم في الفصل الرابع عن البكري تامغيلت بالميم . وانه على مرحلتين من تيهرت . فالظاهر انه موضع واحد يقال بالحرفين او محرف في احد الكتابين .

فخشي أبو حاتم على نفسه • فخرج الى تاليت في أهله والعجم ونفوسة • واجتمعت اليه لواتة وقبائل الصحراء ما عدا أهل تيلغمت فانهم شايعوا التيهرتيين •

استعد أبو حاتم لفتح تاهرت • فقصدها من ثلاث جهات : جاء هو في الرستميين ولواتة وغيرهم من ناحية القبلة • وزحفت العجم وصنهاجة ومن لف لفها من ناحية المشرق • وتقدمت نفوسة ومن انضاف اليها من ناحية المغرب • ودارت رحا الحرب من الجهات الثلاث • فرغب التهرتيون في السلم • فاشترط ابو حاتم تسليم شيوخهم اليه يرى فيهم رأيه • فلم يقبلوا • وعادت الحرب • واستدعى التيهرتيون يعقوب بن أفلح من مكانة بزواغة • وكان منابذا لابن أخيه • فبايعوه • وانحازت اليهم بذلك طائفة من لواتة • وعادت الحرب جذعة •

وبعد اربع سنين من اتقاد نار هذه الفتنة تقدم ابو يعقوب المزاتي في قومه ونزل حول تيهرت لايقاف الفتنة • وسئمت الناس الحرب • فرضوا وساطته • فعقد هدنة لمدة اربعة أشهر • تقوى فيها حزب ابي حاتم • فدخل المدينة • وغادرها عمه يعقوب •

ها قد وقفنا بالقارىء على ناحية من مناحي حياة هذه الدولة في ايجاز من غير اطالة بوصف المعارك واحصاء القتلى وذكر الابطال •

ولا يستبعد مع هذه الفتن ما قدمنا من حديث العمران والمعارف فان القوم كانوا أحرارا • والحرية تعمل مع الفتن ما لا يعمله الاستعباد مع الامن •

13 ــ سقوط الدولة الرستمية

تأسست الدولة الرستمية بتأسيس تيهرت سنة 144 (761م) وبويع

مؤسسها عبد الرحمن بن رستم بالخلافة سنة 160 وسقطت في أيدي الشيعة سنة 296 (909م) فتكون مدتها 152 سنة قمرية (148 شمسية) والبكري موافق في تاريخ تأسيس الدولة وسقوطها • ولكن يقول ان مدة الرستميين كانت ثلاثين ومائة سنة •

أما اسباب سقوطها فترجع الى افتراق كلمة الامة واختلاف الرستميين فيما بينهم وظهور عدو قوي الى جانبهم هم الشيعة • وقد رأيت في الفصل السابق كثرة الثورات لاسباب ضعيفة واستفحال أمرها حتى ان الثائرين قد يستولون على العاصمة ويطردون منها الرستميين وذلك يدل على ان القبائل كانت ذات حرية واسعة اكتسبتها بقوتها وضعف الحكومة ولم تحسن استعمالها •

وهؤلاء الرستميون الذين لم تكن لهم قوة حربية تجعل القبائل تحت سلطانهم فعلا أخذ داء التنافس يسري اليهم • وبدأ ذلك عصر ابي حاتم حيث ان عمه يعقوب خالف عليه أولا ثم خالف عليه أخوه اليقظان ثانيا وافضى الخلاف الى قتله وانتصاب اليقظان مكانه • وكان لابي حاتم بنت تدعى دوسرا قد أحرق كبدها ما نزل بابيها • وكثير من أهل تيهرت غير راضين عن اليقظان •

فالشعب كانت تعبث باتحاده العصبيات القومية والتعصبات المذهبية • والحكومة تعبث بهيبتها المنافسات السياسية والاختلافات الداخلية • تلك حالة الدولة الرستمية في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة الشيعية بكتامة وقضت على دولة الاغالبة •

لما قضى أبو عبد الله الشيعي على دولة الاغالبة قصد تيهرت ونزل عليها • ولم يلق في طريقه كيدا • فخرج اليه أهلها متبرئين من اليقظان وواعدين له بفتح المدينة • ثم خرج اليقظان في جمع من أهل بيته • ولقي أبا عبد الله الشيعي مسلما مسالما • وخشيت دوسرا ان

يبقى عليه • فامته مع أخ لها ووعدته نفسها زواجا ان هو ثأر لها من قتلة أبيها فأتى القتل على اليقظان ومن معه • وفرت دوسرا فلم يوقف لها على أثر • وسقطت الحكومة والامة في يد الشيعة •

وهكذا استولى ابو عبد الله الشيعي على دولة تيهرت بكل سهولة • لانه وجد أمة بلا حكومة وحكومة بلا أمة • وفي ذلك درس مفيد لكل حكومة أجنبية تعتمد على أجانب مثلها وتقصي أهل الوطن عن ساحة الحكم • وفي ذلك أيضا درس جليل الفائدة لكل شعب يكون قليل الانقياد لحكومته كثير الثورات عليها من غير ان يرسم لطريق جهاده خطة معينة ويلتف على زعيم قوي مرضي يحسن السير به الى غاية واضحة •

14 ــ تيهرت

تيهرت بكسر التاء بعدها ياء فهاء مفتوحة فراء ساكنة • ويقال أيضا تاهرت • وهي اسم لمدينتين احداهما على ربوة يحيط بها سور أسست قبل الاسلام • وافتتحها القائد العظيم عقبة بن نافع • وكانت لبرقجانة • وضعف عمرانها منذ العصر الرومي • وانتعشت قليلا ايام الرستميين • وكانت تدعى تاهرت عبد الخالق وتدعى ايضا حصن ابن بخاتة • وبعد الرستميين خربت وأسس مكانها تيهرت الفرنسية المدعوة اليوم تيارت •

والثانية تيهرت الحديثة أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة 144 (761م) غربي القديمة على خمسة أميال منها محاذية لتاقدمت • وقد غلط بعضهم فسمى تيهرت الحديثة • تاقدمت • وموضعها كان غيضة أشبة مملوكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة • فارادهم عبد الرحمن على البيع • فامتنعوا • فاكتراه منهم بخراج الاسواق •

وشرعوا في تأسيسها • فعمرت واتسعت خطتها وطار في الآفاق صيتها حتى دعيت عراق المغرب وبلغ المغـرب الحاقا لها بهما في المعارف والعمران والحضارة •

اختار الرستميون موقعها لكونه بين قبائل اباضية وارضها مملوكة لقوم مستضعفين ليكونوا في مأمن من هجمات المخالفين وراحة من قبيلة المالكين • فهم بضعفهم لا يطمعون في التغلب عـلى الدولة • ولموقعها مزية لديهم أيضا وهو اشرافه على الصحراء اذ كان أغلب القوم رحالا قائمين عـلى المواشي • ففي الصحراء يجدون حاجـة ماشيتهم • والرستميون مرتبطون مذهبا بنفوسة طرابلس • وبواسطة الصحراء يمكنهم ادامة الروابط معهم • اختطوا بهذه المدينة المنازل والقصور • وأجروا اليها المياه • قال الادريسي : « وبها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم يتصرفون بها » •

أصبح عمران تيهرت وعـدل ايمتها حديث الرفـاق تنقله الى الآفاق • فأمها الناس من كل ناحية • قال ابن الصغير : « واتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصي الاقطار • فقلما ينزل بهم أحد من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بيتا بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين • واستعملت السبل الى بلاد السودان وغيرها من البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وصنوف الامتعة • والعمارة زائدة ، والناس والتجار من كل الاقطار قابلون » •

وقا لالبكري : « مدينة تيهرت مسورة لها ثلاثة أبواب [1] باب

---

(1) هكذا بالاصل . وقد سمى اربعة ابواب ثم قال وغيرها . فذكر الثلاثة خطأ .

الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وغيرها ، وهي في سفح جبل يقال له قزول (وهو بتخفيف الزاي وهكذا يدعى اليوم) ، ولها قصبة مشرفة على السوق ، تسمى المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها ، ونهر آخر يجري من عيون تجمع تسمى تاتش ، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها . وهو في شرقيها .. وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج ، قال بكر ابن حماد :

ما أخشـــن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهـــرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت كانها تنشـــر مـــن تخـــت
فنحن في بحـــر بلا لجـــة تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت كفرحـــة الذمـــي بالسبت

ونظر رجل من أهل تاهرت الى توقد الشمس بالحجاز فقال : احرقي ما شئت فوالله انك بتاهرت لذليلة ! ، ومسجد تاهرت الجامع أسسه عبد الرحمن وهو من اربع بلاطات ، قال محمد بن يوسف : وبها أسواق عامرة وحمامات كثيرة ، يسمى منها اثني عشر حماما .

ومنذ سقطت الدولة الرستمية اصبحت تيهرت نقطة عراك بين الشيعة وزناتة يتغلب عليها هؤلاء تارة وأولئك أخرى . فأخذ عمرانها في التراجع . واحرقت النار اسواقها في شـــوال سنة 305 كمـــا في القرطاس . ثم كانت فتنة ابن غانية . وتكرر دخوله لتيهرت ، فاحتمل أهلها وتفرقوا في البلاد ، وذلك سنة 620 وكان ذلـــك آخر العهد بعمارتها ، وارضها اليوم تحرث ، ولم يبق منها الا انقاض وبعض سورها ، والاماكن تشقى وتسعد .

الباب الثالث

في الدولة الادريسية

ا ـ تمهيـد

بينما كان بنو العباس يعملون لهدم دولة بني أمية شـرقا كان البربر يعملون لذلك أيضا غربا ، ولكن العباسيون يهدمون ليبنوا ، والبربر يهدمون توصلا للفوضى • وما اتم بنو العباس بناء دولتهم بالمشرق حتى اتم البربر عمل فوضاهم بالمغرب • ولما أخذ العباسيون يسترجعون المغرب لسلطانهم استقل بنو رستم ببعض المغرب الاوسط وما بقي منه كان تابعا لامراء القيروان ظاهـرا ومستقلا في داخليته تحت شيوخ قبائله • ومثل ذلك المغرب الاقصى •

ولم تكن الدولة العباسية شرقا سالمة من المنافس • فان الطالبيين نهضوا طالبين لانفسهم الخلافة وثاروا مرارا • ولكن كان نصيبهم الاخفاق • وفي أيام موسى الهادي ظهر الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط • وثار على عامل المدينة • وتغلب عليه • وبعد أيام خرج الى مكة • ولما بلغها انضم اليه طائفة مـن عبيدها • وكان الفصل فصل موسم الحج • وقـد حج جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم • فنشبت الحرب بين العباسيين والطالبيين ثامن ذي الحجة • فانهزم الحسين ثم قتل بفخ قريبا من مكة من طائفة من ذوي قرابته • وذلك سنة 169 •

وحضر هذه الواقعة ادريس وسليمان ابنا عبـد الله الكامل بن الحسن المثنى • فاما سليمان فقيل نجا وقيل قتـل فيمن قتل مـع الحسين • واما ادريس فنجا وايس ان يكون للطالبيين مع العباسيين

بالمشرق أمر • وقد علم ما عليه المغرب من ضعف سلطان بني العباس به • فقصده • ومر بمصر • وكان صاحب بريدها الى المغرب يتشيع • وهو واضح المعروف بالمسكين مولى لصالح بن المنصور • فحمله الى المغرب •

وقد ساق البكري حديث نزوح ادريس الى المغرب نقلا عن ابي الحسن النوفلي • قال : « قال النوفلي ان ادريس ابن عبد الله انهزم فيمن انهزم من وقعة حسين صاحب فخ •• فاستتر مدة • وألح السلطان في طلبه • فخرج به راشد ، وكان عاقلا شجاعا أبدا ذا حزم ولطف ، في جملة الحاج منحاشا عن الناس ، بعد أن غير زيه والبسه مدرعة وعمامة غليظة • وصيره كالغلام يخدمه • وان امره ونهاه أسرع في ذلك • فسلما حتى دخلا مصر ليلا • فبينما هما متحيران يمشيان في بعض طرقها لا هداية لهما بالبلد ، اذ مرا بدار مشيدة يدل ظاهرها على باطنها ونعمة أهلها • فجلسا في دكان على باب الدار فرآهما صاحب الدار • فعرف فيهما الحجازية •• وتوسم في خلقتهما الغربة فقال أحسبكما غريبين • قالا نعم • قال وأراكما مدنيين • قالا نعم • نحن كما ظننت • فاذا الرجل من موالي بني العباس • فقام اليه راشد • وقد توسم فيه الخير ، فقال له يا هذا قد أردت أن ألقي اليك شيئا • ولست أفعل حتى تعطيني موثقا أن تفعل احدى خلتين اما اويتنا وتتقرب الى الله بالاحسان الينا وحفظت فينا نبيك محمدا (ص) ، وان كرهت ما القيته اليك سترته علينا • فأعطاه على ذلك موثقا • فقال له هذا ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب خرج من موضعه مع حسين بن علي • فسلم من القتل • وقد جئت به أريد بلاد البربر • فانه بلد ناء لعله يأمن فيه ويعجز من يطلبه • فأدخلهما منزله • وسترهما حتى تهيأ خروج رفقة الى افريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما • فلما عزم القوم على الشخوص

قال لهما ان لامير مصر مسالح لا يجوز احد الا فتشوه وههنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس • فأنا أحمل هذا الفتى معي ، يعني أدريس . في هذه الطريق الغامضة البعيدة • فالقاك به ، يقول راشد ، في موضع كذا • وهنالك تنقطع مسالح مصر • فركب راشد في أحد شقي المحمل • ووضع متاعه في الشق الآخر • ومضى مع الناس في القافلة • وخرج الرجل على فرس له • وحمل ادريس على فرس أخرى • فمضى به في الطريق الغامضة . وهي مسيرة أيام ، حتى تقدما الرفقة • وأقاما ينتظارانها حتى وردت • فركب ادريس مع راشد حتى اذا قربا من افريقية تركا دخولها • وسارا في بلاد البربر حتى انتهيا الى بلاد فاس وطنجة » •

هذا حديث البكري • ومراده بافريقية القيروان • وصاحبها يومئذ من قبل العباسيين روح بن حاتم • وفي الاستقصاء : ان ادريس دخل القيروان واقام بها مدة • ثم خرج هو وراشد حتى أتيا تلمسان • فأراحا بها أياما • ثم ارتحلا نحو طنجة • فعبرا وادي ملوية • ودخلا بلاد السوس الادنى • وتقدما الى مدينة طنجة• ونحوه في القرطاس لابن أبي زرع •

ومن طنجة خرج ادريس ومولاه راشد الى مدينة وليلي • فنزلا على صاحبها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي • فاكرم مثواهما • وعرفه ادريس بنفسه فبالغ في اكرامه وخدمته • وكان نزولهما بوليلى غرة ربيع الاول سنة 172 •

قال ابن ابي زرع : « ومدينة وليلي قاعدة جبل زرهون • وكانت مدينة متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون • وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل » • قال السلوى : « يقال انها المسماة اليوم بقصر فرعون » •

2 ـ تاسيس الدولة الادريسية

كان اسحق الاوربي أمير قومه • ولما نزل عليـه ادريس عرفه بنفسه وكاشفه بسره وانه يريد أن يؤسس للطالبيين بالمغرب ما عجزوا عليه بالمشرق • فاجابه اسحق الى ما أراد • ولما كان شهر رمضان جمع عشيرته وعرفهم بادريس • وقـرر لهم علمه وفضله ودينه • وعرض عليهم مبايعته، فاجابوه وبايعوه على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم • وبعد البيعة قام ادريس خطيبا • فقال : « ايها الناس لا تمدن الاعناق الى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا » •

بايعت أوربة وتلتها مغيلة وصدينة من بني فاتن • ثم وفدت عليه للبيعة قبائل زواغة وغياثة ومكناسة وغمارة في قبائل أخر من زناتة وغيرهم ، فلم يلبث ان جهز الجيوش من أوربة وزناتة وهوارة وصنهاجة وغيرها • وقصد بها تامسنا وتادلا من البلاد الواقعة جنوب وليلي الى ناحية المحيط الغربي • وكـان أكثر أهلها على اليهودية والمسيحية والوثنية • والاسلام فيهم قليل • فغزاهم ادريس وفتح حصونهم فاسلموا جميعا • وعاد مؤيدا منصورا فدخل وليلي اواخر ذي الحجة من سنة 172 •

بينما كان ادريس يخشى أقل الناس ان يعرف مكانه فينم به الى أي وال عباسي فيريق دمه اذا به يؤسس دولة في غير وطنه ويغزو في غير قومه • كل ذلك كان في ظرف أشهر !

لقد فر قبله من بني العباس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الاموي • ونزل الاندلس • ولم يقف عند حد الامن على حياته بل كون تلك الدولة الراقية التي أضاءت على أوربا ثم غربت في حمئة حضارتها • ودعاه ابو جعفر المنصور «صقر قريش» وامره ـ وان كان

عجيبا ــ يقر به ان له سلفا في الملك ولقومه بني أميه عصبية من العرب قوية وقد فتحت الاندلس بقواد جدوده وجيوشهم • وفر كذلك من بني العباس عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الاوسط • وأسس به دولة من قوم لا يتصلون من نسبه بسبب • ولكن يسهل أمره أيضا اتحاده مع أولئك القوم مذهبا وقد عرفوه قبل أيام امامهم أبي الخطاب وعرفوا منزلته لديه • أما ادريس فشأنه اعجب اذ ليس له مع البربر أي سبب • وليس أمره مما تنتجه المصادفات أو يرتفع عن مدارك العقول •

ادريس انما قصد المغرب لعلمه بانحراف أهله عن بني العباس وبعده عن مركز خلافتهم • ولكن هل قصده لمجرد النجاة بنفسه ؟ اذن فلم اوغل في المغرب ؟ اما كان يكفيه ان يدس نفسه في قبيلة غير خاضعة لولاة القيروان ؟

ادريس أكبر نفسا من ان يفر هذا الفرار الى مكان سحيق طلبا للحياة الشخصية • وهو أنبه قدرا من ان يرضي بالخمول وهو أشرف نسبا من أن يدمج نفسه في البربر • وأرى انه انما قصد المغرب اظهارا للدعوة الطالبية ورجاء في تأسيس دولة علوية اذ ايس من ذلك بالمشرق وانقطعت ثقته بالعرب • وقد رأى العباسيين انتصروا بالفرس فبحث عن شيعة له من البربر •

وقد كان البربر يرتحلون الى المشرق طلبا للعلم واداء لفريضة الحج ثم يعودون وقد حملوا معهم صورا من نزاعات المشرق السياسية ونزعاته الدينية • وكان من المذاهب الدينية مذهب الزيدية من الشيعة • وهو مذهب ادريس . ومن النزاعات السياسية نزاع العباسيين والطالبيين وكان البربر يتأثرون بكل ما يجري بالمشرق فيجري بوطنهم من الانقسام السياسي والاختلاف الديني مثل مايجري بالمشرق • فلا بد أن يكون البربر قد عرفوا المذهب الزيدي ولا بد ان

يكون منهم من بلغته احاديث اضطهادات العباسيين للعلويين الفاطميين فود لو يتقرب الى الله بنصرة آل بيت رسوله ويحميهم من اعدائهم .

ولعل ادريس قد بحث في المغرب عمن يجـدهم متشيعين لآل البيت . ومن أجل ذلك تنقل في الحواضر والبوادي حتى خبر حال صاحب وليلي ورأى فيه ضالته المنشودة . فنزل عليه وباح له بسره . فلباه وصدق ظنه وجد في نشر دعوته .

هكذا تأسست دولة ادريس بسهولة وبساطة هيأتهما القرابة من رسول الله (ص) ونفرة البربر من بني العباس المعتمدين في سلطانهم على الفرس . فنصر البربر العلويين عن طواعية . وحاربوا معهم في بقية البربر غير المسلمين وادخلوهم في الاسلام فتقووا بهم ثم لووا عنان قوتهم لحرب الخوارج بالمغربين الاقصى والاوسـط فاخرجوا منهم دولة علوية .

وما زالت مدينة وليلي قاعدة دولة ادريس حتى توفي . وخلفه ابنه ادريس فعظمت دولته وكثرت غاشيته حتى ضاقت عنهم وليلي . فخرج يرتاد مكانا يتسع لدولته ما اتسعت . فأسس مدينة فاس . واصبحت احدى العواصم الاسلامية الكبرى ولم تزل فاس قاعدة الادارسة حتى انقرضت دولتهم .

3 ـ الحكـومة الادريسـية

الدولة الادريسية مستقلة استقلالا تاما . وحكومتها كسائر الحكومات الاسلامية يومئذ قضاء وادارة . انما تخالفها في كونهـا حكومة غير مركزية . فكل عامل من الادارسة واخوانهم العلويين مستقل بادارة عمله وجباية الخراج واشهار الحرب . وانما يمتاز الامام بذكر اسمه في السكة والخطبة .

اقتضى هذا النظام طبيعة الوطن الذي يكره أهلـه الحكومة

المركزية • فلهذا عهد ادريس لابن عمه محمد ابن سليمان على المغرب الاوسط • واشارت أمه كنزة البربرية على حافدها محمد بن ادريس لما ولي بعد ابيه بتقسيم المملكة بين أخوته •

ومبني سياسة الحكومة الخارجية عدم الاعتراف ببقية الدول الاسلامية • ولكن صدها عن العمل لاخضاعهن ذلك النظام الداخلي الذي اضطرت اليه وتركها فقيرة من المال والرجال • فاكتفت بما تحت نفوذها • واصطلحت مع الاغالبة ولم تهج بني أمية •

وكانت تضرب السكة باسم الامام • وانتشرت سكتها بالمغرب • حتى ان زيادة الله الاول بعث منها الى المأمون لما ارسل له بالدعاء على منابر افريقية لعبد الله بن طاهر ، تعريضا بتحويل الدعوة الى الادارسة • وهذا يرشد الى ما كان لهذه الحكومة من النفوذ الادبي • فان حكومة الاغالبة أغنى منها رجالا وأموالا ولم تطمع في الاستقلال ولم يأنف أميرها لما غضب من الدخول في دعوتها •

وكان ايمة الادارسة أهل عدل ورفق بالرعية وسهر على أمنها • قال ابن ابي زرع : « فكثرت الخيرات بفاس وظهرت البركات • ورخصت الاسعار ، فبلغ وسق القمح درهمين ووسق الشعير درهما والكبش درهما ونصفا والبقرة اربعة دراهم والعسل خمسة وعشرون رطلا بدرهم والقطاني والفاكهة لا قيمة لها • دام ذلك خمسين سنة منذ أيام ادريس بن ادريس • » وظاهر ان العاصمة تكون بها أمثال هذه المواد أغلى غالبا منها في الاعمال التابعة لها •

وقد حدثت اواخر الدولة فتن غيرت مجرى هذا الرخاء • فقد قام عبد الرزاق رئيس الصفرية بمديونة وجمع جموعا عظيمة استولى بها على فاس حتى اخرجه الامام يحي بن القاسم وشغل مدة امامته بحروب الصفرية وولي بعده يحي بن ادريس بن عمر وكان شجاعا حازما فقيها محدثا فصيحا ورعا صالحا أكثر الادارسة عدلا واغزرهم

فضلا واعلاهم قدرا وابعدهم ذكرا ولكن مني بالدولة العبيدية التي نصرتها مكناسة وكبيرها موسى بن ابي العافية • فدخلوا عليها فاسا سنة 305 ولم يسعه الا مبايعتهم • ثم نكبه ابن أبي العافية سنة 309 واخرجه عن فاس • وسجنه سنين ثم سرحه • فقصد المشرق • ومات بافريقية سنة 332 جائعا غريبا !

واستولى من بعدة الحسن بن محمد بن القاسم على فاس سنة310 وحارب موسى • فغلبه عليها بعد سنة • ونكبه ومات منكوبا سنة 313 •

وقد كان عدد الادارسة كثيرا • ولكن لم يكن بينهم نزاع على الامامة • ولشهرة ايمتهم في كتب التاريخ وكون مركزهم وأهم آثارهم خارج الجزائر موضوع كتابنا نكتفي عن التعريف بهم برسم جدول لبيان مدتهم •

الامـــام	الولايـــة		النهايـــة		ملاحظـــات
	للهجرة	للميلاد	للهجرة	للميلاد	
ادريس بن عبد الله	172	788	177	793	قتل مسموما
ابنه ادريس	188	804	213	828	تركه ابوه حملا
ابنه محمد	213	828	221	835	
ابنه علي	221	835	234	848	
اخوه يحي بن محمد	234	848			ايامه أسس جامع القرويين 245
ابنه يحي بن يحي					مات من مكيدة يهودية طرده عبد الرزاق الصفري
ابن عمه علي بن عمر بن ادريس					
ابن عمه يحي بن القاسم ابن ادريس			292	904	
يحي بن ادريس بن عمر ابن ادريس	292	904	309	921	
الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس	310	922	311	923	

4 ـ العلويـون بالمغـرب الاوسـط

كان المغرب الاوسط لزناتة • وسيادتها لقبيلتين منها هما مغراوة ويفرن • وموطنهما نواحي تلمسان الى وهران الـى شلف شمالا وغريس من ناحية المعسكر جنوبا • ورئاسة مغراوة كانت صـدر الاسلام لصولات بن وزمار ثم ابنه حفص . وكان من أعظم ملوك زناتة ، وخلفه ابنه خزر ، ولعهده كان المغرب ثائرا على بني أمية ، فاعتز بقومه ، وعظم شأنه ، وهلك في بداية الدولة العباسية ، فخلفه ابنه محمد ، وعلى عهده ظهر ادريس •

لما أسس ادريس دولته بالمغـرب الاقصى توجه نحـو المغرب الاوسط كي يفتح لدولته طريقا الى المشرق وما زال المشرق حتى اليوم قبلة آمال الدول وميدان تطاحن الاقوياء منها • فزحف منتصف رجب سنة 173 في جموع مطغرة وغيرهم • ونزل علـى تلمسان • وصاحبها يومئذ محمد بن خزر • فأطاعه وسلم له المدينة • فدخلها من غير حرب • واقام بها أشهرا • بنى بها المسجد الاعظم • وكتب على منبره : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم • وذلك في صفر سنة 174 » • قال ابن خلدون : « ولم يزل اسمه محفوظا في صفح المنبر لهذا العهد » •

أخذت زناتة بدعـوة ادريس وتبعتها مغيلة • وحاربوا لهـا الرستميين وغيرهم • وقامت قيامة هرون الرشيد لما بلغه خبره • وقال : « تلمسان باب افريقية • ومن ملك الباب يوشك ان يلج الدار » • فأوعز الى أمراء القيروان بحربه • فحاربه روح بن حاتم من غـير طائل وهم بعده الفضل ابن روح بحرب المغرب الادريسي • فلم يطعه الجند • وكثر تمرد الجند على الامراء • واستشار الرشيد وزيره

يحي البرمكي • فأشار عليه بارسال داهية يتحيل في اغتيال ادريس • فاختار الشماخ الذي تحيل حتى توصل الى سم ادريس • « ورب حيلة أنفع من قبيلة » •

ولحق بادريس اخوه سليمان • وكان • ممن حضر وقعة فخ ونجا على الصحيح • قال البكري : « قال علي النوفلي أخبرني عيسى بن جنون قاضي ارشقول لادريس بن عيسى (من بني سليمان) ، ودخل الاندلس غازيا ، ان سليمان بن عبد الله دخل المغرب أيضا • ونزل تلمسان » • وقال ابن خلدون : « لحق سليمان بجهات تاهرت بعد مهلك ادريس • فطلب الامر هنالك واستنكره البرابرة • وطلبه ولاة الاغالبة • فكان في طلبهم تصحيح نسبه (لدى البربر) ولحق بتلمسان • فملكها واذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك » •

ولما هلك سليمان خلفه ابنه محمد • وكبر ابن عمه ادريس الاصغر • فانصلت ايديهما • ونهض ادريس الى تلمسان سنة 199 وحارب المخالفين عليه من نفزة وبقية الصفرية • وبلغ شلفا وما وراءه الى بلاد صنهاجة • وألفى جامع والده قد انصدع فرممه • وأصلح منبره • نقل ابن ابي زرع عن عبد الملك الوراق انه قال : « دخلت تلمسان سنة 5 25 فرايت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه : هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة 199 » •

أقام ادريس بتلمسان ثلاث سنوات • ثم اصطلح مع ابن الاغلب وعينت الحدود بينهما بوادي شلف • وعقد على المغرب الاوسط لابن عمه محمد بن سليمان • وكر راجعا الى عاصمته • واستقر محمد بعين

الحوت من ناحية تلمسان • وتوفي بجبل وهران • وترك ابناء اقتسموا مملكته • وسنفرد لمالكهم فصلا •

وافلت من وقعة فخ ايضا داوود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب • ولحق ببني عمه بالمغرب • وحضر مع ادريس الاصغر بعض وقائعه مع الخوارج • قال البكري : « وانصرف داوود الى المشرق • وبقيت ذريته بفاس • وبنو ادريس يناكحونهم » •

ومن بني جعفر هذا اخي عبـد الله الكامل رجال نزلوا متيجة وملكوها •

ولحق بالمغرب ايضا من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب • ونزل مدينة هاز القريبة من المسيلة • وكانت له من تلك الجهات مملكة • قال البكري : « وكان له من البنين حمزة وعبد الله وابراهيم واحمد ومحمد والقاسم • وكلهم أعقب وعقبهم هنالك » •

واذا نظرنا الى الممالك العلوية من بني محمد بن سليمان وبني جعفر وبني الحسن الفروع الثلاثة التي نزلت المغرب الاوسط وجدناها تمتد على السواحل من أرض الريف غربا الى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا • وغرضنا الآن معرفة مملكتي هاز ومتيجة •

1 — مملكـة هـاز :

تمتد من ناحية البويرة على مقربة من جبال جرجرة الى نواحي زاغز الشرقي الى نواحي قصر البخاري فتشتمل على سـهل حمزة الفسيح • وبهذه الجهة من القرى اليوم عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى وغيرها •

وسمي سهل حمزة بحمزة بن الحسن صاحب هاز • والبويرة

كانت تسمى سوق حمزة لانه الباني لها • قال البكري : « وسوق حمزة مدينة عليها سور وخندق • وبها آبار عذبة • وهي لصنهاجة • نزلها حمزة بن الحسن وبناها » •

واستمرت مملكة هاز لبني الحسن حتى ظهرت دعوة الشيعة وأخذ بها زيري بن مناد الصنهاجي • فاجلب على مدينة هاز وخربها • وفي أيام المعز بن المنصور اجلب قائده جوهر على هذه المملكة وقضى عليها قال ابن خلدون : « وحمل بني حمزة منهم الى القيروان • وبقيت منهم بقايا في الجبال والاطراف معروفون هنالك عند البربر » •

ومدينة هاز ذكرها البكري فيما بين المسيلة وتاهرت • قال : « مدينة هاز على نهر شتوي • وهي خالية أجلى أهلها زيري بن مناد الصنهاجي ، ومنها الى بورة على نهر جار يسكن حوله بنو يرناتن • وهم كانوا أصحاب هاز • وبورة كثيرة العقارب • وبها سويقة • ومنها الى حصن موزية • وبقرب هذا الحصن قصر من بنيان الاول بالصخر يعرف بقصر العطش حوله ماء ملح ومدينة عظيمة للاول ايضا خالية مبنية بالصخر يعرف بالجليل تسمى مدينة الرمانة تنفجر تحتها عيون ثرة طيبة تسيل الى المسيلة ومدينة للاول ايضا خالية تسمى بالبربرية تاورست تفسيره الحمراء وهي مبنية بالصخر على نهر عذب • ومن حصن موزية الى مدينة المسيلة » •

وقال اليعقوبي ان سكان مدينة هاز هم بنو يرنيان من زناتة خلاف قول البكري انهم بنو يرناتن •

وذكر الادريسي مدينة هاز بين المسيلة واشير فقال : « ومن أشير زيري الى قرية سعيد مرحلة • وبها عين ماء جارية • ومنها الى قرية هاز في فحص رمل مرحلة وبها عيون مياه • وقد خربت • ومنها الى المسيلة مرحلة » وبورة بكسر الواو • تدعى اليوم بورة الصحاري

قريبة من شط زاغر الشرقي • وهاز بينها وبين اشير • فتكون نواحي عين بوسيف •

2 — مملكـة متيجـة :

متيجة سهل فسيح قرب مدينة الجزائر • يفصل بينه وبين سهل حمزة جبال تيطري • قال اليعقوبي : « وهو بلد زرع وعمارة واسع فيه عدة مدن وحصون • تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي ابن ابي طالب • يقال لهم بنو محمد بن جعفر » •ولم نعلم أكثر من هذا عن اصحاب هذه المملكة • ولكن من الضروري انهم سـلكوا سبيل أخوانهم بعد ظهور الشيعة •

وسهل متيجة سمي بمدينته التي كانت فيه • ويقال لها أيضا قزرونة • وتدعى اليوم البليدة • قال البكري : « ومن المدية الى قزرونة وهي مدينة على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين • ويقال لها متيجة • ولها مزارع ومسارح • وهي اكثر تلك النواحي كتانا • ومنها يحمل • وفيها عيون سائحة وطواحين ماء • ومنها الى مدينة آغزر ومنها الى مدينة جزائر بني مزغني » •

5 — ممالك بنى محمد بن سليمان

نقل ابن خلدون عن ابن حـزم : « ان بني محمد بن سليمان بالمغرب كثير جدا • وكان لهم به ممالك • وقد بطل جميعها • ولم يبق منهم بها رئيس » •

وقد بين اليعقوبي هذه الممالك فقال : « متيجة مدينة مدكرة فيها ولد محمد بن سليمان • ومدينة الخضراء • ويتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع • يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية • وعددهم كثير

حتى ان البلد يعرف بهم وينسب اليهم • وآخر المدن التي في أيديهم سوق ابراهيم • وهي المدينة المشهورة • فيها رجل يقال له عيسى ابن ابراهيم بن محمد بن سليمان • ثم من هذه الى تاهرت ••

« ثم من مملكة ابن مسالة الهواري الى مملكة لبني محمد بن سليمان ايضا • ومسكنهم في المدينة العظمى تمطلاس • وأهل هذه المملكة من قبائل البربر المتعددة أكثرهم مطماطة • وهم بطون كثيرة ، ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يقال لها ابروح [1] بها بعضهم (يعني بني محمد) وأهلها مطماطة ، ومدينة أيضا يملكها رجل منهم (بني محمد) يقال له عبد الله ، تسمي المدينة الحسنة اذا فسرت من لسان البربر الى العربية » •

« ثم الى المدينة العظمى المشهورة تلمسان ، ينزلها منهم محمد ابن القاسم بن محمد بن سليمان ، ثم مدينة العلويين ، كانت لولد محمد بن سليمان ، ثم تركوها ، فسكنها رجل من ابناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي ، ثم منها الى مدينة يقال لها نمالتة [2] فيها محمد بن علي بن محمد بن سليمان ، وآخر مملكة بني محمد مدينة فالوسن وتليهم مملكة صالح بن سعيد الحميري » •

مملكة صالح بن سعيد هي بلد نكور من وطن الريف على البحر في غربيها مرسى بادس ، فتكون ممالك بني محمد بن سليمان تمتد من هناك غربي مدينة مليلة وتذهب مساحلة مشرقة الى ان تنقطع نواحي مستغانم بامارة هوارة ، ثم تعود بناحية تنس وتذهب جنوب شلف الى مليانة وتنتهي بمتيجة •

---

(1) كذا غير معجمة . ولم نهتد الى لفظها .

(2) ذكرها الادريسي بلفظ ثمالة . فقال : من فاس الى نهر سبو . ويمر الطريق منه الى ثمالة مرحلة . وهي قبل وادي ملوية غربا . وذكر ابن خلدون في بطون زناتة نمالة . ولم يعين موطنهم .

وذكر التنسي وغيره ان محمد بن سليمان ترك من الابناء أحمد وعيسى وادريس وعليا وابراهيم وحسنا وعبيد الله وعبد الله العالم المحدث ، وظاهر اليعقوبي ان منهم القاسم الذي خلفه ابنـه محمد بتلمسان ، وابن خلدون والتنسي وغيرهما يقولون ان الذي كـان بتلمسان من ابناء محمد هو احمد وهو ولي عهده ، فخلفه بها بعد وفاته ، ثم توفى احمد فخلفه ابنـه محمد ، ثم خلف محمدا ابنه القاسم ، وعليه انقرض ملك هذا الفرع .

وعلي ظاهر اليعقوبي انه كان بمدينة نمالتة ، وخلفه بها ابنـه محمد ، ولم نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا .

وعيسى كان بأرشقول ، وطالت مدتـه الى ان توفي سنة 295 فخلفه ابنه ابراهيم ، ويعرف بالارشقولي ، ثم يحي بن ابراهيم ، ثم اخوه ادريس بن ابراهيم ، وظهرت عليه دولة العبيديين .

وادريس كان بجراوة جنوب مليلة شرقي نكور ، وتزوج ابنه احمدام السعد بنت صالح بن سعيد ، وسكن معها مدينة نكور الى ان مات ، وله ابن آخر يدعى عبد الله الترناني كان بترنانا ، والذي خلفه على جراوة من ابنائه وهو ابو العيش عيسى فلما هلك خلفه ابنه الحسن ، ولعهده كانت دولة العبيديين .

قال البكري : « وكان لابي العيش ومن خلفه مدينة تلمسـان ايضا وما والاها » . فيظهر انه استولى على عمل ابناء عمه احمد قبل ظهور العبيديين ، ومدح ابا العيش بكر بن حماد التاهرتي ، قال من كلمة طويلة :

سائل زواغـة عن فعال سيوفه ورماحـه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرغ بالوشيج الذبل
عمت مغيلة بالسيوف مذلـة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وهذه القبائل كانت مساكنها هنالك .

وابراهيم ظاهر اليعقوبي انه كان بسوق ابراهيم ، وخلفه بها ابنه عيسى ، فتكون المدينة منسوبة اليه ، وقال غيره : « كان ابراهيم بتنس وخلفه ابنه محمد ثم يحيى بن محمد ثم علي بن يحيى ، ولابراهيم ولد آخر يدعى عيسى كان مع أخيه محمد بتنس ، ومن ولده ابراهيم المنسوب اليه سوق ابراهيم » ، وما لليعقوبي هو الظاهر لان سوق ابراهيم كانت اعمر من تنس .

وحسن . قال التنسي كان بتاهرت ، وظاهر انه أراد ناحيتها ، ولا نعلم أي مدينة كان فيها ، وخلفه ابنه حناش ثم بطاش بن حناش ، ولا نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا كما انا لم نعلم شيئا عن الاخوين الباقيين وهما عبيد الله وعبد الله .

وقد رأينا ان نشرح من حال المدن السابقة مما عثرنا عليه ما يبين الموقع والاهمية تاركين الحديث عن المراسي الممتدة شمال هذه الممالك مثل وهران وعين فروج وقصر الفلوس لكثرتها وطول الحديث عنها ، فاما مدكرة فلم نجد لها ذكرا ولا ما يقارب لفظها غير كلمة زكار اسم جبل مليانة فان لم تكن مدكرة هي مليانة فقريبة منها ، قا ل البكري :

« تسير من سوق كرام الى مليانة ، وهي مدينة رومية فيها آثار وهي ذات أشجار وانهار تطحن عليها الارحاء ، جددها زيري بن مناد واسكنها ابنه بلقين (خليفة العبيديين بالقيروان) وهي عامرة ، ومنها الى مدينة الخصراء ، وهي مدينة كبيرة على نهر خرار عليه الارحاء ، واذا حمل دخل المدينة ، وحولها بساتين كثيرة ، ويكتنفها من قبائل البربر مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن ، ومنها الى مدينة بني واريفن ، وهى قديمة ، لمطغرة ، على نهر شلف ، بها حوانيت ، وحولها مسارح واسعة كثيرة الكلأ ، ومنها الى مدينة قارية ، وهي مدينة لطيفة ذات أعين كثيرة وهي في سفح جبل . ومنها الى مدينة تنس » .

هذه طريق اشـــير الى تنس • وهناك طريـــق أخرى قال فيها البكري : « وان آردت طريق الساحل من تنس الى اشير زيري فمن تنس الـــى بني جليداسن مدينة لطيفة لمطغرة يســـكنها الاندلسيون والقرويون ولا يدخلها برقجاني من وقت غدرهم بها وهي بلدة طيبة بها عيون عذبة • وهي مطلة على فحص شلف • وهناك مدينة شلف على نهر بها سوق عامرة • تعرف بشلف بني واطيل لزواغة • ومنها الى بني واريفن » •

وذكر طريقا اخرى بين القيروان وتنس • فقال : « من القيروان الى مدينة الغزة على ما تقدم • ثم منها الى مدينة تاجنة ، وهي مدينة سهلية آهلة عليها سور ، وبها جامع ، سكانها برقجانة • وحولها كزناية ، ومنها الى تنس » •

ومدينة الغزة هي المعروفة اليوم بغليزان • وتاجنة هي التـــي سماها الادريسي بلدة التين لكثرة شجره بها • وذكرها على مرحلة من تنس • وذكر سوق ابراهيم متوسطة بين الغزة وبلدة التين • وسوق ابراهيم حيث مصب نهر اسلي في شلف •

وتنس هي قرطنة الفينيقية ، وقد خربت قديما • وانتقلت العمارة الى تنس الحديثة • قال البكري : « بينها وبين البحر ميلان • وهي مسورةحصينة• داخلها قلعةصغيرة صعبةالمرتقى• ينفرد بسكناها العمال لحصانتها • وبها مسجد جامع واسواق كثيرة • وهي على نهر يسمى تناتين ياتيها من جبال على مسيرة يوم • ياتيها من القبلة • ويستدير بها من جهة الجوف والشرق • ويريق في البحر • وبها حمامات •

وهذه تنس الحديثة اسسها البحريون من أهل الاندلس منهـــم الكركرني وابو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم • وذلك سنة 262 ويسكنها من أهل الاندلس أهل البيرة وأهل تدمير • واصحاب تنس

من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي (ض) .

« وكان هؤلاء البحريون من أهل الاندلس يشتون هنالك ، اذا سافروا من الاندلس ، في مرسى على ساحل البحر ، فتجمع اليهم بربر ذلك القطـر ورغبوا في الانتقال الى قلعة تنس ، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى ، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة ، فأجابوهم وانتقلوا الى القلعـة ، وخيموا بها ، وانتقل اليهم من جاورهم من أهل الاندلس وغيرهم ، فلما دخل عليهم الربيـع اعتلوا واستوبؤا الموضـع ، فركب البحريون الاندلسيون مراكبهم واظهروا لمن بقي منهم انهم يمتارون ، فنزلوا مرية بجايـة وتغلبوا عليها » .

« ثم ان الباقين في تنس لم يزالوا في تزايد ثروة وعدد ، ورحل اليهم أهل سوق ابراهيم ، وكانوا في اربعماية بيت ، فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم ، وتعاونوا علـى البنيان . واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم » .

« ولها بابان الى القبلة وباب البحر . وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقي يخرج منـه الى عين تعرف بعين عبد السـلام ثرة عذبة » .

ومدينة العلويين ذكرها الادريسي في طريـق فاس على مرحلة من تلمسان . قال : « وهي قرية كبيرة على نهر ياتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة » .

ومدينة ترنانا وسط بين مدينتي جراوة وتلمسان ، قال البكري : « وهي مدينة مسورة ، ولها سوق ومسجد جامع ، وبساتين كثيرة . وبينها وبين ندرومة ثمانية أميال » .

وارشقول مؤسسة مكان صيغة القديمة ، قال البكري : « وهي على نهر تافنا يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها تدخل منه الى المدينة السفن اللطاف من البحر • وبينهما ميلان ، وهي مسورة وبها جامع حسن فيه سبعة بلاطات ، وفي صحنه جب كبير ، وصومعة متقنة البناء ، وفيها حمامان احدهما قديم ، ولها من الابواب باب الفتوح غربي وباب الامير قبلي وباب مرنيسة شرقي ، محنية كلها عليها منافس ، وسعة سورها ثمانية أشبار ، وامنع جهاتها جوفيها ، وبها آبار عذبة لا تغور • تقوم باهلها ومواشيهم ، ولها ربض من جهة القبلة ، ويقابلها جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشقول ، بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير في سكون البحر ، وهي مستطيلة من القبلة الى الجوف عالية منيفة » •

وجراوة سميت باسم قبيلة بربرية من زناتة كانت هناك ، وهي على ستة أميال من البحر وعلى مرحلة من وادي ملوية الى ناحية تلمسان قال البكري . « وهي في سهل من الارض كان عليها سور مبني بالطوب ، وداخلها قصبة ، وحولها ارباض من جميع جهاتها وعيون ملحة ، وداخلها آبار عذبة وخمس حمامات احدها ينسب الى عمرو بن العاص ، وجامع من خمسة بلاطات على عمدة حجارة • أسسها ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان سنة 259 وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي ، وحواليها بسائط عريضة للزرع والضرع وعدة قرى لقبائل من البربر : مطغرة وبني يفرن ووداتة ويغمر الجبل وبني راسين وبني باداسن وبني ورميش وغيرهم • ولجراوة مرسى تافرجينت • وجبل مما لوا قبلي المدينة به حصن بناه الحسن ابن ابي العيش • حواليه بساتين ومياه تطرد • وبينه وبين جراوة اربعة اميال ويتصل بالحصن اسفل الجبل شعاري اشبة لا تسلك » • ا هـ ببعض تصرف •

6 ـ سقوط الدولة الادريسية

تأسست الدولة الادريسية سنة 172 (788م) وانتهت بالقبض على الحسن الحجام سنة 311 (923م) فكانت مدتها 139 سنة قمرية ومملكة الادارسة واسعة النطاق تشتمل على المغرب الاقصى أجمع وبعض المغرب الاوسط • وبها حصون طبيعية ومعاقل ممتنعة • ولكن سهل سقوطها في يد العبيديين اشتمالها على ضعفين سياسي واداري •

ذلك ان الادارسة بقوا تلك المدة في الملك من غير مزاحم ولم يعتنوا بتهذيب البربر تهذيبا يحبب اليهم النظام ويكره اليهم الفوضى • بل ان البربر لم يزالوا على حالهم يتشوقون لمن يقودهم الى الثورة عسى ان يقضوا بعض الزمان في الفوضى فما كادت تظهر دعوة العبيديين حتى هرعوا اليها • ولقبيلة مكناسة وأميرها موسى بن ابي العافية اليد الطولى في اعانة العبيديين على الادريسيين •

وكان النظام الاداري على ما علمت قد فكك وحدة الدولة الحربية وذهب بقوتها المالية • فلم تجد ما تدافع به ذلك الخطب الداهم • ولانفصال أعمال المملكة بعضها عن بعض اداريا لم تسقط كل الاعمال بسقوط فاس • فان الجزائر العلوية بقيت بعدها مدة •

لما ظهرت دعوة العبيديين بالمغرب وقضت على الدعوة الادريسية زاحمتها الدعوة الاموية فافتتح عبد الرحمن الناصر مليلة سنة 314 وبث دعاته بالمغرب • فلباه ادريس بن ابراهيم صاحب أرشقول • وكاتبه واهدى اليه • واقتفي أثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جراوة وموسى بن ابي العافية ومحمد بن خزر المغراوي فنازلتهم جيوش العبيديين • فخضع لهم صاحبا جراوة وأرشقول خضوع من عجز عن المقاومة • وكلف الناصر بحربهما موسى بن ابي العافية • فوقعا بين قوتين اوجبتا تلونهما في السياسة •

في سنة 315 بعث عبيد الله المهدي ابنه ابا القاسم لاخضاع المغرب • فافتتح بلد نكور • ونازل الحسن صاحب جراوة وضيق عليه وفي سنة ٣١٩ زحف موسى بن أبي العافية بدعوة العبيديين الى تلمسان وغلب عليها الحسن • قال ابن خلدون : « ففر عنها الى مليلة • وبني حصنا لامتناعه بناحية نكور • فحاصره (موسى) مدة ثم عقد له سلما على حصنه » قال السلوي : « وكان عقد السلم في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة » • وفي هذه السنة أخذ موسى بدعوة الناصر الاموي •

وفي سنة 33 جهز ابو القاسم بن المهدي عسكرين احدهما الى فاس بقيادة مسور الخصي • والآخر ارسله مددا لميسور بقيادة صندل الفتى الاسود • قال البكري : « فخرج صندل من المهدية في جمادى الاخيرة سنة 323 فوصل جراوة الحسن بن ابي العيش فاستراح بها أياما » • وقال ابن خلدون : ان صندلا حاصر جراوة • فعلى روايته يكون الحسن غير خاضع للعبيديين يومئذ • وعلى رواية البكري يكون خاضعا لهم • وهي أصوب •

ولما افتتح ميسور فاسا حارب ابن ابي العافية وهزمه • وقفل الى القيروان • فعرج على ارشقول • وخرج اليه صاحبها ادريس ابن ابراهيم ملاطفا له بالتحف فاستراب به • وتقبض عليه واصطلم نعمته • كذا في ابن خلدون • وفي البكري ان المتقبض عليه أخوه يحيى • قال ابن خلدون : وولي مكانه ابا العيش بن عيسى منهم • والظاهر ان في العبارة حذفا وتحريفا • وصوابها : ولي مكانه الحسن ابن ابي العيش عيسى • وهذا الحسن هو صاحب جراوة • وقد كان يومئذ آخذا بدعوة العبيديين • فلعلهم اضافوا اليه ارشقول أيضا •

ولما عاد ميسور الى افريقية رجع موسى بن ابي العافية للاغارة

على اعمال العبيديين • قال ابن خلدون : « وزحف الى تلمسان • ففر عنها ابو العيش • واعتصم بارشقول • فنازله وغلبه عليها سنة 25 ولحق ابو العيش بنكور • واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه •• ثم سرح (موسى) ابنه مدين في العساكر • فحاصر ابا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها » • ولفظ ابي العباس وابي العيش محرفان • وصوابهما الحسن بن ابي العيش • وتلك القلعة هي الحصن الذي تقدم ان الحسن بناه بناحية نكور • وهو الحصن الذي ذكره البكري بجبل ممالوا • قال البكري : « وفي الحصن المذكور اسر البوري بن موسى بن ابي العافية الحسن بن ابي العيش سنة 338 وكان قد انتقل اليه من جراوة باهله وماله وولده » • ويؤيد اتحاد الحصن وصاحبه قول ابن خلدون في اخبار الادارسة : « لما أخذ ابن ابي العافية بدعوة الاموية نابذ اولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن ابي العيش وغلبه على جراوة • فلحق بابن عمه ادريس بن ابراهيم صاحب ارشقول ثم حاصرها البوري بن موسى بن ابي العافية • وغلب عليهما • وبعث بهما الى الناصر • فأسكنهما قرطبة » •

ولما ذكر البكري جزيرة أرشفول قال : « واليها لجأ الحسن بن عيسى ابي العيش صاحب جراوة وتخلى مما كان بيده لما غلبه على ذلك موسى بن ابي العافية •• فكتب موسى الى صاحب الاندلس عبد الرحمن الناصر يسأله نصرته عليه ويقرب له المأخذ •• فأمر عبد الرحمن أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باقامة خمسة عشر مركبا حربية • ثم جهزها بالرجال والسلاح والازودة والاموال • فاحاطت بهذه الجزيرة • وقتلوا كثيرا ممن كان فيها وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشا لما نفذت مياه جبابهم حتى تداركهم الله بغيث وابل فلم يطمع فيهم أهل الاسطول حين سقوا وانصرفوا قافلين فوصلوا الى المرية في شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة • ثم ظفر البوري بن

موسى بن ابي العافية بالحسن بن عيسى الذي لجأ الى أرشقول وبعث به الى عبد الرحمن الناصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة » •

وفي تاريخه وصول الاسطول الى المرية نظر فقد تقدم ان موسى حارب الحسن باسم العبيديين وعقد له السلم سنة عشرين ثم حاربه سنة خمس وعشرين باسم الامويين •

وبعد فقد بذلنا الوسع لجمع الروايات وتمحيصها فيما يتعلق بأخبار صاحبي أرشقول وجراوة مع العبيديين والامويين[1] فلم نستطع ان نفيد القارىء باكثر مما وضعناه بين يديه •

اما صاحب تنس علي بن يحي فقد تأخر سقوط امارته الى سنة 342 ففيها تغلب زيري بن مناد على تنس ولحق علي بن يحي بالخير بن محمد بن خزر المغراوي صاحب وهران يومئذ • واجاز ابنا علي يحي وحمزة الى الناصر • فلقاهما رحبا وتكرمة • ثم عاد يحي منهما الى طلب تنس فلم يظفر بها • وجواز ابني علي الى الاندلس يدل على ان اباهما كان آخذا بالدعوة الاموية مثل ابن عمه صاحب ارشقول •

هكذا انتهى أمر بني سليمان من الجزائر وسقطت معهم الجزائر العلوية بعد نحو نصف قرن من سقوط فاس •

---

(1) التقطنا تلك الاخبار من المغرب للبكري صفحات 78 ' 98 ' 142 — 143 ومن ابن خلدون (4:17—18 ' 39 ' 141) 6:135—6 ' 213 (7:76)

الباب الرابع

في الدولة الاغلبية

ا ـ كلمة عـن الدولـة العباسـية

الدولة الاغلبية مرتبطة بالدولة العباسية وجـزء من أجزائها • تستمد من أنظمتها ومعارفها وحضارتها • فلا بد من كلمة عن الدولة العباسية تعيننا بعض الاعانة على تصور الدولة الاغلبية •

بعد عراك شديد بـين الامويين والعباسيين ظهر العباسيون • وبويع بالكوفة ابو العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب • وذلك سنة 132 (750م) وجاء بعـده أخـوه المنصور • فاسس بغداد سنة 145 (762م) وانتقل مركز الخلافة اليها فلم تزل دار الخـلافة العباسية وقبلة آمال رواد المعارف ومصـدر الحضارة الاسلامية حتى استولى عليها التتر وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها سنة 656 (1258) .

اجتازت الخلافة ببغداد ثلاثـة أدوار : دور الصعود والعظمة (132 — 247) انتهى بقتل جعفر المتوكل سنة 247 ، دور الهبوط الى دخول معز الدولة بن بويه بغـداد على عهد المستكفي سنة 334 حيث قضى على ما بقي للخلفاء مـن نفوذ سياسي ، ويومئذ دخلت الخلافة دورا ثالثا أصبحت فيه عبارة عـن ذكر الخليفة في السـكة والخطبة • وقالوا أنها صارت رئاسة دينية • ولكنها ـ عندي ـ رئاسة وهمية اخترعها السلاطين المتغلبون على الخلافة تعزيزا لمركزهم لا تقوية للخلافة اذ حياة الخليفة في هذا الدور تحت رحمة السلاطين • فكيف يعقل له نفوذ ديني ؟

وقد تأسست الدولة الاغلبية في شباب الدور الاول حيث عني

الخلفاء بتنظيم شؤن الدولة واحداث المناصب وضبطها في الحكومة • فنقلوا الدولة من بساطة الخلافة وسذاجتها الى ضخامة الملك ودقة نظمه ، وعنوا كذلك بالعلوم والآداب وترقية المدارك عناية لم يسبقوا بها ولا حاكاهم من بعدهم فيها • ترجموا علوم اليونان وآداب الفرس وحكمة الهند ، وبذلوا في ذلك الاموال وقربوا أهل العلم ايا كان جنسهم ودينهم ، وأسسوا المكاتب والمدارس ، فانطلقت الافكار متسابقة في مبدان الابتكار • فانتشرت العلوم والمعارف وترقت الآداب ولطفت الاذواق ، وعم التهذيب الافكار والاعمال من انشاء وتحرير وبناء وتزويق وغناء وتوقيع وهلم جرا •

قال سديو في كتابه « خلاصة تاريخ العرب » : « وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد الى شرلمانية ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدتها » •

وأظهر خلفاء الدور الاول عناية بالعلوم والحضارة ابو جعفر المنصور وهارون الرشيد وعبد الله المأمون ، وجاراهم في عنايتهم من بعدهم من الخلفاء وقلدهم فيها ولاتهم بالجهات مثل الاغالبة ، ولعل تلك الساعة الدقاقة انما اجتازت الى فرنسا على طريق القيروان •

ولما اخذت الدولة في السقوط السياسي كانت العلوم والآداب والصنائع والفنون الجميلة قد نضجت وأصبحت الامة قادرة على القيام بها متعشقة لها ، فلم يضرها ما أصاب الدولة من خلل بل بقيت في سيرها الى الامام تخدمها الايام •

2 ـ تاسيس الدولة الاغلبية

كان المغرب لعهد تاسيس الدولة العباسية يضطرب فتنة ، فلما

كانت خلافة ابي جعفر المنصور اهتم به ، فولى عليه محمد بن الاشعث الخزاعي ، وكان الاغلب بن سالم التميمي بخراسان من اضراب ابي مسلم الخراساني وكبار أولياء الدولة . فقدم المغرب مع ابن الاشعث . وكان الزاب هو طريق ثوار المغرب الاوسط الى افريقية فلما خلصت افريقية لابن الاشعث ولى الاغلب على الزاب كي يكون سدا في وجوه الثوار ، فنزل قاعدته طبنة .

وفي سنة 148 عاد ابن الاشعث الى المشرق فقلد المنصور الاغلب امارة المغرب ، فانتقل الى القيروان ، وقتل في بعض مواقفه مع الثوار سنة 150 وصارت الامارة الى آل ابي صفرة الازديين ، وكان من ولاة طبنة أيامهم المخارق بن غفار الطائي ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب ابن صفرة ثم ابراهيم بن الاغلب ، وانقضت امارة آل ابي صفرة وولي الامر هرثمة بن أعين .

قدم هرثمة القيروان سنة 177 فهاداه ابراهيم بن الاغلب ولاطفه فاقره على عمله بطبنة ، فبقي عاملا له ولمحمد ابن مقاتل العكي من بعده ، وثار الناس بابن مقاتل واخرجوه من القيروان ، فبلغ الخبر ابراهيم بن الاغلب فسار في جنوده ودخل القيروان واعاد اليها أميره العكي ، ولكن الناس سئموا سيرته ، وداخلوا ابراهيم في مخاطبة الخليفة بولايته على المغرب .

هناك أتيحت لابراهيم فرصة الاستقلال فانتهزها ، وكتب الى الرشيد طالبا منه امارة القيروان على ان يؤدي اليه كل عام اربعين الفا ويسقط مائة الف دينار كانت مصر تعين بها المغرب ، فاستشار الرشيد اصحابه ، فاشار عليه هرثمة بولايته . فكتب العهد له بذلك منتصف سنة 184 (800م) .

ولقد كان الرشيد حريصا على بقاء المغرب متصلا بدولته ، وقد

علم ضعف الامراء السابقين عن مقاومة ثواره ، فكان يوالي شرلمانية ملك الافرنج كي يتخذ منه سدا أروبيا في وجوه بني أمية ، ثم أقام ابن الاغلب سدا افريقيا في وجوه تلك الدول المستحدثة بالمغرب ، فكان رشيدا في سياسته كما كان ابن الاغلب كفؤا لامارة القيروان •

3 ـ الحكومـة الاغلبيـة

الحكومة الاغلبية تابعة لبني العباس اسما ومستقلة فعـلا ، واستفاد العباسيون من هذا الارتباط فائدة ادبية هي رسوخ سيادتهم في قلوب البربر رسوخا عجز العبيديون عن محاربته وظهرت آثاره ايام المعز الصنهاجي •

واستفاد الاغالبة مـن ذلك فوائـد علمية وادارية وسياسية ، فاستمدوا من العباسيين معارف ونظما ادارية وقبل البربر والعرب سيادتهم ، فلم يلقوا اضطرابات داخلية ولا وقعوا بين هجمات شرقية وغربيـة •

ورئيس الحكومة يلقب الامير ، والقضاء مستقل عنه وغير مقيد بمذهب من مذاهب السلف ، وللامير وزيران مفوضان قد يصل بهما النفوذ الى الاستبداد عليـه ، وتحتهما وزراء منهم صاحب الخراج بمعنى وزير المالية اليوم ، وصاحب البريد ، وقائد الجيش بمعنى وزير الحرب ، ومقدم الاسطول بمعنى وزير البحر •

ونفوذ الامير يمتد بواسطة عماله على جميع المملكة من طرابلس الى الحضنة والزاب ، وهنالك أماكن لا تصل اليها ايدي العمال • ومن الجهات ما تتوارث ولايته اسرة خاصة •

والحكومة الاغلبية أقوى حكومات المغـرب يومئذ على حفظ الامن واحسنها سياسة للرعية • وامراؤها ابقى الامراء آثارا• ومملكتهم

أعلى الممالك حضارة • والتعريف بهؤلاء الامراء خارج عن موضوع كتابنا فنكتفي برسم جدول لتاريخ ولايتهم •

الامير	الولاية هـ	الولاية م	الامير	الولاية هـ	الولاية م
ابراهيم بن الاغلب	184	800	ابنه زيادة الله الثاني	249	863
ابنه ابوالعباس عبدالله	196	812	اخوه ابو الغرانيق محمد	250	864
اخوه زيادة الله الاول	201	817	اخوهما ابراهيم	261	875
اخوهما ابو عقال الاغلب	223	838	ابنه ابو العباس عبدالله	289	902
ابنه ابو العباس محمد	226	841	ابنه زيادة الله الثالث	290	903
ابنه ابو ابراهيم احمد	242	856	وبه انتهت الدولة	296	909

4 ـ الجزائر الاغلبية

ذكر اليعقوبي الزاب • ونسب اليه مدنا منها باغاية وتيجس وميلة وسطيف، وبلزمة ونقاوس وطبنة ومقرة وأدنة • قال : « ومدينة ادنة هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الاغلب • ولم يتجاوزها المسودة » • والمسودة هم العباسيون لان راياتهم سود وشعارهم السواد • وادنة كانت بالحضنة •

هذه الرواية الوحيدة التي عينت حدود الجزائر الاغلبية غربا • ويظهر أنها تنتهي جنوبا الى وادي ريغ الى شط الجريد ، وشمالا الى نواحي سطيف وميلة • ويخرج عنها شمالا وطن فرجيوة وجبال بني خطاب وبني تليلان الى السكيكدة ، وغربا وطن زواوة وصنهاجة • وكان مناد بن منقوش الصنهاجي يقيم الدعوة العباسية ويرجع الى الاغالبة من غير ان يكون لهم عليه نفوذ فعلي • ويظهر ان نفوذ الاغالبة بأوراس ضعيف • وكانوا يشرفون عليه من مدينة باغاية •

وقد رأيت ان الزاب كان يطلق على غالب عمالة قسنطينة اليوم • واختص لعهد ابن خلدون بما هو جنوب أوراس • قال : والجانب الغربي منه قاعدته طولقة ، والوسط قاعدته بسكرة ، والشرقي قاعدته بادس ، ومن مدن الجزائر الاغلبية مجانة وتيفاش وبشرة والغدير •

ومجانة تعرف ايضا بمجانة المطاحن وهي على مرحلة شرقي مسكيانة • مدينة قديمة كبيرة عليها سور طوب • وبها جامع وحمامات• وبها مقطع حجارة الارحي ليس على الارض مثله وحولها معادن الفضة والحديد والكحل والرصاص والمرتك بين جبال وشعاب • ومن سكانها السناجرة أصلهم من ديار ربيعة • وهم جند السلطان • هذا ما وصفها به اليعقوبي والبكري • ويطلق اليوم اسم مجانة على سهل غربي برج بوعريريج •

وبشرة على ثلاث مراحل من الجريد • قال اليعقوبي : « وهي اعظم مدأئن نفزاوة • وبها ينزل العمال » •

وتيفاش قال البكري : « مدينة اولية شامخة البناء • فيها عيون ومزارع كثيرة • وهي في سفح جبل • وفيها آثار للاول كثيرة » •

وباغاية مدينة جليلة اولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح • ويتصل بناحيتها الغربية بساتين ونهر • وحولها من بقية النواحي ربض كبير • به فنادقها وحماماتها واسواقها • وجامعها داخل الحصن • وبفحصها قبائل مزاتة وضريسة رحالة • وقد خلي الربض زمن الادريسي » وهي بين خنشلة والعين البيضاء •

وتيجس من عمل باغاية شمالها • مدينة اولية شامخة البناء كثيرة الكلأ والربيع • عليها سور صخر رومي • ولها ربض • وبها أسواق وجامع وحمام • وحولها من قبائل البربر نفزة وورغروسة وبنو ونمو وكزناية وحمزة من زناتة •

وبلزمة قال اليعقوبي : « أهلها من بني تميم ومواليهم • وقد خالفوا على ابن الاغلب في هذا الوقت » • وسبب خلافهم ان الامير ابراهيم بن ابي ابراهيم اتخذ نحو الالف منهم جندا • ثم أمر بقتلهم • فقتلوا عن آخرهم بعد دفاع • وقال البكري المتأخر عن اليعقوبي : « هو لمزاتة حصن قديم في بساط من الارض كثير المزارع والقرى كثير الانهار والثمـار » •

ونقاوس قال اليعقوبي : « كثيرة العمارة والشجر والثمر ، بها قوم من الجند وحولها البربر من أوربة وغيرهم » •

ومقرة بسكون القاف قال : « لها حصون كثيرة • وأهلها من بني ضبة وغيرهم • وحولها بنو زنداق وغيرهم » • قال البكري : « مقرة بلد كبير ذو ثمار وانهار ومزارع » • والى مقرة هذه ينسب المقريون الشهيرون بالعلم والادب الذين منهم صاحب نفح الطيب •

وادنة اخربها علي بن حمدون صاحب المسيلة سنة 324 وكل من مقرة وادنـة في وطـن الحضنة • وجاءت في اليعقوبي وياقـوت بلفظ اربة [1] •

وطولقة قال البكري : « هي ثلاث مدن كلها عليها أسوار طوب وخنادق • وحولها أنهار • وهي كثيرة البساتين بالزيتون والاعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار • احداها يسكنها المولدون والثانية يسكنها اليمن والثالثة يسكنها قيس » •

وبسكرة بكسر الباء والكاف قال : « كورة فيها مدن كثـيرة قاعدتها بسكرة • وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون واصناف الثمار • عليها سور وخندق • وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات •

---

(1) وقد غرنا ذلك فكتبنا ما كتبنا بهامش ص 334 من الجزء الاول .

وحولها بساتين مساحة ستة اميال • ولها ارباض خارج الخندق ، وابواب منها باب المقبرة وباب الحمام • وسكانها المولدون • وهم على مذهب أهل المدينة • وبها علم كثير » •

وبادس قال : « على مرحلة شرقي تهوذة • وهي حصنان لهما جامع واسواق وبسائط ومزارع جليلة يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة » •

والغدير قريبة من برج بوعريريج • مدينة كبيرة أولية بين جبال • فيها عين ثرة عذبة عليها الارحاء وعين أخرى • وتحتهما عين خرارة تدعى عين مخلد • ومن هنالك منبعث نهر سهر • وبها جامع واسواق عامرة وفواكه كثيرة • واسعارها رخيصة • وسكانها هوارة يعتدون في ستين ألفا » •

وسطيف « مدينة كبيرة جليلة اولية كان عليها سور خربته كتامة مع ابي عبد الله الشيعي • وهي عامرة جامعة كثيرة الاسواق رخيصة الاسعار » قال اليعقوبي : » وبها قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل ابن الاغلب « آخرهم علي بن جعفر •

وميلة قال اليعقوبي : « مدينة عظيمة جليلة عامرة محصنة لم يلها وال قط ، وبها حصن دون حصن • فيه رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد من قبل ابن الاغلب ، وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة ، ولها من المراسي جيجل وقلعة خطاب والسكيكدة وغيرها • وهذا البلد كله عامر كثير الاشجار والثمار ، وهم في جبال وعيون » •

وقال الكري : « خربها المنصور بن بلقين الصنهاجي سنة 378 وأجلى أهلها • وبقيت خرابا ثم عمرت • وعليها اليوم سور صخر • وحولها ربض • وبها جامع واسواق وحمامات • والمياه تطرد حولها •

يسكنها العرب والجند والمولدون ، وهي من غرر مدن الزاب ، ولها باب شرقي ، يعرف بباب الروس وعلى مقربة منه جامعها ، وهو ملاصق لدار الامازة ، وباب جوفي يعرف بباب السفلي ، ويليه داخل المدينة عين تعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الارض من جبل بني ياروت ، يشق منها سوقها ساقية ، ولها حمامات في ربضها ، وبها عين تعرف بعين الحمى يرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدة بردها » .

وينسب اليها علماء كثيرون . واشتهر في عالم الادب ابو عبد الله ابن قاضي ميلة . أورد له قطعا الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم . ومن روائع شعره قوله :

جاءت بعود تناغيه فيتبعها ... فانظر عجائب ما يأتي به الشجر
غنت على عوده الاطيار مفصحة ... رطبا . فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه او به طرب ... يهيجه الاعجمان الطير والوتر

5 ـ سقوط الدولة الاغلبية

تأسست الدولة الاغلبية سنة 184 وسقطت سنة 269 فمدتها 112 سنة قمرية . وكان سقوطها على يد ابي عبد الله الشيعي . ذلك انه نزل بفرجيوة من أرض كتامة سنة 280 واخذ في تمهيد الامر لعبيد الله المهدي . فارسل الامير ابراهيم الاغلبي الى موسى بن العباس عامله بميلة يستخبره عنه . فهون أمره عليه . ولما اشتد ساعده بكثرة الاتباع ارسل اليه الامير ابراهيم قائلا :

« ما حملك على التعرض لسخطي والوثوب على ملكي ، فان كنت تبتغي عرض الدنيا منحناك اياه . وان أردت غير ذلك فقد علمت عواقب

من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك • وهذا أول كلامي وآخره • فانظر في يومك لغدك » •

فقال ابو عبد الله للرسول : « قد قلت فاسمع وبلغت فأبلغ • اني لست ممن يروع بالايعاد وفي انصار الدين الذين لا يخشون كثـرة انصار الظالمين • وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة • ولا طمع لي فيما عنده • وانما جئت لامر حم » •

ولم يكن بعد من الامير ابراهيم الا ان خرج غازيا لصقلية سنة 84 وترك مكانه ابنه ابا العباس واوصاه بمسالمة الشيعي وان غلب عـلى افريقية فليلحق بصقلية • وبلغ ابا العباس عن ابنه زيادة الله وما حمله على سجنه ، فصانع زيادة الله بعض الخدم على قتل والده وقتله سنة 90 والحرب قائمة بين الاغلبيين والشيعيين بنواحي سطيف • ثم جلس مكان ابيه وقتل كل من يظن فيه منازعته من اخوته وعمومته • وعكف على الملاهي وأهمل أمر الدولة •

تلك حال الاسرة الاغلبية في هذا الوقت • أما الجند فكان مؤلفا من عرب وبربر من أهل الشام وخراسان وغير ذلك • وكلهم مأجورون ليست لهم غاية دينية أو غيرة وطنية • وربما ثاروا على الحكومة وخرقوا حجاب هيبتها • فلم يكن لهم مـن الحماسة والاخلاص ما لاصحاب الشيعي •

ولم تعمل الحكومة لبسط نفوذها على جميع المملكة • وكانت هذه السياسة نافعة في قلة الثورات الداخلية حتى لا تشتغل باطفائها عن الجهاد الذي كانت معنية به • لكنها ضارة من حيث ترك السبيل لمن يبث دعاية ضد الحكومة ويفسد عليها الرعية •

فلولا سوء هذه السياسة ما وجد الشيعي مكانا لبث أفكاره • ولولا سوء النظام العسكري لتغلبت الدولة على الثورة • ولولا قتل

زيادة الله لابيه واقاربه لامكن للدولة ان تعيش اكثر مما عاشت بافريقية او بصقلية •

والجزائر غير الخاضعة للدولة هي الثائرة • والجزائر الخاضعة لها هي المدافعة • وبتغلب الشيعي عليها تم سقوط الدولة الاغلبية • ففر زيادة الله الى المشرق • واعانه المقتدر العباسي على استرجاع مكانه • ولكن صدق عليه المثل : « الصيف ضيعت اللبن » فلحق ببيت المقدس • وتوفي هنالك ولسان حاله ينشد :

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك بخلعه

الباب الخامس

في الدولة العبيدية

ا ـــ تمهيـــد

كانت الجزائر في القرن الثالث مقسمة بين أمارات حفظت التوازن بين ذوي السلطان ، وارضت القبائل المتعادية باستقلال بعضها عـــن بعض ، فكان ذلك الانقسام مسكنا للثورات منشطا للحياتين العلمية والاقتصادية .

وفي النصف الاخير من هـــذا القرن ساءت الحياة الاقتصادية وارتفعت الاسعار . قال ابن ابي زرع :

« وتوالى القحط سنة 253 الى سنة 65 حتى انه عم سنة 60 بلاد الاندلس والمغرب ومصر والحجاز . وفي سنة 276 طبقت الفتنة جميع بلاد الاندلس والمغرب وافريقية . وفي سنة 285 كانت المجاعة الشديدة التي عمت بلاد الاندلس والعدوة حتى اكل الناس بعضهم بعضا . ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير . هلك فيه من الناس ما لا يحصى » .

لم يخف على ايمة الشيعة بالمشرق ما عليـــه المغرب من ضعف سياسي بسبب انقسامه الى امارات . ومن ضعف مادي لما حل به من المجاعات والموتان فأرسلوا دعاتهم اليه لينشؤا به دولة . ففازوا . وتأسست الدولة العبيدية التي ابتلعت تلك الامارات ووحدت الادارة . ولكنها اعادت للمغرب حياة الثورات .

وهي تنسب الى عبيد الله المهدي اول أيمتها . وكانت قاعدتها

المهدية نسبة اليه ايضا • ثم انتقلت الى مصر وعرفت هناك باسم الدولة الفاطمية •

وكان العبيديون يزاحمون بني العباس في الملك والسياسة وينافسونهم في العلم والحضارة • وبلغت دولتهم بالمغرب ومصر رقيا لا يقل عن رقي الدولة العباسية ، وتركوا آثارا تشهد بفضل حضارتهم ، ولكن لم يكن منها بالجزائر غير ما لعمالهم بني حمدون والصنهاجيين ، وتصح نسبتها لهم لكونهم اساتذة اولئك العمال والآخذين بيدهم الى تلك المنزلة •

2 ـ الشيعة الاسماعيلية بالجزائر

شيعة الرجل من يتابعه ويناصره ، وهم لدى المؤرخين من تولى علي بن ابي طالب وفضله على جميع الصحابة ، ووجدت شيعة علي بعد قبض رسول الله (ص) فكانوا يرونه أحق بالخلافة ، فلما صرفت عنه دخلوا فيما دخل فيه الجمهور •

وقد عرف بعض المفسدين ان لعلي (ض) شيعة ، فاتخذوا التشيع مساغا لتفريق الكلمة وكيدا للاسلام ، وكان من أشهرهم عبد الله بن سبا رجل يهودي ، بث فكرته بالبصرة والكوفة ومصر وانتشرت عنه مقالات في الجهات •

أصبح التشيع ضربا من ضروب التدجيل السياسي • فتعددت المقالات وكثرت الفرق • فكان منها الزيدية اتباع زيد بن علي زين العابدين ، ومنهم شيعة ادريس • ومنها الامامية الروافض ، ومن شعب الامامية الاسماعيلية وهم القائلون بامامة اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وقد توفي حياة والده ومع ذلك يرونه اماما توصلا الى امامة عقبه • وليس من غرضنا شرح مذاهب الشيعة ومباديها •

والاسماعيلية يسمون ايضا الباطنية لقولهم بالامام الباطن يريدون المستور ولقولهم ان نصوص الشريعة رموز مراد بها بواطن لا يفهمها الا الامام • وكان العبيديون من هؤلاء الاسماعيلية •

كان الاسماعيلية ينتخبون الدعاة الاكفاء يبثونهم في الاوطان لنشر مذهبهم • فارسلوا الى المغرب داعيتين هما : السفياني والحلواني وقالوا لهما ان بالمغرب أرض بور فاذهبا اليها واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر • فنزل احدهما مرماجنة والآخر سوق حمار من ناحية قسنطينة • وبثا الاسماعيلية في الناس الى ان توفيا •

وخلفهما ابو عبد الله الحسين بن احمد • قدم مع حاج كتامة : موسى بن حريث كبير بني سكان ومسعود بن عيسى بن ملال المساكتي وغيرهما • فدخلوا به بلدهم سنة 279 وتنازعوا عليه • كل يريد ان يكون معه • فقال لهم ان النص عندي من المهدي • بان منزلي بفج الاخيار ، فاين يكون منكم ؟ قالوا هو عند بني سليمان • وسلموا حكمه وظنوه اطلاعا على الغيب اذ لم يجر ذكر الموضع في طريقهم • وهو عند البصير دليل على تدجيل الشيعة وخبرة أيمتهم باحوال البلدان وما نأى عنها عن قبضة السلطان •

أخذ أبو عبد الله في بث الرفاضية الاسماعيلية وذكر المهدي وقرب ظهوره وأن أولياءه مشتق اسمهم من الكتمان وانه يهاجر اليهم • وعرف بينهم بالمعلم وبالشيعي وبالمشرقي •

ولما تمكنت دعوته انتقل من الجدال الى الجلاد • وأسس في ايكجان قرب سطيف الى ناحية قسنطينة مدينة سماها دار الهجرة • وسمى اتباعه المؤمنين • وقاد الاجناد وفتح البلاد ، ولحق به عبيد الله المهدي فظهر بسلجماسة وحبس بها ، فلما تغلب أبو عبد الله على افريقية ذهب اليه وأتى به وسلم له الامر •

ثم أظلم الجو بين المهدي وداعيته ابي عبد الله وتمشت بينهما

السعايات ، فتخير المهدي من وجهاء كتامة عروبة بن يوسف واخاه حباسة ، وامرهما بقتل ابي عبد الله وأخيه ابي العباس ، ولما حمل عروبة على ابي عبد الله قال له لا تفعل ! فأجابه : « الذي امرتنا بطاعته أمرنا بقتلك ! » فقتلا معا يوم الثلاثاء منتصف جمادى الاخيرة سنة 298 وتلك عاقبة كل ساع في تأسيس دولة لغيره .

ابو عبد الله هو مؤسس الدولة العبيدية على الحقيقة ، كان عالما يقظا سياسيا داهية حربيا ماهرا زاهدا متقشفا ، وهو الذي يقول لما أطل بجيوشه على طبنة من فج زيدان :

من كان مغتبطا بلبن حشية [1] فحشيتي واريكتي سرجي
من كان يعجبه ويبهجه نقر الدفوف ورنة الصنج
فانا الذي لا شيء يعجبني الا اقتحامي لجة الوهج
سل عن جيوشي اذا طلعت بها يوم الخميس ضحى من الفج

ومع ما قاساه في تأسيس هذه الدولة لم يتمتع فيها بما كان يرجوه من علو الكعب فخسر الدنيا والآخرة ، وصدق عليه المثل « لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت » .

قال القاضي ابو عبد الله بن حماد في كتابه اخبار ملوك بني عبيد : « وكان مما احدث عبيد الله المهدي ان قطع صلاة التراويح وامر بصيام يومين قبل رمضان . وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع ، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة ، واسقط من اذان الصبح « الصلاة خير من النوم » وزاد حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر ، وكذلك كان الاذان مدة بني عبيد » .

---

(1) هكذا جاءت هذه العروض بخلاف ما بعدها في البكري . والوهج لعله الرهج .

وبعد الاذان يدعو المؤذن للامام ويصلي عليه وعلى آبائه وابنائه بصيغة نسجتها يد السياسة دعاية لهذه الحكومة التي اعتنت ببث الدعاة في سائر الاوطان حتى بلغوا السوس الاقصى ، وكـان منهم هنالك علي بن عبيد الله البجلي ، وكان اتباعه يدعون البجلية • بقوا بعد الدولة العبيدية الـى ايام المرابطين • ولم تمت بالمغرب الشيعة الاسماعيلية بذهاب الدولة العبيدية بل عاشت بعدها زمنا •

3 ـــ تاسيس الدولـة العبيديـة

تأسست الدولة العبيدية بالدعايـة الدينية والحنكة السياسـية اللتين كانتا لابي عبد الله الشيعي وبالقيمة الحربية التي كانت لكتامة ووطنها وبسوء سياسة زيادة الله الثالث الذي قتـل أباه وكثيرا من أهله وذويه •

ابتدأ ابو عبـد الله بتعليم المذهب الاسماعيلي ثم أعلن امامـة الفاطميين وأخذ يذكر المهدي وقرب ظهوره • فبلغ أمره ابراهيم الاغلبي فارسل اليه يتهدده • فاجابه جواب من ايقن بنجاح سياسته • وبلغ جوابه عمال وطن كتامة ورؤساء عشائرها فاجتمع منهم للمفاوضة في شأنه عمال ميلة وسطيف وبلزمة ويحي المساكتي المدعو بالامير ومهدي ابن ابي كمارة اللهيصي وفـرج بن خيران الاجاني وثمل بن فحل اللطاني ، فاتفقوا على مراسلة بيان بن صقلاب رئيس بني سكان في ان يسلم اليهم ابا عبد الله او يخرجه من بلدهم ، فاجابهم باستشارة أهل العـلم • فتآمروا باغتياله • وشـعر انصاره بذلك • ففرقوا المتآمرين • واطبقت جيملة على مظاهراته •

عاد أولئك العمال والرؤساء الى مخاطبة بيان بن صقلاب حتى استمالوه اليهم • فاستجار ابو عبـد الله بالحسن بن هرون رئيس

غسمان • ونزل عليه ببلدة تازروت فنشبت الحرب بين غسمان أولياء ابي عبد الله ولهيصة اعدائه • فقتل ابو مديني اخاه مهدي بن ابي كمارة • ورأس مكانه لهيصة ، وكان من حزب ابي عبد الله فاتحدت غسمان ولهيصة على ولائه وحاربوا من يحاربه •

كان ابو عبد الله ينتصر دائما على أعدائه فكثر انصاره • وزحف الى ميلة • ففتحها • وولى عليها ماكنون بن ضبارة • وقتل صاحبها موسى بن العباس • ففر ابنه ابراهيم الى تونس ونزل على الامير ابي العباس نائب ابيه ابراهيم الذي كان يومئذ بصقلية • وحرضه على محاربة الشيعي ، فجهز ما ينيف على عشرين الفا عقد عليها لاخيه الاحول ، ولم يكن احول ، وانما كان يكسر جفنه اذا ادام النظر •

فصل الاحول بالجنود من تونس سنة 89 ففتح سطيف ثم بالزمة ، وقصد تازروت ، وكان الشيعي قد كثرت جموعه وتكررت انتصاراته وانتشر صيته . فخرج للقاء الاحول ، فانهزم ببلد ملوسة ، وبلغ الاحول تازروت ، فهدمها ، وتحصن الشيعي بجبل ايكجان ، وقصد ابراهيم بن موسى ميلة ، فاعترضته طائفة من المتشيعة هزمته الى معسكر الاحول •

ثم عاد الاحول الى تونس ، فخلا الجو للشيعي ، وتلاحق الناس الى دعوته • فعاد الاحول الى حربه ونزل سطيف • واتخذها معسكره ، وبينما هو يغير وينهزم اذ اتاه الامر بالعودة الى تونس على لسان أخيه الذي قتله ابنه زيادة الله ، فلما بلغها قتله ابن أخيه •

ولما استيقن الشيعي بنجاح أمره أرسل الى سيده عبيد الله يستقدمه ويخبره بما فتح من الاوطان • فخرج عبيد الله وابنه ابو القاسم وابو العباس اخو ابي عبد الله في زي التجار • وبلغوا مصر سنة 89 وأذكى بنو العباس عليهم العيون • فقبض على ابي العباس بطرابلس وسجن بها • وظهر عبيد الله وابنه بسلجماسة يوم الاحد

سابع ذي الحجة سنة 96 فاعتقلا بها • كـذا قيل • وظاهر الاخبار الآتية انه ظهر بها قبل هذا التاريخ • ووجه صاحبها اليسع بن مدرار كتابا الى زيادة الله يعلمه ذلك ، فلما دخل رسوله ارض كتامة وقع بين قوم ظنهم في ولاية الاغالبة • فاخبرهم خبره فرفعوه الى ابي عبد الله • فالفى معه كتاب اليسع فتعرف منه خبر عبيد الله •

وبعد خروج الاحول من سطيف بقي أهلها محاربين لابي عبد الله • فحاصرها مدة • ثم فتحها وهدم سورها • وأمن أهلها وعقد زيادة الله لابراهيم بن حبيش على اربعين الفا • نزل بها قسنطينة • واقام بها هنالك ستة اشهر • اجتمع له فيها من الجنود مائة الف • والتقى بها مع الشيعي على بلزمة • فانهزم الى باغاية ثم عاد الى القيروان •

وتوجه ابو عبد الله الى طبنة • ففتحها بعد الحصار صلحا ، ثم فتح بلزمة عنوة • وقصد عروبة بن يوسف من اصحابه عامل باغاية هرون بن الطبني ، وقد عقد له زيادة الله على اثني عشر الفا ، فقتله عروبة • وزحف من اصحابه ايضا يوسف الغسماني الى تيجس • فدخلها بعد الحصار صلحا • ولحقت حاميتها بالقيروان • ووجه سرية فتحت مرماجنة عنوة • وقتلت عاملها ، وهي فيما بين مجانة وسبيبة • واستأمن له أهل تيفاش • فاستعمل عليهم صواب بن ابي القاسم السكاني • وفتح بنفسه صلحا باغاية ومسكيانة وتبسة • وعاد الى ايكجان بعد ما سرح العساكر تردد الغارات على نفزة وغيرهم •

واتخذ زيادة الله معسكره بالاربس وهي مدينة في الجنوب الشرقي من مدينة الكاف بعمل تونس قريبة من سبيبة • واصبح يغير من هذا المعسكر على النواحي المتشيعة • فاسترجع تيفاش • وخرج ابو عبد الله من ايكجان لتعميم فتحه • فاخذ قسنطينة بعد الحصار صلحا • وشرق حتى بلغ قفصة وملكها • ثم عاد الى ايكجان • وترك حامية بباغاية لمواقفة جنود الاغالبة ورد غاراتها •

ثم قصد أبو عبد الله الاربس في جمادي الاخيرة سنة 96 في مائة الف بين فارس وراجل وكانت بين الفريقين حروب صعبة ولكنها من المعارك الفاصلة • ودخل أبو عبد الله الاربس عنوة وانهزم جيش الاغالبة هزيمة نكراء وفر زيادة الله الى المشرق •

واقبل الشيعي الى رقادة دار ملك الاغالبة في سبعة عساكر فيها ثلاثمائة الف بين فارس وراجل • فدخلها • وبين يديه رجل يقرأ « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر » الآية و « كم تركوا من جنات وعيون » الآية • وكان دخوله رقادة في رجب سنة 96 •

نزل ابو عبد الله قصر الامارة • وضبط ما فيها • واستقدم اخاه من سجن طرابلس • واستخلفه على رقاده • وخرج الى سجلماسة ففرت أمامه زناتة • وملك تاهرت • وولى عليها دواس بن صولات اللهيصي ، وأخذ السير الى سجلماسة فاخرج من سجنها عبيد الله وابنه • واركبهما • وبايعته عساكر كتامة وأهل سجلماسة •

وبعد ان مهدوا تلك النواحي عادوا بعبيد الله فمروا به على ايكجان • واخذ ما فيها من غنائم • ثم ارتحلوا الى رقادة • وبها بويع عبيد الله البيعة العامة وتلقب بالمهدي • وذلك في ربيع الثاني سنة 297 •

4 ـ الحكومة العبيدية

الدولة العبيدية مستقلة استقلالا تاما ، وحكومتها يصح ان تسمى مطلقة لان المذهب الاسماعيلي يرى الامام معصوما • فيجمع له كل السلط تشريعية وتنفيذية وقضائية •

والامام هو رئيس الحكومة الاعلى • ويلقب أمير المؤمنين ويتعين بالعهد اليه من سلفه • ولا بد ان يكون من آل البيت • ولهذا

كثر النزاع في نسب عبيد الله المهدي • قال ابو عبد الله بن حماد : « اختلف الناس في نسبه الى الحسين بن علي عليهما السلام • فمن مسلمين ما ادعاه ومقرين بما حكاه ومن مانعين ما انتحله والذي ادعاه هو انه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين • والذي ادعاه الناس لا برهان عليه • فلا حاجة لي اليه • » اهـ

ويساعد الامام وزراء وعمال وقضاة • ويختص الامام وولي عهده بالمظلة • قال ابو عبد الله بن حماد : « وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الاحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه • يمسكها فارس من الفرسان يعرف بها • فيقال صاحب المظلة • وكانت عندهم خطة يتداولها من يؤهل لها ، فيحاذي بها الملك من حيث كانت الشمس ، يقيه حرها بظلها ، وفيها يقول محمد بن هانيء الاندلسي من قصيدة يمدح فيها معدا المعز :

وعلى أمير المؤمنين غمامة نشأت تظلل تاجه تظليلا

نهضت بمثل الدرع ضوعف نسجه وجرت عليه عسجدا محلولا

ولم يعلم أحد غير بني عبيد اتخذ هذه المظلة الا ملك الروم بصقلية ، واحسب انهم أهدوها اليه في بعض هداياهم ، وكأني سمعت هذا » اهـ

والحكومة العبيدية لا تعترف بأية حكومة اخرى ، فكانت ترسل الدعاة الى جميع الاوطان الاسلامية دون بلاد الكفر ! ولهم رئيس يقب داعي الدعاة ، وهو الذي يأخذ البيعة للامام ، وبهؤلاء الدعاة ملكت اليمن والبحرين ثم الحجاز وخطب لها بمدينة بغداد على عهد مستنصر من أيمتها ، وكانت لها جيوش جرارة واساطيل عديدة ،

حافظت بها على ممالكها ، وملكت بها مصر والشام • وغزت بها سواحل أروبا ، وفتحت جنوة مـن بلاد ايطاليا ، ولكن عنايتها بفتح العالم الاسلامي أشد !

وكانت تجبر الناس على العمل بمذهبها ، فتشيع كثير من أهل العالم رغبة أو رهبة ، وامتحن كثيرون مـن أجـل ترك البسملة في الفريضة وترك « حي على خير العمل » في الاذان ، وكانت لا تسمع في ولاتها من يشكو جورهم تأليفا لهم اذ لا غنى لها عنهم واضعافا للرعية حتى تأمن ثورتها ، ورفع الناس مرة الى عبيد الله أن القاضي المروزي يرتشي ويقتني الاموال • فلم يرفع لها رأسا • فرفعوا اليه انه يقدح في الدولة فعزله وعذبه ثم قتله •

وأحدث بنو عبيد الخراج على الأرضين قال محمد ابن الحارث وهو ممن أدرك أوائل هذه الدولة : « امتحن مالك بن عيسى القفصي بصحبة عبيد الله • وبتعديل الارض له لتوظيف الخراج الذي يسميه المقسط • » اهـ

ولم يكن للعبيديين ثقة بأهل المغرب • فشرع المهدي من فوره في تأسيس المهدية ، واختار لها موقعا حربيا مهما • وبالغ في تحصينها • وانتقل اليها سنة 308 وقال انما بنيتها لتعتصم بها الفواطم ولو ساعة من نهار • ولما فتح المعز مصر بادر بالانتقال اليها • وأوصى خليفته بلقين بن زيري بوصايا • وقال له : « ان نسيت شيئا فلا تنس هـذه الوصايا : ان لا ترفع السيف عن البربر وان لا ترفع الجباية عن أهل البادية وان لا تولي أحدا من قرابتك لئلا يطمعوا في أمرك ، وان تحسن الى أهل الحاضرة » اهـ

هذه الوصايا تصور لك حرص الحكومة على استعباد الامة وتلك سياسة كل حكومة أجنبية انتفاعية • وانما أوصاه خيرا بأهل الحاضرة

لأن فيهم كثيرا من الاسماعيلية • وقد وقذت الحضارة غيرهم فلا تخشى منهم ثورة •

وأيمة العبيديين بالمغرب أجل قدرا وانفذ أمرا من أيمتهم بمصر تولى منهم بالمغرب أربعة وبمصر عشرة • واستقل المغرب عنهم أيام المستنصر بن الظاهر • وانتهت دولتهم بموت العاضد في المحرم سنة 567 (1171م) فحول وزيره صلاح الدين الايوبي الدعوة الى العباسيين فكانت مدتهم 269 سنة •

وهاك ايمة هذه الدولة

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبيد الله المهدي	297	909	ابنه معد المستنصر	427	1035
ابنه محمد القائم	322	933	ابنه أحمد المستعلي	487	1094
ابنه اسماعيل المنصور	334	945	ابنه منصور الآمر	495	1101
ابنه معد المعز	341	952	عبد المجيد الحافظ بن محمد بن المستنصر	524	1130
ابنه نزار العزيز	365	975	ابنه يوسف الظافر	544	1149
ابنه منصور الحاكم	386	996	ابنه عيسى الفائز	549	1154
ابنه على الظاهر	411	1020	أخوه عبد الله العاضد	555	1160

5 ـ تيهرت العبيدية وزناتـة

دخلت تيهرت في حكم العبيديين سنة 296 فجعلوها قاعدة المغرب الاوسط وانتخبوا لها الولاة من أوليائهم • ففتحوا لها سائر المغرب أوسطه وأقصاه • ودخلت وهران في عمل تيهرت سنة 298 •

ووهران حديثة التأسيس يومئذ • قال البكري : « وهي حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين • ولها مسجد جامع • بناها محمد بن ابي عون وجماعة من الاندلسيين البحريين سنة 290 باتفاق مع نفزة وبني مسقن • وأقاموا بها دعوة الامويين ، وفي سنة 97 زحفت اليها قبائل كثيرة يطالبون الاندلسيين باسلام بني مسقن اليهم لدماء كانت بينهم • فأبوا من اسلامهم فحاصروهم ومنعوهم الماء ، فخرج بنو مسقن ليـلا واستجاروا بازداجة ، ثم نجـا الاندلسيون بأنفسهم ، فتغلب أولئك القبائل على وهران في ذي الحجة واضرموها نارا ، ثم عاد أهل وهران اليها سنة 98 بأمر أبي حميد عامل تيهرت ، وولى عليهم محمد بن ابي عون ، وابتدأوا بنيانها في شعبان ، فعادت أحسن مما كانت ، ولم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال الى أن دخلها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 343 فخربها وحرقها ثانية ، وبقيت كذلك سنين ، ثم تراجع الناس اليها وبنيت » ا هـ •

وقال فيها الادريسي ما ملخصه : « عليها سور من تراب متقن ، وبها أسواق مقدرة • وصنائع كثيرة • وتجارات نافقة • ومنها أكثر ميرة أهل ساحل الاندلس • وشرب أهلها من واد يجري اليها مـن البر • وعليه بساتين وجنات • وأهلها في خصب • يوجـد لديهم العسل والسمن والزيت والغنم • والبقر بهـا رخيصة • وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة » ا هـ •

وقد وقعت تيهرت بين مواطن زناتة • وكان سنيهم وخارجهم مخالفين للعبيديين • فاجلبوا عليهم مرارا • واشتهر مـن رؤسائهم يومئذ محمد بن صالح اليفرني ثم ابنه يعلي • ومحمد بن خزر المغراوي من عقب محمد بن خزر صاحب ادريس • واخوته عبد الله وفلفول ومعبد وابناه الخير وحمزة •

لما توجه ابو عبد الله الشيعي الى سجلماسة لم تدر زناتة وجهته ففرت من طريقه • فلما بلغها أرادت أن تقطع عنـه خط الرجعة • فزحفت سنة 97 الى تاهرت وواطأها من أهل المدينة بنو دبوس • فسجنهم عاملها ابو حميد دواس بـن صولات اللهيصي الكتامي • بحصن بن بخاتة • ثم قتلوا بـه •

وتغلب محمد بن خزر على بعض ارباض المدينـة • ففر منها دواس الى قلعة ابن حمة • ثم أجلى التيهرتيون زناتة عن مدينتهم واعادوا اليهم عاملهم • ثم ثاروا بـه سنة 98 فنجا الى حصن ابن بخاتة • وادخلوا محمد بن خزر المدينة ثم خذلوه فانصرف عنهم • وجاءت جيوش العبيديين • فحاربوا أهل تاهرت ثلاثة أيام ثم دخلوها في صفر سنة 99 وفعلوا بأهلها الافاعيل • وعاد اليها دواس • الى ان صرفه عنها المهدي ثم قتله برقادة •

ولي تاهرت بعد دواس مصالة بـن حبوس المكناسي • وهو الذي فتح فاسا • وكانت بينه وبين زناتة حروب • ففي بعض أيامه فصل من جيشه خيلا لبعض النواحي • وبقي في قل • فقصده محمد ابن خزر وقتله في شعبان سنة 312 فولى المهدي مكانه أخاه يصل بن حبوس • فغمرته الثورات • وقصد محمد بن خزر تيهرت سنة 14 فانهزم عنها • واخرج المهدي في أثره موسى بن محمد الكتامي في طائفة من القواد • فدخل محمد ابن خزر الصحراء • وترك أخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة • فحارب موسى بن محمد وانتصر

عليه • ثم أخرج المهدي اسحق بـن خليفة وابا عروس في عسكر كتامة • فهزمهم ايضا • ودخلت في ولاية عبد الله بن خزر وطاعة أخيه محمد لماية وما جاورها من القبائل فعظم الخطب على الشيعة •

وفي تاسع صفر سنة 315 بعث المهدي ابنه أبا القاسم في عساكر كتامة ومن انضاف اليهم ، ففر ابن خزر في الصحاري على المهاري • وفتح ابـو القاسم بلـد مزاتة ومطماطة وهوارة وسـائر الاباضية والصفرية • من نواحي تاهرت الى ما وراءها •

وبقي يصل واليـا بتيهرت الى أن توفي سنة 319 فخلفه ابنـه حميد • وفي هذه السنة تقدم موسى بن ابي العافية المكناسي عامل العبيديين بالمغرب الاقصى • فاخضع لهم تلمسان ووهران والبطحاء وتنس وشرشال • ثم رفضهم • وخطب لبني أمية • فجهز له المهدي حميد بن يصل سنة 321 في عشرين الفا ، فانتصر عليه • ثم انقلب هو ايضا أمويا سنة 28 ولم يكن يومئذ واليا بتيهرت •

وتوفي المهدي فخلفه ابنه ابو القاسم محمد القائم • فولى على تيهرت ابا مالك يغمراسن بن ابي شحمة اللهيصي • فثار به أهل المدينة واخرجوه سنة 23 وقدموا على انفسهم ابا القاسم الاحدب بن مصالة ابن حبوس • فنزل عليهم ميسور الخصي سنة 24 وظفر بهم • وقتل واليهم وولى عليهم داود بن ابراهيم العجيسي • فانقرضت بـه ولاية المكناسيين بتيهرت • واصبحت مكناسة التي كانت محاربة لزناتـة متحدة معها على ولاية الامويين وحرب العبيديين •

وفي سنة 333 اجلب حميد بن يصل على تيهرت ، وظاهرتـه لواتة ، فاخرج منها داود ، واقام بها الدعوة الاموية ، وشغل عنـه العبيديون بامر صاحب الحمار •

ولما قبض اسماعيل المنصور على صاحب الحمار توجه الى تيهرت في صفر سنة 36 ففر منها حميد • ولحقت لواتـة بالرمال ، وملك

المدينة • واحرق منبرها لكونه خطب عليه للامويين ، وولي عليها ميسورا الفتى وهو غير ميسور الخصي المتقدم •

وثار التيهرتيون بميسور ، وكاتبوا محمد بن خزر ، فوجه لهم جيشا به ابناه الخير وحمزة واخوه عبد الله ويعلى بن محمد بن صالح اليفرني • وخرج اليهم ميسور في رجال لماية ، فدارت الحرب بين الجمعين • وقتل حمزة بن محمد بن خزر ، ثم اسر ميسور ، وفتحت زناتة المدينة ، ولم يجد العبيديون سبيلا لغلبة زناتة غير تفريق كلمتهم ، فاستمالوا يعلى بن محمد اليفرني ، وعقدوا له على تاهرت والمغرب الاوسط اغاظة لمغراوة وكبيرها ابن خزر ، لكن يعلى لم يلبث ان راجع طاعة الامويين •

وفي سنة 47 جهز المعز قائده جوهرا الصقلي لاخضاع المغربين ، وامر ولاة الجهات بامداده فخرج معه جعفر صاحب المسيلة وزيري صاحب اشير ، وانضم اليهم محمد ابن خزر بداعي المنافسة ليعلى ، فالتقى الجمعان ، على مقربة من تاهرت • قال ابن ابي زرع : « فالتحم الحرب بين الفريقين ، وبذل جوهر الاموال لقواد كتامة على قتل يعلى ، فصممت منهم عصابة ، وصمدت الى يعلى • فقتلته واتت برأسه الى جوهر ، فبعث به الى المعز • وطيف به في القيروان » ، اهـ واضيف عمل تيهرت الى صاحب اشير زيري بن مناد الصنهاجي ، فرمى العبيديون زناتة بصنهاجة ، وغلبوهم بذلك على تاهرت •

6 ـ العبيديون وجبل اوراس

كان جبل اوراس معدن الثورات لحصانة موقعه واختلاف سكانه اصلا ومشربا • وكانت عاصمته باغاية • تنتخب الدولة لولايتها الاكفاء المخلصين من أوليائها •

وليها عروبة بن يوسف الكتامي سنة 298 بعد قتله للشيعي • واتصل بعمل تاهرت • وكان اخوه حباسة من أعظم القواد • وولي عمل برقة • ثم قتله المهدي سنة 302 فغضب عروبة لقتله • وثار في أوليائه من كتامة وغيرهم • فجهز له المهدي مولاه غالبا • فقتله وقضى على ثورته من سنتها •

وفي سنة 231 انعقد بجبل اوراس مؤتمر للثورة • فبايعوا أبا يزيد مخلد بن كيداد • وتلقب شيخ المؤمنين • وحارب العبيديين • وحصرهم بالمهدية • واستولى على سائر افريقية والمغرب الاوسط • ثم أساء السيرة • فضجت منه الامة • وخذلته • فتغلب عليه العبيديون • وقوام هذه الثورة عداوة الامة لمذهب الحكومة • ونفار القبائل من تحكم كتامة ، وظهور دعوة الامويين بالمغرب الاوسط •

وهذا ابو يزيد أصله من الجريد • ونسبه في بني واركو من يفرن • كان ابوه يختلف بالتجارة الى السودان • فاشترى بتادمكت امة تدعى سبيكة • فحملت منه بابي يزيد • وكان أعرج وعمره يوم ثار ستون سنة • وبه علل كثيرة • ونشأ فقيرا مشتغلا بالعلم والادب • واخذ برأي النكار من الاباضية • وعني بتعليم الصبيان • ورزقه من صدقات الناس • ثم أخذ في الطعن على الحكومة • فضيقت عليه وخشي الناس مجالسته • فهجروه • فخرج من توزر الى أوراس • ونزل على بني كملان من هوارة • فايدوه على الثورة • وصحبه ابو عمار الاعمى بن عبد الله الحميدي من مقدمي الاباضية •

قام ابو يزيد بدعوة عبد الرحمن الناصر الاموي • وسمى الملازمين له من اتباعه العزابة ، ومن بايعه وانصرف عنه عدة المسلمين ، وتظاهر أول أمره بالزهد • فكان يلبس من خشين الصوف جبة قصيرة ضيقة الكمين وقلنوسة • ويركب حمارا اشهب اهدي له بمرماجنة • فدعي لذلك صاحب الحمار • وبهذه المظاهر السياسية

والدينية جذب عامة الناس اليه • فانضاف اليه محمد بن خزر واخوه معبد ، واجتمعت اليه هوارة وزناتة ونفوسة وغيرها •

ولما اعجب بكثرة جموعه وثمل بانتصاراته انتقل الى ركوب جياد الخيل ولبس الحرير والديباج واستباحة الفروج والدماء وكانت عساكره تأتي انواع المناكر من سلب ونهب واغتصاب حريم حتى انهم ليبقرون الحوامل ويشقون بطون الرجل عسى ان يكون بها مال ابتلعوه • ولا تسأل عما تحدث هذه الافاعيل من ذعر وخراب • ولما عوتب عن تنعمه بعد تقشفه تلا قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » الآية • ولما شكي الناس اليه ما اصابهم من عساكره انشد :

اذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

فكان ذلك مما زوى قلوب الناس عنه واضاع عليه ثمرة انتصاراته •

وكان ابتداء هجوم ابي يزيد في سنة 32 فنزل من اوراس الى باغاية ، فحاصرها ، ولم يقدر على فتحها ، فرأى ان يوسع نطاق الثورة ليفرق عنه قوة الحكومة ، فأثار بني واسبن فحاصروا توزر سنة 333 ودخل حميد بن يصل تاهرت ، وفتح هو صلحا تبسة ومجانة ومرماجنة • ثم استولى على الاربس وسبيبة وباجة وتونس ورقادة والقيروان وسوسة ، كل ذلك أثناء عام 333 وتقدم فحاصر المهدية • وأفرج عنها في صفرسنة34 وكان ابنه ايوب بباجة لحشد الناس• وخرج عامل المسيلة علي بن حمدون لانجاد المهدية في جموع زواوة وكتامة فمر بقسنطينة والاربس • والتقى بايوب على باجة ، فهزمه ايوب • وتردى به فرسه ، فهلك ، ثم هلك محمد القائم بعده باشهر •

وخرج اسمعيل المنصور لحرب ابي يزيد ، فاخرجه عن افريقية • ورام باغاية • فاغلقت في وجهه ، ولفظته البلاد ، وتوجه المنصور مغربا

أثره في ربيع الاول سنة 35 فمر بسبيبة فمرماجنة فملاق فباغاية فبلزمة فنقاوس فطبنة ، وأقام بها اياما فرق فيها الاموال وتفقد احوال الجند • ثم سار الى بسكرة ، وبها ابو يزيد ، ففر منه ، ثم انقلب الى مقره ، وأفاض بها من احسانه على الناس استمالة لهم • وكاتب زيري بن مناد وماكسن بن سعد ، واهدى اليهما من التحف والطرف والاموال الجمة والكسي الفاخرة ما جد بهما به اليه فحشدا له من صنهاجة وعجيسة كل ما قدرا عليه • ووصلا بتلك الحشود اليه •

وانتقل المنصور من مقره الى المسيلة • فوفد عليه رسول محمد بن خزر بطاعته • فاكرمه وأركبه فرسا من افراسه بسرجه ولجامه • ووصله بعشرة آلاف دينار • ثم خرج في طلب ابن يزيد الى جبل سالات (بشد لام ألف) وانقلب الى مواطن صنهاجة • فنزل سوق حمزة • وجاءه زيري بن مناد في رجال صنهاجة • فأجزل صلتهم • وخرج الى وادي لعلع • فمرض به نحو شهرين • وخالفه ابو يزيد الى المسيلة فأخذ المنصور اليه السير • فاجفل امامه الى جبل كيانة • واقام المنصور بالمسيلة • ووجه مواليه الى سطيف وميلة لاستنفار الناس • وجاءه رسول الخير بن محمد بن خزر في نحو مائة فارس بانه أقام دعوته بمدينة الاغواط وسائر عمله • وطلب منه ان يبعث بالخطبة والسكة ليضربها على اسمه • فاكرم الرسل وردهم بمطلوبهم • وحملهم رسالة ليأمر الخير بن محمد زناتة بالاختلاف الى المسيلة والقيروان بالاطعمة وغيرها وانه لا يمنعهم شراء السلاح ولا يكلفهم قبالة ولا مغرما •

انحصر ابو يزيد بجبل كيانة وهو قلعة بني حماد ، وكان الطعام يأتي اليه من بنطيوس وغيرها • فكتب المنصور الى زناتة بالاغارة عليهم فانقطعت عنه الميرة ، وتقابل الجمعان في شعبان بفحص باتنة ، وهي قرية كانت تدعى أدنة بينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلا ، وليست

هي باتنة المعروفة اليوم بجبل أوراس ، وانهزم ابو يزيد في هـذه المعركة هزيمة نكراء .

وفي غرة رمضان رحل المنصور لحصار أبي يزيد بكيانة ، فاحاط بالجبل ، وكانت حروب شديدة دامت الى المحرم سنة 36 ففيه قتل ابو عمار الاعمى . وقبض أبو يزيد مثخنا بالجراح . فأمر المنصور بمداواته والاحسان اليه لكن الدم نزفه فمات في آخر المحرم ، فأمر المنصور بسلخه وحشو جلده ، قطنا وطيف به في البلاد ثم صلب .

وقد كلفت هذه الثورة الحكومة انفاق أموال طائلة وشغلتها مدة مديدة ، فكان السرور بانتهائها عظيما ، وانشدت الشعراء في ذلك القصائد والمقطعات . فمن ذلك قول احدهم وقد اوقن بقبض أبي يزيد :

يا مخلد بن سبيكة ... يا شر بيت في العشائر
ذق ما جنته يداك قبـ ... ـل من الصغائر والكبائر
ذق هول شقك للمبطـ ... ـو ن وما ارتكبت من الجرائر
يا شر من بكيانة ... وكيانة شر البرابر

وقبل القبض على ابي يزيد ظهر باوراس ثائر آخر . شاب أمرد من أهل القيروان ، كان يشتغل بكتب الصوفية ، واجتمع عليه في ثورته قبائل كثيرة من زواوة وصنهاجة وعجيسة ، فقبض عليه وعلى بعض اتباعه جعفر بن علي صاحب المسيلة .

وكتب الى المنصور وهو بطبنة يخبره خبرة ، ثم جاءه به مقيدا على جمل وعلى رأسه طرطور مشهر ، فأمر بسلخه حيا وحشو جلده قطنا ووضعه في تابوت ، وكان يصلبه اينما حل ارهابا للناس .

وبعد القبض على ابي يزيد بقي ابناؤه وبعض اتباعه على ثورتهم ، فلما كان المنصور عائدا الى المهدية هجم على ساقة جيشه

الفضل بن ابي يزيد ومعيد بن خزر في جمع عظيم • فهزمهم زيري بن مناد • ثم نزل الفضل من اوراس • وحاصر باغاية • فقتله غدرا باطيط بن يعلى الزناتي في ذي القعدة سنة 36 ثم زحف يزيد بن ابي يزيد الى باغاية ايضا • فهزم عنها • وكان اخوه ايوب وفد على عبد الرحمن الناصر مستنجدا • وعاد الى أوراس • فاغتاله عبد الله بن بكار اليفرني • ثم قبض على معبد بن خزر • فقتل سنة 41 •

وبقيت هوارة اوراس على ثورتها • فجهز لها المعز بن المنصور بلقين بن زيري • وجمعوا له بسفح غزالة قريبا من باغاية • فهزمهم • وتشتتوا في بلاد الزاب • وبلغ فلهم بلاد السودان • وولى المعز على باغاية مولاه قيصر الصقلي فكان له غناء في تمهيد تلك الجهات • سبب له دالة على المعز • فقتله سنة 349 •

وفي سنة 358 ثار بالجريد ابو خزر الزناتي من الاباضية الوهبية • ودعا للناصر الاموي • وحاصر باغاية وامتدت ثورته بالزاب ووادي ريغ وورقلة • فخرج اليه المعز نفسه • وشتت جموعه • فلحق بجبل نفوسة • وهكذا شقي العبيديون بجبل أوراس كما شقوا بتيهرت • واصبح تاريخهم بالمغرب حربيا خرابيا أكثر منه مدنيا عمرانيا •

7 ــ الجزائــر بين العبيديين والامويين

كانت الامارات المستبدة على دار الخلافة تكبر أمــر الخلافة فلا تدعيها • ولم يجرؤ عليها غير الخوارج وفي بداية القرن الرابع ادعاها عبيد الله المهدي بالمغرب ثم عبد الرحمن الناصر بالاندلس • وكان سلفه مكتفين باندلسهم • ولهــم علاقات تجاريــة بسواحل المغرب • وفي سنة 290 أسست طائفة من تجارهم وهران واقامــوا بها الدعوة الاموية •

وقد أيد العبيديين كتامة ثم صنهاجة وحاربتهم زناتة فهزموها سنة 315 حتى بلغ عظيمها محمد بن خزر سجلماسة • فكانت للامويين فرصة انتهزوها • فارسل الناصر رسله الى محمد بن خزر • وقدموا عليه بسجلماسة سنة 316 فاجابهم الـى القيام بدعوته • ونهض الى التل • فاستولى على تنس ووهران وشلف • وكان موسى بـن أبي العافية عظيم مكناسة بالمغرب الاقصى من أولياء العبيديين • فنبذهم • واقتفى اثر محمد بن خزر •

نهض العبيديون لمحاربة القبائل الاموية • فكانت وقائع شديدة لكنها غير فاصلة • وكادت تتغلب الاموية ايام صاحب الحمار الذي بلغ أن حاصر المهدية • وفتح حميد بـن يصـل المكناسي تاهرت • واستولى محمد بن خزر على الزاب • وقتل زيدان الخصي عامل بسكرة للعبيديين •

وفي سنة 35 ضعف أمر صاحب الحمار • فاخذ محمد بن خزر وابنه الخير بدعوة العبيديين في قومهما مغراوة • فحاربتهم يفـرن وعظيمها محمد بن صالح • وغدر به عبد الله بن بكار اليفريني • فقتله تملقا لمغراوة ثم اتفقت القبيلتان على موالاة الاموية وملكوا تاهرت • وقتلوا عبد الله بن بكار •

ثم استمال المنصور العبيدي يعلي بن محمد بن صالح • وعقد له على تاهرت وعملها لكنه عاد الى دعـوة الناصر وعقد له عـلى ما بين تاهرت وطنجة • فعظم شأنه • وزحف سنة 43 الى وهران بدعوى تمريض أهلها في الطاعة • فغلب عليها محمد بن ابي عون وشتت شمل ازداجة • ونقل منهم الى مدينة فكان •

وغضب محمد بن خـزر لتقديم قريبه يعلي بن محمد • فوفد سنة 42 على المعز بن المنصور آخذا بدعوته ، وخرج في جيشه لغزو يعلي سنة 47 ثم وفـد على المعـز سـنة 350 وهلك بالقيروان • وقد اناف على مائة سنة •

وخلفه ابنه الخير • وخلا له وجه زناتة بقتل يعلي • فعاد الى طاعة بني امية حتى توفي • وخلفه ابنه محمد • وكان جبارا طاغيا • وخرج بلقين بن زيري الصنهاجي لحربه سنة 60 فدارت عليه الدائرة • وكاد يؤسر • فانتحر • والعرب تقول المنية ولا الدنية • وقتل من زناتة سبعة عشر أميرا • ونهض الخير بن محمد • فجمع أشتات قومه وأعاد الكرة على صنهاجة • فقتل زيري بن مناد • وثأر منه بأبيه المنتحر •

وفي سنة 61 نهض بلقين بن زيري لحرب زناتة • فأجلاها عن الزاب • ثم أجلاها سنة 63 عن المغرب الاوسط • وعاد من تلمسان • وتفرقت زناتة في المغرب الاقصى • تلوله وصحرائه • وتبعهم بلقين سنة 69 فقتل بسجلماسة الخير بن محمد • ونجا ابنه محمد في أعيان من قومه الى الاندلس مستصرخين المنصور بن ابي عامر حاجب هشام المؤيد ابن المستنصر بن الناصر • فأجاب صريخهم • واجتمعت زناتة وأولياء الاموية بظاهر سبتة • وأطل عليهم بلقين فرأى ما هاله كثرة • فعاد عنهم • وصدق القائل : « اذا أردت السلم فاستعد للحرب » •

وفي سنة 77 خالف سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر قومه • فنزع الى صنهاجة العبيدية • فأكرمه منصور بن بلقين • وعقد له سنة 81 على عمل طبنة • وتوفي من سنته • فجدد المنصور العهد لابنه فلفول •

وفي سنة 77 ملك فاسا زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مقيما للدعوة الاموية • وكان ابو البهار بن زيري الصنهاجي عاملا بتاهرت • فنبذ عهد الشيعة • واتحد مع زيري بن عطية • وكان صهره خلوف بن ابي بكر بمدينة تاهرت ، فتابعه ، ثم عاد الى العبيدية ، وضبط تاهرت ، فغفل عنه ابو البهار ، ونهض اليه زيري سنة 81

فانتصر عليه ، ثم حارب ابا البهار لقعوده عن قتال صهره ، ففر أمامه الى ابن أخيه منصور فرضي عنه ، واعاده الى تاهرت ، فزحف اليه زيري وانتصر عليه ايضا ، واستولى على عمله ، فأصبح المغرب الاوسط الى الزاب أمويا .

وكان ابن ابي عامر يذكر في الخطب بعد المؤيد ، وساء ما بينه وبين زيري ، فاقتصر في دولته الممتدة من المحيط الى الزاب على ذكر المؤيد في الخطب ، فجهز ابن ابي عامر لحربه الجيوش ، وكان اللقاء بنواحي طنجة وتكافأت القوتان ، ثم طعن زيري احد غلمانه غدرا واشبع موته فانهزمت جموعه .

خرج زيري من هذه المعركة جريحا وقصد تيهرت فحاصرها وبها يطوفت ابن بلقين وبلغ الخبر باديس بن منصور بالقيروان فخرج الى زيري في جموعه ومر بطبنة فقدم بين يديه حماد بن بلقين فلقي زيري على وادي مينة فهزمه زيري وفتح تاهرت واستولى على عملها شلف وتنس وتلمسان ثم فتح المسيلة وحاصر اشير وهنالك انتقضت عليه جراحاته فافرج عنها ومات سنة 91 وخلفه ابنه المعز فاقصر عن مزاحمة صنهاجة العبيدية وتلطف لبني أمية حتى أعادوه الى فاس فاقتصر هو وعقبه على ملك المغرب الاقصى .

وكان باديس لما بلغ طبنة استدعى عاملها فلفول ، فخشي منه واعتذر عن عدم مقابلته ، فلما فارقها باديس عاد اليها فلفول ، فترك حمادا لمقابلة زيري ، وعاد هو الى فلفول ، وقد امتدت ثورته من طبنة الى تيجس ، وحاصر باغاية ، فسرح له باديس أعظم قواده ، فقتل وانهزمت جنوده ، فقاد باديس نفسه الجيوش ، واخرج فلفول عن باغاية ثم مرماجنة ، فلحق بالجبال سنة 89 .

انضم الى فلفول بعد هزيمته بنو زيري بن مناد المخالفون على باديس ، فنزلوا الى تبسة ، وحاصروها ، فاجلاهم باديس عنها ،

وطارد فلفول من مكان الى مكان حتى ألحقه بالرمال سنة 91 فتوجه الى طرابلس وملكها • واورث بها بني خزر دويلة زناتية •

وهكذا كانت سنة 391 هي خاتمة تطاحن العبيدية والاموية على الجزائر • ولولا طعنة ذلك الغلام لزيري بن عطية ما انتهت الحوادث في هذه السنة وعلى هذا الوجه • فربما نشأ عن الحقير انقلاب كبير •

ان الامور دقيقها مما يهيج له العظيم

8 ـ امارة بنى حمدون بالمسيلة

كان علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الاندلسية ، قد اتصل بالمهدي وابنه القائم بالمشرق وصحبهما الى المغرب • ولما بلغوا طرابلس ارسله المهدي الى ابي عبد الله الشيعي • فادى الرسالة • وانصرف الى المهدي بسجلماسة • وبقي في خدمته وخدمة ابنه ابي القاسم •

قال القاضي ابن حماد : « وفي سنة 315 خرج ابو القاسم محمد ابن المهدي الى المغرب • فهدنه ومر منصرفه بوادي سهر ، فاختط مدينة المسيلة ، رسمها برمحه وهو على فرسه • وأمر علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية ببنائها وتحصينها وتحسينها وسماها المحمدية باسمه • فبناها • وجعل لها بابين سمى احدهما باب الامور والآخر باب القاسمية نسبة الى ابي القاسم » •

« وبلغت المسيلة ايام علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحي من العمارة والحضارة الى الغاية القصوى • وجمعت اليها الاقوات وانواع المأكولات • فادخرت فكان علي بن حمدون اذا ارتفعت الاسعار يكتب الى ابي القاسم يستأذنه في البيع • فينهاه عنه ، ويأمره

بالاستكثار والادخار فلم تزل الاطعمة مصونة الى أن خرج المنصور في اتبـاع ابي يزيـد ، فكانت عونـا له ولاجناده » ، هذا ملخص كلامـه .

وقال البكري : « هي مدينة جليلة في بساط من الارض عليها سوران ، بينهما جدول ماء يستدير بالمدينة وله منافذ تسقى منها عند الحاجة . ولها أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ، ويجود عندهم القطن ، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر ، وبقبليها موضع يعرف بالقباب ، فيه قباب من بنيان الاول . وعلى مقربة منها مدينة للاول خربة يقال لها بشليقة (بكسر اللام المشددة) ، فيها جدولان من ماء عذب » اهـ .

وفي كتب الافرنج ان بناحيتها مدينة قديمة تدعى زابي ومدينة يستنيانة التي أسسها سليمان الخصي قائد يستنيان البيزنطي ، ولعلهما المذكورتان في كلام البكري .

اصبحت المسيلة عاصمة الزاب بدلا من طبنة . وامتد عملها على الحضنة الى حدود عمل باغاية شرقا . ويجاور وطن صنهاجة شمالا وغربا . وبه من سكان زناتة كثير . ومنهم في جنوب المسيلة بنو برزال أهل جبل سالات .

رأس على عمل المسيلة علي بن حمدون . وكان له ابنان جعفر ويحي . نشآ بدار ابي القاسم بالمهدية . وربيا مع أولاده . وجمع جيشا لفك حصار صاحب الحمار للمهدية . فالتقى ناحية باجة بايوب ابن ابي يزيد . واشتد القتال بينهما . فانهزم علي ابن حمدون . واوى لجهله بالطريق الى موضع وعر . فغرس بغله فيه . فلما هجموا تواثب فرسان لهم وصهلا . فظنوا ان ايوب غشيهم ، فركبوا الخيل ، وتفرقوا في الاوعار ، فسقط علي بن حمدون من جرف عال ، فانكسرت عظامه ومات سنة 34 .

وخلفه ابنه جعفر ، وكان له غناء في ضائقة الدولة بثورة صاحب الحمار ، واهدى للمنصور لما نزل بطبنة هدايا جليلة منها خمسة وعشرون فرسا ومثلها نجباء ، فعقد له على عمل ابيه ، ووازره أخوه : فنبه قدره وعظم شأنه .

ولما عقد المنصور لزيري بن مناد على عمل اشير بارى جعفرا في خدمة الدولة ونافسه اسباب الرفعة ، وكان للدولة صاغية اليه والى ابنه بلقين ، فأخذا يرميان جعفرا بالميل الى زناتة حتى اوغرا عليه صدر المعز بن المنصور ، فلما عزم على الرحيل الى مصر اشيع انه مستخلف لبلقين ، فعظم على جعفر أن يبقى تحت ولاية منافسه ، ثم بلغه أن المعز أرسل اليه أحد مواليه يستقدمه ويطمعه في خلافته ، فقويت استرابته وغادر المسيلة في أوليائه بني برزال ، ولحق بزناتة سنة 60 فجهز المعز زيري أثره ، فكانت حرب صرع فيها زيري . واحتزت رأسه . وذهب بها الى المستنصر الاموي وفد من وجوه زناتة يرأسهم يحي بن علي . فمهد الامر لاخيه جعفر ولحق به .

بقي جعفر واخوه بالاندلس مرموقين بعين التجلة والاكبار تكتنفي الدولة بهما وبمن معهما من زناتة في مهماتها ، واستعان المنصور ابن ابي عامر بجعفر وشيعته بني برزال على نكب رجال الدولة المزاحمين له فلما قضى عليهم خشي جعفرا فقتله وفر يحي الى مصر فنزل على العزيز بن المعز الى أن مات .

وهكذا انتهت حياة جعفر كما تنتهي حياة كل عظيم خطير . فر من المسيلة خشية من المعز فبطش به المنصور بن ابي عامر الذي اضطره الدهر لصحبته :

واذا خشيت من الامور مقدرا وفررت منه فنحوه تتوجه

وقد ام جعفرا بالمسيلة ابو القاسم محمد بن هانىء اديب الاندلس

الذائع الصيت • قال الفتح في المطمح : « فناهيك من سعد ورد عليه فكرع ومن باب ولج فيه وما قرع فاسترجع عنده شبابه وانتجع وبله وربابه وتلقاه بتأهيل ورحب وسقاه صوب تلك السحب » ا هـ •

وقد خلد ابن هانىء جعفرا بمدائحه الكثيرة البليغة • منها قصيدته الفائية • وهي من المطولات المستجادات ومن ابياتها :

كأن عمود الصبح خاقان معشر ... من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
كأن لواء الشمس عزة جعفر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وله من أخرى

خليلي ابن الزاب مني وجعفر ... وجنات عدن بنت عنها وكوثر
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه من جانب الارض منظر
لقد سرني اني أمر ببالة ... فيخبره عني بذلك مخبر
وقد ساءني ان لا أراه ببلدة ... بها منسك منه عظيم ومشعر
وقد كان لي منه شفيع مشفع ... به يمحص الله الذنوب ويغفر
اتى الناس افواجا اليك كأنما ... من الزاب بيت او من الزاب محشر
فانت لمن قد مزق الله شمله ... ومعشره والاهل أهل ومعشر[1]

ومن أخرى

لم تدنني ارض اليك وانما ... جئت السماء ففتحت ابوابا
ورأيت حولي وفد كل قبيلة ... حتى توهمت العراق الزابا
ارض وطئت الدر من رضراضها ... والمسك تربا والرياض جنابا
ورأيت اجبل ارضها منقادة ... فحسبتها مدت اليك رقابا
سد الامام بك الثغور وقبلها ... هزم النبي بقومك الاحزابا

---

(1) ليته قال مزق الدهر . وكم هنات مثلها لابن هانىء سامحه الله .

وله أيضا من أخرى :

أبنـــي العوالي السمهرية والموا ضي المشـــرفية والعـــديد الاكثر
من منكـــم الملك المطاع كانـــه تحت السوابغ تبـــع في حمير ؟

وقد أورد القصيدة بطولها ابن معصوم في كتابه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر • وقال عقبها : « يحكى انه أنشد هذه القصيدة وممدوحه راكب في جيشه • فلما بلغ ذينك البيتين ترجل العسكر كله • ولم يبق أحد راكبا سوى الممدوح • فلا يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره » اهـ •

9 ــ الجزائـــر الصنهاجيـــة

كان الصنهاجيون بعضهم خاضـــع لامارات علويـــة • وبعضهم مستقلون في جبالهم تحت رؤساء منهم ومن اشهر رؤسائهم مناد بن منقوش كان يقيم الدعـــوة العباسية ويعترف بأمرة الاغالبة • ومات فخلفه ابنه زيري •

وفي سنة 335 نزل المنصور العبيدي مقرة وكاتب منها زيري بن مناد واهدى له أموالا وكسى فاخرة وتحفا وطرفا ملوكية طالبا منه اعانته على صاحب الحمار ، فاجاب طلبه • وكان له أثر محمود في القضاء على تلك الثورة • فبالغ المنصور في تكرمته ، وعقد له على قومـــه •

وكانت الجزائر يومئذ تتركب من اربع ولايات : ولاية باغاية تشمل وطن كتامة من نواحي قالمة وعنابة الى نواحي سطيف وجيجل • وولاية المسيلة تشمل مواطن عجيسة وكثيرا من مواطن زناتة بالزاب والحضنة • وولاية اشير تشـــمل مواطن صنهاجة وما يجاورها من

زواوة وزناتة • وولاية تاهرت تشمل مواطن مغراوة ويفرن وغالب زناتـــة •

وفي سنة 47 قتل العبيديون يعلى بـــن محمد صاحب تاهرت • وتقدموا الى فاس • فكان فتحها على يد زيري • فأضيف لـــه عمل تاهرت • وفي سنة 60 خرج جعفر بن علي عن المسيلة • وقتل زيري • فولى المعز ابنه بلقين على الاعمال الثلاثة اشير والمسيلة وتاهرت •

وفي سنة 358 فتحت مصر للمعز واسست له القاهرة • فتأهب للرحيل اليها • وفكر فيمن ينيبه على المغـــرب ويكفيه هم زناتة • وكانت كتامة صادقة التشيع لكنها غير مجاورة لزناتة • وكثيرا من أبطالها انفقتهم في تأسيس الدولة وتسكين الثورات ثم في فتح مصر والشام • فوقع اختياره على صنهاجة • ولم يغضب كتامة فلم يجعل لعمال صنهاجة عليها سبيلا •

وفي سنة 61 خيم المعـــز خارج المنصورية • وكانـــت عاصمته أسسها ابوه المنصور قرب القيروان سنة 334 ثم توجه نحو مصر في صفر سنة 62 • وعقد لبلقين على المغرب • وسماه يوسف وكناه ابا الفتوح • ولقبه سيف الدولة • ولم يجعل له ولاية على بني ابي الحسن الكلبيين بصقلية ولا عـــلى عبـــد الله بـــن يخلف الكتامي بطرابلس • ثم اضيف اليه طرابلس سنة 67 وقسمت الجزائر الصنهاجية يومئذ الى ولايتين كبيرتين هما اشير وتاهرت• وقسمت ولاية المسيلة : جنوبها اضيف الى تاهرت وشمالها اضيف الى اشير ، ثم تغلب منصور ابن بلقين على كتامة ، فأضاف باغاية الى اشير •

جدت صنهاجة في اخضاع زناتة ، فخرج لهـــا بلقين ســـنة 63 وخرب من عمران تاهرت ونقل اهل تلمسان الى اشير ، وعاد لها سنة 69 فملك سجلماسة وفاسا ، ثم تغلب خزرون بن فلفول على سجلماسة ، فخرج له سنة 73 فمات في طريقه في ذي الحجة ، واقتفى خلفه أثره في

قتال زناتة حتى أخضعوهم •

بلغت صنهاجة من سعة السلطان وقوة النفوذ ما يخولها الاستقلال ، ولكنها آثرت الارتباط بالعبيديين لئلا تشوش على نفسها داخليا وخارجيا ، واشفق العبيديون من عظمة صنهاجة ، فاخذوا يغرون بها كتامة التي تتمتع بوطنها لا يلي عليها صنهاجي ولا تنفر معهم في الحروب ، وكانهم تركوا لها هذه الميزة لمثل هذه الدسائس •

ففي سنة 377 ظهر بكتامة ابو فهم حسن بن نصر داعيا للثورة على صنهاجة ، فكتب منصور بن بلقين الى العزيز بن المعز يستأذنه في قتال كتامة ، فوجه له رسولين بالنهي عن ذلك ، وأمرهما بالمسير الى كتامة بعد أداء الرسالة ، فلما بلغ الرسولان المنصور نهي العزيز شعر بالمكيدة ، فسجنهما وتأهب للحرب ، فلما نزل على ميلة نشر البنود وقرع الطبول مزمعا على استئصال أهلها ، فخرج اليه النساء والعجائز والاطفال بالتضرع ، فرثى لمنظرهم حتى بكى ، وابقى عليهم ونقلهم الى باغاية ، وخرب سور ميلة ، وسار نحو سطيف لا يمر بقصر او منزل الا هدمه ، ووقع قتال شديد على سطيف ، ثم انهزمت كتامة ، وفر ابو فهم الى جبل وعر ، فنزل على أهله بني ابراهيم من كتامة فلم يحموه ، وقبض عليه منصور ، فقتله ، واقام نائبا بميلة وسطيف ، ثم سرح الرسولين الى العزيز ، فارسل له العزيز يطيب قلبه ، واهدى له هدية جليلة ، وسكت عن قضية ابي فهم •

وفي سنة 79 ظهر بكتامة ايضا ابو الفرج منتسبا الى القائم بن المهدي فعظم امره أكثر من ابي فهم حتى انه ضرب السكة باسمه ، وجرت بينه وبين نائب منصور بميلة وسطيف وقائع كثيرة ، ثم خرج له منصور نفسه ، فأسره ثم قتله • وشحن بلاد كتامة بالعساكر ، وبث عماله فيها لتمهيدها وجباية خراجها ، ودخلت ضمن الجزائر الصنهاجية ولم يجد العبيديون سبيلا لاضعاف صنهاجة غير انهم

أعانوا زناتة وأميرهم فلفول بن سعيد على تملك طرابلس واخراجها من يـد صنهاجة •

شعر ملوك صنهاجة بدسائس العبيديين ، فجاملوهم ظاهرا حتى ولي المعز بن باديس ، فايد السنيين على الشيعيين ، وكاتب وزيـر المستنصر ابا القاسم الجرجرائي (نسبة الى جرجرايا من العراق) معرضا ببني عبيد ، وساعيا في تغييره عليهم ، بقول الشاعر •

وفيك صاحبت قومـا لا خـلاق لهـم
لولاك ما كنـت أدري أنهـم خلقـوا

فقال الجرجرائي : « الا تعجبون من صبي بربري مغربي يحاول أن يخدع شيخا عربيا عراقيا ؟ » •

وبعد وفاة الجرجرائي أعلن المعز سنة 440 قطع دعوة بني عبيد ومحا اسمهم من السكة واحرق بنودهم وهدم دار الاسماعيلية • ودعا للعباسيين ونشر راياتهم السود فعجز بنـو عبيد على الانتقام مـن صنهاجة • فارسلوا لهم بني هلال وسليم ، ثم عاود يحي بن تميم بن المعز دعوتهم • وقام بها ايضا خلفه •

وكان يخالف على ملوك صنهاجة أقرباؤهم ويؤيدون الثـوار عليهم ولكن لم يفت ذلك في عضدهم ولا حط من عظمتهم حتى استقل حماد بن بلقين بالوطن الجزائري سنة 405 فانقسمت صنهاجة عـلى نفسها الى دولتين شرقية عاصمتها المنصورية ثم المهدية وغربية عاصمتها القلعة فبجاية •

ضعفت الدولة الشرقية بما انسلخ منها • ثم جـاء الهلاليون فملكوا عليها الضواحي وبعض المدن • وتوالت عليها غارات النرمان بحرا حتى ملكوا عليها المهدية آخر معاقلها سنة 543 وبذلك انقرضت دولة صنهاجة الشرقية •

1 — أول ملوك صنهاجة العبيدية زيري بن مناد • كان حازما

شجاعا شديد البأس حسن السياسة مولعا بالعمران • أسس اشير • وضرب بها سكة بني عبيد • وكلف ابنه بلقين بتمصير مدن الجزائر ومليانة ولمدية •

2 — ثم ابنه بلقين وهو انجب اخوته • ربي بدار المنصور مع ابنائه • وولي لابيه على مليانة لخضد شوكة زناتة • وكان من أفحل الملوك واعظمهم نعي اليه ابوه وهو باشير • فنهض لاخذ ثأره من زناتة • وشفى صدره منهم • وانتقل الى المنصورية لما استخلف على المغرب •

3 — ثم ابنه منصور كان ولي عهده • ونعي اليه وهو باشير • فوفدت عليه الوفود معزين ومبايعين • فاحسن مقابلتهم • واجزل صلاتهم • وخطب فيهم قائلا : « ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر • وانا لا آخذ أحدا الا بالاحسان • ولا اشكر على هـذا الملك الا الله تعالى • ولست ممن يولي بكتاب ويعزل • » اهـ يعرض ببني عبيد وان لا يد لهم عليه في توليته • ولا قدرة لهم على عزله وكان يتردد بين اشير والمنصورية ، جوادا عاقلا عادلا حازما صارما عفيفا عن الدماء رفيقا بالرعية •

ونزع اليه سعيد بن خزرون فوصله بمال كثير • ثم قال له يوما : « هل تعرف أحدا أكرم مني ؟ قال نعم ! أنا أكرم منك • قال منصور : وكيف ؟ قال له لانك جدت علي بالمال وانا جدت عليك بنفسي • فاستعمله على طبنة • وعقد لاحد ابنائه على بنت سعيد • فليم على ذلك • فقال : كان ابي وجدي يستتبعان زناتة بالسيف • أما أنا فمن رماني بسيف رميته بكيس حتى تكون مودته طبعا واختيارا » اهـ •

وكان اخواه حماد ويطوفت يتداولان عمل اشـير ، وعمه ابو البهار بتاهرت •

4 — ثم ابنه باديس ، جاءه سجل العزيز بولاية عهد ابيه سنة 81

ولما توفي ابوه جاءه سجل الحاكم بالولاية ، ولقبه نصير الدولة ، وكان شجاعا مقداما جوادا محسنا حليما ، كان عمه يطوفت عامله على تاهرت ، وعمه حماد على اشير ، ثم ثار عليه وتحصن بمدينته القلعة فحاصره بها ، وتوفي أثناء ذلك بالمسيلة .

5 — ثم ابنه المعز ، بويع صبيا ، ولقبه الحاكم شرف الدولة ، وقامت جدته بتدبير الدولة حتى توفيت سنة 411 ، وتركته قادرا على الادارة ، واصيب بفتنة الهلاليين ، فانتقل من المنصورية الى المهدية ، وكان أجود أهل بيته ذا دين صحيح رقيق القلب عفيفا عن الدماء حديد الذهن عالما بالادب يقول الشعر عارفا بالالحان والتوقيعات وعلم الاحجار .

6 — ثم ابنه تميم ، كان أديبا شاعرا من نظراء ابن المعتز .

7 — ثم ابنه يحي كان أديبا ايضا ، ولكن لا يقرض الشعر الا في اوقات فراغه ، وصرف همته لسياسة رعيته وتدبير دولته ، وغزا ساحل أروبا غزوات حتى لقبه النصارى « الجريء » وسالموه .

8 — ثم ابنه علي بويع بعده ، وانشدته الشعراء معزين ومهنئين ، ومن ذلك قول ابن حمديس من ابيات :

ما اغمد السيف حتى جرد الذكر ولا اختفى قمر حتى بـــدا قمر

9 — ثم ابنه الحسن هو خاتمة ملوكهم ، فازله النرمان بالمهدية . فلما رأى ما يعجزه غادرها بما خف من نفائسه . وقال : « ســـلامة المسلمين من القتل والاسر خير لي من الملك والقصر » . ونزل الجزائر تحت رعاية ابن عمه يحي صاحب بجاية الى أن ملكها عبد المؤمن بن علي . فصحبه واغراه بالمهدية . فلما نزل عليها ورأى حصانتها . قال للحسن : « ما الذي أخرج هذا المعقل من يدك ؟ فقال له : أخرجه انقضاء الامد وعدم الثقة باحد » .

وكان الحسن أديبا فصيحا عالي الهمة حدبا على الرعية . ولكن

عجز عـــن علاج الدولة • فسقطت سنة 543 بعـــد ما مر عليها 208 منذ عقد المنصور لزيري على عمل اشير سنة 335 وتوفي الحسن سنة 566 تحت رعاية الموحدين •

الامـــير	الولاية هـ	الولاية م	الامـــير	الولاية هـ	الولاية م
زيري بن مناد	335	946	ابنه تميم	454	1062
ابنه بلقـــين	360	970	ابنه يحي	501	1107
ابنه منصور	373	983	ابنه عـــلي	509	1115
ابنه باديس	386	996	ابنه الحسن	515	1121
ابنه المعز	406	1016	اخذت منه المهدية	543	1148

10 ــ الحالة السياسية والمالية بالجزائر العربية

الاسلام دين العرب يسوي بين الناس في الحقوق • وقد طبق العرب هذا المبدأ بالجزائر • فلم تكن لهم ميزة قضائية علـــى بقية السكان • وأخذوا بيد البربر • فرقوهم في المناصب الدولية حتى تمرنوا بالادارة • وأصبحوا ايام بني عبيد قادرين على الاستقلال •

ولم يكن البربـــر يحملون للعرب بغضا سياسيا أو جنسيا بل كانوا يعظمونهم تعظيم التلميذ لاستاذه والمريد لشيخه • وما كان من خلافهم على الادارة العربية فسببه نفارهم بعضهم من بعض لان الادارة جمعت بين قبائل بينها احن قديمة متوارثة • فلذلك لم تعطل

الثوراث عبر الحضارة العربية ماديها وادبيها •

عني العرب بنشر الامن ونظام البريد وتنشيط الفلاحة وتربية المواشي • فكانوا يقطعون الفلاحين الارضين • ويخففون عن البادية الخراج • ويكلفون شيوخ القبائل حماية القوافل ويتخذون الفرسان لنقل البريد بين البلدان •

حكى التنسي أن رجلا من سجلماسة بلغه خروج قافلة الى مصر • فخرج يطوي المراحل خلفها • ومعه ثلاثة آلاف دينار • فلما جاوز قابس اذا بفرسان أخذوا دابته ودنانيره • فرجع الى الامير ابراهيم بن الاغلب بالقيروان • فدخل عليه وهو بمقصورة الجامع لسماع الشكاوي وفصل الدعاوي • فقص عليه خبره • وتنحى جانبا فدعا الامير حاجبه • وسأله هل وجهت خيلا الى طرابلس ؟ فقال نعم وقد عادوا • فأمره بعرض جميع الفرسان عليه بعد القيلولة • وبعد انتهاء مجلسه أمر بالشاكي الى دار الضيافة • وجاء موعد العرض • فاستدعاه وأجلسه الى جنبه ليعرفه ان بصر باحد أصحابه • فكلما عرفه بواحد اوقفه ناحية •

ولما تم العرض ادخل الموقوفون على الامير • فاستنطقهم حتى اعترف أحدهم • واتي بالدابة والدنانير • وخرج الشاكي وقد ارسل الامير الى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليه ووجه معه من ابلغه اياها •

تلك السياسة وهذا العدل أعانا على توسيع نطاق العمران وتنمية موارد الحياة • فكانت الطرق تخترق الوطن جنوبا وشمالا ، والسفن تشق عباب البحر مشرقه ومغربه • والمراسى في حركة مستمرة والاسواق في نفاق متصل • وللتجار في بعض النواحي علامات على أبوابهم تدل على مبلغ ثروتهم •

وترقت مع التجارة الصنائع من حدادة ونجارة وحياكة وصياغة

وغيرها حتى أصبحت علما تدون فيه الكتب • وكذلك الفلاحة • فعظمت النتائج • وساعدت الملوك على تضخيم الملك وانشاء المدن والقصور • وبعثت الناس الى مثل ذلك فاستبحر العمران • وضاقت المدن • فاتخذ حولها الفحوص وحضارة الجزائر في هذا الدور شرقية صرفة • ولم تعرف حضارة الاندلس على قربها منها واتصالها بها الا في العصر البربري •

وعظمة ثروة الجزائر العربية تدرك من كتب الجغرافية مثل المسالك والممالك ونزهة المشتاق • وكتب تاريخية حيث تجد مقدار خراج الاعمال وتفصيل هدايا العمال للامراء والملوك للرؤساء وما ينفق في الولائم والمآتم • وهذا الموضوع وحده يستحق ان يفرد بالتأليف لو وجد من ابناء الجزائر ذا عناية بماضيه • ونحن نثبت ههنا أمثلة قليلة منه ولا يسعنا استقصاؤه •

من ذلك هدايا المنصور العبيدي لزيري بن مناد استثارة لنصرته على صاحب الحمار • قال القاضي بن حماد : « وكاتب المنصور زيري ابن مناد وماكسن بن سعيد وبعث اليهما أموالا جمة وثيابا جملة • ومن الذهب والعين واللجين ومن التحف والطرف ما استمال به النفوس واستلان به القلوب » اهـ •

وقال أيضا : « وصل زيري بن مناد في قومه الى المنصور وهو بسوق حمزة • فوصله وفضله • وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه • واعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ولا يعمه الحصر • وحمله وحمل أولاده واخوته وبني عمه ووجوه أصحابه على الخيل العتاق ، بالسرج واللجم المحلاة بالذهب والفضة • وافاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الاموال إفاضة » اهـ •

وانما يظهر عظم هذه الهدايا بالنظر الى ضيقة الحكومة يومئذ • وذكروا ان باديس الصنهاجي منح فلفول بن سعيد الزناتي صاحب

طبنة ثلاثين حملا من المال وثمانين تختا من الثياب وعشرة بنود مذهبة ومراكب بالسروج المحلاة ، وان صندل عامل باغاية ارسل سنة 408 الى مولاه المعز بن باديس هدية فيها 335 برذونا بالسروج المحلاة وعبيد وشيء مستكثر • وهذا غيض من فيض اخذناه من اواخر الدور العربي ليعلم كيف ترك العرب هذا الوطن •

١١ ـ الحالة العلمية والدينية

الحكومات في حاجة الى كتاب لتسجيل الاوامر والاحكام وضبط المالية • قال ابن السيد في الاقتضاب : « واصناف الكتاب على ما ذكره ابن مقلة خمسة : كاتب خط وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير • فكاتب الخط هو الوراق والمحرر • وكاتب اللفظ هو المترسل • وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل • وكاتب الحكم هو الذي يكتب للقاضي ونحوه ممن يتولى النظر في الاحكام وكاتب التدبير هو كاتب السلطان او كاتب وزير دولته » ا هـ •

وقد أفاض في بيان آلاتهم وآدابهم • وذكر اصطلاح الخط يومئذ فقال ما ملخصه : « يحتاج كاتب الخط الى جودة التقدير والعلم بمواقع الفصول فيكون ما يعزله من البياض عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله على نسب معتدلة ، وتباعد ما بين السطور على نسبة واحدة الى أن يأتي فصل فيزاد في ذلك وسعة الفصول على مقدار تناسب الكلام فان كان القول المستأنف مشاكلا للقول الاول أو متعلقا بمعنى منه جعل الفصل صغيرا ، وان كان مباينا له بالكلية جعل الفصل اكبر من ذلك » ا هـ •

كان كتاب الحكومات علماء ادباء ، وكثير من أمراء الاغالبة

والادارسة وبني عبيد وعمالهم علماء ادباء • وعواصمهم كانت قبلة آمال أهل العلم وكعبة طلابه • قربوا اليهم العلماء والشعراء • وانشأوا بيوت الحكمة وهي دور الكتب • وأقاموا بها الوراقين يؤدون وظيفة الطباعة اليوم • واقبل الناس رجالا ونساء على العلوم والآداب لتنشيط الحكومات على ذلك • وظهر فحول الفقهاء ونوابغ الادباء وحكماء الاطباء والمؤرخون والاخباريون والجغرافيون • وظهرت المؤلفات في العلوم الدينية واللسانية والطبيعية والصناعية والفلاحية •

ذكر المقري أن ابراهيم بن احمد الشيباني البغدادي المتوفي بالقيروان سنة 298 كتب للاغالبة • وكان أيام زيادة الله على بيت الحكمة • وادخل في افريقية رسائل المحدثين واشعارهم وطرائف أخبارهم • وله تآليف •

ومحمد بن يوسف من أهل القرن الرابع ينقل عنه البكري كثيرا • ذكر المقري ايضا انه ألف ديوانا ضخما في مسالك افريقية وممالكها وكتبا جمة في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم • وألف تآليف حسانا في أخبار تيهرت ووهران وغيرهما •

وذكر ابن ابي اصيبعة ان اسحق بن عمران البغدادي كان طبيب زيادة الله بن الاغلب • وبه ظهر الطب والفلسفة بالمغرب ، وله تآليف كثيرة • وعنه أخذ اسحق بن سليمان المصري الاسرائيلي • وكان طبيب عبيد الله المهدي وله تآليف جمة • وأخذ عنه ابن الجزار صاحب التآليف العديدة الذي ترك خمسة وعشرين قنطارا من كتب الطب وغيره •

وحياة الجزائر العلمية المتأثرة بما فيها وما حولها من العواصم يومئذ في حاجة الى تاليف مستقل • ولم توف حتى اليوم حقها •

وكان الناس لانتشار العلم سلفيين اعتقادا وعملا لا يتقيدون بمذهب من المذاهب ، قال محمد بن الحارث في طبقات علماء افريقية :

« كان يحي بن عمر الاندلسي يسأل عن الشيء فيجيب عنه ، ثم يسأل عن ذلك عينه بعد زمن فلا يختلف جوابه ، وكان غيره يختلف قوله ، وهذا من يحي يدل على ركـود النظر وقلة الاجالة للفكر والاقتصار على المقال المحفوظ » اهـ .

وقال ان سعيد بن محمد الحداد من أصحاب سحنون « كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد لا يتحلى بتقليد أحد من العلماء ، ويقول انما أدخل كثيرا من الناس الى التقليد نقص العقول ودنا الهمم ، وكان يقول القول بلا علة تعبد ، والتعبد لا يكون الا من المعبود » .

واصل هذا القول عندي آية « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » .

وقد عرف أهل المغرب أولا مذهب ابي حنيفة ، ثم ظهر مذهب مالك في القيروان والاندلس ، ودخل الجزائر من هاتين الجهتين ، وحمل عليه الناس المعز بن باديس ، وقطع ما سواه من مذاهب السنية وغيرهم ، هذا في الفروع اما في الاعتقادات فلم يزالوا سلفيين يرضون عن جميع الصحابة كما قال سعيد بن المسيب . وقد قيل له ما تقول في عثمان وطلحة والزبير : « أقول ما قولنيه الله عز وجل : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » .

وكان الناس يقرأون بقراءة حمـزة لا يعرف قراءة نافـع الا الخواص الى ان جاءهم برواية ورش عن نافع محمد بن محمد بن خيرون الاندلسي نزيل القيروان المتوفي سنة 356 .

هذا خبر أهـل السنة وهم أكثرية المغربيين ، ويوجـد بينهم الواصلية والخوارج والشـيعة ، أتى بمذهب الواصلية طائفة منهم زيد بن سنان الزناتي من أهل القرن الثاني . وكـان منهم طوائف بنواحي تيهرت ومزاب والزاب .

والخوارج منهم الصفرية بنواحي وهـران وتلمسان وتيلغمت فيما بين الاغواط ومزاب ، ومنهم الاباضية بممكلة تيهرت ، وبقوا بعد سقوط بني رستم بمزاب وورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل آوراس والزاب والجريد .

والشيعة منهم الزيدية بالمملكة الادريسية والاسماعيلية بالمملكة العبيدية .

وقضى على هذه المذاهب المعز بن باديس فغلب المذهب المالكي . وانحصر المذهب الاباضي بالصحراء في أرض مزاب وورقلة .

وكان انقسام البربر على تلك المذاهب لما بين قبائلهم من منافسات وعداء ، فتلك المذاهب فيهم نتيجة السياسة لا ربيبة العلم ، ومع ذلك فلا بد ان يبقي المذهب أثرا في اتباعه وان استبدلوا به غيره ، لان العامي ليس معه من العلم ما يفرق به بين المذهبين ، فتجتمع لديه المتناقضات من حيث لا يشعر ، ولو تجرد عالم مفكر لدرس وسطنا مثلا من حيث المعتقدات لالفى بين جنبي الواحد عقائد مختلفة كان أهلها يتقاتلون من أجلها ثم هو لا تحارب أجزاؤه بعضها بعضا !

وقد استغل جهل العامة بحقيقة ما تدين بها كثير من الناس في أوقات مختلفة يتظاهرون لها بمذهبها قولا ويصرفونها عنه فعلا . وكان منهم من ادعى النبوءة فلم يعدم انصارا . ففي سنة 237 قام رجل مؤذن بناحية تلمسان . وادعى النبوءة . وتأول القرآن على غير وجهه . ونهى عن قص الشعر وتقليم الاظفار . ويقول لا تبديل لخلق الله . كأن ازالة تلك تبديل للخلقة ! فاتبعته العامة . وطلبه أمير تلمسان . ففر الى الاندلس . وشاع خبره هنالك ايضا . فقتله الامير بعد الاستتابة .

وليست غاية هؤلاء المتنبئين الا نيل سيادة دينية . ولم يحمل الناس على اتباعهم الا الجهل بدينهم لا كما ظن بعض كتاب عصرنا

ان البربر أرادوا مقاومة الدين العربي وقرآنه ولسانه بدين وقرآن ونسان بربري نفورا من السلطة العربية • ومن أجاد فهم حوادث المغرب العربي وصدق التاريخ لم يجد ظلا لهذه الفكرة • ويغلط جدا من يعلل حوادث جيل بما يتجدد من احوال وافكار جيل بعيد عنه •

12 ــ سيادة العرب بالبحــر الرومي

تغلب الروم على البحر الابيض المتوسط بعد الفينيقيين اخوان العرب فسموه بحرنا MAR NOSTRUM ثم تغلب عليــه العرب فلم يضيفوه اليهم ، وقالوا بحر الروم •

استعد العرب لغزو البحر لاول نزولهم بالمغرب • فأنشأ حسان ابن النعمان بتونس دار صناعة • وامده عبد الملك بن مروان بصناع من القبط • وانشأ اثره موسى بن نصير دار صناعة ايضا بطنجة فتح بمراكبها الاندلس •

استولى العرب على هذا البحر وجزره من طنجة الى بيروت • وركبوه للغزو والتجارة • ومن اشهر مراسي الجزائر الحربية بونــة (عنابة) ومرسى الخرز (القالة) قال البكري : « ومن مرسى بونــة تخرج الشواني غازية الى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها • وبشرقي بونة مدينة مرسى الخرز • فيه المرجان • وهي مدينة قد أحاط بها البحر الا مسلكا لطيفا ربما قطعــه البحــر في الشتاء • عليها سور وبها سوق عامرة • وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة • وفيها تنشأ السفن والمراكب الحربية لغزو بلاد الروم • واليها يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية • بينهما نحو مجريين[1] » ا هـ •

---

(1) المجرى مائة ميل بحرية .

قال الادريسي : « وعمارة أهلها على صيد المرجان لكثرته بها • يقصد اليه التجار من سائر الاقطار • يعمل بمعدنه في كل الاوقات نحو الخمسين قاربا في كل قارب نحو العشرين رجلا » اهـ •

وقال صاحب الاستبصار : « مرجان مرسى الخزر انفس مرجان الدنيا وانفق شيء بالهند والصين » •

قال ابن خلدون في الفصل الثالث من الكتاب الاول : « وكان لكل بلد تتخذ فيها السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتيه يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته • ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف وأمر ارسائه في مرفئه • فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه • وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته • يرجعون كلهم اليه • ثم يسرحهم لوجههم • وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة » •

« وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لامم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه • وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم • فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم • وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه • مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش (كريد) وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج ، وكان ابو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة » •

« تغلب المسلمون على كثير من لجة هذا البحر • وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة • والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية • فتوقع بملوك الافرنج ، وتشخن في ممالكهم • كما وقع في أيام بني

الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين » .

« وانحازت أمم النصرانية باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائـر الرومانية لا يعدونها . واساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الاسد على فريسته . وقـد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا . فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح » .

« حتى اذا أدركت الدولتين العبيدية والاموية الفشـل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثـل صقلية واقريطش ومالطة . فملكوها » اهـ .

هذا كلامه في العصر العربي نقلناه بطوله لاهميته . فان من يرى اليوم اختصاص النصارى بهذا البحر يظن ان المسلمين لم تكن لهم عليه يد ويغفل عن آية « وتلك الايام نداولها بين الناس » .

وللادباء قصائد ومقطعات في وصف الاساطيل . منها قول ابن هانىء الاندلسي :

معطفة الاعناق نحـو متونها ... كما نبهت ايدي الحواة الافاعيا
اذا ما وردن الماء سوقا لبرده ... صدرن ولم يشربن غرقي صواديا
اذا اعملوا فيها المجاذيف سرعة ... ترى عقربا منها على الماء ماشيا

ولغـيره :

ويا للجواري المنشآت وحسنها ... طوائر بين الماء والجو عوما
اذا نشرت في الجو اجنحة لها ... رائت بها روضا ونورا مكمما
وان لم تهجه الريح جاء مصافحا ... فمدت له كفا خضيبا ومعصما
مجاذف كالحيات مدت رؤوسها ... على وجل في الماء كي تروي الظما
كما أسرعت عدا أنامل حاسب ... بقبض وبسط يسبق العين والفما
هي الهدب في اجفان أكحل أو طف ... فهل صنعت من عندم او بكت دما؟

نقود الدولة الادريسية

1 — نقود ادريس الثاني

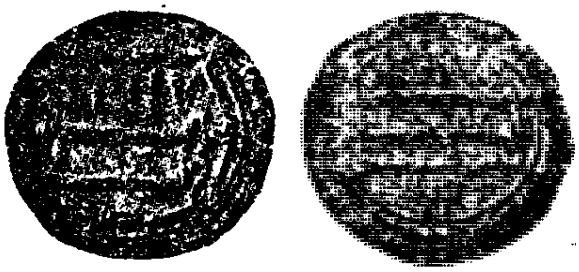

ضرب بفاس سنة 189

2 — نقود محمد بن ادريس المنتصر بالله

ضرب هذا الدرهم بالعلية سنة 216

3 — نقود علي بن محمد المنتصر بالله

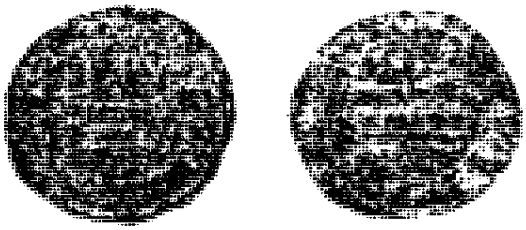

ضرب بالعلية سنة 224

4 — نقود احمد بن عيسى من بني سليمان

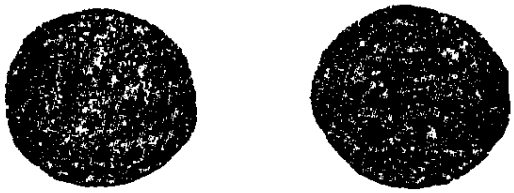

ضرب بسوق ابراهيم سنة 287

نقود الدولة الاغلبيـــة

5 — نقود عبدالله بن ابراهيم الاول

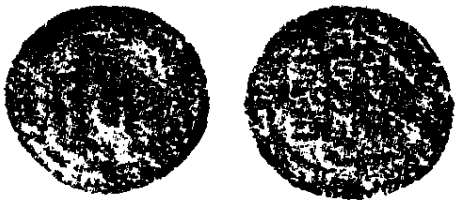

ضرب هـــذا الدينار عام 199

6 — نقود ابي العباس محمد

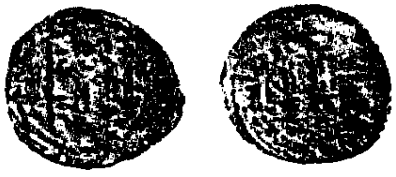

ضرب هـــذا الدينار سنة 241

7 — نقود ابي الغرانيق محمد بن احمد

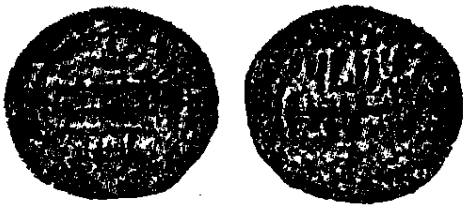

ضرب هـــذا الدينار سنة 250

8 — نقود عبد الله بن ابراهيم الثاني

ضرب هـــذا الدينار سنة 290

9 — نقود زيادة الله الثالث

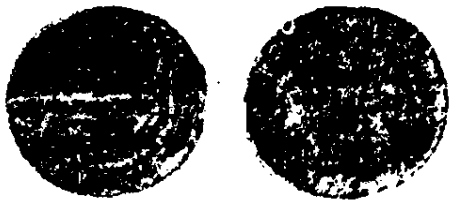

ضرب هـــذا الدينار سنة 291

نقود الدولة العبيدية

10 — نقود الخير بن محمد بن خزر المنتصر بالله

ضرب أيام المعز بن المنصور

11 — نقود المعز بن باديس

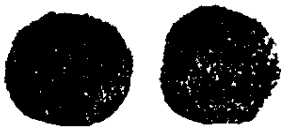

وعلى م تبكي المجاذيف الدم ؟ انما يبكيه خلف هؤلاء العرب الذين فرطوا في تراثهم وافرطوا في سباتهم .

ولله شاعر العصر احمد شوقي في قوله من قصيدة :

اليس البحر كان لنا غديرا	وكانت فلكنا البجع الرتاعا
غمرنا بالحضارة ساحليه	فما عيا بحائطها اضطلاعا
ثوارثناه ابلج عبقريا	ذلول المتن منبسطا وساعا
ترى حافاته انفجرت عيونا	ورفت من جوانبه ضياعا
فما زدنا الكتاب الفخم حرفا	ولا زدنا العصور الزهر ساعا
فعدنا مقعد الآباء منه	فكنا البهم قد خلف السباعا

الباب السادس

في نزوح الهلاليين الى المغـــرب

ا ـ تمهيـد

جاء العرب أولا الى المغرب فاتحـين منظمين معمرين (بالمعنى اللغوي لا السياسي المستعمل اليوم) مقتصرين على سكنى المدن غير مزاحمين للبربر في أراضيهم ، وتمرن البربر على عهدهم في الشؤون الدولية حتى تبؤا المناصب العاليـة ايام العبيديين فلحق كثير مـن العرب بالمشرق • ومن بقي منهم بقي خاملا •

فالعبيديون هم الذين اخرجوا العرب من المغرب ، ثم كانوا هم الذين اعادوهم اليه لما نبذ الصنهاجيون طاعتهم • لكن هؤلاء العرب جاءوا منتقمين من البربر مزاحمين لهم في أوطانهم لا في سلطانهم •

وهؤلاء العرب هم بنو سليم وبنو هلال واحلافهم مـن جشم والخلط والمعقل ، وتجتمع هـذه القبائل غير المعقل في منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان (بالعين المهملة) بن مضر ، فسليم هو ابن منصور ، يقال انه كان في أوائل القرن الثالث للميلاد ، وجشم هو ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن سعد بن منصور • وهلال هو ابن عامر بن صعصعة بن معاوية ، ويقال انه كان اوائل القرن الخامس للميلاد • والخلط من بني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة •

واما المعقل فينسبون انفسهم الى جعفر بن ابي طالب • ونسابة بني هلال يعدونهم في بطونهم • قال ابن خلدون : « والانسب ان يكونوا يمنيين من المعقل واسمه ربيعة احدى بطون مذحج » ا هـ •

وموطن سليم فيما بين المدينة وخيبر وتيماء • ومجال هلال في بسائط الطائف الى جبل غزوان شرقي مكة • وجشم حيث هلال وبقية هوازن • وبنو المنتفق بارض تيماء من نجد • والمعقل بالبحرين • هذه مواطنهم في الجاهلية • وبعد الاسلام حافظوا عليها مع توسعهم في غيرها •

وفي ولاية عبد الله بن الحبحاب انتقلت طائفة من سليم الى مصر • ثم لحق بهم أحياء من هلال واحلافهم • واشتغلوا بالفلاحة والكسب • فراشوا وكثروا • ودخل اخوانهم بالجزيرة في دعوة القرامطة سنة 316 وحارب الفاطميون القرامطة بالشام • وانتصر عليهم العزيز بن المعز • فنقل كثيرا من سليم وهلال الى صعيد مصر • وامعن في نقل هلال حيث لم يبق منهم بنجد الا العاجز عن الحرب ونزل بنو قرة من هلال ببرقة •

كانت هذه القبائل بادية ظواعن • اشرف اعمالهم الغارة واطيب مكاسبهم النهب • لم يتهذبوا بآداب الاسلام• ولم يقدر على اخضاعهم لا الامويون ولا العباسيون ولا الفاطميون • فأكثروا من الفساد • وتضرر بهم العباد والبلاد •

هذه صورة موجزة من خبر هذه القبائل قبل دخولها المغرب • وكان حظ الجزائر منهم بعد نزوحهم اليه قبيلة هلال واحلافها • ولم يدخلها من سليم الا القليل • ولهذا اقتصرنا في عنوان الباب على بني هلال •

2 — نزوح الهلاليين الى افريقية

كان بنو عبيد بمصر يدبرون الثورات بالمغرب كي لا يفقدوا نفوذهم منه • فساء ذلك ملوك صنهاجة • وخشوا ان قطعوا دعوتهم

ان يوجدوا السبيل على سلطانهم لمنافسيهم من اقربائهم ومشاقيهم من كتامة وغيرها • ولما ولي المعز بن باديس نصر اهل السنة وهم أكثر السكان واضعف الشيعة حتى لا يستطيعوا مقاومته متى قطع دعوة بني عبيد •

وكان وزير بني عبيد المتحكم في دولتهم ابا القاسم الجرجرائي فطمع المعز في استفساده عليهم • ولكن لم ينل معه مراده • وتوفي سنة 438 فخلفه اليازوري • وكان دونه شأنا • فاستخف به المعز وخاطبه بما احفظه • فاظلم الجو بينهما • وأعلن المعز الدعاء لبني العباس سنة 440 وعجز كل من بني عبيد بمصر وشيعتهم بالمغرب عن اعادة الدعوة العبيدية بافريقية • فرأى اليازوري ان يرسل على المعز عرب الصعيد • فان ظفروا به والا فلها ما بعدها •

وفي سنة 41 أذن اليازوري لعرب الصعيد باجازة النيل • ورغبهم في أرض المغرب • وأعان من اجابه منهم ببعير ودينار • واقطع زغبة طرابلس وقابس ، ورياحا القيروان وباجة ، ودريدا قسنطينة • وكتب الى المعز : « قد انفذنا اليكم خيولا فحولا وارسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا » •

نزل رعيل العرب برقة • وأعجبتهم ارضها • فكتبوا الى اخوانهم بالصعيد يرغبونهم في اللحاق بهم • ولكن حكومة بني عبيد لم تأذن لهم هذه المرة اجازة النيل الا باداء دينارين لكل شخص ، فأخذ القادرون على الاداء في الرحيل حتى ضاقت بهم برقة • فبقي بنو سليم ، وتقدم بنو هلال الى افريقية •

كان كل من بني عبيد وصنهاجة يجهلون نتيجة هذه الحملة • فاستكثر المعز من شراء العبيد حتى اجتمع لـه منهم ثلاثون الفا • وتقدمت رياح سنة 43 لامتلاك اقطاعها • فاحسن المعز الى أميرهم

مؤنس بن يحي واصهر اليـه واسكنه ببعض قصوره بالقيروان • فحسنت معه نية مؤنس وعاد تشاؤم المعز بمقدمهم تفاؤلا • ففكر في اتخاذ جند منهم يتقوى بهم على بني عمه الحماديين • وعرفه مؤنس عواقب دخـول العـرب مملكتهم • وحـذره فسادهم • فابى الا استقدامهم • فذهب اليهم مؤنس بدعوى المعز • فقدموا ولكن بدعوى المستنصر الفاطمي واخذوا يعيثون في الارض فسادا •

ساءت نية المعز مع مؤنس واتهمه باغراء العرب على الفساد • فقبض على أخيه واهله بالقيروان • فورم أنف مؤنس لفعلته ، وجمع العرب ووضع بين أيديهم زربيه قائلا : هـل يستطيع أحد ان يبلغ وسطها دون أن يطأ حواشيها ؟ قالوا لا • قال كذلك القيروان لا نملكها الا اذا ملكنا ضواحيها •

استعد المعز لحرب العـرب فجمع عبيده وقومـه وبقايا عرب الفتح • واستمد ابن عمه الحمادي فأمده بالف فارس • واستنفر زناتة • فأتاه منهم ألف فارس ، ولحق برياح زغبة وعدي • وكانت جموع المعز اضعافهم • ولكن قـد قيل قديما : « للكثرة الرعب وللقلة النصر » •

تزاحف الجمعان ، فانخزل عرب الفتح الى اخوانهم الهلاليين ، وخانت زناتة وصنهاجة الحمادية ، فترك المعز معسكره للعرب ، وفر الى القيروان ، واستولى العرب على افريقية ومدنها مثل ابة والاربس وباجة • وخشي المعز على نفسه بالقيروان • فلحق في خفارة بعض أمراء العرب بالمهدية سنة 49 وذاق وبال سوء ظنه بمؤنس واغتراره بقوته • وتلاحق الى الهلاليين اخوانهم بالصعيد ونجد • ودامـت حركة الهجرة نحو نصف قرن • وموجتها في اتجاه نحو الغرب •

3 ـ الهلاليــون بالجزائــر

تقدم الهلاليون واحلافهم نحــو الجزائر • فدخلوها من ثلاث جهات • الاولى جهة السواحل حيث تقطن كتامة ويضعف نفــوذ صنهاجة او ينعدم • تقدموا اليها من نواحي باجة • فانتشروا على ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة الى القل الى جبال بابور •

وتقدم الهلاليين في هذه الناحية اسبق منه في سواها • ولم نجد خبرا عن دفاع كتامة لهم • فاما ان يكون بنو عبيد كتبوا اليها بتأييدهم واما ان تكون هي التي تقربت منهم نكاية في صنهاجة •

وكلام الادريسي عن مدن هــذه الجهة يدل على حسن علائق أهلها مع العرب فالقالة كانت حالتها التجارية حسنة والعرب يمونونها بحبوبهم • وقسنطينة قال ان أهلهــا مياسير ، بينهم وبــين العرب معاملات ومشاركة في الحرث والادخار •

الجهة الثانية جهة الهضاب ما بين الاطلسين التلي والصحراوي حيث الحكومة الحمادية ثابتة القدم • تقدموا اليها من نواحي الاربس وانتهوا ايام الادريسي الى وادي الساحل وجبال البيبان •

دافعتهم صنهاجة عن هــذه الجهة • فغلبوها على الضواحي ، وحصروها بالمدن الحصينة والقلاع المنيعة ، فان الادريسي لما ذكر المدن الواقعة شمال اوراس ذكر انها في حال سيئة من حصار العرب لهــا ، قال في حصن ماوس : « حصن عامــر بأهله ، وكانت العرب تملك ارضه • وتمنع أهله الخروج منــه الا بخفارة رجل منهم » • ودار ملول شرقي طبنة على مرحلة منها ، قال : « انها مدينة عامرة بها حصن • فيه مرصد مشــرف على محال العرب يستطلع منــه حركاتهم » • ودار ملول ذكرها ياقوت بلفظ ارملول •

وذكر الطريق من بجاية الى قلعة بني حماد • وعدد منازلهم • فلما بلغ الباب قال : « وهي جبال يمر بينها الوادي المالح • وهناك مضيق وموضع مخيف • ومنه الى حصن السقائف الى حصن الناظور الى سوق الخميس ، وبه المنزل • وهذه الارض كلها تجولها العرب وتضر باهلها وسوق الخميس حصن باعلى جبل • وبه مياه جارية • ولاتقدر العرب عليه لمنعته • وبه من المزارع والمنافع قليل • ومنه الى حصن مطماطة في أعلى جبل الى سوق الاثنين • وبه المنزل • وهو قصر حصين • والعرب محدقة بارضه • وبه رجال يحرسونه مع سائر أهله • ومنه الى حصن تافكلات (في غيره تافلكات) الى تازكي ، حصن صغير ، الى قصر عطية على أعلى جبل ثم الى حصن القلعة مرحلة وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في هدنة • وربما اضر بعضهم ببعض • غير أن أيدي الاجناد بها مقبوضة ، وايدي العرب مطلقة في الاضرار وموجب ذلك ان العرب لها دية مقتولها • وليس عليها دية فيمن يقتل » اهـ •

الجهة الثالثة جهة الصحراء حيث تكثر خيام زناتة الخاضعة لبني حماد • تقدموا اليها من ناحية سبيبة الي تبسة • وانتشروا جنوب اوراس على قرى الزاب وانتهوا ايام الموحدين الى مزاب وجبل راشد •

دافعتهم زناتة عن هذه الجهة • وكانت أملك للبأس من صنهاجة لبدواتها وتقارب ما بين حياتها وحياة العرب • فكانت بين الفريقين مواقف صعبة اكثر الهلاليون من ذكرها في أشعارهم • وقتل في بعضها أبو سعدى خليفة اليفرني بالزاب • وهو قائد صاحب تلمسان من بني يعلي • قال ابن خلدون : « وتغلب العرب على الضواحي في كل وجه وعجزت زناتة عن مدافعتهم بافريقية والزاب • وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب » اهـ •

ولما استتب الامر للموحدين نزعت اليهم زغبة ونزلت مع بني بادين من زناتة قبلة المغرب الاوسط من مزاب الى جبل راشد • واتحدوا على دفاع ابن غانية الميورقي • قال ابن خلدون : « وانعقد بينهم حلف على الجوار والذب عن الاوطان وحمايتها من معرة العدو في اهتبال غرتها وانتهاز الفرصة فيها • واقامت زغبة في القفار • وبنو بادين بالتلول والضواحي » اهـ •

ولما ضعفت الدولة الموحدية المؤمنية ونشأت دولتا بني زيان وبني مرين احتاجت الدولتان الى العرب لتعزيز سيادتهما • فدخل الهلاليون واحلافهم شمال المغرب الاوسط من عمالة وهران •

وهكذا تم للعرب استيطان الجزائر بالرهبة من سيوفهم أولا وبالرغبة فيها أخيرا • فاقطع لهم ملوك البربر الاقطاعات وأجزلوا لامرائهم الصلات • واضيفت افريقية الشمالية الى جزيرة العرب جنسيا بعد ما تبعتها دينيا وسياسيا •

4 ـــ نتائج النزوح الهلالي

ارسل الفاطميون الهلاليين على المغرب انتقاما من المعز ودولة صنهاجة الشرقية فنزحوا اليه لا حبا في نصرة الفاطميين ولا بغضا في صنهاجة • ولكن طلبا للرزق بالتقلب في بواديه بين الصحراء والتل •

ولما دخلت رياح افريقية لم تبدأ بالشر حتى كان ما كان من قبض المعز على أسرة أميرها مؤنس • فحمل بسوء سياسته العرب على تنفيذ ما رسم لهم الفاطميون من تملك المناطق المعينة لهم •

كان عدد من أجاز النيل من رياح وزغبة وعدي يربو على ألف ألف نفس • المقاتلة منهم نحو خمسين ألفا وسلاحهم سيف ورمح

وقوس ودرع • وكـان البربـر يفوقونهم عـددا وعـُددا ولكـن تخاذلوا امامهم فاكتسب العـرب صيتا مـلأ قلوب السكان رعبا • والرعب أهم أسباب الفوز في الحرب •

حصرت الحرب العرب في افريقية ، ولم يزل اخوانهم يتواردون عليهم من المشرق ، فضاق بهم ما احتلوه من الاوطان ، ونتج عن ذلك خراب العمران وسوء حيـاة السكان • واحصى عليهم الجغرافيون والمؤرخون حتى اقتلاع عود للوقود أو رفع حجر للاثافي •

بقيت الجزائر في نجوة من فساد الهلاليين حتى حالف الناصر بن علناس قبيلة الاثبج وخرج لامتلاك تونس ، فاغرى به ابن عمه تميم ابن المعز بقية العرب وكانت وقعة سبيبة سنة 457 فهزم الناصـر • وتبعه العرب الى القلعة •

قال ابن خلدون : « فنازلوها وخربوا جناتها واحتطبوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الامصار مثل طبنة والمسيلة • فخربوها وازعجوا ساكنيها • وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن • فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير ! وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الارض الفساد » اهـ •

وفي قوله أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير مبالغة أجنبية عن أسلوب التاريخ • فان الادريسي تتبع الحمـلة الهلالية أحسن تتبع ووصف طبنة ومقرة والمسيلة وغيرها بالعمران •

عجزت صنهاجة الغربية أمام الهلاليين كاختها الشرقية • وغلبوا أيضا زناتة بالصحراء • ونشأ عن ذلك فوضى في الوطن • فانقطعت الصلة بين المدن باخافة السبل • وفر الفلاحون من الضواحي • فوقفت التجارة والفلاحة • وانحصرت العمارة والامن في السواحل شمال قسنطينة حيث لا شر بين العرب والبربر •

وكان ضرر الحرب بالجزائر أقــل منــه بتونس وطرابلس لان الجزائر لم تكن هي المقصودة بهــذه الحملة ، ولم تطل بهــا مدة الحرب ، وسواحلها حيث كتامة كانت منطقة سلم ، ووسطها به معاقل منيعة وجبال حصينة ، وجنوبها حيث اشتدت الحرب صحراء ليس فيها كبير عمارة •

والمسؤل عما لحق المغرب من أضرار الحرب هي صنهاجة التي لم تحسن سياسة هؤلاء العرب وجرأتهم عليها بما كان بين دولتيها من تنافس • وقد بالغ كتاب العربية في تقدير تلك الاضرار ثم حملوا الهلاليين مسؤليتها • ذلــك لانهم كتبوا لدول بربرية ولــم يكن للهلاليين حكومة تطمعهم في انعامها • ولبداوتهم لم يهتموا بدعاية سياسية تنشر لهم أو عليهم • واتخذ كتاب الفرنسوية مبالغات كتاب العربية سلما لثلب العرب • وصاروا يطرون البربر بعــد ما كانوا يقذفونهم باشنع القذائف في الدورين الروماني والبزنطي • واقتصر في هذا الغرض على كلمة واحدة للكاتب العسكري كاريت • قال :

« كان هجوم العرب الفاتحين كالاعصار يقتلع الاشجار ويهدم المنازل وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الاشجار والمساكن رمادا تذروه الرياح فما أبقاه الاعصار قضى عليه الحريق • وما بقي عن السياسة العربية قائما بالمغرب ذهب به الطبع العربي الهدام • فتمم الهلاليون اعمال التخريب التي ابتدأها الخلفاء الاولون » اهـ •

اما تجد في هذه الجملة التي هي غيض من فيض ريح مسيحية القرون الوسطى وروح الاستعمار العصري ؟ لعل كاريت تصور حربا أروبية بآلاتها المدمرة واستعار نتائجها لنتائج حرب سلاحها السيف والقوس ! ولعل عاطفته على هذا الوطن امام الهجوم العربي استعارها من انسان كامل رأى الحملات الاروبية على الامم المستضعفة ! اسمح لي أيها الكاتب أن أقول لك لست بمؤرخ يحترمه القارىء ولا بسياسي

يغر البربر فانهم لا يرضون عـن تحاملك على العرب ولا سـيما الفاتحين .

البربر يعلمون ان ما نتج عن هجوم الهلاليين ليس ناشئا عن عداوة جنسية او قسـوة حربية ولذلك اختلطوا بهم وأخذوا عنهم عوائد اجتماعية واخلاقا فاضلة اضافوها الى عوائدهم وأخلاقهم . واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وادبا راقيا واعانة على فهم الدين . واستبدلوا بحياتهم حياة عربية .

فكان نفوذ الهلاليين في البربر اجتماعيا لغويا جنسيا . كما كان نفوذ الفاتحين دينيا سياسيا ويمتاز نفوذ العرب في غيرهم من الامم بانه غير ناشىء عن دعاية سياسية وانه خالد خلود الراسيات لا يذهب بذهاب سلطانهم ولا توهن من قوته الدسائس الاجنبية . بل لا يكترث بها الا اكتراث القائل :

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه اشفق على الرأس لاتشفق على الجبل

5 ـ الحيـــاة الهلاليـــة

الهلاليون بداة ظواعـن . يسكنون بيوتـا يستخفونها يوم ظعنهم . ويكسبون الخيل لركوبهم والانعام لحمل أثقالهم والتغذي بالبانها واتخاذ الملابس والاثاث من أوبارها واصوافها واشعارها . ينتجعون بها الصحراء شتاء والتل صيفا . ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل . ويجمعون أيام كونهم بالتل الحبوب لقوت سنتهم . قال ابن خلدون : « وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من اضرارهم بافساد السابلة ورعي الزرع مخضرا وانتهابه قائما وحصيدا . الا ما أحاطته الدولة وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها سبيل » اهـ .

وتغلب الهلاليون على طرق القوافل ، فلا يجتازها غيرهم الا بخفارة احدهم • فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية ولكن الهلاليين قاموا بها أحسن قيـام ووسعوا نطاق التجارة بين التـل والصحراء •

ولم يحافظ على حياة الظعن من الهلاليين الا القبائل القويـة واحلافها • اما من ضعف منهم فكانوا ينزلون المدن والقرى البربرية • أو يحدثون لانفسهم قرى بالزاب والصحراء • ويشتغلون بالفلاحة ويستبدلون بالشاة البقر •

وكانت زناتة وبعض البربر على مثل هذه الحياة البدوية من قبل مجيء الهلاليين • لانها حياة ناشئة عن طبيعة الوطن لا دخل للنسب فيها • ولتشابه الحياتين تأثر الهلاليون بزناتة في بعض عوائدهم • قال ابن خلدون متحدثا عن العرب :

« شعارهم لبس المخيط في الغالب • ولبس العمائم تيجانا على رؤسهم • يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها • وهم عرب المشرق • وقوم يلفون منها الليت والاخدع قبل لبسها • ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها • وهم عرب المغرب • حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر قبلهم • وكذلك لقنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية • وهجروا تنكب القسي • وكـان المعروف لاولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الامرين •• »

« فهذه كلها شعائرهم وسماتهم • وأغلبها عليهم اتخاذ الابل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بهـا لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها ، بما كان معاشهم منها • فالعرب أهل هذا الشعار من أجيال الآدميين ، كما ان الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر ، لما كان معاشهم فيها • فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه الا بالعرض •

ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولا عند الاكثر ، وفي بعضهم خفيا على الجمهور • وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب » اهـ •

ولسان الهلاليين مضري • حافظوا عليه ببداوتهم في المفردات والتراكيب ووجوه البلاغة وأساليب الخطاب • قال ابن خلدون :

« وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم • والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ، ولم يفقدوا من أحوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط » اهـ •

وقد ذكر العبدري في رحلته — وهو من أهل القرن السابع — ان عرب برقة لم يزالوا يعربون أكثر أقوالهم • ويتحدثون بما يعد عند العلماء غريبا • وذكر ما سمعه من أقوالهم المعربة والفاظهم الغريبة ، وعلل ذلك بعدم اختلاطهم بالناس وقال هم أفصح من عرب الحجاز وغيرهم •

فلعل الهلاليين انما فسد لسانهم بالجزائر لاختلاطهم بالبربر ، ويشهد لذلك أننا نرى اليوم عرب الصحراء القليلي الاختلاط بغيرهم أصح عربية وأقوم مخارج حروف ، وعرب السواحل المغمورين بالبربر أفسد نطقا بالحروف وأردى لغة • ومع هذا فالهلاليون أثروا من حيث اللغة في البربر أكثر مما تأثروا بهم •

وذكر ابن خلدون ان بداة العرب شرقا وغربا يمتازون عن أهل الحضر بان مخرج القاف لديهم بين مخرجي الكاف والقاف الحضرية ، ولم تزل هذه القاف البدوية لعهدنا ، وهي مثل القاف الاعجمية التي نحدها في الاعلام البربرية والافرنجية وغيرها . مثل بلقين وتاقرا وقسال وقوتية ، وكان الاقدمون كالبكري يرسمونها جيما ، فيقولون

بلجين وتاجرا ، ومن بعدهم كابن خلدون يرسمونها كافا ، فيقولون بلكين ، وكتاب عصرنا يرسمونها غينا • فيقولون غسال وغوتية • وانا اختار رسمها قافا اذ هي مثل القاف البدوية مخرجا •

وكانت أخلاق الهلاليين هي أخلاق الجاهلية بما فيها من حسنات وسيئات كالجود والشجاعة وعزة النفس وابايا الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار والاعتراف بالجميل والتمدح بالغارة وبغض الصنائع والحرف •

ومعارفهم هي معارف الجاهلية من عناية بالانساب وكل ما يتصل بحياتهم البدوية ، وليس لهم من الاسلام بعد الشهادتين كبير علم أو عمل • وقد تأثروا من هذه الناحية بالبربر ، فنبذ القاطنون بالنواحي الخصبة حياة الغارة والفتن • وحيي فيهم الشعور الديني • وظهر منهم من دعا الى السنة • ورابطوا في الثغور لحمايتها من النرمان ، ولم يعرف عنهم اعانة الكافر أو الاستعانة به حتى كان بنو زيان أواخر أيامهم يستعينون بعضهم على بعض لنيل الملك بالاسبان النازلين بوهران • فجروا معهم أحلافهم من عامر وزغبة القاطنين بنواحي وهران ، فاصبحوا من بعد جندا لنصارى الاسبان •

وللقبائل الهلالية مناطق تتقلب فيها ظعنا واقامة • ولكل رئيس منها يلقب أميرا أو شيخا أو سيدا • والغالب أن يكون معه من قبيلته رئيس تابع له يلقب رديفا • وقلما تخرج رئاسة القبيلة من بيت الى آخر • وللرئيس صفات يمتاز بها من كبر سن ورجاحة عقل وفصاحة لسان وفضل جود • وليس للحكومة عزله الا ان تكون قبيلته ضعيفة •

وكثيرا ما تكون الحروب بين الهلاليين اما بين قبيلتين متجاورتين لاسباب أهمها التنازع على وسائل الحياة ولا سيما بالصحراء : واما

بين أفراد القبيلة الواحدة لاسباب أهمها التنازع على الرئاسة • ولا يفض الخصام كالحسام • وينتج عن هـذه الحروب ضعف قبيلة واستعلاء أخرى • فتضطر الضعيفة اما للجلاء الى ناحية اخرى واما للاحتماء بقبيلة أقوى • فتضع القبيلة الحامية على المحمية عربية أو بربرية ضريبة معلومة يسمونها خفارة • وهي آية الشرف الحربي • واليوم لم يزل لبعض القبائل علـى غيرها خفارة يقبضونها باسـم الشرف الديني • ويحرفون لفظها الى غفارة كمـا حرفوا اصـل وضعها •

وقد احتاجت الحكومات البربرية الى القبائل العربية • فقربت رؤساءهم بالمصاهرة والمجالسة • واقطعتهم الاراضي • واعتمدت عليهم في جباية الخراج وتجنيد الجنود • وعرف العرب ان نعمتهم تلك لا تدوم الا بضعف الحكومة • فكانوا يحدثون لها المشاكل ويدبرون عليها الثورات • ويتحدون ضدها متى خشوا قوتها نابذين مابينهم من تراث • وينقسمون على الحكومات متى تعددت • وقد أصبحت الحكومات الحفصية والزيانية والمرينية كـل منها تعتمد على قبائل عربية سلما وحربا •

ولم تكن مشاغبة الهلاليين للحكومات البربرية لطمع في الملك أو طلب للفوضى • وانما كانت لحفظ حياتهم البدوية • وكانت القبائل البربرية تتواثب على الملك ارضاء لشهوات زعمائهم لا لاختلاف مباد او تباين غايات • ونتج عن سياسة هذين الجنسين المشتركين في الدين والوطن نتائج سيئة عادت عليهم جميعهم بالوبال • وتفصيل الحياة العربية السياسية في الكتاب الثالث ان شاء الله •

قال ابن خلدون : « وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون • وكان من أشهرهم حسن بن سرحان وأخوه بدر

وفضل بن ناهض • وهم من دريد بن الاثبج • وماضي بن مقرب من قرة • وسلامة بن رزق من كرفة • وشبانة بن الاحيمر واخوه صليصل من بني عطية من كرفة • وذياب بن غانم من بني ثور • ومؤنس بن يحي من مرداس رياح لامر داس سليم وزيد بن زيدان من الضحاك • ومليحان بن عباس (وفي نسخة ثليجان بن عابس) من حمير • وزيد الحجاج بن فاضل • ويزعمون انه مات بالحجاز قبيل دخول افريقية • وفارس بن ابي الغيث واخوه عامر (وفي نسخة عابد) والفضل ابن ابي علي • ينسبونهم في مرداس والمعنى مرداس رياح كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم • وكان ذياب بن غانم رائدهم في دخول افريقية • ويسمونه لذلك ابا مخيبر ، وشعوبهم لذلك العهد — كما نقلنا — هم زغبة ورياح والاثبج وقرة وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدي ، ولم نقف على اخبارهم • وليس لهم لهذا العهد حي معروف فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل » اهـ •

الهلاليون ومواطنهم بالجزائر

العرب المستوطنون بالجزائر انما هم الهلاليون واحلافهم • اما سليم فانما تقدمت منهم قبيلة عوف حوالي القرن الثامن من تونس الى ناحية عنابة •

واحلاف الهلاليين هم عرب المعقل واحياء من فزارة واشجع من بطون غطفان • وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن • وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية • وعمرة بن اسد بن ربيعة بن نزار وفي بعض نسخ ابن خلدون عترة بالتاء بدل الميم • وثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة • وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر • وطرود بطن من فهم بن قيس عيلان •

هذا ما ذكر ابن خلدون • ولم يعتن باخبار غير المعقل منهم • وعد باقيهم مندرجين في هلال • وفي الاثبج منهم خصوصا • نعم طرود لم يزالوا معروفين باسمهم • ودخلوا ارض سوف بعد ابن خلدون • ونقل كاريت عن ابن الرقيق ان السكاكين فيمن دخل مع الهلاليين • وسكون بطن من كندة احدى القبائل اليمنية •

ولما أخذ ابن خلدون في شرح أحوال هؤلاء العرب قال : « ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته • ونطوي ذكر من انقرض منهم » اهـ •

ونحن نقدم الكلام في المعقل ثم نقفي ببني هلال • تحيز المعقل منذ أمد قديم الى الهلاليين • ودخلوا معهم المغرب في عدد دون المائتين ونزلوا غربيهم • وانتشروا في الصحارى • فاعتزوا وعفوا وكثروا بمن اندمج فيهم من غير نسبهم من اشجع وفزارة وبني سليم • ومن بني هلال احياء مع المعقل ايضا من مسلم وسعيد والعمور وكرفة والمهاية وحصين •

ومواطنهم تمتد من قبلة تلمسان الى المحيط الغربي الى سجلماسة ودرعة حيث يجاورون الملثمين • وملكوا على زناتة قصور توات وتامنطيت وتيقورارين وورقلة واقتضوا منهم الضرائب •

ومن بطونهم ذوو حسان بالسوس الاقصى ، وذوو منصور بين ملوية ودرعة منهم العمارنة والمنبات بطنان يعرفون بالاحلاف • ومن بطون المعقل ذوو عبيد الله بن صقيل واخوانهم الثعالبة من ثعلب بن علي بن بكر بن صقيل •

أما ذوو عبيد الله فمواطنهم بين تلمسان ووجدة الى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة • ويبلغون في رحلتهم الى تيقورارين وتوات ويجاورهم شرقا بنو عامر من هلال • وبين القبيلتين حروب •

وهم بطنان الهداج والخراج • يجاورون ذوي منصور غربا والخراج شرقا • والخراج منهم الجعاونة أبناء جعوان • والغسل ابناء غاسول • والمطارفة ابناء مطرف • والعثامنة ابناء عثمان ، ومن العثامنة أولاد عبد الملك ، وفيهم رئاسة الخراج ومعهم ناجعة من المهايا • ينتسبون تارة الى المهايا من عياض ، وتارة الى مهايا بن مطرف •

واما الثعالبة فموطنهم بمتيجة • قال ابن خلدون : « ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوو عبيد الله في مواطن عامر ، لهذا العهد ، وكان بنو عامر في مواطن سويد • فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية • فدخلوا من ناحية قزول وتدرجوا الى ضواحي لمدية • ونزلوا جبل تيطري الى أن ملك بنو توجين لمدية وغلبوهم على تيطري • فنزلوا الى متيجة » اهـ •

وذكر ابن خلدون انتساب المعقل الى جعفر بن ابي طالب وفنده • ويظهر لي أن نسب جعفر في الثعالبة صحيح وانه جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك ابناؤه متيجة في القرن الثالث • فلا يبعد انهم بقوا هنالك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة •

وأما الهلاليون فقبائل عديدة وبطون كثيرة • ولضبط الحديث عنهم نعد هلالا شعبا • ونسلك في تفصيل فروعه الترتيب اللغوي الذي نظمه من قال :

الشعب ثم قبيلة وعمارة بطن وفخذ والفصيلة تابعه

فقبائل هلال هي الاثبج ورياح وزغبة وقرة بن عبد مناف وكلهم ابناء ابي ربيعة بن نهيك بن هلال • وعمائر الاثبج هي دريد وكرفة وعياض والضحاك ولطيف والعمور والعاصم ومقدم • والعمارتان الاخيرتان نقلهم بنو عبد المؤمن الى المغرب الاقصى كما نقلوا قبيلة قرة • وعمائر رياح هي مرداس وسعيد وعامر وعلي وعمائر زغبة هي : يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة •

1 — دريد • كانت اليهم رئاسة هلال • ومدحهم شعراؤهم • وكان منهم الحسن بن سرحان رئيس الاثبج اجمعين عند دخولهم افريقية • واخته الجازية التي كانت تحت الشريف بن هاشم صاحب الحجاز • وولايته عليه من سنة 430 الى 453 ولهذا الشريف منها ابن اسمه محمد ولي الحجاز بعد أبيه • ولما اجمعوا الرحلة الى افريقية تحيلوا في نقل الجازية معهم • وتزوجها بعده ماضي بن مقرب من قرة • واجتمع على حربهم من اخوانهم كرفة وقرة وعياض • وكان الظهور غالبا لدريد •

ومن بطونهم أولاد سرور وأولاد عطية وأولاد عبد الله • وأولاد عطية رئاستهم في فخذ أولاد مبارك بن حباس • ومن أفخاذ أولاد عبد الله أولاد جار الله وتوبة • ورئاسة أولاد جار الله في فصيلة أولاد عنان بن سلام • ورئاسة توبة بين فصيلتي أولاد وشاح وأولاد مبارك ابن عابر وفي بعض نسخ ابن خلدون عابد بالدال بدل الراء • وهؤلاء أولاد مبارك هم فصيلتنا القاطنون بين بني تليلان وبني خطاب •

ومواطن دريد ما بين بونة وقسنطينة الى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر • وطارف قرية ذكرها ياقوت • وكان أولاد مبارك ابن حباس بتلة بن حلوف من ناحية قسنطينة • ثم غلبتهم عليها توبة زحفت اليهم من طارف مصقلة فدثروا وتلاشوا • ثم قعدت توبة عن الظعن واستبدلت الشاء والبقر بالابل • وعليها قعدت توبة وعسكرة • وأولاد سرور وأولاد جار الله مجاورون لتوبة وعلى سننهم في الحياة • هذه حالتهم لعهد ابن خلدون •

2 — كرفة • كان لهم جمع وقوة • وبطونهم كثيرة • منها بنو محمد ابن كرفة والمراونة بنو كثير بن مروان بن قطن بن كرفة • وأولاد نابت بن فاضل بن محمد بن كليب • والحدلجات اربع بطون

هم بنو كليب بن عطية ابن قطن يعرفون بالكلبة بالباء أو الياء نسختان لابن خلدون ، وبنو شبيب بن محمد بن كليب يعرفون بالشبيبة ، وأولاد صبيح بن فاضل يعرفون بالصبحة ، والسراحنة أولاد سرحان بن فاضل ، ومن افخاذ أولاد نابت أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة • ومن فصائل أولاد مساعد أولاد علي بن جابر بن مفتاح ابن مساعد • وفيهم رئاسة كرفة •

وموطن الحدلجات بأوراس مما يلي زاب تهودا • وأولاد نابت اقطعهم الحفصيون جانب أوراس الشرقي والزيبان الشرقية • وبنو محمد والمراونة تلقاء أولاد نابت ظواعن في القفار • وكرفة كانوا محالفين لصنهاجة ثم الحفصيين • ولما ضعف نفوذ الحفصيين بالزاب انقبضوا الى جبل أوراس • وقلما يظعنون الى تخوم الزاب •

3 — عياض • كان لهم عدد وقوة • ومن بطونهم الزبر بنو زبير وأولاد صخر وأولاد رحمة والمهاية والخراج والمرتفع • ومن أفخاذ المرتفع أولاد حناش رئاستهم في فصيلة أولاد عبد السلام ، وأولاد تبان رئاستهم في فصيلة أولاد محمد ابن موسى • وأولاد عبدوس أو غندوس نسختان لابن خلدون رئاستهم في فصيلة بني صالح • ورئاسة الخراج في فخذ أولاد زائدة بن عباس • ورئاسة المهاية في فخذ أولاد ديفل •

قال ابن خلدون : « وعياض نزلوا بجبل القلعة قلعة بني حماد • وغلبوا قبائله على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم •• وطول الجبل من المشرق الى المغرب مابين ثنية غنية والقصاب الى وطن بني يزيد ابن زغبة • فاوله مما يلي غنية للمهاية والزبر • وبعدهم المرتفع والخراج • ويلي الخراج غربا أولاد صخر وأولاد رحمة وهذا آخر وطن الاثابج » اهـ •

4 — الضحاك • كانوا بطونا كثيرة • وهم مفترقون على أميرين منهم هما ابو عطية وكلب بن منيع • ولاول دولة الموحدين غلب كلب ابا عطية واستقل بالرئاسة •

وكان نجعهم بالزاب • ثم تغلب عليهم الذواودة • واصاروهم في جملتهم • فعجزوا عن الظعن ونزلوا المدن •

5 — لطيف • بطونهم كثيرة منها اليتامى أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف . واللقامنة أولاد لقمان بن خليفة • ومن أفخاذ اليتامى ذوو مطرف وذوو ابي الخليل وذوو جلال بن معافى • ومن افخاذ اللقامنة أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان ، وبراز بن معن بن محيى •

وغلبتهم رياح والذواودة • فانتقل بعضهم الى المغرب الاقصى ونزل فريق من براز على العطاف من زغبة • وعجز الباقون عن الظعن فاتخذوا بالزاب الآطام والقرى • ونزلوا مدنه مثل الدوسن وتهودة وبادس وغريبو وتنومة •

قال ابن خلدون : « ولهم عنجهية لم يفارقوها منذ ايامهم القديمة لهذا العهد • وبين المتجاورين منهم بقصور الزاب فتنن متصلة ، وعامل الزاب يدرأ بعضا ببعض ، ويستوفي جبايته منهم جميعا » اهـ •

6 — العمور • ليسوا من الاثبج وانما هم ملحقون بهم ، ويحتمل انهم من عمرو بن عبد مناف بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال أو من عمر بن رويبة بن عبد الله بن هلال ، قال ابن خلدون : « وليسوا من ولد عمرو بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال » اهـ •

وهم بطنان مرة وعبد الله • فمرة على كثرتهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا ، وعبد الله فخذان ماضي ومحمد ، ومحمد فصيلتان عنان وعزيز ، ومن عنان شكر وفارس ، ومن شكر زكرير ومحيا •

وفي العمور فرسان وأكثرهم رجالة وليسوا في ولاء دولة ولا لهم رئاسة ولا ناجعة لافتراق كلمتهم ، وبين أولاد شكر فتن متصلة . فحالف أولاد محيا سويد بن زغبة . وحالف أولاد زكرير بني عامر .

وموطن العمور يمتد من أوراس على الحضنة والصحراء الى جبل راشد المضاف اليوم اليهم . وليس لهم سبيل الى التل ، ونزل أولاد شكر جبل راشد ، ثم استقل به أولاد محيا ، وطردوا منه أولاد زكرير الى جبل كسال غربيه . وهم جبل يطل على البيض . وباقي العمور بسفح أوراس الى مواطن غمرة غربا . وهم تحت طاعة رياح .

7 — مرداس . بطونهم كثيرة منها الذواودة أولاد ذواد ، وصنبر بن عقيل بن مرداس ، ومسلم بن عقيل . وعامر بن يزيد بن مرداس ، ومن الذواودة بنو عساكر بن سلطان وأولاد محمد بن مسعود بن سلطان وأولاد سباع بن يحي ، ومن عامر بنو موسى وجابر وبنو محمد ، ومن بني محمد مشهور ومعاو وعلي الملقب سودان ومن مسلم رحمان وأولاد جماعة وفيهم رئاسة مسلم بين أولاد شكر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة ، وبين أولاد زرارة بن موسى ابن قطران بن جماعة .

وكانت رئاسة رياح لمرداس في صنبر قوم مؤنس بن يحيى ، ثم صارت للذواودة وكان منهم مسعود بن سلطان واخوه عساكر . واستمرت الرئاسة في عقبهما .

8 — سعيد ، من بطونهم أولاد يوسف بن زيد ومن أولاد يوسف أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف ، وأولاد ميمون بن يعقوب بن عريف ابن يعقوب بن يوسف ، ورئاسة سعيد في أولاد ميمون ويرادفهم أولاد عيسى ، وسعيد احلاف لاولاد محمد من الذواودة .

ومع سعيد لفائف من المخادمة والغيوث وهم من ولد مشرق ابن الاثبج ومن نفاث احدى بطون جذام ومن زنارة احدى بطون نواتة من البربر •

9 — عامر • منهم الاخضر ، رئاستهم في أولاد ثامر بن علي من تمام بن عمار بن خضر ، والاخضر ومسلم من مرداس احلاف لاولاد سباع بن يحي من الذواودة ولم يتحدث ابن خلدون عن عمارة علي •

وبطون رياح كانت تنقلب من الجريد الى القيروان الى الزاب الى المسيلة الى ورقلة • ولهم اقطاع بالحضنة ونواحي قسنطينة وبجاية •

10 — يزيد • بطونهم كثيرة ، منها جواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة بنو مربع والخشنة بنو خشين وحميان وأولاد لاحق وأولاد معافي وبنو سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد • ومنهم من يزعم ان مهديا هو ابن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق • وليس بصحيح ولبني سعد ثلاث أفخاذ هم بنو منصور بن سعد وبنو ماضي بن رزق بن سعد وبنو زغلي بن رزق •

ولبني يزيد محل من زغبة بالكثرة والشرف وللدول بهم لذلك عناية وهم أول من اقطعتهم الدول بالتلول والضواحي • وكانت رئاستهم لاولاد لاحق ثم لاولاد معافي ثم صارت لبني سعد واختص بها منهم بنو زغلي •

ويزيد مجاورون غربا للاثبج ورياح • يقطنون سهل حمزة والدهوس وارض بني حسن من صنهاجة الى متيجة ، وما يتصل بذلك ريفا وصحراء • وهم مقيمون لا يظعن الا قليل منهم • وينزل معهم اخوانهم عكرمة فانه ويزيد ابناء عيسى بن زغبة وفي بعض نسخ ابن

خلدون عبس بدل عيسى • وفي ايام يغمراسن بن زيان انتقل منهم حميان الى صحراء تلمسان • وانتقل فريق من عكرمة الى جبل كريكرة قبلة السرسو •

11 — حصين • لهم بطنان عظيمان جندل وخراش • ومن جندل خشعة وأولاد سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل وفي بعض النسخ فضيل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل • ومن أولاد سعد فصيلة بني خليفة ومن خراش أفخاذ أولاد مسعود ابن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ، وأولاد فرج بن مظفر ، وأولاد طريف بن معبد بن خراش يعرفون بالمعابدة • ومن أولاد مسعود فصيلة رحاب بن عيسى بن ابي بكر بن زمام بن مسعود • ومن أولاد فرج فصيلة بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج ومن أولاد طريف فصيلة أولاد عريف •

ورئاسة حصين مفترقة على الفصائل المذكورة • وموطنهم غربي بني يزيد الى جبل تيطري ونواحي لمدية •

12 — مالك : بطونهم ثلاثة : بخيس، والحرث وسويد • ومن الحرث افخاذ غريب والعطاف والديالم بني ديلم • ومن غريب فصيلة بني منبع • ومن منبع بنو مزروع وأولاد يوسف • ومن فخذ العطاف فصيلة أولاد يعقوب • ومن الديالم فصيلتان : العكارمة ابناء عكرمة ابن مزروع بن صالح بن ديلم ، وأولاد ابراهيم بن رزق بن رعاية بن مزروع • ومع الديالم اخوانهم بنو زياد من ابراهيم وأولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن والدهاقنة أولاد دهقان بن حسن فان ديلما هو ابن حسن •

ولسويد أفخاذ منها فليتة وجوثة وصبيح وأولاد ميمون وشبابة ومجاهر • ومن شبابة الحساسنة بنو حسان • ومن مجاهر غفير وشافع ومالف وبورحمة وبوكامل وحمدان وهبرة • ومن حمدان

أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان • وهبرة تزعم انها من قوم المقداد بن الاسود الصحابي البدري • فهم من قضاعة • وقد ينتسب بعضهم الى تجيب من بطون كندة •

وكانت مواطن مالك جنوب بني توجين المستولين على ما بين سعيدة ولمدية • ثم استولت سويد على بلاد توجين ما عدا جبل وانشريس • وكان لسويد المنزلة العليا في دولتي بني زيان وبني مرين • ونزلت هبرة نواحي البطحاء بالضفة اليمنى من نهر مينة • والعطاف بسهول غربي مليانة ، والديالم قبلة وانشريس • ونزلت بطن بخيس نواحي وهران •

13 — عامر • بطونهم ثلاثة أولاد يعقوب وبنو شافع وبنو حميد • ومن شافع فخذا بني مطرف والشقارة • ولحميد افخاذ وفصائل منها بنو عبيد بن حميد ، منهم المحارزة بنو محرز بن حمزة ابن عبيد ، والعقلة بنو عقيل بن عبيد ، والحجز بنو حجاز بن عبيد ، ومن الحجز حجوش وحجيش • ومن حجوش حامد ورباب ومحمد ، ومن محمد الولالدة بنو ولاد بن محمد •

ورئاسة عامر في بني يعقوب • وكانت عامر احلافا لبني يزيد يظعنون بظعنهم ثم انتقلوا في عهد بني عبد الواد الى قبلة تلمسان ولهم جبل تامالة ، ويتقلبون هنالك بين وهران والصحراء •

14 — عروة • هم بطنان حميس والنضر ومن حميس عبيد الله ويقظان وفرغ ومن فرغ أولاد نائل ومن يقظان أولاد عايد ومن بطن النضر أولاد خليفة والجماقنة وشريفة والصحارى وذوو زيان وأولاد سليمان •

وأولاد نائل احلاف لاولاد محيا من العمور وبنو يقظان وعبيد الله احلاف لسويد يظعنون معهم • والنضر رئاستهم في أولاد خليفة • وهم منتبذون بالقفر ويصعدون الى أطراف مواطن حصين والديالم

واعطاف • والصحارى أكثرهم بجبل مشنتل المضاف اليوم اليهم •

هذه فروع هلال ومواطنهم في القرنين الثامن والتاسع • اعتمدنا في جلها على ابن خلدون مع تصحيح ما فيه من تحريف في الاعلام • ومن تلك الفروع ما تغيرت اوطانه او اتسعت فصائله أو اندثر اسمه • وموعدنا ببيان الهلاليين ومواطنهم لهذا العهد الكتاب الرابع ان شاء الله •

وذكر كاريت ان مرمول احصى مقاتلة عرب الجزائر في القرن العاشر بنحو (199500) واعتذر عن قلة هذا العدد بان مرمول تارة يستند في احصائه الى اليقين واخرى يعتمد على أقل تقدير • قال ويمكن احصاء المقاتلة وغيرهم من شيوخ ونساء وصبيان بنحو تسعمائة الف • ونحن لا نقفو ما ليس لنا به علم • وانما نرى من الجدول الذي نقله عن مرمول انه أهمل كثيرا من القبائل العربية • فيكون ذلك الاحصاء دون الحقيقة بمراتب • وهذا جدول مرمول :

1 — السكاكين

القبيلة	البطن	الموطن	المقاتلة
أولاد صبير		بين تلمسان ووهران	23000

2 — بنو هلال

بنو عامر		بين تلمسان ووهران	60000
أولاد هوروا		جهة مسغانم	18000
أولاد عقبة		جهة مليانة	11500
أولاد هبرة		بين مستغانم ووهران	03000
أولاد مسلم		جهة المسيلة	? ? ?
رياح	الحنانشة	بين قسنطينة وبونة	20000
أولاد سعيد		بين تنس ونوميديا	18000

3 — المعقل

أولاد حسان	الثعالبة	في متيجة ونوميديا	44000
أولاد حسان	أولاد سعيد	بين مستغانم وشلف	02000

الكتاب الثالث

في العصر البربرى

عرف البربر العرب اساتذة ماهرين مخلصين لا فاتحين غالبين يسوسونهم بالعسف ويسومونهم سوء العذاب ثم يمنون عليهم بانهم تعبوا في تمدينهم أو يملكون عليهم أراضيهم ثم يسبونهم بانهم لا يحسنون تعميرها •

ترقى البربر في ظل الحكومة العربية • ولكنهم أسرعوا بتطلب الاستقلال قبل قدرتهم عليه • وانما بعثهم على ذلك ما بقي فيهم من عروق الفوضى ومنافسة قبائلهم بعضها لبعض • حتى اذا جاء الدور العبيدي اتموا دروسهم العملية في الحياة النظامية فاصبحوا قادرين على الاستقلال •

وفي القرن الخامس استقل البربر بوطنهم من غير كفران لفضل العرب فكانت حكومات صنهاجة معترفة بالسيادة العباسية أو الفاطمية • ثم ظهرت دولة الموحدين في القرن السادس فلم تعترف بالسيادة للفاطميين أو العباسيين اذ كانت دولتاهم يومئذ على فراش الاحتضار •

وكان عصر الموحدين هو شباب العصر البربري • اتحد فيه سكان المغرب اجمع تحت راية واحدة وبلغوا من حسن الادارة وانتشار المعارف ورقي الحضارة مبلغا عظيما ثم اخذ هذا العصر في الهرم • حتى غلب الاسبان على كثير من السواحل وجاء الاتراك فقضوا على ما بقي للبربر من استقلال • والحق أن البربر يومئذ ليسوا بأهل للحكم كما ان الاتراك ليسوا باهل للسياسة •

كان مبتدأ العصر البربري في القرن الخامس ومنتهاه في القرن العاشر وحكم أثناء هذه المدة ست دول كبرى هي : دول بني حماد والمرابطين والموحدين والحفصيين وبني مرين وبني زيان •

ومعرفة انساب القبائل البربرية ومواطنها مما يعين على ما كان بينها في هذا العصر من ولاء وحلف أو عداء وسيف • فرأينا ان نعيد القول في ذلك بما يناسب هذا العصر •

وقد شاء الله ان يكون للعرب وجود جنسي في عصر البربر السياسي كما كان للبربر وجود جنسي في عصر العرب السياسي • غير ان بين الوجودين فرقا • فان العرب مؤثرون في البربر في العصر العربي سياسيا ودينيا ، وفي العصر البربري اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ايضا • فلا جرم وجب ذكر العرب في هذا العصر وقد عقدنا للحديث عنهم بكل دولة فصلا • ولما رأينا كثرة أخبارهم في دول الحفصيين والمرينيين والزيانيين جمعناها في باب مستقل •

فاشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبواب :

الباب الاول في القبائل البربرية الجزائرية •

الباب الثاني في الدولة الحمادية •

الباب الثالث في دولة المرابطين •

الباب الرابع في الدولة الموحدية المؤمنية

الباب الخامس في اخبار العرب لعهد الحفصيين والمرينيين والزيانيين

الباب السادس في الدولة الحفصية •

الباب السابع في دولة بني مرين •

الباب الثامن في دولة بني زيان •

الباب الأول

في القبائل البربرية الجزائرية

1 ـ تمهيـد

يقطن الوطن الجزائري من البربر زناتة وصنهاجة وكتامة وزواوة وعجيسة وازداجة ومسطاسة وبنو فاتن وبطون من لواتة ونفزاوة وهوارة وزواغة ومكناسة ومصمودة ولمطة وأوربة ، ومن هذه القبائل والبطون ما لها فروع في بقية المغرب • ومنها ما ينتسب في العرب القحطانيين أو العدنانيين انتسابا دعا اليه حب العرب لا ثقة الرواية بالنسب •

ولقد ذكرنا هذه القبائل والبطون في الكتاب الاول ثم ظهرت بطون وأفخاذ كان لها شأن في هذا العصر البربري • وتغيرت مواطن كثيرين منهم اما بهجوماتهم بعضهم على بعض كما فعلت صنهاجة بزناتة واما بهجومات الهلاليين • فنبين في هذا الباب ما حدث من بطون وما تجدد من أوطان بما يناسب العصر البربري تاركين ما بعده الى الكتاب الرابع ان أعان الله على بلوغه واتمامه •

وقد رأينا أن تتبع ابن خلدون في أسلوب الحديث عن البربر • فنذكر كل قبيلة على حدة • فان ذلك ادخل في البيان وانسب بالحياة البربرية المستقلة قبائلها بعضهم عن بعض • واذا كانت البطون صغيرة جمعناها في فصل لقلة الكلام عليها •

2 ـ زناتـة

زناتة أشبه البربر حياة بالعرب لان أكثرهم مواطنهم الصحراء •

يتخذون بيوت الشعر للظعن • قال ابن خلدون : « وكانت مكاسبهم الانعام والماشية وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة وفي ظل الرماح المشرعة • وكانت لهم في محاربة الاحياء والقبائل ومنافسة الامم والدول ومغالبة الملوك ايام ووقائع ، نلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها فنأتي به • والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالبا لغلبة دولة العرب وظهور الملة العربية • فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك • واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده • ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الاحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد ايامهم وتدوين أخبارهم • ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الارياف والحضر حتى يشهدوا آثارهم لابعادهم في القفر وتوحشهم عن الانقياد • فبقوا غفلا الى أن درس منهم الكثير ولم يصل الينا بعد ملكهم الا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه ويتقراه في شعابه ويثيره من مكامنه » اهـ •

وقد أخذت زناتة بالخارجية ثم فارقتها تدريجا حتى لم يبق منهم عليها الا القليل • وكانوا منقسمين سياسيا الى ادريسيين ورستميين واغلبيين • ولهم حروب مع جيرانهم صنهاجة ، فلما ظهرت دولة بني عبيد والتهم صنهاجة ، وعادتهم زناتة فاتسعت واجهة الخلاف بين القبيلتين •

وكانت رئاسة زناتة لمغراوة ، ووفد أميرهم صولات بن وزمار على عثمان بن عفان (رض) فعقد له على قومه ، قال ابن خلدون : « فاختص صولات وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية ، وكانوا خالصة لهم دون سائر قريش ، وظاهروا دعوة المروانية بالاندلس رعيا لهذا الولاء » اهـ •

ومظاهرة مغراوة وسائر زناتة لمروانية الاندلس انما حدثت ايام

بني عبيد ، فالظاهر ان سببها منافسة صنهاجة ، وقد تقوت صنهاجة ببني عبيد على اعدائها الاقدمين ، فنالت منهم قتلا وجلاء ، وكانت نكبتهم على يد بلقين بن زيري سنة 369 ، قال ابن خلدون : « دوخ بلقين في هذه السنة المغرب ، وانكفأ راجعا ، ومر بالمغرب الاوسط ، فالتحم بوادي زناتة ومن اليهم من الخصاصين ، ورفع الامان على كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر ، ونذر دماءهم ، فاقفر المغرب الاوسط من زناتة ، وصاروا الى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الاقصى الا ما كان من رجوع بني يعلي بن محمد الى تلمسان وملكهم اياها » اهـ .

وقد لحق كثير من زناتة بالاندلس في العصرين العربي والبربري، وضربوا هنالك مع ملوك الطوائف بسهم ، وكان منهم جيش عظيم للغزو أيام بني الاحمر بغرناطة .

وكان منهم جراوة قوم الكاهنة ذوي سلطان ، ثم انقضى أمرهم لاول الفتح ، ومنهم مغراوة قوم صولات بن وزمار جد بني خزر ، واستمر سلطانهم الى أن غلبتهم صنهاجة ، فنزحوا الى المغرب الاقصى ، وأسسوا امارات بتلمسان وفاس وسجلماسة واغمات قضى عليها المرابطون ، وأسسوا ايضا امارة بطرابلس . قضى عليها الزمان وتجدد لهم ملك بشلف في العصر البربري ومنهم يفرن قوم صاحب الحمار ويعلي بن محمد بن صالح مؤسس مدينة افكان . ولبنيه دولة بالمغرب الاقصى قبل ظهور المرابطين . ومنهم بنو يلومي وبنو ومانو . كان لهم شأن في العصر البربري . وهذه طبقة أولى عند ابن خلدون . والطبقة الثانية هم بنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان . وبنو توجين أصحاب وانشريس .

واشهر قبائل زناتة جراوة ويرنيان ووجديجن وواغمرت وورقلة

وددمر وبنو **ومانو وبنو يلومي ويفرن** ومغراوة وواسين وحديث نسب زناتة الى البربـر أو قحطان أو عدنان وما للناس في أنساب قبائلها وأفخاذها حديث يطول جلبه وتضعف جدواه وقد أطال في ذلك ابن ابي زرع **وابن خلدون** •

جراوة كان موطنهم باوراس ثم انتشر عقدهم فاكلتهم القبائل • وكانت طائفة منهم بنواحي ملـوية سميت بهم مدينة هناك كانـت للعلويين • ولم يكن لهم ذكر في العصر البربري •

يرنيان • متفرقون في مواطن زناتة • وجمهورهم علـى وادي ملوية مجاورين لمكناسة • ثم اختلطوا ببني مرين لما ظهرت دولتهم •

وجديجن • كان جمهورهم بمنداس شرقي يفرن وشمال لواتة وغربي مطماطة ، ونكحت منهم امرأة في لواتة ، فعيرها نسـاؤهم بالفقر ، فتذمرت الى عنان أمير وجديجن ، فغضب لها ، واستجاش أحلافه ، فنصره يعلي بن محمد اليفرني وكلمام في مغيلة وعزانـة في مطماطة وفي بعض نسخ ابن خلدون غرابة ، وكانت حرب مات فيها عنان ، وغلب وجديجن لواتة • فملكوا عليهم السرسو • وذلـك أيام العبيديين ، ثم غلبهم على مواطنهم بنو يلومي وبنو ومانو ، فلم يكن لهم ذكر في العصر البربري •

واغمرت وتدعى ايضا غمرت ، جمهورهم جنوب صنهاجة فيما بـين الدوسن ومشنتل • ثم غلبهم العـرب على السهول فاعتصموا بالجبال قبلة المسيلة وصنهاجة وقعدوا عن الظعن • ثم صاروا في اقطاع الذواودة •

ورقلة وتدعى أيضا ورقلان • موطنهم بالصحراء جنوب الزاب • ولهم المصر المعرف بهم الى اليوم • ومعهم جمع من بني زنداق ونزل عليهم كثير من زناتة الزاب لما أجلاهم عنه الهلاليون •

دمر • من أوسع بطونهم بنو ورنيد • ومن ورنيد بنو ورتاتين وبنو تفورت وبنو برزال • وكان بنو برزال بجبل سالات من ناحية بوسعادة • وبقية ورنيد بصحراء تلمسان الى سعيدة • وتغلب عليهم بنو راشد • فانقبضوا الى الجبل المضاف اليهم المطل على تلمسان • ولم يكن لدمر كبير شان في العصر البربري •

بنو ومانو • كانوا بالعدوة الشرقية من مينة الى اسافل شلف • وظهر أمرهم بعد اجلاء صنهاجة لمغـــراوة • فكان لهم ذكر ايـــام الحماديين • وبعدهم تغلب عليهم بنو عبد الواد • وبنو توجين • فازدردتهم القبائل •

بنو يلومي • كانوا مجاورين لومانو غربا منافسين لهم الى أن غلبهم بنو توجين على مواطنهم • فتفرقوا أوزاعا في القبائل •

يفرن • كان منهم بالجريد بنو واركو ومرنجيصة • وغلب عليهم بنو هلال وسليم • فاستكانوا للحفصيين • ومنهم فريق بالزاب • اجلاهم الهلاليون الى ورقلة وغيرها • وجمهورهم بالمغرب الاوسط من نواحي تلمسان الى تيهرت الى جبل راشد وغلبتهم صنهاجة • فلم يكن لهم شان بالجزائر البربرية •

مغراوة • مساكنون لبني يفـــرن • وبينهم منافســـات فمنهم بالزاب • وجمهورهم بالمغرب الاوسط من شلف الى تلمسان الى جبل مديونة • وبطونهم كثيرة • منها بنو زنداق بالحضنة حول مقرة • ومنها بنو ورا بشلف • ومنها الاغواط فيما بين الزاب وجبل راشد • ولهم مدينة لم تزل الى اليوم تسمى بهم • ذكرت في عهد بني عبيد وهي التي الفنا بها هذا الكتاب • قال ابن خلدون : « وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب » اهـ • والمحقق عند أهلها واعرابها أن الهلاليين تغلبوا على أطراف مدينتهم • وبها بستان يعرف اليوم

باسم هلال • وبجبل كسال طائفة معروفة اليوم باسم غواط كسال لم يذكرهم ابن خلدون • ومنها ريغة بعضهم بجبل عياض الى نقاوس • تغلب عليهم العرب ، وبعضهم بوادي ريغ لهم على عدوتيه قصور كثيرة وفلاحات متنوعة ، خرب جلها ابن غانية ، ومن تلك القصور تقرت ، ومنها سنجاس بالجريد والزاب وارض مشنتل وجبل كريكرة وجبل راشد وشلف ، وقد تغلب عليهم الهلاليون ، فاستكانوا للدول ، ومنها بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو يلنت وبنو بوسعيد ، وكلهم بشلف •

واسين ، كانوا ينتقلون فيما بين الزاب وسجلماسة صحراء وتلا ، ومن بطونهم بنو راشد بالجبل المضاف اليهم وغلبوا مديونة وبني ورنيد على بسائطهما ، ثم تغلب عليهم العمور ، فبقي بعضهم مساكنا لهم بالجبل ، ومنها بنو مرين وافخاذهم كثيرة ، ولي الملك منها بنو وزرير فخذ بني عبد الحق وبنو واطاس • واختصوا بعد الملك بالمغرب الاقصى • ومنها بنو بادين • وافخاذهم كثيرة منها بنو عبد الواد بعضهم باوراس • وجمهورهم أقطعهم الموحدون بلاد بني ومانو • ثم ملكوا تلمسان • ومن فصائلهم بنو ياتكبن وبنو ولو وبنو ورسطيف ومصوجة وبنو تومرت وبنو القاسم ومن بني القاسم بنو مطهر وبنو يكزيمن وبنو دلول وبنو كمي وبنو طاع الله قوام يغمراسن بن زيان مؤسس دولة تلمسان • ومؤرخو دولتهم ينسبون بني القاسم في الادارسة • قال ابن خلدون : « وهو زعم لا مستند له الا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه مع ان البادية بعداء عن معرفة هذه الانساب • والله أعلم بصحة ذلك وقد قال يغمراسن بن زيان لما نسبوه الى ادريس ، برطانتهم ما معناه : فان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله واما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا » اهـ •

ومن أفخاذ بادين بنو توجين كانوا منافسين لبني عبد الواد وتقدموا الى التل فانبثوا في السرسو ووانشريس الى لمدية شرقا وسعيدة وجبل راشد غربا • ثم غلبهم الهلاليون على ما عدا جبل وانشريس • ويجمع فصائلهم جذمان احدهما سرغين وفي بعض نسخ ابن خلدون بدل سرغين رسوغين منهم بنو يرناتن بجبل يغودو نواحي نهر واصل وبنو منكوش وبنو تيغرين بوانشريس • ومن تيغرين أولاد عزيز بن يعقوب • وثانيهما مدن منهم بمنداس بنو مادون وبنو قاضي بالقاف في ابن خلدون ولعله ماضي ومنهم بنواحي فرندة بنو يد للتن •

قال ابو راس : « وبلغني عمن رأى تاليفا في ذكر بني بادين ان توجين اثنان احدهما بالواو بعد التاء شريف والآخر زناتي والذي أعرفه من بطونهم بنو ازندار وبنو وكبمار • ومنهم فرقة كبيرة بارضهم • الاولى ازاء جبل راشد » اهـ •

ومن افخاذ بادين مصاب بالوطن المعروف بهم المدعو اليوم مزاب والزاي والصاد متقاربان • وفي اللسان البربري حرف يقرب مخرجه من مخارج الزاي والصاد والسين • فيختلف النطق به عند التعريب • وصاحب الترجمان المعرب من قبيلة صيان بالمغرب الاقصى يدعونه الصياني والزياني •

قال ابن خلدون : « وقصور مصاب سكانها لهذا العهد شعوب بني بادين **من بني عبد الواد** وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن انضاف اليهم من شعوب زناتة ، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب » **اهـ** •

وبنو **عبد الواد الذين** بمزاب من بني مطهر بن يمل بن يزقن بن القاسم • وقال ابو راس بمزاب لماية واخلاط من صنهاجة وغيرهم •

3 ـ صنهاجـة

صنهاجة بكسر الصاد وقد تضم • قال ابن خلدون :

« هم أكثر أهل المغرب لهذا العهد • لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر » اهـ •

وكانوا فيما بين زناتة وزواوة ، وانحدرت منهم أمة الى الجنوب في أزمنة قديمة ، فكثروا بالصحراء جنوب المغرب حتى عمروا ما بين غدامس شرقا ونول غربا والسودان جنوبا ، وتشعبت بذلك صنهاجة الى شعبين عظيمين بقي احدهما بالجزائر واستوطن الآخر الصحراء ، وهم الملثمون ، واختلفت حياتهما باختلاف الموطن •

فاما صنهاجة الجزائر فهم أهل مدر مـن مدنهم اشير ولمـدية ومليانة ومتيجة والجزائر ، أسلموا لاول الفتح ، ودان بالخارجية بعضهم من مجاوري زناتة ، ثم فارقوها قال ابن خلدون :

« ولصنهاجة ولاية لعلي بن ابي طالب كمـا ان لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، الا انا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها » اهـ •

وقدمنا البحث معه في ولاية مغراوة • ونرى ان ولاية صنهاجة لعلي سببها نزول ابنائه بينهم وكونهم آل البيت ، وأما أخذهم بدعوة بني عبيد فانما كان منافسة لزناتة الثائرة عليهم • على ان الامارات العلوية كان سقوطها على ايديهم •

ومن بطونهم تلكاتة قوم زيري بن مناد • ومنهم فريق بجهات بجاية ولمدية بفتحتين فكسرة فياء مشددة أهـل المدية المعروفة الى اليوم بهم ، وبنو مزغنة أهل مدينة الجزائر ، وبنو خليل ومتنان وبنو جعد وبطوية وبنو ايفاون •

وظهرت منهم دولتا بني باديس وبني حماد ، ولحق بعض ابناء زيري المخالفون على اخوانهم بالاندلس • واستولوا على غرناطة حتى غلبهم عليها المرابطون ، ثم غلب الموحدون صنهاجة على أمر المغرب وغلبتهم بطون من هلال على مواطنهم فانحصروا بالجبال •

واما صنهاجة اللثامية فمن اشهر قبائلهم لمتونة ومسوفة وقدالة ، وهم أهل شعر ظواعن ، قال البكري : « وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب لا تبدو منه الا محاجر العينين ولا يفارقونه في حال من الاحوال حتى ان الرجل لا يعرف وليه وحميمه الا اذا تنقب ، ولو زال قناع قتيل لم يعرف حتى يعاد عليه القناع ، وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا ويصب عليه السمن أو الشحم المذاب ، وشرابهم اللبن اغناهم عن الماء فلا يشربه احدهم الاشهر • وقوتهم مع ذلك مكينة وابدانهم صحيحة » اهـ •

وكانوا وثنيين ، واسلم بعضهم على يد عقبة بن نافع ، ولم يعمهم الاسلام الى القرن الثالث ، ولكنه اسلام اسمي ، ولم يأخذوا به حقيقة وعملا الا في القرن الخامس على يد عبد الله بن ياسين الجزولي •

وكان منهم أمراء ، ولهم في جهاد السودان مواقف ثم ظهرت منهم دولة المرابطين دولة الدين والعدل • وذهبت على يد الموحدين • وبقايا الملثمين يعرفون اليوم بالتوارق • ومر علينا بالاغواط سنة 1348 بعض رؤسائهم • فرأينا لثامهم على ما وصف به أسلافهم •

4 ـ كتامة وزواوه

يميل ابن خلدون الى أن زواوة بطن من كتامة ، فرأينا جمعهما في فصل فاما كتامة فشعب عظيم • كانوا من لدن الفتح معتزين

بكثرتهم لا يسومهم الامراء بهضيمة الى أن ظهرت الرافضية بالمغرب • فدانوا بها • وملكوا المغرب باسم بني عبيد ثم مصر والشام • واختطوا القاهرة • ولهم بها حارة مضافة اليهم • ذكرها السخاوي في تحفة الاحباب • وظهر منهم امراء عظام مثل حباسة بن يوسف أمير برقة وقائد الاساطيل العبيدية ، والحسن بن ابي خنزير أمير صقلية ، وماكنون بن ضبارة امير طرابلس ، وجعفر بن فلاح أمير الشام وفاتحه ، وبني لقمان أمراء قابس وفي أحدهم يقول الشاعر :

لولا ابن لقمان حليف الندى سل على قابس سيف الردى

ثم انتقل الامر من ايديهم الى صنهاجة • وجاء الهلاليون فساكنوهم في كثير من النواحي مثل عنابة وقالمة وجنوب قسنطينة • ففارقهم الملك واكلتهم الاوطان وبقيت منهم بقايا ذات سيادة بوطنها في العصر البربري حتى استولت عليهم مصمودة والحفصيون • وانتقل بعضهم الى المغرب الاقصى ونزل فريق منهم نواحي دلس من وطن زواوة •

قال ابن خلدون : « وبقي في مواطنهم الاولى بجبل أوراس وجوانبه بقايا من قبائلهم على اسمائها والقابها • وآخرون تغير لقبهم • وكلهم رعايا معبدون للمغارم الا من اعتصم بقنة الجبل مثل بني زلدوي بجبلهم وأهل جبال جيجل » اهـ •

ومن بطون كتامة سدويكش وبنو تليلان وبنو يستيتن وهشتيوة ومسالته وبنو قنسيلة في بطون كثيرة يجمعها جذمان هما غرسن ويسودة • وعد ابن خلدون من بطون يسودة فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن وعد من بطون غرسن مصالة وقلدن وما وطن ومعاذ ويناوة وينطاسن وايان •

ومن يناوة لهيصة وجيملة ومسالتة • ومن ينطاسن لطاية واجانة

وغسمان وأوفاس • ومن ايان ملوسة • ومن ملوسة بنو زلدوي • ومن سدويكش كايازة وسقدال وبنـــو عياد وبنـــو سقين وسيلين وطرسون وطرغيان ومولیت وبنو لماي وبنو زعلان والبويرة وبنـــو مروان ووار مكسن وأولاد سواق • ومن سواق أولاد علاوة وأولاد يوسف • ومن يوسف بنو محمد وبنو المهدي وبنو ابراهيم والعزيزيون نسبوا الى أمهم تاعزيزت •

وسدويكش يكسبون الابل والخيل والبقر • وينتقلون ببيوتهم في البسائط ما بين قسنطينة وبجاية • وينتسبون في سليم من بطون مضر ، ونقل ابن خلدون انهم من كتامة • وايده بكون موطنهم من مواطن كتامة • ويقويه عندي كون بعض بطونهم لم تزل لغتها حتى اليوم بربرية •

ولم يذكر ابن خلدون في بطون كتامة كثيرا من البطون المعروفة اليوم بفرجيوة ولا ذكر من سكان الجبال بـــين السكيكدة وجيجل غير بني تليلان • وهنالك من هم أكثر منهم مثل بني والبان وبني تفوت وبني خطاب وبني يدر • فاما ان تكون تلك البطون لا شان لهـــا لعهده واما ان يكون أهملها لقلة خبرته بتلك الجبال فانه لم يحدثنا عنها لا بقليل ولا بكثير • واسم خطاب معروف منذ القرن الثالث • فقد ذكر اليعقوبي في مراسي ميلة قلعة خطاب • ويقول الشيخ عبد القادر الراشـــدي في رسالة لـــه ان تفوت اصله تفورت حذفـــت راؤه ، وهو محض غلط فان تفورت فخذ من دمر احدى بطون زناتة • ولم يدخل على كتامة في تلك الجبال غير العرب •

واما زواوة فكانوا ممتنعين بجبالهم الى أن أسس بنـــو حماد بجاية • فانقادوا لهم قال ابن خلدون : « واتصل اذعانهم الى هـــذا العهد » • وكان لهم مرسى الدجاج قبل بجاية كعاصمة تجارية تاتيها

القوافل برا وسفن الاندلسيين بحرا • وسيادتها في فراوسن وايراتن بطنان فيما بين بجاية ودلس • ورئاسة ايراتن في بني عبد الصمد لم تزل فيهم لعهد ابن خلدون • وعلى حصانة موطنهم نفذ اليهم الهلاليون وغيروا من مراكز بطونهم بعض التغيير • وفيهم بيوتات من آل البيت • ومن بطون زواوة بنو مجسطة ومليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو قزيت وكرسفينة ووزلجة وموجة وزقلاوة وبنو مرانة وبنو جناد وبنو واقنون وفراوسن وايراتن وافليسن واعزوزن • وقيل ان مليكش من صنهاجه •

قال ابن خلدون : « ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد بنو يجر وبنو منقلات وبنو يترون وبنو يني (وفي بعض النسخ بنو ماني) وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بويوسف وبنو عيسى وبنو بوشعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كشطولة » اهـ •

وبنو غبرين كانوا بجبل الزان • وانتقلوا بعد ابن خلدون الى جنوب، تمقوت قاله بوليفة في كتابه « جرجرة » المؤلف بالفرنسية • وعليه اعتمدنا في تصحيح اعلام البطون المذكورة •

5 ـ لواتة ونفزاوة

لوا الاكبر بن زحيك بن مادغيس الابتر له ولدان هما نفزاو ولوا الاصغر ، فمن ولد نفزاو نفزاوة واخوانهم بنو لوا الاصغر اختصوا باسم لواتة •

فاما لواتة فكانوا ظواعن • ولهم في الخارجية مواقف وفي حرب بني عبيد مقامات • فاكلتهم الحروب • واغرقهم سيل الهلاليين فلم يكن لهم في العصر البربري كبير ذكر •

ومن بطونهم صدراتة بنواحي بسكرة ومزاتة بنواحي باغاية

وبلزمة وغيرهما • ومن مزاتة محيحة بحائين أو جيمين ودكمة في أفخاذ استوعبها ابن خلدون • ومنعني من نقلها ضعف الثقة برسمها • ويعرف باسم لواتة ثلاث فرق :

الاولى باوراس • وهم بنو سعادة وبنو ريحان وبنو باديس ويدهم هي العالية على من هنالك من هوارة وكتامة • قال ابن خلدون : « تبلغ خيالتهم الفا وتجاوز رجالاتهم العدة » • ثم غلب عليهم الهلاليون • فصار بنو سعادة في اقطاع أولاد محمد من الذواودة ومن جملة رعاياهم • ودخل بنو ريحان وبنو باديس في طاعة ابن مزني صاحب بسكرة • ولبني باديس اتاوة على بنو نقاوس يقتضونها اذا انحدر الاعراب الى مشاتيهم • فاذا رجع الاعراب الى مصايفهم انقبضوا الى جبلهم •

الثانية قبلة تاهرت ظواعن على وادي مينة يبلغون شرقا الى جبل يغود • يقال ان بعض امراء القيروان نقلهم معه في غزوة وانزلهم هنالك • وكانت لهم حروب مع وجديجن وزناتة ازاحتهم عن مواطنهم الى جبل يغود وجبل درق (بشد الراء) وانتشروا من هنالك الى الجبال المطلة على متيجة • قال ابن خلدون : « وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة • وجبل دراق في اقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من زغبة » اهـ •

الثالثة بنواحي بجاية • قال ابن خلدون : « ينزلون بسيط تاكرارت من اعمالها ويعتمرونها فدنا لمزارعهم ومسارح لانعامهم • ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم • وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب » اهـ •

واما نفزاوة فكانوا ايضا خوارج • وخضدت الدول شركتهم • وزاحمهم الاعراب في مواطنهم فافترقوا في القبائل • ولم يكن لهم في العصر البربري كبير شأن •

واشهر مواطن نفزاوة جنوب قسنطينة غربي الجريد يتصلون بالرمال • قال اليعقوبي : « ولهم عدة مدن عظماها التي ينزلها العمال يقال لها بشرة » اهـ • ولهم بطون في جميع اقسام المغرب منها غساسة بنواحي مرسى مليلة وزاتيمة بساحل برشك وزهيلة بنواحي بادس منهم في عهد مشيخة ابن خلدون ابو يعقوب البادسي المشتهر بالولاية وسوماتة بنواحي القيروان منهم منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر بقرطبة ومرنيسة لا يعرف لهم موطن ومنهم أوزاع بين أحياء العرب بافريقية • ومنها مجرة وورسيف ومكلاتة لا يعرف لهم موطن • ومنها ولهاصة وهي ذات أفخاذ منها ورفجومة وورتدين ومن ورفجومة زكولة وزجالة •

وتعرف بولهاصة امتان احداهما بساحل تلمسان مجاورة لكومية اندرجت فيها ، والاخرى ببسيط بونة استعربت في زيها ولغتها وسائر شعائر العرب ، قال ابن خلدون « وهي في عداد القبائل الغارمة ، ورئاستهم في بني عريف منهم (وفي بعض نسخه عريض) وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف (وفي بعض النسخ عريض ايضا) ، وكانت قبلهم لعسكر بن بطان منهم » اهـ •

وورفجومة افترقوا بعد ركود ريح الخوارج اوزاعا في القبائل ، وبقي من زجالة منهم فرق بمرماجنة وهنالك قرية ببسيطها تنسب اليهم ، وكان منهم محمد بن سعيد الزجالي من كتاب بني أمية • وداعبه بعض الوزراء فاجابه بما احفظه • فشكاه الوزير الى الحاجب عيسى بن شهيد • فقال له الحاجب في ذلك • فانشده :

وما الحر الا من يدين بمثل ما

يدان ، ومن يخفي القبيح وينصف

همو شرعوا التعريض قذفا فعندما
تبعناهمو لامـوا عليـه وعنفـوا

9 ـ بنـو فاتـن

كان بنو فاتـن منهم الظاعن الراحل والقاطن المقيم • ودانـوا بالخارجية • ثم فارقوها بعد ظهور الادارسة لا سيما بعد سقوط الدولة الرستمية • ونزح كثير منهم الى الاندلس ، ولم يكن لهم كبير ذكر في العصر البربري ما عدا كومية مـن بطونهم • فقد ظهر منها عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية المؤمنية دولة العلم والنظـام •

وبطونهم هي مطغرة وكومية ومديونة ومغيلة وملزوزة وكشانة ودونة وصدينـة ومطماطـة ولمايـة •

فاما مطغرة ويعرفون بالمداغـر فجمهورهم بالمغـرب الاقصى ويتصلون شرقا بكومية واندمجوا فيها منذ ظهور الدولة الموحدية ومنهم جنوب تلمسان بفقيق امة في قصور متقاربة ائتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران ضاح من ظل الملك • ورئاستهم في بني سيد الملك منهم • وفي شرقيها على مراحل منها قرى أخرى متتابعة متصاعدة قليلا الى الشمال آخرها جنوب جبل راشد على مرحلة منه • وهي في مجالات بني عامر من زغبة • وشرقي هذه القصور على خمسة مراحل القليعة يعتمرها رهط منهم ومنهم أوزاع في أعمال المغـرب الاوسط وافريقية •

واما كومية فثلاث بطون هي : ندرومة وصغارة وبنو يلول • وافخاذهم كثيرة منهم بنو عابد قوم عبد المؤمن بن علي ، قال ابن خلدون : « فمن ندرومة نفوطة وحرسة وفردة وهفانة وفرانة ، ومن

بني يلول مسيفة ووتيوة وهبيشة وهيوارة ووالغة ، ومن صغارة ماتيلة وبنو حباسة » اهـ • ومواطنهم سيف البحر مـن ناحية ارشـقول وتلمسان •

قال صاحب المعجب « وكومية كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها في قديم الدهر ولا حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة ، وانما كانوا أصحاب فلاحـة ورعاة غنم واصحاب اسـواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فاصبحوا اليوم بكون عبد المؤمن منهم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب » اهـ •

وكان الخليفة عبد المؤمن غريبا بين قبائل المصامدة • فنقل من كومية الى مراكش في دفعة واحدة اربعين الف فارس • قـال ابن خلدون : « واكلت كومية الاقطار في تجهيز الكتائب وتوزع الممالك فانقرضوا ، وبقي بمواطنهم الاولى بقايا منهم بنو عابد • وهم في عداد القبائل الغارمة » اهـ •

واما مديونة فجمهورهم بنواحي تلمسان الى جبل مديونة جنوب وجدة غربا وجبل راشد شرقا • يظعنون في تلك الجهات ، ويجاورهم شرقا بنو يلومي الوارثون لموطن يفرن وغربا مكناسة وشمالا كومية وولهاصة • وانتقل جمع منهم الى الاندلس • ومن بقي تغلبت عليهم زناتة من بني راشـد وتوجين • فانحصروا بجبل تسالة وغيره مـن المعاقـل •

واما مغيلة فامتان احداهما بالمغرب الاقصى • ومعهم صدينة • والاخرى على وادي شلف عند مصبه في البحر • ومعهم ملزوزة ودونة وكشانة • قال ابن خلدون : « ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي » •

واما مطماطة فمنهم بافريقية وبالمغـرب الاقصى ، وجمهورهم

بتاول منداس من نواحي تيهرت • ومن مشاهيرهم سابق بن سليمان المطماطي • قال ابن خلدون : « وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه » وذكر لهم بطونا كثيرة منهم غرذاي •

ونقل ان منداس سمي بمن نزل به من بطون هوارة وتغلبت عليه مطماطة قال : « وبقية هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل وازشنيس لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد القبائل الغارمة » اهـ • ووارشنيس هو وانشريس •

واما لماية فظواعن بافريقية والمغرب • وجمهورهم بأرض السرسو شرقيهم وشماليهم مطماطة ومكناسة ولواتة وغربيهم زواغة • وانتشر عقدهم بسقوط الدولة الرستمية • قال ابن خلدون : « وبقيت فرقا منهم أوزاعا في القبائل • ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس » اهـ •

وقال ابو راس : « من لماية من فارق الخارجية كاهل فرندة والحوارث • وهم منتشرون بالمغرب الاوسط » اهـ •

7 ـ هـــوارة

كانوا منهم الظاعن والآهل • ولهم في الردة آثار ثم في الخارجية مواقف • وأجاز جمع عظيم منهم الى الاندلس • ومن بقـي عـلى كثرتهم اخضعتهم الدول لسلطانها فتفرقوا في الجهات ، ولم يكن لهم شان في العصر البربري •

وبطونهم كثيرة منها ونيفن بنواحي تبسة وبنوكملان كانوا حيث المسيلة ونقلهم القائم العبيدي الى فج القيروان • فلما كانت ثورة صاحب الحمار آزروه • فسطا بهم المنصور بن القائم حتى قطـع ذكرهم • ومنها مليلة ولعل عين مليلة القرية الموجودة اليوم جنوب قسنطينة سميت بهم • ومنها هقار بالصحراء جوار لمطة من الملثمين •

وكان جمهورهم بطرابلس وبرقة • قال ابن خلدون : « ومن قبائلهم أمم كثيرة في مواطن من أعماله تعرف بهم وظواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها ، وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية ، ودهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة ايام الفتوحات بسبب الكثرة • وصاروا الى الافتراق في الاودية بسبب القلة » اهـ •

واشهر مواطنهم بالجزائر ثلاثة : الاول القلعة المطلة على البطحاء من نواحي سيق غربي نهر مينة ملكوها بعد انقراض امر بني يلومي ، ومن بطونهم هناك مسراتة وكانت رئاستهم في بني عبـد العزيز ثم انتقلت الى بني عمهم بني اسحق •

الثاني أوراس • وهم تحت سيادة لواتة • الثالث نواحي تبسة الى باجة • وقد بسط ابن خلدون الكلام عن أهل هـذه النواحي فهاك عبارته :

« ومن هوارة بارض التلول من افريقية ما بين تبسة الى مرماجنة الى باجة ظواعن صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم ، قـد نسـوا رطانة البربر • واستبدلوا منها فصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم ، فاولهم مما يلي تبسة قبيلة ونيفن • ورئاستهم لهذا العهد في ولد بعرة بن حناش بن ونيفن لاولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد ابن بعرة • ثم لاولاد زيتون بن محمد بن بعرة ولاولاد حمان بن فلان ابن بعرة ، وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن • ومواطنهم ببسائط مرماجنة وتبسة وما اليهما • وتليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم ، يعرفون بقيصر • ورئاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعزاع وولد حركات • ومواطنهم بفحص ابة وما اليها من نواحي الاربس • وتليهم الى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون ببصوة •

ورئاستهم في بيت الرمامنة لولد سليمان بن جامع منهم • ويرادفهم في رئاسة بصوة قبيلة ورمانة ومواطنهم ما بين تبرسق الى حامة الى جبل الزنجار الاطار على ساحل تونس وبسائطها • ويجاورهم متساحلين الى ضواحي باجة قبيلة اخرى من هوارة يعرفون ببني سليم • ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن الياس جاءوا من مواطنهم بالحجاز مع الهلاليين عند دخولهم المغرب • واختلطوا في هذه الناحية بهوارة • ومعهم ايضا بطن من رياح ينتمون الى عتبة بن مالك بن رياح • ومعهم أيضا بنو حبيب من مرداس سليم ، والجميع مثل هوارة في الظعن والمغرم » •

« هؤلاء الظواعن من هوارة وغيرهم أهل بقر وشاة وخيل ولسلطان افريقية عليهم وظائف من المغرم مقررة وبعث من العسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك ولرؤسائهم ازاء ذلك اقطاعات ومكان في الدول بين رجالات البدو » اهـ بتصرف قليل •

8 — مصمودة وبقية القبائل

1 — أوربة ، كانوا ذوي كثرة وأولي قوة • ومنهم لاول الفتح كسيلة اميرهم وبعد الفتح استقروا بالمغرب الاقصى • وكانت منهم في القرن الثالث طائفة حول نقاوس ذكرها اليعقوبي •

2 — لمطة ، هم اخوة صنهاجة ، وجمهورهم بالصحراء ، ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية •

3 — عجيسة ، من بطونهم بنو عوسجة ، وكانوا مجاورين لصنهاجة ، ومن سهولهم فحص عجيسة قرب مدينة الغدير ، ومن حصونهم جبل كيانة ، وكانت لهم يد في نصرة صاحب الحمار ، ثم خضعوا لبني عبيد ، واسس حماد بن بلقين مدينة القلعة بجبل كيانة ،

فراموا كيدها مرارا ، فاستلحمتهم الدولة ، ثم ورثت مواطنهم عياض • فتفرقوا في القبائل شرقا وغربا • قال ابن خلدون :

« وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تدلس والجبال المطلة على المسيلة » اهـ •

4 — ازداجة • من النسابين من يعدهم في قبائل زناتة • ومن بطونهم بنو مسقن • وموطنهم نواحي وهران • وكان لهم اعتزاز على الدول حتى اختلفت عليهم جنود العبيديين والامويين • واوقع بهم يعلي بن محمد اليفرني سنة 343 ففرق جمعهم ولحق رؤساؤهم بالاندلس • ومن بقي منهم استكان للذل واداء المغرم •

5 — مسطاسة • قيل أنهم أخوة ازداجة وقيل بطن منهم • وكانوا مندرجين معهم في الموطن • ومن رؤسائهم من أجاز الى الاندلس • وحال من بقي كحال ازداجة •

6 — زواغة • من بطونهم بنو واطيل ودمر أهل جبل دمر الممتد جنوب قابس الى ان يتصل شرقا بجبل نفوسة • ومن دمر فخذ سمكان • وهم أوزاع في القبائل • منهم قرب ميلة فريق يعرفون بزواغة • وبنو واطيل كانوا بنواحي شلف • ومن زواغة من كانوا غربي السرسو • قال ابن خلدون : « ولم يتأد الينا من أخبار زواغة وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الاقلام » اهـ •

7 — مكناسة • كان لهم في الخارجية قدم • وضربت في الرافضية الاسماعيلية بسهم • ثم قامت بدعوة بني أمية على عهد عبد الرحمن الناصر • وكان كبيرها موسى بن ابي العافية ، ولبنيه بتسول ونواحي فاس ملك ادركهم عليه المرابطون •

وبطونهم كثيرة ، ومواطن جمهورهم بتسول وتازا ووادي ملوية من مصبه في البحر الى سجلماسة • ومنهم امة حوالي تيهرت بينها

وبين غليزان ، قال ابن خلدون : « ومن مكناسة أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي افريقية والمغرب الاوسط » اهـ •

8 — مصمودة • ذكر البكري منهم امة حول بونة ، وموطنهم بالمغرب الاقصى في جبل درن تجاورهم صنهاجة اللثامية جنوبا الى بلاد السوس • وبطونهم هنالك كثيرة لا تحصى منها هرغة وهنتاتة تينملل وقنفيسة وقدميرة ودكالة وهسكورة •

قال ابن خلدون : « يسير الراكب في جبل درن معترضا من تامسنا وسواحل مراكش الى بلاد السوس ودرعة من القبلة ، ثماني مراحل وازيد ، تفجرت فيها الانهار وجلل الارض خمر الشعراء ، وتكاثفت بينها ظلال الادواح وزكت مواد الزرع والضرع • وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد • وطابت منابت الشجر ، ودرت افاويق الجباية » اهـ •

وقال صاحب المعجب : « ومصمودة مطبوعون على سفك الدماء شاهدت من ذلك ايام كوني بسوس ما قضيت به العجب » اهـ•

وكان منهم قبل الاسلام امراء ، وأسلموا لاول الفتح ، ولهم مع جيرانهم الملثمين حروب وفتن ، ولم يزالوا في حدود وطنهم حتى ظهرت دولة الموحدين وفازت منهم هنتاتة بحظ عظيم من الملك على يد ابنائها الحفصيين ، فتفرقوا لذلك في ممالكهم • ومنهم أولاد نعمون الذين لم يزل عقبهم بقسنطينة •

ولم تكن مصمودة لتستغل ما وهبها الله من كثرة عدد وخصب موطن ومناعة موقع لولا ان قيض الله لها من ابنائها محمد بن تومرت • ذلك الرجل الذي كلما امعن المفكر النظر في حياته ازداد ايمانا بالطفرة واستيقن ان من يبني حياة امته على قاعدتها هو العظيم الخارق للعادة وان من يبني حياة الامم على قاعد التدرج وفاقا لمبدأ النشوء والارتقاء فانما هو من العظماء العاديين •

الباب الثاني

في الدولـة الحمادية

ا ـ تمهيـــد

استخلف آل زيري بن مناد الصنهاجي عن العبيديين والمغرب يضطرم نارا بالفتن الناشئة عن النزاع بين العبيدية والاموية • وما كادوا يتغلبون على الاموية حتى دب فيهم دبيب المنافسة • وتنازعوا أمرهم بينهم •

وعقد منصور بن بلقين لاخيه حمـــاد على عمل أشير والمسيلة مستكفيا به أمر زناتة الاموية ومن ينازعه من آله • فلم يزل حمـــاد مخلصا له ، وتداول هذا العمل مع أخيه يطوفت وعمه ابي البهار •

وتوفي المنصور ، فخلفه ابنه باديس • واقر عمـــه حمادا على عمله ، وافرده به سنة 387 دون يطوفت وابي البهار • وخالف عليـــه من عمومته زاوي وماكسن ابنا زيري فيمن استجاب لهما • فعقد على حربهم لعمه حماد سنة 390 فقتل حماد ماكسن وحصر زاوي بجبل شنوة من ناحية شرشال ، ثم أمنه ومن معـــه على ان يجيزوا الى الاندلس • فلحقوا بالمنصور بن ابي عامر •

ولم يزل باديس مستعينا بحماد يستقدمه متى شاء الى صبرة ويحرجه لاطفاء الثورات • وفي سنة 95 كلفه بحرب زناتة ، فاشترط عليه ولاية المغرب الاوسط وكل ما يفتحه وان لا يستقدمه • فوفي له بما شرط •

وفي سنة 398 اختط حماد مدينة القلعة • وصار ينزل بها وباشير • وبقي واليا على الزاب والمغرب الاوسط مواقفا لزناتـــة • وتكررت

انتصاراته عليهم فطار صيته وعظمت هيبته حتى خشي باديس ان يخلع طاعته لا سيما وقد أسس مدينة القلعة .

وفي سنة 403 جاء التسجيل من الحاكم صاحب مصر الى باديس بولاية عهده لابنه المعز ، وكانت حاشية باديس قد سعوا له بحماد . فاتخذ ذلك التسجيل ذريعة لاختيار حماد . فارسل اليه بالتنازل للمعز عن عملي تيجس وقسنطينة . فابي ذلك حماد وافضى الامر الى حرب اسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية .

2 ـ تاسيس الدولة الحمادية

اقوى أعداء صنهاجة هم زناتة واعظم آل زيري بطونه هـو حماد . فوكلوا اليه حروب زناتة . فاوقع بهم مرارا . وكان مظفرا عليهم . ورأى ان يجني ثمرة انتصاراته . فاستوثق من باديس سنة 95 بتلك الشروط ثم احتاط لنفسه . فأسس القلعة . وشحنها باوليائه وذخائره اذ لم تكن له ثقة بأشير .

وكانت الامة تتبرم من سماع الدعاء للعبيديين على المنابر . وكان آل زيري مع الامة باطنا . وليس لهم مع العبيديين الا ظواهر دعت اليها السياسة .

ولما طلب باديس من حماد التنازل عن ذينك العملين رأى هـذا الطلب كمقدمة لحرمانه من ثمرة جهاده وان رفضه مفض الى الحرب ولا نتيجة للحرب الا تمتعه بالاستقلال او تعجيل حرمانه مـن لذة النفوذ فرجا الاستقلال بما كان قد هيأه لمثل هذا من معقل القلعة وأعلن ما تصبو اليه الامة من قطع دعوة بني عبيد فقتل الروافض . ودعا لبني العباس . وذلك سنة 405 .

وجهز باديس لحرب حماد كبير قواده هاشم بن جعفر . وجمع

حماد ثلاثين الفا لقي بها هاشما بمدينة الكاف • فهزمه وغنم ماله وعدده • وتقدم الى باجة • فدخلها بالسيف • وأثار تونس على الرافضة • وذلك سنة 406 •

وهنالك قاد باديس الجيوش بنفسه • وخرج من القيروان لحرب حماد • فخذل حمادا بعض رجاله من بني حسن الصنهاجيين ، ومن زناتة كبني ابي واليل أهل مقرة وبني يطوفت وبني غمرة ، ففر حماد حتى اتى اشير في صفر ، وبها نائبه خلف الحميري ، فمنعه منها وأعلن طاعة باديس ، فتوجه حماد الى شلف بني واطيل •

واستولى باديس على المسيلة واشير ، وبلغ سهل السرسو • فأتاه رؤساء بني توجين وكثير من زناتة الناقمين على حماد • فاستظهر بهم ، واجاز وادي شلف ، فتقابل مع عمه مستهل جمادي الاولى وتقاتلا اشد قتال ، فانخزل عن حماد اصحابه الى باديس ، فانهزم وأخذ السير الى القلعة ، وبها أخوه ابراهيم • فدخلها تاسع جمادى الاولى ، وذهب الى دكمة ، فأخذ من أهلها ما وجده من طعام وملح وذخيرة ، وعاد الى القلعة مستعدا للحصار •

عاد باديس اثر عمه ، وحاصره بالقلعة ، وبينما حماد يقاسي آلم الحصار وينتظر اليوم الذي يؤخذ فيه اذ نعي اليه باديس آخر ذي القعدة ، فأتاه الفرج من حيث لم يحتسب • وهكذا تأيد بالقدر الذي عوده الظفر •

وكان كرامت اخو باديس ذا منزلة لدى صنهاجة ، فبايعه كبار القواد ارضاء لصنهاجة لبعدهم عن العاصمة فمضى كرامت الى أشير وفرق الاموال في صنهاجة • وجمع سبعة آلاف مقاتل وخرج اليه حماد في خمسمائة والف فارس فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم كرامت الى اشير ، فحاصره بها حماد •

وعاد القواد بشلو باديس الى القيروان فبايعوا للمعز ونقضوا بيعة كرامت فلما بلغه ذلك صالح حمادا على مال يأخذه ويلتحق بالمعز ، فاسعفه حماد بذلك ولحق بالمعز في محرم سنة 407 وكان هذا ايضا من أسباب نجاح حماد .

انتقل الميدان بين حماد والمعز الى جهات باغاية وما يليها الى ناحية قفصة ولشمان بقين من صفر سنة 408 سار المعز بالاجناد لحرب حماد . فأجلاه عن باغاية ثم كانت بينهما وقعة شديدة آخر ربيع الاول جرح فيها حماد ، واسر فيها أخوه ابراهيم . وتفرقت عنه رجاله . فاسلم معسكره بما فيه من معدات وذخائر ، ونجا بنفسه . وانتهى المعز الى سطيف وقصر الطير . ثم قفل الى حضرته .

وهنالك مال حماد الى السلم . فارسل الى المعز يعرض عليه طاعته . فاشترط عليه ارتهان ابنه القائد . فوسط أخاه ابراهيم في التوثق من المعز . فارسل ابراهيم اليه يضمن له سلامة ابنه . ثم بلغ المعز قصره آخر جمادى الاولى ، وسرح ابراهيم بن بلقين ، وخلع عليه ، فلما بلغ ذلك حمادا زالت ريبته بالمعز ، وارسل ولده القائد بهدية جليلة ، فبلغ الى المعز منتصف شعبان . فاكرمه . واهدى له هدايا جليلة واقطعه المسيلة وطبنة وغيرهما . ولم يمسكه بل سرحه الى ابيه فعاد اليه في رمضان وبحسن هذه السياسة من المعز تم الصلح بينه وبين حماد ، وصلحت الاحوال .

ونرى حمادا لم يكن له غرض في هذه الحرب . وانما كان حذرا مستعدا للطوارىء . فادخل حذره ذلك الريبة في نفس باديس . وقواها له حاشيته من حسدة حماد . فاشتعلت الحرب مدة عامين . وانتهت ببقاء حماد على ما كان عليه وانما في صلح المعز اعتراف ضمني بالعجز عن مقاومة حماد .

وهكذا أحسن حماد الدفاع عن ممالكه حتى أورث عقبه ملكا نافسوا به بني عمهم أصحاب افريقية • وأصبحوا أقوى منهم واملك للباس • ولكن بني باديس كانوا ارقى حضارة واقعد بالسياسة • وانما تأسست الدولة الحمادية باقتحام الاخطار ومساعدة الاقدار •

3 ـ المملكـة الحماديـة

تمتد المملكة الحمادية غربا الى فاس ، وبهذه الناحية امارة بني يعلي بتلمسان ونواحي وهران وحكومة بني زيري بن عطية بفاس ، وأغلب سكانها زناتة فكان الحماديون يترددون بجيوشهم عليها تسكينا لثورات او اقتضاء للمغارم •

وفي سنة 430 زحف حمامة بن زيري بـن عطية امير فاس الى القائد بن حماد • فتقاتلا • وسرب القائد الاموال في زناتة • فوهـن حمامة • وبذل طاعته للقائد • ثم ظهرت دولة المرابطين • فخرج بلقين بن محمد بن حماد سنة 454 للقاء يوسف بن تاشفين الذي ظهر بوطن المصامدة • فاجلاه الى الصحراء • وردد غاراته بالمغرب • واحتمل من اكابر فاس واشرافها رهائن على الطاعة •

ثم عظمت شوكة المرابطين • فاستولوا على امارات زناتة وتقدموا الى الجزائر واشير • فدافعهم الحماديون • ثم اصطلحوا • واستقرت الحدود بين المملكتين • قال صاحب المعجب :

« وكان يحي آخر الملوك الحماديين يملك بجاية واعمالها الى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتوتة » • وأعاد ذكر هذا الموضع بهذا اللفظ ، وقال بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل • وذكره ابن خلدون في مواطن بني يلومي بلفظ سبدو سيرات • وهذا الموضع غربي نهر مينة الى سهل سيق •

على ان في نسخة من ابن خلدون سيك وسيرات بالعطف وسيك هو سيق •

وامتدت شرقا حتى اشتملت على تونس والقيروان وصفاقس والجريد وخضعت جزيرة جربة ايام العزيز ، وهذه الناحية يغلب عليها العرب وبمدنها عدة أمراء يتلونون في السياسة حسب اهوائهم • وقد فتح الناصر بن علناس مدينة الاربس سنة 460 بعد خضوع تلك البلدان له • وهي في طريقه الى تلك البلدان • فدل على ان تبعية هاتيك الجهات غير مبنية على خضوع عسكري • واستمر نزاع حماد وآل باديس على مدينة تونس • ثم تبتت للحماديين من سنة 514 الى سنة 543 وعادت بعد الى امرائها الاقدمين بني خراسان •

وامتدت المملكة جنوبا الى الزاب ووادي ريغ وورقلة • وبقيت داخل هذه الحدود جهات من وطن زواوة وكتامة غير تابعة للحماديين • قال ابن الاثير : « وفي سنة 417 وردت رسل زناتة وكتامة على المعز في طلب الصلح والدخول في حكمه على ان يحفظوا الطريق • فاستوثق منهم • وقدمت عليه مشيختهم • فبذل لهم أموالا جليلة » اهـ •

وقد اخضع الحماديون زناتة من بعد • ويظهر ان كتامة كذلك • ولكن لا نعلم لهم نفوذا بالجبال الممتدة فيما بين السكيكدة وجيجل من وطن كتامة ، فان بها قبائل قوية لا يعلم لها خضوع لاية دولة سواء في العصر العربي او البربري •

وبعد ان حارب المنصور المرابطين سنة 86 ثم اثخن في زناتة عاد الى فتح وطن زواوة • قال ابن خلدون : « ورجع المنصور الى بجاية واثخن في نواحيها ودوخت عساكره قبائلها • فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المعرق (في نسخة حجر المعز) • وقد كان اسلافه كثيرا ما يرمونها

فتمتنع عليهم » اهـ • والمنصورية شـرقي بجاية علـى طريقها الى جيجـل •

4 ـ الحكومة الحماديـة

هذه الدولة أول دولة بربرية بالجزائر الاسلامية • وكانت مستقلة استقلالا تاما غير أن ملوكها لم يجرؤا على دعوى الخلافة التي كانت يومئذ للعباسيين ببغداد وللفاطميين بمصر ، فدعا حماد أولا للعباسيين ثم اصطلح مع المعز • فدعا للفاطميين • فلما خلع المعز العبيديين دعا لهم القائد خلافا لابن عمه وتوقيا من شر الحملة الهلالية ظنا ان ذلك يفيده • ثم عاد من بعده الى الدعوة العباسية • ولم يضربوا السكة على عظم دولتهم احتراما لدولتي الخلافة • واحدثها يحي آخرهم • قال ابن خلدون :

« وسكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كـل وجه • فدائرة الوجه الواحد : واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون • والسطور : لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله بن الامير المنصور • ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام أبو عبد الله المقتفي لامر الله أمير المؤمنين العباسي » اهـ •

ورئيس الحكومة يلقب بالامير أو الملك • ويتولى اما بالعهد اليه من سلفه أو بالتغلب والقهر ، ولم تخرج الامارة عن آل حماد • وللامير وزراء في عاصمته • وعمال في المدن • وأهم ممالكهم الجهات الشمالية كان يليها عمال من آل حماد مثل الجزائر ومرسي الدجاج وجيجل وبونة وقسنطينة ونقاوس والقلعة واشير وحمزة •

واما النواحي الجنوبية فكانت بواديها للبربر واغلبهم زناتة • ثم تغلب عليهم العرب وكانت مدنها تابعة للحماديين ولكن لكل مدينة ادارة خاصة يديرها جماعة من الشيوخ الذين حنكتهم التجارب • وكانت بسكرة قاعدة الزاب يومئذ • ومن أسرها بنو رمان وبنو سندي ، فتولى رئاسة الزاب بنو رمان من البربر ، ويقول مرسيي انهم من أصل لطيني ، ونبذوا الطاعة لعهد الناصر • ففتك بهم ، وادال منهم ببني سندي ، فلم يزالوا على رئاستهم مخلصين للدولة الى ان غلب الموحدون على هذه المملكة •

وكان القضاء مستقلا عن الادارة ، ويظهر انه كان على المذهب المالكي لانه الغالب يومئذ على أهل المغرب والاندلس •

كان للدولة جيش نظامي علاوة على ما كانت عليه الامة من الاستعداد الطبيعي لاجابة دعوة الحكومة للقتال ، لبساطة الحرب يومئذ ، قال لسان الدين في الاعلام : « كان يسكن بالقلعة ايام الناصر من فرسان صنهاجة اثنا عشر الفا » اهـ • هذا بالقلعة دون بقية المدن ومن صنهاجة دون بقية القبائل ومن الفرسان دون المشاة • وقال أيضا : « ان المنصور خرج لقتال المرابطين لما استولوا على تلمسان في اثنتي عشرة محلة » اهـ • وان المادة لتعجزنا ان نأتي بتفاصيل عن الجيش الحمادي ، والذي نعلمه من حياة هذه الدولة انها حربية أكثر منها سلمية •

ومؤسسات الدولة تدل على انها كانت غنية جدا ، وانا لنجهل تفاصيل تكوين ماليتها، وانما نعلم انها كانت تقبض الخراج، وتعتمد في جمعه من الجهات التي يتغلب عليها العرب على العرب أنفسهم ، ولكثرة حروبها وانتصاراتها نعتقد ان الغنائم أهم ما تتكون منه ماليتها • فان الامراء كانوا يغنمون اموال البغاة •

ويجاور هذه الدولة غربا ممالك زناتة الخاضعة لها ، فلما غلب عليها المرابطون طمعوا في بقية المملكة الحمادية • وبعد حروب اعترفت الدولتان بعضهما ببعض • وتم بينهما تقرير الحدود في جو ودادي ، ولم تزالا على ودادهما الى أن ظهر الموحدون فقضت المصلحة باتحادهما حربيا •

ويجاورها شرقا دولة آل باديس وقد اعترف حماد بخضوعه للمعز لما تغلب عليه ، ولم تزل هذه الدولة تحاول الاستقلال والمعز يخضعها حتى جاء الهلاليون واضعفوا دولة المعز وبنيه ، فاعلن القائد ابن حماد الاستقلال ، ثم اختلفت ايام الدولتين الشقيقتين سلما وحربا ، وكان الظفر غالبا لآل حماد ، واذا اصطلحوا فربما يؤكدون الصلح بالمصاهرة • ولكن لم يدم بينهم سلم حتى انقضت ايامهم •

وكان لبني حماد عمائم هـي تيجان ملوكهـم • قال صاحب الاستبصار ما لفظه • « وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة ، يغلون في أثمانها• تساوي العمامة خمسمائةدينار وستمائةدينار وازيد • وكانوا يعممونها باتقن صنعة • فتأتي كانها تاج وكان ببلادهم صناع لذلك • يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وازيد وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤس • يعممون عليها تلك العمائم » اهـ •

ذكر هذا بعد ذكر وقعة سبيبة التي انهزم فيها الناصر وسـلم عمامته ورايته لاخيـه •

5 — ملوك الدولـة الحماديـة

كان ملوك هذه الدولة الى البداوة اقرب لانهم انشأوا الملك انشاء • ولم تدع لهم ثورات زناتة وغيرهم سبيلا الى الترف بل

حفظت عليهم الحياة الحربية • ولم ترتق الدولة في سلم الحضارة الا في عهد الناصر وابنه المنصور • وما مالوا الى الراحة والدعة الا بعد خروج أهم مواطن زناتة عنهم الى المرابطين •

وأولهم حماد بن بلقين • أعلن استقلاله سنة 405 ثم اصطلح مع المعز سنة 408 وتزوج ابنه عبد الله أخت المعز ، ولم ينقض الصلح حتى توفي بالقلعة في رجب •

قال لسان الدين في الاعلام : « كان حماد نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه • ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا • قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال » اهـ •

قال البكري : « وحدثوا أن حمادا قال ما تداهى احد علي قط ولا خدعني الا امرأة وكعاء من البربر ، ذلك ان صاحبا كان لي بالقيروان نشأنا نشأة واحدة ولم يفرق بيننا مكتب ولا مشهد • ولم نزل على ذلك حتى صرت على ما أنا فيه ، ففقدته : وجعلت افتقده ، فلا أجد سببا للوصول اليه » •

« فلما نزلت على باغاية وشننت عليها الغارات لم انشب صبيحة ذات يوم ان سمعت النداء ياالله ! ياللامير ! فقلت ما بالك ومن انت ؟ فاذا هو صاحبي قد حبسه عني نسكه وغلب على هواه ورع يملكه فاظهرت البشر بمكانه والجذل بشأنه وقلت له والله لو خرجت الي بالامس لحقنت دماء أهل بلدك لحرمتك عندي ، فقال القدر غالب ، ثم ذكر حاجته وهي ان ابنته فقدت •

« فأمرت القواد فاحضروا جميع ما كان في جيوشهم من النساء • فعرف ابنته فأمرت بسترها وحملها مع أبيها • فرفعت صوتها قائلة لا ارجع مع احد ! اني لا اصلح الا للملوك لان عندي علما لا اشارك فيه • فقلت الا ترينا شيئا من ذلك ؟ قالت تأمر بقتل انسان وتحضر

امضى سيف أقرأ عليه فيعود أكل من قائمه • فقلت الذي يجرب هذا فيه لمغرور • قالت أويتهم أحد بقتل نفسه ؟ قلت لا • قالت فليجرب في فاحضرت سيفا فلما ضربها السياف بان رأسها •

فاستيقظت من غفلتي وعلمت انها تداهت علي وكرهت العيش بعد الذي جرى لها ، واستبان ذلك لابيها ايضا » • بحذف يسير •

وقال أيضا : « ذكروا ان لشيخ امرأة شـــابة • فخرج بها الى قلعة حماد ، فصحبه في طريقه شاب علقته المرأة • فتواطآ على دعوى الزوجية ، فلما وصلوا الى القلعة رفـــع الشيخ القضية الى حماد ، فاوقف الشاب والمرأة فانكرا ما يدعيه الشيخ من الزوجية ولم يجد حماد بينة غير كلب للشيخ فأمر بربط ذلك الكلب • ثم أمر المرأة بحله وربطه ثانيا ، ففعلت ولم ينكرها الكلب ، ثم أمر الشاب بمثل ذلك فنبحه الكلب فحكم حمـــاد للشـــيخ بزوجته • وضرب عنـــق الشاب » اهـ •

وثانيهم القائد ، خلف اباه • وكان سديد الرأي عظيم القـــدر وسلم لاخوته أهم أعمال المملكة ، فولى يوسف على المغرب وويغلان على حمزة • واستمر مع المعز على ما كان عليه والده • ثم خالف عليه سنة 32 فخطب للعباسيين ، وزحف اليه المعز فحاصره بالقلعة نحو سنتين وحاصر ايضا اشير • ثم اصطلحا ، قال ابن خلدون : « وراجع القائـــد طاعـــة العبيديين لما نقض عليهم المعـــز ، ولقبوه شـــرف الدولة » اهـ •

وقال لسان الدين : « وخلع القائد بني عبيد كما فعل ابن عمه ، ودعا لبنـــي العباس الى أن هلك في ذي القعدة » •

وثالثهم محسن ، ولي بعد أبيه بعهده ، وكان جبارا فظا ، مكث في الملك ثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، وتوفي في ربيع الاول ،

وكان أبوه اوصاه ان لا يخرج من القلعة لمدة ثلاث سنوات وان يحسن الى عمومته ، فخالف وصيته وعزم على عزلهم ، فخرج عليه عمه يوسف وأسس قلعة في جبل منيع سماها الطيارة فانتقم منه محسن بقتل اربعة من عمومته ، فازداد يوسف نفورا .

وكلف محسن عامله على بلد اكريون ابن عمه بلقين بن محمد ابن حماد بحرب عمه يوسف ، واصحبه من العرب خليفة بن مكن وعطية الشريف في جمع من قومهما ، وأسر اليهما قتله ، فقال خليفة لقومه : ان بلقين لم يزل محسنا الينا فكيف نقتله ؟ فاتفقوا على اعلامه بنية محسن وهونوا عليه قتله .

استعد بلقين لحرب ابن عمه وبلغ خبره محسنا وهو خارج القلعة فأخذ السير اليها . ولكن بلقين أدركه ، فقتله ، ودخل القلعة ليلا وملكها .

ورابعهم بلقين بن محمد . تغلب على الملك بقتل ابن عمه ، وكان شهما قرما حازما شجاعا جريئا على العظائم سفاكا للدماء ، ابتدأ بسفك دم وزير محسن ، واستوزر خلف بن حيدرة ، ونكب آل رمان أصحاب بسكرة سنة 50 لمخالفتهم عليه ومحالفتهم للاثبج .

وكان كثير الغارة على المغرب حتى سئمته الرعية لايغاله بها في أرض العدو ، وكان له أخ اسمه مقاتل فمات ، واتهم به زوجه تانميرت ابنة عمه علناس . فقتلها . فتربص به أخوها الناصر ، حتى أمكنته فيه الفرصة بتسالة وهو آيب من غزو فاس ، فقتله .

ونقل لسان الدين عن ابن بسام ما ملخصه : « كان بلقين أحد جبابرة الاسلام المفتاتين على الايام لا يملأ يده الا من لبدة اسد ولا يسرح لحظه الا في نهاب بلد ، قد تجاوز في شذوذ أمنيته وقهره

نزعيته والاخافة لاقرانه والاستبداد على زمانه غايـة من سلف من جبابرة الارض وسمع به من فراعنة الابرام والنقض » .

« حدث انه آب مرة من بعض غزواته ومال الى الراحة ، فأمر باحضار آلات الانس وأدواته ، وأمر قيمة جواريه باحضار زوجه ابنة عمه لم ير بعدها زعموا ولا قبلها ابدع ظرفا ولا افتل طرفا فحضر كل ما أمر به ، وخطر بباله الغزو ، قالت قيمته : وكأني انظر الى الكاس في يده والى ابنة عمه قائمة على رأسه ، فاعتذر اليها وقام من حينه ، فوضع الكاس مليء في طاق وطبع عليها ، وأمر بالركوب من حينه الى غزو المغرب ، فوطيء ارض فاس . ثم رجع ، فجلس ذلك المجلس بعينه . واستدعى كاسه تلك وابنة عمه ، وقضى وطره مـن لـذة نفسـه » .

« وكان قلما يركب الا دارعا مولعا بالادلاج مؤثرا للانفراد . وفي الليلة التي يقتل من صبيحتها اقسم لا يدلج الا حاسرا وليلقين الناصر اذا نزل ولو كان أسدا خادرا ، فما بدا الصبح حتى لقيه الناصر كالمسلم عليـه ، وما راجعه الكلام حتى جلله الحسام واراح منه البلاد والانام » .

« ثم قام مقامه واستظل اعلامه . وأمر برفع راسه امامه ، فظن الناس بلقين قد قتل بعض اتباعه . فلما طلعت الشمس حشر الناصـر أقاربه وزعماء الدولة فاطلعهم على جلية الخبر وانه انما قتله لقتله اخته لا طلبا للملك ، ففكروا قليلا ، ورأوا انه لم يجسر على قتله الا وله اشياع . وارتاب كل بمن يليه ، وانهب الناصر خزائن بلقين ذؤبان العرب وصقورة زناتة ، فاستمال قلوبهم ، وطوى المراحل الى القلعة فسبق الاخبار » اهـ .

وخامسهم الناصر بن علناس . واصله علا الناس او علاء الناس .

فخفف لفظا ورسما • وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة على النساء جوادا عالي الهمة تغلب على الثوار • وحافظ على الممالك الغربية وتوسع في الجهات الشرقية ، واختط بجاية ونسبها اليه ، وعني بالعمارة • وقصده الشعراء • وطالت مدته • فثبت اركان الدولة لعقبة • وتوفي يوم الجمعة سابع جمادى الاولى بقصره ظاهر بجاية • وحمل الى بجاية ودفن بها •

ثار عليه بنو رمان ببسكرة • فخرج اليهم وزيره خلف بن حيدرة • فغلبهم • وحملهم ومن مالأهم من أعيان بسكرة الى القلعة • فصلبوا بها وولي مكانهم عروس بن سندي • ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب • فوثب علي بن ركان على تاقربوست دار المملكة فيمن معه من عجيسة • فرجع اليهم من المسيلة • فسقط في ايديهم وانتحر علي بن ركان •

وكان الناصر يقع في تميم بن المعز ويذمه في مجالسه ووقعت بينهما حروب ثم اصطلحا سنة 61 وزوج تميم ابنته بلارة من الناصر • وسيرها اليه من المهدية في عسكر • واصحبها من الحلي والجهاز ما لا يحد وحمل اليه الناصر ثلاثين الف دينار • فردها عليه • واخذ منها دينارا واحدا • وابتنى الناصر لها قصرا باسمها •

وكانت وزارته لابي بكر بن ابي الفتوح وخلف بن حيدرة • ثم سعت صنهاجة للناصر بخلف • فقتله • واستوزر مكانه أحمد بن جعفر ابن افلح • ومن عماله اخوته كباب بمليانة ورومان بحمزة وخزر بنقاوس • وبلباز بقسنطينة وابنه عبد الله بالجزائر ومرسي الدجاج وابنه يوسف باشير ومما قيل فيه :

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا مهلا عليك فانت الرائح الغادي
فقلت تالله لا انفك ذا سفر تجري بي الفلك اويحدو بي الحادي
حتى أقبل ترب العز منتصرا بالناصر بن علناس بن حماد

وسادسهم المنصور ، أتته الكتب والرسل من يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز وغيرهما بالتهنية والتعزية • واكمل عمل ابيه في تحضير الدولة والمحافظة على سلامتها • وانتقل الى بجاية سنة 83 وتوفي في ربيع الاخير •

قال لسان الدين : « وكان قائما على أمره حميد الخلل ضابط الامور يكتب ويشعر • ويذهب في أموره مذهب ابي جعفر المنصور من رقع الثياب والتحفظ على القليل من الاشياء • وعليه قدم معز الدولة بن صمادح لما فر من المرية امام المرابطين فاقطعه تدلس ونظرها » اهـ • وكان وزيره عبد الكريم بن سليمان •

واستبد عليه عمه بلباز بقسنطينة فسرح اليه أبا يكنى بن محسن ابن القائد بن حماد ، وعقد له على قسنطينة وبونة ، فقبض على بلباز واشخصه الى القلعة ، وأقام واليا بقسنطينة ، وولي اخاه ويغلان على بونة •

ثم خالف ابو يكنى على المنصور سنة 87 واوفد أخاه من بونة على تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة ، فبعث معه تميم ابنه ابا الفتوح ، فنزل بونة مع ويغلان ، وكاتبوا المرابطين وجمعوا العرب على أمرهم •

فسرح المنصور عساكره لحربهم ، فحاصروا بونة سبعة أشهر ثم اقتحموها عنوة ، وقبضوا على ابي الفتوح بن تميم ، وبعثوا به الى المنصور • فاعتقله بالقلعة • ثم نازلوا قسنطينة واضطربت احوال ابي يكنى • فخرج الى قلعة بجبل اوراس وترك بقسنطينة صليصل ابن الاحمر من رجالات الاثبج فنزل صليصل عنها للمنصور على مال بذله له •

أقام أبو يكنى باوراس يردد الغارة على قسنطينة • فنازلته العساكر • وحاصرته بقلعته • ثم اقتحموها عليه وقتلوه •

وسابعهم باديس • ولي بعد ابيه • وكان عظيم السطوة شديد الباس سريع البطش • قتل عبد الكريم وزير ابيه لاول ولايته • ونكب عامل بجاية • وعزل اخاه العزيز عـن ولاية الجزائر • وغربه الى جيجل • وتوفي ثالث عشر ذي الحجة قبل ان يستكمل سنة •

وثامنهم العزيز • بايعه بعد وفاة اخيه علي بن حمدون قائـد الاسطول بعدما احضره مـن جيجل • وكـان حسن الخلق معتدل الطريقة • صالح زناتة • وتزوج بنـت ماخوخ • وملكت اساطيله جربة • ونازلت جيوشه تونس • فخضع له صاحبها احمد بن عبد العزيز الخرساني • وبنو خراسان قيل انهم صنهاجيون • وطالت مدته فنالت الدولة على عهده امنا ورقيا وعلما • واستوطن بجاية الى ان مات • واخذت القلعة في الانحطاط •

وتاسعهم يحي بن العزيز • جهز الى الشرق عسكرا بقيادة مطرف ابن علي بن حمدون • قيل سنة 522 وقيل سنة 529 • حاصر المهدية من غير طائل • وفتح تونس • وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز الى بجاية • فولى يحي على تونس عمه كرامة بن المنصور الى ان مات • فخلفه اخوه ابو الفتوح بن المنصور الى ان مات • فخلفه ابنه محمد • ولم تحمد سيرته • فعزل بعمه معد بن المنصور الى أن عاد أمرها لبني خراسان ، فاخرج الى بجاية سنة 543 •

وفي هذه السنة خرج يحي الى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي منها ، وفيها استولى النرمان على المهدية • وأراد صاحبها اللحاق بعبد المؤمن فكتب الى يحي يستأذنه في زيارته والتوجه من عنده الى عبد المؤمن • فاجابه بالتوجه لما جرى عليه والحث على الوصول اليه والعدول عن قصد غيره • فتوجه الحسن الى بجاية ولاقاه القائد بن العزيز • فعدل به بأمر أخيه الى الجزائر• فانزله وأولاده بها • وامر يحي بمراقبته حتى لا يلحق بعبد المؤمن او يراسله •

وكان وزير يحي ميمون بن حمدون • ومن عماله اخوته القائد بالجزائر والحارث ببونة والحسن بقسنطينة وجوشن بالقلعة •

وفي سنة 547 استولى الموحدون على بجاية • ونقلوا يحي الى مراكش وتوفي بسلا سنة 558 •

قال لسان الدين : « وكان يحي بن العزيز فاضلا حليما فصيح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الاشارة • وكان مولعا بالصيد مغرما به ، كلفا بالمارين يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة من شيوخ وعجائز وحمقى • فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد • فيختبر هذا البازي ويتفقد هذا الكلب ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه فيلهيه ويضحكه • ويجلس ابدا بين يديه اخواته تقسوط وأم ملال وشبلة في زي العرائس من الحلي واللباس • فلا يزال كذلك الى أن ينام • ثم يغتدي الى الصيد هكذا انقضت أيامه •

« وكان قد ولي ابنه المنصور عهده • فتوفي في حياته • وعظم وجده عليه • ولما اضطرب حاله بظهور الموحدين لحق بقسنطينة ثم نزل لهم عنها مستأمنا لنفسه وسكن بقصر ابن عشرة بسلا وكانت وفاته به سنة 544 » اهـ •

وما قدمناه من تاريخ وفاته عن ابن خلدون • وقال صاحب المعجب ان غزو عبد المؤمن لبجاية كان سنة 540 وان عبد المؤمن نقل معه الى مراكش يحي واعيان دولته • قال :

« فحين وصلوا أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والاموال الوافرة • وخص يحي من ذلك باجزله واسناه واحفله • ونال يحي هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما • واظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغني من طرق عدة ان يحي بن العزيز

كان في مجلس عبد المؤمن يوما • فذكروا تعذر الصرف • فقال يحي اما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة • وعبيدي في كل يوم يشكون الي ما يلقون من ذلك • ويذكرون ان أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف • فلما قام يحي اتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلهـا • وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل » اهـ •

ملـوك الدولـة الحماديـة

الملـــك	الولاية هـ	الولاية م	الملـــك	الولاية هـ	الولاية م
حماد بن بلقين بن زيري	405	1014	المنصور بن الناصر	481	1089
ابنه القائد	419	1028	ابنه باديس	498	1104
محسن بن القائد	446	1054	اخوه العزيز	498	1105
بلقين بن محمد بن حماد	447	1055	ابنه يحيى	515	1121
الناصر بن علناس بن حماد	454	1062	سقوط الدولة	547	1152

6 ــ العرب ايـام الحماديين

كان الهلاليون يذهبون لبداوتهم في مذاهب الحرية الى أقصى مدى • فيرون الانتصاف من جانبهم ذلا واحترام القوانين الدولية استعبادا • فكثرت بينهم الفتن • وعجزت عن قيادهم الدول •

وزادهم هذا الخلق قوة ما وجدوا عليه بني زيري الصنهاجيين من الافتراق فكان العرب يخشون اتحاد الزيريين • فيغرونهم بعضهم ببعض • وكـان الزيريون كذلك يسـعون لاذكاء نار العداوة بـين قبائلهم •

قتلت عدي أحد بني رياح واصطلح القبيلتان • فرأى تميم بن المعز أن عداوتهم أولى بسياسته • فقال يخاطب رياحا :

متى كانت دماؤكم تطل ... أما فيكم بثار مستقل
أغانم ثم سالم ان فشلتم ... فما كانت أوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب الثار حتي ... كأن العز فيكم مضمحل

فعمد أخوة المقتول • فقتلوا أميرا من عدي • وهاجت الفتنة حتى انجلت عدي الى طرابلس •

وكانت حروب ايضا بين الاثبج ورياح • فوفد رجال من الاثبج على الناصر بن علناس وعقدوا معه حلفا على رياح وزغبة• فخشيء تميم ابن المعز ان يتقوى عليه الناصر ويسلبه ملكه فامد عليه رياحا بالمال والسلاح والجنة •

ثم ارسلت رياح وزغبة الى الاثبج ومن معهم من عدي يحذرونهم مساعدتهم للناصر وانه ان انتصر علينا مال عليكم بصنهاجة وزناتة • فأهلككم وانه لا مقام للعرب الا مع خلف ملوك صنهاجة وضعفهم • فاستصوب الاثبج رأي اخوانهم • وواعدوهم الغدر به متى نشبت الحرب على ان يكون لهم ثلث الغنيمة •

فخرج الناصر سنة 457 لحرب رياح وزغبة في جموع الاثبج وعدي وصنهاجة وزناتة • وكانت زناتة قد اتفقت مع الاثبج على الخديعة • وكان للناصر أخ أسن منه اسمه القاسم • فنهاه عن الخروج • وقال له : أقم ببلادك وابعث الى هؤلاء العرب وصانعهم ياتوك طائعين وفي نوالك طامعين • فابى الا الخروج •

كان اللقاء بفحص سبيبة • ودارت رحا الحرب • فانخذل العرب وزناتة • وحقت الهزيمة • فاخذ القاسم من اخيه الناصر العمامة والراية وقال له انج بنفسك كي تحفظ الملك • وقاتل هو حتى قتل •

قال ابن الاثير : « ومات من جموع الناصر اربعة وعشرون الفا ـ وغنم العرب معسكره بسلاحه وماله ودوابه وكل ما اشتمل عليه ـ واقتسموا الغنيمة على ما شرطوا أولا ، وبعثوا بالالوية والطبول وخيم الناصر بدوابها الى تميم • فردها عليهم مستقبحا أخذ سلب ابن عمه » اهـ •

واتبعت رياح الناصر الى قسنطينة ثم القلعة • فاحاطوا بها • وساروا فيما حولها الى المسيلة وطبنة من أرض الحضنة ينهبون ويخربون • وظاهرتهم زناتة • فحالفت مغراوة وغمرت الاثبج • وحالف بو توجين بني عدي • وبعث اليهم الناصر ابنه المنصور • فظهر عليهم وتقبض على امراء بني عدي ساكن بن عبد الله وحميد بن حرعل ولاحق بن جهاذ ثم ظهر العرب على الحماديين فملكوا الضواحي • وحجروا العمال في المدن • واختط الناصر بجاية فرارا منهم • وتقدم في دخول الهلاليين الجزائر ما وصف به الادريسي حال الدولة والامة معهم •

ولما ثار على المنصور ابو يكني عامله بقسنطينة وفر الى أوراس نزل بقسنطينة صليصل بن الاحمر من رؤساء الاثبج • فصالحه المنصور عليها بمال يبذله له • وقال صاحب المعجب :

« صالح المنصور العرب على ان يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها وغير ذلك ، فلم يزالوا يقبضون ذلك حتى ملك البلاد عبد المؤمن » اهـ •

ولما خرج المنصور الى تلمسان لحرب المرابطين كان معه الاثبج وزغبة ورياح والمعقل •

وفي أيام العزيز كبس العرب القلعة واهلها غارون ، فاكتسحوا جميع ما كان بظواهرها ، ودافعتهم الحامية ، فغلبوهم واخرجوهم من

البلد ، ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر العزيز ببجاية ، فارسل ابنه يحي وقائده علي بن حمدون في عسكر وتعبية ، فوصلوا الى القلعة وسكنوا الاحوال ، واستأمن العرب واستعتبوا فاعتبوا ، وانكفأ يحي في عسكره الى بجاية ، وعلى أثر ذلك بلغ ابن تومرت بجاية قافلا من المشرق سنة 512 .

وفي سنة 529 أو سنة 522 نزع بعض عرب افريقية الى يحي مغاضبين للحسن بن علي ، فاغروه بالمهدية ، ووعدوه الاعانة ، واعطوه ابناءهم رهائن على ذلك ، فارسل معهم الفرسان والمشاة لنظر كبير قواده مطرف ابن علي بن حمدون ولم يأمره بالقتال تعففا عن الدماء ، فلما نزلوا على المهدية واشتدت الحال ، ووقعت الحرب فتح الحسن الباب وخرج في أول الناس ، وحمل على المحاصرين له وهو ينادي انا الحسن ، فاجلوا مقامه وانهزموا عنه .

وكان الحماديون يختصون الاثبج دون سائر العرب بالرئاسة ، واقطعوهم الكثير من اعمال الزاب والحضنة وضواحي القلعة ، واستألفوا معهم زغبة ، واستظهروا بهاتين القبيلتين على زناتة . ورئاسة زناتة يومئذ لامراء تلمسان من بني يعلي المغراويين . فكان الامير يحي من بني يعلى يستجيش مغراوة ويفرن وبني يلومي وبني عبد الواد وبني راشد وبني توجين وبني مرين وغيرهم من زناتة ، ويوجه عليهم وزيره وقائد حروبه ابا سعدي اليفرني . وكان موطن زغبة اقرب الى مواطن زناتة ، فدارت بين الفريقين حروب شديدة . هلك في بعضها ابو سعدي حوالي سنة 450 .

وكانت بين بطون الاثبج حروب . فقتل الحسن بن سرحان أمير دريد شبانة بن الاحيمر شيخ كرفة . ثم لحقت به اخته الجازية مغاضبة لزوجها ماضي بن مقرب سيد قرة . فتحالفت على دريد كرفة

وقرة • وظاهرتهم عياض • وكانت بين الفريقين موقف • قتل في بعضها ابناء شبانة الحسن بن سرحان • ثم ظهرت عليهم دريـد • قال ابن خلدون : « واستمرت الفتنة بين هؤلاء الاثبج وافترق أمرهم • وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة » اهـ •

وبعد سقوط الدولة الحمادية ضعفت الاثبج • بما كان بينها من الفتن وذهاب الدولة التي كانوا يستدرون خيراتها • فازال عبد المؤمن ما كان لهم من امتيازات • ونقل منهم الى الاندلس • ثم نقل ابناؤه بعض بطونهم الى المغرب الاقصى • فقل جمعهم بالجزائر • وتغلبت رياح على كثير من مواطنهم •

7 ــ زناتــة ايام الحماديين

كانت رئاسة زناتة مفترقة في قبائلها وبطونها • والفتن متصــلة بين المتجاورين منهم : بين مغراوة ويفرن وبين يلومي وبني ومانو وبين بني بادين وبني مرين • وهكذا غيرهم •

وكانت مغراوة أعظم قبائلهم وامارة بني خزر منهم أعظم امارات سائر القبائل فلما أجلاهم بلقين بن زيري عن المغرب الاوسط اسسوا امارات بالمغرب الاقصى • وامدهم بنو أمية بالرجال والاموال ليكونوا حاجزا دون سيل الدولة العبيدية •

وفي سنة 377 نزع سعيد بن خزون بن فلفول بــن خزر الى صنهاجة • ورأس على زناتة الحضنة والزاب • وفيها ملك ابن عمه زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مدينة فاس • واخذ يجلب عــلى صنهاجة • وثار عليها ايضا فلفول بن سعيد • وظهرت قوة زناتة ايام باديس • فهزموا جيوشه مرارا حتى رماهم سنة 395 بحماد وسوغ له ما يفتحه من اوطانهم •

وفي سنة 93 استرجعت الدولة الامـوية عمالها مـن المغرب • واستقل به المعز بن زيري من عطية على شروط بينه وبين بني أمية • وقال ابن خلدون في أخبار تلمسان : « كان ذلك سنة 96 فاستعمل المعز على تلمسان ابنه يعلى • واستقرت ولايتها في عقبة الى ان انقرض أمرهم على يد لمتونة » اهـ •

قال ابن ابي زرع : « وقيل ان المعز بن زيري ليس له ولد الا معنصر خاصة » اهـ • ونسب ابن خلدون في اخبار مغراوة يعلى الى محمد أخي عبد الله ابني خزر فقال هو يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر •

وكانت امـارة بني يعلى بتلمسان تشتمل على وهران وتلـك النواحي • ومدوا ايديهم الى أخوانهم اصحاب فاس • واستعانوا على محاربة من ناوأهم من صنهاجة وغيرهم ببقية زناتة •

وظهر امر بني ومانو وكان شيخهم ماخوخ • وله خيمة شهيرة قال ابو راس : « وآثارها اليوم ببلاد اولاد علي » اهـ • ونازعهم بنو يلومي • فكانت بينهم حروب وكان من شيوخهم أمير الناس ثم ابنه سيد الناس • أدركه الموحدون • ونقلوه في وجوه قومه الى مراكش • وبها توفي ايام عبد المؤمن • وكان بنو ومانو وبنو يلومي قد غلبوا وجديجن على مواطنها كل من جهته • ثم غلبهم جميعا ايام الموحدين بنو عبد الواد وبنو توجين •

وكان شيخ اوغمرت ابن ابي حلي وشيخ توجين دافلتن بن ابي بكر المنكوشي • وينازعه ابن عمه لقمان بن المعتز حتى ظهر عليه • ثم انفرد بالرئاسة بنو دافلتن • ولم يكن يومئذ لمصاب كبير شان لافتراق جماعاتهم وتنازعهم على الرئاسة •

وكان بنو يعلى وبنو ومانو وبنو يلومي يستظهرون ببطون بني

واسبن • ويقرضونهم المال والسلاح والحبوب • فراشوا • واخذوا في الظهور •

وكان الحماديون كثيرا ما يجلبون على زناتة ويستعينون بهم بعضهم على بعض • وقتل حماد قبل استقلاله دافلتن بن ابي بكر في بعض حروبه ولما أعلن استقلاله نزع عنه ابن ابي حلي الى باديس • فوصله وحمل اصحابه • وعقد له على طبنة وعملها • واوفد لقمان بن المعتز ابنه بدرا على باديس وهو في طريقه اثر حماد ، وتحيز اليه ايضا عطية بن دافلتن ، وكانت لتوجين في حرب حماد آثار ، ومقاتلتهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف • فلما انهزم حماد سوغهم باديس ما غنموه • وعقد للقمان على قومه وما يفتحه من البلاد بدعوته •

وفي سنة 430 جمع صاحب فاس حمامة بن المعز بن عطية زناتة لحرب القائد فاشترى القائد ذممهم بالمال • ولم يسع حمامة الا الخضوع • وكان بلقين كثيرا ما يجدد الغارة على المغرب ، ويجمع زناتة لذلك ، ثم خرج في صفر سنة 54 فاجلي عنه يوسف بن تاشفين ، وعاد فقتله الناصر بتسالة في شعبان •

واستمال الناصر بني ومانو ، وتزوج منهم ، فكانوا أولياءه دون بني يلومي ، وجرت عليه زناتة الهزيمة في وقعة سبيبة وقائدها يومئذ صاحب فاس ، وزحف المنتصر بن خزرون بن سعيد بن خزرون من طرابلس في جمع من بني عدي ، فنازل المسيلة واشير • وطمع في استرجاع ما كان لجده بالحضنة ، فاجلاه الناصر الى الصحراء ، ورجع الى القلعة ، فعاد المنتصر عائثا في تلك الجهات ، فصالحه الناصر • واقطعه ضواحي الزاب وريغة مزمعا الغدر به ، وكلف بتدبير اغتياله عروس بن سندي ، فاستدعاه الى بسكرة ، واشار على حشمه بقتل المنتصر وذويه عند انكبابهم على الطعام ، ففعلوا ، وبعث برأسه الى

الناصر ، فنصبه ببجاية وصلب شلوه بالقلعة وكان ذلك حوالي سنة 460 .

وتتبع الناصر أمراء زناتة بالقتل . وكانت غمرت ومغراوة قد ظاهرت الاثبج وبنو توجين ظاهروا عديا ، فجهز ابنه المنصور اليهم ، فشتت جموعهم ، وبلغت سراياه ورقلة ، فدخلها وولي عليها ، وأسر من توجين أميرهم مناد بن عبد الله واخاه زيري وعميهما الاغلب وحمامة ، فلما حضروا بين يدي الناصر وبخهم ثم قتلهم .

وكان من بني سنجاسن رئيسان احدهما ابو الفتوح بن حموش (وفي بعض نسخ ابن خلدون حبوس) بلمدية ثار على الناصر فقتله ، والآخر معنصر بن حماد بناحية شلف ، اجلب على عامل مليانة ، وقتل شيوخ بني ورسيفان ، وكان الناصر مشتغلا بأمر العرب ، فكاتب في شانة بني ورسيفان ، فزحفوا الى معنصر وقتلوه ، وبعثوا الى الناصر برأسه ، فنصبه مع رأس المنتصر .

ثم غلب العرب على الحضنة ، والجأوا غمرة الى الجبال . فعجزت عن الظعن بعد . وتغلبوا ايضا على الزاب . واخروا بني واسين الى الغرب . فلاذوا باخوانهم بني يلومي وبني ومانو وانتدب لدفاع العرب بنو يعلي . فجهز بختي منهم وزيره وصاب حروبه ابا سعدي خليفة اليفرني . فكانت بينهما مواقف صعبة . هلك في بعضها بالزاب حوالي سنة 450 .

ولم يزل بنو يعلى بتلمسان . وايامهم مع الحماديين تختلف سلما وحربا . وتوفي بختي فخلفه ابنه العباس . وظهر ايامه المرابطون . وتغلبوا على فاس . فنزع اليه كثير من أهلها من مغراوة . ثم اجلب عليهم المرابطون . فحاربهم . ودخلوا عليه تلمسان سنة 473 فقتلوه . وبذلك انتهت امارة بني يعلى بتلمسان بعدما عاشت نحوا من مائة سنة .

وكان الناصر يردد غزو المغرب • فوقف المرابطون بمكانهم من تلمسان الى أن هلك • وكانت أخت ماخوخ تحت المنصور • وكان لقومه بذلك مزيد ولاية في الدولة • لكنه والى المرابطين على صنهاجة لما كان المنصور مشتغلا بفتنة ابي يكنى • فدخل المرابطون ارض صنهاجة • وبعد قضاء المنصور على تلك الفتنة زحف اليهم واخرب ثغورهم وحصون ماخوخ • وضيق عليهم • فصالحه يوسف بن تاشفين• وقبض عنه ايدي المرابطين • ثم عاد المرابطون الى الاجلاب على صنهاجة فخرج اليهم الامير عبد الله بن المنصور • فرجعوا ادراجهم وشن هو الغارة على بني يلومي وبني ومانو وفتح الجعبات وسيرات • وعفا عن أهلهما ورجع الى ابيه ظافرا • والجعبات على ضفة وادي مينة اليسرى •

واعتد المنصور على ماخوخ ولاءه للمرابطين • فخرج اليه بنفسه في صنهاجة ومن والاهم • وجمع له ماخوخ زناتة • فهزمه الى بجاية • ولم يفعل المنصور اكبر من تعديه على زوجه أخت ماخوخ • فقتلها !

ان من اعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول

استحكمت النفرة بين المنصور وماخوخ بعدها • فجمع ماخوخ بني يلومي وبني ومانو على دعوة المرابطين • واوفد احد بنيه على محمد بن تينعمر أمير تلمسان يحرضه على بلاد صنهاجة • فخرج في جموع المرابطين وزناتة حتى نازل الجزائر وحاصرها يومين • مات عقبهما فخلفه أخوه تاشفين • وما زال يجلب على صنهاجة حتى فتح أشير •

هنالك جمع المنصور عامة صنهاجة ومن والاهم من العرب • وخرج الى تلمسان في شوال سنة 496 كما في الاعلام ، وبلغت مقاتلته نحو عشرين الفا • فافرج له تاشفين عن تلمسان ، وخرج الى تسالة ، فهزمته عساكر المنصور الى الصخرة وعاثت في تلمسان فنهضت امرأة

تاشفين الى المنصور ، وانكبت على رجليه تستعطفه وتذكره صلة الرحم الصنهاجية لرفع محنة الجند عن البلد ، فاكرم المنصور مقدمها وكف جنوده عن الفساد ، وخرج من الغد قافلا بهم الى حضرته ، وانعقدت السلم بينه وبين المرابطين • وعزل يوسف بن تاشفين امره بتلمسان تاشفين بن تينعمر ترضية للمنصور •

نزل المنصور بعد قفوله بالقلعة واثخن في زناتة بنواحي الزاب والمغرب الاوسط ، ثم عاد الى بجاية ، فمات بعد اشهر ، ولما ولي العزيز صالح زناتة ، وتزوج ابنة ماخوخ •

لما كف الحماديون عن بني ومانو وبني يلومي تذكروا ضغائنهم ، وعادوا الى العداء • فكانت بينهم حروب • هلك في بعضها ماخوخ • فخلفه بنوه تاشفين وعلي وابو بكر • وكان بنو عبد الواد وتوجين وبنو راشد وبنو ورسيفان مددا لبني يلومي • وربما مادهم ايضا بنو مرين • ولم يزالوا في فتنتهم حتى جاء الموحدون •

8 ـ الحماديون والمسيحيون

عرف المغرب في هذا العصر البربري من أمم أروبا المسيحية أمة النرمان واصل هذه اللفظة نرثمن • ومعناها رجال الشمال • وهم من النرويج والدانمارك • انتشروا في شرق أروبا • وانتقلوا أيام شرلمان الى الغرب وسكنوا حوالي الاودية الفرنسية • واستقروا سنة 299 (911م) بنرمنديا احدى كور فرنسا •

وكانت القرصنة بالبحر أهم أعمالهم • وهجموا على الاندلس من ناحية اشبونة سنة 229 وتكرر اجلابهم على الثغور وبلغوا سنة 245 بلد نكور من سواحل المغرب •

ولم يكن للنرمان قبل بالاساطيل العربية حتى جاء الهلاليون

وضعفت دولة صنهاجة بانقسامها • واستيلاء العـرب على اراضيها واستنزاف ماليتها بالعطاءات تسكينا لثوراتهم واستبداد كثير مـن الولاة على المدن • وحدث بـين الصقليين شـقاق فاستعان بعضهم بالنرمان • فخفوا لنصرتهم • ولكن لما نزلوا المدن رفعوا عليها أعلامهم وذهبت صقلية شهيدة الخلاف والخديعة • فاستولى النرمان عليها سنة 485 واصبحت مركزا عظيما للنصارى في الحروب الصليبية •

وكان الحماديون أقوياء • فلم يقدر النرمان على التوسع الا في المملكة الشرقية الضعيفة ولم يطب آل باديس نفسا بتسليم المملكة للحماديين • فاخذوا يفاوضون المرابطين ويدعونهم لحماية ثغورهم • ولا طريق لهم الا بالمملكة الحمادية • فشمر الحماديون عن ساعد الجد لقطع كل حركة تمس باستقلالهم حتى عقد معهم المرابطون معاهـدة سلمية ودية •

كان الحماديون يرون في توهين الرومان لبني عمهم اعانة لهم على امتلاك مملكتهم يومـا ما • ورأى النرمان ان لا يهيجوا الحماديين بسوء • فظلت العلاقات بينهم حسنة • ولكن النرمان لما رأوهم ملكوا جربة وطمعوا في المهدية قلبوا لهم ظهر المجن •

ففي سنة537 طرق النرمان جيجل فاحتلوها عنوة• وانتهبوا الاموال وأحرقوا المنازل وخربوا قصر النزهة الذي بناه يحي بن العزيز وسفكوا الدماء وسبوا الحريم• ولم ينج من أهلها الا من تعلق بالجبل• ثم أقلعوا عنها • وتركوها خاوية على عروشها • وفي سنة 539 فتحوا برشـك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين •

ولما ملك عبد المؤمن بجاية وخضع له يحي لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية • فاعانه على البقاء بها حتى اخذها منه عبد المؤمن •

هـذه علاقات الحماديين والمسيحيين السياسية وكانت بالمـدن

الحمادية طوائف مسيحية اما من بقايا الرومان او من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا اصلهم او من سبي أروبا فكان الحماديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم احسانا وحفظا لم يوجد ما يقرب منهما في عصر يزعم القابضون على مناحي حياته انهم أرقى دولة عرفها التاريخ وان عصرهم أزهر العصور ، زعما لا مؤيد له غير القوة المادية •

وهاك ملخص ما اطال به ذوماس لتري في وصف حياة المسيحيين تحت الحماديين • قال :

« كان لبابوات رومة علائق مع الحماديين وخصوصا اشهرهم الناصر بن علناس ويلقبونهم ملوك موريطانيا السطيفية » •

« ولما أسسوا القلعة تقبلوا بهـا المسيحيين بصدور رحبـة • وأحسنوا اليهم مدة دولتهم • وضمنوا لهم حرية دينهم تحت قسيس منهم من رتبة (افيك) » •

« وفي سنة 508 (1114م) أسسوا بالقلعة كنيسة مريم العذراء • وقسيسهم يومئذ عزون • وتسميه العامة الخليفة • وابتنى لنفسه دارا حذاء الكنيسة » •

« وانتخب أهل بونة اسقفا عليهم يدعى سرفاند • فسماه لهم ارشفيك قرطاجنة وصادق عليه الناصر ، ولما سافر سرفاند الى رومة حمله الناصر هدايا جليلة ورسالة ودية الى البابا قرقوار السـابع • واشترى جميع الاسرى الذين عثر عليهم بممالكه وارسلهم الى البابا واعدا اياه بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد » •

« سرت الكنيسة الرومانية كثيرا بفعل الناصر • فلما عاد سرفاند الى بونة ارسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء للناصر •

وارسل له البابا ايضا رسالة خاصة تعد أكبر رسالة وأعظمها ارسلت من بابوات رومة الى ملوك المغرب وذلك سنة 469 (1076م) .

« ولم يحفظ التاريخ جواب الناصر عن هذه الرسالة ولا ما نشأ عنها . والرسالة تنص على ان البريك وكنشبوش من خدام قصر البابا الذين نشأوا به يرغبان رغبة شديدة في شرف خدمة الناصر برومة . وانهما ارسلا له بعض رجالهما لتأكيد ودادهما ، وتنص الرسالة ايضا على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية صادقة » اهـ . وقد أثبت ذوماس الرسالة بنصها اللطيني وترجمتها الفرنسية . ومنعنا من تعريبها طولها وما قصدنا اليه من الايجاز .

9 ـ العمران والحضارة

كانت المملكة الحمادية تشتمل على ارض طيبة وجبال جالبة للامطار واودية حافظة لها ، وعني الحماديون بحفظ الامن واستخراج خيرات المملكة ، فلم ينوا في اطفاء الثورات الداخلية وصد الهجومات الخارجية وتنظيم البريد وتأمين السبل .

نشطت الفلاحة فأحيي موات الارضين وازينت البوادي وضواحي المدن والقرى بالمزارع على اختلاف انواعها ونصبت الارحاء على ارجاء الاودية والجداول وغرست البساتين الجامعة لانواع الاشجار والازهار .

ونفقت الاسواق بمختلف البضائع . فكانت الطرق البرية غاصة بالقوافل ، والبحار والاودية الكبار تشقها اسراب السفن التجارية غادية رائحة .

وتعددت الصنائع وترقت الحرف من خشابة ونجارة وخراطة

وحدادة وحياكة صوف وقطن وكتان وحرير ، واستخرجت المعادن من مختلف الجهات .

وزاد الحركة العمرانية نموا فرار الناس من افريقية الى الحماديين امام الهجوم الهلالي ومن صقلية امام استيلاء النرمان ومن الاندلس امام استيلاء المرابطين . ووطد اركان هذه الحركة بسط المرابطين لنفوذهم الفعلي على عواصم القوة الزناتية غربا التي كانت أكبر شاغل للحماديين .

وساعد هذا العمران على انشاء حضارة من ارقى الحضارات من نقش وتزويق وغناء وبناء ، وقد عثر على أوان من الخزف المطلي فيها كتابات عربية بارزة ، وقارورات وبعض أدوات من الزجاج . وكلها تدل على صناعة خزفية وزجاجية راقية .

وذكر ياقوت القلعة . فقال : « يتخذ بها اللبايد الجيدة والاكسية القلعية الصفيقة النسج المطرزة بالذهب . ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم » اهـ .

قال جورج مارصي : « وحوالي سنة 457 (1065م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات ، وقصدها ارباب الصنائع من المشرق وافريقية ، ويظهر ان صناعة الفخار يومئذ بلغت بها مبلغا عظيما ويظهر عليها تأثير الفرس ومصر فنا وعملا ، وجد بها من ذلك آثار كثيرة ، ثم ترقت الصناعة وتطورت حسب تطور الدولة في العظمة » اهـ .

وكانت موسيقى الجزائر الحمادية متأثرة بالموسيقى الافريقية والاندلسية . ينشطها الملوك والامراء . فيتخذون بمجالستهم المغنين والمغنيات . وعاش الى جنبها أغاني العرب في باديتهم والبربر في جبالهم . فكان للحاضرين اغانيهم الفنية القابلة للتهذيب والرقي ، وللبادين أغانيهم الموروثة عن اسلافهم المتعاصية عن التطور .

وقد أنشأ الحماديون القصور في مختلف المدن والمساجد والجوامع والمنائر والمنابر والاسواق والاسوار والقناطر ، واصلحوا ما تداعى من انشاء من قبلهم وأسسوا المدينتين العظيمتين القلعة وبجاية ، وبنوا حولهما القصور الشاهقة والمباني الجميلة .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

بنى الناصر حول القلعة قصورا شامخة مسماة بعدة اسماء ، قال ابن خلدون : « وبني ببجاية قصر اللؤلؤة ، وكان من أعجب قصور الدنيا » اهـ . قال ابو راس : « وكان بناؤه حوالي سنة 470 » اهـ .

والمنصور قال ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة ، وجدد قصورها وشيد جامعها وتانق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام ، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميميون » اهـ .

قال صاحب الاستبصار : « وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة ، وهو أنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة ، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراءون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا . فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد ، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الابيض من أعلاها الى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش ، وانزلت بالذهب ، وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور » اهـ .

قال مارصي : « ان الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق . وآثارها لا نظير لها ببقية وطن البربر ، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الاسلامية المغروسة بالجزائر .

وكان النرمان مغرمين بالحضارة الحمادية ، فوضعوا قصور بلرم على شكل قصور بجاية ، وكان قصرا زيزة وكوبة ببلرم شديدي الشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب وأميميون » .

وكان محمد بن حماد ببجاية ولوعا بندب آثار اسلافه الحماديين بالقلعة وما حولها من الامكنة ، فمن ذلك قوله :

أين العروسان لا رسم ولا طلل ... فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر بلارة أودى الزمان به ... فاين ما شاد منه السادة الاول
قصر الخلافة ابن القصر من خرب ... غير اللجين وفي ارحابها زحل
وليس يبهجني شيء أسر به ... من بعد ان نهجت بالمنهج السبل
وما ورا الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرا لكوكب التغيير والندل
وقد عفا قصر حماد فليس له ... رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قل فيه الحادث الجلل
وان في القصر قصر الملك معتبرا ... لمن تغربه الايام والدول
وما رسوم المنار الآن ماثلة ... لكنها نبذ يجري بها المثل
حتى المصلى محت آياتها وعفت ... الا جدارا وما طلت به الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة ... فما تراه كذاك العمر والاجل

وله من أخرى

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة ... بوادي الجوى مابين تلك الجداول
وهل اسمعن تلك الطيور عشية ... تجاوب في تلك الغصون البلابل
وهل أردن عين السلام على الصدى ... فابرد من حر الضلوع النواهل
وانظر طيقان المنار مطلة ... على الواجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقات بأفقه ... نجوم تبدت في سعود المنازل
فان ثنت الايام عنها اعنتي ... وانزلني في غير تلك المنازل
فصبر جميل غير ان صبابتي ... ستبقى بقاء الطالعات الاوافل

وله من أخرى

على عين السلام سلام صب ... غذاة ماؤها العذب النمير
تأود أيكها وجرت صباها ... وشم لها كما فتق العبير
وابرد ما يكون الجو فيها ... واندى حين يحتدم الهجير
وما ادري ايجري فوق در ... أم ابتسمت بمنبعها الثغور
وقد قام المنار على ذراها ... كما قام العروس او الامير
بناء يزدرى ايران كسرى ... لديه والخورنق والسدير

وقد ذكر المقري في نفح الطيب قصيدة لعبد الجبار بن حمديس الشاعر الصقلي يصف بها دارا بناها الملك المنصور ببجاية ، ولدقة وصفها وحسن تصويرها للحضارة الحمادية نوردها على طولها ، قال :

أعمر بقصر الملك ناديك الذي ... اضحى بجدك بيته معمورا
قصر لو أنك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه ... فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسي الصبيح مع الفصيح بذكره ... وسما ففاق خورنقا وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنه ... ما كان شيئا عنده مذكورا
اعيت مصانعه على الفرس الالى ... رفعوا البناء واحكوا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور ومابنوا ... لملوكهم شبها له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين اريتنا ... غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه ... حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرأيت ابدع منظر ... ثم اثنيت بناظري محسورا
فظننت اني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيها كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا

غضت علـى حلقاتهن ضـراغم فغرت بهـا أفواههـا تكبـيرا
فكانهـا لبـدت لتهصر عندهـا من لم يكن بدخولهـا مأمـورا
تجري الخواطر مطلقـات اعنـة فيه فتكبـو عـن مداه قصورا
بمرخـم الساحات تحسب انـه فرش المهـا وترشح الكافـورا
ومحصب بالدر تحسـب تربـه مسكا تضـوع نشـره وعبيرا
تستخلف الابصار منـه اذا اتى صبحا على غسـق الظلام منيرا

قال المقري : ثم ذكر بركة فيه عليها اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه وتفنن فذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالميـاه ايضـا • فقـال :

وضراغـم سكنت عريـن رئاسة تركت خرير المـاء فيـه زئيرا
فكانما غشي النضار جسومهـا واذاب في أفواههـا البـلورا
أسـد كـان سكونهـا متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكـرت فتكاتهـا فكانمـا أقعت عـلى ادبـارها لتثـورا
وتخالها ـ والشمس تجلو لونهاـ نارا والسنها اللواحـس نـورا
فكانما سـلت سـيوف جداول ذابت بـلا نار فعـدن غديـرا
وكانمـا نسـج النسيم لمائـه درعا فقـدر سـردها تقديرا
وبديعـة الثمرات تعبر نحوهـا عيناي بحـر عجائب مسـجورا
شـجرية ذهبيـة نزعـت الـى سـحر يؤثـر في النهى تأثـيرا
قـد صوفحت اغصانها فكانمـا قبضـت بهن من الفضاء طيـورا
وكانما تابـى لوقـع طيرهـا ان تسـتقل بنهضهـا وتطـيرا
من كل واقعة تـرى منقارهـا مـاء كسلسـال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغـرد بالميـاه صفـيرا
وكأنما في كـل غصـن فضـة لانت • فأرسـل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج، موقع قطرها فـوق الزبرجـد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسـنه اليك كانمـا جعلت لها زهـر النجوم ثغـورا

ومصفح الابواب تبـرا نظـروا بالنقش فوق شـكوله تنظـيرا
تبدو مسامير النضار كما علـت تلك النهود مـن الجنان صدورا
خلعت عليـه غلائـلا موشـية شمس ترد الطرف عنه حسـيرا
واذا نظرت الى غرائب سـقفه ابصرت روضـا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامـت لتبني في ذراه وكـورا
وضعت بـه صناعها اقلامهـا فأرتك كـل طريـدة تصويـرا
وكأنمـا للشمس فيـه ليقـة مشقوا بها التزويـق والتشجيرا
وكأنمـا الازورد فيـه مخـزم بالخط في ورق السماء سـطورا
وكأنمـا • وشـوا عليه ملاءة تركـوا مكان وشاحها مقصورا

قال المقـري : ثم مدح المنصور بعد ذلك • وختم القصيدة بقوله :

يا مالك الارض الذي أضحى له ملك السـماء على العـداة نصيرا
كم مـن قصور الملوك تقدمت واستوجبت بقصـورك التأخيرا
فعمرتها وملكـت كـل رياسة منها ودمـرت العـدا تدميـرا

قال المقري : « ولم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير غير أن فيها عندي عيبا واحدا هو ختمها بلفظ التدمير » اهـ • واخترنا هذا البيت لختام هذا الفصل من أجل لفظ التدمير الذي تحقق في العمران والحضارة الحماديين كما هو الشأن في آثار كل الدول سنة الله قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا •

10 ـ العـلوم والاداب

كان عصر الحماديين عصر انشاء وترقية في جميع مناحي الحياة المدنية • فضربوا في العلم والادب بسهم ، ونشـطوا أهلهما بالجوائز والصلات فارتحل اليهم امثال ابن حمديس الصقلي من الادباء ، وابي

الفضل بن النحوي التوزري من العلماء وكان يشبه بابي حامد الغزالي • فغصت عواصمهم بطلاب المعارف وناشريها وكان العلماء يتناظرون في مجالس بني حماد ويؤلفون لهم الكتب • وذكر ابن الابار في التكملة ان حماد بن ابراهيم المخزومي الف كتابا في التاريخ للعزيز •

ظهر بالجزائر الحمادية العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والاطباء والرياضيون وغيرهم ، ظهورا لا عهد للجزائر به من قبل • وكانت لعلوم الدين المنزلة الاولى ويليها علوم العربية • وينسب الى القلعة وبجاية فما دونهما من ممالك الحماديين علماء كثيرون تجد نبذا من أخبارهم متفرقة في الدواوين • ولكي تتصور اجمالا مبلغ الحركة العلمية بهذا العصر ننقل كلمة لياقوت ذكرها لما ذكر ريغة وانهـا قرب القلعة • قال :

« قال ابو طاهر بن سكينة سمعت ابا محمد عبد الله بن محمد ابن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول حضرت هرون بن النصـر الريغي بالريغ في قراءة البخاري والموطأ وغيرهما عليه وهو يتكلم على معاني الحديث • وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ورأيته يقرأ كتـاب التلقين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه كما يقرأ الانسان فاتحة الكتاب • ويحضر عنده دوين مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه » اهـ •

ولتقدم العلوم العربية في هذا الدور ظهر من اليهود الذين دأبهم مسايرة الوسط نبغاء طار صيتهم في الآفاق وكانوا من بلغاء الكتاب العربيين •

وكانت العربية هي اللسان الرسمي للدولة • وجـاء الهلاليون بلغتهم القريبة يومئذ جدا من الفصحى فنشروها بين سائر الطبقات وسهلوا على الخاصة تعلم العربية وعلى العامة تعلم دينها • ولم يبق

كبير حاجة الى التدريس او التأليف باللسان البربري في الجزائر كما كان الامر في أيام الرستميين .

تقهقرت البربرية من الميدان العلمي والادبي . وزاحمتها العربية في المجالس العامة فاستعرب كثير من البربر . ولم يبق للبربرية موطن الا جبال أوراس وتيطري وجرجرة ونحوها حيث لم يختلط البربر بالعرب .

والذي دعا البربر الى هذا الاستعراب والدولة دولتهم والحكومة حكومتهم ما يعتقدونه من شرف العربية وغناها وكونها لغة الدين . فصاروا يتشرفون باجادة النطق بها . وهكذا تأثير الاديان في رفع الفوارق الجنسية .

١١ ـ سقوط الدولة الحمادية

في سنة 539 كانت الحرب على تلمسان بين تاشفين أمير المرابطين وعبد المؤمن بن علي أمير الموحدين . واستنجد تاشفين يحي بن العزيز . فامده بجيش يقوده ميمون بن حمدون ، ففتك بهذا الجيش عبد المؤمن ، وانهزم ميمون الى متيجة . فبعث منها الى عبد المؤمن بالطاعة ووعده الاعانة على فتح المشرق وان يكون قائده . واستمرت المكاتبة بينهما بعد .

تم للموحدين الاستيلاء على ممالك المرابطين فجاوروا يحي بن العزيز وهم في دورهم الاول ودور النمو وشباب القوة الحربية ، في حين ان الحماديين انغمسوا في حياة الترف ، فكان يحي مشتغلا باللهو تاركا أمور المملكة بيد وزيره ميمون ابن حمدون .

ولما كان هذا الوزير غادرا بدولته مواليا لعبد المؤمن آغفل

الممالك الغربية المجاورة للموحدين • وصرف عساكره الى الناحية الشرقية حيث ممالك بني باديس الذين اشتد ضعفهم • فانتصر هنالك عدة انتصارات زادت يحي بن العزيز غرورا بصدق خدمته ، وانما صدق ابن حمدون في خدمة عبد المؤمن ، فضرب دولتي صنهاجة احداهما بالاخرى توطئة لاستيلاء عبد المؤمن عليهما •

وفي سنة 46 عزم عبد المؤمن على فتح بجاية • فخرج من مراكش الى سبتة موهما انه يريد الاندلس • واوقف حركات القوافل • وجعل امناء على الطرق لئلا يسلكها احد • وغرضه كف الاخبار عن يحي ابن العزيز حتى لا يستعد له ، ثم اظهر العود الى مراكش • وسلك طرقا غير معتادة • ومنع من السؤال عن وجهته • فنادى مناديه : « ايها الناس من تكلم منكم بما معناه الى اين هذا السفر فجزاؤه السيف ! » •

وأخذ عبد المؤمن السير • فمكث بتلمسان يوماواحدا • وخرج • فملك لمدية • وبلغ الجزائر على حين غفلة • فاحتلها من غير مقاومة • وفر عاملها القائد بن العزيز الى اخيه يحي فاخبره خبر عبد المؤمن • ولم يكن له به علم • وكان بالجزائر الحسن بن علي آخر ملوك آل باديس • فسر بعبد المؤمن • فترك الجزائر تحت نظره • وسار من الغد بالجيوش الى بجاية •

جهز يحي الجيوش لنظر أخيه سبع وخائن دولته ميمون بن حمدون فلما التقوا بمقدمة الموحدين انهزموا من غير قتال • واستأمن بنو حمدون للموحدين وفتح لهم باب بجاية ابو عبد الله بن ميمون • فدخلوها في ذي القعدة سنة 47 •

تفرقت جيوش يحي برا وبحرا • وركب هو البحر يريد صقلية كي يتوجه منها الى بغداد حيث خلفاؤه العباسيون • ونزل ببونة على

أخيه الحارث فنكر عليه تسليمه العاصمة واساء مقابلته • فعدل الى قسنطينة • فنزل له عنها أخوه الحسن واحسن مقابلته •

ولحق عبد المؤمن ببجاية بعد يومين من فتحها فاجتمعت خلائق من صنهاجة لحربه • وقدموا عليهم ابا قصبة مـن بني زلدوي ، وانضاف اليهم خلق كثير من كتامة ولواتة وغيرهم • ولقيتهم جيوش الموحدين في عرض الجبل شرقي بجاية • فهزموا ابا قصبة وقتلوا كثيرا من أصحابه • ثم توجهوا الى القلعة • فدخلوها عنوة وقتلوا عاملها جوشن بن العزيز وثمانية عشر الفا مـن أهلها • وغنموا خيراتها • وتفرقت السرايا في الجهات • فحاصروا قسنطينة حتى نزل يحي على الامان وبايع لعبد المؤمن •

هنالك ركب الحرث صاحب بونة الى صقلية مستصرخا بالنرمان واجتمع العرب لدفاع عبد المؤمن • فاوقع بهم الموحدون نواحي سطيف، في صفر سنة 48 وقيعة شنعاء وجاء الحارث باسطول النرمان تحت قيادة فيليب المهدوي فحاصر بونة واعانه العرب على فتحها • فدخلها فيليب في رجب وسبى أهلها وملك ما فيها • واغضى عن طائفة من العلماء والصلحاء • فتركهم نجوا باهليهم واموالهم الى القرى • وبعد عشرة ايام سلم أمرها للحرث وركب هو الى المهدية فصقلية • فأفتى الاساقفة والقسوس والرهبان باحراقه لرفقه باولئك العلماء والصلحاء ، فاحرق في رمضان وهكذا تطبق رحمة المسيحيين !

بقي الحرث ببونة حتى استولى عليها الموحدون سنة 551 فقتلوه صبرا وانقرض ملك بني حماد • وبقيتهم بوادي بجاية ، قال ابن خلدون : « وهم في هذا العهد في عداد الجند • ولهم اقطاع على ذلك بنواحي البلد » •

تأسست الدولة الحمادية سـنة 405 وسقطت سنة 547 فكانت مدتها 142 سقطت وهي أقوى ما يكون كمـا يموت المـرء وهو في

شبابه ، وليس لهو يحي هو علة السقوط اذ لم ينشأ عنه اختلال في الدولة • ونرى لسقوطها عللا هي :

1 — خيانة ميمون ، وهي خيانة باردة لانه لا يرجو في دولة عبو المؤمن أكثر من ان يكون وزيره المفوض وقد نال ذلك مع يحي •

2 — ضعف العصبية القومية ، فقد أكلت صنهاجة الحروب ، ومالوا منذ ايام العزيز الى الترف •

3 — فقد الغيرة الوطنية من المسلمين لان كلا من الحكومتين القديمة والجديدة اسلامية ، فهم لا يتفانون في نصرة القديمة ولا يرون في الجديدة عدوا •

4 — قوة هذه الدولة الجديدة وعظمة رئيسها عبد المؤمن الذي لا يعرف التاريخ كثيرا من أمثاله في السياسة الحربية •

وبسقوط الدولة الحمادية انقرضت الدعوة العباسية من المغرب • فلم تظهر به الا ايام ابن عانية • ولم تنقطع قبل منه الا ايام بني عبيد ، ولهذا رأينا أن نرسم جدولا للخلفاء العباسيين من أول أمرهم الى انتهائه من بغداد ، وقد قسمهم ابن خلدون في هذه المدة الى اربع طبقات ، الاولى ذات النفوذ العام ، الثانية ذات النفوذ الخاص ببغداد وما قرب منها ، الثالثة ذات الخلافة الاسلامية فاقدة النفوذ ببغداد نفسها ، الرابعة المسترجعة للنفوذ ببغداد خاصة الى أن قتل التتر المستعصم سنة 656 •

الطبقة الاولى

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبد الله السفاح	132	750	محمد الامين ابن الرشيد	193	809
اخوه ابو جعفر المنصور	136	754	اخوه عبد الله المأمون	198	813
ابنه محمد المهدي	158	775	اخوهما محمد المعتصم	218	833
ابنه موسى الهادي	169	785	ابنه هرون الواثق	227	842
اخوه هرون الرشيد	170	786	اخوه جعفر المتوكل	232	846

الطبقة الثانية

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
محمد المنتصر ابن المتوكل	247	861	علي المكتفي ابن المعتضد	289	902
احمد المستعين ابن المعتصم	248	862	اخوه جعفر المقتدر	295	908
الزبير المعتز ابن المتوكل	252	866	اخوهما محمد القاهر	320	932
محمد المهتدي ابن الواثق	255	869	احمد الراضي ابن المقتدر	322	934
احمد المعتمد ابن المتوكل	256	870	اخوه ابراهيم المتقي	329	941
احمد المعتضد بن طلحة ابن المتوكل	279	892			

الطبقة الثالثة

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبد الله المستكفي بن المكتفي	333	945	عبد الله المقتدي بن محمد ابن القائم	467	1074
الفضل المطيع ابن المقتدر	334	946	ابنه احمد المستظهر	487	1094
ابنه عبد الكريم الطائع	363	974	ابنه الفضل المسترشد	511	1118
الحسن القادر بن اسحق ابن المقتدر	381	991	ابنه منصور الراشد	529	1134
ابنه عبد الله القائم	422	1031	الحسين المقتفي ابن المستظهر	530	1135

الطبقة الرابعة

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
يوسف المستنجد ابن المقتفي	555	1160	محمد الظاهر بن الناصر	622	1225
ابنه الحسن المستضيء	566	1170	ابنه منصور المستنصر	623	1226
ابنه احمد الناصر	575	1179	ابنه عبد الله المستعصم	640	1243
			سقوط بغداد	656	1258

12 ـ العواصـــم الصنهاجية بالجزائـــر

عواصم صنهاجة بالجزائر ثلاث هن : اشير والقلعة وبجاية •
أشير بفتح فكسر •

كانت بين صنهاجة وزناتة حروب بسبب الجوار في الموطن • فلما قوي أمر زيري بن مناد في قومه ارتاد مكانا حربيا اقتصاديا يجمع بين المناعة والاشراف على مواطن زناتة وكثرة المياه وسعة الفضاء • فوقع اختياره على موضع اشير • فشرع في انشاء مدينته سنة 324 (936) وجلب البنائين من المسيلة وطبنة وغيرهما •

وهي في سفح جبل تيطري بالجنوب الشرقي من البرواقية وغربي جبل شعبة وشمال قصر البخاري قرب ثلاثاء الدوائر ، وكانت الطرق تخرج منها الى سوق حمزة غربا على طريق شعبة والى متيجة شمالا على طريق لمدية والى تيهرت غربا والى مليانة على شلف شمالا غربيا والى المسيلة جنوبا شرقيا • ويوجد بين برج بوعريريج والمنصورة جبل يدعى ايضا اشير • وبه آثار مدينة عظيمة • وهنالك محطة للقطار تدعى بهذا الاسم • وقد غلط ابو راس • فظن اشير زيري هنالك اذ قال : « وهي الآن خراب غربي ارض بني مقران » اهـ • وارض بني مقران هي سهل مجانة في الشمال الغربي من برج بوعريريج •

ولما أخذ زيري بدعوة بني عبيد اذن له المنصور بن القائم في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات باشير • وطبع بها نقودهم ذهبا وفضة • وعني بها ابناؤه من بعده • فابتنوا خارجها فحوصا • واستبحر عمرانها واتسعت خطتها • فرحل اليها مـــن البـــلاد القاصية التجار والعلماء •

قال ياقوت : « ومن اشير هذه الشيخ الفاضل ابو محمد عبد الله بن محمد الاشيري امام أهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة

وبالشام عامة • استدعاه الوزير عون الدين ابو المظفر يحي بن محمد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد • وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي • فسيره اليه • وقرأ كتاب ابن هبيرة الايضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره • ثم سار من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات في بقاع بعلبك سنة 561 » اهـ •

ولما أسست القلعة أخذت عمارة اشير تتراجع • وخربها يوسف ابن حماد ايام ثورته على ابن أخيه محسن • ثم عمرت حتى جاء الهلاليون • ونزل بنو حصين بسائطها • واعتزوا على الدول وصاروا موئلا لكل ثائر • فنازلتهم جيوش عبد الواد مرارا • ويظهر أن خرابها كان أثناء تلك الفتن • ولم يبق اليوم منها الا رسوم وآثار أسوار •

قال البكري : « واشير جليلة حصينة • يذكر انه ليس في تلك الاقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما • ولا يوصل الى شيء منها بقتال الا من موضع يحميه عشرة رجال • وهو في شرقيها الذي ينفذ الى عين مسعود • وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الاقدام • وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها • وداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر احداهما تعرف بعين سليمان والاخرى بعين تلا تتيرغ • والذي بنى سورها بلقين بن زيري سنة 367 وخربها يوسف بن حماد واستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد اربعين واربعماية ثم تراجع الناس اليها بعد خمس وخمسين » اهـ •

القلعة :

كان حماد بن بلقين بن زيري متوليا حروب زناتة لابن أخيه باديس • وكانت زناتة صعبة المراس وحول باديس منافسون لحماد • فخشي أن يتغير عنه يوما ما باديس او تحيط به زناتة • فارتاد مكانا

يفوق اشير حربيا واقتصاديا يكون له موئلا من زناتة أو باديس • فوقع اختياره على جبل كيانة • فشرع في انشـــاء القلعـــة به سنة 398 (1007م) وتم تمصيرها سنة 400 •

وجبل كيانة كان لعجيسة وهو جنوب برج بوعريريج تتصل به سهول وباعلاه حصن تاقربوست يطل منه على بحيرة الحضنة • ومكان القلعة كان يدعى قلعة ابي طويل • تقرب منه مدينة الغدير على نحو خمسة عشر ميلا في الجهة الشرقية • وكانت الطرق تخرج منها الى سائر الجهات •

وفي سنة 405 احاط حماد بجبل كيانة سورا من الحجارة يقرب ارتفاعه من ذراعين ويمتد حوله على استدارة سبعة أميال • ونقل حماد الى القلعة قبيلة جراوة من أسافل وادي ملوية وأهل المســيلة وحمزة • وشيد بها القصور والفنادق واستكثر من المساجد • فاستبحر عمرانها ورحل اليها أهل البلاد النائية من التجار وارباب الصنائع وأهل العلم • وعني بها ابناء حماد من بعده • فابتنوا حولها القصور وغرسوا الجنات واكثروا من المنتزهات • وجلبوا اليها الماء واجروه بها سواقي وجداول وفرقوا الميــاه بالحارات والدور والمساجد في القنوات علاوة على ما بها من المآجل والصهاريج • وكان لها ابواب منها باب الجنان يخرج منه على جسر الى المسيلة ، وباب جراوة به جسر على وادي الفرج ، وباب الاقواس يفضي الى حارة جراوة •

قال البكري : « وقلعة ابي طويل قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ، وتمصرت عند خراب القيروان انتقل اليها أكثر أهل افريقية ، وهي اليوم مقصـــد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصـــر والشام وسائر بلاد المغرب • وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة • وبها كان احتصن ابو يزيد مخلد بن كيداد » اهـ •

وقال الادريسي : « هي من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا واغزرها خيرا واوسعها اموالا واحسنها قصورا ومساكن واعمها فواكه وخصبا » اهـ .

ولما جاء الهلاليون استولوا على بسائطها ايام الناصر . فاسس فرارا منهم مدينة بجاية . ونقل هو وابناؤه كثيرا من موادها الى بجاية . فأخذت في الضعف وحرق الموحدون مساكنها ثم استولى على الجبل عياض . فخربت قلعة حماد كما خربت اشير جده زيري ولكن بلقين كان اسعد حظا من ابيه وابنه فلم تزل مدنه الثلاث عامرة وهي الجزائر ولمدية وملياني .

بجاية : بكسر الباء وتخفيف الجيم .

بعد واقعة سبيبة سنة 457 استولى العرب على ما حول القلعة ووضعوا ايديهم على طرقها ، فرأى الناصر عاصمته مهددة بخطرهم ، ففكر في انشاء عاصمة بعيدة عنهم ، وندم على منازعته لابن عمه تميم ابن المعز ، فانفذ اليه رسولا يرغبه في الصلح ، فوافق ذلك هوى تميم ، وارسل من طرفه محمد بن البعبع لاحكام الصلح .

مر ابن البعبع في طريقه بابيات قليلة لقوم من صنهاجة يدعون بجاية . ولما بلغ الناصر اختلى به وطعن له في وزيره ابي بكر بن ابي الفتوح وفي ابن عمه تميم ورآه يفكر في أي مكان يؤسس عاصمته الجديدة فدله على مكان بجاية وزينها له بان منها يكون امتلاكه للمهدية ووعده الانتقال اليه والقيام بدولته . ثم عاد الى مرسله تميم فنم عليه ابن ابي الفتوح لتميم بما دار بينه وبين الناصر . فقتله وألحق به عاقبة الغدر .

شرع الناصر سنة 460 (1067م) في تأسيس بجاية على مقربة من مينى صلداي القنيقية . ونقل الناس اليها واسقط الخراج عن

ساكنيها • وانتقل هو اليها سنة 61 وسماها الناصرية • ولكن غلب عليها اسم بجاية • وانما اختار مكانها لكونه في سفح جبل يحفظها من غارات الهلاليين وامامها خليج مامون يسع اسطولا ضخما يهيمن به على البحر ، وسوادها خصب •

قال صاحب الاستبصار : « ليس لبجاية طريق سهلة الا من ناحية الغرب وباقي طرقها شرقا وجنوبا على اوعار فلم يكن للعرب اليها سبيل• وكان لايدخلها منهم الا من يبعث اليه الملك الحمادي لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها • فيدخلونها افذاذا وفرسانا دون عسكر » •

« ولها داران لصناعة المراكب • ومنها تغزى بلاد الروم • ومرساها عظيمة ترسى بها سفن الروم من الشام وغيرها وسفن المسلمين من الاسكندرية طريق مصر واليمن والهند والصين وغيرها » اهـ •

قال الادريسي : « ومدينة بجاية كانت مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد • والسفن اليها مقلعة • وبها القوافل منحطة • والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة • والبضائع بها نافقة • وأهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجانسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء والمشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة • ولها بواد ومزارع • والشعير والحنطة بها كثير • والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد •

وبهادار صناعة لانشاء الاساطيل للقتال ولانشاء السفن الحمالة والمراكب النقالة لان الخشب في أوديتها كثير • ويجلب اليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران • وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة • وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة • وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم » اهـ •

ولم تزل بجاية في اتساع عمارة ورقي حضارة أيام الحماديين ثم الموحدين ثم الحفصيين حتى أخذها الاسبان سنة 915 ، ثم أخرجهم منها الاتراك • فضعفت لتوالي الحوادث عليها • ولولا أهميتها البحرية لكان سبيلها سبيل القلعة •

وكانت بجاية أيام عظمتها عاصمة علمية تدرس بها العلوم العقلية والنقلية على اختلاف فنونها • وقد جمع الغبريني في تراجم أهل القرن السابع فقط كتابه عنوان الدراية • وبها تعلم ليونار فبونتشي الايطالي الرياضي المهندس الشهير • تعلم بها الحساب والجبر والهندسة وفي لروس « انه ولد بمدينة بيزا حوالي سنة 571 (1175م) وقام باعمال رياضية جليلة • وهو اول من طبق عمليات الجبر على الهندسة » اهـ •

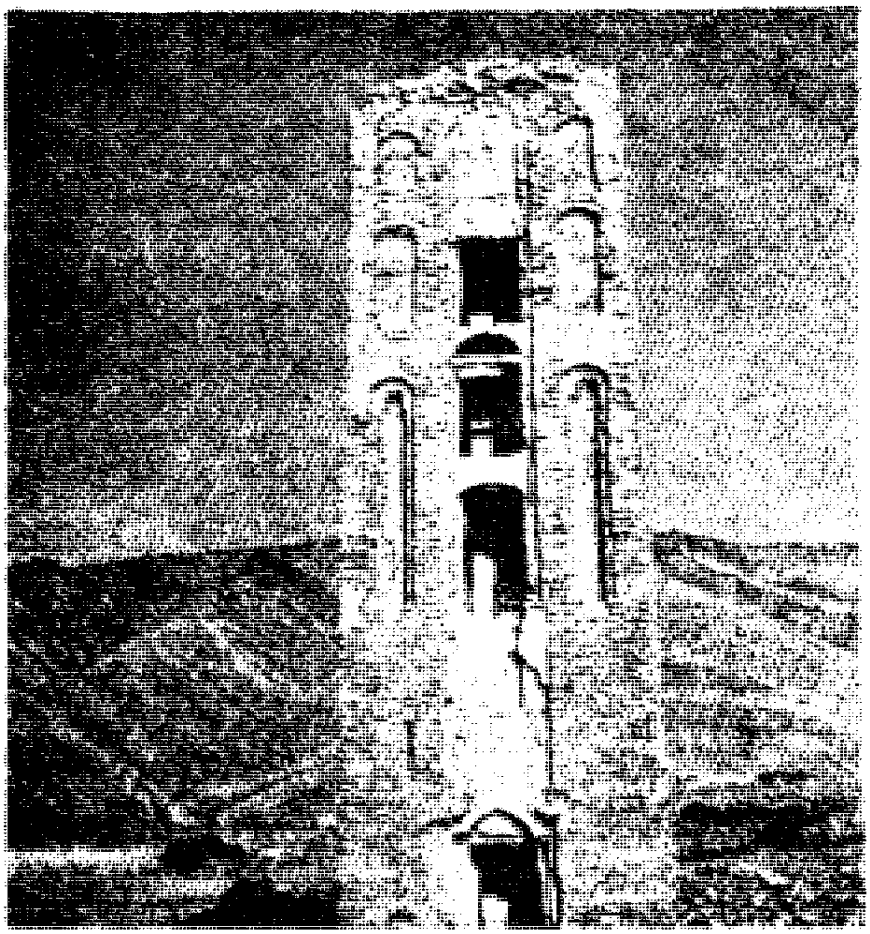

33

الفـن الديني

الاسلامي

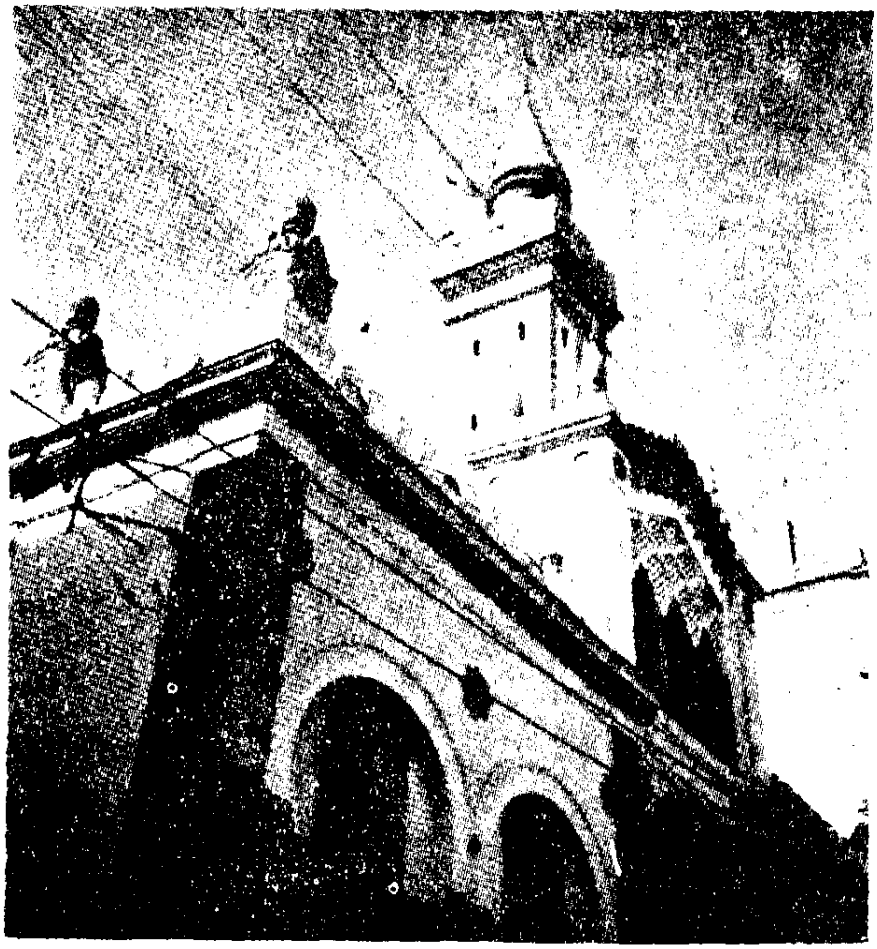

34

الفـن الديني

الاسلامي

الباب الثالث

في دولة المرابطين

ا ـ تمهيـــد

انتقل بنو عبيد من المهدية الى القاهرة ولم يستطيعوا توحيـد المغرب تحت ادارتهم ، فكانت فتن بين صنهاجة العبيدية وزناتة الاموية لم تنتج اكثر من تاخر زناتة الى المغرب الاقصى وتأسيسهم فيـه دويلات مغراوية ويفرنية عاشت قرنا واقواها دولة بني زيري بن عطية بفاس ، قال ابن ابي زرع :

« وفي أيامهم عظم شأن فاس وحصنت ابوابها وزيد في جامعي القرويين والاندلس زيادة كبيرة واتسـع الناس في البنـاء وكثرت الخيرات واتسع الامن والرخاء الى أن ظهر المرابطون وقد ضعفت أحوال مغراوة ونقص ملكهم وجاروا على رعيتهم ، فاخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحرمهم ، فانقطعت عنهـم الموارد وكثر الخوف في البلاد وغلت الاسعار ، وعدمت الاقوات في فاس واعمالها ايام الفتوح بن ذو ناس ومن بعده حتى بيعت اوقية الدقيق بدرهم » اهـ • باختصـار •

ولم تكن حال الاندلس أحسن من حال المغرب الزناتي • فـان البربر الذين استوطنوها ايـام بني اميـة أصبحوا يعملون للفوضى ورؤساء العرب اقتسموا ولايتها وتخاذلوا امام اعدائهم المسيحيين • فقويت شوكة الاسبان وشجعوا لابتلاع الاندلس •

أثناء هذه الظروف الحرجة ظهرت بالصحراء دولـة المرابطـين وانتشرت انباء عدلها ورفقها بالرعية • فكاتبهم علماء المغرب يستحثونهم لانقاذه من عسف زناتة • ثم راسلهم عقلاء الاندلس لصـد غارات

الاسبان عنهم • فخرجوا مـن صحرائهم تلبيـة لصوت الواجب • واستولوا عـلى سجلماسة سنة 447 وعـلى اغمات وتادلا سنة 49 وعلى فاس سنة 62 ثم أجازوا الى الاندلس وكفوا عادية الاسبان عنها وجمعوا شملها بالقضاء على ملوك الطوائف •

أصبحت مملكة المرابطين تشمل الصحراء الـى حدود السودان والمغرب الزناتي والاندلس من شـرقها الى غربها • وكانت مدريـد ولشبونة عاصمتا الاسبان والبرتغال اليوم من مدنهم البسيطة •

وفي سنة 454 أسس المرابطون عاصمة دولتهم مدينة مراكش على مقربة من وطنهم الصحراوي وفي سفح جبال درن وطـن منافسيهم المصامدة • واتسعت خطتها باتساع المملكة وعظم عمرانها ، فلم تزل عاصمتهم حتى انقضى أمرهم •

2 ـ المرابطـون

كان من صنهاجة اللثامية ملوك كبار بالصحراء • منهم الامير يحي بن ابراهيم القدالي : ذهب حاجا سنة 427 ولما عاد من نسـكه اجتمع في القيروان بابي عمران الفاسي المالكي • وعرفه بجهل قومه ورغب منه ان يوجه معه بعض تلاميذه لبث حقائق الدين بوطنه • فكتب له ابو عمران رسالة الى تلميذه وقاق بن زلو اللمطي السوسي ليرسل بعض تلاميذه مع الامير يحي • وكان الشيخ وقاق بمدينة نفيس من أرض المصامدة يدرس العلم في رابطة له •

بلغ الامير يحي نفيس سنة 430 وسلم الرسـالة للشيخ وقاق • فعرضها على تلاميذه فانتدب منهم لصحبة الامير يحي عبد الله بن يس الجزولي • وكان من حذاق الطلبة دينا فاضلا تقيا ورعا فقيها أديبا مشاركا ذا نباهة وسياسة •

رجع الامير يحي الى قومه بعبد الله بن يس • فأخذ يعلمهم الدين ويأمرهم بالمعروف ويناهم عن المنكر • فثقل عليهم أمره • فهجروه • واعرضوا عن ارشاده • فعزم عبد الله على الذهاب الى السودان • ولكن الامير يحي نبذ امارته وتمسك به واشار عليه بالانعزال في ربوة يحيط بها وادي النيل • فقبل اشارته وذهب هو والامير يحي وسبعة من قدالة الى تلك الربوة • فبنوا بها رابطة للعبادة واخذ الناس يلتحقون بهم حتى اجتمع بها من اشراف صنهاجة نحو ألف رجل ففقههم عبد الله في دينهم • وسماهم المرابطين للزومهم رابطته • ثم أمرهم بالذهاب الى قومهم لانذارهم ففعلوا • ولكن لم يجدوا أذنا صاغية وقلبا رقيقا •

وفي صفر سنة 434 رفع المرابطون سلاحهم على كل مسلم لم يمتثل أوامر دينه • فحاربوا قدالة ثم لمتونة ثم مسوفة • فاستقاموا على نهج الكتاب والسنة • وتوفي الامير يحي بن ابراهيم القدالي • فخلفه الامير يحي بن عمر بن ابراهيم اللمتوني ثم أخوه أبو بكر ثم ابن عمهما امير المسلمين يوسف بن تاشفين بن ابراهيم • وهكذا تأسست دولة المرابطين •

وتوفي عبد الله بن يس شهيدا في قتال برغواطة يوم الاحد الرابع والعشرين لجمادى الاولى سنة 451 ودفن هناك • وبني عليه مسجد • وكان متحريا لاكل الحلال • وله فتاوي شاذة ونوادر تدل على شدته في الحق وحسن اعتقاد المرابطين فيه وقوة انقيادهم له • واوصاهم عند احتضاره بالاتحاد والتعاون على الحق ونبذ الخلاف والتحاسد على الرئاسة •

3 ـ المرابطون بتلمسان

في سنة 472 بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو تلمسان ،

في عشرين الفا من المرابطين • فعاث في نواحيها • ثم عاد الى أميره يوسف بمراكش •

وفي سنة 74 نهض يوسف نفسه اليها • وعسكر اليها • وأسس بمعسكره مدينة سماها تاقرارت • ومعناها المحلة • وقد أصبحت من بعد مع تلمسان مدينة واحدة واتخذها المرابطون عاصمة مملكتهم بالوطن الجزائري • وانزلوا الجند بتاقرارت •

فتح يوسف في نهضته هذه تلمسان من ايدي بني يعلي الخزريين ثم وهران وتنس ووانشريس واعمال شلف • وبلغ مدينة الجزائر • ثم قفل الى مراكش • فدخلها في ربيع الاخير سنة 75 •

ولي أمارة تلمسان محمد بن تينعمر المسوفي • واجلب على مملكة بني حماد الغربية • ومات محاصرا للجزائر • فخلفه أخوه تاشفين وحارب الحماديين • ثم صالحهم يوسف بن تاشفين • وعزل تاشفين بن تينعمر بالقائد مزدلي اللمتوني • فلم يزل بها الى أن نقله أمير المسلمين علي بن يوسف الى قرطبة ، وبها توفي سنة 508 •

عادت امارة تلمسان بعد مزدلي الى مسوفة ، وكان منهم بها لاول ظهور الموحدين يحي بن اسحق الملقب انكمار ، ووقعت فتنة بين مسوفة ولمتونة ، فلحق انكمار وكثير من رجال مسوفة بعبد المؤمن بن علي قبل دخوله المغرب الاوسط ، فعادت ولاية تلمسان الى لمتونة ووليها منهم محمد بن يحي ابن فانو •

ولما فتح عبد المؤمن حصون ملوية بعث سريتين احداهما ذهبت مع الساحل الى وهران بقيادة ابن زقو ، فقتل القائد ، ولم تفتح وهران ، والثانية قصدت مديونة وخرج اليها ابن فانو في جنود لمتونة وزناتة ، فانخذلت زناتة ، وانهزمت لمتونة وقتل ابن فانو ، فولي بعده ابو بكر بن مزدلي وعليه انقرضت دولة المرابطين من الجزائر •

4 ـ حكومـة المرابطين

الدولة المرابطية مستقلة استقلالا تاما • ولكن حكومتها وهي أقوى نفوذا من خلفاء بني العباس كانت تعترف بسيادتهم • فتذكر اسماءهم في سكتها وخطبها • واستفادت من ذلك قوة أدبية لان الناس يومئذ لا يسلمون دعوى الخلافة لغير العرب •

والحكومة المرابطية مقيـدة بالكتاب والسنة لا يمضي أمراؤها وعمالها أمرا الا باستشارة شيوخ الدين وموافقتهم ، ومنذ استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس تلقب بأمير المسلمين ، وجرى على ذلك خلفه ، ولم يتلقبوا بأمير المؤمنين لانه شعار الخلافة التي سلموها لبني العباس ، وللامير وزراء في حضرته وعمال على الجهات وقضاة بعاصمته وغيرها •

والقضاء مستقل عن الادارة كل الاستقلال ، وكان على مذهب مالك لان المرابطين ما عرفوا الدين الا على يد عبد الله بن يس المالكي ثم ملكوا الاندلس أهم ممالكهم وأهلها أيضا مالكيون ولـم تكن المالكية يومئذ عبارة عن جمود محض ووقوف عند أقوال الكاتبين في المذهب • بل هي اتباع لمالك عن بينة وبصيرة وخبرة بكتاب الله وسنة رسوله واقضية السلف •

وكانت عناية الحكومة بحفظ الاندلس من هجمات المسيحيين • ولم تشغل نفسها بمحاربة جيرانها من الدول الاسلامية بل سـالمتهم واحسنت جوارهم • فاتخذت للجهاد وحماية البلاد جيشا من لمتونة ومسوفة وغيرهم من الملثمين • وقد وصفهم البكري وهم في صحرائهم بقـوله :

« ولهم في القتال شدة وجلد ليسا لغيرهم • يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف • يقاتلون على الخيل والنجب •

وأكثر قتالهم رجالة صفوفا ، بايدي الصف الاول القنا الطوال للمداعسة والطعان • وما يليه من الصفوف بايدهم المزاريق • يحمل الواحد منهم عدة • يزرقها فلا يكاد يخطيء ولا يشوي • ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية • فهم يقفون ما وقفت منتصبة • وان أمالها الى الارض جلسوا جميعا فكانوا أثبت من الهضاب » اهـ •

وفي سنة 64 عزز يوسف جيشه باشتراء جملة من العبيد السوداني • بلغوا نحو الفين فاركبهم فرسانا وبعث الى الاندلس في شراء العلوج فانتهى عنده منهم خمسون ومائتا فارس ، ثم استعمل ابنه علي جيشا من الروم واركبهم وقدمهم على جباية المغارم • قال صاحب الحلل الموشية : « وعلي بن يوسف اول من استعمل الروم بالمغرب » اهـ •

وكانت مالية الدولة تجمع من الجبايات الشرعية زكاة وجزية واخماس غنائم قال ابن ابي زرع : « ولم يجر في عمل المرابطين طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة » اهـ • وقال ايضا : « جبى يوسف بن تاشفين من المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله • فيقال انهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف واربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة » اهـ •

وهذا شاهد بثروة الامة واقتصاد الامراء ، وقد اتفقت كلمة المؤرخين على وصف حكومة المرابطين بالعدل واقامة الامن ، قال ابن ابي زرع :

« وكانت أيامهم ايام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، بيع القمح ايامهم اربعة اوسق بنصف مثقال ، والشمار ثمانية اوسق بنصف مثقال ، والقطاني لا تباع ولا تشترى ، كان ذلك مصطحبا

بطول أيامهم ، وكثرت الخيرات ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة بهم ، ولم يكن قطـاع ولا مـن يقوم عليهم الى ان خـرج عليهم مهدي الموحدين سنة 515 » اهـ .

وكان أمراء المرابطين يطبعون السـكة باسمهم ، وبعـد واقعة الزلاقة جدد يوسف بن تاشفين السكة ، قال ابن ابي زرع :

« ونقش في دينارة لا اله الا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب في الدائرة ومن يتبع غـير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، وكتب في الصفحة الاخرى الامير عبد الله العباسي ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته » اهـ .

5 ـ امـراء المرابطـين

تغلب أبو بكر بن عمر اللمتوني بجيوش المرابطين على اغمات ، وقتل أميرها لقـوط المغراوي . وتزوج زوجـه زينب بنت اسحق الهوارية ، أصلها من القيروان وكان أبوها تاجرا . وكانت هي امرأة حازمة لبيبه ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالامور حتى كانت تلقب السـاحرة .

وفي ذي القعدة سنة 453 عاد ابو بكر الى وطنه لاصلاح حال قومه . ففارق زينب شفقة عليها من حر الصحراء وأوصاها أن تتزوج ابن عمه يوسف بن تاشفين خليفته على المغرب . فتزوجها يوسف . واعانته بسياستها على فتح أكثر البلاد . وتوفيت سنة 464 ثم سـلم أبو بكر الامر ليوسف فاستقل بامارة المرابطين سنة 65 .

وفي سنة 67 رأى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وأعظم ملوك

الطوائف استدعاء يوسف الى الاندلس برسم الجهاد • فلامه بقية ملوك الاندلس وحذروه عاقبة مجيئه • ولكنه كان يتحقق عجزهم عن مدافعة الافـرنج والجلالقة (الصبنيول) فأجابهم بكلمته الخالدة : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » • وقبله قال صفوان بن امية يوم حنين : « لان يربني رجل من قريش خير من ان يربني رجل من هوازن » • وما زال ابن عباد بابن تاشفين حتى لبى دعوته سـنة 79 وكانت وقعة الزلاقة المشهورة • ثم كانت بعدها نكبته لابن عباد وسجنه باغمات حتى مات

وكان يوسف جاهلا بالعربية لا يكلم الا بترجمان ، سخيا شجاعا سياسيا حازما عادلا زاهدا لباسه الصوف وأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها وكان أسمر نحيفا معتدل القامة أكحل العينين أقنى الانف مقرون الحاجبين جعد الشعر له وفرة الى شحمة أذنيه وعاش ماية سنة • ولد بالصحراء سنة 400 وتوفي بمراكش غرة محرم سنة 500 •

وخلفه ابنه علي • وله أخوة بعضهم أكبر منه • فسلموا له الامر لان أباهم عهد به اليه سنة 96 وسار بسيرة أبيه في جميع أموره • وكان بالزهاد والعباد أشبه منه بالامراء • ومن هنات أبيه حبسه لابن عباد وقسوته عليه ، ومن هناته هو حرقه لكتاب الاحياء للغزالي لما أفتى له العلماء بذلك • وقد كان عليه أن يكلفهم بنقضه والرد عليه •

وأم علي رومية • فكان ابيض مشربا بحمرة تام القد اسـيل الوجه أفلج اقني اكحل العينين سبط الشـعر • ولد بسبتة سنة 477 وتوفي سنة 537 •

وخلفه ابنه تاشفين • وكان واليا بالاندلس • ولـه في الجهاد هنالك مقامات محمودة • ثم ظهر الموحدون فاستدعاه ابوه سنة 32 ثم عهد اليه بالامر بعده • وقضى جميع مدته في محاربة الموحدين حتى

انتهى الى وهران • فتردى في ليلة مظلمة • وألفي صباحا بجانب البحر ميتا • فاحتز رأسه وحمل الى تينملل • فعلق على شجرة وكان ترديه ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة 39 •

وكان تاشفين قد عهد الى ابنه ابراهيم • فلما بلغ نعيه مراكش وبويع ابراهيم نازعه عمه اسحق بن علي • وكانا صغيرين غير شاعرين بحراجة الحال • فاستمر الخلاف بينهما الى أن دخل الموحدون مراكش في شوال سنة 541 فقتلوهما وغيرهما من المرابطين • وكان الحادث جللا •

6 ــ سقوط دولة المرابطين

ظهر أيام علي بن يوسف بجبال المصامدة محمد بن تومرت • وأعلن حربه على المرابطين • ثم توفي • فخلعه عبد المؤمن بن علي • واستولى على جهات من المغرب الاقصى قوي بها جمعه •

وفي سنة 534 خرج عبد المؤمن من تينملل عازما على استئصال دولة المرابطين وسلك طريق الجبال المانعة حيث الارزاق الواسعة • لا يخشى فيها مكروها ولا يعدم حطبا ولا ماء • وخرج تاشفين بن علي من مراكش محاذيا له في البسائط معرضا لكل خطر من هجوم وبرد ووحل وغير ذلك • يسير بسير عبد المؤمن ويقف بوقوفه ويدافع هجومه • فسئم الناس من خطته وأخذوا يتسللون لعبد المؤمن حيث لا يعدمون مرافق الحياة ، وتنازعت مسوفة مع لمتونة • فانضم كثير من قوادها وعظمائها الى عبد المؤمن •

تقدم عبد المؤمن نحو المشرق بعد وفاة علي بن يوسف وبث السرايا في عمل تلمسان • فخضعت له مديونة ، ونزع اليه بنو ومانو ،

فوفد منهم عليه وهو بالريف زيري بن ماخوخ ، وقلة بنو مكود في عودة ، ثم وفد عليه أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من امرائهم ، فسرح معهم عسكرا مع يوسف ابن وانو دين وابن يغمور فاثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، فاستصرخوا تاشفين بن علي ، فأمدهم بالعساكر معها الربرتير قائد الروم ، ونزلوا منداس ، واجتمع اليهم بنو ورسيفان وبنو توجين وبنو ينكاسن من مرين ، فكانت لهم الكرة ، واستنقذوا أموالهم ، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه ، وتحصن الموحدون وفل ومانو بجبل سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريخا فارتحل معه الى تلمسان ، ثم سيرات ، واوقع بجنود لمتونة وزناتة .

سبق تاشفين بن علي عبد المؤمن الى تلمسان ، فضبطها وعسكر بسطفسيف وهو نهر يمر بتلمسان به غلات أهلها ، ونزل عبد المؤمن بمديونة ، وأغارت سراياه على بني يستيتن وبني سنوس وبني وردروسن وبني ستلتن ، وبعث تاشفين بن علي قائده الربرتير لاعتراض غنائم السرايا . فقتل ولم ينج من عسكره الا ثلاثة من الروم وثلاثة من بني وانار وذلك عام 39 ثم نزل عبد المؤمن بين الصخرتين وهو جبل مطل على تلمسان من قبليها . فبنى به لجنوده حصنا . وأقام يقاتل تاشفين من هناك مدة شهرين .

بعث تاشفين الى الجهات مستمدا فوافته العساكر من الجهات منها عسكر بجاية . فاوقع بهم الموحدون وفرقوهم شذر مذر . واعترض تاشفين بن ماخوخ فل بجاية في قفولهم فنال منهم أعظم النيل . ولم يبق لتاشفين بن علي أمل في الانتصار فغادر تلمسان في شعبان الى وهران . وارسل الى قائد اسطوله بالاندلس محمد بن ميمون . فأتاه بعشرة أساطيل . وارسى قريبا من معسكره .

ترك عبد المؤمن جيشا لحصار تلمسان • وخرج اثر تاشفين وامامه ابو حفص عمر بن يحيى في ثمانين ساقة من الموحدين وبني ومانو • وقصد بلاد بني يلومي وغـيرهم • فكانت بينهم معـركة منداس • انتهت بخضوع زناتة • فلحق ابو حفص بوهران ونزل ازاء معسـكر المرابطين •

ووصف صاحب الحلل الموشية معركة منداس هذه بما ملخصه :

« قال ابن اليسع حدثني غير واحد من الموحدين قالوا لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زناتة اتبعنا المرابطون • فنزلنا بسيطا • وأدرنا به أربعة صفوف من الرجال بيد الصف الاول القنا الطوال • وبيد الثاني وهو خلف الاول الحراب والدروق • وبيد الثالث مخالي الحجارة • والصف الرابع من الرماة • والخيل وسط الدائرة • قد ترك لها فرج بالصفوف للكر والفر • فاذا هجمت خيل المرابطين رماها الصفوف بسلاحهم • واذا أدبرت خرج أثرها خيل الموحدين فتصيب منهم فاذا كر عليها المرابطون رجعت الى دائرتها • وعرف هذا اليوم بيوم منداس • فقد فيه من جيوش المرابطين ما لا يحصى • وظهر فيه أمر عبد المؤمن وكثر جمعه » اهـ •

ولما انتقلت الحرب الى وهـران فشل كثير مـن قواد المرابطين فتفرقوا • ورأى تاشفين بن علي أنه أحيط به • وكان قد بنى حصنا على شاطىء البحر • فترك بوهران خيامه وجنوده • وصار الى الحصن ليقترب من أسطوله فينجو فيـه الى الاندلس عسى أن يحفظ هناك دولته من السقوط كما فعل قبـله بنـو أمية • ولكن الموحدين لم لم يمهلوه • فحالوا بينه وبين أساطيله واحدقوا بالحصن وأضرموا حوله النيران كي لا يخفى عليهم شأنه • وفي ليـلة السابع والعشرين من رمضان ــ وكانت ممطرة مظلمة ــ خرج كي يضرب في جيش الموحدين

ويوجد الفرصة لخرق الحصار واللحاق باسطوله • فتردى به فرسه وهلك • ففر كثير من المرابطين الى تلمسان وغيرها • واستعد بعضهم للحصار بوهران ، فجهدهم العطش • ونزلوا يوم عيد الفطر على حكم عبد المؤمن ، فحكم بقتلهم ، لم ينج منهم الا واحد •

وبعد فتح وهران توجه عبد المؤمن نحو تلمسان ، فدخل اقادير ، وعفا عن أهلها ودخل تاقرارت حيث المرابطون عنوة ، فقتل رجالها وغنم أموالها • وذكر ابن اليسع ان عدد القتلى بها بلغ مائة الف أو أزيد ، وبعد سبعة أشهر من فتح تلمسان عاد عبد المؤمن الى المغرب الاقصى • فقطع منه دعوة المرابطين بفتحه مراكش سنة 41 •

وهكذا انتصر عبد المؤمن بما مهد له ابن تومرت قبل من نشر رسائل الطعن في المرابطين حتى سقطت هيبتهم ثم باحكامه خطته الحربية حيث سار بالجبال الكفيلة بحاجيات الجيش الممتنعة على العدو• وملك بذلك زمام الحرب • فصار يقاتل متى أراد القتال ويستريح متى شاء • وطاول المرابطين في هذه الحرب سبع سنوات حتى سئم جيشهم وقلق الناس مما يكون عادة لازما للحرب من اشتداد الازمات وارتفاع الاسعار •

ولقد كانت دولة المرابطين يومئذ في منتهى عظمتها وريعان شبابها • فما كانت لتسقط بهذه السرعة لولا قوة العلة التي نزلت بها وكان عنصرا علتها ابن تومرت وعبد المؤمن • وما من حركة يكون عنصراها مثل هذين الرجلين الا كان الفوز حليفها • ولكي تطمئن النفس الى سقوط هذه الدولة من غير تدريج نلخص عللها فيما يلي :

1 — دهاء ابن تومرت السياسي البارع في طرق نشر الدعوة واسقاط هيبة الحكومة المرابطية •

2 — احكام عبد المؤمن لخطته الحربية جغرافيا وسياسيا •

3 — قدم العداوة بين المصامدة والملثمين •

4 — طبيعة البربر التي تمثل الكلمة الشائعة : « لكل جديد لذة » • فنصر من نصر منهم الموحدين لا لسخط على المرابطين ومن نصر من زناتة المرابطين فانما نصروهم منافسة ومخالفة لمن كانوا مع الموحدين منهم •

5 — حدوث غلاء مقلق •

6 — اضطراب البلدان لخلوها من الحامية •

7 — اضطراب مركز القيادة العامة وتناقض أوامرها تكتب بالامر وتعقبه بضده •

8 — موت علي بن يوسف على حين شباب الفتنة •

9 — اسلام مسوفة للمتونة في وقت الحاجة والضرورة •

10— اضطرار أمير المسلمين تاشفين لقيادة الجيوش بنفسه وتعرضه للتلف •

11— تنازع ابراهيم وعمه اسحق على الامر بعد هلاك تاشفين وكلاهما صغير مضعف • ففقد المرابطون بتاشفين أميرا قويا على جمع الكلمة •

12— تفريط المتنازعين في تحصين عاصمتهم مراكش وشحنها بالاقوات • فبعد قليل من حصار الموحدين لها اضطر أهلها الى أكل الجيف والدواب • وكان معهم جيش من الروم لم يصبروا على هذه الازمة • ففتحوا للموحدين أحد أبواب المدينة • وكأنما فتحوا للمرابطين ودولتهم قبورهم •

وهكذا تفقد الامم استقلالها متى فقدت من بنيها كفؤا لجمع كلمتها ووجد من بينها خونة لا يهمهم مستقبلها ولا ينظرون لأبعد من خيال مصلحتهم الخاصة •

وكان تأسيس دولة المرابطين بالصحراء على يد عبد الله بن يس سنة 434 وثبتت قدمها بالمغرب بتأسيس مراكش سنة 454 واستقر أمرها بالجزائر منذ تأسيس تاقرارت (تلمسان الجديدة) سنة 474 •

وانتهت في الجزائر بموت تاشفين سنة 539 وبالمغرب بفتح مراكش سنة 41 ولم يحفظوا دولتهم بالصحراء لتفرق عشائرهم في الممالك الشمالية بالمغرب والاندلس • وكانت مدتهم بالجزائر خمسا وستين سنة • وكل جديد فالى بلى •

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكموا يصير الى ذهاب

نقود المرابطين

12 — نقود يوسف بن تاشفين

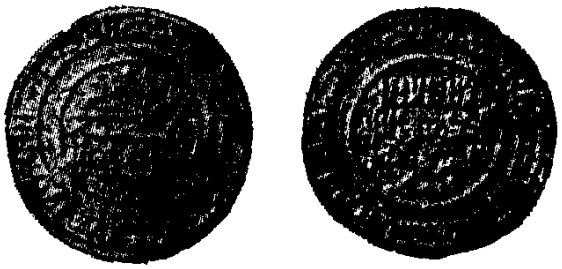

ضرب هذا الدينار بسجلماسة سنة 480

13 — نقود علي بن يوسف بن تاشفين

ضرب هذا الدينار بتلمسان سنة 534

14 — نقود تاشفين بن علي

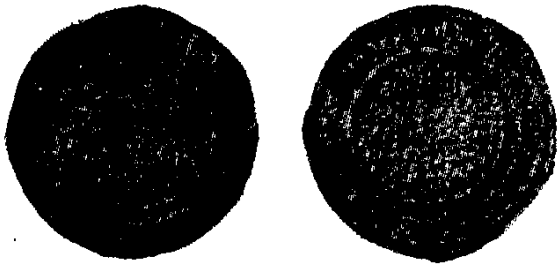

ضرب هذا الدينار بمراكش سنة 538

15 — نقود اسحق بن علي

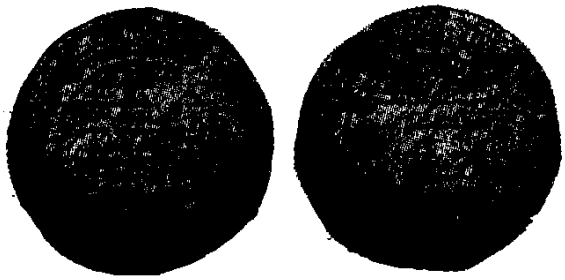

ضرب هذا الدينار بقرطبة سنة 541

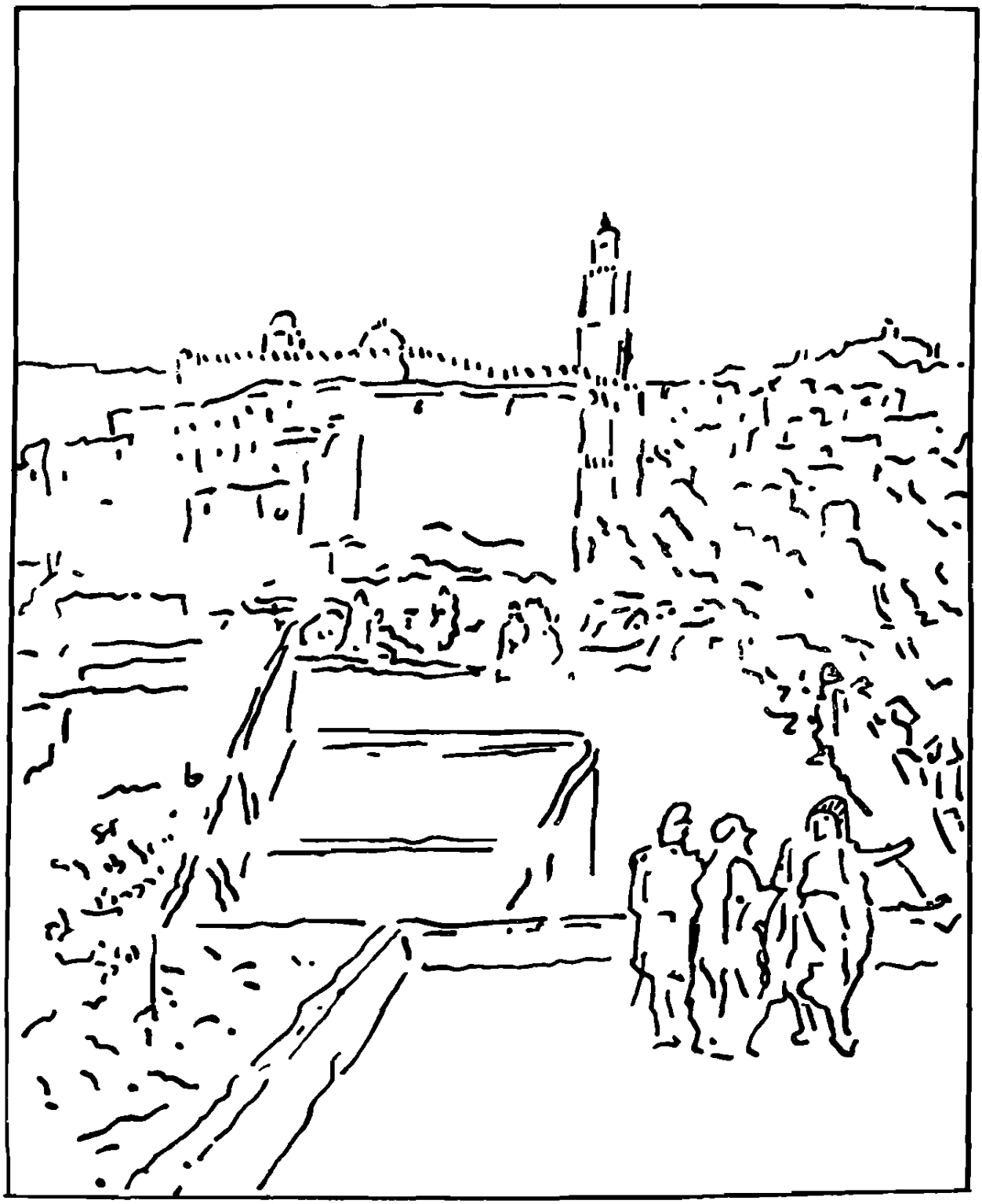

(ش36) منظر عام لجامع سيدي ابو مروان

الرسام بربروغر

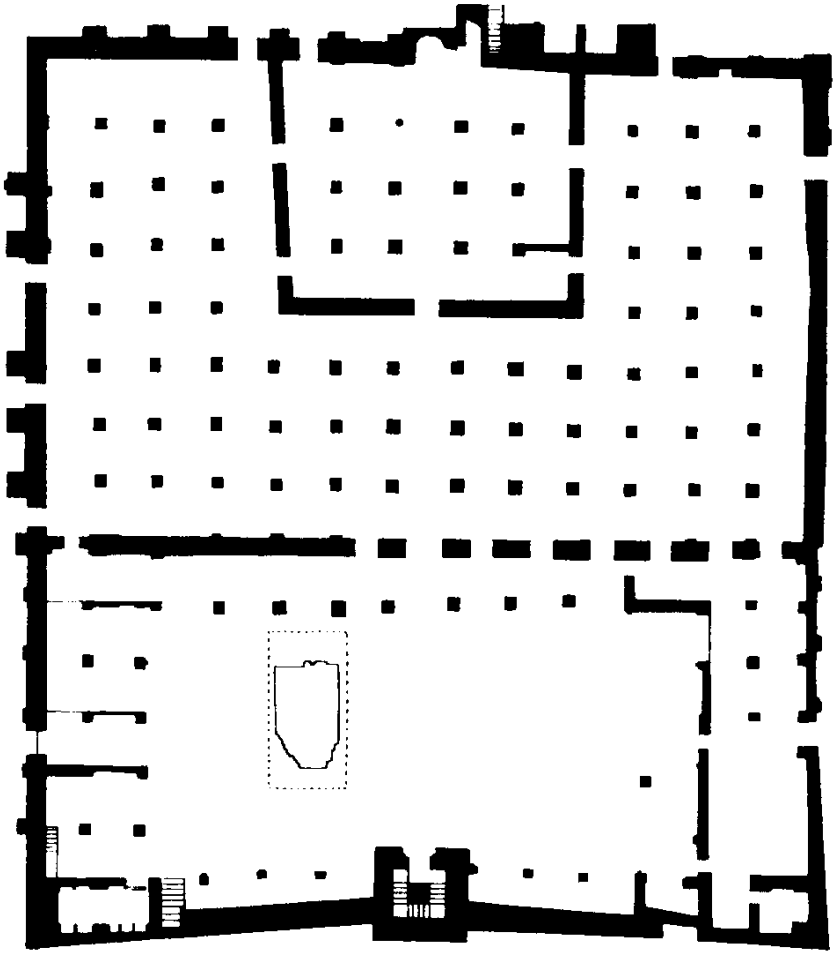

(ش37) مخطط جامع قلعة بني حماد

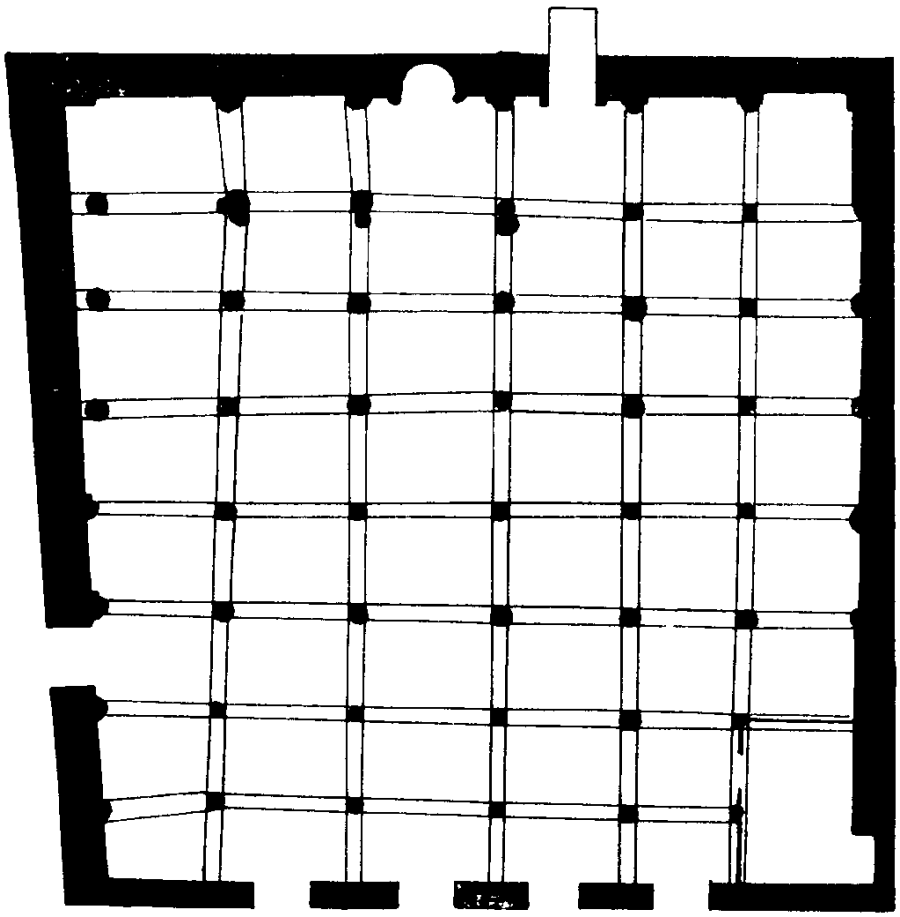

(ش38) مخطط غرفة الصلاة للجامع الكبير في قسنطينة

شكل 39 - فناء جامع سيدى ابو مروان الرسام لوسور ووايلد

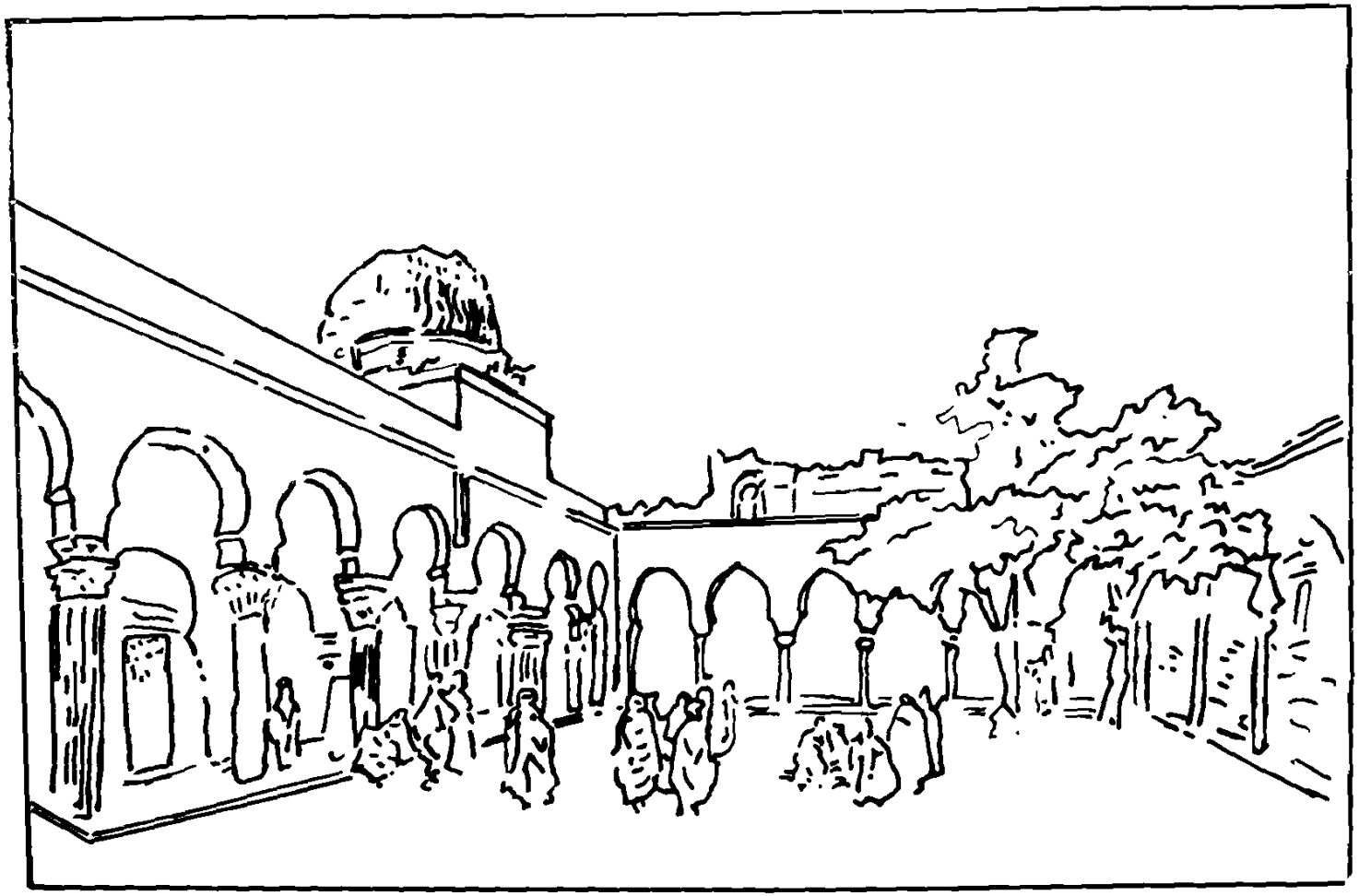

(ش40) فناء جامع سيدي أبو مروان الرسام بربروغر

الباب الرابع

في الدولة الموحدية المومنية

ا ــ تمهيـــد :

كانت الخلافة الاسلامية بالقرن الخامس لبني العباس ببغـــداد وبني عبيد بمصر • وكـــان خلفاء الاسرتين معا مستضعفين وقوادهم وامراؤهم عليهم مستبدين •

وكان مغرب آل زيري تعبث ببواديه العرب وتغير على سواحله سفائن النرمان ، ومغرب الملثمين في دعة وهناء لا يخشى عليه أدنى خطر داخلي أو خارجي •

وفي أواخر هذا القرن ولد بهرغة من جبال درن محمد بن عبد الله تومرت • ونشأ فقيرا طالبا للعلم • فأخذ بعض المبادىء بوطنه وارتحل سنة 500 الى الاندلس فدخل قرطبة • ثم ارتحل الى المهدية • وأخذ عن المازري ثم انتقل الى الاسكندرية ثم بغداد ، ولازم الغزالي ثلاث سنوات ، ولقي غيره من جـــلة العلماء وفحول النظار فاستفاد علوما جمة ، ومهر في الحديث والاصول والجدل ، وأخذ بعقائد الاشعري واضاف اليها من عقائد الشيعة الامامية القول بالامام المعصوم •

درس ابن تومرت في رحلته هذه حالة المسلمين السياسية فعرف ضعفها ولا سيما بالمشرق ، ورأى ان الخلافة الاسلامية في خطر فحدثته نفسه ــ وكان بعيد الهمة ــ بانشاء خلافة بالمغرب تجمع شمل أهله على الاقل • وبهذه النية توجه نحو وطنه •

في غرة ربيع الاول سنة 510 قفل الى المغرب وعرج في قفوله

على العواصم العلمية والسياسية كمصر وطرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش ، وحيثما حل درس العلم وأمر بالمعروف وغير المنكر بيده ، فعرض نفسه مرارا للخطر ، ولكنه كان يحسن الخلاص ، وبهت العلماء من فصاحته ودهش الامراء من جراءته ومال اليه العامة لديانته ، فما غادر مدينة الا وترك بها سمعة واسعة وانصارا عديدين .

نزل بقسنطينة على الفقيه عبد الرحمن الميلي وغيره وببجاية في مسجد الريحانة ، وأمه ابراهيم بن محمد الميلي وغيره من الفقهاء ، ثم خشي سطوة العزيز بن المنصور ، فخرج الى ملالة ضيعة لبني ورياغل على فرسخ من بجاية ، فأقام بها مدة ، وهنالك جمعه القدر بعبد المؤمن بن علي الكومي ، فأعجب بذكائه ، واعجب عبد المؤمن بعلمه فصحبه وخرجا فيمن معهما الى متيجة فوانشريس فتلمسان ، وبلغوا هرغة سنة 514 .

وصحب ابن تومرت من تونس ابو بكر بن علي الصنهاجي المدعو بالبيذق وكتب في كتابه أخبار المهدي عن طريقه من تونس الى هرغة نحو عشرين صفحة ، فصل فيها أخباره وحوادثه .

وكان ابن تومرت يعرف في طريقه بالفقيه السوسي وأخذ يشيع أنه الامام المهدي المنتظر ، فصار يعرف بالامام المعصوم . حتى اذا بايعه المصامدة دعي المهدي .

استهوى ابن تومرت المصامدة بمكايده وسحرهم بعذوبة لفظه فقد كان فصيحا في العربية والبربرية حتى صاروا يستغيثون به في شدائدهم ويتبركون بذكره على موائدهم ، قال ابن قنفذ في الفارسية ما ملخصه :

« داره بجبل هنتاتة يتبرك الآن بالدخول اليها ، ودخلتها انا لهذا الوجه سنة 763 وأماكـن جلوسه بالجبل معلومة لا يمـر بها راكب الا نزل » اهـ •

فصل ابن تومرت علمه وعمله بمقدار غايته السياسية فاختـار عقيدة الاشعري وهي خلاف عقائد أهل المغرب يومئذ ، ليجد سبيلا الى الطعن في عقائدهم ، وأشهر ذكره بانتحاله تغيير المنكر في طريقه • وانتسب في آل البيت واعتقد عصمة الامام ليمهد لدعواه انه المهدي المنتظر • وتظاهر بالزهد والصلاح كي تقبل العامة مكائده وحيله باسم الكرامات •

درس ابن تومرت بمصموده وألف ونشر الدعاة لبيعته فبويع في رمضان سنة 515 تحت شجرة خرنوب بعدما خطب في الناس وذكر المهدي وانه يظهر من المغرب الاقصى وان نسبه كنسبه واسمه كاسمه وفعله كفعله وعرف الناس بما يكون عليهم في القيام بدعوته من الارزاء والمحن • فالتزموا ذلك • وسماهم الموحدين وكفر المرابطين ولقبهم المجسمين وحاربهم بسيفه وقلمه ، حتى توفي على ما حققه ابن أبي زرع وغيره فيما رمضان سنة 24 وكانت ولادته سنة 471 وقيل 84 وقيل 86 وقيل 91 ولم يترك خلفا لانه لم يتزوج وله تآليف لطيفة جمع بعضها وطبع بالجزائر سنة 1321 هـ وجمع البيدق بعض رسائله طبعت مع كتابه أخبار المهدي • واستيعاب أخبار ابن تومرت ودرسها بصفة فنية يستدعي تآليف مستقلة • فانه قد احدث انقلابا عاما بالمغرب في السياسة والعلم والدين ولم يكن كسائر الانقلابات البربرية الناشئة من أسباب قومية ومنافسات بين القبائل القوية • ولا نتيجة لهـا غير سقوط دولة وقيام أخرى •

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين من حيث ابتناؤهما على دعوة

دينية • ولكن الفرق بينهما كالفرق بين مؤسيسهما عبد الله بن ويس وابن تومرت فلم يكن عبد الله بن ويس في علم ابن تومرت ولا دهائه ولكن كان أطهر منه عقيدة وأصفى سريرة • ولم تكن دولة المرابطين في قوة دولة الموحدين ولا حسن ادارتها ولا اتساع معارفها ولكن كانت أعف عن الدماء وارفق بالرعية •

2 ــ تأسيس الدولة الموحدية المؤمنية

ابن تومرت هو مؤسس هذه الدولة وكان يؤثر من اتباعه عشرة ويقرب من بينهم عبد المؤمن بن علي الكومي • فلما توفي قدم العشرة من بينهم ابا علي عمر الصنهاجي • وبعد أيام سلمها لعبد المؤمن قائلا أنه الذي أشار به المهدي • فبايعوه سرا • وكتموا موت المهدي عن العامة وموهوا عليهم بانه مريض وصار عبد المؤمن يتقدم اليهم بالاوامر على لسان المهدي حتى ركنوا اليــه فأعلنوا بيعته للعامــة سنة 26 واختاروه لغربته فيهم فهو أقرب الى العدل •

حكى ابن أبي زرع انه لما مات المهدي تشوق كل واحد من العشرة الى الخلافة ، وكانوا من قبائل شتى ، فتنافسوا وتحاسدوا ثم تآمروا • وخافوا افتراق الكلمة فاتفقوا على عبد المؤمن لكونه غريبا بينهم مع ما كانوا يرونه من ميل المهدي اليه اهـ •

أخذ عبد المؤمن في فتح المغرب • ففتحه في ثلاث كرات :

الاولى فتح فيها مغرب المرابطين وأقام محاربا لهم سبع سنوات ومسكنه الجبال وطاولهم هذه المدة كلها ليحفظ بها قوة رجاله ويضعف الدولة بكثرة النفقات وقلة ما تقبضه من المغارم حتى تختل طاعة الجند وتسأم الرعية ، وذلك ما وقع •

الثانية فتح فيها بجاية • ولم يعلن عليها الحرب ولا طاولها بل استعان عليها بالدسائس ولم يتريث في السير اليها ، ولولا ذلك ما نجح في فتحها ذلك النجاح •

الثالثة فتح فيها المهدية استعد لفتحها ثلاث سنوات حفر فيها الآبار على طول الطريق وأمر بحفظ الزرع في سنابله وخرج اليها في صفر سنة 54 في جيوش جرارة واساطيل محاذية له بحرا ، وسار سيرا في غاية النظام وكمال العدة . ولم يسرع في سيره فبلغ تونس أواخر جمادى الثانية ، فاحتلها وتقدم الى المهدية ، فحاصرها حتى فتحها يوم عاشوراء سنة 555 وانما سلك في فتحه المهدية غير مسلكيه في فتح بجاية وحرب المرابطين لانه ليس بافريقية يومئذ دولة فاشتد أذى النرمان للمسلمين • ووفد عليه جمع منهم بمراكش يستنصرونه . فوعدهم النصرة ولكن تريث في تنفيذ وعده كي تقوى في الناس الغيرة الدينية بما يتكرر عليهم من معرات العدو ويستيقنوا ان لا ناصر لهم غير عبد المؤمن فلا يعترضون سبيله يوما ما ، ولكي يجمع هو قوته فيدهش بها القبائل التي يمر بها عربية وبربرية فلا تحدث نفسها بالثورة عليه • وذلك ما وقع ، فقد كان الناس ينضمون الى جيشه حيثما حل ففي كل مرحلة يزداد جمعه ،وما فتح المهدية وطرد النرمان حتى أتاه رؤساء المدن طائعين •

وهكذا تم لعبد المؤمن فتح المغرب • ودخلت في طاعته جزيرة الاندلس فكانت مملكته تنتهي شرقا الى التراب المصري شرقي طرابلس حيث سويقه بني مضكود ، وغربا الى البحر المحيط ، وجنوبا الى الصحراء وشمالا الى البحر الابيض وتجاوزه الى الاندلس فشملها من الجزائر الشرقية الى أشبونة •

وقد استعد عبد المؤمن لاخراج الامر من المصامدة الى قبيلته

وبنيه فجمع ثلاث آلاف ولد كأنهم أبناء ليلة واحدة جمعهم من المصادمة وغيرهم • وأخذهم بحفظ كتاب الله وحفظ الموطا وكتاب ابن تومرت ورباهم على ركوب الخيل والرمي والسباحة ببحيرة صنعها خارج بستانه بمراكش • وكانت نفقتهم وخيلهم من عنده • فلما أكمل تأديبهم على ما أراد عزل بهم أشياخ الموحدين • وقال لهم العلماء أولى منكم • فسلموا نهم الامر • وظهر من ابنائه ثلاثة عشر ولدا على تلك الصفات • فأشار عليه أشياخ الموحدين بتقديمهم للاعمال • فتظاهر بالامتناع حتى ألحوا عليه فولاهم على الاقاليم • وذلك سنة 549 وفيها عهد بالامر من بعده لابنه محمد بعد ما دس الى رؤساء من العرب كان قد أحسن اليهم ان يطلبوا منه ولاية العهد لاحد أبنائه • وكان ولي عهده أبا حفص عمر الهنتاني جد الحفصيين • فلما طلبوا منه ذلك أنكر عليهم • وشعر ابو حفص بسر القضية • فخشي على نفسه وخلعها من ولاية العهد • وفيها ثار عليه عبد العزيز وعيسى اخوا المهدي لما رأياه من تقديم أبنائه • وكان هو بسلا وهما بفاس • فلحقا بمراكش • ودخلاها وقتلا نائبه بها • فارسل أثرهما وتوجه نحو مراكش • فقتلا وقتل كل من شاركهم في الثورة •

وفي سنة 557 قدم على عبد المؤمن قومه كومية في أربعين الف فارس • وكان هو الذي استقدمهم ثم تجاهل سبب قدومهم تسكينا للمصامدة وتمويها عليهم وقرب موته عزل ابنه محمدا من ولاية العهد • وجعلها لابنه يوسف فلما مات لم يبايع يوسف ابو حفص الهنتاني الى سنة 563 ويومئذ تلقب يوسف بأمير المؤمنين لما تم له الامر بمبايعة أبي حفص •

وهكذا تأسست دولة الموحدين واخرج عبد المؤمن الامر من شيوخ مصمودة الى ابنائه وكانت عاصمتهم مراكش ولم يعرف المغرب

قبل عبد المؤمن وبنيه ولا بعدهم دولة أحسن ادارة ولا أرقى معارف وحضارة من دولتهم •

3 ـ الحكومة الموحدية المؤمنية

الدولة الموحدية المؤمنية مستقلة استقلالا تاما • وهي أول دولة بربرية غير خارجية ادعت الخلافة • وكانت أهلا لها اذ لم يكن بنو العباس ولا بنو عبيد يومئذ شيئا مذكورا • وتوسلوا لها من حيث النسب بدعوى ابن تومرت النسب في آل البيت وانتساب عبد المؤمن الى قيس بن مضر وتعلقه بآل البيت من جهة بعض جداته •

وحكومتها مقيدة بالكتاب والسنة من غير انتماء الى مذهب خاص • ورئيسها خليفة يدعى أمير المؤمنين ومنهم من تلقب بالالقاب كالمنصور والناصر • وكان الخليفة يعين بالعهد اليه من سلفه • ثم سار أيام انحطاط الدولة يدعي الخلافة دعوى ويتغلب عليها بالقوة • ولكنها انحصرت في بني عبد المؤمن على كل حال •

ويساعد الخليفة ولاة بالاعمال الواسعة ووزراء مختلفو النفوذ وكتاب متفاوتو الدرجات حسب مهماتهم وللخليفة وولاته مجالس شورية يلقب أهلها الشيوخ من أهل العلم والدين ولا يكونون من غير الموحدين • وقد أخذت الحكومة أنظمتها الادارية من دولتي صنهاجة وزادتها اتقانا ودقة •

والقضاء يختار له العلماء المجتهدون وأماثل المقلدين للامامين مالك والشافعي وهو مستقل عن الادارة • والناس أمامه سواء لا فرق بين أمير وسوقة •

والمالية تجمع من الزكوات وخراج الاراضي الدولية واخماس الغنائم ليس فيها مكس ولا جور قال ابن ابي زرع :

« أمر عبد المؤمن بعد فتح المهدية بتكسير الارض فكسرت من برقة الى نول من بلاد السوس الاقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والانهار والسباخ والطرقات والخروق • وقسط الخراج على ما بقي وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق • وهو أول من أحدث ذلك في المغرب » اهـ •

وكانت المالية وافية بمصارف الدولة من انشاء البنايات العامة كدور الحكومة والمساجد والقناطر والمستشفيات ، ومن عطاء الجنود والموظفين وجوائز الشعراء والعلماء •

وللحكومة جيش من الموحدين ومرتزقة العرب والبربر عدا ماهو مفروض على القبائل من الجنود ، ويبلغ ايام الحرب اربعمائة ألف فارس عدا المشاة ، وبلغ جيش الناصر الذي خرج به الى الاندلس مليون من الفرسان والمشاة من سائر الاقسام العسكرية غير المرتزقة •

ولها أسطول ورثته من صنهاجة وزادت فيه وعنيت بصنع الاسلحة والمجانيق والرعادات وانشأ عبد المؤمن سنة 557 اربعمائة قطعة فرقها على سواحل المغرب والاندلس • وكان يضرب له كل يوم عشرة قناطير من السهام •

والجيش طبول ورايات • فاذا أريد النفير ضرب كبر مستدير الشكل دوره خمس عشرة ذراعا من خشب أخضر اللون مذهب • يضرب فيه ثلاث ضربات فيرتحل الناس • يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع • يتقدم الامير نحو مائة فارس ويأتي وراءه مدبرو دولته ثم بقية الناس حسب مراتبهم • ويصحب الجيش الصناع وأصحاب الحرف وكل ما يحتاج اليه في السفر حتى كأنهم مقيمون •

ومرتبة الموحدين في الجيش ومناصب الحكومة أعلى الرتب •

وهم أنفسهم درجات لا يتعدى صنف مرتبته سفرا وحضرا • وذكر صاحب المعجب القبائل التي تلقب بالموحدين ورتبهم حسب درجاتهم هكذا : هرغة ثم كومية ثم أهل تينمل ثم هنتاتة ثم قنقيسة ثم قدميوة ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض بطون هسكورة ، قال :

« فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث • وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية » اهـ •

وانما خصت هذه القبائل باسم الموحدين لكونها لبت الدعوة قبل فتح مراكش ، ورتبوا في الدرجات حسب ترتبهم في اجابة الدعوة •

وكانت الحكومة حافظة لممالكها حامية لثغورها تعاهد من سالمها وتحارب من حاربها لا تنقض عهدا ولا تخلف وعدا ، ارتبطت مع جمهورية جنوة بمعاهدة تجارية ، واختلف حالها مع ملوك المسيحية بالاندلس سلما وحربا ، يعاهدونها اذا ضعفوا وان وجدوا فرصة نقضوا العهد ، وكانت مسالمة لاصحاب صقلية ، قال صاحب المعجب :

« كان صاحب صقلية يؤدي اتاوة لابي يعقوب ، واتصلت اليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها » اهـ •

وكانت الحالة الداخلية على غاية من الاطمئنان ، فكثرت الاموال وتأمنت الطرق وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة وعم الامن والرخاء وكانت الظعينة تخرج من بلاد نول الى برقة وحدها لا ترى في سفرها ما يؤذيها ، كل هذا بعدل بني عبد المؤمن وحسن سياستهم •

وبعد الناصر ولي ابنه المنتصر صبيا ، فتحكم في الدولة الحاشية ،

واختلت الدولة حتى ظهرت زناتة على مرسح السياسة وطمع الحفصيون في عرش بني عبد المؤمن ، فتغيرت الاحوال بما أدى الى سقوط هذه الدولة .

وكانت للدولة سكتها دنانير ودراهم وانصاف درهم وارباعه واثمانه والخراريب ، والدرهم المؤمني نصف درهم الزكاة ، وكان مربعا ، يكتب على السكة اسم المهدي حتى ولي المأمون بن المنصور ودخل مراكش سنة 627 فدور الدرهم وقطع منه اسم المهدي .

4 ـ عبد المؤمن وبنوه

كان عبد المؤمن وبنوه أهل علم وأدب ولهم عناية بالجهاد . قد صرفوا قواهم لحماية الاندلس حتى ان المنصور لما حضرته الوفاة جمع بنيه والموحدين وقال لهم : « اوصيكم بالايتام واليتيمة ؟ قيل له وما الايتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة الاندلس والايتام أهلها . انه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها ، ولو مد الله في أجلنا لم نتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار اسلام . فاياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد اسوار وحماية ثور وتربية الاجناد وتوفير الرعية » .

وكانت العلامة السلطانية عندهم « الحمد لله وحده » يكتبها الخليفة بيده بخط غليظ في رأس الرسالة أو المنشور . وفي ذلك تقول حفصة الاندلسية تخاطب عبد المؤمن :

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امنن علي بطرس يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه « الحمد لله وحده »

وكان بنو عبد المؤمن يعرفون بالسادة لا ينعت بالسيد لعهدهم سواهم .

ولد عبدالمؤمن بقرية تاقرا من ساحل تلمسان على ثلاثة أميال من مرسي هنين سنة 487 • وكان والده علي فخارا يعمل النوافيخ ، وقيل كان قاضيا • وليس لقبيلته كومية شأن • ونشأ هو فقيرا طالبا للعلم فارتحل الى بجاية • فاتفق أن كان ابن تومرت قد أخرج منها الى ملالة ، ووجد له ذكرا . فقصده • والفى بغيته لديه فصحبه واستفاد علمه ثم استغل جهوده في تأسيس هذه الدولة •

وكان عبد المؤمن أبيض مشربا بحمرة تام القد اجعد تبلغ وفرته شحمة أذنيه أكحل العينين أزج الحاجبين قويم الانف عريضه فصيحا فقيها جدليا أصوليا محدثا اماما في النحو والادب والقراءة ذاكـــرا للتاريخ وايام الناس مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية حازما سياسيا مقداما سري الهمة حسن السيرة سخيا مقربا لاهل العلم والادب منفقا لبضاعتهم •

وتوفي عبد المؤمن وترك ستة عشر ذكرا وبنتين • فخلفه منهم أبو يعقوب يوسف • وسار بسيرة ابيه • وأجاز الى الاندلس مجاهدا • وتوفي بها شهيدا • وعني بالعمران وبناء القناطر والمساجد والمستشفيات• وكان له أطباء وفقهاء يجالسونه •

وكان يشبه أباه خلقا وخلقا عاقلا ورعا مباشرا أمور المملكـــة بنفسه • وكان من كتابه أبو الفضل بن طاهر البجائي من أهل العلم والفضل والدين والتقى كان كاتبا بليغا مترسلا • وكتب بعده للمنصور ثم الناصر •

وترك أبو يعقوب ثمانيةعشر ذكرا • خلفه منهم يعقوب المنصور • أقام العدل وارجع الولاة والعمال الى أحكام القضاة • وكانت لـــه بالاندلس وقعة الأراك على النصارى سنة 591 وكان كأبيه وجده علما ودينا وسياسة كثير التواضع يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء •

وترك من الذكور اربعة عشر • ولي الخلافة منهم ثلاثة الناصر والعادل والمأمون وخلفه منهم محمد الناصر أمه بنت أبي اسحق بن الخليفة عبد المؤمن ، وفي أيامه عظم أمر ابن غانية بافريقية ، فولي عليها أبا محمد عبد الواحد بن ابي حفص ، وكان ذلك مبتدأ الدولة الحفصية ، ثم كانت عليه واقعة العقاب بالاندلس سنة 609 وكان غليظ الحجاب لا تكاد تصله الامور ، وذلك سبب ضعف الدولة •

وعهد الى ابنه يوسف المنتصر ، فخلفه وهو دون البلوغ ، وقام بالدولة الحاشية من الموحدين ، واوقعوا بني عبد المؤمن في فتنة التنافس على الملك وصاروا لهم كالاتراك لبني العباس ، ولم يخرج المنتصر من مراكش حتى توفي • وقد ظهرت زناتة على مرسح السياسة •

وخلفه أخو جده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، قدمه الموحدون على كراهية منه لكبر سنه وظهور الاستبداد على الخليفة ، وكان صالحا فاضلا ورعا ولم يستقم له الامر غير شهرين ، وقام عليه العادل ابن أخيه • فخلع وقتل ، وكان أول مخلوع ومقتول في هذه الدولة •

وأبو محمد عبد الله العادل هو ابن المنصور ، تغلب على الخلافة ثم قتله الموحدون وبايعوا ابن أخيه يحي المعتصم ابن الناصر ، واضطربت أموره لصغره واختلال الدولة ، فانتقل الى تينملل سنة 26 فدخل عمه المأمون مراكش سنة 27 وبقي يحي بتينملل محاربا للمأمون وابنه الرشيد حتى قتل سنة 633 •

تغلب على مراكش ابو العلاء ادريس المأمون بن المنصور ، وأعلن لعن المهدي ، وقتل كثيرا من شيوخ الموحدين العابثين بالخلافة ، وسعى في اصلاح الدولة ، ولكن عاجلته المنية فمات ولم يحقق أمنيته •

وخلفه ابنه ابو محمد عبد الواحد الرشيد وهو في سن الرابعة عشرة • فكانت خلافته قوة لمنافسي دولته ، ولما مات خلفه أخوه أبو الحسن علي الملقب بالسعيد وبالمعتصم ، وكان بطلا مقداما بعيد الهمة ، لكنه جاء بعد استفحال الداء ، وقتل في حربه مع يغمراسن ابن زيان •

وخلفه ابو حفص عمر المرتضى بن اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقتله ابن عمه ابو دبوس ادريس الواثق بن ابي عبد الله ابن عمر بن عبد المؤمن ، واستولى مكانه حتى دخل عليه بنو مرين وقتلوه في المحرم سنة 668 •

وبه انقرض أمر بني عبد المؤمن رغم محاولتهم لارجاع سلطانهم ، فقد فر الموحدون من مراكش الى جبل تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى ، فقبض عليه سنة 674 وجيء به الى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، فقتل في جملة من ابنائه وذوي قرابته ، وفي سنة 705 ظهر بافريقية عثمان بن ابي دبوس كان بطرابلس ، فاستقدمه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب من سليم ، وبايعه واجلب به الى تونس ، فقبض عليهما وأودعا السجن ، وفي آخر سنة 748 بايع العرب أحمد بن عثمان بن ابي دبوس وكان خياطا بتوزر ، واجلبوا به على تونس ، ثم خذلوه سنة 49 وسلموه لابي الحسن المريني المستولي يومئذ على تونس فاعتقله • وانقطع أمل بني عبد المؤمن في احياء دولتهم •

عبـد المؤمـن وبنـوه

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
عبد المؤمن بن علي	524	1130
ابنه يوسف	558	1163
ابنه يعقوب المنصور	580	1184
ابنه محمد الناصر	595	1199
ابنه يوسف المنتصر	610	1213
عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن	620	1224
عبدالله العادل بن المنصور	621	1224

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
يحي المعتصم ابن الناصر	624	1227
ادريس المأمون ابن المنصور	627	1230
ابنه عبد الواحد الرشيد	630	1232
اخوه علي السعيد	640	1242
عمر المرتضى بن اسحق	646	1248
ادريس الواثق	665	1266
سقوط الدولة	668	1269

نقـود الدولـة المؤمنيـة

16— نقود عبد المؤمن بن علي

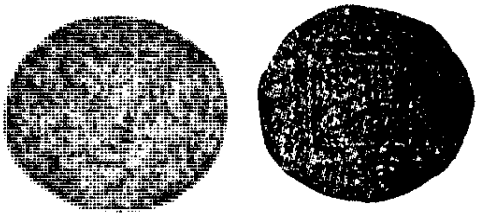

17— نقود يوسف بن عبد المؤمن

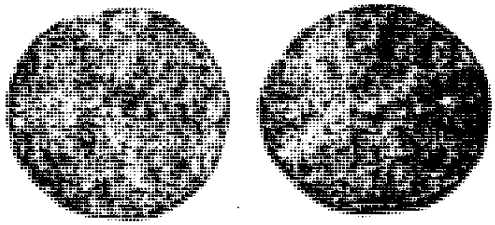

ضرب ببجاية

18 — نقود يعقوب المنصور

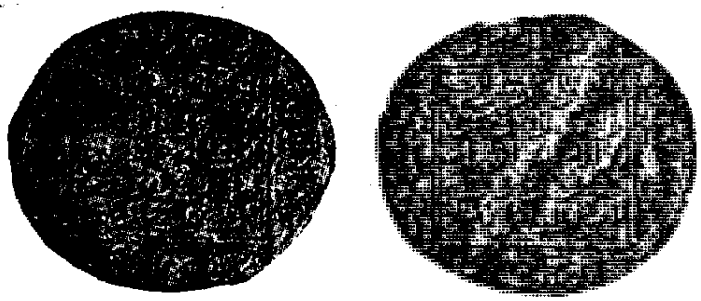

19— نقود عمر المرتضى

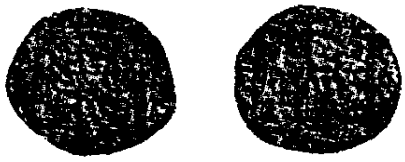

5 ــ ولاة الجزائر المؤمنية

كانت الجزائر المؤمنية مقسمة الى ولايتين كبيرتين : ولاية تلمسان من ملوية غربا الى نهر مينة شرقا ، وولاية بجاية الى حدود عمالة قسنطينة اليوم شرقا فقد ذكر صاحب المعجب من مدنها قالمة بلفظ قالم تحريفا • وفتحت مدينة الكاف في غزوة المهدية • فيظهر انها تابعة لولاية تونس وربما تبع الزاب ولاية تونس وكان للولاة وزراء وكتاب ومجالس شورى من شيوخ الموحدين •

ولي تلمسان لما فتحت سليمان بن محمد وانودين الهنتاني وقيل عمه يوسف وولي بجاية لما فتحت طلبة من الموحدين ، وفي سنة 49 بعث عبد المؤمن على تلمسان ابنه ابا حفص عمر واستوزر له ابا محمد عبد الحق بن وانودين ، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك ابن عياش القرطبي ، وبعث على بجاية ابنه ابا محمد عبد الله واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن ، واستكتب له أبا العباس بن مضاء •

ولما ولي الخليفة يوسف امتنع من بيعته أخوه عبد الله ببجاية ، ثم أتاه مبايعا سنة 59 فعفا عنه ووصله واحسن اليه ، ثم مات •

وفي سنة 61 ولى الخليفة يوسف أخاه زكرياء ببجاية ، وأمره بتفقد أحوال افريقية ورفع مظالمها وقطع طغاتها ، وتوفي بالطاعون في مراكش سنة 71 •

وفي سنة 76 ولى يوسف على بجاية أخاه ابا موسى عيسى ، ثم ولى بعده ابن أخيه السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، فلم يزل بها حتى استولى عليها علي بن غانية سنة 80 ثم ولي تلمسان •

وفي سنة 555 استقدم عبد المؤمن ابنه ابا حفص من تلمسان ، ثم استوزره أخوه يوسف ، ومات سنة 75 وولي على تلمسان السيد

ابو عمران موسى بن عبدالمؤمن سنة 56 ، ووفد على أخيه يوسف بمراكش هو وصاحب بجاية ابو زكرياء في وجوه أهل افريقية من العرب وغيرهم ، وكان دخولهم مراكش سنة 64 فكان يوما مشهودا ، ثم نهض الخليفة الى غزو الاندلس سنة 66 فاستخلف على مراكش أخاه ابا عمران وبها توفي بالطاعون سنة 71 .

ثم ولي تلمسان السيد أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ، وقدم عليه أخوه أبو زيد من افريقية فارا من ابن غانية فتنبه لتحصين بلاده ورم أسوارها ثم عاد أبو زيد لحرب ابن غانية بأمر ابن عمه المنصور فخلص بجاية ، ونزلها ، ثم استقدمه المنصور منها ، وولى مكانه أخاه السيد أبا عبد الله بن عمر . ثم خرج المنصور نفسه لحرب ابن غانية .

وفي سنة 584 قفل المنصور الى مراكش ، فعقد لأبي زيد على تونس ولاخيه ابي الحسن على بجاية . فأقام بها الى أيام الناصر ، ولم يغن في دفاع ابن غانية ، وكان مولعا بالادب والطرب ، فعزل عنها . وله نفس عالية زكية وحكايات في الجود برمكية ، ومن شعره قوله يخاطب المنصور في قضاء ديونه :

وجوه الاماني بكم مسفره ... وضاحكة لي مستبشرة
ولي أمل فيكم صادق ... قريب عسى الله ان يسره
علي ديون وتصحيفها ... وعندكم الجود والمغفره

وولي تلمسان بعد انتقال أبي الحسن الى بجاية السيد ابو الربيع ابن عبد الله بن عبد المؤمن ، وتوفي هو وابو الحسن سنة 604 فولى الناصر بتلمسان السيد ابا عمران موسى بن يوسف بن عبد

المؤمن سنة 605 وقتل في حرب ابن غانية ، فولى الناصر مكانه ابا زيد ابن يوجان ، وعزله المنتصر بابي سعيد بن المنصور •

وممن ولي ببجاية بعد ابي الحسن ابن يغمور ، فلما أفضى الامر الى العادل عزله يحيي بن الاطاس التينمللي ، وفي سنة 624 بايع أهل الاندلس ادريس المأمون باشبيلية قال ابن خلدون : وبايعه صاحب تلمسان محمد بن ابي زيد بن يوجان وصاحب سبتة ابا موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخيه ابن الاطاس ، وفي بعض نسخه ابن اخته ابن الاطامي •

وفي سنة 27 خلع ابو زكرياء الحفصي طاعة المأمون فعقد المأمون على بجاية للسيد ابي عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ، وفي سنة 28 فتح ابو زكرياء قسنطينة وبجاية ، واعتقل السيد ابا عمران ، وثقفه بتونس ، فانقرضت كلمة بني عبد المؤمن من عمل بجاية ، وقامت بها دعوة الحفصيين •

وكان المأمون قد ولي على تلمسان أخاه السيد ابا سعيد ، وكان مغفلا ضعيف التدبير ، ومعه الحسن بن حبون الكومي عاملا على الوطن ، فغلب على ابي سعيد واغراه ببني عبد الواد • فقبض على طائفة من مشيختهم ، وشفع فيهم ابراهيم ابن اسمعيل بن علان زعيم الجند اللمتوني بتلمسان ، فردت شفاعته ، فقام بدعوة ابن غانية ، واغتال الحسن بن حبون وثقف السيد ابا سعيد ، وسرح مشيخة بني عبد الواد • ونكروه فقتلوا ابراهيم ابن اسمعيل ودخلوا تلمسان بدعوة المأمون ، واستمرت ولايتها في مشيختهم حتى استقل بها يغمراسن بن زيان •

وهكذا خرجت الجزائر من يد السادة بني عبد المؤمن الى الحفصيين وبني عبد الواد ، فكانت ولايتهم بها نحو ثمانين سنة •

6 — ثورة ابن غانيـــة

كان علي بن يحي المسوفي مقربا لدى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين • فزوجه امرأة من أهل بيته تسمى غانية • فولدت له محمدا ويحي • وعقد علي بن يوسف لمحمد على الجزائر الشرقية سنة 520 فنزل ميورقة • ولما هلك خلفه ابنه اسحق • وسقطت أيامـــه دولة المرابطين • ووفدت عليـــه فلولهم • فاحسن اليهم • وغني بالغزو • واستمر على الدعاء لبني العباس • واغفل الموحدون شأنه • واستشهد سنة 579 وترك ابناء منهم علي خليفته من بعده ويحي • وفي ربيع الاخير من هذه السنة استشهد بالاندلس أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن •

هنالك أراد أبناء غانية احياء دولة المرابطين بالمغرب واعادة الدعوى العباسية اليه • واتفق معهم أهل بجاية من الحماديين وغيرهم عـــلى ذلك • وظنوا كلمة الموحدين تختلف فيمن يخلف يوسف لكثرة ابناء عبد المؤمن ولعل في المصامدة من يدعو الى نفسه • وأمير الجزائـــر الشرقية من ابناء غانية يومئذ علي بن اسحق المعروف بالميورقي لكونه يقطن ميورقة • وما زال لفظ الميورقي معروفا لـــدى العوام ببعض جهاتنا الجنوبية الا انهم يقولون المورقي بحذف الياء •

خرج علي بن اسحق من ميورقة في اثنتين وثلاثين قطعة ومعه بعض اخوته منهم يحي • وحمل اسطوله نحو مائتي فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل• فأرسى على بجاية يوم الجمعة من شعبان سنة 580 ودخلها وقت الصلاة من غير قتال • والناس آمنون • ووالي المدينة السيد سليمان بن عبد الله خارجها بايميلول • ولم يترك بها حامية للامن من طروق العدو •

لما دخل علي بن اسحق قصد الجامع الاعظم وأدار بـــه الخيل

والرجال • فمن بايعه خلى سبيله ومن أبى قتله • وألفى بها والي تونس السيد أبا موسى بن عبد المؤمن • فاعتقله • وكان والي القلعة قاصدا مراكش • فبلغه الخبر وهو بمتيجة • فعاد لمظاهرة السيد سليمان • وقصدا استرجاع بجاية • فاجتمع من الموحدين ثلاثماية فارس ومن العرب وقبائل تلك الجهات نحو ألف فارس • واجتمع الى الميورقي نحو ألف فارس • وتقابل الجمعان • فانخزل من كان مع الموحدين الى الميورقي • فانهزم السيد سليمان الى تلمسان • وغنم الميورقي أمواله وأبنيته •

استألف علي بن اسحق العرب بالمال ، واستخلف أخوه يحي ببجاية وخرج لافتتاح ولايتها• ففتح الجزائر ومليانة ومازونة والقلعة • وتوجه الى قسنطينة فحاصرها وقطع الماء عن أهلها حتى أغاثهم الله بمطر غزير فكسر واديها سده •

وبلغ المنصور بن يوسف خبر بجاية وهو قافل من الاندلس فارسل عسكرا في البر لنظر السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن ، وبعث الاساطيل في البحر يقودها أحمد الصقلي وعقد عليها لابي محمد ابن ابراهيم بن جامع ، فاسترجعوا ما استولى عليه الميورقي من البلدان • ونزلوا على بجاية في صفر سنة 81 بجنود لا قبل ليحي بها ، ففر ومن معه من الملثمين • ولحقوا بعلي وهو محاصر لقسنطينة • فكانت مدتهم ببجاية سبعة أشهر خطبوا فيها لبني العباس • وخطيبهم أبو محمد عبد الحق الاشبيلي الذائع الصيت •

عسكر السيد ابو زيد بتيكلات من ظاهر بجاية واطلق عمه اباموسى من معتقله • ثم رحل اثر ابن غانية • فأجلاه عن قسنطينة واتبعه الى نقاوس ومقرة ، ودخل علي بن اسحق الصحراء • وملك قفصة واستقر بها ، واستقر ابو زيد ببجاية •

ثم ظهر غزي الصنهاجي في جموع من الملثمين والعرب وتغلب على أشير • فسرح اليهم السيد أبو زيد ابنه عمر ومعه غانم بن مردنيش فأوقع بجموع غزي وقتله ونصب رأسه ببجاية • وغرب أبو زيد بني حمدون الى سلا لاتهامهم بتأييد ابن غانية • ثم استقدم المنصور أبا زيد من بجاية •

واجتمع الى ابن غانية بافريقية جموع العرب من رياح وغيرهم • وانضاف اليه قراقوش بمن هنالك من الاتراك • وبايعوا علي بن اسحق • ولقبوه أمير المسلمين فجدد رسوم الملك واتخذ الآلة • وأوفد الى بغداد ابنه وكاتبه عبد البر بن فرسان بالبيعة وطلب المدد • فأمر الخليفة عماله بمصر والشام بمدده • فعظم سلطان علي بن غانية واستولى على افريقية وانزل بأهلها وعمرانها بلاء لم ينزل بها أيام دخول الهلاليين ذكر تفصيله ابن الاثير وأهم المنصور أمره فخرج بجموعه الى افريقية سنة 83 وكانت بينه وبين ابن غانية وقائع غير فاصلة • ثم عاد الى مراكش سنة 84 ومات في هذه السنة علي بن غانية بنفزاوة من ناحية الجريد • فخلفه أخوه يحي • ونقل الحرب الى المغرب بعد سنة 597 •

خرج من بجاية واليها السيد ابو الحسن في جيش عظيم للقاء يحي • قال صاحب المعجب : « لم أر الموحدين جيشا أضخم منه ولا أكثر سلاحا ولا أحسن عدة • وفيه من أعيانهم وشيوخهم جملة وافرة » اهـ •

التقى الجمعان قرب قسنطينة من ناحية بجاية • فانهزم الموحدون الى بجاية في حال سيئة • وتوجه يحي الى بسكرة • فدخلها ومثل بأهلها • وسجن عاملها أبا الحسن بن أبي يعلى • ثم ملك تبسة • وبايعه أهل بونة • وعاد الى المهدية •

قوي أمر يحي الميورقي • وحاصر قسنطينة • فجهز لـه ابو الحسن عسكرا حفظها • فارتحل يحي الى حصار بجاية • وكان المدد يأتيه من ميورقة • فأجاز الناصر أساطيله اليها من مدينة الجزائر سنة 98 فاستولوا عليها سنة 99 •

وفي سنة 601 توجه الناصر نفسه الى افريقية • ولم يبق بها للموحدين غير قسنطينة وبجاية • فأجلى يحي الى جبل دمر واسترجع البلاد لطاعته • وعقد على افريقية لابي محمد بن ابي حفص سنة 603 وقفل الى مراكش ، فخرج عليه يحي بوادي شلف في جيش عظيم من العرب وصنهاجة وزناتة فتقاتلا قتالا شديدا ، ثم انهزم الميورقي ، وشرق ، فلقيه ابو محمد بن ابي حفص بنواحي تبسة ، فهزمه أيضا الى الصحراء وذلك سنة 604 •

وبعدما استجمع يحي قواه نهض الى المغرب يغير ويسبي ويخرب حتى بلغ سجلماسة وتقدم الى المغرب الاوسط ، فخرج اليه والي تلمسان السيد أبو عمران • وكان اللقاء على تاهرت • فقتل ابو عمران وغنم عسكره ، وشرق يحي بالغنائم فاستنقذها منه والي تونس ، وفتك به فتكا ذهب بقوته ، فأخذت ثورته في الضعف ، وذلك سنة 606 •

وفي سنة 18 توفي أبو محمد بن أبي حفص فولى مكانه السيد أبو العلاء ادريس بن يونس بن عبد المؤمن ، وطارد يحي بن غانية ، فلحق بالزاب ونزل بسكرة ، فاتبعه ابو العلاء ابنه ابا زيد ، فأجلاه عنها •

انتقل يحي الى المغرب الاوسط وانقسمت زناتة عليه وعلى الموحدين فكانت بينهم وقائع ، قتل في بعضها أمير مغراوة منديل بن عبد الرحمن بمتيجة سنة 622 ودخل يحي بعدها الجزائر ، ولكن نجمه في أفول •

وفي سنة 24 كان والي تونس عبد الله بـن أبي محمد بن أبي حفص فبلغه أن يحي بن غانية دخل بجاية عنوة ، وتخطاها الى دلس وعاث في تلك النواحي فاخذ السير حتى دخل بجاية وسكن أحوالها ، وسار الى متيجة فمليانة ، فبلغه أن يحي قصد سجلماسة ، فانكفأ الى تونس •

وفي سنة 25 تولى تونس أبو زكرياء أخو عبد الله المتقدم • وهو جد الملوك الحفصيين • فصرف عزمه لاستئصال حركة ابن غانية • فشرده عن الزاب وورقلة • وانزل الحامية باطراف البلاد • فلم يزل يحي شريدا الى ان هلك سنة 631 بوادي شلف وقيل بالزاب •

دامت ثورة ابن غانية نصف قرن • ولم يجن الوطن منها غير الخراب • فقد خرب كثيرا من قصور الصحراء بوادي ريغ وغيره • وخربت تاهرت وقصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة •

ولقد كان بنو غانية يرومون احياء سلطانهم بالمغرب فلم ينجحوا لقوة الموحدين وجدهم • ولكن نتج عن ثورتهم تخريب كثير مـن المدن وشغل الموحدين عن موالاة الجهاد بالاندلس واضعاف دولة بني عبد المؤمن وظهور الحفصيين •

وكان علي ويحي ابنا غانية آيتين في علو الهمة والاقدام عـلى العظائم والغناء في مواقف الحرب • وكان كاتبهما عبد البر بن فرسان الغساني مثلهما شجاعة واقداما • وهو أديب بارع • ومـن شعره يخاطب يحي بن غانية •

اجبنا ورمحي ناصري وحسامي وعجزا وعزمي قائدي وامامي ؟
ولي منك بطاش اليدين غضنفر يحارب عـن اشـباله ويحامـي

ألاغنيـــاني بالصهيـــل فانـــــه سماعي ورقراق الدماء مدامي !
وحطا على الرمضاء رحلي فانهـــا مهادي وخفاق البنـــود خيامي !

7 ــ العرب في الدولة المؤمنية

وجد العرب بغيتهم في الدولة الصنهاجية لضعفها • فلما قدم عبد المؤمن لفتح بجاية وفد عليـــه بالجزائر أميران منهم أحدهما أبو الخليل ابن كسلان أمير الاثبج وفي بعض نسخ ابن خلدون أبو الجليل بن شاكر • وثانيهما حباس بن مشيفر أمير جشم فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما • ومضى لفتح بجاية •

ولما فتحها خشوا على حريتهم منه فحاربوه مع صنهاجة وقتلوا صهره عبد الله بن وانودين • ثم اجتمعوا بظاهر باجة ، فوضعوا ما بينهم من ترات • ودعتهم المصلحة المشتركة الى الاتحاد على اخراج عبد المؤمن من البلاد قبل ان يرسخ نفوذه فيها وجمعوا نساءهم وأموالهم • وارتحلوا لحرب عبد المؤمن ليكون لقاؤهم أصدق وقدمهم في الميدان أثبت •

وهؤلاء العرب هم الاثبج ورياح وزغبة وقرة • وأمـــير رياح يومئذ محرز بن زياد بن فادغ احدى بطون بني‌علي• ومن الامراء سواه جبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيســـى بن حسن • وأرسل اليهم رجار صاحب صقلية يعرض عليهم انجاده اياهم بخمسةآلاف فارس من النصارى • فأجابوه يشكرون له صنيعه وانهم في غنى عن نجدته اذ لا يستعان بكافر على مسلم •

وبلغ عبد المؤمن خبرهم • وكان ببجاية على ما قال البيذق وهو شاهد لهذا الفتح ووقائعه فخرج للقائهم عبد الله بن عبد المؤمن •

وأمده أبوه بالرجال فبلغ جيشه أكثر من ثلاثين ألف فارس • وانضاف اليهم من أمراء العرب ديفل بن ميمون •

التقى الجمعان بناحية سطيف ، قال البيذق سنة 46 وقال ابن الاثير في صفر سنة 48 فتاخر الموحدون حتى حل العرب ببن جبال • فمالوا عليهم وهم على غير أهبة • واشتد القتال ثلاثة أيام • ثم انهزم العرب في اليوم الرابع • وتبعهم الموحدون الى ناحية تبسة •

قال ابن الاثير : « وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونعم فقسم عبد المؤمن جميع الاموال على العسكر • وترك النساء والاولاد • ووكل بهم من يحفظهم ويقوم بحوائجهم • ولما وصلوا معه مراكش أنزلهم المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة • وأمر ابنه محمدا ان يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة • وأنـه قد بذل لهم الامان والكرامة • فوفدوا عليه بمراكش • ورد عليهم نساءهم وأولادهم وأعطاهم أموالا جزيلة • فاسترق قلوبهم بذلك • وأقاموا عنده • وكان بهم حفيا • واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد » اهـ •

وقال البيذق : « ترك عبد المؤمن من غنائم العرب وسبيها بفاس ومكناسة وسلا • وحمل معه الى مراكش سلاطينهم وعيالهم • وهم ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان وأبو قطرن وأبو عرفة والقائد بن معرف • ثم من عليهم ورد عليهم عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم الى بلادهم • وذلك سنة 547 » اهـ •

وأرى أن الامراء الذين نقلهم عبد المؤمن معه غير الذين كاتبهم جمعا بين الروايتين فان الواقعة عظيمة جدا لجمع كل من الفريقين قوته فيها • فلا يستوفيها ابن الاثير ــ وان كان مؤرخا بصيرا ــ لبعده عنها ولا يستوفيها البيذق ــ وان كان حاضرا ــ لغفلته •

ولما عاد عبد المؤمن الى المشرق وفتح المهدية أحضر أمراء العرب واحلفهم في مصحف عثمان (رض) على السمع والطاعة والسير معه للجهاد بالاندلس • واستصحب منهم في عوده فلما قرب من وهران طلبه عرب افريقية في الرجوع الى حللهم • فاسعفهم • ونقل منهم الى المغرب الفا من كل قبيلة بعيالاتهم • وكانت نيته اخلاء افريقية من العرب ونقلهم الى المغرب والاندلس ليبعدهم عن الصحراء ويقربهم من عاصمته ويشغلهم بالجهاد •

وفي سنة 58 خرج عبد المؤمن من مراكش يريد الجواز الى الاندلس • فندب عرب بجاية الى الجهاد برسالة ختمها بأبيات من نظمه وهي :

أقيموا الى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا الى الهيجاءجردالصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدوا على الاعداء شدة صائل
فما العز الا ظهر أجرد سابح ... يفوت الصبا في شدة المتواصل
وابيض ما ثور كان فرنده ... على الماء منسوج وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت الى الغزو نية ... عواقبها منصورة بالاوائل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي ... تنجز من بعد المدى المتطاول
بها يفتح الدنيا بها يبلغ المنى ... بها ينصف التحقيق من كل باطل
أهبنا بكم للخير والله حسبنا ... وحسبكم والله أعدل عادل
فما هبنا الاصلاح جميعكم ... وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترف ظلالها ... عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج الساري صفاء المناهل

قال صاحب المعجب : « فاستجاب له منهم جمع ضخم فانزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي أشبيلية • وأقاموا هنالك •

وزاد فيهم ابو يعقوب وابو يوسف فكثروا • وانتشر من نسلهم في تلك المواضع خلق كثير • وعددهم الآن وهو سنة 621 نحو خمسة آلاف فارس سوى الرجالة • وهم من زغبة ورياح وجشم وغيرهم » اهـ •

وفي سنة 77 وفد على يوسف بمراكش أمير رياح أبو سرحان مسعود بن سلطان في جيش عظيم من وجوه قومه برسم الخدمة •

وظهر ببعض نواحي افريقية مفسدون من العرب • فخرج اليهم والي تونس السيد أبو موسى بن عبد المؤمن في الجند وأولياء الدولة من العرب وغيرهم • فانهزم جيشه • وأسره العرب • وتفاوض معه أبو يعقوب أمير المؤمنين في فدائه • فتقرر الفداء بستة وثلاثين ألف مثقال • ورأى أبو يعقوب ان هذا المال مما يقويهم على فسادهم • فضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة • وخرج أبو موسى من أسرهم • وتوجه الى مراكش • فلما كان ببجاية دخلها ابن غانية وأسره أيضا •

ولما كانت ثورة ابن غانية انضم اليها جشم ورياح وجمهور الاثبج • وانحازت زغبة الى الموحدين • ودافعت ابن غانية عن المغرب الاوسط ، فاقطع الموحدون بني يزيد منهم أرض حمزة • واستظهروا بهم على صنهاجة وزواوة • ثم دفعوهم لاقتضاء جباية تلك النواحي •

ولما خرج المنصور الى افريقية راجعت طاعته جشم ورياح وبعض القبائل • فنقل منهم الى المغرب قبائل رياح وجشم وقرة والعاصم ومقدم • وبقيت احياء من رياح أميرهم عساكر ابن سلطان الذوادي لما بلاه المنصور من حسن طاعتهم •

وحوالي سنة 90 فر من المغرب أمير رياح مسعود ابن سلطان الذوادي الملقب بالبلط لشدته وصلابته • ولحق بافريقية • واجتمع

اليه بنو اخيه عساكر • ووصل يده بابن غانية • ثم هلك فخلفه ابنه محمد • وكان رئيسا عظيما • فلم يزل يجلب مع ابن غانية على الموحدين • وقتل ابنه عبد الله سنة 606 في بعض المعارك وابن عمه حركات بن ابي الشيخ ابن عساكر وأمير من قرة • واجتمع الى محمد ابن مسعود طواعن من الضحاك ولطيف • وصار يتقلب بجموعه ما بين القيروان والجريد الى الزاب والحضنة • حتى هلك يحي بن غانية • واستغلظ سلطان الحفصيين •

8 — البربر في الدولة المؤمنية

قضى الموحدون على صنهاجة • وحاولت الثورة عليهم واتحدت مع ابن غانية • ولكنها لم تفلح • ويظهر أن كتامة ايدتهم • فان قسنطينة هي المدينة الوحيدة التي لم يحتلها ابن غانية • ولم نعلم انه جاوزها شمالا الى نواحي ميلة ، وكان أولاد علاوة بن سواق رؤساء سدويكش موالين للموحدين ، وكان أبو بكر جد بني ثابت من بني تليلان هو الذي فرض المغرم للموحدين على أهله بجبلهم المعترض ما بين القل وقسنطينة ، ولم يزل بنو تليلان وسدويكش على ولائهم حتى أفضى الامر الى الحفصيين •

وولهاصة المغرب اندرجت في كومية وولهاصة عنابة ربما كان منها بعض الخلاف ، فقد اعترضت سنة 623 أبا زكرياء مؤسس الدولة الحفصية وهو ذاهب الى تونس ، وجهه أخوه عبد الله أمامه لما وليها ، فأوقع بهم •

وهوارة تبسة كان لها شأن في ثورة ابن غانية وأميرهم يومئذ حناش بن ونيفن ، وأوقع بهم سنة 624 والي تونس عبد الله بن عبد الواحد بن ابي حفص بفحص ابة • واعتقل مشائخهم ، وانفذهم الى المهدية •

وكان بنو ومانو هم السابقين الى عبد المؤمن ثم وفد عليه بعد واقعة منداس وهو محاصر لوهران سيد الناس بن أمير الناس الشيخ بني يلومي وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وعطية الحيو بن مناد ابن العباس بن دافلئن المنكوشي شيخ بني توجين ، ثم خالف بنو يلومي • وتحصنوا بالجبات ، فأخضعتهم العساكر • ونقلوا منهم الى المغرب ، وهلك سيد الناس بمراكش ايام عبد المؤمن ، ثم هلك بنو ماخوخ ، فضعف أمر بني ومانو وبني يلومي ، واستعلى عليهم بنو توجين وبنو عبد الواد ، فتفرقوا أوزاعا في زناتة •

ومغراوة شلف من ورسيفان وغيرهم استقاموا على الطاعة • وذهب ملك اخوانهم بني خزرون بن فلفول من طرابلس سنة 540 فلحق بهم عبد الصمد بن محمد بن خليفة بن ورابن سعيد بن خزرون ابن فلفول ، وتزوج منهم وكثر ولده ، وعرف حافده ابو ناس بن عبد الصمد بن وارجيع بن عبد الصمد بالعبادة والفضل ، فتزوج من بنات ماخوخ وولدت له عبد الرحمن ، فكان أجل اخوته بنسبه وخؤولته ، وسودته مغراوة • فكان السادة من بني عبد المؤمن يمرون به في ذهابهم الى افريقية وايابهم منها ، فيحسن خدمتهم في مقامهم لديه ، وينقلبون بالثناء عليه ، فنال صيتا عند الخلفاء ، واسلم له بعض السادة منهم ذخيرة وظهرا ، فاكتسب ثروة • واستركب من قومه واستكثر من عصابته •

ولما هلك خلفه ابنه منديل وحافظ على ولاء بني عبد المؤمن وحضر معهم غزوة الاراك سنة 591 واخضع لهم وانشريس ولمدية • واجلب على متيجة • ولقي بها يحي بن غانية • فانهزمت عنه مغراوة • وقتل هو صبرا سنة 622 وصلب شلوه بالجزائر •

وترك ابناء خلفه أكبرهم العباس ، وظهرت ايامه دولة الحفصيين • فأخذ بدعوتها منافسة لبني عبد الواد •

وبنو توجين صدقوا في ولاء الدولة ، وكانت بين شيخهم عطية الحيو وشيخ عبد الواد عدوى بن يكنمن من بني القاسم حروب شداد ، واستمرت بين القبيلتين الى ما بعد سقوط الدولة المؤمنية .

ولما هلك عطية خلفه ابنه العباس وكان دليل المنصور الى تلمسان في فقوله الى مراكش سنة 584 ، واجلب بقومه على ضواحي المغرب الاوسط . ثم نقض طاعة الموحدين فدس عليه والي تلمسان أبو زيد ابن يوجان من اغتاله سنة 607 فخلفه ابنه عبد القوي ، وكان قد حضر ببني توجين وقعة الأراك ولما ظهرت دولة الحفصيين أخذ بدعوتها مشاقة لبني عبد الواد .

وبنو راشد كانوا أحلافا لبني عبد الواد يوالون من والاهم ويعادون من عادوهم ، ورئاستهم في بني عمران منهم لابراهيم بن عمران ، وخالف عليه أخوه ونزمار الى أن هلك فخلفه ابنه مقاتل ، فقتل عمه ابراهيم ، وخلف ابراهيم ابنه ونزمار ، وكان معاصرا ليغمراسن ابن زيان ، وطال عمره الى أن هلك سنة 690 .

وبنو عبد الواد كانوا أصدق زناتة ولاء للموحدين ، ورئاستهم في بني القاسم ، فكان منهم لعهد عبد المؤمن عدوي بن يكنيمن وعبد الحق بن منغفاد بفتحتين فسكون وحمامة بن مطهر .

واقطعهم الموحدون جزاء اخلاصهم بلاد بني ومانو وبني يلومي ، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمي من بطونهم ، فقتل كندوز من بني كمي زيان بن ثابت كبير بني طاع الله ، فخلفه ابن عمه جابر بن يوسف ، وقتل كندوز في بعض حروبهم ، وبعث برأسه الى يغمراسن ابن زيان القتيل فلحق عبد الله بن كندوز في قومه بتونس أيام أبي زكرياء الحفصي .

وكان جابر ابن يوسف قد حضر ببني عبد الواد وقعة الاراك ،

وفي أيام المأمون ابتدأ خلاف بني عبد الواد ، فقد كان والي تلمسان السيد أبا سعيد عثمان فاغراه عامله الحسن بن حبون الكومي ببني عبد الواد لما رآه من تغلبهم على الضاحية ، فاعتقل مشيختهم ، وسعي في خلاصهم ابراهيم بن اسماعيل بن علان زعيم الجند من لمتونة بتلمسان ، فاغتال الحسن بن حبون وأطلق مشيخة بني عبد الواد ثم بدا له في الفتك بهم فدعاهم لحضور وليمة ، وفطن لقصده جابر بن يوسف ، ففتك به ، ودخل المدينة بدعوة المأمون ، فكتب له المأمون بولايتها ، ثم خرج لاخضاع ندرومة ، فقتل في حصارها سنة 229 فخلفه ابنه الحسن ستة أشهر ، وتخلى لعمه عثمان ابن يوسف ، ولم يحسن السيرة فاخرجته الرعية سنة 31 وقدموا مكانه ابن عمه ابا عزة زكران بن زيان ومنهم من يسميه زيدان ، فشاقه بنو مطهر وأحلافهم بنو راشد ، فكانت بينهم حروب هلك فيها أبو عزة سنة 33 فخلفه أخوه يغمراسن ابن زيان ، ولم يزالوا آخذين بدعوة بني عبد المؤمن حتى أساء منهم السعيد الظن بيغمراسن فنهض لحربه سنة 45 فقتله يغمراسن واستقل بالامر واورث بنيه دولة عظمى .

وبنو مرين كانوا معادين للموحدين ، ففروا بعد واقعة منداس الى الصحراء وبلغ أميرهم المخضب بن عسكر خروج الغنائم من تلمسان الى تينملل سنة 540 فنهض لاخذها في خمسمائة فارس من قومه ، فاستنجد عبد المؤمن أولياءه من زناتة . وكتب الى عبد الحق ابن منغفاد ، فخرج في خمسمائة فارس من قومه . ولقي بني مرين بفحص مسون ، وقد احتازوا الغنائم ، فاستنقذها منهم ، وقتل المخضب .

ورأس مرين بعد المخضب ابو بكر بن حمامة ، وتوفي سنة 561 فخلفه ابنه محيو . وحضر بقومه وقعة الاراك فجرح بها ومات بالزاب في صفر سنة 92 فخلفه ابنه عبد الحق ودخل بقومه المغرب سنة 610

على حين ضعف بني عبد المؤمن فحاربهم هو وبنوه حتى استولوا على مراكش وأسسوا الدولة المرينية • وهكذا قضى عبد المؤمن وبنوه على صنهاجة وأحيوا زناتة • فكانت هي القاضية عليهم ولا ايثار بالمعالي •

9 ـ المسيحية والاسرائلية

كان المسيحيون والاسرائليون بالمغرب من عناصر أجنبية عنه ومن بقي من البربر بعد الاسلام متمسكا باحدى الديانتين تنوسي أصله وصار معدودا من الاجانب • وكانوا يتمتعون بحرية واسعة حتى ظهرت دولة الموحدين •

وكانت الحروب الصليبية يومئذ بالمشرق قائمة على ساق وادعى الموحدون الخلافة • فلعل عبد المؤمن رأى أن يجعل المغرب كجزيرة العرب لا يجتمع فيه دينان حفظا لمركز الخلافة من الدسائس الاجنبية •

قال القفطي في كتابه أخبار العلماء باخبار الحكماء : « نادى عبد المؤمن في ممالكه باخراج اليهود والنصارى • وقدر لهم مدة • ومن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على ملته ولم يخرج بعد الاجل فهو في حكم السلطان مستهلك النفس والمال فخرج المخفون وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله • فاسر الكفر وأظهر الاسلام والتزم شعاره وجزئياته من صلاة وقراءة » اهـ •

قال ذوماس : « وبتوالي الايام اندمج المسيحيون في عموم جيرانهم المسلمين » اهـ • ويظهر أن اليهود لكثرتهم لم يندمجوا في غيرهم • وكان أبو يوسف المنصور يقول : « لو صح عندي اسلامهم

لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم • ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيأ للمسلمين ولكني متردد في أمرهم • ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني ، منذ قام أمر المصامدة ، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة • انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا ، والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم » اهـ • نقله صاحب المعجب • وقال :

« وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يتميز يهود المغرب بلباس يختصون به • وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك الى أن غيره أبو عبد الله الناصر بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر ، فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنة 621 » اهـ •

وقد صار الحفصيون يميزون ايضا اليهود بلباس ويسمونه الشكلة ، ولم يعد المسيحيون الى المغرب حتى بايع أهل مراكش المأمون وهو باشبيلية سنة 624 فلما توجه الى العاصمة بلغه أنهم نكثوا بيعته فاستعان بالمسيحيين ، وجلبهم من الاندلس • وشرط لهم حرية دينهم وان يبني لهم كنيسة بمراكش نفسها •

قال ذوماس : « وفي أيام ابناء المنصور كان رجال الطرق الكاثوليكية أمثال الفرنسيسكان والدومنيكان يتجولون في المغرب بكل حرية ويعاملون معاملة حسنة ويغشون مجتمعات التجار الاوربيين

ويؤدون هناك وظائفهم الدينية من عقد نكاح ووعظ ويزورون أسرى المسيحيين ويحملون لهم الاعانات وعبارات التسلية وربما اضطروا لاتباع زي أهل البلاد فسمح لهم البابا هنوريوس الثالث سنة 626 (1229 م) بتغيير لباسهم واطالة لحاهم ما داموا في المغرب (وكانت عادتهم حلق اللحي والشوارب) وارسل من جاء بعد هنوريوس من البابوات رسائل الشكر لأمراء الموحدين على حسن معاملتهم للمسيحيين الذين كثر عددهم حتى وضع على رأسهم قس من رتبة اقيك سنة 630 (1233 م) اهـ كلامه •

10 ـــ الاقتصاد والعمران والحضارة

لم تعرف الجزائر في حياتها ايام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه فنشطت لذلك الحركة الاقتصادية الداخلية ، وربط العرب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية وقوي اتصال المغرب بالمشرق تجاريا برا وبحرا ونظمت التجارة الاروبية مع المغرب تنظيما دوليا وكانت في الدرجة الثانية بالنسبة لتجارة المشرق •

عقد عبد المؤمن معاهدة تجارية مع دول أوربا وكانت جمهورية جنوة انشطها تجارة فعقدت مع عبد المؤمن معاهدتها التجارية سنة 548 (1153 م) ثم أوفدت سنة 555 (1160 م) قنصلها أطوبون من أسرة كاملة الشهيرة فقابله عمال عبد المؤمن بالاجلال أينما حل حتى قابل عبد المؤمن وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا على أن يأخذ عن البضائع الواردة الى بجاية العشر والواردة الى غيرها ثمانية من مائة • وأسست جنوة اثر هذه المعاهدة شركات خاصة للتجارة بالمغرب •

وكان ببجاية قناصل للدول التجارية لحفظ حقوق رعايا دولتهم

وكاتب خاص لضبط حساب تجار دولته وتقديمه للديوانة المؤمنية • ومراسي الجزائر التجارية العظمي يومئذ هـي هنين مرسى تلمسان وطريقها الى الاندلس خربها شرلكان • ويليها شـرقا المرسى الكبير فوهران فارزبو فمزغران فمستغانم فتنس فشرشال فالجزائر فبجاية فجيجل فالقل فاستورة قرب السكيكدة فبونة •

وكان تجار أروبا يستوردون من المغرب الزيت والصوف والشب وريش النعام والأدم ومواد الدباغة النباتية والشمع والزبيب وسـائر الفواكه الجافة ويصدرون اليه الملف وسائر الاقمشة والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن قطعا ومصنوعة أواني وأدوات منزلية كالمرجل والابر والسكين والناس اليوم من قبيلتنا وجيرانهم يسمون السكين « الجنوي » •

ولكي تتصور ما بلغتـه الثروة الجزائرية اجمالا استحضر ان دولتها المؤمنية كانت لا تعرف جـورا ولا يدخـل خزينتها إلا مال الزكوات وخراج الارضين وما تفرضه على السلع الاجنبية ومع ذلك كانت ماليتها وافية بشؤونها ولم يشك جنودها نقصا في المرتب أو تأخرا في قبضه على كثرتهم وانتصابهم في سائر المدن حاميات وانتقالهم حينا فحينا الى الاندلس مجاهدين أو الى افريقية للثورات مسكنين •

ولقد حافظت الدولة المؤمنية على ما قبلها من عمران وحضارة واربت على من تقدمها فيهما غير أن عنايتها بالاندلس والمغرب الاقصى أكثر من عنايتها ببقية المغرب وكانت ولاية تلمسان قد قلدت في حضارتها الاندلس أيام المرابطين ثم تلتها ولاية بجاية أيام الموحدين •

وفي سنة 540 أمر عبد المؤمن ببناء أسوار تاقرا مسقط رأسـه وأعلى الاسوار وحصن المدينة وبنى جامعها •

وفي سنة 555 عاد من فتح المهدية فمر بالبطحاء وكانت مدينة

بنواحي شلف شمالا شرقيا من غليزان ثم خربت فأمر عبد المؤمن ببنائها قال ابن ابي زرع :

« وسبب بنائه اياها انه لما طالت بالموحدين الاقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم وأولادهم عزمت طائفة منهم على اغتيال عبد المؤمن إذا نام في خبائه فأعلمه شيخ بنبئهم وقال له دعني أبت على فراشك فان فعلوا كنت فداءك فبات على فراشه فقتل ، فلما صلى عبد المؤمن الصبح افتقده فوجده مقتولا • فحمله بين يدي مسيره على ناقة لا يقودها أحد ، فلما بركت دفنه في مبركها وبنيت عليه قبة وبني بازاء القبة جامعها ، ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد ، وترك بالمدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب ، فقبر الشيخ هناك معظم عند أهل تلك البلاد يزار الى اليوم » اهـ •

وذكر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر في أخبار الدول مدينة البطحاء فقال : « مدينة عظيمة ببلاد الغرب في وطأة من الارض وتسمى مدينة البدرة وبها أنهار كثيرة » اهـ •

وقال ابن أبي زرع يذكر أبا يوسف المنصور : « وحصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم وأجرى الانفاق على أهل المارستانات والجذمى والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء واتخذ عليها المنارات وبنى المنازل من سوس الاقصى الى سويقة بني مضكود » اهـ •

وكان السادة من بني عبد المؤمن ولاة بجاية وتلمسان يعنون بالبناء والغراسة عناية الملوك ، قال ابن خلدون يذكر ابا الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبد المؤمن والي بجاية : « وهو الذي جدد الرفيع

والبديع من رياضها وكان بنو حماد شيدوهما من قبل ، فاصابهما الخراب » اهـ .

واذا كانت الحكومة عادلة حافظة للامن معنية بالاقتصاد والعمران مقيمة للحضارة فالامة تكون في ذلك أنشـــط ما يكون والبلاد أبهج ما يرى .

١١ ـ العـــلوم والآداب

لم يدع الموحدون الخـــلافة حتى نهضوا بما نهض بـــه قبلهم العباسيون والفاطميون من نشر العلوم الاسلامية والفلسفية تفســـيرا وحديثا وفقها وكلاما ومنطقا ورياضة وسياسة مدنية ومنزلية وخلقية وغير ذلك من كل ما عرف ببغداد والقاهرة قبل ، وامتاز عصرهم العلمي على ما قبله بالاتقان والدقة وعلى ما بعده بعدم الجمود والاقتصار على الموجود .

ولقد كانت العلوم الطبيعية والانظـــار الفلسفية مرغـــوبا عنها بالمغرب خصوصا أيام المرابطين الذين حكموا الفقهاء في دولتهم فارهقوا المفكرين خشية منهم على تعاليم الاسلام ، ولما جاء الموحدون وكـــان خلفاؤهم مشاركين في كل العلوم أحسنوا تمييز ما ينافي الدين منها مما لا ينافيه .

فحافظوا على جوهر الدين بنشر أصوله العقلية والنقلية وتركوا للعقول حريتها تجـــري طلقة العنان في ميادين البحث والاستنتاج ، ونشطوا أهـــل العلم قاطبة بادرار الرزق عليهم وشـــمولهم بعنايتهم وخالطوهم في مجالسهم ، وأنشـــأوا المدارس وكفوا طلبتها مؤنـــة الاسترزاق وكان يعقوب المنصور يقول :

« يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه أمر منكم فزع الى قبيلته ، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمـر فأنا ملجأهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون » • قال صاحب المعجب : فاه المنصور بهذا لما بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم •

وأظنك إذا صدقت البحث وأجدت النظر لا تجد عصرا تآخت فيه الفلسفة والشريعة كعصر الدولة المؤمنية ، فهذا الحفيد ابن رشد أعظم فلاسفة الاسلام تجده أيضا من أعاظم حفظة الشـريعة ناهيك بكتابه بداية المجتهد ، وكان مقربا لدى المنصور • فلم يحرم الناس مواهبه وكثر تلاميذه ، وكان منهم أبو عبـد الله محمد بن سحنون الكومي الندرومي من قرية ندرومة •

شملت هذه النهضة العلوم والآداب والصنائع والحرف ، فساعدت على انشاء مدنية ان لم تكن أعلى المدنيات فمن أعلاها ، قال الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم •

« ويتعلق بذكر الهالة ما حكاه أبـو عبـد الله بن عياش كاتب المنصور أبي يوسف يعقوب ، قال كان لابي بكر بن مجير وفادة على المنصور في كل سنة • فصادف في احدى وفاداته عليه فراغ المنصور من احداث المقصورة التي كان احدثها بجامعة المتصلة بقصره في حضرة مراكش ؛ وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله ، وقد انشده الشعراء في ذلك ، فلم يزيدوا على شـكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ، ولم يتصدوا لوصف الحال فانشد ابن مجير قصيدته التي أولها :

أعلمتنـي القى عصـا التسـيار في بلـدة ليسـت بدار قراري

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها :

طورا تكون بما حوته محيطة ... فكأنها سور من الاسوار
وتكون طورا عنهمو مخبوءة ... فكأنها سر من الاسرار
وكأنما علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحسنت بالامام يزورها ... في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهالات للاقمار

قال المقري : « وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف » .

وكان شاعر بني عبدالمؤمن من قسنطينة اباعلي حسن بن علي بن عمر الفقون . قال عبد القادر الراشدي : « وبنو الفقون من قرية فقونة بأوراس ولم يتحرر لي نسبهم » وفد على خلفائهم بمراكش ونظم رحلته في قصيدة ذكرها العبدري في رحلته والمقري في نفح الطيب ، وامتدح الناصر بن المنصور بقصيدة بليغة لما نزل بقسنطينة سنة 601 وكان كثر الوفادة على السادة من ولاة بجاية ، وله ديوان شعر كان موجودا بأيدي الناس .

وكانت بجاية يومئذ عاصمة المغرب علما وأدبا لا يفوقها إلا مراكش عاصمة الخلافة ، ولابي العباس الغبريني جزء في علمائها وادبائها طبع بالجزائر ، وهو متداول بين الناس .

12 ـ الاعتقادات والمذاهب الفقهية

كان مبنى اعتقاد المسلمين في الإله على الكتاب وصحيح السنة . يثبتون له من الصفات ما أثبتاه وينزهونه عما نزهاه عنه ، ثم ظهرت بعد ترجمة كتب اليونان وغيرهم أيام العباسيين طريقتا النظر والرياضة

لمعرفة الله ، وطريقة الرياضة نفرد لها فصلا بعنوان التصوف • وطريقة النظر والاستدلال بالطبيعيات على الإلهيات مع التقيد بالدين هي المسماة كلاما وأهلها متكلمين •

نكر أهل السنة طريقة الكلام ، وسموا أهلها معتزلة حتى جاء أبو الحسن الاشعري ، فقرأ على أبي علي الجباءي المعتزلي ، ولازمه الى الاربعين من عمره ، ثم اعتزل الاعتزال ونصر السنة بطريقة الكلام نفسها ، وألف كتبا كثيرة منها تفسيره المسمى المختزن في خمسمائة مجلد ، وكانت منه نسخة واحدة بدار الخلافة • فبذل الصاحب بن عباد ــ وكان يميل الى الاعتزال ــ لخازن المكتبة عشرة آلاف دينار ليحرقها » فاحترق ذلك التفسير فيما احترق من الكتب ، وكانت وفاة الاشعري ببغداد سنة 324 •

وانقسم أهل السنة الى سلفيين يؤمنون بآيات وأحاديث الصفات كما جاءت ولا يعتمدون على الكلام ، والى أشاعرة يعتمدون على الكلام ويؤولون بعض آيات وأحاديث الصفات •

وكان أهل المغرب سلفيين حتى رحل ابن تومرت الى المشرق وعزم على احداث انقلاب بالمغرب سياسي علمي ديني • فأخذ بطريقة الاشعري ونصرها وسمى المرابطين السلفيين « مجسمين » وتم انقلابه على يد عبد المؤمن ، فتم انتصار الاشاعرة بالمغرب • واحتجبت السلفية بسقوط دولة صنهاجة ، فلم ينصرها بعدهم إلا أفراد قليلون من أهل العلم في أزمنة مختلفة ، ولشيخ قسنطينة في القرن الثاني عشر عبد القادر الراشدي أبيات في الانتصار للسلفيين طالعها :

خبرا عني المؤول اني كافر بالذي قضته العقول

ومنذ أعلن المعز بن باديس مذهب مالك أصبح هو مذهب أهل السنة بالمغرب • وزاده المرابطون تأييدا • فكان لا يقطع أمر في

مملكتهم الا بمشورة الفقهاء المالكيين فعظم شأنهم ونفقت كتب المذهب • قال صاحب المعجب :

« وكثر العمل بكتب المذهب ونبذ ما سواها حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله (ص) فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء • ودان الناس بتكفير من يخوض في علم الكلام • وقرر الفقهاء عند علي بن يوسف بن تاشفين تقبيحه وكراهة السلف له وانه بدعة في الدين ، وربما أدى الى اختلال في العقائد فكان يكتب عنه في كل وقت بالتشديد في نبذه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، وأمر باحراق كتب ابي حامد الغزالي لما دخلت المغرب ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها واشتد الامر في ذلك » اهـ •

ولم يكن يومئذ بالمغرب غير مذهب مالك وربما كان من أهل الاندلس من أخذ بمذهب الشافعي أو أبي سليمان داوود امام أهل الظاهر • وولادته سنة 202 ووفاته سنة 270 وأظهر من أيد مذهبه بالاندلس ابن حزم المتوفي سنة 456 •

وعكست دولة الموحدين كل ما كان أيام المرابطين ، ففي سنة 550 بنى عبد المؤمن المساجد وأصلحها وحرق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث ثم جاء حفيده المنصور فجرد كتب الفقه من الآيات والاحاديث ، ثم حرقها ، فاحرقت مدونة سحنون ونوادر ابن أبي زيد ومختصرة وتهذيب البرادعي وواضحة بن حبيب وغيرها • ومنع الاشتغال بعلم الرأي وأمر جماعة من المحدثين بجمع أحاديث من الموطأ والصحيحين والترمذي وأبي داوود والنسائي والبزار وابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي فجمعوا منها أحاديث في الصلاة وما يتعلق بها فكان يملي هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه • فانتشر

في جميع المغرب وحفظه العامة والخاصة • وجعل لمن حفظه جعلا من كسي وأموال •

قال صاحب المعجب : وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث • وكان هذا مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره هو » اهـ •

قال ابن الاثـير : « واستقضى يعقوب المنصور آخـر أيامه الشافعية على بعض البلاد • ومال اليهم » اهـ •

13 ـ التصـوف والصـوفية

كان عليه الصلاة والسلام مجتهدا في العبادة حتي ورمت قدماه • ولكنه نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للعبادة • وصح عنه « ان الله لا يمل حتى تملوا » وظهر بعده بالبصرة وغيرها نساك بالغوا في التعبد ونقلت عنهم حكايات غريبة في التواجد لسماع القرآن فأنكر عليهم الصحابة وعلماء التابعين •

قال ابن تيمية في رسالته الصوفية والفقراء : « والمنكرون لهم مأخذان • منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا • يذكر عن محمد بن سيرين انه قال ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط • فان خر فهو صادق ومنهم من أنكر ذلك لانه رآه بدعة مخالفة لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن اسماء وابنها عبد الله » اهـ •

ثم ظهر على مرسح السياسة غلاة الشيعة الامامية والاسماعيلية والقرامطة • فلما غمرتهم القوة العباسية تدثروا بالزهـد والنسك •

ونشروا دعاتهم في البلاد لاصطياد غفل العوام باشراك سداها التدجيل بالغلو في العبادة والمبالغة في تعظيم آل البيت ونسبة الكرامات اليهم • وبهذا تأسست دولة بني عبيد الذين كان منهم من ادعى الالوهية أو أدعيت له •

هذه صورة مصغرة لحياة المسلمين الدينية والسياسية في القرن الثاني • قال السهروردي : « ولم يعرف اسم التصوف الى المائتين من الهجرة » اهـ • ولا يعرف بالضبط تاريخ ظهور التصوف ولا واضعه ولا أول صوفي • وقد قيل ان الصوفي منسوب الى صوفة الذين كانوا يجيزون بالحجاج في الجاهلية • وأول من سمي منهم صوفة هو الغوث ابن مر بن ادبن طابخة بن الياس بن مضر ، ويزيفه انه لم يعرف اسم الصوفية لطائفة من العباد ذات شعار خاص لا في الجاهلية ولا زمن الصحابة والتابعين ، وهناك أقوال في توجيه لفظ الصوفي ، نقضها القشيري في رسالته ، وقال : « لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والا ظهر انه كاللقب » اهـ •

ولم يوجه القشيري تلقيبهم بهذا اللقب • فكأنه اعترف بانه لا أصل له في العربية • وهو الحق ، فان التصوف معرب تيو صوفية (THEOSOPHIE) وهو لفظ يوناني مركب من تيوص بمعنى الإله وصوفية بمعنى الحكمة • وهي طريقة رياضية لمعرفة الله ، يزعم أهلها مناجاته ووحيه اليهم ونيلهم منه عرفانا ومننا خاصة وانه يتجلى لهم في الكون أو الطبيعة حتى يمتز جوابه ومذهبهم وحـدة الوجود ، ولمريديهم درجات في السلوك الى هذه الغاية •

هذا هو التصوف الذي عرفه اليونان والهنود قديما ، ثم استقت منه المسيحية حتى اذا انتشرت باروبا غطته فتنوسي بها الى أن أحياه بالتآليف العديدة سبينوزا بروخ اليهودي المتوفي بمدينة لاهاي سنة 1088 (1677 م) فصار التصوف معروفا اليوم بأروبا •

ودخلت لفظة التصوف اليونانية الى العربية لما ترجمت كتب اليونان والهند في الدور العباسي لا سيما أيام المأمون ، وكان ذلك العصر عصر اختلاف ديني واضطراب سياسي ، فأخذ من التصوف كل فريق حسب استعداده وصوره بما يلائم غايته ، واختلفت قواعد التصوف ونظمه باختلاف جنسية المتصوف وعصره ومصره وميله إذ العمدة فيه الرياضة وما يرد على صاحبها أثناءها من خواطر والهامات ، فليس له ضابط يضبطه ولا قانون يسيطر عليه .

وكان من الصوفية من يعتمد على الرياضة وحدها ومنهم من يقيدها بالدين ، فتعددت مذاهبهم الى سنيين ومبتدعين ومارقين من الدين يقولون بالوحدة المطلقة أو الاتحاد المطلق أو الحلول المطلق أو الحلول الخاص ، ولهم في تصوير مذاهبهم عبارات غامضة واشارات بعيدة ، فربما يجمع قارئي كلامهم بين الايمان والكفر وهو لا يشعر ، فيصير كمن قال :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وكان سيد الصوفية السنيين ابو القاسم الجنيد المتوفي سنة 297 يقول : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » وقال : « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الامر لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .

وقد استعمل غلاة الشيعة بعض الصوفية في مقاصدهم السياسية ، فألف منهم جماعة في القرن الرابع رسائل سموها « رسائل اخوان الصفا » وبثوا فيها من الكفر والضلالات والاستخفاف بالشريعة ما يعلم بمطالعتها ، وقالوا انهم جمعوها من كلام الخلصاء الصوفية .

وذكر ابن خلدون في المقدمة امتزاج التصوف والشيعة الامامية ،

فقال : « ثم أن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة . وملؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم .

« وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وألهية الأيمة مذهبا لم يعرف لأولهم ، فاشرب كل من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم » .

« وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان ، وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها .. وهو بعينه ما تقوله الرافضة ، ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء ، ثم انهم أسندوا لباس خرقة التصوف الى علي (رض) وهو من هذا المعنى ايضا ، وإلا فعلي (رض) لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال » اهـ .

وتصوف ابن سينا انما هو تصوف يوناني مأخوذ عن ارسطاطليس ، قال القفطي متكلما عن مترجمي كتب ارسطاطليس : « وأقرب الجماعة حالا في تفهيم مقاصده في كلامه الفارابي ابو نصر وابن سينا ، فانهما دققا وحققا فحملا علمه على الوجه المقصود واعذبا منه لو ارده مذهبه المورود ، ووافقاه على شيء من أصوله فكفرا بكفره » اهـ . ثم قال في الكلام على الالهيات : « وقد قرب من ارسطاطليس في قوله فيها الفارابي وابن سينا » اهـ .

وقد استمال الصوفية العامة بظواهرهم فمالت اليهم لتقريبهم لها

طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم ، وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين ، فكان للصوفية فيهم نفوذ اضطر الامراء الجائرين الى خدمتهم وعلماء السوء إلى تأييدهم من غير فرق بين سني وغيره ، فأصبح التصوف مطلقا هو لب الدين في عقد العامة ومغفلي العلماء ، ويرحم الله القائل :

وهل أفسد الدين الا الملوك واحبار ســـوء ورهبانها

وقد ضج العلماء الناصحون والصوفية السنيون من أعمال عامة الصوفية واضلالهم للعامة ، قال القشيري من أهل القرن الخامس في صوفية عصره : « ثم اعلموا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زمننا هذا منهم الا أثرهم :

اما الخيام فانها كخيامهم وارى نساء الحي غير نسائها

زال الورع وطوي بساطه ، واشتد الطمع وقوي رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالات بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا باداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا الى اتباع الشهوات وقلــة المبالات بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من الســوقة والنسوان واصحاب الســلطان » .

« ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا الى أعلى الحقائق والاحوال وادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال وتحققوا بحقائق الوصال وانهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وانهم كوشفوا باسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية

وبقوا بعد فنائهم عنهم بانوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم اذا نطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا » اهـ .

ولابي حيان النحوي المتوفي سنة 745 في صوفية عصره :

حلبت الدهر أشطره زمانا ... وأغناني العيان عن السؤال
فما ابصرت من خل وفي ... ولا ألفيت مشكور الخلال
ذئاب في ثياب قد تبدت ... لرائيها باشكال الرجال
ومن يك يدعي منهم صلاحا ... فزنديق تغلغل في الضلال
ترى الجهال تتبعه وترضى ... مشاركة بأهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم ... نساءهمو بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورا فيرمي ... عمامته ويهرب في الرمال
ويجرون التيوس وراء رجس ... تقرمط في العقيدة والمقال

ولشيخ الاسلام أحمد بن تيمية المتوفي سنة 728 رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور أجاب بها عن استفتاء رفع اليه ونصه :

« ما تقول السادة العلماء ايمة الدين وعلماء المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين بمن يزور القبور ويستنجد بالمقبور في مرض به أو بفرسه أو بعيره يطلب ازالة ذلك المرض ويقول يا سيدي أنا في جيرتك أنا في حسبك : فلان ظلمني فلان قصد أذيتي . ويقول ان المقبور يكون واسطة بينه وبين الله تعالى ، وفيمن ينذر للمساجد والزوايا والمشائخ حيهم وميتهم ، الدراهم والابل والغنم والشمع والزيت وغير ذلك : يقول ان سلم ولدي فللشيخ عليّ كذا وكذا وامثال ذلك وفيمن يستغيث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع وفيمن يجيء الى شيخه ويستلم القبر ويمرغ وجهه عليه ويمسح القبر بيديه ويمسح بهما وجهه وأمثال ذلك ، وفيمن يقصده بحاجته ويقول يا فلان ببركتك أو يقول قضيت حاجتي ببركة الله وبركة

الشيخ ، وفيمن يعمل السماع ويجيء الى القبر فيكشف ويحط وجهه بين يدي شيخه ساجدا ، وفيمن قال ان ثم قطبا غوثا جامعا في الوجود . افتونا مأجورين وأبسطوا القول في ذلك » اهـ .

ومما يستغرب اتفاق عالمين جزائريين وحجازي في القرن الحادي عشر على وصف صوفية زمانهما بوصف واحد ، قال الاخضري الجزائري » اهـ .

وظهرت في هذه البلاد طائفة البلع والازدراد

وقال شهاب الدين المرشدي المكي الحجازي :

صوفية العصر والاوان صوفية العصر والاواني

قال محشي شيخ الاسلام زكرياء على الرسالة القشيرية الشيخ مصطفى محمد العروسي من أهل القرن الثالث عشر في عقيدة له :

« اني بذلا للنصيحة أحذرك من متابعة مشائخ هذا الوقت ممن لا يثمر الاجتماع بهم خلاف المقت اذ هم قطاع طريق الله على عباده وأعداء الاولياء الداعين الى سبيل ارشاده حيث لا همة لهم الا جمع العرض الفاني ولا سعي لهم الا في تجريد القاضي والداني أزاحهم الله من جميع البلاد وأراح منهم الدواب والعباد .. فعليك يا أخي في مثل هذا الوقت بخاصة نفسك وتباعد عمن بهم تزيد قاذورات رجسك ، وتابع هدى سيد المرسلين وامام كل النبيئين والمرسلين فكافيك التمسك بالقرآن والتنسك على طريق سيد ولد عدنان ولا تغرنك ـ لو فرض ـ خوارق العادات فانها كما تكون للكرامة توجد لقصد الاهانة ، فهذه وصيتي اليك قد ذكرتها شفقة عليك دعاني الى ذكرها رعاية المقام فتقبلها ومني عليك السلام » اهـ .

وقد أطلنا خلاف عادتنا في هذا الموضوع ، ولكناً في الحقيقة قد

بالغنا في الايجاز فانه موضوع طويل عريض . ولـــه بحياة المسلمين الدينية والسياسية ارتباط قوي ، فلا يجدر بالمؤرخ اهماله وان لم يسعه استقصاؤه .

وقد عرفت الجزائر التصوف زمن بني عبيد ، لكن العلماء انكروا عليهم وكفروهم حتى قال محمد بن عمار الكلاعي الميروقي يوصي ابنه من قصيدة :

وطاعة من اليه الامر فالزم وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بني عبيد فلا تسكن ديـــار الكافرينا

فلم يكن يومئذ بالمغرب شأن للصوفية الـــى أن جاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة ، فظهر من الصوفية رجال ذوو علم طار صيتهم في الآفاق ولكن لقوة نفوذ الدولة لم يتغلبوا على العامة حتى سقطت وخلفتها دول تنازع امراؤها أمرهم بينهم فضعف سلطانهم ، وعلت كلمة الصوفية فمثلوا أدوارهم مع العامة وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيا وسياسيا .

ومن مشاهير الصوفية الذين عرفتهم الجزائر أبو مدين شعيب الاندلسي دفين تلمسان المتوفي سنة 591 (أو) 594 قرأ بفاس على ابن حرزهم وغيره وأخذ التصوف عن ابي يعزى وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه واستوطن بجاية فكان يقرئى بها رسالة القشيري وغيرها ، وكثر أتباعه فاستقدمه يعقوب المنصور الى مراكش فلما بلغ تلمسان توفي بها ودفـــن برابطة العباد ، وضريحه مشهور يتبرك بـــه .

ومن كلامه « بفساد العامة تظهر ولاة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون » وقال : « احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك ، واحذر محبة النساء فهو أبقى على قلبك » .

ومنهم محي الدين بن عربي الاندلسي دفين دمشق المتوفي سنة 638 وكان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات يميل في فلسفته الى الغموض ، ومن آرائه : « التثليث أساس الوجود ، ومع ان الله في اعتقادنا فرد فاول عدد فردي ثلاثة لا واحد » .

ومنهم ابو الحسن الشاذلي نسبة الى شاذلة قرية بتونس قيل انها مرناق ، وتوفي بارض الحجاز سنة 655 والناس فيه بين مادح وقادح ، وله أوراد واذكار انتشرت في الناس غربا وشرقا ، وتفرع من طريقته طرق كثيرة ، ويلقب اتباعه بالدراويش وبالفقراء ، والدرويش كلمة فارسية معناها القانع أو الفقير .

ومن كلامه : « اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بهما ودع كشفك ، فان الله قد ضمن فيهما العصمة ولم يضمنها في الكشف » .

ومنهم عبد الحق بن سبعين المتوفي سنة 669 سكن بجاية مدة وأقرأ بها ثم لحق بالمشرق وجاور بمكة ، وعن قطب الدين القسطلاني انه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين وتملك التتر للعراق واستعمال الحشيشة حكاه في نفح الطيب وذكر أيضا : « ان الامير ابا عبد الله بن هود من أمراء الاندلس أرسل سفيرا عنه الى البابا برومة ابا طالب بن سبعين أخا عبد الحق فقال له البابا ان أخاك ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه » وارى أن هذه الشهادة ان لم تدل على مواصلة سرية بين البابا وعبد الحق تدل على قرب مذهبه من المسيحية . ومن كلامه في أبي مدين : « شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة » .

هذا وقد اتخذ دجاجلة الصوفية الانتساب الى سني صوفي عظيم سببا للارتزاق وخلبوا عقول العوام بالظواهر والدواعي . وغمروها

بالخرافات والاضاليل فأوردوها موارد الردى وصدوها عن سبل الهدى • ولله عبد الحق الاشبيلي استاذ بجاية اذ يقول :

لا يخدعنك عن دين الهدى نفر لم يرزقوا في التماس الحق تأييدا
عمي القلوب عروا عن كل فائدة لانهم كفروا بالله تقليدا

14 — سقوط الدولة المؤمنية

كان الاولون من خلفاء هذه الدولة يباشرون أمور المملكة بأنفسهم ويطالعون أخبار حكامهم ولا سيما المنصور • فقد قال عنه صاحب المعجب ما ملخصه :

« وكان يقعد للناس عامة ولا يحجب عنه صغير ولا كبير حتى قضى بين رجلين في نصف درهم • ثم قعد للناس في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة • وكان قاضيه يجلس حيث يسمع حكمه في جميع القضايا ، ليس بينهما غير ستر من ألواح وكان يدخل عليه أمناء الاسواق وأشياخ الحضر مرتين في الشهر يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم • واذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عنه عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، ويحذرهم كتمان الشهادة ، وقد يتلو قوله تعالى : يايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » اهـ •

بهذا استقامت أمورهم ، فلما ولي الناصر تغيرت الحالة بعض التغير ففوض الشؤن لوزيره أبي سعيد بن جامع الذي لم يكن نبيه البيت في الموحدين ، فاستهان بشيوخهم حتى فر من بساط الناصر من يعتمد عليه منهم •

وفي سنة 607 خرج الناصر لغزو الاندلس بعدما استنفر الناس

عامة ، وأساء ابن جامع التدبير ، وأوغر صدور بعض العظماء ، فكانت وقعة العقاب على المسلمين سنة 609 فني فيها أكثر رجال الدولة وذهبت الحامية من البلدان وانحرف قواد الاندلس عن بني عبد المؤمن ثم ظهر الخلاف بينهم انفسهم ، وتواثبوا على عرش مراكش ، فاختلت الدولة .

وفي سنة 610 صعد بنو مرين الى تلول المغرب الاقصى ، فملكوا بواديه وأعلنوا حرب بني عبد المؤمن سنة 613 واقتطع عنهم ابو زكرياء الحفصي ولايتي تونس وبجاية سنة 28 وثبت يغمراسن بن زيان والي تلمسان على ولايتهم حتى أخضعه أبو زكرياء سنة 640 .

وفي سنة 610 صعد بنو مرين الى تلول المغرب الاقصى ، فملكوا واجفل امامه بنو مرين ، ووفد عليه يغمراسن ابن زيان في ألف فارس من قومه ، فبايعه بفاس وخلع عليه السعيد وأمره باستئصال مرين وأمده بالاموال والرجال ، فخرج اليهم يغمراسن حتى ألحقهم بكرت ، ثم عاد الى فاس فقيل له انك مغدور ، فغادر فاسا هو وقومه وسالم بني مرين ، وبعث اليه السعيد بالامان ، فامتنع خشية الغدر .

وفي سنة 45 خرج السعيد من مراكش لاخضاع المستبدين عليه من بني مرين وبني عبد الواد وبني ابي حفص ، وحشد أمما كثيرة ، وبلغ تازا في المحرم سنة 46 فأرسل اليه أمير مرين ابو يحي ابو بكر ابن عبد الحق ببيعته ، وعرض عليه العود الى مراكش وانه يكفيه أمر يغمراسن ، وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة ، فشكر لابي يحي خدمته ، وأمره بامداده وتوجه نحو تلمسان .

وخرج يغمراسن في أهله وقومه الى قلعة تامزدكت قبلة وجدة فاعتصم بها وأوفد وزيره الفقيه عبدون على السعيد بالطاعة والاعتذار عن تخلفه ، فابى السعيد الا حضوره ، فامتنع يغمراسن خشية على

نفسه فقصد السعيد القلعة وأحاط بها ثلاثة أيام وفي الرابع ركب حين القيلولة يبحث عن عورة يأخذ منها القلعة فبصر به فارس من بني عبد الواد كان يحرس القوم ، فطعنه وكبه عن فرسه ، وكان يغمراسن وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه ، فعرفا السعيد وانقض القوم من الشعاب على مواليه • وبلغ النبأ المحلة فتفرقوا ايدي سبا وذلك في صفر سنة 46 •

وبادر يغمراسن الى السعيد وهو يجود بنفسه فحياه وفداه واقسم له على البراءة من دمه فلما قضى حمله الى العباد ودفنه وارسل مع حرمه واخته من اوصلهن الى مأمنهن ، وانتهى أمر بني عبد المؤمن من تلمسان ثم قضى عليهم بنو مرين بدخولهم مراكش سنة 68 •

وكانت مدة هذه الدولة بولاية بجاية من سنة 547 الى سنة 628 وبولاية تلمسان من سنة 539 الى سنة 646 ومدتها منذ مبايعة المهدي بتينملل الى القبض على اسحق ابن اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن بتينملل من سنة 515 الى سنة 674 •

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأنهم أحلام

الباب الخامس

في احـوال العـرب

لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينيين

ا ـ تمهيـد :

استكان العرب بعد ثورة ابن غانية لقوة الدولة التي عرفت كيف تسوسهم • لكن الحفصيين نواب بني عبـد المؤمن بتونس استقلوا عنهم • وحنو الى وطنهم • فطمعوا في فتح مراكش • ولم يقووا على تحقيق آمانيهم الا بمعاضدة زناتة • فعاضدتهم وهي تسر حسوا في ارتغاء • وكانت النتيجة سقوط الدولة المؤمنية وقيام ثلاث دول مكانها هم الحفصيون والزيانيون والمرينيون •

لم تعترف هـذه الدول بعضها لبعض بالاستقلال • فاستمرت الحروب بينهن • وربما وقعت الحرب بين الامراء المرشحين للملك في الدولة الواحدة • وتقاربت قواتهم الحربيـة والسياسية فلم ينحسم النزاع •

وكان ملوك تلك الدول في حاجة الى العرب لكن اضطربت سياستهم معهم • فاذا كانت الحرب واحتاجوا اليهم اقطعوهم الاراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة ونفحوهم بالهدايا والاموال وقربوهم بالصهر والاستشارة • واذا استغنوا عنهم بالسلم قلبوا لهم ظهر المجن وحاولوا تجريدهم من امتيازاتهم • فلم يعدم العرب في الامراء المرشحين للملك والملوك الطامعين في التوسع ما يعينهم على احداث ثورة للاحتفاظ بامتيازاتهم •

وكان العرب يحسنون الاستفادة في أمثال هذه الظروف لتقوية حريتهم وتوسيع مجالات تنقلهم في الشمال والجنوب وكانوا يفترقون حسب افتراق مصالحهم على الدول والملوك •

ونتج عن هذه السياسة ضعف الدول وفقد الامن وقلة الانتاج واستحكام العداوة بين القبائل وطمع اسبانيا في امتلاك المغرب ، ولولا قيام الدولة التركية بأساطيلها في وجوه الدول الاروبية للحق المغرب بالاندلس وصقلية • على أن عوامل الافتراق التي غرست في هذا الدور لم تزل تنخر جسمنا الى اليوم •

والمسئول عن هذه النتائج السيئة هم الحفصيون الذين أسقطوا الدولة المؤمنية حامية الاندلس وآسية العرب • ثم عجزوا عن حفظ المغرب وتوحيده • ثم اضطربت سياستهم مع العرب وقووا أغراضهم في الحياة البدوية بدلا من تمدينهم وتهذيبهم • والعرب بداة لا غرض لهم في الملك • فليس عليهم ضمان في هذه النتائج السياسية التي هي خاصة الملك •

ولعلنا بهذا الفصل وضعنا أساس البحث للناقد البصير في قواعد ابن خلدون الاجتماعية التي وضعها على حساب العرب البداة دون الحفصيين الملوك الذين كان ريشه منهم هواه معهم • يعرف ذلك من عرف حياته ودقق النظر في أساليب تاريخه • فأدرك الفرق بين أسلوبه في الدولة الحفصية وأسلوبه في غيرها • حتى انه أجهد نفسه في تصحيح نسب ابن تومرت في آل البيت ونسب الحفصيين في آل عمر بن الخطاب (رض) مع انه انكر انسابا هي أقوى من هذين النسبين والكمال لله •

2 — رياح والاثبج وسليم

كانت قبيلة عوف بن سليم تجاور رياحا على حدود عمالة قسنطينة ، وتبلغ ناجعتها نواحي بونة ، ولها بطنان هما مرداس وعلاق ، ومن علاق حصن ويحي ومن حصن حكيم وبنو علي ، ومن يحي العكوب ، ومن العكوب أولاد مهلهل وأولاد ابي الليل ، ومن أولاد ابي الليل الاعشاش •

وكان ابو زكرياء الحفصي اصطنع عوفا على رياح فاخرجتهم الى عمالة قسنطينة ، وجازتها الدولة على ذلك بالتضريب في بطونها ، حتى لا يستبدوا عليها فكان المغلوبون من عوف ينزلون على رياح للاجلاب على الدولة ، واستقرت رئاسة عوف في أولاد مهلهل وأولاد أبي الليل ، وتنازعوا أمرهم بينهم وأصبح حال الدولة بينهم حال القائل : رضى هذا يحرك سخط هذي •

وحكيم كانوا يحالفون تارة أولاد مهلهل وأخرى أقتالهم ، واشتهر من شيوخ حكيم أبو زيد بن عمر بن يعقوب وابنه خليفة ومحمد ابن مسكين وخليفة ابن أخيه ، وكان منهم أول القرن التاسع الشيخ المرابط أحمد بن أبي صعنونة بن عبد الله بن مسكين •

وكان بمقرة بيوت من دباب ومرداس ، أوقع بهم المستنصر سنة 651 واعتقل منهم بالمهدية رحاب بن محمود وابنه في آخرين •

وأقطع الحفصيون كرفة بادس والزاب الشرقي وجباية أوراس الشرقي ، ليوقعوا رياحا بين نارين ، فلم تفعل كرفة أكثر من المحافظة على اقطاعها ، ولم يجدوا في بقية بطون الاثبج من يقدر على مقاومة رياح ، وان بقيت في بعضهم رئاسة •

قال ابن خلدون : « ورئاسة أولاد وشاح من دريد لعهدنا منقسمة

بين سحيم بن كثير بن جماعة بن وشاح ، وأحمد بن خليفة بن رشاش ابن وشاح ورئاسة أولاد مبارك بن عابد منقسمة ايضا بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك ، وعبد الله بن أحمد بن عنان ابن منصور » اهـ .

وكان شيخ محيا من العمور في القرن الثامن عامر بن أبي يحي ابن محيا حج ولقي بمصر يوسف الكوراني شيخ الصوفية ، فلقن طريقه وحمل عليها قومه وعني بتأمين السبل فحارب التضر جيرانه لافسادهم . فاغتالوه .

وفي عصره كان شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن ابي زيد ابن زكرير فكان يناهضه في شرفه ، ولكن عامرا اسود منه لمعه بين مشيختي القبيلة والطريقة .

وكانت عياض تتولى جباية جيرانها من البربر لصاحب بجاية وأكثر الاثبج عجزوا عن الظعن وأقاموا بالمدن وانضوى تحت لواء رياح الضحاك ولطيف والعمور الشرقيون .

غلبت رياح أولا على منطقتي الهضاب والصحراء من عمالة قسنطينة الى زاغز من عمالة الجزائر . وعنوا بالفلاحة وتربية المواشي ، فأثروا وكثروا واعتزوا على الدولة الحفصية لبعدهم عن عاصمتها ، وأصبحوا مأمنا لكل مسخوط من الدولة وعَونا لكل ثائر يخطب الملك .

وكانت لهم امتيازات واقطاعات منحهم اياها ملوك أعانوهم على تبوأ العرش أو على حمايته من ثائر عليه حتى ان الذواودة كان لهم بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم علاوة على ما بايديهم من البلاد وما لهم من خفارات ، وكانوا معفين من الضرائب وكان هذا مما يضر بمالية الدولة .

وكانت الحكومة اذا آنست من نفسها القوة انتقمت منهم على اعانتهم لثائر أو نقصتهم عطاءهم أو منعتهم اياه ، فلم يعدموا في ملوك زناتة أو أمراء البيت الحفصي قائدا للثورة ، وهكذا استمرت حياة رياح والحفصيين • واختلفت أيامهم سلما وحربا ، ولم تزد رياحا الايام إلا قوة •

وكانت بطانة الحفصيين يستعملون نفوذهم مع رياح وغيرها في مصالحهم الخاصة وحسب أهوائهم ، فربما دعوا القبيلة اليوم الى طاعة ملك ودعوها غدا الى حربه ، وهذا عبد الرحمن بن خلدون كان مع الحفصيين فدعا رياحا لطاعتهم ثم فارقهم • فدعاها لابي حمو الثاني سنة 769 ثم حملها على حربه ومحالفة عدوه عبد العزيز بن ابي الحسن سنة 772 • ومع هذا التلاعب الذي لم يسلم منه فيلسوفنا نراه يؤنب العرب ان جرؤا على الدولة •

وكانت بطون رياح تبعا للذواودة الذين كان منهم مسعود بن سلطان واخوه عساكر ومحمد بن مسعود • واستمرت الرئاسة في أولاد مسعود • ومال عنهم ابناء عساكر للدولة سنة 666 فولى المستنصر رئاستهم مهدي بن عساكر ثم ابنه ماضي ثم موسى ابن ماضي • واقطعتهم الدولة نقاوس ، وحالفتهم عياض • ولكن غمرهم اولاد مسعود •

وكان محمد بن مسعود مع يحي بن غانية وتوفي بعد وفاته • فخلفه ابنه موسى • وكان عظيم الصيت معتزا على الدولة • ووفد على أبي زكرياء لما نزل بباغاية سنة 47 فبايعه • وتوفي أيام المستنصر • فخلفه ابنه شبل • واستطال على الدولة • وبايع أبا القاسم بن عبد الرحمن ابن الامير عبد الواحد سنة 661 وقد نزل عليه بنقاوس • وخرج اليه المستنصر سنة 64 فبلغ المسيلة • واعجزه • فعاد الى تونس • وأمر عامل بجاية أبا هلال باستئلافه •

وخرج المستنصر سنة 666 فعسكر بالحضنة على ثنايا الزاب ازاء جموع رياح • وترددت الرسل بين شبل وابي هلال • فأقنعه بحسن عاقبة الوفادة على السلطان • فقدم هو وأخوه يحي وسباع بن يحي ابن دريد بن مسعود وطلحة بن ميمون بن دريد وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود ودريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة • فضرب المستنصر أعناق هؤلاء الامراء • وصلب اشلاءهم بزرايا قرب نقاوس حيث بايعوا ابن عمه ابا القاسم • وأجفلت رياح والعساكر أثرها تنهبها حتى قطعت وادي جدي ، فرجعت العساكر ، ولحق أولاد يحي بن دريد بيغمراسن ابن زيان ، وبنو محمد بن مسعود بيعقوب بن عبد الحق فأكرموهم ووصلوهم بالمال والخيل والابل والكراع •

وعادت رياح فغلبت على ورقلة ووادي ريغ ، وتقدموا الى الزاب فهزموا عامله عثمان بن محمد بن عتو ، ثم قتلوه بقطاوة ، وملكوا أوراس أيضا ، وقتلوا موسى بن ماضي ، وأخذوا الحضنة ، واضطرت الدولة الى مهادنتهم ، فاقطعهم السلطان ابو اسحق أخو المستنصر ما غلبوا عليه •

ونشأ سباع بن شبل في كفالة عمه مولاهم بن موسى ، ورأس على قومه واقطعته الدولة المسيلة ، وتربى علي بن سباع في حجر عمه طلحة بن يحي وصارت اليه المسيلة وبقيت في عقبة ، وكانت مقره في اقطاع أحمد بن محمد بن مسعود وخلف سباع بن شبل ابنه عثمان العاكر ، وخلف علي بن سباع ابنه سليمان فتنازعا رئاسة قومهما ، وافترق أولاد مسعود الى فرقتين أولاد محمد وأولاد سباع بن يحي وافترقت عليهم رياح فكان سعيد مع أولاد محمد ، ومسلم والاخضر مع أولاد سباع ، واقتسموا المواطن بورقلة وريغ والزاب والحضنة والتلول ، فكان لاولاد سباع المسيلة وجبال عياض ومتنان ووانوغة

ونواحي بجايـــة ، ولاولاد محمد مقـــرة والزاب الاوسط ونواحي قسنطينة ، وكانت طولقة والزاب الغربي بينهم • فتقاتلوا عليه حتى اختص به أولاد سباع • ولكن مواطن أولاد محمد أخصب وأوسع وسيادتهم أعظم وعددهم أكثر •

ثم افترقت رئاسة أولاد سباع بين علي وعثمان ابني سباع بن يحي وعثمان هذا هو الذي وفد سنة 701 على السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان وحرضه على ملك بجاية •

وخلف علي بن سباع ابنه سليمان ثم ابنا سليمان عطية ويوسف ثم عثمان بن يوسف الذي أخذ بطاعة ابي عنان المريني ، ويرادف أولاد سليمان أخوتهم أولاد يحي أخي سليمان •

وانتقلت رئاسة أولاد محمد الى أولاد أحمد بن عمر صاحب مقرة ، فتولاها أبو يحيى بن أحمد الى أن هلك أوائل المائة الثامنة ، فخلفه أخوه علي ، وكان أعظم أمراء رياح ، وخلفه ابنه يعقوب ، وطالت مدته ، حتى توفي سنة 790 بنقاوس ودفن ببسكرة واشتهر من ابنائه صولة ومحمد •

وكان يعقوب بن علي أعظم أمراء رياح من سبقه منهم ومن لحقه• له ولوع بالفلاحـــة والعمران ، اختط قريـــة فرفار قرب طولقة ، ونزل عليه بها ابن خلدون في وفادته على سلطان تونس سنـــة 780 وله أملاك بطولقة ونقاوس والصحراء والتل ، وله رغبة في السلم ، وكثيرا ما يصلح بين أمراء الحفصيين أو بين الامراء والرعايا ، ونزل عليه الامير أبو يحي زكرياء لما ثار على أخيـــه سنة 759 واصهر اليه في ابنة اخيه سعيد فانكحه اياها •

وكان يعقوب قد بايع ابا الحسن المريني • وفد عليه في زحفه على تونس بأرض بني حسن قرب البرواقية ، وذهب معه أخوه ابو دينار

سليمان الى المغرب حتى مات • فوفد على ابنـــه ابي عنان واكرمه ، وطلب منه تسهيل السبيل لفتح تونس ، فلما زحف اليها ابو عنان بايعه يعقوب واخوه سليمان ، وخالفهما اخوهما ميمون الى ولاء الحفصيين• ثم رأى يعقوب محاولة ابي عنان لانتزاع امتيازاتهم فنبذ طاعته سنة 58 وخالفه اليه ميمون ، ورام ابو عنان ارضاء يعقوب او القبض عليه ، فلم يقدر على أكثر من تخريب قصوره بالصحراء والتل •

ثم حج يعقوب وعاد فالفى قومه في حرب مع أمير قسنطينة ابراهيم بن السلطان ابي العباس لمحاولته نزع امتيازاتهم ، فسعى في الصلح وطلب من ابراهيم انصاف العرب فأعرض عنه فاعتزل يعقوب الحرب وتوفي فخلفه ابنه محمد وفرق عنه ابراهيم كلمة رياح وحاربه فانهزم ، فلما أصحر محمد جد ابراهيم في حماية التلول عنـــه واضطره الى المصيف في الزاب سنة 92 ثم هجم على التل في السنة التالية ، ومات الامير ابراهيم وتفرقت جموعه فتقدم محمد بن يعقوب الى نواحي قسنطينة ونادى بالامان فأمنت الطرق وصلحت أحوال الرعايا • وبعث الى السلطان ابي العباس بطاعته •

وفي سنة 96 ولي قسنطينة ابو بكر بن ابي العباس وعكف على لذاته وأساءت بطانته الادارة فانقضت رياح على الدولة وقتلوا في بعض حروبهم معها قائد قسنطينة جاالخبر سنة 833 •

وكان كبير الذواودة سنة 38 عيسى بـــن محمد ، وكلمته مـــع السلطان محمد الرابع المنتصر مسموعة ، ومن معاصريه سباع بن محمد ولعله أخوه وبينهما اختلاف ومن شيوخ الذواودة منتصف هذا القرن التاسع أحمد بن علي ، ومنهم نصر بن صولة ولا ادري أصولة هذا هو ابن يعقوب بن علي أم غيره ؟

وآخر كلمة في تاريخ دولتي الموحدين للزركشي قوله : « وفي

أواسط المحرم من عام 882 ورد على السلطان نصر بن صولة شيخ الذواودة طالبا للعفو فعفا عنه وانصرف الى أهله بعد الاحسان خديما » اهـ •

3 — رياح والاصلاح

كان القرن السابع الذي سقطت فيه الدولة المؤمنية مبدأ انحطاط عام ، فكثر الملوك وتزاحمهم وتحاربهم • ووجدت الرعايا سبيلا الى الفوضى • والولاة سبيلا الى الجور • وفشت المنكرات وأخيفت الطرقات •

وفي أوائل القرن الثامن ظهر من رياح ثم من رحمان رجل يدعى سعادة كانت أمه من الصالحات ونشأ هو على العبادة والزهد وارتحل الى المغرب فصحب ابا اسحق التسولي شيخ الفقهاء الصالحين يومئذ وعاد الى قومه بفقه صحيح وورع وافر ونزل طولقة • وانذر عشيرته وبث دعوته فاجابه خلق كثير بالزاب وريغ وكثير من البلدان • فلقبهم السنية •

ومن مشاهير مريديه من أولاد مسعود ابو يحي بن أحمد وعطية ابن سليمان وحسن بن سلامة من أولاد طلحة بن يحي بن دريد ، ومن أولاد عساكر عيسى بن يحي بن ادريس ، ومن زغبة هجرس بن علي اليزيدي ورجالات من العطاف •

استظهر سعادة بهؤلاء الامراء واتباعهم على تأمين السبل وتغيير المنكر واحياء السنة ، ودعا منصور بن مزني أمير الزاب الى اعفاء الرعية من المغرم والمكس وسائر الظلامات ، فهم بقتله • ولكن حال دونه مريدوه • وبايعوه على اقامة السنة والموت دونه •

وأعد منصور سعادة ثائرا فاستعد لحربه واستنجد أمير بجاية

خالد بن أبي زكرياء المنتخب واستمال اليه بعض رياح فمال اليه علي ابن أحمد منافسة لاخيه ابي يحي ، وسليمان بن علي منافسة لعطية ابن سليمان وخشي سعادة من الاقامة في طولقة ، فابتنى بضواحيها زاوية انتقل اليها بمريديه •

ثم زحف سعادة الى بسكرة سنة 703 وسنة 704 وحاصر بها منصورا فامتنعت عليه أولا وثانيا • وانحدرت رياح الى مشاتيها سنة 705 فبقي في قل من مريديه • ومع ذلك حاصر مليلي ، فصبحه بها منصور في جند الدولة ورياح وبعد جولة استشهد سعادة •

نعي سعادة الى السنية بمشاتيهم • فصعدوا الى الزاب برئاسة ابي يحي بن احمد وزحفوا الى بسكرة مرارا • وقطعوا نخيلها وأحرقوا عمال الدولة بالنار فصرخ منصور في أوليائه من الذواودة فلبوه وعقد على الجند لابنه علي ومعه علي بن أحمد على رياح • وكانت المعركة بالصحراء سنة 13 فقتل علي بن منصور • وأسر علي بن أحمد • فأطلقه عيسى بن يحي لمكان أخيه ، وعظم أمر السنية بعد هذا الانتصار •

ثم هلك ابو يحي وعيسى بن يحي وكاد أمر السنية ينحل فاتفقوا على استدعاء عالم يقيم لهم أمر الدين ويجمع كلمتهم واختاروا الفقيه أبا عبد الله محمد بن الازرق من فقهاء مقرة • أخذ على ابي محمد الزواوي كبير شيوخ بجاية • فارتحل اليهم • ونزل على حسن بن سلامة • ووالاهم ابو تاشفين الاول اضعافا للحفصيين الذين كان معهم في حرب • فصار يبعث اليهم بالهدايا ويخص عالمهم ابن الازرق بجائزة معلومة كل سنة •

وخلا وجه رياح لعلي بن أحمد بموت أخيه • فقاتل هؤلاء السنية مرارا ثم هلك حسن بن سلامة • واستدعى ابن مزني الفقيه ابن الازرق لقضاء بسكرة ليقضي على دعوة سعادة • فأجابه • وطويت صحيفة السنية •

وبعد حين غاضب علي بن أحمد ابن مزني • فأحيا هذه الدعوة ، وحاصر بسكرة سنة 40 وأقام عليها اشهرا ، ثم عاد الى موالاة ابن مزني ، وهكذا حاولت اصلاح المجتمع رياح • فذهبت مساعيها لاختلافها أدراج الرياح • وكفى سعادة سعادةً انه ادى الواجب وفاز بالشهادة •

قال ابن خلدون : « وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني رعاية ، وتعرف لهم أعراب الفلاة من رياح حقا في اجارة من يجيرونه من أهل السابلة وبقي هؤلاء الذواودة ينزع بعضهم احيانا الى اقامة هذه الدعوة • فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها • بل يجعلونها ذريعة لاخذ الزكاة من الرعايا ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسوا في ارتغاء فينحل أمرهم لذلك وتخفق مساعيهم ويتنازعون على ما يحصل بايديهم ويفترقون على غير شيء » اهـ •

4 ــ امارة بني مزني ببسكرة

كانت قاعدة الزاب الحفصي مقرة من أرض الحضنة • فكانت بسكرة تابعة لها ومشيختها لبني رمان منذ سقوط الدولة الحمادية • وكان بنو مزني بقرية حياس قربها • وملكوا بها جنات النخيل والثمار بمياهها • وانتقلوا اليها • وشارك كبارهم في مجالس شوراها • فاستنكف منهم بنو رمان • وتلاحوا بالكلام ، وانتهى أمرهم الى سلطان تونس فمال مع بني رمان لقدمهم ، ولكن النزاع لم يفصل واصلتوا سيوفهم ، وتقاتلوا في سكك بسكرة •

وفي سنة 651 دعا ابو اسحق لنفسه مغاضبا لاخيه المستنصر فبايعته رياح بنقاوس وزحفوا به الى بسكرة فبايعه من مشيختها فضل

ابن علي بن أحمد بن الحسين بن علي بن مزنى وابى أهلها موافقته ، وعزموا على قتله فخرج الى ابي اسحق الذي لم يتم أمره واجاز معه الى الاندلس حتى توفي المستنصر وعاد مع ابي اسحق الى تونس •

وبنو مزنى ينتسبون الى مازن بن فزارة قال ابن خلدون :« والذي تلقيته عن نسابة الهلاليين أنهم بنو مزنة بن ديفل بن محيا بن جرير من فصائل لطيف • وهو الصحيح فان أهل الزاب كلهم من أفاريق الاثبج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح • وانما نزعوا عن نسب الاثبج لما صاروا اليه من المغرم والوضائع » اهـ •

وفي سنة 78 ملك ابو اسحق تونس وجازى فضلا عن صحبته اياه بولاية الزاب فنزل بسكرة وخضع له بنو رمان ظاهرا • وحالفوا أولاد جرير • واغروهم بقتل فضل وتناول الامر من يده وهم يومئذ بقرية ماشاش قرب بسكرة ولهم اختلاط مع أهلها بالنسب والصهر فقتلوه ظاهر البلد سنة 83 وانتقلوا الى بسكرة فنبذ لهم بنو رمان عهدهم لعامين من حلفهم ، فلم تسعهم المدينة ولا قرية ماشاش لقربها فتفرقوا في وادي ريغ واستبد بنو رمان ببسكرة وتغلبت رياح على الزاب •

وكان منصور بن فضل لما قتل ابوه بتونس فخشي بنو رمان غائلته • وسعوا به لدى السلطان ابي حفص فاعتقله الى ان تمكن من الفرار ولحق بأوراس فنزل على الشبه من كرفة خير منزل • ثم لحق ببجاية سنة 92 وابو زكريا بن ابي اسحق يومئذ مستقل بها والزاب في طاعة صاحب تونس فتقرب اليه منصور واستظهر به على ولاية الزاب على ان يحول دعوته اليه كما فعل أبوه مع أبيه من قبل فسرحه سنة 93 بالجنود الى بسكرة واستبعد بنو رمان صاحبهم بتونس فوفدوا على ابي زكرياء مبايعين خائفين من منصور فامنهم وجعل

احكامهم الى قائد عسكره وكتب الى منصور بالعفو عنهم ففتحوا أبواب المدينة لمنصور وعسكر بجاية وبعد ان ثبتت قدم منصور في بسكرة أجلى بني رمان عنها كما أجلوا قبل أولاد جرير • وكما تدين تدان •

اعجبت حكومة بجاية بصدق طاعة منصور وحسن ادارته ، فأضافت له ورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل أوراس ، وبقيت كذلك لخلفه فامارة بني مزني تمتد من ورقلة جنوبا الى المسيلة ونقاوس شمالا ومن الدوسن غربا الى بادس شرقا ، ودخلت مواطن عياض وسدويكش في هذه الامارة ايام منصور خاصة •

ولهذه الامارة مواصلات تجارية مع أهالي السودان وما حولها من الاوطان ولتوسطها بين الصحراء والتل جمعت بين خواصهما : تجد فيها النخيل والزيتون والابل والبقر وتحسن بها تربية المواشي وفلاحة الحبوب والثمار • فكان أهلها أغنياء ، وامراؤها تشبه ثروتهم ثروة الملوك •

قال العياشي في رحلته : « وبسكرة من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توفر اسباب العمران فيها ، قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها وارحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء الى غير ذلك ، وبالجملة ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لاسباب المعاش » اهـ •

وذكر ان عام ستين والف كان عام وباء وانه مات به في بسكرة نحو من سبعين الف نفس ، وهذا يرشد الى مبلغ عمرانها بعد بني مزني باكثر من قرنين ونصف قاست فيها الوانا من الشر وضروبا من الفتن فكيف يكون عمرانها ايام سعادتها وهنائها تحت بني مزني ؟

احسن بنو مزني سياسة الرعية ، وعاشوا مع رياح احسن مما عاش معهم الحفصيون ،حتى ان ثورة سعادة لم تشمل رياحا أجمعين • وكان مع بني مزني علي بن أحمد ثم نافسهم لاستئثارهم بمال الجباية دونه ، فثار عليهم متدثرا بالسنية ، ولكن يوسف بن منصور استمال ابنه يعقوب وابن عمه سليمان بن علي بن سباع ، وأنزلهما معه ببسكرة وأنكح أخته يعقوب ، ثم انعقدت السلم بين يوسف بن مزني وعلي ابن أحمد حوالي سنة 40 فلم تنقض بعد •

وكانت بطانة أمراء الحفصيين ببجاية تحسد بني مزني على هنائهم وثروة امارتهم ، فتسعى بهم لدى الامراء ، وكان بنو مزني يطفئون تلك السعايات بتوفير الجباية للامراء واتحاف بطانتهم بالهدايا ، وربما لم ينجح هذا الدواء فيضطر بنو مزني الى نصب أحد الحفصيين للملك ومبايعته ضد الامير السابق أو الى موالاة ملوك زناتة أهل تلمسان وفاس •

ففي أيام ابي البقاء بن ابي زكرياء فر يحي بن خالد بن السلطان ابي اسحق الى منصور بن مزني وقد فسد ما بينه وبين ابي البقاء فبايعه واجلب به على قسنطينة ، ووسوس ليحي بعض حاشيته في منصور فعزم على نكبته اذا تم أمره وشعر به منصور فنبذه ، وراجع طاعة ابي البقاء وخاب سعي يحي ، فنزل على منصور • وأقام تحت جرايته وحرسه مرصدا للعواقب الى أن مات سنة 721 فكان ابن اللحياني يصانع منصورا من أجله بالجوائز واقطعه من املاك السلطان بضواحي تونس املاكا ورثها عنه بنوه •

ودعا منصور لابي تاشفين الاول أيام ابي بكر أخي ابي البقاء ، وترددت اليه العساكر • فأعجزها • وبقي على ذلك الى أن خلفه ابنه عبد الواحد ، فلم يلبث ان غاضبه عامل بجاية محمد بن ابي الحسين

ابن سيد الناس فدعا لصاحب تلمسان ونازلته عساكر بجاية مرارا من غير طائل • ثم انعقد بينهما صهر وسلم •

ووالى يوسف بن منصور ابا الحسن المريني لما ملك تلمسان • واقتصر مع الحفصيين على دفع الجباية لهم ثم تحرك ابو الحسن لفتح تونس ، فوفد عليه في جموع الذواودة بارض بني حسن • وذهب اليه سنة 49 بجبايته واجتمع بقسنطينة مع عمال المغرب بجبايتهم ووفدي صاحبي السودان والاندلس بهداياهم • وبلغتهم نكبة ابي الحسن • فهم بهم القسنطينيون واجارهم يعقوب بن علي وانزلهم يوسف بسكرة وكفاهم مهماتهم شهورا • وأقام على ولائه لابي الحسن حتى هلك • وملك ابنه ابو عنان تلمسان ، فبايعه وامده في فتح قسنطينة سنة 54 ودله على الطريق في اتباعه يعقوب بن علي • وانزله بعساكره ظاهر بسكرة ثلاثا أغرب في ضيافتهم على كثرتهم بما تحدث الناس به دهرا • وقدم اليه جبايته قناطر ذهبا • فخلع عليه ابو عنان وأجزل صلته • ثم اوفد عليه ابنه احمد سنة 59 بهدية فيها عتاق الخيل وفاره الرقيق • وتوفي ابو عنان فاتحفه خلفه بتحف ملوكية ، وانقطعت الطرق بالثورات فخفره صغير بن عامر شيخ بني عامر حتى أبلغه مأمنه •

واجلى ابو حمو الثاني ابا زيان محمد بن عثمان الثاني عن مملكته سنة 78 فنزل على صاحب توزر يحي بن يملول واتحد يحي وأحمد بن يوسف على استغلاله ضد الحفصيين ، فراسل احمد ابا حمو بكف ابي زيان عنه واشغاله هو للحفصين بالاجلاب على مملكتهم ثم طرد الحفصيون يحي بن يملول فلحق ببسكرة ومعه ابو زيان فاوفد أحمد بن يوسف على ابي حمو يعقوب بن علي سنة 82 لاستنجاز وعده في حرب الحفصيين ، ومات يحي بن يملول وترك صبيا ، فسرحه أحمد لاسترجاع توزر فلم يقدر أبو حمو على أكثر من امداده بالمال •

وخرج سلطان تونس ابو العباس لحرب أحمد بن يوسف ، فسعى يعقوب بن علي في السلم ، وحمل أحمد على الطاعة • وارسل الى السلطان بالشفاعة • وسرحوا أبا زيان الى قسنطينة ايذانا بنفض أيديهم من أبي حمو • وبلغت رسل أحمد بهديتهم وطاعة ابا العباس أول سنة 83 وهو معسكر بساح تبسة فاعرض عن حربه •

ثم مرض بعدها في الطاعة • فخرج اليه سنة 86 ومعه سليم ، ومر بتبسة وجنوب أوراس وتهودا ، وانضم اليه أولاد سباع بن شبل وأنفت بقية رياح من دخول سليم مواطنها • وتناوش الفريقان القتال • وانتبذ عنهم يعقوب ساعيا في الصلح فتم باقلاع السلطان عن بسكرة وبذل أحمد له طاعته وجبايته •

وقويت الدولة الحفصية بضعف دولتي زناتة • وقطعت عنها كل المستبدين • ولم يبق الا بنو مزني • فخرج اليهم السلطان ابو فارس بن ابي العباس سنة 804 وتلوم اياما ببئر الكاهنة • ثم دخل بسكرة يوم السبت سابع جمادى الثانية • وولى عليها من قواده وحمل معه أحمد بن يوسف الى تونس • فانتهت امارة بني مزني •

وقد عاشت هذه الامارة نحوا من قرن ونصف تخللها بنو رمان بين فضل بن علي وابنه منصور • ولم يعرف الزاب الى اليوم عصرا كعصرها هناء ورغادة عيش لما كان عليه بنو مزني من حسن التدبير والادارة ، فقد أحسنوا معاملة الذواودة ، فاستعانوا بهم • وعرفوا ما بالبلاط الحفصي من دسائس فوصلوا ايديهم بزناتة التي لولا تطاحن دولتيها حتى ضعفتا ما سقطت هذه الامارة في دور اكتهالها •

ومما يحسن ختم هذا الفصل به ابيات للسان الدين بن الخطيب بعث بها أثناء رسالة لابن خلدون وهو مقيم على أحمد بن يوسف • وهي :

من أنكر غيثا منشؤه في الارض وليس بمخلفها

فبنـان بنـي مزنـي مزن تنهـل بلطـف مصرفهـا
مزن مـذ حـل ببسـكرة يومـا نطقـت بمصحفهـا
شـكرت حتـى بعبارتها وبمعناهـا وباحرفهـا
ضحكت بابي العباس من الا يـام ثنايـا زخـرفهـا
وتنكـرت الدنيـا حتـى عرفـت منـه بمعرفهـا

وهذا جـدول امراء بني مزني

الامـير	الولايـة		الامـير	الولايـة	
	هـ	م		هـ	م
فضل بن علي	678	1279	اخوه يوسف منصور	729	1329
ابنه منصور	693	1294	ابنه أحمد	767	1365
ابنه عبد الواحد	725	1325	النهاية	804	1402

5 ـ رئاسة الثعالبة بمتيجة واخبار المعقل

كان الثعالبة مستضعفين عاجزين عن الترحال • فاستقروا بالتل ، وتغلبت عليهم توجين ايام كانوا بتيطري ثم مليكش وولاة الجزائر لما انتقلوا الى متيجة أواخـر القـرن السابع • وأدوا المغارم لدول الحفصيين والمرينيين الذين تداولوا ملك متيجة والجزائر • وبقوا غفلا من حلف القبائل واقطاع الدول الى أن نشأ فيهم سالم بن ابراهيم •

وكان رئيس الثعالبة سباع بن ثعلب بن علي ومر به ابن تومرت فأكرمه فكان اذا وفد على خلفاء الموحدين وضعوا على عمامته دينارا عظيما اكراما له • واستمرت الرئاسة في عقبه • فكانت أولا لبني يعقوب ابن سباع ثم لبني محمد بن سباع •

ولما ملك ابو الحسن المريني تلمسان ولى عليهم ابا الحملات بن عايد بـن ثابت بن محمد بن سباع ، وهلك بالطاعون سـنة 749 فخلفه ابراهيم بن نصر بن حنيش بن ابي حميد بن ثابت ، وهلك ايام ابي عنان ، فخلفه ابنه سالم ، واستولى على تلمسان بعد ابي عنان ابو حمو الثاني •

وفي ذي الحجة سنة 767 ثار أبو زيان محمد بن عثمان الثاني على ابن عمه أبي حمو ، وبايعه حصين وملك سنة 68 مليانة ولمدية ، ووالي الجزائر يومئذ علي بن غالب من بيوتاتها ، ونفر أهلها من السلطان أبي حمو • فاستبد بها ، وساعدت هذه الظروف سالم بن ابراهيم على وضع ذل المغرم عن عاتق قومه ، فوصل يده بابي زيان ، ووسوس لاهل الجزائر ان واليهم يريد الدعاء لابي حمو ، فثاروا به • وأخرجه سالم الى حيه وعجل له بحينه واستبد بالجزائر داعيا لابي زيان •

وخرج أبو حمو سنة 71 الى متيجة فاخضع الثعالبة وأخذ منهم جباية السنوات الماضية ، وامتنعت عليه الجزائر ثم ملك عليه عبد العزيز سلطان مرين تلمسان سنة 72 وطرد ابا زيان ووضع على الثعالبة مغارم ثقيلة ، ثم مات سنة 74 وعاد أبو حمو الى تلمسان وابو زيان الى تيطوي •

وفي سنة 76 سعى محمد بن عريف شيخ سويد في اطفاء هـذه الفتنة ، فتم الامر بخروج أبي زيان الى رياح واداء أبي حمو له اتاوة سنوية ، واوفد على أبي حمو سالم بن ابراهيم وشيوخ حصين واعيان الجزائر ، فأمنهم وعادوا الى طاعته وبقي سالم على رئاسته بالجزائر ومتيجة وعمال ابي حمو تستوفي منه الجباية • وكـل ينتظر الفرصة اشفاء صدره من الآخر •

وفي سنة 78 تآمر سـالم ومرضى القلوب على ابي حمـو ،

واستقدموا ابا زيان فغلب أبو حمو على الثورة وطلب سالم الامن لنفسه على مفارقة ابي زيان فمنحه اياه ، وخرج أبو زيان الى الجريد وعاد ابو حمو الى تلمسان مضمرا الفتك بسالم لكثرة تلاعبه بالعهود ، فلما كان فصل الشتاء وانحدرت العرب الذين يخشاهم ابو حمو الى مشاتيهم نهض الى متيجة ، فاجفلت امامه الثعالبة الى رؤس الجبال، وبعث سالم ابناءه وأولياءه الى الجزائر وتحصن هو بجبل بني خليل ، ثم نزل كثير من الثعالبة الى أبي حمو مستأمنين ، وانتقل سالم الى بني ميسرة من جبال صنهاجة وبعث أخاه ثابتا الى أبي حمو فاقتضى منه العهد ونزل الى ابنه ابي تاشفين أواخر رمضان ، فتقبض عليه أبو حمو ولم يراع عهده ولا ذمة ابنه ، واستولى على الجزائر وقفل الى تلمسان فقتل سالما في شوال وتتبع اخوانه وقبيلته بالقتل والسبي والنهب حتى دثروا ، ثم قتل الاتراك منهم لاول استيلائهم على الجزائر مقتلة عظيمة ضاعفت ضعفهم .

واذا لم يظهر من الثعالبة امراء عظام فكفاهم فخرا عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر وعالم القرن التاسع ، وأبو مهدي عيسى عالم القرن الحادي عشر ، ولعل الشيخ عبد الرحمن من فرع محمد بن سباع ولكن الناس يرفعون نسبه الى علي بن ابي طالب (رض) كانهم لم يكتفوا بشرف العلم .

وقد حكى الاخباريون ان الشيخ محمد المقري التلمساني كان يحضر مجلس السلطان ابي عنان فاذا دخل مزوار الشرفاء قام لـه السلطان فمن دونه الا المقري فقال له المزوار ذات يوم مالك لا تقوم لي مثل السلطان اكراما لجدي فاجابه اما شرفي فمحقق بالعلم الذي ابثه ، واما شرفك فمن لنا بصحته بعد مضي أكثر من سبعة قرون ؟ ولو تحققناه لاقمنا هذا السلطان من مجلسه واجلسناك مكانه !

وبقية المعقل غير الثعالبة ذوو كثرة وانتجاع ، ومواطنهم بـين

زناتة فكانوا أحلافا لهم ، وأكثر انجياشهم الى مرين ، وكان المنبات من ذوي منصور أحلافا ليغمراسن بن زيان ، وذوو عبيد الله محاربين له ، ثم خضع الخراج منهم لبني عبـد الواد اذ كانت مواطنهم في مملكتهم فأدوا لهم الخراج وعسكروا معهم .

ولما أخذت الدولة في الضعف منحت الخـراج خفارة وجـدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس . ثم اقطعتهم اياها . فتملكوها . وتملكوا ايضا هنين ووضعوا على المجيز منها الى تلمسان ضريبة فصارت جباية معظم مملكة تلمسان الغريبة لهم .

ولما تملك ابو الحسن المريني تلمسان استخدم ذوي عبيد الله ، وانتزع منهم كثيرا من أملاكهم بالصحراء فثار عليه شيخهم يعقوب بن يغمور بن عبد الملك من العثامنة ، ولكن لم يفعل أكثر من تشرده بالصحراء وولي مكانه منصور بن يعقوب بن عبد الملك ثم ابنـه رحو ، ولما عادت تلمسان لبني عبد الواد صـدق يعقوب بن يغمور في ولائهم ، ورأس على قومه ومات فخلفه ابنه طلحة ، وكان لرحو مقامات في خدمة ابي حمو الثاني . فولاه رئاسة قومه . وجعل طلحة رديفه ، ويظهر ان رئاسة الخراج مغمورة برئاسة عامر وسويد من زغبـة .

6 ـ زغبـة

تمتد مواطن زغبة غربي مواطن رياح على جنوب عمالتي الجزائر ووهران وتقدموا مع احلافهم بني باديـن الى التـل أواخر الدولـة المؤمنية ، ونقل يغمراسن بن زيان بني عامر من نواحي زاغز الى جنوب تلمسان أشجاء للمعقل الذين كثر عيثهم هنالك . وتبعت حميان بني عامر ، وصارت في عدادهم ثم خشي يغمراسن على دولته من زغبة

فحجرهم بالصحراء وأذلهم بالمغرم والعسكرة في جنده • واستمروا على ضعفهم المالي والسياسي مدة عظمة دولة تلمسان •

وكانت بين قبائل زناتة حروب خاضت زغبة غمارها توسلا الى دخول التل ، فلما تمكن الضعف من بني عبد الواد ايام ابي حمو الثاني نزل ابو زيان ابن جبل تيطري سنة 767 وقام بدعوته حصين وسويد وبعض بني عامر ، وكاد يتغلب على تلمسان ودامت ثورته نحو اثنتي عشرة سنة توالت فيها على ابي حمو الهزائم وتغلبت زغبة على كثير من التلول ، ولم تنجل هذه الغمرة عن ابي حمو الا باقطاعه زغبة كل ما تغلب عليه اعداؤه منها او طمع فيه أولياؤه •

تقوت زغبة بهذه الاقطاعات ووضعت عنها ذل المغرم وجبت من في اراضيها من البربر وحرمت عروة لضعفها من الاقطاع ، وقعدت حصين واكثر بني يزيد عن الضعن •

ولزغبة حروب مع جيرانها فكانت بين بني يزيد والذواودة حروب وتغلبت الذواودة على الدهوس • فاستنجد بنو يزيد بعامر وهم يومئذ جنوبهم فانجدوهم ، وأخرجوا رياحا عنهم • ففرض لهم ابو بكر بن زغلي رئيس بني يزيد على قومه الف غرارة من الحبوب يأخذونها كل سنة وعرفت هذه الضريبة بالغرارة وكانت حروب ايضا بين عروة وجيرانهم من العمور ومسلم وسعيد ، وبين سويد وبني عامر مع جيرانهم من المعقل وكانت فتن بين بطون زغبة المتجاورين •

وتنقلت رئاسة بني يزيد في كثير من بطونهم ثم استقرت في بني زغلي • فوليهم زيان بن زغلي ثم أخوه ديفل ثم أخوهما ابو بكر ثم ابناء ساسي فمعتوق ثم موسى بن أبي الفضل بن زغلي كان ايام ابي الحسن المريني ، ثم أخوه أحمد ثم اخوهما علي ثم ابو الليل بن موسى وتوفي سنة 791 فخلفه ابنه •

ومن رؤساء حصين لعهد ابن خلدون علي بن صالح بن دياب ابن مبارك بن محيا بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة •

ومن رؤساء عروة لعهده محمد بن زيان بن عسكر بن خليفة بن النظر ويرادفه سمعون بن ابي يحي بن خليفة بن عسكر •

وأقوى بطون زغبة سويد احلاف مرين وبنو عامر احلاف بني عبد الواد • ويحالف سويدا محيا من العمور والعطاف والديالم وبنو يقظان وعبيد الله من زغبة • ويحالف بني عامر أولاد زكرير من العمور والنضر من زغبة • وموطن بني عامر تسالة وملاتة الى هيدور جبل وهران • وموطن سويد ما بين وانشريس وتلمسان عرضا وخليج رزيو والشط الشرقي طولا • وينحدرون شتاء الى مزاب فيمرون بافلو وتاجموت • وموطنهم اغنى مواطن زغبة واكثرها سكانا ومع ذلك لم يبلغ بنو عامر ولا سويد عظمة الذواودة لكثرة الفتن بالمغرب الاوسط وخلوه من امارة كامارة بني مزني تؤيد اخوانها من العرب ولعدم اجتماع كلمة زغبة على هذين البطنين •

وكانت سويد موالين لعبد الواد قبل تملكهم تلمسان ، ورئاستهم لاولاد عيسى بن عبد القوي ، وكان رئيسهم لعهد يغمراسن مهدي بن عيسى ثم ابنه يوسف واقطعه ببلاد سيرات والبطحاء وأقطع ابن عمه عنتر بن طراد بن عيسى قرارة البطحاء ورأس بعد يوسف أخوه عمر ، وادناه يغمراسن ، فربما استخلفه في خروجه للحرب على تلمسان ومملكتها الشرقية ، ثم كانت بينهما فتنة هلك فيها عمر ، وتأخر قومه فنزلوا خلف مواطن توجين وحالفوهم على حرب عبد الواد •

ورأس طغون سويد عثمان بن عمر وترك من الابناء ميمونا وسعيدا ويحي ، فخلفه ميمون ثم تغلب عليه سعيد ، فلحق ببني مرين وتوفي بسجلماسة ايام الامير ابي علي أخي السلطان ابي الحسن ،

ووفد سعيد بن عثمان على السلطان يوسف المريني وهو محاصر لتلمسان فاكرمه ثم أجمع قتله ، ففر الى قومه واجلب أثناء ذلك الحصار على أطراف التلول فملك السرسو وجبل كريكرة ، وعادت تلمسان لعبد الواد وافضى أمرها الى أبي تاشفين الاول ، وكانت بينه وبين عريف بن يحي مودة ، فقربه اليه ثم سخطه فلحق ببني مرين سنة 720 وانتقم منه ابو تاشفين بسجن عمه سعيد • فلم يزل مسجونا حتى توفي حوالي سنة 737 •

وخلف سعيدا ابنه سمعون ، وهلك سنة 32 فخلفه أخوه عطية ، وهلك بعد فتح تلمسان ، فعقد ابو الحسن مكانه لونزمار بن عريف ، فغضب المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر • واجلب على ابي الحسن بالدعي بن هيدور • ففرق ونزمار جموعهم ، ثم رقى أبو عنان ونزمار الى مجلسه وعقد على بادية سويد لاخيه عيسى وقتله ابو حمود الثاني في زحفه الى تلمسان وعقد مكانه على سويد لميمون ابن سعيد • فدس عليه محمد وابو بكر ابنا عريف من اغتاله • وخلفاه في رئاسة قومهما • وغمسا ايديهما في ثورة ابي زيان واطمع محمد ابا حمو في استصلاح أخيه وطالت تمنيته اياه • فاتهمه بالمراوغة واودعه السجن سنة 70 فلحق ابو بكر باخيهما ونزمار • فحمل عبد العزيز المريني على فتح تلمسان • وبعد وفاة عبد العزيز عاد ابو حمو الى تلمسان • واستقام معه ونزمار وحمل اخويه على مصافاته • فاقطع ابو حمو ابا بكر كلميتو ومحمدا مازونة •

وأعظم رؤساء سويد هما عريف بن يحي بن عثمان وابنه ونزمار • فقد اتخذ أبو الحسن المريني عريفا خليلا ووزيرا مشيرا وسفيرا بينه وبين ملوك مصر وتونس وغرناطة ورفع مقامه على كل عربي في ممالكه ، وهو الذي كان يغريه بفتح تلمسان ، وحضر معه فتحها وفتح تونس ، وكان على يمينه في موكب دخوله تونس وعاد لحرب عبد الواد لما

ملكوا تلمسان ، فهزموه ولم يجد السبيل للعود الى تونس ، فلحق بفاس ، وأكرمه ابو عنان الثائر يومئذ على ابيه • وتوفي ايامه وكان منجبا ، فاشتهر من ابنائه ونزمار ومحمد وابو بكر وعيسى •

وكان ونزمار أكبرهم ، وعقد له ابو الحسن بعد فتح تلمسان على قبيلة بني مالك وجعل له رئاسة البدو بجميع ممالكه وأخذ الصدقات والضرائب منهم ، فعكف على بابه كبراء العرب وشيوخهم ونزلوا على اشارته ، ولما اوقعت مغراوة بابي الحسن سنة 50 انجاه الى جبل العمور • والحقه بسجلماسة • فبعث اليه ابوه عريف بالرجوع عنه ارضاء لابي عنان • فلما خلص الامر لابي عنان اقطع ونزمار قلعة تاوغزوت والسرسو وكثيرا من بلاد توجين وهلك عريف فاستقدمه واجلسه مجلس ابيه حذو اريكته •

وبعد موت ابي عنان كثرت الاضطرابات بالمغربين الاوسط والاقصى فنبذ ونزمار مجلس السلطان • وانتبذ بوادي ملوية • وبنى هنالك قصر مرادة وغيره وتوجهت اليه ملوك مرين وغيرهم وشيوخ العرب ورؤساء الاقطار مستشيرين صادرين عن رأيه • وكان يحاول استئصال دولة عبد الواد وهو علة ضعفهم ومحرك الحروب والثورات عليهم • وخرب أبو حمو قصر مرادة من منتزهاته سنة 85 فانتقم منه ونزمار بادخال مرين تلمسان وتخريبهم قصور الملك بها ولم أعلم متى مات ؟ ويظهر ان سويدا بعده تلاشى أمرها ، ولم يبق لرؤسائهم كبير اعتبار •

وبنو عامر كانت رئاستهم في بني يعقوب ويرادفهم بنو حميد • ثم سخط عثمان بن يغمراسن بني يعقوب ورضي بني حميد لاستقامتهم على طاعته • فاستشاط بنو يعقوب غيرة لتقديم بني عمهم • ووصلوا

أيديهم بمرين ثم حالفوا سويدا • وعظمت رئاسة بني حميد • وتعددت بطونهم ، فعد منها الشيخ عبد القادر المشرفي سبعا وستين ولم يسلم بنو حميد بعد من الخلاف على دولة عبدالواد فكان من رؤسائهم من وصلوا أيديهم بمرين أو بالحفصيين • ثم كان بين أبناء أبي حمو الثاني نزاع شديد على الملك كان لبني عامر فيه اليد الطولى ، ثم أصبحوا بعد سقوط دولة بني عبد الواد بعضهم جند الاسبان وبعضهم رعية لهم •

وكان رئيس بني يعقوب امرة يغمراسن وابنه داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش بن عياد بن منيع بن يعقوب • وكان أبو زكريا بن أبي اسحق الحفصي لدى عثمان بن يغمراسن • ورام امتلاك بجاية على عمه أبي حفص فمنعه • فتظاهر بالصيد • ولحق بداود ابن هلال • فأمره عثمان برده عليه • فأبى • وأوصله الى عطية بن سليمان الذوادي • فتغلب على بجاية • وأقطع داود أرض كدارة من بسيط حمزة • وسخطه عثمان بن يغمراسن فلحق بالصحراء • وكان حصار يوسف بن يعقوب لتلمسان • فوفد عليه داود برسالة من ابي زكرياء • فكان ليوسف في تلك الرسالة ريبة • فلما قفل من عنده بعث أثره من قتله في سيق •

وخلفه ابنه سعيد ، وانجلى الحصار عن تلمسان ، فرضي عنه عبد الواد لقتل مرين اباه ، ثم دفعته الغيرة من مكانة بني حميد الى الوفود على السلطان ابي ثابت المريني ، فرده بخفي حنين ، وقتله بنو حميد ايام ابي حمو الاول ، فخلفه ابنه عثمان واختلفت ايامه مع بني حميد سلما وحربا ، ثم حالف سويدا ، ولحق في قومه بالمغرب احتماء بعريف ابن يحي السويدي ، ثم عادوا الى مواطنهم لما زحف ابو الحسن الى تلمسان ، فقتل بنو حميد عثمان ، وخلفه رديفه هجرس بن غانم بن هلال

الى أن مات ، فخلفه سليم بن داود ، ثم ابنه ساسي ، فلم يزل ساسي ابن سليم في خلافه على عبد الواد ، وانتقل الى النضر من عروة .

وكان رئيس بني حميد لعهد يغمراسن معروف بن سعيد بن رباب ثم ابنه يعقوب ، وكان مع داود بن هلال في انجاد عامر لابي بكر بن زغلي على رياح ، ثم ابنه ابراهيم ، وهلك بعد مقتل سعيد بن داود ، فخلفه ابنه عامر ، وكان شهما حازما حسن السمعة ، ووفد على ابي سعيد سلطان مرين قبل سنة 720 وخطبه بنته ، فأنكحه عامر اياها ، ووصله السلطان بمال خطير ، وقتله عثمان بن سعيد اليعقوبي غدرا .

وخلفه ابنه صغير وفر في قومه الى الصحراء لما ملك ابو الحسن تلمسان ونزل القليعة جنوب مزاب ، ثم جاءه تائبا ، وصحبه الى تونس وحضر معه وقعة القيروان وعادت تلمسان لعبد الواد . فاخلص لهم الطاعة . وملك ابو عنان تلمسان فاصحر كعادته . وردد الغارات على أطراف ممالك مرين . ووصل يده باعدائهم . وبلغه خلاف يعقوب ابن علي الذوادي على ابي عنان . فوفد بقومه عليه . وابو حمو الثاني يومئذ بتونس . فاتفق يعقوب وصغير على تجهيزه لطلب ملك سلفه بتلمسان . فعاد به صغير في جمع من الذواودة ابلغوهم تخوم بلادهم . ولقيتهم سويد فهزموها . واحتلوا تلمسان بعد وفاة ابي عنان . ومات صغير سنة 761 ودفن بالعباد . واحتفى ابو حمو بجنازته .

وخلف صغيرا اخوه خالد . ويرادفه عبد الله بن صغير . وكان ابو حمو قد قرب اليه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب بن معروف ابن سعيد فحملت الغيرة خالدا على الخلاف ، ووصل يده بعبد العزيز سلطان مرين . وحارب ابا حمو ونال منه ثم غمس يده في ثورة ابي زيان ، فاخرج له ابو حمو ابنه ابا تاشفين في جموع سويد والديالم والعطاف وغيرهم ، وكانت جموع خالد عظيمة لكن ابو تاشفين هزمه

وقتل عبد الله وملوك ابني اخيه صغير على وادي مينة سنة 777 وهلك خالد على فراشه سنة 78 •

وخلفه المسعود بن صغير ، فكان دون عمه ، وافترقت عنه الجموع وتخلى عنهم ابو زيان ، وضاقت به السبل فاستأمن لابي حمو هو وساسي بن سليم ، فأمنهما وقومهما • وعزم على استئصالهم فتقبض ذات يوم على المسعود وعشرة من بني عامر بن ابراهيم وصبح ابو تاشفين احياء بني يعقوب بسيرات • ثم اعترض فلهم ببني راشد فعظمت النكاية • ونجا ساسي الى النضر وشفع ابو العباس سلطان مرين بسعي ونزمار بن عريف في المسعود وجماعته • فسرحهم ابو حمو ، وعادوا الى الخلاف ، وضعفت مرين عن صريخهم • فاستصرخوا صاحب تونس ابا العباس الحفصي • فوعدهم • ووفد عليه علي بن عمر بن ابراهيم كبير الثائرين على ابي حمو بعد ابن عمه خالد • فلم يزده على المواعيد • وهنالك خضع لابي حمو فقدمه على بني عامر • وكان قد استبد برئاسة عامر بعد خلاف خالد بن عامر عمه سليمان ابن ابراهيم ويرادفه عبد الله بن عسكر الى أن عزله ابو حمو بعلي ابن أخيه فلحق ببني يعقوب النازلين على أبي بكر بن عريف •

هذا ما أفادنا به ابن خلدون من أخبار العرب وانا لنأسف لاغفال من بعده هذا الشأن • فلم نجد حديثا نصله بحديثه الا تتفا لا تجلي غامضا وقد تكون رسائل صغيرة مبعثرة في زوايا الوطن لو جمعت لتكونت منها حلقات لهذه السلسلة غير انا لم نسمع بها ولعل الله يبعث في الامة روحا علمية فيظهر كل ما لديه من حلقات ولعل الله ييسر لنا جمع هذه الحلقات من بعد فنلحقها بالكتاب الرابع ان شاء الله •

الباب السادس

في الدولــة الحفصية

ا ـــ تأسيس الدولة الحفصية

للموحدين دولتان المؤمنية والحفصية • والحفصيون ينسبون الى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي أحد العشرة من أصحاب ابن تومرت • وينسبه ابن نخيل الى عمر بن الخطاب (رض) • وفيه بعد •

وكان أبو حفص معظما في الدولة المؤمنية • وتوفي سنة 571 وولي للناصر ابنه عبد الواحد على تونس سنة 603 فكان له غناء في دفاع ابن غانية• وتوفي سنة 618 • واشتهر من أبنائهعبدالرحمن وعبدالله المدعو عبو أبو زكريا مؤسس الدولة ومحمد اللحياتي • وولي تونس بعده السادة من بني عبد المؤمن •

وفي سنة 23 ولى العادل بتونس عبو وقدم معه أخوه أبو زكرياء فولاه قابس • ودعا المأمون لنفسه • فأبى بيعته عبو • وقبلها أخوه أبو زكرياء وتغلب على تونس في رجب سنة 25 • ثم نقض بيعة المأمون سنة 27 لسبه مهديهم ابن تومرت وقتله رجال هنتاته وشيوخ الموحدين الذين كانوا سبب الفتن بين أبناء عبد المؤمن • واقتصر أبو زكرياء على ذكر المهدي ولقب الامير • ولم يزل ذكر المهدي في سكة خلفه الى آخر الدولة •

وفي سنة 28 فتح أبو زكرياء قسنطينة وبجاية • ثم فتح سنة 32 الجزائر وشلف والبطحاء وسائر مواطن مغراوة وتوجين • وذكر اسمه في الخطبة بعد المهدي سنة 34 وبايعته الاندلس الشـرقية سنة 35 وفتح تلمسان سنة 40 وتتابعت عليه البيعات من المغرب والاندلس • وتم ارث الحفصيين للدولـة المؤمنية ببيعة مريـن لهم لمـا فتحوا مراكش سنة 668 •

ولم يحقق الحفصيون هذا الارث لضعف القوة الحربية عن حماية

الممالك النائية • فانسلخت عنهم أكثر الجهات • وكانوا يصبون الى مراكش • فتمسكت بها مرين • وبقيت عاصمتهم بتونس على أنهم غلبوا عليها أحيانا •

وأول من غلبهم عليها الدعي • وهو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي • ولد بها سنة 642 ونشأ ببجاية وسيما خياطا معنيا بالتنجيم • يخط الرمل • فيحدثه خطه بالملك • ثم لحق بعرب المعقل من صحراء سجلماسة • وادعى نقل المعادن الى الذهب وأنه المهدي المنتظر • ففضحه العجز • وانتقل الى عرب طرابلس • وادعى أنه الفضل بن الواثق • وكان الفضل قد قتله السلطان أبو اسحق • ولكن أكثر العرب اذا وجدوا سبيلا للثورة خانتهم أحلامهم • فصدقوه • وبايعوه سنة 81 ونزع اليه مرضى القلوب من كبار الدولة • فدخل تونس لاشهر من بيعته • وفر السلطان ابو اسحق الى بجاية • وحاول حربه • فلم ينجح •

وكان الدعي سفاكا للدماء • قتل كثيرا من شيوخ العرب وجند زناتة والنصارى • وبسط العذاب على آخرين • فسئمته الرعية • وتطلب العرب أميرا حفصيا • وكان ابو حفص أخو السلطان ابي اسحق بقلعة سنان • فقصدوه • وبايعوه • ودخلوا به تونس سنة 83 واختفى منه الدعي حتى أخذ وقتل • وكانت بيعته كما قال لسان الدين ابن الخطيب •

غريبة من لعب الليالي ما خطرت لعاقل ببال

2 ـ الحكومة الحفصية

الدولة الحفصية مستقلة استقلالا تاما وحكومتها بيد كبار الموحدين وعظماء الجاليات الاندلسية وكلا الفريقين متدرب على قلب الحكومات تخلصا من منافس وطلبا للتمكن في الرئاسة • فشا فيهم

هذا الخلق أواخر الدولة المؤمنية • فشقيت به الدولة الحفصية واصبح ملوكها العوبة بايديهم الا قليلا منهم •

وكان أبو زكريا الاول وابنه المستنصر ملكين عظيمين اخضعا الثوار وحفظا الامن فتقدمت الدولة أيامهما في الحضارة تقدما عظيما وعاش الناس في رفاهية • وغمرت من بعدهما الفتن حتى ضعفت دولتا زناتة بعد ابي عنان وابي حمو الثاني وفنيت البيوت الكبيرة من الموحدين والاندلسيين ويومئذ أصبح الملك الحفصي آمرا ناهيا آمنا في سربه ولكن مالية الحكومة في ضعف لتغلب العرب على البوادي وتقوي الاروبيين بالبحر •

وكان ملوك الحفصيين يدعون أمير المؤمنين لارثهم الخلافة عن بني عبد المؤمن وسقوط بغداد أيامهم حتى بايعهم بالخلافة أهل الحجاز سنة 659 ويتلقبون بالقاب الخلفاء من مستنصر وواثق وغيرهما وكانت علامتهم « الحمد لله والشكر لله » لها كاتب خاص وقسمها المستنصر الى كبرى ترسم بعد البسملة اول الصحيفة عن أمر الخليفة والى صغرى ترسم اسفل المنشور عن أمر نائب الخليفة في الامور الصغيرة وربما استضعف الملك نفسه فترك شعار الخلافة واقتصر على لفظ الامير وكان الملك يعهد لمن بعده واحيانا يتغلب على الملك أحد القرابة ويبعد عنه ولي العهد •

والحفصيين مع ملوك مصر والسودان علاقات حسنة ، وحاولوا تحسين علاقتهم مع ملوك أروبا لكن هؤلاء لا عهد لهم يحفظ فمتى وجدوا غرة في الساحل ملكوها وكثيرا ما ينزلون بالمدينة تجارا فان وجدوها خالية من الحامية انقلبوا حربيين وعلاقتهم مع زناتة تختلف حربا وسلما وكانت زناتة ظاهرة عليهم ثم ضعفت فظهروا عليها وخطبت لهم بتلمسان وفاس منذ سنة 827 •

وللدولة جيش من زناتة وصنهاجة والنصارى وتستنفر في الحرب

أولياءها ورعاياها من العرب والبربر وحالها في البحر ضعيف لضعف ماليتها باقطاعات العرب وابو زكرياء الاول الذي لم تكن ايامه اقطاعات وكان مقتصدا يلبس الصوف ، قال ابن قنفذ : « بلغ جيشه سبعين ألف فارس وماليته تسعة عشر بيتا والبيت الف الف » اهـ • وما أحسن الاستغناء ببيت عن عجمة مليون •

واقتدت الحكومة الحفصية بالمؤمنية في جميع انظمتها • ونقل الزركشي ان الحفصيين كانوا قديما لا يتركون القاضي في قضائه أكثر من عامين لوصية عمر بن الخطاب (رض) بذلك وليكثر المتدربون على القضاء ويكونوا الى العدل أقرب اهـ •

وهذا جدول الملوك الحفصيين بحذف كناهم الكثيرة الاستعمال كتكنية يحي بابي زكريا وابراهيم بابي اسحق وعمر بابي حفص وخالد بابي البقاء :

الملك	الولاية هـ	الولاية م
يحي الاول	627	1230
ابنه محمد الاول المستنصر	647	1249
ابنه يحي الثاني الواثق	675	1277
ابراهيم الاول بن يحي الاول	678	1279
اعتراض الدعي	681	1283
أخوه عمر الاول	683	1284
أبو عصيدة محمد الثاني بن الواثق	694	1295
خالد الاول بن يحي بن ابراهيم	709	1309
زكريا بن احمد بن اللحياني	711	1311
ابنه ابو ضربة محمد الثالث	717	1317
ابو يحي أبو بكر اخو خالد الاول	718	1318
ابنه عمر الثاني	747	1347
اعتراض مرين	748	1347

الملك	الولاية هـ	الولاية م
الفضل بن ابي يحي ابي بكر	750	1350
أخوه ابراهيم الثاني	751	1350
ابنه خالد الثاني	770	1369
احمد الاول بن محمد بن ابي يحي	772	1370
ابنه أبو فارس عزوز	796	1394
محمد الرابع بن محمد بن عزوز	837	1434
أخوه ابو عمر عثمان	839	1435
يحي الثالث بن محمد بن عثمان	893	1488
محمد الخامس بن الحسن بن محمد بن عثمان	899	1494
ابنه الحسن	932	1526
ابنه أحمد الثاني	943	1536
أخوه محمد السادس	977	1569
انقراض الدولة	981	1573

21 — نقود ابي زكريا يحي الاول

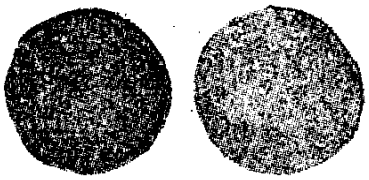

22 -- 23 — نقود المستنصر بن ابي زكريا ــ ضرب بجاية

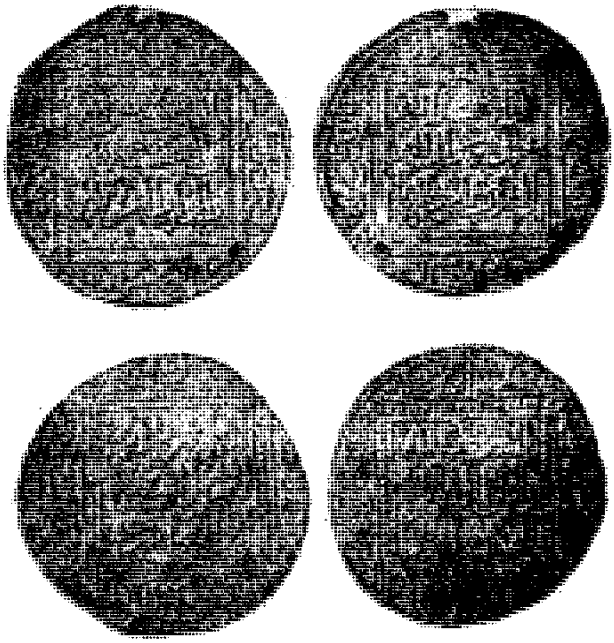

24 — نقود أبي اسحق ابراهيم الاول

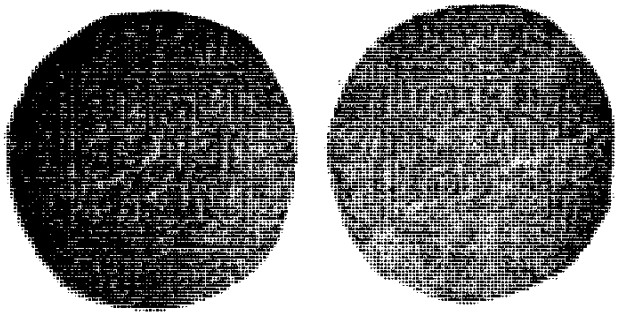

25 — نقود ابي حفص عمر الاول — ضرب تونس

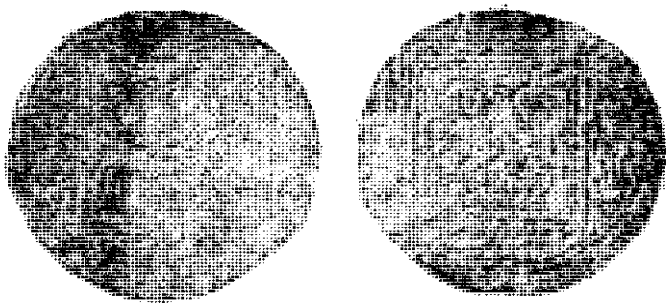

26 — نقود أبي زكريا يحي المنتخب

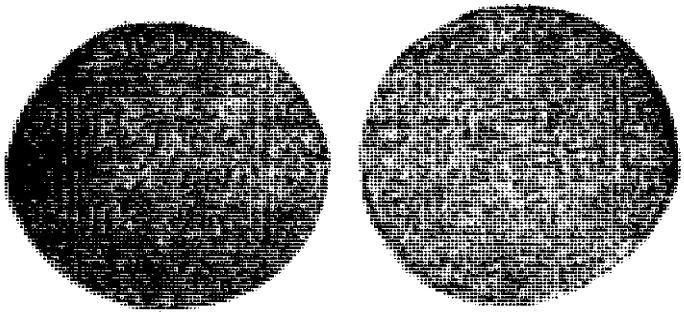

27 — نقود ابي البقاء خالد الاول

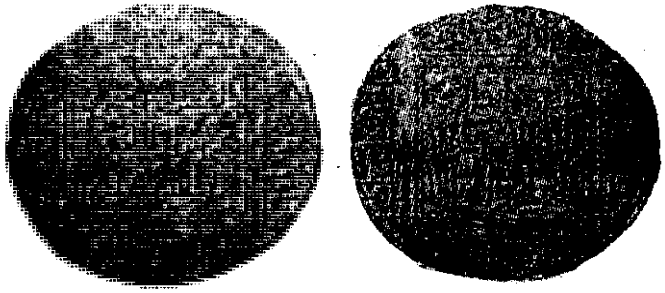

28 — نقود ابي يحي ابي بكر — ضرب بجاية

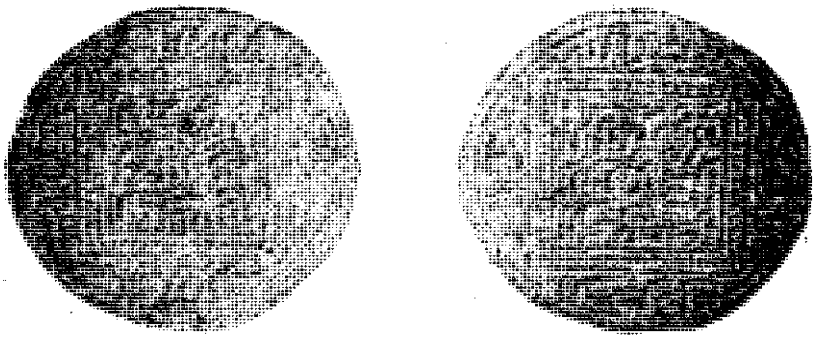

29 — نقود ابي يحي ابي بكر ـ ضرب قسنطينة

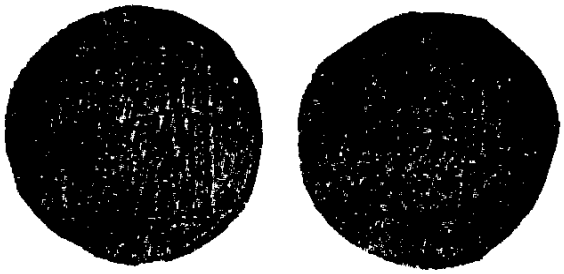

30 — نقود ابي العباس احمد الاول

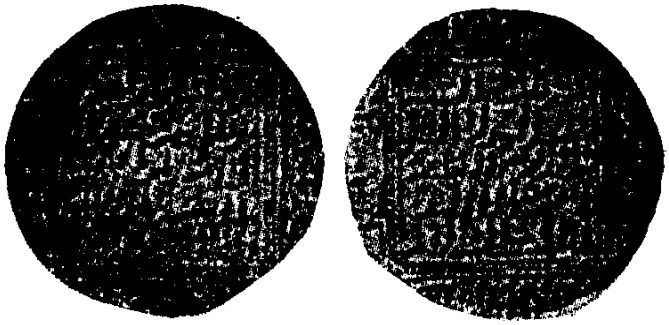

31 — ضرب ببجاية عن أمر عبد الله المستنصر بن محمد بن أبي زكريا بن ابي يحي ابي بكر (لا أعلم من حال هذا الامير غير كونه عاش آخر القرن الثامن) .

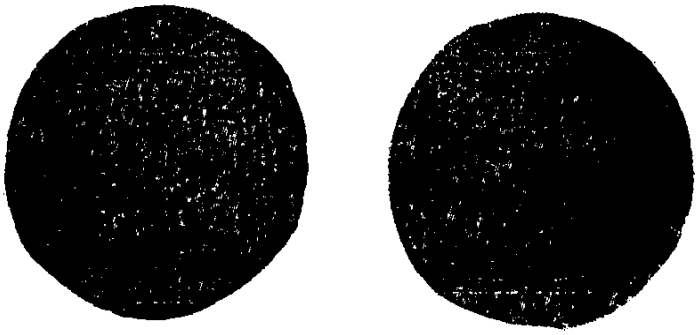

32 — نقود ابي فارس عزوز

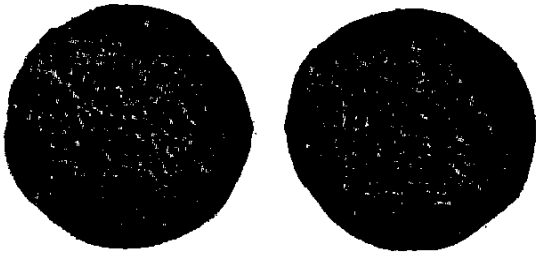

33 — نقود ابي عمر عثمان ـ ضرب تنس

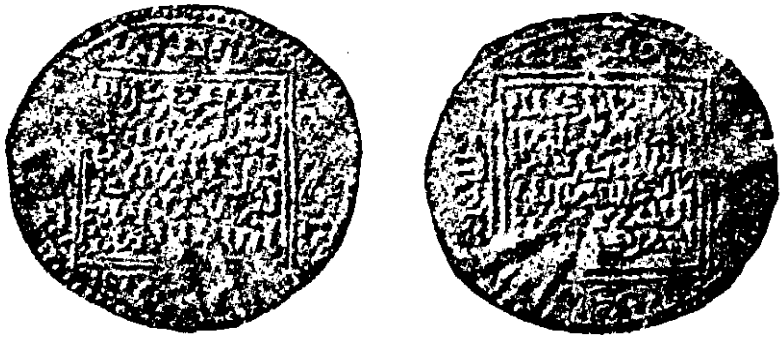

34 — نقود ابي عمر عثمان ـ ضرب الجزائر

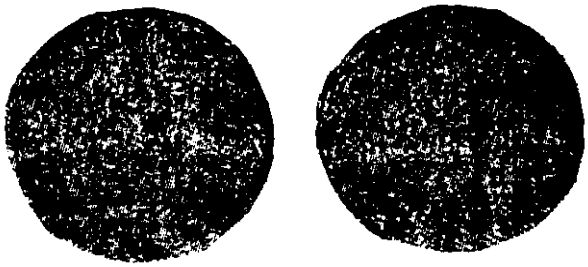

35 — نقود محمد بن الحسن بن محمد المسعود

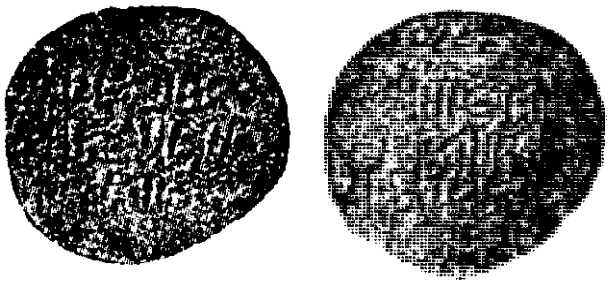

36 — نقود الحسن بن محمد بن الحسن

ع — ولاة الجزائر الحفصية

الجزائر الحفصية هي عمالتا قسنطينة والجزائر الى مابعد مليانة شمالا غربيا ، وما بعد ورقلة جنوبا الا ما تغلبت عليه زناتة من بعد •

وكانت عاصمة هذه المملكة الغربية بجاية حتى أكثرت زناتة من الغارات على ساحتها فصارت الاهمية لقسنطينة واكثر ولاة بجاية وقسنطينة وبونة حفصيون وقد يليهن مواليهم • وبقية المدن يليها أولياؤهم وصنائعهم أو شيوخ من أهلها • وكثيرا ما تستقل هذه المملكة عن تونس ، وقد يستقل مدنها بعضها عن بعض •

والولاة الحفصيون يتخذون الحجاب والوزراء والكتاب كالملوك • وأولهم أبو يحي زكريا • أنزله أبوه أبو زكريا يحي الاول ببجاية سنة 633 • وجعل وزارته ليحي بن صالح بن ابراهيم وشوراه لعبد الله بن ابي تهدي وجبايته لعبد الحق بن ياسين • وكلهم من هنتاتة • ثم ولاه عهده سنة 38 وكتب له وصية طويلة جامعة لمحاسن الدين وسياسة الملك • نقلها ابن خلدون وسقطت من نسخته المطبوعة بمصر • وكان عالما دينا جليل القدر ضابطا لاموره عدلا في أحكامه • وتوفي سنة 46 • وكان ابو زكريا لما فتح قسنطينة ولى بها بني النعمان من هنتاتة • فقويت شوكتهم وغمسوا أيديهم في بعض الثورات على المستنصر • فنكبهم واباد رؤساءهم قتلا ونفيا سنة 51 وولى بها ابن كلداسن من مشيخة الموحدين فاقام بتونس واناب عنه ابا بكر بن موسى بن عيسى الكومي المعروف بابن الوزير ، فكان ذا غناء وصرامة • ثم سماه المستنصر حافظا عليها • فلم يزل بها الى ايام ابي اسحق •

وفي سنة 59 جهز المستنصر أخاه عمر لاخضاع مليانة ، فلما قفل

من فتحها وافاه بطريقه عقد الولاية على بجاية ، فرغب في المقام بتونس ، فاعفاه المستنصر وولى عليها ابا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، فلم يزل بها الى ان توفي بقرية بني ورار سنة 73 ، فخلفه ابنه محمد ، وضايقه الواثق بتولية ادريس بن عبد الملك الغافقي الاندلسي على اشغال بجاية ، فتخلص منه بقتله سنة 77 وخشي انتقام الواثق ، فبايع عمه ابا اسحق ابراهيم •

وكان ابراهيم ثار على أخيه المستنصر ولم يفلح • ففر الى الاندلس فلما بلغته وفاته أجاز الى تلمسان • ونزل على يغمراسن حتى جاءته بيعة ابن عياد • فدخل بجاية في ذي القعدة وخشيه الواثق فبعث لضبط قسنطينة عبد العزيز بن عيسى بن داود الهنتاتي قائدا فصد عنها ابراهيم ولكنه تغلب على تونس بمساعدة أخيه عمر في ربيع الاول سنة 78 •

وفي سنة 79 ولى ابراهيم الاول على بجاية اكبر بنيه عبد العزيز وحجبه محمد بن ابي بكر بن خلدون الاندلسي • وابقى بقسنطينة ابا بكر بن الوزير • فثار بها في شعبان سنة 79 وكاتب ملك ارغون من ارض الاندلس مستمدا اسطوله فخرج اليه عبد العزيز بعد خمسة عشر شهرا من ثورته فلما بلغ ميلة وفدت عليه رسله معتذرين ، فاعرض عنهم وتقدم الى قسنطينة ، فحاصرها حتى فتحها في رمضان سنة 81 وقتل ابن الوزير وعاد اسطول ملك ارغون من القل خائبا ، ورم عبد العزيز ما أفسدت الحرب من أسوار المدينة وقناطرها ، وولى عليها ابا محمد بن بوفيان الهرغي ولم يزل عبد العزيز عزيزا في مملكته الى ان ظهر الدعي وفر منه ابوه ابراهيم اليه • وانخلع له ، فبويع عبد العزيز بالخلافة ، وتلقب المعتمد على الله • وصمد الى تونس • فتلقاه الدعي

بمرماجنة قرب قلعة سنان في ربيع الاول سنة 82 فقتل عبد العزيز ، ثم ابوه ، ونجا أخوه يحي الى تلمسان .

ولما ملك عمر الاول تونس عاد يحي لامتلاك بجايـة ، فملكها بمساعدة الذواودة سنة 84 واستقل بالمملكة الغربية ، وتلقب المنتخب لاحياء دين الله ، وحجبه ابو الحسين بن سيد الناس الاشبيلي الى أن توفي سنة 90 فحجبه ابو القاسم بن ابي حي الاندلسي ، وعهد لابنه خالد سنة 98 وولاه قسنطينة وتوفي ببجاية سنة 700 .

ويحي المنتخب أول من قسم الدولة الحفصية شطرين . وأجلب على تونس مرارا . فنهض اليه أبو عصيدة سنة 95 حتى بلغ ميلة . وانكفأ منها الى تونس . فاقصر يحي عن طلب تونس . ولم يدع الخلافة . وكان حازما يقظا سري الهمة متقشفا متواضعا يرقع ثوبه بيده محبا لاهل العلم مشرفا على ممالكه بنفسه مقسما سنته بين بجاية وقسنطينة ذا آثار صالحة منها توسيع قصبة قسنطينة وجامعها .

نعي الى خالد أبوه وهو بقسنطينة . فانتقل الى بجاية . واستوزر يحي بن ابي الاعلام . وقدم على الموحدين يحي بن زكريا الحفصي وعلى صنهاجة كبيرها يعقوب بن خلوف الى ان مات فخلفه ابنه عبد الرحمن . وابقى على حجابته ابن ابي حي . فولى هذا الحاجب صهره علي بن الامير الهمذاني على قسنطينة . واتهم بمولاة ابي عصيدة . فعزله عن حجابته سنة 705 وحجبه بعده ابو عبد الرحمن يعقوب بن غمر (بالغين سمي السحاب) السلمي الشاطبي . فحول ابن الامير الدعوة الى ابي عصيدة . فنهض اليه خالد وفتح قسنطينة وقتله . وخشيه ابو عصيدة . فاصطلحا على ان المملكة لمن بقي بعد صاحبه . وتوفي أبو عصيدة سنة 709 فانتقل خالد الى تونس وجمع بين المملكتين الشرقية والغربية . ثم تغلب عليه ابن اللحياني سنة 11 فانخلع له ومات سنة 713 .

ولما انتقل خالد الى تونس انتقل معه حاجبه ابن غمر واستخلف على بجاية عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف الصنهاجي • وبينه وبين الحاجب تنافس • وخشي الحاجب تغير خالد عليه • فدبر في الابتعاد عنه • وخوفه من ابن خلوف • فعقد خالد لاخيه أبي بكر على قسنطينة• وسرح معه حاجبه ابن غمر مشرفا على بجاية •

وفي سنة 711 دعا ابو بكر لنفسه باشارة ابن غمر • وتلقب المتوكل على الله • وخالف عليه ابن خلوف • فقتله غدرا • واحتل بجاية سنة 12 وبعث ابن غمر الى ابن اللحياتي قبل تغلبه على تونس مظاهرا له • فلما دخل تونس عقد معه سلما • وقفل الى أميره أبي بكر ببجاية • وعادت الدولة الى انقسامها شرقية وغربية • ثم تغلب على تونس سنة 18 فجمع بين المملكتين وطالت مدته وغالب الخطوب حتى توفي في رجب سنة 747 •

وكانت ولادته ونشأته وقراءاته بقسنطينة • وله رياض بظاهرها • وكان كثير التردد عليها •

ولما انتقل ابو بكر الى تونس بقي الحاجب ابن غمر ببجاية مستقلا بهذه المملكة الغربية ليس لابي بكر فيها غير السكة والخطبة • ثم توفي في شوال سنة 19 • فولى ابو بكر ابناءه محمدا بقسنطينة ويحي ببجاية والفضل ببونة • وبعث معهم الحجاب والوزراء والقواد •

وفي سنة 37 توفي الامير محمد بقسنطينة وترك ابناء خلفه منهم عبد الرحمن وكان محمد مرضي السيرة حسن الادارة ذا علم وذكاء وجود وحياء • وكانت ولادته ونشأته وقراءته كأبيه بقسنطينة •

وفي ربيع الاول سنة 47 توفي الامير يحي • فقدم البجائيون ابنه محمدا ووافقهم جده على توليته • ثم مات ابو بكر واستولى ابو الحسن المريني على الممالك الحفصية • فابقى الفضل ببونة لان أخت

الفضل تحته • ونقل محمدا الى ندرومة وعبد الرحمن واخوته الى وجـــدة •

وفي سنة 49 استرجع الفضل من مرين قسنطينة وبجاية • وثار ابو عنان بالمغرب على ابيه ابي الحسن وهو بتونس • فسرح محمدا وعبد الرحمن الى ولايتيهما ليكونا سدا بينه وبين ابيه • فانقبض الفضل الى بونة • ثم ملك تونس سنة 50 •

وفي سنة 53 أخذ أبو عنان بجاية من الامير محمد • ونقله الى تلمسان • ثم تغلب عليها عمه ابراهيم الثاني سنة 61 فسرح مرين الامير محمدا لاسترجاعها • فمانعه عمه • حتى دخلها عليـــه سنة 65 فعاد ابراهيم الى تونس • وكان عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشـــهير بالاندلس ، فاستقدمه الامير محمد ، فوفد عليه سنة 66 وولاه حجابته •

وفي سنة 56 خرج عبد الرحمن من قسنطينة مجلبا على تونس ، واستخلف أخاه أحمد ، فدعا لنفسه بالخلافة ، وعاد عبد الرحمن الى بونة طامعا في قسنطينة • فتمسك أهلها باخيه ، فاصطلح عبد الرحمن مع عمه ابراهيم الثاني بعدما كان منازعا له ، وسلم له بونة على ان يأذن له في المقام بتونس •

وفي سنة 58 دخل ابو عنان قسنطينة ، ونقل الامير احمد الى سبة ، ثم سرحته مرين الى ولايته سنة 61 فبعث أخاه زكريا لفتح بونة فاسترجعها من عمه ابراهيم ، وحارب ابن عمه محمدا على بجاية فقتله واستولى عليها سنة 67 وعادت المملكة الغربية تحت أمير واحد كما كانت أمرة يحي المنتخب ، ثم ملك تونس سنة 72 وبها توفي سنة 96 •

وكان دينا عاقلا شجاعا سمحا ، ولد بقسنطينة ســـنة 729 وكان يقرب القسنطينيين ويوليهم المراتب السامية في دولته بتونس •

ولما انتقل السلطان أحمد الى تونس ولى حجابته أخاه زكريا ،

ونقله معه من بونة ، فاستخلف بها ابنه محمدا وبعث السلطان ابنيه محمدا على بجاية وابراهيم على قسنطينة ، وبعث معهما الحجاب والقواد من الموالي وتوفي محمد سنة 85 فخلفه ابنه أحمد ، وتوفي ابراهيم سنة 93 فخلفه كاتبه ابراهيم بن يوسف الغماري وكان الامير ابراهيم محجوبا للقائد بشير المتوفي سنة 79 فاكتسب منه صفات حميدة ، وكان دينا محسنا متواضعا اداريا حازما •

وكان ولي عهد السلطان أحمد ابنه ابا بكر • فلما حضرت الوفاة اباه بعثه أخوته لحفظ قسنطينة • وقبضوا على عمهم زكريا • فلما توفي السلطان بويع ابنه عبد العزيز المدعو عزوز • فخالف عليه ابو بكر • ودعا لنفسه • وعكف على لذاته • فتوجه الكاتب احمد بن الكماد مع العرب الى بونة • فحضوا صاحبها الامير محمد على ملك قسنطينة • فنازلها في ذي القعدة سنة 96 وحاصرها شهرين ونصفا • ثم أقلع عنها • وعاد اليها سنة 97 وكثر عيثه في ساحتها • فنهض اليه السلطان عزوز في رمضان • والتقى الجمعان بتبرسق • فانهزم الامير محمد الى سيبوس • ودخل بونة موقنا بعجزه • فركب البحر الى فاس مستصرخا صاحبها • ودخل عزوز بونة • ووفد عليه بها أخوه أبو بكر مبايعا • وكتب الى الخطباء ببيعته لاخيه • ثم أعقبه بكتاب يمنعهم من الدعاء لاخيه • وكل ذلك في رمضان سنة 97 •

توقف الخطباء فلم يدعوا لاحد حتى جبرهم ابو بكر على الدعاء له في صفر سنة 98 ثم كتب لاخيه بالبيعة في جمادى الثانية ثم هم بنقضها • فاستقدم القسنطينيون عزوزا • فنازلها في شعبان وحاصرها نحو شهر لم يضر فيه بزرع ولا شجر ، واسمه يذكر على المنابر ، وفتح المدينة في رمضان ، وأقام بها ممهدا للاحوال ، وعاد الى تونس آخر شوال ومعه ابو بكر ، وقدم لقيادة قسنطينة القائد نبيلا ولقصبتها الشيخ قاسم بن احمد بن تافراقين التينمللي ، وتداول أمرها الموالي •

عظم أمر عزوز بفتح قسنطينة ، فنازل أوراس ، وضل هو وجنوده السبيل وكادوا يهلكون ، وخشي أحمد أمير بجاية سطوة السلطان فوفد عليه في هذه السنة سنة 98 مبايعا منخلعا .

ولى السلطان عزوز أخاه زكريا على بونة ، وفي سنة 810 وفد عرب افريقية على صاحب فاس ليرسل معهم الامير محمدا المنهزم اليه ويمده على السلطان عزوز . فخرج الامير محمد في جموع مرين والعرب . وما بلغ أطراف عمل بجاية حتى كثرت جموعه من العرب ووفد عليه المرابط ابن ابي صعنونة . فسرح جيش مرين . وخشيه عزوز على بجاية . فنقل اليها أخاه زكريا من بونة . ولكن البجائيين ادخلوا الامير محمدا فركب زكريا البحر مشرقا . وعقد الامير محمد على بجاية لابنه المنصور وتوجه للقاء عزوز فخالفه الى بجاية فدخلها . وقبض على المنصور واعيانها . فاعتقلوا بتونس . واعاد الى ولايتها صاحبها أحمد ابن اخيه محمد. ونهض لقتال الامير محمد . فلما تراءى الجمعان انخزل المرابط الى عزوز . فانهزم الامير محمد . وادرك في بتيتة جوفي تامغزة . فقتل وقبر هناك . وذلك في المحرم سنة 812 .

ثم ولى على بجاية ابو البقاء خالد وعزل سنة 24 بالمعتمد ابن السلطان . ثم عزل المعتمد سنة 34 فصارت ولاية بجاية الى الموالي .

وفي سنة 37 ولى محمد الرابع على قسنطينة أخاه عثمان ، وعلى بجاية عمه علي بن عزوز . ثم قلد عثمان حرب ابي زكريا بن الامير محمد دفين بتيتة الذي أثار عليه العرب بوطن تونس فأناب عثمان مواليه بقسنطينة الى ان أفضت اليه الخلافة سنة 39 .

ونافس عثمان عمه علي أمير بجاية . فدعا لنفسه . وحاصر قسنطينة نحو شهر . امتنعت عليه وتوجه نحو تونس . ومعه عيسى ابن محمد شيخ الذواودة فوفد على السلطان عثمان سباع بن محمد من

شيوخ الذواودة ايضا • وكثرت جموع الامير علي والتقى بالسلطان على سراط شرقي سوق هراص في ربيع الاول سنة 840 وكان النصر في جانب الامير علي، ثم انهزمت جموعه ونجا بنفسه الى بجاية وغنم معسكره وعاد السلطان من المعركة الى تونس • وفي آخر العام قصد بجاية ، فرده بنو سيلين • وعاد اليها سنة 43 فدخلها في جمادي الثانية بعدما فر منها الامير علي • فولى عليها عبد المؤمن ابن عمه أحمد • واغتاله بنو سيلين سنة 46 فخلفه أخوه عبد الملك •

وفي سنة 50 دخل الامير علي بجاية على حين غفلة من قائدها • وأقام بها عشرين يوما وازعجه السلطان عنها الى الجبال • فبقي يجلب عليها الى سنة 56 فاستراب بأهل وطن حمزة • وتحول عنهم الى سعيد ابن عبد الرحمن السيليني صهر محمد بن عبد كبير بني سيليين • وخرج السلطان لحسم دائه • فاتفق محمد بن سعيد مع احمد بن علي الذواوي على الغدر بالامير علي • وأخبر قائد قسنطينة • فالتزم له قبول كل ما يطلبه ان هو قبض عليه ، ثم أعلم صهره بما عقده مع القائد • فكبر عليه الغدر بنزيله • فلم يزل به حتى وافقه • فقبضا عليه وبعثا الى قائد قسنطينة • فأتاهما • وامكناه منه • فارسل الى السلطان وهو في طريقه • فبعث شيخ الموحدين محمد بن ابي هلال ليتسلم الامير عليا من القائد • فتسلمه بايكجان يوم عيد الفطر ، وتوجه به الى السلطان • ثم خشي هذا الشيخ ان يفتك العرب منه الامير • فقتله ليلة الثالث من شوال ودفن جثته • وبعث برأسه الى السلطان • واستمر السلطان في سيره الى بجاية ، وارسل الى صاحبها عبد الملك بمقابلته ، فتلكأ وخشي السلطان ثورته ، فتلطف له • وارسل اليه قاضي المحلة والفقهاء والمرابطين ، فقدم معهم الى السلطان وهو بابي بحاب قريبا من جبل أولاد رحمة ، ومن الغد قيده ، وانصرف به الى تونس وولى على بجاية قائدا من الموالي ، واصبحت الجزائر الحفصية للموالي •

وفي سنة 59 توجه السلطان الى بجاية لتمهيد ساحتها وقبض قرب ميلة على ابي بكر بن الامير عبد المؤمن لان أهل بجاية قصدوا تقديمه عليهم لسابقة ولاية ابيه وعمه ، فرده الى تونس ، وتوجه نحو بجاية ، فتلقاه اعيانها بالطاعة ، فولى عليهم ابنه عبد العزيز ، وانصرف الى حضرته ، فلما بلغ قسنطينة اضاف الى قائدها بسكرة وتقرت .

وفي سنة 66 خرج السلطان الى تلمسان . واستولى في طريقه على قلعة حليمة من جبل أوراس . وقفل من تلمسان في صفر سنة 67 . فعقد في طريقه على قسنطينة لحافده محمد المنتصر بن محمد المسعود .

وبقي عبد العزيز والمنتصر على ولايتهما سنين ولكنا نجهل خاتمتهما ومن خلفهما . وآخر وال حفصي بالجزائر الحفصية ــ فيما أعلم ــ هو أحمد بن الحسن . ولي بونة ايام أبيه الى أن نبذ أهل تونس للحسن عهده ، فبايعوه مكانه سنة 943 ولا نعلم للحفصيين بعده نفوذ اداري بالجزائر .

وان من ولاة الجزائر الحفصيين من ارتقى الى عرش تونس أو ادعى الخلافة فتغلب على تونس او عجز عنها ، وهذا جدول الاقسام الثلاثة :

المرتقون الى تونس	المتغلبون على تونس	المبايعون بالجزائر فقط
عمر الاول	ابراهيم الاول	عبد العزيز بن ابراهيم الاول
خالد الاول	ابو يحي ابو بكر	
ابو عمر عثمان	ابنه الفضل	ابو بكر بن احمد الاول
احمد الثاني	احمد الاول	علي بن السلطان عزوز

4 ـ رؤســاء القبــائل

كانت رئاسة البوادي بالجزائر الحفصية لشيوخ مــن القبائل القوية ، وقد مرت أخبار العرب في بابها ، وأظهر المعاصرين لهم مــن البربر هم مليكش وزواوة وصنهاجة وسدويكش وبنو تليلان وريغة وورقلة .

وكان مليكش مستعلين بمتيجة على الثعالبة ، وهم تابعون لوالي الجزائر يستقيمون باستقامته وينحرفون بانحرافه ، ورفع منزلتهم ابو زكريا يحي الاول فعقد لشيخهم منصور سنة 640 ومنحه ابهة الملوك مزاحمة ليغمراسن بن زيان ، ومر به العبدري سنة 89 فرماه باللؤم والبخل وكل نقيصة ولكنه شاعر لا تؤخذ عنه الحقائق التاريخية ولم تزل رئاسة متيجة لبني منصور حتى غلب على الجزائر ابو حمو الزياني سنة 712 ففروا الى الحفصيين ، وأخذ الثعالبة بعدهم في الظهور .

وكان من زواوة بنو يراتن ذوي سياده ، ورئاستهم في بني عبد الصمد ، وشاخت منهم عجوز اسمها شمسي ، لها عشرة بنين عظم أمرها بهم ، ونزل عليها ابن هيدور من خدام ابي عبد الرحمن ابن ابي الحسن المريني مدعيا انه أبو عبد الرحمن وداعيا الى الثورة على أبيــه ، وابو الحسن يومئذ بمتيجة ، فسرب الاموال في بنيها وقومها ، فأجارته وقامت بدعوته حتى تبين كذبه ، فنبذته ولحق بالذواودة .

وكانت عمدة بجاية جنــود صنهاجة ، ولهــا اقطاعات بنواحيها ولكبرائها مكانة في الدولة ، فكان يعقوب بن خلوف منهم يلقب المزوار ويستخلفه ببجاية ابو زكريا المنتخب ، ومات فخلفه ابنه عبد الرحمن واستخلفه خالد الاول لما نهض الى تونس سنة 709 فثبت على ولائه له لما دعا ابو بكر بقسنطينة لنفسه ، فزحف له ابو بكر وكانت بينهما

معركة ، وعاد ابو بكر الى قسنطينة مفلولا • وانتهبت صنهاجة معسكره واتبعته الى ميلة وحاصرته بقسنطينة اياما ثم عادت الى بجاية •

وفي هذه المدة ظهر ابن اللحياني بطرابلس محاربا لخالد الاول فوصل ابو بكر يده به وأوفد عليه حاجبه ابن غمر • وتظاهر بنكبته ، فصادر منازله وسطا بحاشيته ، فعل ذلك كيدا لابن الخلوف ، واستيقن ابن الخلوف اختلال أمر خالد وطمع في حجابة ابي بكر ، وسفر بينهما عثمان بن سباغ الذوادي وغيره فاحكموا السلم بينهما وعهد ابو بكر بحجابته لابن الخلوف ، وارتحل الى بجاية سنة 712 فلقيه ابن الخلوف بفرجيوة ، ومن الليل غدر به ابو بكر ، فقتله وأخذ السير الى بجاية ، فدخلها على حين غفلة ، وغضب عثمان بن سباع وصنهاجة لهذه الخيانة فوصلوا ايديهم بابي حمو الاول الزياني •

ومن زعماء صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج • ثار سنة 753 على مرين المحتلين ببجاية ولكن كبار البجائيين خشوا سطوة ابي عنان فبعثوا اليه بطاعتهم واخرجوا منصورا وحزبه من المدينة فتفرقوا في الجهات ولحق كبراؤهم بتونس ، ثم كانت لصنهاجة كرة أخرى على يد أحمد بن القاضي لما تقلص ظل الدولة الحفصية عن الجزائر وظهر بها الاتراك •

وكان بنو تليلان ممتنعين بجبلهم الممتد شمال ميلة وقسنطينة الى أن غلب الموحدون على افريقية فوفد شيخهم ابو بكر على الخليفة بمراكش وتقرب اليه بفرض المغرم على جبل قومه وثبت عقبه على الولاء لدولتي الموحدين وبقوا على رئاستهم بالجبل • وعرفوا باولاد ثابت وسمي الجبل بهم • ويظهر ان جبلهم هو المدعو اليوم سقاو ، بقاف بدوية مخففة قبالة ميلة • فان سقاو كثير المياه والثمار وبه آثار حصون مدهشة ، وقد قال يحي بن خلدون : « فتح ابو حمو الزياني

ميلة آخر شوال سنة 758 واصمد قومه رابع يوم فتحها الى جبل بني ثابت » اهـ •

ومن بني ثابت حسن بن ابراهيم بن ابي بكر بن ثابت • ولاه أبو بكر حجابته لما خرج الى بجاية سنة 712 واناب بقسنطينة أخاه عبد الله • ثم عاد ابن غمر من وفادته على ابن اللحياتي • فسعى فيهما لدى أبو بكر كي يخلو له وجهه فقتل عبد الله بفرجيوة سنة 13 وكان أخوه حسن قد خرج لجباية الوطن • فاوعز ابو بكر بقتله الى عبد الكريم ابن منديل السدويكشي ، فقتله بوادي القطن • وهو واد شرقي ميلة قريب منها يصب في وادي قسنطينة •

قال ابن خلدون : وكان آخرهم رئاسة بالجبل علي • أدرك دولة بني مرين بافريقية وولى بعده ابنه عبد الرحمن ووفد على ابي عنان بفاس ولما استجد السلطان احمد حفيد ابي بكر دولته بافريقية استولى عليهم ومحى أثر مشيختهم ورياستهم وصيرهم في عداد جنده وحاشيته واستعمل في الجبل عماله » اهـ •

وبقية بني ثابت مساكنون اليوم لقبيلتنا اولاد مبارك • وهم قليلون يدعون الشرف الشرعي شأن الاسر التي فقدت الشرف الحربي •

وكانت رئاسة سدويكش في أولاد سواق ثم في بني سيلين • ومواطنهم في عمل بجاية • وقريتهم بنو ورار بتخفيف الراء هي آخر ذلك العمل • وربما دعيت بني وراء او بني ياورار أو تاوريرت • وهي في آخر وطن فرجيوة غربا بقربها انقاض مدينة ايكجان وبمقربة من انقاضها اليوم قرية بني عزيز وكانت تمر بها الطريق من قسنطينة الى بجاية فذكرها اديب قسنطينة علي بن الفكون في نظم رحلته الى مراكش بقوله :

وكم أورث ظباء بني ورار أوار الشوق بالريق الشهي

وجمع العبدري بينها وبين ميلة • فقال في رحلته :

« ثم وصلنا الى بني ورار ثم الى ميلة فلم نر الا رسوما بحوادث الدهر محيلة • وكلاهما على شكل مدنية ليست بثمينة ولا متينة عمل البلى فيهما وفي السكان وأدخل الجميع في خبر كان • وفي كلتيهما عين تسح وعنصر يجود ولا يشح وبنو ورار أعمر المحلين وعينهما أغزر العينين » اهـ • واليوم بنو ورار خراب وميلة لم تزل عامرة •

وكان رئيس أولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ثم أبناءه طلحة فيحي فمنديل الذي عزله أبو بكر ، وأدال من بني علاوة بني عمهم أولاد يوسف بن حمو بن سواق • فلحق بنو علاوة بجبل عياض • ثم كانت لهم كرة ايام أبي عنان • فعقد على سدويكش لمهنا بن تازير ابن طلحة • ولكن قتله أولاد يوسف • فعاد بنو علاوة الى جبل عياض • ورأس عليهم عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة • ثم هلك وافترق بعده أمرهم • وبقيت رئاسة سدويكش لاولاد يوسف •

قال ابن خلدون : « ويرادف أولاد سواق في الرئاسة على بعض احياء سدويكش بنو سكين • ومواطنهم جوار لواتة بجبل بابور وما اليه من نواحي بجاية • ورئاستهم في بني موسى بن ثابر • أدركنا ابنه صخر بن موسى • واختصه السلطان ابو يحي بالرئاسة على قومه • وكان له مقامات في خدمته • ثم عرف بالوفاء مع ابنه الامير ابي حفص • فلم يزل معه الى ان اوقع به بنو مرين بناحية قابس • فقطعه السلطان ابو الحسن من خلاف • وهلك بعد ذلك • فخلفه ابنه عبد الله • وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية وهلك اعوام الثمانين • فخلفه ابنه محمد • وهو لهذا العهد » اهـ •

ويظهر ان سكين محرف سيلين • فان الموطن لبني سيلين ، وبني

صخر معروفون برئاستهم • وكان لهم أيام السلطان ابي عمر عثمان تغلب على وطن بجاية • واعفوا ذكر اولاد يوسف • ففي سنة 840 نازل السلطان نفسه عبد الله بن عمر بن صخر • ولم ينل منه حتى قتل غدرا سنة 43 وحملت رأسه الى السلطان • وفي سنة 46 قتل محمد ابن يحي السيليني عبد المؤمن بن احمد والي بجاية • وعظم صيت محمد بن سعيد من بني صخر من بعد • واختلفت حاله مع السلطان ولاء وعداء • فنقله وأهله سنة 64 الى تونس • ثم سرحه سنة 67 فأثار عليه محمد المتوكل سلطان تلمسان سنة 70 وكان يدعو له من قبل • وقد انقطعت عنا اخبار شمال الجزائر الحفصية بعد المراكشي الذي انتهى الى ايام ابي عمر عثمان • اما الجنوب فكانت به لورقلة وريغة رئاسة • وربما قطعتها الدولة • فتجددت بعد حين • ولم تزل الامارة بورقلة وتقرت حتى العصر التركي •

قال ابن خلدون ما ملخصه : « اختطت ريغة ما بين الزاب وورقلة قرى كثيرة في عدوة وادي ينحدر من الغرب الى الشرق منها المصر الكبير والقرية المتوسطة والأطم • قد نضدت حفافيها النخيل وانساحت خلالها الميـاه » •

« وكان وادي ريغ من عمل الزاب وفي اقطاع الذواودة • فكثيرا ما يعسكر عليهم ابن مزني أو الذواودة لاقتضاء الجباية ، وأكبر تلك الامصار تقرت • مصر مستبحر العمران بدوي الاحوال كثير الميـاه والنخل ، وكانت رئاسته لعبيد الله بن يوسف بن عبد الله ثم لابنائه داوود فيوسف فمسعود ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد شيخها اليوم ، وتماسين دون تقرت في العمران والخطة ، ورئاسته لبني ابراهيم من ريغة ايضا وسائر امصار ريغة كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره » •

« وورقلة اختطوا المصر المعروف بهم ، ودخله ابو زكرياء الاول

في مطاردته لابن غانية ، فزاد في تمصيره ، واختط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة ، ونقش في الحجارة اسمه وتاريخ وضعه ، وهو باب أهل الزاب الى السودان » .

« ويعرف رئيسه باسم السلطان شهرة غير نكيرة بينهم ، وهو اليوم ابو بكر بن موسى بن سليمان من بني ابي غبول ، فخذ من بني واكير احدى بطون بني ورقلة ، ورئاستهم متصلة في عمود هـذا النسب ، وكان يوسف بن عبيد الله صاحب تقرت تغلب على ابي بكر أزمان حداثته » اهـ .

وقال الزركشي ما ملخصه : « كان يوسف بن حسن من بيت مشيخة تقرت قد منع جبايته لاول دولة ابي عمر عثمان ، فخرج اليه سنة 53 وحاصره وقطع النخيل ، ودافعه يوسف اياما حتى عجز ، فدخل عليه المدينة ، وقدم عليها قائدا من قبله ، وأخذ يوسف وولده واخاه وعمه وأهله فاعتقلهم بتونس . ثم بلغه خلاف أهل تقرت ، فخرج اليهم آخر سنة 69 واغرمهم مالا وهدم سور البلد ، وقدم عاملا بورقلة ، وأخذ منها ومن مزاب مالا جليلا ، وقفل فدخـل تونس في رجب سنة 870 » اهـ .

5 ـ الحفصيون وزناتـة

أهل الشوكة من زناتة لاول القرن السابع هم مرين وعبد الواد وتوجين ومغراوة ، والعداوة بين المتجاورين منهم متأصلة ، ولتوسط عبد الواد بينهم وعلو كعبهم في الملك تواطؤا على عدائهم .

ولمـا استقل الحفصيون بتونس ودوا لـو يملكون مراكش فيكونوا بين قومهم المصامدة ، ولكن دون ذلك زناتة ذات الكثرة والميزة الحربية . فأخذ أبو زكريا الاول يستميلهم بالرغبة والرهبة ، وبايعته مغراوة سنة 32 وحاربته توجين . ففتح حصونها ، وأسـر

أميرها عبد القوي بن العباس ، فاعتقله بتونس ، ثم من عليه استئلافا له .

وبهذا الفتح جاور أبو زكريا بني عبد الواد . فضاعف الرشيد خليفة مراكش احسانه ليغمراسن واتحفه بأنواع الهدايا ، فخلصت موته له وأصبح شجا في حلق التوسع الحفصي وعقبه كأداء في سبيل الخطة التي رسمها أبو زكريا لفتح مراكش .

وفي سنة 39 وفد على ابي زكرياء عبد القوي التوجيني وبعض بنو منديل المغراويين ، واستحثوه لحرب يغمراسن ، فسرحهم امامه لاحتشاد زناتة واحلافهم من زغبة . وجمع هو جموعه عربا وبربرا . فبلغت فرسانه اربعة وستون الفا . وخرج في شوال . فوافته زغبة بزاغر . ووجه من مليانة الى يغمراسن يطلب بيعته فابى ، فنزل على تلمسان آخر المحرم سنة 40 وعجز يغمراسن عن دفاع ذلك الجيش العرمرم ، فخرج في أهله وذويه وخاصته من باب العقبة ، وأجلى الموحدين من سبيله ، ولحق بالصحراء .

ودخل ابو زكريا تلمسان في ربيع الاول وقبض ايدي الجند عن النهب . وعرض ولايتها على شيوخ الموحدين وكبراء زناتة ، فتدافعوها خشية من يغمراسن . وجاءته الرسل ببيعة يغمراسن ومظاهرته له على بني عبد المؤمن على أن يترك له تلمسان ، فقبل مسرورا ، وأوفد يغمراسن أمه سوط النساء لاحكام العقد . فتمت السلم على يدها بعود ابنها الى تلمسان مستقلا بماليتها ومعانا بجباية بعض أعمال افريقية مبلغها السنوي مائة الف دينار .

ولكي يحافظ أبو زكرياء على خضوع يغمراسن اقام في قفولة من منافسيه عبد القوي التوجيني والعباس المغراوي ومنصور المليكشي ملوكا مناهضين وولى المستنصر بمليانة محمد بن منديل المغراوي سنة 59 بعدما فتحها من يد ابي علي بن أحمد المليانى الثائر بها ، ثم خرج

المستنصر الى المسيلة سنة 64 فوفد عليه محمد بن عبد القوي التوجيني مجددا طاعته ، فنصب له فساطيط القطن والكتان وجنب له جياد الخيل بمراكبها المذهبة ولجمها المحلاة وأكثر من المال والظهر والكراع والسلاح واقطعه جباية مقرة واوماش .

وبقيت عبد الواد على مبايعتها للحفصيين ، وفي باطنها ما فيه لتقديتهم أعداءها مغراوة وتوجين عليها ، ففي سنة 666 فرت رياح أمام المستنصر الى عبد الواد . فأعانوها على استرجاع وطنها ، ورددوا الغارات على توجين ومغراوة . ففتحوا مليانة سنة 68 ولمدية سنة 87 واستولوا على مواطنهم تدريجا . فلحق اعيانهم ببجاية وتونس ، وكان منهم جند هو شوكة الجيش الحفصي ، وما اتى القرن الثامن حتى انحصرت شوكة زناتة في عبد الواد ومرين .

فاما مرين فقد خشيت من مبايعة يغمراسن لابي زكريا سنة 40 ان يظاهره عليها ، فبعثت له بالطاعة وبيعة ما تفتحه من المدن ووعدته العون على فتح مراكش وامدها المستنصر لما توجهت الى مراكش بالمال والخيل والسلاح ، فلما فتحتها خطبت له بها زمنا ، ثم استغلظ ملكها فقطعت الدعوة الحفصية ، وبقي بين الدولتين مهاداة وروابط ودية ، وتأكدت بالمصاهرة ، ففي سنة 730 اوفد ابو يحي ابو بكر ابنه ابا زكرياء وشيخ الموحدين عبد الله بن تافراقين على ابي سعيد سلطان مرين مستنجدا به على ابي تاشفين الاول ، فوعده المظاهرة . وخطب فاطمة شقيقة ابي زكرياء لابنه ابي الحسن . فزفت اليه سنة 31 وقتلت في واقعة طريف سنة 41 فخطب ابو الحسن بعدها لنفسه اختها شقيقة الفضل سنة 46 وزفت اليه سنة 47 .

واضعف الحفصيين الثورات والفتن والحت عليهم عبد الواد بالغارات . فتحركت مرين لنصرة الحفصيين حتى اذا غلبت على تلمسان وجاورت الحفصيين اربى اضرارها بهم على عبد الواد . ففي سنة 699

كانت واقعة جبل الزان بين مرين وابي زكريا المنتخب انهزم فيها • ومات بها خلق كثير حتى سمي المعترك « مرسى الرؤوس » • وفي سنة 701 خرج أبو يحي أخو السلطان يوسف المريني الى بجاية • فضايقها • وبلغ تاقرارت من وطن سدويكش • وخشي أبو عصيدة على ممالكه • فصانع السلطان يوسف • وأوفد عليه رسله سنة 703 لتجديد عهد الصلة بين الدولتين • واقتفى أثره خالد أمير بجاية • وأوفد رسله أيضا سنة 704 فانقبضت مرين يومئذ عن بجاية الى سنة 48 حيث استولى ابو الحسن على تونس ومحا الدولة الحفصية • ثم ثار عليه العرب بافريقية وابنه ابو عنان بالمغرب • فاضطر لتسليم الممالك الحفصية فعادت الى أهلها سنة 750 •

وفي سنة 53 ملك أبو عنان تلمسان • ونزل لمدية فوفد عليه أمير بجاية أبو عبد الله محمد • وكانت بينهما صداقة منذ كان في منفاه بندرومة • فشكا اليه سوء طاعة جنده وبطانته وامتناع رعيته من الجباية ، فكلف ابو عنان من يزين له النزول عن بجاية واستبدال بعض ولايات المغرب بها ، فتنازل عنها لابي عنان على ان يلي مكناسة فلم يف له بعهده •

وبامتلاك أبي عنان بجابة فتح باب شر على قسنطينة فوالى عليها غاراته الى ان اشتد مرضه بفاس وظن وزراؤه هلاكه منه • فكتبوا الى عبد الله الياباني سنة 57 بالاقلاع عن قسنطينة وارجف بموت السلطان فأحرق عبد الله مجانيقه • وارتحل لا يلوي على شيء ، وكان القائد موسى بن ابراهيم بوادي القطن • فسرح اليه ابو العباس أحمد أمير قسنطينة أخاه زكريا• فبيته في ذي الحجة وقتل طائفة من اركان جيشه ، وأبل ابو عنان من مرضه ، فآسفته هذه الواقعة ، وخرج بنفسه الى قسنطينة ، فاستولى عليها ، وفتحت قواده تونس ، وخرج سلطانها

ابراهيم الثاني ، فجمع جموعه ، وقصد ابا عنان ، فبلغ فحص تبسة ، ولكن مرين تسللت الى مغربها ، فاضطر ابو عنان الى العـود ، فانكفأ ابراهيم الى تونس ، وطرد منها مرين ، وكل ذلك سنة 58 وأعاد ابو عنان جيوشه الى افريقية سنة 59 فلم تتجاوز عمل بونة ، وبعد موته خرجت مرين من الممالك الحفصية ، فلم تطأها بعد ، وعادت الكرة للحفصيين ، فطمع سلطانهم عزوز سنة 827 في فاس حتى دافعه صاحبها عبد الحق ببيعته •

واما عبد الواد فقد أغضبها الحفصيون بتقوية مغراوة وتوجين عليها وأطمعها الجوار في ممالكهم ، فأخذت تدبر لهم الثورات وتردد عليهم الغارات حتى ملكت عليهم كثيرا من أعمال بجاية ، وطمعت في فتح بجاية نفسها ، وحافظت أولا على الدعاء لهم حتى والى ابو عصيدة السلطان يوسف وهو محاصر لها بتلمسان •فقطع ابـو زيان الاول دعوتهم الى ان دخل السلطان عزوز تلمسان سنة 827 فبايعه صاحبها •

وفي سنة 677 قدم ابراهيم بن ابي زكرياء الاول مـن الاندلس طالبا للخلافة بتونس ، فنزل على يغمراسن ، فبايعه ووعده المظاهرة على شأنه ، وخطب منه ابنته لابنه عثمان ، فزفت اليه من تونس سنة 81 ولما قتل ايام الدعي فر ابنه ابو زكريا الى صهره عثمان ، فأكرم مثواه ، ثم بويع بتونس عمر الاول ، فوفد على ابي زكريا من حرضه عـلى الثورة عليه ، فلم يأذن له صهره عثمان • فتظاهر ذات يوم بالصيد • ولحق بالعرب الذين أعانوه على امتلاك بجاية • وأصبح يغير على تونس • فاستاء عثمان • وجدد بيعته لابي حفص عمر فطلب منه اشغال ابي زكريا عنه بالغارة على بجاية • فحاصرها عثمان سنة 86 سبعة ايام ، فاضطر أبو زكريا لترك افريقية • واقلعت جيوش عثمان الى تلمسان • فلما ولي ابو عصيدة أجلب على ابي زكريا • فتوسل الى عثمان بالصهر• وعقد معه سلما • وتفرغ لدفاع ابي عصيدة •

واشتد طلب عبد الواد لبجاية ايام ابي حمو الاول وابنه ابي تاشفين • وانتهى ايام أبي حمو الثاني • ففي سنة 709 استخلف خالد الاول على بجاية عبد الرحمن بن خلوف • فحاربه ابو حمو • واستولى على دلس سنة 12 • وارسل اليه سنة 710 صاحب قسنطينة ابو بكر مولاه سعيد بن يخلف في اتصال اليد على ابن الخلوف • ثم قتله ابو بكر ودخل بجاية • فوفد على ابي حمو صنهاجة واولاد سباع بن يحي مغرين له بابي بكر • فادعى عليه انه شرط بجاية لنفسه لما وفد عليه مولاه سعيد • وجهز الجيوش لحصارها • ثم جاوزها ففتحوا جبل ابن ثابت سنة 13 وبلغوا بونة • وحاصروا قسنطينة • وشيدوا في قفولهم حصنا بأصفون لحصار بجاية • فهدمه ابو بكر سنة 14 • وأعاد غارته سنة 15 لكن ثورة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن اضطرته الى استرجاع جنوده • فشغل بها حتى هلك •

ووصل ابو بكر يده بمحمد بن يوسف وسوغه سهام يغمراسن بافريقية • ثم قتله ابو تاشفين الاول سنة 19 وتفرغ للغارة على بجاية وما وراءها شرقا كل عام فيما بين سنتي 19ـــ32 وابتنى في طريقها على واديها الحصون • وشغل ابا بكر باطماع ذوي قرابته في ملك تونس • فأسس حصن بكر سنة 21 ونزل عليـــه أبو ضربة سنة 32 طامعا في استرجاع ملكه • فجهزه بما يحتاج اليه • فهزمه ابو بكر برغيس بين بونة وقسنطينة • فعاد الى تلمسان وبها مات • ثم نزل عليه ابراهيم بن ابي بكر بن عبد الرحمن الحفصي سنة 24 فاعانه ايضا بالجنود والقواد وانحصر منهم ابو بكر في قسنطينة • فدخل ابراهيم تونس في رجب سنة 25 واقلعت عبد الواد عن قسنطينة فخرج ابو بكر واسترجع تونس في شوال • وفي سنة 26 اختط بخميس تيكلات حصنا أعظم من حصن بكر واقرب منه الى بجاية • وسماه تيمزدكت

باسم الحصن الذي قتل عليه الخليفة السعيد سنة 646 وشحنه بالرجال والاقوات والذخائر • وقصدته جيوش أبي بكر سنة 27 فانهزمت شر هزيمة • وبنى سنة 29 حصنا آخر بالياقوتة قبالة بجاية • وسرح سنة 30 محمد بن ابي بكر بن ابي عمران الحفصي لامتلاك تونس• فهزم ابا بكر بالرياش من ناحية مرماجنة • ودخل تونس في صفر •

ونجا ابو بكر الى بونة • وركب البحر الى بجاية ، واوفد ابنه ابا زكريا على ابي سعيد المريني • فوعده الاعانة • ولكن ابا بكر استعاد تونس في رجب ثم توفي ابو سعيد وخلفه ابنه ابو الحسن • فخاطب ابا تاشفين في الاقلاع عن بجاية • فرد شفاعته فنهض اليه سنة 32 ونزل بتسالة وبعث المدد في البحر الى بجاية • وجاء ابو بكر من تونس وسرح السرايا من بجاية لتخريب الحصون المقامة لحصارها وقد انقبضت عنها الحامية الى تلمسان ، فخربها وغنم ذخائرها وزحف الى المسيلة موطن اولاد سباع شيعة عبد الواد • فخرب أسوارها • وقفل الى تونس في شوال ولم يجتمع بابي الحسن الذي شغل عن تلمسان بثورة أخيه أبي علي •

ولما استولى أبو عنان على تلمسان سنة 53 نجا ابو حمو الثاني الى تونس وصحب ابراهيم الثاني واعانه على اخراج مرين من ميلة وجبل بني ثابت في شوال سنة 58 ثم استقر ابراهيم ببجاية وملك أبو حمو تلمسان ففر بعض مغراوة الى ابراهيم وحماهم من ابي حمو فساء ما بينهما فاغار ابو حمو على بجاية سنة 63 وفتح تدلس وحمزة وبني حسن ثم جهز أبا عبد الله أمير بجاية الاقدم سنة 64 ففتح بجاية سنة 65 ونكر جميل أبي حمو وهو يومئذ مشغول بالفتن • فاخرج قائده من تدلس فسرح اليه جنده سنة 66 فعجزوا عن فتحها • ولكن الامير محمدا جذبه ابن عمه احمد صاحب قسنطينة من خلفه وأغار على عمله • فاضطر الى موالاة أبي حمو وأعاد له تدلس • وزوج منه

ابنته ، فزفت اليه سنة 67 وفيها قتل أحمد الامير محمدا وملك بجاية • فتظاهر أبو حمو بالانتصار الى صهره وخرج الى حربه في جموع من قبائل بعضها منحرف عنه • وكان مع الامير أحمد أبو زيان بن عم ابي حمو • فأثاره عليه • ومالت اليه مرضى القلوب • فانهزم ابو حمو شر هزيمة خامس ذي الحجة • وشغل بثورة ابن عمه • فلم يطأ جيشه تراب بجاية بعد •

وضعفت زناتة آخر القرن الثامن • فعادت الكرة للحفصيين • وفر ابو حمو من ابنه ابي تاشفين وطلب من قائد اسطول بجاية النزول • فأنزله ببستان الرفيع سنة 89 وجاء الامر من الخليفة أحمد الاول محاربه بالامس باكرامه وامداده على استرجاع ملكه من ابنه • فاسترجعه سنة 90 وفتح عزوز تلمسان سنة 827 وولى بها محمد بن ابي تاشفين الثاني • فقطع بيعته من بعد • فحاربه واعان عليه عمه عبد الواحد فاخرجه من تلمسان سنة 31 ثم قتل الامير محمد عمه سنة 33 فخرج اليه عزوز سنة 34 ففتحها وولى بها أحمد بن ابي حمو • ونقل معه الامير محمدا • فاعتقله بقصبة تونس الى أن توفي ونقض أحمد بيعته فخرج اليه سنة 37 ولكنه توفي أثناء سيره بولجة السدرة حيث عين الزال قرب وانشريس • فعاد جيشه بشلوة • وفي ايام ابي عمر عثمان تكررت الهدايا بينه وبين صاحبي فاس وتلمسان • ثم تغلب على تلمسان محمد المتوكل سنة 66 فخرج اليه ابو عمر • وعاد ببيعته • ثم نقضها ووصل يده باعداء ابي عمر من الذواودة وبني سيلين • فخرج اليه أبو عمر سنة 70 وخضعت له في طريقه المدن والبوادي • وبلغ تلمسان في ربيع الثاني سنة 71 وبعد قتال شديد عاد المتوكل الى الطاعة وأنكح ابنته دون خطبة حافد السلطان ابا زكريا يحي بن محمد المسعود وقفل السلطان الى تونس في شعبان • وضعفت بعده الدولة الحفصية فلم يكن بين الحفصيين والزيانيين ولاء ولا عداء الى

أن ملك الاتراك الجزائر • فعادت بين الدولتين المحتضرتين مخاطبات في الاتحاد على الاتراك لم تأت بثمرة •

والاخبار التي قصصناها تدل على أن عظمة زناتة اضرت بالحفصيين وعظمة الحفصيين أضرت بزناتة وان قوتيهما لم تجتمعا في عصر واحد • ولعل السر في ذلك أن افريقية الشمالية لا تحتمل اكثر من دولة واحدة ، ولا تصلح الا بادارة قوية متحدة مثل الادارة المؤمنية •

6 ـ سقوط الدولة الحفصية

عرفت الدولة الحفصية في حياتها دور الصعود والعظمة الى خلع الواثق • ثم دور الاضطراب والفتن الى خلافة أحمد الاول • ثم دور الانتعاش الى موت ابي عمر عثمان • ثم دور الاحتضار الى قبض الاتراك على محمد السادس • ومن غرائب الاتفاق ان الدولة العثمانية التي حلت محل الحفصيين انتهت ايضا بخلع محمد السادس وحيد الدين •

وليس لخلفاء هذا الدور الاخير كبير نفوذ بالجزائر • وكان من أمرائهم بقسنطينة عبد العزيز • وعلى عهده احتلت اسبانيا بجاية ودلس والجزائر سنة 915 (1510 م) من غير مقاومة حفصية • وانتقل عبد العزيز الى قلعة بني عباس لمضايقة بجاية • وبها توفي سنة 966 وهي قلعة حصينة جنوبها سهل مجانة الغني وتهيمن على الطرق الرابطة بين بجاية وقسنطينة والجزائر • وقلعة بني حماد بعيدة عنها الى الجنوب الشرقي من برج بوعريريج • وهي في الشمال الغربي منه • وقد غلط صاحب تحفة الزائر • فظنها اياها • وفي سنة 919 ملكت اسبانيا جيجل • والامير الحفصي يومئذ بقسنطينة ابو بكر • وفي سنة 41 تنازل الحسن لها عن بونة • فتم خروج الجزائر من ايدي الحفصيين ، ومدتهم بها

ما بين سنتي 628ـ941 ثلاث عشرة وثلاثمائة سنة • ومدتهم بتونس ما بين سنتي 627ـ981 اربع وخمسون وثلاثمائة •

وعلة سقوط دولتهم امتناع بداة العرب والبربر من الجباية ، وقلة اهتمام الخلفاء بالدولة ، وانقطاعهم الى لذاتهم الشخصية ، ووقوعهم بين دولتين عظيمتين هما اسبانيا غربا والعثمانيون شرقا •

ورائد العثمانيين الى المغرب هو بربروس ، كان معنيا بغزو مراكب النصارى البحرية ومدائنهم الساحلية ، واعجبه موقع تونس ، فاستمال صاحبها محمد بن الحسن بالهدايا ومنحه خمس الغنائم ، ونزل عليه • ولحق به أخوه خير الدين ، وكثرت أمواله وجنوده فهاجم بجاية وبقية السواحل التي ملكتها اسبانيا ، وسر به الحفصيون والامة ، فوصل يده بابي بكر وعبد العزيز أميري قسنطينة والقلعة واستدعته كتامة لاسترجاع جيجل ، فملكها سنة 20 واتخذها مركز حركته ثم ملك الجزائر سنة 22 وبعث بفتحها الى السلطان سليم العثماني ، فولاه بها ، وكان ذلك أول قدم للدولة العثمانية بالجزائر •

واغضب صنيع بربروس الحفصيين ، فوصلوا ايديهم بملوك تلمسان واستمالوا أحمد بن القاضي اعظم زعماء البربر يومئذ ، ولم تفدهم هذه السياسة غير التشويش على الاتراك وتعطيل هجومهم على تونس •

وهنا نلخص عن القيرواني والدمشقي ما يبين حياة الخلفاء المتأخرين وموقفهم بين الاتراك والاسبان قال القيرواني ما ملخصه :

« لما ولي يحي بن محمد المسعود جاءته بيعة بلد العناب وقابس وصفاقس ، ودانت له البلاد ، وخرج أكثرها عن محمد بن اخيه ، وملك الاتراك الجزائر واضطربت على ابنه الحسن البلاد ، وخرجت عنه سوسة والقيروان ، وملك الاتراك قسنطينة ودخلوا عليه تونس سنة 935 فاحتمى بملك اسبانيا ، فأخرجهم عنه سنة 41 واستقدمت

بطانة ابنه احمد علي باشا الجزائر . فملك تونس سنة 77 واستنجد أحمد اسبانيا . فاشترطت عليه شروطا اباها . وقبلها أخوه محمد ، فأدخلوه تونس وفر عنها الاتراك ثانية الى أن قدم الوزير سنان باشا من الاستانة في ربيع الاول سنة 81 واجتمع اليه الاتراك والعرب والبربر من الجزائر وتونس وطرابلس ، ففتح برج الاسبان بحلق الوادي سادس جمادى الاولى ثم قلعة البستيون المتحكمة في تونس في الخامس والعشرين منه » اهـ .

وقال الدمشقي في أخبار الدول ما خلاصته : « كان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر مهملا لامور الملك ، وترك خمسة واربعين ذكرا . خلفه منهم الحسن فقتل أخوته لم ينج منهم الا الرشيد وعبد المؤمن لغيبتهما ، واشتغل بالخمور والفجور وجمع حوله أكثر من اربعمائه أمرد ، فمالت عنه الامة الى الرشيد .

« ولجأ الرشيد الى خير الدين صاحب الجزائر . واستعان به على حرب أخيه . فشكاه الحسن الى سلطانه سليمان . فاستقدمه ، وأمره باستصحاب الرشيد ليمسكه عنده . ولكن خير الدين لما وفد عليه زين له امتلاك تونس ليتمكن من التحكم في البحر ، وعرفه سخط الامة على الحسن . فاذن له .

« وجاء خير الدين تونس . فكاد أهلها بانه آتى بالرشيد . فملك المدينة . وفر الحسن الى اخواله من العرب . ثم شعروا بالمكيدة . فأغار الحسن على تونس من غير طائل . ثم لحق بملك اسبانيا مستنجدا . فاستقبحت الامة فعل الحسن . واخلصت لخير الدين . ولكن قوة اسبانيا كانت فوق الطوق . فانهزم خير الدين بعد حروب . ودخل ملك اسبانيا والحسن تونس حوالي سنة 40 ثم عاد الملك بنفائس الذخائر . وكثر عدد الاسبان بتونس ، وابتنوا مدينة مسورة ، وتضرر بهم عامة المسلمين .

« وثارت القيروان على الحسن • فخرج لاخمادها • فقدم الناس بعده ولده حميدة (أحمد) ولحق هو باسبانيا • واتى منها بعمارة حاصرت تونس • وبعد حروب انتصر حميدة • وأسر اباه • ثم تغيرت سيرته • فمد عينه الى الحريم ، وجمع حوله أكثر من ثلاثمائة بنت ، فنكرته الامة ، وانتظرت خروجه لقتال العرب فاستقدمت علي باشا الجزائر ، فاستولى على تونس في شوال سنة 78 (في غيره 77) •

« واستنجد حميدة اسبانيا • فأنجدته • وفتحت تونس ، لكنها ولت مكانه أخاه محمدا صورة من غير مال ولا رجال • والامر كله للاسبان ، وعاود الاتراك غزو تونس ، فنزلوا عليها في ربيع الاول سنة 82 (في غيره 81) وبعد حروب شداد استولوا على تونس ، وأسروا قائدها الاسباني وبعثوا بالسلطان محمد الى الاستانة فانتهى به أمر الحفصيين » آهـ •

الباب السابع

في دولـة بني مريـن

ا ـ بنـو مريـن

بنو مرين قوم بداة كانوا أعزاء على الدولة المؤمنية • ودخل بهم كبيرهم عبد الحق بن محيو تل المغرب الاقصى سنة 610 على حـين ضعف الدولة ، وأعلن الحرب عليها سنة 13 وقتل سنة 14 فخلفه ابنه عثمان ، وتغلب على الضواحي وكثير من القبائل ، واغتيل سـنة 37 فخلفه أخوه أبو معرف محمد ، وقتل في حرب الدولة سنة 42 فخلفه أخوه أبو يحي ابو بكر ، فبايع ابا زكريا الحفصي • واستولى عـلى فاس • ومات سنة 56 فخلفه ابنه عمر • وخلع سنة57 وبويع عمه يعقوب ابن عبد الحق • ففتح مراكش سنة 68 وتلقب بامير المسلمين • فكان هو أول ملوك هذه الدولة المرينية • واصبح لقبه شعار ملوكها •

وكانت مملكة بني مرين تشتمل على المغرب الاقصى وجهات من الاندلس الاسلامية غير تابعة لبني الاحمر ملوك غرناطة • وعاصمتها فاس • وعني الملوك الاولون برفاهيتها وسعادتها ، فأقاموا العـدل ورفعوا المكوس • وأعانهم غنى المملكة الطبيعي واتصالها بالاندلسيين العريقين في التمدن •

وللحكومة علاقات ودية ومهاداة مع دول مصر والسودان وتونس ولكن جوارها لدولتي تلمسان وغرناطة كان يحدث لها معهما مشاكل • وقربها من تلمسان جعل ايام السلم معها قليلة وكان بغرناطة جيش عظيم

من مجاهدي زناتة يرأسه بنو عبد الحق من مرين • فربما تحكمت في دولة فاس • بما لديها من القرابة المرشحين للملك •

واقتفت الحكومة آثار الدول قبلها في النظم الادارية والقضائية والمالية والحربية • وأيامها ظهر البارود • واستعمله يعقوب بن عبد الحق في حصار سجلماسة سنة 672 وصنع لابنه يوسف في حصاره تلمسان سنة 697 قوسا عظيمة بعيدة النزع توقر على احد عشر بغلا • سموها قوس الزيار •

ولم يزل ملوك هذه الدولة عظاما حتى هلك ابو عنان منهم • فاختلفت حال من بعده قوة وضعفا • وربما تغلب على الامر الوزراء ، وقدموا الملك الصبيان صورة • وربما استقل عن صاحب فاس بعض منازعيه بسجلماسة ومراكش ، فاختلت الاحوال واعتلت الدولة حتى افضى الامر الى عبد الحق بن ابي سعيد عثمان فاقصى عن الحكومة بني وطاس • وولى رئاسة دولته هارون اليهودي وساء أثره في المسلمين فثاروا به وبسلطانه ، وقتلوهما سنة 869 (1465 م) وبايعوا محمد بن علي الادريسي ، فانقرضت بذلك دولة بني عبد الحق ، واومض برق الخلافة الادريسية ، لكنه كان خلبا • فان محمدا الشيخ الوطاسي استولى على فاس سنة 876 وأعاد اليها ملك بني مرين • فلم يزل الامر للوطاسيين الى أن تغلب على فاس محمد الشيخ السعدي سنة 961 (1554 م) فانقرضت دولة مرين • وخلفتها دولة السعديين •

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم رعايا •• ولكن مالهن دوام

بنـو عبـد الحـق

الملـك	هـ	م
يعقوب بن عبد الحق	657	1259
ابنه يوسف	685	1286
عامر بن عبدالله يوسف	706	1307
أخوه سليمان	708	1308
عثمان بن يعقوب بن عبد الحق	710	1310
ابنه ابو الحسن علي	731	1331
ابنه ابو عنان فارس	749	1348
ابنه ابو بكر السعيد	759	1358
عمه ابرهيم بن ابي الحسن	760	1359
اخوه تاشفين	762	1361
ابو زيان محمد بن يعقوب بن ابي الحسن	763	1361
عبد العزيز بن ابي الحسن	768	1366

الملـك	هـ	م
ابنه ابو زيان محمد الثاني	774	1372
احمد بن ابرهيم بن ابي الحسن	776	1374
موسى بن ابي عنان	786	1384
ابو زيان الثالث بن احمد	788	1386
ابو زيان الرابع بن ابي الفضل بن ابي الحسن	788	1386
عود احمد بن ابرهيم	789	1387
ابنه عبد العزيز الثاني	796	1393
اخوه أبو عامر عبدالله	799	1396
أخوهما عثمان الثاني	800	1398
ابنه عبد الحق السقوط	823	1320
	869	1465

بنـو وطـاس

محمد الشيخ بن ابي زكريا	876	1472
ابنه محمد البرتقالي	910	1504
اخوه ابو حسون علي	931	1525

احمد بن محمد البرتقالي	932	1526
الاستيلاء السعدي الاول	956	1549
عود ابي حسون	961	1554

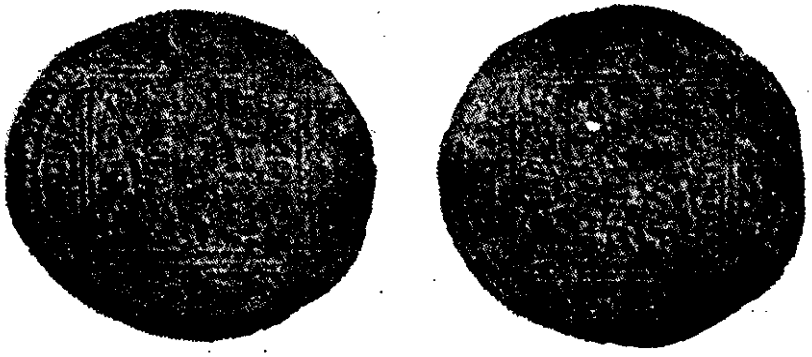

20 — نقد مضروب بتلمسان في أحد وجهيه اسم « أمير المؤمنين ابو الربيع سليمان » وفي الآخر « المتوكل على الله أمير المسلمين ابو عبد الله محمد » •

2 ـ بنـو مرين بالجزائر

الضغائن بين مرين وعبد الواد قديمة ، ناشئة عـن الجوار في الموطن ثم في الملك وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة ، فكثرت الحروب بينهما ، وكان ملك مرين أعظم ، فكان الفوز لهم غالبا ، فلما احتضر يغمراسن اوصى خلفـه بمسالمة مرين والتوسـع في مملكة الحفصيين ، لكن مرين التي لا يرضيها مقاسمة عبد الواد لها رئاسة زناتة كانت تتجنى عليهم تارة بانهم آووا ثائرا عليها ، ولم يكن يومئذ تسليم المجرمين السياسيين من الحقوق المقررة بين الدول ، وأخرى بأنهم ردوا شفاعتها في مجرم سياسي من رعاياهم أو في تخلية سبيل الممالك الحفصية ، فلم يكن في امكان عبد الواد ارضاؤها ، وكانت أيام السلم بينهما هي أيام اشتغالهما بفتن داخلية .

وقعت بين يغمراسن وابي يحي واقعتا اسلي قرب وجدة سنة 648 وابي سليط سنة 55 ثم وقعت بينه وبين يعقوب واقعة ناحية تازا سنة 57 واصطلحا سنة 58 ثم تحاربا بوادي تلاغ قرب ملوية سنة 666 وعزم يعقوب بعدها على فتح تلمسان ، فتهيأ له يغمراسن ، فمال الى الصلح ، لكن يغمراسن كتب اليه :

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا
وتأخذ عبـد الـواد منكم بثارها

وأشفي غليلي من مرين التي طغت
بسـبي غوانيهـا وقتـل خيارهـا

فكانت بينهما واقعة اسلي سنة 70 انتصر فيها يعقوب ، وحاصر تلمسان ثلاثة أيام وثلاثـة أشـهر ، ووفـد عليه محمد بن عبـد القـوي التوجيني ، فاختلفت أيدي مرين وتوجين على العيث في ساحة تلمسان ،

ثم أقلعوا عنها ، وانعقد الصلح بين الفريقين سنة 73 وانتقم يغمراسن من توجين •

ثم ان يعقوب عزم على الجواز الى الاندلس ، فارسل الى يغمراسن في تأكيد الصلح رسالة منها هذان البيتان :

فلتترك الناس الى جهادهم مؤملين في حمى بلادهم
واقعد ولا تنهض الى توجين فانها في العهد مع مرين

فأحفظ يغمراسن حمايته لتوجين وهي من رعيته • ونقض الصلح • فكانت بينهما واقعة الملعب سنة 80 والملعب ميدان لعب الخيل باحواز تلمسان • وانهزم يغمراسن فانحصر بتلمسان أياما • وشاركت توجين مرين ايضا في اعمال الفساد ، ثم عاد كل الى مقره • وانتقم يغمراسن من توجين • وتوفي ، واوصى ابنه عثمان بمسالمة مرين ، فعقد السلم مع يعقوب سنة 84 •

ثم آوى عثمان بعض الثوار على يوسف بن يعقوب ، فخرج يوسف سنة 89 الى تلمسان ، وحاصرها ستة عشر يوما اصابت فيها ايدي الجيش نواحيها بالنهب والتخريب ، ووفد ثابت بن منديل المغراوي على يوسف سنة 94 مستصرخا به على عثمان ، فارسل اليه بالشفاعة فيه ، فردها عثمان ، وخرج يوسف منتقما منه سنة 95 فحاصر ندرومة اربعين يوما ، ثم حاصر تلمسان سنة 96 اياما ثم نصب عليها قوس الزيار في رجب سنة 97 وحاصرها ستة أشهر ، وانزل جيوشه بوجدة للغارة على مملكة تلمسان •

وفي رجب سنة 98 خضعت ندرومة لبني مرين لاضرار غارات العسكر بها وفي شعبان نزل يوسف على تلمسان ، واقام محاصرا لها الى ان قتله احد خصيانه في ذي القعدة سنة 706 •

وأعظم آفات الملوك عبيدها

وملكت مرين في هذه المدة كل مملكة تلمسان ما عدا المدينة

ودخلت جيوشها مملكة بجايـة ، فملكت ندرومة وهنين سـنة 98 ووهران ومستغانم ومزغران وتنس ومليانة سنة 99 والقصبات وبرشك وشرشال ووانشريس ومازونة والبطحاء وتامزقدت سنة 700 وتفرقينت ولمدية سنة 703 ولما قتل يعقوب رغب في الملك كل من أخيه ابي يحي وابنه ابي سالم وحافده ابي ثابت عامر ، فراسل عامر بني عبد الواد في تخلية ممالكهم على ان يؤيدوه ، ففعلوا ، وتم له الامر ، ووفى لهم بالعهد ، وبقيت السلم بين الدولتين الى أن نقضها ابو سعيد عثمان ، فأغار سنة 714 على تلمسان وبلغ الملعب ، وعاثت جيوشه في الجهات قتلا ونهبا ، وفتحوا معاقل بني يزناسن ثم عادوا الى فاس .

واستولت مرين من بعد على تلمسان ست مرات وعلى الجزائر الحفصية مرتين وتداخلت بعد ابي حمو الثاني في أمر العرش ونصبت حمايتها على المستعينين بها على الملك ، ثم ضعفت عن ذلك حتى انها احتمت بالدولة الحفصية .

ولم تجن الجزائر من تداخل مرين في أمرها غير تخريب قصور ونسف عمران الى تعطيل حركة الانتاج وسير الاقتصاد الى افسـاد الرعايا ونشر الفوضى الى اضعاف الحكـومة الشرعيـة وشغلها عن ترقية ممالكها .

وقد ترك يوسف بن يعقوب وابو الحسن ابن أخيـه بالجزائر آثارا ، منها ابتناء قصبة لمدية سنة 704 ومنها تأسيس المنصورة سنة 700 حيث المعسكر المحاصر لتلمسان ، بني اولا قصر السلطان بمضرب قبابه وبازائه جامع كبير ومنارة عظيمة على رأسها تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار ، وادير على القصر والجامع سور وابتنى الناس حوله المنـازل والقصور وغرسوا البساتين وأجروا المياه وادير على ذلك سور سنة 702 فكانت مصرا من أعظم الامصار عمرانـا ونفاق أسواق ، ذات حمامات وخانات ومارستان ، وخربها من بعد بنو عبد الواد وطمسوا معالمها .

ومنها البرج الاحمر وبرج المرسى بوهران بناهما ابو الحسن سنة 748 وبني في حصاره لتلمسان مدينة غربيها سماها ايضا المنصور • وخربت ايضا وبقي بعض آثاره المدهشة •

وما هدمت مرين مـــن المجتمع الجزائري لا تجبره أمثال تلك البناءات قال تعالى ــ ومن أصدق من الله قيلا ــ : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة • وكذلك يفعلون » •

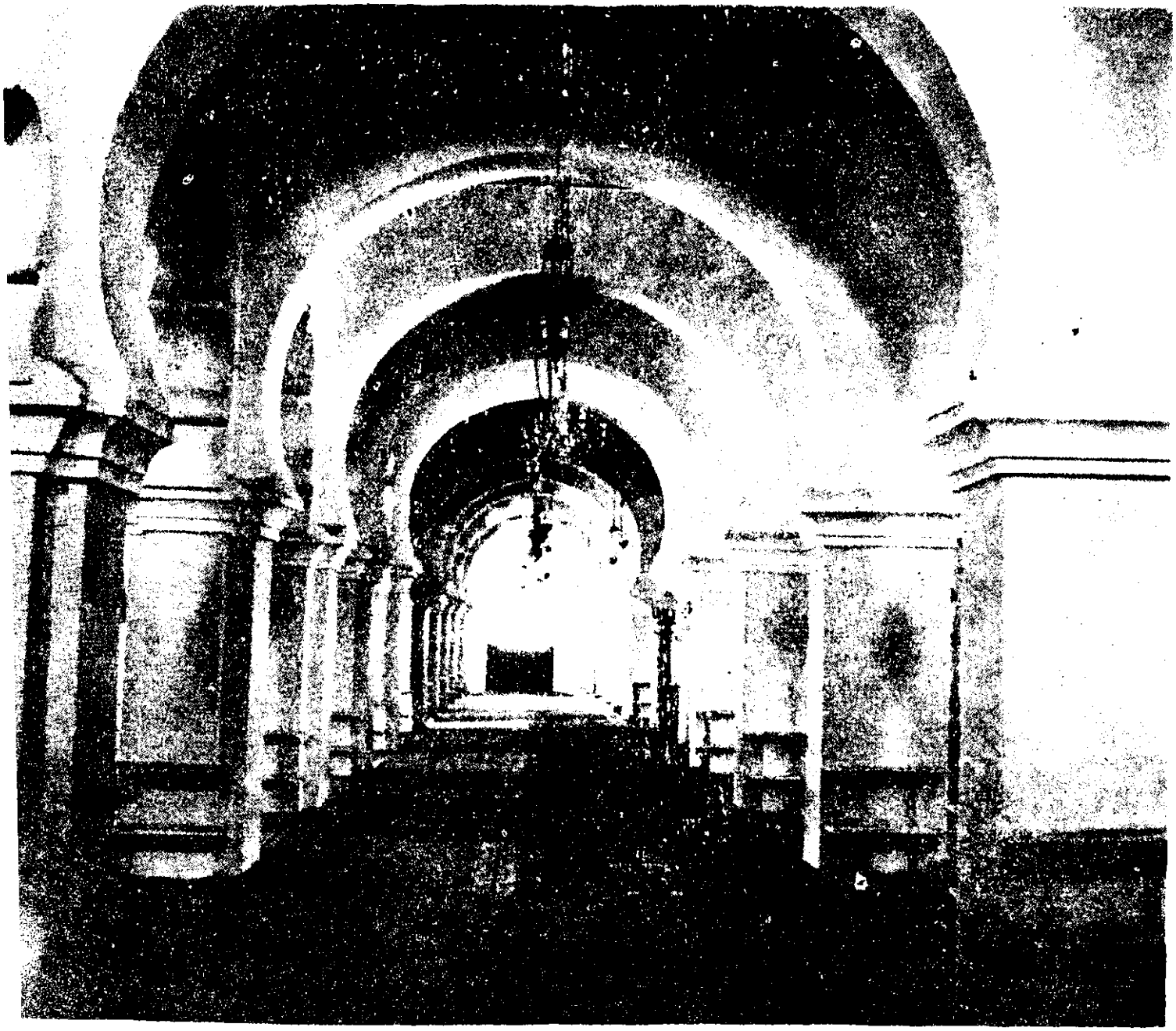

(ش41) داخل الجامع الاعظم في تلمسان

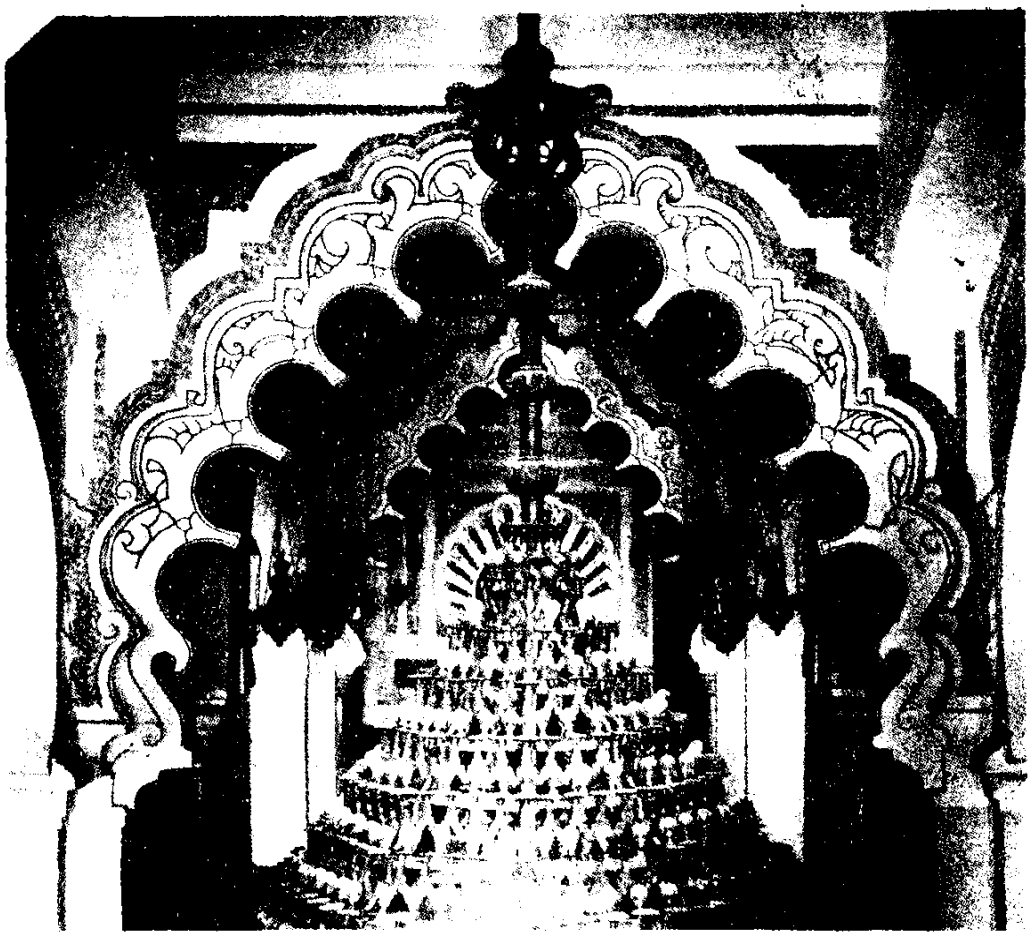

(ش42) الجامع الاعظم في تلمسان

(ش43) ضريح السلطان في تلمسان .

3 — استيلاء ابي الحسن على الجزائر

كان ابو تاشفين الاول يكثر الاغارة على الممالك الحفصية ويحاول فتح بجاية • فخشيت مرين عاقبة تغلبه على الحفصيين • واوفد ابو يحي ابو بكر الحفصي وفده على ابي سعيد المريني مستغيثا سنة 730 فتظاهرا على ابي تاشفين • وأحكما التظاهر بالتصاهر • وعزما على استئصال دولة عبد الواد • ومات ابو سعيد دون أمنيته • وخلفه ابنه ابو الحسن فخاطب ابا تاشفين في الرجوع الى حدود مملكته القديمة وتسليم ما تغلب عليه لصاحب تونس • فأبى ونهض ابو الحسن الى تلمسان • فجاوزها الى تسالة • ونزل هنالك في شعبان سنة 32 واغارت أساطيله على السواحل • وارسل الى ابي يحي في الملاقاة وجمع قوة الدولتين على فتح تلمسان • فاسترجع ابو يحي ممالكه ولم يتقدم الى تلمسان • واثار ابو تاشفين ابا علي أمير سجلماسة على أخيه ابي الحسن • فارتحل ابو الحسن لاطفاء ثورته •

وفي سنة 35 عاد ابو الحسن الى تلمسان • فحاصر وجدة • واستولى على ندرومة وهنين • ونزل تسالة وبايعته توجين ومغراوة وانبثت سراياه في الجهات • فاخضعت له سنة 36 وهران وتنس ومليانة والجزائر وبلدية ووانشريس وشلف وسائر المغرب الاوسط • فولى بها العمال • وتوجه لحصار تلمسان • فخندق على معسكره وابتنى المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه • وبعد وقائع تمكن من فتح تلمسان • فدخلها في رمضان سنة 37 ونزل بالجامع • وقبض أيدي الجند عن الفساد ورفع القتل عن بني عبد الواد • واستلحقهم بجيشه • وابقاهم على مراتبهم • وفرض لهم العطاء • فاذعنوا وصدورهم تكاد تميز من الحقد •

وبلغ أبا الحسن ان ابا يحي وافد عليه للتهنئة • فلاقاه سنة 38

الى متيجة وطال مقامه بها حتى مرض • وحذر أبا يحي وزراؤه من هذه الوفادة • فانقبض عنها • وظن عبد الرحمن يعقوب بن ابي الحسن ان اباه هالك • فتوثب على الامر منافسة لاخيه ابي مالك • فتدارك ابو الحسن الامر ، وفر ابنه الى موسى بن ابي الفضل أمير بني يزيد بسهل حمزة • فرده عليه ، وحبس بوجدة • ثم قتل سنة 742 وأيس أبو الحسن من وفادة ابي يحي • فعاد الى منصورته •

وكان بنو عامر منحرفين عن الطاعة لمكان سويد منافسيهم • ففر اليهم ابن هيدور جازر ابي عبد الرحمن ، وادعى انه هو ، فبايعه شيخهم صغير بن عامر ، وزحف به على لمدية ، فهزم قائدها ، وجهز ابو الحسن ونزمار بن عريف في قومه سويد • فقضى على الثورة • ولحق ابن هيدور الدعي بزواوة فافتضح • فانتقل الى الذواودة فبعث ابو يحي الحفصي خدمة لابي الحسن الى يعقوب ابن علي من كشف له أمر الدعي • فأشخصه الى أبي الحسن سنة 40 وهو يومئذ بسبتة • فقطعه من خلاف • وهلك سنة 68 •

وعني ابو الحسن بالجهاد وفي نفسه تشوقا الى امتلاك تونس • وانما أقعده عنها مكان صهره ابي يحي • ففي سنة 747 مات ابو يحي ، وتغلب على الامر ابنه عمر ، وقتل أخاه أحمد ولي العهد ، فتعلق ابو الحسن بهذا السبب ، وعقد على تلمسان والمغرب الاوسط لابنه ابي عنان ، وفوض اليه ادارتها ، وفصل منها في صفر سنة 48 فأتته بوهران بيعات أمراء الجريد وجربة وقابس وطرابلس ، ووفد عليه بارض بني حسن من نواحي البرواقية اعيان الجزائر ويعقوب ابن علي الذوادي ومنصور بن مزني ، فولى على جباية الجزائر مسعود ابن ابرهيم اليرنياني من طبقة الوزراء ، وتلقاه بساحة بجاية أميرها محمد لما لم يجد نصيرا ، فنقله عزيزا مكرما الى ندرومة واوصى ابنه ابا عنان بالاحسان اليه •

دخل ابو الحسن بجاية ، فوضع عن أهلها ربع المغرم وولى عليها محمد بن النوار من طبقة الوزراء ، وترك له حامية ، وتقدم الى قسنطينة ، فتلقاه أميرها ابو زيـد في أخوته مبايعين • فنقلهم الى وجدة • واقطعهم جبايتها ، وولى على قسنطينة محمد بن العباس • وانزل معه بني عسكر • واقر صهره الفضل على بونة • وتقدم الى تونس فملكها وأقام بها الى شوال سنة 50 وفي هذه المدة اجتمع له ملك المغرب • ولم يجتمع لاحد بعد بني عبد المؤمن غيره •

وفي محرم سنة 49 هزم العرب ابا الحسن على القيروان هزيمة منكرة • وكان بعسكره بنو عبد الواد وتوجين ومغراوة • فكانت لهم يد في جر الهزيمة عليه لسلبه اياهم ملكهم • وارجف بموته • فدعا ابنه ابو عنان لنفسه وثار عليـه صهره الفضل بن ابي يحي الذي أقره على بونة وكان الفضل يرى أنه سينزل له عن ملك تونس ، ولا يغتصبه عرش سلفه ، فاستولى على قسنطينة وبجاية ، واخرج منها مرين واخذ يجلب على تونس •

وارتحل ابو عنان الى فاس ، وترك على تلمسان عثمان بن جرار من أولاد طاع الله من بني عبد الواد ، واجتمع بظاهر تونس بنو عبد الواد ، فبايعوا عثمان بن عبد الرحمن • وتحالفوا مع مغراوة وتوجين ، وهدروا ما بينهم من دماء ، وارتحلوا في زهاء خمسمائة فارس الى مواطنهم ، فقتلوا عمال مرين ، ودعا عثمان بن جرار لنفسه • فنكر الناس دعوته لكونه لا سلف له في الملك ، فكان ذلك مما أعان عثمان ابن عبد الرحمن عليـه ، فغلبه على تلمسان • ودخلها في جمادى الثانية سنة 49 وقتله غريقا • وعقد سلما مع ابي عنان على أن يمنع اباه عنـه •

ولم يبق بعد واقعة القيروان على بيعة ابي الحسن غير مدينة

الجزائر ووهران ووانشريس • فسرح اليها ابنه الناصر مع يعقوب بن علي وعريف بن يحي • فاطاعته حصين والعطاف والديالم وسويد • وتوجهوا نحو منداس • فلقيهم الزعيم بقومه عبد الواد • وقد أمده ابو عنان بالمال والرجال • فانهزم الناصر على وادي ورك من أرض العطاف آخر ربيع الاول سنة 50 وانقلب الى تونس • وخضع العرب للزعيم فتوجه الى وهران • وقد امتنع بها قائدها عبو بن سعيد بن اجانا حتى مات وخلفه أخوه علي • فدخلها الزعيم عنوة في جمادى الاولى • وعفا عن علي •

وفي شوال خرج ابو الحسن الى الجزائر بحرا • وترك بتونس ابنه ابا الفضل فغرق اسطوله بساحل زواوة • ونجا في بعض رجاله عراة الى جزيرة • فأدركه بعض اجفانه • ولحق بالجزائر • وامد ابو عنان ابا ثابت الزعيم • فخرج في ربيع الاول سنة 51 الى منداس والسرسو وتيطري وحمزة • فاخضعها • وقفل فدخل تلمسان في رجب • ونهض ابو الحسن بعد قفوله • وامامه ابنه الناصر • فاستولى على لمدية ومليانة وتيمزوغت • فاتحدت مغراوة مع عبد الواد • وتكفل الزعيم بلقاء ابي الحسن وعلي بن راشد المغراوي بلقاء الناصر • فالتقى الجمعان بتيغر متين عند شدبونة من وطن شلف في شعبان • فقتل الناصر • ونجا ابو الحسن الى جبل العمور • وأصحر الى سجلماسة • واستولى الزعيم على الجزائر سنة 52 وصرف من بها من مرين الى فاس • وهكذا عادت الجزائر الى اربابها •

4 ــ استيلاء ابي عنان على الجزائــر

لم يتنازل ابو عنان لأبيه بعد تحقق حياته خشية أن يحرمه ولاية عهده فوصل يده بأمراء تلمسان وبجاية وقسنطينة ليكونوا ســدا

دون نفوذ ابيه اليه فلم يخلص اليه الا وهو مهيض الجناح • ولكنه شغل به حتى مات سنة 52 فاستقام له الامر • واستعد لاسترجاع ما استولى عليـــه أبوه •

ففي سنة 53 زحف الى تلمسان • وكان ابو دينار سليمان بن علي الذوادي مع أبيه ووفد عليـــه بعد وفاته • فسرحه بين يديـــه لحشد رياح • وخرج عثمان من تلمسان بجموعه ، فكان اللقاء بسهل انكاد في جمادى الاولى ، فانهزم بنو عبد الواد • وأسر ابو عنـــان سلطانهم عثمان ، وقتله لما احتل بتلمسان ، ونجا اخوه ابو ثابت من المعركة • فاحتمل الحرم وما خف من الذخيرة • ونزل بشـــلف على مغراوة ، وأخذ في الحشد ، فسرح له ابو عنان وزيـــره فارس بن ميمون • فكانت على شلف معركة شديدة في رجب ، ثم هزم الوزير ابا ثابت واستولى على معسكره بما فيه من نساء وأموال ودواب ، وقصد الجزائر ، فخضعت له ، وذهب ابو ثابت في فل من أصحابه مشرقا ، وجاء ابو عنان الى لمدية ، فأرسل الى أمير بجاية يترصده فقبض عليه وعلى ابي زيان ابن اخيه عثمان ووزيرهم يحي بن داود • وبعثهم الى ابي عنان • فقتلهما في رمضان بتلمسان • واستحيا ابا زيان وانتهت الدولة الثانية لبني عبد الواد • فكانت حياتها على يد أبي حمو الذي نجا الى تونس •

ووفد محمد بن يحي أمير بجاية في شعبان على ابي عنان بلمدية لما بينهما من قديم الود • وطمع ان يعينه على تعنت رعيته • فأشار اليه بتسليم بجاية اليـــه • فأعلن للملأ تسليمه • وكتب الى عامله ببجاية بتسكين عمال ابي عنان منها ولسان حاله يقول مكره اخاك !

وكان الصنهاجيون أهل الشوكة ببجاية • فولى ابو عنان بها عمر ابن علي الوطاسي • وبنو وطاس ينتسبون الى يوسف بن تاشـــفين

الصنهاجي • فلم ينخدع الصنهاجيون لهذه المجاملة السياسية • وثاروا بالعامل ومن معه من مرين لكن أعيان بجاية خشوا ابا عنان • فاستدعوا عامله بتدلس يحي بن عمر الونكلسني ليقوم بأمرهم ريثما يولي عليهم ابو عنان •

بلغ الخبر ابا عنان • فانهض حاجبه محمد بن ابي عمر في خمسة آلاف فارس في ذي الحجة • وقصدت صنهاجة الى لقاء الحاجب ببني حسن • ثم خامت عن اللقاء ولحق أثافي الفتنة منها بقسنطينة فتونس • ولقي مشيخة بجاية الحاجب بتكلات • فأشخص أهل الظنة منهم الى ابي عنان بتلمسان • ودخل بجاية في المحرم سنة 54 وسكن الاحوال • ووفد عليه يوسف بن مزني والذواودة • ورجع بمن وفد عليه من العرب الى تلمسان في جمادى الاولى • قال ابن خلدون :

« وكنت يومئذ في جملتهم • وقد خلع علي الحاجب وحملني واجزل صلتي وضرب لي الفساطيط • فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجيـاد والهدية • وكان يوما مشهودا • ثم أسنى جوائز الوفد • واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد البر والكرامة • وائتمرهم في شـأن افريقية ومنازلة قسنطينة وانصرف الحاجب بي وبالوفد لاول شعبان » اهـ •

واطلق السلطان يد الحاجب في المـال والجيش ، وولاه حرب قسنطينة وانزل معه موسى بن ابرهيم اليرنياني مـن طبقة الوزراء بقرية بني ورار تحت نظره وفي سنة 55 هزم الحاجب أمير قسنطينة • وانتهى الى ميلة • فترك بها موسى بن ابرهيم • وتقلب في عمـله حتى بلغ المسيلة وهلك ببجاية فاتح سنة 56 فنقل الى تلمسان • وكان حميد السيرة • وجمع له ابو عنان قبل ولاية بجاية بـين العلامـة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر

ألقاب دولته وخصوصيات داره • وأصله تميمي كان سلفه بالمهدية • وانتقلوا الى تونس وتقلبوا في وظائف الدولة • ثم ساءت أحوالهم • فخرج ابوه الى القل • واتصل بالحاجب ابن غمر بالاعجام • فاستعمله في شهادة الديوان بتدلس • ثم لحق بابي حمو • فاستعمله على قضاء تلمسان الى أن ملكها ابو الحسن • فعزله وعهد اليه بتأديب ابي عنان فنشأ ابنه محمد هذا مع ابي عنان • وكان ذلك سبب نعمته •

وولي بجاية بعد ابن ابي عمر الوزير عبد الله بن علي بن سعيد الياباني • فلما كانت وقعة وادي القطن على موسى بن ابرهيم اتهمه بالتقصير في امداده • فعزله ابو عنان واعتقله • وولى مكانه يحي بن ميمون بن أمصمود • وخرج بنفسه الى قسنطينة • ففتحها سنة 58 وولى عليها منصور بن خلوف الياباني المريني • وبايعته بونة • وفتح جيشه تونس في رمضان • فطمع في اللحاق بها شأن ابيه • لكنه لم يحسن سياسة العرب وأراد ارتهان ابنائهم على الطاعة وانتزاع اقطاعاتهم ، فخالف عليه يعقوب بن علي ، وخشيت مرين ان يلحقها معه في دخول افريقية ما لحقها مع ابيه قبل ، فانفضت من حوله واضطر الى الرجوع بعدما تم استيلاؤه على الجزائر وكادت قدمه تثبت بتونس وبقية المغرب • فدخل فاسا في ذي الحجة • ومات بها في السنة التالية •

وكان ابو عنان كثيرا ما ينزل بتلمسان • وولى عليها ابنه محمدا المهدي فأخرجه منها ابو حمو الثاني سنة 60 واخرج ابراهيم الثاني الحفصي مرين من بجاية بمساعدة أبي حمو ويعقوب بن علي سنة 61 وافضى أمر مرين الى أبي سالم ابراهيم • فنفض يده من هذه الممالك • وكتب الى منصور بن خلوف والى قسنطينة بتسليمها الى ابي العباس احمد الحفصي ، فسلمها له في رمضان سنة 61 فتم اخراج مرين من

الجزائر بعدما استولت على تلمسان سبع سنوات وعلى بجاية ثمانيا وعلى قسنطينة وبونة ثلاثا •

5 ـ الاستيلاءات الاخيرة على تلمسان

لما توفي ابو عنان بويع ابنه السعيد طفلا خماسيا مستبدا عليه • فثارت لبيعته قلاقل شغلت مرين عن تلمسان وانتهت بتغلب ابي سالم ابراهيم على الامر • وعامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالي • فخشي ابا سالم لانه كان مخلصا لاخيه ابي عنان وتحيل في إشخاص أخيهما ابي الفضل اليه لما ثار عليـــه • فقتله سنة 55 واحتمل أهـــله وذخائره • ولحق بابي حمو في شوال سنة 60 لقديم حلف بينه وبين عبد الواد ، ونقل أولياءه عرب المعقل الى صحراء تلمسان ، فنبذوا مرين وحالفوا عبد الواد •

وساء ذلك أبا سالم ، فطلب من أبي حمو اسلام الزردالي ورجع المعقل الى مغربه ، فأبى ، فزحف اليه في رجب سنة 61 وبعد حرب شديدة دخل ابو سالم تلمسان سادس شعبان ، فاجلب ابو حمو على قرسيف وانكاد • فعاد ابو سالم لحفظ مملكته ، وترك تلمسان لابي زيان الفتى من بني عبد الواد وهواه مع مرين لانه نشأ في نعمتهم ، فعاد اليها ابو حمو ودخلها ثامن رمضان ، وفر منه ابو زيان ، وانعقدت السلم بين المملكتين ، فكانت مدة هذا الاستيلاء شهرا وأياما •

ولما ملك عبد العزيز أحيا قضية المعقل الذين استكثر بهم ابو حمو واستعان بهم على سويد ، فلم يجد لدى ابو حمو اذنا صاغية ، ثم وفد عليه أهل الجزائر وسويد ساخطين على ابي حمو لجبره اياهم على اداء المغرم ، فتقوى عزمه ، وزحف الى تلمسان آخر سنة 71

ومال اليه ذوو عبيد الله ، فلم يسع ابا حمو الا الفرار ، ودخل عبد العزيز تلمسان في المحرم سنة 72 واستولى على مملكة عبد الواد ، وفرق العمال في الجهات ، وانتزع من العرب اقطاعاتهم ، فثاروا عليه في كل ناحية . واضطرم المغرب الاوسط نارا ، فاضطر سنة 73 لامضاء اقطاعات العرب ، وأخرج الجنود لاخضاع بقية الثوار من مغراوة وحصين وغيرهم ، وأقام بتلمسان حتى توفي بها سنة 74 فنقل شلوه الى فاس ، وبويع ابنه . فولى على تلمسان ابراهيم بن ابي تاشفين الاول كان مكفولا لمرين منذ مقتل أبيه ، واستدعى ابا حمو أولياؤه من منتبذة بتيقوارارين ، وردوا ابراهيم على عقبه الى فاس ، ودخل ابو حمو تلمسان في جمادى الاولى ، فكانت مدة هذا الاستيلاء عامين وأشهرا .

وفي سنة 76 انقسمت دولة مرين بين أحمد بن ابي سالم بفاس وابن عمه عبد الرحمن بمراكش ، ثم كانت بينهما حروب ، فمال ابو حمو الى صاحب مراكش لبعده عن جوار مملكته ، وأراد أن يرغم أحمد على الافراج عنه سنة 84 فاجلب بجموع العرب وزناتة على مملكة فاس ، وقام بدفاعه ونزمار بن عريف وعامل فاس ، ثم ورد الخبر بفتح مراكش منتصف السنة ، فانقبض ابو حمو الى تلمسان وعاد احمد بن ابي سالم من مراكش ، فاخرج ابا حمو من تلمسان سنة 85 وهدم قصور الملك بها .

وكان الغني بالله بن الاحمر صاحب غرناطة وليا لابي حمو ، ولديه كثير من بني عبد الحق المرشحين للملك ، فكان يمنع ابا العباس أحمد من حرب تلمسان متى هم بها . فلما فتح مراكش ظن قوته لا يؤثر فيها ابن الاحمر . وأجلى ابا حمو فانتقم منه ابن الاحمر بتسريح موسى بن ابي عنان لفاس، واعانه على شأنه ، فغادر ابو العباس تلمسان أوائل سنة 86 ولكن موسى ابن عمه قد سبقه الى فاس وعاد طريده

موسى ابو حمو الى تلمسان • واصبح السالب مسلوبا ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وكانت مدة هـذا الاستيلاء نحو سنة •

ثم عاد ابو العباس الى ملك فاس • وأعان ابا تاشفين الثاني على قتل ابيه ابي حمو • وسجن لديه أخاه ابا زيان ليهدده به وقت الحاجة • وتوفي أبو تاشفين سنة 95 فملك ابو العباس تلمسان ، وأقام بها ابنه عبد العزيز لاخضاع ممالكها ، بعض سنة ، وتوفي أبوه سنة 96 وبويع مكانه • فعاد الى فاس • وأطلق من السجن ابا زيان • فملك تلمسان • ولم تدخل الراية المرينية الجزائر بعد •

وهكذا كان القرن الثامن قرن عراك بين مرين وعبد الواد • وانتهى بضعفهما معا ، وجروا معهم في الضعف دولة غرناطة اذ كانت تستمد منهم عسكريا وماليا واديبا • فتقوى عليها الاسبان حتى قضى عليها سنة 897 واشتدت وطأته على سواحل المغرب أجمع • وما ذلك الا لاهمال العمل بمثل قوله تعالى : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة •

الباب الثامن

في دولة بني زيـان

ا ـــ تأسيس الدولة الزيانية

هذه الدولة تضاف الى عبد الواد الذين بسيوفهم قامت وبابطالهم حميت ، وتنسب الى زيان بن ثابت بن محمد من بني طاع الله لان ملوكها من عقبة • وبنو طاع الله من بطون بني القاسم من عبد الواد • وزعموا ان القاسم هذا هو ابن ادريس او ابن محمد بن ادريس او ابن محمد بن عبد الله أو محمد ابي القاسم بن ادريس وفي بني محمد ابن سليمان الذين كانوا بتلمسان القاسم بن محمد أيضا • قال ابن خلدون : وهو اشبه بهذه الدعوى من القاسم بن ادريس •

ولقد كان بنو عبد الواد اجلاس خيل وابطال هيجاء يرون المعالي منوطة بالعوالي لا يخنعون الى مناهض ولا تكسر من شبانهم الشدائد • يغالبون النوائب ويصابرون الخطوب • وبمثل هذه الاخلاق أسسوا دولتهم • وبها حافظوا على حياتها رغم ضيق المملكة واتساع مطامع جيرانهم الاقوياء من مرين وبني ابي حفص •

وكان دخول عبد الواد تلمسان امرة جابر بن يوسف منهم • فناب امراؤهم بها عن خلفاء مراكش حتى ولي يغمراسن بن زيان سنة 633 فأحسن سياسة قومه واحلافهم من زغبة وبني راشد ، وجمع كلمتهم ، فاشتد ساعده وتوطد أمره • فاتخذ ابهة الملك وشعاره من جند وتولية عمال ولم يبق لخليفة مراكش الا الدعاء على المنابر وتقلد العهد من يده تأنيسا للعامة ومرضاة للاكفاء من قومه • فكان يغمراسن أول ملوك هذه الدولة •

وقد قاست من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ما قصصنا بعضه في البابين قبل هذا وسنقص منه في هذا الباب ، وان تعجب فعجب حياتها مع تلك الحروب المبيرة حتى سقطت مع منافسيها المرينيين والحفصيين •

2 ـ المملكة الزيانية

مملكة آل زيان الاصلية هي مواطن عبد الواد واحلافهم بني راشد الممتدة طولا من البحر الى الصحراء وعرضا من ناحية وادي مينة ، وجبال سعيدة حيث يجاورون توجين ومغراوة الى ملوية وفيقيق حيث يجاورون مرين واحلافها •

وملكوا سجلماسة بين سنتي 62ـ673 وغلبت مرين على وجدة ، فاستقرت الحدود بين الدولتين على تاوريرت بجانبها الغربي عامل مرين وبالشرقي عامل بني زيان • ثم يمر خط الحدود جنوب وجدة الى فيقيق وتيقورارين جنوبا والى غربي ندرومة شمالا • فيشمل مواطن ذوي عبيد الله غربي حدود الجزائر الحديثة •

ثم ملكوا مواطن توجين ومغراوة وفتحوا الجزائر ودلس سنة 712 وبلغوا تيكلات قرب بجاية • ومنها يذهب الخط جنوب جرجرة الى البويرة الى دلس شمالا • ويمر مصحرا شرقي حمزة والمسيلة ومزاب الى تيقورارين •

وبهذه المملكة من قبائل العرب المعقل وزغبة وأولاد سباع بن يحي من رياح ، وتقدمت أخبارهم في الباب الخامس ، ومن قبائل البربر التي كان لها ظهور قوي أو ضعيف مطغرة وكومية وبنو راشد وهوارة وتوجين ومغراوة • وقبائل المملكة الشرقية أقوى وأكثر خلافا لكثرة جبالهم ويسر مسالك الصحراء عليهم وضعف دولة الحفصيين المجاورة لهم وبعد عاصمتهم عنهم بخلاف أهل المملكة الغربية فان خلافهم على آل زيان يدخلهم في قبضة مرين الاشداء ، فضعفوا لذلك وقلت ثوراتهم •

أما مطغرة فكان رئيسهم في الدولة المؤمنية خليفة • وله على ساحل البحر حصن تاونت كان مؤسسا من قبله ، فقد ذكره البكري

بقوله : « وهو على ساحل ترنانا في جبل منيف • به معدن الأثمد ، ويحيط به البحر من ثلاث جهات ، وله مرتقى وعر من شرقيه لا يطمع فيه أحد ، وله بساتين وشجر كثير وأهله مـن البربر يعرفون ببني منصور » اهـ •

وبقيت الرئاسة في عقبة وبايع هرون بن موسى بن خليفة يعقوب ابن عبد الحق وتغلب على ندرومة • فاسترجعها منه يغمراسن وغلبه على تاونت • ثم تغلب يعقوب بن عبد الحق على ندرومة واعاد اليها هرون • فاستبد بها • وقطع دعوة الدولتين منها خمس سنين حتى غلبه يغمراسن سنة 72 فلحق بيعقوب بن عبد الحق وأجاز الى الاندلس واستشهد هنالك •

وخلفه على مطغرة أخـوه تاشفين • وهلك سنة 703 وبقيت الرئاسة في عقبة • هذا ما حدث به عبد الرحمن بن خلدون • وقال أخوه يحي : في ربيع الاول سنة 98 شرق عثمان الاول الى توجين وأطال المغيب في تدويخ بلادهم • فخلع زكريا بن يخلفتن المطغري قائده بندرومة طاعته • وبايع لمرين • فاضطرمت أرجاء حضرته نار فتنة • فأخذ السير الى تلمسان • وكان اثر ذلك الحصار الطويل •

وأما كومية فقد بقيت منهم بعد الدولة المؤمنية علالة في بني عابد قوم عبد المؤمن متحدة مع ولهاصة • كان من رؤسائهم ابراهيم بن عبد الملك ، نسبه ابن خلدون مرة الى ولهاصة وأخرى الى بني عابد ، وكان آخذا بدعوة ابي الحسن بعد تغلبه على تلمسان ، فلما وقعت عليه واقعة القيروان واشتد الهرج في الاوطان حدثته نفسه باحياء الدعوة المؤمنية ، فدعا لنفسه ، وأضرم بلاد كومية وسواحل تلمسان نار فتنة ، وعاد آل زيان الى تلمسان فخرج اليه ابو ثابت الزعيم عاشر رجب سنة 749 فاقتحم هنين وندرومة وأسره واعتقله

بتلمسان حتى قتل • وكانت هنين فرضة تلمسان المعتبرة حتى خربها شرلكان ، قال البكري ما خلاصته :

« حصن هنين على مرسى جيد مقصود ، وهو أكثر حصون ساحل تلمسان بساتين وضروب ثمر ، تسكنه كومية ، وبينها وبين ندرومة ثلاثة عشر ميلا ، يفصل بينهما جبل تاجرا ، وندرومة في طرف الجبل ، غربيها وشمالها بسائط طيبة ومزارع ، وبينها وبين البحر عشرة أميال ، وهي مسورة جليلة بها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار » اهـ •

وأما بنو راشد فكانوا أحلافا لعبد الواد ، وربما نبذوا عهدهم ، وكانت رئاستهم لعهد يغمراسن لونزمار بن ابراهيم بن عمران ، وهلك سنة 690 فخلفه غانم بن محمد بن ابراهيم ، ثم موسى بن يحي بن ونزمار ، ثم ابو يحي بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار ، وكان أيام تغلب ابي الحسن على تملسان ، ونقله في رؤساء زناتة الى المغرب الاقصى • فمات هنالك وخلفه ابنه زيان • وملك ابو حمو الثاني تلمسان • فوفد عليه • واتهمه بمشايعة مرين • فحبسه بوهران • وفر منها بعد مدة الى مرين وتظاهر بالاخلاص لابي حمو • فأعاده • وولاه على قومه • ثم اعتقله حتى قتله سنة 768 وبه انقرضت رئاسة بني راشـــد •

وكانت في مواطنهم مدينتا معسكر وايفكان • والمعسكر اليوم من المدن الشهيرة • وذكره الادريسي في النزهة بقوله : « قرية عظيمة لها أنهار وثمار » • اهـ • ويقال انها كانت معسكرا للايمة الرستميين واتخذها بنو زيان معسكرا للاجلاب على توجين • ولم يعتنوا بتمدينها حتى مصرها الاتراك • وايفكان ويقال ايضا فكان جنوب المعسكر • قال البكري :

« كانت سوقا لزناتة • فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني •

وكان ابتداء تأسيسه لها سنة 338 وارتحل اليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئي بني واطيل ووهران وقصر الفلوس • فعمرت وتمدنت وعظمت • وهي في سفح جبل اوشيلاس • وهو بجوفيها ذو شعراء غامضة وقبليها نهر سيره ينبعث من عيون شرقيها ، عليه الارحاء والبساتين من كلتي ضفتيه ، وغربي فكان اسفل بساتينها مجمع وادي سيرة ووادي سي ووادي هنت • وعلى المدينة سور طوب ، وبها جامع وحمام وفنادق • » اهـ • ولعل لفظ من في قوله من أهل تاهرت محرف عن الواو •

واما هوارة فكانت رئاستهم في بني اسحق • واختط كبيرهم محمد بن اسحق القلعة المعروفة بقلعة هوارة • ومات • فخلفه اخوه حيون • وصارت في عقبة ووالوا آل زيان • فاستعمل منهم ابو حمو الاول يوسف بن حيون على توجين سنة 710 الى أن خلفه على توجين ابنه يعقوب امرة أبي تاشفين الاول • ثم غلب ابو الحسن على تلمسان ، فاستعمل عبد الرحمن بن يعقوب على قبيله ثم عبد الرحمن ابن يوسف • ثم ابنه محمدا • ثم تلاشت هوارة • وخف ساكن القلعة فانقرض بيت بني اسحق •

واما مغراوة وتوجين فكانوا مناهضين للدولة • وتكررت فتنهم حتى ان ابا حمو موسى الاول اقام سنة 711 لحربهم بوادي نهل من شلف • وابتنى هنالك قصره المعروف باسمه قرب مازونة • وهو المعروف اليوم بعمي موسى •

وكانت مدينة الجزائر للحفصيين • ويدير أمرها مشيخة من أهلها • فنبذوا دعوتهم سنة 669 ونازلتهم العساكر مرارا • فامتنعوا عليهم • ثم فتحوها سنة 74 واعتقل مشيختها بتونس حتى سرحهم الواثق ثم قطعوا دعوتهم ثانيا حوالي سنة 98 واستبد بها محمد بن

علان • وبايع بني مرين لما نزلوا على تلمسان في الحصار الطويل • ونازلته عساكر بجاية مرارا • فامتنع عليهم حتى فتحها ابو حمو الاول سنة 712 ونقل ابن علان الى تلمسان • وعادت للحفصيين سنة 813 ثم فتحها عبد الواحد بن ابي حمو • وتغلب عليها المستعين حافد ابي تاشفين سنة 842 واستقل بها عن تلمسان • وقتله أهلها سنة 43 وأدار شؤونها مشيختهم يرأسهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي حتى توفي سنة 75 وصار أمرها الى أولاد سالم بن ابرهيم من الثعالبة وكان منهم سالم التومي الذي خضع مضطرا الى الاسبان لما ملكوا بجاية • فلما ظهر عروج بربروس بجيجل استنجده • فانجده ، ودخل الجزائر سنة 922 وندم سالم على استدعائه • فغدر به عروج وتغدى به قبل ان يتعشى هو به ، فقتله وفتك برؤساء الثعالبة تمكينا لسلطته ، ومن ذلك الحين أصبحت الجزائر تركية •

وكانت الجزائر تدعى جزائر بني مزغنة اضافة الى أهلها من صنهاجة ، قال البكري : « وهي مدينة جليلة قديمة ذات آثار وأزاج محكمة تدل على انها كانت دار مملكة للاول وصحن دار الملعب فيها مفروش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان باحكم عمل لم يغيرها تعاقب القرون • ولها أسواق ومسجد جامع • وكانت بها كنيسة عظيمة • بقي منها جدار مدير من الشرق الى الغرب مفصص كثير النقوش والصور وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين » اهـ •

3 ـ عاصمة المملكة الزيانية

عاصمة هذه المملكة هي تلمسان بكسرتين فسكون ، علم زناتى مركب من تلم بمعنى تجمع وسان بمعنى اثنين يعنون انها تجمع بين اثنين التل والصحراء وهي في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبها ،

ويسمى قبالتها بالصخرتين ، ينحدر منه نهر سطفسيف المار شرقيها • الى ان يلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا • وتنحدر منه أيضا ساقية النصراني ، وعلى الساقية والنهر مبان وجنات وارحاء • وبقرب المدينة عينا الفوارة وام يحي يدخل ماؤها اليها • ويجري الى الدور والحمامات والخانات وغير ذلك • وحولها فحوص أشهرها العباد حيث ضريح ابي مدين الشهير ، وكان قرية كبيرة ذات مساجد ومدارس وخانات ، ثم تراجعت عمارتها حتى اضمحلت في العهد الفرنسي •

وتلمسان مدينتان احداهما قديمة تعرف بأقادير أسسها بنو يفرن قبل الاسلام والثانية احدثها يوسف بن تاشفين سنة 474 بمعسكره المحاصر لاقادير ، وسماها تاقرارت باسم المعسكر في لسانهم وفي عهد الادريسي صاحب النزهة كانتا يفصل بينهما سور ، ويحيط بهما سور حصين متقن الوثاقة •

وقد عني البكري بوصف تلمسان القديمة وما بساحلها من سهول وحصون ومراسي ، نقتصر من ذلك على قوله ملخصا :

« هي قاعدة المغرب الاوسط ودار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق ، لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار ، وكان الاول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال • ولها خمسة أبواب ، في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب ابي قرة ، وفيها للاول آثار قديمة ، وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار ، وبها بقية من النصارى الى وقتنا هذا ، ولهم بها كنيسة معمورة » اهـ •

ولم تزل تلمسان منذ الفتح الاسلامي عاصمة مملكة معتنى بعمارتها وتحصينها ولا سيما ايام الموحدين وفتنة ابن غانية حتى

اقتعد كرسيها آل زيان • فشادوا بها القصور الجميلة • واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها الميـــاه ، وبلغ من عمرانها ان عد برجيص المسيحي في كتابه « تلمسان » من المساجد التي شاهدها قائمة في هذا العصر الفرنسي أحدا وستين مسجدا •

قال عبد الرحمن بن خلدون : « فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع • وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » اهـ •

وقال العبدري في رحلته : « تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور • ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانـــة ولا بأس باخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد هو مدفن الصالحين وأهل الخير •• والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وانواع الثمار • وسوره من اوثق الاسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة • أشهرها حمام العالية قل ان يرى له نظير ، وبالجملة هي ذات منظر ومخبر وانظار متسعة ومبانيها مرتفعة » اهـ •

وقال يحي بن خلدون ما خلاصته : لها خمسة أبواب ، قبلة باب الجياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوى وباب القرمدين وغربا باب كشوط ، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد • أحدهما أقادير والاخرى تاقرارت • وهي الآن أكبر وأشهر من الاولى • والجامع الاعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها والناس اليها أميل وبها أشد عناية » اهـ •

وذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان ، فقال ان لها ثلاثة عشر بابا وهو معاصر لآل زيان لكنه بعيد عنها ، وقد عارضه يحي كاتب حكومتها •

وقد اختلفت على تلمسان أيــدي الحفصيين ومرين والاسبان فطمسوا كثيرا من معالمها واعفوا معظم آثارها ، وأشار الى علة ذلك لسان الدين بن الخطيب في وصفه لها بقوله :

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف • كأنها ملك على رأسه تاجه وحواليه من الدوحات حشمه واعلاجه • عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد حجبتها ايدي القدرة عن الجنوب ، فلا تحول بها ولا شحوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع ، الا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا ، مغلوبة للامراء أهلها ليست عندهم الراحة الا فيما قبضت عليــه الراحة ، ولا فلاحة ، الا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة الا فيمن ارتكب الخطارة » اهـ •

وللادباء في وصفها ومدحها نثرا ونظما ما لا يسعه ديوان ، ومن أطولهم في ذلك باعا وابرعهم تصويرا واصدقهم وصفا شاعرها النازح عنها الى غرناطة محمد بن خميس ، قال في مطلع قصيدة طويلة جــدا :

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

4 ــ الحكومة الزيانية ومشاهير من رجالها

الدولة الزيانية مستقلة داخليا وخارجيا غير انها لم تدع أولا الخلافة ، فكانت تدعو لدولتي الموحدين الى سنة 703 واودعت الخلافة الى سنة 791 فأصبحت تدعو لمرين ، ثم تمشت حسب الظروف : تعلن

الخلافة أياما ، وتدعو للحفصيين أو المرينيين أخرى الى أن ظهر على مسرح السياسة الجزائرية الاسبان والاتراك • فاختلفت ايديهم على هذه الدولة كل يجذبها لحمايته •

وحكومتها ملوكية استبدادية مطلقة غير جارية على قواعد سياسة الخلافة كالحكومات المعاصرة لها شرقا وغربا ، وسياستها مع جارتيها الحفصية والمرينية عدائية كسياستهما معها • وقد أوصى يغمراسن ابنه عثمان بمسالمة مرين لقوتهم واتقاء مقابلتهم بالانحصار ، وانتهاز الفرص في ممالك الحفصيين واتخاذ بعض الثغور الشرقية موئلا لحفظ دخائر الحكومة • وعلى هذه الوصية سارت الحكومة الا انها عجزت عن اتخاذ معقل بالمشرق لصعوبة بجاية عليها • فاتخذ ابو حمو الثاني من الصحراء معقلا •

ومد بنو الاحمر ملوك غرناطة ايديهم الى يغمراسن لما خشوا من مزاحمة مرين لهم بالاندلس وان يعيدوا معهم مأساة ابن عباد ، فاستمرت العلاقات بين الحكومتين حسنة • وكان أبو حمو الثاني يمد أهل غرناطة كل سنة ، بالزرع والمال والخيل ، وييسر لهم اسباب وسق الطعام • ويرى ذلك من الجهاد ويحمل عليهم حديث الطائفة التي لا تزال بالمغرب ظاهرة على الحق • وفي ذلك يقول لسان الدين الخطيب :

لقد زار الجزيرة منك بحر ... يمد فليس نعرف منه جزرا
اعدت لنا بعهدك عهد موسى ... سميك • فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وافدت كنزا ... ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وكانت الحكومة ترفع منازل الإشراف والفقهاء وتداري الاعيان من رؤساء القبائل والتجار واشباههم ، وتجري في سياسة العامة على

قول الحكماء : « العامة اذا قدرت ان تقول قدرت ان تصـــول » فتضرب بين زعماء القبائل ليكونوا في حاجة اليها وتأخذ من ابنائهم رهنا على الطاعة واتخذ لهم ابو حمو الاول عصبة واذن لهم في النكاح والبناء واختط لهم المساجد جمعوا فيها للجمعة ونفقت بها الاسواق والصنائع قال ابن خلدون :

« فكانت تماثـل بعض الامصـار العظيمة وهي مـن أغرب ما حكي عن سجن » اهـ .

ومالية الحكومة تجمع من المغارم المفروضة على الرعية ومـن الغنائم الحربية فان هذه الحكومات المتعاصـرة لا تبالي ــ عـلى اسلامها ــ بأخذ ما غلبت عليـه من أموال محاربتها . وتوزع في مصالح الحكومة وجوائز الاعيان وعطاء الموظفين ورزق الجنـد ، وكانت تطبع السكة . وكتبت فيها بعد انتهاء الحصار : « ما أقرب فرج الله ! » ولها نفائس تذخرها مما يخف حمله وتعظم قيمته غنم يغمراسن أهمها من الخليفة السـعيد الذي قتله بتامزردكت . منها الثعبان عقد منتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر . يشتمل على مئتين كثيرة من حصبائه . وأعظمها مصحف عثمان بن عفان (ض) يقال ان عبد الرحمن الداخل حمله من خزائن قومه الى الاندلس ثم صار الى المرابطين ثم الموحدين . وحديث المصحف طويل يطلب في نفح الطيب . وقد أخـذه والثعبان في نفائس ابـو الحسن المريني لما استولى على تلمسان .

وللحكومة جند مؤلف من أربعة أقسام ، تستعين بجموعهم في حروبها وتدرأ أقسامهم بعضها ببعض الاول الخاصة ، وهم من وجوه القبائل ، ومنهم قواد بقية الاقسام ، والثاني القبيل ، وهم بنو عبد الواد قرابة الملك ، ورئيس فرقتهم يدعى شيخا ، والثالث الانصار ، وهم نخبة من الجند يكونون محدقين بالملك في الحرب ، والرابع

المماليك ، وهم اخلاط من السودان والاعلاج وغيرهم ، ولكل قسم رايات يمتاز بها ، ولهم أعطية حسب اقدارهم الا المماليك فحسب حاجتهم لقوتهم ونفقة عيالهم وعلف مركوبهم ، وللملك ايام في السنة يستعرض فيها الجند ، ويتفقد العدد الحربية ، ويرقي من يستحق الارتقـاء .

وكان يغمراسن قد استخدم جند النصارى الذين كانوا مـع السعيد في وقعة تامزردكت وهم زهاء ألفي فارس ، ورفع من قدرهم حتى استعجل أمرهم واجمعوا قتله لما استعرض الجند بباب القرمدين سنة 652 فشعر بهم ، وقتلوا أخاه وأحاطت بهم الدهماء من الجند والرعية ، فاستلجموهم ، ولم يستخدم بعدها جند النصارى بهـذه الحكومة .

ويقسمون الجيش عند التبعية الى مقدمة امام الملك او نائبه وميمنة عن يمينه وميسرة عن يساره وساقة يكون الملك فيهم ويسمون أيضا قلبا وأهل الدخلة ، ومنهم من يجعل الاقسام خمسة ويباين بين القلب والساقة ، وبذلك سمي الجيش خميسا .

ولم يكن ملوك آل زيان يتلقبون بألقاب الخلفاء كالمنصـور والمستعين الا بعض ذرية ابي حمو الثاني ، وكانوا يلون الامر بالبيعة الشرعية الا ابا تاشفين الاول وسميه الثاني وأكثر ذرية ابي حمو ، فانهم تغلبوا على الامر بقوة عصبية أو مدد خارجي .. والملك مصدر كل السلط . وولي عهـده رديفه ومظهر سـلطانه ونائبه في قيادة الجيوش . وله حاشية وبطانة ربما نافست بطانة الملك . فافضت الحال الى منافسة ولي العهد للملك نفسه ، وللملوك وزراء وحجـاب وكتاب وأصحاب اشغال وقضاة بالحضرة ومفاتي يبينون لهم ما أشكل عليهم من الاحكام ويتعدونهم بالموعظـة وقواد وعمـال وأصحاب شرطة .

فالوزير واسطة بين الملك والعامة ومعينه بالرأي ونائبه في قيادة الجيش ان لم يركب هو ولا ولي عهده • والحاجب هو صاحب الباب يأذن بالدخول للملك عن أمره • ويلقب بلسان زناتة المزوار • والكاتب يعرض على الملك كل يوم ما ورد من الرسائل ويتلقى أوامره بالجواب عنها وبعقد الولايات وغيرها من شؤون الحكومة • وصاحب الاشغال له النظر المطلق في الدخل والخرج • والعمال نوابه في الجهات يؤدون اليه جبايات أعمالهم ولكن توليتهم من الملك • والقواد رؤساء فرق الجند • وصاحب الشرطة يتولى النظر في التهم على الجرائم ومباشرة تنفيذ الحكم على أهلها •

فالحكومة الزيانية تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم • فمن مشاهير رجال السيف غير بني زيان هلال القطلوني وموسى بن علي الكردي ويحي بن موسى السنوسي وعبد الله بن مسلم الزردالي وبنو مقن •

فاما هلال فعلج اهداه ابن الاحمر الى عثمان الاول • وصار الى ابي حمو • فاعطاه وولده ابا تاشفين ، فكان من خواصه ومن كبار المغرين له بابيه • فلما قتله ولاه حجابته ، وكان مهيبا فظا غليظا استولى على أمر السلطان وزحزح منافسيه عن مناصبهم ، ثم أخذ السلطان يخفض من صوت صولته حتى عزله سنة 29 واعتقله الى ان هلك سجينا قبيل فتح ابي الحسن تلمسان •

واما موسى فمن بيت نبيه في الاكراد ، فروا أمام التتر ، ونزلوا على المرتضى بمراكش ، فأكرم مثواهم ، وبعد دخول مرين مراكش تفرقوا في تلمسان وتونس ، وبقي جمع منهم مع مرين ، ونشأ موسى هذا بين حرم السلطان يوسف حتى اذا نزل محاصرا لتلمسان أغضبه ذات يوم ، فلحق بعثمان الاول • فعرف فضله ، وبالغ في اكرامه ،

وتولى قيادة جيوش ابي حمو ، وثبت ابا تاشفين لما دهش لمقتل أبيه • واخذ له البيعة، وشقي بهلال الذي أغرى به السلطان فنفاه الى غرناطة ، ثم استقدمه وولاه حـرب بجاية ، واتهمه بالتقصير فعـزله سنة 17 ولحق بسليمان ويحي ابني علي بن سـباع بن يحي ، ثم استقدمه وسجنه بالجزائر ، فلما سخط هلالا ولاه مكانه واخرجه مـن ذل السجن الى عز الحجابة ، ولم يزل عزيزا حتى هلك مع سلطانه يوم الفتح • ونجا ابنه سعيد من الملحمة جريحا • فعفا عنه ابو الحسن • وكان له من بعد ذكر بالحكومة الزيانية •

واما يحي بن موسى فمن بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كمي من عبد الواد • وخدموا يغمراسن • وظهر فضل يحي هذا أيام الحصار الطويل • فولاه ابو حمو مراقبة الحرس الليلي وضبط الابواب وقسم القوت بمقدار على المقاتلة : وكان له اقدام في الحرب • فرفعت منزلته بعد الحصار • واستعمله ابو تاشفين الاول بشلف • ثم ولاه عمل القاصية وحرب بجاية بعد عزل الكردي • وكان هذا العمل من دلس الى لمدية • ولما نزل ابو الحسن على تلمسان بايعه • فرفع مجلسه وهلك بعد الفتح •

واما الزردالي فكان قومه أخوة عبـد الواد من بني بادين • واندرجوا فيهم لقلتهم • وكان عبد الله هذا مشهورا بالبسالة والاقدام • فاعجب به ابو الحسن بعد دخوله تلمسان • فبعثه الى درعة • وولاه بها أبو عنان • فاستألف عرب المعقل • وقطع الثوار • وقبض على أبي الفضل الثائر هناك • وبعث به الى أخيه ابي عنان • فقتله • فلما ملك أخوهما ابو سالم خشية عبد الله • فلحق بابي حمو الثاني في ثروة من المال وعصبة من العشير واولياء من العرب • فقلده لحينه وزارته • وفوض اليه تدبير ملكه • ولم يزل في عظمته حتى توفي بالوباء سنة 765 •

واما مقن فهم أخوة بني زيان من أولاد طاع الله • استوزر منهم يغمراسن يحي بن مقن ، ثم أخاه عمروش ، ومات سنة 36 فخلفه ابنه عمر • ونفي يحي وابنه الزعيم الى الاندلس • ثم عادا اليه فاستعمل الزعيم بن يحي على مستغانم سنة 81 وما كاد يستقر بها حتى ظاهر مغراوة • وثار على يغمراسن فحاصره حتى دخلها ونفاه ثانيا الى الاندلس ، فلحق به أبوه يحي • وبقي أخوه علي بن يحي بتلمسان • وله ابن علّمه داوود صار كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم • وولد لداوود يحي • فكان وزير عثمان الثاني •

ومن مشاهير رجال القلم ابو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب ومحمد بن عمر بن خميس ويحي بن خلدون ، فاما ابن خطاب فهو مرسي اندلسي ، وفد على يغمراسن مع جالية شرق الاندلس ، فاستكتبه ، وصدرت عنه رسائل في مخاطبات خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحفظت ، واستقدمه المستنصر الحفصي وبعث اليه بمال ، فرده عليه ، وأقام بتلمسان على خطته الى أن توفي يوم عاشوراء سنة 681 قال في الاحاطة : « كان كاتبا بارعا شاعرا مجيدا له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما » اهـ •

واما ابن خميس فتلمساني ، استكتبه عثمان الاول ، ثم انتقل الى غرناطة فقتل بها سنة 708 وكان شاعرا مجيدا طويل النفس ، أثنى عليه العبدري في رحلته على شحه بالثناء ، وروى له قصائد ، وشعره كثير •

واما يحي فأخو المؤرخ الكبير استكتبه ابو حمو الثاني ، والف في دولته بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، وكان كاتبا شاعرا ، له قصيدة في السيف والقلم ومراسلات مع لسان الدين بن الخطيب ، وقتله ابو تاشفين في رمضان سنة 780 لمماطلته بعقد ولاية ومران ، وكانت المماطلة عن أمر ابي حمو •

ومن مشاهير رجال المال بنو الملاح ، قرطبيون معروفون بالامانة والدين حرفتهم سكة الدينار والدرهم ، ووفدوا على يغمراسن ، وعنوا بالفلاحة ، فولى منهم على اشغاله عبد الرحمن بن محمد بن الملاح • ثم كانوا أصحاب دولة ابي حمو الاول وأضاف اليهم حجابته فتولاها محمد بن ميمون بن الملاح ثم ابنه محمد الاشقر ثم ابنه ابراهيم ومعه علي بن عبد الله بن الملاح • وقتلوا مع ابي حمو سنة 718 وانتهبت أموالهم •

5 ــ ملوك آل زيان

كان ملوك آل زيان يفوقون بني مرين والحفصيين حربيا وسياسيا • ولكنهم يفوقونهم كثرة • فظل الصراع مستمرا بين القوتين المعنوية والحسية بهجمات دولية أو اثارة قبائل قوية • حتى ان يغمراسن بلغت حروبه مع العرب خاصة اثنتين وسبعين • وعنوا بتحصين تلمسان وشحنها بالاقوات والمؤن حتى انهم صبروا على الحصار الطويل الذي دام ثماني سنين وثلاثة أشهر وأياما • مات فيها من رجالهم زهاء عشرين ألفا ومائة ألف • ونالهم من الجهد وغلاء الاسعار ما لا نظير له في التاريخ • أكلوا القطوط والفيران وأشلاء الموتى • وبلغ ثمن الفار عشرة دراهم والبيضة ستة دراهم والتينة درهمين • وقد أطال عبد الرحمن بن خلدون في بيان أسعار بقية المقتاتات •

وأخيرا نفدت مدخراتهم • ولم يبق من المقاتلة الا نحو الالف مشاة • فوطنوا أنفسهم على الاستماتة • ولكن الله فرج عنهم بقتل سلطان مرين • قال عبد الرحمن بن خلدون : « حدثني شيخنا محمد ابن ابراهيم الابلي ــ وكان قهرمان دارهم ــ ان السلطان ابا زيان سأل صبيحة يوم الفرج خازن زرعه عما بقي • فقال له قوت اليوم

فقط • ودخل أخوه ابو حمو فأعلمه • وبينما هم مطرقون اذ دخلت دعد وصفية زوج عثمان الحفصية • فقالت : لم يبق لمصارعكم غير فواق ناقة وبنات زيان يقلن لكم لا خير في العيش بعدكم • فاريحونا من معرة السبي ! فامتنع ابو زيان ــ وكان شفوقا ــ من قتلهن ــ وراجعه ابو حمو فيه فقال لعل الله يجعل بعد عسر يسرا • فأرجئني ثلاثا وسرح بعدها اليهن اليهود والنصارى وتعال نخرج في قومنا فنستميت وأجهش بالبكاء واذا برسول مرين ينعى له سلطانهم ! » اهـ بايجاز •

والى جانب ما لهم من شجاعة حربية وادبية نرى شهادة عدوهم عريف بن يحي شيخ المجالس الملوكية لهم بالسبق في ميدان السياسة • قال ابن خلدون : « سمعته يقول موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة وانما كانوا رؤساء بادية فحد حدودها وهذب مراسمها واقتدى به اقتاله وانظاره منهم » اهـ •

وكان ابو تاشفين الاول اوسعهم مملكة واغناهم خزائن واكثرهم آثارا • وابو حمو الثاني أعظمهم قدرا وأوفاهم من الخطوب كيلا • وعلو كعبه في الحرب والسياسة والعلم والادب يظهر لمن درس كتابه « واسطة السلوك في سياسة الملوك » وأيامه تكفل بتفصيل حوادثها صاحب زهر البستان • وخصها يحي بن خلدون بالجزء الثاني من كتاب بغيـــة الرواد •

وكانوا أيام عظمتهم متحدين لا يتنازعون أمرهم بينهم • فأبو حمو اول من بايع أخاه ابا زيان • وقال يحي بن خلدون يذكر عثمان الثاني وأخاه ابا ثابت : « استشعرا كلاهما ابهة الملك • ودان له الناس بالبيعة • ومضت اوامره في الاحكام والجبايات الا ان السرير والمنبر والدينار للسلطان عثمان ، والجيوش والالوية والحروب للسلطان ابي ثابت مع تعظيمه لاخيه وبروره به ، ورضي يوسف أخوهما الاكبر

سكنى ندرومة للعبادة • ولم أقف بتاريخ على مثل هذه الاخوة » اهـ • واول من شرع العقوق منهم ابو تاشفين الاول ، فكان هو سبب ثورة محمد بن يوسف على أبيه • ثم أقدم على قتله وسلك سبيله سميه بن أبي حمو الثاني • وكان أكبر أبنائه ، منافسا لاخوته كثير الشكوك في أبيه ، ولي عهده في جمادى الاولى سنة 774 واشتدت غيرته من المنتصر وابي زيان وعمير ، أمهم ميلية ، وتولى ابو زيان منهم وهران ، فطلبها ابو تاشفين من أبيه مزاحمة له ، وماطله بها ، فعدا على الكاتب ابن خلدون ، ووضع على ابيه العيون خائفا ان يخلعه من ولاية عهده •

ولم يطب لابي حمو المقام معه ، فخرج الى الجزائر موريا باصلاح العرب • فرده ابو تاشفين من أسافل البطحاء ، ثم ارسل الى ابنه المنتصر عامل مليانة بولاية الجزائر واحمال من المال وانه لاحق به متى وجد فرصة ، فاطلع ابو تاشفين على ذلـك ايضا ، واستشاط غيظا ، وخلعه سنة 88 واعتقله بقصبة وهران ، واعتقل بتلمسان من بها ، من اخوته ، وتوجه نحو مليانة فاستولى عليها • وتحصن منه المنتصر بحصين • فاقام محاصرا له بتيطري وخشي أن يكيده ابوه وأخوته من خلفه • فبعث من يقتلهم • وبلغ أبا حمو مقتل اولاده • فصعد على سور القصبة مستغيثا بالوهرانيين • فاغاثه خطيبهم • وقام ببيعته • وتدلى اليهم بحبل وصله بعمامته ! ودخل قصر الملك بتلمسان اوائل سنة 89 •

وبلغ الخبر ابا تاشفين • فأخذ السير الى تلمسان • فدخلها • وكانت يومئذ عورة لهدم مرين أسوارها وحصونها • فالتجأ ابو حمو الى مأذنة الجامع الاعظم • فاستنزله ورق له وبكى • وقبل يده • فاستأذنه ابو حمو في الحج • فأركبه من وهران ولكنه نزل ببجاية •

وأمده الحفصيون على استرجاع ملكه وطاف على العرب بصحرائهم • حتى جمع قوة دخل بها تلمسان في رجب سنة 90 •

ولحق ابو تاشفين بمرين مستنجدا ابا العباس احمد• فاوعز ابوحمو الى خليله الغني بالله محمد بن ابي الحجاج بن نصر بطلب ابي تاشفين من ابي العباس • فالح في طلبه • ولكن ابا تاشفين استهوى الوزير • فغلب على هوى ابي العباس • وأمده أواخر سنة 91 بجيش • فخرج أبو حمو الى الغيران جنوب تلمسان ناحية سبدو • وارهقته مرين عن الاصحار كعادته وكبا به فرسه • فانقضى نفسه • واتى برأسه الى ابنه • واسر له اخوه عمير • فقتله • واستحكمت القطيعة بين ابناء ابي حمو فاصبح بأسهم بينهم شديدا •

واول ملوك آل زيان ابو يحي يغمراسن • ولد سنة 603 وبويع في ذي القعدة سنة 33 ومات برهيو منقلبه بعرس ابنه عثمان الحفصية آخر ذي القعدة سنة 81 ومن آثاره بناء باب كشواط سنة 68 وصومعتي جامعي تلمسان القديمة والحديثة • ومنعه اخلاصه ان يكتب اسمه بهما • وكان آية في الجراءة والدهاء جليلا مهيبا حليما جوادا متواضعا مؤثرا لاهل العلم •

وخلفه ابنه ولي عهده ابو سعيد عثمان الاول ولد سنة 639 وتوفي بذي القعدة سنة 703 ويقال سم نفسه • وكان شهما مقداما محبوبا ذا سياسة وصبر •

وقدم بعده ابنه ابو زيان محمد الاول • ولد سنة 659 وتوفي في شوال سنة 707 وقال لسان الدين : أثناء الحصار • ونقله التنسي عن صاحب درر الغرر من الشاهدين للحصار • وكان رقيق القلب فاضلا مباركا حسن الملكة •

وخلفه اخوه ابو حمو موسى الاول • ولد سنة 665

وقتله ابنه في جمادى الاولى سنة 718 ومن آثاره تأسيس مدينة اقبو وبناء القصر المعروف باسمه على وادي تهل قرب مازونة ، ويعرف اليوم بعمي موسى • وكـان صارما حازما يقظا داهية ذا حـدة وغلظـة •

وتغلب على الملك قاتله ابو تاشفين عبد الرحمن الاول ولد سنة 692 ودخلت عليه مرين المدينة في رمضان سنة 737 فوقف بباب قصره • وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه ! وقاتل حتى قتل هو وابناؤه عثمان ومسعود ويوسف وكبـار دولته • وفي واسطة السلوك ان سبب الكائنة عليه اعتماده على حصانة المدينة وامساكه عن العطاء • فلما كاد العدو يدخل عليـه طلب من يأخـذ ماله فلم يلقه • وقال ابن مرزوق : توطدت دولة عبد الواد بقتلهم ابا الحسن السعيد • وكان اسمر لام ولد • وختمت بقتل ابي الحسن المريني لهم • وهو بصفته حذو النعل بالنعل وكان ابو تاشفين فاضلا حميد السيرة رحب الجناب عظيم الخلق جميل الخلق • ذا آثار عظيمة • أخذت الدولة أيامه زخرفها وازينت • فأصبحت بسيوف مرين حصيدا كأن لم تغن بالامس •

وجددها ابو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن • انخزل بقومه من جيش ابي الحسن في واقعة القيروان الى العرب • وبايعه قومه ظاهر تونس آخر ربيـع الاول سنة 749 فاتحد مع مغراوة وتوجين وارتحلوا الى بلادهم في زهاء خمسـمائة فارس ، وقد انتشر سلك الامن فخلصوا من غارة بني ونيفن ناحية باجة ، وثربة ناحية بونة ، وبني ثابت بجبلهم ، وزواوة بجبل الزان وبلغ عثمان وقومه تلمسان في جمادى الثانية ، فولى شؤون دولته أخاه ابا ثابت الزعيم فمهد المملكة ، وما كاد يستريح حتى قصدهم ابو عنان ، فاستولى على دولتهم وقتل عثمان في جمادى الاولى سنة 53

ثم أدرك أخوه ابو ثابت وقتل ، فكان من حديثه مع ابي عنان : « اننا غلبناكم رجلة فغلبتمونا بخنا » . وكان معروفا بالبسالة والفتوة ، وكان عثمان شيخا محنكا داهية ذا عبادة ونسك .

وجدد الدولة ابو حمو موسى الثاني بن يوسف أخي عثمان الثاني قبض على عمه ابي ثابت بليزر من ساحة تلمسان ، ونبت عنه العيون ، فنجا الى تونس ، وأكرم مثواه عبد الله بن تافراقين وزير ابي اسحق الثاني ، ولما دخل جيش ابي عنان تونس خرج هو مع ابي اسحق حتى نزلوا ساحة تبسة ، فارتد ابو عنان الى مغربه ، وردد ابو حمو الغارة على نواحي قسنطينة ، وفتح ميلة ونزلها ، وتزوج منها ، واخرج مرين من جبل بني ثابت وقرية بني ورار ، ثم ارتحل منها سنة 59 لما قدم الوزير سليمان بن داود بجيش لا قبل له به ، فجهزه الحفصيون الى وطنه ليشغل عنهم مرين ، فسلك على عين السمارة قرب قسنطينة وجبل عياض وثنية غنية ، وتزوج بالزاب ، ودخل تلمسان في ربيع الاول سنة 60 وبويع بالخلافة وابوه حي ، ونهضت اليه مرين . فأجفل أمامها الى الصحراء . واجلب على ممالكها حتى عادت الى مغربها ، فعاد هو الى تلمسان بعد شهر ، وقطعت دولته مرين ثم ابنه سبع مرات .

وكانت الصحراء حصنه الحصين ، وخاطر بنفسه مرارا في طلب سلطانه ، ومدح هذه المخاطرة في واسطة السلوك ، وتمثل بقول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا او نموت فنعذرا

ولد بالاندلس أيام مقام أبيه بها سنة 723 وقتل غرة ذي الحجة سنة 91 وكان ممدوح لسان الدين واضرابه ، وجمع الحافظ التنسي كتابا

سماه « راح الارواح فيما قاله المولى ابو حمو من الشعر وما قيل فيه من الامداح » •

وخلفه ابنه قاتله ابو تاشفين عبد الرحمن الثاني ، ولد بندرومة أيام كان ابوه وجده بها سنة 752 وتوفي في ربيع الثاني سنة 95 وقضى أيامه في دعة وهناء قائما بدعوة مرين مؤديا لهم ضريبة سنوية ، فقويت مطامعهم وكثر تحكمهم في عرش تلمسان • ولو طالت ايامه لرفع عن الدولة هذا الكابوس •

وخلفه ابنه ولي عهده أبو ثابت الاول وقتل لاربعين يوما •

وخلفه قاتله عمه ابو الحجاج يوسف بن ابي حمو في جمادى الاول • ولاشهر ملكت عليه مرين تلمسان • وقتله أخوه ابو زيان سنة 96 وحلاه التنسي بقوله : « جند الجنود وعقد الالوية والبنود • وامر الايام فائتمرت وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى بيان جبل عليه وفصاحة ورحب جناب للوافدين وساحة » اهـ •

وسلمت مرين تلمسان لاخيه ابي زيان الثاني ، كان ثائرا على أخيه أبي تاشفين مطالبا بدم أبيه ، واضطره العجز الى الوفادة على مرين ، فادخرته لعاقبة سياسية ، وسرحه سلطانها عبد العزيز الى تلمسان ، فدخلها غرة ربيع الثاني سنة 96 ونشط العلوم والآداب ، وكان عالما شاعرا ، ألف كتاب « الاشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الامارة » وكانت بينه وبين برقوق صاحب مصر مهادات وتنكرت له مرين • فاعانت عليه أخاه عبد الله ، فأخرجه سنة 801 واغتيل سنة 805 •

وخلفه أخوه ابو محمد عبد الله الاول فباشر أموره بنفسه ، ونهض بدولته نهوضا خشيته مرين ، فأغارت عليه سنة 804 وأسرته •

وخلفه باعانة مرين اخوه ابو عبد الله محمد الاول المعروف بابن

خولة • ويلقب بالواثق بالله ، وكان أمثل الملوك المتأخرين رحب الفناء جزيل العطاء حليما عن الدماء محبوبا من الرعية • فاستراحت الامة ايامه وكاد يعيد للدولة شبابها ومات سابع ذي القعدة سنة 813 •

وخلفه ابنه عبد الرحمن وخلع لشهرين وايام • وخلفه خالعه عمه السعيد بن ابي حمو اواخر المحرم سنة 814 وعاثت منه يد الاسراف في أموال الدولة • وامدت مرين عليه أخاه عبد الواحد فخلعه منتصف رجب ، وذهب على وجهه •

وخلفه خالعه أخوه ابو مالك عبد الواحد • وكان شجاعا متناهيا في الحزم والجد مقتفيا آثار أبيـــه ، استرجع الجزائر من الحفصيين • وحارب مرين في عقر دارها ونصب على كرسيها بعض حفدة ابي عنان • وأخذ منها بثأر آل زيان فاشتدت بذلك صولته وامتدت دولتـــه • وانتهى به تداخل مرين في عرش تلمسان ولكن هذه الدولة لا تخرج من أزمة الا الى أخرى فثار عليه محمد ابن أخيه ابي تاشفين • واستمد الحفصيين • فنهض سلطانهم عزوز في جموعه معه ، وبعد معارك دخلوا تلمسان • وفر عبد الواحد الى فاس • وانتصب بتلمسان سنة 827 ابو عبد الله محمد الثاني بن ابي تاشفين الثاني المدعو بابن الحمرة • وعاد عزوز الى تونس بعدما انفق أكثر من عشرة احمال مالا في هذه الحـــركة •

وحاول عبد الواحد استرجاع ملكه • وعجزت مريـــن عـــن مظاهرته • فتوجه شطر تونس • وارسل ابنه المستنصر الى سلطانها عزوز • فرجع منه بكتاب يعده الاعانة على أن يقدم بنفســـه الى تونس • فقبضت على المستنصر عيون ابن الحمرة فقتله • وقطع ذكر عزوز من الكتب والخطبة • ولحق عبد الواحد بتونس • وعاد منها بجيش هزمه ابن الحمرة • فخرج عزوز نفسه معه • وفتح تلمسان في رجب سنة 31 وعاد عبد الواحد الى ملكه •

وخرج ابن الحمرة الى جبال بني يزناسن • ثم انتقل الى جبال برشك وتنس واستألف عربها • وفتح تلمسان رابع ذي الحجة سنة 33 وقتل عمه عبد الواحد • فنهض اليه عزوز • واخرجه الى جبال بني يزناسن ثانيا • وحاصره بها • فزين له بعض أصحابه النزول اليه ليلين له • فرفعه معه الى تونس • واعتقله بقصبتها حتى مات سنة 840 •

وخلفه عمه احمد العاقل بن ابي حمو • نصبه على كرسي أسلافه عزوز غرة رجب سنة 834 فضبط الامور وأظهر العدل واحسن السيرة • فطالت مدته وانتزع منه بعض آله وهران والجزائر • واستقل عن عزوز فخرج اليه • ولكن مات في طريقه • فعاد الجيش الى تونس ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وهادى حافده ابا عمر عثمان سنة 62 فكافأه ، وتغلب عليه المتوكل غرة جمادى الاول سنة 66 واجازه الى الاندلس ، فعاد لطلب ملكه ، وحاصر تلمسان اسبوعين ، ثم مات في ذي الحجة سنة 67 ودفن بالعباد •

وخلفه خالعه ابو ثابت الثاني محمد المتوكل بن ابي زيان محمد المستعين بن ابي ثابت الاول ، فجمع آل زيان المشتتين شرقا وغربا ، وأحسن معاملتهم وأدر عليهم الارزاق ، ومهد المملكة واخضع الرعية ، وخرج اليه ابو عمر عثمان الحفصي سنة 66 فخضعت له سويد وعامر ، واقتضى بيعة المتوكل وتهاديا سنة 68 ثم استقل عنه المتوكل سنة 70 فخرج اليه واخضعه ثانيا ، ومات سنة 890 •

فخلفه ابنه تاشفين نحو اربعة اشهر أو أقل •

وخلفه أخوه ابو ثابت الثالث محمد ، وعجز عن ضبط ممالكه الشرقية ، فاضطرمت فتنة ، ومات سنة 902 •

وخلفه أكبر بنيه أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي نسبة الى جده ابي ثابي • وزاد ما بين سنتي 904ـ906 في احباس ابي مدين ما قيمته مائتا دينار • ومات سنة 909 •

وخلفه اخوه ابو زيان الثالث المسعود ، فخلعه عمه ابو حمـو الثالث ، الملقب عند ابي راس بابي قلمس ، وفي تحفة الزائر بابي كلمون ، وسجن المسعود ، وملكت عليه اسبانيا المرسى الكبير سنة 911 ثم وهران سنة 14 وقيل 15 وثار عليه يحي اخو المسعود ، واستبد بتنس تحت حماية اسبانيا ، وحاربها ابو حمـو مرارا ، واستأصل جيشها سنة 12 ثم ضعف عن مقاومتها . فاحتمى بها . وادى لهـا ضريبة سنوية مبلغها اثنا عشر الف دوقة واثنا عشر فرسا وستة بزاة .

وغضبت الامة عليـه لاهانته الاسلام باحتمائه بالنصارى ولاثقاله كاهلها بالضرائب لضيق مملكته . فاستدعت عروج بربروس . فدخل تلمسان سنة 23 وفر ابو حمو الى وهران . وارتقى عـلى العرش. سجينه ابو زيان المسعود . وبعد ايام قلائل اخرج الاتراك من تلمسان محاولا للاستقلال . فعاد اليه عروج . وقتله في سبعة من قرابته ونحو الستين من عامة عبد الواد وزهاء الف من التلمسانيين .

وزحف على الاتراك ابو حمو بنجدة اسبانية . فحاصر تلمسان ستة أشهر . ثم احتلها في جمادى الاولى سنة 24 وفر عروج فأدرك وقتل ومات ابو حمو سنة 24 نفسها .

وخلفه اخوه ابومحمد عبدالله الثاني بن المتوكل . وحاول قطع طمع اسبانيا وتركيا في تلمسان وابعد أخاه ابا سرحان مسعودا الى فاس . ثم استرجعه . فعدل عنـه الى خير الدين بالجزائر . واستعانه على اخيه مقابل ضريبة سنوية ومبايعة سليم الاول العثماني . فآمده بالمال والجيش واخرج اخاه الى وهران .

وملك مسعود تلمسان ، ونقض طاعة خير الدين ، فدعاه الـى الوفاء . فأساء الجواب ، واستثمر ذلك اخوه ابو محمد ، فلحق بخير الدين وضمن له البيعة والضريبة فأيده .

عاد ابو محمد الى تلمسان ، ففر مسعود ، وأخذ يغير عليه ،

فأمده خير الدين وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود ، واختلت احوال خير الدين • فقطع ابو محمد طاعته ، ثم صلحت أحواله ، فعاد الى طاعته ، ومات سنة 930 •

وخلفه ابنه ابو عبد الله محمد الرابع ، واشتدت ايامه شوكة اسبانيا • وفتحت تونس ، فخضع لها ، واشترطت عليه ضريبة سنوية وتسريح أسارى النصارى وعدم منازعتها الاستيلاء على الجزائر وشرشال وتنس لكن الظروف حالت دون تنفيذ هذه الشروط •

وفي سنة 49 خلعه اخوه ابو زيان احمد باعانة الاتراك واقام جند منهم بتلمسان • فلحق ابو عبد الله بوهران • واتى بنجدة اسبانية استأصلها ابو زيان بشعبة اللحم في شوال ثم أعادوا الكرة • ودخلوا تلمسان في ذي الحجة وفعلوا بأهلها الافاعيل قتلا ونهبا واعتداء على الحرم •

عاد ابو عبد الله الى عرشه • وهجم عليه اخوه ابو زيان سنة 50 وبعد معارك خذل ابو عبد الله لجنايته على تلمسان بادخال النصارى اليها • وعاد ابو زيان الى عرشه • فلحق اخوه بوهران • واسرع العود بنجدة اسبانية • فقتل • وهزمت نجدته شر هزيمة •

وفي أواسط شعبان سنة 52 استولى حسن بن خير الدين على تلمسان • فلحق ابو زيان بدبدو • وغدر به صاحبها عمر بن يحي الوطاسي • فاعتقله ووزيره منصور بن ابي غانم ومن معه من آل زيان • ونهب أموالهم • ثم سرح منصور في محرم سنة 53 •

وفي جمادى الاولى سنة 57 اخرج السعديون المتغلبون بفاس ابا زيان احمد من تلمسان • فلحق بوهران • ولا أدري كيف كان خلاصه من صاحب دبدو ويظهر ان السعديين لما دخلوا فاس سنة 56 سرح الوطاسيون ابا زيان ليحفظ تلمسان منهم • واخرج الاتراك السعديين من تلمسان في نفس سنة 57 ودخلت حكمهم •

ملـــوك تلمســـــان

الملـك	الولاية هـ	الولاية م
يغمراسن بن زيان	633	1236
ابنه عثمان الاول	681	1283
ابنه ابو زيان الاول	703	1304
اخوه ابو حمو الاول	707	1308
ابنه ابو تاشفين	718	1318
استيلاء مرين الاول	737	1337
عثمان الثاني	749	1348
استيلاء مرين الثاني	753	1352
ابو حمو الثاني	760	1359
ابنه ابو تاشفين الثاني	791	1389
ابنه ابو ثابت الاول	795	1393
عمه يوسف	795	1393
اخو ه ابو زيان الثاني	796	1394
اخوهما عبد الله الاول	801	1398
اخوهم ابو عبدالله الاول	804	1402
ابنه عبد الرحمن	813	1411
عمه السعيد	814	1411
أخوه عبد الواحد	814	1411
ابو عبد الله الثاني بن ابي تاشفين	827	1424

الملـك	الولاية هـ	الولاية م
عود عبد الواحد	831	1428
عود ابي عبد الله	833	1430
احمد العاقل بن ابي حمو	834	1431
ابو ثابت الثاني المتوكل	866	1462
ابنه تاشفين	890	1485
اخوه ابو ثابت الثالث	890	1485
ابنه ابو عبد الله الثالث	902	1496
عمه ابو حمو الثالث	909	1503
ابن اخيه ابو زيان الثالث	923	1517
عود ابي حمو	924	1518
اخوه عبد الله الثاني	924	1518
اخوهما مسعود	925	1519
عود عبد الله	?	?
ابنه ابو عبد الله الرابع	930	1524
اخوه ابو زيان الرابع احمد	949	1542
عود ابي عبد الله	949	1543
عود احمد	950	1543
الاستيلاء التركي	957	1550

37 — نقود المعتصم بالله ابي العباس احمد

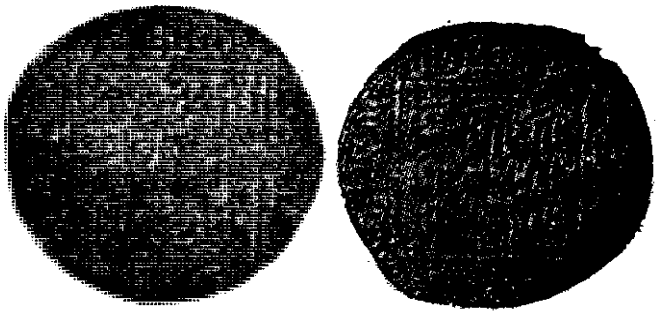

38 — من نقود المتوكل بن ابي زيان محمد

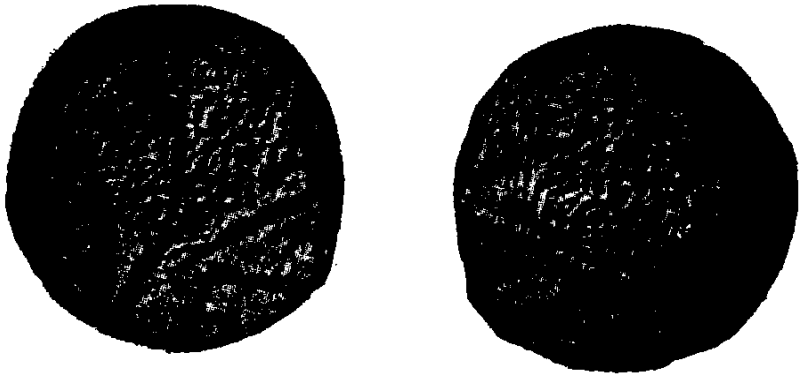

39 — من نقود ابي عبد الله محمد ، ضرب تلمسان

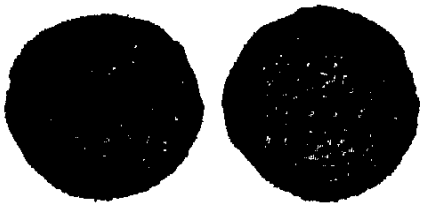

40 — من نقود المتوكل ، ضرب تلمسان

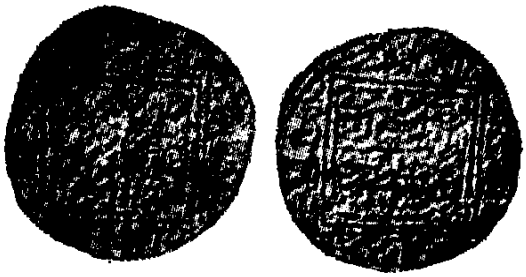

41 — من نقود ابي عبد الله المتوكل ، ضرب تلمسان

6 ـ مغراوة وبنو زيـان

موطن مغراوة شمال وانشريس ووادي شلف الى البحر • ينتهي شرقا الى وادي السبت قرب متيجة وغربا الى البطحاء ناحية نهـر مينة • يشتمل على جبال شاهقة وسهول خصبة ومدن عامرة • منها مليانة وواجر شرقيها ومازونة وتنس وبرشك وشرشال •

وغلبوا أيام منديل بن عبد الرحمن على وانشريس ولمديـة • واختطوا قصبة سيرات • وخربوا عمران متيجة • وكان أهلها على ما يحكى يجمعون في ثلاثين مصرا • ثم ظهرت توجـين بوانشريس ومليكش والثعالبة بمتيجة • فانقبضوا الى وطنهم القومي •

ولم تفارق مغراوة ورؤساؤها حياة الظعن • فكانوا بداة وأمر المدن الى مشائخ من أعيانها • وربما استبد بعض الشيوخ بمدينته • ففي سنة 659 استبد بمليانة ابو علي المليانى حتى أخرجه الحفصيون من سنته • وفي سنة 683 استبد ببرشك زيري بن حماد المكلاتي المدعو زيرم • وشغلت عنه الدول حتى قتله بنو عبد الواد سنة 708 •

وقد دخل العبدري مليانة سنة 689 فكتب عنها ما خلاصته : « مدينة حصينة مجموعة مختصرة • وليست عن أمهات المدن مقصرة اشرفت من كثب على وادي شلف في روضة جمة الازهار والطرف وفرعت في سفح جبل حمى حماها ان يرام وشرعت في أصل نهر يشفى من الهيام وبها جامع مليح عجيب » اهـ •

ثم أخذ يندب أفول نجم العلم والادب بها بقصيدة على لسان حالها ، مطلعها :

زمان لذي عهد الشبيبة قد عسا ... اعلل فيـه النفس علي او عسى
لعل ربوعا من حلاهـا عواريا ... تعود لها تلك المفاخـر ملبسـا
لعل نجوما كنت هالـة بدرهـا ... ستجلو ظلاما حـل افقي فالبسا

وبرشك بين تنس وشـرشال • قال الادريسي : « هي مدينـة صغيرة على تل بضفة البحر عليها سور تراب • وشرب أهلها من عيون عذبة • وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير » اهـ • وقال الدمشقي : « بلـدة صغيرة كثيـرة الانجاص والتـين والعنـب الاسود » اهـ •

ومازونة اختطها ابو منديل عبد الرحمن من رؤساء مغراوة سنة 565 قال الادريسي : « هي على ستة اميال من البحر شرقي حوض فروخ بين أجبل ذات أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة من أحسن البلاد بقعة وأكثرها فواكه والبانا وسمنا وعسلا » اهـ•

وكانت مغراوة كبني عبد الواد على الدعوة المؤمنية حتى وطىء ارضها أبو زكريا الحفصي سنة 632 فبايعته • وخالفت بذلك سياسة عبد الواد • فأوجدت السبيل عليها ليغمراسن بن زيان ، ونهض اليها • فعجزت عن مقاومته • واستصرخت ابا زكريا فأصرخها • واحتل تلمسان سنة 40 فبايعه يغمراسن • وعقد ابو زكريا على مغراوة لرئيسها العباس ابن منديل ، ومنحه الاستقلال الداخلي • واتخذ بحضرته الآلة وشارة الملك • ولكن هذه القوة الادبية لم تثبت أمام قوة يغمراسن الحقيقية • فاجلب على مغراوة حتى استقامت على ولائـه • ولم تنتفع ببيعة الحفصيين الذين كانوا في شعل عنها ، وانما عقد لها خالد بن ابي زكريا المنتخب ــ وهو ببجاية ــ حلفا مع صنهاجة فصار رؤساؤها يلتجئون الى جبال صنهاجة متى غلبوا على بلادهم ، وشعرت بضعف فائدة هذه البيعة فحولت وجهها شـطر مرين فكانت كالمستجير مـن الرمضاء بالنار ، ولم تكن لسياستها هذه من نتيجة خارجية غـير شغل آل زيان ، ولا داخلية غير تشتيت شملها ، فقد لحـق كثير مـن أبطالها بغرناطة مرابطين للجهاد ومنهم من لحق بالحفصيين أو مرين •

ابتدأ يغمراسن حربه لمغراوة بالتضريب بين بني منديل رؤسائها

فقتل عابد وثابت ابنا منديل اخاهما محمدا سنة 662 بالخميس من بسائطهم • فاختلفت كلمة مغراوة بعده • وجاس يغمراسن خلال معاقلهم سنة 66 حتى بلغ متيجة وأمكنه عمر بن منديل من مليانة سنة 68 على ان يعينه على رئاسة قومه • فخرج لاعانته سنة 72 وباع منه عابد وثابت بعد حروب تنس باثني عشر الف دينار • ومات عمر • واجاز عابد الى الاندلس • وخلا وجه مغراوة لثابت • فاسترجع مليانة وتنس • وغلبه يغمراسن على تنس سنة 81 •

وخلف يغمراسن ابنه عثمان • فاثخن في بلاد مغراوة • وملك مازونة سنة 86 وتنس سنة 88 وأعان ثابت سلطان مرين في حصار تلمسان سنة 89 فانتقم منه عثمان حتى ألجأه الى جبال صنهاجة ثم عاد اليها سنة 93 حتى ألجأه الى برشك ، فحاصره بها اربعين يوما ، ثم ركب البحر في أهله وولده الى يوسف سلطان مرين ، فأكرم مثواه ، وقتله بعض مرين سنة 94 فكفل السلطان أهله وولده ، وتزوج حافدته ، وبقي ابنه محمد أميرا في قومه ، ومات بعده بقليل •

واستكانت مغراوة لبني زيان ثم لمرين أثناء حصارهم الطويل لتلمسان ، وبعد تغلبهم عليها ، وولي يوسف بن يعقوب منهم عمر بن ويعزن بن منديل ثم ابنه محمدا ، وكان راشد بن محمد بن ثابت يأمل من صهره ان يؤثره بامارة قومه ، فلما خاب ظنه ــ كما سيخيب ظن الفضل الحفصي في صهره ابي الحسن ــ ثار عليه ، وملك مازونة سنة 700 وشغل مرين حتى ألحقوه بزواوة سنة 704 وعاد بعد مقتل صهره الى قومه ، فأجلاه ابو حمو الاول الى زواوة ايضا سنة 708 فلحق بالجيش الحفصي • وكان ذا مكانة في الدولة لفضل شجاعته وكرم أصله وقتله عبد الرحمن بن خلوف الصنهاجي في ملاحاة بينهما حوالي سنة 711 ولحق ابنه علي بعمته لدى سلاطين مرين •

وبعد واقعة القيروان على ابي الحسن سنة 749 تحالفت مغراوة

وعبد الواد بظاهر تونس على التناصر واحترام الحدود الوطنية ، وبايعت مغراوة علي بن راشد فدخل وطنه واخرج عمال مرين من مدنه ، ثم خرج ابو ثابت من تلمسان لحرب الناصر بن ابي الحسن سنة 50 وبمقتضى المعاهدة ارسل الى علي بن راشد في اجتماع اليد • فقعد عنه ، فلما هزم الناصر نهض الى مغراوة في شوال ، وهزمهم بوادي رهيو • وملك مازونة ثم اجتمعوا لحرب ابي الحسن حتى هزموه سنة 51 ثم اجتاز بمغراوة احد بني كمي من عبد الواد ، فقتلوه ، فاوجدوا السبيل عليهم لابي ثابت • فنهض اليهم فاتح سنة 52 وبقي مواقفا لهم حتى ألجأ عليا الى تنس ، ودخلها عليه منتصف شعبان ، فانتحر ، وانتهت به امارة مغراوة ثانيا • وكان علي قد استشفع بابي عنان ، فرد ابو ثابت شفاعته ، وكان ذلك مما دعاه الى فتح تلمسان ، فكان عود دولتي مغراوة وعبد الواد وسقوطهما معا •

وكان لعلي ابن اسمه حمزة نشأ بين ابناء سلاطين مرين ، وفي نفسه تشوف لاسترجاع ملك سلفه فلما دخلت مرين تلمسان سنة 72 لحق بقومه ، وجدت مرين في حربه حتى قتلته ، ثم ولت على مغراوة سنة 74 علي بن هرون بن ثابت بن منديل ، وكان وليا لها عدوا لعبد الواد ، فبادر ابو حمو الثاني بحربه حتى أجلاه الى جبال صنهاجة ، وعاد سنة 75 فحصره ابو تاشفين بن ابي حمو بجبل زاتيمة ، واخرجه من أرض مغراوة في ربيع الاول سنة 76 فلحق ببجاية • وركب منها الى فاس • ونامت بعده امارة مغراوة نومها الاخير •

أمراء مغراوة

الامير	ولاية هـ م	نهاية هـ	الامير	ولاية هـ م	نهاية هـ
العباس بن منديل	640 1242	647	عمر بن ويعزن	699 1299	700
اخوه محمد	647 1249	662	ابنه محمد	700 1300	707
اخوهما عابد	662 1264	672	راشد بن محمد بن		
اخوهم عمر	668 1269	676	ثابت	700 1300	708
اخوهم ثابت	676 1277	694	ابنه علي	749 1348	752
ابنه محمد	694 1294	694	ابنه حمزة	772 1370	772
اخوه علي	694 1295	?	علي بن هرون	774 1372	776

7 ـ توجين وبنـو زيـان

موطن توجين شرقي عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة ولمدية ، وحياتهم بدوية كمغراوة يبلغون في رحلة الشتاء مزاب والزاب الغربي ، وبموطنهم جبل وانشريس وسهل منداس ووزينة والسرسو ، وبه من القلاع الحصينة تاوغزت وتاقدمت وتافرقينت ولمدية ، وغلبهم بطون من زغبة على السهول فانقبضوا أخيرا الى وانشريس .

وجبل وانشريس جبل عظيم شماله نهر شلف وغربه سهل منداس وجنوبه سهل وزينةغربا وسهل السرسو شرقا ، قال الادريسي: « يسكنه قبائل بربرية منها مكناسة وحرسون وواربة وبنو ابي خليل وكتامة ومطماطة وبنو مليلة وبنو وانجان وبنو ابي خليفة ويصلان ورولات وبنو تمسوس وزوارة ونزارة ومطغورة ووارترين وبنو ابي هـلال وايزكرو وبنو ابي حكيم وهوارة ، وطوله اربعة ايام ينتهي طرفـه الى قرب تاهرت » اهـ .

وينسب اليه علماء كثيرون ، منهم أبو علي عمر بن عثمان ويونس ابن عطية والحسن بن عثمان بن عطية ، لقيهم لسان الدين بن الخطيب بالمغرب ، وعدهم من شيوخه ، ومنهم محمد بن ابي بكر خطيب جامع الزيتونة المتوفي سنة 853 ، ومنهم احمد بن يحي صاحب المعيـار المتوفي سنة 914 وابنه عبد الواحد القتيل بفاس سنة 955 .

وتاوغزوت قلعة منيعة قرب فرندة ، حصنها سلامة بن علي بن نصر شيخ بني يدللتن على عهد عبد القوي بـن العباس ، وتداول رئاستها بنوه من بعده ، فدعيت قلعة ابن سلامة ، وخربها ابو حمو الثاني سنة 770 .

وتاقدمت قرب تاهرت ، خربت بتوالي الفتن ، وعمرها الامير عبد القادر عمارة بسيطة ، ذهبت بعده . وتافرقينت ذكرها ابنا خلدون عاصمة لمحمد بن عبد القوي وسمى غيرهما عاصمته تاقدمت .

وقد كانت توجين مشاقة لبني عبد الواد • فاخذت بالدعـوة الحفصية ، وعقد ابو زكرياء الاول عليها سنة 640 لعظيمها عبد القوي ابن العباس من بني منكوش وربما نسب في آل البيت ، وسلك بها سبيل العباس بن منديل •

وامتنعت توجين على آل زيان مدة عبد القوي وابنه ابي زيان محمد • فنازلوها مرارا من غير طائل ، ووالى عبد القوي يغمراسن آخر حياته ، ومات سنة 647 فخلفه ابنه محمد ، وعظم سلطانه ، وولى بلمدية حسن بن يعقوب بن عزيز من توجين وبوانشريس أخاه شريطا وبرهيو علي بن عشيرة ، وبتاوغزوت سلامة بن علي شيخ بني يدللتن ، وقدم على بني يرناتن شيخهم ابن اخته نصر بن مهيب بن نصر بن علي ، ووفد على المستنصر الحفصي بالمسيلة سنة 666 ثم ذهب لاعانته على دفاع لويس التاسع ، وأعان يعقوب بن عبد الحق على حصار تلمسان والعيث في ساحتها سنتي 70ـ80 واستفاد من هذين السلطانين أموالا جمة ، وسعدت به توجين حتى مات سنة 684 •

وخلفه ابنه سيد الناس • وكان دونـه قيمة ، فاختلفت عليـه توجين ، وضرب عثمان الاول من آل زيان بين رؤسائها ، فقتـل بنو عبد القوي بعضهم بعضا • واستبد بنو نصر بن مهيب برئاسة قومهم يرناتن وأولاد عزيز بلمدية واولاد سلامة برئاسة قومهم يدللتن •

وبهذا الخلاف اوجـدوا السـبيل عليهم لعثمان الاول فملك وانشريس سنة 87 ولمدية سنة 88 وكرر غاراته على محاولي الثـورة منهم • وقتل شيخ يدللتن يغمراسن بن سلامة سنة 98 فبايعه أخوه محمد ، وحوصرت تلمسان الحصار الطويل فلم تسع توجين في توحيد كلمتها بل ازدادت تفرقا وأمكن شيخ بني تيغرين يحي بن عطية مرين من وانشريس • فملكته سنة 703 بعد حروب •

ففي سنة 85 قتل موسى بن محمد بن عبد القوي أخاه سيد الناس . وانتصب مكانه ، وحارب مشيخة توجين بسيرات ، فقاتلوه ، وتردى به فرسه ، فهلك لنحو عامين من امارته ، وخلفه عمر ابن أخيه اسماعيل ، وبعد اربعة ايام اغتاله ابناء عمه زيان بن محمد ، وقدموا كبيرهم ابراهيم بن زيان ، وكان حسن الولاية عليهم • وكاد يحي عهد جده محمد ، فقتل باغراء عثمان الاول سنة 90 وبايع بنو تيغرين ابن عمه موسى بن زرارة بن محمد • فاجلاه عثمان الى نواحي لمدية • وهلك هناك • وحوصر عثمان بعد • فملك وانشريس ابو بكر بن ابراهيم بن محمد بن عبد القوي نحو عامين • وهلك • فبايع بنو تيغرين اخاه عطية الاصم • وخالفهم اولاد عزيز وبقية توجين • فبايعوا ابن عمه يوسف بن زيان بن محمد • وحاصروا بني تيغرين بوانشريس عاما وأزيد • فملك العرب السرسو • ولحق يحي ابن عطية بالسلطان يوسف • فأغراه بوانشريس انفة من غلبة بني عمه •

ولما ملك مرين توجين ولت بوانشريس علي بن الناصر بن عبد القوي وأمره بيد يحي بن عطية شيخ بني تيغرين ، بتاوغزوت سعد ابن سلامة ، ولحق أخوه محمد بجبل راشد ، ثم هلك علي بن الناصر ، فخلفه محمد بن عطية الاصم • وانتقض على مرين سنة 706 قبيل مهلك سلطانهم • وعاد الامر لبني زيان • فاخضعوا توجين • وأجلوا آل عبد القوي • فلحقوا بالحفصيين •

ففي سنة 710 جاس ابو حمو الاول خلال معاقلهم • ورفع منزلة بني تيغرين وأولاد عزيز • وكانوا خولا لآل عبد القوي يعرفون بالحشم • فعقد على وانشريس ليحي بن عطية بن يوسف بن المنصور • وعلى لمدية ليوسف بن حسن بن يعقوب العزيزي • وابقى سعد بن سلامة على بني يدللتن • وجعل أمر توجين راجعا لعامله يوسف بن

حيون الهواري • وهلك يحي بن عطية • فخلفه أخوه عثمان ثم عمر ابن عثمان • وكانت ثورة محمد بن يوسف من آل زيان • فخبت فيها توجين ووضعت ثم استقام يوسف بن حسن على طاعة ابي حمو سنة 17 ووالى عمر بن عثمان ابا تاشفين الاول • واعانه على قتل محمد بن يوسف سنة 19 فأبقاه على رئاسته • وعزل عن تاوغزوت سعد ابن سلامة باخيه محمد • وانحصرا معه سنة 35 وماتا في بعض ايام الحصار • وملك ابو الحسن المريني توجين سنة 36 فاستعمل على وانشريس نصر بن عمر بن عثمان • واعاد الى تاوغزوت سعد بن سلامة الى ان مات في طريق عوده من الحج • فخلفه ابنه سليمان •

وبعد نكبة ابي الحسن على القيروان ظهر بنو محمد بن عبد القوي طامعين في استرجاع امارتهم لكنهم اختلفوا • فبايع أولاد عزيز وبنو يرناتن بنواحي لمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد • وبايع بنو تيغرين وشيخهم نصر بن عمر مسعود بن ابي زيد بن خالد بن محمد • وكانت وقائع بين الفريقين • ولم يتم أمر عدي فلحق بابي الحسن لما نزل الجزائر • وعادت تلمسان لآل زيان • وملكوا توجين فأبقوا على رؤسائهم •

وفي سنة 53 ملكهم ابو عنان • فالحق مسعود بن ابي زيد وسليمان بن سعد بوجوه جنده • وأفرد نصر بن عمر بأمر وانشريس • واقطع تاوغزوت ونزمار بن عريف • ثم ملك ابو حمو الثاني فأعاد سليمان بن سعد الى عمله • وكانت ثورة ابي زيان • فغمست توجين يدها فيها • ومات نصر بن عمر أثناءها • فخلفه اخوه يوسف وقتل ابو حمو سليمان • واقطع تاوغزوت اولاد عريف • وانقرضت الرئاسة من سائر بطون توجين الا بني تيغرين بجبل وانشريس • قال ابن خلدون : « ويوسف بن عمر لهذا العهد وهو سنة 783 صاحب جبل وانشريس • وحاله مع ابي حمو مختلف في الطاعة والخلاف » •

8 ـ الثوار من بني زيان

كان ملوك بني زيان أولي حزم وضبط متى رأوا باحد من اقربائهم مخايل المزاحمة في الدولة اشخصوه الى الاندلس ليشتغل بالجهاد ويستريحوا من فتنته .

وفي سنة 714 نزل ابو حمو الاول بوادي تهل موافقا لمغراوة . وترك ابنه ابا تاشفين على تلمسان وسرح للغارة على بلاد الحفصيين محمد بن يوسف بن يغمراسن قائد مليانة في قواد آخرين منهم موسى ابن علي الكردي ومسعود بن ابراهيم بن يغمراسن . فتفرقوا في البلاد . واجتمعوا بظاهر بونة . ثم قفلوا . فتنافسوا ، وتنازعوا . وسبق الكردي الى ابي حمو . فاغراه بابن عمه محمد بن يوسف وبقي مسعود بن ابراهيم محاصرا لبجاية .

ولما بلغ محمد بن يوسف وادي تهل عزله السلطان ، فسأله زيارة ابن أخته ابي تاشفين ، فأذن له ، وكتب الى ابنه بالقبض عليه ، فابى ، وعاد محمد بن يوسف الى السلطان ، فأهانه ، فخشي على نفسه وفر الى لمدية ، فاعتقله عاملها يوسف بن حسن التوجيني ، ولكن قومه اشربوا في قلوبهم الفتنة ، فحملوه على بيعته وخرجوا فيمن انضم اليهم من العرب ، فهزموا ابا حمو الى تلمسان .

ونزل محمد بن يوسف مليانة . واجتمعت اليه توجين ومغراوة ، وعاد اليه ابو حمو واستقدم مسعود ابن عمه ابراهيم من حصار بجاية ، فترك محمد بن يوسف بمليانة يوسف بن حسن ، ولقي مسعودا بمتيجة . فانهزم الى جبل موصاية وحاصره مسعود به أياما . ثم لحق بابي حمو وهو محاصر مليانة . فدخلها عنوة ثم فتح لمدية . وقفل الى تلمسان . وعاد سنة 17 لتمهيد مغراوة وتوجين ، وترك بلمدية

يوسف بن حسن ـ وقد استقام على طاعته ـ موافقا لمحمد بن يوسف .

وبايع محمد بن يوسف ابا يحي الحفصي . فوعده المظاهرة . وبايعه بنو تيغرين . فانتقل الى وانشريس . ولحق به سماسرة الفتن من مغراوة وغيرهم . حتى قتل ابو تاشفين اباه . ونهض اليه سنة 719 فمال اليه عمر بن عثمان صاحب وانشريس وانحصر محمد بن يوسف فيمن معه بربوة توكال منه حتى اقتحمها عليه ابو تاشفين وقتله ، ولو امتثل أمر ابيه اولا بالقبض عليه ما كانت هذه الثورة .

وفي سنة 761 تكدر جو السياسة بين ابي حمو الثاني وابي سالم المريني وكان بنو عبد الحق قد كفلوا أبا زيان محمد بن عثمان بن ابي تاشفين الاول بعد قتلهم جده واباه ، فسرحه أبو سالم لطلب ملكه ، فنزل فيمن معه من المعقل وغيرهم على جبل بني يزناسن ، وبايعه بنو راشد شرقا . فنهض ابو تاشفين الى بني راشد غرة ربيع الاول ، وحصرهم بجبل أوشيلاس من غربس . وخرج اثره الوزير عبد الله ابن مسلم الزردالي الى بني يزناسن فأجلى ابا زيان الى المغرب .

وفي شعبان دخل ابو سالم تلمسان ، وغادرها بعد ايام الى مغربه ، وترك بها ابا زيان في جند من مغراوة وتوجين ، فأخرجهم منها ابو حمو في رمضان . ولحق ابو زيان باولاد عريف ، وثبت على بيعته الهداج وسويد وتوجين وبنو راشد وبعض بني عبد الواد ، فانتقل اليهم ، ولم يمهلهم ابو حمو ، فخرج في رمضان الى تسالة ثم منداس ثم السرسو ، فاصحر ابو زيان وشيعته في ذي القعدة ، ثم عاد الى ارض حصين في ذي الحجة ، وابو حمو بشلف ، فاجلاه عنها ، وعاد الى حضرته فاتح سنة 62 وغرب ابو زيان الى ذوي عبيد الله بانقاد ، فطرده الوزير الزردالي الى تاوريرت ، وانعقد الصلح بين ابي سالم وابي حمو ، فانتهت الفتنة .

وفي سنة 65 اعادت مرين ابا زيان لطلب مكله ، فاضرم الممالك الشرقية والغربية فتنة ، وكاد يفتح تلمسان وهزم ابا حمو بوادي مينة • فاعتمد التضريب بين جموعه حتى اختلفت كلمتهم ، وراجع طاعته اركان الفتنة عمر بن محمد بن مقن وسعيد بن موسى بن علي الكردي وغيرهما ، فنزل ابو زيان بقصر مرادة على ونزمار بن عريف مذكي هذه النيران •

وفي سنة 763 ثار أيضا ابو زيان محمد بن السلطان عثمان الثاني وكان ابو عنان قد استحياه بعد قتل ابيه وعمه الزعيم ، وبقي تحت أيدي بني عبد الحق ، حتى انفلت منهم • ونزل على خالد بن عامر من شيوخ بني عامر ، فبايعه • وزحف ابو زيان الى تلمسان ، ونزل جبل بني ورنيد ، فاجلي في شوال الى رياح ، ووفد به يعقوب بن علي على ابرهيم الثاني الحفصي ببجاية ، ففر سنة 64 الى ابي الليل شيخ بني يزيد فبايعه • وخرج اليه الوزير الزردالي فاخضعه ، ولحق ابو زيان بتونس •

ثم استقدمه سعاة الفتنة من تونس ، فأسره امير قسنطينة أحمد ، وملك هذا الامير بجاية سنة 67 فخرج ابو حمو لحربه ، فارسل عليه ابا زيان ، ومال اليه أكثر جيش ابي حمو ، فكانت عليه أشنع هزيمة ، وعظمت فتنة ابي زيان بمبايعة أكثر بطون زغبة ، وملك الجزائر ولمدية ومليانة • وشغل به ابو حمو اربع سنين كانت أشد عليه من سني يوسف واوقع به ابو زيان على تيطري في شعبان سنة 69 وقيعة استأصلت قوته وكاد هو نفسه يؤسر ، وشهد هذه المعركة يحي بن خلدون ووصف انكسارهم وما لقوا في قفولهم من شدائد تفيض لسماعها نفس الجبان واقترب ابو زيان من تلمسان سنتي 68ـ69 ثم ملكها عبد العزيز سنة 72 فاصحر ابو زيان وابو حمو كلاهما •

وعاد ابو حمو الى تلمسان بعد موت عبد العزيز فعاد ابو زيان

الى تيطري في صفر سنة 75 وعادت الحرب جذعة • وكان اولاد عريف من سويد ذوي نفوذ في العرب والبربر • وبهم تقوى ابو زيان • وبهم فتح عبد العزيز تلمسان ففي سنة 76 استقاموا لابي حمو وتعهد لهم بمنح ابن عمه جراية سنوية • فانتهت الفتنة ثم ان ابا حمو أراد الانتقام من اركان هذه الثورة ، فعزم على عزل يوسف بن عمر صاحب واشريس • وكان ابو بكر بن عريف خليلا له ، فنبذ طاعة ابي حمو • واستقدم ابا زيان سنة 777 فاسترضى ابو حمو ابا بكر • وانقبض ابو زيان الى سهل حمزة نازلا على ابي الليل اليزيدي ، ثم استقدمته الثعالبة سنة 78 فاجلاه ابو حمو ، ولحق بوادي ريغ فنقطة فتوزر فتونس •

وفي سنة 838 ثار على أحمد العاقل اخوه ابو يحي ، وعجز عن فتح تلمسان ولكنه ملك وهران ، فكانت بينه وبين أخيه حروب الى أن غلب على وهران في شعبان سنة 52 فركب البحر الى بجاية فتونس ، وبها مات سنة 55

وفي سنة 838 ثار على أحمد العاقل أخوه ابو يحي ، وعجز عن تاشفين الثاني فبايعه اولاد ابي الليل أهل حمزة ثم أهل متيجة ونواحي لمدية ، وحاصر الجزائر مدة طويلة حتى فتحها في رجب سنة 42 ثم ملك لمدية ومليانة وتنس ، واستقل بهذه الناحية الشرقية ، وتلقب المستعين وعظم أمره على عم أبيه أحمد العاقل ، وثقلت وطأته على أهل الجزائر ونواحيها ، فقتلوه في جملة من أصحابه ثاني شوال سنة 43 وكان ابنه المتوكل عاملا بتنس ، فضبط وطن مغراوة حتى ملك تلمسان سنة 866 •

وقد أضربنا عن ذكر ثورات ضعيفة ، وقدمنا الثوار الناجحين في فصل الملوك •

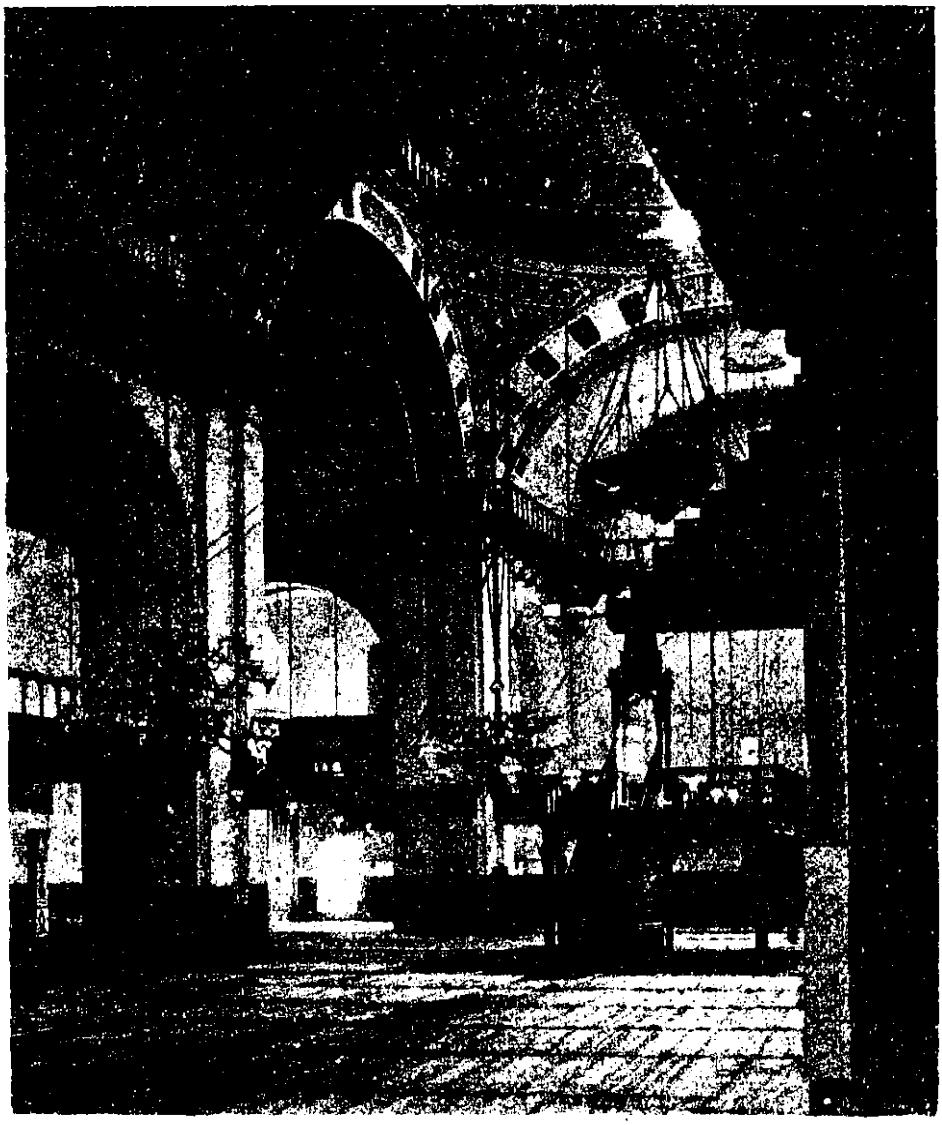

(ش44) جامع الصيد (الجامع الجديد) الجزائر

(ش45)

(ش46) منبر الجامع الكبير في الجزائر

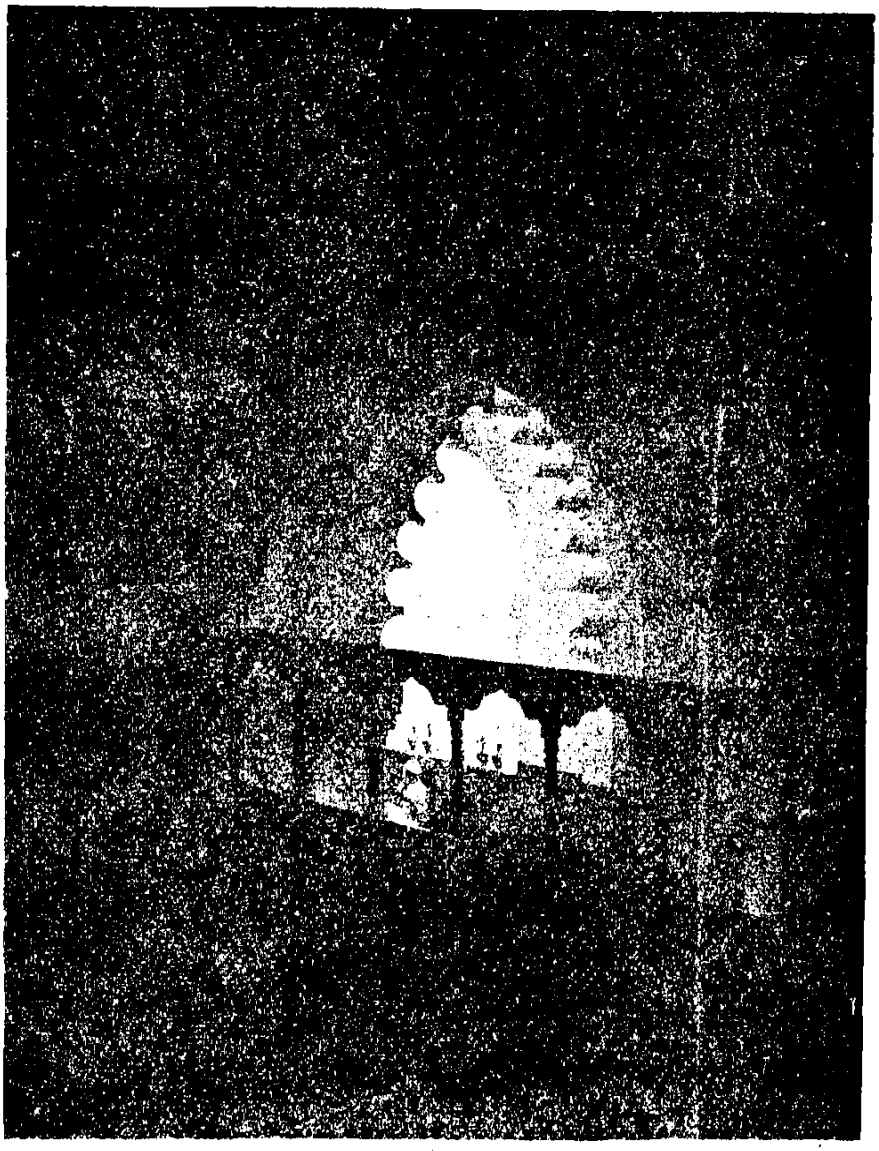

(ش47)

9 ـ الاقتصاد والعمران والحضارة

المملكة الزيانية فلاحية بطبيعة ارضها تجارية بطبيعة موقعها صناعية بطبيعة سكانها والقاح الجاليات الاندلسية والاسرى الاروبيين • وقد هضمت حضارات الدول الجزائرية الاولى • واخرجت بعناية ملوكها ونشاطهم حضارة زيانية ذات صبغة ممتازة • وبها ختمت الحضارات الجزائرية المحلية •

ولقد كان حبل الامن بالبوادي مضطربا لا يستقر غالبا على حال من الفتن غير ان المدن سائرة في سلم رقيها تغتذي بفترات السلم القصيرة • وقد شكا العبدري سنة 689 فقد الامن من فاس الى الاسكندرية • واعتبر ابن قنفذ نجاته من تلمسان الى قسنطينة سنة 776 من خوارق العادات • ولكن يجب ان نقصر حكمهما على ما ماثل سنتيهما في الجوائح السياسية والحربية •

وكانت الفلاحة بهذه المملكة أهم منابع الثروة • وفلاحة القمح في الدرجة الاولى ويليها غراسة الزيتون • قال يحي ابن خلدون : « ربما بلغت اصابة الزوج الواحدة كما في سنة 758 اربعمائة مد كبير من القمح سوى الشعير والباقلاء • والمد ستون برشالة زنة البرشالة ثلاثة عشر رطلا » اهـ •

وكان من انواع الفلاحة القطن والكتان وقصب السكر وسائر الحبوب والثمار والفواكه والبقول والرياحين ، مع عناية بترقية اساليب الفلاحة واستخراج المياه واستجلابها •

ولهذه المملكة مواصلات تجارية أهمها أروبا والسودان • فقد كانت لها مراس كثيرة عني البكري بتعدادها ووصفها وذكر ما يقابلها من مراسي الاندلس • وكانت مدينة تيزيل جنوب تلمسان أول الصحراء ومنها تخرج القوافل الى سجلماسة وورقلة ، وهما بابا السودان •

وأول شركة صحراوية عرفناها هي شركة المقريين الذين استوطن تلمسان جدهم عبد الرحمن بن ابي بكر صاحب ابي مدين ، نقل لسان الدين في الاحاطة عن شيخه ابي عبد الله المقري انـه كان لجده ابي بكر بن يحي بن عبد الرحمن اربعة اخوة اشتركوا في التجارة • ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طبـلا للرحيل وراية تقدم عند المسير ، وكان ابو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمن بسجلماسة وعبد الواحد وعلي بايوا لاتن الواقعة في الشمال الغربي لتنبكتو على بعد اربعمائة ميل ، فكان التلمساني يبعث الى الصحراوي بمايرسم له من السلع، وذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما باحـوال التجـار والبلدان فاتسعت أموالهم وعظم شـأنهم اهـ •

وقد دخل ليون الافريقي تلمسان اواخر القرن التاسع ، فوصف تجارها وارباب الحرف بالنشاط والعفة ورغـد العيش • وفضـل لباسهم على لباس الفاسيين ولباعة الاقمشة ذراع سلطاني يوجد اليوم بدار الآثار منقوشا على رخامة •

ورقي الفلاحة والتجارة يستدعي رقي الحرف والصناعات وتعدد أنواعها فاختصت كل حرفة بسوقها ، واشتهرت تلمسان بالمنسوجات • فعرف قماش بالتلمساني وهو صوف خالص او حرير خالص مختم وغير مختم • وكان كساء الصوف او البرنوس من ثماني أواق لرقته •

وذكر يحي بن خلدون مـن انواع الملبوسات الثوب المرعـز والقهزي والحرير والملف والذرايع والعمائم والاحاريم اهـ •

ولسعة الثروة اتسع نطاق المدن • واتخذ الناس حولها القصور تحفها الحدائق تجري من تحتها الجداول • ذكر ليون الافريقي ان

تلمسان بلغت على عهد ابي تاشفين ستة عشر الف منزل • وذكر غيره ان وهران كان بها اوائل القرن العاشر خمسمائة والف حانوت وعشرة آلاف دار •

واتساع ثروة الامة يفيد الحكومة • فقد كان آل زيان على ما منوا به من الحروب جادين في انشاء القصور الضخمة والمدارس الفخمة واقامة المصانع والمنتزهات وادرار الرزق على رجال السيف والقلم • وقد عرف ليون الافريقي الحكومة ايام ضعفها • فذكر ان عطاء ادنى جندي ثلاثمائة دينار شهريا • وحكي أن أحد متاخري بني زيان اهدى لملك اسبانيا فرديناند دجاجة وستة وثلاثين نقفا كلها من الاريز الخالص •

قال عبد الرحمن بن خلدون : « وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها • اختطها ابو حمو الاول وابنه ابو تاشفين • واستدعيا الصناع والفعلة من الاندلس • فبعث اليهما ابو الوليد بن الاحمر بمهرة البنائين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا عن الناس بعدهم ان يأتوا بمثله » •

« وكان أبو حمو الثاني قد خرب قصر ملك مرين بتازا وقصر مرادة لونزمار بن عريف • فلما دخل احمد المريني تلمسان سنة 786 أغراه ونزمار بتخريب قصور الملك » اهـ •

وكان مقر الحكومة يدعى المشوار • وجددت قصوره من بعد • وادار عليه أحمد العاقل سورا سنة 850 وهي اليوم مقر السلطة العسكرية الفرنسية •

وكان ابو تاشفين الاول بصيرا بالتشكيل والاختراع • وله آلاف من أسرى الاروبيين • فيهم النجارون والزلاجون والزواقون وغيرهم • فاستظهر بهم على تحضير الدولة • وابتنى قصورا منها

دار الملك ودار السرور وابو فهر • ولعله ضاهى بابي فهره ابا فهر المستنصر الحفصي بتونس • ومن آثاره الصهريج الاعظم لم يزل الى اليوم قائما • ومنها بناء مدرسة جليلة عديمة النظير ازاء الجامع الاعظم • ولم يترك شيئا مما اختص بـه قصره الا وضع مثله بها •

قال احمد المقري في نفح الطيب : « رأيت مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني (صوابه ابو تاشفين) ـ وهي من بدائع الدنيا ـ هـذه الابيـات :

انظـر بعينـك بهجتي وسناءي ... وبديـع اتقاني وحسـن بناءي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى ... من نشـاتي بل من تدفـق ماءي
جسم لطيـف ذائـب سيلانـه ... صـاف كذوب الفضـة البيضاء
قد حف بي أزهار وشي نمقت ... فغدت كمثل الروض غـب سماء

ومن آثاره احاطة الجزائر بسور عظيم وانشاء قصبـة سيدي رمضان جوار الجامع المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان وتوسيع الجامع الاعظم وبناء منارته ، وبالجامع اليوم رخامة فيها ان بنـاء المنارة شرع فيه يوم الاحد 17 ذي القعدة سنة 722 وتم غرة رجب سنة 723 اما الجامع الاعظم فأسس ايام الحماديين ، ومن الغلط ما يشاع من ان مؤسسه يوسف بن تاشفين او ابنـه علي ، فان المرابطين لم يملكوا مدينة الجزائر ، قال التنسي : « وكانت له شجرة من فضة على أغصانها اصناف الطيور واعلاها صقر • ينفخ في أصلها • فتصوت الطيور بصوت اشباهها • ثم يبلغ الريح الصقر • فيصوت • فتنقطع أصوات الطيور كلها » اهـ •

وابتنى ابو حمو الثاني بناءات جميلة غير ان ايامه كانت حربية أكثر منها سلمية • قال يحي بن خلدون : « فكانت دار الصنعة السعيدة

تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم واديانهم فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك » اهـ •

ومن دلائل رقي الصناعة أيامه الساعة المشهورة بالمنقانة • وهي خزانة ذات تماثيل من اللجين بأعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه • يخاتله فيهما أرقم خارج من كوة باصل الايكة • وبصدرها ابواب مرتجة ازاء كل باب ساعة من ساعات الليل • وبصاقب طرفيها بابان أطول من الاولى واعرض • ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك •

وينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن • وينهش الارقم احد الفرخين • فيصفر له ابوه • ويفتح باب الساعة الراهنة فتبرز جارية محتزمة كاظرف ما انت راء • بيمناها رقعة • فيها اسم ساعتها منظوما • ويسراها على فيها كالمبايعة •

وكان يقيم بمشوره ليلة المولد النبوي احتفالا شيقا تحضره الخاصة والعامة ، فما شئت من زرابي مبثوثة وبسط موشاة ونمارق بالذهب مغشاة ، وشموع كالاسطوانات قائمة على مراكز الصفر المموهة ومباخر كالقباب كانها تبر مذاب •

يجلس الخليفة صدر المجلس • وامامه خزانة المنقانة وحفا فيه الملأ من قومه ووجوه دولته مرتبين على مراتبهم • وترى ولدانا باقبية الخز الملون يطوفون بمباخر العنبر ومرشات الورد • والمسمع على بعد مقدر من الخليفة يردد نغمات الالحان منتقلا من فن الى فن منشدا مدائح في النبي الكريم مفتتحا بقصيدة من انشاء الخليفة ثم قصائد شعرائه •

وآخر الليلة يؤتى بموائد كالهالات من خرس شهي وانواع من المطاعم تعقبها الفواكه والحلواء • فيطعم الناس بين يدي الخليفة ، ويصلي معهم الصبح ، وهكذا كانت تمر المواليد مدته ، واقتفى أثره خلفه ، وزاد ابنه ابو تاشفين احياء ليلة السابع على هذا الوصف •

واول ما حدث الاحتفال بالمولد اواخر القرن السادس او اوائل السابع احدثه بالمشرق مظفر الدين ابو سعيد كوكبوري التركماني الذي كان واليا باربل بين سنتي 586ـ630 واحدثه بالمغرب ، أبو العباس احمد العزفي من بيت علم ورئاسة بسبتة ، ولد سنة 557 وتوفي سنة 633 ، وأمر السلطان يوسف المريني باقامة هذا الموسم في جميع ممالكه سنة 671 •

10 ـ سقوط الدولة الزيانية

في أواخر القرن التاسع اشتد الضعف بالحكومات الزيانية والمرينية والحفصية وعظم النزاع بين ملوك غرناطة ، فاعان الاسبان محمد بن ابي الحسن بن سعد على خلع عمه محمد بن سعد ، فارتحل هذا المخلوع سنة 895 الى وهران • واستقر بتلمسان • قال في نفح الطيب : « ونسله بها الى الآن يعرفون ببني سلطان الاندلس » اهـ ، ثم ملك الاسبان غرناطة في ربيع الاول سنة 897 فاصبحت منهم العدوة الافريقية على طرف الثمام •

وفي سنة 911 ملك الاسبان المرسى الكبير بعد حصار خمسين يوما ، وعاثوا فيما حولهم سلبا ونهبا ، وتكررت المعارك بينهم وبين المسلمين حتى انحصروا داخل أسوار المرسى سنة 913 وحاولوا فتح وهران ، فامتنعت عليهم لحصانتها حتى داخلوا ستورا اليهودي ورجلين من المسلمين ، فادخلوا بعض الاسبان المدينة • وفتحوها لاخوانهم ،

فذبحوا اربعة آلاف مسلم ، وأسروا ثمانية آلاف ، وانقذوا ثلاثمائة أسير مسيحي ، وغدا جاءت الجموع الاسلامية لاغاثة المدينة ، فوجدوا يد الخيانة قد فتحتها ! •

وأخذت اسبانيا المتسلحة بالنفاقين المسيحي والسياسي تستولي على السواحل لضعف الحكومات عن حمايتها ، واضطر ابـو حمو الثالث سنة 918 الى الاحتماء بها فأبت الامة هذه الاهانة ، وكان بربروس قـد ملك الجزائر ، فاستنجدته ، وأصبح آل زيان بـين الاتراك والاسبان •

ونفر التلمسانيون من فساوة الاتراك ، فاداروا وجوههم شطر فاس • واستنجدوا محمد الشيخ السعدي ، فاحتل تلمسان ، واخرج ابا زيان احمد ، وكانت اضطرابات حاول أثناءها أخوه مولاي الحسن استرجاع ملك سلفه ، فلم يحسن السيرة ، وخلعه العلماء ، فلحـق بوهران حوالي سنة 961 ثم مات بالطاعون سنة 964 وثبتت قـدم الاتراك بتلمسان بعدما احتلوها سنة 957 وقال ابو راس : سنة 956

وهكذا انتهت دولة آل زيان بعدما عاشت ما بين سنتي 633ـ957 اربعا وعشرين وثلاثمائة سنة ، ويقول ابو راس : أن أمدها : 291 وقيل 295 وليس بشيء •

وقد افترق بنو عبد الواد بعد ذهاب ملكهم في الاوطان ، قال أبو راس : « ويقال ان منهم بني شعيب وشوشاوة واولاد موسى في العطاف وفرقة بجبل اوراس » اهـ •

والمطلع على فصول هذا الباب وما قبله لا يحوجنا الى بسـط اسباب سقوط هذه الدولة العامة وعللها الخاصة ، فانها لم تزل منذ نشأتها تصطلي بنار الحروب الداخلية والخارجية ، فمن غارة مرينية الى حرب حفصية ومن مناهضة مغراوية أو توجينية الى منافسة زيانية ومن

دسيسة سويدية الى مشاقة عامرية ومن نفاق اسباني الى غلظة تركية ، ولا ظل في التاريخ العام لدولة صغيرة كهذه منيت بمثل ما منيت به وامتدت حياتها مثلها ؟

وآخر هذه الدولة جديـر بقول محمد الفازازي يصف حيـاة الاندلس في القرن السـابع :

الروم تضرب في البـلاد وتغنم والجور يأخـذ ما بقي والمغرم
والمـال يـورد كلـه قشـتالة والجنـد يسقط والرعيـة تسلم
وذو والتعين ليس فيهم مسـلم الا معـين في الفسـاد مسـلم
أسفي على تلك البـلاد وأهلها الله يلطـف بالجميـع ويرحم !

١١ ـ الحركة العلمية والادبية بالجزائر البربرية

نهضت الدول البربرية بالعلوم والآداب نهوضا رغب المفكرين في الرحلة الى ملوكها ، وكانت الدول الاوربية قـد ملكت عـلى المسلمين صقلية واغلب الاندلس ، فارتحل رجالها الى تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وبعد بني عبد المؤمن ظهر الحفصيون والزيانيون والمرينيون ، فكانت منافستهم في تقريب العلماء من مجالسهم تساوي منافستهم في ضخامة السلطان وامتلاك الاوطان فعمت المعارف المدن والقرى وكرع مـن مناهلها العربي والبربري ، ومـن تصفح كتب التراجم ورأى كثرة المنسوبين الى القرى الصغيرة والقبائل البدوية حكم بعموم هذه النهضة وانتظام سيرها في طريق الرقي غير متأثرة بالانقلابات السياسية والنتائج الحـربية ، فما استجدت دولـة الا واستجدت قوى هذه النهضة ، وقد بلغت غايتها في القرن الثامن ، واخذت تتقهقر منذ القرن التاسع .

ذكر ابن قنفذ في الفارسية ان ابا زكريا الاول ترك من الكتب

ستة وثلاثين ألف سفر ، هذه عناية مؤسس الدولة فما بالك بمن بعده ؟ وذكر ابن ابي زرع ان سانجة ملك الاسبان وفد سنة 684 على يعقوب ابن عبد الحق يخطب سلمه فصالحه على ان يبعث له بما في بلاده من كتب المسلمين ، فبعث اليه بثلاثة عشر حملا .

وقد ابتنى سلاطين هذه الدول المدارس ووقفوا عليها الاوقاف . وجعلوا من مجالسهم حظا لمناظرة العلماء بين أيديهم ، واتخذوا الاطباء والمفاتي والشعراء فنهضوا بجميع فنـــون العلم وظهرت المؤلفات في مختلف المواضيع ، وقلد المغاربة الاندلسيين في موسيقاهم وموشحاتهم وأزجالهم ، فاحسنوا التلقيد .

وانشأ بتلمسان مدارس ابو حمو الاول وابنه ابو تاشفين وابو حمو الثاني وابنه احمد العاقل ، وانشأ خامسة بالعباد ابو الحسن المريني ، واول مدرسة اسست في الاسلام كانت بنيسبور اواخر القرن الرابع ، واول من عمم بناء المدارس في المدن الوزير نظام الملك المتوفي سنة 485 .

وذكر ابن خلدون في المقدمة صناعة التعليم ، فاستحسن تعليم تونس وبجاية وتلمسان ، وانتقد تعليم فاس بأنـــه لا يكسب ملكة ولا يفتق لسانا ولا يقرب مطلوبا .

قال الغبريني في ترجمة ابي بكر بن سيد الناس الاشبيلي نزيل بجاية المتوفي بتونس سنة 659 : « كان اذا قرأ الحديث يسنده الى النبي (ص) ثم يأخذ في ذكر رجاله من الصحابي الى شيخه كل واحد باسمه ونسبه وصفته وولادته ووفاته وحكايته ان عرفت له ثم يشرح الحديث ويتعرض لما فيه من فقه وخلاف عال ودقائق ورقائق ، كـــل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان » اهـ .

ووصف اقراء ابي القاسم ابن اندراس المرسي نزيل بجاية المتوفي

بتونس سنة 674 لكتب الطب ، فقال : « وكانت الابحاث في كل ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية » اهـ .

وانتقد القاضي ابو عبد الله المقري التلمساني المتوفي بفاس سنة 759 تعليم زمانه فنقل عن شيخه الابلي قوله : « انما أفسد العلم كثرة التواليف وانما أذهبه بنيان المدارس » . وشرحه بما محصله ان كثرة التآليف تجعلها سهلة التناول ، فتضعف الرغبة ويقل التحصيل ، وحياة المدارس يأباها كبار العلماء ، فيخسرهم الطلبة ، ثم قال : « وقد اقتصر أهل هذه المائة على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه ، وافنوا أعمارهم في فهم رموزه وحل لغوزه . ولم يصلوا الى رد ما فيه الى اصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح » اهـ .

ومن أراد الوقوف على الكتب المقروءة يومئذ فعليه بمجاميع الاسانيد . وقد ذكر الغبريني طائفة منها آخر عنوان الدراية . ولا نقر الابلي على انكار فضل المدارس . فان التعليم لم يكن قاصرا عليها حتى يخسر الطلبة مواهب من لم يوظف بها . وما دام التعليم الحر في الامة فلن يضيرها التعليم الحكومي .

وفحول العلماء ونبغاء الادباء بهذه القرون السابع والثامن والتاسع متفرقة أخبارهم في الرحلات وكتب التراجم والسير . والاسفار عن مبلغ المعارف في هذه الاعصار يحتاج الى أسفار . ناهيك بوسط يخرج أمثال لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون وابي حيان النحوي وابن عصفور واكثر ايمة العلوم انما هم من أهل هذه القرون .

انجبت تنس مثل ابراهيم بن يخلف الذي استقدمه يغمراسن مرارا الى تلمسان وبلغه وفادته عليها ذات يوم فركب اليه بنفسه ورغبه في المقام لديه . واقطعه اقطاعات . قال العبدري : « وكان شيخنا

زين الدين ابو الحسن بن المنير يثني عليه كثيرا • وسألني عن الغرب فذكرت له قلة رغبة أهله في العلم • فقال لي أما بلاد يكون فيها مثل ابراهيم التنسي فما خلت من العلم » اهـ •

وانتهت رئاسة الحديث وسائر الفنون في القرن التاسع الى محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ التنسي المتوفي سنة 899 نقل عن احمد بن داود الاندلسي انه سئل عن علماء تلمسان • فاجاب : « العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرئاسة مع ابن زكري » اهـ • والف للمتوكل « نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان » وهو في جزءين كبيرين • من تامله علم مكانة الرجل في العلم والكياسة ونصح سلطانه وتنبيهه الى ما فيه صلاح الدولة باسلوب لا يشعر معه السلطان بتداخل في شؤنه أو انتقاد لحكومته • واسم الكتاب قاصر جدا عن مغزاه • ولعل قصوره مما اقتضته كياسة المؤلف •

وانجبت برشك ابا زيد عبد الرحمن واخاه ابا موسى عيسى ابني محمد بن عبد الله بن الامام • ارتحلا الى المشرق • وتركا به صيتا • واستقرا بتلمسان • فبنى لهما ابو حمو الاول المدرسة المعروفة بهما داخل باب كشوط • وعنهما اخذت صناعة التدريس بتلمسان •

وكان ببقية المدن اسر تتوارث العلم كالمقريين والمرزوقيين والعقبانيين بتلمسان وكالبادسيين والقنفذيين بقسنطينة • ذكر العبدري في رحلته حسن بن بلقاسم بن باديس واثنى عليه ، وولي القضاء هو وحسن بن خلف الله بن باديس واشتهر من بني قنفذ ابو العباس احمد بن حسين بن علي الخطيب المتوفي سنة تسع او عشر وثمانمائة ، كان قاضيا خطيبا كثير التآليف في مختلف الفنون ، منها الوفيات والفارسية ، وقد أخذ الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين كتاب الفارسية بنصها لم يحذف منها الا قليلا ، ولم يصرح بالعزو اليها الا

نادرا ، ومع ذلك لما ذكر وفاته عرفه بقوله : « شارح رسالة الشيخ ابن ابي زيد وشارح جمل الخونجي وغيرهما » اهـ • هكذا اغفل ذكر الفارسية وهي بين يديه !

وكان حظ زواوة من هذه الحركة وافرا جدا ، فكان من مليكش كاتب الحكومة الحفصية محمد بن عمر بن علي بن ابراهيم المتوفي بتونس سنة 740 أثنى عليه لسان الدين بن الخطيب في الاكليل • وأثبت له شعرا جيدا ، وكان من مشدالة ناصر الدين منصور بن احمد المتوفي سنة 731 له رحلة الى المشـرق ، وكان يحمل العلوم العقلية والنقلية ، وانشد فيه بعض من لقيه متمثلا :

ليس علـى الله بمسـتنكر ان يجمع العالم في واحد

وذكر ابن خلدون في المقدمة انه مجدد صناعة التدريس ببجاية ، وقال فيها أثناء حديثه عن الموشحات والازجال : « واشتهر ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الاصباح قدحـت زنـاد الانـوار مـن مجامـر الزهـر

وابن خزر البجائي وله من موشحه :

ثغـر الزمـان موافـق حياك منـه بابتسام » اهـ

12 ـــ الحياة الدينية بالجزائر البربرية

نصر عبد المؤمن وبنوه عقيدة الاشعري • فثبت أهل المغـرب بعدهم عليها • وحملوا الناس على الكتاب والسنة في أخذ الاحكام والوعظ والتذكير • فعادوا بعدهم الى مذهب مالك (رض) والى طرق الصوفية متناسين النظر في الكتاب والسنة على وجه الاستقلال في الاستدلال والاهتداء بهما في مكارم الاخلاق وفضائل الاعمال •

ولم تزل بقية في القرن السابع لا تهتدي بغير الكتاب والسنة مباشرة • منهم في الفروع ابو زكريا يحي بن علي بن سلطان اليفرني تلميذ ابن عصفور واحد شيوخ ابني الامام • ذكر له المقري في نفح الطيب مسائل خالف في بعضها مالكا وفي بعضها الاجماع • ووفاته بتونس سنة 700 ومنهم في التصوف عبيد الله بن احمد الازدي الرندي نزيل بجاية المتوفي بها سنة 691 •

قال الغبريني : « وكان عبيد الله متنزها عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة • ولقد مضى بمسجده ابو الحسن الفقير المعروف بالطيار مع صحب له من الفقراء • ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد • فجلسوا من غير تحية ، فأمرهم بالتحية ، فقال له الطيار ولذكر الله أكبر ، وامتنع من الركوع ، ووقع بينه وبينهم في هذا كلام ، فأصروا على مقالهم وحالهم ، فنفوا الى المغرب ، والنفي في أمثال هؤلاء قليل ، وانما الواجب أن يعاملوا باسوا التمثيل ، وهؤلاء جملة أغبياء لا علم ولا عمل و لاتصوف ولا فهم • وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون ان مبناهم على اساس » اهـ •

ونقل صاحب نفح الطيب عن القاضي ابي عبد الله المقري ان العلماء كلما ابتعدوا عن عصر السلف اقتربوا من الامراء حتى صار جمهورهم يتطارحون عليهم • وهم يبتذلونهم في خدمة أغراضهم • ثم قال يصف الحياة الدينية : « وقد قص علينا القرآن والاخبار من أمر اليهود والنصارى ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا • سمعت العلامة الابلي يقول لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم لانا أتينا أكثر مما أتوا • يشير الى افتراق هذه الامة على أكثر مما افترقت عليه بنو اسرائيل • واشتهار بأسهم بينهم الى يوم القيامة حتى

ضعفوا بذلك عن عدوهم ، وتعدد ملوكهم لاتساع اقطارهم واختلاف انسابهم وعوائدهم حتى غلبوا بذلك على الخلافة • فنزعت من أيديهم وساروا في الملك بسير من قبلهم مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى » اهـ •

وهذه أخبار ترشد الى أن من العلماء من دينه ارضاء شهوات السلاطين ، وان من السلاطين من دينه احترام ما تحترمه العامة من عادة أو قبر أو شيخ مشهور بالولاية ، وغرضنا التنبيه لا الاستقصاء :

كان من مشاهير صلحاء تونس ابو محمد المرجاني المتوفي سنة 699 فكان ابو حفص عمر يخدمه • ورام ان يلي عهده ابنه عبد الله وهو صغير • فنكر عليه الموحدون ذلك • فاستشار المرجاني فاشار عليه بتولية ابي عصيدة محمد بن الواثق • فقبل اشارته وكانت أم أبي عصيدة قد فرت حاملا به يوم مقتل الواثق الى زاوية المرجاني • فولد في بيته • وعق عنه ، واطعم عصيدة الحنطة يوم سابعه • ولولا مكانة المرجاني ما نزل ابو حفص على حكم اشارته •

ولما نزل يوسف المريني على تلمسان في حصاره الطويل خرج اليه ذات يوم برسالة من صاحبها ابو الحسن علي بن يخلف اخو الامام ابراهيم بن يخلف ، فأقام لديه ، ومات ، فشهد السلطان يوسف جنازته ، ونكر وصول الخيل التي خرجت معه الى ضريح ابي مدين ، وأمر بوضع خشبة تنتهي اليها الخيل ، وهكذا الافراط في احترام الاموات في حين أن التلمسانيين يموتون كل يوم جوعا وقتلا بغير حق •

وذكر صاحب الفارسية ان ابا يحي ابا بكر كان في نزهة في رياضه الكبير سنة 747 فادخل عليه رسم رؤية هلال رجب على عادة قضاة الحضرة ، فقال لا اله الا الله ، دخل رجب ، وكرر ذلك ، ثم قام وتطهر واخلص التوبة ، وهذا من احترام العادة دون الدين ، لانها حرمت شرب الخمر في رجب وشعبان ورمضان خاصة •

وقال ابن خلدون : « ان ابا عنان لما احتل تلمسان واسر عثمان الثاني احضر الفقهاء وارباب الفتيا ، فافتوا بحرابته وقتله ، فامضى حكم الله فيه » اهـ . وهذا حكم الدينار لا حكم الله ، ويرحم الله القائل :

بنو الدهر جاءتهم احاديث جمة فما صححوا الا حديث ابن دينار

وفي سنة 757 زار ابو عنان أحمد بن عاشر نزيل سلا المتوفي بها سنة 765 ، فامتنع من رؤيته ، فحزن ابو عنان لحرمانه من الاجتماع بالشيخ ، وهو الذي أصر على محاربة ابيه السلطان ابي الحسن ، وتغلب على ملكه ، وعد عثمان الثاني من أهل الحرابة مع انه بايعه قومه واعترف هو بسلطنته .

وفي سنة 767 كانت على ابي حمو الثاني الهزيمة الشنعاء ناحية بجاية ، وسبيت حظاياه منهن ابنة يحي الزابي ، وكانت أعلقهن بقلبه ، قال ابن خلدون : « وخرجت في مغانم الامير ابي زيان ، فتحرج من مواقعتها ، حتى اوجده أهل الفتيا السبيل الى ذلك لحنث زعموا وقع من ابي حمو في نسائه » اهـ .

وكان من صلحاء تلمسان الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي المتوفي سنة 857 قال التنسي : فكان السلطان احمد العاقل يكثر من زيارته ، ويعتمد عليه في أموره ، وحكى ابن مريم في البستان انه كان يكثر الشكاية اليه بعمارة الزردالي الثائر عليه ، فقال له ذات يوم اذهب الى موضعك ، فقد قضى الله الحاجة فلما عاد السلطان أتي له برأس عمارة .

ومن جزئيات الحياة الدينية ما حكاه صاحب نفح الطيب عن القاضي ابي عبد الله المقري . قال : انشدت يوما الابلي قول ابن الرومي :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الاحياء والبصراء
فاذا مررت رأيت من عميانه أمما على أمواته قراء

فاستعاذني حتى عجبت منه مع ما اعرف من عدم ميله الى الشعر ، فقال أظننت اني استحسنت الشعر ؟ فقلت مثلك يستحسن مثل هذا ، فقال انما تعرفت منه قدم قراءة العميان على المقابر ، وكنت أراها حديثة العهد » اهـ •

وههنا يتذكر المرء قول ابي مدين : « بفساد العامة تظهر ولاة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون » اهـ ولا يتسع للتدجيل غير ميدان التصوف المبني على الدعاوي والنواميس الظاهرية فكثر المنتمون لطريقتي ابي مدين وابي الحسن الشاذلي • على ان الشاذلية تفرعت عن المدينية • وسند المدينية عندهم هو ابو مدين عن ابي الحسن بن حرزهم عن القاضي ابي بكر بن العربي عن الغزالي عن امام الحرمين عن ابي طالب المكي عن ابي محمد الجريري عن الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن ابي طالب (ض) عن النبي (ص) وهذا السند مشتمل بزعمهم على المصافحة ولباس الخرقة ، وسواء كان السند صحيحا أم مفترى فان العبرة بالاقتداء لا بالانتماء •

وانتشار طرق الصوفية بين العامة في عصر دليل على تقصير علمائه في احياء كتاب الله وعلى ضعف الحكومة عن بسط نفوذها في الامة مباشرة ، أو تقول ان سيادة المتصوفة دليل على انحطاط الامة سياسيا وعلميا ودينيا • وفي الصحف السابقة ما يجلي لك هذه الحقيقة • قال ابو بكر الشاشي :

لحا الله دهرا سدتمو فيه أهله وأفضى اليكم فيهم النهي والامر
فلم تسعدوا الا وقد أنحس الورى ولم ترأسوا الا وقد خرق الدهر

وفي القرن التاسع انتشرت بالمغرب الطريقة اليوسفية المنسوبة الى الشيخ احمد بن يوسف الهواري وطنا الوابودي نسبا المليانى وفاة • كان في حياته ممن يعتقد فيـــه الصلاح والخير يلقن الاسماء للعامة والنساء ، وكان أشد أصحابه غلوا فيه رجلا يدعى بن عبد الله • ادعى فيـــه النبوة وتابعه الاجلاف من البوادي وأهل الاهواء من الحواضر •

وخشيت الحكومة الزيانية من اتساع نفوذ الشيخ ابن يوسف • فأمر السلطان بقتله أو اشخاصه اليه • وكتب عامل وهران الى قائد هوارة بذلك فأبى القائد حمله الى العامل • وأمره بالخروج • قال ابو راس : « فلما ارتحل الشيخ من وطنه قال شوشوا علينا شوش الله عليهم من البر والبحر • فلم يكن الا قليل حتى أخذ الكفرة وهران والاتراك تلمسان • واعترض الشيخ في طريقه محاربون من سويد • فأخذ ثلاثة أحجار • وحكها بيـــده فصارت رمادا • وقال لهم ان تعرضتم لنا يسحقكم الله مثل هذه الاحجار • فأتوه تائبين • وكراماته لا تحصى وتوفي سنة 931 وقبره بمليانة من أعظم المزارات » اهـ •

واذا كان تغلب الكفرة على المسلمين كرامة فما هي الاهانة ؟

نسأل الله فكرة تلزم العقـــ ـــل الى حشمة تحوط المروة

13 — سيادة البربر بالبحر الرومي

في القرن الخامس أخذت القوة الاسلامية البحرية تتراجع بالمشرق لضعف دولة مصر الفاطمية بخروج المغرب عنها وضعف دولة بغداد باستبداد سلاطينها عليها وتحارب المتجاورين منهم • وكان السلاطين السلجوقيون معنيين بالجهاد فضايقـوا ملك القسطنطينية ألكسيس كمنانس ، فاستنجد أروبا • ولكن أخلاق ملوكها كانت أسوأ من أخلاق

سلاطين المشرق فلم ينجدوه • فاتخذ الدين آلة وأثار الحمية المسيحية على الاسلام •

وهنالك قام بابا رومة ورؤساء الكنائس بخطب اجادوا فيها وضع الروايات عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين بالمشرق ، وحثوا أممهم على امتلاك بيت المقدس • فتجندوا • وشعارهم صليب أحمر في صدورهم وعلى أسلحتهم وأمتعتهم ورياتهم ، وتواعدوا في ربيع الاول سنة 489 اللقاء بالقسطنطينية ، ومنها ركبوا الى آسيا واشتبكوا مع المسلمين بحروب عرفت بالحروب الصليبية • ثم ظهر التتر ، فاتحدوا مع الصليبيين على الاسلام ، وانتهت هذه الحروب بخروج الصليبيين من سواحل الشام سنة 690 ملكوا بيت المقدس فيما بين سنتي 492ـ583 •

واحتفظ البربر بسلطانهم على ناحية البحر الغربية حتى تضاءل نفوذهم بالاندلس منتصف القرن الثامن ، فأخذت كفة أروبا البحرية في الرجحان ، واقتسم الاسبان والبرتغال سواحل المغرب أوائل القرن العاشر ، فكان للاسبان سواحل الجزائر وما يليها شرقا ، فتغلبوا عليها حتى آخرجهم الاتراك ، وسنفرد بابا لسلطة الاسبان بالسواحل الجزائرية في الكتاب الرابع ان شاء الله •

قال ابن خلدون آخر حديثه عن الاساطيل في الفصل الثالث من الكتاب الاول : « بطلت وظيفة قيادة الاساطيل من المشرق ، وبقيت مختصة بالمغرب • فكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الاساطيل لم يتحيفه عدو ، وبلغت الاساطيل ايام لمتونة الى المائة ، وقيادتها لبني ميمون ، ومنهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم ، واقام هذه الخطة على اتم ما عرف واعظم ما عهد ، وكانت قيادتها ايام ابنه يوسف لاحمد الصقلي ، واصله من سدويكش المستوطنين جربة ، فجلى في جهاد

النصارى ، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهت الاساطيل على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ، ولعدم عناية دول مصر والشام بالاساطيل اوفد صلاح الدين بن ايوب على يعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ برسالة يستمده الاساطيل لمنع نصارى أروبا عن امداد اخوانهم بثغور الشام ، لكن لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين ، فخابت الرسالة » .

« ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت الدولة بعده استولت أمم البحر ، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من هذا البحر . فكثرت الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس ، والجؤا المسلمين الى سيف فيه أساطيلهم . واشتدت شوكتهم . وتراجعت قوة المسلمين فيه . وتساوت القوتان ايام ابي الحسن المريني . ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين لضعف الدولة وغلبة البداوة وانقطاع العوائد الاندلسية . فرجع النصارى الى دينهم المعروف من البصر باحوال البحر وغلب الامم في لجته . وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا . وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية . والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله » اهـ بتصرف .

وكانت بجاية أهم الثغور البحرية بالجزائر البربرية . قال الغبريني في عنوان الدراية : « كانت بجاية بلدة غزاة . وكان غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها . ويسوقون السبي الكثير منها . وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها .

وهناك يخمس ويقع الفصل فيه • ولم يزل الحال على ذلك ، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين ان يباع بيضا وان من الروم بسوداء من الوخش » اهـ •

وقال ابن خلدون اواخر حديثه عن الدولة الحفصية ما ملخصه : « ملك الافرنج جزائر البحر مثل دانية وسردانية وميورقة وصقلية ثم سواحل الشام وبيت المقدس ، وعادت سورة التغلب لهم ، وزاحمتهم أساطيل بني مرين اياما • ثم فشل ريح الفرنجة • وافترقوا طوائف في أهل برشونة وجنوة والبنادقة وغيرهم • فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم •

وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ، ويصطنعون الاسطول ويتخيرون له الابطال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة ، فيخطفون ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم وتضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه او يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة ، وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان احمد الحفصي ، فصم عن سماعها • فتداعوا للأخذ بثأرهم ، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو يجاورهم من أمم النصرانية ، وأقلعوا من جنوة ، فحطوا بمرسى المهدية منتصف سنة 792 وطرقوها على حين غفلة • ونصبوا عليها الحصار • فأمد المدينة السلطان حتى انجلى عنها الحصار » اهـ •

وقائد اساطيل بجاية لعهد احمد الاول محمد بن ابي مهدي •

كان زعيم البلد متقدما على أهل الشطارة والرجولية من رجل البلد ورماتهم • واسند اليه السلطان وزارة ابنه محمد لما وليه ببجاية • فاحسن القيام بها حتى مات الامير محمد وخلفه ابنه احمد • فكفله القائد مستبدا عليه • ومات هذا القائد ابن ابي مهدي سنة 805 فخلفه ابن اخته القلسطوني بامر السلطان عزوز • وهذا آخر اخبار كتاب الفارسية •

وكان لدولتي الموحدين المؤمنية والحفصية علاقات تجارية مع أروبا الجنوبية • ولما ملك الامير أحمد بجاية سنة 767 هنأه حاكم ولايات ايطاليا المتحدة وطلب منه تجديد المعاهدة التجارية مع دولته • فاسعفه بها • وفي سنة 844 كان لجمهورية البندقية خط مواصلة مع المغرب • صنعت له مراكب خاصة سميت « مراكب بلاد البربر » تخرج منتصف يولية كل سنة • فتقيم ثمانية ايام بطرابلس ومثلها بجربة ونصف شهر بتونس • واربعة ايام ببجاية ومثلها بالجزائر وعشرة ايام بوهران وايامًا بهنين •

وكان التجار الاروبيون علة الاضرار بالسواحل المغربية • ففي سنة 668 نزل لويس التاسع ملك فرنسا على تونس مدعيا ان لتجار مملكته قبل عامل المهدية ثلاثمائة الف دينار من غير مستند شرعي • وفي بعض نسخ ابن خلدون ثلاثمائة دينار وكانت لذلك أهوال مشروحة في غير ما كتاب •

وفي سنة 679 ثار بقسنطينة عاملها ابن الوزير • وكاتب ملك ارغون يستمده ويعده القيام بدعوته • فانتهز الملك الفرصة • ونزل اسطوله مرسى القل بعد قتل ابن الوزير فارتد على عقبه •

وفي سنة 686 غدر النصارى بالقالة • فثلموا اسوارها • ونهبوا أموالها واسروا أهلها • واحرقوا بيوتها • وفي سنة 689 حصروا بونة •

واسروا من ضاحيتها اشخاصا • وفي سنة 801 نزلوا عليها في نحـو سبعين قطعة • واقلعوا خائبين • ودخلوا مرسي القل فسلم الله منهم ونهبوا دلس •

ومن غدر النصارى ما حكاه الزركشي • قال ما ملخصه : « في سنة 827 بعث ملك النصارى القطلاني يطلب الصلح من السـلطان عزوز ، فوجد الرسول السلطان بالمغرب • فاخبر ملكه • فبعث اليه بعمارة ملكت قرقنة • وجاء السلطان ففاوضهم في افتدائها • ونزل بعضهم بعد الامان لمفاوضته • فقال المرابط بن ابي صعنونة : ليس لخائن أمان • فابى السلطان نقض عهده • ولم يتفقوا على ثمن الفدية ، فأقلع النصارى الى بلادهم بأهل قرقنة مأسورين » اهـ •

وحديث غدر النصارى بالسواحل وعبثهم بالمساجد طويل عريض ، واذا اكثر الاروبيون من تنقيص المسلمين في غزواتهم البحرية ورموهم باللصوصية فذلك مضرب المثل : « رمتني بدائها وانسلت » واذا جاراها كثير من اغرار شبابنا في هذه السبة فهو كما قيل :

الناس اعوان من واتته دولتـه وهم عليه اذا خاتته اعوان

تم تحرير الكتاب الثالث والحمد لله في رمضان سنة 1350 هـ

انتهى كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث •

بعض ما في الفصول من رجال ونساء

441 محكم الهواري
452 البزار ، ابو سهيل، ابو عبيدة
453 ابن الصغير ، ابن قريش
498 ابن قاضي ميلة
504 السفياني ، الحلواني
504 ابو عبد الله الشيعي
517 صاحب الحمار
520 الصوفي القيرواني
527 ابو القاسم بن هاني
536 حكاية السلجاماسي
539 ابراهيم الشيباني محمد بن يوسف
539 ابن عمران ابن سليمان ابن الجزار
540 يحي بن عمر . سعيد بن محمد
540 ابن خيرون. زيد بن سنان
541 متنبي تلمسان
567 الجازية
611 فتاة باغاية
612 ذات الكلب
627 امراة تاشفين
638 ابن النحوي. المخزومي. الريفي
644 ابو محمد الاشيري
649 فيونتشي الايطالي
653 عبد الله بن يس
658 زينب الهوارية
673 محمد بن تومرت
674 البيذق
683 ابن طاهر البجاءي
694 ابن فرسان
709 الحفيد بن رشد . ابو عبد الله الكومي الندرومي
710 الفقون
711 الاشعري
715 الجنيد ابو القاسم
720 ابو مدين شعيب الاندلسي
721 ابن عربي . الشاذلي . ابن سبعين
735 سعادة
736 ابن الازرق
758 ابن مرزوق المسيلي
802 ابن هيدور
825 هلال القطلوني
825 موسى بن علي الكردي
825 السنوسي . الزردالي
827 ابناء مقن . ابن خطاب . ابن خميس . ابن خلدون
845 طائفة من الوتشريسيين
867 التنسي ، باديس ، قنفذ
868 المليكش ، المشدالي
869 ابناء الامام
869 الفرني ، الرندي
873 احمد بن يوسف الهواري

بعض ما في الفصول من مدن وقرى

434 تامغيلت . ايزمامة . كرام
435 يلل . تامزغران . قلعةهوارة
قلعة دلول . ازكى .
451 تيلغت
458 تابغليت . سكيدال. تاسلونت
461 تيارات تاقدمت (374 ايضا)
476 البويرة . هاز. بورةالصحاري
477 موزية . الرمانة . تاورست
478 متيجة . قزرونة
478 مدكرة . الخضراء . واريفن
481 قارية . مليانة 370 (ايضا)
482 جليداسن شلف تاجنة غليزان
482 سوق ابراهيم . تنس
483 العلويين ، ترناتا ، ارشقول
484 جراوة
495 مجانة . بشرة . تيفاش .
باغاية .
496 تيجس ، بلزمة
496 نقاوس ، مقرة، ادنة ، طولقة
497 بادس ، الغدير ، بسكرة 280
497سطيف ، ميلة
504 ايكجان
508 مرماجنة ، الاربس
513 وهران
519 باتنة
525 المسيلة
542 عنابة ، القلة
554 ماوس ، دار ملول ، الباب ،
555 الخميس ، الاثنين
584 الاغواط
596 عين مليلة
644 اشير
645 القلعة
647 بجاية
674 ملالة
665 تاقررت 706
706 البطحاء
733 فرفار
776 بنو ورار
778 تقرت ، تماسين ، ورقلة
787 قلعة بني عباس
814 تاونت
815 هنين ، ندرومة
816 المعسكر ، فكان
817 عمي موسى ، الجزائر
818 تلمسان
842 برشك ، مازونة
845 تاوغزوت ، تافرقينت
857 تيزيل

مآخـذ الكتـاب

نثبت هنا للقارىء بعض الكتب التي استمددنا منها هذا الكتاب مقتصرين على اهمها ، غير مطيلين بذكر كل الكتب التي التقطنا منهـا عند المطالعة بعض الفوائد العزيزة الوجود .

ما كان في هذا الكتاب من رسوم فبعضه مأخوذ من بعض الكتب الفرنسية المذكورة من بعد . والبعض الآخر مأخوذ من دار الآثار بالجزائر. ونقود ملوك البربر ارسل الينا بطوابعها السيد احمد توفيق المدني شكر سعيـه .

المـآخذ العربيـة

1	الاخبار الطوال	لابي حنيفة الدينوري
2	اخبار الائمة الرستميين	لابن الصغير
3	الازهار الرياضية في ائمة وملوك الاباضية	لسليمان الباروني
4	اخبار ملوك بني عبيد	لمحمد بن علي بن حماد
5	اخبار المهدي بن تومرت	للبيذق
6	المعجب في تلخيص اخبار المغرب	لعبد الواحد المراكشي
7	الكامل	لابي الحسن بن الاثير
8	الانيس المطرب القرطاس	لمحمد بن ابي زرع
9	الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية	
10	واسطة السلوك في سياسة الملوك	لابي حمو الثاني
11	اعلام الاعـلام	للسان الدين بن الخطيب
12	الاحاطة في اخبار غرناطة	» » »
13	اللمحة البدرية في الدولة النصرية	» » »
14	الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية	» » »
15	رقم الحلل في نظم الدول	» » »
16	بغية الرواد في ذكر الملوك من بني الواد	ليحيى بن خلدون
17	الفارسية في مبادي الدولة الحفصية	لابن قنفـذ
18	الوفيـات	» »
19	تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية	لمحمد الزركشي
20	تاريخ الموحدين والحفصيين	لابن الشماع
21	نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان	للحافظ التنسي

22	الحلل السندسية في الاخبار التونسية	لأبي عبد الله الوزير
23	الخلاصة النقية في أمراء افريقية	لمحمد الباجي
24	اخبار الدول وآثار الاول	لاحمد بن يوسف الدمشقي
25	نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب	لاحمد المقري
26	بهجة الناظر	لعبد القادر المشرفي
27	تحفة الزائر	للامير محمد
28	خلاصة تاريخ العرب (مترجم)	لسيديو
29	نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار	لمحمود مقديش
30	فتوح البلدان	لاحمد البلاذري
31	البلدان	لاحمد واضح اليعقوبي
32	معجم البلدان	لياقوت الحموي
33	الاستبصار في عجائب الامصار	
34	تقويم البلدان	لأبي الفداء
35	الرحلة العبدرية	لمحمد العبدري
36	الرحلة العياشية	لأبي سالم العياشي
37	الرحلة الورتلانية	للحسين الورتلاني
38	الاحكام السلطانية	للماوردي
39	تقييد في الانساب	لعبد القادر الراشدي
40	طبقات علماء افريقية	لابي العرب التميمي
41	طبقات علماء افريقية	لمحمد بن الحارث الخشني
42	عنوان الدراية	لابي العباس الغبريني
43	التكملة لكتاب الصلة	لابي عبدالله بن الابار
44	الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب	لابراهيم بن فرحون
45	نيل الابتهاج بتطريز الديباج	لاحمد بابا التنبكتي
46	البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان	لمحمد بن مريم
47	طبقات الشافعية الكبرى	لعبد الوهاب السبكي
48	اخبار العلماء بأخبار الحكماء	للوزير علي القفطي
49	عيون الانباء في طبقات الاطباء	لابن أبي اصيبعة
50	الرسالة القشيرية	لابي القاسم القشيري
51	رسائل اخوان الصفاء	
52	التصوف الاسلامي العربي	لعبد اللطيف الطيباوي
53	شرح مقصورة حازم	للشريف الغرناطي
54	سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر	لعلي بن معصوم

55	شرح قصيدة نفسية الجمان في فتح وهران	لمحمد ابي راس
56	نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب	لاحمد بن عمار
57	المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب	لعبد الله البكري
58	العبر وديوان المبتدأ والخبر	
59	المؤنس في اخبار افريقية وتونس	لابن ابي دينار القيرواني
60	الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب	لأبي القاسم الزياني
61	الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى	لاحمد الناصري السلاوي
61	تاريخ دول الاسلام	لرزق الله منقريوس
62	موجز التاريخ العام للجزائر	لعثمان الكعاك

المآخـذ الفرنسية

1	Kitab El Adouani *(traduction)*	Féraud
2	Tlemcen	L'Abbé Bargès
3	Le Djurjura	S. A. Boulifa
4	Guide de Constantine	P Alquier
5	Les siècles obscurs du Maghreb	E. F. Gautier
6	Histoire d'Algérie	S. Gsell - G. Marçais-G Yver
7	Les Arabes en Berberie	G. Marçais
8	Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale	E. Mercier
9	Recherche sur l'origine des peuples	Carette
10	Description générale de l'Afrique	Marmol
11	Traités de Paix concernant les relations avec les Chrétiens	D. Mas. Latrie
12	Catalogue des monnaies Musulmanes	H. Lavoix
13	Histoire de l'afrique septentrionale	par Mercier
14	Les origines berbères	— Rinn
15	Cirta	— Vars
16	Histoire générale de l'Algérie	— Garrot
17	L'antiquité	— Malet
18	L'algérie dans l'antiquité	— Gsell
19	Campagne de J. César en afrique	— le Colonel Moinier
20	Le problème nord-africain	— Peyronnet

فهرس

صفحة

الكتاب الثاني – في العصر العربي

الباب الاول – في غزو العرب لافريقية وتأسيس امارتهم فيها

جزيرة العرب 9
العرب قبل الاسلام 10
العرب بعد الاسلام 15
العرب في افريقية 21
العرب في الجزائر 24
الجزائر تحت ملوك البربر 28
الفتح العربي 34
البربر والاسلام 36
الفتح العربي والحضارات القديمة 40
العرب والبربر بعد الفتح 43
ولاة المغرب من قبل الخلفاء 47

الباب الثاني – في الدولة الرستمية

تمهيد 53
الخوارج 57
الخوارج بالمغرب 57
الامارات الاباضية 61
تأسيس الدولة الرستمية 63
المملكة الرستمية 65
الحكومة الرستمية 68
الايمة الرستمية 71
الاقتصاد والحضارة 75
العلوم والآداب 77
ابو عبدالرحمن بكر بن حماد التاهرتي 80
الحروب والفتن 82
سقوط الدولة الرستمية 86
تيهرت 88

الباب الثالث – في الدولة الادريسية

تمهيد 93
تأسيس الدولة الادريسية 96
الحكومة الادريسية 98
العلويون بالمغرب الاوسط 101
ممالك بني محمد بن سليمان 105
سقوط الدولة الادريسية 112

الباب الرابع – في الدولة الاغلبية

كلمة عن الدولة العباسية 118
تأسيس الدولة الاغلبية 119
الحكومة الاغلبية 121
الجزائر الاغلبية 122
سقوط الدولة الاغلبية 126

الباب الخامس – في الدولة العبيدية

تمهيد 130
الشيعة الاسماعيلية بالجزائر 131
تأسيس الدولة العبيدية 134
الحكومة العبيدية 137
تيهرت العبيدية وزناتة 141
العبيديون وجبل اوراس 144
الجزائر بين العبيديين والامويين 149
امارة بني حمدون بالمسيلة 153
الجزائر الصنهاجية 157
الحالة السياسية والمالية بالجزائر العربية 163
الحالة العلمية والدينية 166
سيادة العرب بالبحر الرومي 170

الباب السادس – في نزوح الهلاليين الى المغرب

تمهيد 178
نزوح الهلاليين الى افريقية 179

صفحة

الهلاليون بالجزائر 182
نتائج النزوح الهلالي 184
الحياة الهلالية 187
الهلاليون ومواطنهم بالجزائر 192

الكتاب الثالث ـ في العصر البربري

الباب الاول ـ في القبائل البربرية الجزائرية

تمهيد 208
زناتة 208
صنهاجه 215
كتامة وزواوة 216
لواتة وتفزاوة 219
بنو فاتن 222
هوارة 224
مصمودة وبقية القبائل 226

الباب الثاني ـ في الدولة الحمادية

تمهيد 230
تأسيس الدولة الحمادية 231
المملكة الحمادية 234
الحكومة الحمادية 236
ملوك الدولة الحمادية 238
العرب ايام الحماديين 247
زناتة ايام الحماديين 251
الحماديون والمسيحيون 256
العمران والحضارة 259
العلوم والآداب 265
سقوط الدولة الحمادية 267
العواصم الصنهاجية بالجزائر 272

الباب الثالث ـ في دولة المرابطين

تمهيد 280
المرابطون 281

صفحة

المرابطون بتلمسان 282
حكومة المرابطين 284
امراء المرابطين 286
سقوط دولة المرابطين 288

الباب الرابع ـ في الدولة الموحدية المؤمنية

تمهيد 300
تأسيس الدولة الموحدية المؤمنية 303
الحكومة الموحدية المؤمنية 306
عبد المؤمن وبنوه 309
ولاة الجزائر المؤمنية 314
ثورة ابن غانية 317
العرب في الدولة المؤمنية 322
البربر في الدولة المؤمنية 326
المسيحية والاسرائيلية 330
الاقتصاد والعمران والحضارة 332
العلوم والآداب 335
الاعتقادات والمذاهب الفقهية 337
التصوف والصوفية 340
سقوط الدولة المؤمنية 349

الباب الخامس ـ في احوال العرب لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينين

تمهيد 354
رياح والاثيج وسليم 356
امارة بني مزني ببسكرة 364
رئاسة الثعالبة بمتيجة واخيار المعقل 370
زغبة 373

صفحة

الباب السادس ـ في الدولة الحفصية

تأسيس الدولة الحفصية 383
الحكومة الحفصية 384
ولاة الجزائر الحفصية 391
رؤساء القبائل 400
الحفصيون وزناتة 405
سقوط الدولة الحفصية 413

الباب السابع ـ في دولة بني مرين

بنو مرين 419
بنو مرين بالجزائر 422
استيلاء ابي الحسن على الجزائر 427
استيلاء ابي عنان على الجزائر 430
الاستيلاءات الاخير على تلمسان 434

صفحة

الباب الثامن ـ في دولة بني زيان

تأسيس الدولة الزيانية 439
المملكة الزيانية 440
عاصمة المملكة الزيانية 444
الحكومة الزيانية ومشاهير من رجالها 447
ملوك آل زيان 454
مغراوة وبنو زيان 467
ملوك تلمسان 470
توجين وبنو زيان 471
الثوار من بني زيان 475
الاقتصاد والعمران والحضارة 483
سقوط الدولة الزيانية 488
الحركة العلمية والادبية بالجزائر البربرية 490

انتـــاج

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113 - 5787 - Beyrouth - Liban

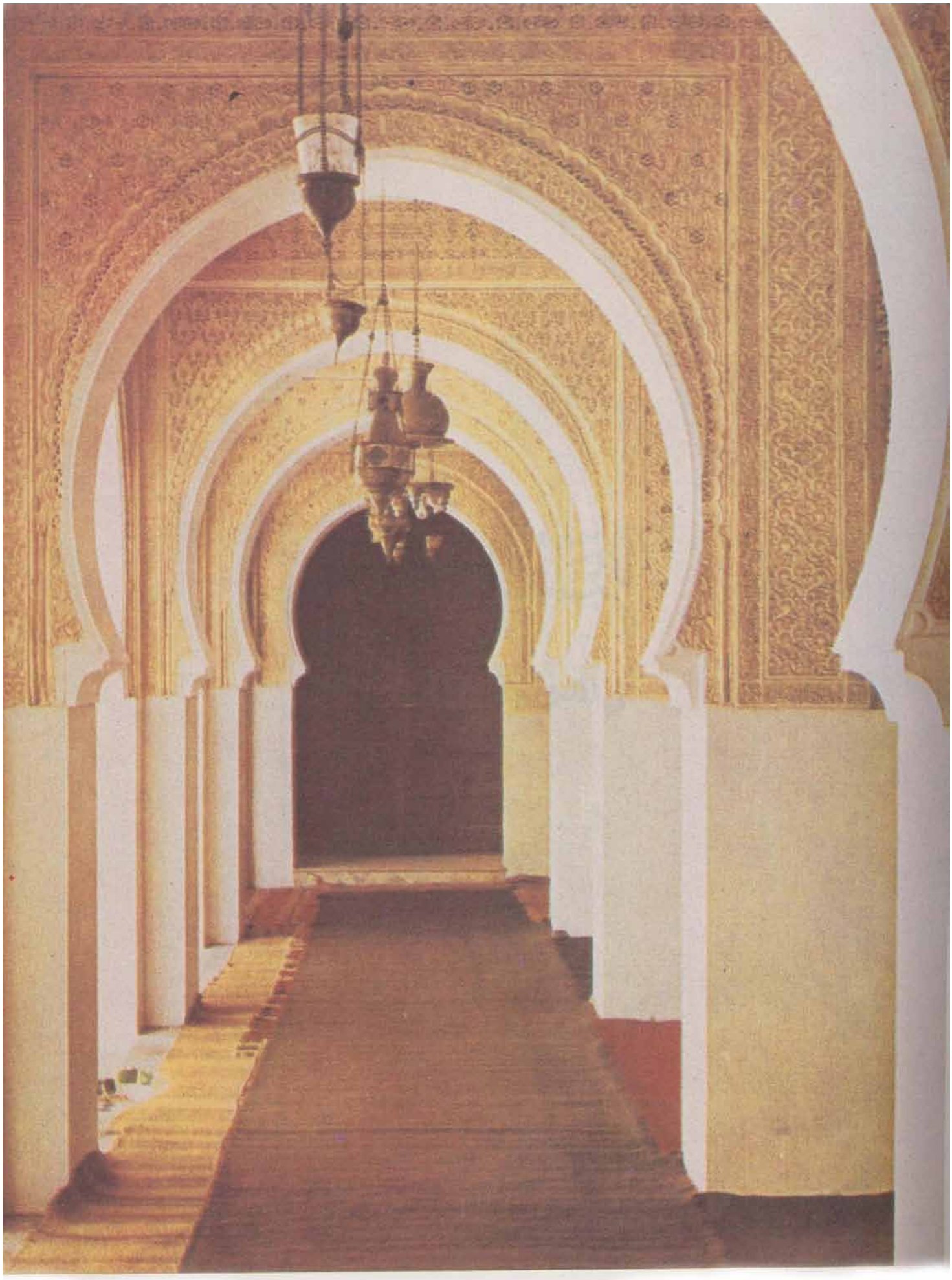

قاعة الصـلاة بجامع سيدي أبو مدين

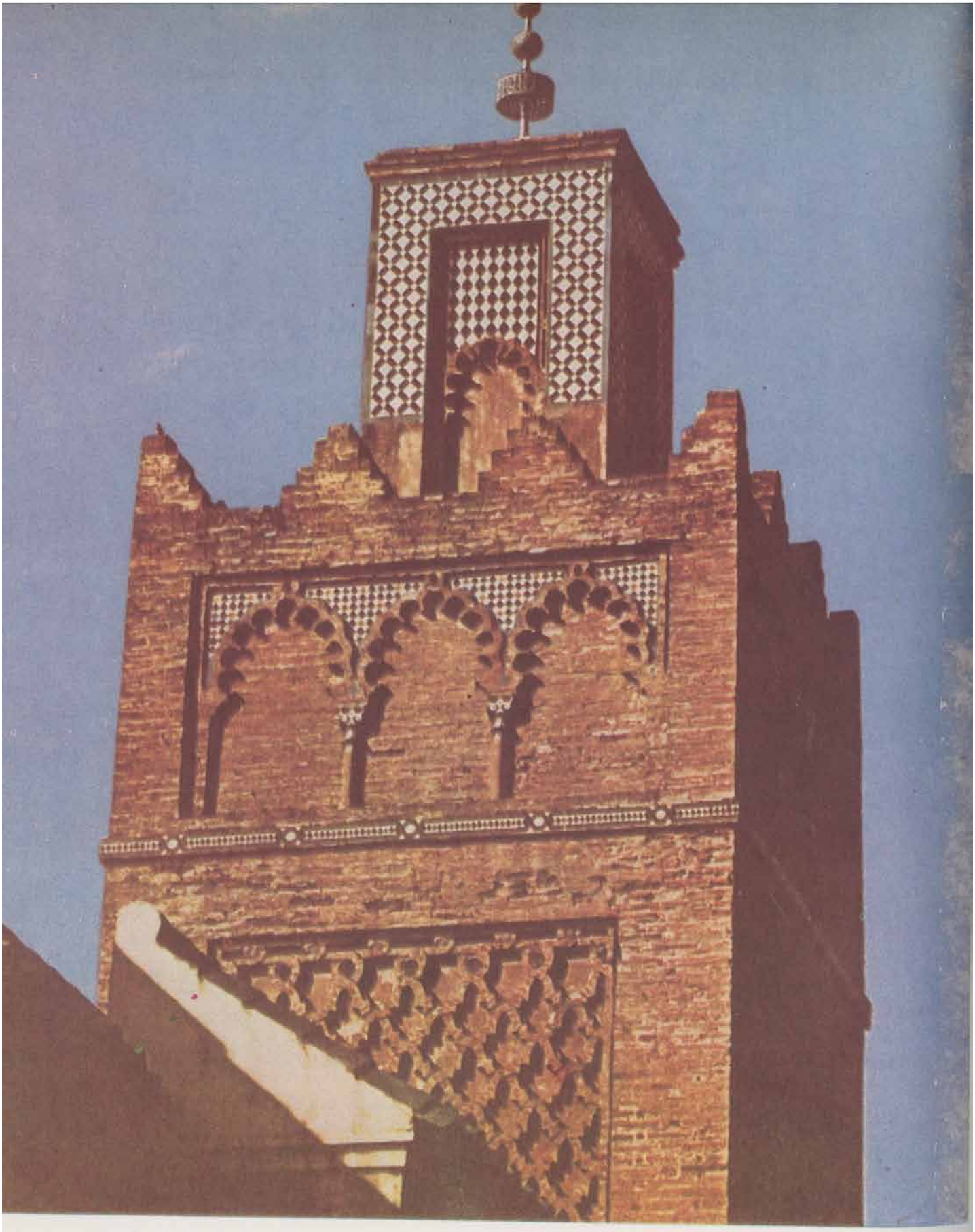

منـارة سـيدي أبـو الحسن

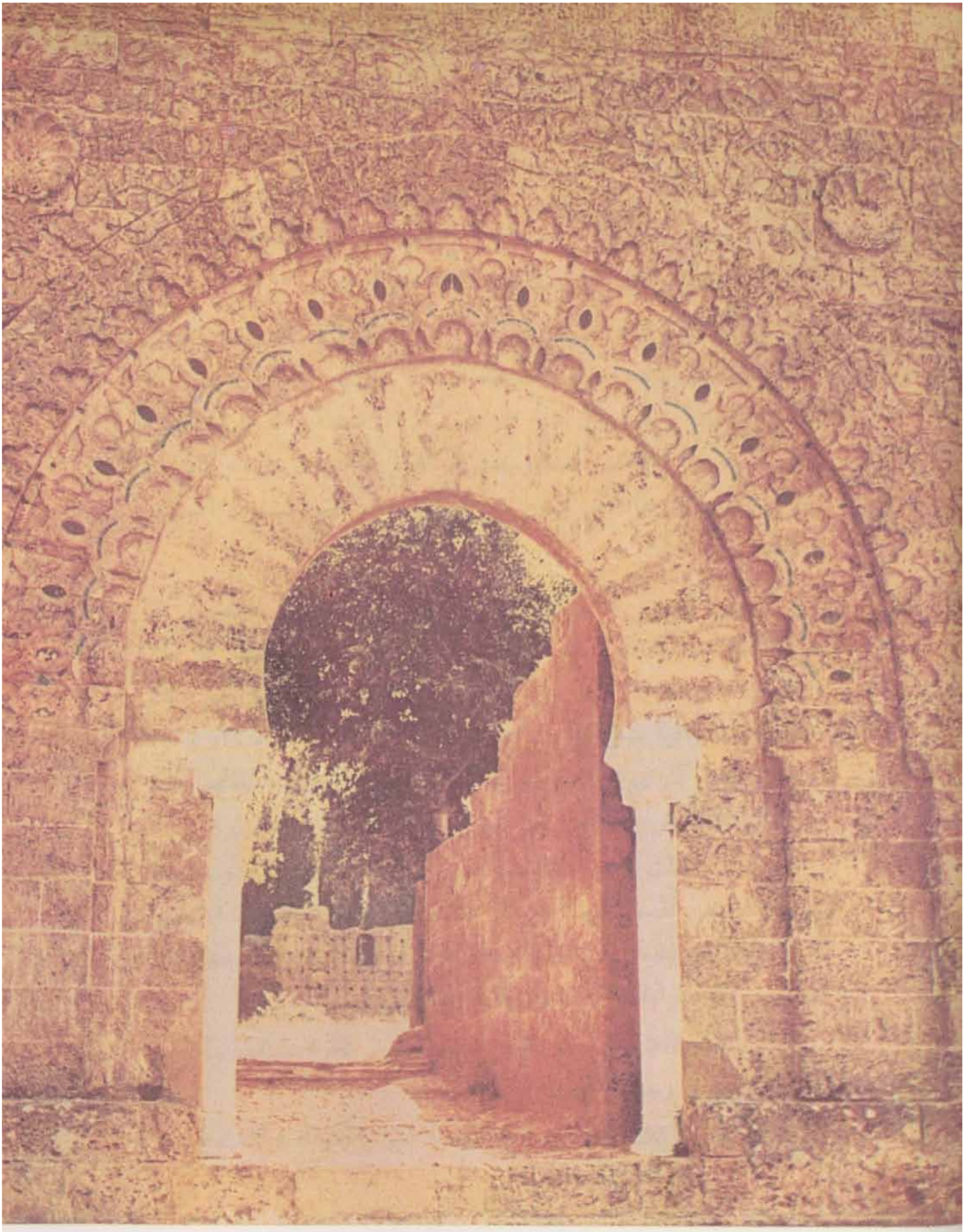

زخرفـة البوابـة

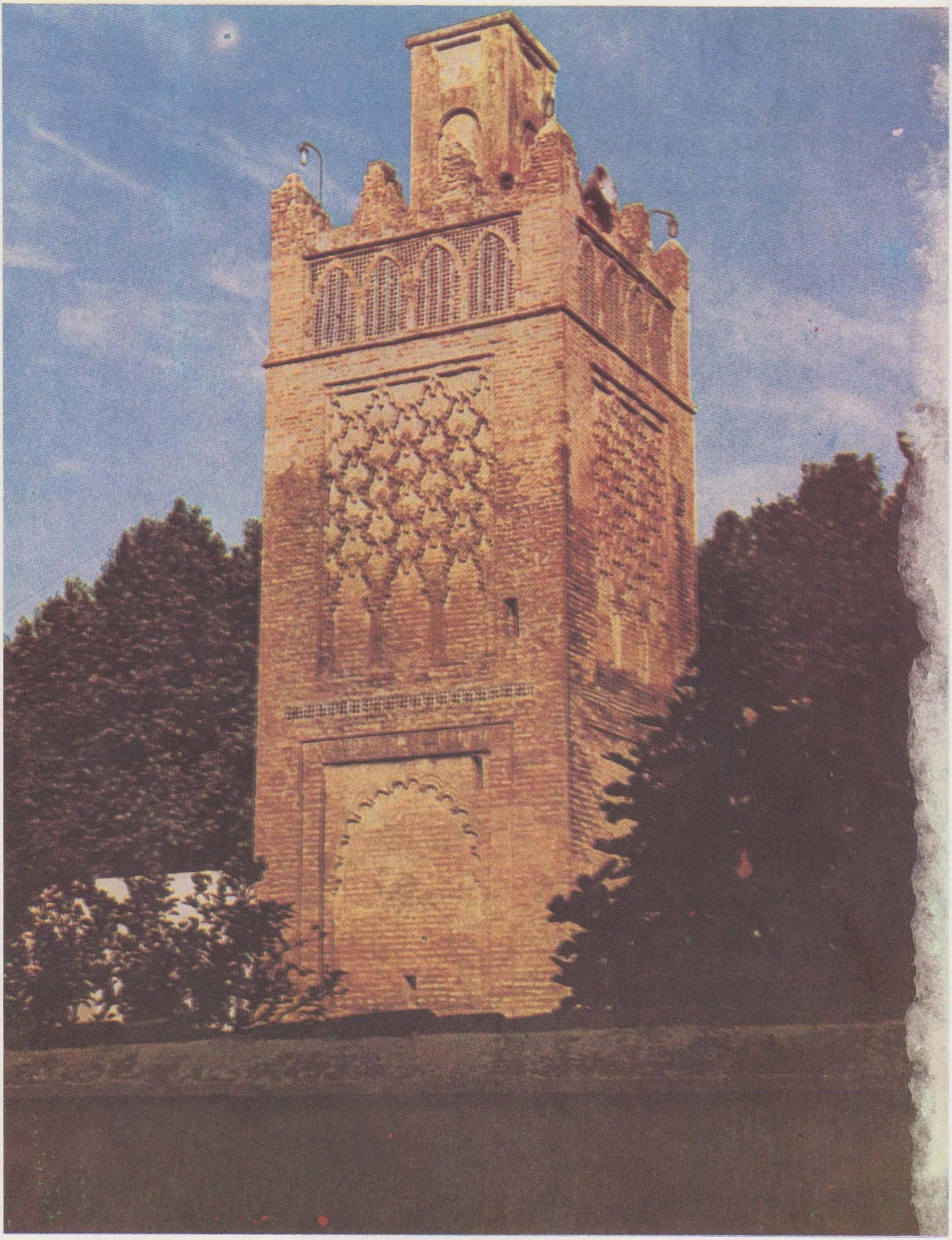

منـارة سـيدي ابراهيم

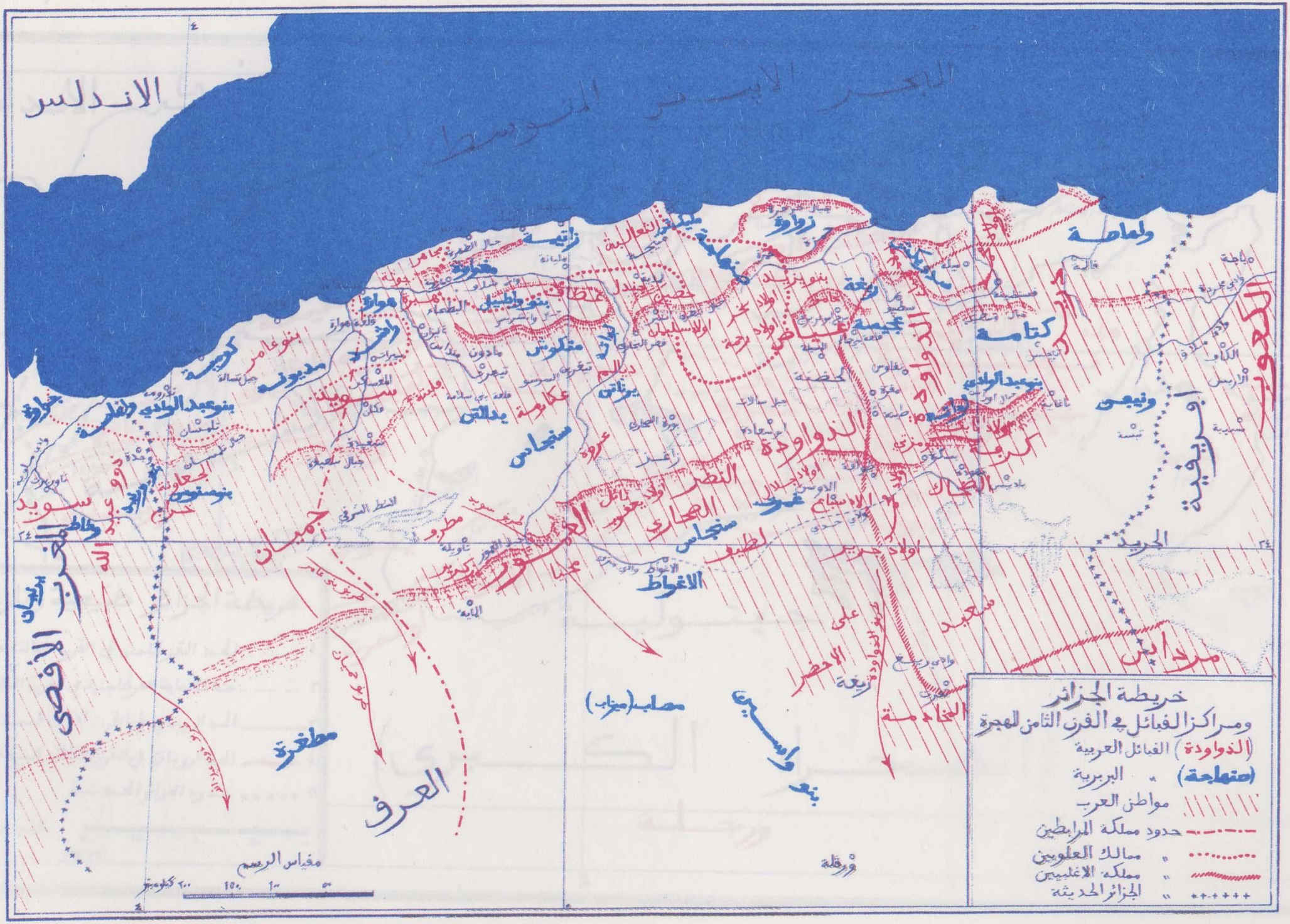
الاندلس
البحر الابيض المتوسط
الصحراء
المغرب الاقصى
العرق
مطغرة
جميان
سويد
بنو عبد الوادي
تلمسان
مديونة
كريمة
بنو عامر
زاتيمة
هوارة
مغراوة
بنو يزناسن
مكناسة
عكاشة
مدلاس
سنجاس
النطر
الصحاري
الاغواط
مصاب (ميزاب)
ورقلة
بنو مزغنا
الذواودة
بنو عبد الرزاق
بنو عبد الوادي
بنو مزني
بنو سليم
بنو عامر
بنو عبد الرزاق
بنو عبد الوادي
بنو مزني
بنو سليم
كتامة
وانيغن
الحدود
مرداس
مقياس الرسم
٢٠٠ كيلومتر
١٥٠
١٠٠
٥٠
خريطة الجزائر
ومراكز القبائل في القرن الثامن للهجرة
(الذواودة) القبائل العربية
(صنهاجة) » البربرية
مواطن العرب
حدود مملكة المرابطين
» ممالك العلويين
» مملكة الاغلبيين
» الجزائر الحديثة

البحر الابيض المتوسط
بحر الاندلس
الصحراء الكبرى
جيتولية
ورجلة
موريطانية القيصرية
نوميديا
افريقية
بزاكينا
مغراوة
جرو
يفرن
ومنو
الشرفية
ورنيدين
يلومي
الاغواط
اوغرت
عجيسة
مغيلة
هاجة
كتامة
بزاوة
فطحة
زامة
سوسة
المنستير
المهدية
سفاقس
قابس
طرابلس
الظاهرية
جبل اوراس
جبل الصحاوي
جبل نفوسة
جبل غدامس
الحمادة الحمراء
الحمادة السوداء
الحمادة الحمراء
الحمادة السوداء
خريطة الجزائر طبيعية وتاريخية
١ ..... الحد القرطاجني في القرن الثالث قبل الميلاد
٢ ----- حد الحماية القرطاجنية في القرن الثالث قبل الميلاد
٣ ——— الحد الروماني في القرن الاول للميلاد
٤ ——— الحد الروماني في القرن الثالث للميلاد
٥ +++++ حدود الجزائر الحديثة
مقياس الرسم
٣٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠
كيلومتر
١٢ ٨ ٤ ٠
٣٦ ٣٢
٤ ١

تاريخ الجزائر

في

القديم والحديث

الجزء الثالث

تأليف
مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الناشر
مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ شارع عمر القامًا
٢ شارع العربي بن مهيدي
الجزائر

تاريخ الجزائر
٣
تأليف
مبارك بن محمد الهلالي الميلي
الناشر
مكتبة النهضة الجزائرية

تاريخ الجزائر — الجزء الثالث

تاريخ الجزائر

في

القديم والحديث

الجزء الثالث

تأليف

مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الناشر

مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ شارع عمر القاما

٢ شارع العربي بن مهيدي

الجزائر

أ

هذا الجزء الثالث

يمثل تاريخ الجزائر في العصر التركي الفترة المجهولة من تاريخنا ، هي فترة يزيد في غموضها ان المراجع العربية بشأنها نادرة ، وهذه الصعوبة الاساسية هي التي اصطدم بها والدي رحمه الله عندما حاول كتابة الجزء الثالث ، فلم يكتب إلا حوالى العشرين صفحة، توقف بعدها ذلك أنه وجد ان معظم وأهم المراجع مكتوبة بالفرنسية . وقد وجدت من خلال تصفحي للاوراق التي تركها انه سلك طريقة متعبة وطويلة في التعرف على ما كتب باللغة الفرنسية : فكان يأخذ النص الواحد بالفرنسية ويكلف به اثنين منه اصدقائه أو معارفه ، لا يكون بينهما أدنى اتصال، ليترجما نفس النص ؛ وكان هدفه من كل ذلك هو ان يتعرف على محتوى النص الفرنسي ، من خلال ترجمتين لا من خلال ترجمة واحدة قد يكون بها خلل أو تحريف . والسبب في البحث بدقة عن معاني النص الفرنسي هو أن محاولة والدي لم تكن – كما يستطيع القارىء أن يتبين ذلك من خلال الجزئين السابقين – عبارة عن سرد للوقائع ، بقدر ما كانت محاولة للتدليل على وجود الجزائر في التاريخ وابراز معالم الشخصية الجزائرية .

اما عن الدافع الذي دفعني الى كتابة هذا الجزء ، فقد كان في بدايته نوعاً من الشعور بضرورة أداء دين علي ، فمنذ وفاة والدي وانا اسمع هذا السؤال : متى تكمل الجزء الثالث ؟ لكنني عندما شرعت في البحث عن المراجع استهواني العمل ، واكتشفتُ آفاقاً جديدة في البحث عن الشخصية الجزائرية .

وقد حاولت في كتابة هذا الجزء الثالث ، ان أقتصر على التعريف العام بتاريخ هذه الفترة ، دون التوغل في ذكر كل الوقائع والاحداث وتحليلها كلها ، باعتبار أن ذلك يجب ان يكون موضوع دراسات خاصة ، وليس موضوعه هو كتاب مهمته التعريف العام بالجزائر في هذه الفترة . وسوف يجد القارىء اني اهملت التعرض للحياة الأدبية في هذا

العصر ، لأني اعتبر أن هذا العمل يجب أن يتوفر على جمهرة من الباحثين في الأدب ليوفوه حقه، ولهذا اقتصرت على التعرض بقدر المستطاع لتحليل النواحي الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها مرتبطة ارتباطاً عضوياً متيناً بالناحية السياسية .

على ان هذه النواحي الاجتماعية والاقتصادية تتطلب تحليلاً اكثر تبسيطاً وأبعد غوراً لكن ذلك يتطلب دراسات مركزة لا تتسع لها محاولة من هذا النوع هدفها هو التعريف العام بهذه الفترة . وسوف احاول التوفر عليّ دراسة جوانب هامة من تاريخنا في هـــذه الفترة ، لانها تعين على القاء أضواء كاشفة على فترة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي وعـلى فترة الاحتلال نفسه وعلى بعض المشاكل التي خلفها الاستعمار .

محمد إبراهيمي الميلي

توطئة

كثيرة هي التعاليق التي كتبت عن الحكم التركي بالجزائر لكن اغلب هذه التعاليق تعتمد في الاحكام التي تصدرها على جزئيات هنـــا او هناك اكثر ممـا على الاستقراء والنظرة الشمولية .

والواقع ان اصدار حكم قاطع بشأن الحكم التركي في الجزائر يتطلب دراسة متعمقة لذلك العهد وتفاصيل وقائعه . وليس في امكان محاولة مثل هذه هدفها هو التعريف العام بجزائر العهد التركي ، ان تشتمل على التفاصيل التي تُعْتَمَدُ في اصدار الاحكام العلمية . لكن ذلك لم يمنعنا من التنصيص على خطوط التطور التي يستشعرها القارىء من خـلال بعض الحوادث او الوقائع التي تصلح ان تكون علامات ودلائل يستطيع الباحث ان يهتدي على ضوئها الى الوجهة التي ينبغي ان يركز عليها أبحاثه ودراسته وتحليله والحقيقة التي يلمسها الانسان عند بحثه في تاريخ هذه الفترة هي ان دراسة هذه الفترة لا يمكن ان تكون منفصلة عما قبلها من الفترات والعهود التاريخية في حياة وطننا . ان فهم كثير من الوقائع والاحداث في هذه الفترة يتطلب من الباحث ان يرجع الى أغوار الماضي ؛ ذلك ان تفهم كثير من الوقائع والاحداث في العهد التركي يتطلب فهماً عميقاً للخصائـــص المميزة للشخصية الجزائرية ، والخصائص المميزة التي تتشكل منهـــا الشخصية الجزائرية تتطلب دراسات تتناول حتى العهود الـــتي سبقت دخول العرب واستقرار الإسلام بالجزائر . كما اشار الى ذلك بحق رئيس الجمهورية والامين العام للمكتب السياسي لجبهـــة التحرير الوطني في التقرير الادبي الذي قدمه الى اول مؤتمر للجبهة انعقد فوق ارض الوطن بعد الاستقلال .

وفعلاً فان الذي يبحث كل العهود التاريخية الماضية يجد أن هناك وقائع لا تفسرهـا إلا خطوط مستمرة تمثل المعالم المميزة للشخصية الجزائرية ، وهـــذه الخطوط المميزة للشخصية الجزائرية نجدها دائماً واحدة لا تتغير سواء في العهد الفينيقي او فـــيما تلاه من العهود ؛ وهذا لا يعني أننا نريد التقليل من أهمية العنصر العربي الاسلامي ومبلغ تأثيره

في تركيب الشخصية الجزائرية ، ولكنه يعني أن الشخصية الجزائرية سابقة في تكوينها لظهور الاسلام والحضارة التي انبثقت عنه .

ان التذكير بهذه الحقيقة ضروري في نظرنا ، لأن تذكر هذه الحقيقة واستحضارها باستمرار، هو الذي يعيننا في بنائنا للجزائر الجديدة ، على الانطلاق من منطلق جزائري ويحول دون ان يتحول التفتح الذي اشتهر بـه الجزائري الى ذوبان او انكار للشخصية الجزائرية .

من أجل هذا نعتقد ان هناك عملاً ضخماً ينتظر مثقفينا، وهو توضيح معالم الشخصية الجزائرية عبر التاريخ القديم والوسيط والحديث ، وهو عمل ضخم لانه يتطلب ادوات تاريخية وفلسفية نفسية ، ويتطلب استقراء دقيقـاً لحوادث التاريخ ودراسة متعمقة للشخصية الجزائرية من خلال التراث الشعبي .

***

هذا هو النطاق الذي يجب ان نضع فيه بحثنا لفترة الحكم التركي بالجزائر ، واذا وضعنا البحث في هذا النطاق تصبح الاحكام التي نصدرها على الحكم التركي في حـد ذاته ثانوية بعض الشيء . ولهذا تجنبنا بقدر الامكان اصدار الاحكام القاطعة نظراً الى انه لا يمكن فصل هذه الفترة عما قبلها او بعدها من الفترات التاريخية .

وعلى هذا الاساس نجد ان الجوانب الايجابية التي يشيد بها بعضهم في التاريخ للعهـد التركي لم تظل ايجابية بل لقد تطورت تطوراً سلبياً قضى عليها في نهاية الامر .

مثلاً : ان الاتراك مكنوا الجزائر من ان تكون لها قوة بحرية واسطول بحري هام ، لكن اتجاه الحـكم التركي الى خوض المعارك البحرية مع البلدان الاوربية بحكم الظروف الموضوعية التي كانت قائمة ، حال دون تكوين جيش نظامي بري الذي كان هو الميدان المفضل للجزائريين وبعبارة اخرى ان تحول المعركة من البر إلى البحر ، بالاضافـة الى مخاوف الاتراك من الجزائريين صرفت الحـكم التركي عن تكوين جيش بري نظامي من الجزائريين ، واعتمدت كلية على القوة البحرية المتمثلة في الاسطول . وقد اسفر هـذا التطور عن وجود فراغ عسكري في الجزائر بحيث لم يصطدم الفرنسيون بالمقاومـة

الرسمية القوية التي كان يجب ان يصطدموا بها اثر نزولهم بسيدي فرج ، الذي جاء بدوره عقب ضعف الاسطول الجزائري . وبما ان الجيش التركي البري الذي كان موجوداً بالجزائر كان موجهاً اساساً لقمع السكان وجلب المغارم فهو لم يتمكن من الصمود في وجه العدو الخارجي .

ان هذا الجانب الايجابي ، وهو تكوين الاسطول الجزائري كان هو الثمن الذي دفعه الاتراك مقابل انتصابهم بالجزائر ، لان عدم امتلاك الامارات الجزائرية في القرن الخامس عشر الميلادي ، لاسطول بحري قوي اوجد بالجزائر الظروف الموضوعية التي هيأت لاستقبال الجزائريين لهذه القوة التي لم تكن موجودة عندهم حينذاك .

على ان هذه القوة البحرية التي جاء بها الاتراك أدت الى لا قوة . وهذا الجانب الايجابي انعَدمَ مع طول الزمن . لماذا ؟ ان معظم الكوارث التي لحقت الاسطول الجزائري ، قد لحقته بسبب الدولة العثمانية : ذلك ان الاسطول الجزائري في العهد التركي كان مثل خطيئة آدم في المفهوم المسيحي : لقد كان قوة خارجية جعلتها ظروف معينة تنتمي الى الجزائر ، فكان محكوم عليها دوماً أن تخدم الاصل ، الى ان انقرضت بسبب الاصل وسحبت معها في تدهورها كامل الجزائر . والعبرة المستخرجة من ذلك هي ضرورة الاعتماد على البناء الاصيل المنبثق من الشعب .

وهناك ظاهرة اخرى تستحق البحث ، لانها تلقي بعض الضوء على السهولة النسبية التي استقر بها الاتراك في مدينة الجزائر من جهة ، وتفسر من جهة اخرى الى حد ما الطابع الذي اكتسبه الحكم التركي بكامل الجزائر ، من جهة اخرى .

هذه الظاهرة تتصل بالجو النفسي لمدينة الجزائر في تلك الفترة : لقد كان جواً ناعماً جلب الى مدينة الجزائر اخلاطاً من السكان ، في وقت كانت فيه الرابطة العصبية تلعب دوراً هاماً في قيام الحكم ، فهذا الجو الناعم جعل سكان مدينة الجزائر في ذلك العهد يتفرغون الى الكسب دون ان يهتموا كثيراً بشؤون الحكم السياسي . وقد أعطى هذا الجو صورة خاطئة للحكام الاتراك عن حقيقة الجزائر كوطن .

وفي نطاق تلك الصورة جرت محاولات عديدة لابراز الشخصية الجزائرية بكامل

معالمها وابرز تلك المحاولات ، محاولتان فشلت كل منهما .

المحاولة الاولى هي محاولة صالح باي الذي كان مقتله فشلاً كحركة تطورية أرادت العمل داخل النطاق الاداري القائم . والمحاولة الثانية محاولة انطلقت من القاعدة ، وهي التي تتمثل في حركة ابن الاحرش وحلفائه ، وهي حركة ثورية شعبية انطلقت من القاعدة ضد شرعية النظام التركي .

وليس من محض الصدفة ان تتم المحاولة الثانية بعد قليل من فشل المحاولة الاولى : انها تعبير عن يأس الجماهير من العمل من داخل النظام ومن داخل الشرعية .

ولو نجحت احدى تينيك المحاولتين لكانت النتيجة هي الاستقلال الكامل عن القسطنطينية وضبط سياسة على أساس المصلحة الوطنية .

نعم لا ننكر ان الطبقة التركية الحاكمة حاولت الاستقلال بالجزائر عن القسطنطينية ، واستقلت بها فعلاً إذ لم تُبْقِ إلا على علاقة واهية مرتخية ، لكنها حققت الاستقلال لفائدة الطبقة الحاكمة دون مراعاة مصلحة مجموع الشعب ، وليس في هذا أدنى غرابة ، فالتاريخ الحديث يشتمل على أمثلة من هذا النوع : محاولة جنوب أفريقيا التي تمت ، وما حاولته السيقان السوداء في الجزائر وفشلت في تحقيقه . لكن الذي يجعل محاولة الطبقة التركية متميزة هو أن أبرز وأقوى العوامل السياسية في ذلك العهد ، وهو العامل الديني ، كان يلعب لفائدة الأتراك . وكان من الممكن أن يؤدي هذا العامل وذلك التطور الى الذوبان الكلي لتلك الطبقة في الجزائر ، لكن مجيء الاحتلال الفرنسي حال دون اكتمال تطور هذا الخط . لان قوة النزعة الاستقلالية عند الجزائريين كانت ستؤدي حتماً الى احدى نتيجتين : رفض الطبقة التركية أو ذوبانها . والعلامات التي لمسناها في عهد الدايات يدل على ان الطبقة الحاكمة بدأت تسير في طريق الذوبان .

***

ان هذه النزعة الاستقلالية للجزائر تؤكدها الثورات العديدة التي قامت في العهد التركي وفي هذا المجال يجب ان نلفت النظر الى حقيقة حاول غير واحد من المفكرين الغربيين تشويهها ، فالمفكرون الغربيون الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار ، وحتى

بعض المفكرين الذين يتوهمون انهم تخلصوا من العقليـــة الاستعمارية ، يستدلون بكـثرة الثورات في العهد التركي ، وقلتها النسبية في العهد الفرنسي ليقولوا ان الاستعمار مفيـد وان الشعوب قد استشعرت هذه الفائدة ، ولتوضيح هـذه الفكرة والرد عليها ، نسوق مـا قاله في هـــذا الصدد المفكر الفرنسي جاك بيرك ، الذي كتب يقول في كتابه : Depessesion de monde ما يلي: « والاغرب من هذا في العلاقات التي فرضها الاستعمار إبان ازدهاره لا يتمثل في كونـه (أي الاستعمار) استفاد من تواطىء كبـــار المساهمين في الاحتلال ، ولكنه استفاد الى حد ما من قبول الضحايا بهذا الوضع . وهذا التذكير قد يكون محرجاً أو غريباً ، لكنه يسجل مع ذلك بداية ظاهرة تاريخية » .

والتفسير الذي يخطر على الذهن لتعليل هذه الظاهرة بالاضافة الى الارهاب الاستعماري وخيبة الآمـــال ، هو التفسير النفسي الذي يتمثل في لجوء الشعب المستعمر (بالفتح) الى الخداع ، لانه يعتبر ان الحرب مستمرة بينه وبين المحتلين ، والحرب خداع . فهو يميـل باستمرار الى مخادعة المحتلين وايهامهم انه قبِلَ نهائياً بالوضع الاستعماري . اما الاشخاص الذين يقدمون شواهد الاخلاص للحكم الاستعماري والذين يستشهد بهم جاك بيرك ، فيمكن أن نعتبرهم من زاوية تفسير نفسي – جماعي للتاريخ – بأنهم كانوا مجرد أدوات تستعملهم الجماعة المضطهدة لتضليل المحتل . وليس الوعي ضرورياً هنا ، أي ليس من اللازم أن يكون هناك تفاهم بين الجماعـة وبين الشخص الذي يقـــدم شواهد الاخلاص للمستعمر (بالكسر) على تمثيل هـــذا الدور . ولكن يكفي ان تفرز الجمـــاعة بعيداً عنها العناصر غير السليمة كي يتم ما تم من دفاع الجماعة عن نفسها ضد المحتل بسلاح الخداع .

وهذا التفسير النفسي يكمله تفسير آخر يتلخص في أن الشعب المضطهد يشعر في أعماقه بأن التطور الذي حدث في البـلاد التي استعمرته ، قد مكّـن البلاد الاستعمارية من أداة للسيطرة لا قِبَل له بمقاومتها . ولذلك يفضل أن يمر بمرحلة خُمُولٍ ظاهري يُحـــاول خلالها أن يهضم ويتمثّل التطور الذي حدث في البـــلاد التي استعمرته ، وان يتكيف حسب الظروف الجديدة التي حققها هذا التطور ، حتى يصهر أسلحة جديدة مادية ومعنوية يستطيع بها أن يواجه المحتل مواجهة ناجحة .

وفي الوقت الذي يطمئن فيه المحتل الاجنبي ويأمن جانب الثورة ، يحمل بعض اساليبه

الفنية الى البلاد التي استعمرها لتكون في خدمته هُوَ أي في خدمـــة الاستعمار . لكن التطور الفني لا يمكن تجزئته ، والتقدم الفني الذي تستعمله الدولة المحتـــلة لتأييد سيطرتها سيخدم في نفس الوقت ميادين اخرى غير الميادين التي يريدهـا الاستعمار . وهذا التقدم في امتداده الى ميادين اخرى سيمكن الشعب المضطهد من تحقيق بعض الظروف الموضوعية التي يبحث عنها ليصهر فيها سلاحه الجديد .

ان هذا التفسير لا ينكره جاك بيرك ، لكنه يسوقه في قالب آخر وبكيفيـة اخرى تظهر مزايا الاستعمار اكثر مما تبرز نضالية الشعب المضطهد واستمرار عزمه على التخلص من الاحتلال الاجنبي فيقول في الكتاب الآنف الذكر :

« ان التجديد (الذي يدخله الاستعمار) ليس على قدر التخريب (الذي يحدثه نفس الاستعمار) أو بعبارة أدق ان نصيب الخلق والابداع الذي يدخله الاستعمار يستلزم لكي يزدهر ، زوال النظام الاستعماري . ان الامبريالية تستغل البلاد التي احتلتها وتغرس فيها نباتات لا تؤتي ثمارهـا الا بعد تغيب الاستعمار وزواله ، وهي ثمـــار يقطفها آخرون . والايجابية التي يولدها (الاستعمار) لا تظهر الا ضده بواسطة التجديد الذي يدخـــله . وهكذا نجد ان الاستعمار الذي يريد لنفسه ان يكون واقعياً وكاسباً يسير في خط مستقيم نحو الافلاس . ان الاستعمار القـــادم من مكان آخر والذاهب الى مـــكان آخر المستغل (بالكسر) أكثر مما يقول ولكن أقلّ بكثير مما يعتقد ، هـذا المؤرخ رغم نفسه (اي الاستعمار) يترك لنـــا درساً هو : لا يمكن أن يوجـــد ابداع الا في اتجاه عمودي لا سطحي . »

واضح من صيغة جاك بيرك هذه انه يُغفِل عنصر الايجابية الكامن في طاقة الشعوب المضطهدة وفي عزمها على التخلص من الاستعمار ، ويهمل عنصراً اساسيـــاً من عناصر التطور الدياليكتيكي في المستعمرات ، وهو العنصر الذي شرحناه والذي يتمثل في بحث الشعب المضطهد من صهر سلاح جديد بواسطة الاستفادة من الاساليب الفنية الحديثة التي يدخلها الاستعمار والتي لا تقبل التجزئة .

اما الايجابية التي يتحدث عنها الاستاذ جاك بيرك ، فكانت تستغل سلباً مطلقاً لولا ذلك التصميم السابق من طرف الشعب المضطهد .

ان تحليل الاستاذ بيرك لا يكون كاملاً وسليماً الا اذا اعتبر التصميم الشعبي على التخلص من الاستعمار ، سابقاً للتطور والتجديد الذي حمله الاستعمار ، لكن المفكر جاك بيرك يسكت عن ترتيب هذا التصميم بالنسبة للتطور ، بل ويمكن ان يفهم من كلامه ان التصميم على التخلص من الاستعمار متولد عن التطور الذي أدخله الاستعمار ، وهو ما لا يمكن ان نوافقه عليه .

هذا الاستطراد دفعنا اليه ابراز حقيقة طالما حاول المفكرون الذين خدموا الاستعمار تشويهها عن قصد ، كما حاول تشويهها عن غير قصد بعض المفكرين بحكم انتمائهم الى الحضارة الغربية التي يعد الاستعمار احد مظاهرها الاساسية .

* * *

ان استقلال الجزائر يجعلنا نتجاوز الآن النقاش الذي كان قائماً عندما كانت تخوض الجزائر غمار حرب التحرير ، وهذه المجاوزة لا تزيل ذلك النقاش جملة واحدة ولكنها تغير طبيعته تغييراً أساسياً فلم نعد الآن نشعر بالحاجة الى الدفاع عن فكرة الدولة الجزائرية والشعب الجزائري وتكونهما قبل الاحتلال الفرنسي . ان الاستعراض البسيط لاحداث الفترة التركية — وهذه التسمية للتعريف فقط وليس لها أي مدلول سياسي يكفي في الكشف عن حقيقة وجود الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي .

لكن الذي يحتاج الآن الى الدرس والتمحيص ، ويتطلب من مثقفينا العناية هو الكشف عن طبيعة المعركة بين الطبقات التي كانت قائمة بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، وهي معركة لا يمكن ان يحدد مداها وابعادها الا بالاستقراء الشامل للثورات والحركات التي قامت في العهد التركي ، فذلك الاستقراء هو وحده الذي يجعلنا نميز بين ما هو تقدمي من تلك الحركات وما هو مدفوع منها بدافع رجعي .

والنتيجة التي نستخلصها بسرعة من تلك الحركات والثورات هي حيوية الشعب الجزائري .

* * *

والخلاصة هي التحليل العميق للعهد التركي بالجزائر لا يسفر عن النتيجة التي كان ينادي بها سدنة الاستعمار ، وهي ان الجزائر كانت دائماً تحت السيطرة الاستعمارية ، ولكنه

يؤدي الى الكشف عن وجود متميز للشخصية الجزائرية التي نجدها موجودة من قبل ذلك بخصائصها المميزة ، كما يسفر عن حقيقة هامة ، هي ان انتصاب الطبقة العسكرية التركية بالجزائر كان نتيجة ظروف جزائرية ، ولم يكن نتيجة خارجية عن الجزائر ، وهـذا هو السبب في ان هذه الطبقة بالرغم من اخذها بزمام الحكم وكل مظـــاهر السلطة ، وقعت تحت ضغط الظروف الجزائرية الى درجـــة ان انفصلت عن القسطنطينيـة ، وأصبحت منطلقاتها في التخطيط السياسي هي الاعتبارات الجزائرية الصرفـــة ، وليس اعتبارات الامبراطورية العثمانية ، بحيث يمكن ان نقول ان الثورات وردود الفعل ضدهـا في العهد التركي كانت تجسيماً لتناقضات تندرج كلها في الواقع الجزائري ولم تكن جذباً ودفعاً بين قوة داخلية واخرى خارجية .

* * *

وبعد فان التاريخ والبحث في العصر التركي ، مثله في ذلـــك مثل البحث في العصر الحديث يتطلب من الدارس يقظة كبيرة حتى يستطيع أن يتخلص من تأثـــير التفكير الغربي الذي يتخذ لبوس الموضوعية والنزاهة ، ويتفطن لانواع الخداع والتضليل الفكري الذي عمد اليه عن قصد أو غير قصد سدنة الاستعمار ومن تربوا في احضانه ، وفي الاخير أرجو أن أكون قد قدمت بهـــذا العمل بعض ما تطلبه أجيالنا الصاعـــدة من مثقفي الجزائر اليوم .

محمد ابراهيمي الميلي

الباب الاول

الاسبان في الجزائر

- طبيعة الاعتداءات الاسبانية على شواطىء المغرب العربي .
- طبيعة الاحتلال الاسباني لوهران .
- عروج وخير الدين .
- الاتصال بمأساة الاندلس .

الاسبان في الجزائر

كانت محاولات وغزوات الأسبان ضد الجزائر، من بين الأسباب المباشرة التي مهدت لاستقرار الحكم التركي بالجزائر .

لذلك نعتقد أنه لا بد أن نقدم صورة لما كان عليه الوضع قبيل مجيء عروج وخيرالدين الى الجزائر .

كان سقوط غرناطة في يد الاسبان يوم ٢ جانفي ١٤٩٢ م . ، بدء مرحلة جديدة في برنامج التوسع الاسباني .

وقد خشي الكاردينال كسيماناس -- المشهور بتعصبه الديني والذي كان أبرز الدعاة الى مواصلة الحرب ضد المسلمين في شمال افريقيا -- خشي أن يكون سقوط غرناطة وفرار فلول العرب والمسلمين من الأندلس ، ايذانا بتوقف الهجومات ضد العرب والمسلمين .

لذلك أثار مخاوف اليزابيت -- التي كان يعرف أنها أشد تعصبا من الملك فرديناند -- أثار مخاوفها من المسلمين الذين فروا الى المغرب والجزائر وتونس ، واستعمل اللهجة التي كان يعرف أنها ستكون مسموعة ولا شك من طرف الماسكين بزمام الحكم في أسبانيا المسيحية .

والواقع انه لم يكن صعباً على الكاردينال كسيماناس أن يثير هذه المخاوف : فقد كان يكفيه التذكير ببعض الحقائق ، وكان يكفيه ابداء بعض الملاحظات ، ثم الجمع بين تلك الحقائق والملاحظات ليستخلص منها النتيجة الوحيدة التي تهم في نظره ، وهي ضرورة نقل الحرب ضد المسلمين من الأندلس الى شواطىء المغرب العربي .

وليس غريباً من كسيماناس ان يستعمل هذه اللهجة كما انه ليس غريباً أن تجد عنده

ذلك التعصب وذلك الحنق ضد الاسلام والعرب ، ولكن الغريب هو أن نجد اللهجة والحجج التي قدمها لتبرير مواصلة الحرب ضد العرب في شمال افريقيا ، هي نفس اللهجة ونفس الحجج التي يبرر بها معظم المؤرخين الغربيين لتلك الحروب والهجومات نفسها بعد ذلك بخمسة قرون ويمكن تلخيص هذه الحجج والمخاوف فيما يلي :

ان العرب والمسلمين لا يعتبرون خروجهم من الاندلس هزيمة نهائية ، لقد أخفوا سلاحهم ، ومعظم رؤسائهم تظاهروا فقط بالانهزام في انتظار الفرصة المؤاتية لينقضوا من جديد على الأندلس ويشهروا الحرب مرة أخرى على المسيحية ؛ وأنه لا بد من القضاء على أوكار « القراصنة » المسلمين في الشمال الافريقي .

واستجابت الملكة اليزابيت بسرعة الى « نصائح » الكاردينال كسيماناس ، فكلفت – فور سقوط غرناطة – حاكم القلعة (الأندلسية) « لورا نزودي باديا » بمهمة التجسس على مملكة تلمسان التي قررت ان تكون أول اهدافها .

فتنكر « لورا نزودي باديا » في زي تاجر عربي ومكث بتلمسان أكثر من عام ، وقضى كل هذه المدة في جمع المعلومات اللازمة التي تعين على نجاح خطط المعتدين .

وفي نفس الوقت وقع اختيار الكاردينال كسيماناس على « جيرونيمو فيينالي » – وهو ايطالي من البندقية – ليكون الى جانبه يعينه على حبك خطط الغزو ، وقد خبر جيرو نيمو هذا عدة مهن وتقلب بين مهام عديدة : فقد كان بحاراً ومهندساً واشتغل محاربا بايطاليا تحت قيادة « كونزالف » قرطبة ، وكانت له معرفة جيدة وخبرة واسعة بشواطىء الشمال الافريقي التي عرفها وتنقل بينها بحاراً وتاجراً .

وبعد ان تجمعت المعلومات اللازمة لدى الملكة اليزابيت ، قررت أن يقع البدء بمهاجمة مملكة تلمسان ، وجمعت لذلك اثني عشر ألف جندي جعلتهم تحت قيادة « الكونت دي تانديلا » الذي كان قبل ذلك حاكماً لغرناطة .

لكن الملكة اليزابيت توفيت في عام ١٥٠٤ م . فتوقفت مؤقتاً – الاعدادات لهذا الهجوم الذي كان أعز احلامها ، وعندما فتحت وصيتها بعد وفاتها وُجِدَ فيها الالحاح

على وجوب مواصلة الاعداد لغزو الشمال الافريقي والاستمرار في الحرب ضد المسلمين .

* * *

وقبل ان نواصل الحديث عن الاعدادات الاسبانية لغزو شواطىء الشمال الافريقي ، يجب أن نقف وقفة قصيرة عند القالب الذي يقدم فيه معظم المؤرخين الغربيين رواية الهجومات الأسبانية .

فدي غرامون لا يتردد في كتابه « الجزائر تحت السيطرة التركية » أن يبرر الهجوم الأسباني كما يلي :

« في ربيع سنة ١٥٠٥ ، كما قال سواريز مرنتانيز ، نظم القراصنة المور (أي عرب أسبانيا) القاطنون بمرسي الكبير هجوماً على شاطىء فالاناس، واستغلوا ظلام ليلة ليلاء فخربوا ضواحي « الش » وأليكانتي » ورجعوا من هذا الهجوم محملين بالأسرى والغنائم . وبعد ذلك بأيام قلائل ، عندما سمعوا بأن مدينة جيجل هوجمت من طرف بواخر من مالقة، تجرأ القراصنة على الدخول ليلاً الى ميناء مالقة وأضرموا النار في البواخر التجارية التي وجدوها بها ، فكانت الخسائر فادحة ، وعم الاستياء ، واضطر الملك فرديناند الى أن يصمم على تحطيم هذا الوكر من أوكار القراصنة » .

هكذا يبرر دي غرا مون الهجوم الأسباني على مرسي الكبير .

في حين ان تسلسل الاحداث يبرهن على عكس ما أراد دي غرامون أن يبرهن عنه .

ذلك أن تسلل المسلمين الى شواطىء الأندلس يجب أن يوضع في نطاقه الصحيح .

فبعد سقوط غرناطة ، بادرت اليزابيت وزوجها فرديناند بخرق المواثيق والعهود التي اعطيت للمسلمين . وعندما شكا المسلمون الذين بقوا بالاندلس ، خرق تلك العهود ، لم يكن جواب الحاكمين المسيحيين إلا تتبع المشتكين ، وتحجير عبادة الله حسب تراتيب الديانة الاسلامية . وبدأ الاضطهاد الديني ينصب على المسلمين .

وجاءت هجرة المسلمين من الأندلس فراراً بعقيدتهم نتيجة طبيعية لهذه الحملات

العنصرية . لكن الهجرة من الاندلس الى شواطىء المغرب العربي لا يقدر عليها الا الذين يملكون من المال ما يمكنهم من عبور البحر واستئجار السفن أو شراء ذمم الأسبان المكلفين بمراقبتهم .

ونقل المهاجرون أنباء الاضطهاد الديني الى اخوانهم في المغرب العربي، وبدأت حملات التضامن تنتظم في المغرب العربي لانقاذ من بقي بالاندلس من العرب والمسلمين على الفرار منها . (وفي حملات التضامن والانقاذ هذه لمع اسم بابا عروج وخير الدين اللذين سنعرض لهما بتفصيل أكثر في الفصول القادمة .)

فتسللات المسلمين الى موانىء وشواطىء الأندلس كانت تهدف الى استخلاص المسلمين الذين بقوا هناك من براثن الاضطهاد الديني ومقاصل محاكم التفتيش .

هذا هو النطـــاق الصحيح الذي يجب أن نضع فيـه تسلسل المسلمين الى شواطىء الأندلس .

ان هذا التسلسل يدخل في نطاق احداث متسلسلة يوجـــد رأسها في الأندلس لا في الشواطىء الافريقية . ومن هنا يتبين بوضوح ان المبرر الذي استعمله الأسبان ليس صحيحاً كل الصحة .

نعم لا ننكر أن الأمداد والموجات التي انطلقت من شمال افريقيـــا الى الأندلس في عهد ابن تاشفين وبعده ، قد خلفت عند الأسبان عقدة من سكان وممالك المغرب العربي . لكن هذه العقدة لم تقف عند حدود خلق رد فعل دفاعي ، بل تجـاوزته الى ردود فعل هجومية واعتداءات صارخة .

اذن فقد صمم فرديناند على تنفيـــذ وصية اليزابيت . ووقع اختياره عـــلى « دون دييغوفيرنا نديز » قائداً عاماً للحملة ، ووضع تحت قيادته جيشاً ينيف على العشرة آلاف . وكانت العمارة أو الاسطول الذي وضع تحت قيادة « دون رامون دي كاردونا » يتركب من سبع بواخر حربية ومائة وأربعين زورقاً مختلفة الأحجام .

و ستعدت القيادة الاسبانية لمغادرة مالقة في أواخر أوت ١٥٠٥ (٩١١ هـ) — لكن

رياحاً مضادة اضطرتها الى تأجيل الرحيل ، فتجمعت في ميناء الميريا الذي مكثت به طيلة الاسبوع الاول من شهر سبتمبر ، ولم تغادره الا مساء يوم ٩ سبتمبر .

وقد أفاد هذا التأخر الاسبان من غير أن يقصدوا الى ذلك : فقد سمع سكان مرسي الكبير ببوادر الحملة واستعدوا لمواجهتها . لكن تأخرها من يوم لآخر حملهم على الاعتقاد بأن الأسبان تخلوا عن خطتهم في مهاجمة واحتلال مرسي الكبير أو انهم كانوا يقصدون هدفاً آخر .

وشرع الأسبان يهاجمون مرسي الكبير صباح يوم ١٠ ايلول وفي الوقت الذي كانت فيه البواخر الحربية ترسل قذائفها المدوية على الميناء ، كانت بواخر النقل تنزل الجنود . ونظراً للمفاجأة ، لم يجد الاسبان أمامهم عدداً كبيراً من المدافعين ، أما العدد القليل الذي كان في الميناء أثناء الهجوم ، فلم يتمكنوا من رد الهجوم رغم استبسالهم الذي شهد به الأعداء أنفسهم ، وكانت الغلبة للقوة وكثرة العدد ، لكن المعارك استمرت رغم ذلك طيلة النهار وكامل الليل وتواصلت في اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث — وكان يوم جمعة — ازدادت المعارك عنفاً وحدة ، بسبب توافد السكان من الداخل بعد أن سمعوا بأنباء المعارك .

لكن استشهاد قائد حامية مرسي الكبير في اليوم الأول للمعركة والحصار الذي وقعت فيه الحامية ، وانقطاعها عن الماء بالاضافة الى العدد الضخم الذي يتركب منه جيش المهاجمين الأسبان ، كل ذلك اضطر الحامية الى أن تستسلم بعد حصار دام خمسين يوماً حسبما أكده هنري غارو وقد قرر دون دييغو ، فور انتصاره ، أن يحول جامع مرسي الكبير الى كنيسة ، وشرع ، يعزز مواقعه ، ويرسل الطلائع الى داخل البلاد لتمونه بالقوة . ذلك انه لم يجد داخل المواقع التي احتلها ما يمون به جنوده ، كما أن ملك تلمسان سارع الى مهاجمة الأسبان فور سماعه بالنبأ .

وعندما سمعت أسبانيا بأنباء الاستيلاء على مرسي الكبير قررت اعلان الأفراح لمدة ثمانية أيام . وطلب الملك من دون دييغو أن يقدم الى أسبانيا ليهنئه ، فرحل هذا الاخير

الى أسبانيا وترك مكانه دون روي روكسا .

* * *

عندما أقلع الأسطول الأسباني الذي قـــاد الهجوم على مرسي الكبـير ، عائداً الى أسبانيا ، ترك بالميناء الجزائري نحو ثمانمائة جندي انصرفوا الى تحصـين مواقعهم وتوسيع شبكات اتصالاتهم خارج الحصن: فاستولى «دون روي رياز » على المنابع المائية الموجودة في الطريق المؤدي الى وهران ، وبنى حصناً وضع فيه فرقـة عسكرية لا تغادره أبداً ، وحاول أن يستميل اليه سكان المناطق المحيطة ، لأنه كان يعرف أهمية التموين ، وفتـح لهذا الغرض سوقاً حرة لا تبعد عن الحصن إلا قليلاً .

لكن السكان رفضوا عروض واغراءات المحتلين ، وراحو يغتنمون كل فرصة لتسديد ضربات يفاجئون بها العدو ، بحيث يمكن القول ان قصة احتلال مرسي الكبير ليست إلا قصة حصار دائم .

هذه الوضعية ، من هجومـات متكررة وحصار دائم ، لم يكن فيها ما يرضي زهو الحاكم الأسباني. لذلك ما فتىء يطالب ملكه بتمكينه من قوات كافية يهجم بها على مدينة وهران . وعاد دون دييغو مرة ثانية الى اسبانيا في سنة ١٥٠٧ م . (٩١٣ هـ) ، وتمكن من اقناع الملكة « جوانا » بسداد مطلبه ، فأرسلت له جيشاً يتألف مـن خمـة آلاف محارب .

* * *

وضع دون دييغو هـذه القوات الجديـــدة في مرسي الكبير ، وقرر أن يستولي على وهران بطريقة مفاجئة ، وقد فضل أن يدرب جنوده على مواجهـــة السكان في معارك جزئية ومناوشات تمكنهم من درس أساليب الجزائريين في الحرب والتعرف على طرقهم وأساليبهم في النزال .

في تلك الأثناء بلغ الى علمه أن هناك دواراً كبيراً « مسوغين » لا يبعد عنه الا قليلاً ، يقع وراء الجبل. فقرر دون دييغو أن يهاجم هذا الدوار تحقيقاً لبرنامجه في تدريب جنوده

على مواجهة المسلمين ، بالاضافة الى ما سيدره عليه هذا الهجوم المفاجىء من غنائم هو أحوج ما يكون اليها : فالحصار المتوالي الذي نصبه حوله السكان جعله لا يتحصل على ما يلزم لتموين جيشه الا بمشقة وعناء كبيرين .

وفي مساء يوم ٦ جوان ١٥٠٧ م (صفر ٩١٣ هـ) على الساعة التاسعة ليلا ، شرع دون دييغو يسير على رأس جيشه ، تاركاً بالحصن عدداً قليلاً من رجاله تحت قيادة روي دياز دي روكساس .

وقد كان هناك طريقان يؤديان من مرسي الكبير الى مسوغين : أحدهما يحاذي البحر ويكون المار منه في متناول مدافع وهران وتحت رحمتها ، وثانيهما يخترق الجبل . واختار دون دييغو هذا الطريق الثاني حتى لا يكشفه المسلمون ولا يقطعوا عليه حملته وهي ما تزال بعد في بدايتها .

وما كان الفجر يشرق من الغد حتى كان الدوار المقصود محاصراً من كل ناحية ، ورغم وقع المفاجأة على السكان فقد واجهوا المعركة باستبسال انتزع اعجاب أعدائهم . لكن الغلبة كانت للقوة وكثرة العدد مرة اخرى . وانتهت الجولة الأولى من المعركة بنجاح دون دييغو .

لكن دون دييغو كان قد ارتكب خطأ عسكرياً فادحاً دفع بعد ذلك ثمنه غالياً : فهو لم يقرأ حساباً لتقهقره بعد الانتصار ، ولم يترك وراء ظهره قسماً من الجيش يحميه . لذلك ما ان بدأ دون دييغو سيره في طريق العودة محملاً بالأغنام حتى هوجم من طرف السكان الوافدين من الداخل الذين أسرعوا فور سماعهم بالنبأ الى اللحاق بالجيش الاسباني وأجبروه على خوض المعركة من جديد .

ولعب عنصر المفاجأة هذه المرة لصالح الجزائريين ، وفي نفس الوقت خرجت حامية وهران فقطعت الطريق على مقدمة الجيش الاسباني وأخذت منه بسهولة الأغنام والأسرى الذين كان يريد استصحابهم الى مرسي الكبير . واستولى الهلع على الجنود الأسبان الذين أطبق عليهم الهجوم من أمام ومن خلف ، وحاقت به الهزيمة ، وخسر الأسبان في هذه

المعركة ثلاثة آلاف جندي .

وما كان دون دييغو لينجو لولا انه اختفى صحبة خمسة من جنوده ، اما الباقون فقد وقعوا أسرى في أيدي الجزائريين .

ورجع دون دييغو بعد هذه الهزيمة الى أسبانيا مرة ثالثة ليقدم تقريره عما حدث .

وفي هذه الأثناء كان الكاردينال كسيماناس يتم الاستعدادات للهجوم على مدينة وهران الذي كان يرغب أن يقوده بنفسه . وتم له ما أراد : ففي ٢٠ أوت ١٥٠٨ عينه الملك فرديناند قائداً عاماً للحملة الموجهة ضد وهران .

غادر كسيماناس قرطاجة (بالأندلس) يوم ١٦ ايار ١٥٠٩ (محرم ٩١٥ هـ) على رأس ثلاث وثلاثين باخرة حربية وواحد وخمسين زورقاً صغيراً ، ونزل بمرسي الكبير يوم ١٨ ، وهاجم وهران يوم ١٩ .

ولا يستبعد بعض المؤرخين في هذا الصدد – ومن بينهم شارل أندري جوليان – ان تكون وهران قد سقطت نتيجة لخيانة واحد من سكان المدينة . وفعلاً فلم يتمكن الاسبان من احتلال المدينة الا بعد ان تفاهموا مع « ستورا » اليهودي ورجلين من المسلمين أدخلوا بعض الاسبان الى المدينة فتولوا فتحها في وجه اخوانهم (راجع الجزء الثاني من تاريخ الجزائر . ص ٣٨٢ .) .

وقد وجد الكاردينال كسيماناس الفرصة متاحة ليشبع تعطشه الى دماء المسلمين ، فأمر بتقتيل أكبر عدد ممكن من المسلمين . ويعترف الشهود الاسبان انفسهم بان جنود كسيماناس راحوا يقتلون سكان المدينة بكل وحشية ، بحيث لم تمر ساعات قلائل حتى تم تقتيل أربعة آلاف شخص عدا النهب والسرقات ، وقد قدرت غنائم الاسبان بأكثر من اربع وعشرين مليوناً . وغادر كسيماناس وهران بعد أن حول مساجدها الى كنائس .

وترك الكاردينال كسيماناس قيادة الجيش وحامية وهران الى دون بيدرو نافاري دي اوليفتو الذي خلفه في هذا المنصب ، روي دياز في أواخر شهر نوفمبر . وروي دياز لم يحتل هذا المنصب إلا مؤقتاً في انتظار عودة دون دييغو الذي عينه « قائدا عاماً لمدينة

وهران ، وحامية مرسي الكبير ، ومملكة تلمسان » .

طبيعة الاحتلال الاسباني لوهران :

ان هذه التسمية التي منحت « لدون دييغو » تكشف عن حقيقة المشاريع والنوايا الاسبانية بالنسبة لشمال افريقيا . فهي تدل على أن احتـــلال وهران ومرسي الكبير لم يكن إلا مقدمة للاستيلاء على مملكة تلمسان ، كما ان احتلال بجاية وعنابة وغيرهمـــا من المدن كان في اعتبار الاسبان مفتاحاً فقط للنفاذ الى داخل البلاد .

وهنا يحق ان نتساءل : ما الذي حال دون نفاذ الأسبان الى داخـل المغرب العربي وسطه وجناحيه ؟

يحاول المؤرخ شارل أندري جوليان ان ينفي وجود نية التوسع الى داخل البلاد عند المحتلين الأسبان ويقول في هذا الصدد ما يلي :

« لئن كانت اسبانيا قد تخلت رغم تفوقها في الأسلحة عن تمديـــد وتوسيـع نطاق احتلالها فلان المسألة الافريقية كانت تحتل المرتبة الثانية من اهتماماتهـا ، ان فرديناند الـكاثوليكي الذي كان ملك ارغون قبل كل شيء ، كان يتوجه على الاخص ناحية جبال البيريني (فرنسا) وايطاليا : وتدخله العنيف في شواطىء افريقيا خلال مرحلة قصيرة (١٥٠٩ – ١٥١٠) يفسرها نوم المسائل الايطالية ، وقد كان عليه ان يقرأ في كل وقت حسابا للوضعية المالية الضعيفة التي تمنعه من القيام بحملات لا ترجع بالفائدة العاجلة .

ان السياسة الافريقية لاسبانيا ، لم تكن ابداً مستقلة منذ بداية القرن السادس عشر ولا يمكن فهمها ان لم تربط بالسياسة العامة لأسبانيا .

ان الاسبان قد اكتفوا ، منذ توالي فرديناند الـكاثوليكي للحكم بأسلوب الاحتلال المحدود ، فحولوا الموانىء المحتلة الى مواقع محصنة تحتلهـــا حاميات عسكرية ، تاركين الضواحي للسكان الاهالي .

ان هذا التحليل الذي يقدمه شارل اندري جوليان يعد في الواقـــع ملاحظة لأمر واقع ، ولا يقوم بمفرده تفسيراً لهذا الأمر الواقع .

فنحن لا نرى مانعاً من التسليم بأن السياسة الاسبانية تعتبر كلا لا يتجزأ ، لكن ذلك لا يكفي في تفسير توقف الأسبان عند حدود الموانىء وعدم توغلهم الى داخل البلاد .

صحيح ان العامل الاقتصادي – فقر الخزينة وعدم وجود أرباح تعوض – الى حد بعيد في تسيير سياسة الاحتلال ، لكننا نرى أن هذه الملاحظة تحاذي التفسير الصحيح وليست هي التفسير الصحيح . أي انها تلازمه وليست هي هو .

ان تحليل شارل اندري جوليان غير كافٍ لأنه يترك المجال لنقط استفهام عديدة تبقى بدون جواب ان نحن اكتفينا بتفسيره .

فهو يلاحظ ان المسألة الافريقية تحتل المرتبة الثانية من اهتمامات السياسة الاسبانية ، وهذه الملاحظة وجيهة في حد ذاتها لكنها تترك المجال مفتوحاً لسؤال ذي بال وهو : لماذا كانت المسألة الافريقية تحتل المرتبة الثانية رغم وجود عدة عوامل قد تدفع الاسبان الى وضعها في المرتبة الاولى ؟

كما ان ملاحظة الوضعية المالية التي لا تسمح بنفقات لا ترجى من ورائها فائدة عاجلة لا تستطيع أن تمنعنا من مواجهة سؤال معين وهو : لماذا لا يجد الاسبان فائدة عاجلة من وراء تمديد احتلالهم داخل الأرض الافريقية ؟

الجواب عن ذلك ، وهو يمثل في نفس الوقت التفسير الصحيح الكامل لاكتفاء الاسبان باحتلال بعض الموانىء ، نجد عند شارل أندري جوليان نفسه وعند غيره من الذين ارخوا لهذه الحقبة . يقول شارل اندري جوليان في كتابه « تاريخ شمال افريقيا » :

« عاش الاسبان طيلة فترة الاحتلال في حالة حصار ، وكان الجنود الاسبان يعانون حياة شاقة للغاية ، فأكلهم رديء ولا يقبضون مرتباتهم بانتظام . ان حامية وهران كانت تتموّن بواسطة المور الحلفاء ، وكانت هذه الحامية كثيراً ما تنهب أغنام القبائل المجاورة . ورغم ذلك فهذه الحامية الاسبانية كانت كثيرا ما تتعرض للمجاعة » .

« وقد اثبت تحقيق رسمي اجرى في عنابة سنة ١٥٤٠ أن الجنود (الاسبان) كانوا

يريدون الدخول في الاسلام نظراً لحالة اليأس التي كانوا عليها » .

ويقول دي غرامون في وصف حالة الجنود الأسبان في المناطق الساحلية التي احلوها :

« كان الجنود يموتون جوعاً في وهران ، وفي عنابة لم يجد الجنود ما يشترون به سمكة سردين في حين أن السمك كان موجوداً بكثرة ، وفي بجاية لم يجدوا ما يأكلونه ، .. وقد أصبح الجنود يفرون من الجندية ليلتحقوا بالهند ، .. والتموين الذي يوزع على الجنود كان من الرداءة ، بحيث تسبب في مرض الجيش كله ... وتدل رسائل ووثائق رسمية على أن الحصون الأسبانية في تلك المواقع قد تخربت » .

« وكانت بجاية هي أكثر الموانىء تعرضاً للمحنة ، وهي أول ميناء استرجعه السكان من الأسبان .. فمنذ الأيام الأولى من الاحتلال حاصر القبائل المدينة حصاراً دائماً . ولم يغادر الاسبان المدينة إلا مرات قلائل ، وسرعان ما تخلوا عن محاولة الخروج لأن تلك المحاولات كانت تكلفهم غالياً . »

هذا هو التفسير الصحيح الكامل . انه يتمثل في عنف المقاومة التي اصطدم بها الأسبان عندما حاولوا التوغل الى الداخل .

والعجب أن دي غرامون مثلاً بعد ان يسجل هذه الشهادات التي تؤكد ما نقول ، يحاول أن يرفع عدم مواصلة الأسبان تسربهم الى الداخل الى محض اختيارهم فهو يقول :

« ان حكومة اسبانيا التي كانت مشغولة بشؤون اخرى لم تواصل انتصاراتها . ، وكانت النتيجة التي لم تكن متوقعة لهذا التخلي هي استقرار القوة التركية على الضفة الافريقية من البحر الأبيض المتوسط . » ونفس التناقض نلاحظ عند شارل أندري جوليان في شكل آخر .

في حين انه كان من الأسهل تسمية الأمور بأسمائها . ويقول « بول روف » في كتابه « السيطرة الأسبانية على وهران » .

« نعرف أسماء عائلات كبيرة مثل أولاد عبد الله ، وأولاد موسى ، وأولاد براهن أو براهيم ، وعائلة عبد الرحمن بن أسرور ، فهذه العائلات من النبلاء كانت تشتمل على

عدد كبير من الرعايا والخدم ، وكانت هذه العائلات الحليفة ، تزود سكان وهران بالمواد الغذائية ، وبالمواشي وبالفحم لكن الاعتماد عليها غير ممكن، فقد كانت المواد التي تحتاجها الحامية أو حتى السكان المدينون (الأسبان) تستورد كلها تقريباً من أسبانيا » . (ص ١٥ و ١٦) .

ويقول المؤلف نفسه في مكان آخر من نفس الكتاب « وبما أن السلم لم تكن أبداً متينة ، والملك (أي حليف الاسبان ، الجزائري) لم يَفِ بالتزاماته بكيفية انتظامية ، وبما انه لم يكن في الامكان الاعتماد على المعونين العرب ، ولا على المحاصيل غير المنتظمة ، فقد كانت اسبانيا هي التي تواجه وتدفع حاجات المستعمرة ورسائل الحكام (الأسبان) مليئة بالمطالب المتعلقة بهذا الموضوع » . (ص — ٢٩) .

ان هذه الشهادة واضحة في تسجيل عنف وعمق المقاومة الشعبية التي اصطدم بها الأسبان في الجزائر ، وقد استمرت هذه المقاومة الشعبية التلقائية أزمنة طويلة بالرغم من أنها لم تجد من ينظمها ، بل كان الامراء والملوك يستغلون هذه المقاومة في خدمة مآربهم الخاصة . ولهذا لم تسفر هذه المقاومة عن نتيجة حاسمة ، الا يوم صمم باي الغرب ، بعد ذلك بأجيال عديدة ، على قذف الأسبان الى البحر ، وبعد أن فقد الأسبان تعاون بعض العملاء في المغرب العربي .

* * *

ان التاريخ يسجل بوضوح عنف العامل الديني في تصرفات الأسبان ، وقد كان رد الفعل الطبيعي للاسبان بعد انتصارهم على المسلمين في شبه الجزيرة هو مواصلة الغزو داخل تراب شمال افريقيا والقيام بحركة مد حقيقي داخل المغرب العربي .

ولا شك ان الأسبان كانت توجد عندهم هذه النية ، وانما ردهم عنها مقاومة الجزائريين وليس أي اعتبار آخر .

أما استقرار الاتراك في السواحل الجزائرية فلم يكن نتيجة لتخلي الأسبان عن مواصلة الزحف داخل الجزائر ، خلافاً لما يقوله دي غرامون وجوليان ، بل كان نتيجة لمحاولة

الأسبان التسرب الى الداخل .

لان الجزائريين في مقاوماتهم العنيفة للاسبان فضلوا الاستعانة بالاتراك لسد الطريق في وجه التسرب الأسباني .

* * *

هذا التفسير يعترف به فيكتور بيكي في كتابه حضارات شمال افريقيـــا فهو يقول ص ٢٠٥ ما يلي :

« ... ولعلهم لم يكونوا (أي العثمانيون) يفكرون في الاستيلاء على الممالك البربرية ، لو أن جرأة قراصنتهم لم تقدهم الى ذلك ، ولولا ان الظروف خدمت هؤلاء القراصنـــة الذين تمكنوا من الاستيلاء على بلد شاسع اشتهر بقوتـــه في القديم . ذلك ان الفوضى التي طبعت الممالك البربرية الكبرى ، حكمت على تلك البلاد بالخنـــوع . ومن المؤكد أن القوات المسيحية وخصوصاً أسبانيا كانت ستستقر نهائياً في تلك السواحل التي كانت تطمع فيها من زمان بعيد لولا أنها اصطدمت بالقراصنة الأتراك » . فما يقوله بيـــكي واضح في تأكيد ما قدمناه ، وكل ما هناك هو أن فيكتور بيكي أغفل العنصر الشعبي في تفسير فشل محاولات الأسبان ، ذلـــك ان الأتراك لم يكونوا ليستقروا بالجزائر لولا تأييد السكان الجزائريين لهم وترحيبهم بهم ، مدفوعين الى ذلك بدافع العامل الديني المشترك الذي كان حينذاك من القوة بحيث غطى مؤقتاً على مساوىء الحكم التركي .

على ان القوات المسيحية لم تنقطع طيلة العهد التركي عن التفكير في الاستيلاء على بلاد المغرب العربي، وعلى هذا الأساس يعد الاحتلال الفرنسي بعد ذلك بثلاثة قرون استمراراً للمحاولات الاسبانية ثم الفرنسية الفاشلة كما يعترف بذلك بيكي عندما يقول :

« ان السيطرة التركية ستؤخر بثلاثة قرون فتح بلاد البربر في وجـــه التجارة (أي الغربية) » .

عروج وخير الدين

قرر محمد الفاتح بعد الاستيلاء على بيزنطة ، أن يضم تحت سلطنته جزر بحر ايجه التي

كانت بأيدي المسيحيين والتي كان يخشى أن تستعمل لعرقلة تحركات أساطيله .

ومن بين الجزر التي استولى عليها الأتراك في حملتهم ببحر إيجـــه ، جزيرة مدلي في سنة ١٤٥٧ م. ولكي يثبت قدم الأتراك في تلك المنطقة ، أمر السلطان العثماني طائفـة من جنـــده بأن تستقر نهائياً في جزيرة مدلي . وعندما اعترض الجنود بأنهم لا يمكن أن يستقروا هناك بدون زواج ، أذن لهم في التزوج من المسيحيات .

من بين هؤلاء الجنود كان يوجد جندي اسمه يعقوب وهو شاب من الرُّوميلي .

وتذكر الجندي يعقوب أن مهنته قبل الدخول في الجندية كانت تتمثل في صنع أواني الخزف . فاستأنف هذه المهنة ، وأثناء مباشرته لها تعرف على أيم مسيحية تدعى كاتالينا فتزوجها وكان له منهـــا أبناء أربع هم : الياس وإسحاق وعروج والخضر . كبر الأولاد الأربع على شاطىء البحر ، فتدربوا على ألعابـــه ولا شك أنهم كانوا يمارسون ألعاب القرصنة التي كانت تمثل الشكل الشائع من أشكال البطولة في منطقة يحيط بهـــا البحر من كل ناحية .

ولمع الخضر بين رفاقه واشتهر بحب البحر وبدأ منذ الصغر يتوق الى المغامرات ، كما كان يظهر ذلك من خلال نهمه الى استماع أقاصيص الحرب ، وحكايات المعارك التي تدور بين القراصنة وسط البحار ، ولم يكن عروج – وهو أكبر منه– يقل عنه تعلقاً بأحاديث المغامرات وحكايات القرصنة .

* * *

ازدهرت صناعة يعقوب الخزفية ، فرأى ان يتوسع فيها بشراء سفينة تحمل الأواني التي يصنعها إلى الجزر القريبة من جزيرة مدلي ، وأسند مهمة قيادة السفينة إلى اثنين من أبنائه ، هما عروج والياس ، وكلف الخضر واسحاق بالتفرغ لصناعة الخزف ، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذاً للحكمة القديمة التي تعلمها في الجيش والقائلة بوجوب الجمع بين الاندفاع والتروي ، ولما كان كل من عروج والخضر قد اشتهروا بالاندفاع ، فقـــد فصل بينهما ووضع بجنب كل منهما أخاه الذي اشتهر بالتروي ، (وعندمـــا لمع اسم الأخوين

اشتهر الخضر باسم خير الدين) واستمر الاخوة يعملون حسب النظام الذي خطه أبوهم : عروج والياس يتوليان قيادة السفينة التي تحمل البضاعة إلى الشواطىء القريبة ، بينما يتفرغ خير الدين واسحاق لصنع الفخار .

ومع مرور الأيام ازدهرت صناعة أبنـاء يعقوب ، وراجت بضاعتهم مما أثار الغيرة منهم .

وذات يوم رأى خير الدين السفينة وقد عادت في حـالة يرثى لها كما شاهد أثار تحطيم البضاعة ، أما أخواه فقد كانا مثخنين بالجروح : لقد تعرضا لهجوم .

وكان عروج يغـلي من الغضب وأقسم أن لا يقر له قرار إلا يوم ينتقم من أعدائه ، وبمجرد ما انتهى عروج من اصلاح سفينته ركب البحر صحبـة الياس ورفاق له آخرين واشتبك مع أعدائه في معركتين انتصر في كليهما ، وهـدأ غضب عروج بما ذاقه من طعم الانتصار ، لكن حب المغامرة ازداد عنده قوة بما تحصل عليه من غنائم .

وفي مرة ثالثة واجه عروج عدداً أقوى من الاعـداء تمكنوا من قتل أخيه الياس ، وجرح عروج الذي وقع في الأسر وبيع في جزيرة رودس عبداً لاثنين من عظماء المدينة .

أثر هذا النبأ في قلب خير الدين تأثيراً بالغاً ، وقرر أن يجمع بأسرع ما يمكن قدراً من المال يستطيع به أن يشتري حرية أخيه .

وجمع بالفعل مبلغاً هاماً من المال ، وكلف تاجراً من الافرنج بدفع المبلغ الى مالـكي أخيه واستخلاصه منهما . ولئن كان أحد المالكين قد أظهر استعداداً وتفهماً لعتقـه في مقابل ، فان المالك الآخر كابر في الأمر ، واشترى النصف الآخر من صـاحبه ، وأصبح عروج ملكاً لشخص واحـد فقط ، وكان هذا المالك يطمع أن يستخلص من أخيه مبلغاً من المال أهم وأضخم ، ولذلك كبله في القيد وقذف به في ظلمات السجن ، ثم عينه مع الأسرى المكلفين بتجذيف سفينة كانت تقل جمعاً من الأسرى المسلمين افتداهم قرقود أخو السلطان سليم الأول ، واغتنم عروج فرصة قيام رياح عاتية ففر من السفينة ، واستقر

في مدينة اضالية حيث تعرف على رجل اسمه « علي رايس » له جفن فجعله رفيقاً له ، وذهب معه الى مصر ، حيث أسندت لهم مهمة قيادة مراكب بحرية مخصصة لنقل الخشب اللازم لصنع السفن، لكن اصطدم بقراصنة جنوة الذين أحرقوا مراكبه، فعاد الى اضالية حيث استقبله قرقود خان وأعطاه مركباً .

وفي تلك الاثناء كان خير الدين يتحين الفرصة المؤاتية لهجرة صناعة الفخار والارتماء في أحضان المغامرة ، ووجدت هذه الفرصة عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم الأول وأخيه قرقود خان ، فالتحق خير الدين بصفوف سليم الأول . وبعد ذلك التقى بأخيه في جزيرة « جربة » (تونس) . وهناك أدرك الأخوان أن بلاد المغرب تشبع نهمها إلى المغامرات ، بأكثر مما تستطيعه بلاد المشرق ، فالتحقا بتونس ووضعا أنفسهما تحت تصرف السلطان محمد الحفصي .

* * *

الاتصال بمأساة الأندلس

في تونس استطاع عروج وخير الدين أن يتعرفا على مظهر من المظاهر الفاجعة التي خلفها ضياع الأندلس : جموع المسلمين الفارين من شبه الجزيرة بأنفسهم ودينهم ، وما ينقلونه لأبناء المغرب من مآسي وفواجع ، وفي هذا الصدد يقول أكرم رشيد في كتابه عن خير الدين انه التقى ذات ليلة بفتاة جاءت من ضواحي غرناطة ، روت له كيف هجم عليهم الاسبان ، وكيف ذبحوا أباها وقتلوا الصغار ، وكيف نجت هي بأعجوبة بسبب أمها التي حملتها إلى أقرب شاطىء الخ ... وليس المهم أن تكون جزئيات هذه الحكاية صحيحة ، ولكن المهم هو أنها تكشف عن شيء ممكن حدوثه، بل الغريب أن لا يكون قد حدث ، فالفارون من الأندلس إلى بلاد المغرب العربي في ذلك العهد كثر لا يحصون عداً ، وكل منهم يحمل معه حكاية مأساة وقصة فاجعة ، فليس من المستبعد أن تكون هذه الحكايات المتواردة عن الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاسبان ضد المسلمين ، قد أعانت على رسم الطريق التي اختارها عروج وخير الدين فيما بعد ، وشكلت حب المغامرة عندهما بشكل معين يتمثل في العمل على إنقاذ من بقي من المسلمين في شبه

الجزيرة ، واستخلاصهم من براثن النصارى .

وفعلاً فان الأعمال التي قام بها عروج وخير الدين في هذا الميدان أكسبتهما سمعة كبيرة، ولم يمر وقت طويل على استقرارهما بأرض المغرب العربي ، حتى أصبح اسمهما يتردد في سواحل وموانىء البحر الأبيض المتوسط ، ممزوجاً بشيء من الخوف والاعجاب. وبلغت هذه الشهرة ذروتها عندما تمكن الشقيقان من الاستيلاء على مركب ضخم كان يوجد فوقه ثلاثمائة رجل ، من بينهم أميران اسبانيان كانا في طريقهما إلى اسبانيا عائدين من نابولي ، وكانت معركة رهيبة جرح فيها عروج وخرج منها منتصراً .

ورغم أن الروايات التاريخيـــة تختلف في تقدير عدد المسلمين الذين تمكن عروج وخير الدين من انقاذهم من براثن الاسبان ، فأن أكثر الروايات اعتدالاً تقدر هذا العدد بستة آلاف ، ومن الروايات من ترتفع به إلى عشرة آلاف .

* * *

سبقت هذه السمعة عروج وخير الدين إلى غير مكان واحد من أنحاء المغرب العربي .

ولذلك فكر أبناء بجاية في الاستنجاد بهما ليعيناهم على طرد الجيش الاسباني المحتل ، وكان ذلك في سنة ١٥١٢ م. التحق عروج وخير الدين بنواحي بجاية واستقرا قريباً منها ليحصلا على المعلومات الكافية التي تمكنهما من اعداد خطة محكمة لطرد الاسبان .

وعندما اقترب عروج وخير الدين من بجاية ظهرت أمامهما خمس عشرة باخرة حربيـة اسبانية فتظاهر خير الدين بالفرار فأسرعت المراكب الاسبانية وراءه تريد اللحاق بـه . وعندما ابتعد خير الدين عن الميناء وتوغل في البحر ، حـدد من سرعة مراكبه الى ان ادركته الأسبانية التي لم تتمكن الا من توجيه الطلقات الاولى من مدفعيتهـا : ذلك ان عروج وخير الدين لم يتركا لها الفرصة الكافية لتوجيه الموجة الثانيـة من الطلقات : فقد تمكن عروج من اغراق باخرة من بواخر العدو ، في الوقت الذي كان فيه خير الدين يحتل باخرة أخرى .. وسقط في يده بقية البواخر وسادها الفزع وعادت مسرعة الى بجاية .

هنا تقول احدى الروايات التاريخية ، وهي من مصدر تركي – ان خير الدين وعروج

اختلفا في الخطة التي يجب اتباعها بعد ذلك . فقد كان خير الدين يرى التوقف عند هـذا الحد ، والاكتفاء ببث الهلع في صفوف الاسبان ، وتحين فرصة اخرى لطردهم نهائياً من بجاية ، بينما كان يرى عروج ضرورة مواصلة المعركة الى مداها . وواصلها بالفعل ، لكنه — أي عروج — عندما اقترب من مدينة بجاية أصيب من ذراعه برميـــة وجهت له من أعلى الحصن الذي أراد احتلاله ، فأرسل له خـــير الدين جمعاً من رجاله أتوا به فاقـــد الادراك . وعندما شاهده الأطباء حكموا بقطع ذراعه ، وقطعوها بالفعل .

تمكن عروج وخير الدين من بناء خمسة مراكب خلال العامين اللذين انقضيا على هزيمة بجاية وكانا يفكران في هذه الآونة في ايجاد مركز تكون لهما السيادة فيه، لانهما استشعرا ان سلطان تونس بدأ يضيق ذرعاً بشهرتهما التي خشي منها ان تهدد سلطانـــه ، مما حمل خير الدين على التفكير في خوض معركة جديدة من اجل استرجاع احدى مدن الساحل تكون فيها السيادة خالصة له ولأخيه ، ووقع الاختيار على مدينة جيجل التي كانت تحت نير أهل جينوة الايطاليين .

وقد استخلص خير الدين العبرة من فشل هجومه على بجاية ، فأعد لهذا الهجوم عدته واتخذ احتياطه فراسل أعيان مدينة جيجل وطلب منهم أن يكونوا على استعداد لاعانته عندما يهاجم الحصن . وتناقل الأعيان ومسؤولو القبائل قرب جيجل هذا النبأ واستعدوا لخوض معركة فاصلة ضد الاجنبي المحتل .

وتقدم خير الدين في اليوم المعين على رأس فرقة تضخمت على الأخص بعرب الجزائر ، وما كادت هذه الفرق تقترب حتى انسحب الحاكم الأجنبي ، مـــا شأن دي فانتيرا الى الحصن واستعد لمواجهة الحصار ، ونصب مدفعيته لرد الهجوم ، لكن الفرق الجزائريـــة التي هبت من كل ناحية لاعانة خير الدين جعلت دي فانتـــيرا ييأس من امكانية الثبات في وجه هذا الهجوم : وفعلاً فلم يمر يومان على بدء الحصار حتى دخلت الفرق على رأسهـــا خير الدين الى مدينة جيجل .

ويبدو حسب الرواية التركية أن عروج لم يتعظ من فشل الهجوم الأول على بجـــاية ، فطالب بالهجوم عاجلاً عليها مرة ثانية فور الدخول الى جيجـــل وبعد مبايعة قبيلة كنامة

له أميراً عليها ، يحدوه في ذلك دافع الانتقام من الفشل السابق ويقال ان خير الدين نزل عند رغبة أخيه لأنه كان أيضاً يرغب في مسح عـار الهزيمة السابقة ، من جهة ، ولأنه من جهة ثانية كان مجبراً على ذلك لتشغيل الجماهير التي أيدته والتي كانت تطالب بمزيـد من المعارك لتطهير الأرض من الاجانب المسيحيين .

وسار عروج على رأس عشرين الف من كتامة إلى بجاية وحاصرها ، لكنه لم يستطع فتحها ، وكان ذلـك في شهر أوت ١٥١٤ م . وفي ربيع ١٥١٥ أعاد عليها الهجوم مرة ثالثة مستعيناً بوحدات من أسطوله البحري سارت في خط موازٍ لمسير الجيش البري ، عن طريق الوادي الكبير ، أي القسم الصالح للملاحة منه ، وأمده في هذه المرة أمـير قلعة بني عباس عبد العزيز الحفصي وأحمد بن القاضي الملقب «بفطوش» الذي كان قبل ذلك قاضياً ببجاية ، ثم أسس في سنة ١٥١٥ م. بجبل « كوكو » من جبال زواوة .

ودام حصار بجاية ثلاثة أشهر ،وتقول رواية تركية انه دام أربعة وعشرين يوماً فقط ، ونحن نرجح الرواية الأولى لما سنراه بعد .

وفي هذه المدة فرغ البارود على المسلمين فوجهوا رسلاً إلى سلطان تونس يطلبون اعانة ، لكن سلطان تونس – حسب الرواية التركية – رفض إعانة خير الدين وأخيه فقـد بدأ يتضايق من اتساع نطاق شهرتهما ، وخشي ان هما استوليا على بجاية بعـد جيجل أن يدفعهما ذلك إلى التفكير في الاستيلاء على تونس ، وليس من المستغرب أن يحسب سلطان تونس هذا الحساب بناء على النزعات السابقة بين مناطق الشرق الجزائري وتونس ، بـل ان سلطان تونس رآها فرصة سانحة للتخلص من خير الدين وأخيه عروج ، وظن انهـا النهاية بالنسبة لهما . وبلغ هذا النبأ الجموع التي كانت تحاصر بجاية ، فأثر في معنوياتهـا وحدث في الوقت نفسه ان وجه الاسبان مدداً قوياً لفك الحصار عن حاميتهم ، فلم يجد خير الدين بدا من رفع الحصار ، لكن ماء الواد الكبير كان قد جف عما كان عليه قبـلا نظرا لنقص الامطار ، فلم يتمكن من استصحاب سفنه ، فأحرقها ، وعاد خير الدين الى حلق الواد في تونس بينما استقر عروج في مدينة جيجل . وقد رجحنا ان يكون الحصار على بجاية قد دام هذه المرة ثلاثة أشهر ، لأن كل الروايات تجمع على ان ماء النهر قد جف بالنسبة لما كان عليه قبلا ، بحيث لم يتمكن خير الدين من استصحاب سفنه فأحرقهـا ،

ويبدو ان مدة اربعة وعشرين يوماً غير كافية لأن تخـــف فيها مياه النهر بهذا القدر الكبير .

بعد ان رجع عروج الى مدينة جيجل ارسل له السلطان سليم الاول اربـــع عشرة باخرة مشحونة بالبحريين ، فأخذ عروج يهاجم المراكب في سواحل الاندلس وايطاليـا التابعة لدولة اسبانيا . ولم تمض مدة يسيرة حتى اصبحت قوافـــل كثيرة من مراكب الاسبانيين والايطاليين تحت قبضة عروج يعزز بها اسطوله وهيمنته على قسم من حوض البحر الابيض المتوسط .

وشرع عروج يفكر في الذهاب الى مصر واستلامهـــا من ايدي المماليك ، لكن استنفاراً تلقاه من اهل مدينـــة الجزائر الذين استغاثوه على الاسبانيـــين جعله يغير تفكيره .

ويمكن القول بأن ذلك كان بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر وفي تاريـــخ عروج وخير الدين .

الباب الثاني

الاتراك في الجزائر

- مدينة الجزائر .
- فشل أول هجوم اسباني على مدينة الجزائر .
- التوجه الى تلمسان .
- مقتل عروج .
- ستراتيجية خير الدين .
- سقوط برج الفنار .
- المسيرة إلى تونس .
- تدخل شارلكان في تونس .

الاتراك في مدينة الجزائر

كانت مدينة الجزائر تدعى في عهد البربر باسم « أرجيل » ومعناها المكان المغطي او العميق ، وقد عرفت في عهد اليونان باسم يوناني هو « اقسيون » وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية « ايقومي » وهي تعني « عشرين » وقد اطلق عليها اليونانيون هذا الاسم بسبب الجزر والصخور العشرين التي كانت موجودة عند مدخلها .

وتقول اسطورة يونانية ان اسم « اقسيون » مرجعه الى ان عشرين من رفاق هرقل انفصلوا عنه عندما اراد ان يمتطي البحر عائداً الى اليونان ، واستقروا في هذه النطقة التي ابحر منها هرقل ، وهي مكان مدينة الجزائر ، ولما لم ينجح أي احد منهم في اقناع الآخرين باطلاق اسمه على هذا المكان سموه برقم عشرين الذي هو عددهم .

وبعد ذلك حول الرومان هذا الاسم الى « اقسيوم » حسبما تقتضيه اللهجة اللاتينية .

وفي هذا المكان استقرت خلال القرن الثامن الميلادي قبيلة مزغنة المتفرعة عن صنهاجة التي كانت تحتل المناطق البحرية الممتدة من القبائل الكبرى الى مصب نهر الشلف .

وتطور العمران شيئاً فشيئاً بمدينة اقسيوم التي اصبحت بعد استيطان قبيلة مزغنة بها تدعى « جزائر بني مزغنة » وتطورت التسمية بعد ذلك الى أن اصبحت تدعى « الجزائر » .

ومع تطور العمران بمدينة الجزائر اصبحت لها علاقات تجارية مع مختلف النقط الساحلية القريبة الى اسبانيا .

وقد بدأت مدينة الجزائر تشتهر في عهد بلقين بن زيري الذي عمل على تجميلها فبنى بها عدة مبان ذات هندسة جميلة نجد وصفها عند المؤرخ « البكري » الذي اعجب بها أي اعجاب .

وقد تردد اسم الجزائر مع الاحداث والتطورات السياسية التي توالت على الجزائر في عهود مختلفة ، كما يستطيع أن يتبين القارىء ذلك من مطالعة الجزئين السابقين .

* * *

لسنا في حاجة الى التفكير بما سلف في الجزء الثاني من تقهقر الممالك البربرية مما مكن الاجانب من الاستيلاء على بعض النقاط الساحلية ، وجعل الاسبان يطمعون في القيام بحركة مد حقيقية الى داخل بلاد المغرب . ففي تلك الفترة كان المغرب الاوسط (الجزائر) قد خرج عن طاعة ملوك تلمسان فلم يبق تحت ايديهم الا العاصمة تلمسان ، وشطر الجزائر الغربي ، على ان هذا الذي تبقى من مملكة تلمسان قد تسرب اليه الخلل واصبح عرضة للمطامع الاجنبية .

اما باقي القطر الجزائري فقد تجزأ الى دويلات وامارات صغيرة ، وأصبح عبارة عن مجموعات من الدويلات المستقلة لا تفصل بينها حدود متميزة قارة ، ولا تربط بينها وحدة نظامية تجعل منها قوة سياسية وعسكرية ذات بال .

وقد لعب انتشار الطرق الصوفية وما حازوه من أراض أصبحت تحت نوع من الحكم السياسي المستقل، دوراً كبيراً في التمهيد لهذه التجربة فقد تجمعت واحات فيقيق و كونت دولة مستقلة ، ودبرت قبائل الونشريس أمرها كما أرادت ، وخضعت أراضي زواوة لملك كوكو (وهي قرية تبعد ٨ كيلومترات شرقي ميشلي) وبسط شيخ قسنطينة الحفصي نفوذه على المنطقة الواقعة بين عنابة والقل ، وأصبح الزاب والحضنة حصناً للذواودة ، وتأسست بتقرت مملكة بسطت سلطانها على وادي ريغ .

أما الموانىء فأصبحت نقط انطلاق للغزاة يهجمون منها على المراكز المسيحية والاسبانية على الأخص بعد ضياع الأندلس : فلم يكن مقصد القراصنة الذين استقروا في الجزائر وتونس وبنزرت ووهران وحنينه هو السلب والنهب ، ولكن هو الجهاد الديني، فمدينة بجاية مثلاً كانت تطلب فدية مقابل اطلاق سراح النصارى، يستحيل على المأسورين أو على عائلاتهم أداؤها نظراً لارتفاعها الفاحش .

وقد تغير ميزان القوى بعض الشيء في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد سلسلة

الانتصارات التي احرز عليها الاسبان عندما احتلوا مرسي الكبير في ١٥٠٥م . ثم وهران سنة ١٥٠٩ ثم بجاية في جانفي ١٥١٠ م وطرابلس في جويليه ١٥١٠ ، أما الموانىء التي لم يحتلها الأسبان مثل تنس وشرشال ودلس ومستغانم ، فان سلطانها قد عرضت على الأسبان أن تدفع لهم ضريبة اتقاء لشرهم .

أما مدينة الجزائر فقد سلمت الى الاسبان أحد جزرها الواقعة في مدخل الميناء ، وفي هذه الجزيرة بنى « بيدرونافارو » أحد القراصنة الأسبان حصناً نصب به المدافع الموجهة أفواهها الى المدينة الواقعة على بعد ثلاثمائة متر ، وكان هذا الحصن مصدر اعتداءات مستمرة ضد سكان المدينة ، كما كان بمثابة سيف ديموقليس يتهددها في كل آونة .

ولتفسير قصة تسليم هذه الجزيرة إلى بيدرونافارو يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء إلى سنة ١٤٣٨ م ، عندما اغتال سكان الجزائر ملكهم الجديد ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية الثعالبة الذين كانوا يحتلون القسم الاكبر من سهول المتيجة . ففي ذلك الحين أقامت مدينة الجزائر نوعاً من الادارة البلدية ، أو نظام الجماعة ، وكان أول رئيس جماعة باشر تسيير شؤون المدينة هو الشيخ عبد الرحمن الثعالبي .

لكن بعد موت الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ، انتقلت السلطة من الثعالبية الى منافسيهم أولاد سالم ، وقد كانت ادارة أولاد سالم شديدة الوطأة على سكان مدينة الجزائر الى درجة أنهم فكروا في استجلاب الأسبان على أمل أن يقف الاسبان عند حدود الجزيرة ، فيتقوا بذلك شرهم ويتجنبوا احتلالهم للمدينة ، وعلى أمل أن يكون ذلك كافياً في تخفيف وطأة حكم أولاد سالم المتمثل في الشيخ سالم التومي الذي كان يحكم مدينة الجزائر حكماً استبدادياً قاسياً .

لكن هذا الأمل لم يتحقق : فقد استمر الشيخ سالم التومي يقبض على المدينة بيد من حديد . بل لقد انضاف الى حكمه القاسي ، تهديد مستمر للمدينة من طرف الحصن الاسباني المواجه للميناء .

حينذاك فكر سكان الجزائر في حيلة للتخلص من الشيخ سالم التومي فراسلوا عروج يستنجدونه ويعلنون له عزمهم على تسليمه قيادة الجهاد ، لكن سالم التومي عارضهم في

ذلك ، لأنه كان يعرف أن ذلك يعني نهاية حكمه ، إلا أنه اضطر الى القبول في نهاية الأمر تحت ضغط الرأي العام الذي كان يطالب بطرد المسيحيين وتخليص المدينة من تهديد الاسبان .

* * *

كان عروج في مدينة جيجل عندما بلغه طلب سكان الجزائر ؛ آنذاك تحول بتفكيره عن احتلال مصر ، ورأى أن الفرصة سنحت وأن الظروف تهيأت لاقامة حكم جديد في الجزائر يكون خالصاً له ولأخيه . فراسل في الحين أخاه خير الدين الذي كان يتجول في البحار على رأس اسطوله الذي يشتمل على ثمانية عشر جفناً وثلاث بواخر حربية ، وطلب منه أن يلحق به إلى مدينة الجزائر ، وتوجه عروج عن طريق البر مع ثمانمائة تركي ، وراح يجند في طريقه القبائل الجزائرية التي أمده بها عبد العزيز وأحمد بن القاضي ، وكان عدد هؤلاء الجنود حوالي الخمسة آلاف حسبما أكده دي غرامون .

توجه عروج الى ميناء شرشال أولاً ، وكان بها يومئذ تركي اسمه قارة حسن يشتغل بالقرصنة مع طائفة من مهاجري مسلمي الأندلس ، وعندما سمع قارة حسن بمسيرة عروج قصد اليه وعرض عليه الاعتراف بسلطنته ، لكن عروج لم يكن يتحمل وجود منافس إلى جانبه فقطع رأسه .

وبدأت خطة عروج تتضح شيئاً فشيئاً : انه يود التخلص من كل من يشك في مقدرته على الوقوف في وجهه كما يؤكد ذلك تخلصه من قارة حسن بعد تخلصه من سلطان كوكو ونجاحه في الحيلولة دون أن تتفق ضده كلمة سلطان كوكو مع كلمة سلطان بني عباس ، وكما تؤكد ذلك الحوادث التي سنوردها فيما بعد .

* * *

عندما دخل عروج الى الجزائر استقبله الشيخ سالم التومي وسكان المدينة استقبال الفاتحين ، وسارع عروج بنصب عدد من المدافع تجاه المعقل الاسباني ، وبعث إلى قائد الحامية الاسبانية يأمره بالاستسلام ، لكن القائد الاسباني رفض الاستسلام ، فأطلق

عروج نيران مدفعيته على المعقل الاسباني ، إلا أن ضعف مدفعيته لم تمكنه من تحقيق الانتصار المنتظر .

وقد أدى هذا الفشل غير المتوقع إلى النيل من سمعة عروج والأتراك، فسقطت هيبتهم في أعين سكان الجزائر ، يضاف إلى ذلك أن سكان ميناء الجزائر بدأوا يتضجرون من تصرفات الأتراك الذين كانوا يعاملون الجزائريين معاملة فضة . وبدأت تظهر بوادر التمرد ضد عروج والجند التركي ، وكاد أن يتحقق الحلف بين الثعالبة وبين الشيخ سالم التومي وبين سكان الجزائر وبين المعقل الأسباني للتخلص من الأتراك . إلا أن عروج استروح رياح التمرد ، فبادر بخنقه في المهد ، وذهب بنفسه الى منزل سالم التومي وقتله بيده في الحمام حيث وجده ، وخرج على جنده وأعلن نفسه سلطاناً على الجزائر .

وانتشر الجنود الأتراك في المدينة يعيثون فساداً ، كما هجموا على الأرياض والأحواز المحيطة بالمدينة ، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج ، ففكروا في الاستنجاد بالأسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر ؛ وفي ذلك الحين ذهب ابن الأمير المقتول إلى اسبانيا يستنجدها ضد عروج الذي يعتبره مغتصباً للعرش وأيد سكان الجزائر في المطلب كل من شيخ تنس وحاكم وهران . وفي هذه الأثناء كان عروج يوالي قصف معقل الجزيرة بمدفعيته ، لكن من غير أن يجبره على الاستسلام ، لأن المعقل رغم انقطاع التموين عنه من مدينة الجزائر ، كان يتزود من جزر الباليار .

فشل أول هجوم اسباني على مدينة الجزائر

وفي سبتمبر ١٥١٦ قرر الكاردينال كسيماناس ارسال قوة بحرية إلى ميناء الجزائر ، مؤلفة من خمسة وثلاثين مركباً تحمل ثلاثة آلاف رجل بقيادة دييغودي فيرا . ونزل جنود اسبانيا يوم ٣٠ ديسمبر بناحية باب الواد شرقي وادي مغاسل قريباً من المكان الذي بني فيه حصن باب عزون بعد ذلك .

وقرر الجنرال نيقولا دي كان أن يقذف بكامل جنده في المعركة ، واحتل خطاً هجومياً طويلاً يمتد من الساحل إلى المكان الذي ارتفع فوقه بعد ذلك حصن القصبة .

ولم يرد عروج أن يقابلهم في اليوم الأول ، ولم يمر يومان على نزول الأسبان حتى تغير مجرى الريح إلى الناحية الشرقيـــة ، فأصبح أسطول اسبانيا في خطر ، فلم يجد دييغو دي فيرا بداً من اصدار الأمر بالعودة الى الأسطول. لكن ما كاد الأميرال الاسباني يعطي الأمر بالانسحاب الى الأسطول ، حتى فتح عروج أبواب المدينة وخرج منها مهاجماً الاسبان . وفي نفس الوقت قرر أعراب بني سالم الذين كان الاسبان معتمدين على إعانتهم ، قرروا تعزيز صف عروج فهاجموا الأسبان بدورهم وفتكوا بهم ، ولم ينج من الاسبان إلا نحو الألف جندي ، أما المراكب البحرية فقد أتلفت الزوبعة نصفها .

ويبدو ان عدة عوامل اجتمعت على فشل هـــذا الهجوم الاسباني ، وان الفضل في انتصار عروج لا يرجع فقط الى خبرته الحربية وحنكته كما تصور ذلك الرواية التركيـة ذلك أن الاسبان كانوا يعتمدون على اعانة أعراب سالم داخل مدينـة الجزائر ، وعلى إعانة شيخ تنس مولاي أبو عبد الله الذي كان قـد اتصل بحاكم وهران الأسباني وقطع له عهداً بأن يمده باعانة فعالة . لكن لا أعراب سالم ولا شيخ تنس بذلوا للاسبان الاعانـة التي كانوا ينتظرونها . ومن هنا سهل على عروج ان يلحق الهزيمة بالاسبان .

أما خير الدين فقد كان بمدينة جيجل عندما بلغه نبأ هذا الانتصار ، فسار على رأس عشرة مراكب إلى مدينة الجزائر ، وانضمت قواتـه الى أخيه ، وعزما على مهاجمة تنس انتقاماً من شيخها الذي وعد باعانة الاسبان .

وفعلاً ســار عروج في جوان ١٥١٧ على رأس الف وخمسمائـــة جندي من الاتراك ومهاجري غرناطة وبلنسية وعدد هام من الجنود البرابرة ، وترك اخـــاه خير الدين في مدينة الجزائر .

واستولى عروج على المدية وملیانة ، وبينما استولى أخوه خير الدين على دللس ونواحيها. وبالقرب من البليدة لقي عروج شيخ تنس على رأس قوات كبيرة فنشبت بينهما معركة حامية الوطيس كان النصر فيها إلى جانب عروج الذي راح يتتبع فلول المنهزمين إلى أن دخل وراءهم تنس .

التوجه الى تلمسان

وفي تلك الأثناء حدثت قلاقل شديدة بتلمسان حيث سجن الأمير أبو حمو الثالث ابن أخيه أبا زيان الأمير المتوفي ، واعترف أبو حمو بحماية الاسبان لبلده ، وقدم ولاءه إلى اسبانيا ، وأيدته الحامية الاسبانية بوهران ، فشكل أعيان تلمسان وفدا أرسلوه إلى عروج يستنجدونه باسم الاسلام ضد أبو حمو الثالث الذي رضي بالتحالف مع الاسبان ؛ وكان ابن أخيه ، أبو زيان قد تزعم حركة السخط ضد عمه أبو حمو ، وراسل عروج من سجنه .

وسافر عروج إلى تلمسان براً اتقاء للاسطول الاسباني وترك وراءه لحفظ خط رجعته ستمائة تركي بقلعة بني رشاد ، وقد انفتحت أمامه أبواب أمل جديدة في توسيع نطاق سلطنته ، وراودته احلام عديدة بإقامة مملكة واسعة ، وانضم اليه خلال مسيرته عدد كبير من السكان كانوا ناقمين على تحالف أبي حمو مع الاسبان .

ولما بلغ نبأ سير عروج إلى تلمسان ، التجأ أبو حمو الثالث إلى فاس ثم إلى الحامية الاسبانية بوهران بعد أن انهزمت جيوشه ، وأخرج التلمسانيون أبا زيان من السجن ونصبوه أميراً ، وعندما دخل عروج تلمسان استقبله أهلها استقبال المنقذين .

إلا أن الجند التركي أغلظ في معاملة أهل تلمسان ، وراح عروج يتصرف في تلمسان تصرف الفاتحين ، مما جعل أهل تلمسان يندمون على الاستنجاد بعروج .

فشكى أبو زيان ذلك إلى عروج ، فما كان من عروج إلا أن أمر بشنق أبي زيان على واجهة قصره ، ويقال ان عروج لم يكتف بذلك وانه أغرق في صهريج هنالك سبعين شخصاً من أسرة أبي زيان ، وأن الجنود الأتراك قتلوا نخبة من أهل المدينة .

وفرض عروج في نفس الوقت على قبائل بني عامر وبني سناسن أن يدفعوا له الضرائب حبوباً حتى يتمكن من تموين جيشه لأنه كان يتوقع حصاراً يفرضه عليه الأسبان وأبو حمو . كما أرسل إلى سلطان فاس يعرض عليه التحالف حتى يدعم موقفه ازاء الاسبان وأبي حمو . ويقول المؤرخون الاسبان ان عروج أبرم بالفعل معاهدة مع سلطان

فاس ، وأن هذا الأخير كان في الطريق إلى تلمسان على رأس جيشه لانجاد عروج لكنه اتصل بنبأ مقتل عروج في الطريق .

ويشك دى غرامون في قيمة هذه الرواية ويرى انه لم يكن من مصلحة سلطان فاس ان يعزز جانب قائد مثل عروج قد ينقلب عليه ، خصوصاً بعدما شاهد من تصرفه في الجزائر وتنس وتلمسان . ويقول دي غرامون ، اني لا أفهم سلوك هذا الحليف (سلطان فاس) الذي ترك الأتراك محاصرين من طرف الاسبان طيلة ستة أشهر بينما كان على بعد خطوات منهم .

ومن أجل هذا يستبعد دي غرامون أن تكون هناك معاهدة بين عروج وسلطان فاس ، ويقول : لعله كان هناك مشروع معاهدة عرضه عروج ورفضه سلطان فاس .

ويبدو لنا أنه يمكن تفسير سلوك سلطان فاس حتى مع القول بإبرام المعاهدة حسبما يقول المؤرخون الاسبان .

ذلك أن سلطان فاس عندما راسله عروج يعرض عليه المعاهدة ، وجد نفسه في موقف حرج : أما أن يقبل ويتخذ الموقف الذي ترفضه المعاهدة ، وبذلك يرسل قواته لتعزز عروج وتثني الاسبان عن حصار تلمسان ، وحينذاك يتعرض لخطرين : سخط الاسبان وتدعيم سلطان عروج الذي قد يتلقفه كما تلقف سلاطين آخرين كانوا حلفاء له ؛ واما أن يرفض سلطان فاس عرض عروج رفضاً صريحاً ، وحينذاك يتعرض لنقمته في حالة انتصاره على الاسبان .

وليس من المستبعد أن يكون سلطان فاس قد اتخذ موقفاً ذا وجهين لتجنب الخطرين كليهما : فتظاهر من جهة بقبول المعاهدة وباستعداده لارسال العدد إلى عروج ليأمن جانبه مؤقتاً ، وتباطأ من جهة أخرى في ارسال هذا العدد إلى أن يرى لفائدة من يكون رجحان كفة النصر فيحدد موقفه النهائي على ضوء ميزان القوى الجديد .

وحسب هذا الاستنتاج يكون سلطان فاس قد تجنب كلا الخطرين فلم يثر عليه سخط الاسبان وتخلص من عروج . ويؤكد هذا الاستنتاج ان أباحمو ، سلطان تلمسان المتحالف

مع الاسبان فكان قد استقر بفاس قبل التحاقه بوهران . وقد ارسل أبو حمو الاسبان من مدينة فاس فاذا اخذنا هذا بعين الاعتبار مع المعاهدة التي يقول المؤرخون الاسبان ان سلطان فاس عقدها مع عروج ، تبينت لنا كيفية اللعب على حبلين الذي سلكه سلطان فاس .

مقتل عروج

وفعلاً فقد حدث ما توقعه عروج من محاصرة الاسبان له فقد تمكن حاكم وهران الاسباني من اقناع حكومته بضرورة ارسال جيش قوي يعد عشرة آلاف جندي لاسترجاع مملكة تلمسان .

وقد عزز موقف حاكم وهران ومطلبه لدى حكومته ، ان استيلاء الأتراك على قلعة بني راشد ثم على تلمسان حرم الاسبان المستقرين في الساحل من التموين الذى تعودوا على جلبه من داخل البلاد . فقد كانت وهران يأتيها التموين من قلعة بني راشد التي كانت تعد من أغنى مناطق البلاد زرعاً وضرعاً .

وبدا حاكم وهران بتوجيه دون مارتان دارغوث على رأس ثلاثمائة جندي الى قلعة بني راشد ، وصحب ابو حمو هذه القوة الى قلعة بني راشد ومعه بقايا المخلصين لبني زيان وبعض السكان الذين ضجوا على سلوك الاتراك ، وفرض ابو حمو ودون مارتان دارغوث حصاراً على قلعة بني راشد . وقد قرر إسحاق ، أخو عروج ، الصمود في وجه الحصار ، واستطاع فعلاً أن يحرز على انتصارات جزئية لكنها لم تكن حاسمة . وعندما رأى انه فقد ثلثي جنده في المعركة عرض على اعدائه ان يترك لهم القلعة ، مقابل ان يتركوه يلتحق بتلمسان مصطحباً سلاحه وعتاده . وتم الاتفاق على هذا الاساس .

لكن ما كاد إسحاق يخرج من الحصن حتى هجم عليه وعلى جنده أنصار أبي حمو ، فقتلوا في جملة من قتلوا ، ضاربين بالاتفاق عرض الحائط ، إسحاق شقيق عروج واسكندر الكورصي أحد قواده الكبار ، وتم ذلك في نهاية شهر جانفيي ١٥١٨ م . (أواخر عام ٩٢٠ هـ .) .

بعد ذلك بقليل توجه حاكم وهران الاسباني الى تلمسان وأقام على حصارها ، وكان حصاراً طويلاً استمر طيلة ستة أشهر ، وعندما سقطت اسوار المدينة في ايدي الاسبان ، تحصن عروج في المشوار واستمر يناوش الاسبان على أمـــل ان يحبط هجومهم الى أن يلحق به سلطان فاس وجيشه .

ولم يرق هذا الحصار الطويل لسكان تلمسان . فهم بالاضافة الى سخطهم على الاتراك اصبحوا يرون منازلهم تتهدم تحت ضربات المدفعية الأسبانية بسبب وجود الاتراك بـين ظهرانيهم . وبدأت المؤونـة تقل من المدينة ، مما ضاعـــف سخط السكان الذين كانوا ينتظرون انتهاء هذه الحرب بفارغ صبر .

ولم يبق مع عروج إلا الجنود الأتراك ، أما الجنود الجزائريين فقد انفضوا عنه وفضلوا التضامن مع اخوانهم .

وحل يوم عيد الفطر . واغتنم السكان هذه الفرصة فطلبوا من عروج أن يأذن لهم في الدخول الى المشوار لأداء صلاة العيد . فأذن لهم في ذلك ، وما كادوا يعبرون أسوار المشوار حتى سلوا اسلحتهم الـتي كانت مخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربـــاً وتقتيـــلاً . ونشبت معركة رهيبة بـين الجانبين لكن خسائر الأتراك كانت جسيمة ولم ينج إلا عروج وقليل من صحبه اختفوا في معبر سري ، ورأى عروج انه لم تعد بـــه طاقة على مواجهة الموقف فقرر الانسحاب على أمل اللحاق بساحل البحر بأسرع مـــا يمكن حيث سيجد مراكب أخيه خير الدين الذي سيوجهها لنجدته ، فور اتصاله بالنبأ ، فخرج ليلاً حاملاً معه كنوز بني زيان ، وأخترق الخطوط الأسبانية وشرع يسير في اتجاه ناحية بني يزناسن حسب ما يؤكده المؤرخون العرب ، وهذه الرواية تؤكد انه تلقى وعداً من سلطان فاس بنجدته .

ولهذا نرجح هذه الرواية على الرواية الأخرى التي تقول انه اتجه الى عين تموشنت في الطريق الى وهران فلا يعقل ان يفر الى طريق وهران حيث الاسبان ويدع طريق فاس ، لكن القائد الاسباني علم بفراره بعد ذلك ببضع ساعات ، فارسل فرقة من الفرسان تتعقبه ، ولم تلحق الفرقة بعروج إلا مساء الغد في مكان يقع بين سيدي موسى وريودي

سالادو . وعندما وجد عروج انه لا قبل له بمواجهة كامل تلك الفرقة بمن معه من الأتراك القليلين رأى ان يعرقل تقدم الفرسان الاسبان بما يبثه في طريقهم من الكنوز التي كان قد أخذها معه . لكن ذلك لم يفده ، وهاجمته الفرقة وأجبرته على ان يلجأ الى حصن قديم ، ورفض عروض الاستسلام رغم يده المقطوعة وراح يحارب الى أن قُتِلَ مَنْ كان معه من الجنود عن آخرهم ، واستمر يقاتل بمفرده الى أن قتل ، فقطع قائد الفرقة الاسبانية رأسه وحمله معه الى وهران . ثم ارسل الاسبان رأسه الى أسبانيا . كما أخذ الاسبان ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب وسلموها الى كنيسة القديس جيروم بقرطبة ، فصنع منها رجال الدين هناك شعاراً يسمى « شارة بربروس »

* * *

ستراتيجية خير الدين :

في الوقت الذي دخل فيه ابو حمو إلى تلمسان تحت حماية الاتراك ، كان خير الدين في مدينة الجزائر يفكر في احسن طريقة ينقذ بها سلطانه ، فقد واجهته في آن واحد مصاعب عديدة لا تحصى : إذ ان هزيمة عروج ومقتله تسبب في سلسلة من الانتفاضات في جهات مختلفة ضد سلطة الاتراك ، فقد ثارت بلاد زواوة تحت امرة احمد بن القاضي ، كما ثارت تنس وشرشال بالاتراك ، واغتنم صاحب تونس هذه الفرصة فأرسل إلى خير الدين يطلب منه ان يعترف بسلطنة تونس ويخضع لها ، هذا كله يضاف الى ما كان يتوقعه خير الدين من سير الاسبان إلى مدينة الجزائر ، لانه لم يكن يشك في ان الاسبان سيسارعون إلى مدينة الجزائر للقضاء عليه بعد ان تمكنوا من القضاء على اخيه ، فما العمل ؟

بادر خير الدين إلى اخماد حركتي تنس وشرشال ؛ لكن ذلك لم يكن كافياً ، فحركة ابن القاضي في بلاد القبائل تهدد بالامتداد حتى ابواب العاصمة فتقطعه بذلك عن مؤخرته وقواعده الشرقية ، وحركة ابو حمو تهدده من الناحية الغربية كما دلت على ذلك انباء التحركات والانتفاضات التي امتدت من تلمسان الى مليانة .

بعد طويل تفكير وضع خير الدين برنامجاً محكماً لمواجهة كل هذه المشاكل والتغلب عليها ،

برنامج قرأ حساباً للوضع الداخلي من جهة وللأوضاع الخارجية من جهة اخرى . فقد رأى ان كل محاولة لاستقدام امداد من الخارج لن تفيده في هذا الوضع ما لم يركز سلطته داخل مدينة الجزائر والاحواز المحيطة بها . كما ايقن انه لا يستطيع الاعتماد طويلاً على ولاء الداخل ما لم يستمد من الخارج قوة ومدداً .

بناء على هذا الحساب ، راح خير الدين يستميل علماء الجزائر ومشائخها واعيانها وتودد اليهم ، كما راح يستثير الحمية الدينية ضد ابي حمو وضد كل الذين يثورون عليه إذ يقدمهم في صورة المتحالفين مع اعداء الاسلام الموالين للنصرانية . ولم ينس خير الدين في هذا المجال التذكير بمعاركه ضد الاسبان وما خاضه هو واخوه من اهوال لاستخلاص مسلمي الاندلس من براثن الكفر والالحاد .

وفي نفس الوقت اتخذ خير الدين قراراً يكشف عن عمق حاسته وعبقريته السياسية ، فقد قرر ان يربط مصيره بمصير الامبراطورية العثمانية ، لانه ادرك انه لا يستطيع ان يحتفظ بالجزائر ، ولا يقدر ان يبسط نفوذه على كامل المغرب الاوسط كما كان يحلم عروج ، ما لم يضع نفسه تحت سلطة الباب العالي .

وكان سليم الأول العثماني في أوج عزه آنذاك : فقد احتل مكة والمدينة واستولى على مصر والشام وأضاف الى ألقابه لقب « خادم الحرمين الشريفين » فمن أحسن من سليم الأول سنداً لخير الدين ؟

ان خير الدين كان يعرف كثرة أعدائه في المغرب الأوسط ، وكان يدرك انه لا يستطيع أن يتغلب بمفرده على الحركات العديدة التي تريد كل منها أن تستقل بالحكم وتنفرد بالسلطان ، وأن كل هذه الحركات ، رغم ما بينها من تنافر ، ستجتمع ضده ، أما حماية الباب العالي فستضمن له مزيد الهيبة ، كما تضمن له الاعانة العسكرية والمالية . ولذلك سارع خير الدين بتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان سليم الأول ولم يتردد سليم الاول في الاستجابة لطلبه ، وأمر باعطائه لقب باشا وسماه « باي لارباي » (أمير الأمراء) وأذن له في أن يضرب السكة باسمه ، وأرسل له سلاحاً وذخيرة وزوده

بالمدفعية ، كما ارسل ألفي جندي ، يضاف اليهم نحو أربعة آلاف متطوع أذن سليم الأول في اعطائهم نفس الامتيازات والحقوق التي يتمتع بها جنود الباب العالي .

وصل المدد الذي أرسله اليه الباب العالي في الوقت الذي كان فيه الاعراب يستعدون للثورة على سلطة خير الدين ، وقبل ان تصل القـــوات التي قررت اسبانيا توجيهها الى مدينة الجزائر .

وسبب تأخر وصول القوات الأسبانية الى الجزائر ، ان الأسبان كانوا يفضلون تعزيز هجومهم عن طريق البحر ، بهجوم آخر يقوده أبو حمو عن طريق الـــبر ، لذلك أمروا أبا حمو بتجهيز حملة تعينهم على استئصال الاتراك من المغرب الأوسط ، لكن أبا حمو وجد صعوبة كبيرة في تجهيز هذه الحملة ، لان أغلبية الشعب كانت تعارض فيها ، وذلك لأن الاسبان الذين كانوا يحتلون وهران ، مـا انفكوا يشنون الغارة تلو الغـــارة على القبائل المحيطة بوهران للحصول على المؤن الكافية ، فكان ذلك عامـــلاً مباشراً ، بالاضافة الى عامل العداوة الدينية التقليدية – عزز نفـــور السكان من خطط الاسبان ومن أبي حمو الموالي لهم .

ولو أن القوات الأسبانية وصلت الى مدينة الجزائر في نفس الوقت الذي قرر فيـــه سكان المدينة الانتفاض على الاتراك لما اقترن اسم خير الدين بتاريـخ الجزائر كما اقترن به الآن . لكن اتصال خير الدين بمدد سليم الاول قبل وصول القوات الاسبانية غير كل شيء ، اذ استطاع خير الدين ان يقمع تمرد سكان الجزائر في المهد ، وأن يستظهر بقوة من شأنها أن ترهب كل الذين كانت تحدثهم أنفسهم باحتلال مكانه .

وقد كان ميناء الجزائر في ذلك الحـين لا يشكل مخبأ مضمونـــاً للسفن والبواخر ، بالاضافة الى تعرضه باستمرار لتهديد الحصن الأسباني المقام فوق الجزيرة ، لذلك تعـود البحارة على ارساء سفنهم فوق رمل الشاطىء بين باب الواد ومصب واد مغاسل .

وقد تمثلت الخطة التي أعدها سكان الجزائر للتخلص من الأتراك في المفاهمة مع القبائل القاطنة بالأحواز القريبة من المدينة ، على أن يعلنوا ثورتهم في يوم سوق ، وكان من المقرر

ان تبدأ الحركة باضرام النار في الأسطول التركي . وبعد ان يضرم سكان المدينة النار في الاسطول التركي ، ينقض أعراب السهول القريبة الذين يكونون قد دخلوا الى المدينة في في هيئة متسوقين ؛ بأسلحة مخفية — ينقضون على الاتراك عندما يخرج هؤلاء لاطفاء النار المشتعلة في السفن ، ويبيدونهم عن آخرهم .

لكن خير الدين الذي كان ، كما ألمحنا لذلك ، قد عرف كيف يستميل بعض اعيان ومشايخ المدينة ، اتصل بأنباء الحركة قبل الشروع في تنفيذها، فألقى القبض على مدبري الحركة وقطع رؤوسهم وعلقها على أبواب قصره .

اما الأسطول الاسباني فلم يصل إلى ميناء الجزائر إلا في صائفة ١٥١٩(٩٢٦هـ)، وكان مؤلفاً من اربعين سفينة تحمل خمسة آلاف مقاتل نزلوا على الضفة اليسرى من واد الحراش في منتصف أوت بقيادة دون هيفودي منكاد نائب ملك صقلية، وسارع منكاد بتوجيه فرقة استقرت في مكان يقع غربي المدينة ، ومضت بضعة ايام في مناوشات صغيرة ، وفي يوم ١٨ أوت انتشرت القوات الاسبانية حتى بلغت كدية الصابون ، وهنا حدث خلاف بين منكاد ونائبه قونزا لفوما رينو : فقد كان منكاد يرى شن الهجوم في الحال من غير انتظار وصول فرق ابي حمو الذي كان الاسبان قد طلبوا اليه ان يعزز هجومهم من ناحية البر ، لكن قونزالفو مارينو كان يرى وجوب الانتظار .

فاغتنم خير الدين هذه الفرصة وارسل بعض جنوده الى ناحية البحر يوهمون الأسبان انهم قادمون لاحراق المراكب التي تصل بين الجند والاسطول ، وعندما فطن الأسبان لهؤلاء الجنود وهاجموهم لانقاذ اسطولهم ، خرج عليهم خير الدين ، حسب الخطة التي احكمها ، وفاجأهم بقواه فاحتل مركزهم واستولى على ذخائرهم واسلحتهم ، وساق جنودهم الى البحر كالأغنام ، واجبرهم على أن يعودوا الى مراكبهم ويقلعوا عن الميناء بأسرع ما يمكن ، لكن زوبعة شديدة هبت آنذاك على البحر فقذفت بست وعشرين سفينة الى الشاطىء،وراح الجزائريون والاتراك ينهبون السفن ويذبحون الاسبان ، (ويقال ان الاتراك ذبحوا حتى من استسلم من الاسبان انتقاماً من اخلال الاسبان بالاتفاق الذي

أبرموه مع اسحاق شقيق خير الدين في معركة قلعة بني راشد) .

* * *

استطاع خير الدين بهذا الانتصار الذي احرزه ضـــد الاسبان أن ينقذ سلطانه من الانهيار .

لكنه ما كاد يفرغ من المعركة مع الاسبان حتى اخطر لمواجهة معركة اخرى مع سلطان تونس الذي ما انفك يعتبر ان خير الدين — مثل أخيه — من مواليـــه ، وانه مدين له بالطاعة والولاء .

وبناء على ذلك طلب سلطان تونس من أحمد بن القاضي أن يجمع قواتـــه ويستعد للانضمام الى القوات القادمة من تونس لانه كان يخشى من انتقـــام خير الدين ، الا ان ابن القاضي تظاهر بالولاء لخير الدين ، ووثق خير الدين في أحمد بن القاضي وضمـه الى جيشه قبل أن يشتبك مع القوات القادمة من تونس . وما كادت المعركة تبتدىء حتى انقلب أحمد ابن القاضي وجنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين ، فانهزم وتعرض الاتراك لمقتلة رهيبة لم ينج منها الا خير الدين وقليل من قواته .

هذه الهزيمة قطعت على خير الدين خط الرجعة الى مدينـة الجزائر ، فلجأ الى مدينة جيجل ، وأرسل الى بواخره الحربية وسفنه ان توافيه بجيجل ، بينما واصل احمد بن القاضي سيره الى مدينة الجزائر عبر المتيجة ، وفي نفس الوقت ثارت شرشال وتنس من جديد .

في جيجل تفرغ خير الدين لاعادة تنظيم قوته العسكرية ، وعاد الى القرصنة ليتمكن عن طريقها من تجنيد عدد من المتطوعـــين يعوض بهم الجنود الذين فقـدهم في المعركة السابقة .

وقضى خير الدين خمس سنوات (من ١٥٢٠ الى ١٥٢٥) يسيطر على البحر الابيض المتوسط ، وغنم خلال هذه المدة مغانم كثيرة جلبت له كثيراً من المتطوعين الذين انخرطوا في صفوفه كما تمكن خلال هذه المدة من الاستيلاء على كل من مدينتي القل وعنابة ، ووضع بهما حاميتين تدينان له .

وبينما كان خير الدين منصرفاً الى تعزيز قواته اذ بلغه ان سكان مدينـة الجزائر بدأوا

يضجون من حكم ابن القاضي ، فرأى ان الفرصة سنحت لاستعادة ميناء الجزائر ، وسار الى ابن القاضي الذي التقى به في ممر واد بو قدورة ، فانهزم ابن القاضي الذي حاول أن يتصل بجنده المنهزم في جبل بني عائشة ، واستأنف المعركة من جديد، لكن قواته تمردت عليه وقتلته وتقربت برأسه الى خير الدين .

وخلف أحمد أخوه حسن وواصل المعركة ضد الاتراك مدة عامين لكن من غير أن يحقق أي انتصار حاسم .

وفي سنة ١٥٢٧ كانت قسنطينة قد تمردت على الحامية التركية وقتلت قائدها .

فشرع خير الدين فور انتصاره على ابن القاضي ودخوله ظافراً الى مدينة الجزائر ، يقمع المتمردين عليه ، فعين شيخين جديدين في كل من تنس وشرشال وقمع ثورة القبائل والحضنة ، وانتقم في ١٥٢٨ من مدبري ثورة قسنطينة بشدة قال عنها بعض المؤرخين انها بلغت من العنف درجة جعلت الحدائق والغابات المحيطة بمدينة قسنطينةعامرة بقطاع الطرق والوحوش الضارية ، وفي سنة ١٩٢٥ استسلم سلطان كوكو حسين الذي فقد كنوزه وأفراد عائلته ، ومنحه خير الدين الأمان مقابل ثلاثين حمولة من الفضة كل سنة ، كما طلب بنو عباس الأمان الذي منح لهم أيضاً .

سقوط برج الفنار :

بعد أن بسط خير الدين سلطانه على مدينة الجزائر وعدة مناطق داخلية ، فكر في التخلص من حصن الجزيرة الاسباني المقام على مدخل مدينة الجزائر ، (برج الفنار) لأن هذه القلعة الاسبانية تعتبر سبة لخير الدين الذي اشتهر بعداوته للاسبان ، كما تمثل نيلاً من سلطانه ، يضاف إلى هذين الاعتبارين أن خير الدين كان في حاجة إلى ميناء تلتجىء اليه السفن وتتموّن فيه البواخر ويشكل في الوقت نفسه منطلقاً قوياً للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدرك خير الدين بناقد عبقريته وحنكته السياسية والعسكرية أن مدينة الجزائر خير المواقع الموجودة في متناوله ، لأداء هذه المهمة .

وقد كان حاكم برج الفنار الاسباني ضابطاً محنكاً اسمه دون مارتان دى قارقاس

وكان قد استشعر بالخطر الذي يهدده من جراء عودة خير الدين إلى مدينة الجزائر ، فأرسل إلى اسبانيا يطلب المدد والذخيرة .

وشرع خير الدين في توجيه هجوماته ضد القلعة مع بداية ماي ١٥٢٩ ، ووضع مدفعين تجاه الحصن وراح يقنبله طيلة عشرين يوماً متتالية .

وحاولت الحامية الاسبانية ان تصمد امام هذه الهجمات لكن دون جدوى ، فلم ينجح جندي اسباني واحد من الاصابة بجروح ، وتمكن خير الدين يوم ٢٧ ماي من فتح فجوة في القلعة ؛ فاستغل خير الدين ذلك وهجم على الحصن ، وحدثت معركة رهيبة استمرت يوماً كاملاً ، دخل على أثرها أبناء الجزائر الى برج الفنار . بعد هذا الانتصار بادر خير الدين بربط الجزر الصغيرة الواقعة امام ميناء الجزائر ببعضها وبنى المرسي لحامية الميناء من رياح الشمال والشمال الغربي ، فأصبح ميناء الجزائر مأوى للسفن تستطيع ان تطمئن فيه وأن تتحدى منه العواصف وبفضل ذلك استطاع الأتراك والجزائريون أن يتحكموا في حوض البحر الأبيض المتوسط مدة طويلة .

* * *

ادرك سكان باقي المناطق التي ما يزال الأسبان يحتلونها أهمية سقوط حصن الجزيرة فسارع سكان القبائل بالسير نحو بجاية لطرد الأسبان منها ، وأغتنم ابو محمد عبدالله أخو ابو حمو الذي كان الاسبان قد نصبوه في تلمسان بعد مقتل عروج – اغتنم أبو محمد عبدالله هذه الفرصة ، فقطع صلاته بالاسبان وأرسل الى خير الدين بالطاعة والانقياد .

احدث خبر انتصار خيرالدين رد فعل عنيف في أسبانيا .

فقد ارسل الاسبان سكان الشواطىء الاندلوسية يطلبون من امبراطورهم ويلحون في الطلب أن يخلصهم نهائياً من المسلمين سكان الجزائر الذين ما انفكوا يوالون الغارة تلو الغارة على شواطىء الاندلس .

وكان ذلك هو الاساس الذي برر به السياسة الاسبانية هجومها على الجزائر ، ذلك الهجوم الذي اقرت مبدأه منذ سنة ١٥٣٠ .

فمنذ تلك السنة شرعت القيادة الاسبانية تضع الخطط للاستيلاء على مدينة الجزائر ، ووقع اختيار الاميرال أندري دوريا الذي كلف بقيادة الحملة وهو ايطالي تحالف مع اسبانيا – على ميناء شوشال كنقطة تنزل بها القوات المسيحية الآتية من البحر :

وانطلق الاميرال أندري دوريا بالفعل من مدينة جينو الايطالية في جويليه ١٥٣١ م . (أواخر عام ٩٣٨ هـ) . على رأس عشرين باخرة حربية ، وفاجأ بقواته سكان الشواطىء القريبة من شرشال ، وتمكن من اطلاق سراح نحو السبعمائة من الأسرى المسيحيين كانوا يشتغلون في تعزيز ميناء شرشال فانضم هؤلاء الأسرى الى قوات دوريا لكن قيادة المدينة استردت جأشها بعد حين ، وردت الهجوم واشتبكت في معركة مع القوات المسيحية في نفس الوقت الذي انطلقت فيه مدفعية المدينة توجه قذائفها الى بواخر دوريا ، وأيقن الأميرال الايطالي انه قد خسر المعركة فولى هارباً تاركاً وراءه ستمائة من جنوده وقعوا في الأسر .

خير الدين يسير إلى تونس

أراد خير الدين أن يغتنم فرصة هذه السلسلة من الانتصارات ففكر في تصفية حساب قديم مع سلطان تونس نظراً للمواقف التي كان وقفها سلطان تونس ضده من جهة ، ولبسط نفوذه على الناحية الشرقية ، فترك خير الدين حكم الجزائر لخليفته حسن آغا الذي ضم له حاج بشير وعلي الصوردو ، بعد أن تحصل على موافقة الباب العالي الذي أرسل له أربعين باخرة إلى عنابة ، وثمانية آلاف جندي ومدفعية قوية ، وسار خير الدين عن طريق البحر على رأس ثمانية آلاف وتسعماية جندي (ما بين أتراك ويونانيين وألبانيين وأسبان ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام) .

وتوقف في الطريق بقسنطينة لاخماد ثورة كانت نجمت بها ، ثم واصل السير إلى عنابة ، ومن هناك أبحر إلى تونس ، فنزل بحلق الواد في ١٦ أوت ١٥٣٤ (صفر ٩٤١هـ) ولقي رجاله بعض المقاومة في مدينة باجة .

أما السلطان حسن فقد كان فر عند سماعه بمقدم خير الدين ثم رجع إلى تونس يوم ١٨ أوت على رأس ألف فارس ، فدارت المعركة بينه وبين الأتراك الذين انطلقوا

ينهبون ما في المدينة ، وراح خير الدين يعمل على تحصين المدينة وجمع الأموال التي كان في حاجة اليها لدفع مرتبات جنوده ، ذلك أنه أدرك على ضوء التمرد الذي قام بـــه بعض جنوده يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة ، إن كل تأخير في دفع المرتبات يعرضه للخطر ، فقد كاد يقتل في هذا التمرد، ولم يتمكن من إخماده إلا بعد أن بذل للمتمردين أموالاً طائلة، وعندما حدث تمرد آخر من نفس النوع في ٢٨ نوفمبر كلف حرسه الخاص الذي كان يتركب في معظمه من الاسبان المرتدين عن دينهم – باخماد التمرد ، فقاموا بتلك المهمة على الوجه المطلوب منهم وقتلوا مائة واربعة وعشرين متمرداً وشنقوا الأسرى .

تدخل شارلكان في تونس

في الوقت نفسه احس الاسبان بأنهم على وشك ان يواجهوا ثورات متعـــددة في كل المواقع التي يحتلونها ، فمولاي محمد الذي كان يحكم تلمسان خلفـاً لأبيه ففي ١٥٣٤ لم يتردد في إعلان تمرده على الاسبان ، وحاول ان يسترجع مرسي الكبير بواسطة هجوم مفاجيء نظمه ضد الحامية الاسبانية بها في ٢٥ ماي ١٥٣٤ .

وقد حاول الحاكم الاسباني الجديد الذي عين في وهران ، وهو الكونت الكوديت ، حاول ان يستعمل عبد الله ضد أخيه سلطان تلمسان ، لكن انصار عبد الله انهزموا مرة اولى في تيبدة ومرة ثانية في شعبة اللحم ، وفي هذه المعركة الاخيرة قتل ستمائة جنـــدي اسباني كان يقودهم النسومار تينيز .

لذلك سارع الامبراطور الاسباني شارلكـان بالسير الى تونس للقضاء على خير الدين والاتراك الذين حملهم مسؤولية كل هذه الثورات والمصاعب . ونزل شارلكـان في حلق الوادي يوم ١٤ أوت ، وبينما كانت المعركة دائرة على اشدها بـــين الاسبان والاتراك إذ تمكن عدد كبير من الاسرى المسيحيين من فك اسارهم وفاجـــأوا الاتراك من حيث لم يكونوا يتوقعون الهجوم .

وأدرك خير الدين أن كفة النصر رجحت لفائدة الاسبان ، فلم يحاول الثبات ، وفر بكنوزه إلى عنابة بينما كان الاسبان يتوهمون أنه قد التجأ إلى القسطنطينية ومن عنابـــة توجه إلى مينورقة واستولى على ماهون باسبانيا وأخذ مئات من الأسرى المسيحيين دخل

بهم إلى مدينة الجزائر التي كان سكانها يعتقدون أنه انهزم نهائياً .

وقد برهن خير الدين في تنظيم فراره من تونس وعودته إلى الجزائر عن حنكة سياسية وعسكرية كبيرة : فهو لم يرجع إلى الجزائر من عنابة عن طريق البحر ، لأنه كان يخشى – وهو ما حدث بالفعل – أن ينتقم منه سلطان كوكو بعد أن يكون قد تفاهم مع الاسبان الذين يحتلون بجاية ، ويقطع عليهم خط الرجعة في البيبان ، وهو من ناحية ثانية نظم هجوماً مفاجئاً على الشواطىء المسيحية ، ورجع بالأسرى إلى مدينة الجزائر ، ليفاجىء الذين يفكرون في التمرد عليه ، بما لم يكونوا يتوقعونه .

* * *

وفي الخامس عشر من اكتوبر ١٥٣٥ استجاب خير الدين أوامر السلطان سليمان فتوجه إلى القسطنطينية حيث عين قائداً عاماً للبحرية التركية ومات في ١٥٤٦ عن سن تناهز الثمانين سنة ، وقد خلف ابناً اسمه حسن من امرأة جزائرية .

الباب الثالث

حكم الباي لارباي

- هجوم شارلكان على الجزائر .
- حسن بن خير الدين .
- فشل الهجوم الاسباني على مستغانم .
- الديبلوماسية العثمانية والفرنسية الجديدة.
- صالح رايس .
- الحملة على المغرب .
- طرد الاسبان من بجاية .

حكم الباي لارباي

عندما غادر خير الدين مدينة الجزائر ، عين خليفة له حسن آغا ، وهو من مواليد سردانيا ، حيث وقع في اسر القراصنة الجزائريين وهو ما يزال بعد طفلاً ، ثم تبناه خير الدين وعطف عليه .

وقد واجه حسن آغا ، فور ممارسته لمسؤولية الحكم في الجزائر ، مهمة ضخمة تتمثل في رد الهجوم الذي كان يعده الامبراطور الاسباني شارلكان لاحتلال مدينة الجزائر التي أصبحت عاصمة للمغرب الأوسط .

وقد كانت مهمة صعبة تلك واجهها حسن آغا : فالحملة الاسبانية التي كان يجري اعدادها ضد الجزائر ، سبقتها انباء انتصارات قوات شارلكان في تونس وفي عنابة (التي دخلها دورياً بعد ان خرج منها خير الدين) ولم تكن هذه الأنباء مما يسهل مهمة حسن آغا خصوصاً وان دوريا قد مهد للحملة الأسبانية القادمة بتعزيز المواقع الأسبانية في عنابة ، وبتنظيم عدة حملات جزئية ضد البواخر والموانىء الجزائرية .

لكن شارلكان كان يفكر في خطة اخرى للاستيلاء على الشواطىء الجزائرية ، في نفس الوقت الذي كان يواصل فيه اعداداته العسكرية : فعمل على اجراء اتصالات سرية مع خيرالدين الذي كان آنذاك هو القائد العام للاسطول التركي ، وعرض عليه أن يتعاون معه مقابل تمكينه — أي تمكين خير الدين — من القيادة العامة لشمال افريقيا نظير اعتراف شكلي من طرف خير الدين بالتبعية للامبراطور الأسباني .

وتدل هذه الخطة على أن شارلكان كان متخوفاً من فشل الحملة التي كان يعدها ضد الجزائر ما دامت هذه تتمتع بحماية الباب العالي كما تكشف عن أهمية وخطورة السمعة التي كان يتمتع بها خير الدين ، وليس من المستبعد ان يكون شارلكان قد قصد باستمالة خير الدين الى التأثير على معنويات مختلف الامارات والممالك التي كانت منتصبة في

حوض البحر الابيض المتوسط ، والى تعزيز مكانتـه ازاء البيوت الملكية في أروبا ، كما سنتأكد من ذلك فيما يلي :

وتظاهر خير الدين بقبول العرض ، واستمرت الاتصالات السرية بـين شارلكان وخير الدين عامين كاملين ، وكان خير الدين يتظاهر خلالهـا بقبوله للعرض الاسباني ووقوعه في الفخ ، وكان يبحث مع مبعوثي الامبراطور كل التفاصيل الى درجة ان اولئك المبعوثين وهم : ألاستون دي ألاركون والكابتان قيرقـارا والدكتور روميور – كانوا يعتقدون ان خير الدين قبل نهائياً بالعرض ، في حين انه كان يبلغ السلطان العثماني كل ما كان يجري بينه وبين ممثلي الامبراطور الاسباني من أحاديث .

وكأن شارلـكان كان متخوفاً من فشل هذه المحاولة التي ترمي إلى فصل خـير الدين عن السلطان العثماني ، والى فصل الشمال الافريقي عن الامبراطورية العثمانية ، وكأنه كان يخشى أن تحول العداوة التقليدية بين الامبراطورية الاسبانية وبين خير الدين واخوتـه دون أن تتم هذه المفاهمة ودون أن تتواصل الى مداها ، فأوعز الى الكونت « الكوديت » ان يتفاوض مع حسن آغا على تسليم مدينة الجزائر في مقابل تعيينه باشا على الجزائر ، ويبدو من رسائل حاكم وهران ان حسن آغا لم يرفض مبدئياً هذا العرض ، لكن الوثائق الموجودة لا تكشف الى اي مدى بلغ تواطؤ حسن آغـا مع الاسبان ، بل ولا تدل دلالة قطعية على وجود تواطؤ من هذا النوع بين حسن آغا وبين الاسبان ، لكن المؤرخ الفرنسي دي غرامون ، يستنتج وجود تفاهم من هذا النوع بين الأسبان وحسن آغـا من تصميم شارلـكان على تنظيم الحملة في أخطر فصول السنة رغم نصائح دوريا وقادته البحريـين ، وبالرغم من تضرعات أخيه وتضرعات البابا نفسه ؛ ويعتبر دي غرامون ان وجود تفاهم من هذا القبيل هو وحـده الذي يفسر هـذا التصميم من طرف شارلـكان . ويضيف دي غرامون الى ذلك أن الشرط الوحيد الذي لا يستبعد أن يكون حسن آغا اشترطه هو أن تكون القوات الاسبانية المهاجمة من الضخامة ومن الكثرة بحيث لا تظهر خيانة حسن آغا ، ولا يفتضح تسليمه للمدينة ، وبحيث يبدو سقوطهـا في يد الاسبان أمراً طبيعياً .

وشرع شارلـكان في تنظيم حملته ضد الجزائر خلال صائفة ١٥٤١ ، ففي ذلك الوقت

بدأت البواخر تنقل قسماً من جيوشه ، بينما كان شارلكان يجمع قواتـه في جفوة ، التي أبحر منها على رأس ست وثلاثين باخرة حربية .

وقد استغرقت الاعدادات زمناً طويلاً بحيث لم تقترب القوات الاسبانية من شواطىء الجزائر إلا في التاسع عشر من شهر اكتوبر ، وكانت تشتمل تلك القوات على خمسمائـة وستة عشرة باخرة شراعية ، من بينها خمس وستين باخرة كبيرة كان يسيرهـا العبيد بتجذيفهم المتواصل . وكانت البواخر تحمل على متنها ١٢٣٣٠ بحرياً و٢٣٩٠٠ جندياً من الجيش البري ، وكانت الاطارات العسكرية لهذه القوة تتكون من خيرة عائـلات اسبانيا والمانيا وايطاليا ، كما ان البابا أصر على أن يكون قريبه كولونا من بين المساهمين في الحملة ، وقرر فرسان مالطة ان لا يفوتهم شرف المساهمة في هذه الحملة فأرسلوا فيهـا مائة واربعين من ابرع فرسانهم وأربعمائـة من امهر مقاتليهم . وفي يوم عشرين اكتوبر بالضبط استعرض الاسطول الاسباني وحداته البحرية امام الجزائر ، وكان البحر هائجاً وخصوصاً بعد الظهر فاضطر الاسطول الى الاحتماء برأس ماتيفو ، لكن العاصفة استمرت كامل يوم الجمعة ٢١ أكتوبر ويوم السبت ٢٢ اكتوبر . وبدأت القوات الاسبانية في النزول يوم الاحـد ٢٣ اكتوبر مع طلوع الشمس على الضفة اليسرى من واد الحراش . ونزل شارلكان بنفسه حوالي الساعة التاسعة وقسم قواته الى ثلاث فرق ونصب معسكره في الحامة (حيث توجد الآن حديقة الحامـة) . وفي الليل هجم الجزائريون على الفرق الاسبانية بقيادة الحاج بشار ، ولم يتركوا المعتدين ينعمون بطعم النوم .

وفي صباح يوم ٢٤ اكتوبر شرعت قوات شارلـكان تسير في اتجـاه مدينة الجزائر حسب الترتيب الآتي : الجنود الاسبان بقيادة فيرناند دي قونزاغ يشكلون المقدمـة بينما تولى شارلـكان قيادة القلب الذي كان يشكل من الجنود الالمان ، اما الايطاليون وفرسان مالطا فقد كانوا يشكلون المؤخرة تحت قيادة كاميل كولونا .

وبينما كانت القوات الاسبانية تسير في السهل اذ اقبل الجنود الجزائريون يناوشونهـا

من كل جانب ويعرقلون سيرها ، مما اضطر المقدمـــة الى خوض معركة قصيرة لكنها شديدة وسط الاحراج التي تحيط بكدية الصابون ، وبعد ان تمكن الاسبان من احتلال كدية الصابون نصب شرلـكان بها قيادته ، بينما احتلت قوات القلب سلسلة من الهضاب التي تنحدر من الكدية الى شاطىء البحر ، اما المؤخرة فقـد عسكرت بالشاطىء وراء قنطرة العفرون . امام هذه القوات الضخمة ، ما هي الامكانيات التي كانت في يـد مدينة الجزائر لرد العدوان ؟

ان الجنود الاتراك لم يكن عددهم يتجاوز الثمانمائة ، يضاف اليهم نحو الخمسة آلاف من مهاجري الاندلس الذي يمكن ان نتصور بسهولة مبلغ تحمسهم للدفاع عن مدينـــة الجزائر ضد الاسبان .

وسواء أكان حسن آغا قد تفاهم مع شارلـكان قبل ذلك او لم يتفاهم فان الروايات التاريخية تجمع على ان شارلكان ارسل له رسولاً يطلب منه تسليم المدينة .

كما تجمع الرويات نفسها على ان حسن آغا رفض طلب شارلكان . والخلاف بـــين الرواية الاسلامية ، والرواية الاسبانية يتناول فقط الظروف التي حَفَّتْ بالرفـض ، فالرواية الاسلامية تقول ان حسن آغا رفض دون أدنى تردد الطلب المسيحي ، وانـه رفضه بشدة ، أما الرواية الاسبانية فتقول ان حسن آغـــا كان متردداً وان المعارضة الشديدة التي ابداها قسم هام من اعضاء المجلس الحربي هي التي اضطرت حسن آغـــا لرفض الاستسلام ، وخصوصاً معارضة الحاج بكر الذي كان يتكلم باسم المسلمين الذين هجروا الاندلس كما تقول الرواية الاروبية ان محمد اليهودي عارض هو الآخر في تسليم الجزائر مدافعاً بذلك عن مصالـــح اليهود الذين فروا من الأندلس والذين شملتهم نقمة محاكم التفتيش .

أقبل ليل يوم ٢٤ اكتوبر وقوات شارلـكان معسكرة امام مدينة الجزائر ولكلهـا اطمئنان الى تغلبها عليها في فترة وجيزة .

آنذاك اقبلت رياح شديدة من الشمال الغربي ، مصحوبة بمطر بـدأ خفيفاً ثم ازداد

كثافة وقوة،ويجب انلا ننسى ان القوات الاسبانية كانت منهمكة لأن الجزائريين كانوا قد حرموها النوم في الليلة السابقة وبدأ القلق يتسرب الى صفوف المعتدين وبدأت قوتهم المعنوية تنهار خصوصاً عندما رأوا وحدات اسطولهم تنهار امام هول العاصفة ، وهم لا يملكون من المؤونة إلا ما يكفيهم مدة ثلاثة ايام فقط كان قد مضى منها يومان .

ومع الصباح الباكر من نهار الغد اغتنم الجزائريون هذه الفرصة فهجموا على العدو من ناحية رأس تافورال (حيث ارتفع بعـــد ذلك حصن باب عزون) وفوجئت الحراسة الايطالية التي كانت معسكرة وراء قنطرة العفرون بهذا الهجومفولّت الأدبار في فوضى، مما بث الهلع والاضطراب في صفوفهم . وعندما حاول فرسان مالطة رد الهجوم واغتنام فرصة خروج الجزائريين للدخول للمدينة ، أمر حسن آغـــا باغلاق باب عزون وراح الجزائريون يقذفون المعتدين بالسهام بعد أن قتلوا نصف فرسان مالطة . وفي نفس الوقت ازدادت العاصفة شدة فخربت مائـة وأربعين باخرة ، وأصبح شغل القيادات البحرية الهروب حتى لا تقذف العاصفـــة بباقي الوحدات الى الشاطىء ، ورغم كل المحاولات قذفت العاصفة بعدة بواخر الى الرمل واضطر ركابها الى خوض معركة أُبيدوا فيهـــا عن آخرهم ، رغم المدد الذي وجهه شارلكان لاعانتهم ، وفقدت القوات الاسبانية في هـذا اليوم أهم ما كان عندها من عتاد ومدفعية وذخيرة. وانتثرت جثث الجنود وبقايا البواخر على طول الشاطىء من دللس الى شرشال ، وبلغت المغانم التي كسبها الجزائريون في ذلك اليوم درجةً من الأهمية جعلتها مضرب المثل لمدة طويلة ، وشاهد فرنانـــد دي كورتيز بعينه الكنوز التي حملهـــا من المكسيك وهي تستقر في قاع البحر مع بواخره المحطمة .

وتبخر كل أمل في الصمود أمام هذه العاصفة ، فأرسل الكابتان دوريا إلى شارلكان رسالة ينصحه فيها بالتخلي عن كل محاولة للصمود أمام المدينة ، ويقول له فيها ان الأمل الذي بقي له يتمثل في حماية ما تبقى من الأسطول برأس ماتيفو .

وتواصلت العاصفة صباح يوم ٢٦ أكتوبر ، فقرر شارلكان العمل بنصيحة دوريا فأمر

بالانسحاب وبقتل بعض الخيول ، ولكي لا يثير غضب جنوده قتل بنفسه بعض خُيوله التي كانت مزينة بالذهب ، ولم تصل قوات شارلكان خلال انسحابها إلى نهر الحراش إلا يوم ٢٧ اكتوبر ،ولم تستطع أن تقطع هذا الوادي الذي حولته الأمطار إلى نهر عنيف التيار فنصبت فوقه قنطرة صنعتها من أخشاب البواخر المحطمة .

عندما وصلت الفلول الاسبانية إلى رأس ماتيفو بعد أربعة أيام – فقد كان الجزائريون يلاحقونها باستمرار – عقد شارلكان مجلساً حربياً ليقرر هل يجب الاستمرار في المعركة أم يحسن التخلي عنها : وقر قرار الأغلبية على أنه يجب التخلي عن المعركة ، في حين دافع الكونت الكوديت حاكم وهران وفرناند دي كورتيز عن الرأي الآخر ، وذهب فرناند دي كورتيز إلى حد مطالبة شارلكان بأن يرخص له في اختيار بعض العناصر والهجوم بهم على مدينة الجزائر لاحتلالها ، ولئن كان هذا الموقف يبدو شاذاً وغريباً في ظروف مثل تلك التي أحاطت بهزيمة شارلكان ، فان بعض قادة الحملة أنفسهم فسروا موقف فرناند دي كورتيز بأن همه الوحيد لم يكن هو احتلال الجزائر ، ولكن هو استرداد كنوزه التي غرقت قرب شاطىء المدينة .

وفي يوم أول نوفمبر شرعت قوات العدوان في الانسحـــاب ، لكن استمرار العاصفة اضطرها الى الاحتماء بميناء بجاية ، إلا أن مقاطعة السكان الجزائريين للحامية الاسبانية في بجاية يضطرها دوماً الى التموين من جزر الباليار ، بحيث تتعرض للمجاعة عندما ينقطع عنها خط التموين هذا بسبب العواصف ، كما كان هو الأمر عندما لجأت فلول شارلكان الى بجاية ، ويقول دي غرامون أن احمد بن القاضي موّن قوات شارلكان مقابل أموال ضخمة ، ولم يصل شارلكان الى قرطاجنـــة الواقعة على شواطىء أسبانيا إلا يوم أول ديسمبر .

***

مدينة الجزائر تشتهر بالمناعة .

كان لهزيمة شارلكان أمام ابواب مدينة الجزائر صدى بعيد في كامـــل بلدان حوض

البحر الأبيض المتوسط: فقد كسبت الجزائر شهرة واسعة بالمناعة اقترنت مع بدء ظهورها كمدينة وكميناء هام ومركز لقوة بحرية يجب أن يقرأ لها ألف حساب ، كما أن المغـــانم والذخائر والمدافع التي سقطت بأيدي الجزائريين عززت القوة البحرية لمينـــاء الجزائر ومكنتها من تسليح عدة وحدات بحرية ظلت تسيطر لمـدة طويلة على الطرق البحرية المؤدية الى أوروبا الجنوبية .

وأراد حسن آغا أن يغتنم هذا الانتصار في تدعيم سلطـة الوجاق وتعزيزها ، فسار في نهاية أفريل ١٥٤٢ م متوجهاً الى القبائل على رأس ستة آلاف جندي لتأديب سلطان كوكو ، أحمد بن القاضي الذي كان يعرف أنه اتصـل بالأسبان ، ولم يجد أحمد بن القاضي بداً من طلب العفو وإذ لم تكن له قوة كافية يجابه بها حسن آغا ، فعفا عنه حسن آغا وأخذ منه ابنه كرهينة .

وأدرك حسن آغا أنه يمكن أن يستفيد من هزيمة الأسبان في إخضاع المناطق الغربية ايضاً ، خصوصاً وان ملك تلمسان مولاي محمد ، كان مكروهاً من طرف رعيته التي كان يسلط عليها مغارم فادحة لسد مطالب الأسبان ، وكان اثنـان من ابنائه وهما عبد الله واحمد ، قد تزعما معارضته ، فاغتنم الأتراك ذلـك وتقدموا نحو الغرب الى أن عسكروا عند أسوار تلمسان التي فتحت لهم أبوابها دون مقاومة ، ووعد ملك تلمسان الأتراك بأن يقطع كل تموين عن الاسبان وفي نفس الوقت أرسل هـدايا فخمـة الى حسن آغا ، فقبلها هـــذا الأخير كعنوان لخضوعه وأرسل له أربعمائة جندي تركي كحامية تستقر في المشوار .

والحقيقة ان التواريخ العربية لم تذكر لنا شيئاً عن نهاية مولاي محمد . ويؤكد الأب برجيص انه مات سنة ١٥٤٠ ، وعلى كل حال لما تقـدم الاتراك نحو تلمسان كان أميرها أبا عبد الله ، فخرج لاستقبال الأتراك واكد لهم تعلقه بهم ، إلا أن الأتراك لم يثقوا فيه ، فنصبوا أخاه زيان أحمد ملكاً .

وطبعاً لم يرق هذا الحل لعبد الله الذي كان يطمع أن يستمر على عرش تلمسان فالتجأ الى الكونت الكوديت قائد الحامية الاسبانية في وهران يطلب منه أن يعينه على قهر

محمد وقلب سلطنته ، ووجد الكونت الكوديت أنها فرصة ذهبية لرد الفعل على هزيمة الجزائر من جهة ولو بصفة جزئية ، ولضمان استمرار تموين قواته من جهة أخرى حتى لا تكون عرضة للمجاعة والحصار .

وأرسل الاسبان الف جندي أسباني وأربعمائة فارس عربي لاحتلال تلمسان ، لكن أبا زيان هاجمهم في شعبة اللحم واستأصلهم عن آخرهم ، لكن هذه الهزيمة لم تثن الاسبان عن الاستمرار في محاولتهم فقد تمكن الكوديت من تكوين جيش يعد اثني عشر الف تقريباً ، سار على رأسهم الى تلمسان بعد أن استصحب معه ثلاثة من أبنائه وعبد الله الذي أيدته قبائل تسالة وبنو موسى بن عبدالله ، وكان بدأ سيره الى تلمسان في ٢٧ جانفي ١٥٤٣ وحاول محمد أن يتفاوض وأن يتحصل على انصراف الجيش الاسباني بواسطة العرض الذي قدمه الى الكونت الكوديت والذي يتمثل في اعطائه كمية هامة من الدنانير الذهبية ، لكن الكوديت لم يرد عليه الا بمواصلة السير الى تلمسان التي وصل أمامها في اوائل شهر فيفري ، وكان نهر يسر قد طغى بفعل الأمطار الغزيرة . وكان قائد القوات الزيانية ضد المسيحيين هو المنصور قائد بني راشد الذي حاول أن يمنع الطريق على المسيحيين عند مضيق يسر ، وقد تولى قيادة المعركة بمهارة وشجاعة ، لكنه أخفق بالرغم من ذلك ، وقد ابتدأت المعركة على الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢ فيفري ، واستمر كامل اليوم وتواصل شطراً من يوم ٣ فيفري ، عندما تمكن الاسبان من عبور النهر فعسكروا أمام حصن تيبدة القويم .

وفي يوم ٥ فيفري التقى الاسبان مع قوات مولاي محمد الذي تقدم بنفسه على رأس قواته والاربعمائة تركي وعدد غير قليل من مهاجري الاندلس ، وكانت معركة شديدة استمرت من الصباح حتى الليل ، وجرح في هذه المعركة دون مرتان ابن الكونت الكوديت ، وعندما انهزم مولاي محمد أبو زيان والتجأ الى المدينة احتمى بالقلعة بينما عسكر أبو عبدالله بالزياتين وبات يستقبل شخصيات تلمسان التي جاءت تقدم له فروض الولاء ، وفي صباح اليوم السادس من فيفري فتحت تلمسان أبوابها لعبدالله فدخلها دون مقاومة ، وسلك الاسبان في تلمسان نفس المسلك الذي سلكوه في تونس فراحوا ينهبون

الاموال ويهاجمون القبائل التي رفضت الخضوع والاستسلام ، وقضى الأسبـــان عشرين يوماً في النهب والسلب ، قرر الكونت الكوديت على أثرها أن ينسحب الى وهران ، لان عيونه كانت تنقل اليه ان مولاي محمد بصدد تنظيم قواته ليقطع عليـه خط الرجعة ، وكان الكونت الكوديت قـد قرر أن يترك في مشوار تلمسان اثني عشر مائـــة من جنوده، لكنه عندما سمع بهذه الأنباء قرر أن لا يترك بتلمسان أي جندي وأن يستصحب كامل قواته بل وأخذ معه المدافع التي كان خسرها الأسبان في سنة ١٥٣٥ عندما انهزموا في معركة مارتينيز بتيبدة .

خرج الكوديت من تلمسان على رأس قوات ضخمة : فقد وصلت مقدمة قواتـه إلى قنطرة واد الصفصاف ، بينما كانت المؤخرة عند باب تلمسان ، وما كادت تغادر القوات الاسبانية المدينة حتى فاجأتها قوات مولاي محمد: وارتبكت القوات الاسبانية واضطرت إلى خوض معركة قاسية من أجل أن تعبر نهر يسر في طريق انسحابها إلى وهران .. واستمرت المعارك طوال فترة انسحاب الجيش الاسباني، وظل جنود مولاي محمد يلاحقون قوات الكوديت حتى مدخل وهران التي بلغتها القوات الاسبانيـــة في يوم الثامن من شهر مارس .

وكبر على الكوديت أن يلاحقه المسلمون حتى وهران ، وأدرك أنه خسر المكسب المعنوي الذي كان يعتقد أنه قد رد به إلى اسبانيا بعض الاعتبار بعـــد هزيمة شارلكان أمام مدينة الجزائر . لذلك ضبط خطة جديدة كان يهدف من ورائها إلى محو ما يمكن أن تخلفه سلسلة الهزائم تلك من آثار وخيمة العاقبـــة على القوات الاسبانية في المغرب العربي . وتتمثل هذه الخطة في الهجوم على مستغانم والاستيلاء عليها . وسار الكوديت يوم ٢١ مارس متوجهاً إلى مستغانم ، لكن القوات التركية التي قدمت من مدينة الجزائر سبقته إلى مستغانم ، ولاحظ الكوديت أن مستغانم كانت محصنة بمدافعها الثلاثين ، فلم يجد بداً من اصدار الأمر بالعودة إلى وهران ، إلا أن السكان كانوا قد أحاطوا بهم من كل صوب وراحوا يطاردونهم مطاردة عنيفة اضطرت القيادة الاسبانيـــة إلى تجريد جنودها المرتزقة من الخيول خوف أن ينضموا إلى عرب الجزائر ، ولم تتمكن القوات

الاسبانية من اللحاق بوهران إلا في غرة أفريل بعد أن تكبدت خسائر فادحة .

واغتنم أبو زيان محمد هذه الفرصة فتوجه إلى تلمسان وأجبر أبا عبد الله على أن يخوض معركتين عن أسوار تلمسان . وانتصر أبو عبد الله ، وأراد أن يستأصل أخاه فتتبعه خارج المدينة ، وكم كانت دهشته شديدة عندما رجع اليها ووجد أبوابها مغلقة دونه : ذلك أن سكان تلمسان لم يغفروا له النكبة التي لحقتهم على يد الاسبان بسببه ، فاستدعوا أبا زيان الذي دخل المدينة من جهة أخرى .

وفر أبو عبد الله إلى الاسبان الذين أمدوه بعشرة آلاف مقاتل اسباني ، لكنهم انكسروا شر انكسار في معركة شهيرة اشتهرت بمعركة الزيتون ، وهي معركة كاد يقتل فيها الكوديت .

وابحر الكوديت يوم الرابع والعشرين من شهر جوان الى اسبانيا ليشرح لحكومته اسباب الهزيمة في نظره ، وقد حاول الكوديت ان يلقي مسؤولية تلك الهزيمة على حكومته التي كان يراها مقصرة في اعانته بما يجب من قوات وعتاد .

بعد هذه الفترة توفي حسن آغا بعد ان تقلص نفوذه وبعد ان خلفه الحاج بكر الذي كان قد تزعم المعركة ضد شارلكان .

وقد اضطر الحاج بكر الى اخماد ثورة قبائل مليانة التي ثارت ضد الأتراك بقيادة بالترك قائد الريغة الذي تمكن من تعبئة نحو العشرين الف جندي هجم بهم على المتيجة ووصل على رأسهم الى ابواب مدينة الجزائر . لكن الحاج بكر انتصر عليه وهزمه .

وعندما عاد الحاج بكر بعد انتصاره الى مدينة الجزائر في شهر جوان ١٥٤٤ وجد بها حسن بن خير الدين الذي عين والياً للجزائر .

ويستنتج دي غرامون من نهاية حسن آغا الغامضة ومن الحظوة التي نالها الحاج بكر الذي كان عارض في تسليم مدينة الجزائر الى شارلكان يستنتج من ذلك رجحان الرأي القائل بأن حسن آغا كان قد تفاهم مع الاسبان على تسليم مدينة الجزائر .

والواقع انه لايمكن البث برأي قاطع في هذه القضية : لأن الرواية الاسبانيـة هي وحدها التي اوردت ما يسمح بهذا الشك في حسن آغا، ولا ننسى ان الرواية الاسبانية في حاجة الى مثل هذه الرواية حتى تبرر بها نوعاً من الهزيمة التي مني بها شارلكان ، ولا ننسى ايضاً ان دي غرامون كتب كتابه الذي يستنتج فيه أمثال هذه الاستنتاجات في مطلع الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فالظروف التي كتب فيها ما كتبه تدفعه الى تصغير كل الانتصارات التي احرز عليها الجزائريون في الماضي والى تمجيد كل الاعمال المسيحية ولو كانت غير فرنسية .

اما إبعاد حسن آغـا من الحـكم في أواخر ايامه فيمكن تفسيره بعدة تفاسير منهـا المناورات التي كانت تجري في البلاط العثماني للاستيلاء على مقاليد ولاية الجزائر ، وقـد ابعد حسن بن خيرالدين نفسه عدة مرات من هذه الولاية ، من غير أن يشعر احـد من المؤرخين بالحاجة الى تقديم تفسير من هذا النوع لابعاده .

حسن بن خير الدين

عندما استدعى خير الدين الى القسطنطينية وعيّن قائداً عاماً للأساطيل العثمانيـة ، احتفظ بلقب باي لارباي افريقيا . أي باي بايات افريقيا ، وهو لقب يخول لصاحبـه أن يصدر الاوامر الى باشا تونس وطرابلس والجزائر، وبهذه الصفة عيّن خير الدين ابنـه حسن والياً على الجزائر .

وصل حسن باشا بن خير الدين الى الجزائر يوم ٢٠ جوان ١٥٤٤ ، فبادر باعـداد الخطط لاعادة النظام داخل صفوف القوات التركية نفسها التي كانت تعودت على نوع من الفوضى وانعدام الطاعة ، باعتبار ان ذلك هو الشرط الأساسي لاعـادة الهيبة للسلطنة العثمانية التي كانت تهتم بالجانب العسكري الحربي وحده فقط دون أن تولي أدنى عنايـة للجوانب الاخرى التي تلعب دوراً هاماً في تحريك الثورات ضد الأتراك ؛ فقـد قامت السلطنة العثمانية على القوة العسكرية وحدهـا ، وليس معنى ذلك أن ما عدا الخلافـة العثمانية من حكم قد قام على اعتبار آخر غير القوة، ولكن معناه أن عنصر القوة العسكرية أبرز في السلطنة العثمانية منه في باقي الأنظمة التي حكمت العالم الاسلامي .

انصرف حسن باشا إذن إلى إعادة النظام الى صفوف القوات التركية، ثم حاول القضاء على بقايا ثورة القبائل التي كانت تقطن غربي مليانة، حتى يؤمن الطريق الى المعسكر الذي يحتاج اليه لمد وتأكيد نفوذ الباب العالي على المناطق الغربية من الجزائر ، وعلى مناطق المغرب الأقصى إن أمكن .

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعنى بكل ذلك ، كان الكونت الكوديت قد عاد من أسبانيا على رأس أربعة آلاف جندي أمده بها البلاط الاسباني ، دخل بهم مدينة وهران في بداية سنة ١٥٤٦ .

وكان أبو عبد الله قد حاول قبل ذلك استرجاع عرش تلمسان وأعانه في ذلك القائد المنصور ، لكن أبا عبدالله وقع في الاسر وكذلك حفيد القائد المنصور ، الذي انسحب إلى وهران حيث مكث ينتظر عودة الكونت الكوديت .

فشل الهجوم الاسباني على مستغانم .

فرح الكوديت بالقائد المنصور ، لأنه كان يعتبر أن محالفته تمكنه من قوة كافية لتحطيم قوة الأتراك إذ انها تضمن له تأييد قبائل ملاته وبني راشد وبني عامر . وتوجه الكوديت في بداية ربيع ١٥٤٦ إلى تلمسان . لكنه ما كاد يصل الى عين تموشنت حتى سمع بأن أهل تلمسان استنجدوا بالأتراك ، وان حسان باشا قد سار اليه وانه ينتظر فقط توغل الكوديت في المناطق الداخلية ليفاجئه ويحمل حملة يقطع بها خط رجعته .

وكان مع حسن باشا ثلاثة آلاف تركي مسيحيين بالبنادق والف صبايحي وعشرة مدافع ، وانضم له في الطريق حميد العبدي شيخ تقس في الف فارس .

عندما سمع الكونت الكوديت بهذه الانباء عاد ادراجه لمواجهة حسان باشا ، وعسكر في مواجهته قريباً منه .

وبينما كان حسان باشا يستعد لخوض معركة فاصلة ضد الكوديت ، اذ بلغه نبأ وفاة والده خير الدين ، فاضطر الى الرجوع لمدينة الجزائر كي لا تقع فتنة وكي يتمكن من الاحتياط للقلاقل قبل وقوعها .

وتوهم الكوديت ان الفرصة مواتية للهجوم على حسان باشا ، فراح يتبعه واحتل مزغران مساء ٢١ أوت ثم حاول احتلال مستغانم ، الا ان حسان باشا كان قد حصن مستغانم تحصيناً منيعاً ، وفي نفس الوقت اقبلت من تلمسان قوات تتركب من خمس وعشرين الف من المسلمين الذين اجبروا على مغادرة الاندلس . واطبقت هذه القوات على الجيش الاسباني فقهرته ، واغتنم القائد الاسباني هبوط الليل فسحب جرحاه وحاول الهرب ، لكن المسلمين لاحقوه ، وتمكن الرعب والهلع من جمهرة المقاتلين الاسبان رغم ثبات قادتهم . ولم تتمكن فلول الاسبان من اللحاق بوهران الا بعد جهد جهيد .

عندما وصل حسان باشا الى مدينة الجزائر علم انه عين باي لارباي افريقيا خلفاً لابيه .

ولما عرف سكان تلمسان ان حسان باشا رجع الى مدينة الجزائر ، وان القائد الاسباني تمكن من الدخول الى وهران رغم الهزيمة التي حاقت به ، ارسلوا وفداً الى فاس يطلبون من الشريف محمد المهدي احتلال تلمسان ، حتى يسدوا الطريق امام الاسبان الذين قد يعاودون الهجوم عليها .

لكن حسان باشا ارسل الى محمد المهدي يقنعه بأن مصلحة الاسلام تقضي باجتماع القوتين ، قوة الاتراك وقوة سلطان المغرب ، لاخراج العدو المسيحي من وهران ، واقتنع محمد المهدي بوجاهة هذا الرأي وتواعد وحسان باشا على الاجتماع لمهاجمة وهران وتم ذلك سنة ١٥٥٠ م .

وتنفيذاً لمقتضى هذا الاتفاق جند حسان باشا خمسة آلاف تركي مسلحين بالبنادق وألف صبايحي ، وثمانية آلاف من زواوة يقودهم سلطان بني عباس . أما الأتراك فقد كانوا تحت قيادة حسن قورصو ، وتوجه الجميع الى مستغانم ، على أمل ان ينضم اليهم بنو عامر والقبائل المجاورة لها .

وكان من المقرر ان يتم اللقاء بين القوات الجزائرية والتركية ، والقوات المغربية في عين تموشنت ومن هناك تتوجهان قوة واحدة الى وهران .

وأرسل الشريف المهدي ابنه محمد الحران مع أحد وعشرين الف فارس وعشرة آلاف

رجل منهم خمسة آلاف مسيحي مرتزق . لكن محمد الحران خـــان الاتفاق المبرم وقرر احتلال تلمسان لفائدة والده ، وعندما سمعت القيادة التركية الجزائرية بهـذا النبأ حثت السير الى الامام وهاجمت قوات محمد الحران في ريوسالادو الواقعة على الطريق بين وهران وتلمسان ، وانهزمت قوات الحران أثر معركة حامية الوطيس .

حينذاك أرسل سلطان المغرب عشرين الف رماح ضحبة ولديه مولاي عبدالله ومولاي عبد الرحمن وكان الاتراك قد بلغوا جدران تلمسان يوم خمسةعشرة جانفي ١٥٥٢م وهاجم فرسان المغاربة الأتراك ، فقابلهم هؤلاء بنيران البنادق ، فلم يصـبر المغاربة الذين كانوا مسلحين بالرماح والتروس على هذه النيران وانهزموا ، وقتل مولاي عبد الرحمن في المعركة بينما فر أخوه عبدالله ، وتتبعت القوات التركية – الجزائرية المغاربة الفارين حتى ملوية بني عباس وكان لهم حظ وافر من هذا الانتصار .

وفي هذه المرة ترك الاتراك حامية قويـــة بتلمسان تتركب من خمسة آلاف جندي بقيادة الصفاح .

عندما تخلص حسان باشا من هموم الحرب. تذكر أن كدية الصابون كانت عدة مرات هدفاً لهجومات المغيرين ، فبني بها برج مولاي حسان الذي أصبح يحمل بعد ذلـــك اسم حصن الامبراطور ، وقد جاءت هذه التسمية الفرنسية من اسطورة لا أساس لها من الصحة تقول ان شارلكان كان شرع في بناء ذلك الحصن ، وبعد أن بنى حسان باشا ذلك البرج تفرغ لتجميل مدينة الجزائر وبنا المرافق الضرورية بها : فبنى مستشفى للجنود الأتراك العجزة والمعطوبين ، كما بنى الحمامات الفخمة التي كان الاستحمام فيها للعموم وبالمجان .

وبينما كان حسان باشا بن خير الدين متفرغاً لهذه الأعمال العمرانية إذ تلقى أمراً من القسطنطينية بمغادرة الجزائر والمثول أمام الديوان . لمـــاذا ؟ ذلك مـا سوف نراه في الفصل الآتي :

الديبلوماسية العثمانية والفرنسية الجديدة .

أدخل استقرار العثمانيين بالمغرب العربي تغيـــيراً أساسياً على الوضع في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدرك شارلكان هذا التغيير فحاول ان يفصل الجزائر عن السلطنة

العثمانية ويضمها الى مناطق نفوذه . كما رأينا في الفصول السابقة ، وادرك فرانسوا الأول أيضاً ملك فرنسا حقيقة هذا الوضع الجديد فبنى عليه سياسته الجديـــدة التي شرع فيها سنة ١٥٣٤ ، وهي سياسة التقارب مع الأتراك .

وقد يميل المؤرخ الى تفسير سياسة فرانسوا الأول بأنها ترجع فقط الى التنافس التقليدي بين ملوك أروبا ، لكن تحليل الوقائع التاريخية يشهد بأن هذا التفسير وحده غير كاف .

فقد فكر فرانسوا الأول فور اعتلائه عرش فرنسا في سنة ١٥١٥ في أن يتزعم حركة أروبية واسعة النطاق ضد النفوذ العثماني في المناطق الشمالية من افريقيا .

وعلى هذا الأساس تقابل مع البابا في مرسيليا خلال شهر جانفي ١٥١٦ . وفي هـذه المقابلة وضعت الخطوط العريضة لتعاون حقيقي بـــين القوات البحرية الفرنسية وقوات روما وجنوة لمحاربة التسلل التركي الى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفي نطاق هذا التعاون قادت تلك القوات الأروبية حملة مشتركة ضد قوات خير الدين في سنة ١٥١٦ ، وفي هذا النطاق تدخل الهجومات الأروبية على بنزرت ثم على حلق الواد ، ونقول هجومات لأنها في الواقع عبارة عن سلسلة من الهجومات تكررت عدة مرات فيما بين سنة ١٥١٦ وسنـــة ١٥١٨ ، ففي سبتمبر ١٥١٦ وفي سبتمبر ١٥١٧ وفي شهر ماي ١٥١٨ تجمعت قوات فرنسية واسبانية وايطالية في مرسيليـــا ، وانطلقت نحو تونس والمهدية والمنستير .

وواضح أن هذه الهجومات الأروبية المتكررة على سواحل تونس كانت تهدف إلى بسط النفوذ المسيحي على تونس التي لم تكن في ذلك العهد واقعة تحت السيطرة العثمانية ، لأن بسط النفوذ المسيحي على تونس من شأنه أن يسهل بعد ذلك المحاولات التي ستهدف في مرحلة ثانية إلى اقصاء النفوذ التركي عن الجزائر ، والى توحيد شمال افريقيا تحت السيطرة المسيحية .

وقد ظل فرانسوا الأول وفيا لسياسة التعاون الاروبي ضد المغرب العربي سنوات طويلة ، فقد وضع في سنة ١٥٣٠ أحسن وحدات أسطوله الحربي تحت تصرف شارلكان ليستعملها في الحملة التي قادها أندري دوريا ضد الجزائر .

اذن فما هي العوامل التي دفعت فرانسوا الاول الى تغيير سياسته في سنة ١٥٣٤ والى التحالف مع الباب العالي ضد اخوانه المسيحيين ؟ . لا شك ان المنافسة التقليدية بين فرنسا واسبانيا لعبت دوراً هاماً في دفع فرانسوا الاول الى هذا الحلف ، لكن هنـــاك دوافع اخرى اقتصادية هي التي كانت المحرك الاساسي لسياسة فرانسوا الاول الجديدة .

فقد كانت فرنسا في حاجة الى أسواق تجارية جديدة ، وقد كان فرانسوا الاول يأمل من وراء تعاونه مع القوات الاسبانية والايطالية الى الاستيلاء على المغرب العربي واقتسام مناطقه مع أسبانيا ، لكنه لمس من فشل المحاولات المتعددة ضد العثمانيـين ، ان السلطنة العثمانية يجب ان يقرأ لها حساب في كل ما يتعلق بكامل مناطق البحر الابيض المتوسط ، وخصوصاً ، وانه بدأ يتضح أن النفوذ العثماني يسير بخطوات ثابتـة نحو أوربا الوسطى ، وليس من المستبعد أن يكون قد اطلع من جهة أخرى على المحاولات السرية التي عمد اليها شارلكان للانفراد ببسط نفوذه على الجزائر . وقد تجنب فرانسوا الأول الخطأ الذي كان ارتكبه شارلكان عندما أراد ان يتفاهم مع خير الدين وحسان آغـا على حساب الباب العالي ، فقد فضل فرانسوا الأول أن يتفاهم رأساً مع السلطان العثماني .

ويبدو أن السلطان العثماني من جهته قد أدرك أن الجزائر تمثل ، رغم وقوعها تحت نفوذه ، خطراً مستمراً ، ولا شك أن التقارير التي رفعها له ممثلوه وامراؤه قد أسهبت في الحديث عن الثورات العديدة التي نظمها الجزائريون ضد الأتراك . ومن المؤكد أيضاً أن تلك التقارير لم تغفل الحديث عن الامكانيات البشرية والموارد الطبيعيـــة التي تتمتع بها الجزائر .

كل ذلك أثار مخاوف السلطنة العثمانية التي أرادت أن تحكم الجزائر بطريقة تحول دون أن تتطور بها السلطة السياسية إلى قوة متكاملة تندفع بسرعة إلى الاستقلال ، وهـــذه المخاوف تفسر طريقة تعيين ممثل السلطان بالجزائر وتنوع النظام الاداري الذي استقر بها والذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد رأت السلطنة العثمانية أن هذا المنطق يفرض عليها أن تقبل الحلف الذي عرضه فرانسوا الأول ، حتى تضمن حليفاً قوياً يكون تجاه الجزائر ، فيتعزز بذلك نفوذها ،

وحتى لا يوجـــد بالجزائر من يفكر في الانتفاض على الأتراك . ومعنى ذلك أن السياسة الخارجية التركية بنيت فيما يتعلق بالعلاقات مع فرنسا على اعتبارات سياسيـــة تنطلق من الجزائر .

ومجموع ذلك المنطق المستمد من مخاوف القسطنطينية من نزعة الجزائر الاستقلالية ، وتلك السياسة الخارجية التي يستلزمها ذلك المنطق – مجموع ذلك أدى بالأتراك إلى سلسلة من التنازلات للفرنسيين جعلتهم بطول الزمن يركزون مصالحهم في الجزائر ويعملون على ادخالها في مناطق نفوذهم بكيفية أو بأخرى .

ومهما يكن من شيء فالذي حدث هو ان فرانسوا الاول نجح في تحقيق التقارب مع السلطان العثماني ، وتقول كتب التاريخ الفرنسي ان خيرالدين أعلن على تحقيق هـــذا التقارب . وهو امر معقول اذا تذكرنا ان خيرالدين يعتبر ان الاسبان هم اعداؤه الألداء ، وبناء على ذلك فهو يرى من الواجب استغلال كل فرصة ممكنة لاضعافهم وفصل حلفائهم الطبيعيين عنهم .

وقد نتج عن هذا التقارب بين الباب العالي وملك فرنسا ، تقارب آخر بين الجزائر وفرنسا ، ما دام والي الجزائر يعين من طرف القسطنطينية ويعتبر منفذا فقـــط لتعليماتها .

* * *

بناء على هذا التحالف الجديد وجهت فرنسا سفيراً الى الجزائر مهمته رعاية المصالح التجارية الفرنسية . وقد تعززت الروابط بين الباب العالي وفرنسا الى درجة ان الرئيس دراغوث المشهور وضع نفسه تحت تصرف هنري الثاني ملك فرنسا الذي استعمله ضد الاسبان .

وقد عرض السفير الفرنسي في الجزائر أثناء الحرب التي قامت بين حسان باشا وبين سلطان المغرب – عرض السفير الفرنسي على حسان باشا ان يعينه بالاسطول الفرنسي في حالة عزمه على مهاجمة وهران او فيما اذا فكر في تنظيم هجوم ضد الاندلس ويبـــدو أن حسان باشا رفض هذا العرض .

ويمكن تفسيره بأحد شيئين اولهما ان يكون حسان باشا قد فهم من عرض السفير الفرنسي انه عبارة عن استدراج له ليقدم على مغامرة داخل التراب الاسباني تعود عليه بأوخم العواقب ، في حين يكسب منها ملك فرنسا الذي يهمه اضعاف اسبانيا . الثاني : ان يكون حسان باشا واثقاً من قوة الجزائر واستطاعتها بمفردهـا ان تخرج الاسبان من قوة الجزائر واستطاعتها بمفردها أن تخرج الاسبان من ارضها وبناء على ذلك رفـض العرض الفرنسي الذي لن تكون له من نتيجة ، في حالة تنفيذه ، الا تسجيله في قائمـة حسابات جديدة سيسارع ملك فرنسا في استغلالها ومطالبة الباب العالي بمقابـل عوضاً عنها ، قد يتمثل في تمكين الفرنسيين من امتيازات جديدة .

وسواء أ كانت هذه او تلك فـــان السيد أرامون ذهب الى القسطنطينية وأوهم الديوان العـــثماني ان حسان باشا يفكر في الاستقلال بالجزائر ، وراح السفير الفرنسي يصور الأخطار التي تتمثل في قيام جزائر مستقلة حتى نجح في اثارة مخاوف السلطان العثماني الذي سارع باصدار الامر الى حسان باشا ان يقدم الى القسطنطينية . ومما يثبث انصات الباب العـالي لـ « نصائح » السفراء الفرنسيين ، ان دراغوث الذي كان وضع نفسه تحت تصرف ملك فرنسا عين سنجاق وقائدا لاسطول يتركب من اربعين باخرة حربية .

وعندما تغيب حسان باشا بن خير الدين عن الجزائر خلفه القائد الصفاح مـــدة ثمانية اشهر ، قدم بعدها الوالي الجديد صالح رايس .

صالح رايس :

وصل صالح رايس الى الجزائر في نهاية أفريل ١٥٥٢ يحمل لقب باي لارباي افريقيا، واعطاء هذا اللقب للوالي التركي على الجزائر يكشف عن الأهميـة التي كان يوليها الديوان العثماني للجزائر .

ويقال ان صالح رايس مـدين بتعيينه في هـذا المنصب لصداقة السفير الفرنسي الذي أدى له خدمات جليلة .

وصالح رايس أصله من الاسكندرية ، وقد تعلم فنون الحرب والبحرية في سن مبكرة أثناء أسفاره العديدة مع عروج وخير الدين ، وقد سبق للسلطان العثماني ان عينه على رأس اسطوله البحري قبل أن يوجهه الى الجزائر .

وما كاد صالح رايس يصل الى الجزائر ، حتى واجه ثورة عنيفة في الجنوب : فقد ثار قائد تقرت وقائد ورغلة معتمدين على طول المسافة التي تفصل بين بلديهما وبين مدينة الجزائر ، ورفضا الاعتراف بالوالي العثماني ، وظنا أنه لن يجرؤ على أن يغامر بنفسه وجنوده في صحارى لا يعرفها .

لكن صالح رايس كان يدرك ان هذه الثورة ستكون هي امتحانه الأول في الجزائر ، وكان يعرف ان خطوته لدى الباب العالي مرهونة بنجاحه في قمعها .

لذلك لم يتردد في السير الى الجنوب على رأس ثلاثة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وألف صبا يحي وثمانية آلاف من قبائل زواوة على رأسهم عبد العزيز ، وتمكن صالح رايس من الاستيلاء على تقرت بعد حصار دام أربعة أيام، ثم استولى بعد ذلك على ورقلة، وسلط قمعاً شديداً على سكان المدينتين ، ثم فرض على قائديهما اتاوة ، ثم قفل راجعاً الى الجزائر مستصحباً معه مغانم ضخمة تشتمل على خمسة عشر بعيراً محملة بالذهب واكثر من خمسة آلاف من العبيد .

عاد صالح رايس الى الجزائر مزهواً بانتصاره ، تطوف بذهنه أحلام عديدة تتصل بما يمكن أن يدره عليه هذا الانتصار من عزة ومكانة لدى السلطان العثماني ، ويتصل بالمشاريع والآفاق الجديدة التي يفتحها الانتصار على الجنوب أمام السلطة التركية في الجزائر .

وقد نسي صالح رايس في زهوه هذا ان يقرأ حساباً لخليفه عبد العزيز سلطان بني عباس ، فقد قلل من قيمة المساندة التي بذلها له عبد العزيز ولم يقدرها حق قدرها ، وقد

تبين ذلك في قسط المغانم التي خصها صالح رايس لجنود السلطان عبد العزيز .

اغتاظ السلطان عبد العزيز من هذه المعاملة ، لكنه لم يعلن مع هـذا أي تمرد إلا أن حسان قورصو الذي لم ينس نظرة الاحتقار التي نظر بها اليه عبد العزيز أثناء حملة المغرب في سنة ١٥٥٠ ، أراد أن يغتنم هذه الفرصة ، فأوهم صالح رايس أن عبد العزيز يستعـد للتمرد . فأرسل اليه ليقدم الى الجزائر ، وقـام عبد العزيز بالفعل الى مدينة الجزائر فأسكنه الأتراك قصر الجنينة ، لكن عبـد العزيز علم بالمقصود الحقيقي من وراء انزاله بقصر الجنينة ، فهرب ليلاً على متن فرس والتحق بالجبـل . وابتدأت معركة من أعنف المعارك التي واجهتها السلطة التركية في الجزائر .

وقرر صالح رايس أن يسير الى السلطان عبد العزيز رغم ان الفصل لم يكن مناسباً ، لانه كان مزهواً بانتصاره القريب في الجنوب ، والتقى صالح رايس بفرق عبد العزيز التي كان يقودها أخوه الفاضل في جبل بوني . وانتصر صالح رايس في هـذه المعركة التي قتل فيها الفاضل أخوه عبد العزيز ، لكن هـذه المعركة – رغم انهزام فرق زواوة – منعت صالح رايس أن يتوغل أكثر من ذلك في بلاد القبائـل ، واغتنم عبد العزيز فرصة تراجع صالح رايس فراح يعمل على تحصين القلعة ، كما عمل على استمالة سكان المناطق المجـاورة للقلعة . وعندما جاء فصل الربيـع وجه صـالح رايس ابنه محمد على رأس الف جندي مسلحين بالبنادق وخمسمائة صبايحي وستة آلاف فارس ونشبت المعركة بين الجانبين قرب القلعة، وانهزم الاتراك الذين أطبقت عليهم قوات عبد العزيز من كل جانب ، ولم تتمكن فلول الاتراك من اللحاق بالجزائريين الا بعد عناء شديد، رغم ان سلطان كوكو كان قد بذل اعانته للاتراك .

وفي السنة الموالية أراد صالح رايس أن ينتقم من هـذه الهزيمة فوجه حملة جديدة ضد عبد العزيز يقودها سنان رايس والقائد رمضان، وانتصر عبد العزيز مرة أخرى في معركة نشبت في واد اللحم ، وألحق بالاتراك أفدح الخسائر ، ويقـال ان قائدي الحملة التركية لم

يتمكنا من اللحاق بمسيلة الا بعد تعب شديد صحبة عدد قليل من الفرسان .

* * *

حملة صالح رايس على المغرب :

في هذا الوقت كان أبو حسون علي بن محمد الوطاسي ابن مؤسس مملكة بني مرين ، يبحث في اسبانيا عن مساندة شارلكان ليعينه على استرجاع عرشه ، وقد لمع أبو حسون في صفوف جيش شارلكان لكنه لم يتمكن من أن يحصل منه على أي شيء ، فذهب الى البرتغال حيث تبنى ملك البرتغال مشروعه وأعطى له ستة بواخر يستعين بها على تحقيق مراده .

في هذا الظرف كان اسطول صالح رايس ينظم هجوماته على السواحل الاسبانية تنفيذاً لمطلب ملك فرنسا هنري الثاني الذي أراد من صالح رايس أن يقلق الاسبان بناء على الاتفاقية المبرمة بين العثمانيين ومملكة فرنسا .

سمع صالح رايس بتحرك ابو حسون ، وكان حينذاك قرب شواطىء ميورقة ، فغادرها متوجهاً نحو مضيق جبل طارق حيث استولى على ابو حسون وعلى بواخره البرتغالية في الخامس من جويلية ١٥٥٣ .

احتفظ صالح رايس بابو حسون في الاسر وقاده الى الجزائر .

لكن ابو حسون عرف كيف يستهوي صالح رايس وعرف كيف يستعمل لهجة الدين المشترك . ثم عرف كيف يهز في صالح رايس رغبة التوسع ولوح له بامكانية ضم المغرب الى الجزائر تحت الراية العثمانية .

طبعاً تركت هذه المشاريع البراقة أثرها في نفس صالح رايس ، فقرر في اواخر سنة ١٩٥٣ ان يرسل الى مليلة اثنتي وعشرين باخرة حربية ، بينما سار هو عن طريق البحر الى المغرب ، على رأس احد عشر الف جندي ، ثم ضم اليه في الطريق حامية تلمسان ، وقد برر صالح رايس حملته هذه ضد المغرب بدخول المغاربة الى ما وراء الحدود التي كانت قائمة بين الجزائر والمغرب .

عندمـا وصل صالح رايس الى تازة اصطدم بفرق الشريف التي كانت تريد ان تسد طريق فاس على صالح رايس ، والتي كانت تعد نحو الخمسين الف جندي .

عسكر صالح رايس في مواجهة هذه القوة الضخمة ، ولم يكن ابو حسون الذي كان يجمع حينذاك صفوف بني مرين ليعزز بعد ذلك قوات صالح رايس — لم يكن أبو حسون قد وصل بعد إلى حيث عسكر صالح رايس .

ورغم الفرق الكبير في عدد جنود القوتين المتقابلتين ، فإن عدداً من قوات الجيش الشريفي كانوا يؤيدون أبو حسون . لذلك خاض المعركة وتم له ما أراد وأجبر الجيش الشريفي على الانسحاب إلى فاس التي بلغها بعد تسعة أيام .

وبعد أن التحق أبو حسون بصالح رايس ، واصل هذا الأخير سيرتـه نحو فاس التي بلغها في الثالث من جانفي ١٥٥٤ . وابتدأت المعركة من الغد أمام أبواب فاس واستمرت يومين كاملين ، انسحب اثرهما محمد المهدي تحت ظلام الليل تاركاً فاس للأتراك ، فدخلها صالح رايس يوم السادس من جانفي وأباح نهبها .

ومكث صالح رايس أربعة أشهر في فاس ، أعلن خلالها أبو حسون ملكا على فاس تحت الحماية العثمانية ،وبعد أن أرسل بالمغانم التي احرز عليها إلى القسطنطينية وإلى الجزائر، رجع إلى الجزائر التي بلغها في أواخر الربيع أو منتصف الصيف (فهناك اختلاف قليل في الروايات المؤرخة لعودة صالح رايس للجزائر) .

واغتنم محمد المهدي انسحاب الأتراك فهاجم أبو حسون وبينما كانت المعركة على أشدها اذ فاجأ أحد الأتراك رشاه محمد المهدي — أبو حسون بضربـــة في مؤخرة رأسه ، فقتل وتفرق شمل جنوده ودخل محمد المهدي الى عاصمته في خريف ١٥٥٤ .

وقد لاحظ الشريف السعدي أن موقع مدينة مراكش أكثر مناعة من مدينة فاس ، فانتقل اليها وجعلها عاصمة ملكه .

طرد الاسبان من بجاية :

كان صالح رايس في طريق عودته من المغرب يفكر في الاحراز عـلى انتصار آخر

يعزز مكانته بعد الانتصارات التي احرزها في الجنوب وفي المغرب ، وبعد ان اطمأن على غرب الجزائر ، وكان صالح رايس بحكم الحروب التي خاضها الى جنب عروج وخير الدين يعتبر الاسبان اعداءه التقليديين ، فقرر طردهم من مدينة بجاية .

وبعد ان احكم خطة مهاجمة بجاية ، غادر مدينة الجزائر في جوان ١٥٥٥ متوجهاً الى بجاية عن طريق البر ، على رأس قوات تركية وعدد من جنود سلطان كوكو ، ووجه عن طريق البحر عدداً من بواخره تحمل المدافع .

نزل صالح رايس مع وادي الساحل الذي بلغه في نفس الوقت الذي وصلته بواخره التي تمكنت من الصعود مع الوادي بفضل تجذيف العبيد الذين كانوا بهـــا وبفضل تضخم الوادي بسبب نزول امطار غزيرة في منتصف سبتمبر، وراحت قوات صالح رايس تطلق نيران مدفعيتها صوب حصون الاسبان ، وحصدت المدافع التركية القصر الامبراطوري في ظرف يوم ونصف ، ثم سقطت القصبة في اليـــوم السادس ، ولم تجد قيادة الحامية الاسبانية بداً من الاستسلام بعد ان فقدت ثلاثة أرباع قواتها ، ودخـــل الجزائريون الى بجاية في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر واستعادوها نهائياً .

ولم يهضم الاسبان هذه الهزيمة فحاكموا قائد حاميتهم ببجاية النسودي بيرالتا بعـــد وصوله الى اسبانيا ، وحكمت المحكمة العسكرية التي مثـــل امامها بقطع رأسه في الميدان العمومي .

صادفت هـــذه الهزيمة الاسبانية التي تتمثل في طردهم من بجاية ، صادفت عرضاً من طرف سلطان مراكش يعرض عليهم ان يعينوه على طرد الأتراك من الجزائر .

ولا شك أن هذا العرض صادف هوى لدى المسؤولين الاسبان ، لكن صالـح رايس الذي برهن في غير مرة على حنكة حربية اطلع على المشروع الأسباني المغربي — لأن كلا من الشريف السعدي وحاكم وهران الاسباني كان يستعمل في هـــذه المفاوضات السرية كمترجمين يهودا من مهاجري الاندلس ، فأطلـع هؤلاء اليهود مواطنيهم من المسلمين الذين هاجروا الأندلس ، وهؤلاء أبلغوا بدورهم أسرار التفاوض الى السلطات التركية. فأرسل صالح رايس الى الباب العالي يحدثه عن المشاريع المشتركة بين أسبانيا والمغرب ، ويشرح له ضرورة توجيه ضربة قاسية الى كل منهما .

وقد رأى صالح رايس أن أحسن ضربة توجه الى المغرب واسبانيا في آن واحد ، تتمثل في استرجاع وهران وطرد الأسبان منها لتكون منطلقاً بحرياً لمهاجمة مملكة الاشراف السعديين .

تلقى صالح رايس الاذن بتنفيذ هذه الخطة ، وارسل له الباب العالي في نفس الوقت ثلاثين باخرة حربية وأربعة آلاف جندي تركي .

عندما اقتربت هذه القوة من الشواطىء الاسبانية ، وجه لها صالح رايس الامر بأن ترسي في رأس ماتيفو حيث كان يوجد هو نفسه صحبة أربعة آلاف جندي وثلاثين باخرة ، ذلك ان صالح رايس كان خائفاً أن ينتشر في الجيش الطاعون الذي ظهر في مدينة الجزائر منذ ستة أشهر تقريباً . وكان صالح رايس يرغب في الوقت نفسه في حث السير الى وهران ليفاجيء حاميتها قبل ان تتصل بنبأ المدد القادم من القسطنطينية .

وسارت بالفعل قوات برية في اتجاه وهران تتكون من حوالي ثلاثين الف جزائري على ان يلحق بها صالح رايس بعد قليل .

وبينما كان صالح رايس يستعد لمغادرة رأس ماتيفو ، وفي الوقت الذي كانت فيه البواخر على أهبة الاقلاع متوجهة الى وهران ، مات صالح رايس مصاباً بالطاعون وقد ناهز سبعين سنة ، في جوان ١٥٥٦ .

الباب الرابـــع

الجزائر في عهد الباي لارباي

- بدء المعركة بين طائفـــة الرياس وفرقة اليولداش .
- عودة ابن خير الدين .
- انتصار بني عباس على الاتراك .
- فشل الحملة المسيحية ضد الجزائر .
- التمرد على حسن باشا .
- محمد بن صالح رايس .
- محاولة دمج طائفة الرياس مع اليولداش .
- ثورة قسنطينة وتعيين قلج علي .
- بدء المطامع الفرنسية في الجزائر .
- انتهاء عهد الباي لارباي .

بدء المعركة بين الرياس واليولداش

ما ان سمع حسان قورصو ، خليفـــة صالح يموت الباي لارباي ، حتى أمسكه بزمام الحكم وقرر من تلقاء نفسه أن يواصل تنفيذ الخطة التي كان شرع فيها صالح رايس .

وصل حسان قورصو إلى وهران ، عن طريق البحر ، وكانت البواخر الحربية قد أنزلت في شط عين الترك المدفعية ، بعـــد أن تركت قسماً من الذخيرة والتموين في مستغانم .

وابتدأ حصار المدينة براً وبحراً ونصبت المدفعية في ناحيتين: الأولى عند باب تلمسان، والثانية فوق الجبل غربي المدينة، وتمكن حسان قورصو من الاستيلاء على حصن القديسين ثم شرع يضيق الخناق على الحامية الاسبانية ، وقد كان سقوط وهران أمراً غير مشكوك فيه ، لولا أن حسان قورصو تلقى من الباب العالي رسالة حملها اليه قلج علي تأمره برفع الحصار عن وهران ، بدعوى أن القسطنطينية في أشد الحاجة إلى بواخرهـا الحربية لرد عدوان أندري دوريا الذي كان يهدد شواطىء البوسفور .

هذا هو السبب الذي تقدمه الروايات التاريخية لتفسير الأمر برفع الحصار ، لكن دي بورمون يقدم في هذا المجال احتمالاً آخر ملخصه ان السلطان العثماني لم ترقه الطريقة التي استولى بها حسان قورصو على الحكم ، وانه خشي منه ان هو تركه على رأس هـذه القوة الضخمة إلى أن يستولي على وهران ، أن يدفعه هذا الانتصار مضافـــاً لكل تلك القوة ، إلى التفكير في الاستقلال بالجزائر ، وربمـــا المغرب ، والانفصال عن السلطنة العثمانية .

والواقع انه ليس في تطور الأحداث التي جرت بعـــد ذلك ولا في منطق السياسة العثمانية بالجزائر ما ينافي هذا الاحتمال ؛ ومهما يكن من شيء فان حسان قورصو رفع الحصار عن وهران وهو أشد ما يكون يقيناً بقرب الانتصار ، واضطر إلى التخلي عن

قسم من عتاده الحربي ، واغتنم قائد الحامية الاسبانية هذا الانسحاب فراح يطارد القوات الجزائرية ، واغتنم محمد المهدي هذه الفرصة بدوره فهاجم تلمسان واستولى عليها ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على المشوار الذي استبسل في الدفاع عنه الأتراك الذين تتركب منهم حامية تلمسان .

كان حسان قورصو يفكر في نتائج رفع الحصار عن وهران ، والمرارة تحز في نفسه ان سُرِقَ منه هذا الانتصار العظيم الذي كان يراه ماثلاً أمامه قريباً ، والذي كان سيجعل منه علماً بارزاً من أعلام ذلك العصر لا يقل سمعة وهيبة وخطورة عن عروج وخير الدين . وفيما كان حسان قورصو نهباً لهذه المرارة وهذه الألم ، إذ بلغه نبأ تولية جلبي كرداوعلي . فثار على هذه التولية وأطلق في وجه قوات الباي لار باي الجديد مدافع عنابة وبجاية ، ومنعه من دخول ميناء الجزائر . لكن طائفة الرياس قررت مساندة الباي لارباي الجديد فأدخلته ليلاً إلىمدينة الجزائر وأوصلته إلى القصر وأعلنت الولاء له، وفي نفس الوقت تم إلقاء القبض على حسان قورصو وقتله.

ذلك أن طائفة الرياس كانت تعتبر أن أعضاءها أحق بالولاية نظراً لسابق صحبتهم مع عروج وخير الدين – وقد بدأت طائفة الرياس تشعر بمنافسة الجنود اليولداش الذين كانوا ينظرون بعين الحسد الى الثروات التي كدسها الرياس خلال غاراتهم البحرية العديدة، وكان جنود حسان قورصو ويتوقون الى المساهمةفي الغزوات البحرية،ويطمحون الى مثل تلك الثروات ، وليس هناك من شك في أن طائفة الرياس كانت تخشى نواة هذه القوة النامية ، لذلك ما لبثت قيادة طائفة الرياس ان تفاهمت مع مبعوث الباب العالي ومساندته ضد حسان قورصو ، مشتغلة المناصب التي يحتلها الرياس – فمنذ استقرار الاتراك بالجزائر ، كان رياس البواخر الحربية هم الذين يعهد اليهم بحراسة الميناء والأبواب البحرية للمدينة ، واستغل الرياس ظلام الليل فاحتلوا في سكون الليل الانهج المجاورة لمدخل الميناء وفاجأوا حراس القصر والحصون وعوضوهم برجالهم ، وعندما استيقظت المدينة في الصباح وجدت نفسها تحت مدافع الباشا الجديد الذي أذاع أوامره من الجنينة، وسلطت طائفة الرياس التعذيب على قائدي عنابة وبجاية لتأييدهما لحسان قورصو .

فوجئت فرقة اليولداش التركية بموجة الارهاب تنصب عليها من كل جهة ، لكن

الخضوع والاستسلام الذي فرضته المفاجأة ما لبث أن ترك المكان لرغبة قوية في الانتقام، وتزعم يوسف قائد تلمسان السابق حركة الانتقام لمقتل حسان قورصو الذي كانت تربطه به روابط صداقة قديمة ، وانتظر المتآمرون أن تحين الفرصة المواتية لاعلان حركتهم ، وكان الطاعون لا يزال منتشراً في العاصمة ، وكان الباشا قد التجأ الى مكان يبعد عن العاصمة بثلاثة أميال نصب فيه خيامه على شاطىء البحر هروباً من الوباء وانتظر المتآمرون تغيب معظم الرياس في احدى غاراتهم البحرية ، فاستولوا على أبواب المدينة ، بينما هجم زعيمهم على معسكر الباشا الذي سارع يركض على فرسه الى المدينة لينظم رد الفعل ، الا انه فوجىء بالابواب تغلق في وجهه ، ولاحقه يوسف الى ان لحقه وطعنه برأس حربته فأرداه قتيلاً .

لكن يوسف لم يلبث ان مات بالطاعون على ما يقال بعد ستة أيام من انتصاره على الباشا فخلفه في سنة ١٥٥٧ القائد يحيى الذي كان اختاره صالح رايس لخلافته أثناء تغيبه عن الجزائر ، وحاول القائد يحيى أن يحفظ النظام في انتظاره مقدم الباي لارباي الذي سيعينه الباب العالي ، الذي وقع اختياره مرة ثانية على ابن خير الدين .

عودة ابن خير الدين .

كان الديوان العثماني في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية أشد ما يكون قوة واعتدادا ، ولم يكن قد تسرب اليه الاحتلال والوهن الذي نال منه بعد ذلك .

من أجل ذلك لم ترق أحداث الجزائر للباب العالي ، ولم ينظر الى مقتل كردا وعلي نظرة رضا ، ورأى في ذلك كله بوادر تدل على وجود استعداد للتمرد عليه ان هو لم يعالج الأمور في الابان .

لكن طبيعة النظام العثماني الذي كان قائماً على القوة العسكرية والروح العسكرية التي تطورت بعد ذلك الى روح طائفية ضيقة ، حال دون ان تنظر الدولة العثمانية الى المشكل نظرة سليمة وبالتالي حال دون ان تهتدي الى الحل الأسلم الدائم .

ومهما يكن من شيء فقد رأى الباب العالي أن العلاج الأنسب لحوادث الجزائر هو

تعيين حسان بن خير الدين مرة اخرى في منصب باي لارباي نظراً لما كان يتمتع به من سمعة طيبة بين سكان الجزائر من جهة وبين طائفة الرياس البحريين رفاق ابيه من جهة اخرى ؛ ولئن كان السفير الفرنسي ينظر بعين الارتياب الى هذا التعيين فقد بذل الوزير الاكبر مجهوده لكي يصالح بين ابن خير الدين وممثل الملك الفرنسي .

وصل حسن باشا الى الجزائر في شهر جوان ١٥٥٧ ، على رأس عشرين باخرة حربية ، تكفي اذا ضمت الى قوة الرياس البحريين بالجزائر في تكوين قوة كافية لخضد شوكة فرقة اليولداش التي اضطرت الى الاستسلام .

وعندما وصل حسن باشا الى الجزائر وجد أمامه وضعية صعبة ، ذلك أن الشريف السعدي استغل الفوضى والاضطراب الذي ساد الجزائر فهجم على تلمسان وانتصب بها القائد منصور الذي أعلن حفيده ملكاً على تلمسان وان كان لم يتمكن من الاستيلاء على المشوار كما قلنا سابقاً الذي استبسل في الدفاع عنها جنود الحامية التركية .

فبادر حسن باشا بالسير الى تلمسان لانقاذ الحامية المتحصنة بالمشوار ، يصحبه ستة آلاف جندي تركي وستة عشر الف من الجزائريين ، وما ان سمعت قوات الشريف السعدي بقدم الجزائريين حتى فرت عابرة الحدود الجزائرية الى التراب المغربي، فتعقبتها القوات الجزائرية الى ان لحقت بها على أسوار فاس ، وكانت القوات المغربية تتركب من أربعة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وثلاثين ألف فارس ، وعشرة آلاف من المشاة ، ونشبت معركة عنيفة أسفرت عن خسائر فادحة في الجانبين ، لكن المعركة لم تكن مع ذلك فاصلة ، اذ لم يتبين فيها المنتصر من المنهزم .

وقد صممت قيادة القوات الجزائرية على أن تواصل المعركة الى مداها ، لأن حسن باشا كان يدرك مدى السمعة والمكانة التي يكسبها لدى الباب العالي ان هو تمكن من قهر المغرب وضمه الى الجزائر تحت الراية العثمانية ، كما كان يعرف أن ذلك هو الطريق الوحيد لتشديد الخناق على القوات الاسبانية في وهران وطردها من هناك .

لذلك ما ان جاء الليل حتى عسكر حسن باشا فوق ربوة قريبة من ميدان المعركة استعداداً لاستئناف القتال من الغد ، وفيما هو يعد الخطة لمعركة الغد ، إذ بلغه أن

القوات الاسبانية التي تحتل وهران تستعد لتقطع عليه خط الرجعة فيما اذا انهزم ، ولتهاجمه من الخلف فيما اذا استمرت المعركة طويلاً ، ولما كانت قوات الحسن الثاني قد تكبدت خسائر فادحة فقد رأى ان المصلحة تملي عليه الانسحاب وانه من الخطر المغامرة بما تبقى معه من قوة وتعريضها للوقوع بين قوتين عدوتين .

فانسحب حسن باشا، وترك نيران معسكره مشتعلة حتى لا تفطن القوات المغربية الى انسحابه .

وانقسمت القوات الجزائرية – التركية في انسحابها الى قسمين : قسم أخذ طريق تلمسان وقسم سلك طريق فصاصة حيث كانت البواخر في انتظارهم لتنقلهم الى الجزائر .

وقد تبين حسن باشا على ضوء هذه الحملة من حقيقة كان قد غفل عنها قبلاً : وهي أنه من المستحيل عليه ان يقود حملة قوية ضد المغرب طالما استمر الاسبان في احتلالهم لوهران ولذلك قرر ان يطردهم من هذه القاعدة قبل ان يتوغل من جديد في التراب المغربي .

وبما أن الباب العالي ، كان قد اوعز اليه ان يستعمل كل الاساليب الممكنة للتخلص من الأشراف السعديين والقضاء عليهم ، فقد تفاهم حسن باشا مع احد ضباطه ، وهو صالح الكاهية على حبك حيلة لقتل سلطان المغرب ، فتظاهر صالح الكاهية انه فر على رأس بعض جنوده الى المغرب، فتلقاه محمد المهدي بالترحاب وعينه ضمن حرسه الخاص . واغتنم صالح الكاهية فرصة احد الاستعراضات العسكرية فهجم على السلطان وقطع رأسه بينما كان رفاقه يقتلون اعضاء الحرس تقتيلاً .

***

سقط في يد الكوديت ان يفلت منه حسن باشا ويفسد عليه خطته خصوصاً وانه احس من جهة اخرى ان عودة الاتراك الى السيطرة على تلمسان ستشد الخناق على القاعدة الاسبانية في وهران .

لذلك قرر الكوديت الهجوم على مستغانم ليجعلها نقطة انطلاق لهجوم كبير ضد الجزائر وانضم ابن بو غانم الى الكوديت بقواته ، بعد اتفاق مع سلطان المغرب على أن

يتوجه الى مليانة ليسد الطريق امام حسن باشا فيما اذا فكر في الخروج من الجزائر الى الشلف .

شرع الكوديت في مسيرته نحو مستغانم يوم ٢٢ أوت ١٥٥٨ على رأس اثني عشر الف اسباني ومدفعية ضخمة وعدد كبير من قوات القوم ، وفي نفس الوقت كانت البواخر تسير في خط مواز مع البحر تحمل المؤونة والذخائر .

لكن حسن باشا كان قد احتاط للأمر ، فاستولت قواته البحرية على البواخر الاسبانية بالقرب من ارزيو . ونزل النبأ نزول الصاعقة على القوات الاسبانية التي تحطمت معنوياتها وفقدت التموين واصبحت نهبا للمجاعة لان قلج علي كان قد خرج من تلمسان وقطع على الجيش الاسباني خط التموين عن طريق البر ووجدت القيادة الاسبانية انه لا مناص لها من مواصلة السير الى مستغانم ومحاولة الاستيلاء عليها قبل ان يلحق بها جيش حسن باشا ، لكن سكان مستغانم دافعوا عن بلدهم دفاعاً مستميتاً ، فقد كانت المعارك دائرة في كل مكان من المدينة ، وامام كل منزل . وما ان سمع حسن باشا بانهاء هذه المعركة حتى حث السير الى مستغانم التي وصلها في منتصف نهار فضرب الاسبان ضربة قاسية شتت قوتهم والحق بصفوفهم خسائر فادحة ، ووجدت القوات الاسبانية انها هي التي وقعت في الفخ بعد ان كانت خطتها هي إيقاع القوات الجزائرية بين قوتين عدوتين ، وقتل القائد الاسباني الكوديت في المعركة بينما كان يحاول الفرار مع ابنه ووقع دون مارتان في الأسر ، وعندما بلغ نبأ الهزيمة الى اسبانيا اخفته الحامية الملكية عن شارلكان الذي كان في ساعة الاحتضار اذ ان اسبانيا خسرت في هذه المعركة احسن ضباطها وكان ذلك في شهر سبتمبر ١٥٥٨ .

انتصار بني عباس على الاتراك :

عاد حسن باشا الى الجزائر منتصراً ، واتجه بتفكيره الى المناطق الشرقية من الجزائر التي اصبح متخوفاً منها بعد الانباء التي وصلتها عن استعدادات سلطان بني عباس العسكرية ، وفعلاً فقد كان السلطان عبد العزيز ، سلطان بني عباس ، يسيطر من عاصمته على سهل مجانة الفسيح ، وهو بسيطرته على هذا السهل يتحكم في الطريق بين عاصمة الشرق

الجزائري ، قسنطينة ، وبين الجزائر ، وبالتالي فهو يتحكم في الطريق بين الجزائر وتونس ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان عدم خضوع هذه المنطقة للاتراك يعني ان السلطة التركية فقدت الشرط الاساسي الذي يضمن استمرار نفوذها على الشرق الجزائري .

وقد حاول حسن باشا اخضاع السلطان عبد العزيز بالقوة لكنه لم يستطع ، فحاول استمالته بطريقة اخرى اذ عرض عليه أن يصاهره ، لكن يبدو ان السلطان عبد العزيز كان يفكر في تنظيم مملكة مستقلة عن الاتراك تكون بحاية عاصمة لها ، وقد كان استعد لذلك باكتساب مدفعية ضخمة وتجهيز ذخيرة حربية كافية ، كما ضم الى جيشه عدداً من المرتزقة المسيحيين الذين فروا من أسر الاتراك .

وقبل أن يشرع حسن باشا في تنظيم حملته ضد عبد العزيز أراد ان يضمن ولاء سلطان كوكو ، أحمد بن القاضي ، فتزوج ابنته ثم سار الى بني عباس ، فاستولى على المسيلة وشيد حصوناً في زمورة وعلى مقربة من برج بوعريريج وترك في تلك الحصون حاميات تركية تؤمن الطريق الى قسنطينة . لكن السلطان عبد العزيز استولى بسرعة على تلك الحصون فور انسحاب حسن باشا من المنطقة ، فاضطر حسن باشا الى خوض المعركة من جديد ضد عبدالعزيز الذي كان يستعمل فن حرب العصابات المنهك للقوات التركية التي لم يكن لها به عهد ، وكان عبد العزيز يستغل معرفته ومعرفة رجاله بمسالك الجبال في تنظيم معارك جزئية صغيرة. وفي واحدة من تلك المعارك قتل السلطان عبد العزيز فخلفه أخوه أحمد أمقران الذي تمكن من الصمود في وجه الاتراك الذين انسحبوا في نهاية الامر وقد أنهكتهم طبيعة تلك المعارك ، وكانوا يعزون انفسهم بأنهم أخذوا معهم رأس عبد العزيز (سنة ١٥٥٩) .

ولم يبق أحمد أمقران مكتوف اليدين ، فوسع نطاق نفوذه بالاستيلاء على كوكو ، وأجبر الاتراك بعد حرب منهكة استمرت عامين ، على ان يتفاهموا معه في ١٥٦١ ويعترفوا به سلطاناً .

فشل الحملة المسيحية ضد الجزائر :

ويبدو أن من بين العوامل التي دفعت حسن باشا إلى التفاهم مع سلطان بني عباس هي الاستعدادات المسيحية التي سمع بها، فقد بدأت المشاريع التي ظل البابا بيوس الرابع يدعو لها من زمان ، والتي تتمثل في تنظيم هجومات واسعة النطاق ضد الجزائر – بدأت تلك المشاريع تتجسم ، فقد تجمعت في موانىء اسبانيا وصقلية وايطاليا قوات هائلة . وكانت خطة هذه القوات المسيحيـــة تتمثل في الاستيلاء على طرابلس الغرب في مرحلة اولى ، لتترك بها أسطولاً ينضم اليه أسطول صقلية ومالطة ، وتكون مهمتـــه هو الحيلولة دون أن تصل أية امدادات بحرية من القسطنطينيـــة إلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك تصبح الجزائر في عزلة وتصير عاجزة عن أن تواجه بمفردها هـــذه القوات المسيحية ، وآنذاك تتحقق المرحلة الثانية من الخطـــة وهي الاستيلاء على الجزائر .

عين دوق مدينا – سيلي قائداً عاماً للحملة التي كانت تشتمل على عشرة آلاف رجل وتسع وسبعين باخرة ، تقرر أن تنضم اليها بواخر فلورنسا وموناكو وصقلية وجنوة .

تحركت وحدات الاسطول المسيحي يوم ١٠ فيفري ١٥٦٠ ، ومضى ما يقرب من شهر على ذلك عندما نشبت المعارك يوم ٨ مارس على شواطىء جربة ، لكن الامداد قدمت بسرعة من القسطنطينية يوم ١٥ مارس فشتتت البواخر المسيحيـــة ، ثم حاصرت البرج الذي كان يحتله المسيحيون في الجزائر ، وانتهت المحاولة المسيحية بهزيمة شنعاء فقد فيها المسيحيون أحسن بواخرهم الحربية ، ونحو العشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير .

وفي نفس الوقت الذي تنظمت فيـــه هذه المحاولة ، عزز سلطان المغرب هجوم المسيحيين بهجوم شنه هو على تلمسان التي طرد منها الأتراك ، لكنه ما ان علم بانهزام المسيحيين حتى انسحب عن تلمسان .

وهذا الهجوم المغربي عن تلمسان أثار من جديد مخاوف الأتراك فيما يتعلق بالناحية الغربية من الجزائر – ففكر في تنظيم حملة ذات هدف مزدوج : ضد المراكز الاسبانيـــة في وهران من جهة ، وضد سلطان المغرب من جهة ثانية .

إلا أن تنفيذ مثل هذا المشروع كان يصطدم بعقبة كأداء في نظر حسن باشا تتمثل موقف الجنود الأتراك بعد أن يتغيب هو عن الجزائر ، فهو لم ينس أن فرقة اليولداش التركية ستغتنم أول فرصـــة تسنح للانتقام من الرياس البحريين ومن حسن باشا الذي اعتمد عليهم .

وأراد حسن بن خير الدين ان يحتاط للامر بتجنيد عـدد كبير من رجال زواوة يترك مدينة الجزائر تحت حراستهم أثناء تغيبه .

التمرد على حسن باشا وابعاده

وقد كان ما توقعه حسن باشا صحيحاً . لكن الجنود الاتراك لم ينتظروا تغيبه عن الجزائر لينفذوا خطتهم . فقد بدا لهم ان حسن باشا تجاوز كل حد وانه اصبح اهلاً لان يسلطوا عليه عقاباً بأنفسهم فقد سائتهم ولاية حسن باشا من اصلها باعتبار انه لم يكن تركياً صافياً اذ ان امه جزائرية ، وزاد استياءهم عندما رأوه صاهر ابنة سلطان كوكو. وبلغ بهم الاستياء أشده عندما رأوه يستعد لتكوين فرق قوية من زواوة يعهد اليهـــا بحراسة مدينة الجزائر ، وقد توهم الجنود الاتراك انهم عثروا في نفس الوقت عـلى مبرر شرعي لتمردهم على حسن باشا ، لذلك مـا ان سمعوا بموت الوزير الاكبر الذي كان يدافع عن حسن باشا لدى الباب العالي ، حتى هجموا ليلاً على القصور والقوا القبض على حسن باشا واتباعه واوثقوهم ، والقوا بهم في باخرة اقلعت بهم متوجهة الى القسطنطينية، وكان ذلك في جوان ١٥٦١ .

وتتمثل الحجة التي بسطها ممثلوهم لدى الباب العالي لتبرير عملهم في ان حسن باشا كان ينوي الاستقلال بالجزائر والانفصال نهائياً عن السلطة العثمانية ، وبذلك يبدو تمردهم ضد السلطة الشرعية في قالب ولاء للسلطان العثماني . واستدلوا لتدعيم قـــولهم بالعناصر الجزائرية التي جندها حسن باشا وارادوا ان يوهموا السلطان العثماني ان تجنيد تلك العناصر

الجزائرية ليس الا بداية فقط لتكوين جيش جزائري يعتمد عليه في تأسيس مملكة جديدة يريد لها ان تمتد الى ان تشمل كامل الشمال الافريقي .

وليس هناك ما يؤكد صحة هذا الاستنتاج، بل يبدو بالعكس من ذلك ان حسن باشا ادرك ان الطريقة العسكرية التي نظمت بها الادارة في الجزائر ، وان احتلال الاتراك لكل المناصب العامة ، ستحول دون استقرار ادارة قوية تتشتت قوتها في الحروب والغزوات وستجعل ممارسة السلطة الفعلية امراً مستحيلاً بفعل تمرد الجنود الذي سيتعدد بتعدد الشهوات وانواع السخط .

ولعل تعلق الجزائريين بحسن باشا ورضاهم عنه لا يرجع فقط الى كونه من ام جزائرية ، ولكنه يرجع ايضاً الى هذا التفهم للوضع والى محاولته تشريك الجزائريين في المسؤولية ، بينما كان الجنود الاتراك يريدون اقصاءهم على كل المناصب الهامة .

وبعد ان أرسل حسن باشا الى القسطنطينية تولى بعده قائدا المؤامرة وهما حسن قائد الجنود ونائبه قوصة محمد . لكن الباب العالي لم يعترف بهذه الولاية المغتصبة ، فولى أحمد باشا الذي وصل الى الجزائر بعد ثلاثة أشهر من وقوع المؤامرة ، فألقى القبض على قادة التآمر وأرسل بهم الى الوزير الأكبر الذي أمر بقطع رؤوسهم .

حسن باشا للمرة الثالثة :

ويبدو ان أحمد باشا لم يفعل شيئاً يذكر خلال ولايته التي كانت قصيرة إذ أنه توفي بعد ثلاثة أشهر ، ويقال انه من المحتمل أن يكون موته نتيجة سم دسه له أعداؤه ، فلجأت القسطنطينية إلى تعيين حسن ابن خير الدين للمرة الثالثة بعد أن لمست الفراغ الذي تركه في الجزائر . وقد وضع بيالي باشا تحت تصرفه عشرة بواخر حربية ليقاوم بالقوة كل محاولة قد تبدو من الجنود الأتراك لسد الطريق عليه ومنعه من تسلم زمام الحكم . لكن مقتل رؤوس التمرد كان قد أتى ثماره ، ودخل حسن باشا الى قصر الجنينة دون مقاومة .

وقد بدأ حسن باشا بتنفيذ المشروع الذي كان على وشك تنفيذه عندما اختطفه الجنود،

وهو تطهير مرسي الكبير ووهران من الاحتلال الأسباني ، فجمع لهذا الغرض جيشاً يتركب من خمسة عشر الف جندي ما بين أتراك واسبان ارتدوا عن دينهم ، وألف صبا يحي واثني عشر الف من رجال زواوة وبني عباس .

وبعد ان عهد الى وحدات الأسطول الجزائري بحمل التموين والذخيرة ، تحرك حسن باشا من الجزائر يوم الخامس من فبراير ١٥٦٣ ، تاركاً الجزائر تحت حراسة نائبه علي شتلي ، ووصل أمام وهران يوم الثالث من أبريل بعد ان تأكد من قطع طريق التموين على القوات الاسبانية .

عسكر حسن باشا في رأس العين ونصب في يومه الأول مدفعين تجاه برج القديسين .

كان حاكم وهران في ذلك الحين هو دون الونسو ، بينما كان أخوه دون مرتان مكلفاً بالدفاع عن مرسي الكبير ، وقد تمكنت القوات الجزائرية من الاستيلاء على برج القديسين ، ثم توجهت الى مرسي الكبير ، وتولى حسن باشا قيادة ثلاثة هجومات ضد حصن سان ميشال ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه ، رغم انه تمكن من احداث فجوة غرس فيها العلم الجزائري . إلا أن حسن باشا اعتبر ان هذا الفشل مؤقت وصمم على الاستيلاء على مرسي الكبير مهما كان الثمن ، وأمام تصميم الجانب الجزائري على مواصلة الهجوم اضطرت القوات الاسبانية الى الانسحاب عن الحصن داخل مرسي الكبير ونشبت بهذه المناسبة معركة من أعنف المعارك ألقى فيها حسن باشا بكامل ثقل قوته العسكرية ، وبدأت كفة الانتصار ترجح لفائدة الجزائريين .

لكن حدث في هذا الوقت بالذات ان تمكنت سفينة اسبانية من التسرب الى وهران تحت ستار الضباب ، تحمل رسالة الى القيادة الاسبانية مفادها ان اندري دوريا على وشك الوصول على رأس خمس وخمسين باخرة حربية ، فانتعشت آمال القوات الاسبانية ، إذ أرسل دون ألنسوفور اتصاله بهذه الرسالة عواما الى أخيه يخبره بفحواها ، وتمكن الأسبان الذين انعشهم هذا النبأ من الثبات في وجه الهجومات الجزائرية التي تواصلت في عنف شديد من الحادي عشر من مايو الى الخامس من جوان .

وعندما علم حسن باشا بمقدم الامدادات الاسبانية سحب قواته خشية أن يقطع الاسبان عليه خط الرجعة، قرر ذلك رغم ما يحز في نفسه من ألم ان تخلى عن حصار مرسي الكبير في الوقت الذي اصبحت فيه على وشك السقوط ، فأقام بذلك الدليل على نظر بعيد لا يترك مجالاً لسيطرة العاطفة الجموح .

محمد بن صالح رايس

أثر فشل الهجوم على وهران تأثيراً بالغاً على السلطان سليمان العثماني . وقرر للانتقام من ذلك أن يهاجم جزيرة مالطة ليطرد منها فرسان مالطة الذين اشتهروا بعداوتهم الشديدة للاسلام ، حتى يضم إلى نفوذه قاعدة بحرية يعزز بها سيطرة العثمانيين على حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد ساهم حسن باشا في الهجوم على مالطة تحت أمرة قائد الأسطول العثماني مصطفى باشا . وتجمع مختلف الروايات التاريخية على أن حسن باشا كان مضرب المثل في الشجاعة والاقدام، لكن قدوم نجدات بحرية مسيحية تحت قيادة نائب ملك صقلية أحبطت المحاولة العثمانية في الثامن من سبتمبر .

وكان السلطان العثماني ، سليمان الأول ، قد مات قبل ذلك بيومين ، في السادس من الشهر نفسه . فخلفه ابنه سليمان الثاني الذي سارع بتعيين حسن باشا قائداً عاماً للاسطول العثماني ، أي في نفس المنصب الذي كان احتله أبوه خير الدين قبل ذلك بثلاث وثلاثين سنة وخلفه في الجزائر محمد بن صالح رايس .

عندما قدم محمد بن صالح رايس إلى الجزائر وجد الطاعون منتشراً في الجزائر منذ أربع سنوات ، كان خلالها حسن باشا مشغولاً بتأمين حدود الجزائر وكسر شوكة العدو الاسباني .

وضاعف المصاعب التي وجدها محمد بن صالح رايس انتشار مجاعة كبرى تسببت في كارثة ثالثة هي كثرة قطاع الطرق والاعتداءات الفردية ، حتى أصبحت ضواحي الجزائر نفسها غير مأمونة .

انصرف محمد بن صالح رايس إلى معالجة هذا الوضع ، فاستخدم المؤونة والأغذية عن طريق البحر ، ونظم المعركة ضد قطاع الطرق ، وساهم بنفسه في بعض الحملات التي نظمت ضدهم .

محاولة جوان قاسكون :

حدت هذه الوضعية الصعبة بأحد القراصنة المسيحيين ، اسمه « جوان قاسكون » ، إلى التفكير في احتلال الجزائر بواسطة هجوم خاطف يفاجيء حراس الميناء ، ويضرم النار في وحدات الاسطول الجزائري . وبعد أن تحصل جوان قاسكون على اذن ملك اسبانيا سار في اتجاه الجزائر ، وتمكن من الدخول إلى الميناء ليلاً ، دون أن يفطن اليه أحد ، وكانت البواخر الجزائرية مرصوفة بعضها إلى جانب بعض بحيث يكفي اضرام النار في باخرتين أو ثلاثة لتلتهم النار معظم الأسطول ، وزود قاسكون لهـــذا الغرض رجاله ببعض المواد المحترقة ، وأصدر لهم الأمر باستعمالها بينما يحاول هو الالتحاق بالسجن الذي يعرف انه يضم عدداً كبيراً من الأسرى المسيحيين .

لكن عبثاً انتظر قاسكون اندلاع النار في البواخر الجزائرية ، فقد استولى الهلع على رجاله ، وكانت حراسة الميناء قد تفطنت حينذاك للحادث ، فأعلنت النذير ، وأسقط في يد جوان قاسكون الذي حاول رغم ذلك الاستمرار في تنفيذ خطته فكان يهيب برجاله أن يصمدوا ، لكن رجاله اختطفوه وفروا به ، إلا أن البواخر المكلفة بحراسة الميناء تعقبته حتى لحقت به وأسرته ثم عادت به إلى الجزائر .

وعندما سمع سكان الجزائر بوقوع جوان قاسكون في الأسر سارعوا إلى المطالبـــة برأسه ، وعندما استشار الباي لارباي الرياس البحريين في أمره ، عارضوا في قتله، وقالوا انه أسير حرب ، وأسير الحرب لا يعدم ، ودافعوا عن حقه في دفع الفدية مثل بقيـــة الأسرى ، لكن الباشا رغم ذلك أراد ترضية الجماهير فدفع بجوان قاسكون للجماهير التي عذبته حتى الموت .

ان الموقف الذي وقفه الرياس في الدفاع عن جوان قاسكون ينفي عنهم تهمة القرصنة

التي حاول الصاقها بهم بعض المؤرخين الغربيين الذين تأثروا بروايات مسيحية مغرضة ، ان ما في هذا الموقف من نبل يؤكد ان الرياس كانوا يعتبرون أنفسهم مقاتلين نظاميين في خدمة دولة لا قطاع طرق وقراصنة يعملون لحسابهم الخاص .

محاولة دمج طائفة الرياس مع الجنود

كان محمد بن صالح رايس يعرف بحكم الوسط الذي نشأ فيه ان العداوة بين طائفة الرياس البحريين وبين اليولداش ظلت مستحكمة ، وانه بناء على ذلك لا يمكن بناء قوة متماسكة تستند عليها السلطة العثمانية وتطمئن اليها . كما كان يعرف ان هذه العداوة ستكون عاملاً يشجع الجزائريين على التفكير في التخلص من السيطرة العثمانية .

لذلك عمد محمد بن صالح رايس الى محاولة تهدف الى القضاء على هذه العداوة ، بواسطة ادماج القوتين في قوة واحدة ، فأذن للجنود الاتراك أن يركبوا البواخر البحرية بوصفهم مقاتلين نظاميين وأن يساهموا في الغزوات بنفس عنوان الرياس ، ويقتسموا معهم المغانم .

لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح الدائم الذي كان يرجوه محمد بن صالح رايس : ذلك ان الرياس لم يغفروا للجنود سابق موقفهم ، فلم يسمحوا لهم بالمساهمة في كل الغزوات ، وانما كانوا يدعونهم ، من حين لآخر ، للمساهمة في غزوة غالباً ما تكون قليلة الاهمية ، ولذلك ما فتئت تلك العداوة أن طفت فوق السطح وظهرت من جديد واستمرت كامل العهد العثماني .

وفي نفس الوقت تفرغ محمد بن صالح رايس لتحصين الجهة الغربية من مدينة الجزائر فبنى بها برجين هامين : أطلق على أحدهما اسمه ، وأطلق على الثاني اسم حاج علي ، وقد عرف هذا البرج الاخير بعد ذلك باسم برج قلج علي ، وباسم باب الواد .

ثورة قسنطينة ونقل محمد :

وبينما كان ابن صالح رايس متفرغاً لهذه التحصينات اذ ثار سكان قسنطينة بايعاز من التونسيين ، فأعدموا الجنود الذين تتركب منهم الحامية التركية ، فلم يتردد محمد بن صالح

رايس في السير اليهم ومحاربتهم ، وكل من وقع في يده ، أعدمه أو باعه عبداً ، ثم نصب رمضان تشولاق بايا على قسنطينة وعاد الى الجزائر . ولم يمض وقت طويل على عودته من قسنطينة حتى علم بأن السلطان العثماني عين قلج علي باي لارباي .

ويربط بعض المؤرخين بين حادث قسنطينة وبين عزل محمد بن صالح رايس عن ولاية الجزائر ، ويقولون ان القسطنطينية لم ترقها المجازر التي ارتكبها محمد بن صالح رايس في قسنطينة ، لذلك قررت استبداله .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا ، فانه لا مناص من الربط بين هذا النقل وحادث قسنطينة ، وعلى فرض أن يكون الباب العالي راضياً على ما تم في قسنطينة ، فيمكن تفسير نقل محمد والحالة هذه ، بأن السلطان العثماني فضل نقله لان استمراره في ولاية الجزائر يكون من بواعث السخط التي قد تدفع سكان قسنطينة الى التفكير في الثورة من جديد انتقاماً من ابن صالح رايس ، أما عندما ينقل ، فان هذا العامل يزول ، وفي نفس الوقت يظهر السلطان العثماني في مظهر المتفهم لرغبات السكان ، ويبدو في مظهر الرجل الصالح الذي له أعوان سوء .

قلج علي :

ولد قلج علي في ايطاليا ، وقع في أسر المسلمين أثناء واحدة من الحملات التي نظمها خير الدين ضد جنوب ايطاليا ، فيما بين سنة ١٥٢٤ وسنة ١٥٢٨ ، عند اقتسام المغانم وقع في سهم الرايس علي أحمد ، اشتغل في البواخر الاسلامية مجذفاً مثل كل العبيد النصارى الذين اشتهر بينهم بوصف « الفرطاس » لصلع كان برأسه .

وقد أسلم قلج علي ، وأصبح بفضل براعته وخبرته بفن الهجومات البحرية ، صاحب مركب بحري يساهم به في الغزوات ضد المسيحيين ، وأصبح بعد ذلك علماً بين رياس الجزائر ، وأحد القادة الأوفياء لحسن باشا الذي عهد اليه بولاية تلمسان وبقيادة حملات عديدة ضد الاسبان وقد أبلى بلاء حسناً أثناء الهجوم المسيحي على جربة وكان له دور بارز في ترجيح كفة النصر لفائدة المسلمين، كما لمع بعد ذلك في الهجوم الذي نظمه العثمانيون ضد مالطة .

كل ذلك دفع السلطان العثماني الى تعيينه باي لارباي افريقيا في مارس ١٥٦٨ .

بدأ قلج علي ولايته في الجزائر بتنظيم حملة واسعة النطاق ضد القوات الاسبانية لطردها نهائياً من الساحل الجزائري ، وبينما بدأ يعد العدة لتنفيذ هذه الخطة ، اذ اتصل بأنباء من اسبانيا مفادها أن عدداً كبيراً من المسلمين للذين مكثوا بالأندلس ولم يتمكنوا من الهجرة ، واجبروا على اعتناق النصرانية — يستعدون للقيام بثورة كبيرة بعـــد أن جمعوا كميات كبيرة من السلاح . بفضل الصلات السرية التي كانوا قد ربطوها مع الجزائريين الذين تفاهموا على تنظيم خطة مشتركة .

لم يتردد قلج علي عند سماعه بهذه الأنباء ان شرع يعد العدة ليقوم بما كان يراه — بوصفه مسلماً — واجباً مقدساً . ويجب أن لا ننسى أن كارثة الأندلس ، رغم أنه قد مر عليها آنذاك أكثر من نصف قرن ، كانت ما تزال حية في نفوس المسلمين ، بسبب الأنباء التي ينقلها اللاجئون والمهاجرون من الأندلس عن المجازر والمظالم التي يتعرض لها المسلمون، كما أن الغزوات التي كان ينظمهـــا المسلمون على شواطىء أوربا الجنوبية وعلى ساحل الأندلس خاصة كانت تعزز آمال المسلمين الذين مكثوا بالأندلس — بعـــد أن تظاهروا بالتنصر — في امكانية استعادة فردوسهم المفقود. خصوصاً وأن سقوط الأندلس في الجناح الغربي من الامبراطورية الاسلامية ، ثم في نفس الحقبة التاريخيـــة التي تم فيها سقوط القسطنطينية في يد المسلمين وامتداد هذه الامبراطورية وسيطرتها مشرفاً على حصن عظيم من حصون النصرانية .

اذن فلا غرابـــة أن يستمر أمل المسلمين في استعادة الأندلس ، لأن عوامل الانهيار المعنوي التي يمكن أن نتخيلها نحن الآن، بالاضافة الى انمرور هذا الزمن قد ضاعف منها، كان تعوضها حينذاك عوامل حماس كبير .

سارع قلج علي اذن بمجرد استقراره بالجزائر الى تعبئة اربعة عشر الف جندي تركي وستين الف جزائري وجههم الى مزغران ومستغانم التي كان وجه اليها قبل ذلك بالمدفعية وبالف واربعمائة ناقة محملة بالبارود والذخيرة الحربية ، لانه كان يريد ان ينظم هجومـــاً منسقاً ضد القاعدة الاسبانية في وهران ، في نفس الوقت الذي يقود فيه حمـــلة الاحتلال

لشواطىء الاندلس ، يضاف الى ذلك ان قلج علي كان يعتمد على الثورة المتوقعة داخل الاندلس في شغل الحاكمين المسيحيين عن وهران وصرف نظرهم عنها .

لكن الاسبان تفطنوا للخطة السرية بسبب عثورهم على مخزن كبير من مخازن السلاح في الاندلس ولذلك أجل قلج علي تنفيذ تلك الخطة .

اندلعت ثورة الاندلس المتوقعة في وقت لم يكن فيه قلج علي ينتظرها وكانت بقيادة شخص اسمه محمد ينتمي الى فرع العائلة الاموية التي حكمت الأندلس . وقد استطاعت حركة الثوار والمسلمين بالاندلس ان تمتد الى الجنوب الغربي من اسبانيا، لكن عدم وجود سند شعبي واسع من الداخل ، بالاضافة الى عدم وجود حركة خارجية قوية تساندها ، كل ذلك جعل تلك الحركة تجنو وتؤول الى الفشل بعد ان صدت في وجه قلج علي بسرعة بمجرد ان سمع باندلاع الثورة صادفت قيام عاصفة قوية شتتت البواخر الحربية وحرمت مسلمي الاندلس من اعانة كانوا في اشد الحاجة اليها ، فلم تصل الى الشواطىء إلا ست بواخر فقط .

وقد حاول قلج علي ان يجدد هذه الاعانة بعد ذلك واستعد ان يسير بنفسه الى الاندلس على راس قوات ضخمة عندما استدعاه سليم الثاني ليعينه على دفع هجوم واسع كانت المسيحية تستعد لتنظيمه ضد السلطان العثماني .

احتلال تونس

كانت تونس قد اجتازت في ذلك الحين حوالي ثلاثين سنة وهي خاضعة لحكم غير قوي : فمنذ ان نظم شارلكان حملته ضد تونس واعاد مولاي حسن الى العرش بقوة الحراب المسيحية ضاعف في كراهية الشعب لهذا السلطان المفروض ، ولذلك ثار عليه الشعب عدة مرات .

فقد تزعم ابنه حميدة حركة سخط ضده ، بينما قامت في القيروان سلطة مستقلة ، لجأ مولاي حسن الى الاسبان يطلب اعانتهم ، لكنه انهزم وانتصر عليه ابنه حميدة لكن حميدة رغم انتصاره وتمكنه من الاستيلاء على العرش لم يفعل شيئاً لطرد الاسبان من حلق

الواد الذي كانت تنتصب فيه المدافع الاسبانية معرضة التونسيين لتهديد مستمر يضاف الى ذلك ان السكان بدأوا يضجون من فداحة الضرائب التي اثقلهم بها حميدة لذلك توجهوا الى السلطة التركية بالجزائر يطلبون اعانتها على تخليصهم من الاسبان ومن حميدة .

توجه قلج علي إلى تونس في شهر أكتوبر ١٥٦٩، تاركاً بالجزائر خليفته مامي قورصو، وعند وصوله إلى باجة وجد حميدة في مواجهته على ثلاثين ألف رجل . لكن قلج علي كان يعرف أن معظم قواد الجيش التونسي هم أنفسهم الذين طلبوا نجدته ، فأنشب معركة مسرحية : وحدث ما توقعه قلج علي منذ الطلقات النارية الأولى ، إذ انضمت اليه القوات التونسية وفر حميدة إلى تونس فاصطدم بأبوابها التي أغلقت في وجهه . فاضطر الى الالتجاء إلى المسيحيين الذين كانوا يحتلون الحصن .

وصل قلج علي إلى تونس دون أن يلقى أية مقاومة في الطريق ، فوضع بها حامية تتركب من ثلاثة آلاف جندي تركي ، تحت قيادة القائد رمضان ، وادخل تحت طاعته المدن الساحلية ومدن الداخل ، وساد تونس نظام لم تعرفه من حوالى ثلاثين سنة .

بعد ذلك عاد قلج علي الى الجزائر بسرعة لتنظيم قواته البحرية على ضوء ما تتطلبه المعركة القادمة ضد المسيحيين الذين بدأوا في تجميع قواتهم لخوض معركة كبيرة ضد السلطنة العثمانية .

وقد ساهم قلج علي في تلك المعركة التي انتصر فيها ؛ وعينه سليم الثاني بعد ذلك قائداً عاماً للاسطول العثماني مع احتفاظه بلقب باي لارباي افريقيا، وبناء على ان هذا اللقب يخول له صلاحية تعيين وال للجزائر يكون خليفته له ، عين لخلافته بالجزائر عرب أحمد .

بدء المطامع الفرنسية في الجزائر .

عندما وصل عرب أحمد الى الجزائر وجدها تخيم عليها الدهشة بسبب انهزام العثمانيين أمام دون جوان دوترتين وكان سكان العاصمة يتوقعون حدوث هجوم مسيحي يستهدف الجزائر هذه المرة .

وهناك من السكان من اغتنم هذه الفرصة فرفضوا دفع الضرائب واستعدوا للثورة في وجه السلطة العثمانية ، فواجه الباشا الجديد هذا الوضع بقمع شديد ، وتمكن من أن يفرض الهدوء والأمن بقوة الحديد والنار ، ثم تفرغ لتحصين مدينة الجزائر بعد أن بلغه أن الاسبان يستعدون للهجوم على الجزائر ، فهدم في باب عزون الذي كان يمكن أن يستغله المعتدون عند الهجوم ، وأعاد بناء باب عزون من جديد بما يتناسب مع متطلبات الدفاع الحربي ، وعمق الخنادق التي كانت تحيط بالجزائر ، وبنى حصناً على البحر وراء قنطرة العفرون ، وزاد في تحصينات الميناء .

وقد حقق عرب احمد كل هذه المشاريع في أجل قصير جداً . لكن ملك فرنسا شارل التاسع لم ترقه هذه المشاريع ، فقد بدأ يفكر في امكانية ضم الجزائر تحت النفوذ الفرنسي .

ولم يكن هذا التفكير في وضع الجزائر تحت النفوذ الفرنسي وليد رغبة توسعية شخصية عند ملك فرنسا ، لكنه نتيجة مخطط سياسي أملته الظروف السياسية التي كانت قائمة حينذاك ، فقد كان ملك فرنسا ينظر بعين الغيرة الى سيطرة سكان جنوة وميلانو على السوق التجارية ، وكان يطمع الى بناء قوة سياسية واسعة تكون نواتها البحرية هي مدينة طولون ، وتشكل مرسيليا مركزها التجاري . لكن تحقيق ازدهار تجاري بمرسيليا رهن بربط علاقات متينة مع الضفة المقابلة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، نظراً لاهمية موقع الجزائر الجغرافي من جهة ، ولكونها تمثل من جهة ثانية نقطة انطلاق هامة نحو المشرق .

إلا ان تنفيذ المشروع الفرنسي يصطدم بعراقيل عديدة لا يمكن التغلب عليها كلها : فهناك دون جوان دوثريش الذي بدأ بعد انتصاره البحري على العثمانيين يفكر في مواصلة المعركة ضدهم بحوض البحر الأبيض المتوسط بالاضافة الى أن اسبانيا تمثل العدو التقليدي للعثمانيين ولبلدان المغرب العربي كلها . وهناك طبعاً العثمانيون الذين لم يتنازلوا بسهولة عن الجزائر . وليس بامكان فرنسا ان تواجه هذه الاطراف مجتمعة فكيف اذا أضيفت اليها الجزائر التي اشتهر سكانها بشدة الشكيمة والثورة في وجه كل احتلال اجنبي .

بقيت طريقة واحدة لتحقيق المشروع الفرنسي وهي التفاهم مع دون أجوان دوثرايش والاسبان على توحيد الجبهة ضد العثمانيين وتنظيم معركة مشتركة ضدهم على أن تشترط فرنسا وقوع الجزائر في نصيبها .

ان مثل هذا الحلف لم يكن ممكناً في ذلك الظرف بالذات لان مثل ذلك الحلف لا بد ان تكون لحمته واحدة من اثنتين : اللحمة الدينية أو لحمة المطامع السياسية الاستعمارية . اما الحلف الديني فلم يكن ممكناً آنذاك ، لان العامل الديني بدأ يضعف ويترك المكان للعوامل التي يغلب عليها الطابع السياسي يضاف الى ذلك ان المسيحية كانت عرفت في ذلك الحين انقساماً خطيراً في صفوفها ، لم يقف عند حدود الخلافات المذهبية العقائدية ، بل تطور الى حروب فعلية .

وأبرز شاهد يسجل تحول ذلك العصر عن عقلية الاحلاف الصليبية هو المعاهدة التي ربطت بين السلطنة العثمانية والمملكة الفرنسية .

اذن فالعامل الديني كان قد فات أوانه في ذلك الحين ولم يكن من الممكن أن يشكل لحمة قوية يقوم عليها حلف في مثل خطورة الحلف الديني الذي صورناه ؛ بقيت المطامع السياسية الاستعمارية .

ان هذه المطامع لم تكن في ذلك الحين قد تطورت بكيفية تجعل أصحابها يبصرون ما يجمع بينهم منها ، رغم ان العوامل الدينية بدأت تترك المكان كما قلنا لعوامل سياسية اقتصادية .

لكن خط تطور هذه العوامل لم يكن قد اكتمل بعد بحيث يبرز نقط الجمع بين الدول الاوروبية .

فالعامل السياسي الاستعماري لم يكن قد وصل أوانه في ذلك الحين ليشكل لحمة تربط بين الاطراف الاروبية المذكورة داخل حلف مشترك ، يضاف الى ذلك عامل آخر وهو ان اسبانيا ، لم تكن لتثق في فرنسا على فرض اقتراح مثل هذا الحلف عليها لاشتهار فرنسا بتحالفها مع العثمانيين منذ عهد فرنسوا الاول .

اذن فأية طريقة يسلك ملك فرنسا للاستيلاء على الجزائر وتنفيذ مشروعه التوسعي عبرها ؟

انها طريقة سهلة ومعقدة في آن واحد . .

فما دام ليس في امكان فرنسا أن تواجه بمفردها الاطراف الثلاثة ، وما دام ليس في الامكان تحقيق حلف مشترك مع اسبانيا فلا بأس من تحقيق المشروع برضا العثمانيين وبدون الدخول في حرب مع الجزائريين ؛ ويتمثل البرنامج الذي وضعه ملك فرنسا لتنفيذ مشروعه في مخطط ذي شعبتين : تمتد شعبته الاولى الى القسطنطينية ، وتتناول شعبته الثانية الجزائر .

ففيما يتعلق بالشعبة الاولى كتب شارل التاسع الى فرانسوا دي نواي سفيره في القسطنطينية يطلب منه أن يضخم لدى السلطان العثماني الاخطار التي تتعرض لها الجزائر من جراء المحاولات الاسبانية . ويشرح له استحالة وقوف القوة العثمانية بمفردها لصد هذا الخطر نظراً لانشغالها من ناحية اخرى برد اعتداءات اخرى حتى اذا اقتنع السلطان العثماني بضخامة هذا الخطر وتأكدت مخاوفه ، يعرض عليه السفير الفرنسي الحل الأوحد :

وهو اعلان الحماية الفرنسية على الجزائر ، وتعيين ملك فرنسي عليها، هو الدوق رانجو فتلك هي الطريقة الوحيدة لإفساد الحسابات والمحاولات الاسبانية .

أما طرف المخطط الذي يتصل بالجزائر فيتمثل في تحريك بعض الجزائريين الذين تربطهم مع الفرنسيين مصالح تجارية ، للمطالبة بملك فرنسي يحميهم من شر الاسبان ؛ هذا هو في نظرنا تفصيل المخطط الذي وضعه شارل التاسع للاستيلاء على الجزائر والذي يمثل أول محاولة للاستيلاء الفرنسي على الجزائر .

نعم ان الروايات الفرنسية تنكر مثل هذا التحليل ، وتقدم القضية في شكل آخر وتقول أن الجزائريين طالبوا فعلاً بتعيين ملك فرنسي عليهم ، وتعترف الرواية الفرنسية بمحاولة السفير الفرنسي الحصول على موافقة السلطان العثماني لتعيين ملك فرنسي .

لكن سياق الحوادث التي جرت في ذلك العهد وتسلسلها ، وما اشتهر به الجزائريون من تعلق بالاستقلال وقوة عاطفتهم الدينية تنفي أن يكون الجزائريون قد طلبوا من تلقاء أنفسهم تعيين ملك فرنسي .

ولئن كانت الروايات التاريخية التي بين أدينا لا تعرض القضية كما عرضناها ، فان ذلك يدل على تبنيها للرواية الفرنسية الرسمية لكنـه من السهل اذا قرأنا حساباً لكل الظروف التي كانت تحف بالقضية وإذا جمعنا كل المعطيات السياسية والاقتصادية التي التي كانت تتحكم في تسيير شؤون الدول حينذاك أن نتصور المخطط الفرنسي على حقيقته ، ومن السهل أن نصحح ما في الرواية الفرنسية من تحرف وأن نبرز المناطق التي تعمدت الرواية الفرنسية تركها في الظلام .

ومما يؤكد صحة الطريقة التي عرضنا بها القضية أن الملك الفرنسي كتب إلى سفيره في القسطنطينية ، يطلب منه اقناع السلطان بضرورة تطبيق المشروع الفرنسي في الحادي عشر من مايو ١٥٧٢ ، وان المساعي الفرنسية استمرت بعد ذلك إلى اكتوبر ١٥٧٣ أي انها استمرت أكثر من سنة ، وليس من المعقول أن تبذل الديبلوماسية الفرنسية مساعي تمتد أكثر من سنة لمصلحة الجزائريين وحمايتهم من خطر الاسبان !

لكن علماء القسطنطينية عندما سمعوا بالمشروع عارضوا فيه وقالوا ليس من الممكن أن يحكم ذمي بلدا مسلماً .

والجدير بالتسجيل ان السفير فرانسوا دي نواي ، كان يعرف ـ نظرا لوجوده في القسطنطينية ولاطلاعه على وجهة نظر علماء الدين ومستشاري السلطان العثماني ـ كان يعرف عبث الخطة الفرنسية واستحالة تحقيقها ، لكنه اضطر امام الحاح شارل التاسع الى القيام بتلك المساعي .

وليس هناك ما يدل على ان شارل التاسع كان ينوي الوقوف عند حد هـذه المساعي وانه لم يفكر في خطة اخرى بديلاً من هذه الخطة ، لان موته حـال دون ان نعرف حقيقة نواياه بعد فشل هذه المحاولة .

طرد الاسبان من تونس

في هذا الوقت استغل دون جوان دوتريش انتصاره البحري على العثمانيين ، فاراد أن يعزز بانتصار آخر فسار في اكتوبر ١٥٧٣ على رأس مائة وثمانية وثلاثين باخرة حربية الى حلق الواد واستولى على تونس وترك فيها ثمانية آلاف جندي بقيادة الكونت سربللوني الذي كان يشاطر مولاي محمد الحفصي الحكم .

ويبدو ان الباب العالي أدرك ان سكوته على هذه الهزيمة قد يفقده صداقة ملك فرنسا وقد يدفع هذا الاخير الى تغيير سياسته والتفكير في طرق اخرى للاستيلاء على الجزائر التي يصعب ان تحتفظ بها السلطنة العثمانية مع وقوعها بين سلطتين متناهضتين بكل من تونس والمغرب .

لذلك صمم السلطان العثماني على ان يرمي بكامل ثقله في المعركة فأمر قلج علي بأن يتحول على رأس اسطوله الى تونس ، وصدر الامر الى سنان باشا القائد العام للقوات البحرية ان ينزل قواته التي تحمل بواخر قلج علي في رأس قرطاج ، وارسل الى عرب احمد ان يوافي هذه القوات على رأس جنوده الاتراك والجزائريين ، وطلب اليه ان يعزز قواته بقوات اخرى يجندها من عنابة وقسنطينة ، وارسل الى طرابلس يطلب منها العدد ايضاً .

وصل سنان باشا الى ضواحي تونس في ١٢ جويلية ، فوجد في انتظاره قوات قادمة من القيروان واخرى من طرابلس ، وبعد بضعة ايام لحق احمد على رأس القوات الجزائرية فكلفوه بقيادة الهجوم على حلق الواد بينما تعهد سنان باشا بتنظيم الحصار على تونس ، وابتدأت المعارك عنيفة في السابع عصر من جويلية ، واستمرت المعارك واطلاق النيران الى ان تمكن الاتراك من احداث فجوة واسعة في السور ، فأصدر سنان الأمر بالهجوم على الحصن . وبينما كان سنان باشا منهمكاً في مهاجمة حصن تونس تمكن الجزائريون يوم ٢٣ اوت من الدخول الى حلق الواد واحتلال القاعدة الاسبانية . بعد ان قتلوا من فيها . آنذاك تحولوا لتعزيز قوات سنان باشا ، ونظمت القوات المشتركة اربع هجومات كبيرة في ايام ٦ و ٨ و ١١ و ١٣ سبتمبر ، وكان هجوم ١٣ ديسمبر هو

الهجوم الأخير الذي قضى على آخر مقاومة للاسبان .

أثار انهزام اسبانيا حبوراً عاماً في القسطنطينية ودفع الوزير الأكبر العثماني إلى ان يقول لسفير البندقية مشيراً إلى الاسطول العثماني المنتصر. « لقد حلقتم لنا ذقننا في معركة ليبانت ، وقطعنا نحن لكم ذراعكم في تونس ، وشعر الذقن ينبت من جديد ، أما الذراع فلن يخلف أبداً » .

ولا شك ان هذا الانتصار أفسد بعض الشيء الحسابات الفرنسية ، فاكتفى ملك فرنسا بأن يطالب بعزل عرب أحمد من ولاية الجزائر بدعوى أنه خرق الاتفاق المبرم بين القسطنطينية وبين فرنسا ونظم عدة هجومات على الشواطىء الفرنسية كما حجز سفينتين فرنسيتين .

وقد استجاب الباب العالي للرغبة الفرنسية فعزل عرب أحمد . لكن الروايات التاريخية الفرنسية تسكت عن ذكر العوامل التي دفعت عرب أحمد إلى خرق المفاهمة التي كانت قائمة بين فرنسا والسلطنة العثمانية ، مع ملاحظة أن السلطنة العثمانية كانت ما تزال محترمة من طرف ممثليها في الجزائر آنذاك ، ولعل الأحداث المسكوت عنها في تلك الفترة كانت من الممكن أن تكشف عن وجود علاقة بين تلك الهجومات الجزائرية على الشواطىء الفرنسية وبين النوايا الفرنسية في احتلال الجزائر وجعلها تحت نفوذ البيت المالك في فرنسا .

انتهاء عهد الباي لارباي :

بعد عزل عرب أحمد ، عين الباب العالي القائد رمضان والياً على الجزائر في سنة ١٥٧٤ .

وفي هذا الوقت كان شريف فاس ، مولاي أبي عبد الله محمد المتوكل قد تحالف مع الاسبان واضطر أخاه مولاي عبد الملك إلى الفرار للجزائر .

بعث مولاي عبد الملك إلى قلج علي بوصفه باي لارباي افريقيا يطلب اعانته على قهر أخيه ووعده في مقابل ذلك ان هو نجح في الجلوس على عرش مملكته ، أن يعلن ولاءه

للقسطنطينية ويعين باشا الجزائر على طرد الاسبان من وهران ومرسي الكبير .

صادف هذا العرض هوى من نفس قلج علي، فطلب هذا الأخير من السلطان العثماني أن يأذن له في اعانة مولاي عبد الملك بناء على أنه لا يمكن اقتلاع القواعد الاسبانيـــة من الجزائر ما دام المغرب يتعاون مع اسبانيا ويعادي االعثمانيين فرخص الباب العالي لقلجعلي في تحقيق مراده .

اتصل القائد رمضان بالتعليمات اللازمة فتحرك على رأس جنـــود أتراك وجزائريين متوجهاً الى المغرب صحبة مولاي عبد الملك وبعض أتباعه الذين كانوا قد ربطوا اتصالات سرية مع أهم قادة الجيش المغربي .

وصل الجزائريون أمام أسوار فاس في أوائل سنة ١٥٧٥ ، فوجدوا أمامهم ابن أبي عبد الله على رأس ستين الف جندي . لكن الجزائريين دخلوا فاس دون أن يخوضوا أية معركة لان أحسن جنود مولاي محمد ومعظم قادته انفصلوا عنه فدخل مولاي عبد الملك فاس وأبقى معه عدداً من الجنود الجزائريين والاتراك أعـانوه على بسط سلطته في كامل المملكة وبعد مرور حوالي ثلاث سنوات قتل مولاي عبد الملك – في الوقت الذي كان يستعد فيه لاعانة الجزائريين على طرد الاسبان من وهران – في معركة كبـــيرة وقعت قرب واد المخزن عرفت بمعركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة : لانه قتل ثلاثـة ملوك في هذه المعركة : عبد الملك ومنافسه المتوكل الذي استنجد بالقوات البرتغاليـــة وانتصب أبو العباس أحمد سلطاناً على المغرب وتلقب بالمنصور .

حسن فنزيانو :

الا ان مقتل عبدالملك ، لم يضع حداً للخطة الاساسية العثمانية – الجزائريـــة ضد القاعدة الاسبانية في وهران ومعنى ذلك انه يجب اختيار والي الجزائر في هذه المرحلة من بين القادة الحربيين الذين اشتهروا بشدة المراس .

ولم يكن القائد رمضان يجمع الشروط التي كان الاتراك يعتبرونها أساسية في تكوين رجل الحرب . لذلك نقل القائد رمضان الى تونس وارسل الى الجزائر بـــدله ، حسن فنزيانو .

كان حسن فنزيانو عندما وصل الى الجزائر في صيف ١٥٧٨ يبلـــغ من العمر حوالي الثلاثين سنة ، وهو من اصل ايطالي كان عبداً لقلج علي .

وقد اشتهر حسن فنزيانو بالحزم والشجاعة والذكاء ، لكن عنفه الشديد وما اشتهر به من شح ونهم لجمع الاموال جعله مبغوضاً من الشعب . وقد وصفه الاديب الاسباني الشهير « سيرفانتيس » (مؤلف دون كستيوت) اذ وقع في اسره ، ورآه عدة مرات فقـــال : انه شخص طويل القامة ، نحيف ، شاحب ، قليل شعر اللحية الأحمر اللون ، العينان لهما نظرة حادة ودموية ، متكبر وعنيف . وبمجرد ما استلم حسن فنزيانو مهام منصبه ، حتى بث الهلع في الجنود الاتراك الذين نزل فيهم انتقاماً وارهاباً ، كما دانت له طائفـــة الرياس بالخضوع ، لانها كانت تخشى ان هي تنمرت في وجهه ان لا يروق ذلك لقلج علي.

وقد نظم الباشا الجديد عدة غزوات ضد جزر الباليار والشواطىء الاسبانية وعـاد منها بمغانم كثيرة .

وقد بلغ الى علمه ان الاسطول الاسباني بصدد التجمع في بلدة « كادي » الاسبانية ، فخشي أن يكون ذلك اعداداً لحملة بحرية كبيرة موجهة ضـــد الجزائر ، فتفرغ لتعزيز تحصينات مدينة الجزائر ، وجدد بناء برج مولاي حسن ، وزود المواقع البحرية بالمدافع وعزز الحراسة عليها .

لكنه ما لبث ان أثار سخط السكان وحتى سخط طائفة الرياس ، بما كان يفرضـــه من جبايات ومغارم ، وبالطرق الملتوية التي كان يسلكها للحصول على الأمـــوال بكل ثمن ، فقد بدأ بالاستيلاء على الاسرى المسيحيين الذين يعرف ان عـــائلاتهم ستدفع أموالاً كبيرة لافتدائهم ، ثم احتكر تجارة الحبوب التي كان يحدد أسعارها باختياره ، وضاعف المغارم وأجبرهم على دفعها حبوباً حتى تبقى له السيطرة على السوق ، وفرض على التجار الاجانب

تقديم هدايا له للحصول على رخص التجارة ، وفرض غرامة جديـــدة يستخلصها هو لفائدته على عمليات الأرث .

من أجل ذلك كله انتشر السخط ، وعمت الشكوى ، لكن لم يكن في استطاعة أحد ان يتحرك خوف ان تنزل عليه صاعقة حسن فنزيانو .

ومما زاد في تعقيد الوضعية ان سنة ١٥٧٨ وسنة ١٥٧٩ كانتا جفـــاف في الجزائر ، فانتشرت المجاعة بكيفية ضاعفت سخط السكان فالمؤرخ هايدو يقول انه مات في مدينة الجزائر في ظرف شهر واحد فقط من ١٧ جانفي ١٥٨٠ الى ١٧ فيفري ١٥٨٠ – خمسة آلاف وستمائة وست وخمسون نسمة – واضطر قسم من سكان العاصمـــة الى الانتشار في الضواحي بحثاً عن الاعشاب يتقوتون منها .

وثارت القبائل الجزائرية في داخل البلاد ورفضت دفع الضرائب ، وفقد الباشا آخر أنصاره عندما أعلنت طائفة الرياس سخطها لما بلغها أن حسن فنزيانو يريد ان يرفـــع من النصيب المخصص له في مغانم الغزوات .

في هذه الفترة اتصل حسن فنزيانو بأمر من قلج علي يطلب منه أن يلحق به ، وبعث مكانـه جعفر باشا الذي كان قـــد نجح في اقرار الأمن بالجر حيث تمكن من القضاء على قطاع الطرق .

جعفر باشا :

ويدل تعيين جعفر باشا في هذه الفترة بالذات على ان القسطنطينية بـــدأت تضج من تصرفـات فنزيانو ، كما يؤكـــد في نفس الوقت تمسك القسطنطينية بخطتها السياسية التي ما انفكت تتبعها منذ عهد خير الدين بالنسبة للجزائر ، وهي الحيلولة دون تطور الشعور الاستقلالي بالجزائر ، ووضع حد بهذه التعيينات السريعة ، لكل محاولة لدفع الجزائر الى الاستقلال عن السلطنة العثمانية .

وقد تأكدت هذه الظاهرة من خلال مسألة معينة ، هي الغزوات الـتي كانت تنظمها طائفة الرياس ضد الشواطىء الفرنسية . فقد كان الباب العالي يعارض في هذه الغزوات

ويصدر الأمر تلو الأمر بوضع حد لها ، لكن الجزائريين رفضوا ذلك واستمروا يهاجمون الشواطىء الفرنسية بناء على أن فرنسا لم تتحالف رأساً مع الجزائر ، وقد كانت القسطنطينية تخشى باستمرار أن يتطور الشعور الى أن تنفصل الجزائر نهائياً عنها فسلكت في هذا المجال سياسة أدت الى اضعافها هي واضعاف الجزائر معاً كما سيتأكد ذلك فيما بعد .

عندما وصل جعفر باشا الى الجزائر بادر بارسال الجنود الأتراك الى الداخل للقضاء على الثورات التي نجمت ، لكنه لم ينجح في اقرار الأمن إلا على حساب ضحايا جدد أججت السخط القديم على الأتراك ، لذلك أراد الجنود الأتراك أن يتخلصوا منه فتآمروا عليه وقرروا قتله . لكن جعفر باشا سمع بالمؤامرة وفاجأ المتآمرين خلال الثلاثين من أفريل ١٥٨١ ، وقطع رؤوسهم من الغد .

وبعد ذلك بشهر وصل قلج علي الى الجزائر على رأس ستين باخرة حربية كبيرة ، على نية اعداد جيش كبير ينطلق من الجزائر لاحتلال المغرب .

لكن ثورة قبائل الداخل في الجزائر لم تكن قد هدأت واستغل أعداء قلج علي هذه الفرصة ، فأتهموه لدى الباب العالي بأنه يريد أن يستقل بالجزائر وتونس فالمغرب ، وقد وجدت هذه التهمة صدى لدى السلطان العثماني لأنها تدخل في نطاق المخاوف القديمة من الجزائر .

ولاشك ان السلطان العثماني كان يُفكّرُ في طريقة قلج علي بمغادرة شواطىء المغرب العربي والعودة الى القسطنطينية لكنه خشي ان هو لم يعرف كيف يختار طريق ماهرة ، ان يكشف عن تفطنه لنوايا قلج علي الاستقلالية ، وخشي ان يؤدي ذلك بقلج علي الى التعجيل برفع القناع ، على فرض ان هناك قناعاً من هذا النوع . في هذا الظرف بالذات ثارت الجزيرة العربية على الاتراك فكانت مناسبة لدعوة قلج علي الى وضع حد لاعداد الحملة ضد المغرب بدعوى ان السلطنة العثمانية بحاجة الى كامل قواتها لتواجه ثورة الجزيرة .

فغادر قلج علي الجزائر في بداية ١٥٨٢ وكله حسرة ، فقد غادر شمال افريقيا الذي

كان على وشك ان يحقق فيه امنية غالية ، لأن سلطان المغرب ، عندما سمع باعـــداد الحملة ضده بدا عليه الخوف وارسل الى قلج علي يعرض عليه الولاء والطاعة والهدايا .

رمضان باشا وحسن فنزيانو :

عندما غادر قلج علي الشواطىء الجزائرية استصحب معه جعفر باشا ، وارسل القائد رمضان الذي جاء الى الجزائر واليا عليها للمرة الثانية .وقد صدر الامر الى القائد رمضان من قلج علي ان يعيد باخرتين فرنسيتين كان حجزهما احد الرياس عرف باسم « الرئيس مورات » وبمجرد ما علمت طائفة الرياس بنية القائد رمضان على معاقبة الرئيس مورات الذي كان مبجلا فيها ، حتى ثارت ثائرتها واعلنت تمردها عليها ، ولم يكن القائد رمضان بالرجل الذي يستطيع ان يواجه مثل هذه المواقـف بحزم ، فهرب الى منزل بضواحي الجزائر ولم يغادره إلا يوم سفره الى طرابلس، فاستولى رئيس الطائفة ، مامي ارناؤوط، على الحكم الى ان قدم حسن فنزيانو الذي كان في ذلك الوقت يقود حملة ضـد شواطىء كورسيكا وسردانيا ، واسبانيا وايطاليا ؛ وما ان سمع بهذه الأنباء حتى لحق بالجزائر وانتصب والياً ؛ وليس من المستبعد أن يكون حسن فنزيانو قد تلقى أمراً سرياً من القسطنطينية بالسير إلى الجزائر ، اذ أن الباب العالي لم يبد أي اندهاش لانتصاب حسن فنزيانو والياً على الجزائر ، رغم أن كل الظواهر تدل على أن ثورة طائفة الرياس هي التي شقت له طريق الولاية في هذه المرة ، خصوصاً مع ما عرف عن الباب العالي من مقاومته الشديدة لكل محاولة من الجزائر تبدو معهـــا في مظهر المنتصر ضد ارادة السلطنة العثمانية .

وقد استقر حسن فنزيانو في منصب الباشوية إلى سنة ١٥٨٨ عندما عين قائداً عاماً للاسطول العثماني مكان سيده السابق قلج علي وقاد حسن فنزيانو عدة حملات ضد الشواطىء الاسبانية والفرنسية والايطالية ، وقد تمكن من التسرب إلى برشلونة التي نجح في تهريب عشرة آلاف مسلم منها .

وقد رشحته هذه الانتصارات المختلفة لخلافة مكان قلج علي الذي توفي في سنة ١٥٨٧

عن سن تناهز الثمانين .

ومع موت قلج علي انتهى عصر من ألمع العصور في تاريخ العهد التركي بالجزائر ، على ما فيه من هنات . فبعد هذا العصر جاء عصر الباشوات الثلاثين لأن كل واحد منهم يعين لمدة قصيرة ، ولئن كانت هذه السياسة المبنية على التخوف المستمر من الجزائر ، قد نجحت في المحافظة على الرابطة التي تشد الجزائر إلى الخلافة العثمانية ، فان هذه الرابطة قدضعفت بسبب هذه السياسة نفسها ، وأصبحت رابطة اسمية أدت الى انفصال الجزائر في الواقع انفصالاً لم تفد منه القسطنطينية ، ولم تستفد منه الجزائر ، لأنـــه كان انفصالاً لم يحاول الاستناد على قواعد شعبية إلا في فترة متأخرة .

الباب الخامس

توحيد الجزائر

- الوضع في مدينة الجزائر .
- فرقة اليولداش .
- طائفة الرياس .
- موارد الدولة .
- بدء التسرب الفرنسي .

مدينة الجزائر

في منتصف القرن العاشر الميلادي تحصل بلكين بن زيري على رخصة من أبيه ، فأذن له في تأسيس ثلاث مدن في المنطقة التي أسندت اليه شؤون ادارتها ، فأسس المدن الثلاثة التي تعرف اليوم باسم المدية – مليانة – الجزائر ، وقد اختار بناء الجزائر في نفس الموقع الذي كانت تحتله مدينة أيقسيوم الرومانية كما رأينا من قبل ولكن هجومات الونـــدال خربتها فظلت خراباً ما يقرب من مائتين وخمسين عاماً . وكل ما كان يشاهد في ذلـــك الموقع قبل بناء الجزائر من طرف بلكين بن زيري ، هو قطعان المعز التي كانت تملكهـــا قبيلة مزغنة التي كانت خيامها تمتد على أعالي بوزريعة .

وشيئاً فشيئاً جلب المناخ الطيب لهذا الموقع الجميـــل على شاطىء البحر ، السكان من جهات مختلفة . ولم تصل سنة ١٠٨٠ ميلادية حتى اصبحت الجزائر مدينـــة كبيرة كما شهد بذلك البكري ثم الادريسي بعده . فكل منهما وصفها بكثافة السكان وازدهار التجارة، لكن حروب القرن الثاني عشر أثرت في هذا التطور الوليد ، كما أثرت على عدة مدن تخربت كلها ، وهناك من المؤرخين من يؤكد أنه وقع تخريب ثلاثين مدينة في تلك الفترة، التي وقعت فيها الجزائر تحت سلطة الموحدين ثم المرابطـــين ثم خضعت لسلطان بجـاية فمملكة تلمسان وتونس ، وانتهت في الأخير الى امتلاك نوع من الذاتية المستقلة تحت امرة شيخ الثعالبة ، قبل ان تنتهي الى الحـكم التركي .

والواقع ان الجزائر لم تتطور تطوراً كبيرا إلا في عهـد الحـكام الباي لارباي ، الذين حصنوها وجعلوا منها مركزاً عسكرياً وميناء هاماً ، تنطلق منه وتنتهي اليه شبـكات التجارة ، وتنطلق منه غزوات الرياس البحريين ضد شواطىء البلدان المعـادية للجزائر والتي تعتبر نفسها في حالة حرب معها مثل اسبانيا .

وإلى هذا العصر يرجع انشاء أولى القصور الجميلة التي عرفتها مدينة الجزائر، وكذلك

الحمامات والمساجد . فقد ازدهر العمران في هـذا العصر ، واستعملت ألواح الرخـام المستوردة من ايطاليا وصقلية في تجميل القصور والمساجد والحمامات .

وساعد على ازدهار الفنون المعمارية هجرة مسلمي الاندلس الذين حملوا اليهـا فنون الحضارة الاسلامية بالاندلس ، وأدخلوا على الجزائر نوعاً من الحياة الحضرية المترفـة والشغف بالفنون الجميلة . وما كاد ينتهي عهد حكام الباي لارباي الذي استعرضنا فيما سبق وقائمه السياسية — لم يكد ينتهي — حتى أصبحت مدينة الجزائر تعد — باعتراف المؤرخ المسيحي هايدو — عشرة آلاف بستان اشتهرت بالخصب والجمال، وكانت سهول الساحل والمتيجة مليئة بالمزارع التي كان اصحابها يستعملون على الأخص العبيـد المسيحيين الذين يقال ان عددهم في هذه المزارع كان يبلغ خمسة وعشرين الفاً .

ويشهد المؤرخون لذلك العهد ، ان الجزائر كانت تعد حينذاك اثني عشر الف ومائتي منزل من المنازل الجميلة الواقعة كلها داخل سور تعلوه ثلاثـة أبراج خارجية لحمايتها من المعتدين ، وكان السكان المسلمون يترددون على مائـة مسجد بينما كانت توجد كنيستان للمسيحيين .

وقد تم توزيع المياه الصالحة للشرب بواسطة ثمانية عيون عموميـة كبيرة في الاحياء العامة من المدينة ، وهذا ما عدا العيون الخاصة . كما بنى حسن باشا ومحمد بن صالح رايس حمامات صنعت أحواضها من رخام ليتردد عليها كل السكان مجاناً . كما بنيت سبع ثكنات للجنود الأتراك غير المتزوجين .

ويجمع المؤرخون على ان الرخاء كان يعم مدينة الجزائر في ذلك العهد : فقد كان الصيد البحري وحده كافياً لتزويد السكان بما يحتاجون اليه ، فكيف اذا اضيفت الى ذلك التجارة الخارجية التي كانت بأيدي مهاجري الاندلس من مسلمين ويهـود ، يضاف الى ذلك ان ازدهار الصناعات اليدوية الدقيقة التي نشطت على ايدي المهاجرين من الاندلس ، جلبت الى الجزائر القوافل من الداخل التي كانت تـأتي لتتزود من هذه المصنوعات الجديدة .

اما التجارة فلسنا بحاجة الى التأكيد على ازدهارها في ذلـك العصر : فيكفي ان

ان نلاحظ فقط امرين لنتصور درجة ازدهارها ، الاول هو المغانم التي كان يكسبها الرياس في غزواتهم والتي تعتبر هي المحرك الاساسي للسوق بما تلقيه فيه من كنوز ثمينة تأخذ طريقها الى داخل البلاد او الى اروبا . الثاني هو بروز الاهمية التي اصبحت تكتسيها الجزائر مما دفع البلاد الاروبية الى المتاجرة عبر الجزائر والى التفكير في استغلالها بطريقة او باخرى كما تدل على ذلك محاولة ملك فرنسا شارل التاسع .

وباختصار كان الرخاء سائداً في عهد الباي لارباي ، ولم يكن يفد تلك الحياة الناعمة الهادئة ، الا ما كانت تحمله بعض البواخر من جراثيم الطاعون الذي يفتك بالسكان ، وما كان يتسبب فيه القحط من مجاعة ، نظراً الى ان المورد الاساسي للسكان هو الزراعة .

فرقة اليولداش

عندما فكر عروج في تأسيس دولة الجزائر ، لم يكن يملك تحت تصرفه إلا الجنود البحريين الذين كانوا يصحبونه في غزواته ، لكن شهرة عروج جعلته يبرز بين الرياس البحريين الذين اعتبروه قائدهم . فالسلطة التي كان يملكها عروج كانت سلطة قبلتها طائفة الرياس البحريين بمحض اختيارها ولم تفرض عليهم فرضاً ، وعندما مات عروج خلفه شقيقه خير الدين دون ان ترى طائفة الرياس مانعاً من ذلك .

وقد دفعت الضرورة بعد ذلك خير الى ان يضع نفسه تحت تصرف السلطان العثماني في سنة ١٥١٨ ، مما جعله يتحصل على مدد يتركب من الفي جندي تركي من العسكر انضم اليهم اربعة آلاف متطوع تركي منحت لهم نفس الامتيازات التي كانت ممنوحة لفرقة اليولداش .

وبعد ان استولى خير الدين على برج الفنار وطرد منه الاسبان تفرغ الى تنظيم قوته العسكرية التي كانت تتركب من طائفة الرياس ومن فرقة اليولداش ، وهذه الاخيرة كانت عبارة عن لفيف اجنبي حقيقي .

ولكي نتصور بوضوح التنظيم العسكري الذي وضعه خير الدين ونتفهم الخلافات التي

نشأت بعد ذلك يجب ان نعرف بأن الفرقة العسكرية التركية كانت ترحب بكل من يرد عليها من الأجانب بما فيهم المسيحيون الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانت مجرد العضوية والانخراط في هذه الفرقة ، تمكن صاحبها من امتيازات خارقة ، فالعدالة العادية لا تشملهم والعقوبات التي يتعرضون لها كانت عقوبات سرية وخاصة ، ويكفي ان يستظهر الواحد منهم بما يثبت انتمائه لهذه الفرقة ، كي تخلي العدالة سبيله ولا تمسه بأذى كما كانوا يعفون من الضرائب .

وبقدر ما كان جنود هذه الفرقة مشهورين بالشجاعة والاقدام بقدر ما اشتهروا بانعدام الثقافة ، والصلف والعنف ، مما جعل منهم على طول الزمن ، قوة خطيرة يتطلب استعمالها ايدي حازمة ومهارة خارقة للعادة .

وتتركب هذه الفرقة من الجندي البسيط او « اليولداش » ومن « الشاوش » (وهو نظير السرجان) ومن « الاولا اباشي » (اي اليوتنان) ومن « البولوكاشي » كابتان ثم الاغاباشي (كومندان) و « الوكيل خارجي » (المتكلف بالادارة) ثم الكاهية (كولونيل) ثم الآغا (جنرال) .

والقوانين التي تمنح بها هذه الرتب العسكرية قوانين قائمة فقط على مراعاة الاقدمية ، ويبدو انها خاضعة لاعتبار اساسي وهو المساواة المطلقة .

فمرتب الجندي البسيط يرتفع تدريجياً ليصل بعد خمس سنوات الى الحد الاقصى ، ولن يتجاوزه بعد ذلك مهما ارتفعت درجة صاحبه ، وبعد مرور شهرين على بلوغ الشخص مرتبة الآغا ، يتحصل على لقب شرفي هو « موصولاغا » وآنذاك يفقد حقه في كل قيادة عسكرية ، لكنه يصبح عضواً في الديوان الاعلى ، ويستطيع ان يتحصل على مسؤوليات مدنية .

وقد كانت أعلى الرتب العسكرية تمنح للاتراك في الدرجة الاولى ، وقد تمنح ايضاً للمسيحيين الذين يعتنقون الاسلام . اما ما عداهم من الجزائريين ولو كانوا « كراغلة » (اي من أب تركي وأم جزائرية) فقد كانوا يبعدون عن الرتب العسكرية العليا ، وان كان مسموحاً لهم بالانخراط في الفرقة ، والواقع ان حرمان الكراغلة والجزائريين من هذا

الحق يرجع فقط الى سنة ١٦٣٣ م عندما استولت فرقة اليولداش التركية على الحكم ، فانتقمت بذلك من الجزائريين سكان العاصمة الذين أيدوا طائفة الرياس .

* * *

طائفة الرياس :

ازاء هذا التنظيم للجيش البري التركي نجد أن تنظيم طائفة الرياس او البحرية يختلف عنه كثيراً وأول أوجه الاختلاف يرجع الى الظروف التي تكونت فيها هذه الطائفة التي تتكون من القراصنة لكن عبارة «القراصنة» تعبير مجازي استعملناه لتوضيح الصورة. لان القرصنة في بداية نشأتها في حوض البحر الابيض المتوسط لم تكن تهدف الى الاعتداء والنهب ، ولكنها كانت رد فعل قام به المسلمون ضد القراصنة المسيحيين الذين كانوا عبارة عن قراصنة حقيقيين يقومون بنهب الشواطىء الاسلامية تحت ستار الاستمرار في خدمة الصليب .

ان تصور الظروف التي ولدت حركة الريـــاس البحريين يعيننا على فهم الجو السائد بينهم :

فالمحرك الاساسي لحركتهم ، وهو رد الاعتداءات المسيحية ، واعانة مسلمي الاندلس على الهجرة وافتكاكهم من براثن محاكم التفتيش ، أشاع بين الرياس البحريين روحـاً من الاخوة والتعاطف ، كما كانوا أبعد ما يكون عن تلك الكبرياء وذلك الصلف الذي كان ينصف به جنود الجيش البحري ، ومن هنا لم تكن طائفة الرياس تخفي احتقارها لفرقة اليولداش .

وقد أدرك خير الدين ما بين طائفة الرياس وفرقة اليولداش من فروق في التكوين ، فأراد أن يستغل ذلك واعتمد أساساً على طائفة الرياس وعرف كيف يكسب عطفها ، فأسس قوة من الحرس وجيشاً يتركب من حوالي ثمانيـــة آلاف جندي هم من اليونان وألبانيا واختار معظمهم من البحارة ، ووزع قيادات مختلف وحدات جيشه على رفاقه وعطف عليهم ، مثلما فعل عندما أعلن الحرب على الامير بيامينو ليجبره على ارجـــاع ابن سنان اليهودي الذي وقع في أسره، كما بذل فدية ضخمة لافتداء أحد رفاقه الرياس،

وبذلك تمكن من تشكيل قوة هامة يستطيع أن يعتمد عليها ضد اليولداش . وقد تطورت هذه الطائفة بعد استقرار الحكم العثماني في الجزائر ، وازدهرت صناعة السفن والبواخر في الجزائر، فكانت توجد حظائر لبناء المراكب البحرية الضخمة في باب الواد، وحظائر أخرى في باب عزون لبناء السفن الاقل منها أهمية .

وكان الجزائريون يحولون المراكب التجارية التي يستولون عليها الى مراكب حربية بالاضافة الى التي يصنعونها ، كما كانوا يستعملون في هذه الحظائر حتى المهندسين المسيحيين وكانت قيادة المركب الحربي تتركب من :

الوكيل خارجي ، وهو المكلف بالتموين ، وعددهم ثلاثة في كل مركب ، ومن الورديان ، ورايس العسة ، والباش رايس ، والرايس. وقد يوجد فوق كل مركب ضباط آخرون اضافيون لا مهمة معينة لهم ، يطلق عليهم اسم « رايس الطريق » وهؤلاء هم الذين تسند اليهم قيادة البواخر المحجوزة ، ويوجد الى جنب الرايس سكرتير يطلق عليه اسم خوجة ، ويقوم في نفس الوقت بوظيفة الامانة وكل مركب يتوجه للغزو ياخذ معه عدداً من عسكر اليولداش يقودهم ضابط برتبة آغا ، وهؤلاء يقومون بدور الفرسان .

والملاحظ أن وجبة الأكل فوق المراكب البحرية الجزائرية واحدة يستوي فيها اليولداش والبحارة والعبيد المسيحيون الذين يقومون بمهمة التجذيف .

ولا يعطى لقب رايس إلا بعد امتحان يتم أمام مجلس الرياس الذي يرئسه القبطان ، ومنصب القبطان مخصص لاقدام الرياس. وكانت معظم المراكب التي يستعملها الجزائريون مراكب منخفضة ، بحيث لا يمكن اكتشافها في البحر بسهولة ، كما اشتهرت تلك المراكب بالسرعة ، وهذان العنصران : السرعة والاختفاء جعل المراكب الجزائرية أقوى من المراكب الاروبية – ويعترف المؤرخون الاوربيون بأن المراكب الجزائرية كانت تنتصر في معظم الأحيان وقلما تنهزم .

أما اقتسام المغانم فكان يتم – بعد أخذ الخمس – كما يلي :

نصف الغنائم يرجع إلى صاحب الباخرة المنتصرة سواء كان فرداً أو شركة أو واحداً من الرياس ، والنصف الآخر يقسم إلى مائة سهم : فيأخذ القبطان أربعين سهماً ، ويأخذ الآغا ثلاثين ، وعشرة توزع على الضباط ، والباقي على البحارة واليولداش البسطاء .

* * *

ليس من الغريب أن يلجأ خير الدين إلى الاعتماد على طائفة الرياس لأنه هو نفسه كان واحداً منهم . لكن هناك شيئاً آخر دفع خير الدين إلى الاعتماد على هذه القوة ، يتمثل في أن مجموعة الرياس تشكل قوة دفاعية هجومية هامة تجبر كل الدول على احترامها ومراعاتها ، بل وتضطرها إلى دفع نوع من الجزية : فكل من الولايات المتحدة وهولندا والبرتغال ونابولي والسويد والنورويج كانت تدفع بالاضافة إلى الجزية الأسلحة ومختلف أنواع العتاد اللازم لصناعة السفن والذخائر الحربية ، وحتى الدول التي لم تكن تدفع الجزية مثل فرنسا وبريطانيا كانت تضطر إلى دفع هدايا ضخمة بصفة منتظمة مرة في كل عامين . فليس من المبالغة والحالة هذه اعتبار طائفة الرياس أقوى دعامة الدولة الجزائرية في تلك الفترة وأبرز مقوم لمكانتها الدولية .

وليس من المستبعد ان يكون خير الدين قد اهتدى بنافذ عبقريته السياسية الى مستقبل طائفة الرياس فاعتمد عليها في تدعيم سلطانه ، وأبعد اليولداش عن النفوذ الحقيقي .

صحيح ان فرقة اليولداش كان لها ديوان ، لكنه ديوان كانت تقتصر مهمته على شؤون الفرقة دون أن يكون له أي تصرف في شؤون الدولة على عهد خير الدين ومن بعده من الحكام الباي لارباي. وهناك من قادة اليولداش من كان يؤذن لهم في حضور ديوان الباشا أو الديوان الذي يجتمع كل يومين أو كل ثلاثة أيام لمناقشة شؤون الدولة . لكن الباشا كان يكتفي بأخذ الآراء فقط .

وقد حاولت فرقة اليولداش ان تستولي على الحكم بالجزائر غير ما مرة لكنها منيت بالفشل ولم تتمكن من النفاذ الى الحكم إلا بعد موت قلج علي .

وقد أدرك الولاة الباي لارباي الخطر الكامن وراء هذه الفرقة التي كانت مصدر

فوضى واضطرابات بما كانت ترتكبه من مظالم ضد السكان الذين يلجـــأون باستمرار للثورة في وجه الطغيان . وقد حاول الولاة البـــاي لارباي ان يتخلصوا منها بواسطة تشكيل جيش جزائري صرف يمكن الدولة الناشئة من الاستغناء عن الجنود الاتراك . إلا ان فرقة اليولداش استوحت الخطر التي يتهددها من وراء هذه المحاولة فأوعزت الى الباب العالي بأن طائفة الرياس تريد الاستقلال بالجزائر والانفصال عن الباب العالي بواسطـــة الاعتماد على جيش جزائري صرف ، وقد نجح اليولداش في اثارة مخاوف السلطان العثماني .

وقد كانت هذه المخاوف هي السبب الذي جعل الباب العالي يعمد الى مراعاة التوازن بين القوتين ، ومراعـاة التوازن جعلت دولة الجزائر تحمل من البداية جراثيم التفكك والانحلال .

وقد رأينا فيما سبق بعض العلامات التي تنذر بالتطور الذي تم في المستقبل ، وذلك بالرغم من أن الفترة التي استعرضناها في الفصول السابقة كانت فترة غزوات بحرية دعمت سمعة طائفة الرياس وجعلتهم القوة الوحيدة المرهوبة الجانب ، يضاف إلى ذلك أن معظم الولاة الباي لارباي كانوا في نفس الوقت هم قادة الأسطول العثماني وكانت كلمتهم نافذة لدى الباب العالي .

موارد الدولة :

كانت موارد الدولة الجزائرية في هذا العهد تأتي من :

١ – الزكاة على الماشية والحبوب وكانت هناك فرقة خاصة تعرف بـ « المَحَلّة » هي التي تكلف بجباية أموال الزكاة وغيرهـــا من أنواع الضرائب التي كانت تثقل كاهل السكان ، ويغتنم الجنود الأتراك في هذه الفرقة في مطالبة الفلاح بعطايا زائدة على النصيب المطالب به رسمياً وتقضي فرقة المحلة حوالي خمسة اشهر تتجول في داخل البلاد لإجبار شيوخ القبائل على دفع الزكاة والضرائب .

٢ – الحكر – وهو كراء أرضي المخزن .

٣ – الغرامة او اللازمة .

والواقع أن هذه الموارد الثلاثة لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من موارد الدولة ، فالسكان كانوا كثيراً ما يمتنعون عن دفع الضرائب وكثيراً ما تتطلب الحملات الموجهة لقهرهم مصاريف أكثر مما تحققه هذه الموارد ، وقد كانت للدولة موارد اخرى أكثر أهمية هي :

٤ – حقوق الديوانة وهي عبارة عن أحد عشر في المائة من قيمة كل السلع الصادرة والواردة .

٥ – خمس المغانم التي يتحصل عليها الرياس في غزواتهم .

٦ – أنواع الجزية المفروضة على الدول الاوربية .

٧ – العوائد وهي الهدايا التي تقدمها الدول الاجنبية بمناسبة تعيين باشا جديد او بمناسبة تجديد معاهدة أو تعيين قنصل الخ . .

ويقول دي بورمون ان مجموع هذه الموارد يبلغ خمسمائة الف لويزة سلطاني في حين أن المصاريف لا تكاد تذكر ، لأن جنود النوبة والمحلة يعيشون على داخل الوطن، واجور الذين يقيمون بمدينة الجزائر لا تمثل الا جزءاً قليلاً .

ولذلك ما لبثت ان تضخمت كنوز الدولة الجزائرية واشتهرت شهرة كبيرة شملت أرجاء أروبا ، وأسالت لعاب حكامها .

بدء التسرب الفرنسي :

كان الرياس عندما يعودون من غزواتهم يفتحون موائدهم لسكان العاصمة ، ويغدقون على من حولهم . وهذا السلوك الذي يختلف عن صلف اليولداش ومعاملتهم للسكان ، حبب سكان العاصمة في طائفة الرياس ودفعهم الى مساندتها ضد اليولداش .

وقد استمدت طائفة الرياس من حب السكان وتعلقهم بها قوة ما لبثت ان أثرت على العلاقة التي كانت تشد طائفة الرياس الى الباب العالي : فقد وهت تلك العلاقة شيئاً

فشيئاً الى أن حدث تمرد مامي أرناؤوط وموورايس .

لكن سلطة الباب العالي على طائفة الرياس ظلت قوية الى سنة ١٥٨٠ .

ولذلك ظلت طائفة الرياس ، الى هـذه السنة ، تحترم أوامر الباب العالي فيما يتعلق بعدم التعرض للفرنسيين ، وقد استغل الفرنسيون صداقة الباب العالي فتحصلوا في ١٥٦١ على رخصة بتوسيع بعض المتاجر وتحويلها الى مصارف دائمة ، فاستقرت شركة يسيرها كارلوس ديديي وتوما زولينسيو بالقرب من عنابة وفي كل من القالة والقل ، وكانت المهمة الأساسية للشركة تتمثل في صيد المرجـان وفي بيع السلع الفرنسية مقابل القموح والشمع والجلود التي يدفعها السكان .

* * *

توحيد الجزائر

ان الجزائر لم تتميز داخل حدود معينة واضحة ثابتة إلا في العهد التركي . ففي هـذا العهد توحدت الجزائر سياسياً واصبحت خاضعـة لسلطة مركزية استقرت في مدينـة الجزائر التي أصبحت هي العاصمة .

ويرجع سبب الوحدة الترابية للجزائر في ذلك العهد ، الى المخاطر التي كانت تتهـدد سكان المغرب الاوسط ، فقد شعر هؤلاء السكان انهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الخطر الاسباني ان هم ظلوا على انقساماتهم وتفككهم ، لانه ليس في استطاعة القوة التجاريـة التي كانت هي القوة الوحيدة المنظمة ، ان تصمد في وجه عدوان عسكري .

وقد اكد الشعور بالخطر ، ان الاسبان ، بعد انتصارهم على آخر مـلوك المسلمين في الاندلس ، أرادوا تمديد نفوذهم الى شمال افريقيا ، فاحتلوا مليلة في سنة ١٤٩٧ ، ثم مرسي الكبير في سنة ١٥٠٥ ، ثم وهران في سنة ١٥٠٩ ثم بجاية في سنة ١٥١٠ ، كما احتلوا برج الفنار في مواجهة مدينة الجزائر .

اذن فقد كان الخطر الأسباني واضحاً قائماً ملموساً ، وتمثل في عدة مناطق من الجزائر في مجازر وتقتيلات وتخريبات نالت من عمران الجزائر وأثرت فيه ، فالى هـذه الفترة

يرجع – كما ألمحنا الى ذلك قبلاً – تخريب عدة مدن ، والى هذه الفترة يرجع تدهور العمران في مدينة بجاية ، وتخريب ميناء حنين القريب من تلمسان .

وقد كان المنطق يفرض على الدويلات الجزائرية التي كانت قائمة آنذاك ان تطلب العون والنجدة من ملوك بني زيان في تلمسان ، لكن يجب أن نتذكر أن ملوك بني زيان لم يترددوا – لتثبت انفسهم تجاه سلاطين فاس – في اللجوء الى الاسبان يطلبون حمايتهم ومن ثم فقد كانوا مشبوهين في نظر سكان المغرب الاوسط ، ولم يكن من المعقول الاستنجاد بملوك تلمسان على حلفائهم الأسبان .

ويجب ان نسجل بالاضافة الى ذلك ان الخطر الاسباني لم يتجسم بوضوح الالسكان الساحل ، أما سكان المناطق الداخلية فقد كان يهمهم قبل كل شيء تدعيم استقلالهم .

لكن لئن كانت الدويلات الجزائرية الناشئة بعيداً عن السواحل تريد قبل كل شيء التمسك باستقلالها ويحاول أصحابها انشاء ممالك جديدة لصالحهم ، كما هو شأن زناتة بني راشد الذين كانوا يريدون انشاء دولة حول قلعتهم بين معسكر الشلف ، وكذلك بني عباس في البيان ، وفي جمعة الصهريج – لئن كانت تلك الدويلات تهدف قبل كل شيء الى تدعيم استقلالها ، فان طبقة التجار التي كانت مستقرة في الساحل بالجزائر في تنس مثلا كان يهمها في الدرجة الاولى ان تجد قوة تحميها من خطر الاسبان ، وتضمن لها مواصلة نشاطها التجاري ، لذلك طلبت النجدة من الاخوين عروج وخير الدين ، وقد تمكن خير الدين – بعد موت اخيه – من الصمود في وجه الاسبان ورد عن الجزائر حملتين كبيرتين ، وقد ظهر خير الدين في صورة من وضع الاساس السياسي للوحدة الترابية للجزائر ، فهو الذي تمكن من ازاحة النفوذ الحفصي عن القبائل وعن الشرق القسنطيني ، وهو الذي طرد الاسبان من برج الفنار وهو الذي رسم خط السير لمن بعده ، فخليفته حسن آغا هو الذي عزز الدولة الناشئة بطرد الاسبان من بجاية ، وبهزم شارلكان أمام الجزائر ، وطرد بني عبد الواد نهائياً من تلمسان .

وبذلك تنظمت دولة بسطت نفوذها على عدة مجتمعات مختلفة ، تستمد الطبقات الحاكمة فيها نفوذها الفعلي من الوجاق الذي يقع نظرياً تحت سلطة العثمانيين ، وشيئاً

فشيئاً أصبحت الجزائر متميزة بطريقة تنظيمها عن تونس شرقها وعن مراكش غربهـا . لكن طبيعة الحكم الذي استقر بالجزائر في نفس الوقت الذي نشأت فيه الدولة الجزائرية داخل حدود مميزة، طبعت هذه الدولة بطابع خاص ميزها وأبرز معالمها الخاصة من جهة، ومن جهة أخرى حرمها من وسائل التطور الذي كان سيفتح أمامهـا أبواب الرقي الحقيقي .

ذلك ان اعتماد خير الدين على السلطنة العثمانية من جهة ، وعلى طائفة الرياس وفرقة اليولداش من جهة أخرى ، جعل الجزائر واقعة تحت حكم لا هو بالعثماني الخالص ، ولا هو جزائري صرف ، بل هو حكم طبقة خاصة هي طائفة الرياس التي أرادت أن تعتمـد في تسيير الحكم على الجزائريين . لكن العداوة النامية بين فرقة اليولداش وطائفـة الرياس حالت دون أن يتطور الحكم إلى حكم جزائري صرف .

وسنعود إلى موضوع طبيعة الحكم الذي استقر في الجزائر بعد العهد التركي وتحليله على ضوء الأحداث السياسية التي سنستعرضها في الفصول القادمة .

* * *

الباب السادس

عهد الباشوات الثلاثين

- طريق الباشوية .
- الحروب مع أوربا .
- تأسيس سور الغزلان .
- المعركة ضد اليولداش .
- حملة صليبية كبرى ضد الجزائر .
- الجزائر ضد القسطنطينية .

عهد الباشوات الثلاثين

رأينا فيما سبق أن مناطق الشمال الافريقي التابعة للنفوذ العثماني كانت تتركب من ثلاثة أقسام ، على رأس كل منها باشا ، وهي : طرابلس وتونس والجزائر ، وكانت هذه الأقسام الثلاثة خاضعة لسلطة شخص يعينه الباب العالي ويحمل اسم « الباي لارباي » الذي يكون مقره غالباً في الجزائر .

ويبدو أن هذا التنظيم الذي يجمع ثلاثة من بلاد المغرب العربي تحت سلطة شخص واحد، كان مستوحى من الظروف ومن طبيعة المشاكل التي كانت تواجه السلطنة العثمانية. فقد كانت القسطنطينية تواجه عدواً قوياً هو أسبانيا التي كانت تحتل بعض القواعد على شواطىء المغرب العربي والتي تمثل تهديداً مستمراً للممتلكات العثمانية في المغرب العربي . فسداد الرأي يملي والحالة هذه توحيد هذه الأقطار تحت قيادة شخص واحد غالباً ما تسند اليه في نفس الوقت قيادة الأسطول العثماني الذي كان يخوض اكثر الغزوات في حوض البحر الابيض المتوسط .

وليس من محض الصدفة أن نجد غير ما مرة – في هذه الفترة التاريخية التي تمتد من عهد خير الدين الى موت قلج علي – ان الشخص الذي يتولى الباشوية بالجزائر هو نفسه الذي يترقى الى منصب الباي لارباي ثم الى منصب القائد العام للاسطول العثماني .

فهذا التدرج طبيعي : اذ انه ما دامت طبيعة المشاكل تفرض توحيد أقطار المغرب العربي تحت سلطة واحدة ، فمن الطبيعي أن يقع الاختيار على الجزائر لتكون مركز هذه السلطة باعتبار موقعها من طرابلس وتونس والمغرب (الذي وان يقع تحت النفوذ العثماني كان دوماً يدخل في حسابات السياسة العثمانية بطريقة أو بأخرى) من جهة والى موقعها من الدول الاوروبية من جهة ثانية .

وما دامت طبيعة المشاكل في هذه المنطقة مرتبطة بالغزوات البحرية مع الدول

الأروبية في حوض البحر الابيض المتوسط ، فمن الطبيعي اسناد منصب القيادة العامة للاسطول الى شخص يكون قد عاين هذه المشاكل وعاشها والشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط أكثر من غيره هو طبعاً باشا الجزائر .

* * *

لكن موت قلج علي وضع حداً لهذه الاعتبارات وتلك المشاكل – ذلك ان اسبانيا حاولت في مناسبات عديدة ان تقترب من الباب العالي ، لكن قلج علي كان دوماً يقدم شرطاً أساسياً لذلك هو جلاؤها عن مرسي الكبير ووهران .

فلما مات قلج علي خفت حدة العداوة بين اسبانيا والسلطنة العثمانية ، ووجدت المحاولات الاسبانية لدى الباب العالي صدى أحسن مما كانت تجده في الماضي ، وفي نفس الوقت بدأت العلاقات بين ملك فرنسا والسلطان العثماني تصاب بنوع من الفتور ، وبذلك تغيرت معطيات المشاكل التي كانت تواجه السلطنة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهذا التغيير في المعطيات الخارجية التي تتحكم في تسيير السياسة العثمانية في بلاد الشمال الافريقي – هذا التغيير كان من نتائجه أن عزز المخاوف القديمة من انفصال الجزائر عن الباب العالي ، وأصبح توحيد كل من تونس وطرابلس والجزائر تحت امرة واحدة أمراً يبعث على الخوف بعد أن كان مرغوباً فيه بوصفه أحسن طريقة لمواجهة الدول الأوربية العدوة ، خصوصاً بعد أن زالت الدواعي التي كانت تحتم هذا التوحيد . لذلك قررت القسطنطينية وضع حواجز بين الجزائر وتونس وطرابلس وتسيير كل منها بواسطة باشا يعين رأساً من العاصمة العثمانية ، لمدة ثلاث سنوات .

ويبدو أن هذا القرار اتخذته القسطنطينية قياساً على الطريقة التي كانت تحكم بها في تركيا وفي آسيا الصغرى وحتى في بعض المناطق الأوربية ، فما المانع من اعتماد نفس الطريقة في المغرب العربي ؟

لكن القسطنطينية غفلت عن حقيقة أساسية وهي اختلاف الوضعية بين أقطار الشمال الأفريقي والأقطار الأوربية والآسيوية القريبة منها : فولايات تركيا وآسيا الصغرى

كانت قريبة من العاصمة العثمانية بحيث لا يخطر على المسؤول الذي تعينه القسطنطينية أن يتمرد عليها خصوصاً وانه لم تكن تحت تصرف أولئك المسؤولين قوة عسكرية كبيرة تستطيع أن تعتمد عليها في تمردها على الباب العالي . لذلك كانت كل الأوامر الصادرة لأولئك المسؤولين مقدسة .

يضاف إلى هذا الاعتبار اعتباراً آخر بالنسبة لبعض المناطق الأوربية المتاخمة لتركيا، وهي أن تلك المناطق وان كانت بها قوة تركية هامة لكنها كانت تدين بدين آخر غير الاسلام : فلم تكن هناك رابطة متينة تربط بين المسؤول الذي تبعث به القسطنطينية وبين سكان البلاد ، ومن ثَم فلا خوف من حدوث تواطىء بين ذلك المسؤول وبين السكان لإقامة حكم منفصل عن الخلافة العثمانية .

في حين ان الامر يختلف عن ذلك بالنسبة للمغرب الأوسط الذي استقرت بـه قوة عسكرية تركية هامة أرسلت في مبدأ الامر لبسط النفوذ العثماني وتعزيزه ضد السلطنة المغربية من جهة ، ونوايا التوسيع الاسباني من جهة اخرى ؛ فتغير الظروف التي مضت بارسال هذه القوة واستقرارها بالجزائر ، من شأنه ان يبعث القسطنطينية على التفكير في ضبط نظام يتماشى مع الوضعية الجديدة للسياسة الدفاعية والخارجية ، من جهة ، ويقرأ من جهة اخرى حساباً للمعطيات الخاصة بالجزائر ، إلا أن القسطنطينية عِوَضَ أن تبحث وتهتدي إلى طريق يضمن ذلك عمدت الى محاكاة سطحية عادت عليها وعلى الجزائر بعواقب وخيمة .

طريق الباشوية .

فتعيين الباشا لمدة ثلاث سنوات يجعل ، الباشا يعرف ان مدة ولايته محسوبة وهذا الشعور له دخل كبير في خلق الانفصال بين الوالي والشعب ، لانه يحس أنه ليس في حاجة الى ولاء الشعب ما دامت مدة ولايته محدودة ، وتبعاً لذلك يصبح المهم عند الباشا هو جمع اكبر قسط ممكن من الاموال في انتظار انتهاء مدة الولاية .

وقد تسبب هذا الشعور وهذا السلوك في تحديد الطريق الذي يعتمده المرشحون

لمنصب الباشوية ، وطبع هذا الطريق بطابع معين هو طابع الرشوة ، فما دامت الباشوية في الجزائر تدرك كنوزاً ثمينة، فما المانع من بذل الرشوة والهدايا للمسؤولين في القسطنطينية حتى يسعوا لتعيين هذا أو ذاك .. وتشكلت بذلك حلقة مفرغة من الرشوة كان الشعب هو الذي يدفع حسابها باستمرار : فالوصول الى منصب الباشوية يتطلب تقديم هدايا وأموال، والحصول على هذا المنصب يعني في نظر الباشا تكديس اكثر ما يمكن من الأموال والكنوز لتسديد ما كان دفعه في الحصول على المنصب ، وضمان عيشة رخية بعد انتهاء مدة الولاية .. وتأكدت حلقة الرشوة والفساد واستحكمت مع مرور الايام آخذة بخناق الشعب الذي كان يدفع دوماً دون ان يستفيد شيئاً .

وما دام الحصول على الثروة هو الهدف الأساسي للباشوات فقد أصبحت قضية الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم ، وشيئاً فشيئاً انتقل الحكم الفعلي الى ايدي اخرى .

وقد تبينا في الفصل السابق كيف ان الحكم كان مثار نزاع فرقة اليولداش وطائفة الرياس وذلك من شأنه ان يعقد مهمة الباشا رغم تسليمه في الحكم الفعلي .

لأن الباشا هو أول من يتعرض للسخط في حالة قيام تمرد ، ويصبح هو هدف التمرد من جهة ، وموضوع سخط القسطنطينية من جهة ثانية ، فلا بد له إذن من العمل على ترضية كل العسكر وطائفة الرياس ، ويصبح همه الأكبر هو العمل بكل طريقة ممكنة على ربح الوقت في انتظار انتهاء مدة الولاية . وليس مثل سياسة ربح الوقت مخرباً للحكم ، ومضرة للبلاد وتعويداً للشعب على الشك في الحكم والنفور منه .

وهكذا تعززت حلقة البحث عن الثروة بحلقة مفرغة اخرى ابتدأت بمحاولة ربح الوقت وانتهت الى نفور الشعب من الحكم الذي يولد بدوره سياسة ربح الوقت وهكذا.. ذلك هو باختصار السبب الأساسي في ذلك الطابع الذي طبع الدولة الجزائرية في عهد الباشوات الثلاثين ، وهو طابع العزلة والانفصال عن الشعب والتخبط داخل المشاكل التي تعيشها العاصمة وعدم الاهتمام بما في أنحاء الوطن إلا بالقدر الذي يضمن استمرار المداخل للدولة وبقاء السلطة الاسمية العثمانية .

ومع مرور الزمن أصبحت مقومات السلطة مجرد مظاهر وشكليات تتمثل في القصر

وفي الحرس الخاص ، وفي الشواش ، وفي مكان الصدارة أثناء الحفلات العمومية الخ ..

أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت من الباشا الى الديوان ، حتى أصبح الباشا لا يجرؤ على الذهاب الى الديوان إلا عندما يطلب منه ذلك ، وبعد ان كان الديوان لا يملك إلا رأياً استشارياً أصبح هو المرجع في تسطير سياسة الدولة ، وهو الذي يقرر السلام أو الحرب ، من غير ان يبحث عن مدى انسجام قراره مع سياسة الخلافة العثمانية التي يمثلها الباشا .

وسنتبين في الفصل الآتي ، من خلال الوقائع والأحداث أثر هذا الوضع وانعكاساته العملية .

حروب جديدة مع أوربا :

كان أول باشا عين طبقاً للتنظيم الجديد هو دالي أحمد الذي ركز عنايته على الغزوات البحرية ، وتولى بنفسه قيادة المراكب التي غزت في سنة ١٥٨٦ وفي سنة ١٥٨٨ شواطىء مملكة نابولي ، وصقلية ، والدول البابوية وكورسيكا واسبانيا .

وقد غادر الجزائر في سنة ١٥٨٩ مستصحباً معه ثروة ضخمة ، وتوجه إلى طرابلس التي ثار سكانها بقيادة شيخ طريقة صوفية اسمه سيدي يحيى ، فانتصر جيشه لكنه قتل في المعركة .

فخلفه الخضر باشا وفي عهده ازدهرت الغزوات البحرية التي نظمتها طائفة الرياس ، ولمعت أسماء وثروات رياس عديدين معظمهم من أصل أوربي مثل مامي قورصو ، ومامي نابوليتانو . وفي عهد هذا الباشا ، طلب ملك فرنسا هنري الرابع من الباب العالي أن ينظم حملة ضد مرسيليا التي تمردت على هنري الرابع ، لاجبارها على الخضوع له .

فأذن الباب العالي للرياس الجزائريين في ذلك ، بعد أن كانت الشواطىء الفرنسية محرمة عليهم بأمر السلطان العثماني نفسه .

وفي عهد هذا الباشا أيضاً بدأت قبيلة بني عباس ترفض دفع الضرائب وكان ذلك نذيراً واضحاً بالثروة التي كانت تعتمل في النفوس ، وقد أراد الخضر باشا أن يضع حدّاً

لهذا التمرد الوليد ، حتى لا يكون مثالاً يحتذى في بقية القطر .

فسار على رأس جيش يتركب من خمسة عشر ألف جندي في ديسمبر ١٥٩٠ لمحاصرة قلعة بني عباس لكن القلعة كانت منيعة ، بحيث تعذر على الأتراك أخذها بقوة الهجوم ، لذلك انصرف الخضر إلى حفر خنادق واسعة حول القلعة وأرسل فرقة لتخريب الجهات المحيطة بها ، ولما رأى قائد بني عباس ذلك وأدرك ما فيه من ضَرَرٍ عليه وعلى قبيلته كلف شيخاً دينياً محترماً بأن يطلب باسمه السلام من الخضر. وأدرك الخضر من ناحيته أن موسم الشتاء لا يناسب الحرب في هذه المناطق ، وأن بردها بدء يؤثر على جيشه ، فقبل العرض في مقابل أن يدفع قائـــد بني عباس تكاليف الحرب ، وعاد الى الجزائر بفرقه .

تأسيس سور الغزلان :

وفي سنة ١٥٩٢ – أرسلت القسطنطينية شعبان مكان الخضر الذي أتهمته فرقـة اليولداش باختلاس أموال الدولة ، فحكم الجزائر مدة ثلاث سنوات لم يسجل لنا منهـا التاريخ من الأحداث البارزة الا حكاية طاعون ومجاعة وعاصفة هوجاء حطمت في سنة ١٥٩٣ عدداً من مراكب الرياس . وفي جويلية ١٥٩٥ توجه شعبان إلى القسطنطينيـة تاركاً مكانه أحد أقاربه واسمه مصطفى ، لم يلبث في الحكم إلا أربعة أشهر .

والى مصطفى هذا ينسب تأسيس بلدة سور الغزلان ، ويقال ان سبب تأسيس هذه المدينة ، يرجع إلى أن بني عباس الذين ثاروا من جديد في عهد شعبان قطعوا الطريق بين الجزائر وقسنطينة على فرق المحلة التي كانت تخرج لاستخلاص الضرائب وانتصروا هذه المرة على الأتراك فبنى مصطفى سور الغزلان لتكون مرحلة في طريق خط مواصلات جديد يربط بين الجزائر وقسنطينة .

وفي شهر ديسمبر ١٥٩٥ عاد الخضر الى ولاية الجزائر ، بعد أن تمكن من تبرئـــة ساحته .

وبمجرد انتصابه من جديد بالجزائر حجز خمس عشرة الـف لويزة ذهبيـة من أموال

سلفه ، خصصها لاعادة بناء موقع الميناء الذي خربته عاصفة ١٥٩٣ .

المعركة ضد اليولداش :

وقد فكر الخضر في خطة للتخلص من نفوذ وقوة فرقة اليولداش التي لم يغفر لها ما دست عليه من تهم لدى الديوان الاكبر في القسطنطينية ، وكانت هذه الفرقة قد تضخمت من حيث العدد ، فازداد صلفها وكثرت عمليات النهب التي يتركها اعضاؤها ، فرأى الخضر أن أحسن طريقة للتخلص منها تتمثل في تسليح السكان الجزائريين وفتح باب الثورة أمامهم ضد العسكر التركي وحاول في الوقت نفسه أن يتحصل على ود وتأييد طائفة الرياس .

ولسنا في حاجة الى التنصيص على نوع الشعور الذي كان يحمله سكان مدينة الجزائر لعسكر الأتراك ، لكن لا بد من التذكير بظاهرة أخرى .

كنا أشرنا إليها ، وهي ظاهرة تعين على تصور مبلغ سخط سكان العاصمة عليهم؛ تتمثل هذه الظاهرة في الفرق الكبير بين سلوك طائفة الرياس وبين سلوك العسكر : فطائفة الرياس كانت بالاضافة الى كرمها الباذخ ، تعتبر في نظر السكان هي المورد الأساسي لمعاشهم ، لأن المغانم التي كانوا يكسبونها خلال غزواتهم هي التي كانت تغذي السوق وتنشط التجارة التي كانت تمثل النشاط الأساسي لسكان العاصمة ، أما المصنوعات المحلية التي كانت تأتي من داخل البلاد فقد بدأت تقل مثلها في ذلك مثل المستهلكين من سكان الداخل الذين قلت أسفارهم الى مدينة الجزائر ، بفعل المظالم التي كان يرتكبها العسكر التركي .

لذلك لم يتردد سكان العاصمة وخصوصاً الكراغلة عندما سلحهم الخضر في اعلان الحرب على اليولداش وحدثت مجازر رهيبة في شوارع الجزائر ، وسرعان ما سمع السكان خارج العاصمة بتحرك الكراغلة فخفوا للمساهمة في الانتقام من العسكر التركي ؛ وفي ظل الرغبة المشتركة في الانتقام من الجنود الأتراك تحقق نوع من الحلف بين سكان الداخل من أبناء الجزائر وبين الكراغلة من سكان العاصمة .

وقد كان في امكان الخضر أن يستغل هذه الموقعة ويتخلص نهائياً من (فرقة)

اليولداش بواسطة تكوين جيش من الجزائريين يكون أحسن دعامة يعتمد عليها الباشا في تخضيد شوكة تلك الفرقة الأجنبية التي كانت تعيش من امتصاص دماء الشعب .

لكنه لم يفعل ، وقبل بأن يتم الصلح مع الجيش التركي وفوت على نفسه فرصة ما لبث أن أدرك خطأه في تفويتها . .

فقد عاد اليولداش اثر ذلك الى الدس عليه والكيد له وتقديمه في صورة من يعد العدة للاستقلال بالجزائر .

فعوضته القسطنطينية بعد عام من عودته للحكم ، بسلفه مصطفى الذي انتقم منه بحجز كل ممتلكاته ومطالبته بغرامة قدرها ثلاثون ألف لويزة ذهبية .

وبعد أن دفع الخضر ثمن غلطته ، دفع الجزائريون بدورهم ثمن ذلك الخطأ فقد اشتدت عليهم وطأة العسكر التركي فعم السخط وانضم السكان في الثورة على الاتراك الى بني عباس الذين تمكنوا بهذا التأييد من الزحف الى ابواب العاصمة وعسكروا في حدائق باب عزون وحاصروا مدينة الجزائر مدة أحد عشر يوماً ، اضطروا بعدها الى رفع الحصار أمام هجوم شديد نظمه الاتراك .

وقد اغتاظت القسطنطينية لاستمرار الثورة وعاقبت مصطفى باشا لانه لم يتمكن من قهر ثورة بني عباس فعزلته وسحبته وعينت مكانه دالي حسن أبو ريشة .

ولم تطل اقامة حسن دالي في هذا المنصب لان فرنسا طلبت عزله من القسطنطينية وسبب ذلك ان الفرنسيين بحكم الامتيازات التي كانت تخول لهم استعمال بعض الموانىء ، كانوا يسمحون لبعض البواخر الاجنبية غير الفرنسية بالارساء في تلك الموانىء فاعتبر الجزائريون ذلك اخلالاً بالعهد وأرسلوا الى فرنسا يفاوضونها فيهذا الشأن ، لكن المبعوث الجزائري لم يجد أذناً صاغية ، فما كان من الجزائريين الا ان قاموا برد الفعل وحجزوا بعض المراكب الفرنسية .

حملة صليبية ضد الجزائر :

عندما تسلم سليمان (فنزيانو) الحكم أراد أن يضع حداً لثورة القبائل الذين أجبروا الأتراك على خوض حرب عصابات منهكة، فتولى بنفسه قيادة الجيش ونظم فيسنة ١٦٠٠

حملة ضد أحمد أمقران قائد مجانة ، وسار في اتجاه وادي الساحل حتى دخله ، وتقدم أحمد أمقران نحوه وتمكن من دفعه وراء برج حمزة (البويرة) الذي كان نصبه الاتراك للحد من تحركات قائد مجانة وتمكن من هزم سليمان باشا لكن أحمد أمقران قتل في نهاية هذه المعركة فخلفه ابنه سي ناصر وحاول سليمان باشا أن يعيد الكرة مرة ثانية بعد ذلك بعام فانهزم امام جمعة الصهريج .

في هذا الوقت بالذات أراد الأسبان أن يغتنموا فرصة هذه المصاعب التي يواجهها باشا الجزائر ويستغلوها في الهجوم على الجزائر .

وقد أعد خطة هذا الهجوم قرصان فرنسي كان قد تسرب الى الجزائر ودرس تحصيناتها ومواردها العسكرية ، وقد لاحظ أن القوة المخصصة لحراسة الميناء تخف في فصل الصيف، لانها تتوجه حينذاك لجمع الضرائب والزكوات ؛ ويتمثل البرنامج الذي أعده الكابتن روكس — فهذا هو اسمه — في الدخول ليلاً الى ميناء الجزائر بأربعة مراكب حربية ، فيحطم باب البحرية ، ثم يهجم على المنطقة السفلى من المدينة ، فيطلق سراح الأسرى المسلمين الذين كان يبلغ عددهم حينذاك خمساً وعشرين الفاً حسب تقديرات المؤرخين الأوربيين ، وبعد ذلك يضرم النار ، وتكون هناك بواخر أسبانية على أهبة الاستعداد للهجوم بمجرد ما تلمح ألسنة اللهب ، فتنزل الفرق التي تحتل مدخل الميناء والجهات المحيطة بها باكراً مع أضواء الفجر ، وبذلك تستيقظ المدينة فتجد نفسها محاطة بالاعداء من كل جهة .

ذلك هو ملخص البرنامج الذي أعده الكابتان الفرنسي ، وقدمه الى اسبانيا حيث درسه المجلس الملكي ، وقرر تنفيذه بعد درسه ؛ وقد كلفت أسبانيا الأميرال دوريا بتنفيذ العملية . (وهو حفيد دوريا الذي تحدثنا عنه سابقاً) وكان الأميرال دوريا يعرف الجزائريين أحسن من المغامر الفرنسي الذي ظن أنه يستطيع أن يهاجم مدينة الجزائر بنفس الطريقة التي يهاجم مرسى صغيراً من مراسي أروبا .

وقد أدرك دوريا أن هذا البرنامج ليس كافياً في تحقيق احتلال الجزائر وان احتلال الجزائر أخطر من أن يتحقق بأربعة مراكب بحرية .

لذلك غير دوريا البرنامج وقرر ان يجمع لاحتلال الجزائر أكبر قوة ممكنة ، وتجمعت

بالفعل القوات في جنوة ؛ وفي نابولي وفي جزر الباليار ، وفي صقلية ، وفي سردانيـــة وزحفت هذه المجموعة الضخمة على مدينة الجزائر في شهر سبتمبر ١٦٠١ ، مـتركبة من سبعين مركب حربي وعشرة آلاف رجل ويقسم مؤرخ ايطالي عاش تلك الفترة القوات التي هاجمت الجزائر حسبما يلي :

« الباخرة المسماة لاريال مع ستة عشر مركباً وحرس جنوة ، ومركبين لدوق سافوا في خدمة الملك، والجميع تحت قيادة كارلو دوريا، دوق تورسي جنرالهم وستة عشر مركباً من نابولي يقودها بيير طليطلة ؛ واثنا عشر من صقلية من بينها تسعة للملك وثلاثة لدوق يقودها بيير دي ليوا ، وأحد عشر من أسبانيا يقودها الكونت دي بوانـــدية وخمسة تابعة للبابا تحت قيادة الكومندور مانيولونو وستة تابعـة لجمهورية جنوة بقيادة الكونت جيو مع تومازو دوريا جنرالاً ، واربعة من طوسكانا يقودها مارك أنتونيو كالافاتوي. »

ويقول نفس المؤرخ الايطالي عن عدد الجنود الذين تركب منهم هذه الحملة ما يلي :

« كان عدد الجنود أكثر من عشرة آلاف وكانوا موزعين إلى « تيرسي » (وهي الوحدة التكتيكية العسكرية التي كانت تتنظم حسبها العصابات الاسبانية القديمة) موزعة كمـا يأتي : ألف وستمائة من لومبارديا يقودها جنيقودي بورجيا ، ألف من بروطانيا يقودها بيدرو طليطلة دي أنايا ألفان من نابولي يقودهم بييترو فيفارو ، ألف ومائتان من صقلية تحت قيادة سالازار كاستلانو دي باليرمى ، خمسمائة من جيش الحاكم أنتونيو كينونسى ، ألفان وخمسمائة إيطالي يخضعون لأوامر بارنابا دي باربو ، وألف وخمسمائة من فيلق مملكة نابولي تحت قيادة أنيبال ماسيدونيكو ؛ وزيادة على ذلك تعهدت بواخر قداسة البابا بانزال ثلاث مائة وخمسين جنديـــاً من أحسن الجنود ، وتعهدت بواخر طوسكانا بانزال أربعمائة يضاف إلى ذلك عدد كبير من فرسان سانت ايتيين انضموا الى الحملة وقد سلم الأمير القيادة العامة إلى قائد معسكره مانويل دي خيفا كابو دي قاكا ، وهو كابتان محنك شجاع ، كما كان هناك عدد كبير من المغامرين يجب أن ندخلهم في الحساب ، من بينهم دوق دي بارم الذي انضم إلى كارلو دوريا مع فرسانه المائتين وخدمـــه وجنوده القدامى ، ومن بينهم أيضاً فيرجينو أورسينو دوق براسيانو الذي أبحر فوق الباخرة فلورنسا ومركيز ايلش الذي أبحر فوق الباخرة ريال ، وآلفو أدييكيس جنرال الخيالة

الخفيفة لدولة ميلانو الذي اختاره الأمير عضواً له وديبغو بيانتال .

مانويل مانريسكي كومندور أراغون : والكونت دي سيلانو ، وماركيز غارسيفي ، وهرقل غونزاق ، وجيو حيرمينو دوريا، وأورليو طاغليا كارن وعدد آخر من القبطانات والشخصيات البارزة من بينهم سبعة أو ثمانية من شخصيات روما » .

وكانت خطة الهجوم تتمثل في التقدم نحو المدينة ثم التوقف على بعد مسافة منها لا تسمح لمن في الشاطىء بتبين وملاحظة القوات القادمة وهناك ينزل نحو الثلاثمائة جندي إلى سفن صغيرة ويتقدمون نحو الشاطىء لمهاجمة باب البحرية ، وعندما يتم تحطيم الباب ، تتقدم وحدات الأسطول بسرعة إلى الأمام لإنزال الجنود ؛ وفيما إذا لم تتمكن الطليعة من تحطيم الباب والاستحواذ عليه تتقدم الباخرة « ريال » على رأس خمسة عشر مركباً من أحسن المراكب لإنقاذ جنود الطليعة ومواجهة غير ذلك من الاحتمالات .

ويقول المؤرخ الإيطالي المذكور في وصف تطور الحملة ما يلي :

« — في الثلاثين من أغسطس اقتربت وحدات الحملة من شواطىء أفريقيا ، وقد كان من المقرر أن لا تصدر الأوامر الأخيرة إلا عندما يقع الاقتراب من الأرض لكن كل البواخر التي أرادت أن تقترب من الباخرة « ريال » سارت ببطء بحيث تفرقت كلها مع مطلع الفجر . وكانت الباخرة « كابتان صقلية » قد تخلفت بحيث لم تعد ترى بحيث أنه في الوقت الذي كان مطلوباً فيه من كل أحد أن يحترم الأوامر بكل دقة كان هو الوقت الذي اهملت فيه مراعاة الأوامر إلى أقصى حد .

وضاعت أكثر من ثلاث ساعات في جمع وحدات الأسطول .

وبعد ذلك سحبت الشراعات ، وتوقفت على بعد ثلاثين ميلاً من المدينة ، وبما أن قائدي البواخر لم يكونوا يعرفون البلاد ، فقد بدا لهم أنه من الأفضل البقاء على هذا الوضع وقد رأى الأمير أنه من الأنسب التعرف على الأرض بواسطة سفن صغيرة تبحث عن نقطة من نقط الساحل تكون أقرب

وبحيث يمكن إرساء البواخر الكبرى فيها أما الذهاب إلى أبعد من ذلك فقد كان يعد خطأ لأنه كان قد وضع معظم الجنود في السفن وكان يستعد للهجوم على الجزائر ، لكن الذين كلفوا بالتعرف على الشاطىء لم يعودوا قبل الليل ، فغضب الأمير الذى تلقفته الشكوك وخشي أن يكونوا قد وقعوا في الأسر أو هربوا ، ولم يكن من الممكن أن يستسلموا بمحض إرادتهم للأتراك لأن الفرق التي كانت في السفن وهي أكثر عدداً ما كانت لتتركهم يفعلون ذلك ولم يكن هناك ما يخشى من ناحية البحر الذي كان هادئاً ، لكن هذا التأخير كان غريباً ومضراً ، وعندما جاء المساء عادوا إلى الاسطول قائلين بأن التيار حملهم بعيداً عن شاطىء الجزائر بنحو خمسين ميلاً بحرياً في اتجاه الشرق ، ونظراً لذلك لم يتمكنوا من الاقتراب من الأرض خشية أن يكتشفوا ، وقد تقرر أن تنطلق الحملة . كلها من هنا ابتداء من الغد لتتوجه الى المكان المعين ، وكان كل احد يستعد للنزول ، كما وزعت كل الاوامر الضرورية ، وكان شيئاً جميلاً اندفاع الجنود ، فقد كان كل احد منهم يظهر انبل الحماس وبما انه وقع اختيار الثلاثمائة جندي الذين ساروا في الطليعة من بين الجنود الاسبان ، فقد شكا الايطاليون من عدم تمكينهم من المساهمة في الانتصارات الاولى ، فبعث دوق دي بارم الى الامير يلحون عليه ان يشركهم في قوات الطليعة لكن الامير لم يرد الخلط بين الجنود فوعدهم بترضيتهم اثناء حملة اخرى ؛ وفي آخر الليل ،وفي الوقت الذي لم يكن يفصلهم فيه عن شاطىء البحر اكثر من عشرين ميلا هبت ريح يونانية من الناحية الشرقية بعنف شديد بحيث لم يكن في الامكان مواصلة الهجوم ولا البقاء على نفس الوضع ، فوجب سحب الجنود الذين نزلوا للسفن ، بل ولم يكن بد من ترك الحرية للرياح اللعينة تأخذ المراكب الى حيث شاءت .

ذلك ما قاله مؤرخ ايطالي عاشر هذه الحملة ، وهو جيرونيمو كونسيتاجيو ، في رسالة نشرت في جينوة ، ثم اعيد طبعها في البندقية سنة ١٦٠٢ .

ويبدو ان هذا المؤرخ الايطالي هو المؤرخ الوحيد الذي تكلم عن هذه الحملة باسهاب .

اما مصير الكابتان الفرنسي روكس صاحب الاقتراح الاصلي في تنظيم هذه الحملة ضد الجزائر ، فيحيط به الغموض ، لأن الامير دوريا ابعده ولم يسهمه في الحملة ولعل

مرجع ذلك الى عدم ثقته في الخطة التي اقترحها روكس ، وقد رجع روكس بعد ذلك الى بلده فرنسا ، حيث سجن لأن ملك فرنسا اشتبه فيه ان يكون عيناً من عيون اسبانيا ، ومهما يكن من شيء فان ملك فرنسا لم يرقه مشروع روكس الذي لو نجح لأدى الى تعزيز وتدعيم موقف اسبانيا التي يجب ان لا ننسى انها كانت في تلك الفترة قد بدأت توسع مصالحها التجارية في المغرب العربي بعد ان تحصلت على الامتيازات القنصلية في الجزائر .

وفيما يتعلق بهذه الحملة ايضاً نجد المؤرخ الفرنسي دي غرامون يحاول تفسيرها بما فسر به بدء التسرب الاسباني الى الجزائر ، فهو يقدم هذه المحاولة في قالب هجوم دفاعي يرمي الى ابعاد خطر الثورة المتوقعة من طرف مسلمي الاندلس والتي يجد من يغذيها في الجزائر ، ويقول بهذا الصدد ما يلي :

ان دوق دي كومنت لافورس كان قد تلقى من المور القاطنين في اسبانيا اقتراحات بعقد تحالف ، فقد لفت انتباه الملك الى سخط هؤلاء السكان والى ما في ذلك من فُرَص يمكن استغلالها ضد اسبانيا وقد تَذَوَّقَ الملك هذه القضية تذوقاً كبيراً وطلب منه ان يعمل جاهداً في سبيل تحقيق هذا الهدف دون كلل ، وقد طلب الدوق من الملك ان يبقى السر بينهما ، ثم تفرغ لمفاوضات ، وقد نظمت المسألة من طرف المور تنظيماً منسقاً للغاية جعل الدوق يعترف لهم بنظام رائع في ادارة شؤونهم وفي حبك خطط هذا المشروع الكبير بحيث لم يبق إلا التنفيذ وكان الدوق قد ارسل عدة مبعوثين الى اسبانيا للاتصال بالمور لكن احدهم ، وهو باسكال دي سانت ايستيف ، اكتشف من طرف الاسبان ، وعذب ثلاث او اربع مرات ، ثم اعدم دون ان يتوصل الاسبان الى انتزاع كلمة سر منه ، وهناك مبعوث آخر ، وهو السيد (دي بانيسولت) كان اسعد حظاً فتمكن من حضور المجمع الذي عقده قادة الانقلاب في طوغة ، ونقل الى هنري الرابع المداولات التي جرت في ذلك المجمع ،وقد وقع المذكرة باسم الجميع احمد المتصرف ، وتقول : هذه المذكرة « انهم (اي مسلموا الاندلس) لا يطلبون إلا الاسلحة وبعض القادة العسكريين المدربين ، وان الطلقات الاولى ستجعلهم سادة ملكة فالانس ، وأن المور الذين سيكونون قد توزعوا ، سيثورون عند ذلك ثورة رجل واحد ، وان كل

شيء قد تَمّ تنظيمه ، وانهم ينتظرون فقط الاذن الذي يطلبون من الملـــك اعطاءه في اقرب الآجال واشاروا بذينه كموقع مناسب لدخول القوات الآتيـــة من الخارج ، ووعدوا باعداد ثمانين الف جندي في الداخل وبتسليم ثلاثة مدن هامة ، وقد نقل السيد دي بانيو معه الى الملك الفرنسي خريطة تبين الطريق الذي يجب السير فيه والنقط الـتي تحتاج الى تحصين ومخازن السلاح والتموين ، وكل ما يلزم لهذا الهدف الكبير ؛ وفي ١٦٠٤ جاء مندوبو المور الى فرنسا للتعجيل بالحركة ، يقودهم دوف لوبيز الذي عينه فيما بعد ريشليو مستشار الدولة ، ويبدو ان انتونيو بريز الشهير قد ساهم في هذه المفاوضات وتلقى الدوق قيادة العمليات العسكرية ، وكان من المقرر ان يؤدي القسم بوصفه مارشال فرنسا ، لولا ان قتل رافياك هنري الرابع قبل اليوم المحدد لأداء القسم بيوم واحد ، وهكذا انقذت مُدْيَةُ رافياك من خطر محقق اولائك الذين قد يكونون هم الذين نظموا الجريمة ، وقد كان هنري الرابع قد خصص دوراً هاماً للقوات الجزائرية في تنفيذ هذا المشروع . فقـــد كان من المقرر ان تسيطر البواخر الحربية الجزائرية على البحر حتى تمنع قدوم الامداد من ايطاليا وصقلية ، بينما تقذف السفن الخفيفة القادمة من الجزائر بالاسلحة والمتطوعين الى شواطىء الاندلس وفي طليعتهم ابناء الذين اضطهدوا في ١٥٧٣ .

وبالرغم من أن دي غرامون أراد أن يسوق رواية هذه الحوادث في قالب معين يهدف الى تبرير العمليات الوحشية التي قام بها الاسبان ضد مسلمي الأندلس ، فان هـذه الرواية نفسها تشتمل على اعتراف ضمني بأن المعركة الحقيقية كانت تجري بـــين فرنسا من جهة واسبانيا من جهة اخرى ؛ كما أن في الرواية اعترافـاً ضمنياً بأن مسلمي الأندلس كانوا في نظر الفرنسيين أداة للمناورة ضد الاسبان لاضعاف البيت المالك في اسبانيا أي أن هنري الرابع ، ملك فرنسا أراد أن يستغل روح الانتقام التي تغلي بهـا نفوس مسلمي الأندلس في تعزيز سلطانه بكامل حوض البحر الأبيض المتوسط ، كما أن البيت المالك في أسبانيـا بعد أن دفع بمظالم مسلمي الأندلس الى الثورة أراد أن يستغل محاولتهم رد الفعل في تنظيم رد فعل معاكس يخلصه نهائياً من المسلمين ، ويحرم بالتالي فرنسا من احدى الاوراق الهامة في مناوراتها ضد اسبانيا ، فمدار المعركة الحقيقي بين أسبانيا وفرنسا هـــو السيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط وعلى شواطىء المغرب العربي .

على ان هناك نقطة غامضة في سياق دي غرامون ، فهو يسوق هذه الحوادث ليبرر بها الهجوم الأسباني الذي وقع ضد الجزائر في سنة ١٦٠١ ويؤكد ان مقتل هنري الرابع هو وحده الذي وضع حداً للاعدادات التي تمت في اسبانيا لتنظيم ثورة المسلمين ، في حين ان مقتل هنري الرابع تم سنة ١٦١٠ ، أي بعد ذلك بتسع سنوات وليس من المعقول أن تستمر هذه الاعدادات سرية طوال هذه المدة .

الجزائر ضد القسطنطينية :

عاد الخضر للمرة الثالثة الى الجزائر في سنة ١٦٠٣ فشجع طائفة الرياس على عملية الغزو وأراد أن يضع حداً للامتيازات الفرنسية التي منحها الباب العالي لفرنسا ، فهدم المركز التجاري الفرنسي وأسر عدداً من الفرنسيين .

فأرسل ملك فرنسا هنري الرابع الى القسطنطينية يشكو الخضر ويطلب الانتقام منه ، فما كان من السلطان العثماني الا ان وجه قوصة باشا الذي أعدم الخضر بمجرد وصوله الى الجزائر ، وحجز كل ممتلكاته ، لكن الباشا الجديد لم يستطع ، رغم التعليمات التي صدرت اليه من القسطنطينية أن يعيد بناء الممركز التجاري الفرنسي كما كان يطلب الفرنسيون لأن الديوان الجزائري كان يعارض في ذلك ، وقد أراد دوق توسكان أن يستغل بدء الخلاف بين الجزائر وفرنسا في تنظيم هجوم خاطف على ميناء الجزائر واضرام النار في البواخر الحربية الجزائرية ، لكن بعض التجار اليهود الذين كانوا يتعاملون مع طائفة الرياس أبلغوهم النبأ فاستعد الجزائريون لمواجهة الهجوم وأحبطوه .

وقد بذل السفير الفرنسي محاولات كبيرة للحصول على إعادة بناء المركز الفرنسي لكن دون جدوى بل أن الديوان الجزائري ذهب إلى حد الوعيد بقتل كل من يسمح بإعادة المركز التجاري الفرنسي .

وفي هذه الأثناء وصل السيد دي بريف إلى الجزائر صحبة مصطفى آغا القابجي مبعوث الباب العالي، وكان هذا المبعوث يحمل أمراً من الباب العالي إلى الجزائريين باحترام الامتيازات الفرنسية والاستجابة إلى مطالب فرنسا واطلاق سراح الأسرى الفرنسيين واعادة بناء المركز التجاري الفرنسي ، وارجاع المغانم المأخوذة من الفرنسيين .

اجتمع الديوان يطلب من القايجي الذي قرأ عليه الأمر الصادر من القسطنطينية ، فما كاد الديوان يستمع إلى ما جاء في الأمر حتى انفجر في صفوفه غضب شديد ، وفي الحين قرر أعضاء الديوان تكسير أربع أغوات لأنهم أبدوا استعدادهم لتنفيذ أوامر الباب العالي وانفجرت ثورتان في ظرف ثمانية أيام ، وحوصر الباشا في قصره حيث مات بعد قليل ، وتدخل في الأمر مورا رايس الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة لكنه لم يتوصل إلا الى اخماد الغضب ، فقد استمر الدّيوان متشبثاً بموقفه في عدم السماح باعادة بناء المركز الفرنسي ، وفي عدم اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الا بعد أن يطلق الفرنسيون سراح الأسرى الجزائريين في مرسيليا .

بعد موت محمد قوصة خلفه مصطفى القايجي الذي انصرف إلى تحصين الميناء خشية هجوم ينظمه الاسبان وبعد ولاية محمد قوصة بلغ إلى علم الجزائريين أن ركاب باخرة جزائرية وقعت في أسرى الاسبان تمكنوا من الفرار ، لكن الفرنسيين القوا عليهم القبض في مرسيليا فثارت ثائرة الجزائريين عند سماع هذا النبأ وهجمت الجموع الجزائرية على مقر القنصل الفرنسي وألقت القبض على القنصل السيد دي فياس وقد تمكن مصطفى باشا القايجي خلال مدة ولايته من ضم جمعة الصهريج بعد مفاوضات عديدة ضمنت له ولاء منطقة هامة من القبائل ومات مصطفى باشا في ١٦٠٧ بسبب الطاعون .

بعد ذلك عين رضوان باشا ، وفي العام الأول من ولايته هاجمت مرسي عنابة حملة من الطوسقان من دويلات إيطاليا قبل الاتحاد وجاء لنجدتها محمد بن فارح باي قسنطينة فاستشهد أثناء المعركة وبالرغم من ذلك فقد تمكن السكان بعد معركة قاسية من دفع المهاجمين عن عنابة .

وفي هذه الفترة نزل الفرنسيون على شرط الجزائريين وأطلقوا سراح الأسرى الجزائريين الذين كانوا بمرسيليا ، فهدأت بذلك حدة الأزمة بين فرنسا والجزائر ، وعادت العلاقات بينهما إلى ما كانت عليه .

لكن حدث بعد ذلك أن أحد القراصنة من أصل فرنسي اسمه سيمون دانسا كان اشتغل في صفوف طائفة الرياس الجزائريين وشاركهم في الغزو على مراكبهم – حدث أن

فر سيمون دانسا الى فرنسا مستصحباً معه مدفعين من البرونز ، كانت الدولة الجزائرية قد سلحت بهما باخرة . وقد أثارت سرقة المدفعين موجة عارمة من الاستياء في الجزائر ، وطالب الديوان بارجاع المدفعين وبمعاقبة السارق ، لكن ملك فرنسا لم يعر اهتماماً لهذا المطلب، فتحمل مسؤولية قطيعة بينفرنسا والجزائر عادتعلى المصالح التجارية الفرنسية بأوخم العواقب .

ذلك ان الرياس الجزائريين أرادوا أن يغسلوا في الحين عاراً رأوا أنهم هم الذين تسببوا في جلبه للجزائر . وتجند الجزائريون وتطوعوا للحرب والغزو وفوق مراكب الرياس ، بينما ساهمت النساء مساهمة كبيرة في شراء الأسلحة بما تبرعن به من حلي ومجوهرات .

وفي هذه الفترة بالذات اقبلت على الجزائر جموع المسلمين الفارين من الاندلس أثر قرار ملك أسبانيا بمنحهم مهلة ثلاثة أيام لمغادرة أسبانيا . والى هذه الفترة يرجع بناء مدينة البليدة التي بناها مسلمو الاندلس .

وما كادت تصل سنة ١٦١٦ حتى أصبحت الخسائر الفرنسية تقدر بثلاثة ملايين جنيهاً ، بقطع النظر عن قيمة الأسرى .

وتكررت شكاوي القنصل الفرنسي ، لكن باشا الجزائر كان دائماً يجيبه بضرورة تسليم المدفعين اللذين سرقهما سيمون دانسا .

وقد حاول الفرنسيون من قبل ذلك أن يجبروا الجزائريين بالقوة على النزول عند شروطهم ، لكن دون جدوى ، ومن جملة تلك المحاولات هجومهم على متن سفن طوسقانية على مرسي برقش (غورايا) فخربوه .

وفي هذه المدة تولى قوصة مصطفى باشا ولاية الجزائر للمرة الثانية ، خلفاً لحسين الشيخ باشا الذي وقع في عهده الوباء الاكبر (سنة ١٦١١) الذي هلك فيه عدد كبير من السكان ، وقد كان حسين الشيخ باشا عقد اتفاقية مع داي تونس حدد بها التخوم بين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية ، وقد خابت المفاوضات التي جرت بين الجزائر وفرنسا لوضع حد للحرب الدائرة بينهما في البحار وعلى الشواطىء الفرنسية . وبعد بضعة أشهر تقلد ولاية الجزائر سليمان باشا قاطانيا في سنة ١٦١٧ ، وفي مدته حاول الفرنسيون

استرضاء الجزائريين لما لحق تجارتهم وشواطئهم من اضرار وتخريب على يد الجزائريين ، فأرسل الفرنسيون نحو أربعين من الأسرى الجزائريين صحبة أخ القنصل الفرنسي الذي كان يأمل أن يتحصل من وراء ذلك على سراح الاسرى الفرنسيين واعلان السلام بين الجزائر وفرنسا .

لكن الجزائريين اكتفوا بتسليم أسراهم ، ورفضوا السلم ما لم يرجع الفرنسيون المدفعين اللذين كانت سرقتهما سبباً في اندلاع المعارك بين الجزائر وفرنسا ، بل أن الجزائريين عمدوا إلى تخريب المركز التجاري الفرنسي الذي كان السيد دي كاستلان قد احتله باسم دون دي قيز بالقوة . ونظم الرياس الجزائريون حملة ناجحة ضد جزيرة مادير وعادوا منها بغنائم كثيرة ، وبألف ومائتين أسيراً .

بعد ذلك عمدت القسطنطينية إلى عزل سليماً قاطانيـــا بطلب من سفير فرنسا ، وعوضته بحسن الشيخ باشا الذي تقلد ولاية الجزائر للمرة الثانية .

* * *

بعد هذه السنوات الطويلة من الحرب بين الجزائر وفرنسا ، لمست الملكية في فرنسا خراب تجارتها مع المشرق بسبب سيطرة الجزائريين على البحر ، ولم تجد بداً من التفاهم معهم ، فراحت تسعى لإنهاء القطيعة ، وقد بعثت الجزائر برسولين إلى فرنسا للتفاوض هما : كينان آغا وروزان باي اللذين أجريا مفاوضات تمهيدية مع دوق دي قيز ثم سافرا إلى مدينة تور حيث كان يوجد الملك ، وهناك أبرمت معاهدة سلم في ٢١ مارس ١٦١٩ تنص على ارجاع الأسرى من الطرفين .

وبعد ابرام المعاهدة عاد كينان آغا إلى مرسيليا حيث كان صدر اليه الوعد بتسليم المدفعين وكل الأسرى الجزائريين . لكن دوق دي قيز رفض تسليم المدفعين بناء على أن المعاهدة المبرمة لا تنص على ذلك ، ولم يكن في إمكان كينان آغا من ناحيته أن يعود إلى الجزائر دون المدفعين . وواجهت المعاهدة من بدايتها مشكلة معقدة من الصعب حلها بطريقة ديبلوماسية : فالفرنسيون من جهة يعتبرون انه من المستحيل اعادة المعاهدة إلى الملك ليوقع عليها بعد إضافة بند جديد . والجزائريون يعتبرون أنهم قد خدعوا ما داموا

لم يتسلموا المدفعين حسب الوعد الشفاهي الذي وثقوا فيه . وطال الأخذ والرد واستمر ما يقرب من سنة . آنذاك قرر تجار مرسيليا الذين عادت اليهم القطيعة مع الجزائر بأضرار كبيرة ، أن يشتروا المدفعين من دوق دي قيز ويهدوهما إلى الوفد الجزائري . وبدا أن الحل ممكن بهذه الكيفية ، لكن حدث في هذه الأثناء حادث أجل النهاية المرجوة ووتر العلاقات بين الطرفين من جديد .

ذلك أن رجب رايس الجزائري كان قد أخذ مركباً فرنسياً واستحوذ على ما فيه ، وليس من المستبعد أن يكون قد فعل ذلك بناء على أن المعاهدة المبرمة لم تدخل حيز التنفيذ بعد . وقد خشي رجب رايس ان يؤثر ذلك على تطور التفاهم بين الجزائريين والفرنسيين فأغرق المركب الفرنسي حتى لا يصل النبأ الى مرسيليا .

لكن اثنين من البحارة تمكنا من النجاة وحملا النبأ الى مرسيليا ، واثار حفيظة السكان الفرنسيين الذين هاجموا مقر الوفد الجزائري ، ورغم المفاجأة فقد سارع الجزائريون الى الدفاع عن انفسهم واستمروا في الدفاع طيلة يوم وليلة ، آنذاك اضرم الفرنسيون النار في مقرهم فأجبرهم على النزول الى الشارع حيث ذبح منهم ثمانية واربعون شخصاً .

وقد ادرك المسؤولون الفرنسيون ان هذه المذبحة ستمدد في عمر متاعبهم مع الجزائر فسارعوا الى محاكمة المسؤولين عن المذبحة واصدر البرلمان الجنوي بايكس الحكم بالاعدام على اربعة من المتسببين في المذبحة ، وسلط على الآخرين عقوبات مختلفة .

وسرعان ما وصل الخبر الى الجزائر فسارع الباشا والديوان بكتابة رسالة الى فرنسا تطلب ايضاحات ، وحمل الرسالة محمد الشريف صبر كينان آغا . وقد بادر الفرنسيون بدورهم برد جواب يشتمل على كل الايضاحات وتفاصيل الواقعة ، لكن محمد الشريف وقع في اسر باخرة طوسقانية بينما كان في طريق العودة الى الجزائر ، فتعطل بذلك وصول الجواب الذي كان ينتظره الجزائريون . فثارت ثائرة الديوان ، وخرجت بواخر الرياس تنهب الشواطىء الفرنسية . وقد اراد الفرنسيون ان يردوا الفعل ، وان يعودوا بالقوة الى مركزهم التجاري ، لكن دون جدوى ، وقد حاول الهلنديون والانكليز

استغلال هذا الظرف لاملاء شروطهم على الجزائر لكن دون جدوى أيضاً . وفي سنة ١٦٢٣ كلف ملك فرنسا لويس الثالث عشر شخصاً اسمه سانسون نابللون بالتفاوض مع الجزائريين وابرام معاهدة سلم معهم . فسافر الى القسطنطينية وتحصل من السلطان العثماني في ١٦٢٥ على كل الترضيات .

لكن سانسون نابللون ، كان يدرك من تجارب الذين سبقوه ، ان الحكم الحقيقي ليس بيد القسطنطينية ولكنه بيد الديوان الجزائري . لذلك لم يكتف بالأوامر التي حملها من السلطان العثماني الذي ارسل معه ستة ضباط (قايجي) مكلفين بتبليغ تلك الأوامر الى الديوان الجزائري ، وقبل ان يتوجه نابللون الى الجزائر ، ذهب الى باريس لمقابلة الملك الفرنسي والتفاوض معه عمن يتولى تمويل مهمته وتغطية مصاريفه . فأعطاه الملك خمسة عشر الف جنيه ، واعلمه ان كل المدن الساحلية الفرنسية هي التي ستتولى تمويل مهمته لأنها هي التي تستفيد اكثر من عقد السلم مع الجزائر .

وفي طريق ذهابه الى الجزائر مر بمرسيليا فاشترى من هناك المدفعين اللذين تسببا في تلك الأزمة ، وتوجه الى الجزائر التي وصلها في ٢٠ جوان ١٦٢٦ .

احدث ارجاع المدفعين الى الجزائر وتسليم مائتي أسير مسلم ، أثراً طيباً في الجزائر ، وقد كان لنا بللون من الخبرة والذكاء ما دفعه الى الاعتماد على وسائل أخرى غير أوامر القسطنطينية لأداء مهمته ، لذلك اتصل بأعضاء الديوان الجزائري من رياس وضباط مستغلاً في ذلك إتقانه للغة التركية ، وراح يقنعهم بضرورة وضع حد للحرب بين الجزائر وفرنسا ، وعلى هذا الأساس تعددت اتصالاته بحسن قلفاط ، وعلي عرباجي ، وسليمان رايس ، وعلى بتشيني ، وغيرهم من الاسماء اللامعة في الجزائر حينذاك .

وعندما شعر الهولنديون والانكليز أنه على وشك النجاح في مهمته ، أشاعوا أن نابللون قد زور الأمر الذي حمله من القسطنطينية ، مما دفع الجزائر الى ارسال عشرين موصولاغا الى هناك للتأكد من الحقيقة ، كما ان مهمة نابللون لم تكن لترق لبعض الشركات التجارية الفرنسية ، ذلك ان بعض التجار الفرنسيين كانوا رغم الحرب ، يتاجرون مع بعض المناطق الداخلية من الجزائر بواسطة السوق السوداء فيبيعونها الأسلحة ، مقابل

القموح والشمع والجلود ، وبمـــا ان الاتراك كانوا يعارضون في بيـع الأسلحة للمناطق الداخلية الجزائرية ، فقد قامت سوق سوداء أفاد منها التجار الفرنسيون المذكورون . فابرام السلم مع فرنسا والحالة هذه وفتح مركز تجاري فرنسي يمركز كل النشاط التجاري الفرنسي مع الجزائر من شأنه أن يقضي على هذه السوق السوداء .

وقد تعزز هذا الخلاف الناشيء بين المصالح التجارية الفرنسية الخاصة ومصالح الدولة الفرنسية ، بذلك الصراع الذي كان قائماً بين مجهودات ريشليو الرامية الى مركزة كل شيء بيد الدولة ، وبين بقايا المصالح الاقطاعية والتجارية التي تريد ان تدفع دوماً بمصالح الدولة الفرنسية الى المرتبة الثانية .

وهكذا وجدت الدولة الجزائرية أنهـــا امام مطالب متناقضة ومصالح متضاربة ، فنابلون يتكلم بلغة غير اللغة التي يتكلم بها القناصل ممثلوا الشركات الفرنسية التجارية . لذلك طلب باشا الجزائر – الذي كان هو الحسين باشا حينذاك – من فرنسا أن تعين ممثلاً رسمياً لها .

وفي نفس الوقت كان الجزائريون يطالبون بارجـــاع كل الأسرى المسلمين الموجودين بفرنسا او في خدمـــة مراكب القراصنة الفرنسيين ، وبما ان القراصنة الفرنسيين ، كانوا يرفضون التخلي عن اسراهم المسلمين ، فقـد أصدر ملك فرنسا أمراً الى المناطق الفرنسية التي ينتمي اليها الاسرى الفرنسيون في الجزائر ، بأن تدفع ضرائب خاصة لشراء الاسرى المسلمين من القراصنة الفرنسيين واعادتهم الى الجزائر حتى يتم السلم .

وقد تم ابرام معاهدة سلم بين الجزائر وفرنسا صادق عليها الديوان الجزائري في اجتماع عقده يوم ١٩ سبتمبر ١٦٢٨ وتنص هذه المعاهدة على :

١ – اطلاق سراح الاسرى من الجانبين .

٢ – عدم تتبع الجزائريين للبواخر الفرنسية .

٣ – لا يمكن للفرنسيين أن يستعبدوا جزائريين ولا للجزائريين ان يستعبـــدوا فرنسيين .

٤ – يقيم بمدينة الجزائر قنصل فرنسي تكون له ولمنزله الحصانة .

وبعد ذلك ابرم نابليون اتفاقاً مع الجزائر يرخص له في اعادة بنـــاء المركز التجاري الفرنسي في عنابة .

وكان هذا المركز الذي بنـاه نابليون يواجه البحر فوق شاطىء صغير تستطيع سفن صيادي المرجان ان ترسى فيه بسهولة وتوجد بالمركز ساحة كبيرة يوجـد في نهايتها معبد وفوق المعبد مسكن رجال الدين ، والى جانبه المستشفى ، كما يوجـــد بالمركز حديقة ومقبرة ، وهناك قلعة مسلحة بثلاثة مدافع ، ومن خلفهـــا ميدان تفتح عليه المحلات المخصصة لخزن القموح تضاف الى ذلك الثكنات التي تسع ثمانمائة جنـــدي فرنسي كانوا موزعين على مختلف النقط التجارية الفرنسية .

وقد ازدهر النشاط التجاري بسبب هذا المركز حتى انه اصبح في استطاعته أن يزود مرسيليا بكل ما تحتاجه من قموح .

الباب السابـــع

العصر الذهبي للبحرية الجزائرية

- تناقضات في تنظيم الدولة .
- الفرنسيون ينقضون الصلح مع الجزائر .
- ثورة ١٦٣٣ .
- منعرج حاسم في تاريخ البحرية الجزائرية .
- ثورة الشرق الجزائري .
- موت علي بتشيني .

تناقضات في تنظيم الدولة

فيما بين سنتي ١٦٢١ وسنة ١٦٢٦ توالى على الجزائر ثلاث باشوات هم : مصطفى قصور ومراد وخصرف باشا ولا يعرف شيء عن مصطفى قصور ومراد بل ان كثيراً من التراجم تهمل ذكرهما .

اما خصرف باشا فقد كان رجلاً حازماً وأول عمل قام به هو ابعاد فرقة اليولداش عن مدينة الجزائر حتى يبعد عن سكانها مصدراً من مصادر الاضطرابات الذي يصيب الحياة الاجتماعية وقد تنقل بنفسه عبر مختلف الأوطان الجزائرية من تلمسان الى قسنطينة، عاملاً على تعزيز الوحدة الترابية ، كما عمل على اجبار مختلف النواحي على دفع ما عليها من ضرائب ، وعندما أراد الذهاب الى قسنطينة نازعه قبائل كوكو وأرادوا أن يقطعوا عليه الطريق ، فحاربهم وانتصر عليهم . وقد تبين خصرف باشا ان القلاقل التي نجمت في الشرق الجزائري تمت بايعاز من باي تونس ، فأعلن الحرب عليه .

وقد أدركت القسطنطينية ان نشوب الحرب بين تونس والجزائر من شأنه أن يعزز الشعور الاستقلالي عند كل منهما ، فقررت أن تتدخل في الأمر بارسال أسطول بحري هام ، لكن الأسطول لم يتوجه الى المغرب العربي نظراً لثورة سكان كريمي والقوقاز في البحر الأسود .

فاستمرت الحرب مدة بين الجزائر وتونس بسبب مشاكل الحدود .

وقد استمر هذا الخلاف الى عهد حسين باشا ، وبعد عدة وقائع حربية اتفق الجانبان على تخطيط الحدود من جديد وفي فترة حكم حسين باشا هذا ، تم ابرام معاهدة السلم بين الجزائر وفرنسا التي تحدثنا عنها في الفصل السابق .

ان هذه المعاهدة ومما أثارته من سخط في الجزائر تُجسِّم بعض الشيء طبيعة التناقضات التي كانت تواجه تنظيم الدولة الجزائرية .

فالقسطنطينية، كانت تريد باستمرار ان تخضع المصالح الجزائرية لمصالح الامبراطورية العثمانية ، وكانت كثيراً ما تمنح الفرنسيين ترضيات دون ان تستشير في ذلك الجزائريين.

وبالرغم من أن الباشا كان يعين من طرف القسطنطينية ، وبالرغم من انه يمثل مصالحها، فانه كان مضطراً الى مراعاة أعضاء الديوان الذي يملك السلطة الحقيقية بالبلاد .

وفي داخل الديوان كان يوجد ممثلون للمصالح الجزائرية، مثل طائفة الرياس التي كانت تريد استمالة السكان الجزائريين والاعتماد عليهم في تعزيز موقفها ضد الجنود الأتراك .

وذلك هو السبب في وجود تقارب بين طائفة الرياس وبين بعض سكان العاصمة ، الذين كان الجنود الأتراك قد حرموهم من حق المساهمة في ممارسة السلطة .

وهذه السياسة هي التي تفسر الثورات المتعددة التي تنجم من حين لآخر في وجه ممثلي الجنود الأتراك ، مثل ثورة تلمسان التي نشبت في عهد خصرف باشا الذي وجه لاخمادها فرقة من جنوده ارتكبت عدة فظائع منها سلخ جنود الثوار وهم أحياء ، ثم حشوا جلودهم بالتبن وأرسلوها الى مدينة الجزائر لتكون عبرة .

وقد كان توقيع المعاهدة مع فرنسا مناسبة اغتنمها الجزائريون للثورة في وجه الجنود الأتراك، باعتبار ان الامتيازات التي اعطيت للمركز التجاري الفرنسي والسماح لهم باقامة قوة عسكرية تتركب من ثمانية مائة جندي فرنسي لحماية المركز التجاري ، تعد نيلاً من السيادة الجزائرية

ويجب ان نضيف الى الاعتبارات السابقة اعتباراً آخر يفسر تلاقي المصالح بين الجزائريين وبين طائفة الرياس .

فلئن كان الجزائريون مدفوعين إلى معارضة الامتيازات بنخوتهم وغيرتهم الوطنية ، فإن طائفة الرياس تحبذ استمرار الحرب مع فرنسا للمكاسب التي تعود عليها من جراء ذلك .

فقد تمكن الرياس خلال السنوات الثانية الأولى من نشوب الحرب مع فرنسا من أخذ تسعمائة وستة وثلاثين مركب أوربي . وهذا الرقم الرسمي لا يمثل إلا جزءاً قليلاً من

المراكب التي أخذوها بالفعل لأن النظام كان ينص على أن المركب المستولي عليه يصبح ملكاً للباشا ، بالاضافة إلى النصيب الذي يأخذه من المغانم . لذلك كان الرياس ، من حين لآخر يعمدون إلى إغراق الباخرة التي يستولون عليها بعد أخذ ما فيها ، حتى لا يشاطرهم الباشا في المغانم من جهة وحتى لا يعززوا قوة الباشا من جهة ثانية .

الفرنسيون ينقضون الصلح مع الجزائر :

ومهما يكن من شيء فقد احترم الجزائريون الصلح المبرم مع فرنسا وازدهر النشاط التجاري بين الجزائر والسواحل الفرنسية بكيفية لم يسبق لها نظير . لكن مدة الصلح مع فرنسا لم يقدر لها أن تطول ، فقد حدثت سلسلة من الوقائع جعلت الديوان الجزائري يشك في سلامة النوايا الفرنسية وعرضت الصلح لعواصف جديدة .

وكانت فرنسا في ذلك الوقت قد عينت ممثلها الرسمي إزاء الدولة الجزائرية ، وهو الكابتان نيكولان ريكو فاستجابت بذلك لمطلب باشا الجزائر، وقد كان من المتوقع أن يعمل الطرفان ، الفرنسي والجزائري ، على تنسيق النشاط بينهما بكيفية تقطع الطريق على أصحاب المصالح الخاصة ، وبصورة تقرأ حساباً على الأخص لمصالح الدولتين .

وسط هذه الوضعية الهادئة ، حدث أن سفينة جزائرية تحمل ستة عشر من أفراد البحرية الجزائرية ، انفصلت عن المراكب الحربية التي كانت تابعة لها . واعترضت بعد ذلك بباخرة فرنسية ، فطلب منها الجزائريون أن يسمحوا لهم بالركوب على متنها والذهاب معهم إلى فرنسا، وقد اطمأن الجزائريون إلى الباخرة الفرنسية بناء على المعاهدة التي أبرمت بين الجزائر وفرنسا .

لكن الجزائريين ما كادوا يستقرون بالباخرة الفرنسية حتى استقبلهم الفرنسيون تذبيحاً وتقتيلاً .

وبعد ذلك بأيام قلائل التقت باخرة فرنسية بباخرة جزائرية قرب الشواطىء الاسبانية ، ولم يحترز الجزائريون من الباخرة الفرنسية بناء على استتباب السلم بينهم وبين

الفرنسيين ، لكن الباخرة الفرنسيـــة خدعت بالجزائريين واستغلت احترامهم للصلح وأسرتهم وباعتهم في سوق الرقيق باسبانيا .

ومن الواضح ان هاتين الحادثتين يمثلان خرقاً فاضحـــاً للصلح المبرم بين الجزائر وفرنسا .

وقد أدرك القنصل الفرنسي الجديد ، وحاكم المركز التجاري الفرنسي ، ما يمكن أن تجره مثل هذه الحوادث من أضرار على العلاقات بين الجزائر وفرنسا ، وما يستتبعه ذلك من خسائر للاقتصاد الفرنسي ، لذلك بذلا الوعود للديوان الجزائري ، بمعاقبـة المجرمين الفرنسيين .

اطمأن الجزائريون لهذه الوعود ، فـلم يكن غرضهم هـــو البحث عن الحرب لمجرد الحرب ، ولم يقوموا بأي رد فعل ضد الفرنسيين .

لكن حادثة جديدة وقعت بعد ذلك أثارت سحباً جديدة : ففي نهاية نوفمبر ١٦٢٩ كان اسحاق دي لوني السفير الفرنسي عائداً من المغرب عندما التقى ببـــاخرة جزائرية يقودها الرايس محمد عوجية ، فاستولى عليها وأسر رجالها كما أسر الرايس الجزائري .

هذه الحادثة دفعت الجزائريين الى الاعتقـــاد بان الفرنسيين يعتمدون نقض الصلح ليجسوا النبض ويقيسوا مبلغ استعداد الجزائريين لرد العدوان .

وفعلاً فلئن كان يمكن تبرير الحادثتين الاوليين بانهما من أعمال أفراد فرنسيين غـــير مسؤولين، وهو ما اقتنع به الديوان الجزائري بعد المساعي التي قام بها نابللون والقنصل الفرنسي ، فكيف يمكن تبرير الحادثـة الثالثة ، التي ارتكبها سفير يمثل الملك الفرنسي ، فوق باخرة تابعة للملك الفرنسي .

لهذا لم تجد هذه المرة مساعي القنصل الفرنسي ولا تدخلات نابللون ، وجاء رد الفعل سريعاً ، فقد عادت البواخر الجزائرية الى مهاجمة البواخر والسواحل الفرنسية ، وعندما حاول القنصل الفرنسي الاحتجاج ألقى عليـه القبض ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع عنه نابللون فدية افتكه بها هو وبعض الأسرى الفرنسيين من الأسر .

وبعد أن أطلق سراح القنصل الفرنسي ، أرسل الى فرنسا يطلب وضع حد لمهمته ، ولما لم يتحصل على أي جواب فر في نهاية الأمر ، تاركاً نائبه بلانشار مكانه .

ورغم حسن الاستعداد الذي أبداه الجزائريون ، فان الفرنسيين رفضوا اطلاق سراح الأسرى الجزائريين . حينذاك عمد الديوان الجزائري الى حجز كل السلع الفرنسية والى منع الفرنسيين الموجودين في الجزائر من التحرك ما لم تقع ترضية المطالب الجزائرية .

ولئن كان نابللون قد أرسل الى فرنسا ينصح ملكه بالاستجابة فوراً الى المطالب الجزائرية ، فان نائب القنصل الفرنسي قد استغل مكانته لتهريب بعض الأسرى الفرنسيين .

اعتبر الجزائريون هذه المحاولة التي قام بها الممثل الرسمي لفرنسا دليلا على ان الحكومة الفرنسية لا تنوي ابداً ارجاع الاسرى الجزائريين . فألقي القبض على نائب القنصل وعلى الفرنسيين المقيمين بالجزائر ، واستحوذ الجزائريون على المراكب التجارية الفرنسية ، ونظم الرياس عدة هجمات مظفرة على شواطىء بروفانس الفرنسية .

ومما زاد في مصاعب الفرنسيين ان نابللون الذي كان خير مدافع عن المصالح الفرنسية قتل في هذه السنة بالذات اثناء هجوم سري نظمه على المركب التجاري الذي اقامه تجار جنوه في طبرقة ، لكن الجاسوس الذي تفاهم معه نابللون خان سره فتلقاه اصحاب المركز بالنار وقتل في المعركة .

وتؤكد بعض المصادر التاريخية ان الخسائر الفرنسية فيما بين ١٦٢٩ و ١٦٣٤ بلغت اربعة ملايين وسبعمائة واثنين وخمسين الف جنيه ، كما تمكن الرياس الجزائريون في هذه الفترة من الاستحواذ على ثمانين باخرة فرنسية ، والف وثلاثمائة بحار فرنسي اسلم منهم مائة وتسع واربعون ، فاذا اضيفت الى ذلك المغانم المأخوذة من البواخر الاوربية الاخرى من انكليزية وهولندية ، امكن بسهولة تصوير ازدهار الاسواق التجارية الجزائرية .

ثورة ١٦٣٣

لكن ازدهار النشاط الاقتصادي بالعاصمة لم يكن ليسوي التناقضات التي كانت قائمة والتي اشرنا اليها آنفا .

فقد اتخذ قراراً يقضي بجعل الخزينة تحت ادارة الديوان ، بدل ان كانت من اختصاصات الباشا ، وفرض الديوان على الباشا ان يتولى دفع مرتبات الجنود مما بقي لديه من اختصاصات مالية .

ولئن كان حسين باشا اضطر الى القبول بهذا الامر ، فانه لم تكن لديه من الأموال ما يكفي لدفع كل مرتبات الجنود ، وكما جرت العادة بذلك اعرب الجنود عن سخطهم بحمل القدور مقلوبة وانفجرت الثورة ، والقي القبض على الباشا ، هنا فكر الكراغلة في استغلال هذه الاضطرابات لفرض حقهم في المساهمة في تسيير شؤون البلاد ، ذلك ان الاتراك كانوا يخشون من الكراغلة بوصفهم يمثلون خطراً على المدى البعيد ، ضد مصالح الطبقة العسكرية التركية التي استحوذت على الحكم ، كانوا يخشون من الكراغلة باعتبار ان اسهامهم في الحكم سيؤدي الى خلق طبقة جديدة لها امتدادات ووشائج في الوطن وبالتالي فيمكن ان توحد المصلحة بينهم وبين سكان الجزائر ، ويتحدوا ضد الاتراك .

اذن اراد الكراغلة ان يغتنموا هذه الوضعية ، فتسللوا الى العاصمة يوم غرة جويلية ١٦٣٣ ، متنكرين في زي فلاحين ، يحملون معهم اسلحة مخفية .

وقد كان الكراغلة يعتمدون على تأييد سكان المدينة . لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت ، فقد كان معظم الرياس متغيبين في غزواتهم ، وبالتالي حرم الكراغلة من مؤيدين أقوياء ، وما ان فطن الأتراك لهجوم الكراغلة ، حتى أغلقوا في وجوههم بعض أبواب الحصون ، لكن الكراغلة تتبعوهم واضطروهم الى الانهزام الى القصبة ، آملين أن يجدوا من هناك منفذاً إلى البادية . لكن مخزن البارود لحقته نيران المعركة في ذلك الحين ، فانفجر وخرب نحو خمسمائة منزل وتسبب في مقتل نحو ستة آلاف شخص . آنذاك اختل ميزان القوى لفائدة الأتراك ، وفر ما بقي حياً من الكراغلة الى بلاد القبائل حيث

استقبلوا بحفاوة .

وبالرغم من انتصار الاتراك في هذه المعركة ، فان هذه الثورة قد اضعفت جانبهم ومكنت طائفة الرياس من تدعيم موقفها بزعامة علي بتشيني (الذي بنى المسجد المعروف باسمه الآن) .

وقد كان علي بتشيني يفكر في الاستقلال بالجزائر والانفصال عن السلطنة العثمانية . ولتعزيز موقفه وضمان تأييد الجزائريين له ، صاهر سلطان كوكو .

وقد أحرز الرايس علي بتشيني على شهرة كبيرة واكبت الانتصارات التي احرزت عليها البحرية الجزائرية في ذلك العهد : فقد كانت البواخر الجزائرية حينذاك تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى مضيق جبل طارق ، ثم مددت نشاطها شمالاً حتى بلغت شواطىء بريطانيا وايرلندا وايزلاندا . ويؤكد قس فرنسي عاش في ذلك العهد أن الجزائر كانت تملك أقوى قوة بحرية يمكن تصورها في ذلك الحين ، ويقول في تصوير هذه القوة انها عبارة عن سبعين باخرة حربية كل واحدة منها مجهزة بما بين خمسة وعشرين وأربعين مدفعاً . وهذا عدا البواخر المتوسطة والصغيرة .

منعرج حاسم في تاريخ البحرية الجزائرية .

ومن الممكن ان نتصور بسهولة ان هذه القوة كانت ستلعب دوراً هاماً في تطور الجزائر ، وانها كانت ستؤثر تأثيراً كبيراً على توازن القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان يمثل الملتقى الحقيقي بين الشرق والغرب في ذلك العهد .

لكن حدث حادث خطير غير مجرى التاريخ في هذه المنطقة ، فقد استنجد الباب العالي بالبحرية الجزائرية لتعين البحرية التركية في معركة من معاركها الكبيرة ، وبينما كانت البحرية الجزائرية في طريقها الى نجدة الأتراك إذ دهمتها عاصفة هوجاء أجبرت البواخر الجزائرية على الاحتماء بميناء لافالون وكانت الوحدات البحرية الجزائرية من الكثرة بحيث لم تجد متسعاً للمناورة ، عندما فاجأتها قوات البندقية البحرية ، بل ان كثرة الوحدات الجزائرية وتداخلها جعلها لا تستطيع ان تستعمل مدفعيتها ضد العدو ،

وهكذا تكبدت البحرية الجزائرية خسائر جسيمة، وفقدت ما يقرب من نصف وحداتها كما خسرت أسماء لامعة من القادة البحريين، وقليل هم الذين تمكنوا من أن يشقوا لأنفسهم طريقاً وسط المعركة والتوصل الى النجاة ، مثل علي بتشيني .

ان هذه الموقعة تمثل منعرجاً حاسماً في تدهور القوة البحرية الجزائرية التي كانت هي الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها الجزائر ، ولم تتمكن الجزائر ، منذ هذه الواقعة من استرجاع قواتها كما كانت ، لانه ان كان من السهل بناء المراكب البحرية نظراً لازدهار صناعة السفن في الجزائر ، فانه من الصعب إعداد ما تتطلبه السفن الجديدة من بحارة وقادة ، بقطع النظر عن الأسرى اللازمين لتسيير البواخر الحربية .

وبالرغم من ان الباب العالي وعد الجزائر بتعويض خسائرها وتجهيزها بخمس وعشرين باخرة حربية كبيرة ، فإن القسطنطينية لم تف بوعدها .

ولذلك كان من آثار هذه الموقعة ، أن كشفت اكثر فأكثر عن التناقضات الموجودة بين الجزائر والسلطنة العثمانية ، وان دفعت المسؤولين في الجزائر إلى مزيد من الحذر من الباب العالي ، وإلى النظر في كل المطالب الواردة من القسطنطينية نظرة الارتياب والشك .

ثورة الشرق الجزائري :

بعد تعيين علي باشا والياً على الجزائر بقليل – وهو الذي حدثت في عهده الحادثة السالفة الذكر – القى باي قسنطينة مراد باي – القبض على شيخ العرب محمد بن الصخري، وأعدمه كما أعدم ابنه أحمد وعددا من رجاله ، على أمل أن يتوصل بذلك الى تدعيم نفوذه .

لكن العكس هو الذي حدث : فلم يمر عام واحد على تلك المجزرة حتى ثارت قبائل قسنطينة ورفضت دفع الضرائب ، ورفعت السلاح بقيادة خالد الصغير ، وفي نفس الوقت وجد شيخ العرب احمد بن الصخري بن بو عكاز ان الوقت قد حان للانتقام من أخيه ، فأثار سكان الجنوب وسار على رأسهم متوجهاً الى قسنطينة حتى التقت قواته مع قوات

خالد الصغير . ووجد مراد باي انه لا قبل له بمواجهة هذه القوات مجتمعة ، فاستنجد بالجزائر العاصمة التي ارسلت مدداً هامة بقيادة القائد يوسف والقائد شعبان والتقى الجمعان بالقرب من ميلة ، وانكسرت قوات باي قسنطينة والقوات التي وردت من الجزائر لتعزيزها . وعندما وصلت فلول المنهزمين الى الجزائر وجدت المدينة غارقة في الأسى عند سماعها بوقعة لافالون التي فقدت فيها البحرية الجزائرية أعز وحداتها .

واستمرت الثورة في الشرق الجزائري متأججة ومعززة بثورة القبائل الكبرى وقد حاول الأتراك في صيف ١٦٣٩ أن يوجهوا قوة عسكرية لإخماد ثورة القبائل ، لكنها منيت بهزيمة ماحقة واضطرت إلى النزول عند شروط الثوار . ومن بين الشروط التي اشترطها القبائل على الأتراك إصدار عفو عام على الكراغلة ويبدو ان الأتراك لم يحترموا هذا الشرط بعد أن وصلوا إلى الجزائر ، فاستأنف سكان جرجرة حملهم للسلاح .

هذه الهزائم المتوالية أثرت تأثيراً كبير على معنويات الجيش التركي ودفعته إلى التمرد على الآغا حمزة خوجة واعدامه .

وفي بداية ١٦٤٠ تضاعفت ثورة القبائل وأصبحت تهدد مدينة الجزائر نفسها .

وفي هذه السنة عين الشيخ حسين باشا بعد انتهاء مدة علي باشا ، ولم تظل مدة ولاية الشيخ حسين باشا اذ مات في سنة ولايته بالطاعون .

فخلفه أبو جمال يوسف باشا ، الذي وجد أمامه وضعية معقدة : جيش معظم المعنويات ، ثورات في القبائل وفي الجنوب وفي الشرق الجزائري ، كل ذلك مضافاً إلى ما خلفه الطاعون من آثار . لذلك قرر الديوان أن يضع حداً لهذا الوضع بتنظيم حملة عسكرية يتولى قيادتها الباشا بنفسه . وقاد أبو جمال يوسف باشا هذه الحملة في ١٦٤١ ورجع منها بعد عام منكسراً . ومرة اخرى بحثت فرقة اليولداش عن مسؤول تحمله تبعة هزائمها ، فتمردت على الباشا ووضعته في الأسر . فخلفه محمد بورصالي باشا .

موت علي بتشيني :

في عهد هذا الباشا ارسل السلطان العثماني الى طائفة الرياس الجزائريين يطلب منهم تعبئة الوحدات البحرية الجزائرية لتعين الاسطول التركي ضد مالطة ، فرفضت طائفة

الرياس ، التي كان يتزعمها علي بتشيني ، الامتثال لهذا الامر .

فارسلت القسطنطينية رسولين كلفا – على ما اشيع في الجزائر آنذاك – بقتل علي بتشيني . فثار سكان العاصمة على الباشا وعلى مبعوثي السلطان العثماني الذين اضطروا ثلاثتهم الى الالتجاء الى ضريح الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ، الى ان اخرجهم علي بتشيني من هناك تحت حمايته .

وعندما لمست القسطنطينية قوة نفوذ علي بتشيني عمدت الى المراوغة فعينت علي بتشيني قائداً عاماً للاسطول العثماني . ويبدو ان هذا التعيين لم يكن القصد منه إلا طمأنة علي بتشيني وتنويم انصاره ، اذ ان القسطنطينية لم تقلده خطة الباشوية التي عهدت بها الى احمد باشا . ويبدو ان احمد باشا تلقى تعليمات سرية من القسطنطينية تقضي باعدام علي بتشيني ، او هذا على الاقل هو ما اعتقده سكان الجزائر حينذاك عندما شاهدوا موت علي بتشيني فجأة بعد بضعة ايام من تعيينه قائداً عاماً للاسطول العثماني .

الباب الثامن

حكم الاغوات

- اضطرابات وصراع من اجل الحكم .
- مغزى الانقلاب .
- طابع السياسة الخارجية .
- محاولة لاحتلال القل وفشلها .
- الفرنسيون يتحطمون في جيجل .
- اتفاقية عام ١٦٦٦ .
- الحرب مع الانكليز .
- انقلاب جديد .

اضطرابات وصراع على الحكم

بعد محمد بورصالي تفاقمت الاضطرابات التي كانت بذورها موجودة في عهد الباشوات السابقين ، وقد كانت الاضطرابات الداخلية مصحوبـــة بانكسارات عسكرية مثل انكسار الأسطول الجزائري أمام فرسان مالطة في عهد أحمد باشا ، ومثل انهزام الجيش التركي أمام أبواب تلمسان مثلما انهزم في الجنوب أمام مولاي محمد ، وكان ذلك في عهد يوسف باشا ، وفي عهد محمد باشا (١٦٥٠ – ١٦٥٣) انكسر الأسطول الجزائري أمام البندقية ، كما انكسر في بحر اليونان .

وبعد أحمد باشا (١٦٥٣ – ١٦٥٥) الذي عقد اتفاقية تجارية مع الانكليز ، عين ابراهيم باشا واستمر يحكم إلى سنة ١٦٥٩ عندما سمع أن السلطان العثماني يريد أن يعين أحد ضباطه والياً على الجزائر ، فأرسل ابراهيم باشا الى القسطنطينية مبعوثاً سلم له مبلغاً هاماً من المال ليرشي كبار المسؤولين حتى يبقوه في الحكم، وللحصول على هذا المبلغ الهام استعمل ابراهيم باشا المبالغ التي كان خصصها السلطان العثماني ليدفعها للرياس تعويضـاً عن بعض الخسائر التي لحقتهم أثناء إعانتهم للاسطول العثماني .

سمع الرياس بهذا النهب ، فهاجموا القصر حيث فاجأوا الباشا وقذفوا بـــه في السجن .

لكن اليولداش اغتنموا هذه الفرصة لتنظيم انقلاب يسلم مقاليد الحكم لفرقتهم ، ولم يكن في استطاعة طائفة الرياس من الثبات في وجوههم بعد انهزاماتها المتوالية الاخيرة . وبمقتضى هذا الانقلاب تم القضاء على سلطة الباشا ، وتقرر اعطاء السلطة التنفيذية للاغا رئيس الفرقة العسكرية ، على شرط ان لا تتجاوز مدة حكمه الشهرين . امـــا السلطة التشريعية فقد تقرر ان تكون بيد الديوان . وبذلك اصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم .

مغزى الانقلاب :

يعتبر نظام الأغوات محاولة لأيجاد نوع من الديموقراطية داخـــل الطبقة العسكرية التركية الحاكمة ، اذ ان مدة الآغا لا تتجاوز الشهرين، ويخلفه في مهامه اكثر العسكريين اقدمية .

و بالاضافة الى كون هذا النظام غير واقعي ولا علمي والى انه يحمـل في نفسه بذور زوالة ، فانه يتميز بظاهرتين :

الاولى انه كان محاولة بارزة للانفصال عن السلطة العثمانية والاستقلال بالجزائر .

الثانية انه كان انتقاماً من طائفة الرياس التي كانت كلمتها هي العليـــا في عهد معظم الباشوات .

والظاهرة الاولى ذات دلالة بالغة اذا تذكرنا ان فرقة اليولداش هي التي كانت تتهم طائفة الرياس بمحاولة الانفصال عن السلطة العثمانية .

ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان هذه الفرقة تأكدت بعد طائفة الرياس ، من استحالة اقامة نظام بالجزائر تأخذ القسطنطينية بخيوطه .

* * *

وقد ظهرت بوادر ضعف هذا النظام منذ السنة الاولى من استقراره ، فعندما انتهت المدة المقررة لولاية خليل آغا – الذي كان هو اول آغا – رفض التخلي عن مهامه فثارت في وجهه كل طائفة الرياس وفرقه اليولداش واعدمته وعينت مكانه رمضان آغـا الذي اغتيل بدوره في شهر اوت من سنة ١٦٦١ (وقد تولى رمضان آغا بناء المسجد الجديـد الشهير بالجزائر) وهكذا تبين من اول عهد الأغوات استحالة تحقيق هذا النظام القائم على المساواة المطلقة بين القادة العسكريين .

وبعد الآغا رمضان عين شعبان آغا الذي عمد الى وضع ابراهيم السابق داخـــل اربعة جدران لقتله اختناقاً ، لكن بعض العسكريين الأتراك اطلقوا سراحه وعينوه آغا

فكان اول عمل بدأه هو اعدام شعبان آغا . وطوال هذه المدة كانت مناطق الشرق الجزائري تعيش في ثورة مستمرة . فقد رفض سكانه دفع الضرائب ، واصبحت القبائل لا تعترف من مصب سبا والى بجاية إلا بسلطة الأمير أحمد بن أحمد الذي كان يقيم في تامغوت .

طابع السياسة الخارجية :

حاول الديوان الجزائري في هذه المدة ان يحسن علاقاته مع فرنسا لكن الحكومة الفرنسية رفضت العروض الجزائرية . واستمر قراصنتها في حرب مع الجزائر . فتواصلت الحرب بين فرنسا والجزائر ، ملحقة خسائر بالتجارة الفرنسية في مرسيليا ، قدرت بأكثر من أربعة عشر الف اوقية ذهبية . كما خسرت ايطاليا في نفس الفترة مليوني ليرة وخمسماية اسير .

وبالرغم من ان الرياس الجزائريين كانوا عملياً في حرب مع فرنسا ومع الأساطيل الانكليزية والهولندية والايطالية والاسبانية ، فانهم قد تمكنوا بفضل سياسة عملية من تجنب تكوين جبهة اوربية ضدهم ، وتقدر المراكب البحرية التي استحوذ عليها الجزائريون خلال خريف ١٦٦١ بتسع مراكب هولندية واثني عشر مركباً انكليزياً واثني عشر مركباً فرنسياً وايطالياً .

ذلك ان سلطة الديوان كانت واقعة بين ضرورتين ملحتين : مواصلة الحرب مع الدول الاروبية رغم ما في ذلك من اخطار او مسالمتها مع ما يجره ذلك من نقص في المداخيل وعجز في الميزانية يؤدي الى تمرد الجيش وانتشار القلاقل في داخل البلاد .

وبين هاتين الضرورتين سلكت سلطةالديوان سياسة وسطا فهي تسالم هذه الدولة عندما تكون في حرب مع تلك والعكس .

فعندما تم ابرام السلم مع الهولنديين في ١٦٦٣ تواصلت الحرب مع فرنسا . وعندما استقر السلم مع فرنسا استؤنفت الهجمات الجزائرية ضد الانكليز والهولنديين في ١٦٧٠ ، وعندما ابرم الاتفاق مع الانكليز من جديد في ١٦٨١ اندلعت الحرب بين الجزائر وفرنسا .

وهذه السياسة هي التي احبطت احتلال المدن الساحلية من طرف القوات الأروبية : فقد هاجم الاسطول الانكليزي في اليومين الأول والثاني من شهر افريل مدينة بجاية واشتبك في حرب مع الرياس الجزائريين ولاحقهم الى ميناء الجزائر الذي كان يعرف ان قوات بحرية هولندية كانت موجودة به ، وكان الاميرال الانكليزي مونتاغنو ، يعتقد انه بذلك سيضع الواحدت البحرية الجزائرية بين نارين . لكن لم يرعه إلا والوحدات الجزائرية تدخل ميناء العاصمة بكل أمان ، لأن الديوان ، كان قد أبرم فيما بين ذلك اتفاقاً مع الاسطول الهولندي .

فشل محاولة احتلال القل :

في الوقت الذي كان فيه الديوان الجزائري يستغل التناقضات بين مصالح مختلف الدول الأروبية ، ارادت الحكومة الفرنسية ان تستغل الخلافات الموجودة بين الديوان الجزائري والسلطنة العثمانية لتدعيم موقفها في حوض البحر الأبيض المتوسط واحتلال مواقع جزائرية تضمن الهيمنة لمصالحها ، وقد اعتبرت الحكومة الفرنسية ان الحركة التي ادت الى تنصيب نظام الأغوات ، حركة تمردية في وجه السلطنة العثمانية التي تعتبرها حليفاً قوياً ، وارادت ان تضرب على هذه النغمة لتضمن حياد القسطنطينية عندما تقوم وحدات الاسطول الفرنسي بمحاولة احتلال مواقع جزائرية .

وقد كان الكاردينال مازاران قبل ذلك في سنة ١٦٥٨ قد كلف احد مهندسي الجيوش بالتعرف على احسن المواقع الجزائرية ملائمة لمحاولة احتلال ، وقد وجه هذا المهندس بعد مهمته السرية تقريراً الى الوزير الفرنسي كولبير في ٢٢ جوان ١٦٦٢ يوصي فيه باختيار سطور والقل وجيجل لنزول قوات الاحتلال .

وبدأت الحملة في ربيع ١٦٦٣ بمعركة عنيفة بين الوحدات البحرية الفرنسية والوحدات الجزائرية ، خسر فيها الجزائريون نحو العشرين مركباً ، لكن محاولة الاحتلال الفرنسي فشلت مع ذلك امام ميناء القل . وقد اراد الفرنسيون بعد فشل محاولة احتلال القل ، ان يوجهوا ضربة قاضية لما تبقى من الاسطول الجزائري ، فتوجهوا نحو ميناء الجزائر لمفاجأة المراكب الجزائرية واضرام النار فيها ليلاً . لكن

الوحدات الجزائرية تفطنت للمحاولة ، وكان الذي حدث هو ان المراكب الفرنسية التي كان من المقرر ان تكون في ميناء الجزائر عند منتصف الليل ، لم تفطن إلا وهي على بعد ساعتين من الميناء عند الثانية صباحاً .

وبعد فشل هذه المحاولة ضد ميناء القل ، فكر الفرنسيون في تنظيم حملة اخرى ضد مدينة جيجل ، مستغلين في ذلك آثار الوباء الذي حصد الالآف في الجزائر .

الفرنسيون يتحطمون في جيجل :

وقد بدأت الاعدادات لشن الحملة على مدينة جيجل في ربيع ١٦٦٤ ، وفي هذه الاثناء عرض شعبان آغا الصلح على لويس الرابع عشر ملك فرنسا فرفض هذا الأخير كل مفاهمة .

وفي ١٩ جويليه تحركت الوحدات الفرنسية التي كانت تشتمل على ستين مركباً حربياً وسبعة آلاف جندي ، يتركب منهم جيش الاحتلال بقيادة الكونت دي غاداني، وبعد ثلاثة أيام وصلت الوحدات الفرنسية الى مدينة جيجل ، ومن الغد دخل المحتلون الى جيجل ، ونشبت بين الجانبين معارك عنيفة تمكن اثرها الفرنسيون من الاستيلاء على الميناء .

وكان الاستيلاء الفرنسي على ميناء جيجل إيذاناً بالجهاد ضد الغاصبين : فراحت القبائل القريبة من المدينة تنظم المعارك ضد الفرنسيين بصفة تلقائية، واستمرت المناوشات وحرب العصابات طوال شهرين كاملين ، وبعد هذه المدة فكر الديوان في توجيه قوة عسكرية تركية لطرد الفرنسيين من جيجل ، لكن القوة التركية كانت مضطرة للمرور ببلاد القبائل وطلب الاذن من شيوخها بعبور ترابهم . وقد حدث ما لم يتوقعه الفرنسيون الذين كانوا يعتمدون على هذه الخلافات أن تحول دون وصول قوة عسكرية تركية منظمة اليهم : فقد ذابت الخلافات الداخلية الجزائرية أمام خطر الاحتلال الاجنبي ، وشكل الأتراك الى جانب المقاومة الشعبية جبهة واحدة ؛ وصلت القوة التركية الى جيجل يوم فاتح اكتوبر ، وبدأت المناوشات بين الجانبين ، وفي يوم الخامس من اكتوبر نظم هجوم عنيف في الساعة الرابعة صباحاً واستمرت المعركة عنيفة خمس ساعات متوالية .

أثر هذه المعركة أرسل الفرنسيون في طلب المدد من فرنسا . ووصل المدد بالفعل في الثاني والعشرين من اكتوبر . وبعد نزول الامداد القادمة من فرنسا استؤنفت المعارك عنيفة ، وفي يوم ٢٩ اكتوبر أرسلت المدافع الجزائرية قذائفها على المواقع الفرنسية فحطمتها وحطمت معها معنويات الجيش الفرنسي الذي قررت قيادته الانسحاب بعد ما شهدته من انهيار معنويات الجنود الذين كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم بأنهم سيدخلون في الاسلام ان لم يوضع حد للمعركة ، وقد خسر الفرنسيون الف وأربعمائة قتيل ومائة مدفع .

اتفاقية ١٦٦٦ :

بعد هذا حدث مقتل شعبان آغا وخلفه علي آغا في سنة ١٦٦٥ فبدأ أعماله بفتح مذاكرات مع فرنسا ، بعد أن أطلق سراح القنصل الفرنسي دوبورديو ، وبعد محادثات تمهيدية قام بها القنصل الفرنسي ، كلفت الحكومة الفرنسية أندري فرانسوا دي تروبير بأن يتفاوض مع الجزائريين لابرام اتفاقية جديدة . وشارك في هذه المفاوضات من الطرف الفرنسي جاك ارنودي غاب وقد انتهت المفاوضات بابرام اتفاقية يوم السابع من شهر مايو ١٦٦٦ . وتم الاتفاق على تنفيذ معاهدة سنة ١٦٢٨ ، وعلى أن يعطي كل من الطرفين جواز مرور لمراكب الطرف الآخر حتى لا تعامل معاملة المراكب العدوة . وأطلق الجزائريون اكثر من الف ومائة أسير فرنسي . وقد تأثر الانكليز لهذه الاتفاقية وحاول دفع الديوان الجزائري الى مواصلة الحرب ضد فرنسا على أن يعطي الانكليز للجزائريين ثلاثين مركباً حربياً .

وبمقتضى هذه الاتفاقية رجع الفرنسيون الى مركزهم التجاري الذي أسندت مسؤوليته الى جاك أرنو .

بعد ابرام هذه الاتفاقية استقر هدوء نسبي في العلاقات بين الجزائر وفرنسا .

اما في الميدان الداخلي فقد عرفت الجزائر ، سنة ١٦٦٨ ، ثورة قادها الاعراب المقيمون في ضواحي مدينة الجزائر كما ثارت في الوقت نفسه بلاد القبائل ، ولا يستبعد أن تكون كلتا الحركتين على اتصال ببعضهما .

الحرب مع الانكليز :

ويبدو أن الانكليز أرادوا استغلال هذه الحركة الداخلية ، فحاولوا الهجوم على الجزائر في خريف ١٦٦٩ ، لكن المدفعية الجزائرية نجحت في ردهم على أعقابهم .

لكن ذلك لم يمنع الانكليز من مواصلة الحرب في البحر ضد المراكب الجزائرية مثلما فعل الهولنديون وفرسان مالطة وصقلية .

وقد كثرت الهجومات ضد المراكب الجزائرية وألحقت بها خسائر متعددة الى درجة أن سكان مدينة الجزائر أصبحوا يخشون من هجوم أجنبي ، وكانت هذه المخاوف تغذي شعور الثورة على الأتراك ، مما اضطر علي آغا الى توزيع الاموال على السكان وتعزيز حصن ماتيفو ومصب نهر الحراش .

وفي ٩ مارس ١٦٧١ عاد الانكليز الى مهاجمة ميناء بجاية وأضرموا النار في اثني عشر مركب جزائري ، كما هاجموا ميناء الجزائر في شهر جويلية من نفس السنة وأضرموا النار في ثلاث بواخر .

هذه الخسائر التي لحقت الاسطول الجزائري بسبب هجومات الانكليز والهولنديين وغيرهم ، بالاضافة الى هجومات الاسطول الفرنسي الذي استمرت وحداته — رغم اتفاقية ١٦٦٦ — تشن من حين لآخر هجومات على مراكب الرياس الجزائريين — كل ذلك أثار سخط طائفة الرياس التي وجدت أنها هي التي دفعت ثمن سياسة علي آغا ، فتآمروا عليه وقتلوه .

وبعد مقتل علي آغا انتخبت عدة شخصيات لتخلفه ، ويقال انه تم تعيين خمسة أو ستة آغوات في ظرف ثلاثة أيام ، لكنهم امتنعوا كلهم من الجلوس على كرسي الآغوية الذي أصبح من المؤكد ان الجلوس عليه يؤدي بصاحبه الى الموت قتلاً .

انقلاب جديد :

آنذاك اجتمعت طائفة الرياس، وحولت هذا التمرد ضد علي آغا الى انقلاب حقيقي،

فقرروا الغاء نظام الآغوية ، وتعويضه بنظام آخر اكثر استقراراً هو نظـام الدايات . وقد حاولت طائفة الرياس أن تتجنب الخطأ الذي وقع فيه اليولداش عندما قيدوا نظام الآغوية بمدة قصيرة ، لكن طائفة الرياس وقعت فيخطأ لا يقـل عنـه خطراً عندما قررت انتخاب الداي لمدة العمر .

ويعتبر نظام الدايات انتصاراً لطائفة الرياس كما يدل على ذلك اختيـار الدايات الأربع الأولين من بين طائفة الرياس .

وقد أبقى الرياس هذه المرة على منصب الباشوية كما فعل من قبلهم اليولداش الذين أبقوا عليه أيضاً ، لكن منصب الباشوية أصبح اسمياً شكلياً لا تأثير له في توجيه سياسة البلاد ، وانما هو رمز فقط للعلاقة الشكلية التي تربط بين الجزائر والخلافة العثمانيـة . وبهذا الاعتبار كان الداي عبارة عن ملك مستقل ، لكن نظام الدايات يختلف عن النظام الملكي ونظام البايات في تونس بانه لم يكن وراثياً .

والفرق الوحيد بين شكلية منصب الباشا في نظام الآغوات ، وشكليته في نظـام الدايات ، هو أن الباشوية في عهد الآغوات كانت منصباً يحتله شخص آخر غير الآغا . أما في نظام الدايات فقد استمرت كذلك فترة من الزمن ثم تحول الى ان اصبح الداي هو نفسه الذي يحمل لقب الباشا .

الباب التاسع

نظام الدايات

- طبيعة التحول الجديد .
- فشل حملة دوكين .
- إبرام السلم بين الجزائر وفرنسا .
- استئناف الحرب مع فرنسا .
- طبيعة السياسة الفرنسية إزاء الجزائر .
- أحداث تونس والمغرب .
- عوامل استمرار الحضور الأسباني .
- استرجاع وهران ومرسى الكبير .

طبيعة التحول الجديد

شاهدنا في الفصل السابق ، كيف زال نظام الآغوات بسرعة إذ لم يدم إلا اثني عشر عاماً من سنة ١٦٥٩ إلى سنة ١٦٧١ . وقد رأينا كيف كان هذا النظام يشتمل من يوم تأسيسه على البذور التي تقضي بزواله ، لأن تنصيب الآغا لمدة شهرين وبواسطة الانتخاب والأقدمية ، إن كان يدل على رغبة الطبقة العسكرية الحاكمة في فرض رقابة مستمرة على السلطة التنفيذية ، فانه يكشف في الوقت نفسه عن حرص هذه الطبقة على ترضية مختلف رغبات رؤسائها ، وقد أدى هذا الحرص ، الذي لم يكن واقعياً ، إلى ذوبان معنى الدولة، وإلى عجز الطبقة التي نصبت هذا النظام لخدمتها . ولذلك كان نظام الآغوات عبارة عن فوضى مستمرة ، ولذلك أيضاً لم يعمر طويلاً ، وفتح الباب للارستقراطية البحرية المتمثلة في طائفة الرياس كي تنصب نظاماً جديداً لفائدتها .

وقد استغلت طائفة الرياس هذا الانتصار في تدعيم حكمها وسلطتها إلى حد الانكار الفعلي لسلطة الديوان الذي لم تكن طائفة الرياس تدعوه إلا لاجتماعات شكلية .

وقد اضطر النظام الجديد في بدايته ، بحكم تكوينه من طائفة الرياس ، إلى السكوت عن الهجومات التي كانت تنظمها الوحدات البحرية الجزائرية المختلفة ضـــد السواحل الأوربية . لأن تعود العاصمة على الرفاهية الاقتصادية القائمة على القرصنة وغنائم الغزوات صرفها عن البحث عن موارد داخلية قارة تضمن الاستقرار الاقتصادي ، وجعل اقتصاد العاصمة قائماً على موارد ليست لها أدنى علاقة بالحياة الحقيقية للبلاد . وعوض أن يبحث حكم الدايات عن ضمان حياة اقتصادية قارة قائمة على منابع وموارد داخلية ، استمر في صرف نظره إلى غنائم الغزوات واعتمادها في تحقيق الرفاهية الاقتصادية ، غافلاً عن التحول الذي كان بصدد الوقوع في الغرب الأوربي ، والذي أدى إلى ميلاد قوات جديدة في أوربا تختلف في طبيعتها السياسية والاقتصادية والعسكريـة عن القوى التي كانت

واجهتها الجزائر قبل ذلك .

ذلك هو السر في تحويل عقلية الجهاد إلى عقلية القرصنة .

ولئن كان المؤرخون الأوربيون لا يفرقون في معظمهم بين عقلية الجهاد وعقلية القرصنة ، ولا ينتبهون إلى التمييز بينهما وبين أزمنتهما في التاريخ للمغرب العربي ، فإن معظم المؤرخين العرب يرتكبون نفس الخطأ : والفرق بين المؤرخين الأوربيين والمؤرخين العرب أن الأولين يعممون عقلية القرصنة اعتماداً على ما آلت اليه ، ويحكمون على عهد الجهاد بأنه كان هو أيضاً عهد القرصنة ، بينما المؤرخون العرب يعممون عقلية الجهاد اعتماداً على عهودها الأولى وينكرون عقلية القرصنة .

ان تحليل الوضع الاقتصادي للجزائر العاصمة ، وتحليل طبيعة التحولات التي كانت تجري في أواخر القرن السابع عشر هو الذي يقودنا إلى التمييز بين عقلية الجهاد وعقلية القرصنة وهو الذي يمكننا من التفسير الاقتصادي والسياسي لطبيعة الأحداث التي أدت إلى احتلال الجزائر .

وسنرى في الفصول اللاحقة ، كيف أن ردود الفعل الأوربية أدت إلى إضعاف طائفة الرياس ، وكيف أن فرقة اليولداش استردت بعضاً من نفوذها ، لكن طبيعة التحوُّلات التاريخية الهامة التي أشرنا اليها آنفاً ، أضعفت فرقة اليولداش نفسها بواسطة العناصر التي أصبحت تتركب منها ، فلم تعد كما كانت تشكل وحدة متماسكة ملتحمة تربط بينها عقلية الجهاد ربطاً محكماً ، بل أصبحت عبارة عن جموع من المغامرين ينحصر كل همهم في المحافظة على الامتيازات وفي الحصول على أكبر قسط ممكن من المنح والمرتبات ، مما أدى إلى كثرة الاضطرابات والتمردات ، التي كانت في نظر الجنود الأتراك – خير مناسبة لاستدرار الأموال من الدايات أو المتمردين عليهم .

وهكذا نجد أن التحول السياسي والاقتصادي الذي ألمحنا اليه كان مصحوباً بتحول أخلاقي ضاعف من انهيار القوى التي كان المفروض فيها أن تساهم مساهمة فعالة في مقاومة الاحتلال الأجنبي .

ويكفي للتأكد من هذه الحقيقة ، أي تحول عقلية الجهاد الى عقلية القرصنة وما صاحبها من تحول أخلاقي ، أن نلاحظ أن الباشوات الذين تعاقبوا من سنة ١٥١٥ إلى سنة ١٦٥٩ ، وعددهم أكثر من ثلاثين ، لم يقتل واحد منهم ما عدا واحد سقط تحت ضربات انتقام شخصي في حين أن كل الآغوات ، وحوالي نصف الدايات قتلوا قتلاً .

وبالرغم من أن النظام الجديد ، نظام الدايات كان ينص على انتخاب الداي من طرف الديوان ، فإن الأمور كانت تجري بخلاف ذلك . فعندما يموت الداي ميتة طبيعية (وهو ما لم يحدث إلا في إحدى عشرة حالة) أو يتنازل فان خلفه الذي يكون قد تم تعيينه قبل ذلك ، يسارع إلى أخذ احتياطاته ، ويتم انتقال السلطة دون معارضة . أما عندما يسقط الداي نتيجة للعنف ، فان قتلتَه يسارعون إلى الجنينة ويعلنون انتصاب من اختاروه منهم لخلافة المقتول . وكثيراً ما يحدث أن تنشب معركة دامية حول العرش إلى أن يعلن المتمردون شارة الانتصار فينتصب الداي الجديد ، وغير بعيد منه جثة سلفه المقتول .

وفي كل مرة تنشب فيها معركة من هذا النوع ، تخلو شوارع الجزائر وتقفر من المارة ، وتغلق الدكاكين أبوابها ، لأن الجنود الأتراك كثيراً ما يغتنمون هذه الفترة من شغور الحكم فيطلقون لأنفسهم عنان النهب والسرقات والاعتداءات. وبمجرد ما ينتصب الداي الجديد يرسل قواته تهدىء الخواطر وترجع الاطمئنان إلى النفوس بواسطة إعدام بعض المعتدين .

أعضاء الحكومة :

وقد تطور حكم الدايات إلى أن أصبح حكماً مطلقاً وصار اجتماع الديوان أمراً شكلياً، فالداي هو الذي يختار وزراءه الذي يتركب منهم مجلس الدولة . ويأتي في مقدمة هؤلاء الوزراء :

١ – الخزناجي الذي يتكلف بتسيير الخزينة العمومية وهو يمشي مباشرة وراء الداي، ويخلفه في حالة الغيبة أو المرض ، فيعتبر هو الوزير الأول .

٢ – آغا الصبايحية ، وهذا الوزير يقوم بمهام باي الجزائر وهو القائـــد العام للقوات البحرية .

٣ – وكيل الحرج ، وهو وزير البحريـــة ومسؤول الحظائر التي تبنى فيها البواخر .

٤ – بيت الماجي المكلف ببيت المال الذي يسهر على تسجيل العقود والمواريث ، وللحيلولة دون وقوع أدنى تزوير يتولى هو اعطاء رخصة الدفن .

٥ – خوجة الخيل الذي يتلقى ما يدفع للدولة والداي من هدايا وخراج وزكوات يقدمها رعاياه من نجوع عرب الصحراء .

وبعد مرتبة الوزراء يأتي الخزنادار ، وهو أمين المال الخاص بالداي .

وبعد ذلك تأتي مرتبة الخوجة أو الكاتب ، وهي أصناف :

– الباشكاتب الذي يتولى ضبط دفاتر الجند وموارد الحكومة .

– الباشدفترجي وهو الكاتب الثاني ، الذي يضبط نسخة ثانية من دفتر الجند .

– الكاتب الثالث وهو يضبط نسخة ثانية من موارد الدولة .

– خوجة العشور ، وهو الكاتب الرابع ويضبط موارد الديوانة – وهؤلاء الكتاب الأربع يتولون تحرير الرسائل للباب العالي والدول الأجنبية .

وهناك كاتبان آخران يتوليان تحرير الرسائل باللغة العربية ، وهي الرسائل التي توجه إلى البابات والقياد وسلطان المغرب وباي طرابلس ، وأحدهما يسمى كاتب السر ، وهو يتولى قراءة الرسائل الواردة على الداي والرد عليهـــا ، والآخر يشتغل في الغالب مع خوجة الخيل ، لأن أعمال هذا الخوجة مع العرب كثيرة .

– وكيل الحرج الكبير وهو المكلف بالمخازن التي تحتوي على الأقوات والمؤن وغيرها .

– وكيل الحرج الصغير : معاون الأول .

وأخيراً يأتي الشواش ، وهم ضباط الأمن ، وهم لا يحملون أسلحة ، وعندما يكلفون بالقاء القبض على شخص ، يتقدمون نحوه ويقولون : تعال معنا . فإن أبدى مقاومتـــه يصيحون في الجمهور : « شرع الله » فيعينهم الجمهور على القاء القبض عليه .

ويتولى الداي الفصل في الخلافات والنوازل في مجلس يعقده صباح كل يوم ما عدا يوم الراحة وأيام الأعياد ، ويوم الثلاثاء المخصص لاجتماع مجلس الوزراء في الجنينة . ويخصص ما بعد الظهر للشؤون السياسة فيجتمع بالقناصل ، والقياد والأغوات الموظفين السامين . ولا يخرج من قضاء الداي إلا الجنود اليولداش الذين يخضعون للآغا . والنوازل المدنية تحال على القضاة أو المفتين .

والمهنة الوحيدة التي كان يفر منها الأتراك ويرفضونها هي مهنة قائد الفحص الذي يتكلف بأمن الضواحي ويسهر على استخلاص الضرائب من دور الخنا .

وقد كان السكان مقسمين إلى جماعات ، لكل جماعة أمين مسؤول عنها .

والداي مطالب بالبقاء في الجنينة ، تحت حراسة جنوده . وهو يضطر إلى مغادرة عائلته فور انتخابه ، ولا يذهب إلى منزله الخاص إلا بعد أداء صلاة الظهر يوم الخميس ، ليغادره صباح الجمعة عند التوجه لأداء صلاة الجمعة . ثم يمكث بالجنينـــة إلى يوم الخميس المقبل وهكذا .

ولا يتلقّى الداي – نظرياً – من الدولة إلا مرتب خمسين بياستر في العام ، ويتولى البايليك كفالته وكفالة عائلته بما يحتاجونه ، لكن له مع ذلك مداخيل خاصـــة من الغرامات ونصيبه في غنائم عمليات القرصنة ، والهدايا التي يقدمهـــا القناصلة الأجانب والبابات .. الخ .. ويشكل مجموع هذه المداخيل مبالغ ضخمة . وعندما يموت الداي مقتولاً تأخذ الدولة كل أمواله ، وقد وصف أسقف مسيحي ، هو جوان كانو ، حياة الداي في جملة رائعة إذ قال :

« هكذا يعيش هذا الرجل الغني الذي لا يتصرف في كنوزه ، أباً بدون أولاد ،

زوجاً بدون زوجة مستبداً بدون حرية ، سيداً للعبيد وعبداً لرعاياه . . »

فشل حملة دوكين :

كان أول داي هو الحاج محمد باشا ، وهو من طائفة الرياس . تقلد هـــذا المنصب في سنة ١٦٧١ . وفي عهده أراد سلطان المغرب الأقصى الاستيلاء على ما يليـــه من أرض الجزائر فلم يستطع .

وفي عهد هذا الداي أبرم الهولنديون مع الجزائر معاهدة سلم طبقاً للشروط التي اشترطتها الدولة الجزائرية ومن ضمنها التعهد بتزويد الجزائر بالمدافع وكل ما يلزمها من عتاد، وبأربعين شراعاً بحرياً ، وخمسمائة برميل بارود وباخرة محملة بالحبال ، والالتزام بتجديد دفع كل ذلك في كل سنة .

وبعد ابرام هذه المعاهدة في سنة ١٦٧٩ قدم الى الجزائر مبعوثون فرنسيون للتفاوض مع الداي حول تبادل الأسرى من الجانبين. وقد تمت في ١٦٨١ المفاهمة على إطلاق سراح الأسرى من الجانبين . لكن في الوقت الذي وفى فيه الجزائريون بالتزاماتهم وأطلقوا سراح الأسرى الفرنسيين ، رفض الفرنسيون إطلاق سراح الأسرى الجزائريون وأرسلوهم عبيداً لخدمة المراكب والسفن الفرنسية الموجودة بالمشرق .

فثارت ثائرة الديوان الجزائري وأجمع على إعلان الحرب ضد فرنسا في ١٨ أكتوبر ١٦٨١ ، وظهرت نتيجة اعلان الحرب في استيلاء الرياس الجزائريين على ٢٩ سفينـــة فرنسية وثلاثمائة أسير . وقد اغتنم الانكليز فرصـــة قيام الحرب بين الجزائر وفرنسا فأبرموا مع الجزائر معاهدة وصفها أحد الفرنسيين في ذلك العهد بقوله :

« إن الانكليز قدموا تنازلات مزرية للجزائريين إذ قبلوا بإعطائهم كميات هامـــة من البارود ومن قنابل المدافع ومن الحبال وكل ما طلبوه منهم لتجهيز بواخر القرصنة ، كما أعطوهم خمسين تركيـــاً كانوا أسرى فوق باخرة الجنرال الانكليزي ، في الوقت الذي لم يتحصل فيه الجنرال الانكليزي على أسير واحد من الأسرى الانكليز الذين كانوا موجودين بالجزائر والذين كان عددهم كبيرا . . كما قبل الانكليز بأن يتولى القراصنة الجزائريون

رقابة كل البواخر الانكليزية التي يصادفونها في البحر » .

لذلك قرر الفرنسيون شن هجوم على الجزائر ، عهدوا بتنظيمه إلى الأمرال دوكين .

وما ان سمع الحاج محمد باشا داي الجزائر بنبأ الاستعداد الفرنسي للهجوم على الجزائر ، حتى اعتزل الحكم ، وكان قد تجاوز الثمانين ، واستقر بطرابلس ، وترك الأمر لصهره بابا حسن ، وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ .

فكان بابا حسن هو الذي واجه هجوم الأميرال دوكين الذي غادر مدينة طولون الفرنسية يوم ١٢ جويلية ١٦٨٢ على رأس ثلاثين باخرة . وقد بدأ يقذف مدينة شرشال بقنابل مدفعيته في ٢٥ جويلية ثم توجه إلى مدينة الجزائر وأطلق عليها مساء ٢٦ أوت أربع وثمانين قنبلة ، ثم قذفها في الليلة ما بين ٣٠ و ٣١ أوت مائة وأربع عشرة قنبلة ، واستمر رمي القنابل إلى يوم ١٢ سبتمبر . وفي هذه الأثناء قام القنصل الفرنسي بمحاولات صلح لم تنجح ، لأن الأميرال دوكين كان يريد التفاوض مع ممثلي الداي . وبعد ذلك توجه دوكين عائداً إلى فرنسا خشية أن تهب عليه عواصف الخريف .

وقد كان هذا الهجوم مثار سخرية الجزائريين ، إذ أن المصاريف التي كلفها لم تكن تتلائم مع النتيجة التي كانت عبارة عن صفر .

وقد أراد الفرنسيون أن يغسلوا هذه السخرية ، فأعادوا دوكين من جديد لمهاجمة الجزائر وأمروه بتدميرها عن آخرها . فتوجه دوكين على رأس ثلاثة وأربعين باخرة حربية ، ووصل أمام العاصمة في ١٨ جوان وأرسل إلى الداي بابا حسن يأمره « باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وكل الأسرى الآخرين من مختلف الجنسيات الذين اسروا فوق البواخر الفرنسية » .

ولم يتلق دوكين أي جواب عن هذا الانذار ، وشرع يقذف المدينة بقنابل مدفعيته يوم ٢٦ جوان .

وبعد محادثات تمهيدية عقدت هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة ، وطلب دوكين إرجاع خمسمائة وخمسين أسير فرنسي ، وتقديم عدد من الرياس إلى فرنسا كرهائن . فاستلم

الأميرال دوكين الأسرى وبعض الرياس من بينهم الرايس حسين ميزو مورتو وهو من قدماء القرصان الايطاليين أسلم بالجزائر وأصبح ذا نفوذ كبير بين طائفة الرياس الجزائريين .

وفي هذه الأثناء ثار بعض الرياس بالعاصمة على محاولة الصلح مع فرنسا ، مما أدى إلى إطالة محادثات الصلح التي امتدت نصف شهر دون أن تسفر عن نتيجة .

حينذاك طلب حسين ميزو مورتو من دوكين أن يطلق سراحه، وقال له انه سيفعل خلال ساعة من زمان ما عجز عنه الداي بابا حسن خلال خمسة عشر يوماً .

وما ان أطلق سراح حسين ميزو مورتو حتى اجتمع بطائفة الرياس ، وكانت العاصمة حينذاك مقسمة إلى قسمين : أنصار الاستمرار في الحرب ويتزعمهم طائفة الرياس ، وأنصار إبرام السلم .

وعندما اطلق سراح حسين ميزو مورتو وبلغ الى علم السكان أن الأميرال دوكين طلب من الجزائر ان تدفع له في الحال مليون ونصف ليرة كتعويض عن خسائره، رجحت كفة انصار الاستمرار في الحرب ، إذ عم السخط على الفرنسيين . واغتنم حسين ميزو مورتو هذه الفرصة فكلف احد اتباعه المخلصين ابراهيم خوجة بقتل الداي ، وتزعم حركة الحرب ، وارسل الى دوكين ينذره بأن الاستمرار في الحرب سيعرض المسيحيين الموجودين في الجزائر لأشنع ميتة . وتم ذلك في ٢٢ جويلية ١٦٨٣ .

وبعد ان انتخب حسين ميزو مورتو دايا مكان الداي المقتول قرر مقاومة الهجوم الفرنسي بكل الوسائل ، وامام الخسائر التي ألحقتها القذائف الفرنسية ببعض المساجد والمباني ، توجه سكان العاصمة الى مبنى القنصلية الفرنسية فنهبوه واخذوا الأب لوفاشي المسيحي الذي كان متهماً بالخيانة في الوساطة بين الجزائر وفرنسا الى الميناء وأجلسوه أمام مدفع أطلقوا ناره ، وكذلك فعلوا بعشرين فرنسياً ، واطلقوا على هذا المدفع اسم « القنصلية » .

استمرت المعارك حامية الى شهر أكتوبر ، دون ان يتوصل الفرنسيون الى فرض

إرادتهم على الجزائريين ، ومع مقدم اكتوبر أقلعت الوحدات الفرنسية خشية أن تأخذها عواصف الخريف .

وقد كلفت هذه الحملة الخزينة الفرنسية اكثر من خمسة وعشرين مليوناً ، دون أن تحقق منها نتيجة ، وقد ندمت فرنسا على عدم اخذها بنصيحة (درسو) الذي كان يرى ان فائدة فرنسا تتمثل في النزول عند رغبة الجزائريين لان احدى نقط الخلاف بين الفرنسيين والجزائريين تتعلق بالاسرى الفرنسيين الذين اسرهم الرياس الجزائريون فوق مراكب غير فرنسية فالنظرية الجزائرية تعتبرهم تابعين للمركب الذي كانوا في خدمته بينما النظرية الفرنسية تهمل اعتبار المركب ولا تنظر إلا إلى جنسيتهم الفرنسية إلا ان نظرة درسو كانت تختلف عن النظرة الرسمية الفرنسية ، فهو يقول ان النزول عند رغبة الجزائريين والتسليم في البحارة الفرنسيين الذين يكونون في خدمة المراكب غير الفرنسية من شأنه أن يقلل من فرار البحارة الفرنسيين من فرنسا والتحاقهم بمراكب القراصنة الأجانب بدافع البحث عن المغانم .

لذلك لم يكن من الغريب ان تكلف فرنسا درسو بالتفاوض مع الجزائر بعد فشل حملة دوكين الثانية التي كان من المقرر ان تؤدي الى نسف ميناء الجزائر والتي لم تسفر إلا عن تدمير حوالي مائة مسكن ومسجدين . وقد لوحظت أن الجزائريين احترموا المراكز التجارية الفرنسية بالجزائر فلم يمسوها بأذى خلال هذه الحملة .

وعندما جاء درسو للتفاوض مع الداي اعلمه هذا بأنه ان كان ملك فرنسا يرغب في السلم مرة فهو يرغب فيها عشر مرات ، لكنه لا يستطيع ان يتفاوض مع دوكين الذي يعتبره رجلاً لا عهد له .

ابرام السلم بين الجزائر وفرنسا

في هذه الأثناء حاول باي تونس استغلال المصاعب التي كان يواجهها الداي ، فعمل على اثارة القلاقل بالجزائر ، وثارت قلاقل بالفعل وقامت معارك في الأنهج جرح فيها الداي نفسه ، وعندما أدرك الداي حسين ميزو مورتو أن باي تونس له يد في اثارة هذه

الفتن ، وجه ضده حملة بأمرة ابراهيم خوجة الذي توجه الى تونس صحبة أخوي الباي التونسي اللذين كانا ينازعانه العرش ، فاستولى ابراهيم خوجة على تونس بعد حصار طويل ونصب بها محمد باي .

وامام فشل حملة دوكين من جهة ، وتعزيز موقف حسين ميزو مورتو بالانتصار الذي أحرزه على باي تونس من جهة اخرى تذرعت فرنسا بالسلطان العثماني أن يتدخل لحمل الجزائر على ابرام الصلح مع فرنسا ، فأرسل السلطان نائباً عنه صحبة المندوب الفرنسي ، دي تورقيل الذي وصل الى الجزائر يوم ٢ أفريل ١٦٨٤ .

وبعد مفاوضات استمرت عشرين يوماً ابرمت معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة عام .

١ — احترام المعاهدات المبرمة بين الجانبين .

٢ — التوقف عن اعمال القرصنة من كلا الطرفين ضد الطرف الآخر .

٣ — استقرار السلم بين امبراطور فرنسا وداي الجزائر ، وحرية التجارة وضمان الأمن لبواخر الطرفين .

٤ — اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين في الجزائر ، وسراح الجزائريين في فرنسا .

٥ — البواخر الجزائرية تضمن للبواخر الفرنسية حرية المرور بمجرد استظهار هذه بجواز مرور يضبط طبقاً لهذه الاتفاقية . كما تضمن البواخر الفرنسية حرية المرور للبواخر الجزائرية بنفس الشرط .

٦ — بواخر كل من الطرفين تنجد بواخر الطرف الآخر عند الحاجة .

٧ — بواخر كل من الطرفين تحمي بواخر الطرف الآخر من كل اعتداء قد يشن ضدها .

٨ — اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين يأسرهم أعداء الامبراطور الفرنسي عندما يصلون الى الجزائر ولو أسروا من طرف قوات أخرى .

٩ — يتكلف الطرف الجزائري باحصاء العبيد الفرنسيين في الجزائر والسماح للقنصل الفرنسي بشرائهم وكذلك يفعل الطرف الفرنسي بالنسبة للاسرى الجزائريين .

١٠ – الأسرى الفرنسيون الموجودون في مملكة الجزائر سواء أسروا منذ ١٨ أكتوبر ١٦٨١ أو منذ المعاهدة المبرمة بين امبراطور فرنسا وباشا الجزائر في فيفري ١٦٧٠ يطلق سراحهم دون مقابل .

١١ – الأسرى الفرنسيون الذين أسروا قبل ١٦٧٠ يشترون بثلاثمائة ليرة للشخص الواحد .

١٢ – لا يمكن أسر الركاب الاجانب عندما يكونون على متن باخرة فرنسية أو الركاب الفرنسيين عندما يكونون على متن باخرة أجنبية كما لا يمكن أسر الركاب الاجانب على متن باخرة جزائرية أو الركاب الجزائريين على متن باخرة أجنبية .

١٣ – كل باخرة فرنسية الى الشواطىء الجزائرية فارة من أعدائها ، ينجدها الجزائريون دون أن يفرضوا على السلع الموجودة بها أية إتاوة الا اذا بيعت .

١٤ – يستطيع الجزائريون أن ينزلوا سلعهم بالسواحل الفرنسية ثم يأخذوها دون أن تفرض عليهم أية إتاوة .

١٥ – يمنع داي الجزائر على رعاياه أن يساهموا في الحرب والقرصنة ضد البواخر الفرنسية .

١٦ – لا تجبر البواخر الفرنسية على القيام بسفر لا تريده أو حمل شيء ضد ارادتها .

١٧ – يستطيع امبراطور فرنسا اقامة قنصلية بالجزائر لمساعدة التجار الفرنسيين ، ويملك القنصل الفرنسي حرية ممارسة شعائره الدينية في منزله ، وكذلك الفرنسيون الذين يريدون ممارسة الشعائر الدينية في منزل القنصل كما يملك الجزائريون الذين يأتون الى فرنسا حرية ممارسة شعائرهم الدينية في بيوتهم .

١٨ – يختار القنصل ترجمانه وسماره .

١٩ – عندما يحدث خلاف بين فرنسي وجزائري لا يمكن أن يفصل في ذلك قاضي عادي .

٢٠ ـ معاقبة القرصان الفرنسي الذي يهاجم البواخر الجزائرية والقرصان الجزائري الذي يهاجم البواخر الفرنسية .

وتنص المادتان الأخيرتان من هذا الاتفاق (الذي تبلغ عدد مواده تسعاً وعشرين) على ان البضائع الفرنسية تستطيع مغادرة الجزائر في ظرف ثلاثة أشهر بكل حرية ، في حالة وقف العمل بهذا الاتفاق وكذلك الامر بالنسبة للبضائع الجزائرية ، وعلى ان العمل بهذا الاتفاق يستمر لمدة مائة عام .

استئناف الحرب :

لكن هذه المعاهدة التي ابرمت لمدة مائة سنة لم تستمر طويلاً ، ففي صيف ١٨٨٦ جدت حوادث بين البواخر الفرنسية والجزائرية حاول كل من الطرفين القاء تبعتها على الآخر ، وفي هذه السنة ١٨٨٦ تلقى الحاج حسين ميزومورتو قفطان الباشوية من القسطنطينية ، فعين ابراهيم جوجة على رأس حملة الى وهران لمقاومة الاسبان .

وبعد حوادث صيف ١٨٨٦ ، اتخذ حسين ميزومورتو احتياطاته العسكرية وارسل الى فرنسا يبلغها استعداده للتفاوض لكن الطرف الفرنسي صمم على الحرب ، فوصلت قوات الماريشال ديستري امام ابواب الجزائر يوم ٢٦ جوان وارسل الى الداي يهدده بأن استئناف عمليات القمع ضد الفرنسيين مثل التي ارتكبت في سنة ١٨٨٣ سيدفع الطرف الفرنسي الى ردود فعل مماثلة فأجابه الداي بأنه فيما اذا اقدم الفرنسيون على قنبلة مدينة الجزائر ، فسيكون القنصل الفرنسي هو اول ضحية للاعتداء ، وارسل الداي يقول للقائد الفرنسي على الاخص انه « يعتبر هذا النوع من الحرب غير شريف وان ذلك لن يحمله على تغيير موقفه في الصمود ضد الفرنسيين حتى ولو كان والده من بين الاسرى المهددين بالموت . اما ان كان القائد الفرنسي مستعداً للحرب الشريفة فسيتولى الداي بنفسه حماية الأسرى الفرنسيين » .

وشرع الفرنسيون يطلقون قذائف المدافع يوم اول جويلية واستمروا كذلك الى يوم ١٦ منه فبلغ عدد القذائف التي اطلقوها عشرة آلاف واربعمائة وعشرين قذيفة

الحقت بالمدينة اضرارا مادية لم تتناسب مع مصاريف الحملة ولم يكن من شأنهـــا ان ترهب الداي .

ولم يكتف الداي برفض النزول عند مطالب الفرنسيين بـــل كان دائماً يشاهد في الصفوف الامامية يخوض المعركة بنفسه .

وما ان اقلعت الوحدات الفرنسية حتى سارع الداي بتسليح البواخر الحربية وانطلق الرياس يتربصون بكل البواخر الفرنسية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ووجدت فرنسا نفسها مهددة في تجارتها ومواصلاتها مع بلاد المشرق ، كما لاحـــظ مسؤولوها ان الانكليز قد يغتنمون هذه الفرصة لاحتكار التجارة مع بـلاد المشرق ، لذلك ارسلت الحكومة الفرنسية الى الجزائر تفاتحها في اجراء مفاوضات من اجـــل تحسين العلاقات واعادتها الى سابق عهدها ؛ وهكذا تم الاتفاق على تجديد العمل بالاتفاق الذي ادخلت عليه بعض التحويرات وذلك في سبتمبر ١٦٨٦ ، اثر هذا الاتفاق اوفدت القسطنطينية اسماعيل باشا ليحتل منصب الباشوية الذي كان احتـله من سنة ١٦٦١ الى سنة ١٦٨٦ وكانت السلطات الفرنسية لم تدرك بعد طبيعة التحول الذي حدث مع نظام الدايات ، ولذلك سعت لدى السلطان العثماني كي يعهد بالباشوية الى هذا الشخص الذي كان الفرنسيون يعتبرونه صديقاً لهم .

الا ان اسماعيل عندما وصل أمام ميناء الجزائر ، صدر اليه الامر بأن يمسك عـــن دخول الجزائر ، وهدد باطلاق نيران المدفعية عليه ان هو لم ينسحب في الحال . فانسحب فعلاً وتوجه الى المغرب الأقصى .

وبعد هذه الحادثة بقليل ، تمرد الجنود الأتراك وطائفة الرياس وطالبوا برأس الحاج حسين ميزومورتو لأنه أبرم الاتفاق دون مشورتهم ولما وجد أنه عجز عـــن الصمود في وجههم انسحب الى تونس ثم التحق بالقسطنطينية ، حيث عين قبطـــان باشا أي قائداً عاماً للاسطول العثماني .

ومما يؤكد العلاقة بين التوقيع على الاتفاق مع فرنسا وبين المطالبة برأس حسين أن الداي الذي انتخب بعد ذلك وهو الحاج شعبان أبدى تخوفه من الاستمرار في العمل بمقتضى ذلك الاتفاق ولذلك اشترط الداي الجديد لموافقته على الاتفاق المذكور أن ترجع له فرنسا البواخر الأربع التي كانت احتجزتها في حملة سابقة .

طبعية السياسة الفرنسية ازاء الجزائر :

ينبىء الاتفاق السابق الذي أبرم اثر عروض جاءت من فرنسا بالخط العام الذي يبدو أن السياسة الفرنسية قد تبنته حينذاك فيما يتصل بالعلاقات مع الجزائر . فقد أبرم الاتفاق بعد تأكد الحكومة الفرنسية ان سياسة القذف بالقنابل عن طريق البحر غير مجدية . ومن هنا جاءت عروض المفاهمة بديلاً لا مفر منه لسياسة القوة التي كانت تحظى بتأييد سياسة الفرنسيين ولئن كان تكرر حوادث القرصنة من طرف الرياس الجزائريين في هذا العهد يعبر كما ألمحنا الى ذلك قبلا عن حاجة اقتصادية استتبعت تغييراً في الاخلاق وفي السياسة ، فان ما صدر عن الفرنسيين من تصرفات يحاولون تبريرها بشتى المبررات التي تختلف درجات صحتها أو بطلانها ، يجسم بدوره رغبة التوسع الامبريالي التي تستلزمها السياسة الاقتصادية القائمة على التوسع التجاري والتي كان يتزعم مدرستها الوزير الفرنسي كولبير .

ان تصور هذه الحقيقة ضروري لفهم التطور السياسي الذي أدى بعد ذلك الى الاحتلال الفرنسي . فالاحتلال الفرنسي كما سنتأكد من ذلك في الفصول اللاحقة لم يكن تعبيراً عن سياسة جديدة ولم يكن تحولاً مفاجئاً أحدثته ضربة مروحة حقيقية أو مزيفة ولكنه كان استمراراً لسياسة حالت ظروف موضوعية قاهرة دون ان تظهر قبل ١٨٣٠ سياسة ترجع بذورها الاولى الى التنازلات التي كانت قدمتها السلطنة العثمانية الى فرنسا في عهد الملك فرانسوا الاول والتي شرحنا طبيعتها قبلاً .

احداث تونس والمغرب :

ترتبت عن الغموض والفوضى التي سادت العلاقة بين القسطنطينية والجزائر منذ عهد

الباي لارباي، نتائج سيئة عديدة لم تكن قاصرة على الجزائر فقط، بل امتدت الى العلاقة بين دول المغرب العربي ، وعلى الأخص بين تونس والجزائر . فلئن كان البيت المالك في المغرب الأقصى منفصلا عن الباب العالي ، ولئن كانت العلاقة بين نظام المغرب علاقة حرب ظاهرة او خفية ، نتيجة للعداء الذي عززه العثمانيون في بدء التسرب التركي الى الجزائر طمعاً في بسط نفوذهم على المغرب الأقصى ، فان الأمر كان يختلف بالنسبة للعلاقة بين تونس والجزائر ، لأن تبعية كل منهما للسلطنة العثمانية جعل الغموض القائم في العلاقة بين كل منهما والقسطنطينية ينتقل الى العلاقة بين بعضهما بعض ؛ ومن هنا كان النظام الجزائري يعتبر تونس تابعة له او يجب ان تكون تابعة له، بينما كان نظام تونس يعتبر نفسه مساوياً للنظام الجزائري وانه تابع رأساً للقسطنطينية .

ان هذا الغموض هو الذي يفسر الحوادث التي جدت في عهد الدايات بين تونس والجزائر التي كشفت من جديد عن طابع العداوة بين نظام الجزائر ونظام المغرب ، وترتبت عن الوضع احداث أخرى في داخل الجزائر كشفت مرة اخرى عن الطابع السطحي للحكم التركي بالجزائر ، وعن طبيعته .

ان المتاعب التي تعرض لها داي الجزائر دفعت باي تونس الى مهاجمة الشرق الجزائري ، بالرغم من ان محمد باي الذي كان بايا في ذلك الوقت نصب في عرش تونس بقوة الجزائريين .

وقد كان الداي شعبان باشا الذي خلفه ، رجل حرب فنظم حملة ردت التونسيين على الاعقاب ، وقصد بعد ذلك الى تونس العاصمة فحاصرها حصاراً قصيراً نصب على أثره احمد بن تونس شركس بايا على تونس ، وكان ذلك في سنة ١٦٨١م ،لكن ما ان انسحبت القوات الجزائرية حتى ظهر محمد باي على رأس أنصاره وتمكن من طرد احمد بن شركس بسهولة من العرش .

وحدث في نفس الوقت ان سلطان المغرب مولاي اسماعيل أراد ان يستغل مصاعب الجزائر ، في توسيع نطاق مملكته الى تلمسان ، فسار نحوه الداي على رأس عشرة آلاف

تركي وثلاثة آلاف صبايحي ، وعدد كبير من الجزائريين معظمهم من قبائـــل زواوة ، ونشبت بين الجانبين معركة كبيرة على نهر الملوية يقول عنهـا المؤرخون الفرنسيون أن السلطان المغربي خسر فيها خمسة آلاف قتيل وتتبع الداي فلول الهاربين من جيش السلطان حتى وصل وراءهم الى فاس ، وكادت تنشب معركة جديـدة ، لولا أن مولاي اسماعيـل تقدم مكتوف اليدين الى الداي وقبّل الأرض بين يديه ثلاثاً وقال له ما معنـــاه : أنت السكين وأنا اللحم .

عاد الأتراك من هذه الموقعة محملين بالغنائم ، لكنهم اصطدموا عند وصولهم الى الجزائر ، بجو مشبع برائحة التمرد والثورة .

ذلك أن باي تونس حاول استغلال السخط الخفي على الحـــكم التركي في الجزائر ، فبعث من يقوده ليضعف به داي الجزائر حتى يتلهى عنـــه إن لم يؤد إلى سقوط نظام الدايات دفعة واحدة .

وفعلاً فقد حدثت في غيبة الداي مفاهمة بين سكان العاصمـة الذين يطلق عليهم اسم (البلدية) وبين القبائل وصمموا على طرد الجنود الاتراك .

واختفى المتآمرون بالمنازل في انتظار الساعة المؤاتية ، وكانوا قد ضبطوا حسابهم على أساس أن المغاربة هم الذين سيخرجون منتصرين من المعركة ، فيستغلون انكسار الاتراك وهبوط معنوياتهم بتنظيم ثورة تكنسهم من الجزائر .

وعند رجوع الأتراك نشبت معارك دموية في الأنهج ، لكن الداي تمكـن من سحق التمرد وقطع ما يقرب من خمسمائة رأس ، وفرض على القبائل الذين ينتمون اليها ضرائب باهظة ، وصادفت هذه المجزرة اليوم الأخـير من شهر رمضان سنة أربعة ومـــائة الف هجرية (١٦٩٢ م .)

ويبدو ان هذه المجزرة ولدت رد فعل عنيف عند السكان إذ اشتعلت النار بعـــد ذلك بأيام قلائل في حظائر الميناء ، وانتقلت النار إلى البواخر التي كانت راسية هناك ، فكانت الخسائر باهظـة ، وجرى الحـديث عن مؤامرة جديـــدة مما أدى إلى سقوط

رؤوس اخرى .

بعد ان استرجع محمد باي عرش تونس تحالف مع سلطان المغرب ضد داي الجزائر ، فقرر داي الجزائر الذي كان يناصره نظام طرابلس الغرب أن يطـرد محمد باي من عرش تونس ، وأدرك محمد باي أن حليفه المغربي لا يستطيع أن يقدم له أدنى معونة ، فعرض على الداي تقديم جباية عنواناً لخضوعه ، لكن الداي شعبان باشا رفض العرض ، وتوجه إلى تونس ؛ التقى الجيشان بالكاف في ٢٤ جوان ١٦٩٤ م (ذو القعدة ١١٠٦ هـ .)

وبدأ محمد باي يشن الهجوم ، لكنه انهزم في اليـوم نفسه ، واستأنف المعركة من الغد فانهزم ايضاً وفي اليوم الثالث يوم ٢٦ جوان ، شن شعبان هجوماً خرق صفوف محمد باي وراح يلاحقها الى تونس العاصمة التي استولى عليها ونصب بها احمد بن شركس من جديد ، ثم عاد الى الجزائر في فيفري ١٦٩٥ (رجب ١١٠٧ هـ) محملاً بالغنائم الذي كانت — حسب دي غرامون — عبارة عن مائة وعشرين من البغال المحملة بالذهب والفضة وكمية من المدافع وعدد كبير من العبيد .

وأثر عودة الداي شعبان حاول مجهول اغتياله أثناء الصلاة في المسجد ، لكن المحاولة فشلت والقي القبض على المجرم التي اعترف برفاقه فاعدموا جميعـاً . لكن الانتصار الذي أحرزه الداي شعبان كان قصير المدى ، فقد تمكن محمد باي بعد ذلك بقليل في أول ماي ١٦٩٥ م (منتصف رمضان ١١٠٦) من طرد أحمد بن شركس والانتصاب من جديد على عرش تونس .

وكبر على شعبان أن تذهب ثمرة انتصاره بهذه السرعة ، فاستعد لتنظيم حمـلة أخرى ضد باي تونس ، لكن الضباط الأتراك كانوا قـــد تعبوا من الثلاث سنوات المتوالية التي قضوها في حروب متصلة ، فعارضوا في الحملة الجديدة ؛ واجه الداي هذه المعارضة باعدام بعض الضباط الاتراك ، مما أدى الى انتشار السخط في صفوف الجنود الأتراك ، وسرعان ما تحول السخط الى تمرد علني ، فهاجم الجنود القصر يوم ٥ أوت ١٦٩٥ (ذو الحجة ١١٠٦ هـ) ووضعوا شعبان باشا في السجن .

ومن الغد عثر بعض الجنود المتمردين بجندي تركي قـديم ، اسمه الحاج أحمد أصبح

اسكافياً ، كان جالساً أمام منزله ، فحملوه على الأكتاف وأعلنوه دايا على الجزائر . وقد حكم الداي الجديد باعدام شعبان باشا .

وبعد انتصاب الحاج احمد دايا ، عقد باي تونس السلم مع الجزائر ، لكن هذا السلم لم يستمر طويلاً كما سنرى .

ولم يحدث في أيام الحاج أحمد باشا شيء يذكر سوى وباء أتلف كثيراً من الناس في الجزائر ، إذ استمر حوالي الأربع سنوات، وعندما مات الحاج أحمد باشا في سنة ١٦٩٨ خلفه حسن باشا الشاوش .

وفي هذه الاثناء كان محمد باي تونس الذي عقد السلم مع الجزائر قد توفي في عام ١٦٩٦م فخلفه أخوه رمضان . وأراد رمضان أن يتخلص من منافسه مراد ابن أخيه فأمر طبيباً جراحاً أن يعمي عينه . لكن الجراح أجرى العملية بكيفية تجعل مراد يبدو وكأنه أعمى مع انه احتفظ ببصره. وانسحب مراد إلى سوسة حيث جمع بعض الساخطين وأعلن نفسه بايا وقتل جنوده رمضان باي الذي تخلى عنه أنصاره في العاشر من مارس ١٦٩٩ م .

وبعد ذلك تحالف مراد باي مع خليل باي طرابلس ومولاي اسماعيل سلطان المغرب ضد داي الجزائر . ووعد سلطان المغرب باي تونس بتنظيم هجوم على الناحية الغربية من الجزائر ، على ان يهاجم باي تونس الشرق الجزائري . وسار مراد باي بالفعل في اتجاه قسنطينة ، في جويلية ١٧٠٠ م (أوائل ١١١٢ هـ) . ثم فرض الحصار على المدينة .

عندما بلغت هذه الانباء الى الداي اعتزل الحكم وطلب من الديوان تعيين داي آخر مكانه .

فتم انتخاب الحاج مصطفى الذي بدأ عمله بنجدة قسنطينة وتوجه نحو مراد باي الذي كان قد هزم باي قسنطينة وسار متجهاً نحو مدينة الجزائر . فالتقى الجمعان عند العلمة : على مقربة من سطيف يوم الثالث من اكتوبر ١٧٠٠ (ربيع الثاني ١١١٢ هـ) وشن الحاج مصطفى هجوماً عنيفاً ضد مراد باي الذي انهزم جنوده الى ما وراء حدود تونس ولم

يتمكن مراد باي من جمع شملهم إلا بالكاف .

ولم يتتبع الحاج مصطفى باشا فلول جند الباي ، وفضل البقاء بقسنطينة لتمهيد امورها ، فنصب بها أحمد بن فرحات مكان الباي الذي قتل في الحصار السابق .

في هذه الاثناء كان مولاي اسماعيل سلطان المغرب قد هجم على تلمسان طبقاً للاتفاق المبرم مع مراد باي ، لذلك توجه الداي ، الحاج اسماعيل باشا فور انتهائه من تسوية امور قسنطينة ، الى الغرب الجزائري ، حتى التقى مع الجيش المغربي الذي كان يعد خمسين الف جندي ، ونشبت المعركة بين الطرفين عند واد الجديوية ، من فروع الشلف يوم ٢٨افريل ١٧٠١ م (ذو القعدة ١١١٢) هـ وبعد اربع ساعات من نشوب المعركة اندحر جيش مولاي اسماعيل وجرح هو نفسه بجروح بليغة ، وكاد يسقط اسيراً في يد الداي الجزائري. وعاد الداي الى العاصمة يحمل روؤس ثلاثة الاف جندي وخمسين قائداً مغربياً، ومغانم كثيرة وعندما اراد مراد باي بعد ذلك ان يشن حملة جديدة ضد الداي ثار عليه جنوده اذ تسبب لهم في هزيمة شنعاء وقتلوه على ضفاف وادي الزرقة في ماي ١٧٠٢ مع افراد عائلته ، فخلفه ابراهيم الشريف الذي اعلن نفسه بايا ودايا وباشا .

* * *

هذه الانتصارات لم تفد الحاج اسماعيل باشا شيئا لأن خزينة الدولة لم يكن بها ما يكفي لمواجهة مطالب الجنود ذلك ان القرصنة لم تعد تؤدي الثمار التي كانت تؤديها قبلاً لأن شواطيء اسبانيا وايطاليا زال ازدهارها وذوى من جهة ، ولأن البواخر التجارية الاروبية اصبحت تتنقل بصفة جماعية على هيئة قوافل بحرية مسلحة من جهة اخرى .

اما الضرائب التي ضوعفت ، فانها لم تسد الثغرة التي كانت في الخزينة لأن ارتفاعها جعل السكان يتحايلون على التهرب من دفعها بشتى الوسائل .

حينذاك فكر الداي في تنظيم حملة تجلب بعض المغانم ضد خليل باي طرابلس بدعوى ان هذا الباي كان قد حجز باخرة كانت تحمل له هدايا من باشا مصر ، ويقول هنري

غارو ان باي تونس كان ناقماً ايضاً على باي طرابلس لفعلة ارتكبها ضده من هذا القبيل ، ويضيف غارو الى ذلك قائلاً بأن كلا من داي الجزائر وباي تونس تحالفـــا ضد باي طرابلس ، وفي الوقت الذي استعد فيه الحليفان لشن الحملة على طرابلس في ربيـع ١٧٠٥م اشاع الانكليز خبراً مفاده ان باي تونس ابرم اتفاقاً سرياً مع باي طراباس على إيقاع الجزائريين في فخ ، ولم يتثبت الداي من هذا النبأ الذي يقول غـارو انه لا اساس له من الصحة ، وتحصل من الديوان على اعلان الحرب ضد باي تونس .

وكان باي تونس قد توجه الى طرابلس فحاصرهـــا الى ان اضطره الوباء الى رفع الحصار عنها ، فتوجـــه آنذاك الى الحاج مصطفى الذي بلغه نبـــأ سيره نحو تونس محاربـــاً .

التقى الجمعان يوم الحادي عشر من جويلية ١٧٠٥ م (ربيـع الاول ١١١٧ هـ) . بالقرب من الـــكاف ، فانهزم ابراهيم الشريف الذي تخلت عنه طائفة من انصاره ووقع في الأسر .

وكان حسين بن علي آغا الصبايحية الذي تهرب من المعركة قد التحق بتونس العاصمة فبويع بايا ، وشرع ينظم الدفاع عن تونس .

وصل الحاج مصطفى امام تونس يوم ٢٨ أوت ١٧٠٥ ففرض عليها الحصار ، لكن الباي الجديد صمد في وجه الحصار بعد ان رفض الحاج مصطفى عرضاً مالياً قدمه له على ان يرفع الحصار وينصرف ، ولما طال الحصار انصرف الجنود الاضافيون التابعون لجيش الداي بعد ان لم يبق هناك شيء يستحق النهب ، فلم يجد الداي بداً من الانصراف ورفع الحصار في التاسع من اكتوبر ١٧٠٥ . ومن الغد عندما لاحظ حسين باي انصراف الداي شن عليه هجوماً عنيفاً فحول الانسحاب الى هزيمة . لكن رد فعـــل عنيف من طرف جنود الداي مكن من الحد من الخسائر ومن انقاذ فلول الجيش الجزائري .

بلغ نبأ الهزيمة الى العاصمة الجزائرية قبل ان يصلها الحاج مصطفى ، فأعلن الديوان عزله وانتخب مكانه حسين خوجة .

ما ان سمع الحاج مصطفى بالنبأ حتى عاد ادراجه الى أن وصل مدينة القل حيث اوقفه الجنود الاتراك الذين تتركب منهم حامية هذه المدينة وكان ذلك في الثالث من نوفمبر ، وقد اعدم الحاج مصطفى بعد ذلك .

اما الداي الجديد حسين خوجة ، فقد سارع بتعذيب زوجة الداي السابق وابنته حتى كشفتا عن مخبأ كنوز الحاج مصطفى . فوزع حسين خوجة تلك الكنوز على الجنود ، وتمكن من اخماد سخطهم الى حين . كما اطلق سراح ابراهيم الشريف ، باي تونس السابق ، مقابل غرامة مالية كبيرة ، وعلى امل ان يرجع الى تونس ويسترجع عرشها ويعترف بسيادة الداي . لكن ابراهيم عندما نزل بالارض التونسية تلقاه جند حسين بن علي ، وقضي عليه عندما نزل غار الملح .

وبمجرد ما نضبت الموارد السابقة وجد الداي حسين خوجة نفسه امام المشكل المالي الذي اودى بمنصب وحياة سلفه فعزله الديوان وانتخب مكانه محمد بقطاش باشا .

* * *

وبعد ذلك لم تحدث بين دول المغرب العربي إلا مناوشات لم يكن لها كبير تأثير ، ولم تدخل تغييراً كبيراً على بنية المغرب العربي السياسي .

عوامل استمرار الحضور الاسباني :

أثر المعركة التي نشبت بين الداي الحاج مصطفى باشا وسلطان المغرب مولاي اسماعيل ، وبعد الانتصار الذي أحرزه الداي ، اولى هذا الاخير مصطفى بوشلاغم بايا على المغرب الجزائري . وقد كان مركز باي الغرب حينذاك هو مازونة . لكن مصطفى بوشلاغم ، بعد توليته نقل مركزه من مازونة الى معسكر ، تمهيداً لتشديد الضغط على القاعدة الاسبانية التي كانت هناك .

والواقع ان العمليات ضد القاعدة الاسبانية في وهران ومرسي الكبير ظلت متواصلة وعلى الاخص منذ أواخر ١٦٩٨ .

الا ان الظروف السياسية التي كانت قائمة بالجزائر ، حالت دون التوجه الكلي لتطهير البلاد من المحتل الاجنبي . فقد تغيرت تلك الروح التي كان يمثلهـــا عروج وخير الدين ، وتحولت الطائفة التركية الى طبقة عسكرية مستبدة بالحـكم ، كل همها هو جمع الاموال ، وتأييد الأمتيازات مع تضخيمها .

وكما انشغل الحاكمون بهذا الجانب وما يستتبعه من معارك جانبية وسطحية ، انشغل السكان بالبحث عن أضمن طريق للتخلص من سيطرة مثل هذا الحـكم ، وظهرت محاولة التخلص من حكم الاتراك الطاغي في أشكال متعددة : ظهرت في قـالب ثورات وتمردات هنا وهناك ...

وظهرت في شكل التهرب من دفع الضرائب وظهرت في اللجوء الى تربيـــة المواشي وانتهاج طريق البدو الرحل في البحث عن المعاش حتى لا يقعوا تحت وطأة الجباة الاتراك. لان الاستقرار في مكان معين والتفرغ لخدمة الارض معنـــاه التعرض باستمرار لوحشية الجباة الذين لا يعرفون رحمة فيما يفرضونه على الفلاح من ضرائب يذهب أغلبها الى جيوبهم وأقلها الى خزينة الدولة .

* * *

هذا التشتت للطاقات الوطنيـة بالاضافـة الى التحول الذي طرا على طبيعة الحكم ، أدى الى القضاء على بعض مقومات الدولة .

ومن ثم لم يوجد اهتمام كبير بالقضاء على القاعدة الاسبانيـــة في وهران ، الى ان تمت تولية بوشلاغم الذي يبدو انه لعب دوراً أساسياً في لفت نظر العاصمة الى وجوب القضاء على هذه القاعدة الاجنبية ، كما يبدو انه كان اكثر ولاة الغرب الجزائري تفطناً الى نقط الضعف في هذه القاعدة .

وفعلاً فان العوامل السياسية والدينية والجغرافية تجتمع في صف واحد مؤكدة سهولة القضاء على هذه القاعدة ، بشرط أن يوجد تصميم وعزم من الدولة على ذلك .

هذه الحقيقة يؤكدها لنا ما يرويه التاريخ عن ثورة سكان المناطق المحيطة بوهران، بمجرد ظهور فرقة تركية ... ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان شعور الثورة ضد المحتل الاسباني لم يخمد في يوم من الايام عند سكان المناطق المجاورة لوهران ولمرسي الكبير . لكن الحكم المركزي ترك اولئك السكان وشأنهم ولم يبق طيلة المدة التي تفصل بين هزيمة الاسبان امام مستغانم في ١٥٥٨ م . وبين طرد الاسبان من وهران ومرسي الكبير بعد ذلك بقرن ونصف قرن — محاولات جديدة ومتواصلة للقضاء على القاعدة الاسبانية .

وإلا فبماذا يمكن تفسير استقرار الاسبان في وهران طيلة هذه المدة ، رغم العوامل التي تساعد على نجاح كل محاولة جدية مصممة للقضاء على وجودهم هناك ؟

فوضعية وهران وسط سكان المناطق المجاورة، كانت وضعية حصن يحيط به الاعداء من كل جانب . وهذه الوضعية وحدها تفرض على المحتل جهداً منهكاً ، لانها تستلزم حراسة مستمرة على كل منافذ المواصلات، كما تستلزم قوة عسكرية دائمة لمصاحبة الاغنام عند خروجها للمراعي، وحذراً دائماً من السكان الذين سيغتنمون ادنى فرصة للانقضاض على المحتلين . ثم ان وقوع وهران بين مستغانم من جهة ، وتلمسان من جهة اخرى ،يجعل في امكان السلطة المركزية بالجزائر ان تحشد قوة ضخمة منظمة تستطيع الانقضاض على الحامية الاسبانية في وهران ومرسي الكبير بسرعة .

واذا التفتنا الى العامل الاقتصادي نجد انه يسهل مهمة من يحاول القضاء على القاعدة الاسبانية ، لانه قد قام الدليل على ان السكان رفضوا تمويل الحامية الاسبانية بمحض اختيارهم ، ومن ثم كان الاسبان يشنون من حين لآخر حملات ارهابية ضد السكان لجلب التموين بالقوة ، ومثل هذه الحملات من شأنها ان تدفع جانباً من السكان إلى الابتعاد عن المناطق المجاورة والرحيل الى حيث الأمن ، وهو أمر يؤدي مع طول الزمن الى تضاؤل المحصول الزراعي .

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة وهو متولد عنها في نفس الوقت:

ان هذه الوضعية وضعية الحرب الدائمة من غير وجود حرب دائمة ، ونقص الموارد والمحاصيل ، الذي يولد نقص التموين ويجعل الجنود الاسبان أحياناً محكوماً عليهم بانتظار وصول باخرة تحمل التموين من اسبانيا قد تصل وقد تقع في أيدي الرياس الجزائريين – هذه الوضعية اثرت على معنويات الجنود الاسبان وجعلتهم يطالبون بالرحيل في أول عهد الاحتلال الاسباني لوهران .

وقد كان من الممكن ترغيب المغامرين الذين لا يكونون قد عرفوا هذه الوضعية في التجند واستغلال جهلهم ، لكن المستعمرات الاسبانية في اميركا جعلت كل المغامرين ينصرفون إلى اميركا بحثاً عن الثروة والجاه .

والواقع ان الاسبان حاولوا خلال القرن السادس عشر الاستيلاء على كل من تلمسان ومستغانم ، لانهم أدركوا أن وهران مثل مرسي الكبير ستظل مهددة بالضياع ما دامت هاتان المدينتان بأيدي الأتراك . وقد أظهرت معركة مستغانم وهزيمة الاسبان فيها سنة ١٥٥٨ صحة هذا التحليل . لكن حسان باشا لم يعرف كيف يذهب بذلك الانتصار الى مداه الكامل : فلو انه استغل هزيمة الاسبان في مستغانم ، وسار على رأس قواته إلى وهران لسقطت في يده بكل سهولة إلا أنه قنع بحدود الانتصار الذي تم في مستغانم ، ووجد ان ما احرز عليه من مغانم كان كافياً في جعل الحملة التي قادها بطولية ماجدة .

استرجاع وهران ومرسى الكبير .

على هذا الاساس يمكن القول بأن مدينة وهران كان محكوماً عليها بالسقوط من يوم هزيمة الاسبان في مستغانم. ومن أجل هذا يمكن القول بأن عدم وجود تصميم لدى السلطة المركزية على تطهير وهران هو وحده الذي ضمن للقاعدة الاسبانية البقاء طيلة هذه المدة. ولذلك ما ان انعقدت النية على تنظيف وهران ومرسى الكبير من الاحتلال الاجنبي ، حتى كللت المحاولة بالنجاح .

فقد أرسل الداي محمد بقطاس باشا ، في نفس العام الذي بويع فيه دايا على الجزائر ، أي عام ١٧٠٧ صهره وزان حسان على رأس قوة كبيرة الى ناحيـــة وهران. وكان باي الغرب ، بوشلاغم ، قد نقل قبل ذلك مركزه إلى معسكر تمهيداً لعملية استرجاع وهران ، إذ تمكن بتحويل مركزه إلى معسكر من إقامة حصار عملي على القاعـــدة الاسبانية ، كما أشعر سكان الجهات المحيطة بوجود السلطة المركزية ، وهو أمر له تأثيره في دفع أولئك السكان الى الاقلاع عن كل تعاون مع الاسبان .

انضمت قوات بوشلاغم في بداية شهر اوت ١٧٠٧ وعملت القوتان على حفر خندق امام حصن سان فيليب الذي تمكن الجزائريون من الاستيلاء عليه صباح يوم التاسع من اوت . لكن الاسبان نظموا بالليل هجوماً تمكنوا به من استعادة الحصن ، فأعـــاد الجزائريون الكرة عليه وصمموا على استعادته ، واستمرت المعركة من أجل هذه الحصن الى منتصف شهر سبتمبر ، حيث تمكن المسلمون من تقويض كل الأبراج الدفاعية في هذا الحصن ، ومن قتل معظم المدافعين عنه ، بحيث لم يبق منهم إلا سبعة عشر شخصاً . وقد سقط حصن سان غريفوار في اول نوفمبر بعد معركة عنيفة . أما حصن سانتا كروز فقـد استسلمت حاميته دون دفاع — وتم جلاء الاسبان عن مدينة وهران في أوائل ١٧٠٨ والتجأوا إلى مرسى الكبير . فأقام وزان حسان الحصار على مرسى الكبير ، وسد عليه كل المنافذ حتى أصبح الاسبان مهددين بالمجاعة بعد أن انقطعت عنهم الامداد .

فاستسلم مرسى الكبير يوم الثالث من شهر أفريل ١٧٠٨ . عـــاد وزان حسان الى الجزائر العاصمة فوصلها يوم ٢٦ ماي ١٧٠٨ مستصحباً معه أكثر من الفي أسير من بينهم نحو مائتين من الضباط وفرسان مالطة .

وأثر هذا الانتصار نقل باي الغرب مركزه إلى وهران وعمت الأفراح الجزائر .

استغل الداي هذا الانتصار فبعث بالمفاتيح الذهبية الثلاثة لمدينة وهران الى الباب العالي ، وطلب بهذه المناسبة تعيين صهره باشا ، لكن الباب العـالي لم يستجب لمطلبه ،

فسخط الداي وأبدى سخطه عندما رفض الاعتراف بالباشا الذي وجهته القسطنطينية ، وبعد أن زال مفعول الانتصار على الاسبان اصطدم الداي بنفس الصعوبات المالية التي اصطدم بها أسلافه ، وضاعف في مصاعبه ان باي قسنطينة فر في بداية سنة ١٧٠٩ مستصحباً معه كنوزه والضرائب التي جباها عام ١٧٠٩ .

هذه المصاعب ولدت حركة تمردية في ٢٢ مارس أودت بحياة الداي ، وحاول صهره وزان حسان أن ينجده ، فلقي نفس المصير ، وأعلن قاتلها ، واسمه دالي ابراهيم ، نفسه دايا ، لكنه لم يتمتع طويلاً بثمرة جريمته اذ قتله أحد الجنود في ١٤ أوت من نفس العام .

الباب العاشر

تأكد اتجاه الاستقلال عن القسطنطينية

- محمد بن حسن .
- كرد عبدي .
- الاسبان يعودون الى احتـــلال وهران ومرسى الكبير .
- العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات.
- ثورة الكراغلة .
- سياسة محمد بكير باشا .
- علي ملولي .

الاستقلال عن القسطنطينية

بعد دالي ابراهيم بويع علي شاوش الذي اشتهر بالحزم والنزاهة والرزانة ، وقد وجد عندما تولى دايا وضعية مضطربة ، فالتمردات والثورات التي كانت تتوالى منذ حوالي عشرين عاما ، تسببت في تكوين أوكار عديدة للعصابات التي وجدت مجالا كبيرا للنهب والسلب ، فعم الشعور بانعدام الأمن وتعززت مشاعر السخط والنقمة بعوامل جديدة .

واجه علي باشا شاوش هذه الوضعية بحزم فشدد الخناق على قطاع الطرق وبذل كل ما في وسعه لإعادة الأمن إلى النفوس ، ويقال إن عدد الرؤوس التي قطعها خلال الأشهر الأولى من ولايته بلغت سبعمائة رأس ، وقد تمكن بهذا الحزم وهذه الشدة من التوطيد لحكمه ومن توجيه دفة الادارة في ظل استقرار نسبي .

والى علي باشا شاوش يرجع الفضل في رفع اللبس الذي كان قائما بين منصب الداي ومنصب الباشوية : فعلى الرغم من أن الداي هو الحاكم الحقيقي ، فقد ظلت القسطنطينية تعتبره خاضعا للباشا الذي كانت تعينه هي ، وعلى الرغم من أن هذا التعيين كان شكليا ومن أن الجزائريين رفضوا الباشا الذي عينته القسطنطينية في مناسبات عديدة ، فقد ظل منصب الباشوية مثارا لفتن واضطرابات :

ذلك أن الباشا وإن لم يعد يتمتع في عهد الدايات بما كان يتمتع به قبل ذلك من نفوذ وسلطان ، فان الذي يحتل هذا المنصب يميل إلى الأمل في عودة العهد الماضي ، ويحدث تبعا لذلك ، أن يستغله بعض المتمردين على السلطة المركزية ويستعملوا اسمه وعنوانه ومنصبه في تحطيم سلطة الداي .

لذلك لم يتردد علي شاوش عندما أرسلت القسطنطينية في عام ١٧١١ باشا عينته هي

على أمل أن يعيـــد النفوذ الفعلي للسلطان العثماني على الجزائر – لم يتردد علي شاوش في تهديد الباشا مبعوث القسطنطينية بالموت ان هو تجرأ على أن يطأ ارض الجزائر،فانسحب الباشا وقذفت به العاصفة إلى شاطىء القل حيث مات .

ووجه علي شاوش بعد ذلك مذكرة إلى أحمد الثالث ، بسط فيها العواقب الوخيمة المترتبة على تعدد السلط وشرح الاسباب والعوامل التي تدعو إلى ضم الباشويـــة إلى خطة الداي .

فلم يسع السلطان العثماني إلا أن يقبل وأصبح الداي هو الباشا ، وأصبحت الجزائر تتمتع باستقـلال حقيقي وتأكد الطابع الشكلي للعلاقـــة التي تربطها بالخلافة العثمانية .

* * *

بعد تحقيق هذا المطلب من مطالب الطبقة الحاكمة في الجزائر وجدت هـذه نفسها امام نفس المشاكل القديمة فقد عرض الهولنديون والانكليز والاسبان والصقليون على علي باشا شاوش عقد السلم ، وقدموا له هدايا ضخمة ليقبل مهادنتهم . ثم تبعتهم الدانمارك والسويد . لكن علي باشا شاوش كان يدرك ان القرصنة تمثل المورد الاساسي للدولة ، وانه بدون قرصنة لا يستطيع ان يدفع مرتبات الجيش النظامي ، وان ابرام السلم مع تلك الدول كلها يعني نهاية له شبيهة بنهاية الدايات الذين سبقوه لذلك لم يبرم السلم إلا مع هولندا لمدة لم تستمر طويلاً.

وبالرغم من ذلك فقد حاول جمع من الجنود الاتراك قتله . ففي يوم ٢٣ جوان١٧١٣ ارتموا عليه لكنه كان على حذر فلم يصب الا بجروح خفيفة وهرب الجنـــود الى منزل قريب فحوصروا هناك ودافعوا عن انفسهم دفاعـــاً مستميتاً الى ان اضطر متتبعوهم الى تفجير جدران المنزل ، وتم شنق ثلاثين متآمراً بعد ذلك .

وفي يوم ٣فيفري ١٧١٦ (صفر ١١٨٢ هـ) هز مدينة الجزائر زلزال عنيف فتحطمت عدة منازل واشتعلت النيران وكثر السراق الذين يستغلون مثـل هذه الظروف للنهب والسلب ، فخرج الداي بنفسه على رأس شواشه يسير وسط الشوارع وبين انقاض المنازل

المهدمة يتتبع السراق ويعدم في الحين كل من امسك به في حالة تلبس بالجريمة .

وقد حاول جندي تركي هرم اثارة الجيش على الداي ، فزعم لهم انه شهد زلزالا من نفس النوع بالجزائر منذ اربعين سنة وأن الزلزال لم يكف إلا عند مقتل الداي .

وحوصر الداي بالفعل ، لكنه تمكن من فك الحصار والتغلب على المتمردين فعاقبهم بصرامته المعهودة .

وقد استمرت الهزات الأرضية الى شهر جوان ، ثم عادت الهزات الأرضية في عام ١٧١٧ واستمرت تسعة أشهر .

تسببت هذه السلسلة من الزلازل في خسائر كبيرة للدولة اضطرت معها طائفة الرياس الى مضاعفة هجوماتها على شواطىء اروبا ، وكسب الرياس مغانم كبيرة وانعدم الامن بالشواطىء الاروبية الى درجة ارتفعت معها نسبة التأمين البحري من واحد ونصف في المائة الى خمس واربعين في المائة ، وقد توفي علي باشا شاوش في بداية سنة١٧١٨ بسبب حمى عنيفة ، وكان قبل ذلك ببضعة اشهر قد نجا من محاولة اغتيال جديدة .

محمد بن حسن :

عندما تولى محمد بن حسن خلفاً لعلي باشا شاوش وجد وضعية اقتصادية مضعضعة .

فالمصاعب التي خلفها الزلزال تضاعفت بفعل قحط اصاب المحصول الزراعي ودام ستة سنوات متوالية ، وبفعل هجوم الجراد فانتشرت مجاعة رهيبة ، ورفض سكان الارياف دفع الضرائب ، بل وهاجموا في بعض الجهات برج الحامية العسكرية كما حدث في برج منايل ، وعادت من جديد الاضطرابات التي كان قضى عليها علي شاوش .

وفي عهد محمد حسن باشا حاولت هولندا الحصول على معاهدة سلم مع الجزائر ، وتوسطت لهذا الغرض بالقسطنطينية التي اوفدت قايجي صحبة السفير الهولندي الى الجزائر فقال له الداي انه لا يرى مانعاً من عقد السلم مع كامل اوربا ان تفضل السلطان والتزم

بدفع مرتبات الجيش النظامي ، وبشراء الاسرى الجزائريين من القراصنة الاروبيين . فشعر مبعوث الخليفة العثماني بالاهانة ، وقال للداي ، بان هذا الموقف سيجر منع الداي من تجنيد الجنود من آسيا الصغرى . . . فاجابه الداي ملوحاً باستعداده للاعتماد على الجزائريين فقط قائلاً ما معناه : « يدخل من باب عزون يومياً من الجنود الشجعان ما لا تستطيع تجنيده من ازمير خلال عام كامل » .

وهذه اول مرة يصدر فيها تصريح رسمي من الداي يظهر استعداد السلطة المركزية للاعتماد الكلي على ابناء الوطن الجزائري .

والواقع ان هذا التصريح لم يكن مجرد تهديد لفظي ، وكله ينم عن تطور حقيقي حدث في صفوف الطبقة العسكرية الحاكمة بالجزائر ، فمع مرور الزمن شعرت هذه الطبقة انها مرتبطة بالارض الجزائرية أكثر من ارتباطها بأي بلد آخر ، وأدرك قسم من سكان الجزائر ان الجزائر هي التي تستفيد في الدرجة الاولى من مغانم الاتراك وممتلكاتهم ، لا القسطنطينية .

ان هذا التصريح يسجل اذن بداية الوعي بهذا التطور من طرف المسؤولين الاتراك في الجزائر ، وستتأكد من هذه الحقيقة التي ستبرز لنا من خلال بعض الاحداث الآتية :

* * *

تخوف محمد بن حسن من ردود الفعل الاروبية ضد الجزائر فعمل على تعزيز الحصون الدفاعية في ميناء الجزائر وبنى برج الحراش .

ولم يتردد محمد بن حسن في معاقبة بعض الرياس الذين استغلوا وضعيتهم في ارتكاب أعمال نهب ، مما أثار عليه طائفة الرياس التي تآمرت عليه وقتلته . ففي يوم ١٨ مارس ١٧٢٤ م . (جمادى الثانية ١١٣٦ هـ) بينما كان الداي عائداً من مراقبة بعض التحصينات الجديدة ، اذ انطلقت رصاصة من اعلى ثكنة البحرية فأصابته بين الكتفين فسقط لحينه . فنظم الرياس آنذاك هجوماً قتلوا أثناءه الشاوش ، والخوجة ، وبعض الحراس ، ثم انطلقوا نحو الجنينة ، لكن الخزندار ، بالرغم من اصابته بضربة سيف ، كان قد سبقهم الى هناك ، واغلق في وجوههم الباب ، واعلن دايا كرد عبدي آغا الصبايحية .

ولذلك وجد المتآمرون الرصاص في استقبالهم عندما هجموا على الجنينة ، ومن الغد القي القبض على من نجا منهم وأعدموا .

وقد اكد كرد عبدي استقلال سياسة الجزائر عن سياسة القسطنطينية ، ثلاث مناسبات علنية :

الاولى : بعد توليته ببضعة أشهر ، عندما أرسل الخليفة العثماني مبعوثين له الى الجزائر للتدخل لدى الداي كي يبرم السلم مع اسبانيا . وكان المبعوثان يظنان انهما سيلقيان كل حظوة لدى الداي بسبب انهما كانا يحملان معهما له قفطان الباشوية .

استقبل الداي مبعوثي السلطان بكل حفاوة في مجلسه العمومي الذي قرىء فيه نص الامر العلي وسط سكوت مطبق ، وراح القارىء يتلو القاب الخليفة العثماني الى ان وصل الى نعته بـ « سلطان الجزائر » . آنذاك أوقفه الداي كرد عبدي ، وقال صارخاً : كيف يطلق على نفسه لقب سلطان الجزائر . ومن أكون انا اذن ؟ وانقطع المجلس وسط هرج كبير .

ومن الغد عاد المبعوثان الى مجلس الداي وعرضا عليه مطالب الباب العالي دون ذكر القابه ، ومن بين هذه المطالب عقد السلم مع اسبانيا ، فرفض الداي .

وعندما اراد المبعوثان تذكيره بالاحترام الواجب نحو السلطان العثماني قال لهما كرد عبدي ما معناه : « من أين يريدنا أن نعيش ؟ ثم لماذا هذا التدخل في شؤوننا ؟ ألم يتركنا وحدنا عندما هوجمنا ثلاث مرات ولم ينجدنا في واحدة منها ؟ » .

ورجع المبعوثان دون أن يتحصلا على اية نتيجة .

الثانية : في السنة الموالية، عام ١٧٢٥ م . وجه الباب العالي الى الجزائر مبعوثاً مكلفاً بأن يطالب برأس شركس محمد ، باي القاهرة السابق ، الذي أراد الاستقلال بمصر ، وفر بعد هزيمته أمام الأتراك إلى الجزائر . وكلف المبعوث في نفس الوقت بتجديد عروض ابرام السلم مع اسبانيا .

لكن الداي لم يكتف برفض تسليم شركس محمد ، بل قال للمبعوث أنه لا يريد أن يسمع الحديث عن السلم مع اسبانيا إلا إذا استرجع محمد شركس سلطاته واعتباره .

الثالثة : في عام ١٧٢٩ (أواخر عام ١١٤١ هـ .) أرادت القسطنطينية إخضاع سلطة الداي لنفوذها ، فوجهت مبعوثاً خاصاً وأضفت عليه لقب الباشوية ، ليكون ممثل الخليفة الدائم بالجزائر ، وكان هذا الباشا مصحوباً بقايجي وبخمس وأربعين شخصية وزعت عليها المهام الاساسية في الدولة .

وكانت محاولة واضحة صريحة من القسطنطينية لبسط سلطتها المباشرة على الجزائر .

وصلت الباخرة المقلة للباشا والقايجي والشخصيات المصاحبة لهما ، إلى الجزائر في الثلاثين من جوان ، فتلقت من الداي أمراً بأن ترسو في رأس ماتيفو ، وأن لا يحاول ركابها النزول إلى الأرض ، ان كانوا يرغبون في النجاة . وفي نفس الوقت استدعى كرد عبدي الديوان للاجتماع، فقرر هذا الأخير عدم استقبال مبعوثي القسطنطينية فأبلغ القرار إلى مبعوث الباب العالي وطلب منه الانسحاب في الحين .

واضطرت الباخرة إلى الاقلاع والانسحاب رغم رداءة الطقس وإشتداد العاصفة التي قذفت بها بعد حين إلى ميناء الجزائر حيث اجبرت على الوقوف هناك فوجهت اليها التهديدات مرة اخرى باطلاق النار ، لكن الداي بعد ان رأى استسلام الاتراك منحهم مركباً أقوى حملهم إلى القسطنطينية .

الاسبان يحتلون وهران ومرسى الكبير من جديد .

أظهر الداي ، في هذه المناسبات والمواقف الثلاث عزم السلطة المركزية بالجزائر على تأكيد الاستقلال الفعلي الذي يرجع الى ما قبل هذا العهد .

ولئن اكد كرد عبدي في هذه المواقف ما اشتهر به من قوة الشخصية ، فقد حدثت في عهده حادثة حطمت معنوياته وقضت عليه .

ذلك ان اسبانيا كانت قد قضت ثلاث سنوات في تجهيز حملة عسكرية لاسترجاع مرسى الكبير ووهران ؛ فانطلقت من ميناء اليكانتي نحو وهران في ١٥ جوان ١٧٣٢ (اواخر ١١٤٤ هـ) ست عشرة باخرة حربية ، وخمسمائة مركب بحري تقل ثمانية وعشرين الف جندي . لكن فساد الطقس حال دون وصول المراكب الى وهران قبل ٢٩ جوان .

إلا أن باي الغرب ، بوشلاغم ، لم يكن يوجد تحت تصرفه إلا حوالي الثلاثة آلاف من

الجنود النظاميين ، ومع ذلك فقد صمم على المقاومة ، وابتدأت المعركة حامية صباح يوم ٣٠ جوان (صفر ١١٤٥ هـ) . وبعد أربع وعشرين ساعة من قتال دامٍ عنيف تمكن الاسبان من احتلال وهران ومرسى الكبير .

إلا أن بوشلاغم أرسل إلى الداي يطلب المدد ، فأمده بقوة عسكرية على رأسها ابنه ، ضمها إلى قواته المحاصرة لوهران . وقد استشهد أحد أبناء بوشلاغم أثناء إحدى المعارك التي نشبت خلال الحصار ، وكان ذلك يوم الرابع من شهر نوفمبر ١٧٣٢ (جمادي الثانية ١١٤٥ هـ) .

وقد انتقم بوشلاغم لمقتل ابنه بقتله للمركيز دي سانتا كروز وعدد كبير من الاسبان يوم ٢٩ نوفمبر . وقد استمر الحصار على وهران عدة سنوات إلى أن استرجعها الجزائريون في ١٧٩١ م.

أثر احتلال الاسبان من جديد لوهران ومرسى الكبير ، تأثيراً كبيراً على الداي كرد عبدي وبلغ من حزنه أن امتنع عن الأكل والشرب إلى أن مات يوم الثالث من سبتمبر ١٧٣٣ (ربيع الثاني ١١٤٦ هـ) على سن تناهز الثمانية والثمانين . وخلفه الخزنادار ، صهره ، دون أن يلقى أية مقاومة . وهناك من المؤرخين من يقول أن سبب حزن كرد عبدي يرجع إلى كونه اعتبر نفسه قد قصر في توجيه النجدات اللازمة في الوقت اللازم إلى بوشلاغم .

العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات :

بعد تحقيق الاستقلال الفعلي عن القسطنطينية ، – فالداي بالرغم من أنه يتحصل على لقب الباشا من القسطنطينية فان الوجاق هو الذي ينتخبه دايا يضاف إلى ذلك ان التسمية أصبحت اجراء شكلياً – بعد ذلك كان من الطبيعي أن يتطور الحكم المركزي بالجزائر نحو الاستقرار ، وكان من الطبيعي ان يتجه تفكير الدايات إلى قرار نظام ملكي وراثي .

لكن شيئاً من ذلك لم يتم إلى أن جاء الاحتلال الفرنسي . فما الذي حال دون تطور هذا الخط الطبيعي ؟

يرجع ذلك إلى عدة عوامل :

العامل الأول — هو ان الداي كان يستمد قوتـه ونفوذه أساساً من الوجاق ومن الرياس . وقد قام الدليل في الاتجاه الاستقلالي عن القسطنطينية ، على ان الدايات فكروا فعلاً في إقرار نظام ثابت مستقل . لكن قيام هذا الحكم وتطوره إلى المركزية لا يمكن أن يتم إلا بواسطة القضاء على سلطة ونفوذ الوجاق والرياس أو على الأقل الحد منهـا . ذلك أن الاتجاه إلى الحد من الامتيازات الضخمة التي كان يتمتع بها أفراد الطبقـة العسكرية الحاكمة في الجزائر يمثل الشرط الأساسي للقضاء على تلك التدخلات العديدة التي تولد الاضطراب وتعمم الفوضى ، وتجعـل عموم الناس لا يشعرون بالاحترام نحو الدولة .

لكن محاولة الحد من سلطة أفراد الطبقة العسكرية جعل أفراد هذه الطبقـة يزهدون في تحصين دولة الدايات وتدعيمها بما فيه الكفاية ، لأنهم كانوا يعرفون ان ذلك يعني نهاية امتيازاتهم . وهذا ما يفسر كثرة الاغتيالات للدايات .

العامل الثاني : شبيه بالاول بالرغم من انه يختلف عنه . فما قيل في افراد الطبقـة العسكرية بالعاصمة ، يقال في غيرهم من المسؤولين الذين يقومون بدور الوسطاء بين الدولة والشعب . فشعور اولئك الوسطاء باتجاه الدولة نحو تدعـيم وتقوية الحـكم المركزي ، وادراكهم ان ذلك لا يمكن الا ان يكون على حسابهم ، يجعلهم لا يبذلون أي جهـد لتعزيز الروابط والعلاقات بين الحـكم المركزي وبين السكان ، وهو موقف من شأنـه أن يؤدي الى تفكيك سلطة الحـكم المركزي ونفوذه على السكان .

وقد كان من الممكن التطور بالحـكم المركزي نحو القوة والاستقرار ، لو ان هذا الحكم وجد بديلاً عن أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة والمسؤولين الوسطاء ، الذين كانوا يشكلون اقطاعاً ضخماً . لكن هذا البديل لم يوجد . لماذا ؟ الجواب عن ذلك نجده في :

العامل الثالث — الذي يتفرع في الواقع الى نوعين :

أ — كان من الممكن ان يوجد الدليل في طبقة موظفي الدولة التي كان يمكن أن تقوم في محاربة الاقطاع بنفس الدور الذي قامت به الطبقـة البورجوازية باروبا في القضاء على

اقطاع القرون الوسطى وذيوله .

لكن قيام طبقة الموظفين وتطورها الى قوة اجتماعية منسجمة يمكن الاعتماد عليها في محاربة العقلية الاقطاعية ، يتوقف على وجود وضع اقتصـــادي وإداري منسجم بحيث يجعل افراد هذه الطبقة يعون قوتهم . لكن هذا الشرط كان مفقوداً : لان الموظفـــين لم يكونوا يتلقون اجوراً قارة لقاء خدماتهم ، بل كانوا يتلقون مقابل خدمتهم امتيازات ، وهو امر يقضي على وجود وضعية منسجمة ويحول دون نمو شعور مشترك ونظرة مشتركة الى المشاكل ، بل ان دفع اجور الموظفين في شكل امتيازات يعزز العقلية الاقطاعيـة ، ويدفع الموظف الى استغلال الامتيازات التي يتحصل عليها في بناء ثروة شخصية لاتتناسب مع وضعيته . وهكذا نجد ان طبقة الموظفين التي كان يمكن ان تلعب دوراً اجتماعيـــاً تقدمياً بالقضاء على عقلية الاقطاع ، كانت بالعكس من ذلك عنصراً من العنـــاصر التي غذت هذه العقلية .

ب – كان من الممكن ان يوجد البديل في الطبقة التي تتكون على طول الزمن من أبناء وأحفاد الطبقة العسكرية الحاكمة ، الذين سيصبحون مـع مرور الوقت قوة اجتماعيـــة وسياسية هامة . لكن افراد الوجاق لم يكونوا يجندون من الجزائر ، بل كانوا يجندون من الخارج ، وكانوا تبعـــاً لذلك يتغيرون بين جيل وآخر . أما أبنـــاؤهم من النساء الجزائريات ، وهم الكراغلة ، فانهم لم يكونوا يرثون عنهم سلطتهم وامتيازاتهم ، وكان الارث قاصراً على الثروة المادية .

العامل الرابع – التنظيم الاداري الذي أقره نظام الدايات اقتصر على تجزئة الارض دون ان يتناول بالتنظيم البيئة الاجتماعية للسكان : فالهياكل الادارية التي ضبطتها السلطة التركية بالجزائر دخلت على الاجهزة الاجتماعية التي وحدتها دون ان تدخل عليها ادنى تغيير . فقد ظل النظام القبلي ونظام العروشية قائماً كما لم تتغير وضعية الارستقراطيـــة التجارية التي كانت تمسك بزمام النشاط التجاري في المدن الخ . . .

* * *

تلك هي العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات الى حكم مركزي قوي ، وذلك هو السبب في استمرار الاضطرابات الداخلية بالجزائر من جهة ، وفي عـــدم

وجود خط سياسي واضح للسياسة الخارجية للجزائر من جهة أخرى .

والواقع ان اضطراب السياسة الخارجية كان مرتبطاً أشد الارتباط بالبحث عن الموارد الاقتصادية ، فانخفاض الموارد المتأتية من القرصنة جعل الداي يبحث باستمرار عن موارد اخرى ، وهذا البحث عن الموارد الاقتصادية هو الذي كان يوجه سياسته الخارجية التي كانت تتأرجح يميناً وشمالاً حسب الظروف .

وقد تأكد هذا المعنى في عهد الداي ابراهيم باشا الذي خلف كرد عبدي ، وظهر ذلك في عدة مناسبات :

عرض عليه الانكليز توجيه اسطولهم لحصار القاعدة الاسبانية بوهران بحراً بينما يتولى الجزائريون الزحف على الاسبان براً . وطلب الانكليز مقابل هذه الخدمة اقامة مركز تجاري في مرسى الكبير وقد قبل الداى العرض لكن ضباط الجيش التركي عارضوه في ذلك لان القنصل الفرنسي أقنعهم بأن الانكليز سيكونون بمركزهم التجاري أخطر على الجزائر من الاسبان بقاعدتهم الحربية .

– في الوقت الذي أدى فيه انتشار الاضطرابات الداخلية الى انتشار المجاعة لان اضطرابات منعت تنقل كميات القموح داخل الجزائر – قطع باي تونس الضريبة التي كان يدفعها للداي ؛ ذلك ان باي تونس ، حسن بن علي ، كان قد تعهد للداي بدفع مبلغ مالي معين مقابل احتفاظه بعلي ابن اخيه في الاسر ، وكان قد لجأ الى الجزائر بعد فشله في الثورة على عمه .

وسواء أكان باي تونس لم يدفع المبلغ لانه لم يكن في متناوله ، أو قرر قطع دفعه لأنه اعتبر انه لم يعد هناك ما يخيفه من طرف الداي ، فقد كان ذلك سبباً كافياً عند الداي ليعلن الحرب على باي تونس .

واستغل علي الاسير هذه الوضعية ووعد الداي بكل ما يريد ، وطلب منه السماح له بتجهيز جيش ضد عمه الباي . فجهز ابراهيم باشا له جيشاً يضم سبعة آلاف تركي بقيادة ابراهيم ابن اخيه .

وسمع باي تونس بالنبأ فعرض على الداي مبلغ خمسين الف سكة مقابل الحصول على

السلم ، وأرسل في نفس الوقت يستنجد بالقسطنطينية ان تتدخل في الأمر للحيلولة دون الحرب . فوجه الباب العالي قايجي يحمل أمراً بتحريم كل حرب مع تونس . لكن القايجي وصل بعد انطلاق الحملة ، يضاف الى ذلك ان ابراهيم باشا كان ناقماً على الباب العالي اذ وعده بارسال نجدة لتطهير وهران من الاسبان، ولم ينفذ وعده لانه كان هو نفسه مشتغلاً بالحرب ضد روسيا .

إلا أن الوضعية الدولية للجزائر كانت في ذلك الظرف ضعيفة بحيث لا تسمح للداي أن يعصي علانية ، أمر القسطنطينية إذن فكيف العمل ؟

اهتدى الداي إلى حيلة تتلخص في التظاهر بامتثال الداي ، ووجه مع القايجي رسالة إلى القسطنطينية يفهم منها المسؤولون هناك أن القايجي قد حرف الأمر الذي حمله من الباب العالي . وفعلاً فلم يكد يصل القايجي إلى القسطنطينية حتى اتهم بالخيانة ونفذ فيه حكم الاعدام أن حَرَّفَ امر الخليفة .

التقى الجيشان التونسي والجزائري عند الحدود ، فانهزم حسن باي ، وفر بكنوزه صحبة ابنيه . وواصل الجيش التركي القادم من الجزائر سيره الى تونس العاصمة حتى بلغها في أوائل سبتمبر عام ١٧٣٥ م (ربيع الثاني ١١٤٨ هـ) ودخلها ، واعلن علي بايا واعترف بالتبعية للجزائر ، والتزم بدفع ضريبة سنوية تقدر بمائتي الف اوقية ، وبكمية من القمح لتمويل الجيش التركي . لكن التونسيين الذين اشتدت عليهم وطأة الضرائب ، ثاروا من كل جهة ، وعجز الباي الجديد عن الوفاء بالتزاماته ، وانتهت الحملة التي كان يعلق عليها الداي آمالاً كبيرة ، بفشل ذريع .

إذن فقد استمر البؤس يسيطر على الجزائر ، ولم يتحصل الداي على المبالغ اللازمة لتموين خزينة البايلك، في الوقت الذى كان أشد ما يكون احتياجاً لمواجهة الحملة الحربية التي كانت اسبانيا تعدها ضد الجزائر. ويقال بان تونس ساهمت في دفع نفقات التحصينات التي قام بها ابراهيم باشا وفي اعادة بناء قنطرة الحراس التي كان بناها الحاج احمد والتي حطمتها حملة مائية عنيفة ، كما يقال ان باي تونس هو الذي وجه له المهندس الذي اشرف على الاشغال — في هذا الظرف فكر الداي في مورد غريب لتمويل خزينته ، امر بشد الاسرى الاسبان في الاغلال والسلاسل وتشغيلهم في الاشغال الشاقة حتى يضطر ذووهم

الى دفع مبالغ مالية ضخمة لافتدائهم . وفعلاً فقد تحصل بهذه الفعلة على مبلغ مالي قدره مائتا الف اشبيلية . وقد احتذت هولندا والسويد وبريطانيا حذو اسبانيا في افتداء الاسرى ، فعاد الازدهار الى الجزائر من جديد ، وتمكن الداي من انجاد باي تونس الذي كان مهدداً بحصار عمه ، وقد مكنته هذه النجدة من دفع ما تأخر من الديوان للجزائر .

لكن سكان العاصمة لم ينعموا كثيراً بهذا الازدهار . ففي شهر جوان ١٧٤٠ (١١٥٣ هـ) عم العاصمة وباء جاءت به باخرة قادمة من الاسكندرية ، ذهب ضحيته في الاسبوع الاول الف نسمة . وقد كان عدد الوفيات يومياً يتراوح ما بين المائتين والاربعمائة خلال الشهر الاول ، ثم خفت وطأته بعد ذلك ، لكنه استمر ثلاث سنوات وامتد من الجزائر الى تونس حيث تسبب في ضحايا عديدين . في هذه الاثناء توسط ملك صقلية بالباب العالي في عقد السلم مع الجزائر ، الا ان الداي اشترط لابرام السلم دفع مبلغ باهظ بحيث فضل ملك صقلية استمرار حالة الحرب .

* * *

وفي هذه الاثناء ايضاً ، في صيف ١٧٤١ م) (١١٥٤ هـ) حدث حادث بين الجزائر وفرنسا ملخصه ان باخرتين جزائريتين نزلتا بمدينة تولون الفرنسية ومكثتا ما يقرب من اسبوعين . وعند خروجهما من الميناء الفرنسي هجمت بواخر اسبانية فاستولت على الباخرة التي كان يقودها محمد رايس ، بينما تمكنت الاخرى ، بقيادة سليمان رايس من التوجه والوصول الى العاصمة حيث اعلم الداي بان الفرنسيين « باعوا » الباخرتين الجزائريتين للاسبان ، الذين تمكنوا من مفاجأتهما ، كما يدل على ذلك هجوم البواخر الاسبانية فور الخروج من الميناء الفرنسي . وبالاضافة الى ذلك تعتبر الجزائر ان فرنسا مسؤولة عن الحادث لانه جرى في مياهها الاقليمية ، والملاحظ ان المعاهدة المبرمة بين الجزائر وفرنسا والتي كانت نافذة وسارية المفعول حينذاك ، تنص على تعهد فرنسا بحماية البواخر الجزائرية الموجودة في عرض المياه الاقليمية الفرنسية الى ثلاثين ميلاً .

بل ان الفرنسيين لم يكتفوا باعلام الاسبان بوجود الباخرتين الجزائريتين في المياه الاقليمية : فلئن كانت كتب التاريخ الفرنسية تزعم ان كلا من محمد رايس وسليمان رايس

لقي معاملة طيبة اثناء وجوده في ميناء « تولون » فان الحقيقة خلاف ذلك ، والحقيقة تصورها رسالة تمكن من ارسالها محمد رايس من اسره في اسبانيا وهي حقيقة اكدتها رواية ركاب الباخرة الثانية التي تمكنت من الفرار . تقول رسالة محمد رايس ، ان الفرنسيين قد القوا القبض عليهم ، وعاملوهم معاملة شائنة ، ثم اجبروهم على مغادرة الميناء الفرنسي في الوقت الذي حدده الفرنسيون حتى يتمكن الاسبان من اسرهم .

واذ محصنا ما تشتمل عليه هذه الرسالة ، نجد انه غير مستبعد ، لان الفرنسيين كانوا يخشون ، ان هم اطلقوا سراح الرياس الجزائريين ، بعد ان اساءوا معاملتهم ، ان يدفع ذلك الداي لاعلان الحرب على فرنسا . لذلك دبروا خطة اسرهم مع الاسبان حتى لا يبقى هناك اثر لما جرى لهم في ميناء تولون ، وحتى تتحمل اسبانيا وحدها تبعية الحادث .

وقد قرئت هذه الرسالة على الجمهور في العاصمة ، واثارت عاصفة من السخط ، ودفعت الداي الى سجن الفرنسيين الموجودين بالجزائر ، بما فيهم القنصل ، وفي نفس الوقت وجه الداي الى باي قسنطينة يطلب منه وضع المراكز التجارية الفرنسية في الشرق الجزائري تحت الحجز ، واستغلت بريطانيا هذه الفرصة فطلبت على لسان قنصلها « ستانيفور » ان يمكن بريطانيا من هذه المراكز ، لكن الداي رفض .

توترت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جراء هذا الحادث ، وطلب الداي من فرنسا التعويض والاعتذار واعادة الباخرة التي اسرها الاسبان ، فوجهت فرنسا في الحين نائبا استرضى الديوان ، وعادت العلاقة بين الجزائر وفرنسا الى مجراها الطبيعي .

وفي عهد ابراهيم باشا ، توفي باي الغرب بوشلاغم (عام ١٧٣٦ م. ١١٤٨ هـ) . كما توفي باي قسنطينة بوكمية الذي دامت مدة ولايته اثنين وثلاثين عاماً .

وفي عام ١٧٤٥ (١١٥٨ هـ) ، اصيب الداي ابراهيم باشا بحمى الأمعاء ، وشعر بدنو أجله فتنازل لحفيده ابراهيم كوجوك .

ثورة الكراغلة :

كان يبلغ من العمر خمساً وأربعين عاماً عندما تقلد خطة الداي . وقد بدأ أعماله

بشن حملة ضد باي تونس الذي توقف عن دفع ما كان التزم به للجزائر ، والذي هاجم باي طرابلس حليف داي الجزائر وحاصره إلى أن اجبره على الانتحار . توجه الجيش التركي من الجزائر يوم ٦ أفريل ١٧٤٦ م (ربيع الأول ١١٥٩ هـ) وتعزز في طريقه إلى تونس بوحدات عسكرية من قسنطينة ، إلى أن وصل مدينة الكاف؛ وهناك وقعت مناوشات لم تسفر عن انتصار أحد الجانبين ، واستمرت إلى خريف ١٧٤٧ ، دون أن يحصل أحد الطرفين على نتيجة كبيرة ، فتم حينذاك عقد السلم لان باي تونس اعترف من جديد بتبعيته للداي ، من جهة ، ولان الداي كان من جهة اخرى في أشد الحاجة الى قواته ليرسلها إلى وهران : ذلك ان الكراغلة ثاروا على ظلم الاتراك وأرادوا أن يبعثوا من جديد ، لفائدتهم ، مملكة تلمسان . التي ثار بها القائد رجم البجاوي الذي طرد الحامية العسكرية منها واستقل بها ، وقد وجه الداي ضدهم قوة عسكرية انتصرت عليهم .

وقد أثارت حركة الكراغلة في وهران مخاوف الداي الذي تيقن أن ثورة الكراغلة في وهران كانت على اتصال بحركة مماثلة كان كراغلة الجزائر يستعدون للقيام بها وقلب نظام الحكم ، فصمم على إبادة الكراغلة الموجودين بالعاصمة ، لكن مات فجأة قبل أن ينفذ خطته في الثالث من فبراير ١٧٤٨ ، (صفر ١١٦٢ هـ) مسموماً على ما يبدو .

إن هذه الحركة التي قام بها الكراغلة في وهران ، والحركة الأخرى التي تيقن ابراهيم كوجوك من أن الكراغلة كانوا يستعدون لتنظيمها بالجزائر ، وانهم كانوا على اتصال باخوانهم في وهران ، تؤكد ما كنا لاحظناه في مطلع هذا الفصل مما يتعلق بأزمة تكوين الدولة الجزائرية ، وحركة تلمسان تؤكد أن طبقة الكراغلة ، كان من الممكن ، لو فتح لها المجال مبكراً أن تلعب نفس الدور الذي لعبته البورجوازية باروبا في القضاء على الاقطاع. لكن هذه الطبقة ليس فقط لم يتح لها المجال في الوقت اللازم لتسليم المناصب والمسؤوليات الإدارية والحكومية ، بل لقد تعرضت لضغط كبير دفعها إلى ثورة ، كان فشلها عاملاً آخر من عوامل ضعفها .

سياسة محمد بكير باشا :

بعد موت ابراهيم كوجوك تولى خطة الداي محمد بكير باشا،الذي كان خوجة الخيل.

وقد اشتهر بالذكاء ، وبهواية الأدب والعلم ، فقد كان هو نفسه أديباً . وقد اهتم قبل كل شيء بإعادة الأمن الى الداخل والقضاء على كل الاضطرابات ، وتطهير البلاد من قطاع الطرق الذين يكثرون في أزمة الفوضى والاضطراب . وقد شهد القنصل الفرنسي لهذا الداي بالحصانة في تدبير شؤون الجزائر فكتب يقول عنه :

« لم تعرف مدينة الجزائر مثل هذا الاستقرار قبلاً . فبوليسها الآن منظم مثل بوليس مدن اوربا . وهو ما لم يحدث في عهد أسلافه ، وعلى الاخص في عهد الداي الاخير » .

وقد عرف الداي محمد بكير كيف يمهد السلام مع الدول الاوربية في الخارج ، فيبدو من الاتفاقات التي أبرمها مع الدول الاوربية انه ضبط خطة ماهرة قرأت حساباً للحاضر والمستقبل ، ويبدو انه فهم ان نشاط الرياس الجزائريين ضد البواخر الاوربية سيؤدي حتماً مع طول الزمن ، الى أن تتوحد القوى الاوربية ضد الجزائر وتحطم قوتها العسكرية واسطولها البحري . وبناء على ذلك فلا بد من تعزيز الدفاع الجزائري. لكن كيف يمكن تعزيز الدفاع الجزائري ؟ ان الخزينة الجزائرية لا تستطيع ذلك بمفردها . اذن فليضرب عصفورين بحجر واحد، وليبرم السلم مع الدول الاوربية الصغيرة التي لا تنتظر من الجزائر الا اشارة بسيطة لتعرض عليها ما تريد مقابل توقف حملات الرياس الجزائريين .. ولكن ما تطلبه الجزائر من هذه الدول الصغيرة عبارة عن عتاد حربي .

هذه هي الخطة التي نستشفها من وراء استقراء المواقف التي اتخذها الداي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية . فقد وجهت الدنمارك للجزائر أربعين مدفعاً وعشرين الف قذيفة وستة آلاف قنبلة مدفعية وكمية هامة من مواد البناء .

وبعثت هولندا الى الجزائر بكميات هامة من البارود والرصاص والقذائف .

ووجه السويد الزفت ، والحبال والشراعات اللازمة لصنع البواخر ، وخمسمائة قنطار من البارود ، وعشرين الف قذيفة . وقد وقع ما توقعه الداي ، فقد قام البابا بمساع لدى بعض الدول الاروبية لشن حرب صليبية ضد الجزائر ، وسارعت مالطا والبندقية ، وجنوة وصقلية ببذل وعد المساهمة في هذه الحملة . وتقرر ان تنطلق الحملة الصليبية من

القاعدة الاسبانية بوهران ، وبدأت الامداد والذخائر الحربية ترد على وهران استعداداً لليوم الموعود .

وما ان سمع الداي بنبأ هـذه الاستعدادات ، حتى سارع يطلب من القسطنطينية ان تمده بالاعانات العسكرية اللازمة لصد هذا الهجوم الصليبي المتوقـع ، لكن القسطنطينية اجابته بأن عصيان الرياس الجزائريين والجيش التركي بالجزائر يتطلب درساً بليغاً يعلمهم عواقب عصيان الخلافة العثمانية . على ان القسطنطينية رغم ذلك وجهت بعض المدافع والرماة .

وتأكد الداي ان الجزائر أصبحت معرضة لخطر كبير ، فضاعف من الجهود المبذولة لتحصين البلاد ، وعمل في الوقت نفسه على توطيد السلام مع معظم الدول الاروبيـــة ، وعرف كيف يفرق كلمتها حتى لا تجتمع ضده .

وقد حاول الانكليز استغلال هذه الفرصة، لينتزعوا من الجزائر مراكز تجارية هامة، ووصلوا الى حد التهديد بالقوة ، لكن محمد بكير صمد في وجههم وذكّرهم بنتيجةالقطيعة الاخيرة التي حدثت بينهم وبين الجزائر والتي أسفرت عن خسارة بريطانيا لمائتين وخمسين باخرة تجارية . واعتبر الانكليز بما سبق ، ولم ينفذوا تهديدهم بشن الحرب .

وهكذا عرف محمد بكير بسياسته الماهرة التي تزاوج بين الاستعداد للمكروه وبـين دفعه ، كما تزاوج بين سياسة اللين والسلام وسياسة الصمود ورفض التنـازلات التي تمس بالسيادة — عرف بذلك كله كيف يجنب الجزائر اخطاراً ماحقة كانت تهددها في منتصف القرن الثامن عشر .

الا ان الجزائر لم تتمتع طويلاً بالثمرة التي حققتها سياسة محمد بكير الخارجية . ففي ليلة الثامن من سبتمبر ١٧٥٠ (شوال ١١٦٤ هـ) انفجر مخزن بارود كان يشتمل على الف وخمسمائة قنطار من البارود فحصد حصداً برج مولاي محمد والديار المجاورة له . وطلب الداي من الدانمارك والسويد تعويض الذخيرة التي ضاعت ، ففعلتا .

وفي ١٧٥٢ (١١٦٦ هـ) هجم على الجزائر وباء آخر استمر أربع سنوات، فانتشرت المجاعة من جديد ، ونجمت اضطرابات أدت الى مقتل محمد بكير .

ففي الحادي عشر من شهر ديسمبر ١٧٥٤ (صفر ١١٦٨ هـ) تظاهر جندي من أصل الباني اسمه وزان علي ، بتقبيل يد الداي ، وضربه بسيفه ضربات عديدة الى ان قتله .

وفي نفس الوقت كان المتآمرون مع وزان علي يقتلون الخزنادار وبعض الشخصيات البارزة في الدولة . وصعد وزان علي الى منصة العرش وراح يصيح : « انا هو الداي... سأضاعف لكم المرتبات » . في هذه اللحظة دخل خوجة الخيل على رأس النوبتجية وهجم على المتمردين . وحاول وزان علي الفرار فوجد الباب مغلقاً فعاد يجلس على العرش في انتظار ان يقتل . وقتل فعلاً . وكانت بجزرة رهيبة وتقول الاشاعات التي حول هذه القتلة انه تم انتخاب خمسة دايات قتلوا على التوالي، قبل ان تجتمع الاصوات على آغا الصبايحية علي ملمولي ، الذي توجه الجنود الى منزله في الريف وجاءوا به وبايعوه دايا .

علي ملمولي .

كان علي ملمولي من اصل متواضع : فقد اشتغل ، قبل ان ينخرط في الجيش ، حارس حيوانات ، ولم يكن يخفي مهنته الأصلية ، فقد كان يظهر اصبعاً له مقطوعة ويقول قطعها لي حيوان كنت أحرسه . ولذلك لقب بـ بوصباع .

وقد بدأ حكمه بالقاء القبض على كل المتآمرين الذين تمردوا في الحادي عشر من ديسمبر، واعدم بعضهم ، وجلد بعضهم الآخر حتى الموت . وقد واجه بنفس الصرامة والشدة تمرداً جديداً قام به بعض الضباط في الجيش، في شهر افريل سنة ١٧٥٥ (١١٦٨ هـ)، مما اثار عليه الجيش مرة اخرى في شهر سبتمبر من نفس السنة .

ولم تكن الوضعية ، داخل البلاد بأحسن منها في مدينة الجزائر : فقد استمرت الثورة التي شنها القبائل في العام السابق ، حتى تمكنوا من هزيمة وقتل باي تيطرى . كما ثار سكان تنس في وجه السلطة المركزية ، وحاربوا حرباً لا هوادة فيها قبل ان يستسلموا .

وفي أول نوفمبر ١٧٥٥ (١١٦٩ هـ) حدث زلزال رهيب استمر شهرين كاملين . وتقول روايات التاريخ ان احد الشهود اكد بأنه لم تبق هناك دار لم تتأثر بالزلزال . وكان هذا الزلزال مصحوباً ، كالعادة ، بالاضطرابات الاجتماعية التي تولدها الزلازل .

وفي عهد هذا الداي حدثت معارك بين باي قسنطينة وباي تونس ، وجه على أثرها الداي جيشاً من خمسة آلاف جندي إلى تونس ، فبدأ بالاستيلاء على الكاف ثم باجة ، ثم استولى على تونس العاصمة بعد حصار دام شهرين .

لكن ذلك لم يمنع استمرار الاضطرابات في داخل الجزائر ، ففي ١٦ جويلية ١٧٥٧م (شوال ١١٧٠ هـ) استولى القبائل على برج بوغني الذي حطموه اثر معركة عنيفة ، وفي شهر اوت هاجموا برج البويرة ، واستمرت القلاقل الى منتصف عام ١٧٥٧ م .

وكما كانت الوضعية مضطربة في الداخل ، كانت في الخارج . فاضطراب الوضع الداخلي جعل الداي عاجزاً عن اتخاذ مسؤوليته كما يجب ، واغتنم الرياس هذا العجز في مهاجمة البواخر الاجنبية في عرض البحار ، وعندما ترفع الدول صاحبة البواخر المتعرضة للهجوم الامر اليه يكتفي الداي بان يقول لممثليها . لا أستطيع شيئاً .

الباب الحادي عشر

ولاية محمد عثمان باشا

- العلاقات مع البلاد الاوربية .
- حرب الدانمارك .
- أسبانيا تشن حملات متوالية على العاصمة .
- اضطرابات داخلية وعواملها .
- الجلاء النهائي للاسبان عن وهران ومرسى الكبير .
- مقتل صالح باي .

محمد عثمان باشا

تعددت المؤامرات على بوصباع : فلا يكاد يخمد فتنة حتى تثور اخرى ، وفي بداية ١٧٦٥ (١١٧٨ هـ) القي القبض على أخيه آغا الصبايحية ، ووكيل الخرج ، (مسؤول البحرية) وأربعين تركياً ، ونفاهم الى أزمير ، بعد أن حجز ممتلكاتهم .

وقد اصيب الداي ، بمرض الزمه داره مدة عام توفي على اثره في الثاني من فبراير ١٧٦٦ م . (شعبان ١١٧٩ هـ) وقد حاول الجيش التركي التمرد عدة مرات ، خلال مرض الداي ، لكن صرامة محمد عثمان وضعت حداً لكل تمرد .

وقد اعجب الداي المريض بصرامة محمد عثمان ، فجمع وزراءه واوصاهم بولاية محمد عثمان . ولذلك بُويِعَ محمد عثمان باشا بالاجماع بمجرد موت علي بوصباع .

ويقال ان ارتقاء محمد عثمان باشا الى هذا المنصب كان وليد صدفة غريبة . ذلك انه كان جندياً بسيطاً عندما جاء ذات يوم مبعوث يطلبه لمقابلة الداي ، وكان الداي قد بعث في طلب شخص آخر اسمه محمد ايضاً ، ليكلفه بمهمة . وعندما لاحظ الداي انه ليس هو الشخص المطلوب ، شتمه وطرده .. ثم تساءل في نفسه وقال من يدري ، لعل هذا الخطأ يشتمل على الهام من الله ، فدعاه من جديد وعينه خوجة ، ثم رفعه بعد ذلك الى مرتبة الخزناجي .

وقد تبين بعد ذلك ان هذا الاختيار المتولد عن الصدفة كان اختياراً موفقاً . فقد اشتهر بالعدل والانصاف ، وبحسن التصرف في شؤون الحكم ، واجمعت كلمة المؤرخين على انه كان احسن داي على الاطلاق .

وقد استمر في الحكم خمساً وعشرين سنة ، على الرغم من المؤامرات العديدة التي فجرتها صرامته ، فبعد شهرين فقط من توليته ، حدث تمرد اول في الحادي عشر من ابريل ، واجهه الداي باعدام سبعة من المتآمرين ، وفر ثلاثون متآمراً الى بلاد القبائل .

وفي شهر جوان وقعت محاولة لاغتياله امام المسجد ، فاعدم شنقاً ثلاثة عشر متآمراً . وفي الثاني عشر من شهراوت عزل وكيل الحرج الذي اشتهر بالفساد وقبض الرشاوى ، ونفاه مع المتواطئين معه . وفي شهر اكتوبر من نفس السنة اعدم اربعة من الجنود في الوقت الذي كانوا ينادون فيه بالثورة ، لكن الجيش التركي كان قد تغلغل فيه داء التمرد وسرطان المؤامرات ، فلم تستطع صرامة محمد عثمان ان تشفيه من ذلك وظلت المؤامرات تتجدد الى نهاية حكمه .

العلاقات الخارجية مع بلاد اروبا :

اراد عثمان باشا ان يحافظ على السلم مع فرنسا وانكلترا ، ومع غيرهمـــا من البلاد الاوربية ، لكن الحاجة المستمرة الى سد عجز الخزينة ، دفعتـــه الى ان يزيد في الاتاوات المفروضة على الدانمارك والسويد وهولندا والبندقية وقـــد حاولت البندقية التخلص ، لكنها اضطرت بعد ذلك الى المفاهمة مع الداي . وحاولت هولندا ان تدفع هدايا اخرى غير الذخيرة الحربية المطلوبة منها ، فصدر الامر الى القوات الجزائرية بمنع بواخرها من الدخول الى ميناء الجزائر اذا كانت حمولتها شيئاً آخر غير الذخائر الحربية . وقد كانت السويد اول من استجاب لطلب الداي دون ابداء اية معارضة .

أما الدانمارك فقد حاولت أن تعارض ، ووجهة وحدات بحرية إلى ميناء الجزائر . أطلقت القذائف المدفعية على العاصمة ، لكن دون جدوى ، فاضطرت الى النزول عند رغبة الداي وأبرمت الصلح مع الجزائر في اوت ١٧٦٧ (ربيع الثاني ١٨٨١) وفي عام ١٧٦٩ تأخر الدانمارك عن دفع ما عليه : وحمى بعَلَمِه بواخر من هامبروغ ، فأشهر عليه محمد عثمان باشا الحرب . وبعد ذلك بحوالي عام ، في جويلية ١٧٧٠ ، رست بالجزائر اربع بواخر حربية دانماركية تحمل العلم الأبيض . فوجه اليها الداي قبطان الميناء ليقول لقائد الوحدات الدانماركية : إن كنت جئت بوصفك عدواً فنحن على استعداد لاستقبالك ، وتستطيع أن تشرع في ضرب الميناء في الحال ، وان كنت تريـــد التفاوض ، فلماذا استصحبت بواخر حربية ؟

فأجابه انضابط الدانماركي بأنه جاء يطلب الغنائم التي استحوز عليهـــا الرياس

الجزائريون في البواخر التي كانت تحمل العلم الدانماركي ، وانه يعلن حالة الحصار على ميناء الجزائر ، طالما لم تعد تلك الغنائم إلى أصحابها .

وشرعت المدفعية الدانماركية توجه قنابلها إلى العاصمة من يوم الخامس من جويلية إلى اليوم العاشر منه دون انقطاع . وبينما كانت البواخر الدانماركية توجه قنابلها ، إذ تمكنت بعض البواخر الجزائرية ، من الخروج من أمكنتها ودخلت معها في معركة ، ووقع ضرب شديد انتهى بهزيمة الدانماركيين وانسحابهم من الجزائر .

وقد استمرت حالة الحرب عامين آخرين مع الدانمارك وجدت هذه خلالها ان الخسائر التي تلحقها على يد الرياس الجزائريين أضعاف ما طلبه منها الداي . فوجهت في عام ١٧٧٢ الأميرال هوغلاند ، للتفاوض مع الداي. فطلب الداي مليونين ونصف مليون دورو ، وأربع مدافع من البرونز وأربعمائة قنبلة ، وأربعين مدفعاً من الحديد ، وخمسمائة قنطار من البارود وخمسين شراعاً كبيراً وما يلزمها من الحبال والخشب اللازم لصناعة البواخر ، ودفع ما تخلف في ذمة الدانمارك خلال سنوات الحرب هذه ، وفي مقابل هذا لا تعيد الجزائر شيئاً للدانمارك .

الحروب مع اسبانيا :

بعد الانتصار الذي أحرزه الداي على الدانمارك ، تفرغ لتحصين العاصمة حتى تثبت في وجه كل محاولة اوربية للاعتداء عليهـــا ، وكان يشرف بنفسه على الأشغال ويوزع الأموال على العمال القائمين باشغال التحصين تشجيعاً .

ووجه في نفس الوقت تعليمات واضحة ومحددة إلى البايات كي تكون جيوشهم دائماً على استعداد لخوض المعارك والتحرك لنجدة العاصمة لاول إشارة تصدر من الداي، وراح علماء الدين من مختلف الجهات يدعون الناس إلى الاستعداد للجهاد .

وفي هذا الوقت كانت اسبانيا تستعد استعداداً حثيثاً لخوض معركة فاصلة مع الجزائر، لان العصابات والهجومات المتكررة على قاعدتهـــا بوهران ، انهكت الجيش الاسباني ، وجعلت اسبانيا ترى انه لا مناص لها من احد حلين : ان تنسحب عن وهران أو تخضع العاصمة . واختارت الحل الثاني .

لذلك أمر شارل الثالث بجمع «عمارة» في قرطاجنة تضم ست بواخر حربية كبيرة وخمسمائة مركب ما بين متوسط وصغير لنقل اثنين وعشرين الفاً وستمائة جندي ، ومائة مدفع ، وعين دون بتروكاستخون قائداً للاسطول ، بينما كان الليوتنان جنرال اوراي يتولى قيادة الجيش . وتحركت الحملة من قرطاجنة في اسبانيا ، قاصدة الجزائر في يوم ٢٣ جوان ١٧٧٠ م (١١٨٤ هـ) فوصلت أمام العاصمة في غرة جويلية .

ولكم كانت دهشة الاسبان عظيمة عندما شاهدوا شواطىء العاصمة محصنة بالمدافع . فترددت القيادة الاسبانية طويلاً قبل ان يقع اختيارها على الطريقة التي تخوض بها غمار المعركة : هل تكتفي بقذف العاصمة أم تختار موقعاً بريا تنزل به وتزحف منه على العاصمة .

وقر رأيها اخيراً على الطريقة الثانية ، فنزل الجيش الاسباني غربي مصب نهر الحراش يوم ٨ جويلية . وتمكن الاسبان ، في ظرف أربع ساعات من انزال سبعة آلاف وسبعمائة جندي واثني عشر مدفعاً . لكن سرعان ما انتشر الخبر ، وقدمت فرق صالح باي فتحصنت بالكديات التي كانت تحف بالمكان، وراحت تصب نيرانها على المحتلين، ووجد الاسبان انهم وقعوا في فخ ، وان النيران تحصدهم حصداً دون ان يتمكنوا ، من أن يردوا عن انفسهم بدفاع. وحاول الاسبان أن يتسربوا الى كدية مرتفعة تبعد عن الشاطىء بنحو ستمائة متر ، لكن المنازل والمزارع التي تفصل بين تلك الكدية وبين موقع الاسبان في الشاطىء ، كان يخفي آلاف الرماة الذين منعوا الاسبان من الوصول إلى أعلى الكدية . وفي نفس الوقت كانت الجيوش الجزائرية تشدد الخناق على الجنود الاسبان من كل جهة . ووجد الجيش الاسباني نفسه واقعاً داخل حصار محكم في ظرف قليل ، بحيث خسر في أقل من خمس ساعات ١٩١ ضابطاً و ٢٠٨٨ جندياً . وفي الوقت الذي كان فيه عدد القتلى الاسبان يتضاعف من حين لآخر ، كانت صفوف المقاتلين الجزائريين تتضخم من حين لآخر بالامداد القادمة من كل مكان . لذلك قررت القيادة الاسبانية الانسحاب .

أحدثت هزيمة الاسبان ردود فعل متعددة : فقد فجرت حماس الشعراء ، وجنى الداي ثمار استعداده الطويل للمعركة إذ أنه لم يكد ينزل الاسبان حتى وجدوا في مواجهتهم جيشاً هاماً بقيادة صالح باي قسنطينة يعسكر في رأس ماتيفو ، وجيشاً ضخماً عسكر

بالمتيجة تحت قيادة باي القيطرى ، وجيشاً ثالثاً في القليعة بقيادة خليفة باي الغرب ، وعسكر آغا الصبايحية في باب الواد ، ووكيل الحرج في الميناء ، وجنود زواوة في رأس كاكسين ، وانتشر الرواة في كامل الشمال الافريقي يقصون أنباء الانتصار العظيم .

بعد هذه الهزيمة ، حاول شارل الثالث ، امبراطور اسبانيا ، تقديم تنازلات الى الجزائر ليتحصل على ابرام الصلح معها . لكن محمد عثمان باشا رفض العروض الاسبانية ، لانه كان متيقناً من سوء نية شارل الثالث ، فقد كان على علم بالمفاوضات التي كانت مدريد تجريها في ذلك الوقت نفسه مع جنوة ونابولي ومالطة وليفورن لحملهم على المساهمة في الحملة الصليبية ضد الجزائر ، التي كان يدعو اليها البابا بيوس السادس والتي كان من المقرر أن تتم عام ١٧٨٠ لولا الهزيمة التي مني بها الاسطول الاسباني في ميناء « قاضي » امام الاسطول الانكليزي .

ومن الجدير بالتسجيل ان محمد عثمان باشا لم يتضعضع أمام الاستعدادات العسكرية التي كان ينظمها الغرب ضده ، بل انه قد أبدى نشاطاً متزايداً وبنى اثني عشر مركباً حربياً جديداً . وصنع أيضاً مائة زورق لحمل المدافع المخصصة للدفاع عن الميناء ، وعمل على تدريب اكبر عدد ممكن من الجنود على اساليب الدفاع الحربي الجديد ، وقد بذل الداي كل هذا المجهود وسط مجاعة شديدة كانت منتشرة في البلاد بسبب حملة الجراد خلال عامي ١٧٧٨ و ١٧٧٩ .

* * *

في الوقت الذي كان فيه محمد عثمان باشا متفرغاً للاعدادات العسكرية ينظم الدفاع ضد الحملة الاسبانية المتوقعة ، كانت اسبانيا قد احرزت انتصاراً حربياً كبيراً ضد الاسطول الانكليزى في ميورقة . وقد أضعفت هذه المعركة بالاضافة الى حرب الاستقلال الاميركية موقف بريطانيا الى درجة ان الداي رفض مقابلة القنصل الانكليزي وأمر بطرده من الجزائر في جانفي ١٧٨٣ (١١٩٧ هـ) .

شعرت اسبانيا بأن موقفها قد تعزز بهذا الانتصار ، فابرمت الصلح مع الخلافة العثمانية ، وطلبت من القسطنطينية ان تتدخل لدى الجزائر كي تحملها على ابرام الصلح

مع اسبانيا . وكان في حساب شارل الثالث الاسباني ان هذا الانتصار مضافاً الى تدخل الخليفة العثماني سيجعل الداي مستعداً للتفاهم معها .

وقد استجابت القسطنطينية لمطلب اسبانيا فوجهت قايجي مبعوثاً للتفاوض مع الداي لفائدة اسبانيا ، لكن محمد عثمان باشا رفض وقال ما معناه : انه يعرف ان شارل الثالث بصدد اعداد عمارة حربية ضخمة ضد الجزائر وانه – اي الداي – لا يريد التفاهم مع اسبانيا حتى لا يظهر في مظهر الخائف .

كبر على اسبانيا ان تتلقى هذه الصفعة من الجزائر ، وهي في أوج زهوها بانتصارها على الانكليز . فوجهت في الثالث عشر من جويلية ١٧٨٣ م (شعبان ١١٩٧ هـ) ، اسطولاً بقيادة دون انتونيوبارسولو يضم أربع بواخر كبيرة ، وست مراكب حربية ، واثني عشر شباك ، وعشر زوارق ، وأربعين لنجورا (اى زورقاً) مزودة بالمدافع والمهازر (أي المورتي) . وبدأت الوحدات الاسبانية في مهاجمة العاصمة يوم أول أوت. واستمرت تطلق قذائف مدفعيتها الى اليوم التاسع من نفس الشهر ، وهو اليوم الذي انسحبت فيه بعد أن نفدت ذخيرتها .

وكان الرياس الجزائريون ، قبل ذلك ، وابتدأ من اليوم الرابع من اوت ، قد خرجوا لمقاومة الاسطول الاسباني وأجبروه على التقهقر بحيث لم يكن لهجوماته الاخيرة أدنى مفعول . وقد ألقى الاسبان خلال الحملة بثلاثة آلاف وسبعمائة واثنين وخمسين قنبلة مدفعية ، وثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاث وثلاثين من « الكور » . وقد وصف القنصل الفرنسي بالجزائر في ذلك العهد ، هذا الهجوم في مذكرة وجه بها إلى حكومته ، جاء فيها على الأخص ما يلي :

« وصل الاسطول الاسباني إلى مياه الجزائر في ٢٩ جويلية وبدأ الاسبان باطلاق النيران يوم أول أوت ، على الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولم يدم الهجوم الأول إلا نحو ساعة وربع ، لكن الجزائريين كانوا هم آخر من توقف عن الضرب .. وقد سمح الداي ، عندما شاهد مفعول القنابل – سمح للسكان بالانسحاب عن مدينة الجزائر . وقد سقطت عدة قنابل على قصر الداي والجهات القريبة منه ، بحيث وجد انه من الأليق له اللجوء

إلى قصر القصبة ، وفي يوم ٢ اوت ابتدأ الهجوم الثاني في منتصف النهار، وفي يوم ٤ اوت ابتدأ الهجوم الثالث على السادسة صباحاً ، وقد كان الهجوم الثالث والخامس رهيباً ، اما الهجومات الاربع الأخيرة فقد كانت عبارة عن لعب لان القذائف كلها كانت تسقط في البحر (طبقاً لما أوردناه من أن الرياس أجبروا الاسطول الاسباني على الانسحاب) .

وقد انسحب الاسطول في يوم ٩ أوت » .

أما عن الخسائر التي لحقته بالعاصمة ، فيصفهـــا القنصل الفرنسي في نفس المذكرة قائلاً :

« اصيب أكثر من أربعمائة ما بين منزل ومتجر ومسجد وقبـــة وبنايات أخرى باضرار متفاوتة . ومن بين المنازل الاثني عشر التي تحتلها فرنسا اصيب ثمانيـــة ، وقد اشتعلت النار في منزل قنصل السويد .. لكن الذي يبعث على اعتزاز الحكومـــة (الجزائرية) هو أن الحصون البحرية لم تمس إلا بإضرار تافهة .. ويقول الجزائريون ان عدد الأموات في الميناء لم يتجاوز مائة .

وقد كان هناك ثلاثمائة من العبيد يستخدمون في اشغال الميناء ، لكن لم يصب واحد منهم بأذى . أما الجزائريون الذين كانت نيرانهم حادة فقد أطلقوا مـــا بين اثنتي عشر وخمس عشرة الف طلقة مدفعية ..

« .. ولم يفقد الجزائريون الشجاعة ، بل ضاعفوا مجهوداتهم حتى لا يكون للهجوم الثاني نفس مفعول الهجوم الأول . »

وباختصار ان هذه الحملة لم تحقق النتيجة التي كانت تعلقها عليها اسبانيا . وقد كان الداي قبل ذلك قد وجه الى مختلف الاوطان (أي المقاطعات) يطلب منهـــا المدد ، بحيث حل بضواحي العاصمة ، قبل هذا الهجوم بشهر واحد، خمس وعشرون الف جندي قدموا من قسنطينة ، وعشرون الف من معسكر ، وخمسة آلاف من التيطرى .

ولم يكد الاسطول الاسباني ينسحب حتى وقع الشروع في الترميمات بنشاط كبير ، لان الداي كان يتوقع تجديد الكرة من طرف الاسبان ، وبنى الجزائريون حصناً جديداً

لا تؤثر فيه ضربات القنابل ، ووضعت زوارق مزودة بالمهازر في مدخل الميناء للدفاع عنه ، وقد وجهت كل من هولندا والسويد والقسطنطينية الذخائر التي كانت الجزائر في حاجة اليها . وقد تمت الترميمات والاصلاحات بسرعة كبيرة ، بحيث وجد دون انتونيودي بارسولو ، عندما رجع بعد ذلك بعام ، في ٩ جويلية ١٧٨٤ (١١٩٨ هـ) لمهاجمة الجزائر — وجد امامه مدينة الجزائر « وكأنها لم تتعرض لادنى هجوم ، ولم تلحقها ادنى خسارة » .

وكان الاسطول الاسباني ، هذه المرة ، يشتمل على مائة وثلاثين مركباً حربياً مختلفة الاحجام . والملاحظ ان كلا من نابولي ومالطا ساهمت في هذه الحملة الثالثة بمراكبها . لقد كانت حملة صليبية حقيقية شجعها البابا وباركها . ابتدأ اطلاق النار على الجزائر في الثاني عشر من جويلية على الساعة الثامنة صباحاً .

لكن الزوارق الجزائرية المزودة بالمدافع سارعت بالخروج الى البحر وراحت تطلق قذائفها على وحدات العدو فاجبرتها على الانسحاب ، واستمر الرياس الجزائريون يخوضون غمار المعركة في البحر ، الى ٢١ جويلية . وفي مساء هذا اليوم عقد الاميرال الاسباني مجلساً حربياً طالب فيه بشن هجوم عام على الميناء وعلى المدينة . لكن اعضاء المجلس الحربي عارضوه بالاجماع ، وطالبوا بالانسحاب فوراً . وانسحب الاسطول الاسباني بالفعل مساء الثالث والعشرين من جويلية . وقد علق دي غرامون على فشل هذا الهجوم بقوله :

« انه امر جدير بالاهتمام ، ان تفشل امة لم تنقصها الخصال العسكرية في كل هجوماتها ضد الجزائر ، رغم ما جندته من قوات اكثر من الكفاية » .

* * *

بعد هذه الهزيمة عرضت اسبانيا من جديد الصلح على الجزائر . وقبلت الجزائر ، لكنها اشترطت لذلك شروطاً عديدة في مقدمتها جلاء اسبانيا من وهران ومرسى الكبير . واستمرت المفاوضات عاماً كاملاً اضطرت اسبانيا في نهايتها الى النزول عند الشروط الجزائرية .

الوضع الداخلي :

اما فيما يتعلق بالوضع الداخلي خلال حكم محمد عثمان باشا ، فقد تميز بعصيان سكان جبل فليسة الذين رفضوا دفع الضرائب ، فوجه لهم الداي فرقة عسكرية منيت بالهزيمة وكان ذلك عام ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) .

فوجه لهم الداي ، في العام الموالي بقيادة خوجة الخيل اربعة الآف بولداش واثني عشر الف جندي من التيطرى وعزز باي قسنطينة هذا الهجوم بسيره نحو سطيف .ومني الجيش النظامي مرة اخرى بهزيمة كبيرة، ولاحق الثوار فلول الجيش النظامي الى ابواب العاصمة ، ثم انتشروا في المتيجة واراضي الساحل يقطعون الطرق وينهبون قوافل القمح، مما تسبب في انتشار مجاعة رهيبة . وكان ذلك مثار سخط تسبب في ست محاولات لاغتيال الداي .

وفي عام ١٧٦٩ وجه الداي حملة اخرى ضد الثوار لكنه هذه المرة اصدر الأوامر الى قادته العسكريين بأن لا يتوغلوا في الجبل. ويكتفوا باحتلال أهم المواقع ومحاصرة الثوار. وقد أسفرت هذه الخطة عن نتيجة ايجابية بالنسبة الى الحكم ، إذ ان المحاصرة تسببت في قطع التموين عن الثوار ، فانتشر في صفوفهم الجوع ودب بينهم الخلاف . لكن هذه الحرب الاهلية استمرت مع ذلك سبع سنوات ، من ١٧٦٧ الى ١٧٧٤ .

وفي شهر جويلية ١٧٧٢ (١١٨٦ هـ) طلب سكان جبال البليدة ويسر السلم . وفي عام ١٧٧٣ تمكن باي قسنطينة من اخماد اضطرابات الحضنة . وقد تغذت هذه الاضطرابات بعنصر جديد في ١٧٦٨ نلخصه فيما يلي :

في ١٧٦٨ اشترت اسبانيا اسراها من الجزائر ، مقابل اطلاق سراح الجزائريين الذين كانوا اسرى في اسبانيا .

وكانت هذه أول مرة يحدث فيها تبادل الاسرى بين اسبانيا والجزائر ، ذلك ان العداوة الدينية القديمة بين اسبانيا والاسلام، كانت تحمل اسبانيا على معارضة اطلاق سراح كل الاسرى المسلمين حتى لا تكون قد أعطت الاسلام قوة .

ونجم عن هذا الوضع ، أن كل الجزائريين الذين يقعون في اسر الاسبان ، يعتبرهم

أهلوهم في حكم المفقودين او الأموات فيورثون كما لو كانوا قد ماتوا فعلاً .

وعندما تم اطلاق سراح الاسرى الجزائريين لأول مرة ، ومعظمهم من الاتراك سكان العاصمة ، لم يجدوا شيئاً من أرزاقهم إذ كانت قد قسمت بمقتضى الارث . فسخط هؤلاء الاسرى الذين اطلق سراحهم ، وانضموا الى الثوار العصاة وراحوا يساهمون في عمليات النهب .

* * *

وبعد انتهاء الحرب الاهلية في ١٧٧٤ ، عرفت الجزائر فترة من الهدوء والاستقرار لم تدم طويلاً ، فعلى الرغم من أن الغنائم التي جلبها الرياس بلغت قيمتها اثني عشر مليوناً خلال الثمانية أشهر الاولى من عام ١٧٨٦ ، فان السكان عرفوا فترة جديدة من البؤس بسبب قلة المحصول الزراعي ، وعلى الأخص بسبب الوباء الذي عرفته العاصمة في ١٧٨٧ ، متسبباً في نحو سبعة عشر الف ضحية ، وبلغ الوباء إلى وهران التي لم تجد العدد الكافي من العمال اللازمين للقيام بالحصاد .

وقد جرت العادة أن يوجد دائماً من يحاول استغلال الاضطرابات في تنظيم مؤامرات ضد الداي، وقد بلغ إلى علم محمد عثمان باشا ان الخزناجي دبر مؤامرة ضده، فجمع الديوان، وأبلغه الخبر وحكم باعدامه .

وفي عام ١٧٩٠ م . (١٢٠٥ هـ) نظم القبائل ثورة اخرى ، فتوجه لهم آغا الصبايحية ووضع حداً لثورتهم التي استمرت عاماً كاملاً .

وفي الثاني عشر من جويلية ١٧٩١ (ذو القعدة ١٢٠٥ هـ) ، توفي محمد عثمان باشا ، فخلفه حسن الذي كان قد رشحه ، وبادر حسن بأخذ احتياطه فالقى القبض على آغا الصبايحية الذي كان ينافسه في خلافة محمد عثمان ، وحجز أملاكه ونفاه الى القلعة ، حيث عثر عليه مذبوحاً بعد ذلك .

الجلاء النهائي للقوات الاسبانية :

رأينا في الفصل السابق ان الصلح الذي ابرم بين اسبانيا والجزائر عام ١٧٨٥ كان ينص على جلاء القوات الاسبانية عن وهران ومرسى الكبير . لكن الاسبان تلكأوا في

الجلاء على أمل أن يساوموا به ليأخذوا مقابله امتيـــازات تجارية . لكن الحكومـــة الجزائرية رفضت ذلك لانها كانت تدرك ان الاسبان لم تكن لهم طاقـة على تحمل متاعب واعبـــاء الاحتلال العسكري لمرسى الكبير ووهران ، لان الجزائريين كانوا يحاربونهم باستمرار ويقطعون عليهم طرق التموين ، بحيث بلغت تكاليف احتلال هاتين القاعدتين اربعة ملايين والف جندي قتيل في كل سنة .

وقد ازدادت وضعية القاعدة الاسبانية تدهوراً عندمـا حاصر باي الغرب ابراهـيم وهران في نهاية ١٧٧٥ م (نهاية ١١٨٩ هـ) وهو حصار واصله خلفه خليل الذي تمكن في شهر اكتوبر ١٧٧٧ (رمضان ١١٩١ هـ) من الزحف الى الحصون الاسبانية وراح يستفز الجنود الاسبان للمعركة . وفي ١٤ سبتمبر ١٧٨٠ م (رمضان ١١٩٤) فعل محمـد بن عثمان نفس الشيء ، وخرب المسالك المائية التي تمون المدينة . وقد توصل الجزائريون في ١٨٨٤م (١١٩٩ هـ) الى رفـع علمهم فوق القصر الاحمر ، وفي الوقت الذي كانت تجري فيـــه المفاوضات مع الاسبان حول الجلاء . وبينما كان الاسبان يساومون بالجلاء من اجل الحصول على امتيازات تجارية ، اذ حدث في الليلة ما بين ٨ و ٩ اكتوبر ١٧٩٠ زلزال رهيب قوض المنازل والبناءات العسكرية ، واشتعلت النار في الباخرة الاسبانية « بريانت » التي كانت مزودة بأربعة وسبعين مدفعاً ، ولا يستبعد ان يكون الجزائريون قد وضعوا فيها النار ، وقد استمرت الهزات الارضية الى الثـاني والعشرين من نوفمبر . لكن الزلازل لم تمنـــع الجزائريين من مواصلة الحصار ، بل لقد تمكنوا خلال هذه المدة من احـــداث ثلمات في الاسوار ، ونشبت معارك ومناوشات ، بعث على أثرها قائد الحامية الاسبانية الى اسبانيا يطلب الامداد . وأرسل باي الغرب ، محمد بن عثمان الى الجزائر العاصمـــة يطلب المدد بدوره . لكن الامداد الاسبانية وصلت في اوائل ١٧٩١ .

اما « الوجاق » فقد أمسك عن بعث الامداد الى محمـد بن عثمان ، لانه كان يعرف من جهة ان القاعدة الاسبانية هناك مآلها السقوط بصفة أو باخرى ، ولانه كان من جهـــة اخرى متخوفاً من مطامح محمـــد بن عثمان ، فلم يرسل اليه بالمدد خشية ان يكسبه ذلك شعبية كبيرة تخدم مطامحه وتغذيها . ولكن محمد بن عثمان واصل حرب العصابات ضـــد الاسبان الى منتصف صيف ١٧٩١ .

وكانت الحكومة الاسبانية خلال هذه الفترة قد اقتنعت ان استمرار هـــذه المعارك يكلفها غالياً : لانها اما ان تصمد مهما كان الثمن ، وذلك يضطرها الى ارسال مزيـد من الامداد والقوات . والى اعادة بناء الحصون التي أصابها التخريب وناالها الهدم ، واما ان تنهزم فيكون ذلك ضربة قاصمة لها في كامل حوض البحر الابيض المتوسط . وقد رأت الحكومة الاسبانية ان تنهج طريقاً ثالثة في الحل ، فوجهت سفارة الى الداي في افريـل ١٧٩١ تعرض عليه التخلي عن القاعدة العسكرية مقابل منحها مركزاً تجارياً في وهران . لكن الداي رفض – وكان حينذاك هو محمد عثمان باشا – .

وأعاد شارل الرابع بعث سفارة اخرى في شهر سبتمبر من نفس العـام على امل ان يتحصل من حسان باشا على ما لم يتحصل عليه من سلفه. فوافق حسان باشا على منح الاسبان مركزاً تجارياً في جمعة الغزوات . وعلى هذا الاساس ابتدأ الجلاء في ١٧ ديسمبر ١٧٩١ . ولم يتم الا في شهر مارس ١٧٩٢ .

وقد كلف هذا الجلاء اسبانيا ثمناً غالياً ، لان الجزائر اشترطت عليها دفع مبلغ سنوي قدره مائة وعشرون الف جنيه استرليني ، كما اشترطت عليها ان تعيد من قرطاجنـة (باسبانيا) الى الجزائر كل المدافع التي كانت لها بوهران والتي حملتها معهـــا ، واشترط عليها الداي ايضاً ان تتولى بعثة اسبانية حمل مفتاحين ذهبيين يمثلان مفاتيح وهران ، الى السلطان العثماني وقلتين مملوءتين بماء عيون وهران . ونفذت اسبانيا كل هذه الشروط ، وتلقى حسان باشا من القسطنطينية ، قفطان الباشوية اثر ذلك .

مقتل صالح باي

بعد ان تحصل حسان باشا على قفطان الباشوية ، أراد أن يتخلص من منافسيه ، وقد رأينا منذ قليل ان منافسه في منصب الداي ، آغا الصبايحية ، عثر عليه مقتولاً .

وقد شاعت حينذاك معلومات لا يستطيع الانسان الآن التأكد من صحتها أو زيفها، مفادها أن باي تيطرى ، وباي قسنطينة من أنصار آغـا الصبايحية المقتول . لذلك صمم حسان باشا على التخلص من باي تيطرى مصطفى الوزناجي، بمجرد ما يقدم هذا الى العاصمة ليدفع الدنوش . لكن مصطفى الورناجي عندما قدم إلى الجزائر ، في ٢٩ أفريل ١٧٩٢ اخبر بأن الشواش يبحثون عنه ، فخاف على نفسه والتجأ إلى ضريح أحد الاولياء ، فعين

الداي مكانه محمد الدباح .

أما باي قسنطينة فلم يكن سهلاً على الداي ان يتخلص منه بنفس السهولة .

ويقدم نقيب أشراف الجزائر في مذكراته عن محمد عثمان باشا، رواية اخرى وتفسيراً آخر لتصميم حسان باشا على التخلص من صالح باي . وملخص روايتـه ان صالح باي ، عندما قدم في إحدى زياراته إلى العاصمة عـلى الداي محمد عثمان باشا ، سأله عن سبب تعامله مع المراكز التجارية الفرنسية رغم أن التعليمات التي صدرت من الداي تقضي بخلاف ذلك ، فاستظهر صالح باي له بتعليمات كتابية وردت عليه من الخزناجي يأمر فيه صالح باي بأن يترك الوسق حراً لمن بيده كتاب منه (أي من الخزناجي) .

فأثار هذا التدخل من الخزناجي في شؤون يعتبرها الداي من اختصاصه ، وحكم بمقتل الخزناجي .

وبعد ذلك أمر الداي بتعيـين حسن وكيل الحرج في منصب الخزناجي وأولى على برغل الخزندار وكيلاً للحرج . ويقول نقيب الاشراف أن كلا من هذين كانا متزوجـين بابنتي الخزناجي المقتول ، اللتين عرفتا أن صالح باي هو المتسبب في مقتل أبيهما .

وعندما تقلد حسن خطة الداي حرضته زوجته على قتل صالح باي .

ذلك هو ملخص التفسير الذي يقدمه نقيب الاشراف . والواقع أنه لا يكفي وحده لتفسير الحادثة .

فالمؤرخون يجمعون على أن صالح باي قد برهن على أنه رجل حرب كما أقام الدليـل على أنه رجل يعرف تدبير شؤون الحكم ، وخبير بأمور الادارة . فاذا أضيفت هـذه الخصال إلى المدة التي قضاها بايا لقسنطينة وهي إحدى وعشرون سنة ، استطعنا أن نتصور بسهولة مبلغ النفوذ والسلطان الذي تحصل عليه صالح باي ، فإذا اضيف إلى ذلك أن الشرق الجزائري الذي كان يقع تحت نفوذه هو أوسع المقاطعات وأهمها استطعنا أن نتصور مخاوف الداي من قوة هذا الباي الذى لا يستبعد – أي الداي – في ظل ظروف مثل تلك الظروف ، أن تدفع تلك القوة صالح باي إلى التفكير في الانفصال عن العاصمة

والاستقلال بالشرف الجزائري ؛ والذى لا شك فيه هو أن الداي اتصل بمعلومات أو وشايات تحذره من صالح باي ولا شك أن تلك الوشايات لم تدعم الحجج التي تقدمها للداي : مثل التحصينات التي أقامها صالح باي بقسنطينة . فيكفي أن يقال للداي أن الهدف من تلك التحصينات هو تمكين قسنطينة من الدفاع عن نفسها عندما تقرر الانفصال عن الجزائر ، لتثور مخاوف الداي وتتضخم ويسارع بإقصاء صالح باي عن منصبه . وهو ما حدث فعلاً .

وهناك احتمال آخر ، يخطر على البال ، وإن لم أعثر له عند المؤرخين الذين قرأت لهم على ذكر : وهو أن حسن باشا خشي من أن يؤدي طغيان نفوذ صالح باي ويدفعه إلى التفكير في احتلال منصب الداي وضم الجزائر كلها تحت سلطته . وهذا الاحتمال الذي نسوقه هنا ليس مجرد نظرية لا تعتمد على أدنى استنتاج ، بل هي تستند إلى ملاحظات أساسية .

أولاً – ان صالح باي هو أول باي اتسع نطاق شهرته وفاض على حدود المقاطعة التي كان مكلفاً بادارتها .

ثانياً – الاتصالات التي أجراها صالح باي مع باي وهران عندما اجتمع به على أبواب العاصمة لدفع الهجوم الاسباني الذي تحدثنا عنه .

ثالثاً – تصرف صالح باي في مدة ولايته تصرف «الجزائري» الذي يفكر في نطاق جزائري ومنطلقاً من اعتبارات جزائرية ، ولم يكن تصرفه تصرف التركي او المحترف (فهو من مواليد مدينة ازمير) الذي لا يهمه الا الجاه والنفوذ ، وبعبارة اخرى ان صالح باي اندمج في المجتمع الذي كلف بسياسته إلى درجة أن ذلك المجتمع أصبح يعتبره من أبنائه ، **لأنه كان احسن من عكس** مشاعر الجماهير وعرف كيف يعبر عنها .

رابعاً – المجهودات التي بذلها في تحقيق الوحدة الوطنية أعانت على ترشيحه في أعين كثيرين لمنصب الداي .

نعم قد يقال انه لم تجر العادة في نظام الوجاق ، أن يتقلد خطة الداي مسؤول محلي ، حتى ولو كان بايا .

لكن هذا الاعتراض لا يثبت عندما نوضح أن تفكير صالح باي في تقلد خطة الداي ،

كان يمثل بالضبط – لو وقع – عملية انقلابية في نظام الحكم المركزي الجزائري ، وكان يعد هو نقطة التحول التي كانت ستسجل ذوبان طائفة من الطبقـــة الحاكمة في الشعب الجزائري وانصهارها معه .

ولعل محمد عثمان باشا لم يشعر بالحاجة الى التخلص من صالح باي ، لأن شخصية محمد عثمان باشا كانت بدورها شخصية عظيمة ، أما حسن باشا فقد كان يشعر ان صالح باي يستطيع بما لديه من سلطان ونفوذ وسمعة وهيبة ، أن يزحف ، في مناسبة من المناسبات ، على العاصمة ويحقق ذلك التحول الانقلابي الذي كان سيضع حداً نهائياً للوضعية التي كانت عليها الجزائر ، والتي لم تكن تبعية مطلقة للقسطنطينية ولم تكن استقلالاً تاماً عنها .

ويرجح هذا الاستنتاج ، ما يستروحه الباحث في بعض المناسبات ، خلال عهـــد الدايات ، من تعبير الحكم المركزي بالجزائر عن المصلحة العامة للجزائر كوطن اكثر من التعبير عن مصلحة الباب العالي .

* * *

ومهما يكن من شيء ففي الثامن من اوت ١٧٩٢ م (ذو الحجة ١٢٠٦) عين الداي قايد سباو ، ابراهيم بوصباع ، بايا لقسنطينة . ولم يكن في نية صالح باي أن يقاوم الامر الصادر من الجزائر ، وعزم فقط على أن يفر بنفسه وكنوزه إلى عنابة ليبحر منهـا إلى الخارج . لكن حراسته الخاصة من الاتراك والجزائريين منعوه ، وقتلوا الباي الجديد . وصلت أنباء الحادثة إلى العاصمة في الثالث والعشرين من أوت (اوائل عام ١٢٠٧) فأمر الداي في الحال بتعيين ابن بو حنك مكانه ، ووجهه إلى قسنطينة على رأس جيش وضع تحت قيادة وكيل الحرج ، وآغا الصبايحية الجديد . وصدر الامر إلى الحامية التركيـــة بقسنطينة أن تمتثل في الحال لامر السلطة المركزية. وامتثل الجنود الاتراك للأمر واستولوا على صالح باي وقتلوه شنقاً . وعادت الفرق التي أرسلت – عادت إلى الجزائر محملة باثني عشر مليون من الذهب وبكنوز يقال انها كانت تقارب ما كان في خزينة الدولة بالعاصمة أو تزيد عنها .

* * *

وهكذا خسرت الجزائر ، بمقتل صالح باي ، قائـداً محنكاً من احسن قادتها الذين

جمعوا بين حسن السياسة والخبرة الحربية ، فيكفي التذكير بالمعارك التي ساهم فيها صالح باي لرد العدوان الاجنبي عن العاصمة وعن الحكم المركزي ، ويكفي التذكير بالنصيب الذي قام به في القضاء على الاضطرابات الداخلية ، ويكفي التذكير بمجهوداته في الجنوب عندما نجح في ضم قسم هام منه ، وعلى الاخص الاغواط وبلاد ميزاب وتقرت وجبال عمور ، وبالدور الذي قام به في الحد من نفوذ مشائخ الطرق بالجنوب — يكفي التذكير بكل هذه المجهودات ، لنتبين قيمة الرجل ، ومبلغ ما اسداه في سبيل تحقيق وحدة الجزائر .

ان الاعمال البارزة التي قام بها صالح باي شاهدة على انه لم يكن رجل ثورات وحركات تمردية ، بل تؤكد انه كان رجلاً يعمل في نطاق الحكم المركزي ، ويحترمه .

ولئن كان تصميم حسن باشا على ازاحة صالح باي وخلعه ، يدل على تخوف الداي من كل حركة انفصالية ، وعلى حرص الحكم المركزي على المحافظة على الوحدة الوطنية ، ولئن كان حسن باشا قد قصد قبل كل شيء الى التوقي ضد مكروه متوقع ، فان الاضطرابات والقلاقل التي ادى اليها خلع صالح باي ، قد قضت على جانب من الاستقرار الذي حققه صالح باي ، واحيت من جديد بذور الشك في الحكم المركزي من طرف المسؤولين المحليين ، الذين اصبحوا يحرصون على كسب رضا السلطة المركزية بمختلف الوسائل ، مهملين شؤون الحكم المحلي وما يتطلبه من انجازات ومهام .

ومعنى ذلك بعبارة ادق ان التحول الذي كان سيحدث عاجلاً لو نجح صالح باي في بسط نفوذه على كامل الجزائر ، والذي كان سيتم بصفة تدريجية لو لم يعقه الاحتلال الفرنسي — قد اصيب بنكسة بسبب عزل صالح باي ومقتله ، وعادت الى الظهور اساليب ومشاعر والوان من التفكير كانت بصدد الانقراض ، ولسنا نبالغ عندما نقول ان هذه النكسة كانت من بين العوامل النفسية والاجتماعية التي اعانت على ايجاد بعض الظروف الملائمة للاحتلال الفرنسي .

الباب الثاني عشر

ثورة وطنية

- سيطرة بوشناق وبوخريص على التجارة الجزائرية .
- القسطنطينية تلح في اعلان الحرب على فرنسا .
- مقتل بوشناق وبوخريص .
- تسليم المركز التجاري الى الانكليز .
- استمرار الاضطرابات الداخلية .
- ضعف الاسطول الجزائري .
- مؤتمر فيينا وخطة الانكليز .
- التحول الى القصبة .
- مؤتمر ايكس لاشابيل .

سيطرة بوشناق وبوخريص على التجارة الجزائرية

تطور الصراع بين فرنسا وبريطانيا ، خلال السنوات الماضية ، تطوراً كبيراً بفعل التحولات التي طرأت بفرنسا . وقد ظهرت نتائج هـــذا التطور في الصراع بين البلدين الاوربيين على الأسواق والمراكز التجارية في المغرب العربي- ظهرت في علاقات كل واحد من البلدين مع الجزائر ، وتسببت في إثارة حوادث داخل الجزائر أثرت على الوحـــدة الوطنية الناشئة ، ذلك ان حسان باشا كان قد ابدى ميله إلى فرنسا دون انكلترا ، إلى درجة انه أقرض فرنسا في عهد الديريكتوار ، قرضاً مبلغه خمسة ملايين فرنك (بحساب ذلك العهد) دون فائدة .

وقد لعب رؤوس التجار اليهود في الجزائر دورا كبيراً في هذا الصراع بين انكلترا وفرنسا . ذلك ان التجار اليهود الذين قدموا من اوربا في بداية عهد الدايات ، عرفوا كيف يستغلون المصاعب المالية التي كانت تواجه الدايات أحياناً في الحصول على احتكار التجارة لفائدتهم – وقـــد كان رأسا هذه الطائفة هما نفطالي بوشناق ويوسف بوخريص .

وقد عرف هذان اليهوديان كيف يستحوذان على ثقة حسان باشا ، إذ انهما استغلا شبكاتهما التجارية بداخل البلاد في اقتناء مختلف المعلومات السياسيـــة ، أي ان شبكاتهما التجارية كانت في نفس الوقت شبكات جوسسة مكنتهما من الاطلاع في الابان على بعض المشاريع والمؤامرات السياسية التي قـــد تنظم في الخفاء ، كما مكنتهما من الاطلاع على خفايا البايات ومناوراتهم ، وبواسطة إبلاغهم هذه المعلومات الى الداي ، تمكنـــا من الاستحواذ على ثقته ، وأصبحـــا يملكان بين أيديهما عزل وتعيين البايات ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى ، أنهما أصبحا يسيطران على الجهاز الاداري الجزائري بأكمله ويتحكمان في تكييفه حسب شهوتهما ومصالحهما .

وقصة الوزناجي تكشف عن نوع الأساليب التي كانا يستعملانها في تعزيز مصالحهما وثروتهما . في سنة ١٧٩٢ عندما احتمى الوزناجي بضريح أحد الأولياء بعد سماعه بأن شواش الدّاي يبحثون عنه ، اتصل به بوشناق وزوده بالغذاء وطمأنه ، وأقرضه مبلغاً مالياً كبيراً ، وسعى لدى الداي كي يتحصل على عفوه لفائدة مصطفى الوزناجي .

ولا شك أن بوشناق نفسه هو الذي سعى بعد ذلك بعامين لدى الداي ، كي يعين الوزناجي في منصب باي قسنطينة ، وهو ما تم فعلاً عام ١٧٩٤ . وقد بادر بوشناق إلى مطالبة باي قسنطينة الجديد بالثمن ، فسيطر على تجارة القمح بكامل الشرق الجزائري ، ولم يعد في استطاعة أي أحد أن يشتري القمح من مقاطعة قسنطينة دون رضا بوشناق .

هذه الخطوة التي نالها اليهوديان ، جعلت الانكليز يلجأون اليهما كي يتدخلا لدى الداي من أجل أن يمنع عن فرنسا القموح التي كانت في أشد الحاجة اليها ، وقد أقنع الانكليز اليهوديين بأن الحلف الأوربي ضد فرنسا الجمهورية سيحطمها ، لذلك ساير بوشناق وبوخريص الانكليز . لكن عدم رجحان الانتصار بصفة حاسمة لفائدة أحد الجانبين جعل كلا من بوشناق وبوخريص يحاول اللعب على حبلين بين فرنسا وانكلترا . وفي فترة من فترات تلونهما لفائدة فرنسا تحصلا مع الداي على السماح بتزويد فرنسا بالقموح التي كانت من بين الأسباب المباشرة التي تذرعت بها فرنسا لتبرير حملة الاحتلال .

بعد أن فشلت محاولة الانكليز في تجويع فرنسا بواسطة منع القمح الجزائري عنها ، كلفت الحكومة الانكليزية قنصلها في الجزائر ، بأن يعمل بكل ثمن على إبرام معاهدة صلح بين البرتغال والجزائر . وهدف الانكليز من وراء ابرام هذه المعاهدة بين البرتغال والجزائر ، هو تمكين بواخر الرياس الجزائريين من عبور المضيق بكل سهولة ، لمضايقة البواخر الأميركية التي تحمل الحبوب إلى الموانىء الفرنسية في مقاطعة بروطانيا وبحر المانش .

وأدرك القنصل الفرنسي الغرض الكامن وراء مسعى القنصل الإنكليزي ، فسارع

بدوره يتدخل عند الداي لحمله على إبرام معاهدة صلح مع اميركا .

وقد خرق البرتغال بعد ذلك معاهـــدة الصلح ، فتوترت العلاقات بين الجزائر وانكلترا ، لأن الدّاي حمّل الانكليز تبعة هذا الخرق .

وباختصار ، ان المؤرخين يجمعون على ان بوشناق وبوخريص لعبـــا دوراً كبيراً في تذبذب السياسة الخارجية الجزائرية ، وتأرجحها بين عدة احلاف ، من غير ان تكون خاضعة لخط سياسي واضح .

لكن دور بوشناق وبو خريص لم يكن قاصراً على الميدان الخارجي ، فقـــد ادت تدخلاتها في شؤون الادارة الداخلية الى احداث عدة هزات كان من نتيجتها ان تسرب الوهن الى الوحدة الوطنية . فقد كثرت في عهـــدهما وبسببهما قرارات العزل والولاية ففي التيطري القي القبض على محمد الدباح بعد عامين من الحـــكم وعوض في ١٧٩٤ بابراهيم البورصالي الذي سجن بدوره في سجن شرشال عـــام ١٧٩٧ . وفي قسنطينة القي القبض على خلف صالح باي ، حسن بن بوحنك ، في نوفمبر ١٧٩٤ م . (١٢٠٩ هـ) وعين مكانه الوزناجي الذي اعدم عند عودته من تونس في ديسمبر ١٧٩٧ (رجب ١٢١٢هـ). فعين مكانه انكليز باي . والباي الوحيد الذي لم يتناوله العزل هو محمد بن عـثمان ، باي الغرب ، لكنه مات فجأة عند عودته من الجزائر في ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) ويقال انـه مات مسموماً .

ان هذا الاضطراب الذي طبع الادارة الجزائرية بسبب تدخلات بوشناق وبوخريص لم يكن وليد الصدفة ، بل ان سياسة التغير الدائم للبايات ، كان الهدف منهـــا — في نظر اليهوديين — هو تمكين خزينة الداي من الحصول على مكاسب واموال جديدة ، لان كل باي يعزل او يوقف تحجز املاكه ، وبهذه الطريقة يصرفان الداي عن مطالبتهما بدفع ما كانا يجمعانه من ثروات .

وقد اصبحت هذه السياسة التي املاهـــا بوخريص وبوشناق على حسان باشا هي السياسة المتبعة . فعندما مات حسان باشا ، وتولى مكانه مصطفى باشا (الخزناجي) في اوائل ١٧٩٨ (شعبان ١٢١٢ هـ) سلك الداي الجديد نفس السياسة فخلع باي التيطرى

عام ١٨٠١ ، وباي قسنطينة عام ١٨٠٣ ، وجرد ابن محمد بن عثمان الكبير ، من كل املاكه عام ١٨٠٠ .

القسطنطينية تلح في اعلان الحرب على فرنسا

في هذه الاثناء لم ييأس الانكليز من امكانية اضرام نار الحرب بين فرنسا والجزائر . ولما فشلوا في ذلك عن طريق مساعي قنصلهم في الجزائر ، حاولوا ان يحققوا مبتغاهم عن طريق مساعي سفيرهم في القسنطيطينية . وقد استغل الانكليز احتلال الفرنسيين لمصر وما انجز عنه من اعلان الباب العالي للحرب على فرنسا — في دفع القسطنطينية الى مطالبة الجزائر باعلان الحرب على فرنسا . لكن الجزائر رفضت ؛ وصدر اليها امر ثان من القسطنطينية في نفس المعنى في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٨٠٠ (شعبان ١٢١٥ هـ) ورفضت الجزائر ثانية . فوجهت القسطنطينية مبعوثا خاصاً في التاسع عشر من ديسمبر يطالب بضرورة شن الحرب على فرنسا ، ونشب نقاش حاد بين مصطفى باشا ومبعوث القسطنطينية ، فاضطرت الجزائر اخيراً الى اعلان الحرب على فرنسا في الرابع العشرين من جانفي عام ١٨٠١ (شوال ١٢١٥ هـ) . لكن مصطفى باشا اتصل مع ذلك بالقنصل الفرنسي ومنحه الوقت اللازم لتمكين الفرنسيين من مغادرة الجزائر مستصحبين معهم اموالهم ، واخبر مصطفى باشا القنصل الفرنسي انه اضطر اضطراراً الى اعلان الحرب على فرنسا . لكن هذه الحرب لم تطل ، اذ ابرمت معاهدة صلح بين الجزائر وفرنسا في ١٨ ديسمبر ١٨٠١ (شعبان ١٢١٦ هـ) .

ان رفض الجزائر اعلان الحرب على فرنسا رغم أوامر الباب العالي ، يجسم ذلك التطور الذي كنا أشرنا الى بدايته ، والذي يتمثل في تقديم الداي لمصلحة الجزائر على مصلحة الخلافة العثمانية ، فالداي بحكم جواره وقربه من فرنسا وبحكم خبرته لقوتها ، يعرف انه لن يستفيد شيئاً من اعلان الحرب عليها ، ويعرف ان استمرار استغلال التناقضات القائمة بين البلاد الاروبية أضمن من قلب الاحلاف الذي قد يؤدي الى تكوين جبهة متحدة اروبية ضد الجزائر ، وآنذاك قد لا تتدخل القسطنطينية لفائدة الجزائر ، عندما تكون مصالحها في المشرق وفي اروبا الشرقية مضمونة .

ولذلك ما استتب السلم بين فرنسا والباب العالي ، حتى عمل مصطفى باشا على كسب ود فرنسا على حساب الانكليز ، فطرد قنصلهم ، في الوقت الذي قدم فيه ترضيات الى الحكومة الفرنسية التي طالبت بمعاقبة بعض الرياس الجزائريين الذين هاجموا بواخر فرنسية.

وكبر على انكلترا ان تذهب كل مساعيها الماضية سدى ، فحاولت ان تهدد الجزائر بالقوة ، وتوجه الاسطول الانكليزي فعلاً بقيادة الاميرال نلسون الى الجزائر مرتين ، لكن تمسك الداي بموقفه أزاء الانكليز اضطر الاسطول الانكليزي في آخر الامر الى الانسحاب دون معركة ، ان الانكليز فضلوا طريقة اخرى لاثارة المصاعب في وجه الداي ، سنرى تفاصيلها فيما بعد .

مقتل بوشناق وبوخريص

في هذه الفترة كثرت أعمال الاحتكار في القمح والحبوب من طرف بوخريص وبوشناق، فارتفعت الاسعار وانتشرت المجاعة ، كل ذلك والدّاي ساكت على أعمال بوخريص وبوشناق لانه كان يتقاسم معهما الأرباح .

وقد بدأت مختلف الأحاديث تروج في الشوارع عن سيطرة بوشناق وبوخريص على الباشا وتحكمهما في امور الدولة . ولو أنّ بوشناق وبوخريص لم يتدخلا في شؤون الدولة. والادارة الداخلية للبلاد لما ثارت ضدهما ثورة ، لكن كثرة تدخلهما في الشؤون الادارية ألّب ضدهما المسؤولين المحليين والرأي العام . واجمع كل الناس على ضرورة القضاء على نفوذهما ، فالرأي العام ، حملها تبعة انتشار المجاعة ، والبايات أخذوا عليهما تدخلهما في أوامر العزل والخلع والسجن وحجز الاموال ، وأصحاب الحظوة من الأتراك في العاصمة، أخذوا عليهما احتلالهما لمكانة يرون انها موقوفة على الاتراك دون غيرهم . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الوضع هي قيام حركة ضد اليهوديين ، وضد الداي الذي ربط مصيره بهما .

وهو ما حدث فعلاً .

ففي أواخر جوان ١٨٠٥ (ربيع الأول ١٢٢٠) : بينما بوشناق خارجاً من قصر

الجنينة صباحاً ، إذ هجم عليه جندي تركي وقتله بعد ان ناداه بـ « ملك الجزائر » . وعندما سارع نوبجية القصر ، الى مكان الحادث ، شاهرين سيوفهم قال لهم الجندي : « لقد قتلت اليهودي ، فهل انتم كلاب اليهودي ؟ » حينذا أخلوا سبيله ، وتوجه الجندي الى الثكنة ، فحمله اليولداش على الاكتاف وراحوا يتدافعون من أجل تقبيل اليد التي خلصتهم من اليهودي .

بلغ النبأ إلى مصطفى باشا فخاف على نفسه ، وخشي أن تتحول الثورة على اليهوديين إلى ثورة ضده ، فبعث بالامان الى الجندي قاتل بوشناق .

لكن ما ان انتشر النبأ في المدينة ، حتى انفجر السخط الذي كان مكبوتاً ، وراح السكان على اختلاف طبقاتهم يبحثون عن اليهود لقتلهم .

امام هذا الانفجار ، لم يسع الداي إلا أن يوزع الذهب يميناً وشمالاً لينقذ رأسه ، ونفى إلى تونس عدداً من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة ، ووعد فرقة اليولداش بأنه لن يقبل في المستقبل يهودياً واحداً في قصر الجنينة .

لكن شيئاً من ذلك لم يفده ، فقد أعلن اليولداش أحمد خوجة الخيل السابق دايا ، لان بوشناق كان تسبب في عزله . ورخص مصطفى باشا للجنود في نهب المدينة على أمل ان يحققوا طلبه في السماع له بالايجار متوجهاً الى المشرق ، لكن الجنود رفضوا مطلبه ، وقتلوه ، ثم سحبوا جثته امام باب عزون .

وقد كان بوخريص حينذاك في عنابة ، مهتماً بتصدير الحبوب ، فنجا من القتل .

لكنه لم يتعظ من تلك الحوادث واستمر يتدخل في شؤون الدولة ، الى درجة انه تدخل بعد ذلك بسنوات لدى الباب العالي من أجل الحصول على خلع الداي حاج علي ، فوشى به منافسه اليهودي ابن ثابت ، فقطعت رأسه امام الجنينة ، بامر من الديوان ، في اوائل فيفري ١٨١١ م (ربيع الاول ١٢٢٦ هـ) .

ثورة وطنية عامة :

بعد مبايعة احمد خوجة دايا ، لم يستتب الامن بسرعة ، بل استمرت الاضطرابات

حوالي شهر كامل ، ذلك ان آغا اليولداش كان يطمع في ان يكون دايـا ، فراح يغذي الاضطرابات على امل ان يستفيد منهـا في نهاية الأمر . وحاول استمالة الجنود وسكان العاصمة بان بذل لهم وعدا بتنظيم عملية قتل جديدة ضد اليهود . وقد اضطر الداي امام استمرار الاضطرابات ، الى القاء القبض عليه وقتله ، وبعد ذلك بدأ الهدوء يعود تدريجياً الى البلاد .

بدأ احمد داى بمعالجة الشؤون الداخلية التي كانت في أوج الاضطراب . ولـكي نفهم بعض العناصر الهامة في الاضطرابات التي كانت منتشرة حينذاك ، يجب ان نرجع قليلاً الى الوراء .

في سنة ١٨٠٠ كلف محمد بن الاحرش مقدم مولاي العربي الدرقاوي الذي ينتمي الى الطريقة الشاذلية ، بقيادة وفد من الحجيج المغاربة الى مكة . عندما وصل المغاربـة الى مصر في الطريق الى مكة ، وجدوها محتلة من طرف الفرنسيين . فساهموا في المعارك التي نظمت لاجلاء الفرنسيين عن مصر . وفي المعركة ضد الفرنسيين لمع اسم محمد بن الاحرش ، مما لفت اليه نظر بعض القادة الانـكليز الذين اتصلوا به على امل ان يستخدموه في المغرب العربي ويجب ان نتذكر في هذا المجال ، فشل المحاولات التي كان قام بهـا الانـكليز ازاء الداي لاثارته ضد فرنسا .

اتصل الانـكليز بمحمد بن الاحرش الذي اشتهر باسم «الشريف» وحملته باخرة انـكليزية الى عنابة ، وطلب منه الانـكليز ان يثير اضطرابات وقـلاقل في البلاد ، ولا شك ان الانـكليز أقنعوا ابن الاحرش بان الداي متواطىء مع فرنسا ، وان الحرب ضده اذن واجب ديني وجهاد . وفي نفس الوقت روج الأنـكليز أخبـار مفادها ان ابن الاحرش يعمل لحساب الفرنسيين ، فيضربون عصفورين بحجر واحد .

ذهب ابن الاحرش الى قسنطينة حينذاك تحت ولاية عثمان باي الذي كان قد انتهى من القضاء على ثورة نشبت بالنمامشة اثر الثورة التي كان قام بها الحنانشة والتي قضى عليهـا سلفه انكليز باي .

اتصل ابن الأحرش بإخوان طريقته في قسنطينة ، وكوّن منهم جهازاً سرياً يكون

على استعداد لمساندته عندما يزحف على المدينـــة . وبعد ذلك توجه إلى جبال الشمال القسنطيني ، واستطاع في مدة قصيرة نسبياً أن يجمع قوات هامة احتل بها مدينتي جيجل والقل ، ومن مدينة جيجل التي اتخذها مقراً له اعلن الجهاد ، واستولى في القالة على ستة بواخر فرنسية كما أسر الفرنسيين الذين كانوا موجودين بها للبحث عن المرجان ، ثم بنى حصناً في وادي زهور .

وفي هذا الوقت كان عبد الله الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية قد ثار في بلدة رجاس ، واتصل مع ابن الاحرش وعرض عليه توحيد قواتهما والاستيلاء على قسنطينة .

وتوحدت قوتا الرجلين وسارتا في اتجاه قسنطينة قوة واحدة تضم ستين الف مقاتل نهبوا ضواحي المدينة . وكان الباي عثمان متغيباً آنذاك من عاصمته ، إذ ذهب إلى نواحي سطيف والجنوب لجلب المغارم والمشور. وقد فوجيء نواب الباي أول الأمر بهذا الهجوم ففروا ، لكن ابن الاحرش طاردهم في طريق ميلة واضطرهم إلى خوض معركة كانت نتيجتها وبالاً على الثوار ، إذ قتل منهم خلق كثير ، وجرح ابن الأحرش ، ففروا ، لكن عثمان باي الذي كان يسمع النبأ ، حث السير اليهم وأدركهم عند واد القطن ، شمال شرقي ميلة ، والحق بصفوفهم خسائر فادحة .

انسحب ابن الأحرش إلى حصنه يداوي جراحـه ، بينما اتصل عثمان باي بتعليمات وأوامر من الجزائر تأمره بان لا يتوقف عن الحرب ضد ابن الأحرش إلى أن يقطع رأسه . فسار عثمان باي على رأس قوة هامة ، والتقى بقوات ابن الأحرش في بني فرقان قرب الميلية ، ونشبت المعركة حادة في وادي زهور ، وآنذاك ارتكب عثمان باي خطأ حربياً إذ دخل المعركة فور ملاقاته لقوات ابن الأحرش دون أن ينظم صفوفه ، ولا شك انـــه استخف بقوات ابن الأحرش التي اشتهرت بقلة النظام ، ودفع ثمن هذا الخطأ هزيمة شنعاء أودت بحياته . فاتعظ عبد الله باي ، خلفه بذلك ، وعرف كيف يواجـــه قوات ابن الأحرش فانتصر عليه في ميلة ، وشتت صفوفه . وفي نفس الوقت كان الرايس حميدو يحتل مدينة جيجل ويسلط عقاباً شديداً على الذين تعاونوا مع ابن الأحرش .

اعتصم ابن الأحرش بجبال الشمال القسنطيني ثم حاول اثارة القبائل المجاورة لبجاية ،

كما حاول الاستيلاء على مدينة بجاية ، لكن دون جدوى . بل لقـــد حدثت ردود فعل عنيفة ضده ، ذلك انه بعد أن نجح في اثارة سكان الحضنة ، اصطدم بمقاومة آل المقراني الذين هزموه . فالتجأ بعد ذلك إلى ناحية فليتة ، بين وادي مينة ووادي جديوية ، وقتل في احدى المعارك . وبعد مقتله حاول محمد بن عبد الله الذي يقول انـــه ابن الأخ ابن الاحرش أن ينظم ثورة جديدة ، لكن مصطفى باي تتبعـــه وحاصره حصاراً شديداً فحرمه من كل تموين . وبعد أربع سنوات من المعارك الجزئية قتل في كمين نصبـــه مي أمقران .

ولم يكن غرب الجزائر باكثر هدوءاً من شرقه ، ذلك ان استيلاء الداي السابق على املاك عثمان باي المغرب ، بعد عزله ، كان قد أثار سخطاً كبيراً اغتنمه احد الدرقاويين في اضرام نار الحرب ضد الأتراك ، وقد رحب السكان بالثوار الدرقاويين في كل مكان ، وفتحوا لهم أبواب كل مدن الداخل بعد أن قتلوا الحاميات التركية . وكانت ثورة عامة في الغرب الجزائري من مليانة الى تلمسان ضد الوجاق الذي لم يبق له علم قائم الا في مستغانم ووهران ومرسي الكبير .

رأى الداي ان الباي الذي عينه خلفاً لعثمان أظهر عجزاً كبيراً ، فاضطر الى ان يعين مكانه محمد المكلش ، شقيق عثمان وابن محمد باي الكبير ، واضطر الباى الجديد الى ان يسلك طريق البحر الى وهران ، لان كل المسالك البرية كانت بأيدي الثوار . واجـه محمد المكلش الوضعية بحزم ، واضطر الى ان يدافع عن كل شبر من مقاطعته ، ونجح في آخر الأمر بعد معارك دامت اربع سنوات ، وتمكن من قتل قائد الثوار الدرقاوي الذي اشتهر باسم « ابن الشريف » على أبواب معسكر . ووجه آلاف الرؤوس الى الجزائـــر بعد ان استعاد تلمسان التي اباحها للنهب .

وقد استطاع هذا الباي أن يحرز على اعجاب السكان واعجاب الجنود الأتراك في آن واحد ، اذ استطاع مواجهة وضعية ميئوس منها ، وقلبها رأساً على عقب لصالحه وصالح الوجاق . لكن هذا الانتصار الذي أحرزه والسمعة التي كسبهـــا من ورائه ، كان هو بالضبط السبب الذي أودى بحياته . ذلك انه وجد – كما هو الشأن دائمـــاً – من آثار

مخاوف الداي احمد من محمد المكلش . فوجه الداي الآغا عمر لاجراء تحقيق كانت نتيجته معروفة مسبقاً ، فقد قتل بعد ان عذب تعذيباً شديداً لحمله على الاعتراف بالمكان الذي خبأ فيه كنوزه .

* * *

وهناك لا بد من ان نقف وقفة قصيرة عند هذه الحركات والثورات التي اندلعت كلها في وقت واحد تقريبـــاً وعمت أهم مناطق الجزائر . فليس من الممكن ان يكون ذلك مجرد صدفة . وليس يهمنا هنا أن نبحث عن وجود أيد أجنبية وراء هذه الحركات ، لان الايدي الأجنبية ان كانت تفسر نقطة الانطلاق لحركة واحدة فانها لا تفسر انطلاق كل الحركات وسرعة الانتشار لها جميعاً ... سرعة الانتشار التي تدل على وجـود استعداد مسبق للقيام بهذه الثورات لدى الاوساط الشعبية .

ولسنا نستطيع أن نفهم المحرك الداخلي لهذه الثورات اذا لم نربطه بالزوايا التي تبنته. ان تبني الزوايا لهذه الثورات يدل على ان لها قاعدة دينية ، والقاعدة الدينيـة الوحيدة التي من شأنها ان تجند الجماهير الشعبية في الجزائر ضد حكم الاتراك الذين هم مسلمون مثـل الجزائريين ، هي قاعدة المساواة الاسلامية التي تتنافى مع التمييز الذي فرضه الاتراك في الجزائر متحكمين في رقاب اخوانهم المسلمين كما يتحكمون في رقاب الذميين . بل ان الاتراك لم يتوقفوا — في نظر مسؤولي الزوايا — عند هذا الحد ، فتواطئوا مـــع التجار اليهود وممثلي المصالح الاوربية الاجنبية ، فكل ذلك قد جعـل الثورة في نظر الزوايا ، شرعية ضد الأتراك ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان هذه الثورات كانت في مجموعها تقدمية لانها كانت تهدف من جهة الى اقرار مساواة تجسم في الواقع وجود أمة كاملة لافضل فيها لطبقة على اخرى ، ولانها من جهة اخرى كانت تحارب محاولات السيطرة الاجنبية على الاقتصاد الجزائري .

وهذا لا ينفي وجود زوايا اخرى كان لها منطلق رجعي ، لا تقدمي .

العلاقات مع الدول الاوربية :

في هذه المدة ، ظلت العلاقات مع الدول الاوربية يسيرها نفس المنطـق السابق ،

محاولة الحصول على اكبر قسط ممكن من الموارد المالية . على هذا الاساس رفض الداي عرضاً تقدم به البرتغال لابرام السلم مع الجزائر ، على ان يدفع للخزينة خمسين الف بياستر سنوياً طيلة احدى وعشرين سنة ، وطلب الداي لابرام السلم مليوني بياستر في الحال . وفي عام ١٨٠٧ تحصل الداي من اسبانيا على مبلغ مالي قدره اثنا عشر الف ، ومن بريطانيا على عشرة الآف ، ومن الولايات المتحدة الاميركية على مائة الف ، ومن هولندا على اربعين الفاً ، ومن النمسا على خمسين الفاً .

وقد اراد الداي ان يفرض على فرنسا دفع مبلغ مماثل للجزائر ، فرفض ممثلها . آنذاك سلم الداي المركز التجاري الفرنسي في القالة الى الانكليز مقابل خمسين الف بياستر سنويا .

لكن باي قسنطينة ، عبد الله ، تدخل لدى الداي من اجل اعادة المراكز التجارية الى فرنسا . فغضب الداي لهذا التدخل وحكم بقتله ، كما اتهمه بالتواطىء مع باي تونس .

استمرار الاضطرابات الداخلية

ذلك ان الداي احمد طلب من باي تونس ان يدفع ضريبة التبعية للجزائر وان يتخلى عن اعتبار طبرقة خاضعة لسيادته . وبعد محادلات لتحقيق المفاهمة اندلعت الحرب ، وسار الكاهية سليمان الى قسنطينة على رأس خمسين الف تونسي ، وهزم باي قسنطينة الجديد ، حسين بن صالح ، الذي فر الى جميلة . فنصب التونسيون حصاراً على قسنطينة وراحوا يقذفون المدينة من اعالي المنصورة بمدافعهم طيلة ثلاثين يوماً . لكن سكان المدينة ، دافعوا عن انفسهم دفاعاً شديداً رغم تخلي الباي .

اما القوات التي وجهتها العاصمة لانجاد قسنطينة قد تعطلت في الطريق بعض الشيء ، بسبب ثورة قبائل فليسة التي قطعت عليها الطريق . فاضطر قائد العدد ، آغا الصبايحية ان يتفاوض مع الثوار ويتفق معهم ، وحدث الاتفاق وانضم ثوار فليسة الى الأتراك وساروا جميعاً لفك الحصار عن قسنطينة . عندما سمع سليمان بقدوم الامداد ، رفع

الحصار وعسكر في بو مرزوق ، ونشبت معركة دامت ثلاثة ايام اسفرت عن هزيمة سليمان هزيمة ماحقة . آنذاك سارت القوات التركية والجزائرية الى تونس بقيادة حسين ابن صالح الذي اخطأ عندما اراد محاصرة الكاف رغم ما تتمتع به من دفاع قوي . يضاف الى ذلك ان الفلاحين الذين كان يتركب منهم قسم هام من الجيش ، فضلوا العودة الى اراضيهم للقيام بالحصاد .

لذلك انهزم الاتراك هزيمة شنعاء عندما نشبت المعركة في العاشر من جويلية عام ١٨٠٧ وشتت شمل الجنود الاتراك . فبعضهم انضم الى الجيش التونسي والبعض الآخر بقي بقسنطينة ، والذين عادوا الى العاصمة ، حكم الداي بشنقهم في باب عنابة ، كما حكم باعدام باي قسنطينة المهزوم .

عين الداي بايا جديداً هو علي باي الذي سار على رأس جيش جديد ضد تونس . وعندما وصل علي باي الى معسكر وادي الرمال اغتاله أحد الجنود اسمه أحمد شاوش وأعلن نفسه بايا لقسنطينة ، وكتب الى باي تونس ، حمودة باشا يَعْرِضُ عليه التعاقد معه ضد الجزائر . واجتازت قسنطينة فترة من الاضطراب والفوضى استمرت خمسة عشر يوماً ، حطمت خلالها صناديق الخزينة ، ووزعت الأموال على الجنود توزيعاً ، وابيح لهم نهب المدينة .

ولم تتنفس قسنطينة إلا عند مقدم الباي الجديد أحمد طبال ، الذي حث السير إلى قسنطينة ، فقتل أحمد شاوش وسلط عقاباً شديداً على الذين تعاونوا معه .

بعد انتصاب الباي أحمد طبال في قسنطينة ، ثار الجنود الاتراك بالجزائر على الداي أحمد وقتلوه في نوفمبر ١٨٠٨ وعينوا مكانه علي الفسال الذى كان غسالاً للموتى — كما يدل على ذلك اسمه قبل أن يصبح خوجة . ويبدو أن الجنود لم يغفروا للداي أحمد سلسلة الهزائم التي لحقت بهم في عهده .

لكن عهد علي الفسال كان عبارة عن اضطرابات متواصلة . ولذلك لم يدم إلا بضعة أشهر .

وقد انقسم الجنود اليولداش إلى قسمين بعد انتخابهم علي الفسال دايا : ذلك أنهم

طالبوا بتوزيع أموال خزينة الدولة عليهم ، فأجابهم علي الغسال بأن لهم الحق في ذلك، لكن يجب بعد ذلك أن يخرجوا من الجندية نظراً لعدم تمكن الداي من دفع مرتباتهم .

آنذاك عقد الجنود مجلس الديوان ، وناقشوا مسألة تنظيم نهب المدينة كحلّ لمطالب بعضهم. وقد كاد يتم الاتفاق على هذا الحل لولا أن الجنود الأتراك المتزوجين والذين كانت لهم أملاك عارضوا في ذلك ، وهددوا بتنظيم المقاومة مع سكان العاصمة . فتبودلت الشتائم وألوان السباب ، لكن المطالبين بالنهب تراجعوا عن خوض معركة يعرفون مسبقاً أنهم خاسروها . وانقسمت المدينة إلى قسمين ، كل واحد منهما يتوقع أن يكون عرضة من حين لآخر لهجوم من طرف الآخر ، وبعد أيام من ذلك الاجتماع ،وجه المطالبون بالنهب وفداً للداي يطالبونه بأن يبيح لهم نهب المدينة . فقال للوفد : لكم ذلك ، لكن يجب أن تتفقوا حتى لا تقع فتنة ، كما يجب أن تنظموا النهب تنظيماً ، داراً داراً ، وان تجمعوا حصيلة النهب التي ستوزع بعد ذلك توزيعاً عادلاً على الجنود .

في هذه الأثناء عادت مَحَلَّةُ وهران التي ضخمت صفوف المعارضين للنهب ، وعسكرت في الثكنة الخضراء تحت قيادة عمر آغا. وهناك عقد المعارضون للنهب اجتماعاً تقرر فيه قتل علي الغسال .

وفعلاً فقد هجموا في السابع من فيفري ١٨٠٩ على قصر علي الغسال وأرادوا إجباره على أن ينتحر بالسُّمّ . فرفض محتجاً بأن الدين يمنعه من ذلك ، فقتلوه شنقاً ، وعرضوا على عمر آغا أن يبايعوه دايا . لكن عمر آغا رفض ، فبويع خوجة الخيل ، حاج علي .

أظهر حاج علي ، تعطشاً غريباً للدماء ، تجاوز به ما عرف عن معظم الدايات : فقد كان يعدم لأتفه الغلطات ، وقد أمر بإعدام أحمد طبال باي قسنطينة لأنه باع القمح لليهود ، وأثار إعدام أحمد طبال سكان الشرق الجزائري .

وفي عهد حاج علي رجعت القلاقل بين تونس والجزائر ، وأخذ القرصان من الفريقين يعملون في البحر : فسار الرايس حميدو إلى تونس وقهر الاسطول التونسي عند مرسى سوسة وضبط سفينة أمير البحر التونسي ، محمد المورالي .

وقد أراد حاج علي الاستعانة بباي الغرب محمد بوكابوس في معركة ضد باي تونس ، فرفض بوكابوس السير إلى قتال التونسيين محتجاً بأنه لا يريد مخالفة أوامر السلطان العثماني. وقرر الداي أن يخوض المعركة ضد بوكابوس فعزله ، ولكن بوكابوس ثار ، ونشبت معركة قتل فيها بوكابوس ووجه أثرها جلده إلى العاصمة بعد أن حشي تبناً .

وقد استمرت الحرب مع تونس ، وسار الجيش التونسي إلى قسنطينة كما سار الجيش الجزائري إلى تونس وفشل كل منهما في احتلال بايلك الآخر . وكان الباب العالي قد حاول عدة مرات أن يتدخل لاقرار السلم بين تونس والجزائر . لكن حاج علي أجاب في إحدى المرات مبعوث السلطان العثماني قائلاً : لا نتلقى أوامر من أحد ، فنحن هنا سادة في مملكتنا . لكن السلطان محمود كان حازماً،فأرسل إلى حاج علي يعلمه انه سيرسل اسطوله إلى الجزائر لتأديب كل من تحدثه نفسه على الثورة في وجه السلطان . فخضع حاج علي ، واستتب السلم بين تونس والجزائر .

إلا أن الهدوء لم يستقر في الداخل فقد عمت الثورة فيما بين سطيف والمدية الى بوسعادة والاغواط بسبب المجازر التي ارتكبها محمد شاكر باي قسنطينة ورغم هذه الاضطرابات الداخلية فلم يتردد الداي في اعلان الحرب على الولايات المتحدة الأميركية وفي سجن قنصلها .

في هذه الأثناء راجت خرافة ـ لا شك ان الجواسيس الفرنسيين هم الذين روجوها ـ مفادها ان احد الأولياء خرج من ضريحه بالقليعة ، وتنبأ بقدوم الكفار ولعن الداي . وراح الداي يعاقب كل من يروج هذه الأنباء ، ومع ذلك فقد استمرت تتناقلها الألسن . وأخيراً قرر الجنود الأتراك أن يتخلصوا من الداي ، فأوعزوا إلى شاب زنجي يثق فيه الداي ثقة عمياء ، ان يقتله . فقتله الزنجي الذي قتل بعده فوراً، فاعلن تنصيب الخزناجي محمد الذي قتل بعد توليته بأقل من شهر ، لأنه أراد ادخال نظام مالي جديد ، وعرض منصب الداي مرة اخرى على عمر آغا الذي اضطر هذه المرة إلى قبوله .

ضعف الاسطول الجزائري

بعد ان عين عمر باشا دايا ، وصل الجزائر القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل الذي عينته

قرنسا في هذا المنصب للمرة الثانية . لكن الداي رفض قبول القنصل الا اذا اعطى له جواباً صريحاً فيما يتصل بالديون التي في ذمة فرنسا لبوخريص . فتعلل القنصل بضرورة مراجعة باريس ، لكن تعليمات باريس لم تصل ، لأن سقوط نابليون الاول ادى الى تعويض القنصل ديبواتانفيل بآخر هو ديفال . وسنرى فيما بعد الدور الذي لعبه هذا القنصل في تهيئة وتبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر .

ومهما يكن من شيء ، فان عهد عمر باشا هو الذي يجسم ذلك التحول الذي بدأ في الواقع قبل هذا الوقت بكثير ، لكنه لم يظهر قبل عهد عمر باشا بمثل هذا الوضوح .

والتحول الذي نشير اليه الآن هو ضعف القوة البحرية الجزائرية ، وتكتل دول اوروبا واميريكا ضد الجزائر ، وغير ذلك من العوامل التي سبقت مباشرة الاحتلال الفرنسي للجزائر .

فبعد شهرين من ولاية الداي عمر وجهت اميركا جزءا من اسطولها الى الجزائر ، رداً على اعلان الحرب من طراف الداي السابق وكان الاسطول الاميركي يحمل مطالب معينة تتلخص في اطلاق سراح الاسرى الاميركان ، وفي الغاء المعلوم الذي الفت اميركا دفعه الى الجزائر .

اصدر عمر باشا الامر الى الرايس حميدو بمواجهة هذه القوة البحرية الاميركية التي انتسبت المعركة ضده في الحال ، وواجهها الرايس حميدو بشجاعة ، وراح يواجه المعركة بباخرته الوحيدة الى ان استشهد في السابع عشر من جوان عام ١٨١٥ .

آنذاك لم يجد الداي بدا من ان يتفاهم مع الاميركان ، ويبرم معاهدة مع الولايات المتحدة الاميركية في السابع من جويلية ١٨١٥ .

بعد ذلك بقليل ارادت هولندا ان تحذو حذو اميركا فوجهت قوة بحرية لحصار العاصمة على امل ان تتحصل منها على الغاء المعلوم الذي كانت تدفعه للجزائر .

واستخلص الداي عمر العبرة من هذه التحركات ضد العاصمة ، فانصرف الى بناء

تحصينات جديدة وتعزيز دفاعها فور ابرام المعاهدة مع اميركا . فادخل اصلاحات جديدة ووضع مدافع جديدة في الجهة الشرقية . ثم عمد الى حماية الناحية الشمالية بوضع سلسلة من المدافع على شكل نصف دائرة وعلى ثلاث طبقات ، تشتمل على اربع واربعين مدفعاً كما احاط المنار بحماية مماثلة ، واضاف الى حماية الجهة الشرقية من الميناء التي كانت تشتمل على ستين مدفعاً – اضاف لها سبعين مدفعاً جديداً ، ووضع عند مدخل الميناء مدفعين كبيرين عيار ٦٨ . كما وضع عدة مدافع قوية في الجهة البحرية تمنع البواخر المهاجمة الاقتراب من الارض . ووضع في الجهة الغربية سبعين مدفعاً ، كما عزز الدفاع عن الوجه الشمالي للميناء بمائة فوهة نارية .

في الوقت الذي كان فيه عمر باشا متفرغاً لتحصينات العاصمة ، كان الرايس مصطفى التونسي يبحث في البحر عن وحدات الاسطول الجزائري ليدخل معها في معركة . ولما لم يلتق بها اراد تشغيل رجاله بالهجوم على جزيرة سنت اونتيوش التي أخذ منها ثمانية وخمسين ومائة أسير .

مؤتمر فيينا وخطة الانكليز :

في هذه الاثناء كانت الدول الاروبية مجتمعة في مؤتمر فيينا، فاستغل ممثل بريطانيا هذا الهجوم لاثارة الدول الاروبية ضد الجزائر ، وقرر مؤتمر فيينا بالفعل وضع حد نهائي لتصرفات القراصنة في حوض البحر الابيض المتوسط ، ولاسترقاق المسيحيين .

وتعهدت بريطانيا – طبعاً – بتنفيذ هذه المقررات ، وطلبت تعويضاً مسبقاً عن مجهوداتها يتمثل في وضع الجزر الايونية تحت حمايتها .

وكعادة بريطانيا في سياستها التي تحاول دائماً ضرب عصفورين بحجر واحد ، وجهت اللورد ايكسموث على رأس وحدات من الأسطول الانكليزي الى الجزائر للمطالبة بالأسرى الذين هم من الجزر الايونية فتكون بذلك انكلترا قد جسمت حمايتها على تلك الجزر عندما طالبت بفك أسر أبنائها باعتبارهم رعايا انكليز ، وتكون قد قامت في نفس الوقت بتصفية حسابها القديم مع الديوان ، وكل ذلك تحت عنوان تنفيذ مقررات مؤتمر فيينا .

عندما سمع الداي بسير الوحدات الانكليزية ، وضع القنصل البريطاني في السجن . وقد عرضت وحدات الاسطول الهولندي التي كانت في الطريق الى الجزائر حسبما أسلفنا اقتداء بأميركا – عرضت على اللورد ايكسموث ان تنضم اليه . فقبل هذا الأخير ، وسارت القوة البحرية الانكليزية – الهولندية المشتركة الى ان وصلت امام العاصمة مساء السادس والعشرين من شهر أوت ١٨١٦ – وسارع اللورد الانكليزي من الغد بتوجيه انذار الى الداي يطلب فيه باطلاق سراح القنصل الانكليزي حالاً ووضع حد لاسترقاق المسيحيين .

وقد انشب الانكليز المعركة قبل أن يتصلوا بجواب الداي قبولاً أو رفضاً . والملاحظ ان وحدات الأسطول الانكليزي تقدمت من الميناء تحمل الراية البيضاء التي يحملها المتفاوضون . ولذلك تركتها المدفعية الجزائرية تتقدم دون ان تطلق عليها النار . ومعنى ذلك ان الانكليز خدعوا الديوان بالراية البيضاء . ولولا هذه الخديعة لما تمكن الانكليز من التقدم الى الميناء وإلحاق خسارة بالغة بالاسطول والدفاع الجزائري .

وكانت معركة عنيفة لعب فيها عنصر المفاجأة لفائدة الانكليز ، فاسفرت عن خسائر فادحة في صفوف القوات المدافعة عن الميناء كما قتل عدد هام من السكان المدنيين الذين جاؤوا للفرجة ، لانه لم يكن يخطر على بال احد ان المعركة ستنشب في ذلك الحين وتحطمت في هذه المعركة عدة تحصينات ، وأضرمت النار في كل البواخر الجزائرية التي كانت راسية في الميناء .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الهزيمة هي قبول الداي بالنزول عند شروط الانكليز التي كانت تتمثل في :

اولاً : وضع حد لاسترقاق المسيحيين .

ثانياً : اطلاق سراح كل الاسرى المسيحيين الذين كان عددهم حوالي ١٢٠٠ .

ثالثاً : دفع تعويضات للذين كانوا دفعوا مبالغ مالية لافتداء الاسرى المسيحيين .

والملاحظ ان الانكليز ، لم يطالبوا بوضع حد للقرصنة ، في حين ان هذا المطلب كان احد المطالب الاساسية لمؤتمر فيينا ، التي تعهد الانكليز بتنفيذها .

والسبب في ذلك واضح : ان الانكليز استغلوا مؤتمر فيينا ، لخدمة مآربهم ، ولم يطالبوا بوضع حد للقرصنة ، لانهم كانوا يأملون أن تعرقل اعمال القرصنة تجارة البلاد الاروبية المجاورة ، وعلى الأخص تجارة فرنسا التي كانت تستعد لاستلام المراكز التجارية في الشرق الجزائري التي انتهت مدة كراسها للانكليز .

ولا حاجة الى التنصيص على ان الخطة والخدعة الانكليزية كانت ضربة قاسية على الأسطول الجزائري .

وقد تشاءم الجنود الأتراك من ولاية عمر باشا وقالوا انه منحوس . فقال لهم الداي : انه لم يطالب بهذا المنصب وانه مستعد للتضحية بحياته ان كان في ذلك فائدة للجند .

وتمكن عمر بهذه الشجاعة من الحصول على بضعة أشهر اخرى من الراحة والاستقرار. لكن ظهور وباء شديد اكد نحس عمر في نظر الجند التركي ، فقرروا التخلص منه ، وهجم عليه بعضهم في قصر الجنينة ، في الثامن من اكتوبر ١٨١٧ ، ولم يبدِ أية معارضة ، فشنقوه .

التحول الى القصبة .

انتخب علي خوجة دايا .

وكانت أولى أعماله هي التخلص من سيطرة اليولداش هؤلاء الجنود الأتراك الذين لا يعرفون نظاماً ولا يتقيدون بأي شيء. فغادر الجنينة وتحول الى القصبة ، واختار حاميته الخاصة من بين سكان الجزيرة الذين اختار من بينهم الفي رجل لحراسته وحراسة خزينة الدولة . ونقل في نفس الوقت كنوز الخزينة الى القصبة ، التي اشتهرت بعد ذلك بكنوز القصبة . وهناك رواية تاريخية تقول ان هذه الكنوز قد نقلت ليلاً ، بحيث لم يسمع الجنود الأتراك بتحول الكنوز والداي إلى القصبة إلا من الغد بعد ان تم الانتقال فعلاً. ويبدو من بعض الوثائق التي سلمت الى لجنة تحقيق فرنسية بعد الاحتلال ، كلفت باجراء تحقيق حول كنوز القصبة ، ان هذه الكنوز بلغت الف وستمائة وخمسين حمولة بغل .

والواقع ان الانتقال الى القصبة كان عبارة عن تحول سياسي هام : فهو يسجل

نقطة تحول في تاريخ الحكم التركي بالجزائر ، ويبرز بوضوح ذلك التطور البطيء الذي ظهر في فترات متفرقة ، والذي يتمثل في رغبة بعض الحكام الأتراك في الاندماج في الشعب الجزائري ، والاعتماد على القوة الشعبية والتخلص من سيطرة فرقة اليولداش .

لكن هذا التحول جاء متأخراً عن أوانه ، لذلك لم تظهر نتائجه الاجتماعية والاقتصادية .

ولم يتردد علي خوجة بعد أن تحول إلى القصبة في القضاء على رؤوس الفتنة من الجند التركي . وأظهر بوضوح تصميمه على حل الفرقة التركية والقضاء على امتيازاتها ، فسلح الكراغلة الذين كانوا قبل ذلك مبعدين عن شؤون الحكم والوظائف السامية . وأعاد عدداً من الجنود الأتراك إلى المشرق،وأبعد البقايا اللائي كن يسكن إلى جنب الثكنات التركية ، وأوقف العمل بتجنيد الجنود من المشرق .

لم ترق هذه التصرفات للجنود الأتراك الذين فوجئوا بتدابير تقضي على كيانهم العسكري وامتيازاتهم من أساسها، فحاول بعضهم التمرد، لكن حراسة الداي التي كانت تتكون من الجزائريين فقط قضت على محاولتهم في المهد .

فقتل بعضهم وفر آخرون إلى المحلة الشرقية التي تمردت وسارت في اتجاه العاصمة للقضاء على علي خوجة . فوجه علي خوجة مبعوثين إلى بلاد القبائل يطلبون من سكانها سد الطريق على المتمردين في ناحية البيبان حتى لا يتمكنوا من اللحاق بالجزائر . لكن المبعوثين وصلوا بعد أن اجتاز المتمردين البيبان ، لأنهم كانوا يحثون السير ، ووصلوا إلى العاصمة في نهاية شهر نوفمبر ، وطالبوا برأس الداي .

لكن علي خوجة كان قد أخذ احتياطاته ، فشكل جيشاً من الكراغلة حظي بتأييد السكان وحاول المتمردون التفاوض ، لكن يحيى آغا الذي وجه اليهم وهو من أبناء القبائل طلب منهم الاستسلام دون قيد ولا شرط .

ونشبت المعركة ، وراحت حراسة الداي المتكونة من الجزائريين ، تهاجم المتمردين باعانة الكراغلة المسيحيين ، ومن ورائهم كل السكان يؤيدونهم . وهزم اليولداش في هذه المعركة التي امتد ميدانها من حصن الامبراطور الى باب عزون هزيمة منكرة ، وقتل

منهم الف ومائتا جندي ومائة وخمسون ضابطاً ، وفي يوم الثاني من شهر ديسمبر طلب الباقون على قيد الحياة الامان من الداي ، فمنحه لهم . وبعد ذلك طلب عدد كبير منهم العودة الى أزمير والقسطنطينية فرخص لهم في ذلك . وفي نفس الوقت كان أولاد دراج قد ثاروا على الباي شاكر الذي نزل عند مطالبهم ، وكثرت بعد ذلك الاضطرابات في مقاطعة قسنطينة ، فاتهم وزراء الداي شاكر باي بانه متواطىء مع باي تونس ، فعزل ، وعين مكانه قارة مصطفى ، الذي أعدمه شنقاً لانه حاول التمرد .

وقد احتفل الداي بانتصاره على اليولداش احتفالاً فخماً فأقام أفراحاً دامت ثلاثة أيام ، وتقبل تهاني السلك القنصلي. لكنه لم يستمر في الحكم طويلاً ، فقد مات بالطاعون، في اول مارس ١٨١٨ ، وعندما شعر بدنو أجله ، عين لخلافته حسين خوجة الخيل .

ورفض حسين هذه المسؤولية ، لكن محيطه ألح عليه حتى قبل . ولم يكد يمكث بضعة أيام في الحكم حتى حاول بعض الجنود الاتراك اغتياله ، فتحصن بالقصبة ، واعتمد مثل سلفه على الحراسة الجزائرية بعض الوقت ، ثم نشب خلاف بين الداي ويحيى آغا انتهى بعزل الآغا . وعندما ثارت القبائل تخوف الداي من الحراسة الجزائرية وأعفى أفرادها .

وجد الداي حسين أمامه وضعية معقدة : ففي الناحية الشرقية ، أعلن النامشة والاوراس ووادي سوف الثورة على باي قسنطينة. ولئن تمكن الباي أحمد من أخضاعهم بعد حرب دامت ثلاث سنوات ، فانهم قد عادوا إلى الثورة من جديد في عام ١٨٢٣ . وفي عين ماضي أعلن محمد الكبير ، ابن سيدي أحمد التيجاني استقلاله ، فوجه له الداي يحي آغا ، وحاول يحي آغا الاستعانة بقوم عمراوة الذين رفضوا وقالوا ان واجب الجندية لا يتعين علينا إلا في بلاد القبائل ، ووقع خلاف تسبب في اضطرابات أدت الى تحطيم برج بوغني . ونشبت معارك بين يحي آغا ومحمد اوقاسي انتصر فيها هذا الاخير ، لكنه اغتيل بعد ذلك غدراً في ١٨٢٠ ببرج سباو .

وفي ١٨٢٣ ثار سكان المناطق المحيطة ببجاية، واحتل بنوعباس البيبان، ولم يتمكن ابن كانون من اجلائهم عنها إلا بشدة .

إلا أن الثورة استمرت رغم ذلك في وادي الساحل . وحاول يحي آغا أن يلقن بني عباس درساً قاسياً فاضرم النار في كل شيء اعترضه في طريقه إلى قلعة بني عباس . لكن ذلك لم يمنع بني عباس من الثورة من جديد في ١٨٢٦ .

وفي الناحية الغربية ، عمد باي وهران إلى اعدام من وقع تحت يده من رجال الزوايا الذين كانوا يدعون إلى الثورة ويبشرون بقرب زوال الحكم التركي . وأوشك محي الدين والد الأمير عبد القادر أن يقتل هو أيضاً في هذه الحوادث ، لولا تدخل امرأة باي وهران، مما جعل الباي يكتفي بسجنه . وحاول الباي حسن القضاء على ثورة التيجانية، فلم يستطع ، وولّد هذا الفشل ثورة عامة في جنوب وهران . وفي ١٨٢٧ سار الشيخ محمد الكبير التيجاني لمحاصرة معسكر ، لكن الباي حسن انتصر عليه في عين بيضاء ، وقتله ، ثم تمكن من إخضاع منطقة تلمسان في معركة سيدي مجاهد .

مؤتمر ايكس لاشابيل .

إلى هذه الوضعية الداخلية المضطربة يجب أن نضيف وضعية خارجية لا تقل عنها خطورة ، فقد عقدت الدول الاوربية في ٣٠ سبتمبر ١٨١٨ في « ايكس لاشابيل » مؤتمراً جديداً قررت فيه مطالبة الجزائر وتونس وطرابلس النهائي على القرصنة . كما قررت ابلاغ الدول الثلاث، أن كل نيل ومساس بتجارة إحدى الدول الاروبية، يتسبب في رد فعل سريع من طرف الدول الاروبية المتحالفة . وكلفت بريطانيا وفرنسا بأن تبلغا إلى الدول الثلاث قرارات ايكس لاشابيل .

عندما أبلغ الداي حسين هذه القرارات أجاب شفاهاً بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن حقه في التعرف على البواخر الاجنبية ، لأن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يتعرف بها على البواخر العدوة من الصديقة .

وفي اكتوبر ١٨٢٣ قرر الداي القاء القبض على من كان بالعاصمة من أبناء القبائل كرد فعل على الثورة التي نشبت في القبائل . وكان هناك عدة مستخدمين من أبناء القبائل يشتغلون في القناصل الأجنبية . فعمدت القنصلية الفرنسية والهولندية الى انذار مستخدميها بالأمر وتركت لهم حرية الفرار . لكن القنصل الانكليزي أراد أن يحمي

مستخدميه محتجاً بالحصانة القنصلية ، فهوجم منزله وأخذ المستخدمون بالقوة. وتسبب هذا الحادث في قطع العلاقات بين الجزائر وانكلترا .

وبعد بضعة أسابيع قدم الاميرال الانكليزي سير هاري بنال على رأس ثلاث وعشرين باخرة ، يطلب تعويضاً عن الاهانة التي لحقت بانكلترا في شخص القنصل ، ويطالب بغرامة مالية كبيرة وبالاعتراف بهيمنة بريطانيا على كل الدول الاخرى لكن الداي حسين رفض هذه المطالب رفضاً باتا . فانصرف الاميرال الانكليزي ، لانه لم تكن لديه تعليمات عما يجب أن يفعل ، لكنه عاد الى الجزائر في الثاني والعشرين من مارس ١٨٢٤ ، وانصرف كما جاء دون ان يتحصل على طائل . وعاد مرة ثالثة في الثاني عشر من جويلية من نفس العام بعد أن صدرت اليه الاوامر بضرب العاصمة ، لكن الجزائريين كانوا قد اتعظوا من معركة ١٨١٦ فخرجوا لمقابلته وأنشبوا مع الانكليز معركة في عرض البحر حالت دون اقترابهم من الأرض . واستمر تبادل اطلاق النار الى يوم التاسع والعشرين من شهر جويلية ، وهو اليوم الذي انصرف فيه الانكليز بعد أن نفذت ذخيرتهم .

حاول حسين أن يستخلص العبرة من هذا الهجوم فعمل على تعزيز المواقع الدفاعية عن الميناء ، وعلى تحصين كل النقط الموجودة على الساحل القريب والتي يمكن أن يتخذ منها العدو مسرباً الى الداخل .

الباب الثالث عشر

تاريخ محاولات الاحتلال الفرنسي للجزائر

- قصة ديون بوشناق وباكري .
- حادث المروحة .
- إنذار فرنسي غريب .
- مناعة ميناء الجزائر .
- البحث عن طريق الاحتلال .
- تعليمات نابليون .
- الحروب الصليبية .
- التفكير في استعمال محمد علي .

حادث المروحة

تضخمت الديون التي في ذمة فرنسا نحو شركة بوخريص وبوشناق ، الى درجة دفعت أصحاب الشركة الى التلويح للوزير الفرنسي الداهية تاليران وللقنصل الفرنسي في الجزائر ديفال باعطائهما نصيباً من الديون ان نجحا في حمل الحكومة الفرنسية على تسديدها . وقد تدخل بالفعل تاليران في القضية ، وحمل الحكومة الفرنسية على تسديد الديون . لكن فرنسا دفعت عدة أقساط الى عائلة بوشناق وبوخريص (الذي تجنس بالجنسية الفرنسية في هذه الفترة وأصبح يدعى باكري) دون أن تدفع شيئاً الى الخزينة الجزائرية ، وأبقت نصيباً من الديون تحت الرهن في حالة ما اذا كان هناك أشخاص أو شركات لهم دين على بوشناق وباكري .

وهذا الاجراء الذي عمدت اليه فرنسا كان من الممكن أن يكون عادياً لو أن الأمر تعلق بدين عادي ، لكن الأمر خلاف ذلك ، لانه يتعلق بدين بين دولتين ، لان المبالغ التي اقرضت الى فرنسا ونصيباً هاماً من القموح التي دفعت لها ، دفعت من الخزينة الجزائرية ، يضاف الى ذلك ان كلاً من باكري وبوشناق كانت عليهما ديون للداي وللخزينة الدولة ، فالاجراء الطبيعي في هذه الحالة ، هو أن تصفي الديون في الجزائر وأن تعطي فرنسا ما عليها من مبالغ الى الداي مباشرة . لا بواسطة وفي فرنسا كما حدث... وليس خافياً أن الطريقة التي دفعت بها المبالغ المدفوعة الى باكري وبوشناق كانت تهدف الى تهريب هذين من أن يدفعا ما عليهما للخزينة الجزائرية .

وباختصار أن هناك مبالغ ترجع قانونا وواقعاً للخزينة الجزائرية ، لكن فرنسا دفعتها لباكري وبوشناق . وقد فر بوشناق بعد تسلمه المبلغ الى ليفورن بايطاليا بينما تجنس باكري بالجنسية الفرنسية ولم يرجع الى الجزائر .

وقد اتضحت للداي المؤامرة ، وعرف ان خيطها في الجزائر هو القنصل ديفال ،

ورأسها في باريس هو تاليران . وأدرك ان الاتصال بالحكومة الفرنسية عن طريق قنصلها لن يؤدي الى نتيجة ما دام القنصل طرفاً في القضية . (وقد اتهمت الصحافة الفرنسية المتحررة آنذاك القنصل ديفال بانه أخذ مليوني فرنك من المبالغ التي دفعت لبوشناق وباكري) . ولذلك لم يتردد الداي في اتهام القنصل بالتواطؤ مع اليهوديين اللذين خانا الداي والخزينة الجزائرية ، واستحوذا لانفسهما على المبالغ التي هي من حق الخزينة الجزائرية. وبناء على ذلك ، طلب الداي من الحكومة الفرنسية سحب قنصلها في الجزائر. وتوجيه اليهوديين بفرنسا الى الجزائر ، لانهما ليسا الا وسيطين بين الدولة الجزائرية والدولة الفرنسية .

وقد صادف في هذا الوقت ان كانت أحسن البواخر الحربية الجزائرية في المشرق حيث ذهبت لنجدة القسطنطينية وبطلب منها . فأرادت الحكومة الفرنسية أن تستغل هذه الفرصة ، وأن تنفذ خطتها لاحتلال الجزائر في هذا الوقت بالذات . فأرسلت قنصلها ديفال تأمره بأن يستغل كل فرصة ممكنة لاستفزاز الداي وافتعال حادث يكون مبرراً لقطع العلاقات واعلان الحرب على الجزائر . وقد كانت فرنسا حريصة على افتعال حادث مع الجزائر في هذا الوقت بالذات لأنها – زيادة على ما سبق ذكره – كانت تعرف ان الانكليز كانوا يعدون العدة لاحتلال الجزائر .

اتصل القنصل ديفال بهذه التعليمات قبل عيد الفطر (سنة ١٢٤٣ هـ). وفي عيد الفطر ذهب إلى تهنئة الداي كما جرت التقاليد بذلك . وكان ديفال يتقن اللغة التركية لأنه نشأ في القسطنطينية ، فكان ، تبعاً لذلك ، يتحدث مع الداي دون واسطة مترجم . وبعد أن قدم ديفال التهاني ، حدثه عن حجز الرياس لباخرة تحمل العلم الفرنسي ، فأثار الداي مسألة التحصينات العسكرية التي قامت بها فرنسا في المركز التجاري بالقالة ، والتي تهدف حسبما سجله الأنكليز حينذاك إلى اعداد نقطة احتلال في الجزائر .

ثم سأل الداي إن كان لم يتلقَ جواباً على الرسالة التي كان وجهها الدّاي، إلى الحكومة الفرنسية حول قضية بوشناق وباكري ، فما كان من القنصل إلا أن أجابه بقصد الاستفزاز :

« إن ملك فرنسا لا يتنازل لمراسلة داي الجزائر » .

وكان الداي جالساً ، والقنصل ديفال واقفاً على بعد مسافة محترمة . فصرخ فيه : اخرج يا رومي ، وتحرك الداي حركة غضب وسخط ، لمست من جرائها ريشة في طرف المروحة ، القنصل . فاغتنم القنصل هذه الفرصة ، وانسحب مهدداً بأنه سيبلغ كل شيء لحكومته .

وأدرك الداي حينذاك الفخ الذي نصبه ديفال ، فقال لمحيطه : « ماذا عملت له ؟ لقد لمسته ريشة فقط » . ثم استدعى بعض الفرنسيين الموجودين بالجزائر ، وقال لهم : انه لم ينو ابداً إهانة فرنسا ، وأكد لهم أن محادثته مع الداي محادثة شخصية ،وانهم يستطيعون المكث بالجزائر دون أن ينالهم أذى ، وانه يحميهم ويحمي مصالحهم .

لكن كان واضحاً لكل أحد انه استفزاز مقصود ، فلم يكن في حديث الداي ما يستوجب مثل ذلك الجواب . فوجهت فرنسا فور اتصالها بتقرير القنصل الكابتان كولي على رأس قوة بحرية ، لمطالبة الداي بتقديم اعتذارات علنية .

انذار غريب :

وصل الكومندان كولي الى الجزائر في الحادي عشر من جوان ، ووجه الى الداي بعد ذلك بأربعة أيام انذاراً ، عن طريق قنصل سردانيا طالب فيه بـ :

« توجه وفد يتركب من وكيل الحرج ووزير البحرية والشؤون الخارجية ، والقائد العام للبحرية ، وقائد الميناء ، صحبة أربع خوجات من قصر الداي ، ويجب ان يتوجه الداي الى الباخرة الفرنسية ، ويقدم وكيل الحرج علانية وباسم الداي اعتذاراته الى القنصل العام .

وبعد هذه الاجراءات التي لا تقبل أي تعديل ، في عباراتها ولا في أشخاصها يرفع العلم الفرنسي فوق حصون مدينة الجزائر ، ثم توجه له في التحية بمائة طلقة مدفعية جزائرية .

وفيما اذا لم تستجب هذه المطالب في ظرف اربع وعشرين ساعة ، تبدأ الحرب ضد الجزائر .

هذا ما جاء في المطلب الفرنسي .

وواضح انه مطلب مستحيل التحقيق .

وطبعاً رفض الداي .

واعلنت الحرب في ١٦ جوان ١٨٢٧ .

وفرضت فرنسا الحصار على الشواطىء الجزائرية ، وكانت مهمة سهلة نظراً لتغيب معظم وحدات الأسطول الجزائري في اليونان .

وقد أثر التغيب تأثيراً كبيراً ، إذ لم تستطع البواخر القليلة الباقية وحدها ان تفك الحصار كما تبين ذلك من خلال فشل محاولة قام بها الرياس الجزائريون قرب رأس كاكسين في أوائل اكتوبر ١٩٢٧ .

* * *

ومن الجدير بالملاحظة ان هناك من المؤرخين من يتهم ديفال بأنه اختلق حادث المروحة ، وان الداي لم يمسه بها قط ويكفي ان نسوق في هذا المجال ما قاله المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان في القنصل ديفال ، فهو يؤكد ان « ممثل فرنسا (أي ديفال) كان يعتبر ، ليس فقط في الجزائر ولكن في كل موانىء البحر الأبيض المتوسط ، رجلاً مشبوهاً ... لقد اكتسب من المرونة والخنوع المغرض والمناورات اكثر ما اكتسب من خبرة ديبلوماسية . وقد كان مشهوراً في الجزائر بأنه رجل فحشاء ، وبأنه رجل لا تهمه حقوق الرجال ... وقد بلغ من درجة اشتباه الناس به ان زملاءه في السلك الديبلوماسي نبذوه . وقد كانت الفرقة التجارية بمرسيليا تعتبر انه ليست له ضمانات اخلاقية كافية لابرام صفقة معه » .

تاريخ خط الاحتلال الفرنسي للجزائر .

لم يكن اعلان الحرب على الجزائر من طرف فرنسا مجرد انتقام لاهانة قنصلها : ان هذه الحقيقة من الوضوح ومن البداهة بحيث لا تحتاج الى مناقشة .

فالتفكير في احتلال الجزائر قديم عنـــد السادة الفرنسيين ، واستعراض الخطوط والمحاولات والمناسبات التي ظهر فيها هذا التفكير خـلال السنوات والحقب السابقة على حقبة ١٨٣٠ ، يقودنا في الواقع الى موضوع واسع يتطلب كتاباً خاصاً ، لأن التفكير في احتلال الجزائر يرجع الى القرون الوسطى . لذلك سنقتصر على استعراض المحـــاولات الفرنسية والتفكير الفرنسي في احتـلال الجزائر ، كما ظهر خلال الخمسين سنة التي سبقت الاحتلال .

ويكفي التذكير باقتراح القنصل كيرسي المتعلق باحتلال الجزائر والذي يرجع الى سنة ١٧٨٢ . وقد عاد هذا القنصل الى تجديد مقترحه في عام ١٧٩١ عندمـا وجه الى وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة جاء فيها ما يلي :

« لئن تعبت فرنسا من هذه الوقاحة والاستفزازات ومن التضحيات ، فانها تستطيع ان تضع حداً لذلك بالقضاء على نيابة الجزائر . لكن هذه العملية ، بالرغم من انها ممكنة جداً ، تتطلب ضبطاً محكماً ودرايات محلية متنوعة . »

مناعة الميناء .

والمانع الذي حال دون احتلال الجزائر ، في تلك الفترة ، ليس هو التهيب من عواقب الحرب المدمرة بالنسبة للسكان ، ولكن هو مناعة مدينة الجزائر ومقدرتها الدفاعية التي تمكنها من الوقوف في وجه كل محاولة احتلال قادمة من طريق البحر . والقنصل الفرنسي المذكور لا يتردد في الاعتراف بذلـك عندما يقول في نفس المذكرة :

« ان الجزائر هي المدينة الوحيدة في العالم التي تستحق أن تسحق بواسطة آلة جهنمية . لكننا لسنا متأكدين من تأثير ذلك ، لكي نقدم على المحاولة » .

ويضيف الى ذلك :

« يقال ان الفي رجل شجاع يهاجمون الميناء شاهرين سيوفهم يستطيعون الاستيلاء عليه بسهولة . لكن يجب ان لا ننسى ما يتعرضون له من نيران مدافـع البحرية وبواخر الحراسة . وحتى فيما اذا تمكن الجنود من السيطرة على مدخل الميناء ، فانهم سيظلون

عرضة لمدافع وبنادق الثكنات . ان مثل هذه العملية ، ستكون ولا شك ألمع عملية ، ولكنها ستكون أيضاً اكثر العمليات قتلا ، ونجاحها مشكوك فيه للغاية » .

اذن فما هي الطريقة التي يقترحها القنصل لاحتلال الجزائر ؟ انها تتمثل في قوله :

« ليس هناك الا وسيلة واحدة للقيام بالحملة ضد الجزائر ، من غير أن تكلف الخزينة العامة تكاليف باهظة ، وهذه الوسيلة هي تحطيم مدينة الجزائر . ولا يمكن الوصول الى تحطيم مدينة الجزائر الا بواسطة جيش بري » .

والملاحظ أن القنصل الفرنسي كيرسي ، بدأ يفكر في ضبط مشروع لاحتلال الجزائر ، منذ عام ١٧٨٢ ، وظل يفكر في ذلك طيلة تسع سنوات ، الى ان قدم مذكرته هذه الى الخارجية الفرنسية في عام ١٧٩١ . وقد حدد في هذا المشروع حتى النقطة التي يتسرب منها الفرنسيون الى بر الجزائر ، إذ يقول فيما يتصل بهذه النقطة .

« ان الفكرة المنتشرة عن أنسب مكان للنزول هو المكان المسمى سيدي فرج . فمن هناك يمكن الوصول الى حصن الامبراطور الذي يشرف على الجزائر من ناحية الجنوب . . . ومن الصعب الوصول الى حصن الامبراطور من ناحية البحر ، أما من جهة البر فلا تكاد ترتفع أسواره الا بمقدار ٢٥ أو ٣٠ قدماً . . . ومن السهل اتقاء مدفعه من هذه الناحية . وعندما يسيطر الانسان على هذا الحصن ، يصبح سيد المدينة » .

أما التكاليف التي تتطلبها العملية ، فان القنصل المذكور يؤكد ان كنوز القصبة ، اي خزينة الدولة الجزائرية كافية لتغطية المصاريف لانه :

« تفرغ فيها من حين لآخر مبالغ هامة دون ان يستخرج منها شيء . انها شيء مقدس عند الجزائريين » .

ولم يكن القنصل الفرنسي كيرسي هو وحده ، في ذلك الوقت ، الذي يفكر هذا التفكير . اذ نجد أن شخصاً آخر فرنسياً يحمل نفس الفكرة ، وهو «فونتور دي بارادي» . الذي عين في عام ١٧٩٠ سكرتيراً — مترجم الملك للغات الشرقية ، في باريس . وقد صحب بونابارت الى مصر ، ومات أثناء الحملة على سوريا . وقد كان مستشرقاً . يعرف

اللغة العربية ، ويعرف اللهجات البربرية . وقد اشتغل مع كيرسي مترجماً في الجزائر . وقد كتب في ١٧٨٩ مذكرات كاملة عن مدينة الجزائر ، وعن سكانها وعن ادارتها ومواردها وتجارتها وقواتها البرية والبحرية . ولا شك ان كيرسي قد استكمل عنه الفكرة التي خوصلها في مذكرته التي أشرنا اليها سابقاً .

وقد تعرض فانتور دي بارادي في آخر مذكراته الى الحديث عن مشروع لاحتلال الجزائر ، كان ضبطه المهندس « ريكو » في عام ١٧٥٤ اقترح فيه الهجوم على مدينة الجزائر من الشاطىء المواجه لباب الواد . ويعلق فونتور دي بارادي على هذا المشروع قائلاً :

« لكن الأحسن من ذلك هو النزول في الشاطىء الموجود بين رأس كاكسين وسيدي فرج . فمن هناك يمكن الاستيلاء على الجزائر من المؤخرة التي ليست محصنة على الاطلاق».

* * *

في الثالث من جويلية ١٧٩٧ قرأ تاليران امام معهد فرنسا دراسته التي تحمل عنوان : « محاولة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من انشاء مستعمرات جديدة في الظروف الراهنة » .

وقد تعرض تاليران ، في هذه الدراسة لشواطىء المغرب العربي ونص على أهميتها .

وبعد ذلك بأيام ، في السادس عشر من جويلية ، أصبح تاليران هو وزير العلاقات الخارجية في فرنسا .

فمن السهل أن نتصور ان تاليران لن ينسى ما كتبه وقرأه قبل ذلك ببضعة أيام ، وأنه سيحاول توجيه السياسة الخارجية الفرنسية في هذا الاتجاه . ومن هنا نجد ان هناك علاقة بين تفكير تاليران هذا وبين تواطئه مع باكري وبوشناق في قضية ديون الجزائر على فرنسا .

وقد تعززت فكرة احتلال شواطىء المغرب العربي هذه بعد ذلك عندما احتل

بونابارت جزيرة مالطا، التي تشكل منطلقاً صالحاً لشواطىء المغرب العربي القريبة (لكن الهزيمة التي مني بها الأسطول الفرنسي في واقعة أبو قير ، أجلت بعض الشيء مشاريع احتلال شواطىء المغرب العربي).

ومما زاد في تعزيز هذه الفكرة لدى بونابرت بعد احتلاله لمصر ، أنه شعر بالدور الذي يمكن أن تلعبه أقطار تونس والجزائر وليبيا في ربط الاتصال مع مصر ، إذ أنه مضطراً إلى استعمال طريق هذه الأقطار في البريد بين القاهرة وباريس ذهاباً وإياباً ، لكن انقطاع العلاقات آنذاك بين هذه الاقطار وبين فرنسا (تحت ضغط القسطنطينية التي تحالفت في هذه الفترة مع انكلترا المناوئة لفرنسا) حال دون ذلك .

وهذا هو السبب في أن نابليون بونابارت عمل ، فور عودته إلى فرنسا وأخذه بزمام الحكم ، على إقرار السلم بين الجزائر وفرنسا ، وهي محاولة كللت بالنجاح عام ١٨٠٠ ، فيما يتعلق بالجزائر . لكنه كان نجاحاً قصير الأمد ، إذ ما لبثت العلاقات أن توترت بين الجزائر وبين فرنسا في العام الموالي . وقد كتب القنصل الفرنسي بالجزائر آنذاك ديبوا تانفيل فور مغادرته لها ووصوله إلى اسبانيا ، إلى بونابرت رسالة (في جويلية ١٨٠١) يحثه فيها على احتلال الجزائر . وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي :

« ... من السهل أن نتصور من وراء النهب والاعتداءات الفظيعة التي تتسلط على السكان الطبيعيين للبلاد (الجزائر) بأي حماس سيستقبل الناس أفريقيا شخصاً يحررهم . ان اسم بونابارت أصبح يتردد تحت كل الخيام باحترام مقدس » .

ويبدو ان هذه اللهجة قد راقت لبونابارت وانه صدق ما جاء فيها من تملق ، إذ حمل القنصل الفرنسي أن يقول للداي مصطفى باشا :

« يجب أن يقتنع الداي بأن فرنسا التي يحكمها القنصل الأول ، ليست هي فرنسا آل بوربون « لان ا » أول عمل اعتداء يصدر عن الداي ، سيكون شارة البدء في تخريب الجزائر » .

وليس من محض الصدفة ، أن تكون حكومة الديركتوار آنذاك قد اتصلت بفيض

من المعلومات والتقارير عن الجزائر كما اكد ذلك شارل روكسي في كتابه « فرنسا — شمال افريقيا قبل ١٨٣٠ » .

البحث عن طريق الاحتلال :

ولا شك ان هذه المعلومات أو معظمها قد طلبتها حكومة بونابارت ، كما تدل على ذلك سلسلة الأسئلة التى وجهها وزير العلاقات الخارجية بفرنسا تاليران إلى القنصل الفرنسي بالجزائر والتي جاء فيها :

« اولاً : ما هي تعزيزات الجزائر من ناحية البحر ؟ ثانياً : لو كنا في حرب مع الجزائريين فما هي التدابير التي يجب اتخاذها لعدم الحاق الضرر بنا ؟ ثالثاً : ما هي الوحدات البحرية التي يجب اعدادها ؟ رابعاً : ما هي التدابير اللازمة لالحاق اكبر نسبة ممكنة من الضرر بهم بواسطة الوسائل البحرية وحدها ؟ خامساً : في حالة ما اذا قررنا ، عند نشوب الحرب مع الجزائر ، استعمال جيش بري ضد هذه النيابة فكيف يكون تشكيله ، وما هي القوة التي ينبغي أن يكون عليها . سادساً : كيف تنزل هذه القوة إلى البر وفي اي مكان . سابعاً : ما هي الخطة الواجب اتباعها للاستيلاء على الجزائر ؟ ثامناً : ما هي قوة جيش الداي وما هو تركيبها . تاسعاً : من هم سكان النيابة ، ومن هم سكان مدينة الجزائر. عاشراً : فيما اذا حوصرت مدينة الجزائر وقاومت فمن اين يمكن للجيش أن يجلب الماء والقمح واللحوم والخشب ؟ ما هي القرى التي يمكن أن تمون الجيش ، وما هو عددها . الحادي عشر : هل هناك رحوات تسير بالماء في ضواحي الجزائر واخرى يسيرها الريح ؟ الثاني عشر : هل يوجد الخشب والأعشاب للطبخ وللمهام الأخرى ؟ الثالث عشر : وصف محلي للمنطقة على امتداد ثمانية عشر ميلاً في كل الاتجاهات ؟ الرابع عشر : فيما اذا كنا نريد ، عوض مهاجمة مدينة الجزائر ، الحاق اكبر نسبة ممكنة من الضرر بالداي ، وفيما اذا اردنا تخريب بعض ولاياته أو بعض مدنه في نفس الوقت الذي تنظم فيه بحراً حرباً لا هوادة فيها ضده ، فما هي العمليات الثانوية التي يمكن تنظيمها ؟ الخامس عشر : ما هي عقلية الداي الحالي ؟ السادس عشر : ما هو تفكير الرجال الذين يحيطون به ويؤثرون عليه ؟ السابع عشر : أية صورة يحملها عن قوة فرنسا ؟ الثامن عشر : إلى أي حد يمكن

أن يؤثر فيه التهديد بإعلان الحرب من طرفنا » .

ولا شك ان ضبط هذه السلسلة من الاسئلة ليس من عمل وزارة واحدة ، بل ساهمت فيه – كما تدل على ذلك طبيعة الاسئلة – عدة وزارات ، كما ساهم في تحريرها بونابارت نفسه على ما يقال .

وقد اجاب القنصل الفرنسي عن هذه الاسئلة اجابات نجد ان بعضها قد وقع اعتماده في التخطيط لحملة الاحتلال التي تمت بعد ذلك بثلاثين سنة . وقد اشار هذا القنصل بدوره الى سيدي فرج – وان كان لم يذكر الاسم صراحة – بناء على ما كان سمعه في الجزائر .

وقد عارض القنصل جان بون سانت اندري في اجاباته – عارض فكرة العمليات الاستثنائية ،واكد انه : « فيما اذا توصلنا الى الاستيلاء على مدينة الجزائر . فان النيابة كلها ستخضع ، وسكنون احراراً في الاحتفاظ بالبلد تحت سيطرتنا او التخلي عنه » .

وقد نصح هذا القنصل ، حكومته زيادة على ذلك باستشارة المسمى « بيرون » المسؤول الرئيسي عن مؤسسات الشركة الافريقية في القالة ، والمسمى جوفروا الذي كان قد عرف الجزائر ، ثم استخدم في وزارة الخارجية الفرنسية ، والمسمى باري الذي كان قائد سفينة زارت الجزائر .

وفي هذه الفترة ايضاً وجه المسمى « تبدينا » مذكرة الى وزارة الخارجية تحمل عنوان « نظرة على نيابة الجزائر » ترغب في احتلال الجزائر ، وتؤكد ان الجزائريين لن يتحركوا للدفاع عن الاتراك الذين يمقتونهم .

وفي منتصف اوت ١٨٠٣ وجه الكونت دي مونتوزي الى بونابارت مذكرة يشرح فيها مزايا احتلال الجزائر ، وهي مزايا يلخصها فيما يلي :

اولا : مضاعفة الحضارة والانتاج . ثانياً : القضاء على وكر من اوكار التخريب والظلم . ثالثاً : ايجاد قوة بحرية جديدة » .

ويؤكد في هذه المذكرة ان :

« السيطرة على تونس والجزائر والمغرب تمكن من السيطرة على كل تجارة افريقيا » .

ويلفت نظر بونابارت الى ان احتلال الشمال الافريقي اكثر فائـــدة من التوسعات الاروبية . ويرى دي مونتوزي ان احتلال الشمال الافريقي يمكن فرنسا من « التوفيق بين مطالب العدالة ومطالب الامن العمومي » .

ويقصد بمطالب العدالة تعويـض الاقطاعيين الذين كنستهم ثورة ١٧٨٩ ، كما يقصد بمطالب الامن العمومي ، عدم التراجع في بعض النتائج التي حققتها الثورة الفرنسية .

تعليمات نابليون :

مجموعة المعلومات والمذكرات التي اتصل بها بونابارت عززت عزمه على احتـــلال الشمال الافريقي . ففي الثامن عشر من شهر ابريل ١٨٠٨ كتب الى الاميرال ديكرسي يقول :

« فكروا في حملة ضد الجزائر ، سواء من ناحية البحر او من ناحية البر . فالتركز في هذه الارض الافريقية » ...

وختم نابليون بونابارت رسالته قائلاً :

« لن اطلب منكم الجواب الا في ظرف شهر ، لكن خـــلال هذا الوقت ، اجمعوا الادوات اللازمة ، حتى لا تكون هناك ، «لكن» او لـو ، او لانه » .. ابعثوا احد مهندسيكم سراً الى السيد تانفيل (القنصل ... ويجب ان يكون هـذا المهندس قد اشتغل ضابط بحرية ومهندساً برياً . ويجب ان يتجول بنفسه داخل الاسوار وخارجها ، وان يدون عندما يدخل بمنزله ، ملاحظاته حتى لا يقدم لنا احلاماً . وتستطيعون ان تتفاهمـوا مع سانغون (مدير التحصينات في وزارة الحربية) حتى يكون معكم رجـــل كفء . وستجدون معلومات في محفوظات العلاقات الخارجية والحربية . وقومـــوا ببحوث في هذه المحفوظات وفي محفوظاتكم . فقد طلبت المعلومات عن هذا البلد من طرف فرنسا في كل العصور .

وقع اختيار ديكرسي ، فيما يتعلق بالمهندس ، على الضابط بوتان من سلاح المهندسين.

وتنكر بوتان في الزي المدني وتوجه الى الجزائر التي وصلها في ٢٤ ماي وقد حاول التعارف على منطقة رأس ماتيفو ، كما حاول التعرف على سيدي فرج .

لكن الداي ارتاب في تحركاته وانذر المهندس والمصاحبين له من اعضاء القنصلية الفرنسية بانه سيدفنهم ان عادوا الى تلك المناطق . لكن تطورات الخلاف بين الجزائر وتونس دفعت الداي الى التحبب لفرنسا ، مما سهل مهمة بوتان التي استمرت من ٢٤ ماي الى ١٧ جويلية ١٨٠٨ .

وقد وجه تقريراً الى الاميرال ديكرسي عنوانه « تعرف عام على مدن وحصون ومدافع الجزائر وضواحيها الخ ... حسب الاوامر والتعليمات التي صدرت من وزير البحرية بتاريخ اول وثاني ماي ، لخدمة مشروع النزول بهذا البلد والاستقرار فيه نهائياً .

وفي هذا التقرير يوصي بوتان بنزول القوات الفرنسية ، في سيدي فرج .

ثم راح يصف خط السير الذي يجب ان يسير فيه جيش الاحتلال الى أن يصل الى حصن الامبراطور ، كما أعطى في التقرير تقديرات عن مبلغ قوة الداي العسكرية ، في زمن السلم وفي زمن الحرب ، واشار بافتعال حرب بين الجزائر وتونس تحرم العاصمة الجزائرية من قوة قسنطينة ، وبافتعال مشكل في وهران يحرم الداي من جنود الغرب الجزائري .

ثم يعطي معلومات قيمة عن الماء ودرجة الحرارة حسب الفصول ، والفصل المناسب لقوات الاحتلال ، وهو فصل الجفاف حتى يأمن الجند الفرنسي موجات الوباء ، كما يعطي معلومات عن السكان ، وقد صحب تقريره بخريطة مفصلة عن ميناء الجزائر ومواقع دفاعها .

وقد لفت القنصل الفرنسي دوفال في سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٧ – لفت نظر حكومته الى هذا التقرير ، الذي كان هو العمل الاساسي الذي ضبطت على ضوئه اللجنة المكلفة باعداد الحملة العسكرية ضد الجزائر اشغالها ، وقد تبنّت هذه اللجنة خلاصات هذا التقرير .

حرب صليبية .

وبعد ان ضبط بوتان تقريره ، حور القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل مذكرة اخرى تتعلق بالجانب السياسي من القضية نص فيها على اهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه مشائخ الزوايا لما يتمتعون به من نفوذ عند السكان .

وفي ٢٢ اكتوبر ١٨١٥ سلم دومينغو باديا ، الذي كان شغل منصب عامل عمالقة قرطبة في عهد جوزيف بونابارت باسبانيا سلم الى الدوق ريشوليو وزير خارجية فرنسا مذكرة تحمل عنوان : « مذكرة عن استعمار افريقيا » .

وفي هذه المذكرة يدافع عن استعمار فرنسا لأفريقيا الشمالية ويعرض خدماته لتحقيق هذا الهدف . ويؤكد في هذا الصدد على ان « أفريقيا الشمالية هي المستعمرة الطبيعية لأفريقيا : فقد كانت هي مستعمرة اليونان والرومان والقوط ، ولولا اكتشاف الاسبان للعالم الجديد لصارت مستعمرة اسبانية . . . »

ويستعرض في هذا المجال كل الحبوب والثروات التي توجد في أفريقيا الشمالية والتي تستطيع اغناء اروبا عن اميركا وآسيا .

وفي التاسع من ابريل ١٨١٦ وضع شاطوبريان امام البرلمان مقترحاً لاستعمار المغرب العربي جاء فيه على أخص ما يلي :

« لقد رأيت أيها السادة أنقاض قرطاجنة . والتقيتُ بين تلك الآثار مع الذين خلفوا اولئك المسيحيين المساكين الذين قدم سان لويس حياته فداء تحريرهم . . . ان عدد هذه الضحايا يتضاعف كل يوم . أليس يتعين على الفرنسيين الذين خلقوا للمجد والأعمال العظيمة ان يكملوا العمل الذي شرع فيه أسلافهم ؟ ففي فرنسا وقعت الدعوة للحرب الصليبية الاولى ، وفي فرنسا يجب ان نرفع راية الحرب الصليبية الأخيرة » .

وفي عام ١٨٢٠ ظهر في باريس كتاب يحمل عنوان: « قصة اقامة في الجزائر» يتحدث فيه صاحبه عن الأهمية التي يكتسبها استعمار اروبا لشمال افريقيا ، ويقدم كيفية تموين الجيش المكلف باحتلال تلك المنطقة .

وفي عام ١٨٢٥ اتصل بارون دمشق ، وزير الخارجية الفرنسية بمذكرة تحمل عنوان: « مذكرة عسكرية عن الجزائر » ، يوصي فيها صاحبه — وهو مجهول الاسم — باحتلال العاصمة بواسطة حصار بري . وقد بدأ في هذه المذكرة بتحليل أسباب فشل هجوم شارلكان في عام ١٥٤١ ، ومن بينها في نظره الجهل بالمكان ، ثم يؤكد ان انطلاق الهجوم من سيدي فرج كفيل باسقاط العاصمة .

* * *

وبعد أن أعلنت الحرب وحاولت فرنسا فرض الحصار على العاصمة ، وجه شخص مجهول رسالة الى وزارة ، في ٨ جوان ١٩٢٧ جاء فيها :

« لئن كانت الحملة ضد الجزائر بحرية صرفة فيخشى عليها ان لا تكلل بالنجاح المرغوب . أما ان كانت فرقنا البحرية التي تخرج من تولون ، والتي تخرج من موانىء الاطلسي ، وان اخذت في طريقها فرقنا المتمركزة في كاتالون وفي الأندلس ، وان نزلت سراً في شواطىء الجزائر ، واستولت على مدينة الجزائر من الخلف ، فانها تستطيع بفضل هجوم جريء أن تستولي على كنوز القصبة ، وتجد في ذلك تعويضاً عادلاً عن تكاليف الحرب » .

وفي آخر أوت ١٨٢٧ وجه شخص اسمه بارسي بوكاج مذكرة الى وزارة الخارجية — بطلب من هذه على ما يبدو — عنوانها : « مذكرة سياسية » تتحدث عن «المفاوضات التي ستجرى مع الجزائر في حالة ما اذا كانت الحكومة الفرنسية تفضل حلاً ديبلوماسياً. كما تتحدث عن طرق « احتلال البلاد » ان كانت تفضل طريقة الحرب .

ويقول في هذه المذكرة :

« اني مقتنع باننا سنتوصل بخمسة عشر الف رجل والمدفعية الريفية ، الى تحطيم هذا الجيش (أي التركي) الذي يتركب من عناصر مختلفة ، ومن شعوب مستعدة لان تنفض عن نفسها النير التركي ان بدت لها امكانية ذلك . وعندما نستولي على مرتفعات مدينة الجزائر ، نصبح قريباً سادة الجزائر والداي وبواخره وكنوزه التي تستطيع أن تسد جزءاً من نفقات الحرب» .

وبعد ذلك يعطي تفاصيل عن كيفية احتلال كامل البلاد من ارزيو الى جيجل .

– وفي نفس الفترة شرح ليني دي فيلفاك ، وهو نائب برلماني محافظ مزايا احتلال الجزائر التي لخصها :

– احتلال الجزائر يعوض خسارة فرنسا لحدود الرون .

– احتلال الجزائر يضمن استقرار الأمن العمومي لانه « يمتص ذلك الجمهور من الشبان المتحمسين المندفعين الحائرين المتحركين الذين يبرزون من كل ناحية بعد ثورة كبرى» .

ونفس الفكرة يرددها « كليرمون طونيو » وزير الحربية الذي يعتقد أن العوامل الداخلية الفرنسية التي تؤيد نظرية احتلال الجزائر لا تقل أهمية عن العوامل الخارجية . ويقول في هذا الصدد :

« لن يكون امتيازاً طفيفاً للملك هو ذلك الذي يتمثل في أن يتقدم الملك طالباً نواباً جدداً من فرنسا ومفاتيح الجزائر في يده » .

ويؤكد كلير مون تونير ضرورة الاستيلاء على كامل القطر الجزائري ، وعدم الاكتفاء باحتلال العاصمة ، ويطالب باعداد حملات عسكرية ضد قسنطينة بمجرد سقوط مدينة الجزائر .

* * *

وقد أصبح حديث الاندية الديبلوماسية في الجزائر لذلك العهد ، هو الحرب القائمة بين فرنسا والجزائر ، وكان القناصل الاروبيون يتبادلون دوماً وجهات النظر حول أحسن الطرق لاحتلال الجزائر ، ولا أدل على ذلك مما يكتبه القنصل الفرنسي في توسكان وهو الشاعر لامارتين حينذاك إلى وزارة الخارجية إذ كتب يقول :

« وصل قنصل الدانمارك بالجزائر إلى فلورنسا . وما تحصلنا عليه من أحاديثه يؤكد ما هو متوقع من زمان ، وهو أن محاصرة الجزائر عن طريق البحر لن يؤدى إلى أية نتيجة ، لأن التجارة ليست شيئاً هاماً بالنسبة لمدينة الجزائر . . . انه يعتقد مثل كل الناس ، أن سبعة أو ثمانية من الجند كافون لاحتلال المدينة انطلاقاً من البر » .

ونفس الفكرة نجدها عند قنصل الولايات المتحدة الاميركية الذي نشر في هذه الفترة بالذات تقريراً كان ضبطه في عام ١٨٢٦ يؤكد امكانية احتلال الجزائر بواسطة هجوم من الخلف .

وفي عام ١٨٢٨ طالب القنصل الفرنسي بتونس باحتلال الشرق الجزائري ، انطلاقاً من ميناء عنابة ، بدعوى الدفاع عن المراكز التجارية الفرنسية ، ويؤكد ان احتلال الشرق الجزائري يسهل بعد ذلك احتلال العاصمة . ويشرح مزايا هذه العملية التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

– وضع حد لتخوف باي تونس من داي الجزائر ، وبذلك يصبح باي تونس واقعاً تحت التأثير الفرنسي .

– تقديم خدمة كبيرة للاسطول التجاري الفرنسي .

– امكانية استعمار كامل المنطقة .

والملاحظ ان وزير الخارجية الفرنسية في هذه الفترة كان هو « لافيروناسي » الذى كان شغل منصب سفير في عاصمة روسيا ، ولا شك في أنه تذكر ما كان قاله له قيصر روسيا، الكسندر الاول فيجويلية ١٨٢١ ، عندما دعا فرنسا بواسطة الى احتلالالجزائر اذ قال له ما يلي :

« ما عليها (أي فرنسا) إلا أن تفتح البركار من مضيق جبل طارق إلى الدردنيل ، وأن تختار ما يلائمها . وتستطيع ، أن تعتمد في هذا المجال ، ليس فقط على تأييد روسيا، بل وعلى إعانتها الجدية والفعالة » . لكن هذا الوزير كان مع تأكده من تأييد روسيا لمشروع الاحتلال الفرنسي متخوفاً من معارضة بريطانيا للمشروع ولذلك لم يتحمس له كثيراً .

إلا أن الذي أجل مشروع احتلال الجزائر إلى عام ١٨٣٠ ليس هو الخوف من بريطانيا فقط ولكن هو اعتبارات اخرى من بينها أن معركة نافارين – التي ساهم فيها الأسطول الفرنسي ضد الاسطول التركي – عززت امكانية قيام الحرب بين الخلافة العثمانية

وبين روسيا . وهو أمر من شأنه أن يحول دون عودة القوة البحرية الفرنسية التي وضعت في المشرق تحت قيادة الأميرال دي ريني ، وبذلك حرمت فرنسا من أداة هامة لتنفيذ مشروع احتلال الجزائر في ذلك العام . يضاف إلى ذلك أن وحدات بحرية فرنسية كانت حينذاك بالبرازيل .

التفكير في أستعمال محمد علي باشا مصر :

يتضح من كل ما تقدم أن فكرة احتلال الجزائر لم تولدها ضربة مروحة حقيقية أو مختلفة .

لكن على الرغم من كل هذه التقارير والمقترحات التي كانت تدفع الحكومة الفرنسية إلى احتلال الجزائر ، فان الحكومة الفرنسية كانت متخوفة من الاقدام على هذه المحاولة، نظراً لما اشتهر به الجزائريون من استبسال في الدفاع عن وطنهم . ولذلك فكرت الحكومة الفرنسية ، في وقت ما ، في أن تستعمل محمد علي باشا مصر لتحقيق أغراضها بالجزائر . وقد أغرت فرنسا محمد علي بقبول مشروعها ، ملوحة له بأن الاستيلاء على الجزائر يمكنه من اسطول بحري يعينه على تحقيق أغراضه في المشرق . لكن حسابات المسؤولين الفرنسيين الذين فكروا في اسهام محمد علي في غزو الجزائر وفي ربط الجزائر بالمسألة الشرقية ، كان يهدف إلى :

١ – فتح طريق مصر من جديد لفرنسا .

٢ – تحميل تكاليف الاحتلال لمحمد علي باشا ، لان بولينيك كان متخوفاً من التكاليف .

٣ – التخوف من تعبئة الجزائريين في المعركة ضد المسيحيين ، فاستعمال محمد علي يجنب الفرنسيين هذه التعبئة لانه مسلم فلن يتجند ضده الجزائريون ، كما يتجندون ضد الفرنسيين .

وقد اشترط محمد علي مقابل ذلك ان يملكه الفرنسيون البواخر التي كان من المقرر ان يسلفوها له لحمل فرقة الى الجزائر وتونس وطرابلس . وكانت حجته في انه لا

يستطيع ان يتقدم امام سكان مسلمين ، في ظل راية مسيحية .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات بهذا الشأن اوعزت القسطنطينية الى محمد علي بالتخلي عن المشروع ، تحت تأثير الانكليز الذين كانوا لا ينظرون بعين الارتياح لاستقرار الفرنسيين فوق شواطىء المغرب العربي . ومن جهة اخرى كانت بعض العوامل السياسية الاروبية التي دفعت بولينيك الى استعمال محمد علي قد زالت ، فقررت فرنسا ان تقوم باحتلال الجزائر بمفردها . ولا شك ان من بين العوامل التي دفعت الحكومة الفرنسية الى احتلال الجزائر بمفردها هو تواتر المعلومات عن كنوز القصبة واموال الخزينة الجزائرية ، واقتناع المسؤولين الفرنسيين ان تلك الكنوز كافية لتغطية تكاليف الحملة .

وقد تم اتخاذ هذا القرار في اجتماع عقده مجلس الوزراء الفرنسي يوم ٣١ جانفي ١٨٣٠ .

الباب الرابع عشر

الادارة الجزائرية في العهد التركي

- أعضاء الديوان .
- خزينة الدولة .
- تصنيف السكان .
- التقسيم الاداري .
- بايلك تيطري .
- بايلك الغرب .
- بايلك قسنطينة .
- طبيعة النظام الاداري التركي .

الادارة الجزائرية في العهد التركي

وضع الأتراك في الجزائر ديوانين : الديوان الخاص ، وهو مجلس الدولة ، والديوان العام وهو المجلس العمومي . وقد سبق لنا أن ذكرنا أعضاء الحكومة . أمـــا أعضاء الديوان فهم : الداي – الخزناجي – آغا الهلالين أو آغا سركاجي – وكيل حرج البحرية وتحت امرته امير البحر والرياس وقائد المرسى ، واثنا عشر بلوك باشي يحملون مفاتيح المخازن التي تجمع لوازم البحرية – الكاهية وهو المكلف بأمن مدينة الجزائر وحراستها – الياباشين ، وهم الذين يرتقون إلى رتبة الكواهي . البلوك باشين وهم الضباط السامون – آغا الصبايحية . الاوداباشين وهم ضباط كبار .

ولا يتقاضى الداي مرتباً إلا ما يتقاضاه على رتبته العسكرية ، لكنه يتقاضى هدايا ضخمة سواء من البايات او من القناصل الأجانب ، ويطلق عليها اسم « العوايد » وقد كانت تقاليد الديوان – التي تقوم مقام القانون – هي منع الداي من الزواج ، إلا ان الديوان يتساهل أحياناً ويبيح للداي أن يتزوج ، لكن الداي يتعين عليه في هذه الحالة أن يسكن زوجته أو نساءه خارج دار الامارة . وأساس هـذه الفكرة هي ان الداي يعتبر أباً لجميع الجنود في البلاد ، فلا يحق له أن يكون أباً لأولاد آخرين ، وقـد تزوج الداي علي باشا ، وأسكن زوجه في منزل ملاصق لدار الحكومـة (وهو مقر وزارة السياحة الآن) وفتح بين الدارين باباً ليجتاز من احداهن للأخرى بسهولة ، فتصادم من أجل ذلك مع الديوان ، وألزمه الديوان إغلاق الباب فنزل عنـــد آمر الديوان وسد ذلك الباب .

* * *

أما خزينة الدولة الجزائريـــة ، التي أسالت لعاب اوربا ، فهي عبارة عن دهاليز

مقوسة تحت الأرض ، وبابها يفتح في صحن الدار التي يجتمع بهـــا الديوان . وعلى باب الدهاليز مقاعد خشبية يجلس عليها باستمرار ستة عشر نوبتجياً . والخزناجي هو وحده الذي يرخص في الدخول للخزنة . ومفتاح الخزنة يوضع عند الداي ، الذي يسلمـــه في كل صباح للخزناجي . ويتولى الخزناجي تعيين موظفَين من أهل الجزائر يطلق عليهمـا لقب « الصبايحي » لعد النقود الداخلة للخزنة أو الخارجة منها . وفي هذه الخزنة توضع السيوف الذهبية والخناجر والبنادق المرصعـــة والحلي والجواهر واليواقيت التي ترجع للدولة عندما يموت أحد كبراء الديوان .

ومعروف ان المداخيل القارة للدولة الجزائرية تتمثل فيما يدفعه البايات كل عام ، وما تدره التجارة مع الخارج وجراية اليهود بالاضافة إلى المغانم التي يكتسبها الرياس في غزواتهم ، إلى « المعاليم » التي تدفعها دول اروبا وأميركا لاتقاءهجومات القراصنة .

تصنيف السكان .

كان سكان الجزائر ، في عهد الأتراك ، ينقسمون الى قسمين :

١ — أهل المخزن .

٢ — الرعية .

فأهل المخزن هم رجـال الادارة والحـكم من عسكريين وموظفين مدنيين وأصحاب الامتيازات وكبار الملاكين . وباختصار أن اهل المخزن هم الذين تتشكل منهم الطبقـــة الحاكمة التي تشتغل وتعيش على حساب الآخرين الذين تتكون منهم الرعية .

فالرعية إذن هم أفراد الشعب الذين يمكن لأهـل المخزن استخدامهم وتجنيدهم في كل وقت ؛ فهم تحت تصرف أهل المخزن ورهن أوامرهم .

وهناك صنف ثالث من السكان لا يدخل في هذين القسمين ، وهو القسم الذي لا يخضع لسيطرة الدايات مباشرة ، لأنه تابع لامراء مستقلين ، يـدفعون أتاوة للداي ، في مقابل

احتفاظهم بنوع من الاستقلال الذاتي . وهذا القسم تارة يكون متحالفاً مع الأتراك وتارة تحدث بين الجانبين اصطدامات ومعارك، وهؤلاء الامراء أو الشيوخ، وان كانوا استطاعوا الاحتفاظ بنوع من الحكم الذاتي ، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على الحكم التركي لأنهم كانوا متفرقين ، ولم يحاولوا توحيد كلمتهم ، ولو ان أولاد سيد الشيخ ، وشيوخ عمور ، وأولاد مختار والمقراني وبيت بوعكاز ، وشيخ الحنانشة ، وحدوا كلمتهم لاستطاعوا بسهولة أن يتخلصوا من الحكم التركي ويقيموا حكماً جزائرياً أصيلاً .

وقد أدرك الأتراك هذا الخطر الذي يشكله اتحاد هؤلاء الامراء ، ولذلك بذلوا كل ما في وسعهم من وسائل سياسية واغراءات ومناورات للحيلولة دون أن تلتقي كلماتهم ودون أن تتوحد جهودهم ، ومن أجل خلق احقاد ومشاحنات وصفوف متعارضة تقتل في المهد كل محاولة توحيد .

فقد كان الاتراك مثلاً يعمدون دائماً إلى خلق منافسات بين أفراد البيت الواحد ، ويبذلون الوعود والاعانة لأضعاف الفروع شعبية ، حتى إذا انتصر الفرع الذي أيدوه ، أصبح في قبضتهم واصبح من السهل محاربته — ان هو حاول الخروج عن طاعتهم — بعنوان الخيانة أو غير ذلك من وسائل الدّس والكيد .

ومن السهل أن نتصور سخط الجماهير الشعبية على نظام مثل هذا يعيش على عِرْق ودماء الكادحين في الداخل ، وعلى موارد القرصنة في الخارج . وطبعاً لم يكن راضياً على هذا النظام إلا أهل المخزن الذين يتركبون من :

— أصحاب الامتيازات . فهناك وظائف تدر على صاحبها امتيازات معينة . وتمكنه من امتلاك أراض ومزارع طيلة وجوده في الوظيفة .

— المخازنية الذين تتولى الدولة تجهيزهم بالسلاح والمركوب والذين يتمعون باعفاء اراضيهم من الضرائب .

— وهناك صنف آخر من المخازنية لا يتمتع إلا بامتيازات ضئيلة ، لكنه يستطيع بوصفه خادماً مباشراً للبايلك ان يحقق ارباحاً ضخمة بوسائل شرعية وغير شرعية يسهلها

له تمتعه بحماية « البايلك » التي لا تمنح لافراد الرعية .

* * *

اما المناطق التي كانت خاضعة لامراء او شيوخ يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي مثل بعض مناطق القبائل . ومثل بوسعادة وتغرت والاغواط وعين ماضي ، ومثل بعض القبائل الرحل الذين يدفعون مغارم للاتراك مقابل الترخيص لهم في التنقل داخل المناطق الخاضعة للادارة التركية – مباشرة ، من اجل المتاجرة – هذه المناطق تعد اصنافاً اجتماعية مختلفة من السكان لا يمكن حصرها على وجه الدقة ، لعدم وجود نظام اداري دقيق يحكمها ، لكن يمكن التقول بصفة عامة ، انها كانت تتركب من :

– الجواد او الفرسان الذين ينتمون غالباً الى عائلة الامير او الشيخ .

– ثم يأتي الفرسان الذين لا ينتمون الى عائلة الامير او الشيخ .

– المحاربون الذين يعتمد عليهم بيت الشيخ في الدفاع عن ذاتيته وامتيازاته وقد يقل عدد المحاربين في بعض الجهات بحيث لا يشكل إلا دائرة الشيخ .

– في الدرجة الرابعة تأتي جمهرة الفلاحين الذين يدفعون الضرائب للامير او الشيخ ، ومنهم يجند الامير او الشيخ فرسانه .

– في الدرجة الخامسة تأتي احياناً طبقة تتكون من قبائل يطلق عليها وصف « الآدمية » وهي اقل درجة اجتماعية من طبقة الفلاحين . ويبدو ان هذا الوضع يَرْجِعُ الى اسباب غير معروفة ، او الى معارك تقادم عليها الزمن وتنوسيت ، اصبحت هذه القبائل على اثرها ، في هذا الوضع الاجتماعي المتدهور الذي يحكم عليها بان تدفع المغارم والرعاة فقط ، دون المقاتلين والمحاربين .

***

والى جانب هذه التقسيمات والاصناف الاجتماعية ، كانت توجد مناطق لا يمكن

تحديد وضعها السياسي على وجه الدقة ، وكان يطلق في العاصمة ، على هـــذه البلاد اسم « بلاد الخلا » او « بلاد البارودة » لانها كانت موضوع محـــاولات توسيعية من طرف الادارة المركزية او من طرف المشائخ والامارات .

التقسيم الاداري :

على هذا التقسيم او التنظيم السياسي والاجتماعي وضع الاتراك تقسيما ادارياً يوجـد في كل قسم منه اهل المخزن والرعية .

١ — دار السلطان :

فهناك اولا دار السلطان ، وهي المنـاطق الموصولة مباشرة بالداي ، وهي تشتمل جغرافيا على خمس مدن هي : الجزائر ، البليدة ، القليعة ، شرشال ، ودلس . كما تشتمل على « الاوطان » الموضوعة تحت اوامر القواد الاتراك التابعين رأساً للآغا . الذي هـــو قائد جيش الداي .

وخارج هذه المناطق ، توجد قبائل او جماعات توضع مباشرة تحت اوامر الآغا ، او تحت اوامر خوجة الخيل . وهي قبائل تكون قـد طالبت بان توضع مباشرة تحت حماية الداي ، تهربا من سلطة الباي .

وتختلف وضعية الاوطان بعضها عن بعض ، فالاوطان التي تشكل منهـا ضواحي مدينة الجزائر لم يكن تركيبها الاجتماعي حسب القبائل والاعراش، ولكنها كانت مقسمة تقسيما ادارياً دقيقاً . وكانت الخلية الاساسية للتقسيم الاداري في ضواحي العاصمـــة « الحوش » الذي قد يكون عبارة عن مزارع يملكها موظف سام او قائـد عسكري او احد افراد طائفة الرياس ، كما قد يكون متركباً من عدة منازل وقطع صغيرة يملكها فلاحون فقراء .

٢ — بايلك تيطري :

عاصمته المدية ، وباي تيطري هو أول البايات في نظـــام التشريفات ، لكنه أقلهم

شأناً من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية التي تكتسيها المنطقة التابعة له ، بالرغم من فخامة حرسه ، واعلامه السبع .

بل ان باي تيطري لا يحكم المدية ، عاصمته ، اذ جعلها الأتراك تحت ادارة حاكم خاص تابع رأساً للديوان الأكبر في مدينة الجزائر .

ومما قلل من أهمية باي تيطري ، ان الحاكم الحقيقي للمنطقة هي عائلة الشيخ المختار ، لكن الأتراك عرفوا كيف يفرقون هذه العائلة الى « صف غربي » و « صف شرقي » يتطاحنان دوماً . فتارة يستميل الداي رأس الصف الغربي ويستشيره في كل شؤون بايلك تيطري ، وآنذاك يفر رأس الصف الشرقي الى الصحراء حيث لا تناله جيوش الداي ، وتارة يستميل الداي رأس الصف الشرقي فيفر منافسه الى الصحراء ... وقد تكررت هذه اللعبة الى ان أصبحت مألوفة للسكان وصارت جزءاً من الحياة السياسية في تيطري .

أما القوة العسكرية التي كان يملكها باي تيطري فكانت تتمثل في :

— خمسين صبايحي وخمسة عشر كاحلي يتركب منهم حرسه الخاصة .

— نوبة المدية التي تتركب من خمسة صفارة (مائة وعشرون جندياً) .

— قوة احتياطية من مائتين « زبنطوط » أو « كسورجة » في برواقية .

— حامية سور الغزلان التي تتركب من ثلاثين جندياً وستين احتياطياً .

وقد كان بايلك تيطري مقسماً الى اربع قيادات هي :

١ — قيادة تل الظهراوية .

٢ — قيادة تل القبلية .

٣ — قيادة الديرة أو سور الغزلان .

٤ — قيادة الجنوب ، وتشتمل على القبائل الرحل واتباع أولاد مختار .

٣ ـ بايلك الغرب :

كان الطابع المميز لتنظيم وهران هو الطابع العسكري ، نظراً للمنافسات والحرب التي نشبت بين الأتراك وبين سلاطين المغرب الأقصى من جهة ، ونظراً لمتطلبات الدفاع العسكري ضد القاعدة الحربية الاسبانية في وهران ومرسي الكبير . ومن هنا كانت فرق بايلك وهران دائماً على أهبة الدفاع والحرب . وقد تأثرت الزراعة بهذا الوضع ، كما تأثر العمران ، اذ لا وجود للاستقرار خارج المدن الكبيرة أو الجبال المنيعة ، وأصبح مصدر الثروة الأساسي هو تربية المواشي ، التي يمكن الانتقال بها عند نشوب معركة أو مقدم غارة .

وهذا الوضع هو الذي جعل تنظيم بايلك وهران أكثر سهولة من جهة ، وأشد قوة من جهة اخرى . فباستثناء ، أولاد عامر ومجاهر الذين كانوا تابعين لادارة باي الغرب مباشرة ، كان بايلك وهران مقسماً بين ثلاثة مسؤولين كبار يستلمون الضرائب ويعينون القياد وهم :

ـ آغا الدواير .

ـ آغا الزمالة .

ـ خليفة الباي .

والواقع انه كان يوجد أربع آغوات ، لكنهم كانوا يتقاسمون العمل بحيث لا يباشره الا اثنان فقط ، في الوقت الذى يستريح فيه الآخران . وقد كان آغا الزمالة وآغا الدواير مجبرين على تنسيق العمل بينهما ، لان السكان الواقعين تحت نظر هذا متداخلون مع السكان الواقعين تحت نظر ذلك . وقد تعمد الأتراك إيجاد هذا التداخل حتى اذا فكر أحدهما في التمرد ، أمكن احباط مشروعه بواسطة الآخر في كل نقطة من نقط سلطته .

وتشتمل مدينة وهران ـ التي أصبحت هي عاصمة بايلك الغرب منذ ١٧٩٢ ، على نوبة عاملة تتركب من عشر سفرات .

ويشتمل مخزن آغا الدوايرعلى :

– ٤٧٠ فارسا في الدوايرر .

– خمسين فارساً في الغمرة .

– ست وعشرون فارساً في أولاد عامر وأولاد سيدي مسعود .

ويشتمل مخزن آغا الزمالة على : ٣١٧ فارساً .

وتشتمل مستغانم على خمس سفرات .

– مخزن الغرابة ٣١٣ فارساً .

– هاشم دروغ : خمسون فارساً .

– برحية الصراط : خمسمائة فارس .

– برحية الجبالية مائة فارس وثمانمائة من المشاة .

– معسكر : ثلاثة سفارى .

– هاشم : الفان فارس (تابعان لآغا الدوايرر) .

بايلك قسنطينة .

يتميز بايلك قسنطينة بأن سلطة الأتراك فيه لم تتمكن في وقت من الاوقـــات من من السيطرة على منطقة الشرق الجزائري . فقـــد كان مشائخ العرب أو رؤساء القبائل ينظمون باستمرار الثورات في وجه الحكام الأتراك . واذا استثنينا عهـد صالح باي ، الذي يتطلب دراسة خاصة ، نجد ان بايلك قسنطينة لم يخل في وقت ما من الثورات التي تعتمد دائماً على وجود سخط شعبي ضد الحكم التركي .

ونظراً لمناعة الجبال أو اتساع الصحارى التي لجأ اليها الثوار، فان الأتراك قد يئسوا من التغلب على هذه الثورات بواسطة القوة العسكرية ، فعمدوا الى الدس والكيد واستعمال الرشوة والفساد لتحقيق ما عجزت عن تحقيقه قوة السلاح من تفرقة تضمن لهم استمرار

السلطان . ومن بين الوسائل التي استعملها الأتراك في هذا المجال هي دفع الجماعات التي يتمكنون من هزمها في السهول – دفعها واجلاؤها بعيداً عن أراضيها ، واقطاع تلك الأراضي لمن يتعاون معهم . ونتج عن هذه السياسة ان تشكلت حول مدينة قسنطينة أملاك واسعة تابعة للبايلك ، يُمكنُ من استغلالها من يكون الاتراك في حاجة اليه . وقد منح حق استغلال هذه الاراضي لضباط الباي ورؤساء مخزنه .

ولم يكن هناك وسطاء رسميون بين الباي وقياد القبائل الخاضعة للاتراك ، أو المشائخ الذين تحالفوا معهم . وقد كان خليفة الباي شخصاً لا أهمية له ، يتمثل دوره فقط في حمل محصول الضرائب الى العاصمة .

وتشتمل مدينة قسنطينة على خمس سفرات عاملة بها ثلاثة وسبعون جندياً ، وعلى المدفعية ، وهي تابعة لدار الباي . كما تشتمل على ثلاثين مكاحلية وخمسين مزرافية تابعين للباشكاتب ، وعلى ٦٠ شاوشاً .

– وهناك مخزن الحراكتة الذي يوضع على رأسه دائماً قائد من أقارب الداي، ويشتمل على ثلاثمائة فارس.

ويشتمل مخزن الحراكتة على عين البيضاء وصدارته ومسكيانة الخ ...

– وهناك دوار الآغا الذي يشتمل على الف فارس وهو يشمل منطقة فج مزالة وعين التّين وعين عبيد .

– والزمول ويشتمل على خمسمائة فارس .

– وأولاد عبد النور الذين يضعون الف فارس من خيرة الفرسان تحت امرة قائد تركي.

– التلاغمة وتشتمل على مائة فارس .

– مخزن اولاد فاضل : مائتا فارس .

– صحارى شيخ العرب ثمانمائة فارس .

– بسكرة : اربع سفارى .

– تبسة سفاريان .

عنابة : خمس سفارى .

– بجاية : خمس سفارى .

– حمزة : (البويرة) سفارى واحد .

***

ان هذه اللوحة تعطي صورة مصغرة عن كيفية التقسيم الاداري الجزائري ، في العهد التركي . والواقع اننا لا نستطيع أن نعطي في نطاق هذا الكتاب ، صورة مفصلة شاملة عن الادارة الجزائرية وتقسيماتها وتفريعاتها وأصنافها ، فذلك عمل يتطلب دراسة مستقلة. لذلك اقتصرنا على ذكر بعض المراكز الادارية، كما اقتصرنا في ذكرنا لهذه المراكز الادارية على ذكر الصنف الأول منها فقط ، وهو صنف المخازنية .

وفيما يلي ملخص عام لمختلف الأقسام الادارية موزعة حسب الأصناف من جهة ،وحسب التقسيم الاداري من جهة اخرى :

	دار السلطان	تيطرى	وهران	قسنطينة
المخزن	١٩	١٤	٤٦	٤٧
الرعية	١١	٢٣	٥٦	١٤
الاقسام التابعة لامراء متحالفين مع الأتراك	٢٠	١٢	٢٩	٢٥
الاقسام التابعة لأمارات مستقلة	٣٠	١٣	٣٦	١٣٨

طبيعة النظام الاداري التركي :

يتبين من الملخص السابق أن الجزائر احتفظت إلى حد مـــا في عهد الأتراك بالتقسيم الاجتماعي الذي حدث في الجزائر خلال الحقب التاريخية التي سبقت العهد التركي ، لأن الأتراك اكتفوا بأن وضعوا فوق ذلك التقسيم الاجتماعي ، تقسيماً ادارياً مرنـــاً ، يتميز بمحاولة التكيف حسب ما تفرضه الأحوال المختلفـــة . فالنظام التركي يفصل اسلوب الإدارة المباشرة عندما يكون ذلك ممكناً ، وهو ما حققه في المنطقـــة التابعة لدار

السلطان ، وبعض مناطق بايلك تيطري التي كانت اولى المناطق التي استقر بها الاتراك ويكتفي بوضع مسؤول تركي في أعلى السلم تاركاً لأبنـــاء البلد حرية تصريف شؤونهم الداخلية ان اصطدم بمعارضة قوية بل ويصل إلى حـــد التفاهم مع بعض امراء ومشائخ القبائل التي تتشدد في التمسك باستقلالها .

ويمكن القول بأن هذه المرونة هي التي مكنت من توحيد الجزائر دون توحيدها ، أي ان مرونة الادارة التركية حققت توحيد الجزائر ترابياً في نطاق حدود تكاد تكون هي الحدود التي وجدها عليها الفرنسيون ابان الاحتلال .

لكن هذه المرونة نفسها — التي اضطر اليهـا الاتراك اضطراراً — هي التي حالت دون تحقيق الوحدة المعنوية للجزائر في العهد التركي كما يجب . اذ ظلت الجزائر في ذلك العهد محتفظة بأصناف اجتماعية مختلفة ، تذرع بها كثير من المؤرخين الاوربين واعتمدوها في فكرتهم القائلة بأنه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد التركي وانهـــا كانت فقط بصدد التكوين . وانه لم يكتمل نموها عندما احتل الفرنسيون الجزائر .

والغريب ان اولئك المؤرخين يستعملون في مجال الحكم على تكوين الذاتية الجزائرية، مقاييس نظرية صارمة يهملونها عند الحكم على تكوين الذاتية عند الشعوب والبلدان الأوربية الأخرى .

ان ايجاد إدارة مركزية واحدة ، وتركيز السلطات في يد الديوان الذي يتولى تعيين أو انتخاب الداي ، وتعامل دول اوربا واميركا مع هذا الداي ، والمعاهدات المبرمـــة بينها وبين الجزائر ، يدل على أن الجزائر قد تطورت في العهد التركي إلى أن أصبحت لها دولة بالمعنى الحديث للكلمة .

نعم لا ينكر احد ان الاتراك لم يبذلوا اي مجهود حضاري هدفه هو تذويب تلـك الاصناف الاجتماعية التي وجدوها قائمة ، والتي تختلف من نظام العرش ، الى نظام الجماعة ، الى الاقطاع الى المدن الكبير ، لكن ذلك لا يعني ان الجزائر لم تكن لها اجهزة ادارية . فالنظام الاداري الذي وضعه الاتراك كان عبارة عن محاولة لمركزة الادارة وتحقيق وحدتها الادارية ، ولا ادل على ذلك من ان الفرنسيين انفسهم اكتفوا في مراحـــل معينة من

الاحتلال بالاخذ بالتقسيم الاداري التركي . لكن الذي حال دون ان يتم التطوير الذي بدأ في عهد الاتراك ودون ان يتواصل الى مداه الكامل ، هو ان السياسة التركية كانت قائمة من أول استقرارهـا في الجزائر على التخوف من السكان الجزائريين وحرمانهم من مناصب الإدارة والحكم ، وقد بلغ هذا التخوف درجة هستيرية ، اذ ان الاتراك لم يكونوا يثقون حتى في الكراغلة الذين يعتبرونهم جزائريين اكثر مما هم أتراك ، وعلى هذا الأساس راحوا يجندون باستمرار الجنود من الخارج ، من أزمير ومن قرمان ، مما جعل الطبقـة العسكرية الحاكمة تتجدد مع كل جيل .

هذا هو السبب الذي حال دون ان يندمج الأتراك في المجتمع الجزائري ، رغم ان العامل الديني - الذي كان هو أهم محرك سياسي في ذلك العصر وبعـــده — كان يلعب لفائدة الاندماج والذوبان في المجتمع الجزائري . وفي هذا المجال لا يستطيع أي ناقد أن يغفل الدور السلبي الذي لعبته القسطنطينيـــة ، كما لا يستطيع أن يغفل عن تسجيل مسؤولياتها الضخمة في هـــذا الوضع الذي كان من بين العوامل الأساسية التي مهدت للاستعمار الفرنسي المباشر .

وهذا السبب نفسه ، استقدام الجنود الأساسيين للسلطة المركزية من الخارج ، هو الذي اجبر الأتراك على اتخاذ تلك المرونة التي حالت دون ان تتحقق الوحدة المعنويـــة للجزائر ، ودون ان تتطور الجزائر اجتماعياً تطوراً منسجماً مع تطور كيانها كدولة لها وجود دولي ، لأن استقدام الجنود من الخارج ، يجعل عددهم محدوداً إلى درجة تجعلهم عاجزين عن أن يفرضوا سلطانهم بالقوة على كامل الجزائر ، ومن هنا كانت تلك المرونة التي ترتبت عليها عواقب وخيمة .

إن محاولة إقامة إدارة مركزية من طرف الأتراك ، على هذا الأساس ، اجبرتهم على سلوك سياسة أدت في الواقع الى لامركزية حرمت الدولة من موارد داخلية هامة ، لأن قسماً كبيراً من الموارد الداخليـــة كان يذهب إلى صناديق « الوسطاء » بين الشعب وبين الادارة المركزية ، إلى درجة ان ميزانية باي قسنطينة او باي وهران كانت تتجاوز ميزانية الداي . فالمحفوظات والسجلات التي عثر عليها الفرنسيون بقسنطينة عام ١٨٣٧

تكشف ان مداخيل الضرائب بلغت ٩٤٠١٣٠ بياستر ، في حين ان الكشوف التي وجدها الفرنسيون عند خوجة الخيل عنـــد احتلالهم للعاصمة دلت على أن مداخيل الضرائب الى خزينة الداي لم تتجاوز في نفس الفترة ٢٩٦،٠٠٠ بياستر .

وقد أكد القنصل الأميركي بالجزائر ، شالر ، عام ١٨٢٢ ان البايات لا يدفعون للداى الا حوالي عشرين في المائة من مداخيلهم .

ذلك ان الوسطاء على كل المستويات يأخذون نصيبـــاً لأنفسهم من محصول الضرائب والزكوات ، مثل كبار الضباط ، ومثل القياد وشيوخ القبائل ومثل الموظفين السامين . وقد أدت هذه الروح الى انتشار الرشوة ، خصوصاً وان النظام التركي لم يكن يدفـــع لموظفيه جرايات قارة ، بل كان يمنحهم امتيازات عززت بدورها روح الرشوة والفساد .

ومما زاد في خطورة الوضع ، ان ضآلة الموارد الداخلية التي تصل الى خزينة الداي ، صرفت النظام التركي الى التفكير في موارد خارجية ، مثل موارد الاحتكارات التجارية ، ومثل موارد القرصنـــة ، وفرض الاتاوات على دول اروبا واميركا ، كما صرفت ضآلة الموارد الداخلية العادية ، النظام التركي إلى التفكير في زيادة الضرائب . وقد لعب هذان الأمران : التفكير في الموارد الخارجية ، وزيادة الضرائب دوراً كبيراً في أضعاف كيان الدولة والتمهيد للاحتلال .

ذلك ان القرصنة وفرض الاتاوات على الدول الأجنبية ، كان نظاماً معمولاً به في فترة معينة من التاريخ . لكن التطور الذي حدث بعد ذلك في اوربا جعل القرصنة ومـــا تستلزمه من فرض الاتاوات على الدول الاجنبية طريقـــة لم تعد تتماشى مع الوضع الدولي الذي كان بصدد التكوين . ولئن كانت اوربا قد عرفت كيف تُكَيِّفُ اطماعها حسب اشكال تتماشى صوريا مع الوضع الدولي الـــذي كان بصدد التكوين فان النظام التركي غفل عن هذه الحقيقة مدفوعاً الى هذه الغفلة ببحثـــه الاعمى عن موارد وجوده .

وهذه الغفلة عن ادراك هذا التطور هي التي ادت الى تأليب دول اروبا على الجزائر

ومهدت للاحتلال الفرنسي .

وفي المجال الداخلي ، ادى ارتفاع الضرائب الى تعزيز السخط الشعبي على النظام التركي . والى تهرب السكان من دفع الضرائب جملة واحدة ، وهو امر كانت له اوخم العواقب الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى العواقب السياسية .

وهكذا نجد ان الوسيلتين اللتين عمد اليهما النظام التركي لتمويل خزينته وضمان استمراره ، هما بالذات اللتان لعبتا دوراً أساسياً في القضاء على النظام التركي والتمهيد للاحتلال الاجنبي ، لان السخط الشعبي في الداخل واندلاع الثورات في كل مناطق البلاد كان قد قضى على كيان الدولة داخلياً حتى اذا جاءت محاولة الاحتلال الأجنبي اصطدمت بمجرد صورة ، وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظام التركي بالجزائر .

الباب الخامس عشر

سقوط النظام التركي

- التطور الاقتصادي في عهد الدايات .
- الامكانيات الزراعية .
- الوضع الاجتماعي .
- الحياة الثقافية .
- عوامل انهيار الاسطول الجزائري .
- استسلام الداي .

التطور الاقتصادي والاجتماعي

إذا بحثنا عن نقطة الانطلاق لسلسلة العوامل التي أثرت على تطور الوضع السياسي فالاقتصادي فالاجتماعي بالجزائر ، نجد انها تتمثل خاصة في محاولات الاحتلال الاسباني لشواطىء الجزائر ، ومحاولات التسرب الى المناطق الداخلية منها .

لان التهديد الاسباني ، كما تبينا ذلك في الفصول الاولى ، هو الذي دفع الجزائريين الى الاستنجاد بالاتراك . وجاء استقرار الأتراك في تلك الظروف بالذات ، فطبع الوضع السياسي بطابع كانت له نتائج اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى .

ثم ان استقرار الاسبان في وهران ومرسى الكبير الى عام ١٧٠٨ ، وعودتهم اليها في ١٧٣٢ الى١٩٧١جعل من المناطق المحيطة بوهران جهة غير مسكونة ولا مستغلة فلاحياً. وكانمن نتائج هذا الوضعهو انتشار المواشي وما تستلزمه منمراعي،ومعروف انالاعتماد على المواشي كمصدر للثروة ، وان كان يجعل السكان في مأمن من غارات الاسبان ، إذ يستطيعون الفرار بمواشيهم في وجه العدو فور السماع بتحركاته ، فانه من جهة اخرى يؤدي الى انعدام الاستقرار في هذه المناطق التي تسمى « بلاد البارود » .

على ان هذا العامل كان مبطناً بعامل آخر عزز الانصراف عن الاعتناء بالموارد الداخلية : فاستقرار الاسبان في شواطىء المغرب العربي أعطى للغزوات البحرية دفعة جديدة جعلها هي الطابع المميز لذلك العصر .

ولئن كانت الغزوات البحرية ، في مبدأ الأمر ، رد فعل شرعي ضد الاسبان وضد كل المحاولات الصليبية، فان ما كانت تدره من اموال وموارد ، جعل العناية بها تتحول من الهدف الأساسي الذي كانت من أجله وهو وضع حد للتوسع الأوربي في شمال افريقيا ، إلى ما تدره من أموال وموارد . وهذا التحول هو ما أشرنا اليه في فصل سابق من تحول

عقلية الجهاد إلى عقلية القرصنة .

وقد كان من الممكن أن تزدهر الفلاحة في المناطق البعيدة عن نقط الأحتلال الاجنبي ، لولا ان السياسة الجبائية التركية ، كانت تشتمل على مظالم اجتماعية جعلت الفلاحين ينصرفون عن الفلاحة ، ويفضلون تربية المواشي اذ يستطيعون أن يفروا بهـا في وجه الجباة ، دون الحبوب التي تشدهم إلى مكان معين وتجعل منهم عبيـد الأرض وعبيد الجباة .

وهذا لا يعني ان الجزائر لم تكن بها فلاحة مزدهرة . كلا. فلا نعدم الشهادات العديدة التي تسجل ازدهار الفلاحة قبيل الاحتلال الفرنسي ، ولكنه يعني ان الثروة الزراعيـة ، كان من الممكن ان تكون اهم بكثير مما كانت عليه لولا تلك السياسة الجبائيـة الظالمة .

ويظهر هذا التأثير على الأخص في ميدان المزروعات الصناعية مثل القطن ، والتين — فيما يتعلق بتربية دود القز — فهذه المزروعات لم تزدهر بكيفية تسمح بقيام معامل نسيج عديدة بحيث تكون نواة لتطور صناعي هام .

وهذه السياسة الجبائية الظالمة أثرت أيضـاً على تطور التجارة في المواد المتفرعة عن الفلاحة فحرمت الخزينة الجزائرية من موارد هامة ، فالكميات الهامـة من الجلود والأصواف والشمع والزيوت والحبوب التي كانت موضوع المبادلات التجارية ، كانت في غالب الأحيان تهرب بواسطة السوق السوداء حتى لا تقع تحت طائلة الضرائب الفادحة .

وقد لاحظ فونتور دي بارادي ، عند زيارته للجزائر في عام ١٧٩٠ ان « الأراضي شديدة الخصب ، لكن أكثر من نصف الأراضي غير مستثمر » .

ان سوء استثمار الأرض هـذا ، هو الذي حال دون تعميم أساليب الري والسدود ، مثل تلك التي كانت في جهات تلمسان وندرومة والمدية ومستغانم ومسيلة وميلة وحامـة قسنطينة وغليزان وسيق .

* * *

ولسنا في حاجة إلى التنصيص على نتيجة هذا الوضع في الناحية الاجتماعية ، إذ حال

دون تطور العمران ودون ازدهار الفنون والصناعات الجميلة . ذلك ان انتشار اسلوب الرحيل جعل الصناعات اليدوية في المدن تفقد أسواقاً هامة ، إن موجات الهجرة من الأندلس إلى شمال افريقيا حملت للجزائر نشاطات هامة مثل صناعة الحرير ، وصياغة الذهب وصناعة النسيج والساعات والصناعة الخزفية الخ ..

لكن قيام الحروب بين الجزائر والدول الاوربية حال دون تصدير هذه المنتوجات إلى الخارج بكيفية منتظمة ، كما ان استقرار المهاجرين بكل من تونس والمغرب الأقصى ، حال دون تسويق هذه المنتوجات في هذين البلدين ، فلم تبق إلا الأسواق الداخلية التي حكمت عليها فداحة الضرائب بالنضوب ، وهو نضوب اثر على مستوى منتوجات الصناعات اليدوية ، لأن انعدام أسواق واسعة يحول دون أن تتطور تلك الصناعات إلى الدقة ويصبح هم أصحابها ليس هو البحث عن الأبعاد الجمالية ، ولكن عن تخفيض التكاليف ، ولذلك لم تلحق الصناعات اليدوية – في معظم الأحيان – بالمستوى الفني ، بل انحطت الى مستوى الأسواق الريفية المحدودة الامكانيات . وقد ظهر ضيق نطاق الأسواق الريفية في المواد التي تتعرض للفساد بسرعة . فقد حدث أن صيادي دللس يقذفون بالحوت إلى البحر لانعدام الشاري .

وهذا هو السبب الذي يفسر اقتصار هذه الصناعات على العاصمة والمدن القريبة منها مثل شرشال ودللس والقليعة ، أما تلمسان فقد كان لها وضع خاص باعتبارها عاصمة قديمة احتفظت بمستوى اجتماعي لا بأس به .

وقد كان من الممكن أن تعمل طبقة الاقطاعيين على تطوير هذه الصناعات اليدوية وازدهارها ، بما تملكه من أموال ، لكن ذلك لم يتم ، لأن القرصنة كانت تضع في متناول أفراد هذه الطبقة أشياء ثمينة بأثمان رخيصة نسبياً .

* * *

وهناك ظاهرة بارزة تسجل التدهور الاقتصادي في العهد التركي هو انعدام تلك الاتصالات التجارية التي كانت تربط بين المغرب العربي من جهة وافريقيا السوداء من جهة اخرى . وقد أثر فقدان هذه الاتصالات على الأسواق الداخلية الجزائرية ، لان النظام

التركي أراد تعزيز المركزية الادارية بمركزية اقتصادية ، كان من نتيجتها ان ذابت عدة أسواق داخلية بعيدة عن العاصمة ، والأسواق الوحيدة التي احتفظت بأهميتها هي التي كانت تتاجر مع البلدان المجاورة مثل قسنطينة التي كانت لهـــا علاقات تجارية مع تونس ومثل تلمسان التي كانت تتاجر مع المغرب الاقصى .

ومما زاد في تدهور الاسواق الداخلية وحال دون أن تتطور تطوراً منسجماً نحو وحدات تجارية كبرى ، هو أن النظام السياسي التركي وما ولده من مظالم وما أدى اليه من اضطرابات حال دون تأسيس شبكات مواصلات هامة كان من الممكن ان تفيد منهـــا الجزائر وأن تجعلها أقدر على مواجهة مطالب العصر ، وأكثر تسلحاً لحل مشاكله ، وأدى انعدام هذه الشبكات بالاضافة الى انتشار الاضطرابات الى انطـــواء المناطق الريفية على نفسها .

* * *

اما التجارة الخارجيـــة فعلى الرغم من تنوعها (حبوب — شموع — أصواف — زيوت الخ ...) فان الأرباح الضخمة التي كانت تدرها ، كانت تذهب في معظمهـــا الى التجار اليهود والى كبار الموظفين والضباط الأتراك الذين لم يكن يهمهم تطوير وسائل الانتـــاج وتجديدها ، بقدر ما كان يهمهم تكديس الثروات. ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان التجارة الخارجية لم تكن تدر أرباحاً هامة على المنتجين ، وبالتالي لم يكن هناك محرك اقتصادي يدفع المنتجين الى تجديد وسائل توسيع أسلوب الملكية الاقطاعية .

ومما زاد في خطورة الوضع ان الملكية الاقطاعية توسعت في نفس الوقت الذي نضب فيه مورد من أهم موارد العمل في النظام الاقطاعي وهو عمل العبيد ، مما أدى الى اختلال اقتصادي كانت له نتائج سياسية واجتماعية .

يضاف الى ذلك أن تناقص موارد القرصنة ، وانحصـــار التجارة الخارجية بفعل الاحتكارات الاجنبية ، جعل أصحاب الامتيازات من رجال الحكم وحلفائهم يتوجهون الى الأرض يستمدون منها ثرواتهم اما مباشرة واما بواسطة ما يفرضونه على أصحابها من فادح الضرائب . وهذا التطور أدى الى القضاء على طبقة المدن التي كانت تكسب ثروتها

من الاقتصاد التجاري ، كما أدى الى القضاء على قاعدتها العقارية : لان طبقة التجار في المدن ، كانت تعزز مكانتها الاقتصادية باملاك عقارية تجعلها بمثابة القاعدة الخلفية .

ولم يستفد من هذا التدهور الا العائلات الاسرائيلية التي كانت تلعب دور الوسيط بين الداي وبين أصحاب الأعمال ، وقد سجل القنصل الأميركي ، شالر ، المكانة التي احتلها اليهوديان ، بوخريص وبوشناق ، إذ قال عنهما أنهما « كانا وحدهما اللذين يقومان بدور البنوك في الجزائر » .

وهكذا تركت التجارة الجزائرية بين أيدي العائلات اليهودية وبين أيدي بعض التجار الأروبيين الذين كانوا يتعاملون مع الاحتكارات التي تمثل مصالح الداي ومصالح البايات . وبواسطة هؤلاء الوسطاء تمكن الداي من مراقبة الحركة المالية والسيطرة عليها لفائدته وفائدة محيطه ، حائلا بذلك دون تطور بورجوازية حقيقية ، مثلما وقع في غير الجزائر ، ذلك ان النظام التركي سمح للاجانب بان يحتلوا مكان طبقة بورجوازية جزائرية نامية ، وقد كانت تصرفات أولئك الأجانب تصرفات استعمارية ، اذ انهم كانوا يوجهون الى اروبا رؤوس الأموال التي كدسوها في الجزائر فحرموا الجزائر من أن تفيد من رؤوس الأموال تلك .

تلك هي الخطوط الاساسية التي تحكمت في الوضعية التي كانت عليها الجزائر عند قدوم الاحتلال الفرنسي . فماذا كانت هذه الوضعية ؟

تسبب انقطاع العلاقات الفرنسية – الجزائرية بعد حملة نابليون على مصر ، والحصار الذي فرضه الانكليز على الجزائر ، في قطع الجزائر عن حرفائها التقليديين مثل مرسيليا وليفورن والموانىء الاسبانية ، اما الصفقات التي ابرمتها الجزائر مع الجمهورية الفرنسية الاولى فانها لم تسو كما عرف من الفصول السابقة .

ولئن كانت الحكومة الانكليزية قد تحصلت على امتياز خولها اخذ مكان الشركة الفرنسية التي كانت مستقرة في الشرق الجزائري ،فانها قد نقصت من الصادرات الجزائرية الى الخارجية . وهذا في نفس الوقت الذي اتجهت فيه فرنسا الى استيراد القموح من روسيا ، وهي قموح لم تكن خاضعة لضرائب فادحة مثل التي كان يفرضها الدايات على

قموح الجزائر ، بحيث ان الداي عندما قطع العلاقات التجارية مع انكلترا ، تسبب في غلق ما تبقى من الاسواق الاروبية في وجه القمح الجزائري .

وكان من نتائج هذا التدهور الذي لحق التجارة الخارجية الجزائرية ، انه تقلصت مساحات الخضر والبقول التي ظلت قائمة لذلك الحين في السهول القريبة من الموانىء التي كان بها نشاط تجاري كثير لا مثل الجزائر وعنابة وارزيو لان تدهور النشاط التجاري اثر على الوضع الزراعي لتلك السهول وجعلها تتقلص تاركة المكان للمراعي والاعشاب وتربية المواشي .

وهكذا تضاءل حجم الصادرات الجزائرية الى اوربا حتى سجل ميزانها التجاري عجزاً خطيراً جعل الاقتصاد الجزائري في موقف تبعية للاقتصاد الاوربي ، وهي تبعية تسبب فيها ، بالاضافة الى العوامل السابقة ، تواطؤ رجال المال اليهود مع الرأسماليين الاروبيين ، واستهوائهم للداي ومحيطه بعروض مغرية لا تقرأ حساباً لمصلحة مجموع الوطن .

* * *

وقد دفعت هذه المكاسب الضخمة التي حققتها الرأسمالية الاوربية على حساب الجزائر – دفعت البلاد الاوربية الى التفكير في تعزيز سيطرتها الاقتصادية على الجزائر بواسطة اضعاف سلطة الداي في الداخل . وقد رأينا كيف حرك الانكليز ثورة ابن الاحرش ، وليس هناك من شك في ان الفرنسيين لعبوا دوراً كبيراً في ترويج الاشاعات والتكهنات التي كانت تنسب للمرابطين ، حول قرب نهاية الحكم التركي وانتصاب سلطة اجنبية ، وهي اشاعات ورائجات سهلت قيام بعض الثورات المحلية .

وقد اثارت هذه المحاولات ردود فعل تقدمية في الجزائر – كنا أشرنا اليها – حاولت ان تقضي على النظام التركي وعلى ما جره من سيطرة اجنبية على الاقتصاد الجزائري . والغريب في الامر ، هو ان كلا من المحاولات الاجنبية وردود الفعل ضدها ادت عملياً الى نتيجة واحدة خدمت التسرب الاجنبي ، وهي اضعاف الدولة من الداخل والقضاء على هيبتها .

وجاء الحصار الفرنسي في ١٨٢٧ ، فوجه تجارة قسنطينة نحو تونس ، وتجارة تلمسان نحو المغرب ، فعمل على مضاعفة تفكيك التجارة الجزائرية ، ممـــا عزز التفكيك الاداري للبلاد .

الامكانيات الزراعية :

كانت احسن الاراضي واكثرها انتاجاً هي البساتين والاحواش المحيطة بالمدن . وقد سجل الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر درجة خصب تلـــك الاراضي ، فكتب احد ضباطهم يقول مبديا اندهاشه الكبير :

« ان هذه الارض التي قيل لنا انها متوحشة وخاليـــة من السكان ، مغطاة بالمساكن الريفية الجميلة ، تحيط بها البساتين ، وكلها مبنية فوق مرتفعات تتناقض حركاتها المتموجة مع شواطىء بروفنس القاحلة (في فرنسا) .

ان البقول موجودة بكثرة ، وفي كل مكان توجد المياه والينابيع التي تخصب الارض والفواكه موجودة بكثرة » .

وامثال هذه الشهادات كثيرة لا يمكن احصاؤها ، وهي لا تتناول ضواحي الجزائر فقط ، بل تتحدث ايضاً عن المدينة وشرشال وتنس وجيجل وميلة وملیانة وندرومـة وحامة قسنطينة وتلمسان .

وتبدو اهمية النشاط التجاري المحلي في الاسواق الجهوية التي تنعقد في ايام معينة من الاسبوع ، بحيث يتمكن كل سكان الناحية من الوفود على السوق والاتجار فيه .

والى جانب هذه الاسواق الجهوية كانت هناك اسواق المدن التي تنظم عند مدخـل المدن الكبرى ، ويمكن القول بانه كان هناك نوع من الاتصال بين اسواق المدن والاسواق الريفية ، اما مباشرة عن طريق مقدم سكان الريف بانفسهم الى المدينة ، واما بواسطة الوسطاء من التجار الذين ينتقلون بين الاسواق المحلية ليشتروا منتوجات زراعية وغيرها ويبيعوها في اسواق المدن – لكن عدم وجود شبكات مواصلات هامة حال دون تطور العلاقات بين هذه الاسواق الى اقامة وحدات ومراكز تجارية كبرى ومتطورة . فقـد

كانت الطرق الموجودة تقتصر على الربط بين اهم المراكز مثلاً بين الجزائر وتلمسان عبر بوفاريك والبليدة وملیانة ووهران ، وبين الجزائر وقسنطينة . ولكن بالرغم من انعدام شبكات مواصلات هامة يمكن القول بان مجموع مناطق الجزائر كانت تشكل في ١٨٣٠ سوقاً مشتركة .

* * *

اما المبادلات التجارية مع الخارج فقد كانت موجودة مع تونس ومع المغرب ، ومع بعض الشواطىء الاروبية مثل اسبانيا على الرغم من الحصار الفرنسي . وتؤكد « لوحة المراكز الفرنسية » ان ميناء ارزيو كان يصدر سنويا بين ١٥٠ و ٣٠٠ حمولة من الحبوب ، وان نفس الميناء صدر في ١٨١٤ اربعين الف رأس من البقر وجهت الى الجيش الانكليزي في اسبانيا .

* * *

وفيما يتعلق بالصناعات اليدوية تؤكد الشهادات الاجنبية ان الجزائر في ذلك العهد كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها اروبا مثل الدباغة ،وصناعة الاحذية ، والنسيج قطنا كان او حريراً ، ونجارة وحدادة وصناعة سلاح وصياغة . فصانعو الجلود كانوا ينتجون بالاضافة الى الجلود المعدة للتصدير ، لوازم فرسان المخزن ، والاحذية . كما كان صناع النسيج ينتجون الحياك والزرابي والبرانس والقنادر . وبالرغم من ان هذه الصناعات لم تكن مزدهرة تماماً للاسباب السالفة الذكر فانها كانت تقدر بالقسنطينة فقط بعدة مليارات .

وتدل المباني والمنازل الجميلةالتي كانت قائمة بالجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي على ازدهار صناعات الخشب والزجاج وفنون البناء وصناعة الآجر . ويؤكد روزي ان صناعة الخزف كانت تستعمل في الجزائر نفس الاسلوب المستعمل في فرنسا . وتدل اساليب وقنوات الري التي كانت كلها تحت الارض على ان الجزائر حافظت على مستوى التقدم الذي احرزت عليه ابان ازدهار الحضارة الاسلامية .

ولا ينبغي ان ننسى الصناعات المرتبطة بالمواد الغذائية مثلا الطواحين التي تسير

بالهواء او بالماء ، ومثل معاصر الزيت الخ ... فاذا اضفنا الى ذلك حظائر الموانىء التي كانت تصنع فيها السفن ، مثل العاصمة وشرشال وجيجل ، ادركنا ان الفارق بين الجزائر وبين بعض البلاد الاروبية مثل ايطاليا والنمسا لم يكن حينذاك كبيراً .

* * *

وخلافاً لما يزعمه بعض المؤرخين المغرضين الذين يذهبون الى الزعم بان التدهور الاجتماعي والاقتصادي بلغ درجة قضت على وجود المدن ، فان الجزائر في العهد التركي كانت تشتمل على عدة مدن هامة .

فبالاضافة الى الجزائر وقسنطينة وتلمسان : كانت هناك معسكر ومليانة والمدية والبليدة ووهران ومسيلة وزمورة وميلة وبوسعادة وتبسة وبسكرة ومازونة والقلعة ، والبرج وندرومة وبجاية وعنابة وشرشال والقل وتنس ومستغانم الخ ...

ولئن كان من خصائص المدن الكبرى هو أن تجمع سكاناً من جهات متنوعة ، فان سكان المدن الجزائرية على الرغم من رابطة المدينة ، كانوا في العهد التركي ينقسمون الى طوائف معينة حسب الاصول والجهات التي ينتمون اليها . فهناك الاتراك الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة التي تسند اليها اهم المسؤوليات وتقتطع أحسن الأحواش ، وهناك أهل المخزن من القبائل الحليفة الذين يملكون أراضي خصبة ، وقد يحترفون تجارات مربحة . وهناك القادمون من وادي ميزاب الذين كانوا يشتغلون جزارين كما كانوا يشتغلون بتسيير الحمامات والطواحين . وهناك القادمون من بسكرة الذين كانوا يحترفون الحمالة ونقل الماء . وهناك السود المتحررون الذين كانوا يحترفون الموسيقى وفنون البناء . وهناك القادمون من الجبال القاحلة الذين كانوا يشتغلون عمالاً بالاجرة الخ ...

وقد كانت المدن الكبيرة محور نشاط كبير وحياة اجتماعية هامة ؛ ففي مدينة الجزائر كانت توجد عدة مطاعم وفنادق ومقاهي الخ ... وكانت تزدهر فيها خاصة صناعة المصوغ. وفي قسنطينة وجد الفرنسيون عند دخولهم ثلاثاً وثلاثين معملاً للدباغة ، وخمساً وسبعين لصناعة السروج . ومائة وسبعة وستين معملاً للاحذية .

وفي تلمسان وجدوا أكثر من خمسمائة معمل للنسيج . ان كل هذا يدل على ازدهار المدن ويسجل درجة نشاطها ، مع ملاحظة ان الوضع الاقتصادي الجزائري كان يجتاز في تلك الفترة أزمة عنيفة . وقد لوحظ ان معظم الفرنسيين الذين دخلوا الى الجزائر مع الاحتلال لم يجدوا كبير فرق بين طرقات مدن الجزائر وهندستها العامة وبين ما تعودوا عليه في فرنسا .

وما دمنا بصدد الحديث عن المدن ، لا بد من رفع التباس ، كثيراً ما اغتنمه المؤرخون المغرضون للدس على الاسلام . فالحياة والرفاهية في المدن لم تكن تختلف باختلاف الدين أو الوضع الاجتماعي ، أي انه لم يكن هنا تمييز ديني أو عرقي . فروزي يسجل مثلاً ان عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعيشون عيشة بورجوازية مترفة . وقد رأينا في الفصول السابقة كيف ان اليهود توصلوا الى احتكار المضاربات التجارية والأسواق الخارجية . أما القذارة التي اشتهرت بها الاحياء التي يقطن بها اليهود في مدينة الجزائر وقسنطينة فلم تكن أمراً فرضه عليهم الحكم ، ولكنه نتيجة لتكدس عدة عائلات في بيت واحد ، وهذا التكدس بدوره كان نتيجة لتهرب اليهود من دفع الضرائب فهم كانوا يفضلون أن يظهروا في ذلك المظهر حتى لا يتهموا بالثروة ولا تفرض عليهم ضرائب تتناسب مع ثروتهم . فاليهود كانوا أحراراً في اتخاذ مساكن فخمة ونظيفة ، كما تدل على ذلك احصائية فرنسية رسمية أكدت أن مدينة ندرومة كانت تشتمل على سبعين داراً يملكها ٣٤٠ يهودياً ، في حين أن ألفين ومائتين من الجزائريين لم يكونوا يملكون في نفس المدينة سوى ١٩٣ منزلاً .

* * *

أما سكان الريف فقد كانوا يمثلون في العهد التركي حوالي تسعين في المائة من السكان . وكانت مواردهم المعاشية تختلف . فسكان الجبال كانوا يعيشون من زراعة قطع صغيرة من الأرض يستثمرونها إلى أقصى حدود الاستثمار ، أو يعيشون من صناعة الفضة مثل بني يني في القبائل ، أو من صناعة البارود مثل بني سنوس بالقرب من تلمسان ، أو من صناعة الخزف أو السلاح أو الزيت أو الصابون أو صبغ الزرابي الخ ...

أما سكان السهول فقد كانوا يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي سواء في نطاق استثمار الأراضي العروشية ، أو باكتراء المراعي . وكثيراً مـــا يكون سكان السهول خاضعين لسلطة شيخ القبيلة الذي يدفعون له ضريبة معينة . وينقسم هـذا الصنف من السكان ، حسب وضعهم الاقتصادي الى قسمين . أغنياء يعيشون تحت الخيام الفخمة أو في المنازل الكبيرة ، وفلاحون فقراء يعيشون داخل أكواخ ولا يكادون يستخرجون من عملهم ما يسد تكاليف الملبس والمأكل .

الحياة الثقافية .

كانت الحياة الثقافية التي تتميز بالطابع الاسلامي ، هي التي تربط ربطاً متيناً محكماً بين مختلف اصناف السكان ، وكانت تعمل عملها في صهر السكان حتى يشعروا بانتمائهم لبلد واحد وامة واحدة . وعندما تتحدث عن الطابع الاسلامي للثقافة ، فليس المقصود هو المحتوى الديني لهذه الثقافة فقط ، ولكن المقصـود ايضاً هو المحتوى الحضاري بما فيه من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية. وقد شهد عدة فرنسيين شاهدوا الجزائر في فترة الاحتلال ، بأن الامية كانت منعدمة تقريباً في الجزائر ، وان « سكان الجزائر قد يكونون اكثر ثقافة من سكان فرنسا ، فكل الناس تقريباً يعرفون القراءة والحساب » كما يقول روزي . وقد اكد هذه الفكرة « والسان ايسر هازي» الذي يرى أن نسبة الامية في الجزائر كانت في ١٨٣٠ أقل منها في فرنسا .

ولعل هذه الشهادة تعتمد على ما شاهده صاحبهـا في العاصمة وضواحيها فقط أما في الريف فيصعب التسليم بأن التعليم كان منتشراً بنفس هذه النسبة . نعم إنه من الثابت أن المدارس كانت منتشرة في المـــدن مثل الجزائر وتلمسان والمدية وقسنطينـــة الخ . . . وهي مدارس كانت تعيش من موارد الأوقاف . وهذا عدا الزوايا التي تشرف على تسييرها الطرق الصوفية ، والتي كانت تضمن للطلبة نظامـاً داخلياً يعفيهم من تكاليف ونفقات المأوى والملبس . وقد لعبت الزوايا دوراً اساسياً في نشر الثقافة في الأرياف ، فأوجدت بذلك نوعاً من التوازن بين الريف والمدينة ، وحالت دون ان تتطور الثقافة في المدن خاصة دون الريف. لكن ذلك لا يمنع أن يكون التعليم في الأرياف أقل نسبة منه في المدن.

ومهما يكن من شيء فقد أدى نظام الأوقاف الى إيجاد نوع من الوحدة الثقافية، لأنه كان المورد الأساسي للمدارس القرآنية والمعاهد والمساجد والمحاكم .

ولئن كان الطابع الاسلامي هو المميز للحياة الثقافية والاجتماعية ، فان روح التسامح التي اشتهر بها الاسلام هي التي كانت سائدة : فقد كانت كل مجموعة دينية — مثل اليهود — حرة في التحاكم الى قضاتها الخاصين حسب قوانينها الخاصة — وقد كان اليهود إلى ذلك أحراراً في إقامة مدارسهم الخاصة التي يتعلمون فيها العبرية وتعاليم التوراة — وكان المسيحيون بالرغم من أنهم كانوا قلة ، وكانوا أجانب ، يملكون كنائس يمارسون بها عباداتهم .

وإذا لاحظنا ان الأتراك لم يكونوا يعنون بالثقافة ، عنايتهم بالحرب ، أدركنا ان هذا الرقي وهذا الازدهار الثقافي ، حققه الجزائريون بأنفسهم ، مدفوعين لذلك بدافع شعوري منبثق من أعماق الشعب ، كما عرفنا السبب الذي جعل هذه الثقافة تظل سطحية في أغلب الأحيان رغم انتشارها .

***

وهكذا نجد أن الجزائر كانت في ١٨٣٠ ، تشكل مجموعة ترابية واحدة صهرتها قرون عديدة من تطور مشترك ، ونجد ان كل المظاهر من اقتصاد وثقافة وتنظيم اجتماعي جعلت من الجزائر وحدة قائمة الذات . ويتبين من التحليل السابق ان الجزائر لها امكانيات زراعية هامة ، رغم عوامل التدهور الاجتماعي التي اثرت على الوضع الاقتصادي ، كما يتبين ان الحكم التركي لم يعرف كيف يستغل تلك الامكانيات استغلالاً مفيداً بالنسبة لمجموع الشعب ومستقبل البلاد .

***

وهذا هو السبب في أن تطور الذي تم في الجزائر كان تطوراً غير منسجم : فهو يتميز من جهة باتجاهات وحركات منبثقة عن الشعب ، كان هدفها ومآلها هو تحقيق الوحدة الوطنية في أقوى وأجلى مظاهرها . ولئن دعم الأتراك هذا الاتجاه نحو تحقيق الوحدة الوطنية بإقامة نظام سياسي يشمل صورياً كل أنحاء الجزائر ، فإنهم من جهة

اخرى ، قد دفعوا – لعوامل شرحناها سابقاً – السكان الجزائريين إلى توجيه حركاتهم التقدمية التي كان مآلها هو تحقيق الوحدة الوطنية على أسس شعبية ، ضد النظام السياسي الذي أقامه الأتراك . أي انه حدث نوع من التدافع بين اتجاهين في داخل الجزائر ، كان منطقهما في الواقع واحداً ، لكن الملابسات الخارجية وأخطاء الحكم التركي جعلت هذين الاتجاهين يتصارعان ، وكانت نتيجة هذا التصارع هي تسهيل مهمة الاحتلال . فلا ينبغي أن ننسى أن أبرز العوامل المعنوية التي شجعت الفرنسيين على تنظيم حملة الاحتلال هي الشهادات المختلفة التي كان يوجهها القناصل والجواسيس الفرنسيون بالجزائر، عن بغض السكان للحكم التركي .

ولو ان الاحتلال الفرنسي لم يتم في الوقت الذي تم فيه ، لأمكن أن يتحقق الذي المحنا اليه في مكان آخر من هذا الكتاب ، والذي كان مآله هو اندماج الأتراك في الجزائر وذوبانهم فيها ، وآنذاك كان مآل الصراع بين الاتجاهين الشعبي والحكومي هو التحالف .

ولو ان القوة العسكرية التركية التي كانت مسؤولة في الدفاع عن البلاد ، كانت من القوة والمناعة ، ولو ان سياسة الداي كانت من التيقظ والدهاء، بحيث ترد محاولة الاحتلال الفرنسي على الاعقاب ، لكان في الإمكان أن يتحقق ذلك التلاقي بين الاتجاهين ، وأن يتم ذلك الاندماج تحت ضغط التهديد الاجنبي .

لكن الظروف الموضوعية التي أحاطت بتكوين القوة العسكرية التركية وتطورها ، جعلت هذه القوة عاجزة عن أداء هذا الدور خاصة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

فما هي تلك الظروف الموضوعية ؟

انهيار الاسطول الجزائري :

من بين العوامل التي كانت حاسمة في دفع الجزائريين إلى الاستنجاد بالأتراك ضد الاسبان ، هي امتلاك الأتراك لقوة بحرية واسطول هام . فالممالك المتفرقة التي كانت قائمة بالجزائر ، قبيل ظهور عروج وخير الدين ، بالاضافة إلى تشتتها وتنافرها وتطاحنها.

لم تكن تملك قوة بحرية هامة ، في حين ان طبيعة المعركة التي طبعت ذلك العصر تجعل من القوة البحرية القوة العسكرية الأساسية للصمود في وجه الغزوات المسيحية ضد شواطىء المغرب العربي ، ولرد عدوان القراصنة الأوربيين .

فليس من المبالغـــة في شيء القول بأن امتلاك اسطول بحري قوي هو الذي مكن الأتراك من الاستقرار في الجزائر .

وقد أدت الانتصارات المختلفة التي أحرزها الأتراك في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بالنظام التركي في الجزائر ، إلى الاعتماد الكلي على القوة البحرية ، واهمال جانب القوات البرية . وليس يهمنا الآن تحليل العوامل التي أدت بالأتراك إلى إهمال تكوين جيش بري قوي ، لأن ذلك يشكل جزءاً من سياستهم القائمة على الاعتماد على الأحلاف داخل البلاد ، وعلى القوات الأضافية التي يجندونها من بين القبائل الموالية لهم – لكن الذي يهمنـــا هو تسجيل ملاحظة موضوعية واضحة وهي : الاعتماد أساساً على قوة الأسطول البحري في الدفاع عن الجزائر ضد الاعتداءات ومحاولات الغزو الاجنبية .

فماذا كانت وضعية الأسطول الجزائري عند مقدم قوات الاحتلال الفرنسية ؟

لقد رأينا في فصل سابق كيف ان الانكليز تمكنوا بواسطة خديعة تتنافى مع التقاليد العسكرية المعمول بهـــا في ذلك الحين ، من تحطيم جزء من الاسطول الجزائري في صيف ١٨١٦ م .

بعد هذه الخسارة التي لحقت الاسطول الجزائري ، وجه السلطان العثماني محمود الثاني ، في سنة ١٨٢٠ إلى الجزائر يطلب منها ارسال وحداتها البحرية لتعزيز القوات العثمانية ضد الثوار اليونان وحلفائهم الأوربيين ، فتوجهت من الجزائر ، في أواخر ١٨٢١ عدة بواخر تحمل على متنها أربعة آلاف جندي .

وبعد ذلك بسنوات قليلة في ١٨٢٧ وجهت الجزائر ، بناء على طلب القسطنطينيـــة وحدات اسطولها لتعزيز الاسطول العثماني ضد الجبهة المسيحيـــة المكونة من الانكليز والروس والفرنسيين وقد نشبت معركة بحرية هامة في نافارين أسفرت عن تحطيم معظم وحدات الاسطول التركي ، فلم ينجح إلا نحو الثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية ،

كما قتل من الجنود الأتراك في هذه المعركة نحو الستة آلاف .

* * *

هذه جملة من العوامل المباشرة التي اضعفت الاسطول الجزائري .

على أن هذه العوامل وحدها غير كافية في تفسير ذلك الانهيار الذي لحق الاسطول الجزائري ، إذا لم نضف اليه عاملاً آخر لا يقل عن العوامل الأخرى أهمية . وفيما يلي تفصيل هذا العامل :

في عام ١٧٩٩ منع الداي مصطفى باشا الى كل من عائلتي بوخريص وبوشناق حق احتكار تجارة الخشب واستثمار الغابات ، التي كانت أخشابها تستعمل في بناء السفن أو البواخر .

وبذلك أصبحت تجارة الخشب في كامل المساحة الممتدة من بجاية إلى القل ، وقفاً على احتكار بوشناق وبوخريص .

وقد كان أعوان بوشناق وبوخريص يتلقون من البحرية الجزائرية أثماناً على الخشب الذي يبيعونه لها ، مضبوطة على أساس التسعيرة التي أقرها الداي حاج مصطفى في عام ١٧٠٢ التي كان العمل بها ما يزال قائماً في ذلك الوقت ، مضافاً اليها نسبة عشرين في المائة تدفع لاحتكار بوشناق وبوخريص لقاء خدمات شركتهما .

لكن بوخريص وبوشناق لم يكتفيا بهذه النسبة من الربح ، وأرادا ان يحققا أرباحاً أضخم وأهم ، ففرضوا أثماناً لشراء الخشب من المحتطبين في الغابات أقل من الثمن الذي تعود المحتطبون المذكورون على البيع به . فسخطت القبائل التي كانت تبيع الأخشاب ، ومنعت أعوان بوخريص وبوشناق من حمل الاخشاب بذلك الثمن . فظلت كميات هامة من الأخشاب مكدسة فوق الشواطىء ، دون ان تأخذ طريقها الى حظائر صناعة السفن .

فأحدث ذلك فجوة في صناعة السفن الجزائرية ، ولذلك لم يكن في الامكان

تعويض البواخر الحربية التي توجهت الى بحر اليونان في عام ١٨٢١ وفي عام ١٨٢٦ .

***

إذن فالقوة العسكرية الوحيدة التي كان يعتمد عليها الأتراك في رد الاعتداءات الأجنبية قد لحقها الضعف للاسباب المذكورة .

ولو ان النظام التركي عمل على تلافي هذا الضعف بوسيلة أو باخرى لأمكن دفع قوات الاحتلال ، أو على الأقل الحيلولة دون اتخاذه شكل الاستعمار المباشر وطابع الحرب الابادية . لكن النظام التركي ، كان قد اصيب منذ بداية انتصابه في الجزائر ، بمركب هو مركب الغرور . فقد تولد مركب الغرور عند الأتراك منذ فشل هجوم شارلكان على الجزائر ، وتعزز بعد فشل الهجوم الاسباني في عهد شارل الثالث ، أي بعد الهجوم الأول بأكثر من قرنين .

وفعلاً فقد ظل الهجوم الاسباني في المرتين الاولى والثانية رادعاً مدة طويلة للدول الاروبية عن التفكير في تنظيم حملة مماثلة .

لكن الفرنسيين كانوا استخلصوا العبرة من ذلك الفشل ، وبنوا خطتهم بالضبط على اساس مركب غرور النظام التركي ، وهذا في الوقت الذي استنام فيه النظام التركي تحت تأثير مركب الغرور . فلم يتفطن الى الخطط التي كانت تحاكي لتنظيم حملة الاحتلال انطلاقاً من سيدي فرج . وقد كان الحديث عن سيدي فرج بوصفه أحسن نقطة لانزال القوات التي تريد الاعتداء على الجزائر ، رائجاً وسط الاندية القنصلية ، وليس هناك من شك في ان الموظفين الجزائريين بالقناصل الاروبية ، نقلوا الى دوائر الحكم التركي بعض ما كان يجري . لكن الأتراك لم يحاولوا ان يحتاطوا للحملة ، متوهمين ان مآلها الفشل مثل الحملة الاسبانية في عهد شارل الثالث ، ناسين ان فشل تلك الحملة يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى الاستعداد المحكم والى التعبئة العامة التي أعلنها محمد عثمان باشا باستقدامه الجنود والقوات الاحتياطية والقوات الشعبية من كامل جهات البلاد .

***

وهكذا تلاقت مجموعة من العوامل المادية والمعنوية على اضعاف الأسطول الجزائري ،

الذي ظل زمناً طويلا هو الدرع القوي الذي تحصنت به الجزائر ضد القوات الاروبية .

استسلام الداي :

اعدت فرنسا للهجوم على الجزائر حملة ضخمة تشتمل على سبعمائة باخرة وباخرة مابين حربية وتجارية ، على متنها ثلاثة وثلاثون الف ومائة وتسعة عشر جندياً .

وكانت البواخر تحمل معها من المؤونة ما يكفي لتموين الجيش مدة شهرين وقد رخصت الحكومة الاسبانية للفرنسيين في شراء المواد التي يحتاجونها من اسبانيا كما رخصت لهم في كراء المحلات بل وحتى في اقامة المستشفيات . وبذلك ضمن الفرنسيون قاعدة خلفية هامة . اما باقي الدول الاروبية فقد كانت تؤيد الحملة الفرنسية باستثناء انكلترا التي استمرت على معارضتها ، لانها كانت تخشى من ان تعمل فرنسا ، بعد احتلالها للجزائر ، على عرقلة المواصلات بين القاعدتين البريطانيتين في مالطا وفي جبل طارق .

دنت البواخر الفرنسية بشاطىء سيدي فرج في مساء الثالث عشر من جوان ١٨٣٠ ، بعد ان كانت تظاهرت بالاتجاه الى الناحية الشرقية . وكان الداي قد اتصل بمعلومات تفيد بان اختيار الفرنسيين وقع على سيدي فرج للنزول فيه وتنظيم المعركة انطلاقاً منه . وبناء على هذه المعلومات ، ركز الداي قواته على الشاطىء الغربي ، واستعد لقطع الطريق على الفرنسيين .

إلا ان تظاهر الفرنسيين في صباح الثالث عشر من جوان بالتوجه الى الشواطىء الشرقية ، صوب مصب نهر الحراش ، أوهم الداي ان الفرنسيين لا ينوون النزول في سيدي فرج ، وان اختيارهم الفعلي وقع على مصب نهر الحراش ، أي نفس الميدان الذي اختاره الاسبان قبل ذلك لمهاجمة مدينة الجزائر .

وبناء على هذا الوهم الخاطىء ، نقل الداي القسم الأكبر من قواته التي كانت معسكرة في الشواطىء الغربية ، الى الناحية الشرقية ، واستعد لملاقاة الفرنسيين حيث لم ينزلوا . ذلك هو الخطأ الذي مكن الفرنسيين من الاقتراب من ميناء سيدي فرج ، في مساء اليوم نفسه ، دون ان يلقوا مقاومة .

بدأت القوات الفرنسية في النزول الى البر مع الساعات الاولى ليوم ١٤ جوان . وما كاد ينتصف النهار حتى نزلت معظم القوات الفرنسية واصبحت تسيطر على المكان .

وكان الداي قد عهد الى صهره ابراهيم بقيادة المعركة ضد الفرنسيين . فجمع ابراهيم قواته فوق كدية سطاويلي ، في الوقت الذي تحصنت فيه القيادة الفرنسية بشبه جزيرة سيدي فرج ، في انتظار انزال مؤونة وعتاد الجيش الفرنسي . وبدأت مناوشات استمرت الى مساء الثامن عشر من جوان .

وفي صباح يوم ١٩ جوان هجم الآغا ابراهيم بقواته على الفرنسيين وحاول الاحاطة بالميسرة الفرنسية لعزلها عن شبه الجزيرة وقطعها على القوات الاحتياطية .

وكانت مناورة ماهرة من ابراهيم آغا ، لان النجاح الايسر الفرنسي بينه وبين البحر فجوة طولها نحو الخمسمائة متر . وكادت تنجح مناورة الآغا ابراهيم ، اذ تمكن من بث الهلع في صفوف الميسرة الفرنسية ، لكن القوات الاحتياطية الفرنسية بادرت بنجدة الميسرة ، وتمكنت بعد جهد جهيد من دفع هجوم الآغا ابراهيم ، واحتلت الكدية التي كان يحتلها الآغا . وفي نفس الوقت أنشب باي قسنطينة المعركة ضد الميمنة الفرنسية ، كما واجه باي وهران الوسط .

لكن الفرنسيين كانوا قد احكموا خطتهم الحربية من زمان ، ودرسوها على مهل فلم يكن هناك ظل للتردد في تطبيقها ، مما أعطاهم تفوقاً غير منازع فيه على قيادة الآغا ابراهيم .

عزل الداي صهره عن القيادة بعد أن خسر موقعه فوق كدية سطاويلي ، وعين مكانه باي تيطري ، مصطفى بومزراق ، الذي جمع فلول الجزائريين ، وحاول أن ينظم الدفاع عن حصن الامبراطور . وشرع يهاجم المواقع الفرنسية في ٢٤ جوان . وكانت معركة رهيبة تكبد فيها الفرنسيون خسائر بالغة ، لان الجزائريين كانوا يحتلون الأعالي من بداية الميدان الى بوزريعة ، واستمرت المعارك على طول الخط الذي يفصل بين سيدي خلف الى دالي ابراهيم .

لكن حدث في ٢٨ جوان ، ان تمكن الفرنسيون من انزال المدفعية الضخمة والعتاد الحربي الثقيل الذي تأخر في النزول الى حين يضمن الفرنسيون استقرارهم في سيدي فرج. وآنذاك قرر الفرنسيون توجيه هجوم عام يكون هدفه هو الاستيلاء على حصن الامبراطور .

وتمكن الفرنسيون من وضع مدفعيتهم الثقيلة تجاه الحصن في اليوم الرابع من شهر جويلية . وأظهرت الحامية المكلفة بالدفاع عن الحصن، بقيادة الخزناجي استبسالاً شديداً في الدفاع عن الحصن . وعندما رأى الخزناجي انه لا قبل له بالصمود أمام الفرنسيين أمر باضرام النار في الذخيرة الحربية ، ومع ذلك فقد صمدت جدران الحصن ، ولم يتهدم الا البرج .

بعد استيلاء الفرنسيين على الحصن أصبحت مدينة الجزائر واقعة تحت تهديد المدافع الفرنسية .

وأدرك الداي انه لم يعد في امكان مدينة الجزائر ان تصمد ، فوجه مصطفى خوجة للتفاوض مع الفرنسيين .

وكان اول شرط اشترطه الفرنسيون هو تسليم حصن القصبة وما يشتمل عليه من كنوز .

وتم اتفاق الجانبين على :

١ – تسليم حصن القصبة وكل الحصون الاخرى التابعة لمدينة الجزائر الى الفرق الفرنسية في منتصف نهار يوم ٥ جويلية .

٢ – يتعهد القائد الاعلى للجيش الفرنسي بضمان حرية داي الجزائر وعدم المس بثرواته الشخصية .

٣ – الداي حر في أن ينسحب مع عائلته وثرواته الى المكان الذي يختاره .

٤ – تضمن القيادة الفرنسية لأفراد الجيش التركي نفس الضمانات والحمايات .

٥ – حرية ممارسة الديانة الاسلامية، وحرية كل السكان من كل الطبقات بحيث لا يقع النيل من معتقداتهم أو أملاكهم .

***

هكذا انتهت قصة الجزائر في العهد التركي .

وابتدأت فور هذه النهاية قصة اخرى .

قصة طويلة ، كان بطلها باستمرار هو الشعب ..

فإلى اللقاء ، ان شاء الله ، على صفحات القصة القادمة .. »

الجزائر في ٥ ماي ١٩٦٤

المراجع

غزوات عروج وخير الدين

محمد عثمان باشا — تأليف : **أحمد توفيق المدني**

المغرب في ذكر افريقيا والمغرب — تأليف : **البكري**

Barberrousse	par	**Akram Rachid**
Histoire generale de l'Algerie	par	**Henri Garrot**
Histoire d'Alger sous la domination turque	par	**H. D. de Grammont**
la berberie musulmane et l'orient au moyen age	par	**Georges Marçais**
la politique française et le Maghreb mediterranéen	par	**R. Capot-Rey**
Histoire de l'Afrique du nord	par	**Ch. Andre Julien**
France et Afrique du nord avant 1830	par	**F. Charles-Rouse**
Relation des preparatifs faits pour surprendre Alger	par	**Jerinimo Conestaggio**
le Royame d'Alger sous le dernier Bey	par	**L. Rinn**
Les Portugais et l'Afrique du nord sous le règne de Jean III	par	**Robert Ricard**
Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1541	par	**René Basset**
L'expedition d'Alger	par	**Augustin Bernard**
la Domination Espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcandete 1534 — 1558	par	**Paul Ruff**
Histoire d'un parjure	par	**Michel Habart**
l'Algerie Passé et Present	par	**Yves Lacoste, André Norchi et André Renant**
Les civilisations de l'Afrique du Nord	par	**Victor Piquet**

فهرست الجزء الثالث

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

الباب الاول

الاسبان في الجزائر

طبيعة الاعتداءات الاسبانية على شواطىء المغرب العربي ١٩
طبيعة الاحتلال الاسباني لوهران ٢٧
عروج وخير الدين . ٣١
الاتصال بمأساة الاندلس ٣٤

الباب الثاني

الاتراك في الجزائر

مدينة الجزائر ٤١
فشل اول هجوم اسباني على مدينة الجزائر . ٤٥
التوجه لتلمسان ٤٧
مقتل عروج ٤٩
ستراتيجية خير الدين ٥١
سقوط برج الفنار ٥٦
المسيرة الى تونس ٥٨
تدخل شارلكان في تونس . ٥٩

الباب الثالث

حكم الباي لارباي

حكم الباي لارباي — هجوم شارلكان على الجزائر . ٦٣
حسن بن خير الدين ٧٣
فشل الهجوم الاسباني على مستغانم ٧٤
الديبلوماسية العثمانية والفرنسية الجديدة . ٧٦
صالح رايس ٨٠
الحملة على المغرب . ٨٣
طرد الاسبان من بجاية . ٨٤

الباب الرابع

الجزائر في عهد الباي لارباي

بدء المعركة بين طائفة الرياس وفرقة اليولداش . ٨٩
عودة ابن خير الدين ٩١
انتصار بني عباس على الاتراك ٩٤
فشل الحملة المسيحية ضد الجزائر ٩٦
التمرد على حسن باشا ٩٧
محمد بن صالح رايس . ١٠٠
محاولة دمج طائفة الرياس مع اليولداش ١٠٢
ثورة قسنطينة وتعيين قلج علي . ١٠٢
بدء المطامع الفرنسية في الجزائر ١٠٦
انتهاء عهد الباي لارباي . ١١٢

الباب الخامس

توحيد الجزائر

الوضع في مدينة الجزائر . ١٢١
فرقة اليولداش . ١٢٣
طائفة الرياس ١٢٥
موارد الدولة ١٢٨
بدء التسرب الفرنسي . ١٢٩

الباب السادس

عهد الباشوات الثلاثين

طريق الباشوية . ١٣٧
الحروب مع اوروبا . ١٣٩
تأسيس سور الغزلان ١٤٠
المعركة ضد اليولداش ١٤١
حملة صليبية كبرى ضد الجزائر. ١٤٢
الجزائر ضد القسطنطينية . ١٤٩

الباب السابع

العصر الذهبي للبحرية الجزائرية

تناقضات في تنظيم الدولة ١٥٩
الفرنسيون ينقضون الصلح مع الجزائر ١٦١
ثورة ١٦٣٣ ١٦٤
منعرج حاسم في تاريخ البحرية الجزائرية ١٦٥
ثورة الشرق الجزائري ١٦٦
موت علي بتشيني ١٦٧

الباب الثامن

حكم الاغوات

اضطرابات وصراع من اجل الحكم ١٧١
مغزى الانقلاب ١٧٢
طابع السياسة الخارجية ١٧٣
محاولة لاحتلال القل وفشلها ١٧٤
الفرنسيون يتحطمون في جيجل ١٧٥
اتفاقية عام ١٦٦٦ ١٧٦
الحرب مع الانكليز ١٧٧
انقلاب جديد ١٧٧

الباب التاسع

نظام الدايات

طبيعة التحول الجديد ١٨١
فشل حملة دوكين ١٨٦
ابرام السلم بين الجزائر وفرنسا ١٨٩
استئناف الحرب مع فرنسا ١٩٢
طبيعة السياسة الفرنسية ازاء الجزائر ١٩٤
احداث تونس والمغرب ١٩٤
عوامل استمرار الحضور الاسبان ٢٠١
استرجاع وهران ومرسى الكبير ٢٠٤

الباب العاشر

تأكد اتجاه الاستقلال عن القسطنطينية

محمد بن حسن ٢١١
كرد عبدي ٢١٢
الاسبان يعودون الى احتلال وهران ومرسى الكبير ٢١٤
العوامل التي حالت دون تطور نظام الدايات ٢١٥
ثورة الكراغلة ٢٢١
سياسة محمد بكير باشا ٢٢٢
علي ملمولي ٢٢٥

الباب الحادي عشر

ولاية محمد عثمان باشا

العلاقات مع البلاد الاوربية ٢٣٠
حرب الدانمارك ٢٣٠
اسبانيا تشن حملات متوالية على العاصمة ٢٣١
اضطرابات داخلية وعواملها ٢٣٧
الجلاء النهائي للاسبان عن وهران ومرسى الكبير ٢٣٨
مقتل صالح باي ٢٤٠

الباب الثاني عشر

ثورة وطنية

سيطرة بوشناق وبوخريص على التجارة الجزائرية ٢٤٧
القسطنطينية تلـــح في اعلان الحرب على فرنسا ٢٥٠
مقتل بوشنـــاق وبوخريص ٢٥١
تسليم المركز التجاري الى الانكليز ٢٥١
استمرار الاضطرابات الداخلية ٢٥٧
ضعف الاسطول الجزائري ٢٦٠
مؤتمر فيينا وخطة الانكليز ٢٦٢
التحول الى القصبة ٢٦٤
مؤتمر ايكس لا شابيل ٢٦٧

الباب الثالث عشر

تاريخ محاولات الاحتلال الفرنسي

قصة ديون بوشناق وباكري ٢٧١
حادث المروحة ٢٧١
انذار فرنسي غريب ٢٧٣
مناعة ميناء الجزائر ٢٧٥
البحث عن طريق الاحتلال ٢٧٩
تعليمات نابليون ٢٨١
الحروب الصليبية ٢٨٣
التفكير في استعمال محمد علي ٢٨٧

الباب الرابع عشر

الادارة الجزائرية في العهد التركي

اعضاء الديوان	٢٩١	بايلك تيطري	٢٩٥
خزينة الدولة	٢٩١	بايلك الغرب	٢٩٧
تصنيف السكان	٢٩٢	بايلك قسنطينة	٢٩٨
التقسيم الاداري	٢٩٥	طبيعة النظام الاداري التركي	٣٠٠

الباب الخامس عشر

سقوط النظام التركي

التطور الاقتصادي في عهد الدايات	٣٠٧	الحياة الثقافية	٣١٧
الامكانيات الزراعية	٣١٣	عوامل انهيار الاسطول الجزائري	٣١٩
الوضع الاجتماعي	٣١٣	استسلام الداي	٣٢٣

تم طبع هذا الكتاب سنة ١٩٦٤
على مطابع ا. بدران وشركاه . بيروت – لبنان